جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

روضة الأزهار

ومنية السادات الأبرار

في جمع البعض من مناقب صاحب الطار

النص الكامل ما عدا رسائل الشيخ الأسمر لمريديه

كريم الدين البرموني
توفي بعد ١٠٠٥ هـ

تحقيق ودراسة
د. عبد الحميد عبد الله الهرامة

احتفاءً بـ « طرابلس الغرب عاصمة للثقافة الإسلامية ٢٠٠٧ »

معهد المخطوطات العربية
القاهرة

هذا نصٌ مهمٌ من نصوص التصوُف الإسلامي ، لعدة أسباب ؛ أهمها سببان : مباشر يرتبط بأنه سيرة للشيخ عبد السَّلام الأسمر أحد أعلام التصوُف في الغرب الإسلامي ، وليبيا تحديدًا ، في القرن العاشر الهجري ، والآخر غير مباشر - ولعله الأهم - ويتمثل في أنه يجاوز كونه سِيرة لعالِم ، إلى كونه سِيرة لمرحلة تاريخية ومنطقة جغرافية ، بكل ما كان يمور فيها من أحداث ورجال وأوضاع فكرية وعلمية واجتماعية واقتصادية ، وبصفة عامة حضارية .. لهذا اختار المعهد هذا النص ، ليكون نشره جزءًا من مشاركة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الاحتفاء بـ « طرابلس (الغرب) عاصمة للثقافة الإسلامية - عام ٢٠٠٧ » .

رَوْضَةُ الأَزْهَارِ

وَمُنْيَةُ السَّادَاتِ الأَبْرَارِ

في جَمْعِ البَعْضِ مِن مَنَاقِبِ صَاحِبِ الطَّار

رَوضة الأَزهار ومُنيَة السَّادات الأَبرار في جمع البعض من مناقب صاحب الطَّار ،
تحقيق ودراسة د. عبد الحميد عبد الله الهرَّامَة . القاهرة : معهد المخطوطات العربية
(المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م / ٨٣٢ ص .
ط / ٢٠٠٩/٠١/٠٠٤

جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

روضة الأزهار

ومنية السادات الأبرار

في جمع البعض من مناقب صاحب الطار

النص الكامل ما عدا رسائل الشيخ الأسمر لمريديه

كريم الدين البرموني
توفي بعد ١٠٠٥ هـ

تحقيق ودراسة
د. عبد الحميد عبد الله الهرامة

احتفاء بـ « طرابلس الغرب عاصمة للثقافة الإسلامية ٢٠٠٧ »

معهد المخطوطات العربية
القاهرة

المحتويات

روضة الأزهار ومُنية السّادات الأبرار
في جمع البعض من مناقب صاحب الطار

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تصــدير

كان عام ٢٠٠٧ عامًا لطرابلس الغرب ، احتُفي فيه بهذه المدينة عاصمةً للثقافة الإسلامية ، ولم تكن هذه المناسبةُ لِتمرَّ دون أن يكونَ للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مشاركةٌ فيها ، فكلَّفت جهازها المتخصص « معهد المخطوطات العربية » بأن يقوم بالمهمة ، فاختار نشر هذا النَّصِّ المهم « روضة الأزهار لكريم الدين البَرَموني » .

تتجلى أهمية هذا النص في أنه يجلو وجهَ ليبيا عامة ، وطرابلسَ خاصة ، في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، وهو وجهٌ حافل ، لا يقتصر على العلوم والمعارف التي كانت سائدة آنذاك ، من أدب وشعر وتاريخ ورجالٍ وفقه ومواعظَ .. بل يجعلك تُشرف من خلاله على مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية جميعًا في ذلك الجزء من العالم العربي والإسلامي .

وتزداد أهميةُ النص إذا ما عرفنا ارتباطَه بالتصوف الإسلامي الذي يُعَدُّ نهرًا كبيرًا وعميقًا من أنهار الثقافة الإسلامية ، سواء على المستوى المعرفي ، أو المستوى الاجتماعي وما يرتبط به ، وأيضًا بأحد رموز هذا التصوف عامة ، وفي تلك المساحة الجغرافية خاصة ، نعني الشيخَ عبد السلام الأسمر ، الذي تعد « الروضة » سيرةً تفصيلية له .

النصُّ حقًا متأخر ، فصاحبه البَرَموني تُوفِّي بعد ١٠٠٥ هـ ، لكن في باب التصوف تُعَدُّ النصوص المتأخرة ذاتَ أهمية ، ذلك أنها تعكس حالة ما خاصة ، فقد انتشر ما عُرف بالتصوف الطُّرُقي (نسبة إلى « طُرُق » جمع طريقة) الذي يختلف اختلافًا بَيِّنًا عن التصوف في صدر الإسلام والقرون الأولى ، وله ما له ، وعليه ما عليه .

عَرف الغربُ الإسلامي ، وليبيا وطرابلس ، عدةَ طُرُق صوفية ، ومجموعةً من الأعلام ؛ من أبنائه والوافدين عليه ، والشيخُ الأسمر صاحب البَرموني واحدٌ من هؤلاء ، وهو شخصية ، قيل عنها ، ونُسب إليها الكثير . مما دفع المحقق الكريم إلى أن يحاول تقديم تفسير مقبول لحل إشكالية هذا الرجل . ولا بد أن نلفت إلى أن ما تحتويه دَفّتا هذا الكتاب هو الجزء الأعظم من النص ، وقد نصصنا على ذلك على الغلاف .

وعلى كلٍّ فإن النَّصَّ إشكالي ، شأنه شأن العِلْم الذي ينتمي إليه (التصوُّف)، وقد أدرك ذلك محقق الكتاب د. الهرَّامة ، فتوقف طويلاً في المداخل التي مَهَّد بها للنص ، وأثار مجموعة من المسائل ، من مثل التحوُّلات التي طرأت على التصوف بعد القرن السادس ، والحكم الشرعي في تداول كتب التصوف (المتطرفة) وادعاء علم الغيب والكرامات والتعامل مع الجن ، وكانت له تعليقاتٌ مفيدة في الحواشي ، هذا بالإضافة إلى الجوانب العلمية المباشرة المتصلة بالنص : الشيخ الأسمر (الموضوع الرئيس) والمؤلفِ ، وكتابه .

بذل الهرَّامة جهدًا يستحق الثناء ، سواء على صعيد تقويم النص ، أو درسه وتحليله ووضعه في سياقه المعرفي العام من خلال الدراسة التي قدَّم لها به . ثم جاءت الفهارس التحليلية الكاشفة التي تذلِّـله وتقرِّبه من الباحثين .

كانت عينُ المعهد على هذا النص عنايةً ورعاية ومتابعة حتى خرج بالصورة التي تراه عليها ، وهو الآن يشعر بشيء من الرضا ، وقد أخرجه إلى النور ، وأملُه أن يكون بنشره له ، قد قدَّم شيئًا ذا بال في الاحتفاء بطرابلس عاصمة للثقافة الإسلامية ، والفضل بعد الله تعالى لـ « المنظمة » التي تبنَّت الفكرة ووجَّهت إليها .

منسق برامج المعهد

د. فيصل الحفيان

تقريظ

د. محمد مسعود جبران

الحمد لله تعالى بارئ النسم، والهادي بفضله ومنّه، ومحُكم آيات كتابه إلى الطريق الأَمَم، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأتمّان الأكملان على نبيِّه ورسوله؛ سيدِنا محمد ﷺ، الدَّاعي إليه بأفعـاله الزاكية المعصومة، وجوامع الكلم، أما بعد،

فقد سعدتُ حقًّا بالتعرُّف على صديقي د.عبد الحميد عبد الله الهرَّامة - محقِّق هذا الكتاب، منذُ ما ينيف على ثلاثين سنة حينما كنَّا طالبَين في كليَّة التربية بجامعة طرابلس الغرب وقتئذ، ثُمَّ استَقْوَت وتأكَّدت الصِّلاتُ والعلائقُ بيننا في التدريس الجامعي، وفي الأعمال البحثيَّة، والمناشط العلميَّة في كلياتنا وجامعاتنا في ليبيا، وفي الكليات والجامعات الأُخرى في بعض البلاد العربية والإسلاميَّة.

وهذا الكتاب الذي حقَّقه أَخيرًا، والمسمَّى: « روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع البعض من مناقب صاحب الطار » يجلو جانبًا مهمًّا من جوانب الحياة الفكرية والصوفيَّة في ليبيا عامَّة، وطرابلس الغرب خاصَّة.

فَصَّل الدكتور الهرَّامة - من خلال قراءته المتأنيَّة - القولَ في أهميَّة هذا الكتاب من نواحٍ عديدةٍ، وبخاصَّة ما حفلتْ به فصولُه من مسائل تتصل بالتاريخ والأنساب والقبائل والرجال، وبالأدب والأخبار والأشعار، وبالفقه والفتاوى والمواعظ.

ومهدَّ لتحقيق الكتاب بـ « مداخل » وأورد نُبذًا مفيدة عن مؤلِّفِه الشيخ كريم الدين البَرموني أحد أعيان علماء القرن العاشر بطرابلس الغرب ، وعن شيخه العالم الداعية الجليل الشيخ عبد السَّلام بن سليم المعروف بالأسمر . وكما أنصف البَرموني شيخَه من خلال ترجمة مستفيضة ، أنصفه الهرَّامة بنفي الشبهات ، ومظاهر المغالاة عنه ، وباطِّراح الأقاويل والأشعار والأزجال التي نُحلت له فأساءت إليه .

فالشيخُ عبد السَّلام ليس كما صوَّره أتباعُه الجهلةُ الذين يهرفون بما لا يعرفون ، وإنما هو بالتحقيق داعيةٌ من دعاة الإسلام وفقهائه ومتصوِّفيه ، بل هو – من خلال أخباره وآثاره التي ذكرها البَرموني في « روضة الأزهار » – شخصيةٌ مميَّزةٌ في استنهاض الأُمة .

وحقيقٌ بالذكر أنَّ الهرَّامة أقرَّ بضخامة عمل البَرموني ، وما يمتلئُ به كتابه هذا من كثرةِ الشواهد ، وتزاحم الأَخطاء والعيوب المختلفة في النسخ الخطيَّة المعتمدة ، وأنَّه سارع إلى إنجاز جزءٍ منه وتحقيقِه في ظرف ضيِّق محدود ، ولم ينسَ أن يذكر الصعابَ والعقباتِ التي واجهته وما لقِيَه من عنتٍ من أوشاب طبائع التفكير والتعبير التي سادت خلال تلك المرحلة التي كُتب فيها الكتاب ، وما تَلبَّس به الفكرُ الإسلامي خلالَها من الضَّعف والجهل والتحريف .

واقتضت أمانةُ المحقِّق – مع تسليمه بما تقرّر من أهمية الكتاب وفوائده – أن يُنبِّه على بعض ما ورد فيه من أَخطاء وهنات ، وما بدا على قلم المؤلف (البَرموني) في بعض المواضع من غرابة ومغالاة في تقديره لشيخه عبد السَّلام الأسمر .

ومن الحق أنّي لا أُريدُ أن أقف في هذا التقديم للكتاب كثيرًا عند الجانب الفنّي من أُصول التحقيق الذي حذقه المرَّامة ، وتجلى في تآليفه والنصوص التي حقَّقها من جهة ، وفي كتابه القيِّم « ورقات في البحث والكتابة » من جهة أُخرى ، ولكني أُريد أن أُشيد بالمداخل الجريئة التي عرض فيها للتصوّف وطبائعه خلال حقبة لا تخلو في تقديري من حساسية وإثارة وإحراج .

إنَّ من المعلوم من قراءتنا لأحوال هذا العلم الصوفي ولأحوال المتصوِّفة من لدن أصحاب « الصُّفَّة » إلى العصر الحديث ، أنَّ هذا العلم المعدودَ من علوم العرب والمسلمين التي بلغت - في تقدير الأُستاذ عبد السَّلام محمد هارون - رحمه الله - مئتي علم - قد مرَّ بثلاثة أطوار ظاهرة ، هي :

الطورُ الأَول : التصوُّف السُّنِّي ، وهو التصوُّف الذي عُرف به الرسولُ العظيم سيدنا محمد ﷺ ثم أَصحابُه المنَعَّمون المكرَّمون ، والسلفُ الصالحُ من الأُمَّة وهو ما يُطلق عليه تَصوُّف الرقائق ، ويُقصد به في الأَساس معنى « التخليّة » ومعنى « التحليّة » أَو بعبارة واضحة : تربية الروح وتهذيب النفس بالأوامر والنواهي الشرعية .

الطورُ الثاني : التصوُّف الفلسفيّ ، وقد ظهر من خلال صِلة الفكر الإسلامي بالفكر الأَجنبي ، واهتم فيه أَصحابُه ، ومشاهيرُ رجَاله من أَمثال محيي الدين ابن عربي والنِّفَّري وابن سبعين والحلَّاج نتيجة تأَثُّرهم بالمذاهب الفلسفيَّة بإِشاعة الرمز والمصطلحات الصوفيَّة المحدَّدة الدالَّة ، فخرجوا به من البساطة واليسر إلى التعقيد والتقنين ، ولذلك سُمِّي بتصوّف الحقائق لاختصاص المتصوفة العلماء به بالتأليف فيه والتقعيد له .

الطورُ الأخيرُ : وهو ما يمكن أن يُسمَّى بالتصوُّف الطُرُقي ، نسبةً إلى الطرق والزوايا الصوفيَّة المتأخرة ، هذا الذي صار أصحابُه – وجُلُّهم من العامَّة – يتبّعون فيه طُرقًا معروفة وشيوخًا وطقوسًا ، وقد أحدث المتأخرون من أتباعه في سياقه غرائب من الأقوال والأفعال تُنكرها الشريعة وترفضها ، ولا غرابة في ذلك فقد تزامن ظهورُه مع تقهقر الفكر الإسلامي النَّقِيِّ وانحدار الحضارة الإسلامية الزاهرة .

لقد ألمح المُحقِّق إلى صورة التَّصوُّف الإسلامي الناصع المقبول ، وحذَّر في مواضعَ كثيرةٍ من التشويه الذي أدخله عليه الجهلةُ والمتنطعون ، ولكنه رأى بأدلَّة وجيهة أهميةَ « روضة الأزهار » على الرغم من أن مواضع فيه ، اقترنت بهذه المغالاة ، كما رأى ضرورة دراسته وتحقيقه ونشره ، لما فيه من المعلومات التي تفرَّد الكتاب بسَوْقها ، والتي من شأنها إثراء الحياة الفكريَّة في ليبيا والبلاد الإسلامية من ناحية ، وتصحيح الأخطاء والتشويهات التي نُسبت إلى الشيخ الأسمر موضوعِ الكتاب من ناحية أُخرى .

وإذا كنتُ على يقين من أنَّ هذه الجُرأة العلميَّة المقدَّرة ، لن تنال الإجماع ، فإنَّني على يقين أيضًا من أنَّه أخلص بهذه الجرأة النصح لدينه ولعلمه ، وفي الأمثال « ربَّ قولٍ أنفذُ من صَوْلٍ » .

* * *

مقدّمة المحقّق

إن التاريخ الثقافي لأيٍّ شعب يكتسي أهميتّه الخاصة من كونه ديوانَ الإرث الحضاري والثقافي لذلك الشعب ، فهو مقاربةٌ تسجيلية لألوان الحياة الثقافية ، وأساليبِ التفكير ، وطرائقِ التعليم ومناهجِه التي كان يمارسها أفراده ، مع التركيزِ على آثار الطبقة العاملة التي صنعت هذا التاريخ ، أو أسهمت في إغنائه وتشكيله ، ولا يمكن أن تنمحيَ جميعُ بقايا ذلك الإرث الثقافي من النفوس ، ولا من الوعي العام للشعوب بمجرد تعاقب العصور وتداول الحضارات ، بلهَ اللاوَعْي الذي يمثل ذاكرةً أوسع تستوعب - إلى جانب ذلك - غيرَ المكتوب من ثقافة الشعوب ، وخلاصةِ إرثها الثقافي والاجتماعي على مرِّ العصور .

شكَّل التصوفُ المنظَّم في إطار الزوايا والرِّباطات والخوانق والطرق ، بثقافته الظاهرة والباطنة ، عنصرًا مهمًّا في حياة الشعوب الإسلامية منذ القرن السابع الهجري (١٣م) إذ بدأت الطرقُ الصوفية تمثل ظاهرةً جديدة في الاتجاه الصوفي في العالم الإسلامي ، وبخاصة في جناحه الغربي ، مع أن الثقافة الصوفية الزهدية كانت معروفةً في الشرق قبل ذلك ، ممثَّلة في ثقافة الزهاد والعلماء والمتصوفة غير المنتظمين في طريقة ما ، وحياتِهم وآثارهم ، أمثال ابن سيرين ، والوراق ، والحلَّاج ، والجُنَيد ، والغزَّالي ، وغيرهم .

ومثَّلتْ البيئة الليبية مستقرًّا مهمًّا للثقافة الصوفية منذ القرن التاسع الهجري (١٥م) حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري (١٩م) ، وإن اختصَّ القرن العاشر (١٦م) بازدهار متميِّز في الحركة الصوفية المحلِّية والوافدة ، وهو القرنُ الذي شهد الاحتلال الإسباني ، وحُكْم فرسان

القديس يوحنا ، كما شهد نصفُه الثاني طلائعَ العهد العثماني بخصوصياته العسكرية والثقافية .

وشهدت هذه البيئةُ طرائقَ متعددةً يجمعها أنها فروعٌ للشاذلية ، وإن اختلفَتْ عنها أحيانًا ، كاختلاف العْروسية مع الشاذلي في إباحة السماع الذي يحرِّمه ، وإلى جانب العْروسية نجد الطريقة القادرية والمدَنية والدَّهمانية والعيساوية والسنوسية والزرُّوقية ، ولكلٍّ منها خصوصياتها . ويمكن أن نميزها بحسب جمهورها إلى قسمين :

أولهما : الطرق الموجَّهة إلى جمهور العامة ، وربما ركَّزتْ على التوسُّع في السماع لغرض جمع المزيد من الأتباع دون الحِرص على انتقاء العلماء والمثقفين منهم ، وخيرُ نماذجها الطريقتان العْروسية والعيساوية .

وثانيهما : الطرق الأخرى ، وأغلبُها يتوجه إلى جمهور الخاصة ، ويحرِص على تعليم العامة للارتقاء بها إلى مستوى أعلى ، ومن هذا القسم القادرية والمدنية .

عبَر هذه البلاد معظمُ مشاهير المتصوفة المغاربة والأندلسيين وغيرهِم ، ممن شكلت معارفُهم طابعَ الثقافة العامة في الشعوب الإسلامية منذ القرن السابع الهجري (١٣م) - كما تقدم - فكان من الشخصيات التي عبرت وأثَّرت في الحياة الصوفية أبو الحسن الشُّشتري الذي أقام في البيئة الليبية حتى مازجت لهجتُها أزجاله ، والرحالة أبو سالم العيَّاشي الذي عرض في رحلته معلوماتٍ مهمةً عن الحياة الصوفية في ليبيا تدلُّ على خِبْرة بها وعلاقة وطيدة مع أعلامها .

واستقرَّ فيها جماعةٌ ، منهم : الشيخ أحمد زرُّوق الفاسي محتسب الصوفية ، والشيخ الدُّكالي المغربي أو الدُّوكالي - كما يُنطق ويكتب في

اللهجة الليبية - صاحب الزاوية الشهيرة في مَسْلاتة ، ومحمد بن سعيد الهَبْري - دفين حي الظهرة بطرابلس - ، وعبد النبي الأصفر الصنهاجي ، ومحمد ظافر المدني صاحب الطريقة المدنية الدرقاوية الشاذلية ، ومحمد الخطابي الجزائري ، ومحمد السني السناري . وتعلَّم على أيدي أعلامها عدد من الفقهاء والمتصوفة ، منهم : الشيخ الهاروش المغربي ، وفالح الظاهري المشرقي ، وعددٌ كبير من أهل مصر ، منهم : السنهوري ، واللقانيان وغيرهم ، هذا إلى جانب الكثيرين من غير المشاهير .

ومن ليبيا توجَّه متصوفة وفقهاء مشاهير إلى خارج بلادهم ، فكان لهم تأثير مشهود في بيئاتهم الجديدة ، كما هو الحال مع محمد بن علي الخَرُّوبي ، وآل الحطَّاب ، وعبد الرحمن التاجوري ، ومنهم مَنْ ذاع صيتُه في الآفاق دون أن تُعْرف له رحلة خارجية بعيدة ، وأشهرهم : الشيخ عبد السلام الأسمر الذي لم يسافر خارج البلاد الليبية إلا إلى تونس[1] - في ما نعلم - ، وسنقف عنده لاحقًا .

كنتُ شرعتُ في قراءة مخطوطة هذا الكتاب حين عبَّر لي أخٌ فاضل ، ومحقِّق معروف بعنايته بالتراث العربي الإسلامي في معهد المخطوطات العربية ، هو : الدكتور فيصل الحفيان ، عن رغبة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) في المشاركة في الاحتفاء بطرابلس بمناسبة اختيارها عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٧م ، وذلك بتحقيق نصٍّ تراثي ذي صلة بهذه المدينة التاريخية ، وسألني إن كنتُ أتوافر على مثل هذا النص ، فلم يكن أمامي أفضلُ من هذا النص الذي قال عنه المحقِّق الجليل

(١) أعلام ليبيا ، للشيخ الطاهر أحمد الزاوي ، الطبعة الثانية ، الفرجاني ، طرابلس - ليبيا ١٩٧١ ، ص ٢١٥ .

الشيخ الطاهر الزاوي - شيخ المؤرخين الليبيين - : « مجموعة تاريخية لم أعرف من كتب مثلها في طرابلس » فهو يتناول جانبًا مهمًا من التاريخ الثقافي لطرابلس الغرب والمدن المحيطة بها .

إنه نَصٌّ كبيرُ الحجم (نحو ٧٠٠ صفحة) ، عسيرُ التحقيق ، ذلك أنه ليس له سوى نسخة خطية وحيدة ، ولا عليك من النسختين الأُخريين الناقصتين إذ تقتصران على طرفيه ، ولذلك فإن أقصى ما طمحنا إليه هو تقديمه بصورة أقرب ما تكون إلى الصورة التي أرادها مؤلِّفه ، متخفِّفين بعضَ الشيء من تخريج النصوص المقتبسة والمستشهَد بها ، دون أن يعني ذلك أننا لم نوضح كثيرًا من غوامضه ، ولم تُثبت الفروق بين النسخ ، ولم نعلق على ما ينبغي التعليق عليه ، ولم نعرِّف بمَنْ يلزم التعريف بهم من الأعلام .

يبقى أن نلفت إلى أن هذا النص المهم يتناول موضوعًا شائكًا يتطلَّبُ التأمُّل العلميَّ الواعي الذي يُزيل الإشكالاتِ غير المفسَّرة ، ويوضِّحُ الاجتهاداتِ غيرِ المعلَّلة ، كما أنه يحتاج إلى دراسات متعددة في فروع معرفية مختلفة : اللغة واللهجة ، والتاريخ الثقافي ، والتاريخ العام ، والتراجم .

والكتابُ في أصله وحدةٌ واحدة ، غير أن جزءًا من القسم الرابع منه نشره الدكتور مصطفى بن رابعة بعنوان : « رسائل عبد السلام الأسمر إلى مريديه » فتوجَّه اهتمامي إلى ما لم يُنشر منه ، وهو القسم الأكبر ، ويحتوي على مادةٍ علميةٍ وتاريخيةٍ وأدبيةٍ وصوفيةٍ كبيرة . وعلى الرغم من بعض المآخذ على الفحْوى ، فإنَّ الكتابَ يُعدُّ بحق أهمَّ موسوعة ليبية كُتبت في أواخر القرن العاشر الهجري ، وتم الفراغُ منها في مطلع القرن الحادي عشر .

وهكذا أضعُ القارئَ في ظروف هذا العمل الذي اجتهدتُ في أن أُقدِّمه إسهامًا متواضعًا في تحقيق نصٍ ذي بال بين نصوصِ تاريخنا الثقافي خدمةً لتراثنا الإسلامي بصفة عامَّة ، ورغبةً في تنقيته من الشوائب والعوالق المسيئة إلى صفائه بصفة خاصَّة .

ولا يسوؤك - أيها القارئ الكريم - ما قد تجدُه من الأمور التي لا يُقِرُّها ظاهرُ الشريعة في هذا الكتاب ، فهي ثقافةُ عصرها التي تحتاج إلى الدراسةِ والتوجيه أكثر منها إلى التعجُّل بالتكفير والتبديع ، ولقد مهَّدتُ للكتاب بمداخل وعلَّقتُ على هذه الأمور بحواشٍ تُفسِّرها أو تحلِّلها ، أو تنتقِدُها ، وستجِدُ إلى جانب هذه الأمور الكثيرَ من الفوائد والمزايا والحسنات التي حَرَصَ المؤلِّف على تضمينها ، وإنما أردتُ بتحقيق الكتاب أن يتبيَّن لك الجيدُ من الرديء ، والحقيقةُ من الخيال بدون وساطة ، فأرجو أن ينال ذلك رضا الله ثم رضاك ، فإنْ رأيتَ فيه توفيقًا فمنه ﷻ ، وإن كان غير ذلك فهو من عندي .

* * *

الدراسة

(مداخـــل)

المدخل الأول

التصوف الإسلامي وكتبه وقضاياه

تمهيـــد

يعتزُّ المسلمون بحضارة إسلامية ملأت الدنيا علمًا ، وكانت منارةَ العالم في عصوره الوسطى ، واستمرَّ أوجُها في الشرق إلى أواخر القرن الخامس الهجري ، وامتد عطاؤها في الأندلس إلى القرن الثامن الهجري ، واللافت للنظر أن ما نجده في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام ، يعطي صورةً لأثر العلم النافع والتعليم الجاد الذي يهيئ الظروفَ لنهضة حقيقية ، ولا غَرْوَ ، فهي القرون التي قال عنها رسول الله ﷺ : « خيركم قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » فحدد الخيرية بثلاثة قرون ، وقال الشيخ أحمد زرُّوق – أستاذ الشيخ عبد السَّلام الأسمر – : « لا مُتَّبَعٌ إلا لمعصوم لانتفاء الخطأ عنه ، أو مَن شُهِد له بالفضل ؛ لأن مزكِّي العدل عدل ، وقد شهد رسول الله ﷺ بأن خير القرون قرنُه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، فصحَّ فضلُهم على الترتيب »[1] .

وسنرى مصداق ذلك من خلال استعراض العلوم والتخصُّصات التي انشغل بها المسلمون في بداية عصر نهضتهم ، وبنوا بها صرْحَ الحضارة العربية الإسلامية التي عمَّت العالم ، وبشَّرتْ بفجر الحضارة المعاصرة ، إذ نقلوا سرَّ الحضارات السابقة وترجموها تمهيدًا لإسهامهم الحضاري ، ثم تركوا أكبرَ مجموعة من التراث المخطوط عرفَها العالم الذي نقلوه من تراث الأحجار إلى تراث الأفكار .

---

(١) قواعد التصوف : القاعدة الثانية والأربعون (ص ٢٤) طبعة مكتبة النجاح ، طرابلس ، ليبيا .

هكذا كان الانطباعُ العام عن تراث الحضارة الإسلامية ، فما هو نتاج هذه القرون الثلاثة الذي استحقَّ أن يبني تلك الحضارة ، واستحقَّ شهادةَ الرسول بالخيْرية ؟ وما علاقته بالكتاب الذي نحقِّقه ؟

لا نجد إجابةً عن هذين السؤالين أجمعَ ولا أوفى بمؤلفات العلماء في هذه القرون الثلاثة من كتاب « الفِهْرِسْت » لأبي الفرج محمد بن إسحاق المعروف بالنَّديم ، الذي قال : إنه جمعَ فيه ما عُرف في البلاد العربية من المؤلفات العربية وغير العربية مكتوبًا بهذه اللغة أو مترجَمًا إليها حتى عام ٣٧٧ هـ ، والمعلوم أن المؤلِّف توفي بعد ٣٨٠ هـ ، فهو بذلك قد استوعبَ كتبَ القرون الثلاثة الأولى مع جزء كبير من كتب القرن الرابع الهجري .

قسَّم النَّديم كتابه إلى عشر مقالات ، وصف في المقالة الأولى اللغات ، وأسماء كتب الشرائع ، وأسماء الكتاب المُنزَّل من الله - تعالى - وعلومه وقرَّاءه . وخصَّص المقالة الثانية للنحويين واللغويين ، وجعل الثالثة للأخبار ، والآداب ، والسير ، والأنساب . والرابعة في الشعر والشعراء . والخامسة في الكلام والمتكلِّمين من المعتزلة والمرجِئة والشيعة الإمامية ، والزَّيدية ، والإسماعيلية ، والمجبرة ، والحشْوية ، والخوارج ، والزُّهاد ، والعُبَّاد ، والمتصوِّفة . والسادسة في الفقهاء ، والمحدثين . والسابعة في الفلسفة والعلوم القديمة ، كالمنطق والهندسة والموسيقى والحساب والطب. والثامنة في الأسمار والخرافات والسِّحْر ، والشَّعبذة أو الشعوذة . والتاسعة في الاعتقادات كالصابئة ، والمانَوِية ، والدِّيصانية ، والحرمية ، والمرقيونية ، والمزْدَكية ، ومذاهب الهند والصين ، وغيرهم من أجناس الأمم . والعاشرة في الكيمائيين ، والفلاسفة القدماء والمُحْدَثين .

وباستعراضِ الكتب التي أشار إليها النَّديم[1] في « الفِهْرِسْت » ، ومن خلال ما أمكنَ الاطِّلاعُ عليه مما بقيَ منها نلاحظُ ما يأتي :

- تنوُّع العلوم النقلية والعقلية ، النظرية والتجريبية ، مما عرفَتْه الحضارات السابقة أو انفردَتْ به الحضارة الإسلامية .

- عدمُ إقصاء الآراء المخالفة بشتى مشارِبها ، ومُختَلفِ مذاهبِها ، وتنوُّعِ أفكارها ، والإلماحُ إلى مناقشتها أحيانًا بآداب البحث والمناظرة ، وتعزيزِها بالأدلة العقلية والنقلية ، وقد أسهمَ في إنصاف الخصوم بما يدعو إليه الإسلامُ من الجِدَال بالتي هي أحسن ، والتزامِ الغالبيةِ بهذا المعيار المُنصف .

- نهضةُ الترجمة والنقلِ التي تواكب عادةً بدايةَ الحضارات الجديدة ، فكما أخذتْ الحضارةُ اليونانيةُ عن حضارات الشرق ، ترجمَتْ الحضارةُ الإسلاميةُ ثقافاتِ اليونان والهند وفارس وغيرها ، كما رأينا ذلك واضحًا في « الفِهْرِسْت » ، ومن هذه المُتَرجَمات نقلتْ أوروبا الكثيرَ من العلوم والآداب في عملية ترجمةٍ لاحقة ؛ لتؤسِّس عليها الحضارة الحديثة . ونحن نرى في العصر الحديث كيف أبدع الآسيويون في اليابان والصين وكوريا في نقلِ حضارة أوروبا عن طريق التَّرجمة دون التَّفريط في لغاتهم وثقافاتهم .

ولو أحصينا عددَ المُتَرجِمين في عهد النهضة الإسلامية ، لوجدناهم قِلَّةً مقارنةً بعدد المسلمين الناطقين بلغاتٍ أخرى اليوم في بلادنا الإسلامية ، ولكن هؤلاء يحتاجون إلى هِمَّة النهضة التي كانت تَشحذُ نفوسَ تلك القِلَّة من مُتَرجِمي الدولة الأموية والعباسية ، ونفوس غيرهم من مترجمي الأمم التي هيَّأَتْ أجيالَها لنهضة مرتَقَبة .

---

(١) اشتهر مؤلف الكتاب من خلال طبعته الأولى باسم ابن النديم ، ثم عرفنا من تحقيق متأخر أن النديم خاص به .

- ١ -

تصوُّف القرون الأولى

ويشدُّنا ما ورد في الفِهْرِسْت للنَّديم عن الزُّهَّاد والمتصوِّفة ، وذلك للصِّلة بموضوع كتابنا ، فشأنُ زهَّاد القرون الأولى وعارفيها غيرُ شأنِ كثير من المتصوِّفة في القرون اللاحقة ، إذ مؤلفاتُ الزهد والتصوُّف في فجر النهضة الإسلامية قليلةٌ إلى جانب العلوم الأخرى ، وهي تأخذُ جانبَ العلمِ والتربيةِ القرآنية ، وأصحابُها من الزهاد العاملين الذين لم ترتَبِطْ حياتُهم بالانشغال بجمع المناقب وتَعداد الكرامات ، بل ينطبق عليهم قولُ ابنِ عطاء الله السكندري : « ادفن نفسَك في أرض الخمول ، فما نبَتَ مما لم يُدفَن لا يتمُّ نِتاجه » ، وليس لهم من الأتباع مَنْ يؤلف لهم المناقب ويجمعُ لهم الكراماتِ ، فانعدمتْ بذلك هذه العناوين في عصرهم ، وندرَ الإخبارُ عن الخوارق .

وكتبُهم تعرِضُ طبيعةَ سلوكهم ، فمنها : كتابُ « قيام الليل والتهجد » لأبي حفص اليماني ، وكتاب « الزهد » لبشر بن حارث ، وكتاب « التفكُّر والاعتبار » للمحاسِبي ، إلى جانب كتبه في « أصول الديانة » و « الرد على المعتزلة » ، ومجالس منصور بن عمَّار في « ذكر الموت » ، وفي « حُسْن الظن » ، وفي « البلى » ، وفي « انظرونا نقتبس من نوركم » ، و « العرض على الله ﷻ » ؛ ومؤلفات البرجلاني ، ومنها : كتاب « الجود والكرم » ، وكتاب « الهمَّة » ، وكتاب « الصبر » ، وكتاب « الطاعة » ، ومن ذلك : رسالة عُتبة الغلام « في الزهد » ؛ وكُتب ابن أبي الدنيا ، ومنها : « كتاب مكائد الشيطان » ، وكتاب « الحِلم » ، وكتاب « ذم الفُحش » ، وكتاب « العفو » ، وكتاب « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، وكتاب « الإخلاص » ، وكتاب « مكارم الأخلاق » ؛ ومن كُتب الجُنَيد : كتاب « المحبة » ، وكتاب « الخوف » ،

وكتاب « الورع » ، وكتاب « الرُّهبان » ، وكتاب « أمثال القرآن » .

وإذا تجاوزنا القرون الثلاثة المفضَّلة إلى القرنين الرابع والخامس ، نجد المؤلفاتِ تسير إلى حدٍّ كبير بدفع تلك القرون على هذا النحو ، من مثل كتب : « التواضع » و « الإخلاص » و « الصبر » لأبي الحسن المصري ، وكتاب « التوكل » لمحمد بن يحيى ، وكتاب « إحياء علوم الدين » للغزَّالي . وما تراه من مؤلفات أسطورية عن بعض أعلام هذين القرنين ، فأغلبه قد كُتِبَ بعدهما ، ومن ذلك ما كُتِبَ عن الحلَّاج ، فهو لا يعودُ إلى عصره ، لا فكرًا ولا أسلوبًا .

وقد شهِدَ بعضُ أصحاب القرونِ التالية للقرن الخامس بأن هذا القرنَ يمثِّل بدايةَ الضَّعف في الفكر الإسلامي ، وإنْ تواصلَ الدفعُ زمنًا محدودًا في الأندلس والمغرب بعد ذلك ، فهذا السيوطي يسجل عبارة تقول : « وإنما انقرضوا بعد الخمسمائة بموت العلماء ، وقصور الهمم » [1] وهذا يعني أن ما كُتب بعد هذه القرون الخمسة الأولى يحتاج منَّا إلى مراجعة نقدية ، تحرِّك العقول التي ما زالت تؤمنُ إيمان العجائز بكل ما ورد من هذه القرون المتأخرة .

في مؤلفات القرون الأربعة الأولى التي ذكرها صاحب « الفِهْرِسْت » لا تجد كُتبًا في الكرامات ، والخوارق ، والمنامات ، والوظائف ، والمناقب ، ولُبْس الخِرَق التي شاعت في العصور المتأخرة ، ولا تجد العبارة الضعيفة ، أو الأسلوبَ الرَّكيك ، أو المعنى السطحي من خلال ما وصل إلينا منها ، ولن تجدَ في هذه القرون المفضَّلة حديثًا عن الطرق التي شهدتْ تطوُّرَها منذ القرن السابع الهجري فما بعده ، لتتكاثر وتُصبحَ ظاهرةً في كل مدينة إسلامية بعد ذلك .

(١) لعله من المناسب أن نحيل هذا النص إلى كتاب البَرموني الذي بين أيدينا ، فهو قد نقله عن السيوطي مدركًا معه فضل القرون الأولى ، كما نقل نظيرَه عن الشيخ أحمد زرُّوق .

وفي مؤلفات القرون الأولى تجد نفسَك أمام مضامين الحياة الروحية ، كما يهدي إليها القرآن الكريم ، وتدعو إليها أخلاقُه وقيمُه الخالية من الأفكار الباطنية والشَّطحات الغامضة ، ويمكنك أن تؤرِّخَ بالسنوات التسع الأولى من القرن الرابع لبداية الشَّطحات التي اختلف الناس بين باطنها وظاهرها ، وأوْدتْ بحياة الحلَّاج الذي سمع منه الناس لأول مرة في تاريخ الإسلام شعرًا يقول :

كفرتُ بدينِ اللهِ والكفرُ واجبٌ علىَّ وعنـدَ المسـلمين قبيحُ [1]

إلى كلامٍ آخر لم يعهدْهُ المسلمون قريبو العهد بالقرون الأولى فثارَتْ ثائرتُهم ، فمن قائل : إنهم تواطؤوا على قتله ، وقائلٍ : إنَّ قتلَه كان تدبيرًا سياسيًّا صِرفًا ، ولكنَّ الحقيقة أننا أمام ظاهرة لا عهدَ للأمة بها ، وإن كان متصوفةُ القرون التالية قَبِلوها [2] ، وألَّف بعضُهم قصصًا شعبية في ولاية الحلَّاج ومَظْلمته وخوارقه ، وأوَّلوا هذا الشعر بأنه (يكفر بدين الله) أي يغطِّيه ولا يبوح به ؛ لأن الكفر في اللغة الغطاء ، وذلك تأويلٌ لا يسوِّغ استفزازَ مشاعر المؤمنين ، وإساءةَ الأدب مع الله في الظاهر ، مهما كان رأيُنا في الحلَّاج . ومن منتقدي هذا التأويل مَنْ يقول : إنَّ الكفر الذي يعني التغطية لا يحتاج إلى تعْديته بالباء ، وأن باطن هذا البيت بعد التأويل لا يدلُّ على عُمق المحبة ، ومع ذلك فنحن لا نغالي باتهام قائله بالكفر .

رافقَ هذه الظواهرَ الطارئةَ على الإسلامِ أدلةٌ متحَلة أحيانًا على وجودِ أصلٍ لها في الإسلام ، وقد ذكَّرني الفقيهُ العالِم الشريف ولد أباه بأن هذا

---

(١) ديوان الحلَّاج ٣٣ ، وهذا الشعر مؤول كما سنرى ، ولكنه مستفز .

(٢) من أولئك أبو حامد الغزَّالي وعبد القادر الجيلاني .

العصر هو عصر الانتحال في الأدب ، وعصر الوضع في الحديث ، وهكذا الأمر في التصوُّف ، وقد أفتى بعض الشيوخ بجواز الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة في الرقائق والمواعظ ، وهو ما فتح الباب للانتحال في هذا المجال .

غير أنَّ هذه الظواهرَ الباطنيَّة لا تنسحِبُ على جُهودِ كلِّ أهلِ التصوُّف في القرون المتأخرة ، فقد وجَدَ الكثيرُ منهم مأمنًا في اتباع طريقة الجُنَيد السالك ، الجامعة بين الشَّريعة والسلوك ، فكان منهم العلماء والمجاهدون والمؤمنون المخلِصون ، وقد حاولوا التزامَ الشريعة في سلوكِ المتصوِّفِ وفكْرِه ، فأصابَ كثيرٌ منهم بتوفيق الله ثُمَّ بجهدهم واجتهادهم ، وأخفق آخرون بتأثيرِ الانحطاطِ العام الذي كانت تسيرُ إليه الأُمَّةُ في القرون الخمسة الأخيرة في جميع العلوم ، ولعلَّ لأولئك المتصوِّفة عذرَهم وأسبابَهم وزمانهم الذين كان يعاني حالةَ الأُمية والظروفَ القاسية سياسيًّا واقتصاديًّا ، والضَّعْف الذي أصاب الأُمَّةُ الإسلامية العربية وثقافتَها الأصيلة في تلك الحقبة ، واليوم – وقد تخلَّصنا من ظروفهم العصيبة – علينا أن نراجعَ ثقافتنا ، وأن نأخذَ بأسباب النهضة التي أخذ بها المسلمون في فجر نهضتِهم ، فذلك من أَوَّليات تعاملِنا مع التراث الفكري لهذه المرحلة .

وللحقيقة فإن مشايخَ الصوفية الأوائلَ في منأى عن أغراض المتعصبين لهم ، تلحظُ فيهم صِدق التوجه إلى الله ، والاجتهاد في العبادة ، وهم يعلمون أنَّ مقامَهم دون الرسول ﷺ الذي قال الله له : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ (الإسراء ٩٣) ، ودون مقام سيدنا عيسى وأُمه – عليهما السَّلام – اللذين قال عنهما : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (المائدة ٧٥) ؛ لإبراز صفات البشرية التامة في شخصَيْهما ، ودون الرجل الصالح الخضر

عليه السلام (١) – الذي نَسبَ كلَّ علمِه وحَوْله إلى الله في قوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾ (الكهف ٨٢) ، فتوجَّهوا جميعًا إليه – سبحانه – ؛ لأنه قريب مجيب ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة ١٨٦) ؛ ولذا أورد القرآن الكريم أن الصحابة كانوا يستغيثون بالله وليس بالأنبياء ، في قوله الحكيم : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ (الأنفال ٩) ، وفي قوله – تعالى – عن الوالدَيْن الصالحين : ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ ﴾ (الأحقاف ١٧) ، ولم ترد الاستغاثة بغير الله في القرآن الكريم ، إلا للعون المادي كاستغاثة صاحب موسى عليه السلام به في قوله – تعالى – : ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ (القصص ١٥) ، وكاستغاثة الكفار في نار جهنم ، لإطفاء عطشهم في قوله – تعالى – : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ﴾ (الكهف ٢٩) ، ولو وعى المستغيثون بالبشر معنى قوله – تعالى – : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ (فاطر ٤٥) ما توجَّهوا إلى الناس أبدًا ، ولقصَروا التوجُّه إلى الله واستكفَوْا به ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ (الزمر ٣٦) .

(١) نُسجت على شخصية هذا الرجل الصالح عليه السلام الكثير من الحكايات ، بناء على استمرار حياته واتصاله بالأولياء ، وقد اختلف العلماء في أمره بين قائل بنبوته وقائل بعدمها ، وذهب جمهور العلماء والمحدثين والفقهاء إلى موته ، واستدلوا بقوله – تعالى – : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء ٣٤) ، وبقوله ﷺ يوم بدر: « اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض » ، وقوله « أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد » ولو كان حيًّا لآمن برسول الله وناصَرَه ، وحدَّث عن ذلك الرسول والصحابة ، ومات بعد مائة سنة من ذلك ، وروى غيرُهم ، مثل : النووي في شرحه على مسلم ، والقرطبي في تفسيره ، وابن الصلاح الشهرزوري في فتاواه ، والنقاش ، وجمهور الصوفية ، أنه حي ، ولكن ما رووه لم يسْلَم من الطعن والتضعيف . والله أعلم .

وعلى الرغم من أننا لا نُنكِرُ مكانةَ الصالحين العاملين عند الله ، ولا كراماتهم الخالية من الدعوى والمبالغة ، ولسنا من أهل التكفير والتبديع الذين شاعت دَعْواتُهم في هذا العصر بالحق وبالباطل ، فإننا نرى أن النصيحة تقتضي تطهيرَ العقول والعقائد من الشوائب ، وتصحيحَ طرائق تفكيرنا ، وتَنْقيةَ ثقافتنا من عوالق قرون الانحطاط ، التي ما تزال عالقةً ببعض العقول والأرواح ، والحِرْص على اتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتُراثِ العلماء الذي ينضَحُ بالإيمان والعمل الصالح ، كما تقتضي النصيحةُ استنكارَ الأوهام التي يتعلق بها الناس ، ويُصِرُّون عليها .

وقد حدثني أخي د. عبد الإله بن عرفة أنَّ أحدَهم كان يردِّدُ - جازمًا - أنَّ أبا مدين الغوث الْتَقَىٰ ابن عربي ، واطَّلع على « الفتوحات المكية » له ، وقال له في مقابلته تلك : « أستطيع اختصار كتابك هذا في كلمة واحدة » ، والحال أن أبا مدين لم يقابله أصلاً ، ومات قبل البدء في تأليف « الفتوحات » التي أنهاها بعد نحو أربعين سنة من وفاة أبي مدين ، قال : « وأكَّدتُ له ذلك فلم يزدْه قولي إلا إصرارًا على روايته » . وعلى شاكلة هذا مئات المعاندين الذين تشرَّبتْ عقولُهم معارفَ خاطئة وَرِثوها ، واستحكمتْ في عقائدِهم حتى زاحمتْ إيمانَهم بالقرآن والسنة ، وصاروا يعالجون أمرَهم بالتأويل والاستبطان .

وليس من الحكمة تعميمُ الحُكم بحمْل هذه الشوائبِ على جميع أهل التصوُّف ، ولا على جميع الآثار الصوفية المتأخِّرة ، ففيها من تربيةِ النفوس ، وإصلاحِ القلوب ما يُنْعِشها بالدعوة إلى الخير والفلاح ، تجدُ ذلك في رسائلَ ، وقصائد ، وكتبٍ منذ القرن الخامس الهجري حتى القرن العشرين ، كهذا الذي نجدُه في كُتب أعمال القلوب ، وفي ما كُتِبَ في عيوب النفس وشروحها ، والحِكَم وشروحها ، وفيها ما يدل على مجاهدةٍ صادقة في جَنْب

الله ، ودعواتٍ خالصة لحُسْن الخلُق ، واتّباع خصال الأنبياء والصالحين ومجاهداتهم ، وفي صحيح ما نُسب إلى الشيخ الأسمر كثيرٌ من ذلك .

ولكن أنْ تجدَ قصائدَ كاملةً في الاستغاثة بالبَشر ، والافتقارِ إليهم ، وحكاياتٍ كاملة عن تصرُّفهم في الكون بخوارقِ عاداتٍ ، لا يُذكر فيها اسمُ الله إلا عَرَضًا ، بل ليس منهم نبيٌّ ولا صحابيٌّ ولا تابعيٌّ ، فاعلم أنك أمام نصٍّ مشبوه ، فابرأْ لنفسك من ترداده والاستغاثة به ، وعلى الناصح المخلِص أن يُجنِّبَ الناسَ المحاذيرَ الخطيرة على إيمانهم ، دون أن يمسَّ نقدُه صفوةَ أهل الله من العلماء العاملين والأولياء الذين وصفَهُم الله بأنهم : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (يونس ٦٣) . وقد قيل للشيخ عبد السَّلام : متى يكون الرجل وليًّا صالحًا ؟ فقال : « إذا كان عالمًا عاملاً صابرًا متواضعًا ، ولم يَرَ لنفسه مقامًا ولا حالاً » .

- ٢ -

تحوُّلات ما بعد القرن السادس

دَبَّ الوَهَن في أوصال الأُمَّة في معظم مظاهر الحياة ومعارفها ؛ لذلك كانت الكثرة الكاثرة من المؤلفات الصوفية ضعيفة المعنى والمبنى ، متأثرةً بتيار الانحطاط الثقافي والحضاري للأُمَّة ، مع استثناءات قليلة ترسِّخُ القاعدة ولا تُخِلُّ بها . وللبرهنة على ذلك اخترنا محتويات دار الكتب والوثائق المصرية من التراث الصوفي ، إذ هي من أهم مظانِّ المخطوطات المدوَّنة في هذه الحقبة . وأحمد الله على أنني تحصَّلت على البحث القيم للأستاذ الفرنسي المسلم داود (دينيس جريل) ، الذي جمع فيه عناوين كتب التصوُّف في هذه المكتبة ، وأقام عليها دراسةً استقرائية بعنوان : « المصادر المخطوطة عن التصوُّف في دار

الكتب »[1] ، وفيه يتضح مدى الانحطاط الذي لحق التأليف في هذا المجال ، شأنه في ذلك شأن غيره من العلوم الإسلامية في تلك المرحلة .

ولا يمكن القول : إن هذا التراث هو سببُ تخلُّف الأُمَّة الإسلامية بقَدْر ما هو نِتاجُ تخلُّفها العام ، وفي هذه المجموعة الإحصائية نلاحظ أن أغلب محتوياتها كانت في المناقب ، والكرامات ، ولبس الخِرَق ، وذكر الطرق ، والوظائف ، والمنامات التي تتحول أحيانًا إلى رؤى بصرية نهارية ، وكلُّ ذلك - كما مر - مختلِفٌ عن طبيعة التأليف في التصوُّف خلال القرون الأولى .

لقد حملت المؤلفات التي كُتبت بعد المائة السادسة عناوينَ وموضوعاتٍ جديدةً لم يعرفها زُهَّاد القرون الأولى ومتصوفوها ، وسنوردها على كثرتها ؛ لئلا يُظَنَّ أننا أمام اختيارات منتقاة ؛ لفرْضِ فكرةٍ مبيَّتةٍ نرمي بها إلى الحطِّ من شأن التأليف في هذا المجال خلال هذه الحِقبة بالذات ؛ ولتبدو له الفروق من الموازنة بين العصرين بوضوح .

نستعرض في ما يأتي عناوين تلك المؤلفات[2] ، وندعو القارئ إلى استحضار ما سلف أن رصدنا من مؤلفات القرون الأولى :

« مناقب السيد البدوي » (ت ٦٧٥هـ) لمجهول ، و « الدرر الحسان في نسب أبي الفتيان » الذي هو السيد أحمد البدوي نفسه - رحمه الله - و « كرامات أصحاب الأشائر » للشِّبلي (١١١٠هـ) ، و « كرامات الشيخ تاج الدين النخَّال » لمجهول ، وكتاب « الجواهر » المشتمِل على مناقب الشيخ أبي العباس الدمنهوري لمجهول ، و « مناقب الشيخ عبد الله المنوفي »

(1) Denis GRIL SOURCES DE L'HISTOIRE DU SOUFIS : EADAR AL-KUTUB, UN PREMIER BILAN.

(٢) يمكن الحصول على المعلومات الكافية عن هذه الكتب من كتاب دينيس جريل ، أو من فهارس دار الكتب والوثائق المصرية ، ذلك أني لم أقصد هنا ذكر التفاصيل التعريفية بقدر ما أردت توضيح مؤشرات العناوين والموضوعات العامة والحقبة الزمنية للتأليف .

(٧٦٧هـ) ، و « المنح الإلهية في مناقب السادات الوفائية » لأبي اللطائف (٧٦٠هـ) ، و « رَفْع نقاب الخفا عمن انتهى إلى وفا وأبي الوفا » للزَّبيدي (١٢٠٥هـ) ، و « مناقب القطب محمد الفرغلي » لمجهول ، و « منتهى العبارات في بعض مناقب ما لشيخِنا من المناقب والكرامات » لحسن شمة (١١٧٧هـ) ، و « مفتاح البصائر في كرامات وأحوال قطب الأكابر الشيخ العبيد محمد الحاج نور » ، و « كرامات الشيخ الجبرتي العقيلي » لمحمد الحنفي (٨٢١هـ) ، و « مناقب أبي العباس الحضرمي » ، و « مناقب محمد السمان » (١١٨٩هـ) ، و « مناقب سيدي عقيل المنبجي » ، و « مناقب أبي بكر بن قوام » ، و « بهجة الأنام في كرامات الشيخ بن قوام » للشفوني (١٠٥٤هـ) ، و « مناقب أبي بكر الوفائي » للنقشبندي (١١٥٣هـ » ، و « الرسالة السعدية في الردِّ على السادات السعدية » لشمس الدين السعدي (٩٩٧ هـ) يعني الدفاع عنهم ، و « تبريد وقيد الجمر بذكر بعض أحوال الشيخ مصطفى بن عمرو » ، للخلوتي (١١٦٢هـ) ، و « الإيضاح والتمكين في ترجمة شيخنا خير الدين » للجنيني (١١٠٨هـ) ، و « كتاب سياحة أبي الصفا » ، و « فخر آل زين العابدين بمناقب السيد أبي الوفا تاج العارفين » للقلانسي .

وفي الدار – دار الكتب المصرية – كتبٌ أخرى في مناقب ابن وفا ، وعدي بن مسافر ، وكتب في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلي ، منها : كتاب للحنبلي (٧٢٦هـ) ، وثان للسنجاري ، وثالث للحلبي (٨٨٠ هـ) ، ورابع وخامس لمجهولين ، وسادس للتانفي (٩٧١هـ) ، و « جواب الراعي لسلف الشيخين عبد القادر والراعي » للدمشقي (٨٤٢هـ) ، وكتاب « المعارف المحمدية في الوظائف الأحمدية » للرفاعي (٦٧٠ هـ) ، و « أم البراهين » للواسطي ، و « خلاصة الإكسير في نسب سيدنا الغوث الرفاعي الكبير » للواسطي (٧٣٣هـ) ، وله « الروض النضير » في مناقبه أيضًا ، وللعيدروسي

كتاب « النجم الساعي في مناقب الغوث الكبير الرفاعي » ، و « ربيع العاشقين في مناقب الإمام الرفاعي سلطان العارفين » للحدادي ، و « بهجة السيد أحمد الرفاعي لمجهول » ، و « مطلب الساعي في مناقب الرفاعي » للحبـاب ، و « نتيجـة المفـاخر في بني رفاعة السـادة الأكابر » للحـريري (١٣٣٠هـ) . وينسب لمحمد الحنفي « الروض النسيق في علم الطريق » ، ولليافعي (٧٦٨ هـ) « نشر المحاسن الغالية في فضل مشائخ الصوفية أصحاب المقامات العالية » ، و « جلاء الصدا في سيرة إمام الهدى » ، و « مناقب الصالحين ومحبة أهل اليقين » للوتري (٩٨٠هـ) ، و « تحفة الكرام المبذولة في تراجم غوْث جَزُولة » (٨٧٠هـ) ، وكتاب « بيان غربة الإسلام في صنفي المتفقّهة والمفتقِّرة من أهل مصر والشام » للفخّاري المغربي (٩١٧هـ) ، و « ترجمة الدرقاوي » للمعَسْكري (١٢٣٩هـ) ، و « أخبار الصالحين والزهاد والعارفين والعباد والأولياء » لمجهول ، و « درر الأبكار في وصف الصفوة الأخيار » للسَّرميني ، و « نظام الدر المكنون في حكم خِرْقة الفقير المصون » للردَّاد (٨٢١هـ) ، و « إطفاء حُرقة الحوبة بإلباس خِرقة التوبة » لابن ناصر الدين (٨٤٢هـ) ، وكتاب « مفتاح المطالب ورُقية الطالب » للديري ، و « كتاب نور الحدق في لبس الخرق » للكركي (٩١٢هـ) ، و « سند ابن ميلق » لابن بنته (٧٩٧هـ) ، و « خبايا الزوايا » للعجيمي ، و « ثبَت في الطريق » للمكتبي ، و « ثبَت الشيخ أبي تراب » التونسي في الطريقة الرفاعية .

لا شك أنَّ الفارق كبير بين المرحلتين ومؤلفاتهما ، وهو يرجع أساسًا إلى التحوُّل الكبير الذي طرأ معنى التصوُّف والزهد ، وسُبل التعبير عنهما ، والموازنة حتى على مستوى العناوين تقفنا على أننا أمام علم وفكر إسلامي رصين في القرون الأولى ، وتهافت وضَعف في القرون المتأخرة ، في الفكرة واللغة والأسلوب والهدف .

وإذا ما تجاوزنا القرن التاسع الهجري فإننا نَلحظ غَلبةَ اطِّراد الانحدار في أساليب التأليف، وموضوعاته، ومصطلحاته، مثل: مصطلح (الخِرقة) الذي استُحدث للدلالة على توارث البيعة النبوية، والدفاع عن (الكرامات ضد منكريها في الحياة وبعد المات)، ويندُر أن تجد عناوين بهذه الصيغة قبل القرن السابع الهجري، أو أن تجد مصطلحات كالغوْث، والقُطب، والنقيب، والفقير، بمعناها الصوفي قبل القرن الرابع، ولم أجد أحدًا، في اطِّلاعي المتواضع، ينسب أيًّا من هذه المصطلحات إلى عَلَم من أعلام الإسلام قبل الحكيم الترمذي، الذي توفي على رأس المائة الثالثة أو بداية المائة الرابعة [1]، أو الجُنَيد السالك الذي عاصره وعاش أواخر المائة الثالثة، وقد تجد في تصوفهما بعض هذه المصطلحات عرَضًا [2]، ولكنهما يسموان فوق مستحدَثات المتأخرين التي تتجلَّى في مؤلفاتهم، من مثل:

«رسالة في لبس الخِرقة وتلقين الذكر» لمرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ)، وله «عقد الجوهر الثمين في الذكر وطرق الإلباس والتلقين»، ولإبراهيم السويسي (١١٩٦هـ) «الطرائق الاثنى عشر في علم التصوُّف»، وللقادري «القول الحقيق في إجازة الطريق»، ولمجهول «الطرق الصوفية بالديار المصرية»، وللشاذلي «الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء يقظة بسيد الدنيا والآخرة»، وللقسطنطيني الحنفي «رياض السادات في إثبات الكرامات للأولياء حال الحياة وبعد الممات»، وللمناوي (١٠٣١ هـ)

---

(١) توفي الحكيم الترمذي سنة ٢٩٥ هـ وقيل ٣٠٠ أو ٣٢٠.

(٢) من آثار الحكيم الترمذي كتاب «ختم الأولياء» وكتاب «العلل»، في الكتاب الأول يتبرأ من أن يفضل الأولياء على الأنبياء، ومن المعلوم أنه من خراسان التي جاء منها معظم أهل التصوف الزهدي والفلسفي، فمنها جاء إبراهيم بن الأدهم والفضيل بن عياض وشقيق البلخي، ومنها انحدر الحلَّاج، وفيها تكوَّن داود الطائي، فلك أن تتصور تأثير هذه البيئة في التصوف الإسلامي إذا عرفت مكانة هؤلاء ومَن جاء بعدهم مثل جلال الدين الرومي.

« إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمٰن » ، و « كرامات الأولياء » للشوبري (١٠٦٩ هـ) ، و « السيوف الصقال في رقبة من ينكر كرامات الأولياء بعد الانتقال » لعبد الباقي المقدسي (١٠٧٨هـ) ، و « رسالة في كرامات الأولياء » للوفائي (١٠٨٦هـ) ، و « العُقاب الهاوي على الثعلب العاوي » للبرزنجي (١١٠٣هـ) ، و « القواصم الهاشميات لمنكري كرامات الأولياء في الحياة وبعد المات » للحسيني (١١٧٣هـ) ، و « فيض العلي ذي الجلال بإثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال » للخالدي الأزهري (١١٨٢هـ) ، و « إماطة نقاب الغيب عن وجوه رجال الغيب » لمجهول ، و « رسالة في كُمَّل الرجال الذين يأتون في كل زمان » لمجهول ، و « السهم الغبي في نحر كل غبي » للسجاعي (١١٩٧ هـ) ، و « رسالة جواز الجهر بالذكر » ، وفي « الذب عن الصوفية » لمجهول ، و « رسالة في القطب والأوتاد والأربعين الأنجاد » للغيطي (٩٨٤هـ) ، و « مرآة الأصفياء في صفات الملامية الأخفياء » ، و « علو شأن الأولياء » للمولوي (١٠٦٩ هـ) ، ومنها « الفنون العرفانية والهبات الملكانية » للخلوتي (١٠٠١هـ) ، و« النفحات الندية في مبنى الطريقة المحمدية » للقوصي (١٠٦٥هـ) ، و« عنوان المشايخ الطيبين وشأن الأولياء المهذبين » لعاكف زاده (١٢٦٣ هـ) .

ومع ذلك فهناك - كما ذكرنا - استثناءات لكتب صوفية قيِّمة أُلِّفت في هذه القرون ، مثل ما كُتب في موضوع : الإخلاص لله ومحبته ، وما كتب في عيوب النفس وشرورها ، وأعمال القلوب ، والحِكم وشروحها ، لعدد من المؤلفين ، وإنني لا أسمح لنفسي أن أقلل من قيمة جهودٍ حاولتْ ما في وسعها في العصور المتأخرة أن تبتكر طريقة تُقرِّبُ من الله ، ولكن للقارئ الحق في أن يتساءل طلبًا للمراجعة : أين كُتُبُ هذه العصور المتأخرة في عناوينها ، وموضوعاتها ، من الكتب العلمية ، والعقلية ، والصوفية التي

كُنا قد استعرضناها من مؤلفات القرون الأولى ؟ بما فيها من التزام بأدب القرآن ، ودِقة في تحرِّي صحة النص ، وميْل إلى البرهان العقلي ، وانفتاح على الثقافات الأخرى من خلال التَّرجمة ، فتلك علوم أَسَّسَت لحضارة وثقافة راقية ، فاهتمَّت بمخاطبة العقل بعناوين مثل : الإقناع ، والتدبير ، والترتيب ، والتركيب ، والتقسيم ، والتبيين ، وهي إشارات تدل على توظيف العقل واحترامه ، والاحتفاء بنتاجه في التأليف والتفكير ، أما في القرون المتأخرة فقد أدى الضَّعف في التأليف والتفكير إلى ضيق الأُفق ، والتعصُّب المذهبي ، والانغلاق الطائفي ، وصراع الفِرق ، واعتزازِ كلِّ ذي رأي برأيه ، والانتصار له ولو بالخوارق والشعوذات .

- ٣ -

الحكم الشرعي في تداول كتب التصوُّف المتطرفة

اختلفَ الفقهاءُ في حُكم الاطلاع على الكتب التي عُرفتْ بالشَّطحات الصوفية المخالِفة لظاهر الشريعة ، وأوردَ البَرموني نفسُه نصًّا لأحد الفقهاء يقول فيه : « والذي أذهبُ إليه وِفاقًا لبعضهم هو أنه يجب اعتقادُهم وتعظيمُهم ، ويحرُمُ النظرُ في كتبِهم على مَنْ لم يتأهلْ لتنزيل ما فيها من الشَّطحات على قوانين الشريعة المطهَّرة » . ولا يخلو كتابُ البَرموني من بعض هذه الشَّطحات ، ولكنها ليست مركَّزةً فيه ، كما هي في مختصره الذي أعده محمد مخلوف ، فقد حذف منه الكثيرَ من الفوائد العلمية والأدبية ، وحشاه بالحكايا والكرامات التي تنتهجُ منهج الغلوِّ ، مما جعله محلَّ إنكار العلماء .

وقد كتب الدكتور الصادق الغرياني في هذا المعنى كلامًا جيدًا ، يُراجَع في كتابه (الغلو في الدين) ، جاء فيه أنَّ « الغلوَّ في الكرامات ، وقصائد تزكية النفس ، بادعاءات لا يجوز شرعًا أن يدَّعيها مخلوق ، مما شُحنت به بعض

الكتب التي تتداولها الأيدي ، مثل « مختصر البَرموني » وغيرِه ، هي من الكتب الضارَّة ، والعجيب أنَّ هذه الكتب لا تتداولُها أيدي الجماعات التي تأكل بالبركة والادعاء فحسب ، بل أيدي كثير ممن ينتسبون إلى العلم الشرعي ، ودرسوا الفقه والأحكام ، فهم - للأسف - يقرؤونها ، ويرجعون إليها ، ويتعبدون بقراءتها ، ويعتقدون أن لقراءتها نفحاتٍ ، ويتقرَّبون إلى أهلِها من العامة ، رجاء البركة ، ويجلسون مجالسهم ، ويُقرُّونَهم عليها ، ولا يعترضون ، بحجة المقولة المشهورة ، وفَهمها على غير وجهها (اعتقد ولا تنتقد) وأنك تخاف السَّلب ، وأن أصحاب المقالات المسطَّرة في هذه الكتب ، قالوها في حالة الجذْب . وبذلك يعطي أهلُ العلم شرعيةً للعامة على الاستمرار ، والعكوف على ما هم عليه من تصديق هذا الباطل والتمادي عليه »(١) .

وعليه فإن ما ينطبقُ عليه هذا الحُكم الشرعي من نصوص كتاب البرموني مردودٌ عليه ومُحذَّر منه ، ولولا الحرصُ على الأمانة العلمية لوجبَتْ إزالتُه ، ولكن الظنَّ قائمٌ بأنَّ وَعْيَ الناس بالدِّين قد تغيَّر إلى الأفضل ، ولم تعُد تنطلي عليهم تلك المخالفات للدين والعقل ، وأن إخفاء المعلومة يجعلُها مطلوبةً بصورة ألحَّ ، وعن طريق وسائل أكثر ضررًا . ولذا رأينا التنبيهَ على الشوائب حيث كانت ، وسوف يجد القارئ إلى جانبها الكثير من الفوائد والمعلومات القيِّمة والمعارف النفيسة التي لا يصحُّ أن نخفيها ، أو نتغاضى عنها بسبب ما خالطها مما أشرنا إليه .

* * *

(١) الغلو في الدين : غلو التطرف وغلو التصوف ، الدكتور الصادق عبد الرحمٰن الغرياني ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ ، ص ٩٥ .

المدخل الثاني

الغيب والخوارق والكرامات

- ١ -

ادِّعاء علم الغيب

إن الغيبَ بمعناه اللغوي هو ما غاب عنك، والغيب بهذا المعنى نسبيٌّ، فما غاب عنك من الموجودات والوقائع الحاصلة، قد يعلمُه غيرُك؛ لأنه يشاهدُه أو يسمعُه بالحواس، فإذا أطلعَك أحدٌ يلازمُك على هذا المغيَّب عنك، فإنك ربما تساءلْتَ عن سرِّ علمه به، فإنْ أنبأك أنه تلقَّى الخبرَ هاتفيًّا بطل العجب، فإذا لم تعرف هذا السرَّ أُلقي في رُوْعك أنَّ صاحبك يعلم الغيب، والغيب الذي يدَّعيه الكهنة والمتعاملون مع الجن والمنجِّمون، هو من هذا النوع الواقعي الذي يخبُرك به أحدُهم؛ لأنه يشاهدُه أو يسمعُه بوسائلَ أخرى لا تتعامل أنت معها.

وعندما يُدهشُك هذا الأمر عن ما غاب عنك من الوقائع، قد تتقبَّل الادِّعاء بأنه يعلم أشياءَ من غيب المستقبل أيضًا. وينطبقُ هذا على نبوءات المتنبِّئين، والسَّحَرة، ومستخدمي القرناء والوسائط البشرية، فهم يُخبِرون الناس بما غاب عنهم، فيجدونه مطابقًا للواقع، فينخدِعون بقدراتهم الخارقة، ويظنون أنهم قادرون على عِلمِ غيرِه من الغيوب المستقبلية، وهذا موجود عند غير المسلمين أيضًا [1].

(١) أورد الدكتور الصادق الغرياني أمثلة للاستدراج والتعامل مع الشياطين، الذي يستعمله غير المسلمين حتى في هذا العصر الحاضر، وأشار إلى شريط وثائقي شاهده بنفسه عن بعضهم (الغلو في الدين ١٠٣).

وذلك يختلفُ قطعًا عن الوحي الإلهي المنزَّل إلى الأنبياء ، وفيه إخبار عن أحداث مغيَّبة في الماضي والحاضر والمستقبل ، تكتسي طابع الدِّقة والصحة والقداسة ، وعليه فإنَّ أيَّ ادعاء لشخصٍ أنه يَعلمُ غيبَ المستقبل ، يعني أنه يدَّعي التواصلَ مع مصدر الرسالة ، أي مع الله ، وأنه يدَّعي أنَّ الوحي لم ينقطع بوفاة الرسول ﷺ ، وأن الأمر لا يقتصرُ على الرؤية التي تحدَّث عنها الرسول ﷺ ، بل يتحدَّثُ بعضُهم عن وحي إلهي باللفظ والمعنى ، وعن حُجُب مرفوعة ، وغيوب مكشوفة ، وأن وسيلةَ وصولِه لا تختلفُ عن غيبِ الأنبياء إلَّا من جهةِ عدمِ رؤيةِ الملَك المرسل .

ويُطلق بعضُهم اسمَ الوارد ، أو إخبار القلب عن الرب ، على ما يهتدي إليه من طيِّب القول ، ثم لا يَشُكُّ بأن ما ورد إليه هو وحيُ الله وكلامه ، فيكتسبُ هذا القول لديه قدسيةً إلٰهية ، يُلغي بها كلَّ ما عداها من اجتهادات الآخرين وتوفيقاتهم الإلٰهية أيضًا ، وينسى أنه ليس معصومًا من كيد الشيطان الذي يأتي إلى الصالح في أثواب الصالحين ، ويوهمه أنه رسول رب العالمين ، بل إن الشيطان يأتي إلى المعصومين أيضًا ، ولكن الله يتدخَّلُ لعصمتهم ، قال – تعالى – : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ (1) أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ (2) فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج ٥٢) ، وإذا كان هذا مع المعصومين فكيف بغيرهم ؟ فليتَّق اللهُ مَن يُتصوَّر أن ما يأتيه من التوفيق في الأفكار أو التأويلات مصدرُه الوحي المباشر من الله ، وليعدَّه توفيقًا إلٰهيًّا ، أو اجتهادًا صائبًا يَحمَدُ اللهُ عليه ، حتى لا يقع في اعتقادات باطلة يَجزِم بها ويُلغي كلَّ ما عداها .

(١) تمنى : قرأ وتلا كتاب الله .

(٢) الآيات التي يتلوها .

وهذا أمرٌ خطيرٌ ينبغي أن يُوليه المتصوِّفةُ الحقيقيون اهتمامَهم لينْزِعوا من أيدي منتقديهم أهمَّ أسباب انتقاداتهم ؛ لأن انقطاع الوحي كان أشقَّ ما شعر به الصحابةُ بعد وفاة رسول الله ﷺ ، ولم يردْ عنهم أنه مستمرٌّ بعد وفاته ، بل ما ورد عكس ذلك تمامًا ، فقد ورد أنَّ أُمَّ أيمن حاضنةَ رسول الله ﷺ بكتْ حين زارها أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - وحين سألاها عن سبب بكائها ، قالت : « إنما أبكي لانقطاع الوحي » ؛ فالصحابة مجمعون على انقطاع الوحي بوفاة الرسول ﷺ ، وهذا مفهوم ختم الرسالات والنبوات . وحديث « لم يبق بعدي إلا المبشِّرات ، وهي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له » ؛ أشار إلى بعضٍ ما لم ينقطع من التوفيق ، والتسديد ، والتثبيت الإلهي للمؤمن ، ومنه الرؤيا الصادقة بشروطها الشرعية ، والهداية ، والإلهام إلى الصواب ، والعناية الإلهية . والسبيلُ إلى ذلك لا يكون بغير الإيمان والاستقامة والعبادة ، وهي أسس التقوى « قل آمنت بالله ثم استقم » فالاستقامة هي الكرامة .

وعلى ذلك فإننا نكرر ما تقدم تأكيدًا لأهميته ، فنقول : « إن الله يشرح قلب المهتدي » ، و « يهدي قلبه » ، و « يفقِّهه في الدين » ، ويوفِّقه : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (هود ٨٨) ، ويجيبُ دعوتَه : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة ١٨٦) ، ويُعطيه « فراسة المؤمن » ، ولكن لا وحي بعد النبي ؛ فالله قد اصطفى الأنبياء والرسل وخصَّهم بخطابه ، أو ما يُعرف بالوحي المباشر ، فكان منهم الكليمُ ، وغيرُ المباشر بواسطة المَلَك . أما وقد خُتِمَتْ الرسالات وانقطع الوحي - كما قالت أم أيمن - فلا مجال لدعوى استمراره ، ولو كان له أن يستمر لكان ذلك على أيدي صحابة رسول الله ﷺ والتابعين ، ولكننا لم نسمع أن أحدهم نزل عليه وحيُ التشريع أو غيره ، بل اجتهدوا واختلفوا ، وعادوا إلى الكتاب والسنة يلتمسون الفصل فيهما ، وهذا مفهومُ

ما رُوي عن معاذ بن جبل حين سأله رسول الله ﷺ عن كيفية قضائه إذا لم يجد في كتاب الله وسنة رسوله ، قال : « أجتهد رأيي ولا آلو » (ولم يقل أنتظر الوحي والواردات السماوية) ، فقال رسول الله : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله » (١) ؛ ولو كان هناك طريق آخرُ للوحي الإلهي لقدَّمه على الرأي دون ريب ، ولكان أرضى بذلك الله ورسوله ، ولا نعتقد أن أحدَ الأولياء - رضوان الله عليهم - يعتقد أنه أحقُّ بالوحي من الصحابي الجليل معاذ بن جبل رسولِ رسولِ الله ﷺ .

نعم جاء رأيُ بعض الصحابة موافقًا للوحي ، كما حصل مع عمر بن الخطاب ﷺ ، لكنه لم يقل إنه تلقى الوحي بذلك الرأي ، ولا نجد أحدًا في القرون الأولى يدَّعي نزولَ الوحي عليه بعد عصر الصحابة ، فكيف يكونُ ذلك ممكنًا في عصور التخلُّف والجَزْر ، وهي القرون التي انتشرت فيها الأُمِّية والأمراض الفكرية والجسمية ، وغزا العالمَ الإسلامي فيها أعداءُ الأُمَّة زمنًا ؟ ومن ذلك ما شهدته ليبيا أيام ازدهار التصوُّف من هجماتِ الفرنجة ، والإسبان ، والنورمانديين ، وفرسان القديس يوحنا ، وسالتْ خلاله دماءُ المسلمين في المدينة ، وأُسِر أبناؤهم ، وسارت قوافلُ أسراهم إلى أوروبا ، ولم نسمع أو نقرأ أنَّ تلك الخوارق أسهمَتْ في تحرير البلاد ودفع غُزاتها ، وقد جاهد المخلصون من أهل التصوُّف وغيرهم ، بإمكاناتهم البشرية المحدودة لتحريرها بقدر استطاعتهم ، ولكنهم لم يملكوا أسباب النصر التي أمر الله بإعدادها ، ولولا فضل الله عليهم بتحريك حميَّة إسلامية ، وتركية ، ومغربية ، وتونسية ، ومحلية ، لبقيتْ طرابلس في رِبْقة الكفر وقتًا أطول ، وقُلْ مثل ذلك عن الهجمات الصليبية في فلسطين ، التي واكب غزوَها ازدهارُ الخوارق البعيدة عن الكرامات الحقيقية ، وقُلْ مثل ذلك

(١) سنن أبي داود : كتاب الأقضية ، وسنن الترمذي : كتاب الأحكام .

وأكثر عن الغرب الإسلامي كلِّه ، الذي امتد إليه غزوُ الإسبان والبرتغاليين ، فلم تنفعْهم خوارقُ الأدعياء في دَحْر المعتدين لولا عزمات المجاهدين في معركة وادي المخازن وغيرها .

بل إن المتصوفة الحقيقيين أنفسَهم اشتكوا من كثرة الدعاوى الكاذبة على هامش التصوُّف ، كما اشتكى قبلهم الولي الصالح أبو مدين الغَوْث حين قال : [طويل]

واعـلمْ بأنَّ طـريقَ القَـوْمِ دارسـةٌ   وحالَ مَنْ يَدَّعِيها اليومَ كيفَ تَرى[1]

ومثل ذلك تمامًا يقوله الشيخُ الأسمر عن أدعياء زمانه ، وهم الذين لم تَسْلَم منهم سيرةُ حياته ، فهو لا يدَّعي الوحي ، وينسبُ علمَه إلى من سبقه من علماء الأُمَّة - كما يتضح من رسائله - يدفعُه إلى ذلك ورعُه وعلمُه بقوله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ (الأنعام ٩٣) .

نعود إلى القول بأنَّ الإلهام وفتْحَ البصيرة وتنويرَ العقل من منن الله - تعالى - المتواصلة على الإنسان ، لكن ذلك لا يجعلُك تنسبُ ما يرد على لسانك وقلمك بهذا الفتح إلى الله لتُكسبه قداسة الوحي ، وقد يكون ذلك بتزيين الشيطان لعملك ، فتتعصبُ له تعصبَك للعقيدة ، وترفعُه إلى مستوى القرآن الكريم ، وإذا أردْتَ أن تعرفَ متى جرى الإكثارُ من ذكر مصطلحات الواردات والعلوم اللدنية ، فاعلم أنَّ أكثرها ورودًا كان في مؤلفات ما بعد المائة الهجرية السادسة ، وتزايد وصفُ الشيوخ بها بعد القـرن العـاشر ، حتى إنك إذا جمعْتَها ظننْتَ أنك في عصر ازدهـار علمي لا نظير له ، ومع أعلام لا يضاهيهم مَن تقدَّمهم في علم ، وتسألُ نفسك ،

---

(١) ديوانه .

هل هناك في نِتاجهم العلمي ما يجعلهم في مستوى أهل القرون الأولى ؟ أو منهم مَن بلغَ في علوم الدين ما بلغه أئمةُ المذهب في الفقه ، وأئمة الحديث في السنة ، وأئمة النحو والبلاغة والأدب وغيرها من علوم العربية ، وقُلْ مثل ذلك في السِّير والتاريخ ، وعلم الكلام ، وغيرها ؟ وهل هناك من رجال هذا العصر الذين اشتُهروا بالفيوضات العلمية ، مَن لهم حظٌّ من علوم الدنيا ، جعل الأُمَّة الإسلامية تُنافس الأُممَ الغربية التي بدأت نهضتَها في هذه الحقبة بالذات . وحين أرادتْ الاستعانةَ بعلوم المسلمين رجعتْ إلى علوم الحضارة الإسلامية في عصور نهضتها الأولى ، ولم تَعُدْ إلى علوم القرن العاشر الهجري - على اختلاف مجالاتها - ، وعلى الرغم من ذلك فإن العلماء العاملين والأولياء الصالحين في هذه القرون المتأخرة لا يدَّعون تلك الدعاوى التي يُطلقها الأتباع المتعصِّبون ومَن يَنقُل عنهم أو يُصدِّقهم إلى عصرنا هذا .

وإذا استعرضَ المسلمُ الآياتِ القرآنية التي تَقْصُر علمَ الغيب على الله ، لا يمكنُه أن يُقرَّ لأحد بادعائه معرفة الغيب الإلٰهي ، ما لم يكن سبيلُه الوحي إلى نبي مرسل ، قال - تعالى - : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن ٢٧-٢٨) ، أو كان سبيلُه الرؤية الصادقة ، بل إن اللهَ قد جعل حدودًا لعلاقة رسوله ﷺ بالغيب في قوله - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (ص ٦٩-٧٠) . وكيف يستقيم الادعاء بمعرفة الغيب لغير الرسل ، واللهُ يقول لرسوله ﷺ : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ (الأنعام ٥٠) ، ويقول : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠

إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف ١٨٨) ، فمَن مِنَ البشر أَوْلَى بعلم الغيب من الرسول الأعظم لو كان ذلك ممكنًا ؟ ، يقول – سبحانه – : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام ٥٩) ، إذن لا غيب إلا بوحي ، ولا وحي إلا لرسول ونبي ، ولكن بقيتْ من النبوة بعد الرسول المبشّرات ، وهي الرؤية الصالحة يراها المؤمن الصالح أو تُرى له [1] ، بشروطها [2] ، وهذا المعنى راسخٌ في عقيدة المسلمين منذ صدر الإسلام ، لا ينحرفُ عنه إلا زائغُ العقيدة مُستدرَج .

وقد نَسَب البَرموني في كتابه هذا بيتًا من الشعر إلى الخليفة الرابع عليّ ابن أبي طالب ﷺ ، يُثبت فيه اقتصارَ علم الغيب في عقيدة الصحابة على الله – سبحانه – ، قال الإمام – كرم الله وجهه – :

أما والذي لا يعلمُ الغيبَ غيرُهُ ومنْ ليسَ في كلِّ الأمورِ له كُفْوُ

فإذا أرادَ اللهُ إطْلاعَ عبادِه على الغيب أرسل رسولاً ، فلما انقطع الوحيُ لم تبق إلَّا الرؤيا الصالحة ، وهكذا كان إيمانُ المسلمين في القرون الثلاثة الأولى ، ولكن خلَف من بعدهم خَلْف ادَّعوا غير ذلك ، وافتروا على الأولياء نصوصًا تزعُم عِلْم بعضِهم بالغيب ، واطِّلاعهم على اللوح مباشرة ، ونخصُّ منها في المتعلّقات بحياة الشيخ الأسمر ، ما ورد في كتاب « البحر الكبير » لعبد الرحمٰن المكي مما ينسبه إلى الشيخ الأسمر ، حيث يقول مخاطِبًا

(١) رواه الترمذي وحسَّنه ، ورقمه في سننه : ٢٢٧٣ .

(٢) حَرَّم بعض الفقهاء التحديث بالرؤيا السيئة ، اعتمادًا على نَهْي رسول الله لمن قال له : رأيت كأنَّ رأسي سقط على الأرض وأنا أتبعه ، واشترطوا ألا يكون في الرؤيا الصادقة حكم يخالف ما عُرف من أحكام الشريعة أو يزيد منها أو ينقص ، ولذلك وُصفت بالمبشِّرات التي إن رآها المسلمُ ثَبَّتَتْ قلبَه وقَوَّتْ إيمانه ، دون أن ينبني عليها شيء مفروض أو مسنون أو غيرهما من أحكام الشرع لم يكن معروفًا .

مَلَك الموت ، وقد جاء يقبِضُ روح ابنه عمران : « يا مَلَكَ الموتِ لا حاجةَ لك عندنا اليوم ، سألتُك بالله أنْ تمشي عنَّا يا عزرائيل ، فعُمرُ ابني طويل يزيدُ على الثلاثين سنة ، زيادةً حسيَّةً ، حياةً من غير ما مضى من عمره قبل نهار اليوم ، فأنت يا مَلَك الموت نظرتَ في المحو ، وأنا نظرتُ في المُثْبَت »[1] .

فلو فرضنا أن مَلَك الموتِ أخطأ مع شخص لا يعرف التخاطب معه ، فهل يأخذُ روحَ هذا الشخص قبل أجَله ؟ ولا يجوز مجرد السؤال عن أيِّهما أصدق ، هذه القصة الغريبة أم قولُه - تعالى - : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ؟ (الأعراف ٣٤) ؛ لأنه لا يختلف مؤمنان على أن الأصدق في الأمرين هو ما قاله الله تعالى . فهل يبقى من شكٍّ في أن هذه القصة وأمثالها من الوهم ؟

ولن تجدَ مثلها في تراث القرون الأولى ، بل لن تجدَها في التراث الحقيقي للشيخ الأسمر ، ولا في ما وصل إلينا مما كتبهُ الشيخُ عمر بن جحا خليفة الشيخ في الطريقة عن سيرته ، ولكن لا عَجَب أن يصدرَ هذا الخبرُ عن عبد الرحمٰن المكي ، فهو الذي نَسب إلى الشيخ زوجةً جنِّية وأولادًا منها مقيمين في مصر ، ولم أقف على أحد نَسب إليه هذا من المغالين والمقتصدين ، والغالب أنَّ تخلُّف هذه الأمة كان لأسباب ، من بينها مثلُ هذه الأوهام والمعتقدات الضالَّة ، التي كثُر رواجُها ، وشاع التصديق بها ، والخوفُ من إنكارها في القرون الأخيرة .

لقد طال سُبات هذه الأمة منذ القرن السابع الهجري ، وهي المؤهَّلة برسالتها الخاتمة أن تتصدَّرَ الأمم ، وتُعلِّم الشعوب ما أودعه الله في كونه من السنن ، وما أودعه في الإنسان من الطموح والقدرات العقلية والعملية ؛

(١) البحر الكبير لعبد الرحمٰن المكي ٥٣ .

لاستخدام الأسباب والجهود والوسائل ؛ لكشف تلك السنن والتعامل معها بقوانينها الطبيعية ، وليس بتحدِّيها وتجاوزها ، قال – تعالى – : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ (فاطر ٣٤) ، وقال – سبحانه – : ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾ (التوبة ١٠٥) ؛ ولو جاز أن تُخْرَق السنن بهذه السهولة لما استُشهد مسلم أو جُرح في بدر ، وما انهزم المسلمون في أُحد ، ولا زُلزلوا في الخندق ، ولا مات إبراهيم الابن الأخير لرسول الله ﷺ الذي عبَّر عن حزنه عليه بالدمع ، ولو جاز أن يعلمَ أحدٌ غيب السموات والأرض لعلمه صفيُّ الله ﷺ ، ولما قال الله – تعالى سبحانه – على لسانه : ﴿ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ ﴾ (الأعراف ١٨٨) .

وفي كتاب البَرموني – على نفاسته – بعضُ الأوهام المخالفة لظاهر الشريعة في هذا الشأن ، منها قوله : « فعلوم الغيب تتنزَّلُ بها الأرواح على قلوب العارفين العُبَّاد ، ومَنْ عرفهم تلقَّاهم بالأدب ، ومَن لم يعرفهم أَخَذ عِلمَ الغيب ، ولا يدري عَمَّن كان ، كالكهنة وأهل الزَّجْر ، ولهذا كان أهل الله – تعالى – يَرَوْن تَنَزُّلَ الأرواح على قلوبهم ، ولا يرون الملك النازل إلا أن يكون المُنَزَّلُ عليه نبيًّا أو رسولاً » ؛ وذلك من غرائب التأليف في هذه العصور المتأخرة ، ومن نماذج ما ينسُبُه الأتباعُ إلى شيوخهم . ففي هذا القول إطلاقٌ للفظ الغيب على الوحي المنزَّل على الرسل – عليهم السَّلام – ، ودعوى نزوله على العارفين أو الأولياء . ووجه الغرابة في أن يكون الفرقُ بين نوعي الوحي بعلم الغيب مقتصرًا على رؤية المَلَك من عدمها ، والأغربُ أن يكونَ النوعُ الثالثُ من مصادر علم الغيب هم الكهنة وأهل الزَّجْر .

ولكن البَرموني نفسه يتبرَّأ في موضع آخر من أولئك الذين يدَّعون تلقي الوحي من الله ، القائلين « حدثني قلبي عن ربي » ، ويريدون بذلك أن لهم طريقًا موصلاً إلى الله غير الرسل ، ويقول بصريح العبارة : « قلنا : حكمُنا هذا في من خالف صريحَ الكتاب والسنة ، وضرَب على أقوال العلماء ، وجعلَهم في غير العقلاء ، ونسبَهم للجهل ، وادَّعى القُطبانية العظمى ، وزَعم أنَّ عِلْمه من الله ﷻ ، من غير واسطة الرسول ﷺ ، أثبَتَ لنفسِه خاصة النبوءة ، لقوله لأهل عصره : أخذتُ العلمَ من غير قراءة وواسطة عن قلبي ، وقلبي أخذَ عن ربي ، وأنا أعملُ بمقتضاه ، لا نحتاجُ في ذلك إلى كتاب ولا سنة ، فهو الآن بهذا الوصف من المجرمين ، المتظاهرين بالدين ، المسترين بزيِّ المسلمين ، إلى أن قال : « إذ لا آخذ عن الموتى ، وإنَّما آخذ عن الحي الذي لا يموت »(1) ، ومثل هذا كثيرٌ ، فما هذا إلا بهتان عظيم ، نسأل الله سبحانه أن يعافينا منه » . انتهى .

– ٢ –

الكرامات والتعامل مع الجن

هذا مبحثٌ يصعُب الخوْض فيه على مَنْ لم يعِشْ التجارب الواقعية التي عاشها أربابه ، ويصعُب بالأخص على أولئك الذين لا يؤمنون بشيء خارج حدود الطبيعة ومدارك الحس ، أو الذين يفسِّرون الظواهر غير الطبيعية بتفسير طبيعي ، وباستثناء الكرامة وما يتصلُ بها من توفيقات إلٰهية ، فإن هذه الظواهرَ الخارقة للعادات لا تقتصر على المؤمنين ، ولا على الثقافات القديمة ، ففي الولايات المتحدة معهدٌ متخصص لدراسة

(١) انظر : ص ٥١٩ .

الظواهر غير الطبيعية بقصد إيجاد تفسير طبيعي لها ، وتتأكد يومًا بعد يوم حقيقةُ وجودِ ظواهرَ غريبةٍ تحتاج إلى تفسير ، منها : السِّحْر الشائع منذ القِدم في شعوب شتَّى ، وقد شاع في بلادٍ متعدِّدةِ الدِّيانات كالهند – مثلاً – على أيدي أصحاب معتَقَداتٍ مختلفةٍ ظواهِرُ خارقةٌ للعادة ، منها ما يُعرف بالتِلِبَّاثي Telepathy ، وتراسُل الحواس ، وتوارُد الخواطر ، وغيرها .

فهل يمكننا وضعُ الكرامة والتوفيق الإلهي والرؤية الصادقة ، والإلهام في صِنف واحد مع هذه الظواهر ؟ لا يمكننا ذلك إلَّا من حيث إنها خارقة للعادة الطبيعية مثلها ، ويمكن أن نفرِّق بين الكرامة ، والسِّحْر وغيره من الخوارق البشرية ، بما يأتي :

– عُرِّفت الكرامة بأنها : « أمر خارق للعادة ، يُظهره الله – تعالى – على يد عبد من عباده الصالحين المتقين الأبرار ، رفعًا لقَدْره ، لا يقترن بدعوى النبوة »[1] ، وعليه فالكرامات توفيقات إلٰهية تجري على أيدي الأتقياء ، دون أن يكون لهم تدبيرٌ في إجرائها ، فهي إكرام من الله – تعالى – لعباده الصالحين ، وتكونُ أمرًا خارقًا للعادة غالبًا غيرَ مقترن بدعوى نبوة ، ولا بادعاء تفضيل لتعظيم النفس أمام الناس ، ولا يُقصد بها التحدي ، ولا تكون الكرامة إلا مع التقوى والاجتهاد في العمل الصالح ، واتِّباع الأوامر واجتناب النواهي الشرعية ، وقد تجري على سُنن الواقع مع تيسيرٍ وترتيبٍ غير معتاد ، أو في ظروف غير مواتية ، بتوفيق من الله ، على حين يجري السِّحْرُ وما يتَّصلُ به من الشَّعوذة على أيدي غيرِهم طلبًا للدنيا وإفسادًا في الأرض ، وبوسائل بشرية مكتسَبة بالتعليم والتجربة ، أو هو من قبيل الاستدراج والتلبيس . ومَن يدَّعي الكرامة ولا يتَّبعُ ظاهر الشريعة فهو من هؤلاء .

(١) الغلو في الدين ٦٩ .

- والكرامة سرٌّ بين العبد وربه ، لا يُظهرُه العبدُ اختيالاً ومباهاة ، على حين يباهي أصحابُ الظَّواهر الخارقة بها ، ويستكثرون منها ، ويبالغون في نشرها والاستفادة من الاشتهار بها ، ولذلك كَرِه العلماء والمتصوِّفة المخلصون الإعلانَ عن الكرامة ، قال الدكتور الشيخ الصادق الغرياني : « لا يجوزُ للمسلم ادِّعاء البركة ، والرِّضا عن النفس بالتحدث بالكرامات ، فإن ذلك من علامات فساد القلب والخِذلان ، وطلب الشهرة والرياء »(1) ، وقال : « البركة والكرامة من أمارات الشهرة المنافية للإخلاص ، فلا يحلُّ لمن يطلُبُ السَّلامةَ لدينه ادعاؤها ، كذلك من باب أَوْلَى لا يجوزُ للعابد أن يستعمل الكرامة سلاحًا يُرهِبُ به مَن يخالفُه في المنهج أو الطريقة أو الاجتهاد »(2) ، وجاءت أقوال محتسِبة الصوفية على هذا المنوال ، وفي طليعتهم الشيخ أحمد زرُّوق في « قواعد التصوُّف » وغيره ، وفي هذا الإطار جاءت رسالة أبي عبد الله الخرُّوبي إلى أحد المجاهِرين بالخوارق ، وفيها يقول : « إنْ كنتَ في ما ادَّعيتَ صادقًا فأنتَ عبدُ حالٍ لا محالةَ ، وإنْ كنتَ كاذبًا فقد بُؤتَ بالخسران والنذَّالة »(3) ، بل إن كريم الدين البَرموني يعترف في كتابه هذا بأنَّ بعض ما يسوقه من الحكايات مخالفٌ لمشهور الشرع ، فيقول : « وتخليصًا مما في أمثال [هذه الحكايا](4) من مخالفة مشهور الشرع ... إلخ » . ويقول الشاعر الصوفي مستغيثًا :

وبالعلماءِ العاملينَ بعلمهمْ ... وبالأولياءِ السَّالمينَ مِنَ الدَّعوَى

(1) الغلو في الدين ٧٢ .

(2) الغلو في الدين ٧٤ .

(3) شيوخ أبي عبد الله الخروبي ص ٨٢ ومع ذلك فقد نسب للشيخ الخروبي ما لا يجوز ، وما آفة الأخبار إلا رواتها .

(4) في الأصل : هؤلاء الحكاية .

- يكون الاعتمادُ في الكرامة على الله - تعالى - ، ويكون اعتمادُ السَّحَرةِ ومَنْ في حكمهم من المستدرَجين والمشعوذين على مهارة الخِفة ، وخِداع النظر ، والتعامل مع الجن ، أو ما إلى ذلك من ضروب الاستدراج ، ومنها : ألاعيب السِّحْر وتخييلاته التي تظهر على أيدي أصحاب الدعاوى الكاذبة ، وقد غدا سِحْر هاروت وماروت مضرِبًا للمثل ، بعد الإشارة إليهما في القرآن الكريم ، وما أمرُ سَحَرَة فرعون بخافٍ على أصحاب الديانات الإلٰهية الثلاث .

وكلُّ ذلك مخالفٌ للكرامة التي يُقرُّها علماءُ الإسلام ، ولكنَّ ادعاءَها قد بلغ منذ القرن السابع الهجري مبلغًا لم يكن معروفًا في التراث الإسلامي ، ولم يكن ذلك محلَّ قَبول لدى جميع العلماء ، كيف وقد بلغ الحديثُ عن الكرامات من الكثرة والتفاصيل حَدًّا لم يشهده صالحو الأُمَّة في عصورها الإسلامية الزاهرة ! وصارت الكراماتُ تُصنَّف بحسب المنازل ، فتجعَلُ لكل منزلة نوعًا من الكرامات ، تبدأ بالبشارات من عالم الغيب في النوم في المنْزِل الأول ، وهو منْزِل التوبة ، وتنتهي عند منْزِل المعرفة ، وفيه يستفيد النازلُ به الاسمَ الأعظم الذي يتصرَّفُ في الوجود ، وبينهما كراماتُ منازل الاستقامة ، والتقوى ، والإخلاص ، والصدق ، والطمأنينة ، والمراقبة ، والمشاهدة ، والمعرفة ، وفي كل منْزِل لونٌ من الكرامات ، منها : الاطلاعُ على عالم الجن ، وطيُّ الأرض ، وقد أورد أبو عبد الله الساحلي جميعَها على الرغم من أنه يقول أحيانًا : « وهذا مما لا ينبغي للسالك أن يركَن إليه ، ولا يعوِّل عليه » ، لأسباب ذكرها في موضعها ، وقال : إن من الكرامات صحيحًا وسقيمًا [1] .

(١) بغية السالك في أشرف المسالك للساحلي ٢/ ٤٧٥ - ٥٠٤ .

والتعامل مع الجن ليس جديدًا في حياة الإنسان ، وفي قصة سيدنا سليمان عليه السلام شيء من ذلك ، والحديث في القرآن الكريم عن هذا الموضوع محدودٌ ، ولكنَّه موجودٌ ، وهو في حياة الرسول والصحابة أكثرُ محدودية ، حتى كاد يكونُ غريبًا ، فقد فهِمَ المسلمون الأوائل أن ذلك عَالَمٌ مستقلٌّ لا ينبغي للمؤمن أن يتعامل معه ، وتجاوبوا مع التحذير الإلهي في قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (الجن ٦) ، فمَنْ ذا الذي يريد لنفسه الرَّهق الذي أكد اللهُ وقوعَه للمتعامِل مع الجن ، فيبادر بالتعامل مع هذا العالم الغريب ؟

ولكننا نجد حكاياتٍ شائعةً في القرون المتأخرة تتوهَّم خلْقَ علاقات مادية مع هذا العالم ، وقد ألَّف الشيخ الشعراني كتابًا حصر فيه أجوبةً على أسئلةٍ صادرةٍ عن الجن ، على أنَّ كثيرًا من العلماء المحقِّقين قصَروا علاقةَ البشرِ بعالم الشيطان والجن بعامة على الوسوسة والتخبُّط المعنوي ، ومن هؤلاء في عصرنا الحاضر الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية ، الذي تأتي أهمية الاستشهاد برأيه من كونه فقيهًا ومتصوفًا في الوقت نفسه .

* * *

المدخل الثالث

الشيخ عبد السلام الأسمر

- ١ -

الأسمر : المتصوِّف والعالِم

متصوفٌ مخلص ، وعالم جليل تدلُّ آثارُه الباقية على إحاطته بالكثير من علوم عصره ، ومنها : فقه المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية ، وعلوم اللغة وبعض آدابها ، والمنطق وغيره ، وهو ليس من أهل التآليف المشهورة أو الموسَّعة في هذه العلوم ، ولكن ما عُثر عليه من رسائله يدلُّ على اطِّلاع واسع ، ولغة سليمة ، وأسلوب جميل ، ودراية بالعلوم واستشكالاتها ، واجتهاد في نقاشها بفَهْمٍ وتعليل لا يصدُر عن فقيه محدود الإمكانات .

وعلى الرغم من أن البَرموني جمع أكثرَ رسائله الباقية ، فإن نصَّه الآتي يدل على أن المفقودَ منها أكثرُ من الموجود ، فهو يقول : « وله في ذلك تآليف عديدة بعث بها [إلى] الأمصار » ، ولا يمكننا أن نعدَّ الرسائل الإحدى عشرة التي دوَّنها البَرموني كافيةً لوصفها بالعديدة ، ولا ندري إن كانت هذه التآليفُ من الرسائل أو الكتب ، والأغلب أنها من الرسائل المشابهة للموجودة .

والذي يميزُ هذا الشيخ في تآليفه مع ذلك هو إخلاصُه في العبادة والدعوة ، فهو شخصية مميَّزةٌ في استنهاض الأُمَّة وأفرادها بالعلم والإيمان ، مع التركيز على قراءة القرآن وحُسْن ترتيله وتأمُّل معانيه ، وهو مالكيُّ المذهب ، أشعري العقيدة ، جُنَيدي السلوك ، شاذلي الطريقة ، مع ما تعرَّضتْ له طريقتُه من إضافات عروسية وذاتية ، ولكن علومه تمتَحُ من

بحر هؤلاء جميعًا بعد الكتاب والسنة ، وما أوتيه من علم يقع في هذه الدائرة ، وإن كان بعضُ الأتباع والمريدين بالغوا في التعريف به وبعلمه ، ونسبوا إليه من الآثار والأخبار ما يلتبِسُ على غير البصير بالفَرْق بين بضاعة الشيخ وما أُضيف إليها من أخبار وآثار ، وإذا كان مرادُهم قد تحقَّق بجلب الكثير من العوامّ إليه ، فإنه قد قلَّل كثيرًا من مكانة الرجل عند الذين لم يعرفوا حقيقتَه من أهل العلم ، ولم يَطَّلعوا على رسائله ، ولم يعرفوا حقيقةَ دعوته والظروفَ التي دعا فيها إلى الله .

وقد حاولتُ أن أجمعَ في المقدمة ، والتعليقات بين صحيح ما نُسب إلى الشيخ ، وضعيف ما نُسب إليه في هذا الكتاب ، وأن أُقرِّب القارئَ من حقيقته بقدر الإمكان ، ليعرف مكانةَ الرجل وأمثاله من العلماء العاملين في عصور الأُمِّية المنتشِرة والتخلف السائد آنذاك - وإن كان الأمرُ يستوجب دراسةً أعمق وأكثر إحاطة - ؛ ليستكشف القارئُ بغير كثير من التأمُّل مدى الظلم الذي نال هذا الداعية الجليل من أتباعه أحيانًا ، ومن نَقَلةٍ للأخبار ينقصُهم التمحيص أحيانًا أخرى ، ومن رواةٍ للآثار سَلمت نواياهم فصدَّقوا كلَّ ما نسبتْهُ العامة إلى الشيخ ، فدونوه اعتمادًا على حُسْن ظنهم في مَنْ ينقلون عنهم سيرة الشيخ وأخباره .

وإذا كان الشيخُ كريم الدين البَرموني قد أوصلَ إلينا الكثير من الرسائل الصحيحة للشيخ ، فإنه ممن يؤخذ عليه - أحيانًا - النقلُ بغير نقدٍ لأخباره ، وإذا بدا ناقدًا للأخبار ومنتقيًا في بعض المواضع ، فإنه في مواضع أخرى يبدو كحاطب ليل ، ينقلُ ما يُسمَع عن الشيخ ولا يُبالي ، بل يُدافع عنها ويُنذر المنكِرين بالوعيد الشديد ، ويحذرهم بأنه كان مثلَهم من المنكِرين ، غير أنه حصلت له قصة غريبة حوَّلتْه من الإنكار إلى الانقياد التام ، فاتَّضح أنه لم

يغير رأيه بالحجة والبرهان ، ولكن بسبب موقفٍ مع الشيخ ذكره في كتابه نسِيَ به كلَّ علمه ، فسلَّم للشيخ وتراجَع عن إنكاره الذي كان يعتمدُ فيه على فتاوى الونشريسي . والذي أُرجِّحه أنَّ الشيخ عبد السَّلام الأسمر ، كان أكثر علمًا بالفقه وأقوى حجة من البَرموني ، وذلك هو الذي جعله يغير رأيه النقدي ، فلا يمكن أن يلعقَ الشيخُ أصبعه في مواجهة نقد تلميذه ليُقنعَه بالتَّسليم له بدون مناقشة ، والذي يبدو معقولاً أن الرجل أُفحم في النقاش ، فاعتقد أنه مسلوبُ العلم بطريقة غَيْبية .

ولو قارنا بعضَ الدعاوى التي تُنسب إلى الشيخ مع بعض أقواله ، لتبيَّن لنا مدى ما ناله من تشويه ، فهو يقول في بعض رسائله : « العلم المستفاد من الكتاب والسنة ، الخالص من شوائب النفس والهوى ، وملاحظة السِّوى ، المصحوب بالتقوى ، مع مجانبة الدعوى » (1) ؛ ويقول في اختصاص الله بعلم الغيب : « لا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب » (2) ؛ ولو أجرينا المقارنة بين ما يُنسب إلى هذا العالم الجليل مع ما جاء في رسائله الثابتة النسبة إليه ، لتبيَّن لنا مدى ضحالةِ الأخبار التي رواها الأتباع عنه ؛ ليستميلوا قلوبَ العامة الذين لا يفقهون كثيرًا من أسلوبه ، ولكنهم يستجيبون لتلك الروايات التي تجعلُه خارقًا يفعل في الكون ما يشاء ، فيفك الأسير ، ويُغني الفقير ، ويَكسر الظالم ، وأحيانًا دون أن يقول « إن شاء الله » ، وهو ما يخالف نصوص رسائل الشيخ التي تُثبت أن الأمر كلَّه في ذلك لله ﷻ ، وهو يعلم أن الوحي قد احتبس عن رسول الله ﷺ ، حين وعد من سأله عن عدد أهل الكهف بأنه سيخبرهم غدًا ، حتى نزل قوله – تعالى – : ﴿ وَلَا

(1) رسائل الأسمر ١٥٢ .
(2) المصدر نفسه ١٧٠ .

تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الكهف ٢٣-٢٤) .

ولقد نُسب إلى الشيخ من الدعاء على بعض الذين أساءوا إليه ما يخالف روح التسامح التي عُرف بها ، فهو يقول : « وأوصيك بإضمار الخير لجميع الناس ، وأن تُحبَّ لهم ما تُحبُّ لنفسك ، وتكرهَ لهم ما تكرهَ لنفسك في الدنيا والآخرة ، ... مع الإجلال والتعظيم لمسنِّهم ، والسَّتر على مسيئهم ، والدعاء بالتوفيق للتوبة »[1] ؛ وقال في رسالة أخرى : « ولا تُعجِّلوا بالعقوبة لمن عاداكم ، واحتمِلوا المكاره ، واصبروا على الأذى في الله »[2] . فكيف يصدرُ ذلك المنسوب إليه من هذه النفس السمحة التقيَّة ؟ بل كيف يستعين مثلُه بعباد دون الله ﷻ ، يستغيثُهم لنصره وتدمير أعدائه ، وفي رسائله ما يخالف ذلك تمامًا ؟ .

أما عن الأذكار فهو يوصي بالآثار الواردة عن رسول الله ﷺ ، وفي ذلك يقول : « أوصيك بالمحافظة ... على نبذة صالحة من أذكار الصباح والمساء ، واطلب ذلك من الكتب المصنَّفة فيه كالأذكار النووية »[3] ؛ ويُروى عنه أنه يرى الحضرة جزءًا مهمًا من الطريقة العروسية التي يتَّبِعها ، ولكنه لا يربطها بالدين في مفروضه ولا مسنونه ، فهي عنده نوعٌ من التنشيط للذاكرين ، وفي ذلك يقول : « ولازموا السَّماع المعبِّر عنه بالحضْرة ، فإنَّ فيه التذكيرَ ، والتنفير من الدنيا ، ولا تتركوه من غير عُذْر ، وهو شطر الطريقة العروسية ، وليس ذلك من فروض الدين ، ولا من سننه ، وإنما هو رخصةٌ عند توفُّر شرائطه المعروفة »[4] .

(١) رسائل الأسمر ١٥٧ .
(٢) المصدر نفسه ١٧٠ .
(٣) المصدر نفسه ١٦٠ .
(٤) المصدر نفسه ١٨٢ .

والشيخُ الأسمر في رسائله يتوجَّهُ بخالص قلبه إلى الله دون غيره ، وينصحُ أصحابَه بذلك ، ويدعو إلى الاستكفاء بالله ، وعدم التعويل على غيره ، يسلك ذلك سلوكًا في دعائه ، وينصُّ عليه في وصاياه إلى أصحابه ، ومن ذلك قوله في الأصول الأربعة التي قال إن عليها مدار الأمر كلِّه : « الرابع منها : التوكُّل والاعتمادُ على الله في كل أمر ، والاكتفاء والاستعانة بالله وحده في السر والجهر »[1] ، وهو لا يدَّعي علمَ الغيب ، ولا يلتمسُ الشفاعة إلا عند الله وعند رسوله[2] .

إنه المؤمنُ المرتبط ارتباطًا وثيقًا بآي الذكر الحكيم ، والذي يوصي بقراءة القرآن الكريم وتدبُّره آناء الليل وأطراف النهار ، وفيه قوله - تعالى - على لسان نوح عليه السلام : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ (هود ٣١) ؛ وفيه قوله - تعالى - : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ (الزمر ٣٦-٣٧) ؛ وقوله - تعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر ٣) . فالمشركون هنا لا يُفردون أولياءَهم بالعبادة ، ولا يدَّعون أنهم آلهةٌ يعبدونها من دون الله ، ولكنَّها وسيلةٌ تقرُّب وتشفَع ، وتعطي وتمنع ، وما ذلك إلا بجاهها عند الله ، وهو ما يدَّعيه عوامُ المريدين لشيوخِهم ، مع فارقٍ يرفعُ عنهم تُهمة الكفر ، هو : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

(١) من رسالة الشيخ الأسمر إلى راشد بن يحيى المحجوبي المقرحي .
(٢) مواطن متعددة من رسائله .

ومع غلبةِ السَّلامة في رسائل الشيخ الأسمر ، قد تجدُ في وصاياه نصائحَ محفوظةً من آداب الصوفية السابقين ، ينقلها عن شيوخه كما هي ، وبعضُها من تجارب الناس وملاحظاتهم ، ولا صلة لها بالشرع ، وهو ينص على ذلك في مثل قوله « وإياكم واصطياد الورل والحربية ، ولو أباحها الشارع ، فإنهما من الأصدقاء لقتْلِها الثعابين المؤذية » . ومثلُ هذه الوصايا تُمَثِّل ثقافةَ عصرها لا عقيدة المؤلف ، وقد تكونُ موضوعةً في الوصايا ولا صلة للشيخ بها ، فمستواها الفكري والأسلوبي أدنى كثيرًا مِن أُفُقِهِ العلمي ، ومن ذلك وصيَّتُه الشائعة بين الناس ، والتي وضعها الدكتور الغرياني بين الكتب الضارة ، لما فيها مما يخالفُ العقيدة الإسلامية الصحيحة [1] .

ولسنا هنا بصدد دراسةِ طريقةِ هذا الشيخ - رحمه الله - ، فلذلك مقامٌ آخر ومنهجٌ مختلف[2]، ومَن أراد أن يتعرَّفَ على شخصية الشيخ عبد السَّلام الأسمر وطريقته ، فلن يجدَ الحقيقة في ما كُتِبَ عن ذلك من المؤلفات الواصفة لحياته وطريقته ، ولكن عليه أن يكتشفَ ذلك من خلال رسائله ،

---

(١) الغلو في الدين ٩٥ .

(٢) يمكن القول بأن الطرق الصوفية في ليبيا ، نوعان ؛ كلاهما تصوُّف سني ، يقدم الظاهرَ على الباطن ، باعتبار الظاهر هو مناط التكليف الإسلامي الذي يلتزم به الجميع ، غير أن النوع الأول هو تصوف خاصة العلماء ، وقد اشتهر بمحاربة البدع ، ويمثله الشيخ زرُّوق الذي عُرف - لذلك - بمحتسب الصوفية ، كما يعد الخروبي والمدني والخطابي من أقطاب هذه المدرسة ، والنوع الثاني هو تصوف العامة ، وهدفه توسيع دائرة الدعوة الصوفية ، لتشمل القطاع الأوسع من الناس ، وفيهم الأميون ، وهو يستخدم إلى جانب أذكار الطريقة ، كل ما يستقطب العامة من السماع بأنواعه ، والزجل ، والموشحات ، والأغاني ، وآلات الطرب ، والرياضة الخاصة بالحضْرة ، والتي يسميها بعضُهم بالرقص الصوفي ، غير أن الأمر لم يكن كذلك في عهد الشيوخ الأوائل ، بل تم تطويره مع الزمن ، وقد كان هدفُهم منها جلبَ الاهتمام واستقطاب العوام ، ثم صارت حالات أو وسائل للتعبير عن تلك الأحوال .

حيث يجد تلك الحقيقة بما لها من جوانب الكمال والنقص البشري ، وما فيها من الصدق مع الله وإفراده بالعبادة ، والمنافاة التامة لما في الأزجال والأخبار التي تُنسب إليه ، ولا تتفقُ مع ما صحَّ من آثاره .

وفي رسائل الأسمر وعيٌ بكل هذه المعاني القرآنية ، وإيمانٌ عميق بالله ، وعلمٌ يدلُّ على تمكُّن الرجل من علوم عصره ، وقوةِ حجته ، وفصاحة لسانه ، تلك الفصاحة التي تُخجل مَن يَنسب إليه بعضَ الوصايا المخالفة للمعلوم من الدين بالضرورة ، والحكايات الركيكة الأساليب ، والأزجال السطحية المعنى ، ومنها تعرف أنها من الدخيل عليه أسلوبًا ومضمونًا ، وفي الرسائل دعوة مُلحَّة إلى طلب العلم ، والتمسك بالشريعة ، وفيها جمعٌ بين النقل والعقل ، وفيها تمسُّكٌ بالمذهب المالكي ، والعقيدة الأشعرية ، وفيها دعوة للصفح والعفو تُخالف ما نُسب إليه من قصص الشَّماتة ، والدعاء بالمكروه على مناوئيه ، وفي الرسائل دعوةٌ إلى فضائل الأعمال وترك المنكرات ، كالسِّحْر ، والتنجيم ، والفال ، وتقليب القلوب .

ويُلحظُ في ما يرويه الشيخُ الأسمر بعضُ الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة التي يَكثُر ورودُها في كُتب الرقائق وفضائل الأعمال [1] ، وهي في كلِّ الأحوال ذات مصادر يعْلمها العلماء ، لكنَّ عددًا من الأحاديث التي وردتْ في الكتب التي أُلِّفتْ في سيرته من قِبَل تلاميذه ومَنْ بعدهم ، محلُّ نظر ، لما فيها من الضَّعف في السند أو المتن ، وفي صُلْب كلامهم شهادة بذلك .

(١) الأحاديث الضعيفة التي أجاز العلماء العمل بها في فضائل الأعمال ، أجازوها بشرط عدم مخالفتها لنصٍّ في الكتاب أو السنة الصحيحة ، وألّا يكون أحدُ رواتها كذَّابًا أو متروكًا . (انظر مقدمة الجامع الصغير للسيوطي) .

- ٢ -

هل تعامل مع الجن ؟

كثيرًا ما نسمع عن أُناس يتعاملون مع الجن ، وقليلٌ منا عاش هذه التجربة ، بل سمعنا أن بعضَهم يتدرَّبون على التعامل مع الجن كما يتعلَّمون الدروس في المدرسة ، وتُنسب للشيخ عبد السَّلام في كتاب « روضة الأزهار » قصصٌ تؤكدُ علاقتَه بالجن ، منها : قصة ذَكرَ فيها المؤلِّفُ أن الشيخ أرسل الجان لتخليص أسرى ، وفي ذلك يقول البَرموني - ناقلاً عن الشيخ الأسمر - : « وكان إذ ذاك بإزائي واحدٌ من صالح الجن زائرٌ لنا ، فأمرتُه بتخليصه ، فخلص على الوجه الذي ذكره » . وتكرَّرتْ هذه القصة في حالة مشابهة ، ويورد عبد الرحمٰن المكي أن الشيخ أرسل جنًّا ليُحضِر له أسيرًا من بلاد الإفرنج بإلحاح من أمه [1] .

والسؤال : هل مثل هذه القصص مُنتحَلةٌ مثلُ الكثير من الأساطير المنسوبة إلى الشيخ الأسمر ؟ أو أنه كان ممن اجتهدَ في إباحة ذلك مراعاة لظروف خاصة ؟ كاجتهاده في أمور أخرى يرى فيها مخالفةَ نصٍّ فقهيٍّ أخذًا بمقاصد الشريعة ؟ فهو فقيه مقاصدي ، وفي رسائله الصحيحة ما يدلُّ على هذه الميزة في اجتهاده ، وفي كل الأحوال فإن المطلوبَ أن تقومَ دراساتٌ دقيقة لمتابعة حقيقة حياة هذا الشيخ المفترى عليه ، لتنبيه العقول إلى ضرورة الرجوع إلى ما قال به مما يُربِّي النفوس على الاجتهاد في أعمال القلوب ، ومنها : الصدق والصبر ، وعزة الإيمان ، والاكتفاء بالله ، والابتعاد بها عن الغوامض والأوهام ودعوى نفع البشر وضرِّهم ، ونحو ذلك ، مما جعل فريقًا من

(١) التقييد المبارك في مناقب الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري ، لعبد الرحمٰن بن علي المكي الحسني ، المتوفى سنة ٩٩٣ ، مخطوط خاص .

المسلمين يعيشون في خوْفٍ وحذرٍ من مجرَّد تحْريكِ حجارة ، أو قَطْع شجرة ، خوفًا من قبر رجل جلس فوقها يومًا في حياته ، بله الانتقاد لأعمال مخالفة للشريعة نُسبت إليه حقًّا أو باطلاً .

وسيجد الدارسُ أن ملامحَ حياة الشيخ الأسمر الواقعية ، هي حياة العالِم الورِع الزاهد ، وهي ، من خلال رسائله الصحيحةِ النسبةِ إليه ، حياةُ مؤمنٍ مخلصٍ لربه ودينه ، ورسالتُهُ في الحياة هي تنبيهُ الغافلين عن ذكر الله ، وتربيةُ المريدين لطريق الهداية ، ولكنه ابتُلي بالقصَّاصين الذين يؤلِّفون الغرائب عنه ، أو يصدِّقون حكايات فيها غرابةٌ ، فيوردونها على عِلَّاتها ، ويحذِّرون من الإنكار على ما لا يجوز منها ، مهما كان مخالفًا للشريعة أو العقل ، وسيجد الدارسون في هذا الكتاب وفي بقية الكتب التي اكتُشفت أخيرًا عن حياة الشيخ ، زادًا وفيرًا من الوقائع والأخيلة ، يساعدُ على تَقصِّي حقيقةِ هذا العالِمِ الجليل ، ومن ذلك نقدُه لهؤلاء الذين يقومون بالممارسات الخاطئة باسم التصوُّف ، يقول : « وقَلَّ والله أن يوجد في زماننا هذا مَنْ هذه أوصافُه ، ولذلك كثُر الحرمان ، وقَلَّ الانتفاع ، واندرست الطريق ، وحاد الفقراء عن المنهج القويم ، وتصدر للتربية مَن لِيس هو أهلٌ لها ، فضلَّ ، وأضلَّ ، فإنا لله وإنا إليه راجعون »[1] .

وعلى هذا فإنَّ الملامحَ الأولى لدراسة تراث الأسمر تدلُّ على عناصر مهمة ، هي :

– أنَّ الرجل من الملمِّين بالعلوم الإسلامية والعربية في عصره ، وكان يجمعُ بين الحفظ والفهم والذوق إلى الحدِّ الذي يجعله في مكانة أرقى كثيرًا من المحيطين به من الطلاب والفقهاء .

(١) من رسالة الشيخ الأسمر إلى أصحابه في سوس الأقصى .

- أنَّهُ مقاصديٌّ في فتاواه ، فقد حاول مرارًا الاجتهاد معتمدًا على مقاصد الشريعة في توجيه ما يذهب إليه ، وهي مقدرةٌ غير شائعة في عصره وبيئته .

- أنَّهُ داعية مخلصٌ ، يواصل العمل في سبيل الله بالوسائل المتاحة له في بيئته المحلية ، وينتقل منها عبر رسائله إلى خارجها ، ويقابل في سبيل دعوته ردودَ فعلٍ سياسيةٍ، ودينية، واجتماعية ، سيتعرض لها البَرموني في كتابه .

- أنَّهُ يحرصُ على الآداب الصوفية التي ينبغي للمريد أن يتحلَّى بها ، وهو موضوعٌ يحتاج إلى دراسة وافية ؛ لمعرفة طريقة هذا الشيخ في التربية .

- أنَّ في بعض رسائله حكاياتُ المتصوفة المتأخرين وأفكارهم ، يرسلها دون تعليق ، كقوله : « سُئل بعضُ العارفين عن أولياء المدد : أينقصون في زمن واحد ؟ قال : لو نقص منهم واحدٌ ما أرسلتِ السماءُ قَطْرَها ولا أبرزتِ الأرضُ نباتَها » . وهي مبالغةٌ في حقهم تمنحُهم ما لا تجوز نسبتُه لغير الله ، إذ لو أراد الله إنزالَ القطر ، وإنباتَ النبات ، لفعل ذلك دون حاجة إلى أحد ، وقد فعل - سبحانه - هذا قبل وجودنا القصير بالنسبة إلى وجود الكون وظواهره المذكورة ، فقد كان اللهُ ولم يكن شيء ، ثم خَلَقَ السمٰوات والأرض وجعل في كلِّ سماء أمرها ، الذي منه السنن الكونية ، ثم كان خَلْقُ الإنسانِ مع أُممٍ أخرى أمثال أُمته ، وكان ذلك الخلق متأخرًا عن خلق السمٰوات والأرض مصداقًا لقوله - تعالى - : ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ (الإنسان ١) .

- أنَّهُ خلافًا لما أشاعه الأتباع من كثرة الكراماتِ التي تُنسَب للشيخ الأسمر ، لا نجدُها بارزةً في تراثه الثابت النسبة إليه ، ولا في المراثي التي ذَكرَت مناقبَه بعد وفاته ، وصدرت عن أصدقائه وأقاربه ، مع جدارةِ مِثْلِه بالكرامات ؛ لكثرة اجتهادِه ، ولا نُزكِّي على الله أحدًا ، فالقولُ بوجودِ

مبالغةٍ في الكراماتِ لا يَنفي وجودَها ، ولكنه ينبِّه إلى ضَرْبٍ من تعظيمِ الصالحين من البشر ، اعتاده الناسُ منذ أمد بعيد ، وهو الذي أرْدى عَبَدةَ المسيح ﷺ ، وعَبَدةَ العُزَيْر ، وغيرَهما من الصالحين .

– ٣ –

الأسمر والسياسة

كانت السياسةُ مؤثِّرةً في حياة الشيخ عبدِ السَّلام الأسمر ، وباديةً في آثاره ، بل في حياة شيوخِه ومريديه ، ولعل السببَ الأول يعود إلى كراهة المتصوِّفة لمجالس الحكام ، وتحذيرِ الناس من الرُّكون إلى الظَّلَمة منهم ، ويتركَّزُ نقدُهم على البطانة المشارِكة في الظُّلم ، بل الداعية إليه أحيانًا بالوِشاية أو التسلُّط ، وفي رسائل الشيخ وبعضِ أشعارِه تَرِدُ هذه المعاني ، ويشيرُ فيها إلى القضاة الذين يمثلون الناقدَ الأول لتصرفات المتصوِّفة ، التي يخالفُ ظاهرُها الشريعة ، وربما اتخذوا ذلك سببًا في مشروعيَّةِ ملاحقتِهم لأسبابٍ سياسية أو شخصية ، ويشير البَرموني إلى نَقْدِ الفريقين : الحكَّام والقضاة ، في بعض مختاراتِه التي تُعبِّر عن حال الشيخ ، ومنها : [بسيط]

ماذا تريدُ إذا عليكَ [قد] غَضِبُوا	جاروا عليك وإن أرضيتَهُمْ ضَلُّوا
وإن مدحتَهُمُ ظنُّـوكَ تخـدعُهُمْ	واستثقـلوك كما يُستثـقـلُ الكَلُّ
مِنْ غـيرِ عُـذْرِكَ لا تَأْتِيهُمُ أبـدًا	إنَّ الوقـوفَ على أبْـوَابِهِمْ ذُلُّ

عانى الشيخُ عبدُ الواحد الدوكالي – شيخُ الأسمر – من الوشاة الذين طعنوا في أفكاره وطريقتِه ، ولكنه واجههم عند مقابلة الأمير ، ونجح في استمالتِه بقصيدة من محفوظِه للشاعر العباسي صالح بنِ عبد القدوس ، تُحذِّر من مجالسة مثل هؤلاء ، ومنها :

واخترْ صديقَك واصطفِيه تفاخُرًا ... إنَّ القرينَ إلى المقـــارنِ يُنسَبُ
واحذَرْ مؤاخـــاة الدُّناة لأنها [1] ... تُعدي كما يُعدي السليمَ الأجربُ
ودعِ الكذوبَ ولا يكنْ لك صاحبًا ... إنَّ الكذوبَ يَشين خِـلًّا يصـحبُ
ودعِ الحقـــودَ ولو صـفا لك ودُّه ... وأبعـــدْه عن رؤيـاك لا يُستجلَبُ

وقد صوَّر البَرموني تأثيرَ حوار الشيخ الدُّوكالي مع الأمير ، والقصيدة التي وُفق في اختيارها ، بقوله : « فاستقلَّ الوالي قائمًا من على كرسيه امتثالاً لما صدر من سيدي عبد الواحد وحمايةً للسنة ، وقال: صدق سيدي عبد الواحد في ما قال ، وكذَّبتم أنتم في ما قلتم ، وعَزَلهم من الحضور لمجلسه » .

أما الشيخ الأسمرُ فلم يحاولْ مقابلةَ الوالي ، وتركَ بذلك المجالَ سانحًا للوُشاة ، يُوغِرُون قلبَ الأمير عليه حين أقام بجامع الناقة في طرابلس ، وجمعَ حوله عددًا من المريدين ، فأمر الوالي بطرده من المدينة ، وإلجائه إلى غريان ، فانفعل كثيرًا لهذا الموقف ، وقال :

إذا ظَـلَـمَ الأمـيرُ وكاتبـاهُ ... وظهرَ بالفجـــورِ وبالعنـادِ
فـــويلٌ ثـم ويـلٌ ثـم ويـلٌ ... « لكلِّ فقيرٍ مِنْ قاضي البلادِ
أقولُ أقولُ [أنْ] يا وحشتاه ... فلا يخلـو الفقـيرُ من النكادِ
من البلقـاءِ يا خَيِّي خَرجْنَا ... وكلُّ مقيم يرحلُ باعتياد [2] »

---

(١) في شعر صالح بن عبد القدوس :

واحـــذر مؤاخـــاة الدنِي لأنـــه ... يعدي كما يعدي الصحيحَ الأجربُ

(٢) يلاحظ على هذا النص أنه محاولةٌ للسير على نهجِ شاعر قديم في أبيات همزية على بحر الوافر ، سَلِمَ شطرها الأول ، ويقول في بيته الثاني منها :

فـويـل ثـم ويـل ثـم ويـــل ... لرب الأرض من رب السماء

وقد تُعزى هذه العامية التي تتخلل النص للرواة ، أو النساخ ، أو إلى الواضعين لمثل هذه القصص على الشيخ ، فقد سلِمتْ له قصائد أخرى فصيحة في رسائله الثابتة النسبة له ، لا تدل على ضعف كهذا في الوزن والمعنى والأسلوب، على أنه أحيانًا يُخاطب الناس باللهجة ليكون قريبًا منهم.

ويعود ذلك إلى موقف مبدئي للشيخ الأسمر ، فهو يستثقلُ الوقوفَ بباب الحكام زهدًا في ما عندهم ، مهما كانت الدواعي ، وحين اضطرَّهُ مريدوه في تونس إلى أن يشفع لهم عند واليها ، قال : « وأمَّا الشفاعةُ لا أُطيقُها [1] ؛ لأني ضجَرتُ و [مللتُ] مزاحمةَ الظُّلَّام وقُربَهم ؛ لأغراضهم الفاسدة ، وحرارةِ أنفاسهم المسمومة المؤذية ، وإني أخاف من تغيير بواطنهم عليَّ ، كما وقع لي بطرابلس من غير شفاعة ، فما بالكم بالشفاعة ، بل ربما لا تنبغي الشفاعاتُ عند الأمراء في ما يطلبونه مِنَ الرعية ، فهي مما يغيِّرُ بواطنَهم على الشافع في ذلك ، فهذا مما يجبُ البُعدُ عنه ؛ لأن الوالي يغضبُ كغضب الصبي ، ويفترِسُ الناسَ كما يفترِسُ الأسدُ ، إلا أن الرعية لا يمكنُهم الاحترازُ منه ؛ لأنهم له كالروح في الجسد ، فإذا ذهب الروحُ فسَد الجسد » .

وتمثِّلُ حياةُ الشيخ الأسمر قبل لجوئه إلى قلعة بني وليد حياةَ رجلٍ زاهدٍ قليل الحيلة ، ينتقدُه الزملاء ، والفقهاء ، ويَشُون به إلى شيخه وإلى الحاكم ، فيُعاقَبُ ، ويُضْرَبُ ، ويُسْجَنُ ، ويُطْرَدُ من البلد دون أن يحِلَّ مكروه بمن آذاه أو ظَلَمه ، وذلك حتى لجأ إلى تلك القلعة .

وفي السنة الأخيرة من إقامته الطويلة في القلعة ، توجَّه إليه الحاكمُ بجيش كبير تحت تأثير الوشاة للقضاء عليه ، فحلَّ بالجيش من الصِّعاب ما أكَّد للوالي أنه بسببِ كرامات الشيخ ، فرجَع دون المساس به ، بل سمحَ له بالتوجُّه بحريَّة إلى حيث يريد ، وشاع في الناس ذلك ، وانتهزَ أتباعُ الشيخ الفرصة ، فاعتبروا الرجوعَ انتصارًا خارقًا للعادة ، وتغيَّرَتْ الأخبارُ عن الشيخ ، فشاعتْ الخوارقُ والكرامات التي دوَّنها على الأخصّ المكي ، والبَرموني الذي قال في تسجيل تلك الواقعة :

(١) في الأصل : لا نطيقها .

« فجعلوا يكلِّمون المتولِّي المذكور على أن يوجِّه له مَنْ يُؤذيه ، ويسبُّونه عنده بما يكرهُه ، وما زالوا به حتى جهَّز له جيشًا كبيرًا ، وقصدوه في القلعة يريدون إذايتَه ، [و] كان كبيرَ الجيش الوالي ، ومشى معه القاضي أبو محمد ، الذي هو عينُ الفتنة الأضدادية ، وجماعة من أصحابه ، وجَدُّوا في السَّير إليه » .

ولكنَّ الشيخَ الأسمرَ ظَلَّ مُحاذِرًا من لقاء الوُلاة ، بل إنَّه رفضَ استقبالَ مراد أغا الوالي المتصوِّف الذي حرَّر طرابلس من الغزاة ، وأقبلَ على الشيخ إقبالَ المريد بجيشِه ، يقول البَرموني : « وقد جاء حينئذ مراد أغا بجُنْده كلِّه ، ونزل بقرب زاوية الشيخ سبعة أيام ، ولم يجتمعْ بالشيخ حتى ضاق ذرعًا من ذلك سيدي عبد الرحمٰن وسيدي عمران ابنا الشيخ ، فدخل الزاوية سيدي عبد الرحمٰن بخمسمائة دينار ، وقال لمن حضره من الطلبة والفقراء أشيروا علينا ، كيف أفعل ؟ أطردُ هذا الوالي أم أقدر أنْ أُكَلِّمَ الشيخَ عليه ؟ أم كيف أفعل ؟ فلم يكلِّمه أحد » .

وبذلك يتَّضح أنَّ الشيخ الأسمر لم يُرِدْ لقاءَ الأمراء تجنُّبًا لهم بدوافع صوفية زاهدة ، وليس بدوافع سياسية ورغبة في الثورة عليهم ، والطعن في سياساتهم ، كما يحلو لبعضهم أن يفسر العلاقة بين الشيخ وولاة عصره . والأمر في حاجة إلى تفصيل وتحليل أطول ، ويستحق وقفاتٍ أعمق .

* * *

المدخل الرابع

البَرموني وكتابه

- ١ -

ترجمة كريم الدين البَرموني

مؤلفُ هذا الكتاب هو كريمُ الدين البَرموني ، المصري الأصل ، والمصراتي الولادة [١] . وفد أبوه إلى مدينة مصراتة الليبية مع الشيخ أحمد زرُّوق [٢] ، وتزوج في هذه المدينة بامرأة من أسرة ابن شتوان [٣] المصراتية ، ومنها رُزق بابنه كريم الدين سنة ٨٩٣ هـ [٤] ، وفي هذه المدينة ، وفي مدينة طرابلس ، أخذ كريم الدين مُعظم معارفه ، فقد تعلَّم أولاً بجامع الجمعة ، وزاوية المحجوب في مصراته ، ثم بمدرسة الرخام بطرابلس [٥] ، ثم انتقل مع شيخه شمس الدين اللقَّاني [٦] إلى مدينته (لقانة) بمصر ، ولازمه حتى

---

(١) ترجمته في « نيل الابتهاج » للتنبكتي (طبعة دار الكاتب) ص ٣٧٣ ، و « شجرة النور الزكية » لمخلوف ، و « مختصر البَرموني » له ، و « البستان » ١٣٣ ، و « درة الحجال في أسماء الرجال » ١/ ٢٨٣ ، و « أعلام ليبيا » للزاوي ٣٢٥ ، و « معجم المؤلفين » ٨/ ١٤٤ .

(٢) الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد البرنسي الفاسي الشهير بزرُّوق ، دفين مصراتة ، محتسب الصوفية ، الفقيه الزاهد . ترجمته في « نيل الابتهاج » ١٣٠ ، و « البستان » لابن أبي مريم ٤٥ ، و « سلوة الأنفاس » ٣/ ١٨٣ و « طبقات الشاذلية » ١٢٣ ، وانظر : أحمد زرُّوق والزرُّوقية للدكتور علي فهمي خشيم .

(٣) أسرة ابن شتوان من الأسر المصراتية المعروفة ، ولعل أبرز أعلامها في العهد العثماني : الأديب أحمد يوسف بن شتوان الذي أحسن في وصف محنة مدينته بتعسف أحد حكامها الأتراك . « أعلام ليبيا » للشيخ الطاهر الزاوي ٦٨ .

(٤) انظر ترجمة البَرموني في خاتمة « روضة الأزهار » .

(٥) المراد بها : المدرسة المستنصرية التي أسسها أبو البركات عبد الحميد بن أبي الدنيا ، على عهد المستنصر الحفصي .

(٦) هو محمد بن حسن بن علي المعروف بشمس الدين اللقاني ، اشتهر بالفقه والتصوف ، وأخذ عن زرُّوق ولازمه . انظر « نيل الابتهاج » ٥٨٦ ، و « توشيح الديباج » ٢٠١ ، و « الضوء اللامع » ٧/ ٢٢٧ ، و « شجرة النور الزكية » ٢٧١ .

توفي الشيخ اللقاني هناك سنة ٩٣٥ هـ ، ثم عاد إلى طرابلس بعد حجِّه ، وأخذ في رحلته هذه عن جماعة من المقيمين بمكة .

وبعد حجِّه عاد إلى يزليتن أو (زليتن) حيث صحب الشيخ عبد السَّلام الأسمر ، حتى تاريخ وفاته سنة ٩٨١ هـ ، وغادر بعد ذلك إلى مصر والحجاز ، وهي المرحلة التي شهدت نشاطَه التأليفي ، فكان من تآليفه كتاب « روضة الأزهار » الذي عاد من أجله إلى طرابلس ، وتونس وما جاورهما ، لينقُل من معاصري الشيخ الأسمر أخبارَه وآثارَه ، فتكوَّنَتْ لديه تلك المادةُ الكثيرة التي جمعها في ما سمَّاه بـ « الديوان » ، ثم اختصره في « الروضة » ، وفي آخرها خاتمةٌ تناول فيها حياتَه [1] .

ترجم لهُ عددٌ من أصحاب كتب التراجم ، فوصفوه بأنه من شيوخ العصر في العالم الإسلامي ، وذكروا من شيوخه اللقانِيَّيْن شمس الدين والناصر [2] ، والشريف يوسف تلميذ السيوطي ، والعالم الفلكي عبد الرحمٰن التاجوري [3] ، وعبد العزيز المتيطي [4] ، وعبد العاطي السخاوي [5] ، والشيخ

---

(١) ذكر ذلك في مواطن من الكتاب ، وجمعه في ترجمته بآخره .

(٢) هو محمد بن حسن المعروف بناصر الدين اللقاني أخو المتقدم ، اشتغل بتدريس علوم شتى ، ودارت عليه الفتوى بمصر . انظر « نيل الابتهاج » ٥٩٠ ، و « توشيح الديباج » ٢٠٢ .

(٣) عبد الرحمٰن بن الحاج أحمد الطرابلسي الشهير بالتاجوري ، من أعــلام القرن العاشر في الفلك ، له ملاحظات مهمة في تحديد القبلة بجامع القرويين بفاس ، ذكرها د . محمد حجي في « تاريخ الحياة الثقافية في عهد السعديين » ، وأحسن عمار جحيدر بتخليد اسمه على المنارة العلمية المهمة التي وهب أرضها وعُني بتصميمها وإنجازها ، جزاه الله خيرًا . انظر « نيل الابتهاج » ٢٦٢ ، و « شجرة النور الزكية » ٢٧٠ .

(٤) المتيطي نسبة إلى قرية بأحواز الجزيرة الخضراء في الأندلس ، ومنها علي بن عبد الله المتيطي صاحب الوثائق المشهورة .

(٥) لعله عبد المعطي السخاوي المدني الذي ذكره صاحب «النيل» ص ٢٨٧ ، وقال بأن له تآليف كثيرة وكان حيًّا في القرب من ٩٦٠ هـ .

عبد السَّلام الأسمر [1] الذي أنكر عليه كريم البَرموني بعض تصرفاته أولاً ، ثم اعترف بولايته ، وذكر أنه صحبه في مدينتي طرابلس ومصراتة ، ويدل قوله « خدمناه زمنًا طويلاً » على صحبته في يزليتن أيضًا ، وربما في غيرها .

عاش البَرموني ما يربو على اثنتي عشرة ومائة سنة هجرية ، كان خلالها دائب الحركة ، تنقَّل كثيرًا بين مصر وليبيا والحجاز وتونس وغيرها ، وألَّف الكتب التي منها : « شرح مختصر خليل في الفقه المالكي » ، و « الديوان في مناقب نجل سليم بن عمران » ، وهو أصل الروضة التي بين أيدينا ، ومارس التعليم .

ذكر أحمد بابا التنبكتي أنه كان حيًّا بمكة سنة ثمان وتسعين وتسعمائة [2] ، وعمره حينئذ مائةٌ وخمسُ سنوات هجرية ، إذ إن ولادته كانت في آخر القرن التاسع سنة ٨٩٣هـ [3] – كما تقدم – . وعاش بعد التاريخ الذي أشار إليه التنبكتي سنواتٍ أخرى ، وكانت وفاته في القرن الحادي عشر ، أي بعد الفراغ من تأليف كتابه سنة ١٠٠٥هـ ، كما هو مدوَّن بوضوح في النسخة المغربية ، ونسخة مكتبة الأوقاف بمركز جهاد الليبيين .

---

(١) هو الشيخ الصوفي الكبير عبد السلام بن سليم بن محمد المخزومي القرشي المولود بيزليتن سنة ٨٨٠ هـ والمتوفى بها سنة ٩٨١ هـ . ترجمته في « أعلام ليبيا » ٢١٤ - ٢١٧ .

(٢) نيل الابتهاج ، طبعة دار الكاتب ص ٣٧٣ .

(٣) انظر ترجمته لنفسه في خاتمة الروضة .

- ٢ -

تقديم عام لـ « الروضة »

الموضوع وقيمته :

يُطلق اسم « البَرموني » أحيانًا على هـذا الكتاب حتى اشتُهر به ، وعنوانه الحقيقي هو « روضة الأزهار ومُنية السادات الأبرار في جمع بعض مناقب صاحب الطار » ، وصاحب الطار الذي عُني البَرموني بذكر مناقبه وأخباره ، هو : الشيخ عبد السَّلام الأسمر ، دَفين يزليتن .

يقول الشيخ الطاهر الزاوي في ترجمته للبرموني : « وقد أَلَّف تاريخَه المشهور ... ذكر فيه ما وصل إليه علمُه عن العلماء والصالحين وكراماتهم ، وبعض قبائل العرب وأنسابهم ، وتعرَّض لأنساب الأشراف الموجودين في طرابلس ، وهو مجموعة تاريخية لم أعرفْ مَنْ كَتب مثلها في طرابلس ، وتُعَدُّ هذه المجموعة النفيسة من مآثره الجليلة »[1] . وهي شهادةٌ مهمةٌ من شيخ المؤرخين الليبيين ، تدلُّ على قيمة الكتاب بين مصادر التاريخ الليبي .

وهو يشتمل حقًّا على فوائد كثيرة ، منها : الأخبار والآثار الخاصة بمتصوِّفة البلد في عصر كانت الثقافة الصوفية هي السائدة ، وكذا الأشعار التي تشتمل على الحكمة الرائقة والموعظة الصادقة ، وتُظهِرُ نوع الثقافة الأدبية التي كان يسلُكُها المرَبُّون في تنمية الذوق الفني ، والأخلاقي لمريديهم وتلاميذهم .

منها أيضًا الكثير من الفتاوى ، والنصائح ، والمسائل التي أثارت اهتمام الناس في ذلك العصر ، وما زال بعضُها يستحوذُ على اهتمام الناسِ حتى يومنا هذا ، ويُمكنُ تركيزُ أهمِّ ميزاتِ هذا الكتاب في النقاط الآتية :

- إبرازُ الأهمية الخاصة للشيخ عبد السَّلام الأسمر ، وإزالةُ بعض

(١) أعلام ليبيا ٣٢٧ .

الغموض حول شخصيته وتراثِه العلمي والصوفي ، والتنبيهُ إلى ما أُضيف إليه من تراثٍ مشكوكٍ في نسبته إليه ، يقول الشيخ الطاهر الزاوي - رحمه الله - بعد سَرْد مؤلفاته والمعارف التي قام بتدريسها : « وقد ابتُلي بأقوام من العامة بعد موته وصَفُوهُ بما ليس فيه ، ونسبوا إليه ما لم يقُلْه ، وألَّفوا فيه قصائد عامية ينبو عنها السمعُ ويمجُّها الذوق ، نسبوها له زورًا وبهتانًا ، وضمَّنوها هراءً من القول لا يصدر عن أجهل الجاهلين ، فضلاً عن عالم جليل مثل الشيخ عبد السَّلام الأسمر »[1] ، وذلك لا يخفى على مُطالع هذا الكتاب ، بل لا يخفى على مُطالع معظم المخطوطات التي وصلت إلينا في ترجمة حياة الشيخ ، اعتمادًا على الروايات الشعبية وروايات المريدين المبالغين ، ولقد رأيت ذلك في بعض الكتب التي خُصِّصتْ لترجمته ، ومنها مخطوطات تمكنتُ بفضل الله ثم عون الأخ الأستاذ د. عبد الله المرابط الترغي المذكور ، من الحصول عليها في ترجمة الشيخ الأسمر ، كان معظمها من المفقودات ، وشرعت في تحقيقها ، راجيًا أن تكشف بعض الغموض الذي يحيط بهذه الشخصية المهمة في تاريخنا الثقافي والاجتماعي .

وقد خَصص الشيخ الطيب المصراتي - رحمه الله - في كتابه « فتح العليم الأكبر في تاريخ سيدي الشيخ عبد السَّلام الأسمر » جانبًا ممَّا قال إنه « صدر من بعض المتنسِبين إليه وهو منه بَراء »[2] وقال مثل ذلك د. مصطفى ابن رابعة في كتابه القيم عن رسائل الشيخ عبد السَّلام الأسمر ، كما سمعتُ عن بحثٍ نُشر بعنوان : « الأسمر المفترى عليه » وكلُّ ذلك يؤكدُ أننا أمام دراسات تنبَّهَتْ إلى أنَّ بعضَ كتبِ التراجم أساءتْ إلى الشيخ وطريقته ، ولكننا أيضًا أمام عوامّ من الناس ، يتناقلون أساطيرَ يصدِّقونها بما يُعرَف بإيمان العجائز ، ولا يُدركون الكثيرَ من الملامح المضيئة ، لهذه الشخصية

(١) أعلام ليبيا ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) فتح العلي الأكبر ، للطيب المصراتي ، دار الكشاف ١٣٨٩ - ١٩٦٩ .

التي تبدو بصورة أوضح لو عادوا لآثارها الصحيحة ، وتنكّبوا ما يخدش صفاءها من الأزجال الشعبية ، والحكايات العامية وأشباهها .

– مؤلِّف الكتاب هو أحدُ تلاميذ الشيخ عبدِ السَّلام الأسمر المقرَّبين ، ونحن نَعلمُ أنَّ البَرموني ألَّف كتابَه هذا في مقدِّمة وخمسة فصول وخاتمة ، ووَضَع صاحبُ اختصارِه محمد مخلوف عملَه في ثمانية مطالع ، وخمسة وثلاثين بابًا ، المقدِّمة في الولاية وما يتعلق بها ، ثم فصَّل القولَ في الطريقة العروسية [1] ، ونَسَبِ الشيخ وصفتِه ، وتربيتِه ، ومحنتِه ، وتنقُّلاته ، وطائفةٍ من مدائحه ، ووصيَّتِه الصغرى ، وأدعيتِه . ثم عَرَضَ لوفاتِه ، وذَكَر أولادَه وبعضَ مشايخِه وتلاميذِه ، وتناولَ الكتبَ التي أُلِّفتْ حوله حتى ذلك الحين ، وتخلَّلَ ذلك عَرَضُه لكثيرٍ من كراماته ومناقبه [2] ، وهو ما يُشْعِرُنا بشيءٍ من الفرق بين الأصل والتنقيح ستكْشِفُ عنه المقابلة بين النصَّين والدراسة العميقة لمحتواهما .

– إن القيمةَ العامة للكتاب تكمُن في ما يحتويه من نصوصٍ كثيرة علمية وأدبية ، تنتقلُ فيها عينُ القارئ بين الخبر ، والمثل ، والحكمة ، والمعلومة ، والشعر ، والنثر ، ولا يتناقضُ هذا مع ما ذكرناه من بعض هفوات العصر التي يقعُ فيها المؤلف بين الفينة والأخرى ، بل إنه يؤكد حقيقةً اشتهرتْ بها هذه العصور ، هي أنها حقبة جمع المتفرِّق على اختلافٍ في قيمته ، وليست الأعمالُ الموسوعيةُ التي عُرِفتْ بها هذه الحقبة إلا نماذج لتأكيد هذه الحقيقة ، والقياسُ هنا مع الفارق ، فلسنا نقارن بين أعمالٍ موسوعية كبرى كتلك التي كتبها النُّوَيري ، والقلقشندي ، والسيوطي ،

(١) الطريقة العروسية نسبة إلى الشيخ ابن عروس ، وهي إحدى الطرق الشاذلية ، وللشيخ عبد السلام الأسمر كتاب في أسانيد هذه الطريقة . انظر « أعلام ليبيا » الطبعة الثانية ص ٢١٤ .

(٢) انظر فصول في تاريخ ليبيا الثقافي ص ١٩٠ – ١٩١ .

والذهبي ، وابن حجر العسقلاني ، وصولاً إلى الشوكاني ، مع أعمال أقلَّ أهمية وموسوعية ، ولا بين مؤلفيها وغيرهم من أبناء عصرِهم ، فلكلِّ مؤلَّف قيمتُه التي يتميَّز بها ، وإن تفاوتتْ القيمُ إجمالاً .

- إن الكشفَ عن النصوص التراثية يقرِّبُنا من الواقع المعرفي لعصرِ الكتاب ومؤلِّفه ، ويكْشف لنا الكثير من الإجابات على أسئلة المؤرِّخ الثقافي والمؤرِّخ العام ، وأسئلة المهتمِّين بالتاريخ الاجتماعي ، وإذا كان ذلك هو واقعُ النصوص التراثية بصفة عامة ، فإنَّ منها ما يأخذُ سمةَ الجذور والأمهات لتيار من التيارات المختلفة ، ومنها هذا الكتاب الذي يُعد مصدرًا مهمًّا لعدد كبيرٍ من مراجعِنا في التاريخ الثقافي على مدى القرون الخمسة الماضية .

- وأخيرًا فإن « الروضة » يُعَدُّ مصدرًا أساسًا من مصادر الشيخ الأسمر ، وأحد مراجع تاريخ طريقتِه التي تجاوزَ تأثيرُها بلادنا الليبية إلى المغرب ، والمشرق ، والسودان الغربي ، ويمتازُ باحتفاظه بأنفسِ آثار الشيخ الأسمر ، والمرادُ بذلك رسائلُه الشخصية التي تُمثِّل وصاياه إلى أصدقائه ، وهي تراثه الحقيقي ، مع وجود الزيادة والتحريف في بعضِها . وقد اعتمد عليه الكثيرون ممن ترجموا للشيخ عبد السَّلام الأسمر ، ودرسوا حياته وطريقته ، وكان مثارَ جدلٍ وأخذٍ ورد ، فقد اختصره الشيخُ محمد بنُ محمد ابن مخلوف [1] في قَدْر ثلث الأصل - كما تقدم - واعتمد عليه أو على مختصرِه إسحاقُ المليجي المصري في كتابه : « على هامش حياة سيدي عبد السَّلام الأسمر » فجعل كتابَه في أكثر من ستمائة صفحة ، اتَّسمت بالتَّكرار ، إضافة إلى أنَّ الشيخَ الطيب المصراتي قد اعتمد في الغالب على البَرموني أيضًا ، أو على مختصَرِه عندما ألَّف كتابَه « فتح العلي الأكبر في تاريخ سيدي عبد السَّلام الأسمر » الذي نشره - رحمه الله - سنة ١٩٦٩م .

(١) هو القاضي التونسي محمد مخلوف صاحب كتاب « شجرة النور الزكية في أعلام المالكية » .

وكتب عن حياة الشيخ عبد السَّلام الأسمر ، وطريقته ، جماعةٌ – غيرُ كريم الدين البَرموني – من معاصري الشيخ عبد السَّلام وتلامذته وغيرهم ، منهم : تلميذُه السنهوري في كتابه « النور النائر » ، وتلميذه عبد الرحمٰن مكي في كُتُبٍ أشهرها : البحر الكبير ، والمتوسط المعروف بـ « الكبريت الأحمر في طريقة الشيخ عبد السَّلام الأسمر » ، وخليفة الشيخ في طريقته عمر بن جحا الذي ألَّف كتابين في حياة شيخِه وطريقتِه ، إلى جانب مؤلَّفات أخرى في الموضوع نفسه لعبد الرحمٰن الفيتوري ، وأحمد الشريف المسلاتي ، وسعيد التطواني ، وسالم بن طاهر ، ومعتوق المدني ، والشيخ الفاسي ، وعبد الوهاب الحطاب ، ومحمد علي اليزليتني ، صاحب كتاب : « البرهان عن الشيخ الأسمر » ، ولعله الذي ذكره البَرموني باسم « نشر الأزهار » ونَسَبه إلى الأديب أبي عبد الله محمد بن علي اليزليتني ، ومنهم : الشيخ أحمد جابر[(١)]، ومحمد عطية ، وعبد السَّلام الفيتوري صاحب كتاب « فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السَّلام بن سليم » – وهو من سلالته – ، وكتابُه يحملُ عنوانَ كتابٍ آخر نسبَه ابنُ الطيب الفاسي في رحلته إلى الشيخ علي بن عبد الصادق[(٢)] . ويظلُّ كتابُ البَرموني أشهرَ هذه الكتب التي ترجمَتْ للشيخ عبدِ السَّلام الأسمر ، وأغزَرِها مادة .

(١) لعله الشيخ أحمد بن جابر النائلي الذي اجتمع به محمد الهاوروش المغربي ، صاحب كتاب « الفتح المبين والدر الثمين في فضل الصلاة على سيد النبيين » سنة ١١٢٦هـ (١٧١٤م) ، وقرأ عليه مجموعة من الكتب الصوفية ، وقال في حقه : « ولا نعتمد في هذا الشأن إلا عليه ، فمن نسبنا إلى غيره فهو بنا جاهل أو عالم متجاهل » وهو اعتراف مهم من هذا الشيخ المغربي المعروف في عصره .

(٢) انظر « فصول في تاريخ ليبيا الثقافي » ص ١٩٠ – ١٩١ ، والشيخ عليّ عبد الصادق فقيه ومؤلف معروف بمحاربة البدع ، وله فيها كتاب بعنوان : « تحفة الإخوان في الرد على فقراء الزمان » ولم أرَ ذِكرًا لتأليفه في حياة الشيخ الأسمر إلا في هذه الرحلة ، وإذا صحَّتْ فإنَّ أسلوبَ التأليف سيختلفُ عن أساليب تأليف المعجَبين المعتنين بنسبة البدع والكرامات الخارقة للشيخ .

النُّسَخ ومنهج التحقيق :

والكتابُ الذي بين أيدينا - على ضخامته ،- ليس هو الذي يسمِّيه كريم الدين البَرموني بـ « الديوان » حيث يقول : « وقد جمعتُ من مناقبه كتابًا قبل هذا ، فيه أربعة أجزاء في الكامل ، في كلِّ جزء منه نحو الأربعين كراسًا ، كلُّ ذلك مناقبُ له ، كل مَنْقَبةٍ مسندةٌ إلى ثقة من أصحابه ، إلا ما شاهدته ونقلته عنه ، فلا نحتاج فيه إسنادًا إلى أحد ، وسميته بالديوان »[1] ، وعليه يكون ما بين أيدينا هو مختصر الديوان ، ولكنه النسخةُ الأكبر من كتاب « روضة الأزهار » ، ويكون « الديوان » هو ما يعنيه بـ « الكبير » في ثنايا كتابه هذا .

ولقد وقفت على نسخة ناقصة الوسط من كتاب البَرموني في مكتبة الأوقاف ، بمركز جهاد الليبيين تحت رقم ٨٢١ ، تقع في ١٩٦ ورقة ، ثم عرفت أن هناك نسخةً أوفى منها عند بعض الأسر بزليتن ، غير أن د. مصطفى بن رابعة الذي أعدَّ دراسة مهمة في هذا الموضوع ، لم يعثر على النسخة الكاملة ، وهو من أهل يزليتن العارفين بمظان وجود الكتاب ، وعلمتُ في ما بعد أنَّ نسخةً من ديوان البَرموني محفوظةٌ في بعض مكتبات إيطاليا ، ولم أقف عليها أو أجد مَنْ أكد هذه المعلومة ، كما علمت أن قطعةً من آخر الكتاب محفوظةٌ في بيت آل زبيدة بزليتن ، وكان الأخ د. مصطفى ابن رابعة قد اعتمد عليها في تحقيق رسائل الشيخ الأسمر .

ثم فاجأني صديق عزيز وأستاذ محققٌ ، هو : د. عبد الله المرابط الترغي ، عضو لجنة مسابقة الحسن الثاني للمخطوطات ، بوجود نسخة مخطوطة ، فيها إشاراتٌ كثيرة إلى الشيخ عبد السَّلام الأسمر ، تعود لملكية بعض الأسر

(١) المخطوط ص ٤ .

المغربية في شمال المغرب ، وهي من الحجم الكبير ، مبتورة الأول والآخر ، كُتبت بخط مغربي ، ورُسمت رؤوس المسائل فيها بالحمرة ، فحرِصْتُ على الحصول على نسخة منها ، وكان لي ذلك بفضل الله ثم تعاون هذا الأخ الكريم ، فتصفَّحتُها تصفُّحًا مبدئيًّا رجَّح عندي أنها كتابُ البَرموني « روضة الأزهار » وأنها تحتوي على أخبار كثيرة ، أوردَ بعضَها محمد مخلوف في تنقيحه للروضة ، وأهملَ الكثيرَ من فوائدها ، وفي النسخة عددٌ كبير من أسماء الأعلام والقبائل ، ومقطوعاتٌ شعرية كثيرة ، وفيها نثرٌ وشعرٌ فصيح للشيخ الأسمر ، وزجلٌ عامي منسوبٌ إليه أيضًا ، وفي الكتاب مسائلُ فقهية ، مثل : أقوال العلماء في حكم الدُّف والمزهر في العرس وغيره ، والنسخةُ تقع في ٥٢٨ صفحة ، وفي الصفحة الواحدة ٢٣ سطرًا .

وعلمت بعد سنة من حصولي على هذه النسخة المبتورة ، أنَّ قطعةً قد تكون متمِّمةً لها ، عُثر عليها في مكتبة أخرى في وسط المغرب ، وأنها مشتملةٌ على العنوان واسم المؤلف بكل وضوح : « روضة الأزهار ومُنية السادات الأبرار في جمع البعض من مناقب صاحب الطار لكريم الدين البَرموني » ، فكان ذلك بدايةَ نشوة أخرى من مراحل التنقيب عن هذا المرجع الذي نأملُ أن يجيبَنا على كثيرٍ من الأسئلة المعلَّقة عن طريقة الرجل وثقافته وحياته .

ولقد تمكَّنتُ بفضل الله من تصوير هذه القطعة ؛ لتصل صفحات هاتين القطعتين المغربيتين إلى ستمائة وثمانٍ وتسعين صفحة ، بحسب الترقيم المثبَت على الكتاب ، وتأكدتُ بذلك من أنهما متكاملتان بدون ريب ، وقد جمع الله بينهما في عام واحد ، وفي بيت واحد بعد زمن غير معروف من التفرق والتباعد ، لكنَّ الخللَ في ترتيب صفحاتهما حينًا ، وفقدان الترتيب أحيانًا أُخرى ، جعل الرقمَ المشار إليه غيرَ دقيق ، وقد كُتبتْ بعضُ

صفحات الكتاب على لوحة واحدة بخط سميك ، وكُتب غيرُها بخط دقيق ؛ لتسع اللوحة الواحدة صفحتين .

لدينا إذن ثلاث نسخ ، نسختان في ليبيا ، ونسخة في المغرب ، ويمكن اختصار التعريف بها في النقاط الآتية :

– النسخة الأصل ، وهي النسخة المغربية الكاملة التي اعتمدتُ عليها في التحقيق ، وعنوانها « روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع البعض من مناقب صاحب الطار » . وقد عرَّفتُ بها في المقدمة ، وأعطيتها رمز (أ) وأحلت إليها في الحاشية باسم « الأصل أو (أ) » كُتبت بخط مغربي ، ورُسمت رؤوس مسائلها بالحمرة ، وتقع في نحو ٧٠٠ صفحة ، وفي الصفحة الواحدة ٢٣ سطرًا ، وتدلُّ العبارة البادئة في هذه النسخة على أن الناسخ غيرُ المؤلف ، وهي قوله : « قال الشيخ الفقيه الإمام العالم العلَّامة الولي الصالح كريم الدين البَرموني » ، ولكن اسم الناسخ غير مذكور في هذه النسخة ، وفيها إشارة إلى تاريخ الانتهاء من التأليف : « انتهى هذا الكتاب المبارك بحمد الله وحُسن عونه ، وكان الفراغ من تأليفه في شهر الله المبارك صفر الخير سنة ١٠٠٥هـ ألف وخمس سنين » أي ما يوافق ١٥٩٦م .

– نسخة مكتبة الأوقاف بمركز جهاد الليبيين رقم ٨٢١ ، تقع في ١٩٦ ورقة ، في كل صفحة ٢١ سطرًا ، وحجمها ٢٠ × ١٥ سم ، وقد رمزتُ لها بالحرف (ب) ، وهي غير كاملة ، وإن كان الموجود منها يكاد يكون مطابقًا لنظيره في النسخة المغربية ، وهو ما يدلُّ على أن النقص فيها كان اقتطاعًا من الأصل ، وليس اختصارًا له .

على النسخة تاريخ الفراغ من التأليف سنة ١٠٠٥هـ . وفيها ذكر اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، ونصُّه « انتهى بحمد الله على يد كاتبه ... محمد بن

عبد السَّلام الراجي رحمة الملك العلَّام ، ابن محمد بن عبد الدائم الأزدوي نسبًا ، البراهمي دارًا وسكنًا ، بتاريخ أوائل الربيعين ، على صاحبهما أفضل الصلاة والسَّلام ، صبيحة يوم الخميس بعد صلاة العصر سنة خمس وثمانين ومائة وألف .

وهذه النسخة التي كُتبت بعد مائة وثمانين عامًا من انتهاء التأليف تبدو أدقَّ من النسخة المغربية .

– نسخة الشيخ منصور أبو زبيدة ، وهي التي أشير لها بالرمز (ج) وتُمثِّل جزءًا مهمًا من آخر الكتاب يتميز بالوضوح ، وتقع في ٤٦٥ صفحة ، كُتبت بخط كبير مقارنة بالنسخة المغربية ، وهو ما جعل هذا الرقم الكبير من الصفحات لا يزيد على ثلث النسخة المغربية ، وجاء في خاتمتها « كمَّل الكتاب – بحمد الله وحُسن عونه وتوفيقه – فقيرُ ربه الراجي عفو مولاه محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن عبد القادر ثم الحملاوي نسبًا وأصلاً ، من فِرقة أولاد الشيخ المزار صاحب الكرامات المشهورة سيدي محمد أبي الشلالقي من وطن أبي سعادة ، من عمالة الجزائر ، ثم الآن مستوطنٌ بمقام سيدي أبي لبابة صاحب المصطفى . وكان الفراغُ من نسخه يوم الثلاثاء ٨ من جمادى الآخِر (كذا) سنة ١٣٢١هـ إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف ». مقاسها ٢٩ × ١٩سم ، وأسطرها ٢٠ ، وعليها ختم يحمل عبارة « نسخة خاصة بالشيخ منصور أبي زبيدة الفيتوري اليعقوبي » . رحمه الله وشَكر سَعْيَ أسرته الكريم لنشر العلم ، وتعاونها مع المحقِّق في ذلك .

وعلى الرغم من وجود ثلاث نسخ للكتاب ، فإن نسخةَ مكتبة الأوقاف بمركز جهاد الليبيين ، ونسخةَ الشيخ منصور أبي زبيدة ينقصُهما

الكثير من محتوى الأصل على اختلاف بينهما في ذلك المحتوى ، والنسخةُ الكاملة هي النسخة المغربية ، وهي على وضوح خطها - غالبًا - كثيرةُ الأخطاء ، اشتركَ في ارتكابها المؤلِّفُ والناسخ ، وتنوَّعَتْ طبيعتُها بين الإملائي واللغوي والأسلوبي ، بل تعدَّتْ ذلك إلى أخطاء في المعلومات ، مما استوجَبُ جُهدًا مضاعَفًا في التصحيح والتعليق ؛ لتقديم نصٍّ صحيح ، وكان من الضروري أن يُشار في الحاشية إلى الأصل ليشترك القارئ في التقويم ، باستثناء بعض اللوازم الأسلوبية ، مثل وقوع الفاء السببية في غير موضعها بصورة مستمرة في معظم النص ، ووَضْع أسماء الإشارة في غير دلالتها الصحيحة ، بوَضْع المؤنث موضع المذكر ، والمفرد موضع الجمع ، وغير ذلك مما صوَّبناه دون أن نلتزم بالإشارة إلى التصويب باستمرار .

ولقد شجعني على التصويب ذلك الإذن الذي صدر من البَرموني في مقدمته لتصحيح ما قد يرد فيها من أخطاء ، فصححتُ بعضَها وتركْتُ الأساليب للدلالة على عصرها ، ونبهت على ذلك في الحواشي أحيانًا .

أمام هذه الحالة كان منهج التحقيق يستدعي الاجتهاد في القراءة في حالة غياب النسخة المعينة على المقابلة ، كما يستدعي الاستعانة بالمصادر التي اقتبس المؤلف منها وهي كثيرة .

وأشير أخيرًا إلى أنني وضعتُ الزيادات على النص بين معقوفين ، فكان من ذلك العناوين الجانبية وبعض الزيادات في صلب النص مما يقتضيه تمام المعنى .

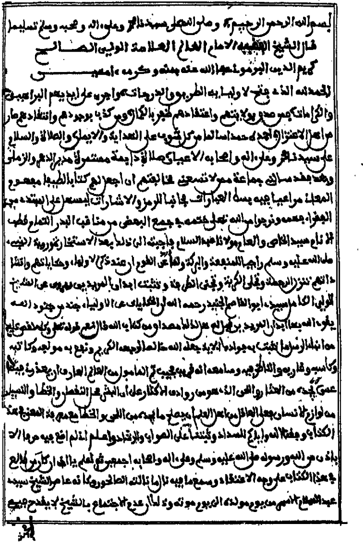
* * *

شكر وتقدير

يطيبُ لي في خاتمة هذه المداخل أنْ أسديَ خالص الشكر والتقدير لكل يد قدمتْ مساعدةً أسهمت في إنجاز هذا العمل العلمي ، وفي طليعة هذه الأيادي يدُ الأستاذ الصديق الدكتور عبد الله المرابط الترغي الذي عرفتُ عن طريقه هذه المخطوطة النادرة والمهمة في تاريخنا الثقافي ، والأستاذ الفاضل الدكتور محمد بن صوفية الذي توصلتُ عن طريقه بمكرمة لا تنسى حين أرسل إليَّ نسخة عن مخطوطة فضيلة العلاّمة المرحوم منصور أبي زبيدة - طيب الله ثراه - ، مع عظيم الامتنان إلى أسرته التي احتفظت مشكورة بهذه القطعة المهمة من « روضة الأزهار » ، وتفضلتْ بالموافقة على أخذ نسخة عنها ، ثم إلى الأخوين العزيزين الأستاذ عمّار جحيدر والأستاذ إبراهيم الشريف اللذين تفضلا بمنحي نسخة من مخطوطة مكتبة الأوقاف بطرابلس المحفوظة في مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية .

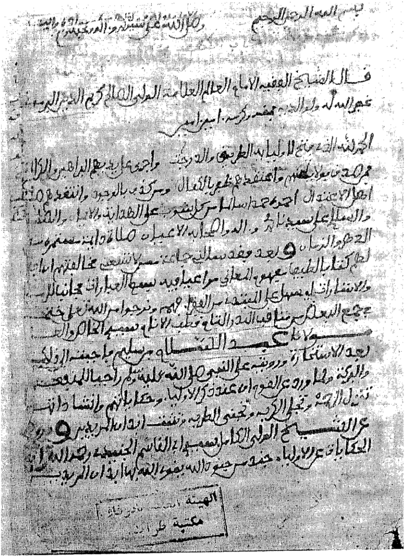
كما أذكر بالشكر والامتنان حرص الأخ الأستاذ الدكتور فيصل الحفيان على أن يكون نشر هذا الكتاب هدية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى طرابلس بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة الإسلامية للعام ٢٠٠٧م . وأثني على كلِّ من قدَّم مساعدة - مهما قلَّ في نظره حجمها - أو ملاحظة كريمة ، أو اقتراحًا لحلِّ مستغلق في نصِّ المخطوطة ، أو مَنحَ مشورةً مفيدةً ، أو أعان بقراءة جزء من التجارب في هذا الظرف العَجِل ، ومنهم السادة العلماء الأفاضل والأصدقاء الأعزاء : الأستاذ الشريف ولد أباه ، والدكتور عبد الإله بن عرفة ، والدكتور مصطفى أحمد علي ، والدكتور محمد رزوق ، والدكتور المختار أحمد ديرة ، والدكتور خليفة بديري ، والدكتور عادل أبو راوي ، والدكتور محمد جنجار ، والأستاذ عياش السيد مصطفى . وأذكر جهد أبنائي في تخريج بعض الأحاديث النبوية ، تقبل الله معونة الجميع وأحسن جزاءهم .

صور المخطوطات



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما
قال الشيخ الفقيه الإمام العالم العلامة الولي الصالح
كريم الدين البرموني عفا الله عنه بمنه وكرمه آمين
الحمد لله الذي منح أولياءه الطريق إلى الدرجات وأجرى على أيديهم البراهين
والكرامات فمن صدق بولايتهم واعتقادهم ظفر بالكمال ومن كذب بوجودهم وانتقادهم صار
من أهل الاعتزال والجدال حمدا أسأل به من كرمه الثبوت على الهداية والإيمان والصلاة والسلام
على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الأعيان صلاة دائمة مستمرة مدى الدهر والزمان
وبعد فقد سألني جماعة ممن لا تسعني مخالفتهم أن أجمع لهم كتابا لطيفا مجموع
المعاني مراعيا فيه بسط العبارات مجانبا الرمز والإشارات ليسهل على المبتدئ من
الفقراء فهمه ونرجو من الله تعالى ختمه في جمع البعض من مناقب البدر التمام قطب
الأنام سيد الخاص والعام مولانا عبد السلام فأجبته إلى ذلك بعد الاستخارة النبوية للنبي
صلى الله عليه وسلم راجيا المنفعة والبركة ولما علم القوم أن عند ذكر الأولياء وحكاياتهم
تنزل الرحمة وتجلى الكربة وتحيا القلوب وتثبت أقدام المريدين ... عن الشيخ
الولي الكامل سيدي أبو القاسم الجنيد رحمه الله الحكايات عن الأولياء جند من جنود الله
يقوي الله بها أبدان المريد ... فقال نعم قوله تعالى وكلا نقص عليك
من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... جعله الله خالصا لوجهه الكريم ونفع به مؤلفه وكاتبه
وكاسبه وقارئه والناظر فيه وسامعه ... من العالم العارف أن يعذر فيما
عسى يجده من العثار والقصور ... الإكثار على أن البحث عن النقصان والخطأ والنسيان
من لوازم الإنسان فعلى العاقل من أهل العلم أن يصلح ما يجده من اللحن والخطأ ...
الكتاب وفقنا الله وإياكم للسداد وثبتنا على الصواب والرشاد واعلم أني لم أضع فيه حرفا إلا
بإذن من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين ثم اعلم يا أخي أن كل من طالع
في هذا الكتاب على وجه الاعتقاد وسمع ما فيه نال ما نالته الحاضرون كأنه عاصر الشيخ سيدي
عبد السلام الأسمر من يوم مولده إلى يوم موته ولكن عدم الاجتماع بالشيخ لا يقدح في

(صورة الصفحة الأولى من النسخة المغربية « أ »)



(صورة الصفحة الأولى من نسخة مكتبة الأوقاف بمركز جهاد الليبيين «ب»)

بسم الله الرحمن الرحيم [illegible]

[illegible] فول ومن كراماته [illegible]

ما حدثني به الاخ في الله الصالح سيدي يوسف بن مغنانج [illegible]

كان من احد انجاب الشيخ قال كنت مع الشيخ في ايام مكثه بمصراتة

وكان معنا جماعة من اهلها يتحدثون على الكتاب والسنة فبينما

هم كذلك اذ قام الشيخ على خلاف عادته ومد يده نحو المغرب

ثم ضمها وخمه اسود فنظر الجماعة بعضهم الى بعض متعجبين

من ذلك ثم سأله واحد منهم بالله عن تغيير كمه وانا اسمع فقال

له امراة بالمغرب الاقصى سقطت كخبزة لها على النار فقالت يا رجال

الله ويا سيدي عبد السلام فرددتها لها بموضعها فوقع في كمي

ما رايتموه وحدثني ايضا سيدي يوسف هذا فقال تخلفت عن الحضرة

يا ما عديدة في ايام مكثي ببر ليتني وكان السبب في تخلفي عليها اني

[illegible] غلة [illegible] فيها كريما وديلبارت

وجعلت نفسي [illegible] في زمن [illegible] حين طيراب تناجيهم فبينما انا

ذات يوم [illegible] على [illegible] الشيخ يتصرف عنا [illegible] على [illegible]

ويامرني بالمشي معه فقلت له اخاف على نتاج هذه الكريمة

والد ويلبارت من [illegible] فقال لي سر [illegible] على اصحابي

وعلى

(١)

[illegible]

(صورة الصفحة الأولى من نسخة الشيخ منصور أبو زيدة «ج»)

روضة الأزهار

ومنية السادات الأبرار

في جمع البعض من مناقب صاحب الطار

[استهلال المؤلِّف]

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا.

قال الشيخ الفقيه الإمام العالِمُ العلَّامة الوليُّ الصالح كريمُ الدين البَرموني - عفا الله عنه بمنِّه وكرمه آمين - :

الحمد لله الذي فتح لأوليائه الطريقَ والدرجات، وأجرى على أيديهم البراهين والكرامات، فمن صدَّق بوِلايتهم واعتقاداتِهم ظفَرَ بالكمال، ومن كذَّب بوجودهم وانتقدَهم[1] صار من أهل الاعتزال[2]، أحمدُه حمدًا سالمًا من كلِّ شَوْب على الهدايةِ والإيمان، والصلاةُ والسَّلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الأعيان، صلاةً دائمةً مستمرةً مدى الدَّهرِ والزمان، وبعد،

فقد سألني جماعةٌ ممن لا تسَعُني مخالفتُهم أن أَجعلَ لهم كتابًا لطيفًا مفهومَ المعاني، مراعيًا فيه بسطَ العبارات، مجانبًا للرمز والإشارات، لِيسهُلَ على المبتَدِئ من الفقراء فهمُه، ونرجو من الله تعالى خَتْمَه، في جمع

(١) في الأصل: وانتقادهم.

(٢) في (ب) الاعتدال، وهو تصحيف، وهذا الاعتقاد محل نظر، وقد جرَّ الكثير من المشكلات على الثقافة الصوفية في القرون المتأخرة من تاريخ الإسلام، وسوف نقف عند نماذج من تلك الاعتقادات التي لا يمكن للمسلم قبولها معتزليًّا كان أو سُنيًّا، مع التأكيد على أن أساس الثقافة الصوفية هي الأصول الإسلامية الصافية قبل أن ترد عليها الشوائب التي يجب إزالتها من أجل حياة روحية وذوقية راقية أرادها الزهاد والعابدون في القرون الثلاثة الأولى للإسلام.

البعض من مناقب البدر التمام قطبِ الأنام ، سَيِّدِ الخاص والعام ، مولانا عبد السَّلام»[1]، فأجبتُه إلى ذلك بعد الاستخارة ، ورؤيةِ النبي ﷺ ، راجيًا للمنفعة والبركة ، ولِمَا ورد عن القوم أنَّ ذِكرَ الأولياء وحكاياتِهم وإنشاداتهم تُنزل الرحمة ، وتُجلي الكُربة ، وتَجْني الطُّرفة ، وتُثبِّتُ أبدانَ المُريدين .

ويُرْوى عن الشيخ الوَلي الكامل سيدي أبي القاسم الجُنَيد[2] - رَحِمه اللهُ - : « أنَّ الحكايات عن الأولياء جُندٌ من جنود الله يُقوِّي اللهُ بها أبدانَ المُريدين ، قيل له : هل لذلك مصداقٌ من كتاب الله ؟ قال : نعم ، قولهُ تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (هود ١٢٠) » . جعلهُ الله خالصًا لوجهه الكريم ، ونَفَعَ به مُؤلِّفَه وكاتبَه وكاسِبَه وقارئَه والناظرَ فيه وسامعَه ، إنه قريبٌ مجيب .

ثم المأمول من العالِمِ العارفِ أن يعذِرَني [في ما][3] عسى أن يجِدَه من العِثارِ واللَّحْنِ الذي هو من روادفِ الإكثار ، على أن البشرَ مَحَلُّ النقصان ، والخطأ والنسيان من لوازمِ الإنسان ، فعلى العاقل من أهلِ العِلْمِ أن يُصْلِحَ ما يجدُه من اللَّحْنِ والخطأ مع معرفة المعنى في هذا الكتاب[4] . وفَّقنا الله وإيَّاكُم للسدادِ ، وثبَّتنا على الصَّوابِ والرَّشادِ .

---

(١) في (ب) بن سليم .

(٢) هو الجُنَيد بن محمد بن الجُنَيد البغدادي، المُكْنَى بأبي القاسم، توفي ببغداد سنة ٢٩٧هـ . ترجمته في «حلية الأولياء» ١٠/ ٢٥٥ ، وفي موضعه من كتاب «الأعلام» للزركلي ترجمةٌ ومراجعُ إضافية .

(٣) في الأصل : فيها .

(٤) غفر الله للشيخ البَرموني ، فقد أباح لي بهذا الإذن التصرفَ في نصه ، ولكن دون أن أُخِلَّ بالأصل، أو أُغيِّرَ المضمون ، مع التزامٍ بالإشارة إلى الإصلاح في أكثر المواضع ، ليشاركني القارئُ الرأيَ ، وإشارة عامة إلى الظواهر ، ولا يقلل وجود تلك الهفوات من الفوائد الكثيرة في هذا الكتاب ، كما لا يعفينا هذا الثناء من الاعتراف ببعض الهنات الفكرية والأسلوبية التي خفف منها اعتراف الشيخ بها . وفوق كل ذي علم عليم .

وَاعْلم أنِّي لم أضعْ فيه حرفًا إلَّا بإذن من الله ورسوله ﷺ وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين (١) ، ثمَّ إعْلمْ يا أخي أنَّ كلَّ منْ طالعَ في هذا الكتابِ على وجْهِ الاعتقاد ، وسمِعَ ما فيه نال ما نالهُ الصالحون ، وكأنَّه عاصرَ الشيخَ (٢) عبْدَ السَّلام الأسمرَ من يوم موْلده إلى يوم موتِه ، وذلك أنَّ عدمَ الاجتماعِ بالشيخ لا يَقْدَحُ في محبَّتِه وصُحبتِه ، فإنَّا نحبُّ رسول الله ﷺ ، والصحابةَ ، والتابعين ، والأئمةَ ، والمُهتدينَ ، وما رأيناهم ولا عاصرناهم ، وقد انتفعْنَا بأقوالِهم ، واقتديْنَا بأفعالِهم ، كما هو مُشاهدٌ ، فإن صورةَ المعتقَداتِ إذا ظهرَتْ وحصَلَتْ لا تحتاجُ إلى مشاهدةِ صورةِ الأشخاصِ ؛ لأن هذا الشيخَ الذي هُوَ مَوْلانا عبدُ السَّلامِ من صدَقَ معهُ واعتقدَه ، نفعَهُ الله به حيًّا أو ميْتًا ، ومن كذَّب فليجرِّب .

والاتفاق (٣) أنَّ كلَّ منْ لم تكُنْ له عقيدةٌ في أهل الله الحَيِّين منهم والميِّتين فلا يَنتفعُ بشيءٍ (٤) ، وكذلك الذي لم يكُنْ له شوْقٌ ولاَ محبَّةٌ لطريقِ الله ﷻ هو والأموات سواءٌ ، والسَّلام .

---

(١) لم نعرف ما إذا كان ذلك هو من طريق الاستخارة بالنسبة لإذن الله تعالى ، ومن طريق الرؤيا بالنسبة لإذن النبي ﷺ ، فقد صرح في بداية الكتاب أنه رأى النبي ﷺ في المنام .

(٢) في (ب) سيدي .

(٣) الاتفاق : غير موجودة في (ب) .

(٤) قوله : « والاتفاق » من الأحكامَ الجريئة التي اعتاد عليها بعض الناس في العصور المتأخرة ، وكأنهم جمعوا الأولين والآخرين وطالعوا آراءهم وحصلوا على إجماعهم ، وهي جرأة غير علمية ، والحقيقة أن المتفق عليه بين المسلمين أن النافع والضار هو الله ، قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (الزمر ٣٦) ، ومع أن في كلام البَرموني اعتدالاً في بعض فصوله فإن فيه غلوًّا في بعضها الآخر بسبب اتجاه ثقافة تلك العصور التي قلَّ فيها العلم ، وظهرت فيها الكثير من المخالفات ، إلى جانب أخطاء التفكير التي منها التهويل والتهوينَ والتعميم والمبالغة .

[فصول الكتاب]

وقد رَتَّبتُ كتابي هذا على خمْسَة فصول ، وخاتمةٍ ، ومقدِّمةٍ في تسْميةِ الكتابِ ، وفي تعريف مذهب الشيخ واعتقاده ، وطريقته ، ونحو ذلك .

الفصل الأول : في نسبِه ، وتعريفِ قبيلتِه ، وذِكْر شيْءٍ من أحوالِ والديه ، وصِفته ، ولباسه .

الفصل الثاني : في تبْشِير الخواصِّ من الأولياء به قبلَ ظهورِه (١) ، ومولِدِه ، وابتداءِ أمرِه ، وأخْذِه عن شيخِه (٢) ، وذِكْرِ بعضِ أحوالِ شيخِه ، وذِكْرِ بعضِ إخوانِ شيْخِه ، ورِحْلته من بلدِه إلى الساحِلِ ، ثم إلى مدينةِ طَرَابُلُس ، ثم إلى جبل غريان ، وفي ما وقع من الحَسَدة ، ثم في انتقاله إلى القلعة ، ورجوعه منها إلى تاورغا ، ثم إلى مِصْراته ، ثم إلى يزليتن، ومَكْثه بها، وفي ما وقع له مع الفقيه مبارك(*) ، وابنِ عَمِّه سالم الشهير بالمباركي ، وما يناسبُ ذلك من الدلائل والحكايات ، والأشعار والمقطَّعات .

الفصل الثالث : في ذكر شيء من مناقبه ووفاته ، واستخلافه لسيدي

(١) من ذا الذي يعلم الإنسانَ قبل ظهوره غير خالقه ؟ وإذا كانت الأخبار الصحيحة عن النبي ﷺ قبل ظهوره لا تتجاوز الحديث عن أجداده غالبًا ، فإن المبالغة في كتب هذه القرون المتأخرة تجعل الأولياء في مرتبة الرسل أحيانًا ، وفوق مرتبة الرسل أحيانًا أخرى ، وعلى الرغم من أنني لست من المكفرين والمغالين في التبديع ، فإن ما يخالف روح الشريعة ونصوصها لن يمر دون تعليق ، وإذا مرَّ فلأنني علّقت على مثله أو أجّلته إلى وقت آخر ، والله المستعان .

(٢) بداية سقط في النسخة (ب) .

(*) الفقيه مبارك رجل من ساحل الأحامد تكرر ذكره في الكتب التي ترجمت للشيخ الأسمر ، وفيها أنه معروف منذ حداثته بمناكفة الشيخ .

عمر بن محمد بن احْمودة الشهير بابن جحا ، وشَطْحَتِه ، ورُؤيتِه [1] ، وما يناسبُ ذلك من الأدلةِ وكلامِ القوم .

الفصل الرابع : في ذكر بعض [2] نصائحه لأصحابه .

الفصل الخامس : في عِدَّةِ أولادِ صُلْبه ، وبعضِ منْ مات من أصحابه النُّقباءِ المنشدين لكلامه ، وتعريفِ نَسب أصحابِه ، وأماكِنهم وقبورِهم ، وتاريخ موتهم ، وفي ذكر شيء من أحوالهم ، رضي الله عنهم ، ونفعنا الله بهم ، آمين [3] .

* * *

(١) لعل المراد الرؤى المنامية .

(٢) في (ب) : في ذكر البعض .

(٣) الفصلان الرابع والخامس مما لم ينشر في هذا المجموع ، ونشر الفصل الرابع ضمن كتاب «رسائل الأسمر» بتحقيق الدكتور مصطفى بن رابعة .

المقـــدِّمـة

أقول – وبالله التوفيق – : إنِّي لَّما سألني الجماعةُ المذكورون عن التأليف لهذا الكتاب استخرتُ [1] الله على ذلك ، ونمتُ وأنا إذ ذاك بمكة – شرَّفها الله – فبينما أنا نائم رأيتُ النبيَّ ﷺ على صِفته المعلومة ، فقال : يا كريمَ الدين ما فعلتَ في ما سألكَ عنه إخوانُك ، وهو جمعُ كراماتِ أستاذِك عبدِ السَّلام ؟ فقُم وجِدَّ في جمع كرامات أستاذك . فلما استيقظتُ من منامي استعلمتُ ما يكفيني من الزاد ، وقفلتُ إلى مدينة طرابلس الغرب وقُراها ، ثم إلى تونس وأحوازها ، أبحث [عن] [2] من عاصر الشيخ من أصحابه الحيِّين لننقل عنهم ، إلى أن جمعتُ ما يسَّر الله به ، وشرعت في التأليف لذلك . غفر الله للجميع بمنِّه وكرمه ، إنه مولى كلِّ خير ومُوليه ، وحافظُ [3] كُلِّ شيء و (مغيب) [4] . ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقِنا عذاب النار .

شعر : [طويل]

أيــا فقــراءَ الله هــلْ مــنْ مبــادرٍ … لفضــلِ كتــابٍ للشَّــبيهِ مــدافعُ
كتابٌ عظيمُ القَدْرِ يسْـهُلُ [5] فهمُـهُ … عجيــبٌ لأسرارِ الحقيقــةِ نــافعُ

---

(١) في الأصل : فاستخرت .

(٢) في الأصل : على .

(٣) في الأصل : وحافظي .

(٤) كلمة غير واضحة في الأصل .

(٥) في الأصل : مسهل .

له الدرُّ والياقوتُ والمِسكُ يَتْلُهُ رفيعٌ لأستارِ الطَّريقةِ رافعُ[1]
وفيه من الإيماءِ ما لأولي الحِجَى يزيدُ يقينًا وهو في الفضْلِ واسعُ
تُنَوَّرُ مِن رؤياهُ مِنَّا بصائرٌ وتَطْرَبُ من فحواهُ منا مسامعُ
كذا الروضةُ الزهراءُ في دُرِّ لفظِهِ عيونٌ لها عينُ اليقينِ منابعُ
لِباسُ حروفٍ كالظلامِ وتحتها ضياءٌ مِن العلمِ الإلهي ساطعُ
ففيه طريقُ الشيخِ جدٌ[2] بأصلها (وفيه له مَنَاقبٌ وشرائعُ)[3]
إمامٌ جليلٌ ما له من مُشابهٍ سليلُ سليمٍ مَنْ مِنَ العلمِ كارعُ
هو المقصدُ الأعلى ومَنْ بجنابِهِ يَلُذْ يلقَ عِلمًا ليس فيه منازعُ
فيا طالبي[4] التحقيقِ هذا مُرادُكم فجِدُّوا إلى نَيْلِ المرامِ وسارعوا

... انتهى .

وسمَّيْتُه بـ « روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع البعض من مناقب صاحب الطار » . وهو الشيخُ الفقيهُ الإمامُ العالمُ العلّامة الصُوفيُّ الموفيُّ الوليُّ الصالحُ إمامُ الحضرةِ القدسية، ورئيسُ الجماعةِ العروسية، إغاثةُ الملهوفين، سلطانُ الصالحين، الطرابلسي، مولانا عبدُ السَّلام بنُ سليم، المالكيُّ مذهبًا، الأشعري اعتقادًا ، العروسي طريقةً ، الفيتوري نَسَبًا ، نفعنا الله به وببركاته. آمين.

وقد جمعتُ من مناقبهِ كتابًا قبلَ هذا فيه أربعةُ أجزاء في الكامل ، في كل جزء منه نحوُ الأربعين كراسًا ، كلُّ ذلك مناقبُ له ، كلُّ منقبة مُسندةٌ

(١) هنا ينقطع التوافق مع النسخة (ب) ، وفي قوله « يَتْلُهُ » جزمٌ للفعل « يتلو » بلا موجب سوى الوزن.

(٢) في الأصل : جدا .

(٣) في شطره الأخير اختلال بيِّن .

(٤) في الأصل : فيا طالب .

إلى ثقة من أصحابه ، إلَّا ما شاهدتُه ونقلتُه عنه ، فلا نحتاج فيه إسنادًا إلى أحد ، وسمَّيْتُه بـ « الديوان ، في مناقب نجل سليم أبي عمران » (١) . وجمع غيرُنا من أصحاب الشَّيخ في هذا المعنى - وهو (٢) المناقب - تواليفَ عديدة .

فقَوْلي : المالكي مذهبًا ، أعني هذا الشَّيخَ الذي هو مولانا عبدُ السَّلام ابنُ سليم ، مذهبُه الذي أَسْنَدَ عليه وذَهب إليه في الفروعِ الاجْتهاديةِ وغيرِها على مذهب إمام [دار] الهجرة ، ينبوعِ العلمِ والعمل ، والمعرفةِ والحكمة ، والزُّهدِ والوَرع ، عالمِ المدينةِ المشرَّفة مالكِ بنِ أنَس - رحمه الله ونفع به - .

وقوْلُنا : على مذهب هو : مصدر ميمي ، لغةً : الطريق، ومكانُ الذهاب ، وعند الفقهاء صار حقيقةً عرفيةً أُريدَ به المفعول، أي ما ذَهَب إليه من الأحكام الاجتهادية إمامٌ من الأئمة ، ويُطلق عند المتأخرين من أئمةِ المذهبِ على ما به الفَتْوى، من باب إطْلاق الشَّيءِ على جُزئِه الأهم، كخبر « الحج عرفات » ؛ لأن ذلك هو الأهمُّ عند الفقيه المقلِّد . قاله الحطَّاب. وقال الزُّرقاني: أي ما ذَهب إليه ، يصح أن يكون «ذَهب» مبنيًّا للفاعل، والضَّمير للإمام مالك ، و « ما » واقعة على المذهوب إليه ، ويصح أن يكون مبنيًّا للمفعول ، ولا يصحُّ حملُه على المكان إلَّا بتعسُّف ، أيْ أخذٍ على غيرِ طريقٍ ؛ لأنَّ الأحكامَ مذهوبٌ إليها لا فيها ، ووجهُ صِحَّةِ الجمعِ مع التعسُّفِ أنَّ المكانَ هنا ليس حقيقةً ، وإنما هو مجازيٌّ ، فكأنَّه لمَّا كان ينتقلُ من حكمٍ إلى حكمٍ ذاهبٌ في الأحكام ، فقلتُ : المذهب مجازٌ على كلا الحَمْلين، فلمّا رُجِّحَ الأوَّلُ قلتُ : لأنَّ المعنى يسوقُ إلى كونهِ بمعنى المفعول،

(١) والغالب أن هذا الديوان هو الذي يشير إليه بالكبير في ثنايا كتابه الأزهار الذي بين أيدينا .
(٢) في الأصل : وهي .

مع ما بينه وبين المصدر من القرب ، وتقدم أن استعماله في المذهوب [1] إليه من الأحكام الاجتهادية حقيقةٌ عُرْفِيَّة .

والإمام هذا هو : مالكُ بنُ أنَس - رحمه الله تعالى - بنِ مالك بنِ أبي عامر بن عمرو بنِ الحارث بن غَيْمان بنِ خثيل بن عمرو بن الحارث ، وهو ذُو أَصْبَح - بفتح الهمزة وفتح الباء - وهي بطنٌ من حِمْيَر ، وإنما قيل : ذُو أَصْبَح، ولم يُقل : الأصبحي ؛ لأن العادةَ عند العرب إذا كان الشخصُ من بيوت الملوك يقولون : ذُو كذا ، والإمامُ من بيوتِ الملوك ، وغَيْمانُ بغين معجمة مفتوحة ، فمثلثة مفتوحة ، فمثناة تحتية ساكنة ، وابنُ أبي عامر جدُّ أبي مالك ، واسمُهُ أنَس : صحابيٌّ شهد المغازي كلَّها مع رسول الله ﷺ خلا بدرًا ، وولدُه مالك جَدُّ[2] مالك ، كنيتُه : أبو أنَس ، من كبار التابعين ، يروي عن عمرَ وطلحةَ وعائشةَ وأبي هريرة وحسان بنِ ثابت .

وهو أحدُ الأربعةِ الذين حَمَلوا عثمانَ ليلًا إلى قبره ، وغسلوه ودفنوه ، وأمَّا الإمامُ مالك [فتابعُ] [3] تابعين . والحاصلُ أن أبا عامر جدَّ أبي مالك صحابيٌّ ، وأنَسًا ومالكًا أباه تابعيَّان ، و[أما] الإمام - رضي الله تعالى عنه - فهو تابع تابعين ، وأبو عامر هذا - رضي الله عنه - من العرب حِلْفَةٌ في قريش، في بني تَيْم الله ، [فـ]هو مولى حِلْفٍ عند الجمهور، كما في الحطاب[4]، لا مولى عِتاقة ، وهو من بيوت الملوك كما مَرَّ آنفًا ، خلافًا لابنِ إسْحاق . وعدَّ الشيخ علي الحلبي مالكًا قريشيًا [وهو وَهْم] [5] ؛ إذ [إن] جدَّه المذكور

(١) في الأصل : المذهب إليه .

(٢) في الأصل : جدا .

(٣) زيادة يقتضيها المقام ويؤكدها ما بعدها .

(٤) الإشارة إلى ما ذكره الحطاب الرعيني عن الإمام مالك بن أنس .

(٥) في الحاشية : وفي نسخة : وَهْم .

الصحابي حِلْفٌ لهم كما علمت ، لا أنه منهم .

وإنما قَلَّد هذا السيدُ [1] مالكًا لأنه إمامُ دار الهجرة الذي هرعتْ إليه الناسُ من سائر الأقطار ، فهو إمامُ الأئمة في التحقيق ، وناصرُ السُّنَّة بالتدقيق ، لا ينصرف نجمُ السُّننِ إلَّا إليه ، ولا يعوَّلُ في الكتابِ والسُّنَّةِ إلَّا عليه ، [وفي] الأثرِ المشهورِ الصَّحيحِ المرويِّ عن الثِّقاتِ ، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ [قال] : « يُوشِكُ النَّاسُ أنْ تَضْربَ أكبادَ الإبلِ في طلبِ العلمِ ، فلا يجدون أعلمَ أو أفقه من عالم المدينة »[2] ، وورد أيضًا : « لا تنقطع الدنيا حتى لا يكونَ عالمٌ[3] بالمدينة تُضربُ إليه أكبادُ الإبل ، ليس على ظهْرِ الدُّنيا أعلمُ منه »[3] ، قال سفيان ابنُ عُيينة : نرى أن العالمَ في هذه الأحاديث مالكُ بنُ أنَس . فإن قيل : كيف تَرِد فيه الأحاديث قبل وجوده ، لأنه - عليه الصلاة والسَّلام - قال ذلك قبل وجود مالك ؟ فالجواب أنه - عليه الصلاة والسَّلام - يُخبرُ ببعضِ مغيَّباتٍ قبل وُجُودِها ، والعلماءُ ﷺ بحثوا ، فلم يجدوا صِدْقَ الحديثِ إلَّا على مالكٍ الإمام ؛ لأنه [الذي] هرعت إليه الناس من كلِّ الأقطار . ومما يدلُّ على عظمةِ الإمامِ مالكٍ ومزيدِ فضلهِ أنَّ ابنَ هرمز[4] أحدَ شيوخِه قال فيه : « مالكٌ أعلمُ النَّاس » [و][5] قال فيه ابنُ عُيينة : مالكٌ سيدُ المسلمين . وكان الأوزاعيُ يقول فيه :

---

(١) يعني أن تقليد الشيخ عبد السَّلام الأسمر للإمام مالك يعود إلى كونه بالصفات التي ذكرها ، لا لكونه في بيئة مالكية فحسب .

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٠) وحسنه، وصححه الحاكم على شرط مسلم في المستدرك ١/ ١٦٨ ، ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٨٣٣).

(٣) لم أقف عليه مسندًا ، وقال القاضي عياض في ترتيب المدارك ١/ ٧٠ : ذكره ابن حبيب - عبد الملك السلمي - يُسنده عن أبي صالح عن جابر بن عبد الله . قال ابن حجر في التقريب ٢/ ٣٦٢ : عبد الملك بن حبيب صدوق ضعيف الحفظ كثير الغلط . والصواب بدون : لا .

(٤) في الأصل : من أحد .

(٥) في الأصل : فقال .

مالكٌ عالمُ العلماءِ ، وعالمُ أهـل المدينة ، ومفتي الحـرمين . وقال الشافعيُّ : « مالكٌ أستاذي ، وعنه أخذتُ العلم ، ومالكٌ معلمِي ، وما أحدٌ أمنَّ عليَّ من مالك ، وجعلته في ما بيني وبين الله » .

ويكفيك شهادةُ هؤلاء الأئمة في بيان فضله ﷺ ، وروى بعضُ الثِّقاتِ من أكابرِ أصحابه أنه ذهب معه يومًا إلى الحمَّام فرأى مكتوبًا على فخذِهِ الأيمنِ بقلمِ القُدْرةِ « مالكٌ حُجَّةُ الله في أرضِه » ، فسألهُ عن ذلك ، فأمَرهُ بالكِتْمان .

واختُلف في مدّةِ حمْلِه ، فقيل : سنتان ، وقيل : ثلاثة ، وقيل : أربعة . ووُلد بأسنانِه . والأشهرُ في مولده أنه : سنة ثلاث وتسعين ، بتقديم التاء على السين ، من الهجرة . والصَّحيحُ أنَّه مات يوم الأحد تمام اثنين وعشرين يومًا من مرضه ، في ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ، ودُفن ببقيع الغـرقـد بغَـيْن معجمة ، فراء ، فقاف ، فدال ، من المدينة المشرفة . ومناقبُه كثيرةٌ مشهورة ، جُلبُها يُخرجنا عن المقصود .

وتلميذُه أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي نزيلُ مصر مات - رضي الله تعالى عنه - بها لأربع سنين ومائتين ، وأبو حنيفةَ النُّعمانُ بنُ ثابت نزيلُ بغداد مات لخمسين ومائة، وفي تَلْمذَتِه لمالكٍ نزاعٌ ، كما في تابعيته ، وأبو عبد الله أحمدُ ابنُ حنبل نزيلُ بغداد مات بها لإحدى وأربعين ومائتين ، وهو تلميذُ الشافعي اتفاقًا .

وبالجملة إنَّ جميعَ المجتهدين على هدى ، حتى من هُجِر مذهبُه . وامتناعُ تقليدِ غيرِ الأربعة إنما هو لعدمِ حفظِ مذاهبهم ، ولا ينافي أن جميعَهم على خيْرٍ من الله وهدى ، وليس على ضلالٍ ولا بِدْعَةٍ .

فائدة : قال الحطَّاب [عن] (١) القَرَافي ، قال إمام الحرمين : أجمعَ المحقِّقُون على أنَّ العوامَّ ليس لهم أن يتعلقوا بمذاهبِ أعيان الصَّحابة ، بل عليهم أنْ يتَّبِعوا مذاهبَ الأئمَّةِ الذين سبروا ونظروا وبوَّبوا ؛ لأن الصَّحابةَ لم يعتنوا بتهذيبِ مسائلِ الاجتهادِ ، وإيضاحِ طريقِ النَّظرِ بِخلافِ منْ بعدَهُم .

ثم قال القَرَافي : رأيت للشيخ تقي الدين ابن الصلاح ما معناه : التَّقليد يتعيَّنُ بهذه الأربعةِ دون غيرِهم ؛ لضَبْط مذاهب الأربعة على الوجْهِ الأتمِّ دون غيرهم. انتهى باختصار. ولم يبيِّنْ في أيِّ وقتٍ كان الاعتكافُ على مذاهب الأئمّة الأربعة ، وفي فتاوى السيوطي أنَّ ذلك بعد الخمسمائة ، فإنه قال في جواب سؤال السائل له عن نزول عيسى ، وقول السائل : إذا قُلتم إنه أيُّ عيسى يحكم بشرعِ نبيِّنا ، فكيف طريقُ حُكْمِه به ؟ هل هو بمذهبٍ من المذاهب المتقدمة، أو باجتهاد منه ؟ هذا السؤالُ أعجبُ من سائله (٢) ، وأشدُّ عجبًا منه قولُه بمذهبٍ من المذاهب الأربعة ، فهل خطرَ ببالِ السَّائلِ أنَّ المذاهبَ في هذه المِلَّة الشَّريفةِ مُنْحصرةٌ في أربعة ، والمجتهدونَ من الأئمة لا يُحصَوْن كثرةً ؟ وكلٌّ له مذهبٌ من الصَّحابةِ والتابعين، وهلمَّ جرًّا. وقد كان في السِّنين الخوالي نَحْوُ عشْرة مذاهبٍ، مُقلَّدةٌ أربابُها ، مُدوَّنةٌ كتبُها ، وهي الأربعةُ المشهورةُ ، ومذهبُ سفيانَ الثَّوْري ، ومذهبُ ابنِ عُيينة ، ومذهب الليث بن سعد ، ومذهبُ إسحاق ابنِ راهُويَهْ ، ومذهبُ ابنِ جَرير ، ومذهبُ داود . وكان لكل هؤلاء أتباعٌ يُفتُون بقولهم ويَقضُون ، وإنما انقرضوا بعد الخمسمائة بموتِ العلماء ، وقصورِ الهِمَم . وتقليدُ الميت جائزٌ لما نصَّ عليه ابنُ أبي طلحة من امتناعِ

(١) في الأصل : على .
(٢) في الأصل : مسائله .

تقليدِ العالِمِ مع وجود الأعلم ، وإن كان الأعلمُ ميتًا ؛ للأمنِ بموته عن رجوعِه عن قوله .

تنبيه : قال القَرَافي في الأحكامِ ما معناه : فإن قيل : ما معنى مذهبُ مالك الذي يُقلَّد فيه ، ويُتبَّع فيه ، ومذهب غيره من العلماء ؟ فإن قلتم : مذهبُه ما يقولُه من الحق ، أُشْكِل عليه : الواحدُ نصفُ الاثنين ، وسائرُ الحساباتِ والعقلياتِ مما لا تقليد فيه. وإن قلتُم : ما يقولُه من الحقِّ في خُصوصِ الشَّرعيَّات بَطَلَ ذلك بأُصولِ الدِّينِ وأُصولِ الفقه ، فإنَّها أمورٌ طلبها صاحبُ الشَّرعِ ، ولا يجوز التقليدُ فيها لمالكٍ ولا غيره ، وإن قلتم : مذهبُه ومذهبُ غيرِه هو الفروعُ الشَّرعية ، يقال عليه : إنْ أردتُم جميعَ الفروع بَطَلَ بالفروع المعلومةِ من الدِّين بالضرورةِ كالصَّلواتِ الخمس ، وصوْمِ شهر رمضان، وتحريمِ نحوِ الخمرِ والسرقةِ ، مما يستحيلُ فيه التقليد؛ لاستواءِ العَوامِّ والخواصِّ فيه . وإن أردتمُ بعضَ ذلك فما ضابطُه ؟ وإنْ بيَّنتُم ضابطَه لا يتمُّ ؛ لكَوْن الحدِّ جامعًا ، فإنه يُخرجُ عنه الأسبابَ الموضوعةَ لتلك الأحكامِ والشُّروطِ التي تُقَلِّدهم فيها ؛ لأنَّها غيرُ الأحكام، وإنما تُقَلِّدهم في الأحكامِ من خطابِ التكليفِ، والأسباب والشروط. ولذلك قال العلماءُ : الأحكامُ من خطاب التكليفِ ، والأسبابُ والشروطُ من خطابِ الوضعِ ، فهما بابان متباينان . ولأجل هذه المسألة لا يكاد فقيهٌ يُسأَلُ عن حقيقةِ مذهبِ إمامِه الذي يقلِّده فيه يُحسِنُ جوابَهُ .

فجوابُه أنْ يُقال : المذاهب [التي] [1] يُقلَّدُ فيها الأئمةُ خمسةُ أشياء : الأحكامُ الشَّرعيَّةُ الفرعيةُ الاجتهاديةُ وأسبابُها وشروطُها وموانعُها ،

(١) في الأصل : الذي .

والحُجَجُ المثبتةُ للأسبابِ والشروطِ والموانعِ ، فخرجت العقليةُ كالحسابيات ، وخرجت الأصوليةُ بالفرعية ، وخرجت الضروريةُ بالاجتهادية . والمرادُ بالحُجَجِ المُثْبِتةِ للأسبابِ والشروطِ [إلى آخره] ما تعتمدُه الأحكامُ من البيِّناتِ و[التقارير] (١) . وينبغي أن يُزاد على الخمسة أَقْيُدٍ قَيْدٌ آخر : أَلَّا يكونَ مُجمعًا عليه ، فيُقال : مذهبُ مالكٍ مثلًا : ما اختصَّ به من الأحكامِ الشرعيةِ الفرعيةِ الاجتهاديةِ ، وما اختصَّ به من أسبابِ تلك الأحكامِ وشروطِها وموانِعها .

تنبيه : (٢) لو قلَّد شخصٌ مذهبًا من المذاهب معيَّنًا ، وأراد أن ينتقلَ لمذهبٍ آخر : هل يجوز له ذلك أم لا ؟ فيه خلافٌ للعلماءِ على ثلاثةِ أقوالٍ : الجوازُ مطلقًا ، وعدمُ الجوازِ مطلقًا ، وعدمُ الجوازِ إن عمِل ، والجوازُ إن لم يعْمَل . والذي اقتصرَ عليه الزَّناتيُّ الجوازُ بأنْ قال : يجوزُ تقليدُ المذاهبِ في النوازلِ والانتقالِ من مذهب إلى مذهب ، بثلاثة شروط :

الأول : أَلَّا يجمعَ بين المذهبين على صِفةٍ تُخالف الإجماعَ ، كمن تزوَّج بغير صداقٍ ، ولا ولي ، ولا شُهودٍ ، فإنَّ هذه الصورةَ لا يقولُ بها أحد .

الثاني : من شروط التَّقليدِ أن يعتقد في من يقلِّدُه ، ولو بوصولِ خبرِهِ إليه ، ولا يقلِّدُه زمنًا في عِماية .

الثالث : من شروطِ التَّقليدِ أن لا يَتَّبع رُخَصَ المذاهب .

هذا ملخص ما نقلَه الشهابُ القَرَافيُّ عن الزَّناتي ، ونَقلَ عن غيرِه جوازَ تقليدِ المذاهب، والانتقال إليها في كلِّ ما لا ينقضي فيه قضاءُ القاضي ،

(١) في الأصل : الأقارير .

(٢) ورد في الحاشية « قف : اعرف الخروج إلى مذهب آخر » ولهذا التعليق نظائر تستوقف نظر القارئ عند النقاط المهمة .

وهو كلُّ [ما] (1) خالفَ قاطعًا أو جليَّ قياسٍ . وقال القَرَافيُّ - رحمه الله - : إنْ أرادَ الزَّناتيُّ بالرُّخصِ هذه فهو حَسَن ، وإن أراد بها كلَّ ما فيه سهولةٌ على المكلَّفِ كيف كان، لزِمَ أن يكونَ مُقلِّدُ مالكٍ في الأمياه والأرواث ، وتَرْكِ الألفاظِ في العقودِ ، مخالفًا لتقوى الله . وليس كذلك .

تتمتان :

الأولى : قد قدَّمنا تقديمَ الأفضل ولو ميِّتًا ، وهذا مما لا نِزاعَ فيه ، وأما تقليدُ المفضولِ [فـ]فيه ثلاثةُ أقوالٍ ، المختارُ يجوزُ تقليدُه إن اعتقده أفضلَ أو مساويًا ، لا إن اعْتقدَه مفضُولاً ؛ لأنَّه يجبُ على أهلِ كُلِّ مذهبٍ اعْتِقادَ أفضليةِ إمامهم .

الثانية (2) : حكمُ التَّقليدِ لواحدٍ من هذه المذاهبِ الأربعةِ الوجوبُ ، حيث لم يكنْ في هذا المقلِّدِ أهليةُ الاجتهادِ ، ولا يجوزُ الخروجُ عنها ؛ لِمَا في الخروجِ عنها(3) من خرْقِ الإجماعِ (4). وقد انعقَدَ إجماعُ المسلمين اليوْمَ على متابعةِ واحدٍ من الأئمةِ الأربعةِ - رضي الله عنهم أجمعين - وعدمِ جوازِ الخروجِ عن مذاهِبِهم ، وإنَّما حَرُمَ تقليدُ غيرِ هؤلاءِ الأربعةِ من المجتهدينَ مع أنَّ الجميعَ على هُدىً ؛ لعدمِ حِفْظِ مذاهِبِهم ، لموتِ أصحابِها وعدمِ تدوينِها (5). ولذا قال بعضُ المحققين: المعتمَدُ أنَّه يجوزُ تقليدُ الأربعةِ ، وكذا مَنْ عَدَاهم ممَّن حُفِظَ مَذهبُه في تلك المسألةِ ودُوِّنَ حتى عُرِفَتْ شُرُوطُه وسائرُ معتبَرَاتِه ، فالإجماعُ الذي نقله غيرُ واحدٍ كابنِ الصلاحِ وإمامِ

(1) في الأصل : من .

(2) أراد التَّتِمَّة الثانية .

(3) عنها أي المذاهب ، وفي الأصل عنهم أي أصحابها ، ولم يتقدم لهم ذكر قريب .

(4) في الأصل : الاجتماع .

(5) في الأصل : « لموت أصحابهم وعدم تدوينهم » .

الحرمين والقَرَافي عن منع تقليدِ الصَّحابة على من فُقد منه شروطُ ذلك .

فائدة : قال أبو الحسنُ شارح المدوَّنة نقلًا عن أبي محمد صالح : الأدلةُ التي بَنَى عليها مالك مذهبه ستةُ عشر : نصُّ الكتاب ، وظاهرُ الكتاب وهو العمومُ ، ودليلُ الكتاب وهو مفهوم المخالفة ، ومفهومُ الكتابِ وهو المفهومُ بالأَوْلى ، وتنبيهُ الكتاب وهو التنبيهُ على العـلَّة ، مثل قوله تعـالى : ﴿ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا ﴾ (الأنعام ١٤٥) . ومن السُّنَّة أيضًا مثلُ هذه الخمسة . والحادي عشر : الحكمُ بسدِّ الذرائعِ ، واختَلف قولُه في السابع عشر وهو : مراعاة الخلاف ، فمرةً راعاهُ ، ومرةً لم يراعِه ، قال الشيخُ أبو الحسن : « ومما بَنى عليه مذهبَه الاستصحابُ » انتهى محلُّ الحاجة منه . والله أعلم .

وقولنا : « الأشعريُّ اعتقادًا » أي [أنَّ] هذا الشيخَ الذي هو موْلانا عبدُ السَّلام عُمْدتُه في عقائدِ الإيمانِ ما سلكَهُ الإمامُ أبو الحسن الأشعريُّ من العقائد السُّنيةِ المشتملةِ على براهينَ وحِجج ، وتفصيلِ المجْملاتِ ، ودفْعِ الشبهاتِ إلى غير ذلك ، ومن بعده كالجزائري والسنوسي ، حتى صار يقولُ : مَنْ لم يجزمْ بعقائدِ الإيمان على ما سلكَهُ الأشاعرةُ ، فليس هو مني ولا أنا منه . وله في ذلك تآليفُ عديدةٌ بعَثَ بها [إلى] الأمصارِ (١) ، وكان يحضُّنا على ذلك [و]على تعليم عقائدِ الإيمانِ والجزْمِ بها ، وكان يقولُ ليس في مشايخِنا مُقلِّدٌ ، ولا مَنْ [هو] مشكوكٌ في إيمانِه ، إلى أن قال - رحمه الله - : إخواني تفقَّهوا في التَّوحيدِ تَنْجُوا من التقليدِ .

[أما] (٢) هذا العِلمُ الذي نحنُ بصَدَدِه ، فواضعُه الأوَّلُ هو الله تعالى ؛ لأنَّ هذا العلمَ من أقسامِ الشرعِ ، وواضعُ الشرعِ الشارعُ كما هو معلومٌ .

(١) يقصِدُ هنا رسائلَ الشيخِ الأسمر إلى مريديه .
(٢) في الأصل : و .

وأما المسائلُ المشتملةُ على البراهِينِ والحِجَجِ مما تقدم [فواضعُها][1] الإمام أبو الحسن الأشعري، اسمُهُ : عليُّ بنُ إسماعيلَ بنِ بشرِ بنِ إسحاقَ بنِ إسماعيلَ بنِ عبد الله بنِ موسى بنِ بلال بنِ بُرْدة بنِ أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ وهو مالكيُّ المذهبِ ، وهوَ أوَّلُ مَنْ دوَّنها واستنْبَطَها ، [أي] مَنْ دوَّن العقائدَ ، على طريقِ الكتابِ والسُّنَّة ، وما انطوى عليه إجماعُ الصحابةِ ، وجرتْ عليه أقوالُ السلفِ ، [فـ] هو المجدِّدُ لهذهِ الأمَّةِ أمرَ دِينِها على رأسِ المائة الثَّالثةِ ، على ما يُشيرُ إليه قولُه ﷺ : « إنَّ اللهَ يبْعثُ على رأسِ كُلِّ مائةِ سنةٍ مَنْ يُجدِّدُ لهذهِ الأُمَّةِ أَمْرَ دِينَها »[2] . وأما قبْلَ الأَشْعرِيِّ [فـ] لم تُستنبط ولا تُدوَّن ، كما قال السعد ، أسعده الله ، في شرحه على عقيدةِ النَّسَفي ، ونصُّه فيه : « كانت الأوائلُ من الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم أجمعين - لصفاء عقائدهم ببركةِ صُحبة النبي ﷺ وقُربِ العهدِ من زمنِه ، ولقِلَّةِ الوقائعِ والاختلافِ ، وتمكُّنهم من مراجعةِ الثقاةِ ، مستغنين عن تدوين علمَي أصول الدين وفروعه ، وترتيبهما أبوابًا وفصولاً ، وتقريرِ مقاصدِها فروعًا و[أُصولاً][3] ، إلى أن حدثَتْ الفتنُ من المسلمين ، وبُغيَ على أئمة الدين ، فظهر[ت] الآراءُ ، والميلُ إلى البدعِ والأهواءِ ، وكثرةُ الفتاوى والواقعات ، والرجوعُ للعلماء في المهمَّات ، فاشتغلوا بالنظرِ والاستدلالِ ، والاجتهادِ والاستنباطِ ، وتمهيدِ القواعدِ والأُصولِ ، وترتيبِ الأبواب ، وتكثيرِ المسائلِ بأدلَّتِها ، و[إيراد][4]

---

(١) في الأصل : بوضعها .

(٢) رواه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة، وصححه الحاكم ٤/٥٦٧، والألباني في المشكاة (٢٤٧).

(٣) في الأصل : وفصولاً .

(٤) في الأصل : إرادة .

الأسئلةِ بأدلَّتِها ، وتبيينِ الأوضاعِ والاصطلاحاتِ ، وإظْهَارِ المذاهبِ والاختلافاتِ » انتهى المرادُ منه .

فلمَّا كان كذلك جاء واصل بن عَطاء ومعبدُ إلى الحسنِ[1] البصري ، قالا له : يا أبا سعيد ، هؤلاء الملوكُ يسفكون دماءَ المسلمين ، ويأخذون أموالَهم ، ويقولون إنما تجري أعمالنا على قَدَر الله تعالى ، وظهرتْ طائفةٌ يكفِّرون مُرتكِبَ الكبيرة ، وطائفةٌ يقولون : لا تضرُّ مع الإيمان كبيرةٌ . وسأل أيضًا رجلٌ غيرُهما الحسنَ وقال : يا إمامُ ظهرتْ في هذا الزمان جماعة يقولون : لا تضرُّ مع الإيمانِ معصيةٌ ، كما لا تنفعُ مع الكفرِ طاعةٌ ، فما نعتقدُه من ذلك ؟ فأطرق الإمامُ ساعة مفكِّرًا في الجواب ، فبادره واصلُ بنُ عطاء بالجواب : إنَّا لا نقول صاحبُ الكبيرة مؤمنٌ مطلقًا ولا كافرٌ مطلقًا ، فأبى له الإمامُ ذلك . فاعتزل[2] الإمامَ ، وقام إلى أسطوانةٍ في المسجدِ[3] يُقرِّرُ بها مذهبَه الفاسد ، ويُثبِتُ المنزلةَ بين المنزلتَيْن ، ويقولُ : النَّاسُ ثلاثةُ أقسامٍ مؤمنٌ ، وكافرٌ ، ولا مؤمنٌ ولا كافرٌ ، وهو صاحبُ الكبيرةِ إذا مات بلا توبة . وهو أولُ المعتزلةِ وسُمُّوا بالمعتزلةِ ؛ لأن الحسن إذا سُئل عن واصل يقول : اعتزلنا واصل . وذلك في نحو المائة من الهجرة .

ثم أَخَذَ مذهبَ المعتزلة عن واصل وأصحابه جماعةٌ إلى أَنِ انْتهت رئاستُه إلى الجُبَّائي في قرْب المائتين من اعتزال واصلٍ ، وكان ممَّن أَخَذَ مذهبَ الاعتزالِ عن الجُبَّائي الإمامُ الأشعري، وبقي ما أخذَه من الاعتزالِ أربعين سنة من عمره، ولم يفارقْ الجُبَّائي في هذه المدة ، وكان صاحبَ نظرٍ

---

(١) في الأصل : إلى حسن البصري .

(٢) في الأصل : اعتزله الإمام ، وهو لا يتفق وسائر الخبر .

(٣) في الأصل : وواصل يقرر بها درسه ، وهي زيادة سببها نسبة الاعتزال في السطر السابق إلى الحسن البصري .

في المجالس ، وذا إقدامٍ على الخصوص ، وكان أبو علي الجُبَّائي صاحبَ تصنيفٍ ، و(إقدام)[(١)] ، وكان إذا صنَّف أتى بالعجب العُجاب ، وإذا حضر المجلسَ والمناظراتِ لم يكن يمرض ، وكان إذا دَهَمه الحضورُ في المجالسِ والمناظراتِ يبعثُ تلميذَه الأشعرِي ويقولُ له : نُبْ عنِّي ، ولم يزل على ذلك زمانًا طويلاً إلى أن مضى من عُمْر [الأشعري][(٢)] أربعون سنة ، وتَمَّ عقلُه وصفا لُبُّه ، ودخل عليه شهرُ رمضان قال : « بينما أنا نائم في العشْرة الأُوَل من رمضان رأيتُ النبي ﷺ في المنام فقال لي : يا علي انصر المذاهبَ المرويةَ عنِّي فإنَّها الحقُ ، فلمَّا استيقظتُ دخل عليَّ أمرٌ عظيمٌ ، ولم أزلْ مفكِّرًا مهمومًا [لـ]رؤياي ، ولمَّا أتى عليَّ من إيضاح الأدلَّة في خلاف ذلك ، حتى العشْر الوسطى من رمضان ، فرأيتُ المصطفى ﷺ في المنام فقال لي : ما فعلت في ما أمرتك به ؟ فقلت : يا رسول الله ، وما عسى أن أفعلَ وقد خرجتُ للمذاهبِ [الـ] مرويةِ عنك وجوهٌ[(٣)] يحتملها الكلام ، واتبعتُ الأدلة الصحيحة التي لا يجوز إطلاقُها على الباري ﷻ ، فقال لي : انصُرْ المذاهبَ المرويةَ عنِّي فإنها الحق ، فاستيقظتُ وأنا شديدُ الأسف ، وأجمعتُ على [ترك][(٤)] الكلام ، واتَّبعتُ الحديثَ وتلاوةَ القرآن ، فلما كان ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان ، وعادتُنا بالبصرة أن يجتمع للقرآن أهلُ العلمِ والفضلِ فيختمونه في تلك الليلة ، فكنتُ فيهم على ما جرتْ به عادتُنا ، فأخذني من النعاس ما لم أتمالك معه أن قمتُ ، فلمَّا وصلتُ إلى البيتِ نمتُ ، وبيَ من الأسفِ على ما فاتني من خَتْم تلك الليلةِ أمرٌ عظيمٌ ، فرأيتُ النبي ﷺ فقال لي : ما فعلتَ في ما أمرتُكَ به ؟ فقلت : تركتُ الكلامَ

(١) في الأصل : وأقام ، وما قبله يدلُّ على أنه تحريف .

(٢) في الأصل : مضى الأشعري من عمره .

(٣) في الأصل : وجوها .

(٤) في الأصل : تلك ، ولا معنى له ، والمراد : ترك علم الكلام إلى علم الحديث .

ولازمتُ كتابَ الله وسُنَّتَك . فقال : أنا أمرتُك بتَرْكِ الكلام ؟ أنا أمرتُ بِنُصرة المذاهبِ المرويةِ عنِّي فإنَّها الحقُّ ، فقلتُ يا رسول الله : كيف أَدَعُ مذهبًا تصورتُ مسائله، وعرفتُ أدلته منذ ثلاثين سنة لرؤيا، فقال لي النبي ﷺ : لولا أنِّي أعلمُ أن الله تعالى يمدُّك بمدَدٍ من عنده لما أمرتُك به ، وفي رواية : ما قمتُ من عندِك حتى أبيِّنُ لك وجوهَها ، فكأنَّكَ تعدُّ إتياني هذا إليك رؤيا ، إنك لا تراني في هذا المعنى [1] بعدها ، فجِدَّ فيه ، فإن الله تعالى سيمدُّك بمدَدٍ من عنده .

قال : فاستيقظتُ ، « ماذا بعد الحق إلَّا الضلال » ، فأخذتُ في نُصرة الأحاديث في الرؤيةِ والشفاعةِ وغير ذلك، فأمدَّني الله تعالى بمدَدٍ من عنده، فكان يفتح عليَّ من المباحثِ والبراهين بشيء والله ما سمعته من شيء قط، ولا رأيتُه في كتاب ، فعلمتُ أن ذلك من مدَدِ الله تعالى الذي بشَّرني به رسول الله ﷺ . فغاب [عن] [2] الناسِ في بيتِهِ خمسة عشر يومًا ، ثم خرج إلى الجامع ، وصعَد على المنبر، وقال: معاشرَ الناس أنا تغيبتُ عنكم هذه المدَّةَ ؛ لأنِّي نظرتُ ، فتكافَأَتْ عندي الأدلةُ ولمْ يَرجحْ عندي شيء ، فاستهديتُ الله ، فهداني إلى اعتقاد ما أودعتُه في كتابي هذا ، وقد انخلعتُ من جميع ما كنتُ أعتقدُه كما انخلعتُ من ثوبي هذا ، وانخلعَ من ثوبٍ كان عليهِ ورَمَى به ، ودفع الكتابَ إلى الناس ، وتلقَّاه البعضُ بالقَبول ، فصار يظهرُ حتى أظهره اللهُ تعالى ، وأنار به الأرضَ . وكانت المعتزلةُ رفعُوا رؤوسهم ، فلما أظهرَ الله طريقَة الأشعري طرقوا رءُوسَهم ، وخضعوا له رغمًا على أنفسهم « وكان حقًّا على الله نصر المؤمنين » .

---

(١) في الأصل : المعاني .

(٢) في الأصل : على .

ثم إن أبا الحسن الأشعري لما ترك مذهبَ الاعتزال ، وأظهر طريقةَ أهل السُّنَّة ، تناظَر مع أستاذِه الجُبَّائي ، فقال له الإمام : ما تقول في ثلاثة مات أحدُهم صغيرًا ، والثاني كبيرًا طائعًا ، والثالث كبيرًا كافرًا، فقال له الجُبَّائي : أما الطائعُ ففي الجنَّةِ والدرجاتِ ، وأما الكافرُ ففي النَّار والدركات ، وأما الصغيرُ ففي الجنَّة ، فقال له الأشعريُ : يقولُ الصغيرُ كان الأصلحُ أن تميتَني كبيرًا فتنال الدرجاتِ ، قال له الجُبَّائي : يقول له الربُّ علمتُ أنَّك لو كَبرتَ كفرتَ ودخلتَ النَّار ، [فـ]كان الأصلح لك أن أُميتَك صغيرًا . قال له الأشعري : فيقولُ له الكافرُ من سائرِ أهلِ النَّار : كان الأصلحُ لنا أن تميتَنا صغارًا ، فماذا يقول الربُّ ؟ فلمَّا ألزمَهُ الحجَّةَ ولمْ يُصِب جوابًا ، قال له : بك جنونٌ ؟ قال الإمام :لا ، ولكن وقف حمار الشيخ في العقبة .

فأحيا الإمامُ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ ، واشتهرُوا بهذا الاسمِ في سائِرِ الأقطارِ من المغربِ والسودانِ ومصر والشامِ والعراقِ وخراسان والحرمين الشريفين . وأما ديارُ ما وراء النهر ، وهم أهلُ سمرقَنْد وما فوقها إلى البحر المحيط ، فالمشهورُ فيها الإمامُ أبو منصور محمد بنُ محمد الماتُريدي الحنفي ، نِسْبَةً إلى (ماتُريد) مَحَلَّة بسَمَرقَنْد . وكلاهُما على هدىً ونور ، وإن كان الأشعريُّ هو المقدَّمُ عندنا ، ليس بينهما اختلافٌ إلَّا في مسائل سبعة ، ليستْ من أُمَّهاتِ المسائلِ حتى يكونَ الخلافُ فيها مؤدِّيًا للتبايُنِ والتناقضِ، والخلافُ في أكثرِها لفظيٌّ . ذكر ذلك غيرُ واحد من أهلِ التحقيقِ . انتهى المراد من هذا المعنى ، وبالله التوفيق .

وقولُنا : (العرُوسيُّ طريقةٌ) أيها العلماءُ والفقهاء ، [يعني] : أن هذا الشيخَ الإمامَ غيثَ الخاصِ والعامِ ذا (١) الكرامات الظاهرةِ ، والأنوارَ

(١) في الأصل : ذي .

الساطعةِ الباهرةِ ، والأخلاقِ المستحسنةِ أبا عمران النورَ الأنورَ الملقبَ بالأسمر مولانا عبد السَّلام = طريقتُه عروسيةٌ سلكَها على يدِ أستاذِه الذي تخرَّج به سيدي عبدُ الواحدِ بنُ محمد الدوكالي (١) ، وسيدي عبدُ الواحد تخرج عن الشيخ الكبير سيدي فتحِ الله بنِ سعيد « أبو راس » (٢) ، وهو عن الشيخ سيدي أحمد « أبو تلِّيس » ، وهو عن الشيخِ سيدِي « أبو راوي » الفحل ، صاحب سُوسَة ، وهو عن الغَوْثِ الأعظم سيدي أحمد بنِ عروس .

[ترجمة الشيخ أحمد بن عروس](٣)

وسيدي أحمد بنُ عروس هو [الذي] اشتهرت به الطريقةُ ، وسُمِّيتْ عروسية ، فهو أشهرُ المشايخِ عِلمًا وحالاً ، وكراماتُه وأسرارُه وتعريفاتُه كثيرة ، وقد ألَّف الجزائري في مناقبِهِ تأليفين : كبرى وصغرى ، رأيتهما ، يذكر فيهما مناقبَه على سبيل التعداد ، يذكرُ مع [كل] منقبةٍ شعرًا بديعًا مناسبًا ، وذكر سيدي محمد بنُ المأمون الحفصي في تقييد له : أن سيدي أحمدَ ابنَ عروس لا يزالُ ثلاثمائة وستون رجلًا من أكابر الأولياء مُعدُّون لرعاية

(١) هو عبد الواحد بنُ محمد عبد الواحد الدوكالي المغربي ، ولد بمصر وأقام بمدينة مسلاتة حيث تولَّى التعليم بزاوية عبد الله الدوكالي ، كما تولى التربية الصوفية على منهج الطريقة العروسية ، وعنه تلقى الشيخ عبد السَّلام الأسمر العلوم الإسلامية والطريقة الصوفية ، وأشار إلى ذلك في ثنايا هذا الكتاب .

(٢) عالم من أصل تونسي ، هاجر إلى إفريقية ، حيث نشر العلم والطريقة ، وتوفي بمدينة كنو في نيجيريا .

(٣) أحمد بن عبد الله بن أبي بكر المعروف بابن عروس الهواري التميمي (٧٧٨ ، ٨٦٨ هـ) ، ولد بجنوب تونس ، وحفظ القرآن والعلوم العربية والإسلامية بعاصمتها ، وفيها التقى بالشيخ فتح الله العجمي ، ودفن بزاويته (تاريخ الدولتين للزركشي ١٥٥) ، وفي الترجمة مبالغات ظاهرة .

أهلِ طريقِه (١) ، وأنه تَفِل تفلةً في بعض حَضَراته لقَّح بها أربعين وليًّا فصاروا من عظام الأولياء (٢) ، وأنّه لا يزالُ في طريقه أربعون وليًّا إلى يوم القيامة ، وحسبك بعلوِّ مقامِه تكْريمُ الشيخ سيدي عبد السَّلام [له] ، وذِكرُه إياه ، [وثناؤه] عليه ، والاستغاثةُ به في كثير من مقطَّعاته .

وسببُ تَلْقيبِه بابنِ عروس أنَّ أحدَ أجدادِه سُمِّي بابنِ عروس ، قال بعضُ المحققين : إنَّ جدَّ أبيه اسمُه عبدُ الدائم بنِ عبد القادر التميمي الهوَّاري ، يُلقَّب بابنِ عروس ؛ لكون أمه اسمُها العروسَ ، وهي مغربيةٌ تِلْمسانية ، بعد ازديادِه لها (٣) ؛ لأن [أباه] لَّما أن تزوَّج بأمِّه وهي العروسُ لم يمكث إلَّا ساعةً واحدةً وفارقَها عبدُ الدائم ، وصار الناسُ يدعونَه بابن العَروس ، لعدمِ معرفتِهم للوالدِ المذكور المسمَّى سيدي عبدُ القادر ، وهو من أكابر الصالحِين .

يحكي ﷺ أن سببَ تزويجِه (٤) بالعروس المذكورة ، [بينما] (٥) هو ذات يوم يسيرُ في بعض الطرقات صائمًا [رأى] نهرًا جاريًا ، ووصل إليه يريدُ

---

(١) الجملة من قوله « أن سيدي أحمد » تبدو غير جيدة السبك ، فالخطأ أسلوبي ، وليس ناتجًا عن حذف في بعض الكلمات .

(٢) في مثل هذه الفقرات التي يضعف فيها المعنى والأسلوبُ يبدو أثر ضعف الفكر ، والاعتماد على الخيال الشعبي ، والأساطير التي لا صلة لها بالدين .

(٣) يعني أنها لقبت بذلك اللقب بعد ميلاد ابنها عبد الدائم المذكور .

(٤) هذه إحدى الحكايات المعدودة في الشوائب في ثقافة المتصوفة المتأخرين ، ويبدو لك ضعفها من بدايتها فالذي يقول إنه يحكي سبب تزويجه تصوُّرُه الحكاية بعد ذلك فارًّا ، ولا أحد يعرف وجهة سفره ، وليس كل ما في الحكاية من روايته بخلاف ما يبدو ، وتفاصيل القصة تنسب إلى كثير من الصالحين بأساليب مختلفة ، والصناعةُ فيها ظاهرة . وعلى العموم هي من القصص الشعبي الذي يعتمد الخيال والغرابة والطرافة ، ولكنْ له مغزى أخلاقي أراده الصوفية للتربية ، فتسامحوا في الحقيقة التاريخية .

(٥) في الأصل : فبينما .

الوضوءَ منه ، فوجدَ على الماء حبَّة تين ، فأخذها ليُفطِرَ عليها ، فلمَّا كان من الغد حصل له ندم على الفطور بها؛ لكونها من غيرِ مِلكه ، وليست من حِلِّه، فأتى إلى الموضع الذي وجدها فيه ، وسار مع النهر ، فانتهى [في] [1] سيرِه إلى بُستان بشاطئ النهر، فقرع بَابَهُ ، فخرج إليه شيْخٌ ، فحكا له ذلك ، وطلبَه أن يجعلَه في حِلٍّ منها، فقال له ذلك الشيخُ: إنِّي أجيرٌ في هذا البستان، ولي فيه منذ أربعين سنة، ولم أملِك منه شيئًا، وإنما لأخوين بالموضِع الفلاني، وأرشَدهُ إليه ، فأتى الموضعَ ﷺ فوجدَ أحدَهما فأخبره بالقصَّة ، وطلب منه أن يجعلَه في حِلٍّ مما ذكر ، فحلَّله في نصفها المالك له ، وأرشده إلى أخيه لِيَتِم له باقيها ، فلما وصل إليه وأعاد الخبر عليه [أجابه] - على طريقِ الامتحان ، إذ عنده يُكرمُ المرءُ أو يُهان - بـ [لن] [2] يحصُل لك منا ذلك ، ولن تظفر بمقصود سؤالك إلَّا على شرط ، فإن قبلته فنحن سامحناك ، وإن رددته فنحن رددناك ، قال له : وما هو ؟ فقال : إنَّ لي ابنةً عمْياءَ صمّاءَ بكماءَ ، فإن تزوجْتها فلكَ ذلك .

فقال له : ويحك إني في شُغْل عن هذا ، وقد أصابني مِن أكْلِ حَبِّ تِينِكُم ما الله به عليم ، فاجْعلني في حِلٍّ ، و[ألَحَّ] عليه السؤال ، فلم يرضَ له إلَّا بالشرط المذكور ، فلمَّا رأى منه الجِدَّ ، قال له مكاشفًا : « إنَّ قولَك في البنتِ هي عمْياءُ معناه لم تَرَ إلَّا محارِمَها ، وقولَك بكماءُ لم تكلِّمْ أجنبيًّا قطُّ ، منذ بلغَتْ وعقَلَتْ ، وقولك صمّاءُ معناه ما سمعتْ مأثمًا ، ولا أنصتَتْ لِما لا يليق بها في دينها » ، فلما سمِع منه ذلك وتيقَّن أنَّه عارفٌ سالك ، قال [3] :

---

(١) في الأصل : فانتهى إلى سيره بستان .

(٢) الأصل : فلم .

(٣) في الأصل : فقال ، ولا معنى لوجود الفاء هنا ، إنما هو من ضعف الأسلوب في عصر المؤلف ، ولقد وجدت له نظائر كثيرة ، وضعتها بين معقوفين مع إشارة هامشية أو بدونها .

« لله درك يا عبدَ القادر لقد حَلَلْتَ رمزي ، وفَقِهْتَ (١) قولي ، جزاكَ الله عنا أحسن الجزاء ، فجعلَهُ في حِلٍّ ، وزوَّجها إياه ، وأعطاهُ خمسمائة دينار ، ثم قال له : اعْطِنِي مهرَ ابنتي ما شئتَ ، فرماها إليه كلَّها . والحاصلُ أنه لَمَّا زوَّجها إياهُ لامَهُ (٢) مَنْ لا معرفةَ له من الناس؛ لأنَّه خطبها أربابُ الأحـوال وكبراءُ الناس ولم يعطها إليهم ، فقال لهم يا قوم : « إني رغِبْتُ في ورعِ هذا الرجلِ لأنه من خِيَارِ عبادِ الله الصَّالحين ، فنرجو من الله أن يجعلَ منه نَسْلاً صالحًا ، فاختلى بها ساعةً زمانيةً ، وخرج من البيت من غيرِ باب ، وذهب (ذَهَابَ الفارِّين)(٣) ولم يظهـرْ لهُ خبرٌ إلى يومِنا هـذا (٤) ، فوُلد لها سيدي عبد الدايم المذكور ، ولُقِّب بها ذكرناه ، أي بابْنِ عبّاس الغَروسي ، ولم يزلْ هذا اللقبُ في نسْلِهم واحدًا بعد واحدٍ إلى سيدي أحمد بنِ عَروس هذا (٥) » .

ونسبه في ما نقلتُ هو : أحمد بنُ محمد بنِ عبد الله بنِ أبي بكر بنِ عبدِ الدائم الشهيرِ بـ « ابن العروسِ بنِ عبد القادر التميمي الهوَّاري » قال ابنُ المأمون : هؤلاء الجماعةُ (٦) كلُّهم بلغوا درجةَ الولايةِ ، وسيدي أحمد بنُ

---

(١) في الأصل : أحللت وأفقهت ، وهو غير المراد .

(٢) في الأصل : فلامه .

(٣) في الأصل : ذاهب الفارضين ، وهو تحريف .

(٤) إذا لم يظهر له خبر منذ ذلك الوقت ، فكيف نسب إليه رواية الحكاية في مستهلها ؟ هذه هو مفتاح الضعف في مثل هذه الحكايات التي يُصر بعض المتصوفة المتأخرين على عدم نقدها .

(٥) تُروى مثل هذه القصة بقصد الوعظ ، ولها نظائر في التراث الصوفي ، وعليها ملاحظات نقدية لا تخفى، فالمؤمن الورع لا يقدم على عمل حتى يعرف حكم الله فيه ، فكيف بالولي الورع يُقدم على ما يندم عليه ، ولِمَ كل هذا الشغل به وهو أقل من اللمم ، ومن يكون هاجسه بهذا الحس الإيماني المرهف لا يترك زوجه في صبح زواجه بها دون معرفة ما يترتب عليه شرعا بتركها ، واللوم في كل ذلك ليس على هذا الولي الصالح وأضرابه من الذين بنى الخيال الشعبي على ورعهم الحقيقي قصصًا وهمية للاعتبار ، ولكن على من يسوق هذه القصص في الكتب العلمية دون نقد وتمحيص ، وذلك هو ما دعاني إلى هذا التعليق وأمثاله .

(٦) ورد في الحاشية « سلسلة الطريقة الشَّاذِلية والعروسية » .

عروس هذا أخذَ عن سيدِي فتحِ الله بنِ يوسفَ العجمِي ، وهو أخذ عن ياقوت العرش ، عن أبي العباس أحمد المرسي (١) ، عن الشيخ الكبير الشهير سيدي أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشَّاذِلي (٢) ، عن الشيخ سيدي عبد السَّلام بن مْشيش ، عن سيدي عبد الرحمٰن الزياتي المدني (٣) ، عن تقي الدين القطب (٤) ، عن فخر الدين الغوث (٥) ، عن أبي الحسن علي الشهير بـ « نور الدين » (٦) ، عن تاج الدين ، عن شمس الدين ، عن زين الدين القزويني ، عن إبراهيم البصري ، عن أحمد المرواني ، عن سعيد ، عن فتح الله السُعودي ، عن سعد الغزواني ، عن جابر، عن الحسن، عن والده علي بن أبي طالب ﷺ عن رسول الله ﷺ عن جبريل ، عن رب العالمين .

ولنرجع إلى الكلام على الشيخ سيدي فتح الله العجْمي – المذكور آنفًا – تلميذ ياقوت العرش : لما مات شيخه بالإسكندرية – رحمه الله ، ونفع به – صار تلميذَ الشيخ صدر الدين الناكوري ، وأخذ عنه طريقة إرادة غيرَ

(١) هو أحمد بن عمر شهاب الدين المرسي (ت ٦٨٢هـ) ، فقيه وصوفي ، أندلسي الأصل ، إسكندراني الإقامة ، ترجمته في النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧١ .

(٢) هو رأس الطريقة الشَّاذِلية أصله من قبيلة غمارة بشمال المغرب ، وينسب إلى شاذلة بتونس حيث عرفت طريقته بعد أخذه عن شيخه عبد السَّلام ابن مْشيش . ترجمته في « سلوة الأنفاس » ١/ ٨٦ و « الفكر السامي » ٣/ ٦٣ .

(٣) هو عبد الرحمٰن بن الحسين الشريف العطار المكنى بأبي محمد والشهير بالزيات ، من أعلام القرن السابع الآخذين عن أبي مدين الغوث (ترجمته في مرآة المحاسن ٢٨٥ ، والروض العاطر ٤٠ ، والمقصد الأحمدي ٣٠٨) .

(٤) تقي الدين الصوفي الفقير (ترجمته في دوحة الناشر ٤ ، والمقصد الأحمدي ٣٠٨) .

(٥) المراد به عبد الرحمٰن بن شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي الإشبيلي المتوفى سنة ٥٩٤ هـ بتلمسان ، من تلاميذه محيي الدين ابن العربي (ترجمته في التشوف ٣١٩ ، وطبقات الصوفية ٢/ ٢٣٧ ، ونيل الابتهاج ١٢٧ ، وسلوة الأنفاس ١/ ٤١٦) .

(٦) هو علي بن إسماعيل بن حرزهم (ت ٥٦٠) المولود بفاس ، (ترجمته في أنس الفقير ١٢ ، والمستفاد ١٥ ، والتشوف إلى أهل التصوف ١٦٨ ، ونيل الابتهاج ١٩٨) .

الأُولى . وهو أخذ عن نصير الدين محمود الأَوْدهي ، عن نظام الدين الخالدي ، عن فريد الدين ملّا شكركنجي ، عن معين الدين الجشتي ، عن عثمان الهروي ، عن حاج ابن حاجبي شريف الزندي ، عن شيخ الطريقة الجشتية ، قطب الدين مورود بن يوسف بن محمد بن سمعان الجشتي ، عن والده محمد عن والده سمعان ، عن خاله محمد بن أحمد أبدال ، عن والده أبي أحمد فرشنافة ، عن والده أبي إسحاق الشامي ، عن ممشاد الدِّينَوَري ، عن هبيرة البصري ، عن حذيفة المرعشي ، عن إبراهيم بن أدهم ، عن الفضيل بن عياض ، عن عبد الواحد بن زيد ، عن كميل بن زياد ، عن علي ابن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ عن جبريل عن رب العالمين .

ولسيدي أحمد بن عُروس طريقتان غير الأولى أخذهما [1] عن سيدي محمد المجاهدي ، ترجع [أولاهما] [2] للسادة الشَّاذِلية بسلسلة ، والثانية عن الخضر ، فأقول وبالله التوفيق عن سيدي محمد المجاهدي ، عن سالم العناء ، عن سليمان الجزار ، عن القسنطيني عن الجبنياني ، عن سيدي محمد الحنفي ، عن ابن عطاء الله [3] عن أبي العباس المرسي ، عن الشيخ أبي الحسن الشَّاذِلي ، قيل : إنَّ سيدي أبا الحسن الشَّاذِلي هذا عنده طريقتان : الأولى : طريقة إرادة ، وهي ما تقدم عن سيدي عبد السَّلام بن مُشيش ، والثانية : طريقة تبرك ، أخذها عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن حرزهم [4] ،

(١) في الأصل : أخذها .

(٢) زيادة يقتضيها المقام .

(٣) هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ، توفي سنة ٧٠٩هـ ، صاحب الحكم المشهورة ، (ترجمته في الفكر السامي ٣/ ٦٤ ، وشجرة النور ٢٠٤) .

(٤) هو علي بن إسماعيل (ت ٥٦٠ هـ) فقيه زاهد (ترجمته في التشوف ١٦٨ ، وأنس الفقير ١٢ ، ونيل الابتهاج ١٩٨) .

عن الشيخ أبي محمد صالح بن منظار ، عن الشيخ أبي مدين شعيب بن الحسن الأنصاري ، عن الشيخ أبي يعزى [1] ، عن الشيخ أيوب بن سعيد السارية [2] ، عن الشيخ أبي محمد عبد الجليل ، عن الشيخ أبي محمد عبد الله ، عن أبي سيده ، عن والده ، عن الشيخ أبي محمـد يلتـور ، عن أبي الحسن الثوري رفيق الجنيد[3] ، عن سري السقطي [4] ، عن معروف الكرخي [5] ، عن داوود الطـائي [6] ، عن حبيب العجمي [7] ، عن الحسن البصري [8] ، عن علي بن أبي طالب ، عن سيدنا ونبينا محمد ﷺ رسول رب العالمين ، وقائد الغُرِّ المحجَّلين ، عن جبريل ، عن رب العالمين .

وهذه الطريقة التي أشرت لها عن الخضر لسيدي أحمد بن عروس ، هي الأخيرة من طرفه : بسم الله الرحمٰن الرحيم عن سيدي أحمد الخضر عليه السلام ، عن رسول الله ﷺ عن جبريل ، عن رب العالمين . انتهت سلسلة

---

(١) هو ابن ميمون بن عبد الله الدكالي الهزميري (ت ٥٧٢) (التشوف ٢١٣ ، طبقات الشعراني ١/ ١١٧ ، شجرة النور ١٦٣) .

(٢) كتب في الحاشية : وهو أبو شعيب الزمور .

(٣) هو محمد بن الجنيد النهاوندي البغدادي (٢٩٧هـ) ، ترجمته في حلية الأولياء ١٠/ ٢٧٤ ، وطبقات الشافعية ١/ ٧٦ .

(٤) هو السري بن المغلس السقطي الزاهد (ت ٢٥١هـ) ، ترجمته في حلية الأولياء ١٠/١١٩ ، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ١٨٥ .

(٥) هو معروف بن فيروز الكرخي (ت ٢٠٠هـ) ، ترجمته في حلية الأولياء ٨/ ٤٠٤ ، وتاريخ بغداد ١٥/ ٢٠٣ ، وطبقات الصوفية ٨٣ ، والوفيات ٥/ ٢٣١ ، والفكر السامي ٣/ ٥٦ .

(٦) داود بن نصير الطائي (ت ١٦٥هـ) ، ترجمته في تاريخ بغداد ٩/ ٣٥٨ ، وحلية الأولياء ٧/ ٣٩٢ ، والجواهر المضيئة ٢/ ٥٣٦ ، والوفيات ٢/ ٢٥٩ .

(٧) هو أبو محمد حبيب العجمي ، أحد كبار الزهاد في البصرة ، ترجمته في تهذيب السير ١/ ٢٦٠ .

(٨) هو الحسن بن يسار البصري (ت ١١٠ هـ) من التابعين والفقهاء الصالحين ، ترجمته في تهذيب التهذيب ١/ ٣٩٠ ، وحلية الأولياء ٢/ ١٥٣ ، والوفيات ٢/ ٦٩ .

الطريقة العروسية بأسانيدها ، وهي لبُّ الطرق وأقومُها وأنفذُها إلى الله ﷻ ، فمَن سلكها وصل إلى الله ﷻ ، مصحوبًا بالسلامة، محفوفًا بالكرامة، محفوظًا من القواطع ، سالمًا من تعرُّض الموانع ، محمولاً على كامل الشريعة المحمدية ،على صاحبِها أفضلُ الصلاة والسَّلام ، وهي طريقٌ وصراطٌ مستقيمٌ ، جامعةٌ بين الشريعة والحقيقة .

وكان سيدي فتح الله أبو راس يقول : لا طريقة إلَّا عروسية ، ولا سَيِّدة إلَّا شَّاذِلية ، وهي ترجع إلى الإمام الكبير الشهير شيخ الإسلام إمامِ أئمة الأعلام ، الحجَّة القدوة القطب العارف ، والوليّ الواصل المواصل ، مُربي المريدين ، ومُبلغ السالكين ، وإمام العارفين ، القطب الذي يُهتَدى به ، والإمام الذي يُقتدى به أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشَّاذِلِي - رضي الله تعالى عنه ، ونفعنا به وبأمثاله - آمين .

واعلم أيها الأخ أن الطُرق شتَّى ، والمعبودَ واحد ، وقد أجمع القومُ على الطريقة الشَّاذِلية ، حتى قال مولانا عبد السَّلام : مَنْ لم يتشذَّل أحوالُه تتبدَّل ، والعروسية هي الشَّاذِلية ، ولقد قال شيخ مشايخنا سيدي أحمد بنُ عروس : مَنْ لم يثق بطريقتي هذه لم يثمر ، ولم تحصل له نتيجة [1] . انتهى .

وقال مولانا عبدُ السَّلام : « طرابلس بلادي ، وأولادها أولادي ، فمن لم يثق منهم بأورادي لا يفلح هنا ولا غادي » ، وقال : « قد أُعطيت لي البلقاءُ بحذافيرها من إنسها وجنها فمَن أعرض عن طريقتي ، وحاد عنها ، لم تصلُح له مصلحةٌ في دينه ولا في دنياه ، ما قلت ذلك إلَّا بإذن من الله

(١) إذا كانت الشَّاذِلية هي الإسلام فمصدرنا جميعًا الكتاب والسُّنَّة ، وإذا كانت غير ذلك فليس عليها كلُّ الصحابة والتابعين وتابع التابعين ، فليسعنا ما وسعهم .

ورسوله ﷺ[1] ؛ لأنها شاذِليةٌ والشَّاذِليةُ هي لبُّ الطرق » .

قال بعض الشيوخ : « فمَن حلف يمينًا بالله أن الطريقة الشَّاذِلية هي التي كانت عليها بواطن أصحاب رسول الله ﷺ فهو بارٌّ في يمينه ، واعلم أن الطريقة الشَّاذِلية تحتها طرقٌ : مرسيَّة ، وماضوية ، ووفائية ، ودهمانية ، وزرُّوقية ، وأما العروسية [فـ]ترجع إلى المرسية وهي العمدة من الطرق الشَّاذِلية » اهـ . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

وقولنا (الفيتوري) نسبة إلى الفواتير ، وهو أحدُ أجدادهم ، اسمه خليفة ، ويُلقَّب بفيتور في حكاية سيأتي ذكرها في الفصل الأول ، والفواتير الآن قبيلة كبيرة بيزليتن من عمل طرابلس الغرب الشرقي ، ويُرَدُّون كلُّهم في الأنساب إلى الشيخ الكبير سيدي سليمان الفيتوري ، وهو يُرَدُّ إلى الشيخ الكبير الشهير نبيل ذي السَّعيد المخزومي ، كما سيأتي . والله المستعان وعليه [التكلان] .

* * *

(١) لا تدل الرسائل موثوقة الصلة بالشيخ على صدور هذه الدعوى منه ، ولم أقف في رسائله تلك على شيء من هذا القبيل ، فعلى الدارسين لهذه النصوص أن يتبينوا ما تصح نسبته منها إلى الشيخ حقيقة أو حكمًا وما لا يصح . والله أعلم .

الفصل الأول

في نسبه رضي الله عنه

وذكر شيء من أحوال والديه وصِفته ولِباسه

[نسبُه]

فأما نسبُه الكريم ا لذي من جهة الأب فهو : سيدي عبد السَّلام بن سليم بن محمد بن سالم بن حميدة بن عمران ، الشهير بالخليفة بن محيا بن سليمان بن سالم بن خليفة ، الملقب بفيتور ، ابن الشيخ الولي الصالح العابد الزاهد السيد الشريف الكامل الحاج عبد الله الشهير بنبيل ، المقبور بمكة - شرَّفها الله - ذي السعيد المخزومي . كان مولدُه بمدينة فاس في ما بلغنا ، وذلك لأن أجدادَه انتقلوا في زمن الحجَّاج من مكة إلى فاس ، حين كثر القتل في الأشراف ، فلما بلغ عشر سنين من يوم مولده ، انتقل به أبوه من هذه البلاد التي هي فاس إلى إفريقية ، هو وأبناء جنسه ، وعاشَرَ مع أولادِ سعيد ، وتناسلت منه الفروع ، بل هو مولى حلفة فيهم ، ولذلك يقولون : ذو سعيد ؛ لأن أولاد سعيد كانوا في إفريقية في غاية العز والمكانة ؛ لأن العادة عند العرب إذا الشخص رُبِّيَ معهم يقولون : ذو كذا ، أي ضرب الطبل معهم ، وعاهدهم على الأُخُوَّة .

وكان للشيخ نبيل في ذلك الزمان ابنةٌ متوفرةُ الشرائط صالحةٌ ، ذاتُ

حُسْن وجمال ، وبهاءٍ وكمال ، وقَدٍّ واعتدال ، زوّجها لابن أخ له ، فقام عليه أولاد سعيد يريدون افتكاكها كرهًا من ابن عمها ، ولم يمكنهم ذلك ، فتحيَّل عليهم الشيخ نبيل، وخاف على نفسه منهم أن يؤذوه، هو ومن معه، فارتحل منهم، وفارقهم ، ونزل [على](1) عربٍ من عرْبان إفريقية ، يقال لهم: دريد ، من أحد بطون بني هلال ، فحمَوْه مدة ، إلى أن جاء الركب ، فدخل الركبُ هو وأبناءُ جنسه ، وفريقٌ من دولته ، ولم يحلُّوا إلَّا بأرض طرابلس الغرب ، فتوطن بها هو ومن معه ، نحو العشرين سنة ، وتناسلتْ فيها منهم ذريةٌ كثيرة ، منهم العواسج ، والفواتير .

أما العواسجُ [فـ]جدُّهم اسمه يوسف أبو عوسجة بنُ نبيل ، والفواتير جدُّهم اسمه خليفة ، ويلقَّب بفيتور بن نبيل ، ماتا ببلد الصابرية ، ودُفنا في وسط الجامع الذي أسَّسه والدُهما بالصابرية ، [وقبراهما] (2) مشهوران يُزاران ، وذريةُ هذين الشيخين (3) المذكورين : يوسف وخليفة ، شرفُهم صحيح لا خلاف فيه ، مؤيد بالنصوص ، كما رأيته في أسفار عديدة عند المشارقة والمغاربة ، وما جرى على ألسنة العوام أن قُماطة من نسبهم لم يثبت، عند أهل العلم ، وليسوا منهم ، بل قُماطة من قبيلة أخرى ، يُقال لهم : بني فاتو ، لا شرف لهم (4) . وذهب بعضُ الجاهلين بالنسب إلى أن الفواتير من بني مدلج ، وهذا لا إلمام له بمعرفة الأنساب ، ولو وُجد هذا الخبر في بعض المؤلفات – على زعم القائل – لكان زُورًا وكذبًا .

(١) زيادة يقتضيها المعنى .

(٢) في الأصل : وقبورهما .

(٣) في الأصل : هؤلاء الشيخان .

(٤) يقصد بالشرف هنا النسبةُ لآل البيت ، وفي مثل هذه الأحكام السريعة وغير الموثقة بالشرف دليل على التعجل في عرض المعلومات ، وربما يُخفي مثل هذا القول أغراضًا أخرى لمثل هذا المؤلف أو مَنْ أعطاه المعلومة بدون توثيق .

ورأيتُ في سِفْرٍ آخر، وسلسلة ممتدة، فيها ذكرُ الأشراف أن الفواتير النبيليين بأرض طرابلس الغرب شرفاء يُردُّون في النسب إلى الحسن بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ؛ لأن هذه النسبة الفيتورية لُقبت بذلك؛ لواقعة وقعت بهم بأرض طرابلس بعد موت الشيخ نبيل بعشر سنين، في شهر الله شعبان، يُرْوَى بسند صحيح أن سبَب تلقيب هذه الطائفة الفيتورية بذلك أنه لما غزا عليهم (كذا) أولاد سعيد المخزومي، أي على بني نبيل بأرض طرابلس الغرب، وقتلوا كلَّ مَنْ وُجد من بني نبيل وأبناء جنسهم، وبالغوا في إذايتهم، حتى صاروا يبقُرون بطون الحوامل، ويقتلون، محافظة على قطع نسبهم لِما حصل لهم من الحقد، لم يبق وقتئذ من نسل نبيل إلَّا ولدان، أحدهما اسمه: خليفة، تحيَّلت عليه أمُّه ووضعته في حثالة زيتون واقع في معصرة، المعبَّر عنه بـ «الفيتورة» في عرف البلد، مخافةً عليه من ضياعه بسببهم، فسلَّمه اللهُ، وأعمى أعينهم عليه، فلُقِّب بفيتور.

والثاني اسمه: يوسف، ليس بشقيق له، بل من امرأة أخرى، هربت به أمه، وألقته في عوْسجة في داخلها، حتى لا يُرى، فأخفى الله عنهم الشعور بهذين الولدين. أما خليفةُ الملقب بفيتور، فهو جَدٌّ والد سيدي سليمان أبي السبعة الأولياء المشهورين، وأما يوسفُ فهو جَدُّ العواسج الآن، هم أولادُ سيدي علي بن عبد الحميد العوسجي، مولى الحِمارة، هذا سبب تسمية القبيلتين الفواتير والعواسج.

وهم أشرافٌ من نسبة آل محمد ﷺ وكانت لهم علامةُ الشرف كالعمائم الخُضر، وفي الشواشي والقَلَنْسُوَات التي [يَتزيى بها] للشرف حتى قام عليهم مولاي الحَميد الحفصي [1]، ومنعهم من ذلك ظُلمًا منه، مُراده أن

(١) أحد ولاة تونس في عصر الدولة الحفصية (انظر: تاريخ الدولتين).

يعطوا مع الرعية الخَراجَ للسلطنة ، فقصمه الله عاجلًا ، ووُلِّيَ بعده من هو أشرُّ منه في التظالم . وهؤلاء الفواتير كلهم يُردُّون في النسب إلى سيدي سليمان - كما مرَّ - ، وسيدي سليمان هذا كان - في ما سلف - مستوطنًا منبتَ الأولياء الزاوية الغربية ، مع أقاربه العواسج . فلما استوى [1] على الزاوية عربان البرِّ كالجواري ونحوهم ، انتقل منها ليزليتن ، وحلَّ بها ، وفيها إذ ذاك قوم يقال لهم العوامر ، هم أهل الموضع وسكانه ، ومع الشيخ أولاده الأولياء السبعة ، فسكن بهم هناك في أسوأ جِيرة ، مع أولئك القوم ، يضربونهم ويسبُّونهم ، فقُدِّر أن قال الشيخ - رحمه الله - لأكبر أولاده : امشِ للحج ، فإذا قضيتَ المناسك ، وأتيتَ المدينة المشرَّفةَ ، فإنك تجدُ رجُلًا صفتَه كذا وكذا في المسجد الشريف ، فسُلِّم عليه ، فسافر الابنُ ، وحجَّ ، فلمَّا قرب من المدينة نسي إيصاءَ والدِه ، حتى إذا دخل المسجدَ الشريف وقع بصرُه على الرجل الذي أوصاهُ عليه والدَه ، فتذكَّر الإيصاءَ ، فأتاه بعد أداء المطلوبِ وسلَّم عليه ، ثم قال له : إنَّ والدي يُقرئك السَّلام ، فقال له : أعظمُ اللهُ أجرَكَ فيه ، فقال : أو قد مات ؟ قال : نعم مات أمس في جهاد النصارى بطرابلس ، وصُلِّيَ عليه الظُّهر ، ودُفن بمقبرة سيدي عبدِ الله الشَّعاب ، ففاضت عيناه بالدموع ، فقال له ذلك السيد : ما بكاؤك ؟ أجزعًا من قضاء الله ؟ فقال : لا ، سيدي ، ولكنَّ لي إخوةً صغارًا في بلدِ أُناسٍ سيِّئين [2] لنا ، وها أنا أكبرهم غائب ، والوالد قد مات ، وبقي إخوتي وحدهم ، فذلك الذي أبكاني ، فلما أن سمِعَ ذلك السيدُ كلامَه انقبض ،

---

(١) يريد : استولى .

(٢) في الأصل : سيئون .

وقال له : كم عِدَّتُهم ؟ فقال له : نحو السبع مائة ، فقال : وكم أنتم ؟ قال سبع . فقال : هم سبعة وأنتم سبعمائة ، هم سبع وأنتم سبعمائة ، كرَّرها ثلاثًا ، ثم قال : الله - تعالى - يجعل اللهُ فيكم السبعة إلى يوم القيامة ، كرَّرها أيضًا على سبيلِ الدُّعاء ثلاثًا . اهـ .

هكذا سمعتُ معنى هذا الكلام من متعدِّدين ، وهو مشهورٌ عندهم ، ومشتهر أيضًا أن أولئك القوم الذين همُ العوامر لا يزيدون على سبعة ، كلما ازداد لهم واحدٌ مات منهم آخر ، وأما كونُ سبعة من أكابر الأولياء لا يزالون في الفواتير ، فهو مشهور عند كلِّ أهل البلد ، وسمعتُه من كثير ممَّن رأيتُه من الصالحين ، ولم تزل فيهم البركةُ والانتساب إلى الله ، هم أكثر جميع قرى طرابلس فقراء ، وأكثرُهم ذكرًا لله ، وتشبهًا بالفقراء ، وهم أقلُّ القبائل ضررًا للمسلمين ، مشهورون أن كل ظالم جَارَ عليهم ، قصمه الله عاجلًا .

ولذلك كان شيخُنا شمسُ الدين اللقَّاني - رحمه الله تعالى - يقول : إن الفواتير أهلُ غضب يقصمون كلَّ مَنْ أساء عليهم الأدب ، إلى أن قال : ولا شكَ أن طِيب الفرع يدلُّ على طِيب الأصل ، وأظنُّ أن هذه الأمور التي توجد فيهم ، خصوصًا خروج الأولياء منهم تدلُّ على طيب أصلهم ، إلى أن قال : سمعت من أستاذي زرُّوق يقول : إن الفواتير والزاوية الغربية ينبتان الأولياء كما تُنبِتُ الأرضُ الطيبةُ الزعفرانَ ، ولا رأينا ولا سمِعنا [مَنْ] له بصيرةٌ نافذة دخل طرابلس إلَّا وهو متأدبٌ مع الفواتير ، خائف من متصرفي أوليائهم . اهـ . باختصار .

[الفواتير][1]

قلتُ : وكان بعضُ العارفين يقول : إنَّ الفواتير وأولاد بوجعفر بوجنزور همُ عَقَبةُ أولياءِ المغرب ، إذا جاوزهم المارُّ مشرِّقًا أو مغرِّبًا سالمًا طمع بالنجاة في ما بعد [2] ، وقد كان الشيخ الذي هو مولانا عبدُ السَّلام يقول : « الفواتيرُ أبناءُ جنسي ، اضمنوا لي شيئين ، وهما ألَّا تلبسوا الأسْوَد ، وألاَّ تعملوا عُرسًا ، يعني على الصفة المنهي عنها ، وإني أضمنُ لكم الطيْرَ إذا نزل على زرعِكم مات » [3] .

فإن قيل : إنَّ رسول الله ﷺ تَعَمَّم بالأسود يوم غزوة خيبر [4] ، وشيخُهم هذا يصرِّح في كثير من نصائحه بترك لباس الأسود ، وبوجوبِ

(١) لو اكتفى المؤلف وغيرُه بإيراد الفضائل الثابتة للفواتير لأنصفهم ، فهم قد حافظوا على تعليم كتاب الله ، وإيواء طلاب العلم في سنوات الشدة ، وحرصوا على الدين والإنفاق على مدرسي الزاوية ، والدعوة إلى الله ، واشتهر منهم فقهاء تولوا مهمة التعليم في زاوية الشيخ وخارجها ، وفيهم من عرف بالطيبة وحسن المعشر ، وسماحة اللقاء ، وحسن التوكل ، وغير ذلك مما تضيق الصفحات عن إيراده ، فماذا يزيدهم مَنْ أراد أن يصفهم بغير المعقول من المزاعم ؟

(٢) ينبغي للمؤمن أن يعتقد أن النافع والضار هو الله ، وما يقال عن سلامة من يجاوز هؤلاء الصالحين شرقًا وغربًا ينقضه ما تعرضت له القوافل الحاجَّة التي تمر بهم من الهجمات والسطوات حتى على أبواب مكة ، والله خير الحافظين ، ولا يقلل هذا من الاعتقاد الثابت من فضل الصالحين من الفواتير ، فصلاحهم بسبب ما قدموه في حياتهم من أعمال البر ، والدعوة إلى الله ، كما هو واضح من خلال آثار الشيخ عبد السَّلام الصحيحة .

(٣) لا يمكن لهذه الدعوة أن تصدر عن الشيخ الأسمر ، فإن صدرت عنه فهي شطحة مخالفة لآرائه ومعتقداته الدينية التي نجدها في رسائله الصحيحة . وإذا كان رسول الله ﷺ قد عوتب بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الكهف ٢٣-٢٤) ؛ لأنه وعد بذكر عدد أهل الكهف دون أن يقول إن شاءِ الله فإن مَنْ دون رسول الله أولى بالتحفظ من الادعاء بقتل جميع الطيور التي تنزل على زروع الفواتير بضمان قطعي مقدم ، بغض النظر عن القضايا الجانبية لهذا الفعل .

(٤) زاد في الحاشية : وكذلك يوم الفتح دخل مكة وعليه عمامة سوداء .

الأبيضِ ، فما وجهُه الذي يَسْتَدِلُّ به على ترك لباس الأسود ؟ قلنا : وجهُه صريحُ الأحاديث الصحيحة ، وعملُ السلف الصالح بها ، وأما تعميمُ النبي ﷺ [فـ] لا يقوم منه دليل على جواز لباس الأسود ؛ لأنه في ذلك اليوم لأمر هو يعلمه ، ولم يقل ﷺ بوجوب لباس الأسود ، ولا باستحبابه ، بل قال عليه الصلاة والسَّلام: « أحسن اللباس الأبيض ، ولو كان عتيقًا »(١) الحديث .

وقد استحسن القومُ لباسَ الأبيضِ دون غيره ، وأما لباسُ الأسود [فـ] لا يقول أحدٌ من أهل العلم باستحبابِه ، وكرِهه جماعةٌ مع وجود الأبيض في الجمعة وغيرها ، وفي الحديث : « أحسن ما زرتم به الله في قبوركم ومساجدكم البياض »(٢) ، وقوله ﷺ : « البسوا البياض فإنها خيرُ ثيابكم ، وكفّنوا فيها موتاكم »(٣)، وهذا بخلاف العيد فإنَّ الأحسنَ فيه الثياب الجديدة ولو غَيْرُ بيض. فإن وُجدت الجديدةُ كُره لباس الأسودِ ، وقولُ مولانا عبد السَّلام بترك لباس الأسود اتِّباعًا لما قبله من مشايخ طريقته . اهـ .

ولنرجع إلى الكلام على الفواتير ، فقد أكثر الشيخُ من الإيصاء بتعظيمِهم والتسليم لهم . وتعليل ذلك أن المطيع منهم يُنتفع به ، والعاصي

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٥٦٨) من حديث أبي الدرداء، صححه ابن الملقن في البدر المنير ٤/ ٦٧٥، ولكن ضعفه ابن رجب في الفتح ٤/ ٦٦، والبوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٢٩، والألباني في ضعيف الجامع (١٣٧٦) .

(٣) رواه الترمذي (٢٨١٠)، وابن ماجه (٣٥٦٧) من حديث سمرة بن جندب، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٠٢٧).

إثمُه عليه ، كفايةً للمؤمن، وتخليصًا مما في أمثال [هذه الحكايا][1] من مخالفة مشهور الشرع[2]، فراجع وصاياه في هذا الكتاب وغيره ، وانظر كتب القوم تسترح ، ولا تدخل في عدم تعظيم أمرهم ونهيهم امتثالًا لظاهر الشرع ، بل ذلك من حيث خدمتُك لهم في إنقاذهم من ذلك ، [أي] من تعظيمهم ، فأمروا مع حُسن الظن في الباطن والتماس المخارج الحسنة برفق ولين ، كما ينبغي ، حيث رجاء القبول ، وإلَّا فالتسليم على نحو ما أوصى به الشيخ أسلم ، وبالجملة فبركة الفواتير كثيرةٌ مشهورة ، وبلدتهُم أكثر البلاد قِبابًا على أضرحة الصالحين ، وذلك مما يدلُّ على عظيم بركة أصحاب القِباب ، وكثرةِ أولياء بلد الفواتير .

واعلم أنَّ أكثرَ أولياء الفواتير مجاذيبُ ، وأكثرهم يسْتَتِر برثاثة الملْبس والمسكن ، وباللَّغو في الكلام ، وربما تستَّرَ بعضهُم باللحن حتى في الفاتحة ، ويُكْثِر من ذلك ، حتى لا يثْبُتُ في الاعتقاد معه إلَّا كاملٌ صاحبُ بصيرةٍ نافذة ، وربما تستَّر بعضهُم لجواب الظاهر والتلبُّس [بما لا][3] يليق ظاهرًا .

(١) في الأصل : هؤلاء الحكاية .

(٢) لم يحدد ما هي الحكايا المخالفة للشرع التي يشير إليها ، والأقرب أن المراد ما يروى في حَقِّهم من الكرامات والخوارق والحكايا التي تخالف الشرع ، أو أن كلام الشيخ عنهم من هذا القبيل ، والإشارة التي تلي ذلك تؤكد هذا الأخير .

(٣) في الأصل : « مما » . والسؤال هو : لماذا هذا التستر باللحن في الفاتحة هل هو قربى إلى الله ؟ وهل يمكنك أن تسمع بهذا في صدر الإسلام دليلًا على صلاح الإنسان ؟وما ينتظر من الاعتقاد في مثل هذا سوى أنه إما يجهل الفاتحة وعليه تعلمها ، أو أنه مجذوب لا يعي ما يقول وليس عليه ذنب في خطأه ، ويحرم الازدراء به ، وتحقيره لآدميته - التي كرمها الله - ، وإسلامه، وشرف نسبه ، ولكنه لا يكون قدوة لمسلم في هذا السلوك ، والحق أحق أن يتبع ، فإن كان الشيخ الزرُّوق يعطف عليهم ويتقرب منهم ، فذلك شأن العالم المتواضع من الفقراء والمساكين، وهو من خُلُق الإسلام ، ويبقى اعتقاده أن النافع والضار هو الله ، ولو اجتمع الإنس والجن على أن ينفعوه بشيء لم يُرِدْهُ الله له لن ينفعوه ، ولو أرادوا أن يضروه بشيءٍ لم يرده الله له لن يضروه ، رفعت الأقلام وجفَّت الصحف .

وأكثرُ الناس ضررًا بهم وحرمانًا من الاستفادة منهم جنسُ المتطلِّبة .
أما أصحابُ البصائر والراسخون في العلم [فـ] لا يخفى عليهم ، فيأوُون إليهم ويتملَّقون لطلب الدعاء منهم . ولقد رأينا من الرَّاسخين في العلم شيخُ مشايخنا سيدي أحمد زرُّوق ﷺ وهو يطوف عليهم، أعني الفقراءَ الفواتير واحدًا واحدًا، ويجلسُ بين أيديهم ثانيًا ركبتَيْه على علوِّ مرتبته ، يجلسُ معهم كجلوس المملوك بين يدي المالك ، يطالبُهم بالدعاء له ، ولأصحابه ، وتلامذته ، لم يصدَّه ﷺ لقوة بصيرته شيءٌ مما صدَّ غيرَه عن التواضع لهم ، وأمر أصحابه بالتملُّق لهم ، وتقبيل أيديهم ورؤوسهم ، وطلبِ صالِح دعائهم ، فرأينا أصحابَه سرى فيهم من بركته - رحمه الله - كأستاذنا شمس الدين اللقَّاني، والقُسنطيني، والفطناسي، وبركات ، وغيرِهم ، يتزاحمون على الواحد من الفواتير تزاحم الغنم على الماء ، يغنمون السبق إلى مصاحبته وتقْبيله ، وصالح دعائه ، لا يكتفي [بـ] الواحد منهم ، فيطلب الآخر .

هكذا رأيناهم - نفعنا الله بالجميع آمين - يقرِّبُ منهم في التأدبِ معهم والأخذ بخاطرهم الشيخُ المريدُ الوليُّ الصالحُ سيدي محمدُ بنُ عبد الرحمٰن الحطَّاب الكبير - أبقى الله علينا بركاته - فكان يعظِّمهم ، ويتواضع لهم ، ويعرِفهم كلهم ، ويتحبَّب إليهم بجميع التحبُّبات ، يداعبهم ويأخذ بخاطرهم ، ويفرح برؤية الواحد منهم أشدَّ الفرح ، ويقول : الفواتيرُ أشراف الناس ، بهم العَمار ، وبهم الخَلاء . وكانوا أيضًا يركنون إليه ، ويأوون إيواء الوالدة لولدها ، ويقول : لا يثبُت قدمُ إنسان من طرابلس وغيرها حتى يأتي جبلَ زغوان وأهلَ الزاويةِ الغربيةِ والفواتير ، ويحلُّ بهم ، ولو لحظة ، إلى أن قال: الفواتيرُ هم معدنُ البركةِ والولايةِ ، والطريق إليهم،

فمَن اعتزلوه يُعْتَزَل ومَن أوقفوه يقف بإذن الله . اهـ . والله أعلم .

والاتفاقُ على أن الأمر على قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات ١٣) ، وقوله ﷺ : « إن الله تعالى أذهبَ عنكم غيبةَ الجاهلية وحجزها بالآباء لأنكم ما بين مؤمن تقيٍّ أو فاجرٍ شقيٌّ ، كلكم من آدم وآدم من تراب »[١] ، وقوله عليه الصلاة والسَّلام : « الرب واحد والأب واحد والأم واحدة . ومَن أبطأ به عملُه لم يُسرِع به نسبُه ، ومَن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبُه »[٢] ، ولله در القائل حيث قال : [طويل]

خليليَّ ما الإنسانُ إلَّا بدينهِ
فلا تتركِ التقوى اتّكالًا على النسبْ

لقد رفعَ الإسلامُ سلمانَ فارسٍ
وقد وضع الكفرُ الشريفَ أبا لهَبْ

قال شيخ مشايخنا سيدي أحمد زرُّوق في القواعد : « فالمعتبَرُ هو النسبُ الديني. فإن انضاف الطينُ كان له مؤكِّدًا، ولا تُلْحَق رتبةُ صاحبه بحال »[٣]. قال ذاتَ يوم لأصحابه : « إني لم أخف من أحد يخالف الشرع ، بل ننكر عليه ونهدِّده ، فلا يُظهِرُ لي امتثالًا ، عدا الفواتير لم أتكلَّم فيهم إلَّا بخير على ما ظهر لي من بركاتهم » إلى أن قال : و[قال][٤] بعض العارفين : « اطلبْ من

(١) رواه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥) من حديث أبي هريرة وحسنه، ووافقه الألباني في صحيح الترغيب ٣/ ٦٩ . الصواب : أذهبَ عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء .

(٢) لم أقف عليه مسندًا، وذكره النفراوي في الفواكه الدواني ٢/ ٥٦٨ .

(٣) قواعد التصوف : القاعدة ٥٣ بتصرف .

(٤) في الأصل : وكان .

نفسك الصدق في معرفة خُصوصية أهل التخصيص ومحبَّتك لهم ، تَنَلْ منهم ما تريد، ولا تطلب منهم أن يشغلوا قلوبهم بك ، وتهمل أنت أمرَ نفسك ، فإن ذلك قليل الجدا » ، وكما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ ﴾ (الأنعام ٦٨) ، إشعارًا بالاعتراض عمن يخوضون في حقِّ الأولياء ، فإنَّهم من آيات الله تعالى الدالِّين عليه ، وهؤلاء الفواتير معدِنٌ للولاية ، خلفًا عن سَلَف » . انتهى كلامه رحمه الله ، ونفعنا به آمين .

ولله درُّ القائل حيث قال : [طويل]

إذا غابَ أصلُ المرءِ عنك ولم تجدْ

لَهُ مُخبرًا ، ينبيكَ عنْ أصلهِ الفعْـلُ

نعم إنَّ لصلاح الأصل من المزيَّة ما يُرْشِدُ إليه قولُه تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا ﴾ (الكهف ٨٢) ، وقد ذكر في كتاب « البركة » بينهما وبينه أربعون جَدًّا ، أو كما ذكر سيدي عبدُ الرحمٰن المكي في كبيره عن كرامات الشيخ في هذا المَعْنَى وغيره ، وفي ذكرِ الشرفاء ، وأن الشيخ سيدي سليمانَ معدودٌ فيهم ، وأولادُه السبعُ بسلسلة ممتَّدةٍ إلى النبي ﷺ ، كما سيأتي .

وكان سيدي أحمدُ الفيتوري الذي هو عَمُّ الشيخ يُنسبُ إلى الشرف ، ولأنه لبس وألبس أولاده العمائم الخُضْر التي صارت الآن زيًّا للشرف ، ولم يَنْهَه سيدي أحمدُ زرُّوق عن الانتساب للشرف ، بل قال له : أنت شريف الطرفين ، وإنه لم يفعل ذلك إلَّا بعد صِحَّته عنده ؛ لأنه رجل صالح ، وله مخبرة في العلم والنسب ، إلى أن قال : وقد سألتُ الشَّيْخَ الذي هو مولانا عبدُ السَّـلام ذات يوم عن نسبة آل محمد ﷺ فقال : أنا منهم ، إلى أن قال :

« كنت إذا اجتمعتُ برسول الله ﷺ فأكثرُ ما يخاطبني به : يا ولدي » اهـ .

ورأيتُ مؤلَّفًا كبيرًا بمصر نحو الأربعين كراسًا في ذكر أشراف المَغرب للشيخ بدر الدين بنِ نجمِ الدين الحنفي ، مكتوبًا فيه سيدي سليمان الفيتوري وذريته السبعة ، ثم قال فيه عقب ذلك ما نصُّه : « سليمان بن سالم ابن خليفة بن الولي الصالح سيدي الحاج عبد الله الشهير بنبيل بن عِمران ابن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد القادر بن أحمد بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المحضي بن محمد بن الحسن المثنى بن الحسن ابن فاطمة ابنة رسول الله ﷺ » اهـ .

ثم قال وأولاد سليمان الفواتير بأرض طرابلس الغرب . والحاصل أن الفواتير في ما ظهر ينبغي التَّأدبُ معهم حَيِّين أو مَيِّتين . ويؤيد ذلك أنَّ الشيخَ الكامل المُكاشَف سيدي عبد الرحمٰن السلطان البشْت، مع عظيم تصرفه ، إذا قدِم لزيارتهم - أعني الفواتير - لا يدخل بلادَهم إلَّا حَبْوًا ، إذا لم يجدْ من صغارهم مَنْ يمسك يده ويدخله إياها . ويؤيد ذلك أيضًا ما سمعناه من الشيخ الذي هو مولانا عبد السَّلام في حياته من قوله : « إن في مقبرة أولاد سليمان ما يقرب من أربعمائة ولي من الذين ليس بينهم وبين الله حجاب » ، وكان السببُ لقوله هذا الكلام : أنه قد أتى لمقبرتهم بإذن الزيارة ومعه فقراء كثيرون ، فلما بلغناها مكث طويلًا ساكتًا على خلاف عادته ، حتى اشتدَّ علينا الحرُّ وسال منا العرقُ ، ومن الشيخ العرَقُ الكثيرُ ، وعلمنا أنه في حال آخرَ غائبٍ عن الواقع ، ثم بعد أن رجع لحال البشرية ، وسار سألناه بالله أن يُخبرنا الخبر ، وكان لا يكتم شيئًا يُسأل فيه بالله كائنًا ما كان ، فقال لنا : إن أهلَ المقبرة كلَّهم أتوني يسلمون عليَّ .

وذكر لنا عددَ أكابر الأولياء منهم ، وقال : أربعة مقابر مدائنُ الأولياء:

مقبرة الفواتير بيزليتن ، ومقبرة منذر [1] بمدينة طرابلس ، ومقبرة الطلبة بجَنزور، ومقبرة عوسجة بالزاوية الغربية . فمَن زارهم بنيَّة مخلِصة واعتقادٍ تام نال من المدد ما اللهُ به عليم ، ففي مقبرة منذر خمسة عشر فواتير (كذا) وثلاثة آلاف ولي ، وفي مقبرة الطلبة سبعة آلاف ولي ، وخمسمائة طالب رسم يحفظـون القـرآن « ما قلت ذلك إلَّا بإذن من الله ورسـوله » إلى أن قال : « أكثِروا من زيارة هؤلاء المدائن تربحون وتنجحون وتتمرون ، وهم هؤلاء المقابر الأربعة ، لا سيما مقبرة عوسجة ، فيها عشرة آلاف ولي من الأكابر » . فإذا كان فيها هذا العددُ من الأكابر في زمان الشيخ ، فكم ذا يكون فيها من دونهم في درجة الولاية ؟ ثم كم ذا يكون في سائر هؤلاء المقابر من الأكابر ؟ ثم ممَّن دونهم ؟ وناهيك بمَن زاد بعد موت الشيخ رحمه الله ، ونفعنا الله تعالى بهم ، ووقانا شرَّهم ، ورزقنا رضى صالحيهم ، آمين . اللهم ارزقنا الأدبَ مع الفواتير ، فكم من وليٍّ يسلبونه ، ومات مسلوبًا مرفوضًا بإذن الله ؟ فهلّا رأيت ما وقع للشيخ مفتاح الفيتوري خليفة الشيخ سيدي عبدِ السَّلام ، ركِب يومًا قصرًا من قصور الفواتير ، وجلس على سطحه ، فأعجبته نفسُه لِما شاهد من علوِّ مقامه ، فقال في نفسه: فليس في الفواتير الآن مَن هو أعظم درجةً مني ، فما نزل إلى أسفلِ القصر حتى فقد جميع ما كان معه من المعارف والأسرار ، فجعل يجري في نواحي الفواتير وهو يصيح ويقول : « رزقي رزقي » فبينما هو يجري وقد أجهده العدْو خرجَتْ له عجوز شمْطاء من خُويْمة بائدة مرقَّعة ، وهي تقول له : يح يا مجنون يح يا مجنون ، لم يكفك الانتفاخُ على الأرض حتى

(١) الصحابي الجليل منيذر الإفريقي ، قيل إنه روى عن رسول الله ﷺ حديثًا واحدًا ، هو قوله ﷺ : « أنا كفيل بمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله أن آخذ بيده إلى الجنة » أو كما قال ﷺ .

صعدتَ تنتفخُ على رأس القصر ، فسقط نحوها يتملَّق ، ويقول لها : أنا دخيل على رسول الله ﷺ ، ويكرِّر ، فقالت : لستُ صاحبتَك ، ولكن امشِ لذلك الرجل الذي يرعى البقر ، هو يردُّ عليك . فتركها وذهب إلى رجل ذي أطْمار خَلِقة ، قـد خـرج رأسُه من قُطوع فيها ، وهو يعْـدُو ويقول : « رزقي رزقي » فلما قرب منه شَمَت فيه ، وقال له كما قالت العجوز ، فطاح عليه يقبِّله ، ويقول له : أنا دخيل على رسول الله ﷺ ، فردَّ عليه بعد أن استتابه . انتهى بالمعنى .

فانظر – رحمك الله – إلى هذه الحكاية وأمثالها ، فإنها من مصداق الصادق المصدق ﷺ ، حيث يقول : « رُبَّ أشعث ... »[1] الحديث ، وتأدَّبْ بها وبأمثالها مع هؤلاء الناس، بَرِّهم وفاجِرهم ، رفيعهم ووضيعهم . والله ولي الانتقام .

ويُحكى أنَّ رجلًا أقبل من نحو الفواتير يسوق بقرًا ، فلما أن قرب من الفواتير نام ساعة واستيقظ ، فلم يجد لبقره أثرًا ، بعد أن جرى يمينًا وشمالًا، فلما أن أيس منه قال : « يا رجال الفواتير خواطركم أنا خصيمكم على يد رسول الله ﷺ ، إن ضاع بقري في حرمكم » فلم يلبث بعد كلامه ساعة حتى وجد بقرَه ، فساقه حتى دخل الفواتير ، وإذا برجل يعرفه قاعدٌ مع أبيه عُريانَ مكشوفًا منه عورتُه ، ما عدا السوأتين ، فجعل يسبُّه في قلبه ، ثم قام العُريان ونزل سانيةً لهم يلتقط بلحًا وراء طابية ، فلما أن قرَّبَ منه وهو سائق البقر ، مدَّ له رأسَه من وراء تلك الطـابية ، وقال له : مكاشفًا : « يا أخي رجال الفواتير كثيرون ، فإذا ضاع لك بقرٌ ونَدَهْتَهم فعيِّن واحدًا

(١) رواه الترمذي في سننه ؛ كتاب المناقب ، باب مناقب البراء بن مالك ، حديث ٤٢٢٧ .

منهم ولا تجمعُهم » ، فعَلِم أنه من أولياء الفواتير الذين استتروا بخراب الظاهر [1] ، فتاب ذلك الرجلُ واستغفر .

ومما يُحكى عن بعض الفواتير أيضًا - وهو الشيخ سيدي خليفة العاتي الذي ذكره الشيخ في سلسلته - أن رجلًا حلَف بتحريم زوجته على الحج في عام معين ، فقُدِّر أن مَرِض إلى قرب أيام الحج ، بحيث فاته في ذلك العام، فلما أن برئ جعل الناسُ يضحكون عليه ، ويسخرون به ، دَلَّه بعضُ الناس على بعض الصالحين المشهورين في ذلك ، فذهب إليه ، وجعل يبكي له ويتوسل إليه أن يُحَجِّجه ، فلما أن كَثَّر عليه ، قال له : يا ولدي والله لا أقدرُ لك على شيء ، ولكن سِر إلى بلاد الفواتير ، واجلس حتى يجتمعون لِلَّعب بالأكرة ، فإن أول مَنْ يأتيك شابٌّ حسنُ الصورة وحسنُ اللباس ليس عليه شبهةُ فقيرٍ أصلًا ، بل عليه من فاخر لباس بلدهم ما لا يلبسُه إلَّا عظماءُ عوامِّهم ، فإذا اجتمع عليه العوامُّ يضع إزاره ، ويجعل يلعب معهم بالأكرة كواحد منهم ، حتى إذا جاء الليل وذهبوا ، بقي هو آخرهم ، فإذا رآك جالسًا بعدهم أتاك وسألك ، فإذا علِم أنك ضيفٌ عزم عليك أن تروح معه ، فإذا رُحتَ وأتاك بالطعام فامتنِعْ من أكله حتى تشترطَ عليه حاجتك ، فإني ما رأيت من يقضيها إلَّا هو .

فذهب ذلك الرجلُ ، وفعل ما أمره ذلك السَّيِّد ، وهو يتعجب من كون صاحب مثل ذلك الفعل كيف يَقْدِر على قضاء حاجته ، حتى وقع ما قاله ذلك السيد ، وامتنع من أكْل الطعام ، حتى تحمَّل بقضاء حاجته ،

---

(1) تخريب الظاهر منهج اتبعه ابن عروس بعد أن كان من أهل الصلاح الظاهر ، وهو أن يظهر سالكه من فعله ما يكون محلَّ نقد واستنقاصًا في سلوكه أو خلقه أو دينه ، وقد انتقده بسببه الشيخ أبو القاسم القسنطيني قاضي قضاة تونس (انظر زاوية الأسمر وإشعاعها العَقَدي والروحي في القرن العاشر الهجري للدكتور مصطفى بن رابعة ١١٠) .

وذكرها له ، فسكت مليًّا ، ثم قال له : بعثك فلان - الله لا يسامحه - كَشَفَ السرَّ ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة ١٥٦) كُلٌ ، والكمال على الله ، ثم واعده أن يأتيه يوم عرفة في مكان معين ، وذكر له إن لم يأته فيه في ذلك الوقت فاته ما يُؤمله ، فأتى لذلك الموضع ، وجلس حتى جاء سيدي خليفة ، وأخذه بيده ساعة ، وإذا به في عرفة ، فأمره أن يقضي المناسك ، ويزور المدينة المشرفة ، ثم يأتيه في موضع سَمَّاه له ، وتواعده فَواتَ رجوعه في ذلك العام إن لم يجده هناك في ذلك الوقت ، ففعل الرجلُ ما أمره به ، وكل من يسأله من أهل بلده ، أو من يعرفه عن مجيئه ، يقول له جئت في البحر ، ثم قبل يوم مواعدة الشيخ طلب من معارفه أن يكتبوا أوراقًا لأهليهم ، وتعلَّل بأنه يريد الرجوع في البحر ، فكتبوا له، ثم لما أتاه الشيخُ وراح، لم يصدِّقه أهلُ بلده ، حتى أخرج لهم الأوراق ، وأتى الحجاجُ وأخبروا بصحة قوله . ومن ذلك الوقت اشتهر سيدي خليفة . سمعت معناها من متعدِّدين ، وهذا من الجائز عقلًا وعادة . والله أعلم .

واعلم يا أخي أن أكثرَ أولياء الفواتير مجاذيب ، وأكثرهم برثاثة الملبس والمسكن ، وباللَّغو في الكلام ، وربما يسْتَتِر بعضهُم حتى في الفاتحة ، ويُكْثِر من ذلك حتى لا يَثْبُت في الاعتقاد معهم إلَّا كاملٌ صاحبُ بصيرة نافذة . وربما تستَّر بعضهم بخراب الظاهر ، والتلبُّس بما لا يليق ظاهرًا مع السلامة في الباطن ، وأكثر الناس تضرَّروا بهم ، وحُرِموا من الاستفادة من بركاتهم ، منهم جنسُ المتطلِّبة ، أما أصحاب البصائر الراسخون في العلم ، فهم كما قال : [بسيط]

لا لا ولـكن إذا ما أبصـــروا خَـلَلا كَسَوْه من [حُسْن][1] تأويلاتهم حُلَلا

(١) نقص أتممناه بكلمة مناسبة .

وقد قال مؤدِّبُ القراء والفقراء سيدي عبدُ الوهاب الشعراني - رحمه الله - في كتاب العهودِ : « أخذ علينا العهودَ أن نجيبَ عن جميع إخواننا المسلمين ، ونحملَهم على أكمل الأحوال ، ولو لم يمكن من رتبتهم الوصولُ إلى ذلك المقام الذي حملتهم عليه »، ثم قال: قال الشيخ محيي الدين في مقدِّمة « شرح المهذب »: « ولا يعجز عن حمل فعل أخيه المسلم على سبعين محملًا إلَّا قليلُ التوفيق ، ثم بعد السبعين يرجع الإنسان على نفسه باللوم ، ويقول : يحتمل فعلُ أخيك سبعين محملًا ولا تَحْمِلَنَّه على واحد منها ، والله ما ذلك إلَّا لخُبْثِ طويَّتك ، وسوءِ اعتقادك في المسلمين » ثم قال إثر هذا : « أَخَذ علينا العهود ، أن لا أُسيء الظن بأحد من المسلمين، بل الواجب علينا تحسينُ الظن ما أمكن ؛ لأن الله لا يسأل عبدًا في الآخرة : لِمَ حَسَّنْتَ ظنك بعبادي أبدًا ، بخلاف العكس » . اهـ المراد هنا .

وانظر ما ذكر سيدي عبد الوهاب ، وأظنه الآن في الطبقات [1] من حكاية أولئك القوم الذي باتوا عند سيدي إبراهيم الدسوقي ، وسمعوا منه لحنًا ، فنقص اعتقادُهم فيه ، وقوله لهم بعد أن أصبحوا يغتسلون في البحر من جَنابة أصابتهم ، فجاء الأسدُ وجلس على حوائجهم ، فجاءه الشيخُ مكاشَفًا ، وطرده عنهم ، ثم قال : لهم أنتم اشتغلتم بإصلاح ظواهركم ، فأفسد الله منكم الظاهر والباطن ، ونحن اشتغلنا بإصلاح بواطننا ، فأصلح الله منا الظاهر والباطن . اهـ بالمعنى ، فإنه من نفيس ما يُذْكَر هنا .

واعلم أن سبب النكير وجودُ القصور والتقصير ، وإلا فالجهبذُ النحرير يقوِّم اللَّحن بالتقدير ، ولا ينبيك مثل خبير . وقال شيخ مشايخنا سيدي أحمد زرُّوق في كتاب « رَدّ البدع » من فصل الاعتقاد والانتقاد ، بعد

(١) يعني طبقات الصوفية للشيخ عبد الوهاب الشعراني .

[أن] نقلَ كلام ابن عطاء الله « فلولا وارد ما كان ما ورد » ما نَصُّه « قلت : لولا وارد ما كان انتساب ولو كان صاحبُه كاذبًا ؛ لأنَّ وجودَ انتسابه شاهدٌ بتعظيمه للجَناب الذي انتسب إليه في نظره ، ولذلك ما تعرَّض أحدٌ قط لمنتسب لله (فهوى) إلَّا أصابه منه ضررٌ ، لأن الحقَّ – سبحانه – يغار لِهَتْكِ جنابِه إلَّا بأمر منه . اهـ » ، وقد أشبعْنا الكلامَ في هذا المعنى في كبيرنا(1)، فراجعْه ؛ لأن النِّسبة لها حَقٌّ عظيم ، ولله دَرُّ القائل : [وافر]

رأى المجنونُ في البيـداءِ كلبًا ... فجرَّ له من الإحسـانِ ذيلا
فلامـوه(2) عـلى ما كان منـه ... وقالوا لِمَ أَنَلْتَ الكـلبَ نيـلا
فقـال دعـوا الملامةَ إنَّ عَيْنِي ... رأتْـهُ مـرَّةً في حيِّ ليـلى

واعلم أنَّ الأولياء محفوظون ، والحفظُ يجوز معه الوقوعُ في المعصية ، أي وإنما يُمتنع الوقوعُ فيها مع العِصْمة ، وليسوا بمعصومين . نعم يصحُّ أن يُعبَّر في جانبهم بالعِصْمة ، ولكن ذلك بالجواز ، ولكن في حاشية سيدي أحمد زرُّوق على حِزب الشيخ الشَّاذِلي الكبير ، عند قوله : « واكسنا جلابيب العِصمة » مرادُه العِصمةُ القوية ، وهي المنعُ من الذنوب بالسَّتْر من الوقوع فيها . وذلك جائزٌ في حَقِّ غـير النبي ﷺ ، وواجـبٌ له ، وللملائكة . وقال العـراقي على حديث « والسلامة من كل إثم »(3) : فيه جواز سؤال العصمة من كل الذنوب ، وذلك جائز في حق غير الأنبياء

(1) الإشارة هنا إلى الكبير ربما تكون لما يعرف بالديوان ، وهو ما يدل على أن الذي بين أيدينا على ضخامته ليس الكتاب الأكبر في ترجمة البرموني لشيخه الأسمر .
(2) في الأصل : فلاموه قوم ، وَهْمٌ ، وبه ينكسر البيت .
(3) رواه الترمذي (٤٧٩) ، وابن ماجه (١٣٨٤) من حديث عبد الله بن أبي أوفى ، قال الترمذي : غريب وفي إسناده مقـال ، وضعفه ابن الجـوزي في « الموضـوعات » ٢/ ١٤٠، والألبـاني في « الضعيفة » (٢٩٠٨) . (طرفه : مَنْ كانت له إلى الله حاجة) .

والملائكة، وواجبٌ لهم، وسؤالُ الجائز جائزٌ» اهـ. على أنَّ العصمة في حَقِّ النبي ﷺ لا تختصُّ بما ذُكِرَ، بل تَعُمُّ كُلَّ ما لا يليق بمنصب نبوءته الذي هو أخصُّ من حفظ الولي مما ينافي ولايته فقط اهـ».

وفي كتاب الانتباه: العصمةُ عامَّةٌ وخاصَّةٌ، وأخصُّ منها، قال: «فالعصمة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران ١٠١) هي من معنى التعوُّذ بالله والتحصن به؛ والله أعلم، وذلك أن أحبار اليهود كانوا يُفْتُون المؤمنين بأقوالهم الكاذبة، فحذَّرهم الله من ذلك، وأمرهم بالتحصُّن به، واللجأ إليه من شَرِّ فِتنهم، وَ[بَقِيَتْ][1] مسلك الخواص في الاعتصام بالله من شَرِّ نفوسهم وشيطانهم. ويحتمل أن يكون لهذا المعنى أشار الشيخ الشَّاذِلي بقوله: «واكسنا جلابيب العصمة في الأنفاس واللحظات» المتبادِرُ أنه لم يطلب العصمةَ العامة المتعلقةَ بجميع المؤمنين المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ (آل عمران ١٠٣) وحبلُه كتابُه، وهي كسيةٌ، بساطُها التخلِّي عن المذمومات، والتحلِّي بالمحمودات، والاستقامةُ على ذلك إلى الممات، فهي عبارة عن[2] أن تكون ظواهرُ العبد معصومةً بالأحكام الشرعية، وبواطنُه معصومةً بآداب الحقيقة، فتكْفَله[3] العصمة ظاهرًا وباطنًا، أي تمنعُه حدودُ الله الظاهرةُ والباطنة من الوقوع في المخالفة، لم يطلب هذه لثبوت صِدِّيقيته، ولم يطلب العصمةَ الحقيقيةَ التي هي للأنبياء لقصور درجته عن ذلك، وإنما طلب ما يليق بمقامه، وذلك أن الصِّديقية تلي درجةَ النبوءةِ، فطلبَ أن يكونَ له

---

(١) اجتهاد في قراءة كلمة غير واضحة، ولعل المراد وبقيت العصمة مسلكًا للخواص.

(٢) في الأصل: على.

(٣) في الأصل: فتكلفه.

ذَوْقٌ مَنْ رشْحِ عِصمة النبوة ، وذلك جائزٌ في حقه ، لقول أبي يزيد : « حظ النبي زِقٌّ من عسل ، وما رشح منه فهو حَظُّ الولي » .

ولتِبيان المقامَيْن صار المتكلمون في هذا الفنِّ يُعَبِّرون (١) بالعصمة في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام ، والحفظُ حَقٌّ الأولياء ، وهي في حق الأنبياء واجبةٌ (٢) لا يُتَصَوَّرُ عدمُها ، وفي حقِّ الأولياء جائزةٌ ، فعلى هذا تُنَزِّه الوليَّ عن وصف المخالفة أدبًا لعظيم جَنابه ، ولا تُلْزِمه عَدَمَ وقوعها أبدًا ، لِتَصَرُّف قدر الله وقضائه . وأيضًا إن قلنا بالمطلق الوقوع حفظناه لرتبة العموم ، وهو أجلُّ من ذلك . وإن قلنا بعدم الوقوع رفعناه لرتبة الأولياء . وليس له ذلك . والحاكم في قضية أحوالهم على الدوام : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف ٢٠١)، فبِنَفْسِ التَّذكار يرجعُ الوليُّ إلى مقامه وأعلاه ؛ لأنه يتضمَّنُ التَّبْصِرة ، وهي تتضمن إسراعَ التوبة ، وهي تتضمن المحبَّةَ ، ومتى تتضمن ولاية المحب للمحبوب [يـ]ـرجع (٣) إلى ولايته ، وإلَّا ظهر أنه تَرَقَّى من ولاية صغرى إلى كبرى ، وذلك أنه كان أولًا محبًّا ، والآن صار محبوبًا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة ٢٢٢) ، وشَتَّان ما بين منزلة المحِب ومنزلة المحبوب اهـ » .

واعلم أن الوليَّ المفتقر لله إذا خالف لا يُقتدى به إلَّا [في] ما هو موافقٌ للشريعة المطهرة ، قال شيخ مشايخنا سيدي أحمد زرُّوق في العُدَّة :

(١) في الأصل : يعتبرون .
(٢) في الأصل : لواجبة .
(٣) في الأصل : فرجع .

« قال الشيخ أبو إسحاق الشاطبي ﷺ : كل ما عَمِل به الصوفية المعتبرون في هذا الشأن ، يعني الجنيد[1] وأمثالَه ، لا يخلو إما أن يكون مما ثبت له أصل في الشريعة ، فهم خُلقاء به ، كما كان السلف من الصحابة والتابعين خلقاء بذلك ، وإن لم يكن له أصل في الشريعة فلا عمل عليه ؛ لأن السُّنَّة حجةٌ على جميع الأُمَّة ، وليس عملُ أحدٍ من الأُمَّة حجةً على السُّنَّة ؛ لأن السُّنَّة معصومةٌ من الخطأ ، وصاحبُها معصومٌ من الخطأ ، وسائرُ الأُمَّة لم تثبت لهم عصمة ، إلَّا مع إجماعهم خاصة ، فإذا أجمعوا تضمن إجماعهم دليلًا شرعيًّا ، فالصوفيةُ كغيرهم ممن لم تثبت لهم العصمة ، يجوز عليهم الخطأُ والنسيانُ والمعصيةُ ، كبيرُها وصغيرُها ، والبدعة ، مُحَرَّمها ومكروهها . ولأجل هذا قال العلماء المحققون : كُلُّ كلام منه مأخوذ ومتروك إلَّا ما كان من كلامه عليه الصلاة والسَّلام ، والعمل كذلك تابعٌ له[2] » ، قال : « وقد قَرَّر القُشَيْرِيُّ ذلك أحسنَ تقرير ، فقال : فإن قيل فهل يكون الولي معصومًا ؟ قيل : أما وجوبًا ، كما كان الأنبياء [فلا] ، وأما أن يكون محفوظًا حتى لا يُصِرَّ على الذنب ، وإن حصلت هفواتٌ أو زَلَّاتٌ أو آفاتٌ ، فلا يمتنع ذلك في وصفه ، قال : وقد قيل للجنيد : أيزني العارفُ ؟ فأطرق برأسه مليًّا ، ثم رفعه ، [و] قال: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[3] (الأحزاب ٣٨) ، وقال : « هذا كلامٌ منصفٌ فكما تجوز على غيرهم المعاصي والابتداع وغير ذلك ، فكذلك تجوزُ عليهم البِدَع وغيرها .

---

(١) في العُدَّة ص ٣٦ : « كالجنيد وأمثاله » ، وفي الأصل : الجنيدي .

(٢) في الأصل : لهم . والنص في عدَّة المريد الصادق بتحقيق د. الصادق الغرياني ص ٣٦-٣٧ بتصرف .

(٣) العُدَّة ص ٣٧ بتصرف .

فالواجب علينا أن نقف مع الاقتداء بمن يمتنع عليه الخطأ ، ونقف عن الاقتداء بمن يجوز عليه إذا ظهر في الاقتداء به إشكال ، بل نعرض ما جاء عن الأئمة مطلقًا على الكتاب والسُّنَّة ، فما قبلاه قبلناه ، وما لم يَقبِلاه تركناه ، ولا علينا إذا قام لنا الدليلُ على اتِّباع الشارع ، ولم يقم لنا الدليل على اتباع الصوفية وأعمالهم إلَّا بعد عرضها عليه، والحق لا يُعْرَف بالرجال، والقنن لا تصلح للجهال[1] ، وبهذا أوصى شيوخهم ، وأن ما جاء به صاحب الوجد والذوق من العلوم والأحوال والفهوم يعرض على الكتاب والسُّنَّة ، فإن قبلاه وإلَّا لم يَصِح .

قال : ثم نقول ثانيًا[2] إذا نظرنا في رسومهم التي حدُّوها ، وأعمالهم التي امتازوا بها من [3] غيرهم ، بحسب تحسين الظن والتماس أحسن المخارج ، ولم نعرف له مخرجًا ، فالواجبُ التوقفُ عن الاقتداء والعمل وإن كانوا من جنس مَن يُقتدى به ، لا ردًّا له ولا اعتراضًا عليه ، لأنَّا لم نفهم وجه رجوعه للقواعد الشرعية كما فهمْنا غَيْرَه » ، ثم قال بعد كلام : « فوجب بحسب [الجريان على رأيهم] [4] في السلوك أن لا تعمل بما رسموه مما فيه معارضة لأدلة الشرع ، ونكون في ذلك متبعين لآثارهم مهتدين بأنوارهم ، بخلاف مَن يُعْرِض عن الأدلة ويُصَمِّم على تقليدهم في ما لا يصح تقليدهم فيه على مذهبهم ، فالأدلة الشرعية والأنظار الفقهية والرسوم الصوفية تذمُّه وتردُّه وتَحْمَد مَن تحرَّى واحتاط وتوقَّف عند الاشتباه ، وتبرَّأ

---

(١) قولة « والحق » وما بعدها إلى « للجهال » غير وارد في العُدَّة المحققة (ص٣٧) .

(٢) القائل الشاطبي ، والنقل عن العُدَّة (ص٣٧) .

(٣) من : كذا في الأصل ، والمقام يقتضي (عن) وهو ما في العُدَّة ، وحروف الجر تنوب عن بعضها بالتضمين ومراعاة الاستعمال .

(٤) في الأصل : الحرس على إرادهم ، والتصويب من العُدَّة .

لدينه وعِرْضه، اهـ. وهو من مكنون العلم. وبالله التوفيق اهـ»[1].

وفي موضع منها[2]: «المريد ينتفع بصدقه وإن كان الشيخ مخالفًا، ما لم يتبعْه في مخالفته، فيضلَّ أعظمَ من ضلاله، فاعرِفْ هذا الأمر، واعرف حَقَّه فإنه مُهِمٌّ، واعتبِرْ بقصة الخضر عليه السلام مع موسى، بما فعله ولا شَرَطَه عليه أول مرة[3]، وإنما شرَط الصبرَ عليه، وأنكرَ منه الإنكار لما ألزمه[4] من عدم الاصطبار، وهو من مكنون العلم والله الموفق» اهـ. من العُدَّة[5].

واعلم أنَّ الوليَّ لا يبعُد من الهَفْو والهَفَوات ومن الزَّلَّة والزَّلَّات، وقد يكونُ وقوعُ ذلك نادرًا، وذلك لأنَّ الشيطانَ لا تَسَلُّط له على قلوبهم، وإنما يطوف بها كالسارق، وقال الشيخُ الذي هو سيدي أحمد زرُّوق في كتاب الانتباه: «لا سبيل للشيطان إلى دخول قلوبِ الأولياء التي هي معدِنُ الأسرار ومظهرُ الأنوار، فلا يحوم حولها إلَّا سارقًا، والسارق إنما يقضي غرضه من الغافل والنائم، وهم في مقام الانتباه واليقظة، فإذا استشعروا بشيء من همزاته رَمَوْه بشُهُبِ أدلة التوحيد، فانقلب خائفًا لمانع حماية الرحمن، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر ٤٢)، والتعبير بالسلطان عن الغلبة. والله أعلم، أي: لا غلبة لك عليهم، فبان بهذا أنه وإن رام القربَ منهم، فلا ينالُ غرضَه، وإن توسَّلَ إلى بعضٍ [بـ]الوسوسة، فمحلُّها ظاهرُ القلب لا باطنه الذي هو في مَحَلِّ المعرفة بالله، ولا يستقر لها

(١) العُدَّة: ٣٩.

(٢) من عُدَّة المريد الصادق للشيخ الزرُّوق.

(٣) في العُدَّة: إن أمره به.

(٤) في العُدَّة: التزمه من وجود الاصطبار.

(٥) عدَّة المريد ١٤٨ بتصرف يدلُّ على اعتماده على نسخة أخرى غير المحققة بنسختيها.

قرار ؛ لثبوت يقظتهم ، وقوة نور بصائرهم . فإذا استشعرها القلب ، كان كما أخبر الله عنهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف ٢٠١) ، فانظر له لم ينفِ عنهم حكم الوسوسة ، ولكن أثبتَ لهم اليقظة المتضمِّنَة نَفْيَ الإغواء ، الذي هو الإصرارُ ، كما هو وصفُ مَنْ ذَكَر من أهل الغفلة في الآية الثانية » .

وقد ذكر في « العُدَّة » كلامًا عن المجذوب الفاقد لعقل التكليف ، فكيف تثبُت له الولايةُ ، ونَصُّه : « وقد قال بعضُ العلماءِ : ما زال يختلج في صدري أن المجذوب فاقدُ عقل التكليف الذي يثبت به أصلًا ، فكيف تَثْبُتُ له الولايةُ على مرِّ الدهور ، يُعْتَقَد ويُنْكَر عليه ؟ حتى فتح الله - سبحانه - عليَّ بأنَّ عَقْلَ تدبيرِ المعاش هو الذي يُناط به التكليفُ ، فإذا ذهب سقط التكليفُ ، فبقي صاحبُه كالبهيمة في العلم ، غير أنه إن ذهب هذا العقلُ بخيالاتٍ وهميَّةٍ كان صاحبه معتوهًا غَيْرَ معتبَرٍ بوجه ولا [بحال] ، وإن ذهب بحقيقة إلهية انتقض[1] ذهوله فيها ونحوه ، اعتُبر صاحبُه [مجذوبًا] من حيث إنه ضرب لمعنى شريف ، وأنَّ السببَ في تعطيلِ وجودِه عن مصالحِه ذلك[2] ، فإنَّ مَنْ كان في الله تلفُهُ كان على الله كُلَفُه ، فافهم . قلت : ويُعرف كُلٌّ منهما[3] بإشارتِه ، فإن أشار بحقيقة مجموعة فهو ذلك ، وإلَّا فليس من هناك » انتهى [4].

وفي موضِعٍ آخرَ من « العُدَّة » : « فكلُّ من أشار إلى حقيقة مجموعة فهو

(١) في الأصل : انتقضت .
(٢) عُدَّة المريد : ولأن تلفه كان في الله .
(٣) يعني المجذوب والمجنون .
(٤) العُدَّة : ١٣٢ بتصرف كثير يدل على اختلاف النسخ .

مجذوب، وإنْ كانت صورتُه أجنبيةً عن مقصده، ومن تفرقت إشارتُه فهو مجنون، ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ (محمد ٣٠) فافهم الإشارة » اهـ[1] .

وفي كتاب « الإشارة » بيانُ سبب انتقال الأولياء من فطرتهم الإنسانية إلى الغايةِ التي أشار إليها الشيخُ أبو مدين بقوله : [طويل]

فَقُــلْ للذي يَنهى عن الوَجْـــدِ أهـــلَهُ
إذا لَمْ تَــذُقْ معنى شَرَابِ الهَــوَى دَعْـنَـا

إلى قوله :

فلا تَلُمِ السَّــكْرانَ في حـــالِ سُـــــكْرِهِ
فَقَـــدْ رُفـعَ التكليفُ في سُكْرِنَا عنَّـــــا

وللشيخ السَّنُوسي في شرح كُبْراه عند[2] ذكره هذه الأبيات في مبحث الوحدانية « إن عقولَهم كانت محجوبةً بما كانت عليه من الأعمال التي كُلِّفوا بها ، ولم يكن لهم علمٌ بأنَّ لِلْحَقِّ فجأةً بمن خلا به سرُّه وأطاعه في أمرِه ، وهيّأ قلبه لنوره ، من حيث لا يشعُر ، فلما جاءه الحقُّ على غفلة منه بذلك ، وعَدَم عِلْمٍ واستعدادٍ لما هنالك ، ذَهَبَ[3] بعقله في الذاهبين ، وبقي[4] ذلك الأمرُ الذي فجأه مشهودًا له ، فهام فيه بروحانيته ، وبقيَ في عالمِ شهادتِه بحيوانية يأكلُ ويشربُ ، ويتصرَّفُ في ضرورياته بالروح الحيواني المفطور على العلم بمنافعه المحسوسة ومضارِّه ، من غير فكر ولا تدبير ولا رويَّة ،

(١) العُدَّة : ١٣٣ .
(٢) في الأصل : عن .
(٣) في الأصل : فذهب .
(٤) في الأصل : فألقى .

وهو مع ذلك ينطقُ بالحكمة ، ولا علم [1] له بها ، وهؤلاء سقط التكليفُ عنهم ، إذ ليس لهم عقولٌ يفهمون بها ، تراهم ينظرون إليك وهم لا يُبصرون ، فهذا سبب سُكْرهم من حيث الجملة .

ووَجْهُ الاعتذار عنهم إذا رُئي منهم ما لا تحتمله الشريعة ، أنهم[2] تختلف أحوالُهم بقوةِ الواردِ وضعفِه ، وبقوة سجيَّة العبدِ وقُوَّةِ استعدادِه ، واختلافِ وصفِ الواردِ باختلاف حضرتِه ، فما كان من حضْرةِ الجمال فبقي معه تصرُّفُ الحيوانيَّةِ ، بما فُطرت عليه طبيعتُها ، من غير تدبيرٍ ولا رويَّة ، كسائر الأنعام ، لأنه من حَضْرة اللُّطْف ، وغلَبة الرحمة ، وربما [أ]جرى الحقُّ على بعضهم أفعالَ عبادته ، من غير قصد لهم بذلك ، كما ذكر المكِّي في رسالة المثانين ، بعد كلام في هذا المعنى[3] : « ولقد ذُقْت من هذا الأمر شيئًا[4] مرَّ عليَّ وقتَ كنتُ في الصلوات الخمس إمامًا بالجماعة على ما قيل لي ، وكنتُ أُتِمُّ جميع أحوال الصلاة من أقوال وأفعال ، وأنا في ذلك كلِّه لا عِلمَ لي بالجماعة ، ولا بالمحِل ، ولا شيء من عالم الحس المشهود ، غَلَبَ عليَّ ، غِبْتُ فيه عنِّي وعن غيري ، غير أني كان حالي في حركاتي كالحركات الواقعة من النائم ، أشاهدُ ذاتي في النور الأعم ، والتَّجلِّي الأعظمَ ، أُصلي في العرش العظيم ، عارفُ الحركة بمعزِل عن نفسي ، وكنت أتعجَّب من ذلك ، ولا أعلم ذلك ، وإن ذلك ليس غيره ولا هو أنا ، وما كان من حَضْرة الجلال لم يبقَ معه تصرفٌ لحَيٍّ[5] وأَنِيَّةُ[6] الإنسان في شيء جُبلت عليه خِلقتُها ؛ لأنه

(١) في الأصل : ولا أعلم ، وهو تصحيف .
(٢) في الأصل : « غير » قبل « أنهم » ، وهي زائدة لا معنى لها .
(٣) في الأصل : « في » قبل « المعنى » ، وهي زائدة لا معنى لها .
(٤) في الأصل : شيء .
(٥) في الأصل : تبدأ .
(٦) أنية : أراد النسبة إلى (أنا) أي الذات .

من حَضْرة القهرِ والغَلَبة مثلي ، وأن حالي كحال المجذوب بأنه منذ سَطا عليه ما أكل ولا شرب إلى أن قَبَضه الله إليه ، ومدى ذلك أربعةُ أعوام »[1] .

ومعنى « مجذوب » مستورُ العقل مُطْلَقٌ عن عالم حِسِّه ، وهؤلاء أهلُ غلبة الأحوال، هم المُسَمَّون في القديم بعُقلاء المجانين، وبالعُرف بالبهاليل، وفي الاصطلاح بالمجذوبين ، قيل لأبي السُّعـود ابن الشبل عارف زمانه : « ما تقول في عقلاء المجانين من أهل الغَلَبة ؟ قال ﷺ : هم ملاح ، والعقلاء أملح منهم ، فمن شاهد ما شاهدوا ، وأبقى عليه عقله ، فذلك أحسن وأمكن ؛ لأنه أُعطِيَ من القوة قريبٌ مما أُعطِيت الرسلُ ، وإن كان يعتريه حاله في وقت الفجأة ، فإن ذلك جارٍ على صفته البشرية وبرزخ العبودية ، وليس ذلك بمنحل بالكمال بل مقتضاه » اهـ .

وقال أيضًا « المجذوبُ أول ما تبدو له الحقيقة ، ثم يتدلَّى إلى ما توفَّر فيه السَّالِك ، إلَّا أنه - والله أعلم - أَسْرَعُ في تدلِّيه من السالك في ترقِّيه ؛ لأنه مصحوبٌ بالنور من أول مقام ، والنورُ يكشفُ ظلمةَ الطريق » اهـ .

وقال الشيخ سيدي أحمد زرُّوق في « العُدَّة » : « التحذير من التسليم لكل مُدَّعٍ لا على إطلاقه ، وأنه إنما يُسَلَّم لمن ظهرَتْ عليه آثارُ الخصوصية ، لا لكل مُدَّعٍ » اهـ[2] . قال سيدي محمد الخَرُّوبي : « ومَن ادَّعى رُتْبَةً من الرُّتب فهو مكلَّف بإقامة الدليل على صدق دعواه ، ويقام عليه ميزانُ الشرع ، هل يصدقُ في ما ادَّعاه ، ولا يُسَلَّم للمُدَّعِين في دعواهم ، ولو سُلِّم لهم لفسَدَ الدينُ من أصله ، ولتولَّى الأمرَ غيرُ أهله ، وهذه الطريقةُ لها حُفَّاظٌ

---

(١) لم أقف على هذا النص من كتاب رسالة المثانين للمكي .

(٢) هذا النص ليس واردًا في « عُدَّة المريد » المحققة كما نراه هنا .

يحفظونها ، وحراسٌ يحرسونها ، وهم أهل الله تعالى ، وأنصارُ دينه الذين وهَبَهم العلمَ الظاهرَ والعلمَ الباطن ، وأمَدَّهم باسمه الحفيظ ، وكثيرٌ من الناس غلط في التسليم، فسَلَّموا لكل مدع دعواه، سواء كان محقًّا أو مُبْطلًا، ورأوا أن هذا التسليمُ المأمورُ به ، وهو الذي تكون به السلامةُ ، والحقُّ أنه إنما يُسَلَّم لمن كان مستقيمًا في ظاهره ، وادَّعى أمورًا باطنية تُصَحِّحُ دعواه [منها] استقامةَ ظاهرِه ، فهو الذي يُسَلَّم له على الإطلاق ، وإنما يُسَلَّم له في ما ادعاه من الأمور الباطنية ما كان منها موافقًا لحاله الظاهر عليه ، مثال ذلك التقوى ، والورع ، والزهد ، والتوكل ، والمراقبة ، والمشاهدة ، والمعرفة ، فهذه كلها أحوالٌ باطنة ، فصاحب التقوى إذا ادَّعى الورع ، ولم تظهر عليه علامته ، ولا تحلَّى بأحوال الورع ، لم يُسَلَّم له فيه ، وكذلك الوَرِع إذا ادَّعى الزهد لم تُقْبل منه دعواه إلَّا إذا ظهرت إمارته ، وكذلك ما سواهما من المقامات » اهـ.

وبالجملة، الأمر كما تَقَدَّم من أنه إنما يُسَلَّم لمن لاحت عليه آثار الخصوصية، فمن كان كذلك سُلِّمَت له دعاويه وأفعالُه وأقواله ، وإن كان ظاهرها مخالفًا لقواعد الشرع ؛ لأن مَنْ ظَهرت خصوصيتُه ذو مقعد صحيح في ما يأتي ويذر ، وإن خفي علينا ، إلَّا ما ليس له وجه يباح به ، كما تقدم، وإلَّا ظهر أنَّ التسليم أولى لكل منتسب ، فقد اتفق مذهب السُّنَّة والآداب والحق على عدم الاعتراض لمن انتسب إلى جانب الله تعالى ، خيفة من الوقوع في أولياء الله ، فقد ورد أن الله يقول : « مَنْ عادى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة »(١) ، [وأ]ن مالكًا - رحمه الله - سُئل عن أعظم الذنوب ، فقال للسائل : « دعني حتى أنظر في قضيتك ، ثم قال له في الغد : إني لم

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة .

أجد أعظمَ من أكل الربا، لأن الله توعَّد فيه بالمحاربة، وأيُّ شيء أعظمَ من محاربة الله تعالى » اهـ بالمعنى .

وقال الشيخُ سيدي عبدُ الوهاب الشعراني في الطبقات عن بُعْضِ الصالحين: « إن من وقع في أولياء الله ابتلاه الله بانعقاد لسانه » اهـ . وذكر يعني سيدي عبد الوهاب في ترجمة الشيخ سيدي عبد الله الزياتي، أنه كان يقول : « ما رأينا أحدًا قطُّ أنكرَ على الفقراء وأساء بهم الظنَّ إلَّا مات [على] أسوأ حال، ومن احتقر الفقراءَ صار من الأرذال، حتى يُنادى عليه في سوق الهوان » وكان يقول : « مَن غضَّ من وَلِيٍّ لله ضُرب بسهم مسموم، ولم يمت حتى تفسد عقيدتهُ » .

وذَكَر أيضـًا في ترجمة الشيخ العـــارف بالله سيدي علي بنِ وفا أنه قال : « كلما أرضى العارفَ بالله أرضى الله، وكلما أغضبَ العارفَ بالله أغضبَ الله » (١)، وفي الحديث « إن الله يرضى لِرضى عمر، ويغضب لغضبه » (٢) إلى آخر ما ذكره، فراجعه .

فعليك أيها الأخ بالتَّسليم لكل من رأيته منتسبًا لهذه [الطريق]، فإن

---

(١) ينبغي أن يعرف القارئ أن معظم هذه الأقوال غير الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الصحيحة، إنما هي أقوال صدرت عن رجال في القرون المتأخرة، ولذا وجب عرضها على كتاب الله وسنة رسوله كما قال العلماء والمتصوفة أنفسهم، والضابط الذي لا شك فيه أن كلَّ مَن تعرض لإنسان ولو كان كافرًا بظلم فهو آثم، بل كذلك الأمر في الحيوان، فالعبرة بالظلم والوقوع في أعراض الناس أو دمائهم أو أموالهم بغير وجه حق، ويتأكد ذلك في أولياء الله وهم كافة من يدخلون في قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (يونس ٦٢-٦٣) .

(٢) لم أقف عليه، وهناك حديث باطل يتداوله الشيعة : « إن الله ليرضى لرضى فاطمة ويغضب لغضبها »، وقد نسب ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» ١١/ ٤٩٤، ٥١٥ لبعض المتصوفة قولهم: « إن الله يرضى لرضا المشايخ ويغضب بغضبهم » .

التسليمَ لهم أسلمُ ، لكن الاعتقادَ فيهم أغنمُ ، وإياكَ إياكَ أن تُنكر على أحد ببادئ الرأي قبل أن تختبره ، وتتيقن أنه على غير حق . قال الشيخ ابنُ أبي جمرة : « لا تنكر على إنسان ببادئ الرأي ، فربما كان له عذر في ما فعل » ، قال : « ومما وقع لي أني مررتُ على حارس قمح وصبي يفرك سنبلة ، فقلت : هذا حرام عليك يا ولدي ، فقال الصبيُّ : حرام عليك أنت هذا القولُ ، فإنه والله زرعي وحدي من غير شك ، فخجلت من كلامه بين الفقراء » اهـ .

فعليك أيها الأخ بالتَّوادُد لكل منتسب لطريق الله ، فإن كان صادقًا ربحتَ منه الدنيا والآخرة ، وإلَّا فعليه كذبُه ، ولا تظنَّ انقطاعهم ، أعني الأولياء ، فقد ورد في الحديث : « لا تزالُ طائفةٌ من أمتي [ظاهرين] على الحقِّ لا يضرُّهم مَنْ خالفهم إلى يومِ القيامة »(١) ، أو كما قال ﷺ .

وقال الشيخ العـالم العـلَّامة أبو المواهب سيدي محمـد الشَّـاذِلِي ﷺ : « احذروا من قولكم : ذهب الأكابرُ والصادقون من الفقراء ، فإنهم ما ذهبوا حقيقة ، وإنما هم ككَنْزِ صاحب الجدار ، وقد يُعْطِي اللهُ المتأخرَ ما لم يُعْطِ المتقدمَ ، كما أعطى محمدًا ﷺ ما لم يعط الأنبياء قبلًا ، ثم إنه قدَّمه في المدح عليهم ، ويا لله العجب من كثير من الفقهاء في عصرِنا هذا ينكرون على ما أجمعَ عليه الأولياء، ويُصَدِّقون بما وصل إليهم على لسان فقيه واحد، وربما يكون استنادُه في ذلك القول إلى دليل ضعيف ، ما ذاك - والله - إلَّا لغفلة الحِرمان ، ثم إنهم مع إنكارهم إذا حصل لأحدهم مصيبةٌ أو تهمةٌ بباطن يأتي إليهم ، وإلى قبورهم يحملهم الحملة ، ولا يأتي إلى ذلك الفقيه الذي قبل قوله وقدَّمه عليهم ، وإنما كان اللائقُ به العكس، فإياك أن تنكرَ على أصحاب الوقت فتستوفيَ المقت » اهـ.

(١) رواه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان بن بجدد .

قال الشيخُ أبو الحسن الشَّاذِلِي رحمه الله : « من اعترض على أحوال الرجال فلا بد أن يموت من قبل أجله ثلاثة موتات : موتٌ بالذُّلِّ، وموتٌ بالفقر، وموتٌ بالحاجة إلى الناس، مع عدم الرحمة له » اهـ . وقال الشيخ عز الدين بن عبد السَّلام : « مما يدلُّك على صِحَّة مذهبِ الفقراء كثرةُ كراماتهم، وما رأينا أحد من الفقهاء وقع على يديه كرامة إلَّا إن سلك مذهبهم ومنهاجهم، ومن لم يصدق بولايتهم ويؤمن بكرامتهم حرم بركاتهم، وقد شاهدنا كل من أنكر عليهم أيٍّ على الفقراء من غير دخول في طريقتهم يصير على وجهه كآبة وعلامة على الطرد والمقت لا تخفى على ذي بصيرة، ولا ينفع الله تعالى بعلمه، بخلاف أهل الاعتقاد فيهم . وفي الحديث قال ﷺ : « إن لله عبادًا مَنْ نَظَر في أحدهم نظرةً سَعِد سعادةً لا يشقى بعدها أبدًا، وهم الفقراء أهل الاستقامة »(١) اهـ .

وقال أبو المحاسن في بعض أجوبته، لَمَّا ذُكر قول النبي ﷺ للراوي حين سأله عن أفضل الأعمال قال ﷺ : « جلوسك بين يدي وَلِيٍّ ولو قَدر حَلْبِ شاة »(٢)، فقال له يا رسول الله : حيًّا [كان] أو ميتًا، فقال ﷺ : « حيًّا كان أو ميتًا » . وإن كان في هذا بحث فهو مؤسَّسٌ بالنصوص، وقد ذكرهُ الإمام الغزّالي وغيره، وأثبتوه في كتبهم وصَيرُّوه دليلًا »(٣) اهـ .

---

(١) لم أقف عليه مسندًا، وقد ذكره الحسن بن محمد بن المهدي في « البحر المديد » ١/ ٢٧٧ .

(٢) هذه الرواية مذكورة عند الرفاعية حيث يروي بهاء الدين الرفاعي وابن عمه أبو الهدى الصيادي عن الشيخ محمد البجلي أنه قال : « رأيت النبي ﷺ في المنام .. » انظر : « بوارق الحقائق » ص٢٢٣، و« قلادة الجواهر » ص٤٣٠ .

(٣) لقد تسامح أصحاب الرقائق في إيراد الأحاديث الضعيفة منذ القرن الخامس، وتسامح أهل العصبية السياسية قبلهم فنشأت عن ذلك موضوعات في تأييد الفرق والمذاهب، وقد آن الأوان بعد الخدمة العلمية القيمة التي تؤديها التقنية للكشف عن الأحاديث الضعيفة الإسناد أن نستعين بها، وأن يعكف علماؤنا على الأحاديث الضعيفة المتن بعد ذلك .

وفي « بذل المناصحة » ، وفي كتاب « إثمد العينين في مناقب الأخوين أبي عبد الله وأبي يزيد المُزمِيرِيَّين » جاء في الخبر : « أن الرجل يوم القيامةُ يذهَبُ به إلى الجنة على أحسن ما يكون من الأحوال ، ويُذهبُ بالآخَر إلى النار على أقبح ما يكون ، فتقول له الملائكة : هل ترى ذلك الرجل هو وليُّ الله فلان، فيقول: سمعتُ باسمه في دار الدنيا ، فيُبلغُ اللهُ صوته ذلك الوليَّ ، فيقف مكانَه ، فتقول الملائكة : تقدَّم يا وليَّ الله ، فيقول : لا أبرح من مكاني حتى يكون معي من سمع باسمي في دار الدنيا ، فينادي منادٍ : قد وهبناه ، خذ بيده واذهب به إلى الجنة »[1]. ومن « بَذْل المناصحة »[*] قال الشيخ سيدي أحمد زرُّوق ﷺ : « اعلم أن روحَ الإسلام حبُّ الله ، وحبُّ رسوله، وحبُّ الآخرة ، وحبُّ الصالحين من عباده » وعنه ، عن شيخه الحضرمي : « رأى بعضُ الصَّالحين سيدَنا محمد ﷺ في المنام فسأله عن أفضل الأعمال، فقال له عليه الصلاة والسَّلام : وقوفك بين يدي ولي من أولياء الله تعالى قَدْر حلب شاة أو ساعة ، قال : قلت كان حيًّا أو ميتًا ، قال ﷺ : حيًّا كان

(١) لم أقف عليه . يردُّ هذا القول أن أكثر مَنْ في الأرض بعد البعثة سمعوا برسول الله ﷺ فهل يدخلون الجنة بسماعهم به ؟ أم هو أقل درجة من ذلك الولي ؟ إذا أردنا الإسلام الحق فعلينا أن نقي تراثنا وقلوبنا من هذه الأقوال ، ولله الأمر من قبل ومن بعد . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الأعراف ١٩٤) والمسلم حقًّا وليُّه الله القريب المجيب هو أولى بالاستغاثة وأحرى بالاستجابة ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ (الأعراف ١٩٦-١٩٧) فلا أحد أجدر بالدعاء والاستغاثة من الله ، بل إن من يدعو غيره يقع في طائلة النهي والوصف بالظلم الوارد في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (يونس ١٠٦) .

(*) لم يرد هذا الكتاب في قائمة مؤلفات الزرُّوق في كتاب الزرُّوق والزرُّوقية للدكتور علي خشيم (ص٩٣) .

أو ميتًا » [1] .

قال أبو نُعَيْم في الحِلْية : « أفضل ما يعبد به المتعبدون التحبُّبُ إلى أولياء الله تعالى بها يُحِبون ، وأن علامةَ محبة الله محبةُ أوليائه » [2] وعن سيدي عبد الرحمٰن الثعالبي بسنده إلى الإمام الطبراني ، قال : « مات غريبٌ عندنا بمكة فأخرجناه إلى باب المُعلَّا ، وجلسنا لإصلاح دفنه ، فاستوى جالسًا ، قلنا : أليس قد مُتَّ ؟ قال : بلى ؟ ولكن رجعت لأُحدثكم وأُبشرَكم ، أنفع ما عندنا محبة الصالحين وموالاتهم ، ثم رجع ميتًا » اهـ [3] . وفي كلام الشيخ أبي محمد سيدي عبد القادر الجيلاني ﷺ : [كامل]

أنا مِنْ رجالٍ لا يَخـافُ جليسُهم ... رَيْبَ الزمـانِ ولا يَرَى ما يرهبُ

وفي حاشية سيدي أحمد زرُّوق على حزب الشَّاذِلي الكبير بعد ذكر هذا البيت : « وقيل إن لله رجالًا إذا نظروا إلى المرء أكسبوه سعادة » وقد أشار سيدي أبو العباس المرسي لنفسه بذلك ، وشهد له شيخهُ بذلك ، كما يوقف عليه في لطائف المنن . اهـ .

وفي رسالة القشيري ﷺ « سمعت محمد بن حسين يقول ، سمعت عبد الرحمٰن بن محمد الصوفي يقول : سمعت عمي البسطامي يقول : كنَّا قعودًا في مجلس أبي يزيد البسطامي ، فقال : قوموا بنا نستقبل وليًّا من أولياء

(١) قلت : سئل رسول الله ﷺ هذا السـؤال في حياته ، فأجاب غير هذا الجواب ، حيث قال ﷺ : « الصلاة في أوقاتها » ، فهل نترك الجواب الذي قاله في يقظته وحياته إلى الجواب الذي قاله بعد وفاته وفي منام غيره ؟

(٢) قلت : ذاك قول أبي نُعَيْم ، ولرسول الله ﷺ رأي آخر في أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه أو يتعبد به المتعبدون ، هو الفرائض التي فرضها الله عليهم .

(٣) أجل نحب الصالحين والتُّقاة ، ولا يزيدنا هذا الخبر الملفَّق ، ولا ينقص من محبتهم شيئًا . أما أنفع ما عندنا فهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

الله تعالى ، فقمنا معه ، فلمَّا بلغنا الدير ، فإذا إبراهيم بنُ شنتبة الهروي ، فقال له أبو يزيد : وقع في خاطري أن أستقبلك وأشفع لك إلى ربك ، فقال إبراهيم : ولو شفعت في جميع الخلق لم يكن بكثير ، إنما هم قطعة طين ، فتحيَّر أبويزيد من جوابه » وكرامة إبراهيم في استصغار ذلك أتمُّ من كرامة أبي يزيد في ما حصــل له من الفِراسة ، وصدق له من الحــال في باب الشفاعة اهـ .

وجاء في الحديث أن أويس القرني – نفعنا الله به – يشفع في مثل ربيعة ومضر ، وقال ابن حُرضون : اعلم أن التوسل بأولياء الله عموما سببٌ في قضاء الحاجات ونيل الكرامات ، وكذلك التوسُّل بأهل بيت النبي ﷺ لكراماتهم عند الله تعالى اهـ . قلت : فما بالك [1] بمن اجتمع فيهم كلُّ وصف حميد من نحوٍ وفقهٍ وتوحيدٍ وتصوفٍ وولايةٍ ظاهرةٍ كالشيخ الإمام العارف بالله سيدي أبي القاسم الجنيد ، والشيخ الولي الصالح فريد الدين شكركنجي ، والشيخ الإمام معروف الكرْخي ، والشيخ الإمام السري السقطي، والشيخ الإمام ذي النون المصري ، والشيخ الإمام جبلة بنِ حمود، والشيخ الإمام طيفور بن عيسى ، والشيخ الإمام أبي مدين شعيب الأنصاري ، والشيخ أبي إسحاق إبراهيم ابن أدهم ، والشيخ الإمام ممشاد الدِّينَوَري ، والشيخ الإمام سيدي عبد السَّلام بن مْشيش ، وتلميذه سيدي أبي الحسن الشَّاذِلي ، وكذا التوسُّل بسيدي أبي العباس المرسي ، وسيدي تاج الدين بن عطاء الله ، وسيدي شرف الدين بن داوود الباخلي ، وسيدي محمد ابن وفاء القريشي ، وسيدي أحمد البدوي ، وغيرهم ممن يكثر

(١) ألا تفيد عبارة « فما بالك » بتفضيل ما بعدها على ما قبلها ؟ أي أن التوسل بالجنيد ومَنْ بعده أولى من التوسل بمَن قبله بمَن فيهم أهل البيت .

تعدادهم ، ذكرناهم في « الكبير » .

وفي « القواعد » : « يجوز التوسل بالأعمال ، كأصحاب الغار الذين دعا كلٌّ واحد منهم بأفضل عمله ، وبالأشخاص كتوسُّل عمر بالعباس [1] - رضي الله عنهما - في استسقائه ، ولما تكلم عن زيارة المقابر ، قال : كلُّ من يجوز التبرُّك به في حياته يجوز التبرك به بعد موته ، كذا قال الإمام أبو حامد الغزَّالي - رحمه الله - في كتاب « أدب السفر » قال : « ويجوز شدُّ الرحال لهذا الغرض ، ولا يعارضه حديث : لا تُشَدُّ الرحال إلَّا للمساجد الثلاثة ، لتساوي المساجد في الفضل دون الثلاث ، وتفاوت العلماء والصلحاء في الفضل ، فتجوز الرحلة عن الفاضل [إلى] الأفضلِ ، ويُعْرَف ذلك من كراماته ، وعلمه ، وعمله ، سيما من ظهرت كراماتُه بعد موته ، مثلُها في حياته ، كالسَّبتي ، وأكثر منها في حياته كأبي يعزى ممن جُرِّبت إجابةُ الدعاء عند قبره ، وهو غير واحد في أقطار الأرض ، وقد أشار إليه الشافعي - رحمه الله - حيث قال عند قبر موسى الكاظم : « الترياق المجرَّب » ، وكان شيخُنا أبو عبد الله القروي - رحمه الله - يقول : إذا كانت الرحمةُ تَنْزِل عند ذكرهم فما ظنُّهم بمواطن اجتماعهم على ربهم ، ويدوم قدومهم عليه بالخروج من هذه الدار ، وهو يوم وفاتهم ، فزيارتُهم فيه تهنئة ، وتعرُّضٌ لما يتجدد من نفحات الرحمة اهـ . ولله درُّ القائل : [طويل]

زيارةُ أربابِ التُّقَى مرهمٌ يُبْري
ومفتاحُ أبوابِ الهدايةِ والخيرِ

(١) في الأصل : عمر بن العباس .

فتُحْدِثُ في الصَّدرِ الخَلِيِّ إرادةً
وتشرحُ صدرًا ضاقَ من سِمَةِ الوِزرِ

وتَنصرُ مظلومًا وترفعُ خاملًا
وتَكْسِبُ معدومًا وتَجْبُرُ ذا كَسْرِ

عليك بها فالقومُ باحوا بسرِّها
وأَوْصَوا بها يا صاحِ في السِّرِ والجَهرِ

فَزُرْ وتأدَّبْ بعد تصحيح نِيَّةٍ
تأدُّبَ مملوكٍ مع الملكِ الحَبْرِ

ولا فرقَ في أحكامها بين سالكٍ
مربٍّ ومجذوبٍ وحيٍّ وذي قَبْرِ

وحديث « عند ذكر الأولياء والصالحين تنزل الرحمة » ، ذكره أبو حامد في كتاب « العزلة » ، قال العراقي : وليس له أصل في الحديث المرفوع [1] ، وإنما هو قولُ سفيان بن عيينة ، كذا رواه ابن الجوزي في مقدمة « صفوة الصفوة » اهـ . وقد يُعْمَل بهذا الحديث ؛ لأنه مؤيَّد بالنصوص ، فلازِمْ زيارتَهم وذِكْرهم ، ومحبَّتهم ، تُفْتَحْ لك الأبواب ، ويرفع عنك الحجاب ، فإن من شيمهم الفاضلة ، وأخلاقهم الكريمة ، أن يَقْبلوا مَنْ قصدهم ، ولا يُخَيِّبوا مَنْ التجأ إليهم ، ولله درُّ القائل حيث قال : [طويل]

---

(١) هذا مثال آخر للأحاديث التي يسوقها أصحاب الرقائق بلا تثبُّت ، وقد شاع التساهل في الحديث في القرون المتأخرة - كما تقدَّم - ، وآفةُ بعض المتأخرين الثقةُ في كل مكتوب يصلهم ، والعجزُ عن التثبت والتحقيق ، غير أن هذا الموقف لكريم الدين يُحسب له عكس ما سنرى في أحاديث ضعيفة أو موضوعة في مواطن أخرى من الكتاب .

فنحنُ كلابُ الدَّارِ طبعـًا ولم نزلْ
نحبُّ مواليهـا ونحـرسُ بابَهـا
نُسبْتَ لهم إن [كنت][1] أهل عناية
فإنَّ كرامَ العُـرْب تَحْمِي كِلابَهـا
إذا طُـرِدَتْ يومـًا كـلابُ قبيـلةٍ
فقَـوْمي كرامٌ لا تُـهـانُ كِلابُهـا

يُشـير هذا القائل إلى أن الأوليـاء قـومٌ كرام ، لا يُنكَب من أقبـل عليهم ولا يُضام من استند إليهم ، وذَكر شيخُ مشايخنا سيدي أحمد زرُّوق في شرح حزب البحر أنّ بعض شيوخه أَنْشَد في بعض كتبه ما نصُّه : [طويل]

تَعَـرَّضْ لنفْحـاتِ الإلـهِ وبـابهِ
أدِمْ قَرْعَهُ فالبـابُ يُوشِـك يُـفْتَـحُ
وإيَّـاكَ إيَّـاكَ الرياسـةَ إنهـا
هي الداءُ كلُّ الداءِ لِلـدِّين تَجْـرَحُ
تواضـعْ وشمِّرْ والْزَم الزهدَ واصطبرْ
ونفسكَ جاهدْهَا عسى هي تُـفْـلِحُ
أَلَا إنَّ حُـبَّ المـالِ والجـاهِ زينـةٌ
قبيـحٌ بأهـلِ العـلمِ ذلكَ أَقْبَـحُ

---

(١) في الأصل : كانوا .

ولو طـردوني كنتُ عـبدًا لعبـدهم
كبعـضِ كلابٍ في المـزابـلِ يَنْبَـحُ
ولا قَـطُّ أهـلَ الظـلمِ تركنْ إليهمُ
مع القومِ تُحشرْ في [الجحيم و](1) تُطْرَحُ

ولما كانت محبَّتهم - رضي الله عنهم - تضمن(2) له الحشرَ معهم والدخول في زمرتهم (...)(3) .

واعلم أن النصَّ تكاثرَ على جواز التوسل بالأشخاص الذين تُرجى بركاتُهم ، وقد ذكر الشيخُ الإمامُ أبو عبد الله بنُ النعمان في كتـابه المسـمَّى بـ« سفينة النَّجا لأهل الالتجا في كرامات الشيخ أبي النَّجا » في أثناء كلامه كذلك ما هذا لفظُه : « على تحقُّق ذوي (4) البصائر والاعتبارات زيارة قبور الصالحين ، والتشفُّع بهم ، معمـولٌ عليه عند علمائنا المحقِّقين من أئمة الدين اهـ . » فمن أراد حاجته فليتوسَّل بهم إلى الله ، فإنهم الواسطةُ بين الله تعالى وبين خلقه ، وليُقدِّم على ذلك التوسُّلَ بالنبي ﷺ كما قال أبو عبد الله ابن الحاج في « المدخل » : « وزيارتُهم في الحقيقة مواصلة للنبي ﷺ كذا التوسل بهم يَكمُل لك حالك وتحْصُل آمالُك » ، وفي بعض أجوبة الشيخ أبي المحاسن ﷺ : « المعروفُ عند المحققين وأرباب القلوب من العلماء والأوليـاء المبتدئين ولا مخـالف في ذلك ، أنَّ زيارة العلماء والأوليـاء ﷺ

---

(1) في الأصل : وليس في النار تحشر ، وهو تصرفٌ من المؤلف ، سببه أن لفظ القوم مصطلح خاص بالمتصوفة .وليس ذلك مراد الشاعر ، بل أراد بلام العهد أقرب المذكورين ، وهم أهل الظلم فناسب معنى البيت الثاني مراده هذا دون حاجة إلى التعديل الذي أخَلَّ بالوزن والمعنى .
(2) في الأصل : تضمن .
(3) حذف من الأصل .
(4) في الأصل : ذووا .

مُواصَلَةٌ له ﷺ، إذ كلُّ ذلك خيرٌ وبركة، وكيف لا وسائر العلماء والأولياء ﷺ صُوَر تفصيله ﷺ وخلفاؤه ومظاهرُ تعييناته ؟ فما منهم إلَّا وهو سائحٌ في نوره، ومستمِدٌّ من بحوره، على حسب مقامه، فهو الجامعُ لما افترق، والرسولُ على الإطلاق، فلا زائرَ ولا مزورَ إلَّا له، ومنه ﷺ، فجميعُ الأولياء بل وجميع الأنبياء منسوبون إليه، ومستمِدُّون [1] منه، فلا ترى على التحقيق كرامةً، ولا رايةً، ولا خرق عادة إلَّا وهي له ﷺ اهـ».

واعلم أن الفقيهَ لا يخلص من النفس اللوَّامة حتى يدخلَ طريقة الفقراء، فإذا دخلها امتلأ قلبه بالإيمان والصدق والتصديق والمحبة والأدب. قال الشيخ العارف بالله سيدي عبدُ الوهاب الشعراني - نفع الله به - في «الرسالة القدسية»: «واعلم أنه لا ينبغي لأحد أن يعترض [2] على أحد في ما هو منسوبٌ إلى الحق ﷻ ورسوله، كمن يعترض على الزائرين للأولياء والصلحاء»، ويرى ذلك نصيحة، وكمن يعترض على الذَّاكرين الله كثيرًا والمسبِّحين، والتالين لكلام الله تعالى، والمصلِّين على رسول الله ﷺ وأصحاب الأوراد؛ لأن الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق.

الطريقُ الذي يظنُّ المعترِضُ أنَّها لا تُوصِّلُ إلى الله تعالى بحسب ما عنده توصِّلُ إليه، «ولكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجًا» و «كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له» وإنما ذكرتُ ذلك ونبَّهتُك عليه لأنه يقع لطلبة العلم كثيرًا الاعتراضُ على الذاكرين، ويقولون: الاشتغال بالعلم أفضلُ. لا يتأملون المراد من العلم ماذا، ويخرجون من بات ذاكرًا ليلة القدر إلى الصباح ولا يتحرك أحد منهم، ولا قال (لا إله إلَّا الله) ولا قال: اللهم اغفر لي. وأيُّ

(١) في الأصل: ومستندون منه.
(٢) في الأصل: يعترض، تحريف.

غرور فوق هذا ، ولا يَسُود الخلق عند الله إلَّا بالعمل ، وكيف يُقاس مَنْ يَعْلم في الناحية الفلانية بحرًا بمَن يغترف منه ليلاً ونهارًا ، ويَسْقِي الناس .

وقد نبَّهتُ شخصًا للذكر ليلةَ القدر ، وكانت ليلة جمعة ، فرفع رأسه واضطجع ونام ، وقال نوم العالِم أفضل من عبادة الجاهل ، فيا ليته سكتَ ، وكل علم لا يُزاد العبدُ به هدى لم يَزْدَدْ به من الله إلَّا بُعدًا ، وكلُّ علم لا يُزهدك في الدنيا ، ويُرغِّبك في الآخرة ، لا تزداد في التبحُّر فيه إلَّا قساوة ، ودعوى ، وتكبُّرًا ، أو ازدراء للخلق ، حتى تظنَّ أنَّ الخلقَ هالكون إلَّا أنت ، وإذا لم تكنْ تعملُ بالعلم فانظر نفسَك بعين الاحتقار والتقصير ، فإن الأمر يحِقُّ إن شاء الله تعالى ، فافهم ذلك .

وقد استُفتيَ شخصٌ بحضْرتي عن جماعة يتلون القرآن جهرًا إلى الصباح هل يحرم ذلك ؟ فقال : نعم بنص القرآن ؛ لأن الله – تعالى – جعل الليلَ سكنًا ، وهؤلاء لم يجعلوه سكنًا اهـ . وما للسَّائل إلَّا العجب (١) . واستُفتي شخصٌ آخرَ عن جماعة يذكرون الله تعالى ويُصلُّون على النبي ﷺ قال : هذا شأنُ البطَّالين الذين لا مُروءة لهم ولا هِمَّة ، وهو من البِدع ، وذِكْرُ الله – تعالى – ورسوله يكفي العبدَ مرَّة في العمر اهـ . فانظر هذه الأجوبة وما فيها من الجفاء والظُّلْمة وقِلَّة الأدب مع الله ورسوله ، لا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم .

ولنرجع إلى الكلام على فقراء الفواتير الذين هم نسبة الشيخ ، فأقولُ : ومما يؤيدُ ما ذُكر من أنَّ العزل والولاية للفواتير ، من ذلك حكايةُ ولاية علي بن تلِّيس ، وعزله على أيديهم ، وهي مشهورة ، وذلك أن عليَّ بن تلِّيس كان في شبيته قبل ولايته قاعدًا في ملأٍ من الناس ، وعليه إزار جيد جديد ،

(١) في الأصل : الصحيب .

فمرَّ بهم رجل من الفواتير عليه لباسٌ خَلِقٌ جدًا في يوم صر ، فلما رآه قام إليه وأخذ بيده حتى وصل إلى مِحِلِّه ، ونزع إزارَه وألبسه إياه ، وأُلبس هو إزارًا آخر ، فلما جاء الفيتوري لمحِلِّه افتكَّتْ الإزارَ منه زوجتُه وأعطته إزارًا خَلِقًا كان عليها ، ليس لها غيرُه ، فبينما علي بنُ تلِّيس ذات يوم إذ رأى ذلك الرجل الذي كان ألبسه الإزار في إزار خَلِق كالأول ، وليس الإزارَ الذي كساهُ إياه عليه ، فقام له وقال له لِمَ لَمْ تلبسِ الإزار الذي أعطيتك ؟ فأعاد له خبرَه فمشى به إلى مِحِلِّه وأعطاه الإزار الذي عليه ، ولبس غيره ثالثًا ، فلما لبسه الفيتوري رفع بصرَه إلى السماء وبسط كفيه نحوها وقال : [زجل]

كسا شخصْ محقورْ زولَهْ ما هُــــو مــدوّرْ مطامعْ

يا ربْ تَـعْـطِـيـهْ دُولـهْ ينـال الـشـنَـا والمسامـعْ

فاستجاب الله دعاءه حتى أُعطي لعلي بن تليس من الولاية التي ما صارت لأحد في جميع قرى طرابلس ، يؤدون إليه الخراج ، ومكثَ كذلك ما شاء الله ببركة الفقراء الفواتير ، ثم لما أراد الله إدحاضَ حجتِه ، سلَّطه عليهم ، فنزل عليهم مطالبًا [إيَّاهم][1] من خراج الطعام ، فجعل الناسُ يأتون إليه بالطعام ويضعونه حتى صار ربوة كالتل ، فبينما هو جالس حذاءه يومًا إذ جاء فيتوري بطعام في غرارة على حماره ووضعه ، فقال لا أقبله منك حتى تصعده على أعلى عَرْمَةِ[2] الطعام ، وهو رجل كبير ضعيف ألزمه ذلك ، فجعل يجرها وحده ، وهو وجماعة ينظرون إليه ، مازحين عليه مما ناله من مشقة ذلك ، فلم يزل يعاندها حتى أوصلها إلى رأس العَرْمَة وفرَّغها ، ثم تَنَهَّد ووقف رافعًا بصره إلى السماء يقول : [زجل]

(١) في الأصل : عليهم له .

(٢) العَرْمَة بفتحتين بينهما سكون : الكُدْس من الحبوب .

أَبلداه غـدتْ للهفْ ... ما يتــولى من يا وي

يا قادر هـدّ المصرِّفْ ... يا هـداد العيســاوي

فسلَّط اللهُ على ذلك الطعام ريحًا عظيمًا فرَّقته في الأرض حبة حبة ، وأوصلتْ بعْضَه إلى البحر ، ومن ذلك اليوم أخذ أمره في الدحوض حتى أذهبَه الله ، وأذلَّه وأذلَّ قبيلتَه إلى الآن [1] .

واعلم أنَّ هذه القبيلة الفيتورية التي هي نسبة الشيخ [يقال] فيهم : النبيليون الحسنيون - كما صرح به كتاب النسب المشهور وغيره - ، وقد شاعت بذلك الأخبار ، واستفاضت الآثار ، على ألسنة أهل العدل وغيرهم .

وأما نسبه من جهة أمّه، فهو عبد السَّلام ابنُ السيدة سليمةِ الشهيرة بعِيّادة، ابنة الشيخ الفقيه الإمام العالم العلامة الوليِّ الصالح المكاشَف سيدي عبد الرحمٰن الدرعي بنِ عبد الواحد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن علي ابن سعد بن محمد ابن أبي عبد الله ابن الشيخ الكبير الشهير العالم العلَّامة الولي الصالح المربي سيدي عبد السَّلام بن مْشيش نفعنا به آمين ، شريف الطرفين كما رأيتُه في كتب النسب المُجمَع عليها ، وكما رأيته في سلسلة متعددة أتانا بها سيدي علي بنُ عبد الرحمٰن الدرعي خال الشيخ ، وذلك في زمان زيارتنا لدرعة وأوليائها .

(١) هذه دعوة المظلوم التي ليس بينها وبين الله حجاب ، كما يقول الصادق عليه الصلاة والسَّلام ، وفي الأولى دعوة الفقير إلى المحسن ، والاستجابة فيهما من فضل الله ، ولو علل المؤلف الحادثتين بذلك لأثلج صدر رسول الله ﷺ وأثلج صدر الشيخ الأسمر ﷺ ، فلا يرضيهما أن تكون الاستجابة في مثل هاتين الحالتين من خصائص قبيلة بعينها ، وقد ضيق بذلك واسعًا ، فمن للمظلومين خارج نطاق هذه البلدة ، وخارج زمانها . والله المستعان . ولا ينفي ذلك أبدًا فضل آل الشيخ ، ولا آل البيت ، لأنهم يحرصون على انتشار قيم الخير التي يعرف بها الإسلام بغض النظر عن زمانها ومكانها وفاعلها . والله المستعان على إدراك المغزى .

وكانت تلك السلسلةُ مبتداها من أبيه سيدي عبد الرحمٰن إلى سيدي عبد السَّلام بن مْشيش ، وكما رأيتُه في عقود كثيرة عند المغاربة والمشارقة ، ونص ذلك : « الحمد الله وصلى الله على سيدِنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا : عبد السَّلام بن مْشيش ابن أبي بكر بن رواح بن عيسى بن أبي القاسم بن ميوران بن وحيدة بن علي بن عبد العزيز بن إدريس الأصغر ابن إدريس الأكبر بن عبد الله بن محمد بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي [بنُ] فاطمة رضي الله عنهما ، وفاطمة ابنة رسول الله ﷺ وكرم ومجَّد » ، فإن قلت : إن الشرف لا يثبُت إلَّا من جهة الأب ، وقد يسقط من جهة الأم ، قلنا المتصل به عليه الصلاة والسَّلام من جهة الأم كالمتصل به من جهة الأب ، ولم ينتفِ شرفُه - كما صرح بذلك جماعة من العلماء - ، ويؤيد إثبات ذلك ما ورد عنه عليه الصلاة والسَّلام : « أن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلَّا سببي ونسبي، كل قوم عصبتَهم إلى أبيهم إلَّا أولاد فاطمة فإنِّي عصبتُهم ، وأنا أبوهم »(1) . فعُلم أنَّ قصده كل من له عليه ولادةٌ من جهة أب أو ذي رحم .

وقد صنَّف الناسُ في ذلك تصانيفَ عتيدةً ، رأيناها وليس ذلك في الوراثة ؛ لأن الأنبياءَ عليهم السَّلام لا يرثون ولا يُورِّثون ، ويؤيد ذلك قولُ عمر بن الخطاب ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كلُّ سبب ونسب منقطعٌ يوم القيامة إلَّا سببي ونسبي » فأحببتُ أن يكونَ بيني وبين رسول الله ﷺ سبب أو نسب من قِبَل أب أو أم » اهـ .

وقد سُئل بعضُ المشايخ العارفين في مسألة بما نصه : الحمد لله وحده ، ساداتي - رضي الله عنكم - جوابكم على مسألة مَنْ يقول إن مَنْ أمُّه شريفة

(1) لم أقف عليه .

شريف ، هل ذلك خاصٌ به أو له ولعقبهِ ؟ فإن قيل بالأول فما وجهُه ؟ وإن قيل بالثاني فمَنْ قال به ؟ وهل يُعَول عليه فيحرُم في حقهم ما يحرُم في حق من أبوه شريفٌ ، على القول بأنَّ حُرمتَه كحُرمتِه ؟ جوابكم شافيًا ، ولكم الأجرُ من الله تعالى والسَّلام . فأجاب ﷺ وأرضاه وجعل الجنَّة منزله ومأواه : الحمد لله ، الجواب والله الموفق للصواب ، أي [في] مسألة ثبوتِ الشَّرَفِ من قِبَل الأمِّ اختلف فيها التونسيون والبجائيون ، فألَّف رئيس الأولين في نفيه ، وهو القاضي أبو إسحاق بن عبد الرفيع ، وألَّف في الرد عليه رئيس الآخرين ، وهو القاضي أبو علي ناصر الدين المشذالي ، وتبعه الإمام ابن مرزوق وسيدي سعيد العقباني ، وغيرهما من أكابر التِّلْمِسانيين ، وجزموا بثبوته ، وقال أبو عبد الله الشريف : يثْبُت له شرف الرحم لا شرف النسب . وملخصُ كلامهم إن المثبتين استدلوا على ثبوته بقولهم كل مَنْ أمُّه شريفة فهو من قرابة النبي ﷺ ، فهو شريف . يُنتج كلُّ مَنْ أمُّه شريفة فهو شريف .

بيان الصغرى من أوجه :

أحدها : أنَّ الشرفَ منه ﷺ إنما يثبُت للحسن ونحوه بفاطمة وهي أم ، فمِثلُها كلُّ أم شريفة ، وبالجملة فأصل الشرف إنما تفرَّع من السِّبْطَيْن ، وهما إنما يثبُت لهما من قِبَل الأمِّ ، فكذلك كل مَنْ كانت أمُّه شريفةً يثبُت [له] ذلك .

ثانيها : مَنْ كانت أمُّه شريفةً فهو من الذرِّيَّة ، وكلُّ مَنْ هو من الذرِّيَّة فهو من الأقارِبِ ، أما أنه من الذرِّيَّة فلقوله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ ﴾ (الأنعام ٨٤) إلى قوله : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ (الأنعام ٨٥)

فجعل عيسى من ذرِّيَّة إبراهيم أو نوح على اختلاف القولين في مرجع الضمير في ذرِّيَّتِهِ ، مع أنه لا ينتسب لكل منهما إلَّا بأمّه ، فكذلك يقال فيمن كانت أمُّه شريفةً أنه من ذرِّيَّة النبي ﷺ . واستدلالُ يحيى بنِ يعمر والشعبي قديم ، وسلَّمه الحجَّاج بعد الوعيد الشديد ، وذلك أنه سمع يحيى يقول في الحسن أنه من ذرِّيَّة النبي ﷺ ، فظنه منافيًا لقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (الأحزاب ٤٠) ، فقال [الحجَّاج][1] : إن لم تأتِ بدليل قطعتُ رأسك ، فقرأ عليه الآية فسكت ، ثم ولَّاه قضاء بلده .

ولهذا حكى ابنُ العطَّار ، والمتِيطي ، وابنُ شاس ، وابنُ الحاج ، وأتباعهُم الاتفاقَ على دخول ولد البنت في قوله (وقف على ذرِّيَّتي) وإن كان ابنُ رشد حكى فيه خلافًا ، فلا أقل من مشهورية ما حكى الاتفاق عليه ، على أنه لا يلزمُ من خروجِه عن استحقاق الوقفِ خروجُه من الذرِّيَّة مطلقًا ، لاحتمال أن يكونَ بيانُ القول - لفظ الذرِّيَّة - تُخصَّصُ عُرفًا بمَن يرِثُ ويُورث ، ولا تلزمُ مَنْ تخصص عُرفًا بما ذكر تخصصه شرعًا به ، أو لاحتمال أن يكون صاحبُ القول احتاط فأجرى الوقفَ مجرى الميراث ، وكما أن ولد الاستحقاق له في الميراث ، فكذا الاستحقاق له في الوقف ، فلا يلزم من هذا خروجُه عن الذرِّيَّة وعن حكمها مطلقًا .

ثالثها : ولدُ البنت ذكرًا كان أو أنثى بينه وبين جدَّته أو جدِّه تحريمُ النِّكاح ، لقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ (النساء ٢٣) فإنه يُدخلُ فيه بنتَ البنت إجماعًا وليس التحريمُ لصهرٍ أو رضاعٍ أو لعانٍ ونحوها فتعين أنه للقرابة ، فيكون ولدُ البنتِ من القرابة .

(١) في الأصل : يحيى .

رابعها : ابن الخالة من القرابة لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ (النور ٢٢) ، نزلت في مسطح بن أُثاثة[1] ، وهو ابن خالة أبي بكر – رضي الله عنهما – ، فوصفه بالقرابة ، وإذا كان ابنُ الخالة من القرابة فابنُ الخال كذلك بالمساواة أو بالأَوْلى .

خامسها : ولدُ البنت ابنٌ بالكتاب والسُّنَّة ، وكلُّ ابنٍ فهو من القرابة ، أما أنه ابنٌ فلقوله تعالى ﴿ وَبَنَاتُكُم ﴾ فإنه يشملُ بنت البنت – كما سبق – ، ولِمَا رواه البخاري [من] قوله عليه الصلاة والسَّلام في الحسن ﷺ : « إن ابني هذا سيد ، ولعل الله يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[2] ، و[روى] الترمذي عن ابن عمر ﷺ وقد سأله العراقي عن دم الباعوض ، انظروا إلى هذا يسألُ عن دم الباعوض وقد قتل ابن رسول الله ﷺ ، وروى الترمذي أيضًا عن سعد ابن أبي وقاص ﷺ لما نزل قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ﴾ (آل عمران ٦١) فجمع النبيُّ ﷺ حسنًا وحسينًا وفاطمة وعليًّا ﷺ وذهب للمباهلة ، وقال: « اللهم هؤلاء » ، وفي رواية غير هذه فاحتضن ﷺ حسينًا وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي يمشي خلفها ، فلما رأى ذلك نصارى نجران قالوا : « يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك » .

سادسها : أنَّ ولد البنت من الأهل ، وكل من كان من الأهل فهو من القَرابة ، أما أنه من الأهل فلِما رواه[3] عن عائشة رضي الله عنها أنه – عليه

(١) مسطح بن أثاثة بن عباد من الصحابة ، ترجمته في الإصابة ت ٧٩٣٧ ، وأسد الغابة ٤/ ٣٥٤ ، ونسب قريش ٩٥ .

(٢) رواه البخاري (٢٧٠٤) من حديث أبي بكرة .

(٣) يعني الترمذي .

الصلاة والسَّلام - خرج غداةً وعليه مُرط مرجَّل من شعر أسود، فجاء الحسن بنُ علي فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم جاءت فاطمةُ فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: «إنما يريد الله ليذهبَ عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا»[1] وفي رواية الترمذي عن ابن أبي سلمة[2] ربيب النبي ﷺ: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» في بيت أمِّ سلمة فدعا النبي ﷺ بفاطمة وحسنًا وحسينًا فحلَّاهم بكِساء، وعليٌّ خلف ظهره، فقال: هؤلاء أهل بيتي فأذهبْ عنهم الرجس، وطهِّرهم تطهيرًا. وقالت أمُّ سلمة: وأنا معهم يا رسول الله، بل نبي الله، فقال: أنتِ على مكانك [وأنتِ إلى خير][3].

سابعها: أن ابنَ البنتِ ولدٌ، وكل ولد فهو من القرابة، أما أنه ولد فلِمَا روى الترمذيُّ عن أبي بُريدة أنه قال: «كان النبي ﷺ يخطُب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمضيان ويعثران، فنزل النبي ﷺ من المِنبر فحملَهما وجعلَهما بين يديه، وقال: «إنما أموالُكم وأولادُكم فتنة، نظرتُ إلى هذين الصبيَّين يمشيان ويعثُران فلَم أصبرْ حتى قطعتُ حديثي ورفعتُهما»[4]، ووجه الدليل فيه ظاهر.

قلت لا يلزمُ من خروجه من استحقاق الوقف[5] خروجُه عن القرابة

---

(١) رواه مسلم (٢٤٢٤).

(٢) في الأصل: ابن مسلمة، تحريف.

(٣) رواه الترمذي (٣٢٠٥) وقال: حديث غريب من هذا الوجه.

(٤) رواه أبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤) وقال: حسن غريب، والنسائي ٣/ ١٠٨، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وصححه ابن خزيمة ٢/ ٣٥٥، وابن حبان ١٣/ ٤٠٢، والحاكم ١/ ٤٢٤.

(٥) قلت: وفي الوقف الذي تُحرم فيه الأنثى من الميراث الذي فرضه الله لها نظر، ليس هنا محله، ولا يحتاج شرف الحسن والحسين وأمها فاطمة الزهراء إلى الأحاديث الضعيفة في إثباته، =

فإن استحقاقَ الوقف كاستحقاق الإرث قد ينتفي ، ولا تنتفي القرابةُ ولا إرث لها ، بل ومولاتنا فاطمة عليها السَّلام منها نشأ الشَّرَفُ ، وكل خير ، ومع ذلك فلا إرث لها ، لقوله عليه الصلاة والسَّلام : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ... »[1] وبهذا يتبين خطأ مَنْ قال إن الشَّرَف تابعُ الإرثِ .

وأما الجوابُ عن السيدة فاطمة عليها السَّلام أن الإرث ثابت لها ، لكن منع منه مانعٌ ، فليس بصحيح ؛ لأن المانعَ إما أن يكون عقليًا وهو باطل ، إذ لا مجال للعقل في الأحكام ، أو شرعيًا وليس بصحيح ، إذ ليس بشيء من الموانع المعروفة التي هي الشكُّ وما ذكر معه ، فإن زِيدَ هذا زِدنا أيضًا كون الوارث ولدَ بنتٍ ، والتفرقةُ تَحكُّم .

ثامنها : نصُّ أشهب على أنه إذا قال : « وقف على أقاربي » دخل فيه كلُّ ذي رحم محـرم من قبل الرجال والنساء ، ومن جملة ذلك ولدُ البنت ، فهو من الأقارب .

تاسعها : ابنُ البنتِ قريبٌ لها ، وهي قريبةٌ لأبيها ، فينتج ابن البنت قريب لأبي أمّه ؛ لأن قريبَ القريبِ قريبٌ . وأيضًا هو بضعة من أمّه وهي بضعة من أبيها .

عاشرها : ابنُ البنتِ حفيدٌ ، وكل حفيد فهو من القرابة ، والمقدِّمتان ظاهرتان ، أو تقولُ : جد الأم أب لأبيها[2] ، والأب قريب والقرابة نسبة لا

= فشرفهما محل إجماع الأمة سنتها وشيعتها ، وعليهما يسلِّم المسلم في كل تشهد ، ولكن بعضهم يريد أن يخصهما بالشرف دون أمهات المؤمنين ، وإنما نزلت آية الأحزاب فيهن ، مع تضمين آل بيت الإمام علي والزهراء بالإجماع ، فلا معنى للآثار المفرقة بين الفريقين ، والله أعلم .

(١) رواه النسائي في «الكبرى» ٤/ ٦٤ من حديث عمر بن الخطاب، وقال ابن حجر في «التلخيص الحبير» ٣/ ٢١٨ : إسناده على شرط مسلم .

(٢) في الأصل : لابنها ، وخطأه ظاهر .

تُعقل إلَّا بين اثنين، فيكون الابنُ قريبًا، أما أنَّه أبٌ فلِما نقلَه اللَّخْميُّ وغيرُه من شُرَّاح المذهب في بابِ القذف. بأن الرجلَ إذا نسب أحدًا لجده لأم أو لأب فإنه لا شيء عليه، قال اللَّخْميُّ وغيرُه: لأنَّ الجدَّ للأم أبٌ، قال ابنُ القاسم: فلا شيء عليه، وإن كان في المشاتمة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (النساء ٢٢)، ولا يجوزُ لأحد أن يتزوَّجَ زوجةَ جدِّه لأبٍ أو لأمٍّ.

حادي عشرها: الجنينُ خُلِقَتْ أعضاؤُه من مَنِيِّ أبيه، ولحمُه من دمِ أمِّه، فخِلقتُه من جهة أمِّه أكثر، فإذا جاز انتسابُه إلى أبيه من جهة أبيه كان انتسابُه إلى أبي أمّه أحرى، ولهذا قال بعضُ العلماء: إن للأمِّ ثلثي البر، ويدل عليه قولُ النبي ﷺ لما قال له الرجل: « يا رسول الله مَنْ [أَوْلى] النَّاسِ بحُسْن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم مَنْ؟ قال: أمك. قال: ثم مَنْ؟ قال: أمك. قال: ثم مَنْ؟ قال: أبوك »[1]. ورُوِي أنه قال ذلك في الأُم ثلاثًا، فعلى الرواية الأُولى لها ثلث البر، وعلى الثانية ثلاثة أرباعه، والرواية الأُولى أكثرُ وأشهرُ، قاله المشذالي ... ثم قال: وهذا [يُعتقد][2] أنه سهلٌ وليس بسهل، كما بينَّاه في تقييده على هذه المسألة قبل هذا.

ثاني عشرها: الولدُ مشتقٌّ [من ا]لولادة، وإضافتُها إلى الأمِّ حقيقةٌ، وإضافتُها للأب باعتبار التسبُّب مجازٌ، فإذا جاز نسبةُ الولد لأبيه كانت نسبتُه للأمِّ أحرى.

هذا ملخص ما أطال به الإمامُ ابن مرزوق، وناصرُ الدين المشذالي، ووافق على هذا القول البجائيون والتِّلِمسانيون، منذ أجاب عن المسألة

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة. والذي في المصادر: أحق.
(٢) في الأصل: يفتقر.

سيدي سعيد العقباني ﷺ ، وقال : لا فرق في الشرف من قِبَل الأم أو من قِبَل الأب . وأجاب الفقيه أبو علي منصور بن الزواوي بمثل ذلك ، وأنه يجب لشرف الأم ما يجب لشرف الأب ، ويمتنع عليه ما يمنع في جميع أحواله ، وأجاب سيدي عبد الله بنُ عبد الله الشريف التِّلْمِساني بمثل ذلك، وأجاب سيدي سعيد العُقباني أيضًا بأن الشَّرف يثبُت لولد الشريفة ، ولذُرِّيَّته .

وأجاب الفقيه اليحصُبي بأنه (١) يثبُت له ولذُرِّيَّته ، كما يثبُت لأمِّه ، وأجاب الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن منصور بأنه يثبُت له ، وممن ذهبَ إلى هذا القولِ الشيخُ العارف بالله أبو عبد الله سيدي محمدٌ السَّنُوسي ، على ما نقله عنه تلميذه المالكي في « المواهِب القدسية » .

وخالف في ذلك التونسيون ، ورئيسُهم أبو إسحاق بن عبد الرفيع ، وذلك أنه سُئل أوَّلًا عن المسألة قبل أن يخوض فيها أحدٌ ، فأجاب بأنه لا يثبُت له شرف، واستدل بقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب ٥) ، وقال تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ (النساء ١١) ، وأجمع المسلمون على أن أولاد البنات لا يدخلون في الآية ، وإن لم يكن هذا لأولاد فاطمة الذين تفرَّع منهم الشرفُ، فأَحْرى أن لا يكون لأولاد بنات أولادها، وقد كان لها - رضي اللهُ عنها - بنتٌ من علي بن أبي طالب ﷺ ، يُقال لها أمُّ كلثوم ، تزوَّجها عمر بن الخطاب ﷺ ، وولد منها زيدًا الأكبر ، ورُقية ، ولم يكن لأحد من أولادها شرف ، ونريد به الشرفَ الذي ينسب إليه الشرف اليوم ، وكذلك أمامةُ بنت زينب بنت رسول الله ﷺ لم يكن لأحد من أولادها شرفٌ ، وقد عُلم أنَّ ولدَ البنت ليس من الورثة ، ولا من العَصَبة ،

(١) في الأصل : فإنه .

ولا من عاقلة آل أمّه، إذا لم تكن مشاركةً في النسب، وقد روى ابنُ القاسم عن مالك: « ولدُ البنت ليس من أهل الرَّجل »، وقد قال ابن القاسم في موضع آخر: « ولدُ بنت الرجل ليس من قرابته » اهـ كلامه ﷺ، فسُئل عنه المشذالي هل هو صحيح أم لا؟ فأجاب بعدمِ الصحَّةِ.

وتكفَّل بعضُ طلبته ببيان ذلك وهو الفقيه أبو علي الحسن بنُ عبدِ الرحمٰن، فقال: ما استدل به من قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب ٥)، لا دليل فيه على نفي النِّسبة إلى الأم؛ لأن ﴿ ٱدْعُوهُم ﴾ إن كان معناه نادوهم بأسماء آبائهم فهو أمرٌ بندائهم باسم الأب، ومقابلُه لا يُنادون باسم الأم، وليس فيه ما يدل على أنهم لا يُنسبون إلى أمهاتهم، على أنا لا نسلم أن مقابله ما ذُكر، بل مقابلُه لا تُنادوهم باسم غير أبيهم، وهو الأب المتبنِّي، وإن كان معناه انسبُوهم إلى آبائهم بلا دلالة فيه على ما ذُكر؛ لأن مقابلَه لا تنسبُوهم إلى أمهاتِهم، فإن النِّسبة إلى الأم لا تنافي النسبة إلى الأب، ولو سلم أن هذا مقابله بدلالة الآية عليه إنما هو بمفهومِ اللقب، وليس بحجَّة عند الجمهور، سلمنا أنه حُجَّةٌ، لكن قد عارضَه هنا ما هو قطعي، وهو كون الابن من الأم قطعًا، والمفهومُ لا يكون حُجَّة إذا عارضَهُ ما هو قطعيٌّ.

وكذلك لا دليل في قوله: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ﴾ (النساء ١١)، فإنَّ الشَّرفَ لا يتْبعُ الإرثَ، وإلَّا لَزِمَ انتِفاءُ الشَّرف عن الحسن والحسين – عليهما السَّلام – وكذلك لا دليل في [قوله عن] أولاد أم كلثوم وأولاد أمامة، إن أراد بالشرف الذي لا يثبت لهما مُجرَّد إطلاق مادة الشين والفاء والراء، فهذا ليس كلامنا فيه، إنما كلامُنا في المعاني، وإن أراد بالشرف معناه المتعارف [عليه] اليوم، فهذا لا نُسلِّم انتفاءَه في ذلك الزمان عن الأولاد

المذكورين [1]، وكذلك لا دليلَ في قوله : إنَّ ولد البنت ليس من الذرِّيَّة ، ولا من العصَبة ، ولا من العاقلة ، فإنه لا يَلزَمُ من انتفاءِ هذه الأنسابِ انتفاءُ الشَّرفِ ، وإلَّا لزِمه انتفاءُ الشَّرفِ عن الحسن والحسين - عليهما السَّلام - وما نقل عن مالك من أنَّ ولدَ البنتِ ليس من أهلِ الرجل إنما قاله لعُرف طرأ ، وذلك عن ابن القاسم ملخصًا .

ثم بعد ذلك تكلم المشذالي في كلام أبي إسحاق فلم يغادر من كلام تلميذه شيئًا ، وزاد عليه زيادات منها : قوله في أولاد أم كلثوم ﷺ : « لا يثبُتُ لهم شرفٌ » ، مخالفٌ لقصد عمر ﷺ ، فإنه نقل عنه أنه إنما تزوجها لتكونَ له منها بركةٌ ، وإنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « كلُّ سببٍ ونسبٍ وصهرٍ ينقطعُ يوم القيامة إلَّا سببي ونسبي وصهري »[2] . فقال عمر ﷺ حصل لي السببُ والنسبُ فأردت أن يحصل لي الصهرُ ، ورُوي عنه ﷺ « أردتُ أن يكونَ لي منها ولدٌ يكون النسب به متصلاً » ، ورُوي أنه لما مات عمرُ عن أم كلثوم تزوَّجها بعده محمد بنُ جعفر ، ثم مات عنها فتزوَّجها بعده أخوه عون بن جعفر ، ثم ماتت ولم يكن له منها ولد ، ولَمَّا ماتت مات زيد معها في يوم واحد .

وماتت رُقية بعد ذلك ولم تَتْرُكْ عقبًا ، فظهر أن عقب عمر ﷺ انقطَعَ من أمِّ كلثوم - رضي الله عنها - ، وقيل : إنه لم يُولد لعمر منها أصلاً .

---

(١) إذا أثبت لهم شرف الانتساب فلا مشاحة في الشرف العام الثابت لكل مؤمن تقي ، بل لكل إنسان مستقيم .

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه» [ت. الأعظمي] ١/ ١٧٢، ١٧٣ (٥٢٠)، وابن سعد في «طبقاته» ٨/ ٤٦٣، والبزار في «مسنده» ١/ ٣٩٧، والطبراني ٣/ ٤٤، وصححه الحاكم ٣/ ١٥٣، وقال الذهبي في «التلخيص»: منقطع، وصححه الألباني بمجموع طرقه في «الصحيحة» (٢٠٣٩) .

والأولُ الصحيح ، وكذلك أمامة لا عقب لها اهـ .

ثم إنَّ قول أبي إسحاق بن عبد الرفيع اختاره ابن عبد السَّلام ، قال ابن عرفة سمعته يُشنِّع جدًا على مَنْ يقول : إن ولد البنت شريف ، ويقول : إنه مخالف للإجماع ، على أنَّ نسب الولد لأبيه لا لأمّه .

[قال] ابن عرفة : وقاله بعضُ مَنْ لقيت من الفاسيين ، وقال : يلزم من أثبتَه أن لو تزوَّج يهوديٌّ أو نصرانيٌّ بعد عقده وإسلامه شريفةً فوُلد له ولدٌ لكان ولدُه شريفًا ، ولا يقوله مُنصِفٌ أو مسلم بلا شك . [قال] ابن عرفة : وألَّف الفريقان في المسألة نفيًا وإثباتًا ، وكان بعضُ مَنْ ينتسب للشَّرفِ من قِبَل أمِّه يُشنِّع على مَنْ نفاه ، ويقول : هؤلاء منعوا أن يقول الرجلُ « أنا حفيد رسول الله ﷺ ». [قال] ابنُ عرفة : ولا شك أن لفظ الشريف أشهرُ بالأبوة ، فعليها يُعتمد، فذهب هو أيضًا إلى ما ذهب إليه أبو إسحاق .

وقال الإمامُ الأبرُّ الشريفُ الأظهرُ سيدي عبد الله الشريف التِّلْمِساني ما معناه : « تنازع في هذه المسألةِ التونسيون والبجائيون ، ولم يتحرَّر من كلامهم معنى الشريف الذي توارد عليه النفيُ والإثباتُ ، إلَّا أنَّ المفهومَ من كلام أبي إسحاق : الشَّرفُ بمعنى النَّسبُ ، والمفهومُ من كلام أبي علي ناصر الدين : الشَّرفُ بمعنى الفضيلة والرِّفعة ، بدليل قوله : إن الله شرَّفَ العربَ على سائر القبائل ، ثم قُريشًا على سائر العرب ، ثم بني هاشم على سائر قريش ، فهو كحديث واثِلة بن الأسْقَع عنه ﷺ أنَّ اللهَ اصطفى من ولد إسماعيل كِنانة ، واصطفى من كِنانة قُريشًا ، واصطفى من قُريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم ، وإذا تحقَّقَ شرفُ النبي ﷺ على سائر العالمين فمَنْ انتسبَ إليه شرُف. وأيُّ شَرَفٍ أوجُهُ النِّسبة إليه ثلاثةٌ : نسبٌ،

وهو أقواها ، ورحمٌ ، وهو يليه ، وصهرٌ ، وهو آخرها . وذلك أن شرفَ الصِّهر لا يتوارثُ مثل عمر الذي صاهرَ النبيَّ ﷺ بحفصة - رضي الله تعالى عنها - له شرفٌ بذلك عظيم لكن لا يُورَّثُ عنه ، بخلاف شرف النَّسبِ والرحمِ فإنهما يُورَّثان .

واشتركتْ هذه الثلاثةُ في كونها لا تنقطِعُ إلى يوم القيامة ، أما النسبُ والصهرُ فلقوله في الحديث : « كل نسبٍ وصهرٍ ينقطعُ يوم القيامة إلَّا نسبي وصهري » وأما الرحم فلقوله في حديث مسلم لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء ٢١٤) جمع ﷺ قريشًا فعمَّ وخصَّ، فقال : « يا بني كعب ، يا بني مُرَّة بن كعب ، يا بني عبدِ شمس ، يا بني عبدِ مناف ، يا بني هاشم ، يا بني عبد المطَّلِب ، أنقذوا أنفسَكم من النار ، يا فاطمة أنقذي نفسَكِ من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا ، غير إنَّ لكم رحِمًا سأبلُّها ببلالها (أي سأصِلها) »(١) . شبَّه صلةَ الرحم بالبلِّ ، لأن البلَّ يسوغ (٢) معه اتصالُ الأشياءِ ، فكأنَّ الرَّحِمَ أي صلتها سريعةَ الحصولِ ، ومثله قوله في الحديث الآخر « بلُّوا أرحامَكم (أي صِلوها) »(٣) فقولُه : « لا أملكُ لكم من الله شيئًا » خرجَ مُخْرَجَ التَّخْويفِ والإنذارِ من عذاب يوم القيامة ، وقوله: « غير أن لكم رحِمًا » ، خرجَ مَخْرَجَ الاستثناءِ ، بمعنى أني لا أملك لكُم شيئًا من الله إلَّا صِلة الرحِمِ ، والمستثنى يُتخذ من المستثنى منه في الزمان ، فيلزمُ أنْ تكونَ صلةُ الرحِمِ لهم واقعةً في عَرَصَات القيامةِ .

(١) رواه مسلم (٢٠٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) في الأصل : يسوع .

(٣) رواه هناد في «الزهد» ٢/ ٢٤٢، وابن حبان في «الثقات» ٤/ ٣٢٣، والبيهقي في «الشعب» ٦/ ٢٢٦ عن سويد بن عامر الأنصاري، قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص٢٣٩: روي من طرق بعضها يقوي بعضًا، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٧٧٧) .

إذا تحرَّر هذا فالشَّرفُ الذي وقع فيه النِّزاعُ لا ينبغي أن يكونَ بمعنى الفضيلةِ والرِّفْعةِ ، إذ أبو إسحاق لا يُنكِرُ أنَّ لولدِ الشَّريفة فضيلةً ورِفْعةً ، ولا يسعُه أن يُسوِّيه مع عمومِ الناس ، وكذا لا ينبغي أن يكونَ بمعنى شرف الرحِمِ ، فإنَّ أبا إسحاق لا يسعُه أنْ يُنكِرَ ذلك في ولدِ الشَّريفة ، فإنَّ له رحِمًا موصولة بالنبي ﷺ في الدنيا والآخرة ، وتورَّث عن ولد الشريفة إلى انقراض الدنيا ، ما دام التناسل .

وإنما ينبغي أن يكونَ التنازعُ في شرفِ النَّسَب بمعنى أنَّ ولدَ الشريف هل يقالُ : محمديُّ النسب أو لا يقال فيه ذلك ؟ فمَنْ قال : إنَّ النِّسبةَ إلى النبي ﷺ صحيحةٌ فيقال فيه ذلك ، كما يقال فيمَن أبوه شريف ، وإليه ذهب البجائيون ، فمَنْ قال : إن النسب لا يكونُ إلَّا للآباء فالنِّسبة المذكورة لا تصِحُّ ، كما لا يقال في رجلٍ تميميٍّ أمُّه قُرشية إنه قُرشي ، وفي رجل هاشمي أمُّه زهرية : إنه زهريٌّ ، وهذا الذي مال إليه أبو إسحاق هو الصحيحُ ، إذ منشأ الخلاف هل ابنُ البنتِ يدخل في ولد المرء أم لا ؟ فتُقاسُ المسألةُ حينئذ على بابِ الحسبِ . والذي ذهبَ إليه مالكٌ وجماهيرُ أصحابِه عدمُ الدخول .

ثم نقل كلامَ المدونةِ ومذهبَ [ابن] عبد البر القائلِ بالدُّخولِ ، وتوجيه ابنِ رشد لمذهبِ الإمام مالك ، وتكلَّم معه في ذلك وأطال جدًا ، إلى أن قال : وقد اختلفوا في ولدِ البنتِ هل يُسمَّى ولدًا بطريقِ الحقيقةِ اللُّغويةِ ؟ وإليه ذهبَ ابنُ رشد والسُّهيلي واللَّخْمي ؟ أو مجازًا لغويًا ؟ وإليه ذهب القصَّارُ والقَرَافي وغيرُ واحدٍ . قال اللَّخْمي : تحرُم امرأة الجد للأم ، والجد للأب لاندراجِهما في لفظ الآباء، كما تندرجُ جداتُ امرأتِه وجداتُ أمِّها من قِبَل أبيها ، وأمُّها في قوله تعالى : ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾ (النساء ٢٣)

وبنتُ الزَّوجةِ وبنتُ ابنهـا ، وكل مَنْ يُنسَبُ بالبنـوة ، في قوله تعالى : ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ﴾ (النساء ٢٣) اهـ .

قال السيد الشريف : فلولا أنه حقيقةٌ عنده في الجميع لزِم عليها استعمالُ اللَّفظِ في حقيقتِه (١) ومجازِه ، اللهم إلَّا أنْ يكونَ ذلك مذهبُ اللَّخْمي ، وأما القَرَافي فقال : إن هذه الاندراجاتِ ليست بمقتضى الوضع اللُّغوي ، ولذلك صرَّح في كتاب الله العزيز بالثُّلُثِ للأُمِّ ، ولَمْ يُعطِه الصَّحابةُ للجدَّة ، بل حرموها، حتى رُوي حديث السُّدُس بالسُّنَّة لا بالكتاب . وابنُ الابن كالابن في الحَجْبِ ، والجدُّ ليس كالابن في الحَجْبِ ، والإخوة يحجُبون الأمَّ ، وبنوها لا يحجبونها ، فعُلِم من ذلك الأبُ حقيقةً في الأبِ القريبِ ، مجازًا في البعيد .

ولفظ الابن حقيقةٌ في القريب مجازٌ في أبنائه ، فإن دلَّ اجتماعٌ على اعتبارِ المجازِ اعتُبِر ، وإلَّا أُلغي حتى يدلَّ دليلٌ عليه ، وينبغي أن يعتقد أنَّ هذه الاندراجاتِ في تحريم المصاهرة بالإجماع لا بالنص ، وأنَ الاستدلالَ بالنص متعذرٌ ، وأنَّ الفقيهَ الذي يعتقدُ ذلك ويستدلُّ باللفظِ غالط ، وهذا كلامُ القرافي، وهو الأظهرُ ، والله أعلم .

قال السيد الشريف : إن الولدَ لا يُطلقُ حقيقة إلَّا على ولدِ الصُّلب ، كما في الحديثِ من قوله ﷺ : « إن ابني هذا سيد » ، وقولُ ابنِ عمر للعراقي: « قتلتَ ابنَ رسول الله ﷺ وتسألُ عن دم البعوضِ » ، وقولُ الصحابةِ للحسن « هو ابنُ رسول الله ﷺ » ، فهو مجازٌ لوجهين :

أحدهما : تبادرَ غيرُه وهو ولدُ الصُّلبِ لولا القرينةُ ، وهو مِنْ علاماتِ المجاز .

(١) في الأصل : في حقيقة .

وثانيها: أنَّ الرجلَ كثيرًا ما يقولُ لصبيٍّ أجنبيٍّ يا بني، وكذا يُقال في آية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ (آل عمران ٦١)، وكذا في الحديث الذي تلا فيه النبيُّ ﷺ «إنما أموالكم وأولادكم فتنة»(١) حينها الحسن والحسين يمشيان ويعثُران.

وأما استدلالُ يحيى بن يعمُر بآية: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ (الأنعام ٨٤)، فيُجابُ عنه بأمور: أحدها: أنه لا يلزمُ من كونه من ذرِّيَّة قومه [كونه] من الولد، فإنَّ بعضَ أصحابِنا فرَّقَ بينهما في الوقف، وقال بدخولِ ولدِ البنتِ في الذرِّيَّة دون الولد. وثانيها: على تقدير تساويهما، أيِّ الذرِّيَّة والولدِ، فلا نُسَلِّم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ (الأنعام ٨٥) عَطَفَ على ما هو من الذُّرِّيَّة، بل على قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ (الأنعام ٨٤) أي وهدينا زكريَّاء ومَنْ معه في العَطْفِ، ويُؤيِّده أمران، أحدهما: أنَّ لوطًا ليس من الذُّرِّيَّة، والثاني: أنَّ إسماعيلَ ولدٌ صلبٌ لإبراهيم، فلو كان العطفُ على الذرِّيَّة لقدَّمَه. وثالثُها: على تقدير تسليم العطف على الذرِّيَّة، فلا يلزم دخولُ عيسى قطعًا في الذرِّيَّة، ولم يجزْ أن يكونَ ذكرَهُ معهُم على سبيلِ التغليبِ قطعًا، ورابعُها: على تقدير كون عيسى من الذرِّيَّة حقيقة، فلا نُسلمُ صحَّةَ قياسِ غيرِهِ عليه مع وجودِ الفارقِ، وهو أنَّ عيسى ابنٌ لا أبَ له، فنُسب إلى عصبة أمِّه، وكانت أمُّه قامَتْ(٢) مقامَ الأبوين، ويشيرُ إليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ (آل عمران ٣٦) أي اللهُ يعلمُ أنَّ هذه الأنثى ليس لها حكمُ الإناث، هذا معنى

---

(١) رواه أبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤) وقال: حسن غريب، والنسائي ٣/ ١٠٨، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وصححه ابن خزيمة ٢/ ٣٥٥، وابن حبان ١٣/ ٤٠٢، والحاكم ١/ ٤٢٤.

(٢) في الأصل: أقامت.

كلامُ السيد الشريف ، ولا يخفى على الفَطِنِ ما فيه ، فإنَّه إذا كانت بُنوَّة [1] السِّبطين مجازيةً ، وأنهما كأولادِ الشَّريفةِ الموجودَيْنِ اليوم ، لزِم ارتفاعُ شَرَفِ النَّسبِ قَطعًا عنهما ، كما ذهبَ إليه في ولدِ الشريفة ، والوجهُ الأوَّلُ يجابُ عنه بأنَّ الفرْقَ بين الذرِّيَّةِ والولدِ إنما هو لعُرْفٍ طارئٍ ، فيُعتبر في خصوصيَّةِ استحقاقِ الوقْفِ لا مُطلقًا .

وكذا قولُه : وما ذُكِرَ بعده (عطفًا على نوح) لا يُسَلَّم ، فإنَّه أيَّدَه بأنَّ لوطًا ليس من الذرِّيَّة ، وهو مبنيٌّ على عَوْدِ الضمير في قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ على إبراهيم ، والصحيحُ كما قال ابنُ الجوزي : كان تقديمه في العَطْف ، وهو مبنيٌّ أيضًا على عَوْد الضمير على إبراهيم ، وهو خلافُ الصحيح ، ولو سُلِّم عَوْدُه على إبراهيم فلا يتم ما ذكرَه إلَّا لو ذكرَ لوطًا وإسماعيلَ مع زكريَّاء ويحيى وعيسى بلا فصل بينها ، حيث وقع الفصلُ ، فإما أن تقول : إسماعيلُ وما ذُكر بعده عطف على (نوحًا وزكريا) ، ومَنْ عُطِفَ معه عُطِفَ على داوُد ، وكذا ما ادَّعاه من التغليبِ ، فلا يتمُّ لوجهين : أحدهما أنَّ التغليبَ مجازٌ ، لا يصار إليه إلَّا إذا تعذَّرَتْ الحقيقةُ في عيسى كتعذُّرِها في لوط . وثانيهما أنَّه مبنيٌّ على عَوْد الضمير على إبراهيم ، وهو خلافُ الصحيح ، وكذا ما ذكره من الفارقِ بين مريم وغيرِها لا يتمُّ ، فإنَّ فاطمةَ - عليها السَّلام - ليسَتْ كسائرِ الإناثِ والبناتِ ، فإنَّ النبيَّ أنزلها منزلتَه ، وقال : إنها بضعةٌ منِّي . قال العلماءُ : هو حُكمٌ خاصٌّ بها لا يشاركُها فيه غيرُها من أخواتها ، ولهذا قالوا : من سبَّها فقد سبَّهُ عليه الصلاة والسَّلام ، ومن صلى عليها فقد صلى عليه ﷺ .

كما قويَتْ جهةُ أمومة مريم - عليها السَّلام - لعيسى عليه السلام ، بعدمِ

---

(١) في الأصل : بنوا .

وجودِ الأب ، كذلك قويَتْ جهةُ أمومةِ فاطمة - عليها السَّلام - للسِّبطين الشريفين ، بِجعْلِ النبي ﷺ إياهما بِضعةً منه ، على أنه ورد ما أخص مِنْ هذا كلِّه ، وهو أنَّ النبي ﷺ أَنْزَلَ السِّبطين منزلةَ ولدِه لصُلْبِه ، وقال : « إنَّ لكلِّ نبيٍّ جعلَ اللهُ أولادَه من صُلبِه ، وجعلَ أولادي من صُلبِ عليٍّ »(١) كما تأتي به الأحاديث المتضافرة .

ولذلك لمَّا رأى السيدُ الشريف ﷺ أنَّ تلك الأوجُهَ التي ذكرها في الآية متكفِّلةٌ بالكلام الذي جاء به عن الأحاديث رجع عن ذلك ، فعوَّل على الخصوصيَّةِ الثانيةِ للسِّبطين ، وأنَّ النبيَّ ﷺ أنزلهُما منزلةَ ولدِه لصُلْبِه ، أي فلا يُقاسُ عليهما ولدُ الشَّريفة ، فتكون الأوجُهُ المتقدمةُ التي استدلَّ بها مَنْ أثبَتَ الشَّرفَ لولدِ البنتِ ضعيفةً ؛ لأنها مبنيَّة على إطلاقِ الابن الذكر(٢) عليه مجازًا ، وعلى قياسه أي ولد البنت على السِّبطين مع وجودِ الفارق ومَنْ تتبَّعها رأى ذلك فيها عيانًا .

قلت : وهذا الذي أشارَ إليه ذهبَ إليه الحافظُ السيوطي في « العجاجة الزَّرنبية في السُّلالة الزيْنبية » ، وسيأتي كلامُه - إن شاء الله - واستدل بها في بعض الروايات ، لكنَّ مَنْ تتبَّع الأحاديثَ التي أطال بها السيِّدُ السمهودي ﷺ في جوابهم « العِقْدين في فضل الشريفين شرفِ العلم الجليِّ والنسب العلي » عَلِمَ أن ذلك لا يُختَصُّ بالسِّبطين ، بل يشاركهما فيه أولاد فاطمة كلهم ، كأم كلثوم ، وزينب ، ولو قُدِّر أولادٌ آخرون لدخلوا في ذلك .

وعلى القولين ؛ فهل الخصوصيةُ خاصَّةٌ بالطبقة الأولى فقط ؟ وعليه

(١) رواه الطبراني ٣/ ٤٣ من حديث جابر بن عبد الله، وضعفه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» ١/ ٢١٤، والهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩/ ١٧٢، والألباني في «الضعيفة» (٨٠١) .

(٢) في الأصل : الولد ، وهو غير صحيح لأن الولد يشمل الذكر والأنثى وهو غير مراد هنا .

فلا يكونُ ابن الشَّريفةِ شريفًا ، أو ثبتَتْ حتَّى للطبقة الثانية ، وهلُمَّ جرًّا إلى انقطاع التناسُل ، فعليه يكون ابنُ الشَّريفةِ شريفًا قطعًا ، وشرفه من حيث النسبُ والرحم ، لا من حيث الرحمُ فقط ؟ وفي بعض الأحاديث ما يؤيدُ هذا القولَ ، وقصَّةُ عُمرَ في تزوُّجه لأمِّ كلثوم صريحةٌ ، ولنذكرَ الأحاديثَ الواردة في تزوجِ عُمرَ لأمِّ كلثوم ، وفي الخصوصية المذكورة ، فإنَّ في تلك الأحاديث كشفَ القِناع عن المسألة ، فنقول : قال السيد السمهودي - نفعنا الله به - عن أبي سعيد الخذري ﷺ ، قال : سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول : « ما بالُ رجال يقولون : رَحِمْ رسولِ الله ﷺ لا تنفعُ قومَه يومَ القيامة ، بل والله إنَّ رحمي موصولة في الدنيا والآخرة »[1] أخرجه أحمد والبيهقي والحاكم ، وعن أم هانئ - رضي الله عنها - أنها خرجتْ ذاتَ يوم متبرجةً ، قد بدا بعضُها ، فقال لها عُمرُ : اعلمي أنَّ محمدًا لا يُغني عَنْكِ مِنَ الله شيئًا ، فجاءت إلى النبي ﷺ فأخبرتْه ، فقال النبيُّ ﷺ : « ما بالُ أقوام يزعمون أنَّ شفاعتي لا تنالُ أهلَ بيتي ، وإنَّ شفاعتي تنالُ صدًّا وحكمًا (قبيلتين من قبائل اليمن) »[2] أخرجه الطبراني .

وعن ابن عباس ﷺ ، قال: تُوُفِّيَ ابنٌ لصفية فبكتْ، فقال لها النبي ﷺ: « تبكين يا عمَّتي إنَّه مَنْ تُوُفِّيَ له ولدٌ في الإسلام يُبنَى له بيتٌ في الجنَّة »[3] ، فلمَّا خرجتْ لقيها رجلٌ فقال لها : « إنَّ قرابةَ محمدٍ لنْ تُغني عنَّا من الله شيئًا » ، فبكتْ ، فسمِع رسولُ الله ﷺ صَوْتَها ففزعَ وخرجَ ، وكان ﷺ

(١) رواه أحمد ٣/ ١٨ و٣٩، وأبو يعلى في مسنده ٢/ ٤٣٣، وصححه الحاكم ٣/ ٨٤، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد بن عقيل وقد وثق .

(٢) «المعجم الكبير» ٢٤/ ٤٣٤ من حديث عبد الرحمٰن بن أبي رافع ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩/ ٢١١: مرسل ورجاله ثقات .

(٣) قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٥٣ : رواه البزار، وفيه إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل وهو متروك .

مُكْرِمًا لها يَبَرُّها ويُحِبُّها، فقال لها : « يا عمَّتي تَبكين وقد قلتُ لك ما قلت »، فقالت : « ليس ذلك أبكاني » ، وأخبرته بما قال الرجلُ ، فغضِب النبي ﷺ وقال : « يا بلال اجهرْ بالصلاة » ثم قام النبي ﷺ فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال : « ما بالُ أقوامٍ يزعمون أنَّ قرابتي لا تنفعُ ، كلُّ سببٍ ونسبٍ ينقطعُ يومَ القيامةِ إلَّا سببي ونسبي وأنَّ رحمي موصولةٌ في الدُّنيا والآخرة »[1] .

قال عمرُ : فتزوَّجت أمّ كلثوم لِمَا سمِعت مِنَ النبي ﷺ يومئذ ، وأحببتُ أن يكونَ بيني وبينه نسب وسبب . أورده المحِبُّ الطبري في الذخائر بغير سندٍ ، ولا عزوٍ ، وأخرجه البزار بسند ضعيف ، مع زيادات فيه كثيرةٌ ، انظرها في السمهودي، وعن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل سبب ونسب ينقطعُ يوم القيامة إلَّا سببي ونسبي ، وكلُّ ولدِ أمٍّ فإنَّ عصبتَهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وعصبتُهم » ، أخرجه أبو صالح المؤذن في أربعيناته ، وأبو محمد عبد العزيز بن الأخضر من طريق شَريك القاضي ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة ، من طريق بشر بن مهران : حدثنا شَريك به ولفظه : « أنَّ عمرَ خطب إلى عليٍّ أمَّ كلثوم فاعتلَّ عليٌّ بِصِغَرِها ، فقال عمر : وإني لم أُرِد الباءة ولكنيَّ سمعتُ النبي ﷺ يقول : « كلُّ سببٍ ونسبٍ ينقطعُ يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي ، وكلُّ ولد أبٍ فعَصَبتُهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وعصبتُهم » ، وأخرجه ابن إسحاق بمثله ، وقال فيه فاعتل عليٌّ بِصِغَرِها وبأنه أعدَّها لولد أخيه جعفر ، فأجابه عمر بالسبق .

---

(١) لم أقف عليه ، بل ورد عكس معناه في صحيح البخاري ، كتاب « المناقب » حديث رقم ٣٥٦٧ قوله ﷺ : « يا أمَّ الزبير بن العوام عمة رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد اشتريا أنفسكما من الله ، لا أملك لكما من الله شيئًا ، سلاني من مالي ما شئتما » .

وفيه « كل بَني أنثى فعَصبتُهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة ، فإني أنا أبوهم وعَصبتُهم »[1] ، وأخرجه الطبراني في الكبير من طريق بِشْر بن مَهْران، واقتصر فيه على قوله « كل بني أنثى فعَصبتُهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة » ، ورجاله موثقون ، وشَرِيك اسْتَشْهَد به البخاري، وروى له مسلمٌ في المتابعات ، وأخرجه الدَّارقُطني من طريق بشر مقتصرًا فيه على ما ذُكر ، وأخرجه الدَّارقُطني مرة أخرى من طريق عمر بن عامر التمار ، حدثنا شَريك به على وجه أخص من الذي قَبله ، ولفظُه : « كل بني أنثى عَصبتُهم لأبيهم ما خلا بني فاطمة فأنا عَصبتُهم » وأخرجه أيضًا الدَّارقُطني والطبراني في الأوسط ، والكل بدون (كل ...[2] إلخ) كلاهما من طريق الحسن بن سهل الحنَّاط ، عن ابن عيينة ، عن جعفر ابن محمد ، عن أبيه محمد الباقر ، عن جابر بن عبد الله ، سمع عمر يقول للنَّاس لمَّا تزوَّج أمَّ كلثوم بنتَ علي : ألا تهنئوني سمعتُ النبي ﷺ يقول : « كلُّ سببٍ ونسبٍ ينقطع يوم القيامة إلَّا سببي ونسبي » .

قال الطبراني : لم يجوِّده عن ابن عيينة إلَّا الحسنُ بنُ سهل الحنَّاط ، وقد رواه غيرُه عن ابن عيينة ، فلم يذكروا جابرًا ، وأخرجه البيهقي من طريق وهب بن خالد ، عن جعفر بن محمد ، عن عمر بذكره ، وأخرجه أيضًا عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده زينُ العابدين بن علي ، وقال الدَّارقُطني : « قرئ على أبي الحسن بن محمد بن يحيى ، وأنا أسمع ، حدَّث[3] جدك يحيى ابن الحسن بن أبي جعفر بن عبيد الله بن الحسن الأصغر ابن زين العابدين ،

---

(١) المعجم الكبير ٣/ ٤٤، وقال الهيثمي في المجمع ٤/ ٢٦١: فيه بشر بن مهران وهو متروك. ووافقه الألباني في الضعيفة (٨٠٢) .

(٢) عبارة غير واضحة في الأصل .

(٣) في الأصل : حدثك .

حـدثني أبو الحسن بن جعفر، حدثني إبراهيم بن محمد بن جعفر ﷺ قال « لقي عمر عليًّا ﷺ فقال يا أبا الحسن : أنكِحني ابنتَك أمَّ كلثوم بنتَ رسول الله ﷺ . فقال علي: قد حبستهن لأولاد أخي جعفر. فقال عمر ﷺ: إنه والله ما على وجه الأرض امرؤ يرصُد من حُسْن صحبتها ما أرصدُه ، فانكحْني يا أبا الحسن . قال : فأنكحَهُ . قال : فعاد عمر إلى مجلسِه بين القبر والمنبر حيث يجلس المهاجرون والأنصار ، فقال : رفئوني ، فقـالوا : بمَ يا أمير المؤمنين ؟ فقـال : إني تزوجتُ أمَّ كلثوم ، وإني سمعتُ النبي ﷺ يقـول : « كلُّ صهر وسبب ونسب منقطع يوم القيـامة إلَّا صهري وسببي ونسبي »[١] وإني كانت لي صحبةٌ فأحببتُ أن يكونَ لي معها نسبٌ » .

قال السيد الشريف السمهودي [٢] ﷺ : فهذا حديثٌ في تزويج عمرَ لأمِّ كلثوم وردَ بسندٍ رجالُه أهلُ البيت ، فكيف يُنكرُ تزوُّجَه لها مَنْ وُجد من الأشراف اليوم ، وما ذلك إلَّا من عدم مخالطتِهم مع العلم ، مع ما يُلقيه إليهم أهلُ الضلال ممَّن يُظهر المحبَّةَ لهُم والتَّشيُّع ، مع أنَّ تزوُّجَ عمرَ لها مما لا يرتابُ فيه مَنْ له مخالطةٌ بالعلمِ أدنى مخالطة ، وقد أخرج الدَّارقُطني عن أبي حنيفةَ الإمام ﷺ قال: « قدمتُ المدينة فأتيتُ أبا جعفر محمد الباقر فجلستُ ، فقال : يا أخا العرب لا تجلِس إلينا فإنكم قد نُهيتم عن الجلوس إلينا ، قال : فجلسْتُ إليه ، فقلت : أصلحَكَ اللهُ ، ما تقولُ في أبي بكر ، وعمر - رضي الله عنهما - ، قال : رحِمَ الله أبا بكر وعمر ، إنهم يقولون عندنا في العراق إنَّك تتبرأُ منهما ، قال : معاذَ الله ، كذبوا وربِّ الكعبة ، أو

(١) لم أقف عليه .

(٢) لعله علي بن عبد الله بن أحمد الحسني ، مؤرخ المدينة المنورة وفقيهها ، المولود بسمهود بصعيد مصر ، من كتبه « وفاء الوفا بأخبار المصطفى » ، انظر ترجمته في «الضوء اللامع» ٥/ ٢٤٥ ، و«النور السافر» ، و«أعلام الزركلي» ٥/ ١٢٢ .

ليس أنَّ علي بن أبي طالب زوَّج ابنتَه أمَّ كلثوم من عمر بن الخطاب ؟ وهل تدري مَنْ هي لا أُمَّ لك ؟ جدتُها خديجةُ سيدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ ، وجَدُّها رسولُ الله ﷺ خاتمُ النبيين ، وسيدُ المرسلين ، ورسولُ رب العالمين ، وأخواها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وأمُّها فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ ، وأبوها علي بن أبي طالب ذو المنقبة والشرف في الإسلام ، فلو لم يكن عُمَرُ لها أهلاً لا أبا لك ما زوَّجها إياه .

قلتُ : لو كتبتَ إليهم وكذَّبتهم فيما يروُون عنك ، قال : لا يطيعوني بالكتاب ، هذا أنت قد قلتُ لك عيانًا لا تجلس إليَّ فعَصيْتني ، فكيف يطيعون بالكتاب ؟ وقد أخرج البيهقي أيضًا حديث عمر من طريق ابن أبي مُليكة ، عن الحسن بن الحسن ، عن أبيه ﷺ عن النبي ﷺ ، الحديث .

وفيه « [أ]حببتُ أن يكونَ لي من رسول الله ﷺ سبب ونسب » ، فقال علي لحسن وحسين - رضي الله عنهما - : « زوِّجا عمتكما » قالا : هي امرأةٌ تختارُ لنفسِها ، فقام علي ﷺ فغضِبَ ، فأمسكَ الحسن ﷺ بثوبِه ، وقال : لا صبرَ لنا على هُجرانك يا أبتاه ، فزوَّجاه .

وأخرجه الحافظ ابن السكن في صحاحه من هذا الوجه أيضًا ، وأخرجه الفقيه أبو الحسن بنُ المعازل في المناقب من طريق عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ﷺ ، قال : سمعت عاصم بن عبد الله ، قال : سمعت عبد الله بن عمر قال : صعد عمر بن الخطاب ﷺ المنبر فقال : « أيها الناس إنه والله ما حملني على إلحاحي على علي بن أبي طالب في ابنته ، إلَّا أني سمعت النبي ﷺ يقول : الحديث » ، وأخرجه أيضًا من حديث الليث بنِ سعد عن موسى بن علي ابن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر الجهني ، قال : « خطب عمر إلى علي ابنته من فاطمة ، وأكثر تردده إليه

فقال علي : يا أمير المؤمنين ما عندي إلَّا صغيرة ، فقال عمر : ما يحملُني على كثرة ترددي إليك إلَّا أني سمعت النبيُّ ﷺ ، فذكر الحديث » ، فقام عليٌّ فأمرَ بابنتِه فزُيِّنَتْ ، وبعث بها إلى عمر ، فلمَّا رآها قام إليها فأَجْلَسَها في حِجْره ، وقبَّلها ودعا لها ، فلمَّا قامتْ أخذَ بساقها ، وقال لها قولي لأبيكِ : رضيتُ ، قد رضيت ، فلمَّا رجعتْ إلى أبيها عليٌّ أخبرتْه بما فعل عمر وما قال لها ، فعند ذلك زوَّجها عليٌّ له ، فولدت زيدَ بنَ عُمر ، وعاش إلى أن صار رجلاً ، ثم مات . قال السيد السمهودي ﷺ : وتقبيلُ عمر ﷺ إيَّاها ، وإجلاسُه لها من باب الإكرام ، وهو مما يُكرَمُ به الصغيرُ ، ولولا أنها صغيرةٌ ما بعث بها أبوها على تلك الحالة إلى عمر .

وأخرجه ابنُ السمان بمعناه ، ولفظه : بأنَّ عمر قال لعلي : إنِّي أحبُّ أنْ يكونَ عندي عضوٌ من أعضاءِ النبي ﷺ . فقال له علي : ما عندي إلَّا أمُّ كلثوم وهي صغيرة ، فقال عمرُ : إن تَعِشْ تَكْبُرْ ، فذكَر الحديث . وفيه أن عليًّا استشارَ الحسن والحسين – عليهما السَّلام – وأنهما أجاباه إلى ذلك .

وعن فاطمةَ بنتِ الحسـين ، عن جـدَّتها فاطمة الكبرى – عليها السَّلام – ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « كلُّ بني أمٍّ ينتمون إلى عصَبة أبيهم إلَّا ولد فاطمة فأنا وليُّهم وعصَبتُهم »(١) أخرجه الطبراني في الكبير ، من طريق عثمان ابن أبي شَيْبة ، عن جرير هو ابن عبد الحميد ، عن شَيْبة بن نعامة ، عن فاطمة بنت الحسين . وكذا أخرجه أبو يعلىٰ من هذا الطريق ، ولفظه : « كل بني أم عصبة ينتمون إليها إلَّا ولدي فاطمة فأنا وليُّها

(١) رواه أبو يعلى في مسنده ١٢/١٠٩، والطبراني ٣/ ٤٤، وضعفه الهيثمي في المجمع٩/٩٩، ووافقه الألباني في الضعيفة (٤٣٢٤).

وعصبتهما » ، وكذا أخرجه الحافظ عبد العزيز بن الأخضر في « معالم العِترة النبوية » إلّا أنه قال : إلّا ابنتي فاطمة ، إلّا أن عثمان ابن أبي شَيْبَة لم يتفردْ به ، فأخرجه من طريق ابنِ العوَّام ، هو محمد ابنُ أحمد بنِ أبي يزيد بن العوَّام ، قال : حدثنا أبي ، قال : حدثنا جرير بن عبد الحميد به ، ولفظه : « وكلُّ بني أمٍّ ينتمون إلى عصَبتُهم إلّا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وعصَبتُهم » .

وكذا أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه من هذا الطريق بهذا اللفظ ، ومن طريق حسين الأشقر عن جرير بنحوه وابن أبي شَيْبَة ، وإن كان ضعيفًا، ورواية فاطمة الصغرى عن جدَّتِها فاطمة الكبرى ، وإن كانت مرسلة ، ولكن الحديث يتقوى بما سبق في أوائل حديث عمر ، « وكلُّ ولد أمٍّ فإن عَصَبتَهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وعصبتهم » ويتقوّى بما روي عن علي ﷺ ، قال : طلبني النبيُّ ﷺ فوجدني في حائط فضربني برجله ، وقال : « قُم فوالله لأُرْضِينَّك ، أنت أخي وأبو ولدي ، تُقاتل على سُنَّتي ، مَنْ مات على عهدِك فقد قضى نحبه ، ومَنْ مات يحِبُّك بعد موتك فله من الإيمان ما طلعتْ شمسٌ وغربَتْ »[1] ، قال المحِبُّ الطبري : أخرجه أحمد في المناقب ، قال السيد السَّمْهودي : وأخرجه أيضًا أبو يعلى بسند الأصبهاني ، وهو ضعيف ، ولفظه « طلبني رسول الله ﷺ في جَدْولٍ نائمًا ، فقال : قُمْ فوالله ما ألوم الناس يسمونك أبا تراب ، فرآني وجدتُ في نفسي من ذلك ، فقال : قُمْ ، فوالله لأُرْضِينَّك ، أنت أخي وأبو ولدي ، تقاتل على سنتي ، وتُبْرِئ ذِمَّتي ، مَنْ مات على عهدي فهو في كنفِ

(١) لم أقف عليه .

الله ، ومَنْ مات على عهدك ... الحديث »[1] .

وأخرج أحمدُ حديثَ علي وجعفر وزيد بنِ حارثة ، وقولُ كلٍّ واحد منهم : أنه أحبُّ إلى النبي ﷺ من غيره ، وأنهم سألوا النبي ﷺ عن ذلك فقال : « أما أنت يا علي فأنت ختني ، وأبو ولدي ، وأنا منك وأنت مني ... الحديث »[2] . وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ جعلَ ذرِّيَّةَ كلِّ نبيٍّ في صُلْبه ، وجعلَ ذرِّيَّتي في صُلبِ هذا » ، يعني علي بن أبي طالب ﷺ [3] ، ووردت أحاديثُ أخرى من هذا المعنى تركناها خشية الإطالة ، فراجعْها في السيد السَّمهودي .

وهذا الحديث أخرجه أبو الخير الحاكمي ، ورواه « أصحابُ كنوزِ المطالب في بني أبي طالب » بزيادة فيه عن العباس ﷺ مرفوعًا ، فهذه طرقٌ يُقوِّي بعضُها بعضًا، فقول ابن الجوزي: إن حديث « كل ولد أنثى... إلخ » لا يصحُّ ، ليس بجيد ، قال السيد السَّمهودي : وحديث « كل سبب ونسب وصهر ... إلخ » وَرَدَ عن غيْرِ عمرَ من الصَّحابة ﷺ فقد رواه المِسْوَر بن مَخْرَمَة[4] ، وعبدُ الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، ثم قال السيد رحمه الله : « دلَّت الأحاديثُ على اختصاصِه ﷺ بِنِسْبةِ أولادِ بناتِه إليه ،

(١) رواه أبو يعلى في مسنده ١/٤٠٢ ، وابن عساكر في تاريخه ٤٢/٥٥ ، وقال البوصيري في الإتحاف ٧/٧٨ : بسند رواته ثقات . ولكن بيَّن الهيثمي علته في المجمع ٩/١٨ قائلاً : فيه زكريا الأصبهاني وهو ضعيف .

(٢) رواه أحمد ٥/٢٠٤، وحسنه الهيثمي في المجمع ٩/٢٣٢، وحسنه الألباني بشواهده في الصحيحة (١٥٥٠) .

(٣) تساق كل هذه الأحاديث الضعيفة لبيان متانة علاقة النبي ﷺ بالسِّبطين الكريمين ، والأمة مجمعة على ذلك بلا حاجة لهذه الأحاديث الضعيفة .

(٤) المِسْوَر بن مَخْرَمَة القرشي من فقهاء الصحابة ، انظر ترجمته في «الإصابة» ٧٩٩٥ ، و«معالم الإيمان» ١/١٠٧ ، و«نسب قريش» ٢٦٢ .

كنِسْبةِ أولاد الصلْب في جميع الأحكام الفقهية ، كالوصية ، والوقف ، والكفاءة [في][1] النكاح .

وكونه ﷺ يُقال فيه : أبو الحسن والحسين حقيقة ، وأنه لا يدخلْهما الخـلافُ في المسألة المعلومة ، وهي أنه هل يقال : إنَّ النبي ﷺ أبو المؤمنين أو لا ؟ فذهب إلى الجواز الشافعي ﷺ ، أي أبوهم في الحُرمة ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (الأحزاب ٤٠) أي أباه من صلبه ، ويدلُّ على هذا القول أنه وجد في مصحف أُبَيٍّ : وهو أبٌ لهم ، وذهب إلى الثاني بعضُ أصحابه ، واختاره الأستاذ أبو إسحاق ، وأبو إسحاق المروزي .

وقالوا : ما في مصحف أُبَيٍّ منسوخ بقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (الأحزاب ٤٠) ، وهذان القولان[2] في الروضة ، وكذلك نقلهما أبو محمد الجويني في المحيط. وأما السِّبطان فلا يدخلْهما هذا الخلافُ، وأما قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (الأحزاب ٤٠) ، فهو مخصوصٌ بغير السِّبطين ، لما سبق في الأحاديث ، وأيضًا فهُما وبنوهما من رجاله المخاطَبين ، وأيضًا الآية إنما سِيقتْ لقَطْع التبنِّي ، فلا يعارضُها إلَّا نسبةٌ فيها التبنِّي ، وأيضًا فإن السِّبطين إذ ذاك صغيران ليسا من الرجال .

وفي « كنوز المطلب » قال صاحبُ « الكمائم » البيهقي : لَمَّا قال منصورُ الخيري تقرُّبًا لهارون الرشيد ليعطيه : [وافر]

يُسَمُّونَ النَّبيَ أبـًا وَيـأبى مِنَ الأَحْزَابِ سَطْرٌ في السُّطُورِ

يعني ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (الأحزاب ٤٠) .

---

(١) في الأصل : و .

(٢) في الأصل : وهل هاذين القولين .

رأى النبيَّ ﷺ في نومِه وهو يَهْوِي إليه بقضيب من نار، وهو يقول له: أنت الذي تنفي ذرِّيَّتي منِّي، فانتبَهَ مذعورًا ومال إلى محبة آل النبي ﷺ وقال في ذلك ما أوجبَ أنْ أَمَرَ الرشيدُ بقتْلِه، فذهبوا إليه ليقْتُلُوه فوجدوه قد ماتَ، وذلك مذكورٌ في كتاب «الأغاني» وهذا معنى الخصوصية الذي أشار إليها في «الروضة»، حيث قال: «وأولادُ بناته ﷺ يُنسَبُون إليه، وأولادُ بنات غيرِه لا يُنسبون إلى جدِّهم في الكفاءة»، قال النووي: «ذكره صاحب التلخيص»، وليس معنى الخصوصية هي مُطلقُ نسبةِ أولادِ بناتِه إليه ﷺ كما فهِمَه القفَّالُ، وابنُ حبان، وغيرُهما، فأنكروا ذلك على صاحب «التلخيص»، وقالوا: هذا لا يختصُّ بالنبي ﷺ لأنَّ كلَّ واحدٍ يَنسبُ إليه أولاد بناته.

قال الزركشي في الخادم: على أنَّ حديثَ أبي نعيم عن عمر: «كلُّ ولد أنثى ... إلخ» قاطعٌ لكلِّ نزاع، فلا ينبغي أن يُختلفَ في الخصوصية، قلت: على الخصوصية، فهل ذلك يختصُّ بالطبقة الأولى أو لا يختص؟ اختُلف فيه، وأنت إذا تأمَّلتَ الأحاديثَ المتقدِّمةَ وجدْتَها ظاهرة في سائر الطبقات من وجهين:

أحدهما: ما وقع عن عمر ﷺ من الحاجة [إلى] (١) تزوُّج أمِّ كلثوم، وعلَّلَ ذلك في رواية المحِب الطبري والبزَّار والبيهقي وابن السَّكن وغيرهم، بأنه أرادَ أنْ يكونَ له بذلك التزوُّج من النبيِّ ﷺ نسبٌ، أي يكونُ لولده من أمِّ كلثوم نسبٌ إلى النبي ﷺ، ولو كان النسبُ إليه ﷺ خاصة بالطبقة الأولى لم يكن لولد أم كلثوم نسبٌ إلى النبي ﷺ، وقد صرَّح بذلك الحافظ السيوطي ﷺ فقال: «إنَّ زيد بنَ عمر لا يُنسبُ للنبي ﷺ»،

(١) في الأصل: على.

ومعوَّله في ذلك على رواية إلَّا ابني فاطمة التي تقدَّمتْ ، وسيأتي الجوابُ عنها - إن شاء الله - . فينبغي أن [يُجزم] (١) بمقتضى قصةِ عمر أنَّ ولد الشريفةِ شريفٌ ، وأنَّ نِسبتَه إلى النبيِّ ﷺ نسبةُ ابنِ الشَّريفِ إليه ، [لا] (٢) فرقَ بينهما لأجلِ الخصوصية ، ولهذا نقلَ الشيخُ الملالي عن الشيخ السنوسي - رحمهما الله - أنَّ قصةَ عمر رافعةٌ للخلاف في ولد الشريفة ، أو كما نُقل بطولِ العهد به .

وثانيهما : أنك إذا تأملتَ في الروايات السابقة وجدْتَها دائرةً على عمر وفاطمة الكبرى - رضي الله عنهما - ، أما طرقُ حديثِ عمر فقد اتفقتْ على لفظ الجمع في قوله ﷺ : « فأنا وليهم وعَصَبتهم وأبوهم » وعلى الإفراد ؛ المراد به الجنس في لفظ : « ولد فاطمة » وقد سبق ذلك في رواية أبي صالح المؤذن ، وأبي محمد عبد العزيز بن أبي الأخضر ، وأبي نعيم ، وأبي السمّان ، والطبراني [في] الكبير ، والدَّارقُطني ، - والله أعلم - .

وأما طرقُ حديث فاطمة - عليها السَّلام - فاختلفتْ في رواية الطبراني ، ورواية عبد العزيز بن أبي الأخضر ، من طريق ابن أبي العوام . جاء الحديثُ على سياق حديث عمر بلفظ الجمع ، وفي رواية أبي يعلى ، وعبد العزيز من طريق ابن أبي شَيْبة ، بلفظ التثنية ، في قوله : « إلَّا ابني فاطمة » يعني الحسن والحسين - عليهما السَّلام - ، وعليهما اعتمد الحافظ السيوطي ، ولم يعرِّج على الرواية الأخرى ، ولا على حديث عمر ، فيجزم بأن الانتساب إليه - عليه الصلاة والسَّلام - في الطبقة الثانية ، وهلمَّ جرا ، خاص بذرِّيَّة السِّبطين المذكورين .

---

(١) في الأصل : يحرم ، وهو تصحيف .
(٢) في الأصل : لما ، وهو تصحيف .

وجوابُه ، أما أولاً : فحديثُ عمر اتفقَت طرقُه ، وحديثُ فاطمة - رضي الله عنها - اختلفَتْ طرقُه ، والمتفقُ في الجملة مقدمٌ على المختلَفِ فيه ، وأما ثانيًا : فحديث عمر ورد عن الثقات الأثبات بالأسانيد الصحاح - كما سبق - وورد متصلاً لا مرسلاً - كما سبق - وحديث فاطمة - رضي الله عنها - في سنده شَيْبة ابن نعامة وهو ضعيف ، وورد مرسلاً لا متصلاً ، فيُقدَّم حديث عمر ﷺ على حديث فاطمة - عليها السَّلام - فإنْ قلتَ : مِنْ شرْطِ التَّرجيحِ عدمِ إمكانِ الجَمْعِ والجمعُ هنا ممكن ، بأنْ يُحملَ العمومُ الذي في حديثِ عمر ﷺ على الخصوصِ الذي في حديث فاطمة - عليها السَّلام -(١) على القاعدةِ المعلومةِ من حَمْلِ العام على الخاص ، قلت : نصَّ ابنُ دقيق العيد ، وتبِعَه غيرُه - في غالب ظني - على أنَّ العامَ لا يُحْمَلُ على الخاص إلَّا إذا ورد الخاص في حديث يقاومُ حديثَ العام في صِحَّةِ سنده أو حسنه . وأما إذا تقاصرَ حديثٌ عن حديثِ العام يبقى عمومُه ، وهو ظاهرٌ، فإنَّ الضعيفَ لا يُعملُ به في الأحكام ، فالخاصُّ الذي فيه لا يُعمَل به ، و[الـ] مسألةُ هذه من الأحكام لا من فضائل الأعمال ، وأيضا فإنه إذا حُمِل العمومُ الذي فيه حديث عمر ﷺ على الخصوص الذي في حديث فاطمة - عليها السَّلام - لم يبقَ وجهٌ [لِمَا استدلَّ](٢) عمرُ به بحضْرة المهاجرين والأنصارِ وسماعِ علي بن أبي طالب والحسن والحسين ﷺ ، ولوجب أنْ يقولوا له ليس ذلك ، بل هو خاص بالسِّبطين وذُرِّيَّتِهما ، - والله أعلم - .

وهذا كلام الحافظ السيوطي ﷺ في « العجاجة الزَّرنبية في السُّلالة الزيْنبية » وقد ذكر الفقهاء من خصائصه ﷺ أنه يُنسب إليه أولادُ بناته ، ولم

(١) يحسب لكريم الدين البَرموني نقل ما جاء في بحث الحديث أحيانًا .

(٢) في الأصل : الاستدلال .

يذكروا ذلك في أولادِ بناتِ بنتِه ، فالخصوصيةُ للطبقة العليا فقط ، فأولادُ فاطمة الأربعة يُنسبون إليه ، وأولادُ الحسن والحسين يُنسبون إليهما فينسبون إليه ، وأولادُ زينب وأمِّ كلثوم يُنسبون إلى أبيهم عمر وعبد الله بن جعفر ، لا إلى الأمِّ ، ولا إلى أبيها ﷺ ؛ لأنهم أولادُ بنتِ بنته لا أولاد بنته ، فجرى الأمرُ فيهم على قاعدة الشرع في أنَّ الولدَ يتبعُ أباه في النَّسب لا أمّه، وإنما خرج أولادُ فاطمة وحدها للخصوصية التي ورد الحديث بها ، وهو مقصورٌ على ذرِّيَّة الحسن والحسين ، قال ﷺ : « لكل نبي أُمٌّ عصَبةٌ إلَّا ابني فاطمة أنا وليُّهما وعصَبتهما »[1] فانظر إلى لفظ الحديث كيف [جعل] الانتسابُ والتعصيب بالحسن والحسين دون أختيهما ، فأولادُهما إنما يُنسبون إلى آبائهم ، و[على] هذا جرى السلفُ والخلفُ »[2] .

على أنَّ ابنَ الشَّريفة لا يكونُ شريفًا ، إذا لم يكن أبوه شريفًا ، ولو كانت

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) « جرى السلف والخلف » كثيرًا ما تقرأ مثل هذا الإجماع في كتب المتأخرين ، ومثله عبارة أجمع الفقهاء أو أجمع العلماء ، وتلك دعوى تحتاج إلى دليل وعلى الأخص في المسائل التي عرف الخلاف فيها ، ومن بينها قضايا الشرف ، ومرجعنا هو القرآن الكريم وصحيح السنة ، فحين سأل إبراهيم عليه السلام الله لأبنائه قال تعالى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة ١٢٤) ، وحين سأل نوح عليه السلام النجاة لابنه قال له الله : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ (هود ٤٣) ، وقال رسول الله ﷺ : « اعملي يا فاطمة فلن أغني عنك من الله شيئا » ، وقال : « لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم » . وهذا هو سمت القرآن فالعبرة بالإيمان والتقوى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات ١٣) ، ولا شك في تُقى وتزكية آل البيت الطاهرين ، ولكن ثقافة ما بعد الفتنة التي ترسخت في القرن السابع وما بعده تغلغلت في العقول وصارت لدى بعضهم عقائد راسخة تحتاج إلى رجوع واع إلى القرآن والسنة الصحيحة لتجلو عنها الشوائب ، ومع ذلك فنحن نعتقد أن الأصالة لها سهم في التكوين العقلي والنفسي ، وأن آل البيت وأبناءهم وأحفادهم أقرب إلى التمسك بالدين حتى يظهر خلاف ذلك .

الخُصوصيةُ عامَّةً لأولادِ بناتِه – وإن سفلوا – لكان ابنُ كلِّ شريفةٍ شريفًا تحرُم عليه الصدقةُ، ولهذا حكم ﷺ بذلك إلَّا بني فاطمة دون غيرها من بناته؛ لأن أختَها زينب بنت رسول الله ﷺ لم تُعقِّبْ ذكرًا حتى يكون كالحسن والحسين في ذلك، إنما عقَّبتْ أنثى وهي أمامة بنتُ أبي العاص بن الربيع، فلم يحكُمْ لها ﷺ بهذا الحُكْم مع وجودها في زمانه، فدلَّ على أنَّ أولادها لا يُنسبون إليه، ولو كان لزينب بنتِ رسول الله ﷺ ولدٌ ذكر لكان حكمُه كحكم الحسن والحسين في أن ولدَه يُنسبون إليه ﷺ، هذه تحرية القول في هذه المسألة، وقد ضَبَط جماعةٌ من العصر في ذلك، ولم يتكلَّموا فيه بعد كلامه ﷺ، وفيه أمور:

الأول: قولُه: الفقهاء ذكروا اختصاصه ﷺ بنسبة أولاد بنات أولاده إليه ولم يذكروا ذلك في أولاد بناته، قد يقال: إنهم ذكروا ذلك، فقد نقل المشذالي عن ابن العربي في (المسالك) من خصائصه ﷺ أن يُنسبَ إليه أولادُ بناتِه من علي وعمر وعثمان بن العاص، هذه عبارة المشذالي. وقد ذكر الحافظُ السيوطي في الخصائص قولًا فحكاه بقيل، ونصُّه: «وأولادُ بنتِه يُنسبون إليه، قيل وأولاد بناته»، وفي الحديث «إنَّ الله لم يبعثْ نبيًّا قطُّ إلَّا جعل ذُرِّيَّتَه من صُلبه غيري فإنَّ الله جعلَ ذُرِّيَّتي من صُلْب عليِّ بن أبي طالب»[1]، فهذا نصٌّ صريحٌ في أنهم ذكروا ذلك.

والثاني: قولُه: وأولاد فاطمة الأربعة يعني: الحسن والحسين، وزينب وأمَّ كلثوم، يُنسبون إليه ﷺ، مع قوله: وإنما خرج أولادُ فاطمة للخصوصية التي ورد الحديث فيها، وهو مقصور على ذرِّيَّة الحسن

(١) لم أقف عليه.

والحسين ... إلخ . قد يُقال : فيه تدافع ؛ لأن هذا الكلامَ يقتضي إخراجَ زينبَ وأم كلثوم ، والأولُ صريح في إدخالِها في الخصوصية .

والثالث : وهو ظاهر من هذا أنه أُولى الخصوصية في الطريقة الأولى لأولاد بناته ﷺ مطلقًا من فاطمة وزينب ، والحديث الذي أُخذت منه الخصوصية مختص على ما عند الحافظ ﵁ بالسِّبطين الشريفين دون أختيهما من أولاد فاطمة، فضلًا عن غير أولاد فاطمة ، وقد نص العلماء على أن قوله - عليه الصلاة والسَّلام - « فاطمة بضعة مني »[1] إشارة إلى خصوصيتها - رضي الله عنها - بقوله [السابق] ذكر [فيه] أن رَحِمَهُ ﷺ موصولة بالدنيا والآخرة ، وأن سببه ونسبه لا ينقطعان ، واختصاص ولد ابنته فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - بأنه ﷺ أبوهم وعصَبتهم ، ثم أورد الأحاديث السابقة ، فيُفهم من الترجمة ما يُفهم من الأحاديث التي أوردتها، بأن الخصوصية بأولاد فاطمة دون أولاد أخواتها ، وعامة في كافة أولادها ، ولا تختصُّ بالسِّبطين ، وهذا خلاف ما يُفهم من كلام الحافظ ﵁ وخلافُ - أيضًا - ما يفهم من كلام القاضي أبي بكر بن العربي ﵁ فانظر ذلك .

والرابع : قولُه : جرى السَّلفُ والخلفُ على أنَّ ابنَ الشَّريفةِ لا يكون شريفًا، قد يُقال : أما أولاً : فقصة عمر صريحة في خلافه ، وأما ثانيًا : فقد قال بشرفه أصحابُنا التِّلْمِسانيون ﵏ وهم من الخلف . وأما ثالثًا : فقوله : لو كان شريفًا لحرُمتْ الصدقة عليه ، وقد سبقت تسويتُه بشريف الأب في جميع [2] ... من غير واحد من أصحابنا . وبالجملة فكلام الحافظ ﵁ لم يظهر لنا تمشيتُه مع أحاديث الباب ، والله أعلم .

---

(١) رواه البخاري (٣٧١٤)، ومسلم (٢٤٤٩) من حديث المِسْوَر بن مَخْرَمَة .
(٢) كلام ناقص .

إذا تمهَّد هذا فقوله في السؤال على مذهب من يقول: إنَّ مَنْ أُمُّه شريفةٌ، هل ذلك خاصٌّ به، أو له ولذُرِّيته ؟ جوابُه أن كلَّ مَنْ قال: بشرفه من أصحابِنا في ما رأيت، قال: إنه لا يختص به بل يثبُت له ولذُرِّيته، وكذا عند مَنْ يقول: إن شرفَ الرحمِ لا النسبِ، فإنه يورثُ عنه إلى يوم القيامة، كما سبق ذلك منسوبًا لأربابِه، وقوله: فإن قيل بالأول فما وجهُه ؟ جوابُه أنَّا لم نَرَ مَنْ قال به، وعلى تقدير أن لو قال به أحدٌ، فلا وجْهَ له؛ لأن منشأ الخلاف فيه من حيث إن الخصوصية السابقة في الانتساب إليه ﷺ تختصُّ بالطبقة الأولى، وعليها فلا يكونُ شريفَ النَّسَبِ هو ولا ذُرِّيَّته، أو لا تختص [به]، بل تعمُّ سائر الطبقات إلى يوم القيامة، وعليها فهذا شريفُ النسب هو وذُرِّيَّته إلى يوم القيامة.

وأما كونُه يختصُّ به الشرفُ دون أولاده فلا وجهَ له، إذ لا قائلَ بالفَرْق في ما بعد الطبقة الأولى، وقد سبق أنَّ الأحاديث ظاهرةٌ في العموم، وأنَّ قصة عمر ﷺ نصٌّ قاطع في الباب، فيكون الحق في المسألة مع أصحابنا التِّلْمِسانيين والبَجَّائيين ﷺ وقوله: «وإن قيل بالثاني فمن قال به» جوابه: قال به أصحابُنا التِّلْمِسانيون والبَجَّائيون ﷺ، وقوله: «وهل يُعوَّل عليه» جوابه: نعم عليه المعوَّل - إن شاء الله -، وقوله: «ويحرُم في حقهم ... إلخ». جوابه: إن أصحابَنا المتقدِّم ذكرُهم صرَّحوا بذلك، والله أعلم.

فائدة: قال الإمام العالم البحر سيدي محمد بن مرزوق ﷺ في تعليقه في هذه المسألة من تفسير الزمخشري: «لما نَزَلَ قولُه تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (الشورى ٢٣) قيل: يا رسول الله، مَنْ قرابتُك الذين وجبتْ علينا مودَّتُهم ؟ «قال: علي وفاطمة وأبناؤهما» إلى أن قال: وعنه ﷺ «مَنْ مات

على حبِّ آل محمدٍ مات مؤمنًا مستكملَ الإيمان ، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ بشَّره ملكُ الموت بالجنَّة ، ثم منكر ونكير ، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ يُزَفُّ إلى الجنَّة كما تُزَفُّ العروس إلى بيت زوجِها ، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ فتح الله في قبره بابين إلى الجنَّة ، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ جعل الله قبره مزارًا لملائكة الرحمة ، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ مات على السُّنَّة والجماعة ، ألا ومَنْ مات على بغض آل محمدٍ جاء يوم القيامة ومكتوبٌ بين عينيه : آيسٌ من رحمة الله ، ألا ومَنْ مات على بغض آل محمدٍ لم يشم رائحة الجنَّة » وكله من التفسير المذكور ، انتهى كلام ابن مرزوق[1] .

فلمَّا نُسب الحديثُ للزمخشري وقد صرَّح السعد التفتازاني – رحمه الله – في حواشيه على الكشاف بأنَّ الزمخشري لا يُعوَّل عليه في الحديث وقع لنا فيه ريبٌ ، مع النَّكارة التي تظهر منه ، وتشير إلى عام صُحبته ، فبحثتُ عنه، فرأيتُ بحمدِ الله السيد السَّمْهودي قال ما نصُّه : « قال الثعلبي المفسر : أخبرنا أبو عبد الله بن حامد الأصبهاني قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن علي بن حسين البلخي ، حدثنا يعقوب بن يوسف بن إسحاق ، حدثنا محمد بن أسلم الطوسي ، حدثنا يعلى بن عبيد عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن جرير بن عبد الله البجلي، قال: قال رسول الله ﷺ : « مَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ مات شهيدًا ، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ مات مغفورًا له ، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ مات تائبًا ، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ مات مؤمنًا مستكمل الإيمان ، ألا ومَنْ مات

(١) أنموذج للأحاديث الضعيفة التي تساهل بعض المتصوفة والشيعة في إيرادها على الرغم من ضعف متنها وتخريج بعض رجالها ، ويحسب لكريم الدين البَرموني إثباته ما قيل في بعض مثل هذا الحديث .

على حبِّ آل محمدٍ بشَّره ملك الموت ثم منكر ونكير بالجنَّة ، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ يُزفُّ إلى الجنَّة كما تُزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ فَتح الله في قبره [بابين] من الجنَّة ، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمدٍ جعل الله زوارَ قبره ملائكةَ الرحمة ، ألا ومَنْ مات على بُغْضِ آل محمدٍ لم يشم رائحة الجنَّة »(١) . قال السيد السَّمْهودي - رحمه الله - : كذا أورده الثعلبي محتجًا به ، ورجاله من محمد بن أسلم إلى منتهاه أثباتٌ ، لكن الآفة في ما بين الثعلبي ومحمد بنِ أسلم ، قال ابن حجر : « وآثار الوضع عليه لائحة » انتهى كلام السَّمْهودي - رحمه الله .

وهذا غايةُ ما قصدتُه ونهايةُ ما اعتمدتُه ، وحسبنا الله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا ، انتهى بحروفه . وفي هذا القدْر كفايةٌ ، وإلَّا فالكلام في هذا المعنى طويلٌ ، لا يسعني نقلُه في الكتاب ، وكان التسليمُ فيه لأهله أولى من التنازع فيه ، والصوابُ أن يُوجَبَ الحكم بالشرفِ لذوي الأرحام المنتسبين إلى رسول الله ﷺ ولا يُنْكَر عليهم فيه ، لأنهم بضعةٌ من رسول الله ﷺ ، كما علمت ، والله أعلم .

[والدا الشيخ عبد السَّلام الأسمر]

أما والده - أعني والد شيخنا الذي هو سيدي عبدُ السَّلام ، وهو سيدي سليم - [فقد] كان من رجالِ الله الصالحين ، صاحبَ كرامات

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٢٥، وذكر الزيلعي في تخريج أحاديثه: رواه الثعلبي. وساق إسناده إلى جرير بن عبد الله البجلي مرفوعًا، وقال الألباني في الضعيفة (٤٩٢٠): باطل موضوع.

وإشارات ، وخرقِ عادات ، وكان أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يتكلّمُ على معاني الكتاب كلامًا بليغًا تحيَّر فيه العلماء ، وكان يردُّ الغلطة على القارئ إذا سمعه بدَّل أو غيَّر ، أو زاد أو نقص ، أو انتقل من سورة إلى سورة ، وكان يجلِسُ في الزوايا التي يُتلى فيها القرآنِ كتاب الله ، ينصت [إلى] القرآنِ من أفواه الطَّلبة ، إذا غَلَطَ القارئُ أو بدَّل أو غيَّر ، فيقول له : أمسِك يا فلان ، فإن قراءتكَ على غير صواب ، فإذا قيل له : كيف تعلمُ بالقارئ إذا برزت منه القراءةُ على غير صواب ؟ فيقول : القارئ إذا قرأ بإزائي أصير أنظرُ نورًا متصلاً خارجًا مِن فِيه إلى عَنان السماء ، فإذا غلط القارئ أو بدَّل أو غيَّر انقطعَ اتصال ذلك النور الخارج مِن فِيه .

والسيدُ سليم هذا له حكاياتٌ كثيرةٌ ذكرناها في غير هذا ، منها اطِّلاعُه على زوجتِه أمّ الشيخ قبل أن تَلِدَها أمُّها (١) ، وذلك أنه إذا قيل له : تزوج ، يقول : حتى تزداد أُمّ عبد السَّلام ، وهي إذ ذاكَ لم يبنِ أبوها بأمها ، ومنها : أنه أُخبر بابنه سيدي عبد السَّلام ومَنْ يتزايد له من الذرِّيَّة قبلَ وجودِ أمّه ، أي قبلَ ازديادِها (٢) . ومنها أنه يشفعَ عند الحكام ، فشَفَعَ مرة عند الحاكم في إنسانٍ ، فأبى شفاعتَه ، وقال : إنْ كنتَ شيخًا نَفَخْتَنِي ، فقال : بسم الله ونفخ في وجهه فانتفخَ وتَطَرْطَرَتْ يداه ، ورجاه وصار يصيحُ ويعتذرُ إليه ،

(١) مثل هذه المبالغات ينبغي أن يكون منها القارئ على وعي ، فقد جرى على أقلام هذا العصر الكثير مما يسمعونه ويسجلونه كما يسمعونه في الأساطير الشعبية التي لا يخلو منها تراث شعب من الشعـوب ، فهؤلاء الكتاب لا يتعمدون الكذب ولكنهم يسـطرون كل ما يسمعونه ، في عصر صار التردد في قبول هذه الروايات يعتبر من الإنكار على الطريقة وشيخها ، والحق أن تراث الشيخ الأسمر الصحيح خال من هذه الخرافات والأساطير ، وقد أشار المؤلِّف نفسه إلى زيادات العوام ومبالغاتهم .

(٢) لم نسمع بمثل هذا حتى في معجزات الأنبياء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ويستعطفُهُ حتى استغفر له، ومسح بيده على بطنه فانفش، فما زال مؤيدًا لسيدي سليم ومحِبا له إلى أن توفَّاه الله . ومنها أنه كان يدعو الطيرَ من جوِّ السماء فينزل إليه، ويدعو سمكَ البحرِ المالح فيطْلِع له، وكان قائمَ الليل وصائمَ الدهر - رضي الله عنه ونفعنا به آمين - .

أما والدتُه - أعني والدة شيخنا الذي هو سيدي عبدُ السَّلام الأسمر - فهي مغربيةٌ من بلد درعا، واسمُها سليمة وتُلقَّب بـ : « عيَّادة » لمولدها في يوم عيد الفطر، ولا تشتهر عند الناس إلَّا بعيَّادة، يذكر أنها تزايدت [1] ببلد درعا، ورُبِّيتْ وعَرفتْ ما يصلُح بها من فرض العين وغير ذلك، فنودي في سرٍّ والدِها سيدي عبد الرحمٰن الدرعي : لا يُزوِّجُها لأحد من الناس إلَّا السيد سليم بأرض طرابلس الغرب، فكان [النَّاس] يرغبون في خِطبتها [من] أبيهـــا سـيدي عبد الرحمٰن، ويبذلون له في الشرائط الكثير من ذهب وفضة وغير ذلك، فيقول لهم : ما لي ولتزويجها لكُمْ ولو بِوَزْنها ياقوتًا، وسيظهر زوجُها - إن شاء الله - من أرضِ طرابلس الغرب، شريف حسني من نسبة آل محمد ﷺ [2] .

فلمَّا أن أراد اللهُ بالجمْع بينها وبين سيدي سليم، قالوا : حملها أبوها على هوْدج على [3] بعير، وركَب فرسَه، وجعل يسوق بها إلى أرض طرابسر

---

(١) تزايدت : كذا، ويريد وُلدت .

(٢) هكذا يصبح التفكير والمعتقدات في القرون الخمسة الأخيرة عند مؤلفي كتب المناقب، وليست آفة هؤلاء الكذب ولكنها فرط التصديق ونقل كلِّ ما يَرِدُ إلى أسماعهم على أنه حقيقة، وهم يعيشون في مجتمعات فيها الواهم والكاذب والمُبالغ، ثم تصديقهم لكل أحلامهم وتخيلاتهم والخلط بينها وبين الحقائق التاريخية أحيانًا .

(٣) في الأصل : عن بعير، وهو نموذج للأسلوب شبه العامي الذي تكتب به كتب المناقب في هذه الحقبة، والأسلوب عند البرموني أفضل من غيره، وإذا استخدم النقل، أو استعمل محفوظه يرتفع الأسلوب بشكل ظاهر .

الغرب ، فلما وصلَ إلى أرضِها ، ودخل قرية من قراها بعوْسجة من حيِّزِ الزاوية الغربية ، وبينما يسوق هناك لقي سيدي سليم بالقاضي والشهود ، قالوا[1] : فزوَّجَها والدُها حين ذلك لسيدي سليم بعقد وصداق ، في حكاية تطولُ – ذكرناها في الكبير – ، ثم ارتحل بها سيدي سليم من قرية عَوْسَجة ، ولم يبْنِ بها إلَّا في بلده التي [هي] يزليتن ، ولم يتزايد له معها ذرِّيَّة عدا سيدي عبد السَّلام .

قلت : وكانتْ هــذه المرأةُ التي هي « عيَّـادة » سيدةً صالحةً فاضلةً جليلة ، حاذقة كَيِّسة ، تصومُ من السنة الأيام الكثيرة ، وتتلو جزءًا من القرآن ، لم أرَ في نساء زماننا مثلها ، عاشت مائة وعشر سنين ، ودُفنت بالحجرة المدفون بها سيدي عمران جد الشيخ ، ولما توفيت نادى منادٍ[2] هلموا إلى الصــلاةِ على المرأةِ الصالحة الحــرةِ الفاضلةِ السيدة الشَّريفة الجليلة كثيرةِ الإحسان ، عابدة الرحمٰن ، عيَّادة الدرعاوية – رحمة الله علينا وعليها – .(انتهى)

[صفة الشيخ عبد السَّلام الأسمر]

وأما صفتُه – أي صفة شيخنا الذي هو سيدي عبد السَّلام – ، فهو مستوِ القد ، متوسطٌ في الغِلَظِ ، ربعة إلى الطول ، جميلُ الصورة ، آدمُ اللون، لا تملُّ من النظر إليه ، أسودُ العينين والحواجب والهذوب ، وجهُه كأنَّهُ

(١) قالوا : مَنْ القائل ؟ هذه هي المشكلة لدى مؤلفي كتب المناقب ، فقد يكونوا صادقين ، ولكنهم كحاطب ليلٍ يوردون روايات العوام وأخبارهم بحسن نية وبدون نقد ، وفي التراث الشعبي الكثير من المبالغة والخيال والأسطورة .

(٢) في الأصل : مناديًا .

يقطُر منه الدهن ، في عينيه وسع وبهاء ، خفيفُ شعر العارضين ، فصيحُ اللسان ، (عدِم) [1] الكلام ، يلبسُ فوق مُرقَّعته الثياب البيض ، ويتعمَّم بعمامة بيضاء أو خضراء ، ثم يتنقَّبُ بها ، ويُرخي عذبتها حتى لا يُرى منه في غالبِ أحواله إلَّا عيناه ، ولا يخلعُ ذلك النقابَ إلَّا إذا اختلى مع أصحابه وباسطهم ، فإذا رأى عاصيًا ردَّ النقابَ كما كان ، وكفَّ عن المباسطة ، ويقول الفقيرُ الرباني كالعروس لا يطَّلعُ عليها إلَّا محارمُها ، هكذا كان يفعلُ إلى أن توفَّاه الله ، وكان الخاتم يتختَّمُ بِخِنْصَرِه اليسرى ، أي يجعل الخاتمَ في خِنْصَر يده اليسرى ، وذلك الخاتم أقلُّ من درهم .

وكان له معولٌ ينقلُه في يده ، كان أصلُ ذلك [المعول][2] من شجر الزيتون ، وكان ذلك المعولُ مربعًا على أربعة أوجُهٍ ، مرسومًا في الوجه الأول منه : بسم الله الكافي ، وفي الثاني : الغني الفتاح ، وفي الثالث : الرحمٰن الباقي ، وفي الرابع : الرحيمُ الرزَّاق ، وكان يلبس في رجليه النعلَ الأصفرَ الطرابلسي ، والمستَ الكامل الساتر لكعبيه ، والمداسَّة القيروانية ، وتارة يلبسُ الخفَّ أو الجوربَ بالنعل الأصفر ، وذلك على اختلاف أحواله ، وكان ينهانا عن لباس النَّعل الأسودِ ، وكلِّ السَّوَاد مدة حياته .

وأما تلقيبه بالأسمر [فقد] قالت والدته - رحمة الله عليها - : لمَّا أن [ازداد][3] لي عبد السَّلام وبلغ الأربعين يومًا ، أُمرتُ في علم النوم أن نلقِّبهُ بالأسمر لمبيته الليالي سهرًا في طاعة الله ، ويؤيد إثباتَ هذا اللَّقبِ ما ذكره

---

(١) عدم : كذا في الأصل لعله يريد قليل الكلام .

(٢) المعول : في اللغة آلة من حديد ينقر بها ويحفر ، وفي الأصل : المعوال ، وقد أراد به العصا الموصوفة في النص أعلاه ولم يرد المعول المشار إليه في المادة اللُّغوية .

(٣) في الأصل : تزايد .

الشيخ في كتابه المسمَّى بكتاب « العظمة بالتحدث بالنعمة » [1] ، من قوله : « سميتُ بالأسمر لمبيتي اللَّيالي سهرًا في طاعة الله » انتهى .

* * *

(١) لم أقف على هذا الكتاب فهو من مؤلفاته التي قال عنها الدكتور مصطفى بن رابعة « لم يصلنا من آثار الأسمر ومؤلفاته سوى بعض رسائله ووصيته الكبرى والصغرى ، وكتابه الأنوار السنية ، وباستثناء رسائله فإن وصيته وكتابه الأنوار السنية قد تعرضت للدس والتشويه من قبل كثير من مناوئيه » وقال : « ولم يكن هذا شأن مؤلفاته فحسب ، بل تعداه إلى مؤلفات غيره في سيرته، فكان الدس والتشويه آخر السهام في جعبة مناوئيه ، . . . وأما الذي جعل رسائله بمنأى عن هذا الدس والتشويه ، فهو - في ما أرى - راجع إلى عدم تداولها في بيئة الأسمر » (رسائل الأسمر ص ٥٢ - ٥٣) .

الفصل الثاني

[مـــولـدُه وتنقُّـلاتُه]

الفصل الثاني في تبشير الخواصّ من الأولياء به قبل ظهوره ، ومولده وابتداء أمره ، وأخذه عن شيخه ، وذِكر بعض أحوال شيخه ، وذِكر بعض إخوان شيخه ، ورحلته من بلده إلى الساحل ، ثم إلى مدينة طرابلس ، ثم إلى جبل غريان في ما وقع له من الحسَدة ، ثم في انتقاله إلى القلعة ، ورجوعه منها إلى تاورغة ، ثم إلى مصراتة ، ثم إلى يزليتن ، ومُكثه بها ، وفي ما وقع له مع الفقيه مبارك وابن عمه سالم الشهير بالمباركي ، وما يناسب ذلك من الدلائل والحكايات والأشعار والمقطَّعات .

فأقول وبالله التوفيق وبه نستعين : أما تبشيرُ الخواص من الأولياء به قبل ظهوره فهو كثير لا تسَعه دفاترُ ، ونحن نشير إلى نزرٍ يسير منه ، منْ ذلك ما حدَّثنا به الأخُ في الله الصالحُ المتبرك سيدي عربي الوَرْفَلي ، عن سيدي أحمد الحداد ، كان مستوطنًا ببلد الفواتير ، قال : كان الشيخ الولي الصالح المكاشَف أبو الحسن سيدي علي بن درواز - رحمه الله - إذا مرَّ عليه سيدي سليم والدُ الشيخ يقومُ له إجلالًا ويقبِّل يديه ، ويقول : إن في ظهره وليًّا كاملًا يبلُغ صيتُه المشرقَ والمغربَ[1] ، وسيدي سليم إذ ذاك عَزَب ، وسيدي

(1) كيف يستقيم هذا القول في أمر الغيب لأحد رجال القرن التاسع ولا يتأتى لرسول الله ﷺ ؟ والله يقول لرسوله : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ (الأنعام ٥٠) ، ومثلها في سورة (هود ٣١) ، ويقول : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام ٥٩) .

علي بن درواز هذا كان صاحبَ كراماتٍ وإشاراتٍ ومكاشفاتٍ وخرْقِ عادات ، يُحكى عنه - رحمه الله - أنه كان يقول : « ما هجس هاجس في قلبِ إنسانٍ إلّا وأظهرني اللهُ عليه » ؟ ، وله مقطعاتٌ كثيرة تشبه مقطعات سدي أحمد بنِ عْروس ، وهو الذي غنّى (١) على علي بنِ تلّيس ، وعلى تاجوراء فهدمها الله تعالى ، وحكايتُه مع أهل تاجوراء أنها كانت قريةً عظيمةً ، والحُكْم فيها ، فخرجت منها سريةٌ مع أصحاب الحُكْم، ومَرُّوا بمسْلاته ، وكان الموضعُ المعروفُ فيها بالمزارة محروثًا كلَّه ، وزرْعُه قد أفرك ودخلتْ السريةُ من وسطِه بنيَّة الفسادِ ، حتى حطَّمتْ الزَّرْع ، وتركَتْه مساربَ ، يعني : طرقًا ، فأتى الشيخ سيدي علي فوجد زرْعَ البلد على تلك الصفة فقال : [زجل]

يا بومْ جـــاتكْ عمـــارهْ ولا تجـــدْ لها مضـــاربْ

كمـا دخـلتْ للمـــزارهْ وخـلَّاتْ وطني مسـاربْ

ثم جعل يتكلَّمُ بكلامٍ يقوله أهلُ السفن إذا سافروا ، كأنه يحرِّك السفائن ، فأرَّخوه فتبيَّن أن العمارة التي خرجت لتاجوراء تحرَّكتْ في تلك الساعة . وحكاياته كثيرة وذكرناها في غير هذا . عاش مائة وأربعين سنةً ، وتوفي عام ثمانية وعشرين وتسعمائة .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي عبدُ المنعم حفيد سيدي حامد - رحمه الله - كان مستوطنًا بأرض الفواتير ، قال : كنتُ أسمعُ من جديد أنَّ الشيخ الولي الصالح سيدي عبد الرحمٰن بن محمد اليربوعي ، الشهيرِ بالبُشْت ، كان يُكْثِرُ من زيارة الفواتير مدَّةَ حياتِه ، وكان إذا توجَّه لهم

(١) في الأصل : غنا ، والمراد قال زجلًا في الدعاء عليهما .

ووصل بلادَهم ، واجتمع بسيدي سليم والد الشيخ ، يقول له : « يا سليم إنَّ في ظهرِك سيدَ الرجال ، وبطلَ الأبطال ، عبدَ السَّلام ، مُجلي الغمام » فيقول له سيدي سليم - من جهة الكَشْفِ - : « حتى تزداد أمُّه ونبني بها » ، ووقتئذ لم يبْنِ أبوها بأمها ، ثم لَمَّا وُلد سيدي عبد السَّلام ، في زمنِ الشيخِ سيدي عبدِ الرحمٰن البُشت ، [كان](١) يتوجَّهُ لزيارة الفواتير على عادتِه ، فيأتي لسيدي سليم قبلَ موتِه ، ويقول له : أخرِجْ لي ابنَك عبد السَّلام أتبرَّك به ، فيُخْرِجُه له فيغمُرُه ويضَعُه في حِجْرِه ، فيأخذُ سيدي عبدُ الرحمٰن يديه ويقبِّلُهما ، ويقولُ له : مرحبًا بعبْدِ السَّلام ، ومُجلي الغمام ، إلى غير ذلك .

وسيدي عبدُ الرحمٰن هذا كان من الأولياء الأكابر ، المتكلِّمين بالغيب ، وكان يُخبر من جِهة الكَشْف بما يحدُثُ في طرابلس وغيرها من خير أو شر ، وقد رأيتُ في كتاب مناقبِه بخطِّ الشيخ الخرُّوبي أنه أُورثَ القُطبانية العظمى من أستاذِه أبي جعفر ، المتأخِّرِ عصْرَ أهل القرن التاسع (٢) ، الجنْزوري ، توفي سيدي عبدُ الرحمٰن عام ٨٩٩ تسع وتسعين وثمانمائة على الأصح ، وهو ممَّن دعا الله ﷻ ألا يَلْحَقَ بالقرن العاشر كالشيخ سيدي أحمد زرُّوق ، كما سيأتي في ترجمته ﷺ ونفع به .

وحدَّثني الأخُ في الله الصالح سيدي أحمد بنُ علي اللواتي - رحمه الله - قال: توجَّه سيدي سليم - والد الشيخ - في ابتداء حاله لتونس بقصد زيارة الصالحين الذين بها ، وكان قد أنطقَ بشيء من جهة الباطن ، فأنكر عليه أهلُ الظاهر ، وعقدوا عليه مجلسًا ، قال : فبينما هم يقرِّبونه للقتل إذ جاءهم قطبُ الزمان يركُضُ فرسُه ، إلى أن وقف عليهم ، إذ هو سيدي علي أبو

---

(١) في الأصل : متى .
(٢) كذا وهو تركيب غريب تركته على حاله .

تربة [1] ، فقال لهم على عجَلٍ أطْلِقوا هذا الوليَّ المظلوم الذي تريدون قتلَه ، فإنَّ في ظهره وليًّا كاملًا يُغاثُ به من قاف إلى قاف ، يُسمَّى بعبد السَّلام ، ووصفه لهم بما سيقع فيه. قال : طوبى لمن حضَر هذا الوليَّ ورآه ، أو سمِع شيئًا من كلامه ، فقالوا : يا ليتنا نعاصرُه ، أو نسمع شيئًا من كلامه ، فقال : لهم إنكم لن تروه ، بل تموتون قبل مولدِه ، وإن أردتم أن تسمعوا كلامَه لسمعتموه ، فقالوا : أسمعنا كلامه ، فنادى يا عبد السَّلام تكلَّم مما أنعم الله عليك به ، فأجاب من صلب أبيه : لبيك لبيك . ثم نطق بقطعة في شكرِ النِّعمة ، وفي الوعظ والتذكير، والنَّفر من الدنيا [2] ، فجاءت تلك الجماعةُ لسيدي سليم وجعلوا يُقبِّلونَ يديه ، ويقولون : « شيء لله ، شيء لله » .

وأمِنَ سيدي سليم من القتل ، ورجع إلى بلاده إلى أن جمعَ الله بينه وبين أمِّ الشيخ ، والله هو الجامعُ للشَّمْل ومُشتِّته ، وهو على ما يشاء قدير ، وسيدي علي هذا كان من أكابر الأولياء الناطقين بالغيب ، وكان محلُّ كشفِه اللوحَ المحفوظ [3] ، فكان إذا قال قولًا يقع على الصفة التي قال . توفي عام ٨٩٧ عام سبع وتسعين وثمانمائة ، نفعنا الله به .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي مفتاح العطْوي ، عن التقيِّ الصالح سيدي أحمد الباز ، عن رجلٍ من صالحي يزليتن ، قال : « أغار بُغات الأعراب على الفواتير في صِغَر الشَّيخ، ففرُّوا هاربين، والشيخ معهم،

(١) في شيوخ الخروبي علي بن أبي تربة التونسي ، اجتمع به الخروبي سنة ٩٣٢ (ص ٧١) .

(٢) هل سمعتم بمثل هذا في سير الأنبياء والصحابة رضوان الله عليهم ؟ أما تستحق الثقافة الصوفية أن تنقى من هذه الخرافات حتى يعود لها تأثيرها في النفوس والأرواح ؟

(٣) قوله : الناطقين بالغيب : حين نقرأ الآيتين الآتيتين وهما قوله تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن ٢٦-٢٧) فلا يخلو الأمر من الإنكار على الزعم بعلم الغيب ، أو القبول بأن هؤلاء صاروا رسلًا ، ولا قائل بالثاني من المؤمنين .

وكان هناك الشيخ الكبير الأمير سيدي علي بنُ عبد الحميد العوْسجي مولى الحمارة ، – نفعنا الله به – فجعل يقول : « دونكم انظروا سلطان طرابلس هاربًا، إلى أين يا عبد السَّلام؟ السلطان ما يهرب ، ويكرر هذا الكلام » .

وسيدي علي هذا من السبعة الأقطاب ، وكان يخبِرُ من جهة الكشْفِ بكلِّ ما سيقعُ في المدن والقرى ، وكان يقرأُ القرآن بالسبع روايات ، وله كراماتٌ كثيرةٌ ذكرناها في غير هذا ، عاش ١٥٠ مائة وخمسين سنة ، وتوفي في شهر ربيع الثاني عام ٨٢٥ خمسة وعشرين وثمانمائة ، أخبرني بذلك والداه سيدي عبدُ الحميد وسيدي إبراهيم ، وذكره سيدي يحيى في قصائد له ، وأثنى عليه – رحمه الله ونفع به – .

ومن ذلك حكايةُ فرسه سعيدة المشهورة ، أي فرس الشيخ الذي هو سيدي عبد السَّلام ، حكى لي سيدي يحيى بنُ علي الحمروني المذكور ، عن والده ، كان مستوطنًا بجبل غُريان ، بالقرب من دار الشيخ سيدي ساعد الغرياني ، قال كان السببُ في تسميتِها « سعيدة » أنها(١) أُهديتْ للشيخ من الشيخ الكبير سيدي ساعد الغُرياني، قال كان قد ربَّاها سيدي ساعد حتى اعتدلتْ ، وصارت من جياد الخيل، فكان الناسُ يطلبون شراءها منه، ويبذلون له فيها الدراهم الكثيرة ، وهو يقول لهم : فارسُها لم يظهر إلى الآن، وما زال كذلك حتى ظهر الشيخ ، فقال لهم : هذا فارسها ، وبعثها إليه هدية ، فركبها الشيخ ، وكان أمرُها في خرْقِ العوائد ، وإظهارِ الأولياء بسِرِّ هذا الشيخ ، ما يذكر بعضه كما سيأتي في الفصل الثالث .

وقال أيضًا سيدي يحيى هذا : كنتُ أسمعُ سماعًا فاشيًا مكررًا

(١) في الأصل : كأنها .

مستفيضًا على ألسنة أهل العدل ، وغيرهم ، أن الشيخ سيدي أحمد بنَ عروس ﷺ كان يقول : سيظهر بطرابلس الغرب رجلٌ يُعرف بعبد السَّلام، فاتحًا لهذه الطريقة ، ومُشهِرها ، ويكونُ له شأنٌ عظيم على أهل زمانه ، وهو سادس خليفة من بعدي ، – نفعنا الله به – وبأمثاله ، آمين .

وسمعتُ عن من أثِقُ به الشيخ الولي الصالح القدوة المكاشَف سيدي عبد الله العبَّادي – رحمه الله – كان إذا مَرَّ بالموضع الذي أُسِّسَتْ فيه زاوية الشيخ سيدي عبدِ السَّلام يقول : تُبنى هنا زاوية للقرآن والعلم والذكر على يد شيخ من الأولياء الأكابر ، ويشير إلى الشيخ سيدي عبد السَّلام الأسمر، وهو إذ ذاك في بطن أمِّه ، وسيدي عبد الله العبَّادي هذا له كراماتٌ كثيرة ، ذكرناها في الكبير ، وكان هو أحدُ أركان هذه الطريقة ، وأعلى العلماء بها ، وكان الشيخ سيدي أحمد زرُّوق يذكره ويثني عليه ، ويشهد له بالسلطنة ، وقال : ولو كانت النبوءة تُنال بالمجاهدة لنالها الشيخ سيدي عبد الله العبَّادي ؛ لأنه أكبرُ منِّي سنًّا ، وأكثرُ منِّي فهمًا، وأكثر منِّي علمًا وزهدًا وعبادةً وفقرًا، وكان يقرأ القرآن على رواية قالون وورش ، ويرسُمه على ما نص عليه الإمام الخرَّاز في : « مورد الظمآن » و « عُهدة البيان » ، ويُجوِّده ويُحسِّنه ويتقنه في الضبط، وكان من الماهرين به في ذلك الزمان، توفي سنة ٨٩٨ ثمانية وتسعين وثمانمائة على الأصح ، – نفع الله به – .

وحدَّثنا الأخ الصالح أبو إسحاق إبراهيم الطرابُلْسي – رحمه الله – عن خاله عن والده قال : حضرتُ ذات يوم سنة ٨٤٥ خمس وأربعين وثمانمائة بمجلس الشيخ الولي الصالح الفاضل الكامل سيدي محمد بن علي الفيتوري الشهير بشَانِ الشَّان[1] بداخل مدينة طرابلس، ومعه جماعةٌ فضلاء،

(١) ترجم له الخروبي في شيوخه ، طبعة دار أصالة ص ٥٠ ، والنائب في نفحات النسرين ١٢١ ، والمنهل العذب ٢٠٥ والتاجوري في الإشارات ص ١٦ .

وجعل يتكَّلم لهم - من جهة الكشف - على ما يحدُث في طرابلس وغيرها ، من الأولياء الأكابر إلى أن وصل بالكلام على الفواتير ، فقال يتزايد لسليم - ابن عمي - ولدٌ صالح من أعظم الأولياء ، ومن أكبر مشايخ وقته ، صاحبُ كشفٍ ومدد ، يجمع بين الطريقة والحقيقة ، ثم وصفه لهم بأوصافه المعلومة فيه ، [من] واردٍ قويٍّ ، وعلوِّ مقامٍ ، وغير ذلك ، قال له بعضُ الحاضرين معه من أصحابه : أهذا الولي الذي تذْكُر فيه هو أعظمُ منك ، ومن سيدي عبد القادر الجيلاني ، وسيدي معروف الكَرْخي ، وسيدي أحمد البدوي ، فقال : تالله ، وحق رسول الله ﷺ وتربة أجدادي الفواتير إنه أعظمُ مني ومنهم في الولاية والدرجة ، وكان وقت تكلُّمِ سيدي محمد شَانِ الشَّانِ على سيدي عبدا لسَّلام لم يُخلق في بطن أمّه .

وسيدي محمد هذا الذي [يعرف بـ]شَانِ الشَّان كان مجذوبًا من أهل الحال ، أطبقَ الناس على ولايته ، واجتمعتْ القلوبُ على محبته ، وأطلق الله ألسنةَ الناس أنه من الأوتاد ، وكان مكاشَفًا ، يتكلم على الخواطر فيأتي إليه المسافرون ، يكلِّمهم بما يكون في سفرهم ، ويدخلُ أناسٌ من الآفاق فيسمِّيهم بأسمائهم ، ويَعرِفُ بلدَ كلِّ واحدٍ منهم ، ومكان(١) مسكنه ، وكَمَّ أولاده ، وجيرانَه(٢) ، ويقول : رأيتُ في بلدكم كذا وكذا أعمى ، وغير ذلك، توفي عام ٩٠٤ تسع مائة وأربع سنين ، نفع الله به .

وحدَّثنا الأخ الصالح سيدي طاهر القُسْنطيني ، كان من أجل تلامذة الشيخ سيدي أحمد زرُّوق - رحمه الله - قال: دخل الشيخ الولي الصالح الكاملُ، كبيرُ الدائرة الشَّاذِلية ، إمامُ وقته ، أبو العباس سيدي أحمد زرُّوق

(١) في الأصل : أين .
(٢) في الأصل : ومَنْ جيرانه .

ذاتَ يومٍ للمكتب الذي يقرأ فيه سيدي عبد السَّلام ، فوجد المؤدب ينالُ[1] سيدي عبدَ السَّلام [بـ]الضرب ، فنزعه من يده وقال له : يا مؤدِّبَ آخِرِ الزمان الزمِ الأدب مع هذا الصبي الذي هو مولاك عبدُ السَّلام ، وإياك ثم إياك أن تضرِبَه لأجل الدنيا الدَّنِيَّة التي هي جيفة ، وحبُّها رأسُ كلِّ خطيئة ، فهو والله من أكابر الصالحين .

[الشيخ أحمد زرُّوق]

وسيدي أحمد زرُّوق هذا كان من الرِّجالِ الأخيارِ ، والساداتِ الأبرار ، كبير المقدار ، كثير الأنوار ، إمام في الشريعة ، عالم بعلم الحقيقة ، له في العالمين لسانٌ طليق ، ونورٌ شريف ، وعبارةٌ عظيمة ، وألفاظٌ تميمة ، وتواليفُ في كل فن عند الناس معلومة ، فمن نظرها علِمَ منها قدرًا في العلوم الظاهرة والباطنة ، فما أُلف في فنٍّ من الفنون إلَّا وكان تأليفُه فيه عديمَ المثال ، ولا تكلَّم في علم إلَّا خضعت فيه له رقابُ الرجال ، فُتح عليه بأنواع العلوم ، ومُنح دقائقَ الفهوم ، إذا عبَّر في علم حرَز وحقَّق العبارة ، وإذا أشار لوَّح الإشارة ، يظهر لك مقامُه في العلوم من تواليفه ، ورسوخه فيها من بديع تصانيفه .

وله – رضي الله تعالى عنه – أحوالٌ سنيَّة ، ومقاماتٌ في السُّلوك عليَّة ، عارف بالله سبحانه ، عالم بأحكامه ، إذا عبَّر أجاد ، وإذا تكلَّم أفاد ، وُلد كما قال يوم الخميس قبل طلوع الشمس ثامن وعشرين من محرم عام ٨٤٦ ست وأربعين وثمانمائة ، وتوفي أبوه وعمه قبل السابع ، فكفلته جدته ،

(١) في الأصل : يناول .

فحفِظ القرآن ، وتعلَّم الخِرازة ، ثم اشتغل بالعلم ، في السادس من عمره ، فقرأ الرسالة على سيدي عبد الله الفخّار ، وعلى السَّطِّي بحثًا وتحقيقًا ، ثم أخذ على القوري ، والزَّرهوني ، والمجاصي ، والأستاذ الصغير ، وغيرِهم ، وصفـه ابنُ غازي بـ « الفقيه المحدِّث الفقير الصوفي الصَّفِيِّ » ، البُرنُسي نسبةً لعرب بالمغرب ، بضم النون بعد الراء اهـ . » قال شيخنا الناصر اللَّقَّاني : « قوله البُرنُسي ، ذكره بعضُ من أَلَّف في أنساب العرب وغيرِهم من البرابر البرانس ، وهم بنو برنُس من بربر ، فيظهر من ذلك أن الشيخ من بني برنس ، وأما الزرُّوق بالزاي المفتوحة ، ثم راء مشددة ، ثم واو ، ثم قاف . فإنما جاء ذلك من قبل أحد أجداده كان أزرق العينين » .

ويُذكر أنَّ أمَّ جدِّه شريفة ، ويُذكرُ أيضًا أن سيدي زيتون أشارَ بإصلاحه (١) وهو في الصِّغَر ، إلى أن قال فيه : « إنه رأسُ السبعة الأبدال – نفعنا الله به ورضي عنه – وأرضاه اهـ » . ووصفه أيضًا شيخُنا شمسُ الدين اللَّقَّاني بقوله : هو الشيخُ الكبيرُ الشهير ، الكاملُ العالمُ العاملُ ، شيخُ شيوخ أهلِ الطريق ، وإمامِ أهلِ التحقيق ، شيخِ زمانِه ، وأحدِ مربِّي السالكين ، ومسلكِ المريدين ، شيخِ الطريقة ، الجامعِ بين الشريعة والحقيقة ، أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بالزرُّوق ، نفعنا الله به ، ورضي عنه ، وأرضاه ، كان ﷺ يربِّينا ويعلِّمنا الخيرَ ويحضُّنا عليه ، ويؤدبنا بآداب الفقراء ، فعلَّم وأفاد ، وربَّى وأجاد ، وأعطى ومنح وأجاد .

ومن شيوخه ﷺ عبدُ الرحمٰن الثعالبي ، والمشذالي ، وإبراهيم التازي ، وحلولو ، والرصَّاع ، والجُذري ، وأحمد بن سعيد الحُبَّاد ، وأبو مهدي

(١) بإصلاحه : كذا ولعله أراد بصلاحه .

المواسي ، والسنوسي ، والتونسي ، وبالشرق الخرُّوبي الكبير[1] ، وعلي السَّنهوري ، والحافظان الذهبي والسخاوي ، والوليان أحمد بنُ عقبة الحضرمي والشعاب الأفشيطي ، والشيخ فتح الله أبو راس ، وآخرون .

وله تواليفُ كثيرةٌ مختصرةٌ محرَّرةٌ محقَّقةٌ مفيدةٌ ، كشرْحَيْ الرسالة ، وشرْحِ الإرشاد ، وشرْحِ مواضِعَ من مختصر خليل ، رأيتُها بخطه ، وشرْحِ القرطبيةِ ، وشرْحِ المباحث الأصلية ، وشرْحِ الوَغليسية ، والغافقية ، والعقيدة القدسية ، وتسعة وعشرين شرحًا على حِكَم ابنِ عطاء الله ، وقفتُ منها على الثاني عشر، وعلى السابع عشر، والخامس عشر، والرابع عشر، وشرْحَيْ حزب البحر ، وشرْحِ مُشكِلَات الحزب الكبير، وشرْحِ حقائق المقَّرِي ، وشرْحِ قِطَعِ الشُّشْتري ، وشرْحِ الأسماء الحسنى ، وشرْحِ المراصد لشيخه ابنِ عقبة ، والنصيحة الكافية ، ومختصرها ، وإعانة المتوجِّه المسكين على طريق الفتْح والتَّمكين ، وقواعد في التصوُّف في غاية النُّبْل والحُسْن ، والنصح الأنفع ، والجنة للمعتصم من البدع بالسنة ، وعُدَّة المريد الصادق من أسباب المقْت في بيان الطريق وحوادث الوقت - كتاب جليل فيه مائة فصل ، في بدع فقراء الوقت - وتعليقٌ لطيفٌ على السَّخاوي في ضبط الألفاظ ، وجزء صغير في علم الحديث ، ورسائل كثيرة لأصحابه في آداب ومواعظ ، وحكم لطائف ، إلى غير ذلك .

قلت : وبالجملة فقدْره فوق أن يُذكر ، فهو آخرُ أئمة الصوفيةِ المحقِّقين ، الجامعين للحقيقة والشريعة ، وله كرامات ، وحجَّ مرات ،

(١) هو علي الخروبي والد أبي عبد الله محمد الخروبي صاحب المؤلفات الكثيرة التي منها تفسيره وكتاب شيوخه وشرحه لعيوب النفس وشرح الصلاة المشيشية وغيرها ، (ترجمته في المنهل العذب ٢٠٣ ونفحات النسرين ١١٦ وانظر شيوخ الخروبي ص ٧) أما والده فقد ذكره الشيخ زرُّوق في شيوخه وأخذ عنه في طرابلس .

وأخذ عنه خلقٌ كثير ، كعبدِ الهادي البسكري ، والشِّهاب القَسْطلاني ، وطاهر القُسنطيني ، وشمس الدين اللَّقَّاني ، والخَرُّوبي الصغير ، والحطَّاب الكبير (١) ، وغيرِهم ممَّن يَكثر تَعدادهم ، ولا مات (٢) حتى بلغ القُطبانية العُظمى ، وتُنسب إليه قصيدةٌ على منهاج القصيدة الجيلانية ، ذكرناها في الكبير منها قوله : [طويل]

أَنَا لِـمُـريـــدِي جـــامعٌ لشــتــاتِهِ
إذا ما سَطَا جــورُ الزَّمــانِ بنكبةِ

فإنْ كنتَ في كرْبٍ وضيقٍ ووحْشةٍ
فنــادِ أيــا زرُّوق نــأتِ بســـرعةِ

فكم كربةٍ تُجــلى بمــكنــون ســرِّنا
وكم طُرفة تُجنى بأطــراف صُحبتي

وهو ممن دعا اللهَ ألَّا يَلحق بالقرن العاشر، تُوفي ببلاد طرابلس الغرب، في قريةٍ من قراها الشَّريفةِ تسمَّى بمصراتة ، بزاويتِهِ المعروفة به ، وكانت وفاتُه في صفر عامِ ٨٩٩ تسعة وتسعين وثمانمائة ، واستخلفَ من بعدِه شيخَنا شمسَ الدين اللَّقَّاني مدةً ، ثم انتقل إلى المشرِقِ - رحمه الله ونفع به - وحدَّثني الأستاذُ شمس الدين المذكور - رحمه الله - قال : كنتُ إذا توجهتُ مع شيخي الزرُّوق لزيارة الفواتير ، ولقيَهُ سيدي عبدُ السَّلام وهو صغير ، يقول : سيكون لهذا الولد شأن عظيم بطرابلس ، إلى أن يتفوَّقَ على أهل عصره .

(١) يقصد أبا عبد الله محمد بن علي الخروبي المتقدم ذكره ، والحطاب : محمد بن عبد الرحمن الرعيني الحطاب دفين تاجوراء ، (انظر أعلام ليبيا ٣٨٥ وشيوخ الخروبي ٤٦ ، وما كتبه د. جمعة الزريقي عن أسرة الحطاب) .
(٢) تركيب عامي أراد به « لم يمت » .

[اللَّقَّانيان]

وسيدي شمس الدين هذا اسمُه محمد بنُ حسن بنِ علي بن عبد الرحمٰن اللَّقَّاني ، [ولُقِّبَ بـ]شمس الدين لكثْرة عِلْمه وتورُّعِه ، وأخذِه بالأحوط وزهدِه ، كان - رحمه الله - فقيهًا صالحًا علَّامةً محقِّقًا ، وُلد بلقَّانة من قرى مصر ، وحفِظ بها القرآن ، والشاطبية ، والرسالة ، ثم قدِم القاهرة ، فحفظ مختصر خليل ، وألفية ابن مالك ، ولازم في الفقه البُرهانَ اللَّقَّاني ، وجلَس ببابه أيام فضائله ، وأخذ عن أبي الحسن الفقه والعربية ، وعن التقي الحُصني المنطق .

وُلد وقتَ صلاة الجمعة عاشر المحرم سنة ٨٥٧ سبع وخمسين وثمانمائة، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكان من الماهرين به ، وكانتْ وفاتُه يوم الأربعاء رابع عشر من ربيع الثاني سنة ٩٣٥ خمس وثلاثين وتسعمائة، ولم يُخلِّفْ بَعده مثلَه ، عمَّ نفعُه في الفتوى ، وعكفَ عليه النَّاسُ ، وتزاحموا ، وانفرد بإقراء مختصر الشيخ خليل ، له تحريراتٌ بديعةٌ من طُرره عليه ، وكتب عليه حاشية ، فلمَّا ظهرتْ حاشيةُ ابنِ غازي ، وُجدت مُوافِقةً لِمَا حرَّره ، فأَخفىٰ متاعه ، وكان يَنفُر من قراءة حاشية ابن غازي في درسه ، له مكاشَفات عديدة عجيبة ، أخذ عن الشيخ سيدي أحمد زرُّوق ، وانتفَع بعلمِه وعمله ، وداوم خدمته ، وحصَلَ له به خيرٌ كثير .

وكان هو أول مشايخي في النحو والمنطق والتوحيد والفقه ، وقد أحسنَ لي وأخذ بيدي جزاه الله عنَّا خيرًا ، كان هو وأخوه الذي هو شيخنا الناصر من جِلَّة العلماء العاملين ، عليهما مدارُ المذهب بمصر ، وهو أكبرُ سِنًّا ، وأكثرُ فِقهًا ، له قدمٌ راسخٌ في الكشف ، اجتمع بعِدَّةٍ من أولياء مصر والغرب ، وأخوه الناصرُ أكثرُ تحريرًا وتحقيقًا للعلوم العقلية ، زاد النفعُ به

لطول عمرِه ، واشتغاله ليلًا ونهارًا ، وكانت له محبةٌ مفرطةٌ في جماعةِ الفواتير ، وطريقتهم العُروسية .

ولا بأس بتعريفِه وذكرِ علومِه وشيءٍ من أحواله على جهة التبرُّكِ ، أعني : شيخنا الناصر ، وهو الإمام العلّامة ناصر الدين اللَّقّاني الشهير ، محمد بنُ حسن، شيخ الشيوخ ، المحقِّق الفهامة ، ذو الفضائل العديدة ، والكرامات العتيدة ، بقيّةُ السلف ، القاضي العادل ، شارك أخاه في غالب شيوخه ، وأخذ عن علّامة المعقولات مُلّا علي العجمي ، وغيره ، وأقرأ العلومَ على اختلافها نحوًا من الستين عامًا ، لا يفترُ عن الاشتغال [بها] طول نهاره ، على وجه لم يساوِه فيه غيرُه ، من تحرير العبارات ، والنَّظر فيها، فقرأ تفسيرَ البيضاوي ، وأصله ، والطوالعَ ، والعضُد ، وتلخيصَ المفتاح ، وشرحَه للسَّعْد ، والمحلِّي على السُّبْكي ، والشَّمْسِية ، ومُغني ابن هشام ، والألفية وشروحها ، والرضي ، وغيرها ، والتهذيب مرتين بتقييد أبي الحسن الزرويلي ، وابن الحاجب بالتَّوضيح، ومُختصر خَليل وغيره من الفقه، ولم يصنِّف شيئًا سوى ما كتب من الطُّرر على التوضيح ، فجُمِعتْ بعد موته في مجلد ، فعمَّ نفعُها ، ونُسِبَ له تقييدٌ على المحلِّي على السُّبْكي جزءٌ من خطه ، وعلى شرح السَّعْد للعقائد ، وعلى شرحه أيضًا التصريفُ للعزِّي ، وشَرَحَ خُطْبة المختصَر .

دارتْ عليه الفتوى بعد موت أخيه ، لإشارته له بذلك ، وكتب قليلًا في حياته واستُفتي من سائر الأقاليم ، في الفنون العقلية والنَّقلية ، وكان حافظًا لقاموس العلم ، لا يدخل بيتَ أميرٍ ولا غيره ، وطلب منه نائبُ السَّلطنة الاجتماع [به] في الجامع الأزهر ، فأرسل إليه لا يأتني ويتركُني في موضعي أدعُ له ، ولم يجتمعْ به ، وامتنع من الدُّخول ، وتجرَّد آخِرَ عمره عنِ

الدنيا ، وفرَّق ماله بيده على أماثل الطلبة الفقراء لوجهه تعالى ، وقال لِمَنْ نهاه عنه أتريدُ آخر عمري أن تغُشني في آخرتي ، وأَعْرَضَ عنه . وبالجملة هو آخرُ ما انتهتْ إليه رئاسةُ العلمِ بمصر ، لم يبْقَ من أهل المذاهب المخالفةِ وغيرِهم إلَّا مَنْ هو من طلبتِهِ ، توفي في شعبان سنة ٩٥٨ ثمانية وخمسين وتسعمائة ، ومولدُه كما كتبَهُ بخطِّه سنة ٨٧٣ ثلاثة وسبعين وثمانمائة ، وكثُر النفعُ به لطول عمره ، وجميلِ صبْرِه على طلبة المذاهب الأربعة في علوم المعقولِ ، وقد نفع اللهُ به جميع البلاد من المشارق والمغارب ، وقد علَّمنا العلومَ النافعة ونفعنا بها ، وحصل لنا منه خيرٌ كثير ، جزاه الله عنا خيرًا .

فائدة : سُئل - رحمه الله - عما يقع لخليل في مُختصرِه من عطْفِ الجُمَل بـ « الواو » ، ثم يعطِفُ بعدها بـ « أو » ، مع أنَّ الأول أخصُّ ، أو يَخرُجُ عن العطفِ للتشبيه ، كما [هو] دَأْبُه ، كقوله : « وكُرِها[1] بفرْضٍ كدعاء قبل قراءة ، وبعد فاتحة، وأثنائها ، وأثناء سورة » وكقوله: « ورفعه رِجْلا ووضع قدم » وكقوْله : « وشدة وَحْلٍ ، أو مرضٍ ، أو جُذام ، وتمريض ، أو حبْس أو ضرْب » ثم قال : « وعري ورجاء عفو قَوْد ، كريح » ثم قال : « لا عُرْس أو عَمًى أو شهود عيد ، فربما ظهر في بعض المواضع نكتة العدول إلى التشبيه، كقوله في فضل الجمعة « كتأمين » . فأجاب : أما العطفُ بالواو ففي المتعاطفات التي مفهوماتها متغايرة متناسبة ، كما نصَّ عليه علماء المعاني، وقالوا : إن العطفَ بالواو يقتضي التَّغاير والتناسُبَ ، كما في وحل ومطر ، وكما في مرض وتمريض ، فأما العطف بأو فيفعله في متعاطفات لا تَنَاسُبَ بين مفهوماتها ، بل هي متباينة كالمتضادات التي لا تجتمع في محل

(١) يعني التعوذ والبسملة في صلاة الفرض .

واحد ، بل الموجود أحدها فناسبها ، أو التي لأحد الشيئين أو الأشياء ، كما نُصَّ عليه في العربية ، وكذلك كما « رَفْعُ رِجْلٍ أو وَضْعُ قدم » إذ الرفعُ والوضعُ ضدان ، وكما « بين الأساطير [أو] أمام الإمام » لأن البَيْنَ والأمام ضدان ، وكما في مرض أو جُذام وحبْس أو ضرْب وعُرْس ، أو عَمَى وشهود عيد ، إذ لا تَنَاسب بينها ، وأما التشبيهُ بالكاف فإشارة إلى أن المقصود بالذِكر ما قبلها ، وأن ما ذُكر بعدها استطرادٌ وتكميلٌ للأقسام ، كقوله : « وكرها بفرض كدعاء » إذ المتحدَّث عنه التعوذُ والبسملةُ ، وأما الدعاء وما بعده فتبعٌ مكمِّلٌ للأقسام المكروهة ، وكما في « عري ، ورجاء عفو قود ، كريح » فإن المقصودَ بالذِّكر : تعدُّدُ الأوصافِ القائمة بالمكلَّفِ التي هي أعذارٌ في ترْكِ الجماعة ، والريحُ ليست منها ، وإنما الجماعة ، [وقد] ذُكِرَ استطرادًا وتتميمًا لأقسام الأعذار إلى غير ذلك ، والله - تعالى - أعلم .

وقد سألتهُ ذات يوم على صِفَةِ العارفِ ، قال : أنا من العارفين بالله الذين لا يَخفَىٰ عليهم شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، وإنِّي لأَعرِفُ بأزِقَّةِ السماءِ (١) كما تعرِفُ أنتَ أزِقَّةَ مَكَّةَ ومصر ، وفي كبير سيدي عبد الرحمٰن المكِّي ، قيل للشيخ الذي هو سيدي عبد السَّلام في ناصر الدين اللَّقَّاني ، قال : « مدينة من مدائن العلم ، له قَدَم راسخ في الولاية ، مجابُ الدعوة ، يُستسقى به ، من أكابر العارفين، ومن أجلِّهم وأعرَفِهم بالله تعالى اهـ » .

قلت وسيدي الناصر هذا كان الشيخُ يعظِّمه كثيرًا ويثني عليه ، ويشهد له بالولاية ، ويشير له في مقطَّعات كثيرة ، منه قوله لي في يوم سفري إلى المشرق : [زجل]

---

(١) هذا من الادعاءات التي لا تقرها الشريعة ، فما في السماء غيب لا يعلمه إلَّا الله إلَّا ما جاء عن رسول كما في القرآن الكريم .

يا برَموني أي مـريدي قـلْ سـلامْ — منــي إلى الشـــيخ الكبــيرْ
شيخ شيوخِ العـــربِ والأعجامْ — عـزُّ الطـلبةْ والفقـــيرْ
سيدي الناصر بن حسن عون الأنـامْ — هـو اللَّـقَّــاني الشـهيرْ
مفتي في الأربع مذاهب قطبْ إمامْ — معـــدن للعــلم الكثــيرْ
منـزلٌ للقـوم والأرامل والأيتـامْ — بكلِّ عــلم خـــبيرْ
قائمٌ بالحقِّ والشريعـة والإسلامْ — سُــنِّي ليس له نــظـيرْ
يقصِم مـن يتـلاه من كلِّ الظُّـلامْ — بـإذن الله الــقـــديرْ

إلى آخر ما قال ، وبالجملة فأستاذُنا الناصر ليس له ، أي لا يشاكلُه ، أحدٌ من أهل مصر ولا علمائها ، ولا أوليائها ، ولا مات إلَّا قُطبًا ، قال - رحمه الله - : « رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي : يا ناصر الدين يا وليَّ الله ، قل عند النوم بعد قراءة سورة تبـارك الملك ، وآية الكرسي ، والتعـوُّذ والبسملة ، يا الله ، يا الله ، يا الله ، لا إله إلَّا أنتَ سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهم بحقِّ محمدٍ أرني وجْهَ محمَّد ﷺ حالًا ومالًا ، فإذا قلتَها عند النوم فإني آتيك ، ولا أختلف عنك أصلًا » .

وأخبرنا أيضًا أنه رأى رسول الله ﷺ يقظةً تسعمائة مرة ، ويدل أيضًا على قُطبانيته كلامُ الشيخ الذي هو مولانا عبد السَّلام حين بلغه خبرُ موته صار يقول: [زجل]

يا عيني صُـبِّي دُموعَكْ يـا غَـبْرَا — وابْـكي بالـدَّمع الغَـزِيرْ
على الإمام بن حسن شيخ القُـرَّا — عِـزِّ الزِّيـار والعـشــيرْ
قاضي بالحق والشريعة يـا فُـقـرا — قطـب الأقطـاب الأمــيرْ
أسـتاذ العصـر مات عنَّا يا حسرا — وأمسى في الرمس مقـيبــيرْ

إلى آخر ما قال رضي الله عنه ونفعنا به وبأمثاله ، آمين .

وقد رأيت أن أقتصر على ما أشرت إليه بالتبشير في هذا الكتاب ، فما تقدم منه فيه كفاية ، وقد نقلت منه في الكبير أكثر من هذا ، فراجعه ، والله أعلم .

[مـــولـــده]

وأما مولدُه - أعني مولد شيخنا الذي هو سيدي عبد السَّلام - فكان ليـلة اثنتي عشرة من ربيع الأول سنة (٨٨٠) ثمانين وثمانمائة ، وتوفي سنة (٩٨١) إحدى وثمانين وتسعمائة - كما سيأتي - وكان ذلك المولدُ ببلاد الفواتير بيزليتن ، من عمل طرابلس الغرب ، ومن نواحيها الشرقية ، واعلم أن هذا اليوم الذي وُلد فيه النبي ﷺ هو أفضلُ من سائر الأيام ، ومن ليلة القدر التي هي أفضلُ من ألف شهر على الأصحِّ ، ولا بأس باستطراد شيء من الأحاديث ، وكلام القوم في فضل هذا اليوم ، حيث أتى محلَّ الكلام عليه ، فأقولُ : جاء في الخبر عن النبي ﷺ أن هذا اليوم المبارك الذي هو يوم الاثنين يوم خيرٍ ، وبَرَكةٍ ، ورِبْحٍ ، وتجارةٍ ، وسفر[1] ، ولا يخيب من تزايد فيه من الإسلام ، ويسمى عند أهلِ الفلك بيوم القمر ، ويُقال : إن القمرَ سعيدة سالمةٌ من النحس ، لا سيما ساعتُها الأولى التي يُقال فيها : ساعة رب اليوم ، وهي ساعة القمر .

وفي الخبر عن أنس بن مالك ﷺ ، سُئل رسول الله ﷺ عن يوم الاثنين فقال : يوم بركة وسفر ، وقيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : سافر فيه

---

(١) لم أقف عليه مسندًا، وذكره علي بن برهان الدين في السيرة الحلبية ٢/ ١٦٧ .

شعيب عليه السلام ، ورَبِح في تجارته ، وفيه تَنزل البركات ، وتجْلَى الكُرُبَات ، وتُستجاب الدعوات . ورُوي عن بعض الحكماء أنَّ مَنْ تزايد (١) في هذا اليوم كان آمنًا من الجن والإنس ، وقال بعضُ العلماء : خُصَّ يوم الاثنين بسبع فضائل :

الأولى : صعد فيه إدريسُ إلى السماء - أعني يوم الاثنين .

الثانية : ذهب موسى إلى الطور في يوم الاثنين .

الثالثة : تَنزِلُ وحدانيةُ الله تعالى في يوم الاثنين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ (النحل ٥١) .

الرابعة : وُلد النبي ﷺ في يوم الاثنين .

الخامسة : تُعرَضُ أعمالُ العباد في يوم الاثنين .

السادسة : أول ما نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ في يوم الاثنين .

السابعة : مات النبي ﷺ في يوم الاثنين .

كل ذلك في تفضيلِ اليوم اهـ . والأدلةُ في فضْلِ هذا اليوم كثيرةٌ ، لا يُمكِنُ حصرُها في هذا الكتاب ، والله أعلم .

وأما ابتداءُ أمره في السُّلوكِ فقد رُبِّي يتيمًا من أبيه ، وأنه لَمَّا مات والدُه تركهُ في حِجر أمِّه ابنَ سنتين وشهرين ، وكان الذي تولَّى أمورَه والقيامَ بشؤونه في الصِّغَرِ من نَفَقَةٍ وكِسْوَةٍ وغيرِ ذلك ، عمُّه أبو العباس أحمد بنُ محمد الفيتوري - رحمه الله - فكان يحبُّه وينصحُه ، ويألفُ إليه ، وألْبسَه

(١) تزايد : يريد ازداد ، وهكذا يستخدم المصطلح في مواضع مختلفة ، فتركته على اختياره ، مع إصلاح بعض الهفوات اللغوية الأخرى .

الثيابَ الثمينة ، وكان هو الذي وضعَهُ في المكتبِ يقرَأُ القرآن مع الصبيان ، إلى أن رزقهُ الله حِفْظَ القرآن وتِلَاوته وصار من الماهرين به ، كما كنت أسمعه منه يقرأُهُ على حُسْنِ هَيْئَةٍ ، بِضَبْطٍ وتَجْوِيدٍ ، على ما نصَّ عليه السلفُ الصالح ، وكان مع كَثْرَةِ حِفْظِهِ لهُ وغزارةِ فهْمِه ، لا يقرأُه إلَّا في النسخة ، قيل : إنه حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، على الأصح .

وكان عمُّه - الذي هو سيدي أحمد - له باعٌ (١) في الفهمِ والحفظِ والإتقانِ في العربية وغيرِها من العلوم ، وكان من أكابر الشعراء والناظمين، كأنه كعب ابن زهير ، أو حسان بن ثابت ، وكان شعرُه ونَظْمُه في حقائق النحو ومُشْكِلَاتِ الفقه (٢) ، وما لا يذمُّه الشارعُ ، كمدح الأولياء والصالحين ، بما فيهم من الأحوال الحسنة ، ومدح النبي ﷺ ، وكان هو أولُ مشايخِ الشيخ في النحو ، والمنطق ، والتوحيد ، والفقه ، وغير ذلك .

وكان لا يتركُ ابن أخيه ، وهو الشَّيْخُ ، وقْتَ الدرس أن يفارقَه أصلًا، فلمَّا بلَغَ مبْلَغَ أهل العلم التَّامِّين في ذلك ، قال له عمُّه : سِرْ معي إلى شيخ من مشايخ التربية ، لتُنسبَ إليه وتأخذ عنه ، فقال : يا عمِّي فكيف نحتاج إلى شيخ والله ﷻ كَشَفَ لي (٣) الحجابَ حتى رأيتُ مشارقَ الأرض ومغاربَها ، وما فوق الفوق ، وما تحت التَّحْتِ ، فقال له يا عبدَ السَّلام فإن لم تُنْسَبْ إلى شيخ فلا يَتِمُّ لك ذلك ؛ لأنَّ شيخَ التربية واجبٌ وجوبًا متأكِّدًا(٤)، فإنَّ المريد

(١) في الأصل : باب .

(٢) لعله يعني أن له أراجيز في العلمين المذكورين .

(٣) في الأصل : إليَّ .

(٤) مثل هذه الأحكام تحتاج إلى سند شرعي من كتاب أو سنة أو إجماع ، ولم أجد هذا السند بالرغم من أهمية التربية الدينية التي يمكن أن يكون مصدرها المعلم لأن العلم فريضة على المسلمين ، وأول مبادئها تعليم العقيدة ، كما أنها مسؤولية الأسرة ورعايتها التي تقتضي أن تربي الأجيال =

- وإن قاربَ المنازِلَ ورأى ما يُمكنُ وصفُه - فلا يأمنُ رَوْعَةَ نفسِه ، وغِوايةَ رُعونةِ شيطانِه ، إلَّا بمعرفةِ شيخٍ غالبًا ، فلا بد لك من الانتساب إلى مَنْ هو عارفٌ بالله ، فارغٌ من تأديب نفسه ، وعلى الله الكمال ؛ لأن الإنسان إذا لم يُنسبْ إلى شيخٍ ، قالوا : كالشجرة النابتة بنفسِها ، ولا يَتِمُّ نتاجُها .

ولا زال عمُّه ﷺ يحثُّ عليه ويكرر عليه ذلك إلى أن سار معه إلى من أراد بظهوره على يديه ، وهو الشيخ الأعلم والقُطْبُ الأعظم سيدي عبد الواحد الدوكالي [1] ﷺ ، فلمَّا وصل به إليه فرِحَ به فرحًا عظيمًا . قال : مرحبًا بأبي العباس وابن أخيه عبد السَّلام بن سليم بن محمد ، وذكر نسبَه إلى رسول الله ﷺ ، ثم أجلسَه عَمه بين يدي الشيخ سيدي عبد الواحد الدوكالي ، واستودعَهُ عنده وانصرف .

وبقي سيدي عبدُ السَّلام عنده سبع سنين، مُجِدًّا في خِدْمَتِه ليلًا ونهارًا ، يمينًا وشمالًا ، لا يتفرَّغُ إلَّا ساعةَ الدَّرْسِ في عِلم التصوُّف ، فإنَّ الشيخَ يُبطله ساعتَه من جميع الخِدْمة ، وقَدْ أظهرَ في خِدمته واتِّباعِ مأموراتِه من غيرِ تردُّدٍ ولا تأويلٍ عجائبَ لا يقدر عليها إلَّا مَنْ سبقَتْ له عنايةٌ من الله تعالى، ووقعتْ معه حكاياتٌ كثيرةٌ في أَمْرِ الخِدْمَةِ ، كقوله ذاتَ ليلة من ليالي

= تربية إسلامية ، فهل يغني هذان الأمران عن الشيخ المربي ؟ وهل يسقط بهما الوجوب المؤكد الذي يشير إليه المؤلف ؟ المهم هنا أن الأحكام تحتاج إلى فقه وسند شرعي ، وقد شاعت في القرون الأخيرة الجرأة على إطلاق أحكام الحرام والحلال ـ وشاع ادعاء الإجماع إذ تجده يتردد عند هذا الفريق وهذا الفريق وكأن طائفته هي كل المسلمين .

(١) أحد أعلام التعليم والتربية الصوفية الشرعية في زاوية الشيخ عبد الله الدكالي بمدينة مسلاتة ، وكان معاصرًا للشيخ أحمد الزرُّوق وصديقًا له ، ترجمته في الوصية الكبرى ص ٧١ وروضة الأزهار ، انظر: الدكالي .

الشتاء : اجلسْ تحت هذا الميزاب من بعد صلاة العشاء الأخير إلى أن نأتيكَ، فامتثلَ الأمر ، وجلس تحت الميزاب من بعد صلاة العشاء الأخير إلى أن أصبحَ الصباح ، والميزابُ يصب على رأسه بالماء ، ولم يتحوَّلْ من ذلك الموضع خوفًا من مخالفة شيخه ، ولم يزل باقيًا هناك إلى أن أتى إليه الشيخُ ، وكان ذلك في ليلة بردٍ ومطرٍ كثيرٍ .

ومنها : أنه بعثه ذات يوم من مسلاته إلى ساحل الأحامد ليأتي بحاجة من السيدة عائشة ، وهي ابنةُ الشيخ ، في قصْرِهم المعروف بهم بالساحل ، وقال له الشيخُ عند البعث : مُحَرِّضًا له على الاستعجال : إياك وإياك أن تقعُدَ ، فأسرع حتى إذا وصل لِبِنْتِ الشَّيْخِ عزمتْ عليه على الطعام ، فأقسمَتْ عليه ألا يمشي حتى تصنَعَ له الطعامَ ويأكلُه ، فخشِيَ من تحنيثِها ، وخاف من مخالفة نهي الشيخ له على القعود ، فأخذَ ولدَها صغيرًا وجعلَ يلوذُ به في نواحي الدار واقفًا ، لئلا يبكي فيشغلَها، حتى صنعتْ له الطعام، فأكل منه واقفًا ، [ووضعه على مقامٍ مرتفعٍ] (١) ، ومشى ولم يَبِتْ ، ولم يجلِسْ، لا في الذهاب ولا في الإياب .

ومنها : أنه بعثه ذاتَ ليلة من ليالي الشتاء - وهي ليلة برد ومطر شديد - ليأتي بالماء من صهريج خارج البلد ، بينها وبينه نحو أربعة أميال ، فذهب إلى تلك الماجل (٢) ، وملأ القِربة وربَط فاها ، وجعلها على ظهره ، وجاء بها حتى إذا قرُب من البلد وهي زعفران ، انفلَتَ وِكاؤها وأُريق ما فيها من الماء ، ورجع ثانيًا إلى ذلك الصُّهريج ، ولم يزَلْ هكذا من المغرب إلى الصباح، والمطر يهطل عليه ولم يضْجَر ، ولا يتأوَّه ، فلمّا أنْ أصبحَ اللهُ بخير

(١) في الأصل : (ووقع له على مقام مرتفعا) .
(٢) الماجل أو الماجن لغة في معنى الصهريج والثاني أكثر تداولًا في اللهجة الليبية .

الصباح سلِمت له آخرُ القِرَب، وحين ملأها حَمَلها على ظهره من غير وِكاء، وسلِمت له بإذن الله ، فلمَّا دخل بها على الشيخ قال له : يا عبد السَّلام أُورِثْتَ مقامي ، اذْهَب لتنتفعَ بك الناسُ ، الشيخ ما يخدم شيخًا ، وامتنعَ منه ، فمشى من عندِه حزينًا كئيبًا .

وجعل يطوف على الأولياء يطلب منهم الاستخدامَ ، فإذا استخدمَهُ الواحد مُدَّةً يسيرة اطَّلع على مقامه فيمتنعُ من استخدامه ، إلى أن بلغ ثمانين شيخًا من مشايخ التَّربية ، فالكُلُّ امتنعوا منه ؛ لاطِّلاعهم على علوِّ مقامِه ، كسيدي عبد الله العبَّادي ، وسيدي عبد النبي بن عبد المولى ، وسيدي علي بن عبد الحميد العوسجي ، وسيدي محمد بنِ عبد الرحمٰن الحطَّاب ، إلى انتهاء الثمانين ، ذكرناهم في غير هذا .

[الشيخ عبد الواحد الدكالي]

ولنرجع بالكلام على شيخ الشيخ الذي تخرَّج به – وهو سيدي عبدُ الواحد الدوكالي المذكور ﷺ ونفع به – ، فأقولُ : وكان سيدي عبد الواحد كثير العبادة ، شديد الورع ، زاهدًا ، عالمًا ، يفتي في كلِّ نازلةٍ ، عارفًا بالله تعالى ، له فهمٌ ذكيٌّ في كلِّ العلوم ، وأكثرُ كلامِه فيها[1] بالمواهب الربانيةِ ، والحقائق العرفانية ، وكان دائمَ الاهتداء ، شديد الاقتداء في الأقوال ، والأفعال ، في العادات ، والعبادات ، متمسِّكًا بالسنة ، لا يخرج عنها ، حتى كان ﷺ يقتدي برسول الله ﷺ في لباسِهِ ، وعَمامتِه ، ومِشيتِه ، وجلوسِه ، وأكلِه ، وشربِه ، وفي جميع شؤونه ، وكان يحضُّ أصحابه على ذلك ، ويعلِّمهم عِمامة رسول الله ﷺ ومشيَه ، وجلوسَه ، وأكلَه ، وشُربَه ، وجميع أفعاله .

(١) في الأصل : فيهم .

وكان من المتواضعين للخلْق جميعًا ، ومن المسلِّمين لأهل الحال ، ولا قابلَهم[1] باعتراض مدةَ حياتِه ، وما جرى على ألسنةِ الناسِ أنه اعترض على مُريدِه الذي هو الشيخ سيدي عبد السَّلام عند حدوث الحال به ، وهو تحت تربيته ، فذلك من جهة الدُّفِّ امتثالًا لِمَا ظهر له من الحق ، لشدة تمسكه بالسنَّة ، ومراعاته للظاهر دون الباطن ، ولذلك سُمِّيَ عند علماءِ أهلِ زمانه بصوفي الفقهاء - كما هو صريح عند أهل عصره - وليس في إنكاره عليه تصريحٌ بطعن، أو تشنيعٌ أو تقبيحٌ ، أو إساءةٌ أو غرضٌ فاسد ، أو تهجيرٌ ، بل غايةُ إنكاره على الشيخ إلَّا من جهة الدُّفِّ ، وهو البندير ، فكان يُنكرُه عليه بكلام ليِّن في الظاهر، مع كمال اعتقاده في الباطن من جهة الانتساب .

ثم إذا خرج من عندِه يُقْسِمُ لِمَنْ حضرَ من الطلبة والفقراءِ وسائر الناس ولا يستثني ، على أنَّ مريدَنا وصاحبنا عبدَ السَّلام من أكابر الأولياء الذين ليس بينهم وبين الله حِجابٌ ، ويقولُ لهم : إنما أقول له ذلك اتِّباعًا لظاهر الشريعة ، خوفًا أن يتجاسر عليها مَنْ ليس هو مثله ، وما جرى على ألسنة الناس من القيدِ والغِلِّ والهَجْرِ وشِبْه ذلك في الشيخ ، فلا أصل له[2] ، عدا الدُّفِّ كان ينكرُه عليه برفق كما مر ، ولم يُسلمْهُ له إلَّا بعد الإذنِ الإلٰهي

(١) ولا قابلهم : يقصد ولم يقابلهم ، وذلك أسلوب شائع في العصر تركته على حاله .

(٢) مثل هذا الذي قال البرموني أنه جرى على ألسنة الناس ولا أصل له كثير ، وبعضه ورد في كتاب البرموني وغيره من الخوارق ، وشهادة البرموني هذه كافية في الاستدلال على وجود الكثير من الأساطير التي شابت قصة حياة الشيخ عبد السلام وهو بريء منها ، والأمر في حاجة إلى مزيد من الدرس . وهو ما سيبطل نقد نوعين من الناس أولهم المريدون الذين يصدقون بكل شيء دون تمحيص، ويغيضهم أن يكتب الدارسون عن حياة شيخهم أي تشكيك في أخباره ، والعلمانيون الذين يضيقون بكل هذا التاريخ الثقافي ويرونه من الترف الفكري الذي ينبغي أن ينسى ولا يشار إليه ، وكلا الفريقين مردود عليه بأن منهج البحث يقتضي الكشف عن الحقيقة كما هي ودراستها بمقتضيات البحث العلمي لا بمنهج القبول المطلق ولا الرفض المطلق .

ورؤية النبي ﷺ في حكاية يطول ذكرُها ، ذكرناها في غير هذا[1] . بل كان ذلك انتصارًا له وإبطالًا لحجج [المعترضين] عليه بنصوصٍ واردةٍ وأدلةٍ قاطعةٍ لا تكادُ تُنْقَضُ بصورة سؤال وجواب نقلناه في غير هذا .

وكان سيدي عبدُ الواحد هذا من العلماء العاملين الزاهدين ، صاحبَ كراماتٍ وإشاراتٍ ، وخَرْقِ عادات ، وكان دأبُه النفرَ من الدنيا وما فيها ، والخشوعَ والخضوعَ ، والبُكاءَ والتَّذَلُّل ، ولا سَمِعنا ولا رأينا ، ولا في ما اطَّلعنا عليه في الكتب من أخبار الشيوخ والسادات ، والعُبَّاد والصَّالحين الزهاد بعد الصحابة إلى يومنا هذا ، أنَّ أحدًا أُعْطِيَ من العِزِّ والرِّفعة والكلمة النافذة ، والشفاعة المقبولة عند الملوك والوزراء والأمراء ، وأربابِ الدَّولة وبُغاتِ الأعرابِ ، ما أُعْطِيَ لسيدي عبد الواحد الدوكالي .

[الدوكالي عند والي طرابلس]

قال[2] : حتى إنَّ ذاتَ يوم حطَّ عليه بعضُ طلبةِ طرابلس عند الوالي[3] ؛ لِمَا لحقهم منه من الغيْرة والحسد ، وكان لذلك الوالي معرفة بالسُّنَّة وأهلها ، قال الحاكي : وما زالوا يحطون عليه بين يدي الوالي بما لا يليق ، حتى غَيَّروا

---

(١) إن خطر الدُّفّ أقلُّ شأنًا من خطر الاستغاثة بغير الله من رجال القرون المتأخرة ، بل إن الدُّفّ من الآلات التي لم يحرمها العلماء الذين حرَّموا الآلات الموسيقية الأخرى ، ولكن ما أُثير حول الدُّفّ من غضب فقهاء عصر الشيخ منه وتجاوزهم عن غير ذلك مما نسب إلى الشيخ عبدالسَّلام يدل على أن في الأمر سِرًّا يجب ألا يمر دون مناقشة ودراسة تنصف الشيخ وتصحح سِيرته ، وفقًا للشريعة الإسلامية .

(٢) القائل غير معروف ويبدو أنه يورد نقولًا ويغفل أحيانًا عن نسبتها إلى أصحابها ، ولعله هنا يورد قول الشيخ عبد الواحد نفسه .

(٣) قال في الحاشية : قف على سيدي عبد الواحد الدوكالي وما وقع له مع طلبة طرابلس إذ تكلموا فيه بسوء عند واليها .

اعتقادَه في سيدي عبد الواحد الدوكالي ، وأمرَ بحضوره ، فلمّا حضر سيدي عبد الواحد الدوكالي بين يدي الوالي وسلَّم عليه ، قال له : « يا عبد الواحد أنتَ أكثروا لي فيك الكلام » ، فقال : ومَنْ أكثرُ فيَّ الكلام ؟ فقال : فقهاءُ البلد . فقال له : يا والي إنْ كان قد ثَقُلَ عليك مُكثي فلا تحتجَّ بحُجَّةٍ ، فأرضُ الله واسعةٌ ، والرزَّاقُ حيٌّ مبين ، يُعطي مَنْ يشاءُ ، واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ . ثم قال : « يا والي اعْرِضْ عن هؤلاء الفقهاء ، وخالفهُم ، فهُم - والله - من الذين تَجِبُ عليك مخالفتُهم ، تبًّا لهم من فقهاء ؛ لأن جليسَ السوء يجب [الإعراضُ][1] عنه ، والفرارُ منه ؛ لأن جعفر بن سليمان - رحمه الله - قال : رأيتُ مع مالك بن دينار[2] الناسك كلبًا ، فقلتُ له : ما هذا ؟ قال : هذا خير من جليس السوء ؛ لأنه في ما سلف كان لي جماعة من الفقهاء مرتبين لا يفارقونني منذ عرفتُهم ، ولي هذا الكلب ، فلمّا تبيَّن لي سوءُهم وزيغُهُمْ عن الحق ، وأمرُهم لي بالمنكر ، طردتُهم من عندي ، خوفًا من عقوبة ربي ، وبقيَ الكلب معي إلى الآن ؛ لأنه لم يحصُل لي منه ضررٌ في ديني ، فإنْ كنت يا والي تسمع لِمَا أقول ، فإني أنصحُك وأبالغُ لك في النصيحة إن قبِلتَها منِّي، فقال : أما والله إني أقبل منك ، وكل ما تأمُرُني به نفعله ، فقال : خالف هؤلاء الفقهاء ، واعْزِلْهم عن مكانتهم ، حتى لا يحضرون مجلسَك ، وآتِ بغيرهم من العلماء العاملين المنْصِفِين ، لئلا يضرُّوك في دينك ومُلْكِك ، وربما يُوقعونك في الفتن بينَكَ وبين أكابر أهل بلدك ؛ لأنهم فقهاء زنادقة ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، فبِئْسَ الفقهاء ، تبًّا لهم من فقهاء ، إنما العالِمُ مَنْ عمل بعلمه .

---

(١) في الأصل : الاعتراض .

(٢) مالك بن دينار البصري ، من رواة الحديث ، كان ورعًا ، يأكل من كسبه ، ترجمته في وفيات الأعيان ١/ ٤٤٥ ، وحلية الأدباء ٢/ ٣٥٧ .

فقال له بعضهم - وكان حاضرًا - : أتشتُمنا [1] وتطعنُ في أعراضِنا ، ونحن الذين قال فينا النبي ﷺ : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » [2] والعالِمُ في قومه كالنبي في أمته ؟ فقال سيدي عبد الواحد : صدق رسول الله ﷺ وكذبتَ أنت في ما قلت ؛ لأن النبي ﷺ قال : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » ، يريد بقوله العالِمَ العاملَ بعِلمِه ، أي بما عَلِمَ ، وأنت تُريد عالِمًا لا يعمَلُ بما عَلِمَ ، فاسقًا مِثْلَكَ ، فهل سمعت بنبيٍّ عاصٍ لله ، ومخالفٍ له ؟ أو يأكلُ البراطيلَ والرِشا الذي هو عين السُّحْت ؟ حتى تظنَّ أنت وأصحابَك أنَّك مثل أنبياءِ بني إسرائيل الذين أُطلِقَ عليهم لفظ الحديث ، بل أنتم علماء فسَّاق ، وما فيكم ظَهَرَ عليكم ، من الإدمان على الكبائرِ والزورِ ، لا تعلمون ولا تعملون ، وإن ما تعلَّمتموه لتباهوا به العلماء ، وتماروا به السفهاء ، وتأخذوا به الدينار والدرهم ، وإنما لفظ الحديث إذ قال : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » ، يريد به العلماء من أصحابه، ثم التابعين مثل : النُّعمان وأصحابه ، وكمالك والشافعي والإمام أحمد ابن حنبل وأصحابهم ، وممن يقتدى بهم ويُهتدى بهدايتهم ، ثم بعلماء تابع التابعين ، طُرًّا ، ثم علماء مَنْ تبِعَهم من العلماء العاملين طبقة بعد طبقة ، إلى يوم القيامة ، ومَنْ بدَّل أو غيَّر وخالف مثلكم ، لا يتناوله لفظُ الحديث ، وربما أوجبَ قتلَهم أو نفيَهم من الأرض ، لا أنجحكُم الله ، ولا سدَّدكم ، والله لقد يحرِّم النظرَ إلى خطوطِكم الجافية ، وأجوبتِكُم الواهية التي لا صراحة فيها .

---

(١) في الأصل : ألا تشامنا ؟ وهو غير مقصود .

(٢) لم أقف عليه مسندًا، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة: قال شيخنا -ابن حجر- ومن قبله الدميري والزركشي: إنه لا أصل له، زاد بعضهم: ولا يُعرف في كتاب معتبر. ووافقه الألباني في الضعيفة (٤٦٦).

كنت في ما سلف أسلم أجوبتكم ، وأحملكم على المحامل الحسنة ، وأقول : لعلّي لم أطّلعْ على ما فيها ، ومنها بان لي فِسْقُكُم ووقوعُكم في جنابي وجناب غيري ، بما لا يليقُ ، من غير سببٍ بين أيدي الأمراءِ وغيرِهم . ينبغي الحذرُ منكُم والفرارُ من جموعكم التي لا تترتب منها إلَّا العلَّةَ والفسادَ في الدين . وأخذَهُ حالٌ عظيم ، وأنشد يقول : [كامل]

(أيَّا أميرَ المؤمنين لا تلْتَفِتْ ... لقَوْلِ مَنْ بالباطِلِ [يتعصَّبُ])[1]

واجعلْ جليسَكَ سيدًا تحظَ بـه ... (حِبٌّ لبيبٌ عاقلٌ متأدِّبُ[2])

واخترْ صديقَكَ واصطفيه تفاخُرًا ... إنَّ القرينَ إلى المقارنِ يُنسَبُ

واحذرْ مؤاخاة الدَّنَاة لأنَّها[3] ... تُعْدِي كما يُعْدِي السليمَ الأجربُ

ودعِ الكذوبَ ولا يكنْ لك صاحبًا ... إنَّ الكذوبَ يشينُ خِلًّا يَصْحَبُ

ودعِ الحقودَ ولو صَفَا لَكَ ودُّه ... وأبعدْه عن رؤياك لا يُستجلبُ

إن الحقودَ وإن تقادمَ وِدُّه ... فالحِقْد باقٍ في الصُّدورِ مُغَيَّبُ

إنِّي نَصَحْتُكَ إن قَبِلْتَ نَصِيحَتي ... فالنُّصحُ أغلى ما يباعُ ويُكْسَبُ

لا تأمننَّ من العَدو صداقةً ... (..................)[4]

(١) في البيت خروج عن البحر وضعف في اللغة والوزن والمعنى ، ولكن ما بعده أفضل منه ، والسبب يكمن في أن الأبيات الصحيحة من محفوظ الشيخ وهي من شعر صالح بن عبد القدوس ، الذي عاش في العصر العباسي ، ويحسب للشيخ الدوكالي حسن اختياره للأبيات المناسبة للموقف ففي بقية القصيدة أبيات لا تناسب المقام تركها الشيخ ولم يستشهد بها . وذلك مما يحسب له .

(٢) قد تجد وجهًا لإعراب هذه الأوصاف التي جاءت مرفوعة لموصوف منصوب هو (سيدًا) ولكن تعوزك الأوجه مع كثرة ما تجده من أخطاء النساخ والرواة وربما أصحاب الأصل نفسه في هذا القرن العاشر الذي ضعفت فيه لغة الناس ومعانيهم .

(٣) في شعر صالح بن عبد القدوس « واحذر مؤاخاة الدني لأنه يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب ».

(٤) في الأصل : وعنه يا صاحبي فكن متجنب ، وهو مكسور .

لا تنظرِ الإبريز يُرضِكَ لونُه ... صِفْرُ العقارب هم أمرُّ وأصعبُ
كنْ من عدوِّكَ في البلاد محاذِرًا ... (مَنْ بانت العدواء منه لا يُقْرَبُ)[1]
[وإذا التقيْتَ بغير أهل مروءةٍ ... لا تُظهِرَنَّ له نزاعًا تُذْنِبُ][2]
والقَ عَدُوَّكَ بالتحيةِ ولتَكُنْ ... مِنْهُ زمانًا خائفًا تَتَرَقَّبُ
واحذرْهُ يومًا إن تَرَاهُ بَاسِمًا ... فالليثُ يبدو نابُه إذْ يَغْضَبُ
وإذا الصَّديقُ رَأَيْتَهُ مُتَمَلِّقًا ... فَهُوَ العَدُوُّ وحقُّه يُتَجَنَّبُ
لا خَيْرَ في وُدِّ امرئٍ مُتَمَلِّقٍ ... حُلْوِ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ[3] ولِثِقٌ ... وإذا تَوَارَى عَنْكَ فَهْوَ العَقْرَبُ
يعطيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسانِ حَلَاوَةً ... وَيَرُوغُ مِنْكَ[4] كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ
فَعَلَيْكَ تَقْوَى الله فالْزَمْها تَفُزْ ... إنَّ التَّقِيَّ هُوَ البَهِيُّ الأهيبُ
واعملْ بِطَاعَتِهِ تَنَلْ مِنْهُ الرِّضَى ... إنَّ المُطِيعَ لِرَبِّهِ لَمُقَرَّبُ[5]
أدِ الأمانةَ والخيانَةَ فَاجْتَنِبْ ... واعْدِلْ ولا تَظْلِمْ [يَطِيبُ][6] المَكْسَبُ

إلى آخر ما قال[7] .

فاستقلَّ الواليُ قائمًا من على كرسيِّه امتثالًا لِمَا صدر من سيدي عبد الواحد وحمايةً للسُّنَّة ، وقال : صدق سيدي عبد الواحد في ما قال ،

(١) كذا : وفيه ضعف لا يخفى .
(٢) في الأصل : « إذا ألقيت به من غير مروءة ... » وهو تحريف للنص يؤخذ على الناسخ غالبًا .
(٣) في الأصل : أبوك وهو تصحيف ظاهر .
(٤) في الأصل : منك ، والبيت من المرويات المشهورة ، وينسب للإمام علي بن أبي طالب ﷺ ، كما ينسب لصالح بن عبد القدوس من أبيات اقتبسها الشيخ الدوكالي في هذه القصيدة .
(٥) في الأصل : هو الأقرب .
(٦) زيادة من شعر صالح بن عبد القدوس .
(٧) وهكذا نجد أن هذه القصيدة من شعر جيد لصالح بن عبد القدوس مع أخطاء في الرواية .

وكذبتم أنتم في ما قلتم ، وعزلهم من الحضور لمجلِسِه ، وأتى بغيرهم ، وزاد لسيدي عبد الواحد تعظيمًا وتفضيلًا أعظمَ وأبلغَ من ذلك . وإن سيدي عبد الواحد هذا لو طلب على السلطان العثماني في ذلك الزمان أن يأتيه خاضعًا حتى يجلس بين يديه لكان ذلك اليوم أحبَّ الأيام إلى السلطان .

[أصدقاءُ الشيخ الدوكالي]

وأما إخوان سيدي عبد الواحد من الشيخ الذي هو [وارث](١) السرِّ ، فهم كثيرون لا يمكن حصرُهم ، منهم : سيدي محمد بن علي الخميري الشهير بالمدهون ، وسيدي علي بن درواز ، وسيدي ساعد بن محمد الجمني الغرياني (٢) ، وسيدي عبد الله العبَّادي وسيدي عِمْران البابلي ، وسيدي عبد الله بن محمد بن جلال ، وسيدي خليفة بن خليفة الغراري ، وسيدي مدين بن شعيب السقفي ، وشقيقه سيدي علي الشـهير بالريَّاح ، وسيدي عبد الرحمٰن بن حسن السقْفي الشهير بالمجاهدي ، وسيدي عطية بن فتح الله القدسي ، وغيرهم ممن يكثر تعدادهم ، كلُّهم صالحون زاهدون عالمون عاملون ، ذوو صدق في الإرادة ، واستقامة في السلوك - رضي الله عنهم ونفعنا بهم آمين - .

[رجع الكلام إلى الشيخ الأسمر]

ولنرجع إلى الكلام على الشيخ الذي هو سيدي عبد السَّلام ، فكان لَمَّا فرَغ من خدمته لشيخه الذي تخرَّج به ، وهو سيدي عبدُ الواحد بنُ محمد الدوكالي - كما مر - ومن الطواف على الأولياء ، وطلب الاستخدام منهم ،

(١) في الأصل : والد .

(٢) يذكر الدكتور خليفة بدريري أن ضريح الجمني معروف على يمين الذاهب إلى أبي زيان وعلى شماله بلدة بني وزير ، ويدعى أهله بالمغاربة نسبة إلى المغرب .

زار والدته عيَّادة بيزليتن ، بأرض الفواتير ، وهي إذ ذاك مكفوفة البصر ، قد انعكس نظرُها على بَصَرِيَّتها ، إلى أن صارت مُبْصِرَةً بالقلب ، وقد تكفَّفَتْ بعد موتِ زوجها أبي العباس في ذلك العام الذي قدم فيه الشيخُ عليها ، فمكث معها مدة يعبُد الله خامل الذكر ، ولم يفارقْها إلى أن توفيتْ ودَفنها - رحمة الله عليه وعليها - .

وبعدها توجَّه لزيارة الأولياء والصالحين إلى أن زارَ كلَّ مَنْ بالإقليم الذي هو به ، كما أن الأقاليمَ سبعةٌ ذكرناهم في غير هذا ، وبعدُ جاء لجبلِ زغوان ، ومكث فيه مدةً يتعبدُ به هناك في ذلك الجبل ، على ما جرت به العادة عند الأولياء ، يقال - والله أعلم - أن كلَّ الأولياء عبدوا الله فيه ولو ساعةً وأقلَّ من ساعة ، وله فيه مقام معلوم باقٍ إلى الآن ، وإليه يشيرُ في بعضِ مقطَّعاته عند هَيَجَان الحال وإحراقِ الوَجْدِ : [زجل]

أنا تركني(١) جبلْ زغوانْ مرقبْ مشـرفْ وعـالي
وأنا قنطـرةْ وادْ مليانْ إذا احتـملْ في الليـالي
وأنا سيفْ مولاي حسانْ في يومْ سـوق المشـالي
وأنـا درع مـولاي عثمانْ إذا تداكمـوا بالعـوالي
وأنا ابن عروس الذي كانْ تغـاث مـني الرجـالي

إلى آخر ما قال .

وبعدُ رجعَ لبلاده التي ولد فيها وهي يزليتن ، فلمَّا حلَّ بها وظهرتْ عنايتُه فيها ، حسده أهلُها ، ورموه بالسِّحْر ، وما زالوا به إلى أن نفوْه منها سبع مرات ، وهو يتنقَّلُ إلى القِبْلة ويرجعُ إليها ، ولم يستقِرَّ أمرُه فيها عندهم

(١) في الأصل : تركلي .

إلَّا بعد نفيهِ منها ومن غيرها ، ورجوعِه إلى تاورغة ومَصراتة ، ثم لَّما طرده[1] أهلُ بلده – التي هي يزليتن – طَرْدَ الإياس ، انتقل إلى قريةٍ أخرى غربيها تسمى بالساحل ، ومكث بها مدةً ، وصحبَهُ بها جماعةٌ فضلاء من ماجر أهل الساحل ، وظهرَتْ فيها كرامات كثيرة ، فتسلَّطَتْ عليه قبيلةٌ من قبائلها ، وهم قومٌ يقال لهم الأحامدُ ، كانوا في غايةِ العِزِّ والمكانة لا كلمة فوقهم ، يُذكرُ أنَّ جَدَّهم المنتمين[2] إليه وهو : حامد عريفة ، والعريفة[3] عند عُرف العرب في هذا الزمان هو ابن الزنى ، وكان الشيخُ عليهم : هَمَّام ، ومفتيهم: الفقيه مبارك بن يحيى المشار إليه .

وكان الساحلُ ليس للأحامد أصالةً بل كان لأهل ماجر ، فلمَّا كثُر الظلمُ على أهل ماجر من بُغات الأعراب ، ومن أخذَ الجرايةَ الفاسدةَ التي كانتْ في ما سلف يأخذُها[4] منهم بُغات الأعراب ، التجأوا إلى الأحامد وأسكَنُوهم معهم بالبلد التي هي الساحل ؛ ليحموهم من [أولئك] البُغات ويفكوهم[5] مما كانوا يأخذونه منهم من الجراية والظلم ، فلمَّا توطَّن[6] الأحامدُ مع أهل ماجر بالساحل وتمكَّنوا به تعصَّبوا[7] على أهل ماجر ،

---

(١) في الأصل : طردوه ، وهو وإن كان ظاهره يسير على لغة تجيز وجود علامة تدلُّ على الفاعل مع اسمه الظاهر ، وجعل بعضهم من ذلك قوله تعالى ﴿ يتعاقبون فيكم ﴾ مع اعتراض لغيرهم ، فإن الكاتب خاضع في أسلوبه إلى قواعد اللهجة لا إلى هذه اللغة .

(٢) الأصل : أن جدرهم المنتمون إليه .

(٣) في الأصل : الي كان .

(٤) وفي الأصل : يأخذونها ، ومثله كثير ذكرت نماذج منه وأصلحت غيرها دون إشارة .

(٥) ويفكوهم : كذا ، والمراد منه أنهم يحولون بينهم وبين البغاة .

(٦) في الأصل : توطنوا .

(٧) في الأصل : فتعصبوا ، ووجود الفاء في جواب فلما كثير جدًا في أسلوبه ، وقد أصلحت ذلك في الكتاب كله ، إذ لا وجه له .

حتى أخرجوهم من البلد ، إلى أن صار أهلُ ماجر هُمُ الرعيةُ للأحامد ، وصار الأحامد أهلَ الوطن والمتصرفين[1] فيه .

ومازال الأحامدُ في ازدياد التعصُّبِ بالحميَّة الجاهلية على أهل ماجر وغيرهم ، حتى عتَوْا وبغَوْا ، وفعلوا أفعالًا كثيرة من الظلم والفساد ، بل ربما كان إذا أعجبَهم عقارُ أحدٍ من أهل الساحل يأتونه ويُجبرونه على أن يكتبَ بيعًا بتًّا فيه ، فيأتي الشاهدُ ويشهد أنه باع وقبَض واستَوْفى ويرفعُ لهُ وثيقته ، حتى ملكوا بذلك أكثرَ عقارِ الساحل ، فكان أهل البلد الذين هم ماجر معهم في أسوأ حال من القَهْرِ والغلبةِ ، فلمَّا أن عتَوْا العُتُوَّ الكبير ، والظلمَ الكثيرَ الذي يَقْشَعِرُّ منه جِلدُ الصغير والكبير ، سلط اللهُ عليهم الشيخ الذي هو مولانا عبد السَّلام ، بسكناهُ معهم في البلدِ الذي هو[2] الساحل -كما مر- ؛ ليكونَ هلاكُهم على يديه ، حسب ما جرت به عادة الله[3] من تأخير [عقاب] العبيد إلى ظهور فسادهم ، كما قال جلَّ من قائل : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء ١٦) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (الرعد ١١) صدق الله العظيم .

واعلم أنَّ [هؤلاء] القوم الذين همُ الأحامد لمَّا أرادَ الله هلاكَهم ونفاذَ أمرِهِ فيهم ، تسلطوا على هذا الولي – الذي هو مولانا عبد السَّلام – بالضَّرب والشَّتْم والأذِية وغيرِ ذلك ، وكان السببُ في بُغْضِهم له مع سببِ هلاكِهم الفقيه مبارك ، وابن عمه سالم المباركي – لا بارك الله فيهما – كانا

(١) في الأصل : والمتصرفون فيه .

(٢) في الأصل : هي .

(٣) الأولى أن يقول سنَّة الله ، وقد تكررت عبارة عادة الله في أكثر من موضع .

[يرميانه] بالعظائم كالسحر والاستدراج وشِبه ذلك حتى كرِهوه وأبْغضُوه مع جهلِهم ، وما زال به الأحامدُ حتى طردوه من قريتهم ، وكان كلما تكرَّر عليه شكوى الظلمِ منهم لم يدْعُ عليهم بشيء ، حتى أُذِن له في الدعاء عليهم.

حُكِيَ - عنه رحمه الله - [أنه] قال : لَمَّا أَذِنَ اللهُ لي بالدعاء عليهم ، فقيل لي: يا عبد السَّلام ادعُ على الأحامد ، فقلت : أدعو لهم بالتوبة والموت على خاتمة الإسلام ، فقيل لي - ثانية - : ادعُ عليهم ، فقلتُ كذلك . فقيل لي - ثالثة - ادعُ عليهم ، فقلت : يا ربي علمني كيف أقول ؟ فقيل لي : ادعُ عليهم بالشتات إلى أن يبقوا على ثلاث فرق ، ثم بهلاكِهم وإخلاءِ بلادهم منهم ، إلَّا من اتبعك ووثق بطريقتك فلا تدعو عليه (١) ، فأطلق الله لسان الشيخ بالدعاء عليهم نظمًا ونثرًا - كما يشير في مقطَّعاته وغيرها - كقوله : [زجل]

يـــا اللهْ يـــا واحـــــدْ ... يا مَنْ يُحيي العبد بعد مماتْ
تَشـــتَّ وطـنَ الأحـــــامدْ ... حتى يبقى على ثلاثْ شظياتْ
واجْعَــلْ وُكَــاهُمْ بيـــدِي ... يا ربْ يا قــابلْ الدَّعــواتْ
انْبَـــاتْ ليــــلي كـامـــدْ ... مما جـرى لي يا ولي حركـاتْ
نبكـــي ولا أنــا جـاحـــدْ ... يا بوهــادي قــالع الوتـداتْ
دمعـــي يهـيــــلْ بدايـــدْ ... وطن السَّاحلْ دالوا عليه ازفاتْ
همَّـــامْ خـــانْ العـهـــدْ ... الله يميتهْ مشرد بين [حلفاياتْ](٢)

(١) لسنا ندري مَنْ هو الذي يحاور الشيخ ، لكن قوله : يا ربي علمني كيف أقول ؟ يدل على أن الحوار مع الله ، وإن صح ذلك فهو غريب فلا نعلم غير النادر من الأنبياء من أطلق عليه كليم الله ، ولا ننسى أن أصل الخبر عبارة « حُكي عنه » ولم يثبت المؤلِّف أنه ناقل عن الشيخ مباشرة .
(٢) كذا في الأصل ، والحلفايات جمع حلفاء وهو النبات المعروف .

ودلِّي وزيـــدْ وزَايِــدْ	اهلكهمْ يا غـافـر الـزلَّاتْ(١)
وينْ سِـيـدي سـاعـدْ	و[بو] عيسى صاحب السَّطواتْ
يَغبـوا نـاس الأحـامـدْ	قبل نموتْ ونسكنْ اللَّحَدَاتْ
ويهـدُّو الجـداز البـايـدْ	ويرمو سقفهْ لِينْ يعودْ اشتاتْ
ويخـلُّوا الكلابْ اربـايـدْ	حتى يقُـولوا البلادْ اخلاتْ(٢)

إلى آخر ما قال .

فسلَّط الله سبحانه ما دعا به الشيخ عليهم ، أول ما شقَّهم الله على ثلاث فرق ، ثم أهلكهم و[أخلى](٣) بلادَهم مِنهُمْ ، ولم يبق الآن بالساحل أحدٌ منهم إلَّا مَنْ وثِقَ بطريق الشيخ كأولاد سيدي عبد القادر ، وهو : الشيخ العالم سيدي سالم ، وأخوه سيدي عطية - رضي الله عنهما ونفعنا بهما آمين - .

ولا بأس بذكر أسماء بعض الأكابر [من] الأحامد وألقابهم ، وهم : همَّام ويلقَّب بفارس ، وزيد ويلقَّب بالنكش ، وزايد ويلقَّب بالطرطوق ، وعامر ويلقَّب الطقطاق ، ومحمود ويلقَّب بحنظلة ، وخليفة ويلقَّب بالهتاف ، وسعيد ويلقَّب بحرب ، وإبراهيم ويلقَّب بالغندور ، والمبروك ويلقَّب بتعتع ، وعامر ويلقَّب بدلي ، ومسعود ويلقَّب بالتفتاف ، وعمَّار ويلقَّب بقفة الريش ، وغيرهم ممن يكثُر تعدادهم ، ذكرناهم في غير هذا ،

(١) أراد الشيخ الأسمر أن يقول « أهلكهم » لاستدعى من صفات الله ما يناسب الهلاك من مثل القهار والجبار ، أما غافر الزلات فلا تناسب المقام وليست من أساليب الشيخ .
(٢) هكذا يبدو هذا النص والقصة التي سبقته غريبة عن سيرة الشيخ ولغته واتجاهه ، وأغرب ما فيها ادعاء الإذن بالدعاء عليهم بأسلوب مفكك أقرب إلى العامية البعيدة عن المألوف من أسلوبه مقارنة برسائله، وقد حاولنا إصلاح ما يمكن إصلاحه حتى يبدو النص واضحا .
(٣) في الأصل : وإخلاء .

والله ﷻ يعصمنا من الزلل ، ويهدينا لِمَا يحبُّه ويرضاه ، فهو على ما يشاء قدير .

[إنكار البَرموني على الشيخ الأسمر]

وكنتُ في ابتداء أمري(1) في أيام مكثي بزاوية سيدي أحمد زرُّوق أُنكرُ مع مَنْ ينكرُ على الشيخ ، وأبالغ في الإنكار عليه بجهلي ، وأقول فيه ما أقول، فلمَّا كان ذات يوم تحركَتْ نفسي وجزَمَتْ بالمشي إليه ، ونقلتُ مسائلَ من جامع الونشريسي تدل على مَنْع ضَرْبِ الدُّف من غير حضور الوليمة ، فلمَّا وصلتُ إليه وتكلَّمْتُ معه في ذلك ، قال لي : يا بَرموني ، نسبة علمك مع علمي كنسبة النقطة مع البحر ، فشتان بين النسبتين ، فلمَّا سمعتُ منه ذلك المقال ظننتُ أنه يفتخر علينا بالمحال ، فبالغتُ عليه بما قصدتُه منه ، وزعمتْ نفسي بالتحامل عليه ، فأدخلَ سبابته في فمِه ومصَّها، وقال : هذا علمُك يا بَرموني ، فلم يُتم مقالتَه حتى تغيَّر حالي ، وتخبَّل مقالي ، ولم أجدْ شيئًا مما كنتُ أعرفُه من العلوم ، وتألمتْ عيناي ، فحَوْقلتُ واسترجعْتُ ، وعلمتُ أنه البحرُ الذي لا يُبارى ، والسابقُ الذي لا يجارى ، يغترفُ من بحر فيض إلهي ، ومددٍ رباني ، فجعلْتُ أُقَبِّلُ يديه ورِجليه مضطرَّ التوبة ، طالبًا منه ما ضاع مني من العلم ، وشفاءَ الألم الواقع ببصري ، فلم يَردَّ ذلك إلَّا بعد جُهدٍ جَهيدٍ .

من ذلك اليوم أخذتُ عنه التلقين ، ولازمتُ صحبتَه ، والحمدُ لله الذي جعلني الله من أهل طريقته وحزبه ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحديد ٢١) ، ورحم اللهُ القائلَ في هذا المعنى ، إذ

(١) ورد في الحاشية : عن سيدي . . . على الشيخ أول أمره .

قال : [طويل]

ستبدو لك الأسرارُ بعدَ اكتتامِها   كأنَّ الذي قد صانَها عنكَ يُخْـبِرُ
فَسَلِّمْ لَهُمْ فَالقَـوْمُ أَهْـلُ عِنَـايَةٍ   وحَاذِرْهُمُ بالوَصْـفِ لا تَتَحَقَّـرُ
فَإِنْ كُنْتَ يا هَـذَا بِهِمْ مُتَمَسِّـكًا   فَتَبْقَى بِطُـولِ الدَّهْـرِ لا تَتَغَيَّرُ

[مجيء الشيخ إلى طرابلس]

اِعلم أنه لمَّا طردَه الأحامدُ من قريتهم ، جاء لمدينة طرابلس ، وأقام بها مدة بمسجد الناقة ، وله فيها خَلوة معلومة باقية إلى الآن ، كان يتعبَّد بها ، فلمَّا أن أراد الله إظهاره بها ونفع مَنْ أراد نفْعه ، وضرَّ مَنْ أراد إضراره ، شاع خبرُه فيها بالعلم والأدب ، والورع والزهد، والعبادة وإظهار الكرامات، وخرْق العادات، إلى أن اجتمع عليه خلْقٌ كثيرٌ منها ومن غيرها لا يُحصي عددَهم إلَّا الله ﷻ ، وصار يلقِّنهم الأذكار ، ويربيهم بأحسنِ تربيةٍ ، ويستعملُ لهم السَّماع المعبَّر عنه بالحضْرةِ في ليلة الجمعة وليلة الاثنين ، وهو كما كان يستعمله الشيخُ مدة حياته في الابتداء والانتهاء ، بعد قضاء الفرض.

فلمَّا كان ذلك تحيَّرت منه قلوبُ الحسَدة المنكرين عليه ، وقد تقوَّتْ بهم مادةُ الاعتراضِ عليه بالمحن والفتن ، والأغراض الفاسدة ، ولا زالوا على تلك الحالة المنكَرة ، إلى أن أوقعوا الفتن بين الشيخ وبين أصحابِه الطرابلسيين ، وسببُ ذلك أنهم رموه لهم [بالسحر][1] والزندقة إلى أن قالوا لهم فاحذروه ، ثم الحذرُ من الاجتماع به وعليه ، إلى أن تغيَّر اعتقاد الكثير

(١) في الأصل : الحسدة.

من الفقراء ، لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم ، إنا لله وإنا إليه راجعون.

ولله درُّ الشيخ أبي الحسن الشَّاذِلي - رحمه الله - إذ قال مشيرًا بذلك إلى المنكرين عليه من أهل زمانه ، ولقد ابتلى اللهُ هذه الطائفة الشريفة بالخلق ، خصوصًا بأهلِ الجدال والتعنُّت ، فقلَّ أن تجد منهم أحدًا شرح الله صدره للتصديق بوليٍّ معين ، بل يقول ذلك نعم ، نعم إن لله أولياءَ وأصفياءَ موجودين، ولكن أين هم ؟ فلا تذكر له أحدًا إلّا ويأخذُه ويدفعه ، ويرد خصوصية الله تعالى له ، ويقول لتلامذته فِروا منه كما تفِرُّ الغنم من الذئب ، ويُطلق اللسانَ بالاحتجاج بالأقوال الفاسدة ، والأدلةِ الواهيةِ ، على كونه غيرَ وليٍّ لله تعالى ، وذلك من كثْرةِ حسدِهِ وفسادِ سريرتِه وذريعةِ النِّفاق في قلبه ، وغاب عنه أنَّ الوليَّ لا يعرفُ صفاتِه إلَّا الأولياءُ ، فمن أين لغير الولي نفيَ الولاية عن إنسان ؟ فما ذلك إلَّا محضُ تعصُّبٍ ، كما ترى في زماننا من إنكار بعض الحسدة علينا ، وعلى إخواننا ، فاحذر يا أخي ممن كان هذا وصفه ، وفِرَّ من مجالسته كفرارك من الأسد الضاري - جعلنا الله وإياكم من المصدقين لأوليائه المؤمنين بكراماتهم بمنه وكرمه - .

قلتُ : ورحم الله الشيخ سيدي علي بن وفا ، إذ قال : فقهاءُ السوء أضرُّ على الناس من إبليس ؛ لأن إبليس إذا وسوس للمؤمنين عرف المؤمنُ أنه عدوٌّ مضل مبين ، فإن أطاع وسواسه عرف أنه قد عصى ، فأخذ بالتوبة من ذنبه والاستغفار ، وفقهاءُ السوءِ مُلْبسون الحق بالباطل ، ويريدون [حملَ الناس][1] على وَفْقِ الأغراض والأهواء بزيغِهم وجدَالِهم ، ومَنْ

(١) زيادة يقتضيها المعنى .

أطاعهم ضلَّ سعيهُ ، وهو يحسِب أنه يُحسِنُ صُنْعًا ، فاستعِذْ بالله منهم واجتنبهم ، وكن مع العلماء العاملين الصِّدِّيقين ، إلى أن قال : كنيةُ الشيطان أبو مُرة . أتدري مَنْ هي المُرة الذي هذا أبوها ؟ هي النفس الحمائية الأمارة بالسوء ، النكرة ذات الشهوة البهيمية ، إلى أن قال : لأنها ما دخلت في شيء إلَّا أفسدته[1] ، كما يُفسِدُ الحنظلُ اللبنَ ، وكان أصلُ إفسادها الحسدَ ، والبغيَ ، والظلمَ ، والحِقْدَ ، حتى بلغَتْ إلى الجِدالِ والتعنُّتِ والتكذيب بأهل الله ، وبكراماتهم ، وذلك كلُّه لطاعتها لأبيها وهو الشيطان ، سواء كان إنسيًّا أو جِنيًّا ، وشيطانُ الإنس أعظمُ من شيطان الجن ، - حفظنا الله وإياكم من شر النفس والشيطان ، بمنِّه وكرمه إنه قوي متين - اهـ .

ففي الحديث « ما اجتمع قوم على هدى إلَّا ابتلاهم الله بأهل الجدال »[2] وفي الحديث : « كلُّ ذي نعمة محسود »[3] ، وهكذا الأولياء جرتْ عادةُ الله بتسْليط الخلْق عليهم في كلِّ عصرٍ ، لا سيما أهلُ الطريقة العُروسية التي هي لبُّ الشَّاذِلِيةِ المحسودةِ قديمًا وحديثًا ، قال الشيخ أبو الحسن الشَّاذِلي - نفعنا الله به - في هذا المعنى : « ولما عَلِم الله سبحانه ما سيُقال في هذه الطائفة على ما سبق به العلم القديم ، بدأ الله ﷻ بنفسه ، فقضى على قوم أعرضَ عنهم بالشَّقاء ، فنسبوا إليه زوجةً وولدًا وفقرًا ، وجعلوه مغلولَ اليدين ، فإذا ضاق ذِرع الوليِّ أو الصِّدِّيق لأجل كلام قيل فيه ، مِن كفرٍ وزندقةٍ وسحرٍ وجنونٍ أو غير ذلك ، نادته هواتفُ الحق في سرِّه : الذي

(١) في الأصل : ما أدخلت في شيء إلَّا فسدته ، وله وجه بعد تضعيف السين .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) رواه الطبراني ٢٠/ ٩٤ من حديث معاذ بن جبل، وضعفه العقيلي في الضعفاء ٢/ ١٠٨، وتبعه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٦٥-١٦٦، والعراقي في المغني ٢/ ٨٦٤، ولكن صححه الألباني لغيره في الصحيحة (١٤٥٣).

قيل فيك هو وصفُك الأصلي لولا فضلي عليك ، أما ترى لإخوتك من بني آدم كيف وقعوا في جنابي ونسبوا إليَّ ما لا ينبغي لي ؟

فإن لم ينشرحْ لِمَا قيل فيه بل انقبض ، نادته هواتفُ الحق أيضًا ، فما لك فيَّ أسوة ، فقد قيل فيَّ ما لا يليق بجلالي ، وقيل في حبيبي محمد ﷺ وإخوته من الأنبياء والرسل ما لا يليقُ بمرْتبتهم من السحر والجنون وغير ذلك ، وهم لا يريدون بدعائهم إلَّا الرئاسة والتفضيل عليهم »[1] .

وانظر يا أخي مداواةَ الحق جلَّ وعلا لمحمد ﷺ حين ضاق صدرُه من قول الكفار بقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝ ﴾ (الحجر ٩٨-٩٩) ، فيجبُ عليك أيها الوليُّ الاقتداءَ برسولك ﷺ إذ هو طبٌّ إلٰهي ودواء رباني ، وهو مزيلٌ لضيق الصدر الحامل من أقوال الأغيار ، وأهلِ الإنكار والاغترار ، وذلك لأن التسبيح تنزيهُ الله عما لا يليق بكماله ، بالثناء عليه ﷻ بالأمور السلبية ، وهي النقائصُ عن الجناب الإلهي - كالتشبيه ، والتحديد - . وأما التحميد فهو الثناءُ على الله تعالى بما يليق بجماله وجلاله ﷻ ، وهما مزيلان لمرض ضَيْقِ الصدر الحاصل من قول المنكرين والمستهزئين ، وأما السجودُ فهو كناية عن طهارة العبد من طلب العلوِّ والرِّفعةِ ؛ لأن الساجدَ قد فنِيَ عن صِفة العُلوِّ حالَ سجوده[2] ، والكلام في هذا المعنى طويلٌ ذكرناه في

(١) قد تسأل عمَّن يريدون بدعائهم الرئاسة والتفضيل لعدم وضوح الكلام ، وذلك ليس بغريب ، لكن الغريب أن ينسب هذا القول إلى الله جل جلاله الذي أنزل القرآن المعجز ، إنك حين تسمع مثل هذا الكلام تظن أنك أمام حديث قدسي يتكلم الله فيه مباشرة مع نبيه ، وليس ذلك إلَّا مما يتهيأ لبعضهم فيعلن عنه بجرأة مستغربة .

(٢) هذه هي المعاني السامية للعبادات عند السادة الصوفية المخلصين ، ولهم نظائر رائعة في فهم عيوب النفس ، ومن النزاهة أن تذكر المتصوفة بهذه المحاسن أما الدعاوى التي نسبها إليهم =

الكبير[1] فراجعه ، فإن فيه شفاءَ الغليلِ ، ورحم الله القائل إذ قال : [بسيط]

تالله لو صَاحَبَ الإنسانُ جبريلا
لا بدَّ للناسِ مِن قالٍ ومِن قيلا
قَدْ قِيلَ في الله أنواعٌ منوعةٌ
تُرْوَى إذا رُتِّل القرءانُ ترتيلا
قَدْ قِيلَ إنَّ له ابنًا وصاحبةً
زورًا وكِذْبًا وبهتانًا وتبديلا
انظرْ مقالاتِهِمْ في حَقِّ خالقِهِمْ
فكيفَ فينا إذا ما قيلَ ما قيلا
وللمريد جميلُ الصَّبرِ عَنْ كلِّ ما[2]
يأتي من الله [تكبيرًا وتأصيلا][3]
يلازمُ الشيخَ والإخوانَ قاطبةً
لا يلتفتْ لمقُولِ الناسِ والقِيلا

[ما جاء في الصبر][4]

اعلم وتأمل وتحقق ما حلَّ بهذا الشيخ - الذي هو سيدي عبد السَّلام

= جهلة الأتباع فلا يجوز قبولها مهما غلفوها بالتهويل والتخويف من العواقب لمن ينكر عليهم هذه الأباطيل .

(١) يعني الديوان من تأليفه في سيرة الشيخ الأسمر وآثاره .

(٢) في الأصل : عن كلها ، وفي البيت بمجموعه كسر في الوزن .

(٣) في الأصل : بكرة وأصيلا .

(٤) عنوان من الحاشية .

- من البلاء ، وأشده وأعظمه ، وهو ملازم للصبر عليه مثل صبر أُولي الألباب ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فإن كنتَ من أهل طريقته فاصبِر كصبره ، واصمُت كصمته ؛ لأن الصبر والصمت أصلٌ من الأصول في الدنيا والآخرة ، واعلم أن في الصبر خيرَ الدارين ، لِمَا ورد في ذلك من الدلائل والنصوص والأشعار ، وغير ذلك من الأحاديث التي لا تُحصى ، كما سيأتي البعض منها[1] ، وإني أنصحك ألا تدعو على أحد بسوء ، فـ « إن القاتل بدعوته كالقاتل بسيفه » إلَّا أن يؤذن لك في الدعاء ، كما هو معلوم الإذن عندهم بغير قوته ، على اختلاف أحوالهم ، وإياك ثم إياك أنْ تعجَلَ بالدعاء على أحد ، ولو ظلمك وأساء معك الأدبَ ؛ لأن التعجيل بالدعاء من قِلة الصبر وكثْرةِ الحمق .

واعلم أن آفةَ الفقير الحمقُ ، والحمق يُصَيِّرُ صاحبَه إلى النار ، وما نال الفوزَ في القيامة إلَّا الصابرون ، ولذلك يشير الشيخُ في بعض مقطَّعاته إذ يقول : [زجل]

الصبرْ مُـــرٌّ يبرئ الإنســـانْ	والـمُــرْ يرجـعْ حــلاوي
صبرتْ صبرَ أيوب وخبَّـابْ	وغَلَبْتْ نفسي الشـــــهاوي

إلى آخر ما ذَكَر الشيخُ في هذه المقطَّعة مما وقع له من نتيجة الصبْر الجميل ، مما هو مجرَّبٌ صحيحٌ في الصبْرِ ، وذلك تحدُّثٌ بالنعمة ، واتِّباعٌ لأوامر الله ؛ لأن الله ﷻ أمرَ بالصبر على المكاره ، وذمِّ الجزعِ ، ومدحِ الصبْرِ ، كما هو في كتابه العزيز في مواضعَ كثيرةٍ ، وأثنى على فاعله ، وأخبر أنه ﷻ معه ، وحَثَّ على التثبُّت في الأشياء ، ومجانبةِ الاستعجال فيها ، ومن

(١) كذا في الأصل : والصواب : بعض منها .

ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة ١٥٣) . تأمَّلْ كيف بدأ بالصبر قبل الصلاة ، ثم جعل نفسَه مع الصابرين دون المصلِّين[1].

وقد رُوي عن النبي ﷺ في ذلك أخبارٌ كثيرة ، من ذلك قوله ﷺ : « النصر في الصبر »[2] وقوله عليه السلام : « بالصبر يُتوقَّع الفرجُ »[3] فمَن هداه الله بنورِ توفيقه ألهمه الصبرَ في مواطن طلَباته ، والتثبُّتَ في حركاته ، وكثيرًا ما أدرك الصابرُ مرامه ، وفات المستعجلَ غرضُه .

[صبر أيوب وخبَّاب]

ولنرجع إلى ما نصَّه الشيخُ في هذه المقطعة - أعني البيتين - من تعبيره بصبرِ سيدِنا أيوب عليه السلام ، ثم بِصَبْرِ سيدِنا خبَّابَ بنِ الأرت رضي الله عنه وعن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين ، [وما][4]عبَّر صبرُه بهما في المقطعة إلَّا لشدة بلائه وتخلقه بصبرهما ، كما أنَّ التصوُّفَ مبنيٌّ على أخلاق الأنبياء - عليهم السَّلام - قال الشيخ سيدي أبو القاسم الجنيد - رحمه الله - : « بُني التصوفُ على أخلاق ثمانية من الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام : السخاءُ وهو لإبراهيم عليه السلام ، والرِّضى وهو لإسحاق عليه السلام ، والصبرُ وهو لأيوب عليه السلام ، والإشارة وهي لزكريا عليه السلام ، والغربةُ وهي ليحيى عليه السلام ، والفقرُ

(١) وهذا من التحليلات والتعليقات النفيسة التي تجدها في كتب التصوُّف وتُذكر لأهله .

(٢) رواه أحمد في مسنده ١/ ٣٠٧ من حديث ابن عمر، وصححه عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الشرعية الكبرى ٣/ ٣٣٤، والألباني في الصحيحة (٢٣٨٢) . والرواية : النصر مع الصبر .

(٣) لم أقف عليه مسندًا، وذكره الطرطوشي في سراج الملوك ص٩٨، والأبشيهي في المستطرف ١٣٩/٢ .

(٤) في الأصل : ولا عبر أي مثَّل .

وهو لمحمد عليه الصلاة والسَّلام » .

واعلم أنَّ تمثيلَ تخلُّقِ الشيخ بالصبر المشار إليه لا لافتخارٍ ، ولا قصد دعوى ، ولا رياء ولا سمعة ، بل يريد بذلك التحدُّثَ بالنعمة ، كما قال عزَّ من قائل : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى ١١) . أما سيدُنا أيوب عليه السلام فقد مسه الضر وخرَّ ساجدًا لله تعالى ، ودعا ربه ﷻ : ربي ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء ٨٣) . فقبِل اللهُ دعاءَه ، وكشف ما به من الضر، وهو ضرٌ لا يؤدي إلى نقص مرتبته ، كما قال عز من قائل : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء ٨٣-٨٤) ، وأفاض عليه من نعمه ، ومدحه في نص الكتاب فقال تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص ٤٤) .

فلو لم يكن الصبرُ من أعلى المراتب وأسنى المواهب ما أمر الله به تعالى رُسله ذوي العزم ، وسماهم بسببِ صبرهم أولي العزم ، وفتح لهم بصبرِهم أبوابَ مرادهم وسؤالهم ، ومنحهم من لدنه غايةَ أمرهِم ومرامِهم ومأمولِهم ، فما أسعد من اهتدى بهداهم ، وصبر بصبرهم ، ولذلك يشير الشيخُ في بعض مقطعاته لتخلقه بصبرهم إذ قال : [زجل]

صَبَرتْ صَبْر أولي العزمْ — الأنبيا السَّادات الأبرارْ
لين فقت على أهل العلمْ — بسر الإله أخفى واجهارْ
واللي صبرْ نالْ الحلمْ — ومن لا صبر ما نال أسرارْ

إلى آخر ما قال .

تحدَّثَ الشيخُ أيضًا في هذه المقطَّعة بعواقبِ الصبرِ الجميلِ ؛ لأن عاقبتَه محمودة في الدنيا والآخرة ، وقد عبَّر صبره الآن هنا بصبر أولي العزم من الرسل ، وذلك تحدُّثًا بالنِّعمة التي أنعمها اللهُ عليه من جهة الصبر ، وقد اختلف أهلُ التفسير فيهم - أي في أولي العزم - على أقوالٍ كثيرة ، فقال قتادة : هم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقيل : خمسة ، وقال مقاتل ﷺ : ستة : نوح ، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويونس ، وأيوب . وقيل : عشرة ، وإلى ذلك أشار بعض الفقهاء بقوله : [طويل]

محمـــد ، إبراهـــيم ، موسـى كليمـــه
ونوح ، وعيسى هم أولو العزم فاعــرفِ
وداود أيــوبٌ ويعقــوبُ يوســـف(١)
وإسحاق ذو صبر [من الرسل(٢)] فاكتفِ

وكلهم عَجَمٌ إلَّا خمسة ، وهم : [رجز]

محمدٌ ، وهـودٌ ، إسماعيلُ   وصالحٌ ، شعيبُ ، يا نبيلُ

[طريقة الوحي وعدد الأنبياء والرسل]

وذكر بعضُ العلماء [أن](٣) الوحي يأتي إلى جميعهم في المنام ، أي جميع الرسل إلَّا أولي العزم منهم ، فإنهم يأتيهم في المنام واليقظة ، واختلف في

(١) في الأصل : وداود وأيوب ويعقوب ويوسف ، وهو مخالف للوزن .
(٢) زيادة على الأصل .
(٣) في الأصل : إلَّا .

الأنبياء والرسل هل هم محصورون أم لا ؟ فقيل : الأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفًا ، والرسل منهم ثلاثمائة وأربعة عشر . وقيل : خمسة عشر ، وقيل : ثلاثة عشر ، وقيل : غير محصورين لقوله تعالى : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر ٧٨) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر ٢٤) ، وكلهم من العجم -كما مر- ، إلَّا أربعة وهم: شعيب ، وهود ، وصالح ، ومحمد ﷺ . هذا هو المشهور عند بعضهم ، وقيل : إسماعيل وهو الذبيح ، وقيل : الذبيح هو إسحاق ، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسَّلام : « أنا ابنُ الذبيحين »[1] قال المفسرون : الأول من الذبيحين ولدُ إبراهيم ، والثاني جدُّه عبد المطلب[2] .

واعلم أنَّ جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسَّلام - لا يَصدُر منهم صورةُ ذنب مطلقًا ، لا قَبلَ النبوةِ ولا بعدَها ، لا مُحرمًا ولا مكروهًا ، لا سهوًا ولا عمدًا ، لا قولًا ولا فعلًا ، وأما عِدَّة نزول جبريل عليه السلام على الأنبياء على ما ذكره بعضهم ، فقال : نزل على آدم عليه السلام اثنتي عشرة مرة ، وقيل : عشرة ، وعلى شيث ستة ، وعلى إدريس أربعة ، وعلى نوح خمسين ، وعلى يعقوب أربعة ، وعلى ابنه يوسف أربعة ، وعلى إبراهيم أربعين ، وعلى موسى أربعمائة ، وعلى أيوب ثلاثة ، وعلى داود ستة ، وعلى ابنه اثنتين ، وعلى عيسى

(١) لم أقف عليه مسندًا، وذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٥٨، وقال الحوت في أسنى المطالب ١/ ٢٣: لم يثبت من قوله ﷺ . وقد روى الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٠٤ من حديث معاوية أن أعرابيًا قال له: يا ابن الذبيحين، ولم ينكر عليه. وضعفه الذهبي في التلخيص، والألباني في الضعيفة (٣٣١) و(١٦٧٧) .

(٢) في كتب السيرة ما يفيد أن أباه عبد الله هو المعروف بالذبيح فقد جاء في كتب السير أن عبد المطلب نذر لئن أتاه الله عشرة أولاد ليذبحن أحدهم عند الكعبة ، فأسهم فخرج القدح على عبد الله .ثم نحر مائة من الإبل مكانه .

عشرة ، وعلى نبينا محمد ﷺ أربعة وعشرين ألف مرة ، والله أعلم[1] .

ولنرجع إلى الكلام عن أولي[2] العزم الذي عبَّر الشيخُ صبرَه بصبرهم ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلَّا بالصبر، ولم يرضَ إلَّا أن كلَّفني ما كلَّفهم به »[3] ، فقال ﷻ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف ٣٥) ، وإني والله لأصبرُ كما صبروا ، فالنبي ﷺ لَمَّا صبرَ كما أُمر ، سفر وجه صبره على ظفره ونصره ، وكذلك أولئك الرسل - صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين - .

[صبر سيدنا الخبَّاب بن الأرت][4]

وأما سيدنا خبَّابُ بن الأرت ﷺ ويُكْنى أبا عبد الله ، فكان من أهل

---

(١) معلومات بأرقام محددة دون مصدر من كتاب أو سنَّة صحيحة ، وما جاء قبله من تضعيف القول بوصف إسماعيل بالذبيح مستغرب ، مع علمنا بوصف إسحاق بذلك في الإسرائيليات .

(٢) في الأصل : أولوا بالبناء على هذه الصيغة في الكتاب كله ، ولا موجب لذلك .

(٣) رواه الأصبهاني في أخلاق النبي٤/ ١٨٢ من حديث عائشة وضعفه، والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٢٤٧-١٤٨، وفي تفسيره ٧/ ٢٧٢، وفي الأنوار ١/ ١٧٩، وضعفه العراقي في المغني ٢/ ١١٠٣.

(٤) جاء في الحاشية : « الذي عند أصحاب السير هو أنه قتل صبرًا بمكة وصلب ، ورمي بالنبال حتى مات - رحمه الله - فلتتأمل » . ومعلوم أن خبَّاب بن الأرت من أوائل من أسلم بمكة واسمه خبَّاب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة التميمي على الأصح ، كان قينا يعمل السيوف في الجاهلية ، فأعتقته مالكته أم أنمار بنت سباع الخزاعية ، وقد كان ممن عذب في الله وصبر ، وشهد بدرًا وما بعدها من المشاهد ، ومات بالكوفة سنة سبع وثلاثين ، وقيل مات سنة تسع عشرة بالمدينة . وهو الذي كان في بيت فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد يقرئهما القرآن حين دخل عليهما عمر بن الخطاب في قصة إسلامه التي ذكرها ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٣٤٣) ، وجاء في حاشية السيرة النبوية في طبعتها الثانية بتحقيق مصطفى السقا وآخرين أن الخليفة عمر سأله عما لقي في ذات الله فكشف ظهره فقال عمر : ما رأيت كاليوم ، فقال يا أمير المؤمنين ، لقد أُوقدت لي نارٌ ، فما أطفأها إلَّا شحمي . (وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٥ و ٦٨١) ، وانظر ما ذكره عنه ابن عبد البر في الاستيعاب) .

الصبر الجميل، أما في أوَّلِ عُمْره فكان بجسمه قروحٌ قد اشتد قيحُها وصديدُها إلى أن خرجَ منها الدود ولم يضجَرْ، ولا يتأوَّه، وهو صابر لله ﷻ، حتى شفاه الله من ذلك لشدَّة صبرِه[1]، ثم بعد ذلك أُسر عند الكفار، وكان يُعذَّب عندهم بالنار، ليرجِعَ عن دين الإسلام، فلم يرجعْ، وقال له سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: «ماذا لقيت من المشركين؟ قال: أوقدوا لي نارًا وألقوني فيها فلم يَطْفِها إلَّا وَدَكُ ظهري». كان ﷺ في أصحاب رسول الله ﷺ ومن السادات الصابرين، وهو من بني سعد، وفي الجزء السادس من كتابِ «النَّسَب» المنسوب لأبي عبد الله مسلم بنِ قتيبة الدِّينَوَري «أن خبَّاب بن الأرت كان قنا في ما سلف، فبيع بمكة فاشترته امرأةٌ يقال لها أمُّ أنمار، وهي أمُّ سباع الخزاعية، فأعتقته وهو ابنُ تسع سنين، فانضم خبَّاب إلى سباع».

وسيدي خبَّاب هذا هو الذي ابنُه عبدُ الله الذي قتلته الخوارجُ في حكايةٍ يطول ذكرها، [و] يخرجنا إيرادُها عن المقصود، ذكرناها في غير هذا، توفي رحمه الله بالكوفة، وصلى عليه سيدنا علي بنُ أبي طالب، رضي الله عنه وعن أصحاب رسول الله أجمعين.

واعلم أن العسرَ يعقبُه اليسرُ، والشدةَ يعقبُها الرخاءُ، والتعبَ يعقبه الراحةُ، والضيقَ يعقبُه السعةُ، والصبرَ يعقبُه الفرجُ، وعند تناهي الشدَّةِ تنزلُ الرحمةُ، والموفَّقُ مَنْ رزقه الله صبرًا وأجرًا، والشقيُّ مَنْ ساق القدرَ إليه جزعًا ووِزْرًا، ولذلك يشير الشيخُ في بعض مقطَّعاته إذ يقول: [زجل]

صبرتْ والصَّبرْ أغناني ... وفرج الإلهْ الآن قريبْ
والعسرْ يعقبه يسرانِ ... واللي صبر فليس يخيبْ

إلى آخر ما قال.

(1) هذا الجانب يتعلق بحال أيوب عليه السلام.

تأمل يا أخي ما جاء في اليسرِ بعد العسرِ ، والفرج بعد الشدة ، والفرج بعد الصبر ، والسرور بعد الحُزنِ ، منها قوله تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق ٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (الشورى ٢٨) ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ﴾ (يوسف ١١٠) ، ويُروى عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : « لو كان العسر في جُحْرٍ لدخل عليه اليسرُ حتى يخرجه »[١] . وقال – عليه الصلاة والسَّلام – : « وعند تناهي الشِّدةِ يكون الفرجُ ، وعند تضايقِ البلاءِ يكونُ الرخا »[٢] ، وقال علي ﷺ عن النبي ﷺ : «انتظارُ الفرج بالصبرِ عبادة»[٣] وقال الحسن : لمَّا نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح ٦) . قال النبي ﷺ : « لن يَغْلِبَ عسرٌ يسرين »[٣] ولله درُّ القائل إذ قال : [وافر]

إذا اشتملتْ على اليـأسِ القـلـوبُ	وضــاقَ بما بِهِ الصـدرُ الرحيـبُ
وأُوطنـسـتِ المكـارهُ واطمأنَّـتْ	وأرسَـتْ في مكامِنهـا الخُطـوبُ
ولم يُـرَ لانكشـافِ الضُّرِّ وجـهٌ	ولا أغـنى بحيــــلَتِه الأريـبُ
أتاكَ على قنـوطٍ مـنك غـوثٌ	يمنُّ به اللـطـيفُ المسـتجيـبُ
(عسى الكربُ الذي أمسيتَ فيـهِ	يكـونُ وراءَهُ فــرجٌ قريـبُ)[٤]
فـيأمـنُ خـائفٌ ويُـفَـكُّ عـانٍ	ويـأتي لأهـــلِه النـائي الغريبُ

(١) لم أقف عليه مسندًا، وذكره الإبشيهي في المستطرف ٢/ ١٥٥.

(٢) في الأصل : انتظارها الفرج لله تعالى ، وقد كرر النص سليمًا في سياق لاحق ، رواه البيهقي في السنن ٧/ ٢٠٤، وضعفه العراقي في المغني ٢/ ١٠١٥، وقال الألباني في الضعيفة (١٥٧٢): موضوع.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٧٥، وقال الذهبي في التلخيص: مرسل، وضعفه السخاوي في المقاصد ص٥٣٨-٥٣٩، والألباني في الضعيفة (٤٣٤٢).

(٤) هذا البيت للشاعر هدبة بن الخشرم ، وقد أورده الزجاجي في شواهد الجمل .

وقال أيضًا : [طويل]

لئنْ صدعَ البينُ المشتِّتُ شملَنَا ... فلِلْبَيْنِ حِكَمٌ في الجموعِ صَدُوعُ
وللنَّجمِ من بعدِ الرجوعِ استقامةٌ ... وللشمسِ من بعدِ الغروبِ طلوعُ
وإن نعمةٌ زالتْ عن الحُرِّ وانقضتْ[1] ... فإنَّ لها بعدَ الزوالِ رجوعُ[2]
فكنْ واثقًا بالله واصبرْ لحكمهِ ... فإنَّ زوالَ الشرِّ عنكَ سريعُ

أيُّها الضاجرُ من مصيبته ، أما رأيتَ ما جاء في الصبرِ على البليَّة ؟ منها قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران ٢٠٠) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر ١٠) ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ (الأعراف ١٣٧) .

وعلى الجملة فقد ذكر اللهُ تعالى في كتابه [الصبر] في نيِّفٍ وسبعين موضعًا ، وأمر نبيَّه ﷺ [به] فقال [تعالى] : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف ٣٥) ، فالواجب على المؤمن أن يصبِرْ ولا يضْجَرْ ، وأن لا يُوطِّنُ على الراحة في الدنيا نفسًا ، ولا يركنُ إلى ما يقتضي فرحًا وأُنسًا ، ويعمل على قول النبي ﷺ في ما روى عنه أبو هريرة ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن »[3] فبتوطُّنِ العبدِ على المِحَنِ في دنياه يهون عليه ما يلقاه ، ويجد السُّلوان عند فقدان ما يهواه ، كما قيل : [متقارب]

يُمَثِّلُ ذو اللُّبِّ في لبِّهِ ... شدائدَهُ قبلَ أنْ تنزلا

(١) في الأصل : في الأصل : وانقطعت .
(٢) الأظهر أن في القافية إقواء ، باعتبار أن (رجوع) هو اسم إن .
(٣) رواه مسلم (٢٩٥٦).

فـإنْ نزلـتْ بغتـةً لم ترعـْـ ـه لما كان في [نفسه] مثَّلا
رأى الأمـرَ يُفْضي إلى آخِـرَ فصـيَّرَ آخـره أولا[1]
ولو قـدّم الحـزمَ في نفسه[2] لعلّمه الصَّبرَ عند البلا

فليتَّقِ المريدُ ما يَرِدُ عليه من ذلك بالصبر والرِّضى والاستسلام عند جريان القضاء ، فعن قريب - إن شاء الله - ينجلي الأمرُ ، ويستوجبُ من الله - إن شاء - جزيل الأجر ، قال شيخُنا يحكي عن غيره : إن الصبر والجوع بعد المعرفة هما لُبُّ طريق القوم . قال سهل بن عبد الله ﷺ : لَمَّا خلق اللهُ الدنيا جعل في الشِّبع المعصيةَ والجهلَ ، وجعل في الجوعِ العلمَ والحكمةَ ، وجعل في الصبر خيرَ الدارين ، وقال يحيى بنُ مُعاذ : الجوعُ نورٌ والشِّبعُ نارٌ ، والشهوةُ مثل الحطبِ يتولَّد منها الاحتراقُ ، ولا تنطفي نارُه حتى يُحْرِقَ صاحبَه .

وقيل لمولانا عبد السَّلام : متى يكونُ الرجل وليًّا صالحًا ؟ فقال : إذا كان عالمًا عاملًا صابرًا متواضعًا ، ولم يرَ لنفسه مقامًا ولا حالًا ، ولا يرى أنَّ في الخلق أشرَّ منه ، إلى أن قال : يقال إن في كتاب (...) : « مَنْ تعرَّض لِمَا [لا] يَعنيه تورَّط في ما [لا] يُغنيه »[3] وقال : « يُقال : شهواتُ العاقل من وراء فكرتِه ، فإذا انبعثَتْ له شهوتُه مرة بِفِكْرتِه فنظرَ في مبادئها وعواقبِها دبَّرَ فيها بحكمِ الرأي ، وفكرةُ الأحمقِ من وراءِ شَهْوتِه ، فكلَّما انبعثَتْ به

(١) في الأصل : والأمر يقضي ، وهو تصحيف ، والبيت وارد في كتاب الشعر لأبي على الفارسي وفي تقييد ابن الفخار على جمل الزجاجي ص ٤٨ غير معزو إلى أحد .
(٢) في الأصل : لنفسه ، وقد وردت هذه الأبيات في كتاب الطرائف والتلائد جمع سيدي محمد الشيخ المختار ٢/ ١٦٩ ، وزاد فيه قول الشاعر ولم يسمه :
وذو الجهـل يأمنُ أيامَـهُ وينسَى مصارعَ مَنْ قدْ خَلا
(٣) عبارة غير واضحة في الأصل ، والمثل يقول « من دخل فيما لا يعنيه لقي مالا يرضيه » .

شهوةٌ سَرتْ نافذةَ لوَجْهِها لا يَصْدِمُها شيءٌ » إلى أن قال : « وروينا عن النبي ﷺ قال : « العلمُ خليلُ المؤمن ، والحِلْمُ وزيرُه ، والعقلُ دليلُه ، والعملُ قائدُه ، والرِّفقُ والدُه ، والبِرُّ أخوه ، والصبرُ أميرُ جنوده »(١) فناهيك بشرفِ خِصْلَةٍ تتأمَّرُ على هذه الخصال .

وليس المرادُ بتفضيل الصَّبْرِ على العَقْلِ وما ذُكر من الخصال معها ، و[إنما] المراد أنَّ بِالصَّبْرِ يكونُ الثَّباتُ عليها ، والاستمساكُ بها ، فمَنْ اتَّصف بشيء من هذه الخصال ولم يتصبَّرْ عليه ، و[يتَّصِفُ بـ]ـالملازمة(٢) له، كان عند مزايلتِهِ كمَنْ لم يتَّصِفْ بالصَّبرِ لهذه الحقائق ، ضابطًا ضَبْطَ الأميرِ جنودَه عن مزايلَةِ مراكزِها ، والإخلالِ بما نُصِبَتْ له ، من دفاعٍ وامتناعٍ وانتفاعٍ .

ورُوي أنَّ عليًّا ﷺ قال : « الصَّبرُ مطيَّةٌ لا تكبو ، وسيفٌ لا ينبو » ، قيل : إن مما كُتب في الصحيفة « [الصفراء والمعلقة](٣) في أحسن هياكل الفرس ، « كما أن الحديد يعشَقُ المغناطيس ، فكذلك الظفرُ يعشَقُ الصبرَ ، فبِالصَّبر تظفر » ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : « أفضلُ العدة الصبرُ في الشدة »، [و] في بعض الأخبار أنَّ « انتظارَ الفرجِ بالصبر عبادةٌ » ، وقد قال الشاعر : [بسيط]

إنَّ الأمورَ إذا اشــتدَّتْ مســالكُها ... فالصبرُ يَفتحُ منها كــلَّ مَـا ارتُتِجـا
لا تيأســنَّ وإن طــالتْ مطــالبةٌ ... إذا استعنتَ بصبرٍ أنْ ترى فَرَجَـا

---

(١) رواه الشهاب في مسنده ١ / ١٢٢ من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة، وضعفه العراقي في المُغني ٢ / ٨٦١.

(٢) المراد : يلازمه .

(٣) كذا في الأصل .

حُقَّ لذي الصَّبرِ أنْ يحظى بحَاجَتِهِ ... ومُدْمِنِ القَـرْعِ للأبـوابِ أنْ يَلِجَا

فمَنْ جعله معتمَده في جميع منازله ، واعتدَّه من أعظم عُدده ووسائله ، فهو مصيبٌ في رأيه ، مُنجِحٌ في سعيه ، ومَنْ جَزَعَ من المصائب ، واضطرَب عند وقوع النوائب ، كان عاملًا في ما يُزيدُه ضُرًّا ، ويُكسبه وزرًا ، ويفوتُه أجرًا ، وناهيك به خُسرًا ، كما قيل : [كامل]

وإذا تُصبْكَ مصيبةٌ فاصبرْ لهـا[1] ... عَظُمَـتْ مصيبةُ مبتلىً لا يصبـرُ

وكما قيل أيضًا : [طويل]

تعوَّضْتَ أجرًا مِنْ فقيـدٍ فلا يكُنْ[2] ... فـقيدُكَ لا يـأتي وأجـرُكَ يذهـبُ

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « ما يصيبُ المسلمَ من نصبٍ ولا وصب ، ولا هَمٌّ ولا حزن ، ولا أذى ولا غم ، ولا عَثَرٍ ، حتى الشوكةُ يُشاكها إلَّا كفَّر اللهُ بها خطاياه »[3] . وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبدِه الشرَّ أمسكَ بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة »[4] ، وقال ﷺ : « إن عِظم الجزاء مع عِظم البلاء ، وأن الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم ، فمَنْ رَضِيَ فله الرِّضى ، ومَنْ سَخِطَ فله السَّخَط »[5] رواه الترمذي ، وقال حديث حسن .

وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي وجدة ، عن أنس بن مالك ﷺ ، قال :

---

(١) إذا في اللغة غير جازمة ، وقد جزم الفعل بعدها مراعاة للوزن .

(٢) في الأصل : عوضت .

(٣) رواه البخاري (٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣) .

(٤) رواه الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الألباني في المشكاة (١٥٦٥).

(٥) رواه الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الألباني في المشكاة (١٥٦٦).

قال النبي ﷺ : « الضربُ على الفَخِذِ عند المصيبة يُحبطُ الأجرَ ، ومَنْ استرجع بعد مُصيبته جدَّد الله له أجرَها ، كيوم أصيب بها »[1] ، ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « احفظوا عليَّ خمسة : اثنين واثنين وواحدة ، ألا لا يخافنَّ أحدُكم إلَّا دينَه (قوله : إلَّا دينه ، الذي في حفظي إلَّا ذنبه ، وانظره) ، ولا يرجو إلَّا ربَّه ، ولا يستَحْي أحدٌ منكم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلم ، أن يقول : لا أعلم، واعلموا أنَّ الصَّبْرَ مع الأمور بمنزلة الرأس من الجسد ، إذا فارقه الرأسُ فَسَدَ الجسدُ ، وإذا فارق الصبرُ الأمورَ فَسَدَت الأمور » .

وروي عن علي - كرم الله وجهه - أنه قال : « أيُّما رجل حبسه السلطان ظلمًا فمات في حبسه مات شهيدًا ، فإن ضربه فمات مات شهيدًا » وروي في الخبر عن رسول الله ﷺ : « لَمَّا نزل قوله تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (النساء ١٢٣) قال أبو بكر رضي الله عنه : « يا رسول الله ، كيف الفرجُ بعد هذه الآية ؟ قال رسول الله ﷺ : « غَفَرَ الله لكَ يا أبا بكر ، ألَيس تمرض ؟ أليس يصيبك الأذى ؟ أليس تَنْصَب ؟ أليس تحزن ؟ » ، فقال : هذا بلى يا رسول الله ، قال : « فهذا ما تجزنون به »[2] يعني ما يصيبك من شيء ، يكون كفارةً لك ، إن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلَّا إذا صبر على الشدة والبلاء، ورحم الله مولانا عبد السَّلام حيث قال في هذا المعنى ، إلى أن قال : [زجل]

الصَّبْرْ هُوَ كنزْ العبدْ ويا مَنْ لا صبرْ ما يشبعْ خيرْ

(١) لم أقف عليه مسندًا ، وذكره الأبشيهي في المستطرف ٢/ ١٣٩ من حديث أنس .

(٢) رواه أحمد ١/ ٢٣٠، والطبراني ٥/ ٥٨ من حديث أبي بكر، وصححه ابن حبان في صحيحه ٧/ ١٧٠، والحاكم في المستدرك ٣/ ٧٨، ووافقه الذهبي في التلخيص، والألباني في صحيح الترغيب (٣٤٣٠) .

إلى أن قال :

بــــابٌ عــــلى الــــوزرَا والجنــــدْ   يحـــــكمْ عليهـــــمْ كالأمــــيرْ

إلى أن قال :

عنــــد المصــــيبة لا ينكــــدْ   ويشــكرْ إلهَــهُ شــكرٌ كثــــيرْ
يحوقــل ويســترجــع مــن جــد   العســــر عقبــه يسر كبــــيرْ
وإن غلب صــــبرك لا تجهــــد   بــلا صــبر مــا تســوى قِطمــيرْ
العلــم والــورع مــع الزهــد   والنحـــو وأنـــواع التفســــيرْ
وزرا لصــــبرك وكــذا الجنــد   والصــــبر هــو أصـــل الخيرْ

... إلى آخر ما قال .

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثلاثة مَنْ رُزِقَهُنَّ فقدْ رُزِقَ خيرَ الدنيا والآخرة، الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء، والدعاء في الرخاء »[1]
وحُكي أنَّ امرأةً من بني إسرائيل لم يكُن لها إلَّا دجاجة فسرَقها سارق فصبرتْ وردَّتْ أمرها إلى الله ، ولم تدعُ عليه ، فلمَّا ذبحها السارق ، ونتف ريشها ، أُنبت جميعُه في وجهه ، فتَعِبَ في إزالته فلم يقْدِر على ذلك ، إلى أن أتى حبرًا من أحبار بني إسرائيل ، فشكى له ، فقال : لا أجد لك دواءَ إلَّا أن تدعو عليك هذه المرأةُ ، فأرسل إليها مَنْ قال لها أين دجاجتك ؟ فقالت: سُرقتْ ، فقال : لقد آذاكِ مَنْ سرقها ولم تدعي عليه ، وقد فَجعَكِ في بيضها ، فهو كذلك ، فما زال بها حتى أثار الغضب منها ، فدعت عليه

(١) لم أقف عليه مسندًا، وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٦٣١٧) وقال: رواه أبو الشيخ عن عمران بن حصين، وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٤٤٠) .

فتساقط من وجهه ، فقيل لذلك الحبر من أين علمت ذلك ؟ فقال : لأنها [لما] صبرت ولم تدعُ عليه انتصر اللهُ لها ، فلمّا انتصرتْ لنفسِها ودعتْ عليه سقط الريشُ من وجهه .

فالواجبُ على العبد أن يصبرَ على ما يصيبه من الشدة ، ويحمدَ الله تعالى ، ويعلمَ أن النصر مع الصبر ، وأن مع العسر يسرا ، ولله درُّ سيدنا ومولانا ووسيلتِنا إلى ربنا سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ حيث قال : [الكامل]

اصْبرْ على حُلْوِ الزَّمانِ ومُرِّهِ ... واعلمْ بأنَّ اللهَ بالغُ أمرِهِ
وإذا أُصِبْتَ بما أُصِبتَ فلا تقلْ ... أوذيتُ من زيدِ الزَّمانِ وعَمْرِهِ
فالصدرُ[1] مَنْ يلقَى الزمانَ بصدرِهِ ... وبصبرِهِ وبحمدِهِ وبشكرِهِ
وإذا اعتراكَ الوهمُ في حالِ امرئٍ ... وأردتَ تعلمُ خيرهُ من شرِهِ[2]
فاسألْ ضميرَكَ عنْ ضميرِ فؤادِهِ ... يُنبيكَ بالسِّرِّ الذي في سِرِّهِ

غيره : [كامل]

اصبرْ لكلِّ مصيبةٍ وتجلَّدِ ... واعلمْ بأنَّ المرءَ غيرُ مخلَّدِ
إنَّ المصائبَ إنْ أتتكَ بجملةٍ ... فترى المنيَّةَ للعبادِ بمرصَدِ
وإذا ابتُليتَ ببلوةٍ فاصبرْ لها ... و[اذكرْ][3] مُصابكَ بالنبيِّ محمدِ

---

(١) في الأصل : فصبر .
(٢) في الأصل : وشره .
(٣) في الأصل : واصبر .

غيره : [كامل]

إنَّ الأمورَ إذَا التوتْ وتعقَّدتْ نزلَ القضاءُ منَ السَّماءِ [بحملهَا][1]
واصبرْ لهَا ولعلَّهَا أنْ تنجلي ولعلَّ مَنْ عقدَ الأمورَ يحلُّهَا

غيره : [كامل]

إنِّي رأيتُ الصَّبرَ خيرَ معوَّلٍ في النائباتِ لمن أراد مُعَوِّلا
ورأيتُ أسبابَ القناعةِ أُكِّدَتْ بعدَ الغِنَى فجعلتُها لي مَعْقِلا
فإذا نبا بي منزلٌ جاوزتُهُ وجعلتُ منهُ غيرَهُ لي منزلا
وإذا غلا شيءٌ عليَّ تركتُهُ فيكونُ أرخصَ ما يكونُ إذا غلا

غيره : [طويل]

إذا ما أتاكَ الدَّهرُ يوماً بنكْبةٍ فهيئ له صبرًا ووسِّع لهُ صدرًا
فإنَّ تصاريفَ الزَّمانِ صعيبةٌ فيومًا تَرى عُسرًا ويومًا تَرى يُسْرَا
وما مسَّني عسرٌ ففوضتُ أمرَهُ إلى الملكِ الجبارِ إلَّا تيسَّرَا

غيره : [سريع]

الدَّهرُ لا يبقىٰ على حالةٍ لا بدَّ أنْ يُقْبِلَ أو يُدْبِرَا
فإنْ يلْقَكَ [الدهرُ][2] بمكروهه فاصبرْ فإنْ الدَّهرَ [لنْ] يصبرَا

(١) في الأصل : بجملها ، وهو تصحيف .
(٢) زيادة عن الأصل يقتضيها الوزن والمعنى .

غيره : [طويل]

أما والذي لا يعـلمُ الغيبَ غيرُهُ ... ومَنْ ليسَ في كلِّ الأُمورِ لهُ كُفْوُ
لئن كانَ بـدءُ الصَّبرِ مُـرًّا مَذَاقُه ... لقدْ يُجتنى مِنْ بعدهِ الثَّمَرُ الحُلوُ

غيره : [بسيط]

ما أحسنَ الصَّبرَ في الدُّنيا وأجملَهُ ... عند الإلٰه وأنجاه من الجزعِ
من شدَّ بالصَّبر كفًّا عندَ مؤلمةٍ ... [شُدَّتْ يَدَاهُ](١) بحبلٍ غيرِ منقطعِ

غيره : [وافر]

تَصبَّرْ أيُّها العبدُ اللبيبُ ... [لعلكَ](٢) بعدَ صبركَ ما تخيبُ
وكلُّ الحادثاتِ إذا تناهتْ ... يكونُ وراءَها فرجٌ قريبُ

غيره : [كامل]

ولرُبَّ نازلةٍ يَضيقُ بها الفتى ... ذَرْعًا وعِنْدَ الله منها المَخْرَجُ
ضَاقَتْ فلمَّا اسْتَحْكَمَتْ حلقاتُها ... فُرِجَتْ وكان يظنُّها لا تُفْرَجُ

وقال النبي ﷺ : « الصَّبْرُ سترُ الكروب وعونٌ على الخطوب »(٣) ، ورُوي عن ابن عمه علي رضي الله عنه أنه قال : « الصَّبْرُ بابُ الأعمال كلِّها ، ومطيةٌ لا تدبر ، وسيفٌ لا يَكَلّ » ، ورُوي أن الله عز وجل أوحى إلى داود عليه السلام : « مَنْ

(١) في الأصل : والتوت يده ، وما بين المعكوفين زيادة يقتضيها الوزن والمعنى .
(٢) في الأصل : لعل .
(٣) لم أقف عليه مسندًا ، وذكره الطرطوشي في سراج الملوك ص٩٨، والأبشيهي في المستطرف ١٤٤/٢ .

صبرَ علينا وصل إلينا » ، ولله درُّ سيدنا ومولانا ووسيلتِنا إلى ربنا سيدنا علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه إذ قال : [بسيط]

اصبرْ على مَضَضِ الإدلاجِ في السَّحَرِ ... وفي الرَّوَاحِ وفي الطَّاعَاتِ في الذِّكرِ[1]
إني رأيتُ وفي الأيــام تجــربةٌ ... للصَّــبْرِ عَاقِبَةٌ محمـودةُ الأثــرِ
وكلُّ مَنْ جَــدَّ في شَيْءٍ يُؤَمِّـلُه ... واسْتَصْحَبَ الصَّـبْرَ إلَّا فازَ بالظَّفَرِ

غيره : [بسيط]

الدَّهْــرُ أَدَّبَنِـي والصَّـبْرُ رَبَّـاني ... والوقتُ أَمْتَعَـنِي واليَأْسُ أَغْنَـاني
وأَحْكَمَتْنِي مِنَ الأيــامِ تَجْـرِبَةٌ ... حَتَّى نَهَيْتُ الذي قَـدْ كَانَ يَنْهَـاني

غيره : [بسيط]

يَا مَنْ أَلَـحَّ عَـلَيْـهِ الهَـمُّ والفِكَـرُ ... وَغَـيَّرَتْ حَـالَهُ الأيـامُ والغِـيَرُ
أما سَمِعْتَ لِـمَـا قـدْ قِيلَ في مَثَـلٍ ... عِـنْـدَ الإياسِ فأينَ اللهُ والـقَـدَرُ
ثم الخطـوبُ إذا أحداثها طَرَقَـتْ ... فاصْبِرْ فقدْ فـازَ أقـوامٌ بـها صـبرُوا
وكلُّ ضــيقٍ سَـيَأْتي بَعْــدَهُ سَعَةٌ ... وكُلُّ فَـوْتٍ وَشَــدٍّ بَعْـدَهُ الظَّـفرُ

غيره : [بسيط]

إذا ابتُـلِـيتَ فثِقْ بـالله وارْضَ بـهِ ... إنَّ الذي يَكْشِـفُ البَـلْوَى هُـوَ اللهُ
الْيَـأْسُ يقْـطَـعُ أحيانًـا بصـاحبِهِ ... لا تَيْـــأَسنَّ فـــإنَّ المــانعَ اللهُ
إذا قَضَى اللهُ فاسْتَسْــلِمْ لِقُـدْرتِهِ ... فَمَـا تَرَى حِيلَةً في ما قَــضَـى اللهُ

---

(١) كذا : ولعلها (البكر) .

غيره : [وافر]

إذا عقدَ القضـــاءُ عليـكَ أمـرًا ‏ ‏ بمكـــروهٍ تعـــاظمَ أو بليَّـةْ
فلا تيْـــأَسْ وَثِــقْ بالله واصْـبِرْ ‏ ‏ فَللرَّحْـــمْـــنِ أَلْطَـافٌ خَـفِيَّـةْ

اعلم أنَّ الضيقة لا يعقبُها إلَّا الفرجُ ، وأنَّ لكل شيء ضدًا ، وليس شيء بدائم ، وما شيءٌ أجمل في المضايق من الصبر الجميل ، فلكلِّ شيءٍ أجرٌ، والصابر مأجور ، ثم لا يبلُغُ الضاجرَ شيئًا ، وإنما الضجرُ نَكدٌ ، يزيد به الإنسانُ ضيقةً ، وربما جاءك الفرجُ من باب تكرهُه ، وتتوهمُ أنه شرٌّ ويأتي منه الخير الكثير ، وفي الخبر : « أفضلُ الأعمال الصَّبْرُ والمُسَامَحَةُ » . قال أهل العلم : « الصَّبْرُ حبسُ النفسِ على كَرِيهٍ يتحملُهُ ، ولذيذٍ يفارقُهُ ، وهو ممدوحٌ ومطلوب » . ويقال : الصَّبْرُ الوقوفُ مع البلاءِ بحُسنِ الأدب ، أي بأن لا يجزعَ ولا يتسخَّط ، ويقال الصبَّار بتشديد الموحَّدة هو الذي عوَّد نفسَه الهجوع على المكاره ، والمتصبِّرُ هو الذي يتكلَّفُ حَمْلَ ما أصابه ، ويقاسي مشقَّته ، والصابر من يَحْمِلُ ذلك بدون مشقة وإن وجد ألمًا .

قوله : والمسامحة ، قال أهلُ الحق : المسامحةُ المساهلة ، يقال : سَمَح بكذا يسمَح بفتحتين سموحًا وسماحة : جاد وأعطى ، ووافَقَ على ما أُريدَ منه ، وأسمحَ بالألف لغةٌ ، وقال الأصمعي : سمح ثلاثيًا بما له ، وأسمح بقيادِه . ولذلك قال الشيخ الذي هو مولانا عبد السَّلام في بعض مقطَّعاته : [زجل]

اصْـــبِرْ وسَـــامِحْ ‏ ‏ يا جاهلَ الأحـوالْ
ذا أمـرْ واضِــحْ ‏ ‏ ما تعـتريهِ أقـوالْ
اصــمتْ وجانِحْ ‏ ‏ للســادة الأبـدالْ

إلى آخر ما قال .

واعْلم أنَّ الأدلة والأشعار والحكايات في هذا المعنى الذي هو الصبر أكثرُ من أن تُحصى في غيرها ، وكذلك الصمتُ ، وما ورد فيه ، وكذلك الشجاعةُ وهي نوع من الصبر ، وهي الإقدام في المضايق ، وقد شَجُعَ بالضم فهو شُجاع ، يثلث شينه ولا توصف به المرأةُ ، وقيل : توصف به وهو قليل ، قيل : الشجاعة محمودةٌ في الرجل مذمومةٌ في المرأة ، والحياء بمدٍّ : هو خجل في النفس يكفُّ عن معايب الدنيا والدين ، ومنه محمود ، وهو ما كفَّ عن المعصية وصغائر الخِسَّة ، ومنه مذمومٌ وهو ما كفَّ عن الفرائضِ والشرائع ، والأول من الله والثاني من الشيطان بأمر الله[1]، والمروءةُ فُعولة، تُهْمَزُ وتُسَهَّل، وهي الإنسانية، والأفعالُ الحسنةُ والرياشُ والعفافُ، وإصلاحُ المرءِ معيشتَه، و [عدمُ] فِعْلِ ما يَستَحي مِنه ، والمحاسنُ كلها والأخلاق الحميدة، والاحتراف وكونه من المروءة قولُ منصورِ الفقيه : [طويل]

إذا المرءُ لم يَطْـلُبْ معاشـًا لِنَفْسِهِ ... [وَهَى] فعلُهُ أو باعَ في السُّوقِ حقَّهُ
ولم يكُ مأمــونًا على ما أَجَــارَهُ ... إذا مَـا رَآهُ خَاليــــًا أنْ يُـلَـقَّـهُ

والصمت هو والصموت بمعنى ، وهو السكوت ، وتركُ الكلام في ما لا يعني ، وفي الأثر : « الصَّمْتُ حُكْمٌ وقَلِيلٌ فَاعِلُهُ »[2] ، رُوي عن أبي الدرداء وهو موقوف ، ورُوي مرفوعًا ، ورُوي أنه من حِكَم لقمان قال الشاعر : [كامل]

---

(١) في هذا نظر لأن الله لا يأمر بالفحشاء ولا الكفر ولا يرضاهما لعباده .

(٢) رواه موقوفًا من حديث أبي الدرداء الخرائطي في مكارم الأخلاق ، وأبو طاهر السلفي في المنتقى من مكارم الأخلاق ص٩٣، وابن عساكر في تاريخه ٤٧/ ١٢٤، ورواه عن أنس من كلام لقمان الخرائطي في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الشعب ٤/ ٢٦٤، ورواه مرفوعًا من حديث أنس الشهاب في مسنده ١/ ١٦٨، والبيهقي في الشعب ٤/ ٢٦٤ وقال: والصحيح عن أنس أن لقمان قاله، ووافقه العراقي ٢/ ٧٦٥، والألباني في الضعيفة (٢٤٢٤).

إمْلِكْ كَلَامَكَ واسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهِ ... إنَّ البَلاءَ بِبَعْضِهِ مَقْرُونُ
واحْفَظْ لِسَانَكَ واحْتَفِظْ مِنْ غَيِّهِ ... حَتَّى يَكُونَ كَأَنَّهُ(١) مَسْجُونُ
أَوْكِلْ(٢) فُؤَادَكَ بِاللِّسَانِ وَقُلْ لَهُ ... إنَّ الكَلامَ عَلَيْكُمَا(٣) مَوْزُونُ
فَزِنَاهُ وَلْيَكُ(٤) مُحْكَمًا فِي قَالَبٍ ... إنَّ البَلاغَةَ فِي القَلِيلِ تَكُونُ

وقيل : كثرةُ الكلام لا توجد إلَّا في النساء والضعفاء ، ومما قيل في الصمت : [وافر]

إذا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إجَابَتِهِ السُّكُوتُ
سَكَتُّ عَنِ السَّفِيهِ فَظَنَّ أَنِّي ... عَيِيتُ عَنِ الجَوابِ وَمَا عَيِيتُ

وقيل : الصمت منام اللسان والكلام يقظته ، والمرء مخبوٌّ تحت لسانه حتى ينطق ، والساكت بين الأخرس والنائم، وقيل: الصامت ينفع نفسه ، والناطق ينفع نفسه وغيره، وقيل : مَنْ لم ينطق فسَد حِسُّه ، وبُدِّلَتْ نفسُه ، ومات خاطره ، ولذلك مولانا عبد السَّلام يقول : [زجل]

الصَّبرْ واجبْ يا فُقَرَا ... كذا الصَّمْتْ رَا فيه مزيَّهْ
ماذا يصيرْ وما يجْرَا ... للعبد بعدَ أنْ يتهيَّهْ
إنْ كنتَ يا صاحِ تقرَا ... وتسمع كلَامَ الصوفيَّهْ
اعرضْ عنِ النَّفسِ الغرَا ... هاذيك اللئيمة المخزيَّهْ
واصمتْ لسانَكْ عن هَذْرَا ... اتكثرْ الهَذْرَا زيَّهْ

(١) في الأصل : كأنك .
(٢) في الأصل : ووكل .
(٣) في الأصل : عليك .
(٤) في الأصل : ويلك .

وشَكُّمْ عَزِيـزَة الغَــدْرَا نَفْس البــلاوي البدعيَّـهْ
واخْـلصْ اعمالكْ لِتَشْرَا بِحُسْنِ العَقِيــدَة والنِّـيَّهْ
وادْخُلْ مَعَانَـا لِلْحَــضْرَا تَنْــتَجْ وَتَظْهَــرْ بضــويَّهْ
وكُنْ اشْعَرِي يَا بْنَ القُـرَّا على عَهْدِ قَــوْمْ سُنُوسِــيَّهْ
صَحِّحْ إيمـانَكْ وأنْ تَقْرَا في النَّحـوِ وكـذا الألفيَّـهْ
واحفظْ مَـوَازِين الشُّـعَرَا وجميعْ العَـرُوضْ الكليَّـهْ
ومختصرْ خليلْ وشُرَّاحَـهْ والتُّحْفَــةْ وَاللَّامِيَّــةْ
وشَكُّمْ عَزِيـزةَ المَقْبَـاحْ نَفْسَ الشَّـهَاوي الغُرِّيَّـهْ
والصَّمْتْ رَاهْ هُوَ الـراح والصَّبْرْ أَصْــل الجُمْلِيَّـهْ
سَبَعْ آلافْ مِـنَ الحِكْمَـهْ في ا لصَّمْتِ قَالُوا السُّـنِيَّهْ
اصْـبِرْ وسَـامِحْ واشـجَّعْ واصْمُتْ كَلَامَـكْ بعَنِيَّـهْ
وإذا وَجَبْ نُطْقَكْ فَاصْدَعْ والصَّمْت مَـرَّاتْ رِزيَّـهْ
عَنِ الكَلَام انْطُقْ وادْفَـعْ بالأَمْــرِ والنَّهْــي بِنِـيَّهْ
بَالِكْ تَنْـكُرْ وَتَشَنَّـــعْ بِكَــلامْ مَـا لِيلَـهْ نِـيَّهْ
رَا النَّـفْسْ خَوَّانَـهْ تَفْـزَعْ اتْرُكْ هَـوَاهَـا المِدْعِـيَّهْ
فَوِّضْ بِقَلْبَكْ لِلأَجْمَــعْ أَهْـلِ الجَـنَابِ الأعْلِـيَّهْ
أَيَا فَقِيـهْ سَــلِّمْ وَاسْـمَعْ لَا تَعْـتَرِضْ لِلصُّــوفيَّهْ(1)

إلى آخر ما قال .

(١) في مثل هذا النص تجد روح تصوُّف الشيخ عبد السلام الأسمر .

قال ﷺ : « مَنْ كانَ يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرًا أو ليصمُت »[1]، قالت المشايخ : « إن في الصمت الواجب سبع آلاف حكمة ، اجتمعت في سبع كلمات : عبادةٌ من غير عناء ، وزينةٌ من غير حلي ، وحصنٌ من غير حافظ ، وسترٌ من العيوب ، وهيبةٌ من غير سلطان ، وعزٌ من غير عشيرة ، وراحةٌ للكرام الكاتبين » ، وفي ذلك آيات وأحاديث كثيرة جعلنا الله من العاملين بها ، ولله دَرُّ القائل في هذا المعنى إذ قال : [بسيط]

قالوا صَمُتَّ وقد أُوذِيتَ قلتُ لهم ... إن الكلامَ لِبَابِ الشرِّ مفتاحُ
والصمتُ عن أحمقٍ أو جاهلٍ كَرَمٌ[2] ... وفيه سرٌ وللأعراض إصلاحُ
ألا ترى الأُسْدَ تُخشَى وهي صامتةٌ ... والكلبُ يُخزى لعمري وهو نبَّاحُ

غيره : [طويل]

لسانُ الفتى حَتْفُ الفتى حين يجهلُ ... وكلُّ امرئٍ ما بينَ فكّيهِ مقتلُ
إذا ما لسانُ المرءِ أكثرَ هدرَهُ ... فذاك لسانٌ بالبلاءِ موكَّلُ
وكمْ فَاتِحٍ أبْوَابَ شَرٍّ لنفسِهِ ... إذا لمْ يَكُنْ قُفْلٌ على فيهِ مُقفلُ
وَمَنْ لمْ يُقَيِّدْ لفظَهُ مُتَجَمِّلًا ... سَيُطْلَقُ فيهِ كُلُّ ما ليس يَجْمُلُ[3]
وَمَنْ لمْ يَكُنْ في فِيهِ مَاءُ صَبَابَةٍ ... فمِنْ وَجْهِهِ غُصْنُ المَهَابَةِ يذْبُلُ
وَمَنْ أمِنَ الآفاتِ عُجْبًا بِرَأْيِهِ ... أَحَاطَتْ بِهِ الآفاتُ مِنْ حَيْثُ يَجْهَلُ
أُعَلِّمكمْ[4] ما عَلَّمَتْنِي تَجَارِبي ... وَقَدْ قَالَ قَلْبِي قَائلًا يَتَمَثَّلُ[5]

(١) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة .
(٢) في الأصل : والصمت على أحمق وجاهل كرما .
(٣) في الأصل : يجمل .
(٤) في الأصل : أعلمتكم .
(٥) في الأصل : متمثل .

إذا قُلْتَ قَوْلًا كُنْتَ رَهْنَ جَوَابِهِ ... فحاذرْ جوابَ الشَّرِّ إن كنت تعقلُ
إذا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيدًا ... مُسَلَّمًا فَمَيِّزْ ودَبِّرْ مَا تَقُولُ وَتَفْعَلُ

غيره : [كامل]

فإذا سكتَّ ففي السُّكوتِ سلامةٌ ... ولئنْ نطقتَ فلا تكنْ [مهذارا[1]]
ولئن ندمتَ على سكوتك مرةً ... فلقد ندمتَ على الكلامِ مرارا

ثم إنك إذا أخذْتَ النصيحةَ التي أشرت لك بها ، وهي الدوام على الصبرِ والصمتِ كذلك ، وقِلَّةُ الدعاء على الخلق بالشر من غير إذن ، فقد أفدتَ ونلْتَ غنى الدارين ، كما قال ذلك هذا الذي نحن بصدده ، وهو مولانا عبد السَّلام ، ففي الحديث قال ﷺ : « ليس العجَبُ من التوبة ، إنما العجَبُ من الدوام عليها »[2]، وقال ﷺ : « أحب الأعمال إلى الله أدومها »[3]. واعلم أن الفقيرَ الرباني إذا أصيبَ بالبلاء يتأكدُ في حقِّه الصبرُ عليه ، ولا يعجلُ بالدعاء على المسيء إليه ، ويعفو ويحب العفو .

ومنها الصمت ، فإن الإنسانَ إذا صمت نجا من كلِّ آفة ، فإن الكلام بلاءٌ ومحنة ، وهو أصلُ البلاء في الدنيا والآخرة ، ولا يجِبُ النطقُ إلَّا في مواضع معلومة لا يَحْسُنُ فيها سواه ؛ لأنَّ سكُوتَ العالم إذ يتعيَّنُ الكلامُ عليه ، ككلامِ الجاهلِ حيث يتعيَّنُ السكوتُ عليه ، وفي الحديث قال ﷺ : « إذا كان الكلامُ من العالم أحبَّ إليه من الصمت فقد هلك »[4] اهـ .

وفي « الإحياء » روى معاذ بن جبل موقوفًا ومرفوعًا : « من فتنة العالم

(١) في الأصل : هذَّارا .
(٢) لم أقف عليه .
(٣) رواه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٧٨٢) من حديث عائشة .
(٤) لم أقف عليه مسندًا .

أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع »[1] ، [و] قال العراقي : رواه أبو نعيم وابن الجوزي في الموضوعات ، وفيه أيضًا قال عمر بن عبد العزيز ، ﷺ : « إنه يمنعني من كثير الكلام مخافةُ المباهاة » ، وقال بعضُ الحكماء : « إذا كان المرء في مجلس فأعجبَه الحديثُ فليسكُتْ ، وإن كان ساكتًا فأعجبَهُ السكوتُ فليتحدَّثْ » .

وفي « قوت القلوب » في الخبر: «الصمتُ زَيْنُ العالِمِ، وسِتْرُ الجاهلِ»[2]، وقال بعضهم : ليس شيءٌ أشدَّ على الشيطان من عالم ، إن تكلَّم تكلَّمَ بعِلمٍ، وإن سكَتَ سكَتَ بحِلْمٍ ، يقول الشيطان : انظروا إليه سكوته أشدُّ عليَّ من كلامه . وقيل لبعض علماء خراسان عند وفاته : دُلَّنَا على رجل نجلس إليه بعدك ، قال : فلان ، صموتٌ متعبدٌ ، لا يُعرف بكثيرِ علم ، فقيل له : إن فلانًا ليس عنده من العلم ما يُجيب به عن كل ما يُسأل عنه ، فقال : قد علمتُ ، ولكن عندَهُ من الورعِ ما لا يتكلَّمُ إلَّا بما يعلم ، فلذلك أُرشِدُكم إليه .

قال : وكان من المتكلمين بالعلم في وقته كثير ، فعلم من هذا أنَّ علةَ هلاكِ العالم إذا كان الكلامُ أحبَّ إليه ، للوقوع في المباهاة والمُراءاة والعُجْب، وتكلُّفَ الجواب عما لا عِلْمَ له به ، ويَجُرُّه ذلك إلى الكذب ، والدخولِ في الفضول ، وكان ابن مسعود يقول : « إن الذي يُفتي الناسَ في كلِّ ما يسألونه لمجنون »[3] ، وكان ابن عمر يُسأل عن عَشْرِ مسائل فيُجيبُ

(١) الإحياء ١/ ٦٢، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٢٦٤ مرفوعًا، وضعفه أبو زرعة في العلل وسؤالات البرذعي٢/ ٥٨٣، وابن العراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٦٩ .

(٢) قوت القلوب ١/ ١٧٢، وقد رواه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٨٢ من قول سفيان بن عيينة، كما روي مرفوعًا من حديث محرز بن زهير الأسلمي، ذكره أبو نعيم في معرفة الصحابة ٥/ ٢٥٩٢، وضعفه المناوي في التيسير ٢/ ٢٠٧، والألباني في الضعيفة (٣٨٢٠).

(٣) رواه ابن الجعد في مسنده ص٦٢. والنص في الإحياء ١/ ١١٨ .

عن تِسع ، ويسكتُ عن واحدة(١) ، وكان من الفقهاء [مَنْ] يقول : لا أدري أكثر من أن يقول :أدري ، منهم سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل ، والفُضَيل بن عياض ، وبِشْر بن الحارث(٢) ، وكانوا في مجالسهم يجيبون عن بعض ويسكتون عن بعض ، ولم يجيبوا في كل ما يُسألون عنه .

ورُوينا عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى قال : أدركْنا في هذا المسجد مائةً وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم من أحد يُسأل عن حديث أو فُتيا إلَّا ودَّ أن أخاه كفاه ذلك . وفي آخَرَ : كانت المسألةُ تُعرض [على] أحدهم فيردُّها إلى الآخر ، ويردها إلى الآخر حتى ترجع إلى الذي يُسأل عنها أولًا(٣) ، إلى غير ذلك ، وقد قالوا : إنَّ السرعةَ بالجواب فرعٌ من الحماقةِ ونقصُ العقل ، ورحم الله القائل إذ قال: [بسيط]

ما أحسنَ العقلَ لولا أنه غالي وليس يوجد عقل بيع بالمالِ
لو كان يوجدُ بيعاً كان قيمته قيراطَ عقلٍ بما في الأرض من مالِ

إلى آخره (٤) .

أيها القارئ فإن الخيرَ كلَّه في تمامِ العقلِ ، والشرَّ كلَّه في نقصِ العقلِ ، فمَنْ لا عَقْلَ له فالموتُ خيرٌ له ، وانظر أنَّ العَقْلَ لا يُشترى بمالٍ ولا يُداوى بدواء كما قال الشاعر : [البسيط]

لكلِّ داءٍ دواءٌ يُسْتَطَبُّ بهِ إلَّا الحماقةَ أعيتْ مَنْ يداويها

إلى آخره .

(١) النص في الإحياء : « يجيب عن واحدة ويسكت عن تسع » ١/ ١١٨ .
(٢) الإحياء ١/ ١١٨ .
(٣) النص في الإحياء للغزالي بتصرف يسير ١/ ١١٩ .
(٤) في الأصل : إلخ .

فالعاقلُ[1] يحصُلُ له الانتفاعُ ، والأحمقُ يَؤُولُ كِدُّه إلى الضياع ، والحُمْقُ مَحلُّه القلبُ ، قال العلماء : القلبُ صِباغ الوجوه ، ما فيه ظهر [عليه] ، وذكروا أنَّ القلب مَخْزَنٌ مغلقٌ ، والوجه مفتاح محقَّقٌ ، إن كان خيرًا فخير ، وإن كان شرًّا فشرٌ ، وما فيك ظهر على فيك[2] ، فالمبادرةُ بالكلام سببٌ لجلب الآثام . [و][3] تارة العجلةُ لا تنبغي قولًا وفِعْلًا ، قالت المشايخ : لا تنبغي العجلةُ إلَّا في سبع مسائل ، وهي : تجهيزُ الميت إلَّا الغريقَ برجاء إفاقتِهِ ، والتوبةُ من الذنب ، وتقديمُ الطعام للضيف ، ونِكاحُ البكر إذا بلغت ، والصلاةُ إذا دخل وقتُها ، والجهادُ ، وأداءُ الدين ، وقد جُمعت في قول القائل : [رجز]

بادرْ بتـــوبةٍ قِـــرىً ودَيْنِ   بِكرٍ صــلاةٍ معْ جهادِ دِينِ

وفي قول هذا القائل أيضًا : [طويل]

وأُخفيتْ الوُسطَى كساعةِ جمعـةٍ   كذا أعظمُ الأسماءِ معْ ليـلةِ القدرِ

قلت : هذا قول من الأقوال في الوسطى[4] ، وهي عشرون قولًا ، فانظرها ، والمشهور أنها صلاة العصر ، وقوله : كساعة جمعة ، أي ساعة الإجابة التي في يوم الجمعة ، وقوله : كأعظم الأسماء ، أي اسم الله العظيم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئِلَ به أعطى ، هذا قول من الأقوال في الاسم الأعظم ، وفيه أربعون قولا ذكرناهم في غير هذا .

ولنرجع إلى الكلام عن الصمت ، وعدم الدعاء على الخلق بالشَّرِّ ، فقد

---

(١) في الأصل : إلخ فالعقل .

(٢) في الأصل : ما فيك ظهر على ما فيك ، بزيادة (ما) ولا يستقيم بها المعنى ودليله ما بعده .

(٣) في الأصل : فتارة .

(٤) لاحظ أن الشاعر أشار إلى خفاء الوسطى ، ولم يبين ما هي .

كررنا الكلام عن ذلك مرارًا، فتارة يجب الصمتُ ، وتارة يجب الكلام ، ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [1] فإن قلت : قد قررتَ الدليل على عدم الدعاء على الناس بالشَّر ، فما تقول في دعاء الشيخ على آل حامد وغيرهم ، لِمَا تذكرون عنه من الاتِّباع للسنة والأخذ بالأحوط والأدب مع[2] الدين ؟ وفي الحديث : « القاتل بدعوته كالقاتل بسيفه » . قلنا : دعاء الشيخ على آل حامد وغيرهم لَمْ يصدُر منه تعمُّدًا ، بل صدر منه بوجه شرعي وإذن إلهي ؛ لأن آل حامد وأمثالهم قد ظلموه وتعدَّوا عليه ، وسعَوا في إذايته وقتله ، ولم يمكِّنهم الله تعالى ، وقد ظفروا بابنه سيدي عبد الدائم وقتلوه على رؤوس الأشهاد ، وأخرجوه من البلد ، ومع هذا لم يدْعُ عليهم بِشَرٍّ ، حتى أُذن له في الدعاء عليهم ، فدعا عليهم بما أذن اللهُ به مما تقدَّم ذكرُه[3] ، إذ يُباح له قتالهم بالسَّيف والسهم ، فما بالك بالدعاء عليهم المأذون له فيه .

قال سيدي فتحُ الله أبو راس – رحمه الله ونفعنا به آمين – ، في تقييد له: « الإذن في حق الولي هو أن ينادي في سرِّه ، أو تناديه هواتفُ الحق في سرِّه : افعل كذا أو اترك كذا، أو ادعُ ، أو لا تدعُ ، أو تقدَّم أو تأخَّر » إلى غير ذلك، وقال الآخر : « الإذن في حق الولي هو أن يجدَ الوليُّ في قَلَنْسوته وَرَقة مكتوبةً بقَلَم القُدرة : افعل كذا أو اترك كذا ، أو لا تفعل أو بعْ أو لا تبعْ أو اشْرِ أو لا تَشْرِ ، أو ادعُ أو لا تدعُ ، إلى غير ذلك » ، وقال الشيخ سيدي أبو الحسن الشَّاذِلِي نفع الله به : « الإذن في حقِّ الوليِّ نورٌ ينبسطُ على القلب يخلقُه الله فيه وعليه فيمتدُّ ذلك النورُ على الشيء الذي يريده فيُدركُ نورًا مع

(١) فصلت ٤٦ ، وفي الأصل « فمن أبصر فلنفسه » مع بقية الآية .

(٢) في الأصل : على .

(٣) تقدم التعليق على هذا .

نور ، وظلمةً تحت نور ، فذلك النورُ ينبيك أن تأخذَ إن شئت أو تترك ، أو تُقْبِلَ أو تُدْبِر ، أو تُعطي أو تمنع ، أو تقوم أو تجلس، أو تسافر أو تقيم ، أو تَدْعُ أو لا تَدْع » ، وبعضُهم قال : « الإذنُ عند أهل الباطن هو أن يرى الوليُّ رسول الله ﷺ في نومٍ أو يقظةٍ ينبيه بفعلِ الشَّيْءِ أو تَرْكِه ، وذلك على اختلاف أحوالهم »[1] .

واعلم أنَّ ما صدر من الشيخ من الدُّعاء وغيره كالأذكار والأحزاب والمقطَّعات ، وكقوله : قيل لي ، أو نُوديتُ في سرِّي ، أو لُقِّنتُ كذا كذا ، فقد يكونُ من ثلاثة أوجه : إما أن يكونَ تَلْقينُه ذلك في علم النوم ، أو من جِهة إلهام ، أو بالوجه الحكمي على ما قرره القومُ في غيره كالشَّاذِلي ونحوه ؛ لأنهم أتوا بأذكار وأحزاب وأدعية كثيراتِ الرموز لا يفهمُها إلَّا مَنْ له خبرة بالعلم القوي والحال الرباني ، ولا يَعْرِف كلامَ الوليِّ إلَّا الولي .

قال شيخ مشايخنا سيدي أحمد زرُّوق ﷺ في شرحِه على حزب البحر : « نِعم الإذن الذي أشار إليه ، إمَّا أن يكونَ بالرؤيا في النوم ، وإمَّا أن يكونَ بالوجهِ الحكمي على معنى أنه لم يضعْ في حزبه إلَّا ما أَذِنَ الشرعُ في وضعه ،

(١) الأصل في الإسلام انقطاع الوحي بعد النبي محمد ﷺ ، خاتم المرسلين ، وقد استثنى الرسول ﷺ الرؤيا الصادقة ، أما ماعداها من الكتابة في القلنسوة وما شاكلها فمما لا يقبله الشرع ، ولا يثبت به حكمٌ ، وهو مدخل للقول في حق متأخري الصوفية ، ولا نجد مثل ذلك عند أوائل الزهاد والصالحين في القرون الثلاثة الأولى ، بل الأربعة فيما نعلم ، ولا يرتضيه محتسبة الصوفية، ومنه ما ذهب إليه الشيخ الزرُّوق من أن « الإذن المشار إليه لا يخرج عن ثلاثة : رؤيا منامية ، أو الموافقة للشرع الذي لا تثبت به خصوصية للولي ، أو التوفيق الإلهي الذي عبر عنه بالإلهام » ، وقد اشترط في هذا النوع الآخير أن يكون موافقًا للشرع ، فتدبر ، وهذه الثلاثة مقبولة ممكنة ، وتخالف دعوى النصوص المكتوبة والهواتف المسموعة . قال الشيخ أبو محمد المرجاني ﷺ « مَنْ ظن أن الله يكلم أحدًا بعد الأنبياء عليهم السلام كما كلم موسى ﵇ فقد ضلَّ أو حاد عن الطريق » ، والله أعلم .

وإمَّا أن يكونَ بالإذن الحالي الذي عمّه له الإلهام ، والأوَّل أَوْلى ، إذ لا خصوصية في الثاني ، والثالث أحسن ؛ لأنه مقتضى الطريقة ، لكن شرطه موافقة الذي قبله ولو بوجهٍ ما جمع [بين](١) الحقيقة والشريعة ، ثم يؤيدُ ذلك برؤية المنام ، فهو أتم.

وظاهرُ حال الشيخ جامع الثلاثة ، فإن قلت : في قول الشيخ قيل لي كذا ، على أي وجه هو ؟ قلنا : هو بمعنى الإلهام بأن يقع في نفسه وقوعًا لا يمكن تكذيبُه ولا يصح ردُّه ، ولا يصحبه هوى ، يُثلج به الصدر ، وينشرح به القلب ، ويسري في عوالمه سريانا يُفهَم به حقيقة ، ولا يستند إلى دليل خارج عنه ، مع موافقتِه لأصل الشرع في الإجابة والطلب ، وهو معنى المكالمة في اصطلاح القوم، قال الشيخ أبو محمد المرجاني ﷺ : « من ظنَّ أن اللهَ يكلمُ أحدًا بعد الأنبياء عليهم السَّلام كما كلَّم موسى ﷺ فقد ضلَّ أو حاد عن الطريق »(٢) - كما قال - وإنما المكالمة التي عند القوم مخاطبة عوالمهم اللطيفة التي لا يتطرق إليها الغلط ، ولا يدخلُها الشكُّ والتردُّدُ لشاهدِ الحال ودوامِ التجربة ، مع موافقة أصلِ الشرع ، والله أعلم .

فإن قلت : قد حُكي عن الشيخ الفقيه الصالح أبي عبد الله محمد بن عرفة ﷺ ، قال : « ما يَثْقُل عليَّ شيء مثل ما يَثْقُل عليَّ قوله : قيل لي ، ولا أقبلُه ولو من المرجاني المقطوع بولايته » ، قلنا : « أَمَّا ثِقَلُه عليه فمن جهة عدم اعتياده وكثرة ما يجري من المدَّعين بسببه ؛ لأنه لفظٌ مُوهِمٌ بصورته ، ثم هذا الثقل ليس بحجة في نفسِه ، لعدم ابتداءِ الوجه ، ولا دليل فيه »(٣) ،

---

(١) في الأصل : من .

(٢) هذا هو منهج المتصوفة المخلصين المتصلين بثوابت الإسلام .

(٣) مَنْ ذا الذي يطالب بالدليل أهو ابن عرفة الذي يسير بهدي الشرع أم مَنْ يقول قيل لي وألقي في روعي ، مع كثرة المدعين الذين أشار إليهم المؤلف نفسه ؟

وأما كونُه لا يقبله فلا يضُر ذلك ، وهو على عِلْمِه لا يضرُّ تقييدُه به ، كما لا يضرُّه اعتراضُه بما علمه ، ولا يقدح ذلك في غيره ؛ [لأن][1] الحكمَ إليه في حقِّ كل أحد أن لا يتجاوزَ علمُه على غيره ، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء ٣٦) . وأما كون المرجاني مقطوعًا بولايته ، فإن كان قَطْعُه بذلك من جهة العقل فليس للعقل في ذلك من مدخل ، وإن كان من جهة النصوص فلا نصَّ في عينهِ ، وإن كان من جهة الشواهد فشواهدُ الأحوالِ لا تفيد القطع ، وإن كان من جهة الاجتماع في وقته فلا يفيد القطع اليوم ، لعدم تواتره ، ثم هو ليس بأَوْلى من غيره في زمانه ، إن كان لظهوره وشهرته فقيرِ أظهر منه ، بل الشَّاذِلِيُّ آثَرُ[2] في النفوس وأقوى عند الكافة ، خاصة وعامة ، جملة وتفصيلًا ، والجيلاني ﷺ كذلك ، حتى قال عز الدين ابن عبد السَّلام[3] : « ما بلغنا كراماتُ وَلِيٍّ مبلغَ القطْعِ والتواترِ إلَّا كراماتُ الشيخ عبد القادر ﷺ » فأما سدادُ الطريقةِ وكمالِ الهداية فالكلُّ على هُدى من ربِّهم وبيِّنة ، حسبما شهِدَتْ به أخبارُهم ، ودلَّتْ عليه آثارُهم ، وبالله التوفيق .

فإنْ قلتَ : فما دليلُكُم على جوازِ استعمالِ ما يجري به الإلهامُ من الأذكارِ والأدعية وإثبات خاصيَّتها بالاستنباط ؟ قلنا :الدليل على ذلك صريح السنَّة والأحاديث النبوية ، بتقريره - عليه الصلاة والسَّلام - الأذكار وأدعيةً سَمِعها من كثيرين في أوقاتٍ مختلفةٍ بألفاظٍ متباينة ، ومعانٍ واضحةٍ ، وثنائهِ عليها وعليهم باستعمالها ، مع أنه لم يتقدمْ لهم تعليمٌ ولا

(١) في الأصل : كان .

(٢) اجتهاد في قراءة كلمة ولعلها : أكثر أو آثر .

(٣) انظر لعله العز بن عبد السَّلام التونسي وليس المصري .

تعلم منه - عليه الصلاة والسَّلام - في ألفاظِها ، وإنما عرَّفهم معانيها ، وعَرفوا مبانيها ، فمِن ذلك حديثُ عبد الله عن بريدة(١) ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ سمِع رجلًا يقول : « اللهم إني أسألك ، بأنك أنت الله لا إله إلَّا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد » . فقال : « لقد سألَ اللهَ باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى »(٢) رواه أبو داود ، والترمذي ، وحسَّنه وصحَّحه ابن حبان والحاكم ، وقالا : صحيح على شرط مسلم . وفي حديث معاذ بن جبل ﷺ « أنه ﷺ سمع رجلًا يقول : يا ذا الجلال والإكرام ، فقال : استُجيب لك ، فاسأل تُعطَ »(٣) أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن ، وفي حديث أنس ﷺ : « أن النبي ﷺ مرَّ بأبي عياش الزرقي ﷺ وهو يصلي ويقول : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلَّا أنت ، يا حنان ، يا منان ، يا بديع السموات والأرض ، يا حي يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام ، فقال : لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »(٤) أخرجه أبو داود وابن حبان في صحيحه ، والنسائي ، وقال الحاكم : [صحيح] على شرط مسلم .

وحديث أبي هريرة وأبي ذر - رضي الله عنهما - في حفظ الزكاة ، إذ وُجد

---

(١) عبد الله بن بريدة بن الحصيب ، من رجال الحديث (١٤-١١٥هـ) ، ترجمته في تهذيب التهذيب ٥ : ١٥٧ ، وابن عساكر ٧ : ٣٠٦ ، وأعلام الزركلي ٤/ ٢٠٠ .

(٢) رواه أبو داود (١٤٩٢)، والترمذي (٣٤٧٥) وحسنه، وابن ماجه (٣٨٥٧) من حديث بريدة ابن الحصيب الأسلمي، وصححه ابن حبان ٣/ ١٧٤، الحاكم في المستدرك ١/ ٦٨٣، والألباني في صحيح أبي داود (١٣٤١) .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٢٧) وحسنه، وضعفه ابن أبي حاتم في علل الحديث ٢/ ١٨٩، والألباني في الضعيفة (٤٥٢٠) .

(٤) رواه الترمذي (٣٥٤٤)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وأحمد ٣/ ٢٦٥ واللفظ له، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٦٤١) .

الجنيُّ يسرقُ منها فتضرَّع إليه فأرسله ، ثم كذلك ، حتى قال في الأخيرة ، ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى رسول الله ﷺ فقال : « إني ذاكرٌ لك شيئًا إذا قرأته في بيتك لا يقرُبك شيطانٌ ولا غيرُه ، وقال : كنا أحرصَ شيء على الخير ، فذكر له آية الكرسي »[1] رواه البخاري ، وغيرُه مما يطولُ سياقه .

وكذلك حديث أبي سعيد ﷺ في رُقْية الملدوغ بالفاتحة وتقرير النبي ﷺ لذلك، وعدم عتبه فيه ، وقد وقع من ذلك في الأذكار والأدعية ما يفيد الجواز . تتبعه لوجه الله ، لا يمكنُ دفْعُه ، فهو أصلٌ في هذا الباب . والله أعلم .

نعم وقد أدخل مالك ﷺ في باب دعاء النبي ﷺ من الموطأ ، قول أبي الدرداء ﷺ عند قيامه من الليل : « نامت العيون وهدأت الجفون ، ولم يبق إلَّا أنت يا حي يا قيوم » ، فإن قيل : هذا محمول على الرفع لأن أبا الدرداء ﷺ قد لا يقوله إلَّا بعد سماعه ، قلنا : الأصل خلاف ذلك ، ولا معارض في الأصل الذي هو البِناء في الفرع الذي هو المعنى ، فهو من جُملة ما يرجِّح به المقام الذي نحن فيه والله أعلم . اهـ المقصود منه .

وقال الشيخ العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني ﷺ في « رسالة الأنوار » بعد كلام متعلِّق بالهواتف ما نصه : « وقد أحببتُ أن أتكلَّم على المراد بالهاتف وما ألقاه ، وأبسطُ الكلام على ذلك مرصَّعًا بكلام العارفين من مشايخي ﷺ خوفًا أن يتوهَّمَ أحدٌ من القاصرين الذين لا معرفة لهم بمراتب الوحي أنَّ ذلك وحيٌّ كوحي الأنبياء - عليهم الصلاة والسَّلام -

---

(١) ذكره البخاري في الوكالة باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئًا قبل حديث (٢٣١٣)، وبعد حديث (٥٠١٠) ولم يصرح فيه بالتحديث، ووصله ابن حجر في تغليق التعليق ٣/ ٢٩٥-٢٩٧، وصححه ابن خزيمة في صحيحه ٤/ ٩١، والألباني في المشكاة (٢١٢٣) .

فأقول : اِعلم أن الهاتفَ المذكورَ لا يخلو إلَّا أن يكون مَلَكًا ، أو وَليًّا ، أو من صالحي الجن ، أو هو الخضر عليه السلام أو غير ذلك ؛ لأن الخضر عليه السلام حي باق لم يمت[1] ، وقد اجتمعْنَا بمَنْ اجتمع به وبالمهدي ، وأخذ عنهما طريق القوم، وهو شيخُنا الشيخُ العارف بالله تعالى الشيخ حسن العراقي ، صاحبِ الضَّريح فوق الكوم ، بقرية بركة الرطلي بمصر ، وذكر لي ﷺ أنه اجتمع بالمهدي إمامِ آخر الزمان عليه السلام بدمشق ، وأقام عنده سبعة أيام ، وعلَّمه وِرْدَه كلَّ ليلةَ خمسمائة ركعة ، وصيام الدهر[2] وذكر لي وقائعَ كثيرة ، وأنه سأل الإمام عن نسبه ، فقال : مولدي أواخر المائتين من الهجرة[3] ، فسألتُ عن ذلك بعض الإخوانِ الكُمَّل من مشايخنا ، فأجاب بالتاريخ المذكور سواء بسواء ، فاعلم ذلك .

وأما ما ألقاه الهاتف بالقول : فاعلم أنَّ الوحيَ على ضروب ، منها ما يكون متلقىً بالخيال كالمبشِّرَات في عالم الخيال ، وهي الوحي في النَّوم ، فالمَلقي خيال والنازل كذلك ، والوحي كذلك ، ومنه ما يكون خيالًا في حِس على ذي حس ، ومنه ما يكون معنًى يجدُه الموحى إليه في نفسِه من غير تعلق حسٍّ ولا خيال ، مما نزل به ، وهو المسمَّى بالإلهام ، وقد يكونُ كتابةً ، ويقع ذلك كثيرًا للأولياء كقضيب البان ونحوه ، وكان ﷺ يجد بعد القيامِ من النوم ورقةً مكتوبةً فيها ما أُلقِيَ إليه به .

---

(١) لقد وقع الاختلاف في بقاء الخضر عليه السلام أو موته ، وحجة القائلين بموته قوية ، بعضها نصوص من القرآن والسنة ذكرتها في غير هذا الموضع ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء ٣٤) ، وضعَّف القائلون بموته الآثار الدالة على بقائه .

(٢) كيف هذا مع ما يقوله الرسول ﷺ من : « إن أفضل الصوم صوم داود الذي كان يصوم يومًا ويفطر يومًا » ، وعبر عنه ﷺ للرهط الثلاثة الذين تقالُّوا عبادته ﷺ ، فقال لهم : « إنني أصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » ؟

(٣) هل هذا جواب السؤال عن النسب ؟

إذا تقرَّر ذلك ، فعلومُ الغيبِ تنزِلُ بها الأرواحُ على قلوب العارفين العُبَّاد ، ومَنْ عرفهم تلقَّاهم بالأدب ، ومن لم يعْرِفهم أخذَ علم الغيب ولا يدري عن مَنْ كان كالكهنة ، وأهل الزجر ، ولهذا كان أهلُ الله تعالى يرون تنزُّل الأرواح على قلوبهم ، ولا يرون الملَكَ النازِلَ إلَّا أنْ يكونَ المنزَّل عليه نبيًّا أو رسولًا ، فعُلم أن أهلَ الله يشهدون الملائكة ، ولكن لا يشهدونها ملقية عليهم ، ويشهدون الإلقاء ، ويعلمون أنه من الملَك من غير شهود ، فلا يَجْمَعُ بين رُؤية الملَك والإلقاءِ إلَّا نبيٌّ أو رسول ، ولهذا يُفرَّق بين النبيِّ صاحب الشَّرْع المنزَّل وبين الوليِّ التابع(١) .

واعلم أن ما أُلقي على الأنبياء - عليهم الصلاة والسَّلام - يعبر عنه بالوحي وبالشرع ، فإن كان منسوبًا إلى الله تعالى بحُكْمِ الصِّفة يسمَّى قرآنًا وفرقانًا وتوراةً وزبورًا وإنجيلًا ومصحفًا ، وإن كان منسوبًا إلى الله تعالى بحكم الفِعْل لا بحكم الصفة يسمى حديثًا وخبرًا أو روايةً وسنةً ، وقد أغلَقَ اللهُ بابَ التنزُّل بالأحكام المشروعة ، وما أُغلِقَ بابُ التنزُّلِ بالعلم به على قلوب أوليائه ، فالتنزُّلُ الروحاني بالعلم بها باق لهم ؛ ليكونوا على بصيرة في دعواهم إلى الله تعالى بها ، كما كان من اتَّبعوه ﷺ ولذلك قال : ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾(٢) .

---

(١) لقد أثبت الشيخ الشعراني أن بعضهم نسب إليه ما لم يقله في حياته ، ولعل من ذلك هذا الادعاء بأنه لا فرق بين النبي والولي في الوحي إلَّا رؤية الملاك ، إذ لا معنى للصورة إذا ثبت أن الوحي الذي ينزل على الرسول هو الذي ينزل على الولي ، وأجزم أنك لن تجد مثل هذا الكلام في القرون الثلاثة الأولى التي رجالها الرسول ﷺ والصحابة والتابعون وتابعو التابعين ، وأكاد أُجزم أنكَ لا تجده في الصحيح من آثار الشيخ عبد السلام الأسمر .

(٢) قال الله في هذه الآية ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ (آل عمران ٢٠) فما وجه الاستدلال بها في تنزل الوحي على من اتبعه ﷺ ؟

واعلم أنَّ الوليَّ لا يدعو إلى الله ابتداءً بخلاف النبيِّ ، فالوليُّ يدعو إلى الله بحكاية دعوة الرسول ولسانه ، لا بلسانٍ يحدِّثه ، كما يحدِّثُ الرسولَ ، ولهذا لو قال الوليُّ ما يخالف حكمَ الرسول لم يُتَّبع في ذلك ، ولم يكنْ على بصيرة ، لا يتطرق إليه لسانه ؛ لأنه ليس من فكر ونظر ، فعِلْمُهم لا يزلزله تجددُ نظر ، إذ هو حقُّ اليقين ، إذا علِمْتَ ما ذكرناه ، فليس في إلقاء الهواتف المذكور ما يُتوَهَّمُ منه رائحةُ دعوى مرتبة العارفين أصحابِ القلوبِ ؛ لأنَّ الفقيرَ صاحبَ هذا المقام لم يشهدْ صورةَ المُلْقَىٰ إليه ذلك ، ولا كان في اليقظة ، ولا هو في الأحكام الشرعية حتى يعارضُها ، فهو بعيدٌ عن مرتبة العارفين رضي الله عنهم أجمعين » اهـ فراجعه إن شئت.

وأما قوله ﷺ : « القاتل بدعوته كالقاتل بسيفه »[1] فمعناه فيمن دعا على الناسِ بالشرِّ تعمدًا ، من غير موجبٍ شرعيٍّ لقطيعة أو غرض من الأغراض الفاسدة ، وأما الدعاءُ فيصدُرُ من الوليِّ الكامل وغيره - كما ذكره سيدي ابن عطاء الله في « لطائف المنن » فراجعه فيه - وقد دعا الأنبياء - عليهم الصلاة والسَّلام - والصحابة والأولياء على من عصاهم وسعى في إذايتهم ، كما هو منصوص في أخبارهم - رضوان الله عليهم أجمعين - وقد دعا رسول الله ﷺ ربَّه - سبحانه - في مواطن كثيرة كيوم بدر ، وعلى قاتلي بئر معونة ، وعلى المستهزئين ، فأجمع عليه السلف والخلف ، ودعا أحدُ العشرة المشهود لهم بالجنَّة على امرأة ادَّعتْ عليه أخْذَ شيءٍ من أرضِها بأنْ يُعمِيَ الله عينَها أو يقتلَها في أرضها إنْ كانت كاذبة ، فعَمِيَتْ وسقطَتْ في حُفْرة من أرضِها فماتت .

وذكر صاحب « المعيار » - وهو الشيخ سيدي أحمد الونشريسي - أن

(١) لم أقف عليه .

الشيخ حجَّة الإسلام أبا حامد الغزَّالي دعا على إقليم الأندلس مع كثرة ما فيه من العلم والخير ، وأنه من يوم دعا عليهم وهو في نقص إلى الآن ، في حكاية يطول ذكرها فراجعه فيه . وقد دعا الشيخ التيجاني في منظومة له على قوم ظلموه فأهلكهم اللهُ وأخلى بلادَهم منهم ، وذلك مع كثرة علمه وحلمه ، نفع الله به . وذكر سيدي عبدُ الرحمٰن المكي في « كبيره » بعد نقله لكرامات الشيخ : أن الشيخ أبا جعفر الكِنْدي كان من أكابر مشايخ طرابلس وعلمائها ، دعا على فريق من الرقيعات فأهلكَهم اللهُ بعد دعائه عليهم بثلاثة أيام .

وذكر أيضًا أنَّ الشيخ الكبير الشهير أبا النجاة سيدي سالم بن أبي زيد العشي الطرابلسي دعا على قوم يُقال لهم : النوايل ، بعد أن كانوا هم أكثرُ أعراب طرابلس ، وكان السببُ في دُعائِهِ عليهم أنهم أتَوْا إلى دار رجل من رعيَّتِهم بساحل المدينة الطرابلسية ، فلم يجدوه ، وأمروا امرأتَه أن تصنعَ لهم الطعامَ ، فصنعَتْهُ وقدَّمَتْهُ لهم ، فلمَّا رأوْهُ بلا لحم أخذوا ابنًا لها وقطَّعوه طوابق ووضعوه على العيش ، وركِبوا خيلَهم ، فأتَتْهُ فوجدَتْ ابنها على ما ذكرنا ، فتركَتْ القَصْعَةَ على ما هي عليه حتى أتى زوجُها فقدَّمتْ إليه القَصْعَة ، فكشفها فوجد ابنه على تلك الحالة ، فسألها عنه فأخبرتْه بما وقع ، فركِبَ على حمارة له ووضع القَصْعَةَ أمامه وابنه فيها ، على ما ذكرنا ، حتى أتى إلى الشيخ الكبير سيدي عبد الجليل المغربي ، كان من أكابر أهل عصره بطرابلس وغيرها ، ووضعها بين يديه وكَشَفَ الغطاء عنها ، فقال له الشيخ ما هذا ؟ فأخبَرَهُ بالقصة ، فتغيَّرَ الشيخُ وقال له : أنا برَّاني ولا يقطعُ الشجرةَ إلَّا عرف منها ، ارفعْ قصْعتَك وضَعْها بين يدي سيدي سالم « العقبي أو العشي »[1]

(١) كذا وتقدم أنه العشي فلعله يحمل اللقبين .

فرفَعَها الرجلُ كذلك حتى وضعها بين يدي سيدي سالم وأخبره ، قال له : ارْفَعْها لسيدي راشد بن مخلوف ، وهو أعظمُ ممَّن ذكرنا في الولاية والدرجة، وأخبره ، فرفَعَها الرَّجلُ كذلك حتى وضعها بين يدي سيدي راشد ، فقال له : رُدَّها لسيدي سالم ، فإن قضى حاجتك ، وإلَّا فادْفِنْ ابنَك ولا تمض لأحدٍ غيره ، فأخذها وردها لسيدي سالم ، فلمَّا ردها قال : لا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم ، ثم قال : إنما قلتُ لك امشِ إلى سيدي راشد رجاء أن يكسرهم الله على يديه ، لعلَّ الرحمةَ تعطفني عليهم فاشفع فيهم ، وإذا كُسروا على يدَيْ فمَنْ يشفع فيهم ؟ (1) ثم قال له : اِدْفِنْ ابنَك ، فدُفن ، ودعا الشَّيخُ عليهم ، فما مضت أيام قلائل حتى أَوْقع اللهُ بينهم وبين أولاد علي الشرَّ إلى أن اقتتلوا قتالًا شديدًا حتى سالتْ الأرضُ بدمائهم ، أعني بدماء النوائل ، ولم يمُتْ من أولاد علي إلَّا القليل ، ثم جاء وقتئذ رجلٌ من الصالحين يركُضُ فرسُه ، يقال له : سيدي مساهل بن يوسف ، قال : مَنْ فعل هذا بهؤلاء النوائل ؟ فقال له : مَنْ حضر أولاد علي ، فوجه وجهه إلى السماء وقال : اللهم شتِّتْ شمْلَ أولاد علي يا عزيز يا جبار ، فنفذت فيهم الدعوةُ بالشَّتات من المشارق إلى المغارب بعدما كانوا بطرابلس وأحوازها ، إلى غير ذلك .

وكان الشيخ سيدي محمد بن علي الخرُّوبي - رحمه الله - يقول : « لا يسمَّى الوليُّ وليًّا كاملًا حتى يقتُلَ اللهُ بسببِه عَدَدَ شَعْرِ رأسِه من الظَّلَمَةِ

(1) مثل هذه الدعوى تكون من عوام الناس الذين يروون كرامات منسوبة للأولياء ، ولا تصدر من الأولياء عادة ، والله أولى بدفع الظلم عن المظلومين ولا ينتظر شفاعة أحد ، فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، وعلى المسلمين تربية أبنائهم على هذه الأصول الإسلامية الأصيلة، فالله هو من يجيب المضطر إذا دعاه ولا يلجئه إلى غيره ، ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ صدق الله العظيم .

والجبابرة والفَسَقَة والزنادقة »[1] إلى أن قال : ويلحق بذلك اللعنُ للمسلمين، فإنَّه لا يجوزُ ولو عُصِيَ اللهُ بذنب ، قال رسول الله ﷺ : « ليس المؤمن بالطَّعان ولا باللعان ولا بالفحَّاش ، ومَنْ لعن شيئًا ليس له بأهل رجعتْ اللعنةُ عليه »[2] ، وقال : « لَعْنُ المؤمِن كقتْله »[3] ، وقال : « لو عَثَر برجلٍ حمارُهُ فقال تَعِسْتَ كتبتْ عليه بها خطيئة »[4] ، وقال : « لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضب الله ولا بجهنَّم ولا بالنار »[5] . فينبغي إذا لَعن مَنْ لا يستحِقُّ أن يبادرَ بقوله : « إلَّا أن لا يستحق » ، وإنما يحرَّمُ لعنُ المصون ، فأما ذو الوصف المذموم فإن كان غيرَ مُعيَّنٍ جاز لعنُه ، كقوله : « لعن اللهُ الظالمين ، لعن الله مَنْ فعل هذا » ، وإن كان معيَّنًا كالذي اتَّصَفَ بشيءٍ من المعاصي من ظالم أو فاسق أو سارق ، فظاهر الحديث أنه لا يحرَّم ، وأشار الغزَّالي إلى تحريمِه إلَّا مَنْ عَلِمْنَا موتَه على الكفر ، قال الغزَّالي أيضًا : « ويقرُب من اللعن الدعاءُ على الإنسان بالشر : لا أصلحَ جسمَه ونحوه ، فكلُّ ذلك مذمومٌ ، ثم قال بعد كلامٍ كثير : ويجوز الدُّعاءُ على مَنْ ظَلَمَهُ

(١) وهل يحتاج الله إلى سبب لكي يهلك الظلمة والفساق؟ أليس الله بأعلم بالظالمين ، وهو بالمرصاد لهم ؟ إن مثل تلك المغالاة في شأن الأولياء لا ترفع من شأنهم ، ولا تساعد على التعريف بالإسلام في صورته المثلى .

(٢) رواه الترمذي (١٩٧٧) من حديث ابن مسعود، وحسنه، وصححه ابن حبان في صحيحه ١/ ٤٢١، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٧ وقال: على شرطهما. وقال القطان في بيان الوهم ٥/ ٣٠١: وَهُوَ كَمَا ذكر الترمذي، وَلَا يَنْبَغِي أَن يُقَال فِيهِ صَحِيح. وتعقبهما الألباني في الصحيحة (٣٢٠) بأنه صحيح وليس على شرطهما.

(٣) رواه البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك.

(٤) لم أقف عليه. وروى نحوه أبو شيبه في مصنفه ٨/ ٢٩٠، والبيهقي في الشعب ٤/ ٣٠١ عن حسان بن عطية من قوله.

(٥) رواه الترمذي (١٩٧٦) وصححه، وأبو داود (٤٩٠٦) من حديث سمرة بن جندب، وصححه الحاكم في المستدرك ١/ ١١، ووافقه الذهبي في التلخيص، والألباني في الصحيحة (٨٩٣).

وظَلَمَ غيره ، وعلى مَنْ خالفَ الحكمَ الشرعي ، والتَّركُ أَوْلى من اللعن ، ومن الدُّعَاءِ على النَّاسِ بالشرِ ، لقوله عليه الصلاة والسَّلام : « إن المظلومَ يدعو على ظالمه حتى يكافئه ثم الظالم عنده يطالبه به يوم القيامة »[1] انتهى – باختصار .

ولا تظن يا أخي إذا سمِعْتَ كثرةَ دعاءِ الشيخِ في مقطَّعاته وغيرِها على آل حامد وغيرهم أنَّ ذلك لقصور ، قالت المشايخُ : مَنْ تكرَّر عليه شكوى الظلم من أحد ، ولم يكُنْ له إذنٌ في الدعاء ، ولا يَعْرَفُ الإذنُ كيف هو ، فلا يدعُ إلَّا أنْ يَشْهَدَ ثلاثةٌ من العُدول عنده ، فبعدَ ذلك يتوجَّهُ إلى الله فيه ؛ لأنَّ الدعاءَ مطلوبٌ شرعًا عند أهل السنَّة ، وهو رَفْعُ الحاجات إلى رافع الدرجات ، ينفع مما نزل وما لم ينزل ، فينفَعُ الأحياءَ والأمواتَ ، ويسرُّهم ، والنفع الخير ، وهو ما يتوسل به الإنسان إلى مطاوبِه ، ولو صدر من كافر ، لحديث أنس ﷺ : « دعوةُ المظلوم مستجابةٌ ولو كان كافرًا »[2] .

والدعاء على قسمين: مُبْرَم ومعلَّق، فالمعلَّق الاستجابة في رفعِ ما عُلِّق، ورَفْعُه منه على الدُّعاء ، ولا في نزول ما عُلِّقَ نُزُولُه منه على الدعاء ، وأما المُبرَمُ بالدعاء ، وإن لَمْ يرفعهُ ، لكن ربما أثاب اللهُ العبدَ على دُعائِهِ برفعِهِ عاجلًا وآجلًا ، يُخْرِجُه عن اللعنة[3] ، وقد يجب الاعتقادُ بأنَّ الدعاءَ ينفعُ ، لِمَا

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء ٣/ ١٢٦، وذكره السبكي في طبقاته ٦/ ٣٧٥ ضمن أحاديث الإحياء التي لم يجد لها إسنادًا، وقال الفتني في تذكرة الموضوعات ص١٨٤: لم يوجد.

(٢) لفق المصنف بين حديث أنس الذي سيأتي تخريجه ص٥١٤، وطرفه: اتقوا دعوة المظلوم، وحديث أبي هريرة، وفيها: وإن كان فاجرًا، رواه أحمد ٢/ ٣٦٧، وحسنه المنذري في الترغيب ٣/ ١٣٠، وابن حجر في الفتح ٣/ ٣٦٠، وقال عبد الحق الإشبيلي: فيه أبو معشر . وحسنه الألباني لغيره في الصحيحة ٢/ ٤٠٧ شاهدًا على حديث أنس (٧٦٧).

(٣) هكذا جاء النص والأسلوب لا يؤدي المعنى المراد .

أتى به القرآن العظيم، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر ٦٠) ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة ١٨٦) ، وإطلاقُ هاتين الآيتين يُقيِّدُ قوله تعالى : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ (الأنعام ٤١) ، فالمرادُ الإجابةُ المصرَّحُ بها في مناجاة موسى عليه السلام : « وإن دعوني أستجبْ لهم فإمَّا أن أَرُدَّه عاجلًا ، وإما أن أصرِفَ السوء ، وإما أنْ أدَّخرَه لهم في الآخرة » .

وفي كلامٍ بعضِهم أنَّ الإجابةَ تتنوَّعُ ، فتارةً يقعُ المطلوبُ بعينه على الفور ، وتارة يقع لكن يتأخر لحكمة فيه ، وتارة تقع الإجابة بغير عَيْنِ المطلوب ، بحيث لا يكونُ في المطلوب مصلحةٌ ناجزةٌ ، أو في الواقع مصلحةٌ ناجزةٌ وأصلحُ منها ، وتخصيصُ القرآن لتواتره لا لِقِصَرِ الأدلَّةِ عليه ، فقد دعا الأنبياءُ وغيرُهم – كما مر – . وينبغي للدَّاعي أنْ يكررَ الدعاء ، ولا يستبطئُ الإجابةَ ، قال بعضُهم : رأيتُ النبي ﷺ ، فقلت : ادعُ اللهَ أنْ لا يُميتَ قلبي ، فقال : « قُلْ كلَّ يومٍ أربعين مرة يا حي يا قيوم لا إله إلَّا أنت »(١) .

وفي كتاب الترمذي عن عبادة بن الصامت ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال : « ما على الأرض مسلمٌ يدعو الله بدعوة إلَّا أتاهُ اللهُ إياها وصرَفَ عنه من السُّوء مثلها ، ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم »(٢) ، قال رجل من القوم : إذًا نُكثِرُ . قال ﷺ : « أَكْثِرْ » ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، قال : رواه الحاكم أبو عبد الله في المستدرك على الصحيحين ، من رواية أبي سعيد

(١) رؤيا للكتاني، ذكرها القشيري في الرسلة القشيرية ص٤١٧ .

(٢) سنن الترمذي (٣٥٧٣)، وقال: حسن صحيح غريب، ووافقه الألباني في صحيح الترغيب (١٦٣١).

الخدري ﷺ، وزاد : ويدَّخر فيه من الأجر مثلها .

ورُوينا عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : « يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَلْ ، فيقول دعوتُ فلم يستجب لي »[1] اهـ . من اليافعي . وذكر سيدي عبدُ الرحمٰن الثعالبي في « الجواهر الحسان في تفسير القرآن » في قوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآية ، قال الحسن بن [أبي] الحسن[2] : « سببها أن قومًا قالوا للنبي ﷺ أقريبٌ ربُّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت الآية. و« أجيب » قال قوم : المعنى أجيب ، وقال قوم : إن اللهَ يجيب كلَّ الدعاء ، فإمَّا أنْ تظهرَ الإجابةُ في الدنيا ، وإما أنْ يكفَّرَ عنه وزرًا ، وإمَّا أنْ يدَّخرَ له أجرًا ، وهـذا بحسبِ حديثِ الموطأ « ما من داع يدعو إلَّا كان بين إحدى ثلاث »[3] الحديث .

وليس هذا باختلاف قَوْلٍ ، قال ابن رشد في « البيان »[4] : « الدعاء عبادة من العبادات يُؤْجَرُ فيها الأجرَ العظيم ، أُجيبتْ دعوتُه في ما دعا به أو لم تُجَبْ » وها أنا أنقُلُ – إن شاء الله – من صحيح الأحاديث المتَّفَقِ عليها ، منها قوله ﷺ : « لا يَرُدُّ القضاءَ إلَّا الدعاءُ، ولا يزيد في العمر إلَّا البر »[5]، وقوله ﷺ : « الدعاء عبادة شرعية ينفع مما نزل ومما لم ينزل »[6] ، ويُطلب ولو عُلمت السَّلامةُ منه ؛ لقوله ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من المأثم

(١) رواه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٢) هو الحسن البصري وقد تقدم ذكره .

(٣) الموطأ برواية الليثي ص ٢١٧ من قول زيد بن أسلم .

(٤) يعني البيان والتحصيل لابن رشد الجد ، وهو مطبوع في دار الغرب الإسلامي .

(٥) رواه الترمذي في سننه ، كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ ، حديث رقم ٣٨٩٣ .

(٦) رواه الترمذي (٣٥٤٨) من حديث ابن عمر وضعفه، وصححه الحاكم في المستدرك ١/ ٦٧٥، لكن ابن حجر وهَّمه في الفتح ١١/ ١٤١ وقال: سنده ليِّن، ووافقه الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٢٠) .

والمغرم »[1] ؛ لأن الدعاء في نفسه عبادةٌ ، فضلُها من الدين . [و] قد دعا ﷺ في مواطن كثيرة ، كيوم بدر ، وعلى قريش ، وعلى قاتلي بئر معونة ، وعلى المستهزئين ، كالدعاء على الجنازة ، أي الحرمة كالدعاء على شَقِيٍّ بسوء الخاتمة ، أو الكراهة كالدعاء بشيء يكون وسيلة للمكروه .

قال : ولإجابته شروطٌ في الداعي[2] ، وهو أنْ يعلمَ أن لا يقْدِرَ على تحصيلِ مطلوبهِ إلَّا بالله ، وأنه يدعو بنيَّةٍ صادقةٍ ، مع حضورِ قلب ، وأنْ يجتنِبَ أكْلَ الحرام ، وأنْ لا يَمَلَّ من الدعاء فيتْرُكَ ، ويقول : دعوتُ ودعوتُ فلم يُستجَب لي ، وشروط في الدعاء وهي أنْ يكونَ من الأمور الجائزة ، فلا يدعو بها فيه إثمٌ ولا قطيعةُ رحم، ولا إضاعةُ حقوقِ المسلمين، وله آدابٌ منها : التعميم في الدعاء ، ومنها : الدعاء بالمأثور عن النبي ﷺ ، وعن السلف الصالح ، ولا يخترعُ من نفسه شيئًا يدعو به مع وجود المأثور ، ومنها : كونُه غيرَ مجزٍ لعدم التكلُّفِ ، ومنها : عدمُ اللحن فيه مع القدرة على النطقِ بالصَّوابِ ، ومنها : ابتداؤه بالحمد والصلاة على النبي ﷺ ، ومنها : العزم فلا يدعو ويُعلقُّ بقوله : إن شئت يا الله . ومنها : تحري أوقات الإجابة كالسَّحر ، وعند النداء ، وعند الصف في سبيل الله ، وعند نزول المطر ، وفي السفر ، وعند ختم القرآن ، ومنها[3] : الدعاء بسكينة ووقار .

واختُلف هل يرفع يديه عند الدعاء أم لا ؟ وعلى الرفع فهل يمسح وجهه بهما عقبه أم لا ؟ ، والذي في الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه « أنه ﷺ كان إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطَّهما حتى يمسحَ بهما وجهه »[4] ، فيفيد

---

(١) رواه البخاري (٨٣٣)، ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة .

(٢) في الأصل : الدعاء ، وهو ليس مراد هنا .

(٣) في الأصل : عدم ، وهو لا يدخله في الآداب ، بل في المكروهات .

(٤) رواه الترمذي (٣٧١٤) .

أنه كان يرفعُهما ويمسح بهما وجهه ، و[1]مَسْحُه بهما من الأنف إلى آخر الذقن، لقول من يقول : إنَّ نور الدعاء يضر العينين ، أو مقدم رأسه إلى آخر الذقن ، لم أجد في هذه المقالة نصًا .

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تعجِزُوا عن الدُّعاء فإنه لنْ يهلِكَ مع الدعاء أحد »[2] رواه الحاكم أبو عبد الله في المستدرك على الصحيحين ، وابن حبان في صحيحه ، واللفظ له ، قال الحاكم : صحيح الإسناد ، وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض »[3] رواه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح . وعن جابر بن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ : « يدعو الله المؤمن يوم القيامة حتى يقف بين يديه ، فيقول : عبدي إني أمرتك بأن تدعوني ووعدتك أن أستجيبَ لك ، فهل كنتَ تدعوني ؟ فيقول: نعم يا ربِّ . أما إنك لم تدعني بدعوة إلَّا استُجيبَ لك ، أليس دَعَوْتَنِي يوم كذا وكذا لِغَمٍّ نزل بك أن أُفرِّجَ عنك ففرَّجْتُ عنك ؟ فيقول : نعم يا ربِّ ، فيقول فإني عجَّلْتُها لك في الدنيا ، ودَعَوْتَنِي يوم كذا وكذا أن أفرِّجَ عنك فلم تر فرجًا ؟ قال : نعم يا ربِّ . فيقول : إني ادَّخرتُ لك بها في الجنة كذا وكذا ، ودَعَوْتَنِي لحاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها ؟ فيقول :

(١) في الأصل : وهو .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه ٣/ ١٥٢، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٧١ وصححاه، قال المناوي في فيض القدير ٦/ ٤١٢: وتعقبه الذهبي فقال : لا أعرف عمر، وكذا ضعفه الألباني في الضعيفة (٨٤٣).

(٣) ذكر المنذري أن الحاكم رواه من حديث أبي هريرة، كذا ذكر البوصيري أن للحديث شاهد من حديث أبي هريرة ٦/ ١٤٧، ولم أقف عليه، والذي عثرت عليه حديث علي رواه أبو يعلى ١/ ٣٤٤، وصححه الحاكم في المستدرك ١/ ٦٦٩. وتعقبه الهيثمي في المجمع ١١/ ٩، وقال الألباني في الضعيفة (١٧٩): موضوع .

نعم يا ربِّ ، فيقول : إني ادَّخرتُ لك بها في الجنَّة كذا وكذا » ، قال رسول الله ﷺ : « فلا يَدَعُ الله دعوةً دعا بها عبدٌ مؤمنٌ إلَّا بيَّنَ له ، إما أن يكونَ عجَّل له في الدنيا ، وإما أن يكون أخَّرَ له في الآخرة ، قال : فيقول المؤمنُ في ذلك المقام : يا ليتني لم أكن عُجِّل لي شيء من دعاء »[1] رواه الحاكم في المستدرك ، وعن ثوبان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَرُدُّ القدرَ إلَّا الدعاء »[2] . رواه الحاكم في المستدرك ، وابن حبان في صحيحه ، واللفظ للحاكم . وقال : صحيح الإسناد ، وأخرج ابن المبارك في رقائقه هذا الحديث أيضًا ، قال : حدَّثنا سفيان عن عبد الله بن قيس ، عن عبد الله بن أبي الجعد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يرد القضاء إلَّا الدعاء ، وأنَّ الرجل يُحرَم الرزقَ بالذنب يصيبه »[3] اهـ ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يُغني حَذرٌ من قَدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإنَّ البلاء لينزل ويتلقاه الدعاء ، فيتعالجان إلى يوم القيامة »[4] رواه الحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح الإسناد . وقوله : فيتعالجان ، أي يتضاربان .

وعن سلمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من سرَّه أن يُستجاب له عند الكرْب والشدائد فليُكثِر الدعاء في الرخاء »[5] رواه الحاكم أيضًا ،

---

(١) رواه الحاكم ١/ ٦٧١، والبيهقي في الشعب ٢/ ٤٩، وضعفه الألباني في الضعيفة (٨٨٦) .

(٢) رواه الترمذي (٢٢٨٩) .

(٣) رواه ابن ماجه (٩٠)، وصححه الحاكم في المستدرك ١/ ٦٧٠. وحسن الألباني شطره الأول بشواهده، وضعف الشطر الثاني، انظر: الصحيحة (١٥٤) .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط ٣/ ٩٩، وصححه الحاكم في المستدرك ١/ ٦٦٩، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٨٤٣، والألباني في الضعيفة (٦٧٦٤) .

(٥) لم أقف عليه من حديث سلمان، وإنما من حديث أبي هريرة، رواه الطبراني في مسند الشاميين ٣/ ١٦٦، وابن عدي في الكامل ٢/ ٤١٤، وصححه الحاكم ١/ ٧٢٩.

وقال: صحيح الإسناد ، وعن ابن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ فتح له في الدعاء منكم فتحت له أبواب الجنَّة »[1] ، وقال الغزَّالي – رحمه الله – في كتاب « الإحياء » : فإن قلت فما فائدة الدعاء والدعاء لا يرد القضاء ؟ فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء ، فالدعاء سيف لرد البلاء ، واستجلاب للرحمة كما أنَّ الترس سببٌ لرد السهم ، ثم في الدعاء من الفائدة أنه يستدعي الحضور مع الله ﷻ ، وذلك منتهى العبادات ، فالدعاء يرد القلب إلى الله ﷻ ، للتضرُّع إلى الله ﷻ ، والاستكانة ، انظر مجاني (...) الاختصار ، وانظر سلاح المؤمن الذي منه نقلت هذه الأحاديث ، ومن جامع الترمذي عن أبي خزامة ، واسمه رفاعة عن أبيه ، قال : سألت رسول الله ﷺ ، قلت : يا رسول الله [أ]رأيت رُقًى نَسْتَرْقِيها ، ودواءً نتداوى به ، وتُقَاةً نَتَّقِيها ؟ هل تردُّ من قدر الله شيئًا ؟ قال : « هي من قدر الله »[2] ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وانظر جواب عمر لأبي عبيدة « [أَفِرُّ][3] من قدر الله إلى قدر الله ... » الحديث ، هو من هذا المعنى. اهـ. والله المَوَفِّق للصواب بفضله.

قوله تعالى ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى ﴾ (البقرة ١٨٦) قال أبو رجاء الخراساني : معناه فليدعوني ، عن أبي عطية : فليطلبوا أن أجيب لهم ، وهذا هو باب استفعل أي طلب الشيء ، إلَّا ما شذَّ مثل : « استغنى الله » ، وقال مجاهد وغيره : « المعنى فليستجيبوا لي في ما دعوتُهم إليه من الإيمان ، أي بالطاعة والعمل » انتهى .

---

(١) سبق ص٢٨٠ جزء منه، وهو: الدعاء عبادة شرعية ينفع مما نزل ومما لم ينزل .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٦٥) وقال: حسن صحيح، وقال الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١١): أرجو أن يصل الحديث إلى مرتبة الحسن بشاهده .

(٣) في الأصل : هو .

ومن آداب الدعاء تحرِّي الأوقات الفاضلة كالسجود ، وعند الآذان ، ومنها : تقديمُ الوضوء ، والصلاة ، واستقبالُ القبلة ، ورفعُ الأيدي ، وتقديمُ التوبة، والاعترافُ بالذنب ، والإخلاصُ، وافتتاحه بالحمد والثناء، والصلاة على النبي ﷺ ، والسؤالُ بالأسماء الحسنى ، وختمُه بالصلاة والسَّلام عليه ﷺ ، وجعلُه في وسطه أيضًا .

واعلم أنك إذا طلبت ربَّك - سبحانه ﷻ - فليكن طلبُك لإظهار العبودية ، وقيامًا بحق الربوبية ؛ لأن الله تعالى لم يأمرْ عباده بالطلب له والسؤال منه ، إلَّا ليُظهروا افتقارَهم إليه ، ومثواهم بالتضرُّع والخضوعِ بين يديه ، ليكونَ ذلك إظهارًا لعبوديتهم ، وقيامًا بحق ربوبية ربِّهم ، لا لأن يتسبَّبوا به إلى حصولِ ما طلبوه ، ونيل ما رغَّبوه مما لهم فيه منفعة وحظ .

هذا هو فهم العارفين عن الله تعالى ، ويدل على هذا المعنى ما ذكره ابن عطاء الله في حِكَمِه ﷺ ، قال أبو نصر السراج ﷺ : سألت بعض المشايخ عن الدعاء ما وجهُه لأهل التَّسليم والتفويضِ ، فقال : « ندعو الله على وجهين : أحدهما : نريد بذلك تزيين الجوارح الظاهرة بالدعاء ؛ لأن الدعاء ضربٌ من الخدمة ، لمن يريد أن يزيِّن جوارحَه بهذه الخدمة ، والوجه الثاني: أن ندعو ائتمارًا لِمَا أمر الله تعالى من الدعاء » اهـ .

وقد قيل : فائدةُ الدعاء إظهارُ الفاقة بين يديه ، وإلَّا فالرب يفعلُ ما يشاء ، ومقتضى هذا ألا ينقطعُ سؤالُه ولا رغبتُه وإن أعطاه كلَّ مطلب ، وأنَالَهُ كلَّ سؤال ومأرِب ، وأن لا يفرِّقَ بين العدم والجود ، والمنع والعطاء في ما يرجع إلى إظهار الفاقة والفقر ، فيكون عبدُ الله في الأحوال كلها ، كما أنه ربُّه في الأحوال كلها ، وقبيحٌ بالعبد أن يصرفَ وجْهَه على باب مولاه ما ينيلُه من شهوته وهواه ، قال سيدي أبو الحسن ﷺ : لا يكن همُّك في

دعائك الظفرُ بقضاء الحاجة التي تريدُها فتكونُ « محجوبًا »[1] ، وليكُن همُّك مناجاةَ مولاك ، وقالَ - يَحكي عن غيره - : « وشرُّ الناس من يبتهلُ إلى الله - تعالى - عند هجومِ البلاءِ بخلوص الدعوى وشدة التَّضَرُّعِ والبُكاء ، فإذا زالتْ شكايتُه ، ورُفِعتْ عنه آفتُه ضيَّع الوفاءَ ونسِيَ البَلاء ، وقابَلَ الرِّفد بنقضِ العهد ، وأبدل العقلَ برفض الرد ، أولئك الذين أبعدَهُم الله في سابق الحكم ، وخرَّطهم في سلوك أهل الرد ، وقد قيل : بلاءٌ يلجؤك إلى الانتصاف بين يدي معبودِك خيرٌ لك من عطاءٍ يُنسيك إياه ، ويُقصِيك عنه.

قال الإمام أبو القاسم القشيري[2] ﷺ : « اختلف الناسُ في أيِّ شيء أفضل : الدعاء أم السكوت والرضى ، فمنهم مَنْ قال : الدعاء في نفسه عبادة ، قال ﷺ : « الدعاء مخُّ العبادة »[3] ، فالإتيان بما هو عبادة أَوْلى من تركها ، ثم هو حق الحق ﷻ ، فإن لم يُستَجَبْ للعبد ولم يصل إلى حظِّ نفسِه فلقد قام بحق ربه ؛ لأن الدعاءَ إظهار فاقةِ العبودية ، وقد قال أبو حازم الأعرج : « لئن أُحْرَمَ الدعاءَ أشدُّ عليَّ من أنْ أُحْرَم الإجابة » ، وطائفة قالوا: السكوت والخمود تحت جريان الحكم أتم ، والرضى بما سبق من اختيار الحق أَوْلى ، وبهذا قال الواسطي : « اختيارُ ما جرى لك في الأزل خيرٌ لك من معارضة الوقت » .

وقد قال ﷺ خبرًا عن الله - تعالى - : « مَنْ شغله ذكري عن مسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أُعطيَ السائلون »[4] ، وقال قومٌ : « يجبُ أن يكون العبدُ

(١) في الأصل : عجبجوبا ، وهو تصحيف .

(٢) هو عبد الكريم القشيري صاحب الرسالة القشيرية في التصوف السني ، وله كتاب في التفسير الإشاري حققه د. إبراهيم بسيوني .

(٣) رواه الترمذي (٣٦٩٨).

(٤) رواه البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ١١٥، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤١٣ من حديث عمر ابن الخطاب، وضعفه ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ١٦٥، والعراقي في المغني ١/ ٢٤٣، والألباني في الضعيفة (٤٩٨٩).

صاحبَ دعاء بلسانه ، وصاحبَ رضًىٰ بقلبه ؛ ليأتي بالأمرين جميعًا » ، وقال الإمام أبو القاسم : « والأَوْلى أنْ يُقال ، الأوقات مختلفة ، في بعض الأحوال الدعاء أفضل من السكوت ، وهو الأدب ، وفي بعض الأحوال السكوت أفضل وهو الأدب ، وإنما يُعرف ذلك في الوقت ؛ لأن علم الوقت يحصل في الوقت ، فإذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء به أَوْلى ، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أَوْلى ، ويصحُّ أنْ يُقال : ينبغي للعبد أن لا يكون ساهيًا عن شهود ربه - تعالى - في حال دعائه ، ثم يجبُ أن يراعيَ حالَه ، فإذا وجد من الدعاء زيادة بسْطٍ في وقتِه فالدعاءُ له أَوْلى ، وإن عاد إلى قلبهِ في وقت الدعاء شِبْهَ زَجْر ، ومِثْلَ قَبْض ، فالأَوْلى تَرْكُ الدعاء في هذا الوقت ، وإن لم يجد في قلبهِ لا زيادة بسْطٍ ، ولا حضورَ زَجْرٍ ، فالدعاءُ وتركُه هاهنا سيان ، وإن كان الغالبُ عليه في الوقت العلم فالدعاءُ أَوْلى ، لكونه عبادة ، وإن كان الغالبُ في هذا الوقت المعرفة والحال ، فالسكوت والسكون أَوْلى » .

ويصحُّ أن يُقال : ما كان للمسلمين فيه نصيبٌ ، وللحقِّ سبحانه فيه حق فالدعاء أَوْلى ، وما كان لنفسِك فيه حظ فالسكوت أتم ، وفي الخبر المروي : « إن العبد ليدعو والربُّ ﷻ يحبُّه ، فيقول[1] : يا جبريل أَخِّر حاجتَه ، فإني أُحِبُّ أن أسمعَ صوته ، وإن العبْدَ ليدعو وهو يبغضُه ، فيقول: يا جبريل اقضِ حاجته ، فإني أكره أن أسمع صوته » . انتهى كلام أبي القاسم ، وهو حسن بديع ، وهو عين كلام القوم .

واعلم أنَّ الدعاء على الناس بالموت ، والقتل بالسيف ، والموت

(١) في الأصل : فقال .

بالطاعون لا يسبق الأجل المعهود في علم الله سبحانه ؛ [ولذا][1] كان مذهبُ أهل الحقِّ اتحادَ الأجل ، وعدمَ قبولِه الزِّيادةَ والنُّقصانَ – كما وردت به الآثار – ، وأنَّ كلَّ مقتول ميت بسبب انقضاء عمره ، وعند حضور أجله، في الوقت الذي علم اللهُ في الأزل حصولَ موتِه بإيجاده – تعالى – من غيرِ مَدْخليةٍ للقاتل فيه ، لا مباشرة ولا توليدًا ، وأنه لو لم يقتل لجاز أن يموت في ذلك الوقت ، وأن لا يموت من غيرِ قطعٍ بامتداد العمرِ ، ولا بالموت بدل القتلِ ، بدليل أنَّ الله – تعالى – قد حَكَمَ بآجال العبادِ على ما عُلم بعلمه من غيرِ تردُّد ، وأنهم إذا جاء أجلهم ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ في آياتٍ وأحاديثَ دالةٍ على أنَّ كلَّ هالكٍ يستوفي أجلَه من غيرِ تقدمٍ عليه ولا تأخر عنه .

وحديث أنَّ بعضَ الطاعات يزيدُ في العمرِ – كما سيأتي – لا يعارضُ القواطع ؛ لأنه خبرٌ واحد ، وإنَّ الزيادة فيه بحسب الخير والبركة ، وبالنسبة إلى ما ثبَّتَه الملائكةُ في صحفِها ، فقد يُثْبِتُ ﷺ إلى ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَـٰبِ ﴾ (الرعد ٣٩) . فالمعتبر إنما هو ما تعلَّق العلمُ الأزليُّ ببلوغِه . هذا ما عليه أهلُ الحق . وغيرُ هذا من مذاهب المخالفين كمذهبِ الكفجي من المعتزلة أنَّ المقتولَ ليس بميت ؛ لأنَّ القتلَ فعلُ العبدِ ، والموتَ فعلُهُ تعالى وأثرُ صنعتِه ، فالمقتولُ له أجلان : القتلُ والموتُ ، وأنه لو لم يُقتل لعاش إلى أجلِه الذي هو الموتُ ، وكمذهب الكثير من المعتزلة أنَّ القاتلَ قَطعَ على المقتولِ أجلَه ، وأنه لو لم يُقتل لعاشَ إلى أمدٍ هو أجلُه الذي عَلِمَ اللهُ موتَه فيه ، ولولا القتلُ لماتَ في ذلك الوقت.

(١) في الأصل : ولَّا .

وهل الموتُ كيفيةٌ وجوديَّةٌ تَضَادُّ الحياة ، ولا يَعْرَى الجسمُ الحيواني منها ، ولا يجتمعان فيه ، وهو مذهب إمامنا الأشعري أو لا ؟ في ذلك خلاف ، والحاصل أنَّ دعاءَ الأولياء على الناس بالموتِ ، والضَّربِ بالبندق[1] ، والطاعونُ لا يسبقُ الأجلَ المعهودَ في علمِ الله سبحانه - كما مر - وأما ما نقلهُ الشيخُ من الأحاديثِ في بعضِ نصائحِه من زيادةِ العمرِ ونقصِه على خلاف ما ذُكر ، كصلةِ الرَّحِم ، وبرِّ الوالدين ، والدعاءِ ، والصَّدقةِ ، وغير ذلك من أفعال الطاعات لم أقدِرْ أن أعترِض عليه ، بل هو أعلمُ منا بذلك من جهة الظاهر والباطن ؛ لأنه ذكرَ في زيادة العمرِ أحاديثَ كثيرة ، وجَزَمَ ببعضِها بأنها تزيد في العُمْرِ زيادةً حسِّيةً ، على ما ذكره رضي الله عنه ، ونفعنا به آمين .

ورأيتُ مثلها في « نوادر الأصول » بزيادة على ما نقله الشيخ ، ولا بأس بنقل بعضِها هنا :

الحديث الأول : قال ﷺ : « ثلاثة تزيد في العمر : بِرُّ الوالدين ، وصِلَةُ الرَّحِم ، وسَعَةُ الأخلاق »[2] .

الحديث الثاني : قال ﷺ : « تعلَّموا من أنسابكم ما تصلوا به أرحامَكم ، إنَّ صلةَ الرَّحِمِ مَنْجَاةٌ في الأهل ، منسأة في الأثر ، مثراة في المال»[3] .

الحديث الثالث : قال ﷺ : « صلةُ الرَّحِم تزيد في العمر ، وصنائعُ

---

(١) يقصد البندقية ، السلاح الناري الذي يبدو أنه أخذ اسمه من المدينة التي تصنعه وتبيعه .

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه الترمذي (١٩٧٩) من حديث أبي هريرة، وقال: غريب من هذا الوجه، وصححه الحاكم في المستدرك ٤/١٧٨، ووافقه الذهبي في التلخيص، والألباني في الصحيحة (٢٧٦).

المعروف تَقِي مصارعَ السوء »[1] .

الحديث الرابع : قال ﷺ : « اتقوا الله وصلوا الرَّحِمَ فإنهُ أبقى لكم في الدنيا وخير لكم في الآخرة »[2] .

الحديث الخامس : قال ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أن يُمدَّ له في عمره ، ويزدادُ له في الرِّزْق فليَبَرَّ والديه ، وليصِلَ رحمَه »[3] .

الحديث السادس : قال ﷺ : « لا يردُّ القضاءَ إلَّا الدعاء ، ولا يزيد في العمرِ إلَّا البر »[4] .

الحديث السابع : قال ﷺ : « مَنْ بَرَّ والديه طوبى له وزاد الله في عمره »[5] .

الحديث الثامن : قال ﷺ : « رأيتُ رجلًا مِنْ أمتي جاءه مَلَكُ الموتِ ليقْبِضَ روحَه ، فجاءه برُّه بوالديه فردَّه عنه »[6] .

---

(١) رواه الطبراني ٨/ ٢٦١ من حديث أبي أمامة، وحسنه المنذري في الترغيب ٢/ ١٥، والهيثمي في المجمع ٣/ ١٥٣، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٨٨٩).

(٢) رواه الطبري في تفسيره ٧/ ٥٢١ عن قتادة مرسلاً، وضعفه الألباني في الضعيفة(٢١٥٧).

(٣) رواه أحمد ٣/ ٢٢٩ من حديث أنس بن مالك، وقال المنذري في الترغيب ٣/ ٢١٧: رواته محتج بهم في الصحيح، وهو في الصحيح باختصار ذكر البر. وضعف إسناده العقيلي وقال: يروى من غير هذا الوجه بإسناد صالح. وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٢٤٨٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٢٨٩) .

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد ص٢٢، وأبو يعلى في مسنده ٣/ ٦٥، والطبراني ٢٠/ ١٩٨ من حديث معاذ بن أنس، وصححه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٧٠، ووافقه الذهبي في التلخيص، وتعقبه الهيثمي في المجمع ٨/ ٥٤ قائلاً: فيه زبان بن فائد، وثقه أبو حاتم وضعفه غيره. ووافقه ابن حجر في المطالب ٢/ ٣٨٠، والألباني في الضعيفة (٤٥٦٧).

(٦) رواه أسلم بن سهل الواسطي في تاريخه ص١٧٠، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٦٩٩ من حديث عبد الرحمن بن سمرة وضعفه، ووافقه ابن طاهر المقدسي في معرفة التذكرة ص١٨٩ . =

الحديث التاسع : قال ﷺ : « إن الله ليعمر بالقوم الديار ، ويُكْثِرُ لهم الأموال ، وما نظرَ إليهم منذ خَلَقَهم ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال بِصِلَتِهم أرحامَهم »[1] . ولَمَّا ذَكَرَ له قتال بني مدلج قال : « إن الله منع مِنِّي بني مدلج لِصِلَتِهم الرَّحِم ، وطَعْنهم في لبات الإبل »[2] يعني نَحْرَهم الإبل للضيف .

وقال كعبُ الأحبار ﷺ : مكتوب في التوراة « ابنُ آدم اتَّقِ ربَّك ، وصِل رحِمَك ، أمدُّ لك في عمرِك ، وأُيَسِّرُ لك يُسْرًا ، وأَصْرِفُ عنك عُسْرَك» .

وقال ابن عمر : « مَنْ اتَّقَى ربَّه ، ووَصَلَ رَحِمَه ، أُنسِيَ له في عُمُرِهِ (يعني يُزاد له في عمره) ، وينمو مالُه ، (يعني يكْثُر) ، ويحِبُّه أهلُه » ، وعن الضحاك في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ (الرعد ٣٩) قال : « إنَّ الرجلَ لَيَصِلُ رَحِمَه وما بقيَ مِنْ عُمُره إلَّا ثلاثة أيام ، فيزيد اللهُ في عمره ثلاثين سنة ، وإنَّ الرجُلَ ليقطَعُ رَحِمَهُ وقد بقيَ من عمُره ثلاثين سنة ، فيحْبِطُه الله إلى ثلاثة أيام » . ورُوِيَ أنَّ مَلَكَ الموتِ أخبرَ سليمان بنَ داود –

= رواه الطبراني ١٢/ ٨٥ من حديث ابن عباس، وصححه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٧٧ وقال: تفرد به عمران بن موسى الرملي إن كان حفظه فهو غريب صحيح، ووافقه الذهبي، وحسن المنذري إسناد الطبراني في الترغيب ٢/ ٢٢٨، ووافقه الهيثمي في المجمع ٨/ ٧٣، وتعقبهم الألباني في الضعيفة (٢٤٢٥).

(١) رواه الطبراني ١٢/ ٨٥ من حديث ابن عباس، وصححه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٧٧ وقال: تفرد به عمران بن موسى الرملي إن كان حفظه فهو غريب صحيح، ووافقه الذهبي، وحسن المنذري إسناد الطبراني في الترغيب ٢/ ٢٢٨، ووافقه الهيثمي في المجمع ٨/ ٧٣، وتعقبهم الألباني في الضعيفة (٢٤٢٥).رواه أبو عبيد فى الغريب ٣/ ٣٠، و من طريقه الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ١٠٣، من حديث زيد بن أسلم مرسلاً.

(٢) رواه أبو عبيد فى الغريب ٣/ ٣٠، و من طريقه الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ١٠٣، من حديث زيد بن أسلم مرسلاً.

عليهما السلام - بِقَبْضِ روح رجل بعد سبعة أيام ، فلمّا كان بعد مُدَّةٍ طويلة وجد سليمانُ ذلك الرجل حيًّا ، فسأل مَلَكَ الموت عنه ، فقال : « إنه لمَّا خرج من عندِك وصَل رَحِمًا قد كان قطعها ، فمد اللهُ في عُمُره عشرين سنة أخرى » ، وقال أنس : « ثلاثةٌ نفر في ظلِّ عرش الرحمٰن يوم القيامة : واصلُ الرَّحِم يُمدُّ الله في عمره ، ويُوسِّعُ له في رزقه ، وامرأةٌ مات زوجُها وترك يتاماها فتُقِيم عليهم حتى يُغنيهم اللهُ أو يموتوا ، ورَجُلٌ يتَّخِذُ طعامًا فيدعو إليه اليتامى والمساكين » .

وعن عائشة رضي الله عنها : « إنَّ حُسْنَ الخُلُق ، وحُسْنَ الجوار ، وصِلَة الرَّحِم ، تَعمُرُ الديار ، وتزيد في ا لأعمار » ، ويُروى أنَّ الصدقةَ تزيدُ في العمر ، والمال ، وقال : « الصَّدقَةُ تَرُدُّ القضاء المنبرم » ، ويُروى أنَّ مَلَكَ الموت أخبَرَ سليمانَ بنَ داود - عليهما السَّلام - بموْتِ شابٍّ بعْدَ خمسة أيام، فبقِيَ سليمانُ يُراعِيه خمسة أشهر ، ولمْ يَمُتْ ، فسأل مَلَكَ الموتِ عن حاله ، فقال : « إنَّهُ لَقِيَهُ سائلٌ فدفع إليه شيئًا فدعا له بالبقاء ، فأمرتُ بتأخيرِه لبركة صدقته » ، وقال ﷺ : « ما من رَجُلٍ يتصدَّقُ يومًا وليلةً إلَّا حُفظ من أن يموت من لدْغَةٍ أو هَدْمَةٍ أو مَوْتِ بَغْتَةٍ »[1] .

وقال : « السَّخاء خُلُقُ الله الأعظم »[2] ، وقال : « إنَّ اللهَ يَدْرَأُ بالصَّدقةِ سبعين مَيْتةً مِنَ السُّوء ، ومَوْتَةُ السُّوءِ أنْ يموتَ مُصِرًّا على المعصية ، أو قانطًا من رحمةِ الله ، أو ظالمًا ، أو قاطِعًا لرحِمِه ، أو يَفْجَأَ بالموت ، أو يُخْتَمُ له

(١) لم أقف عليه مسندًا، وذكره أبو بكر بن السيد محمد شطا الدمياطي في إعانة الطالبين ٢/ ٢٣٥.

(٢) رواه أبو نعيم في أخبار أصبهان ١/ ١٤٢ من حديث عمار بن ياسر، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٢٥٩: رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب عن ابن عباس. وقال المناوي في فيض القدير ٤/ ١٣٧: ضعفه المنذري. وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٧٣١).

بسوء، أو يموتُ هدمًا أو غرقًا، أو لديغًا، أو شبه ذلك »[1]، ويُروى: أنَّ «الصَّدقةَ تَمنعُ ميْتةَ السُّوء »[2]، ويُروى أيضًا: «أنَّ امرأةً غابَ عليها ولدُها غيْبةً طويلةً أَيسَتْ منه فجلسَتْ يومًا تأكُل فكَسَرَتْ لُقمَةً وأَهْوَتْ بها إلى فِيها، فوَقَفَ سائلٌ، فحَمَلَتْ اللُّقْمَةَ إليه، وبقيَتْ جائعةً، فما مضَتْ إلَّا أيامٌ يسيرةٌ حتى قَدِمَ ولدُها، وأَخْبَرَ بشدَائِدَ مَرَّتْ به، قال: ومِنْ أَعْظَم ذلك: إني كنتُ منذ أيام أمشِي في أَجَمَّة (موضِع الأسد...) في موضِع كذا، إذ خرج عليَّ أسدٌ، فقَبَضَ عليَّ مِنْ ظَهْرِ حِمَارٍ كنتُ راكبُه، ونَشَبَ مخالبَه في مُرَقَّعتي، وثناني حتى تحيَّرْتُ وذَهَبَ عقلي، فأدْخلَنِي الأجَمَّةَ وبَرَكَ ليفْتَرِسَني، فجاء رجُلٌ أَبْيَضُ الوجهِ والثياب، قَبَضَ بِيدِهِ مِنْ غيْرِ سلاح على قفا الأسد، وشَالَهُ، وخَبَط به الأرض، وقال: قُمْ يا كلبُ لقْمَة بلقْمَة، فقام الأسد هاربًا، ورجع إليَّ عقلي، فمشيتُ حتى لحقتُ القافلة، فعَجِبوا لَّما رَأَوْني، ولم أدرِ مَا قولُ الرجل: لقْمَة بلقْمَة، فنظرتْ المرأةُ فإذا هو وقتُ أخرجَتْ اللُّقْمَة من فِيها فتصدَّقَتْ بها».

ونحوه رُوِيَ في امرأة أخرى خرجَتْ معها صبيٌّ لها، فاختلسَه منها الذئبُ، فخرجَتْ في أَثَره، ومعها رغيفٌ، فعَرَضَ لها سائلٌ فأعطته إياه، فجاء الذئبُ بصَبِيِّها حتى ردَّه إليها، وقال: لقْمَة بلقْمَة.

ويُروى أنَّ رجلًا عَبَدَ الله سبعين سنة، ثم أصاب فاحشة، فأَحْبَطَ اللهُ عملَه، فتصدَّق برغيف، فغفر اللهُ له ذنوبَه، وردَّ عليه عمل سبعين سنة، ثم أصاب فاحشةً فأَحْبَطَ اللهُ عملَه، ثم مرَّ عليه مسكينٌ فتصدَّق عليه

(١) رواه الشهاب في مسنده ٢/ ١٥٨ من حديث أنس بن مالك.

(٢) رواه أحمد ٣/ ٥٠٢ من حديث رافع بن مكيث، وقال الهيثمي في المجمع ٣/ ١٤٨: وفيه رجل لم يسم، وضعفه الألباني في الضعيفة (٧٩٤).

برغيف ، [فـ](1)ـرد عليه عمل سبعين سنة ، وزِيدَ له في عُمُرِه عشرين سنة . وقال ﷺ : « فإذا أذنبْتَ فعجِّلْ في إِثْرِهِ صدقةً ، قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ عليك عقوبة »(2) ، وقال : « ما أتى أحدًا من المسلمين ضيفٌ إِلَّا وله مَلَكان يَكتبان لصاحب الضيف بكلِّ لقمةٍ له حسنة ، ويُرفَعُ له مائة درجة ، ولا يُكتبُ على صاحب البيت سيئةٌ بعد الضيف أربعين يومًا ، ويكونُ في أمان الله تعالى »(3) .

وقال : « تجافَوْا عِنْدَ ذَنْبِ السَّخِيِّ ، فإنَّ اللهَ يأخُذُ بيدِه كُلَّما عَثَر »(4) ، وقال : « أَيُّما مُسلِمٍ كَسَا مسلِمًا ثوبًا كان في حفظِ الله ما بقِيَتْ عليه منه رُقعة »(5) ، وقال : « وَسِّع مجلسَك يُوسِّع اللهُ عليك رِزْقَك »(6) . زاد في نصيحةِ شيخِنا ويُزاد في عُمْرِك ، وقال يحيى بنُ معاذ : « في سَعة الأَخْلَاقِ كُنوزُ الأَرزَاق »(7) ، ويُقال : « مَنْ سَاءَ خُلُقُه ضَاقَ رزقُه » ، ويُروى أنَّ موسى عليه السلام قال : « يا رَبِّ أمهَلْتَ فرعَوْنَ أربعمائة عام ، وهو يقولُ لقومه: أنا ربُّكُم الأعلى ، ويُكذِّب آياتِكَ ، فقال الله تعالى : يا موسى : إنَّ فرعون حَسَنُ الخُلُق ، سَهْلُ الحِجَاب ، فأَحْبَبتُ أن أكافئه ، إلى غير ذلك » والله أَعْلمُ بغيْبِهِ وأَحْكَمُ .

---

(1) في الأصل : وردَّ ، وبه يكون الفاعل هو المتصدق ، وليس المراد .
(2) لم أقف عليه .
(3) لم أقف عليه .
(4) رواه الطبراني في الأوسط ٦/ ٣٣ من حديث ابن عباس، وضعفه العراقي في المغني ٢/ ٩٠٢، والألباني في الضعيفة (٦٦٦١).
(5) رواه الترمذي (٢٤٨٤) من حديث ابن عباس، وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وصححه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢١٧، وتعقبه الذهبي في التلخيص قائلا: فيه خالد بن طهمان ضعيف. ووافقه العراقي في المغني ٢/ ١٧٥، والمناوي في فيض القدير ٥/ ٤٩٨، والألباني في ضعيف الجامع (٥٢١٧).
(6) لم أقف عليه .
(7) لم أقف عليه .

وَاعْلمْ أنَّ الأرحامَ همُ القرابة ، كالآباءِ والأمهاتِ ، والبنين والبناتِ ، والإخوةِ والأخواتِ ، والأَعْمامِ والعمّاتِ ، والأَخْوَالِ والخالاتِ ، وأولادِ العمِّ والعمَّةِ ، والخالِ والخالةِ ، ونحوِهم من القراباتِ المُشْتَبِكَاتِ . أمَّا صلةُ الرَّحِم فهيَ أنْ يفعَلَ الإنسانُ معَ أقاربِه ما يُعَدُّ بِهِ مواصلًا غيرَ منافرٍ ، ولا مُقاطِعَ ، فإنْ كانَ عِنْدَهُم وصَلَهم بهديَّةٍ ونحوِها ، فإنْ لَمْ يَقْدِرْ على الصِّلةِ بالمال ولم يكونوا محتاجِينَ وصَلَهم بزيارةٍ ، وإعانةٍ في أعمالِهِم إن احتاجوا ، وإنْ كان غائبًا وصَلَهُم بالكتابِ وإرسالِ السَّلام ، وقيل[1] : ونحو ذلك ، فإن قَدَرَ على المشْي إليهم فهو أفضلُ ، وهذا عامٌّ في كلِّ قريب » انتهى ما رُمناه في الدعاء وما يُناسبه ، والله أعلم .

[الأسمر في طرابلس]

ولنَرْجِع بالكلامِ على الشيخ - الذي نحنُ بصدَدِه وهو مولانا عبدُ السَّلام - منذُ ظهرَ بطرابلس ، فأهلكَ اللهُ ﷻ بدُعائهِ جميع مفاسِيدِها ، ومفاسِيدِ أعْرابِها ، وبُغاتِها الضَّارِّين بالأُمَّة المحمَّدية ، على صاحبِها أفضلَ الصَّلاة والسَّلام ، وممَّا ما وقع له - يعني الشيخ - مِنَ الحسَدةِ الذين هم بطرابلس وغيرِها ، الذين يُقال[2] فيهم : الأضدادُ (والأحداثُ)[3] وهو ما قدَّمناه أولًا ، فلمَّا لَمْ يضجرْ منهم ، ولا يتأوَّه ولا يغضَبُ من ظلمِهِم وتعدِّيهم عليه ، وتَشْتِيتِهم لفُقرائِهِ ، وذلك مِنْ كثرةِ حِلْمِه وسَعَةِ أخْلاقِهِ ، فلمَّا كان ذلك اغتَارَ منهُ الحسَدةُ التَّغْيِيرَ الشَّدِيدَ ، ولَمْ يُمكِنْهُم التَّمكُّنَ مِنْهُ ، كالقاضي أبي محمد بنِ يحيى الطرابلسي ، وبعضِ أصحابِهِ ، مَشَوْا فيه إلى

(١) كلمة غير واضحة في الأصل في صورة (لكيلا) ولعل المراد (الدعاء) .
(٢) زاد هنا كلمة : لهم ، وأراد بها البدلية الحرفية من (فيهم) وترك ذلك أصح .
(٣) اجتهاد في قراءة الكلمة غير الواضحة في الأصل ، ولعل المراد : الحساد .

الوالي المتوليِّ بحصارِها ، وقالوا له : هنا رجلٌ من أهلِ يزليتن يَزعُم أنَّه القطبُ ، ويَؤُمُّ الناسَ إليه ، أخرِجْه لئلا[1] يشوِّشَ عليك بلادَك ، وتُخرُجَ منها من بين أَظْهرِهم مِنْ غيرِ اختيارِك ، ولا زالوا يحطُّون عليه عند الوالي بما يكرهُهُ حتَّى أخرجه الوالي من مدينة طرابلس ، ومِنْ كُلِّ قرية ، وكنتُ حضرتُ معه في يومِ خروجِه منها ، وهو إذ ذاك في أعظمِ هيجان الحال ، وإِحْراقِ الوجدِ بِهِ ، يقولُ هذه الأبيات : [وافر]

إذا ظَلَـمَ الأمـيرُ وكاتبـاهُ ... واظـهـرَ بالفجورِ وبالعنـادِ
فـويـلٌ ثـم ويـلٌ ثـم ويـلٌ ... (لكلِّ فقيرْ مِنْ قاضي البلادِ
أَقولُ أقولُ [أنْ] يا وَحْشَتَاهُ ... فلا يَخْلُو الفقيرُ مِنَ النَّكَّادِ
مِنَ البَلْقَـاءِ ياخَـيْي خَرَجْنَا ... وكلُّ مقيمْ يرحلُ باعتيـاد[2])

وقال آخر : [بسيط]

إنَّ الملوكَ بَلاءٌ حَيْثُ مَـا كَانُـوا ... كذا (قُضَاتُهُمُو أَدْهَى) ولـو قلُّـوا
إنِ ارتَشَيْتَهُمُ في وَجْهِكَ ضَحِكوا ... فإنْ تركـتَهُمُ في عِرْضِـكَ حَلُّـوا
ماذا تريدُ إذا عَلَيْكَ [قـد] غَضِـبوا ... جَارُوا عَلَيْكَ وإنْ أرضيتَهُمْ ضَلُّوا

---

(١) في الأصل : ألا .

(٢) يلاحظ على هذا النص أنه محاولة سير على نهج شاعر قديم في أبيات همزية على بحر الوافر ، سلم شطرها الأول ، ويقول في بيته الثاني منها :

فـويـل ثـم ويـل ثـم ويـل ... لأهل الأرض من رب السماء

وقد تعزى هذه العامية التي تتخلل النص للرواة أو النساخ أو إلى الواضعين لمثل هذه القصص على الشيخ ، فقد سلمت له قصائد أخرى فصيحة في رسائله الثابتة النسبة إليه لا تدل على ضعف كهذا في الوزن والمعنى والأسلوب ، على أنه يجب أحيانا أن يخاطب الناس باللهجة ليكون قريبا منهم ، فجمهور الطريقة العروسية من العامة غالبًا في ذلك العصر .

وإن مدحتَـهُمُ ظنُّوكَ تخدعُهُمْ ... واسْتَثْقَلُوكَ كَمَا يُسْتَثْقَلُ الكَلُّ
(فإن بَعُدْتَ فالبُعْدُ منهم راحة[1]) ... فَلَا يَكُنْ لَكَ فِي أَسْقَافِهِمْ ظِلُّ
مِنْ غَيْرِ عُذْرِكَ لا تَأْتِيهِمُ أَبَدًا ... إِنَّ الوُقُوفَ على أَبْوابِهِم ذُلُّ

واعْلَمْ أَنَّ خُرُوجَ الشيخ من طرابلس وغيرِها ، [كان] بسببِ حَسَدِ الأضدادِ والأحداث .

[ما جاء في الحسد]

والأصلُ في الحسدِ مِنْ جهةِ الشَّرعِ أَنَّهُ خُلُقٌ مذموم ، وصاحبَه آثمٌ ، وهو مع ذلك موجودٌ في جميع خَلْقِ الله ، إلَّا مَنْ ثَبَتَتْ عِصْمَتُه ، وهُوَ مُنْذُ خَلْقِ آدم ، ومن آدم كان الحسَدُ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَوْلَى النِّعْمَةِ لا يَأْمَنُ على نفسِه من الحسَدِ ، ولا يطلُبُ أَنْ لا يكُونَ لَهُ حاسدٌ ، ولا أَنْ يحسِدَهُ حاسد ، فإنَّ الحكمَ الوجودِي اقتضى[2] مقابلةَ النِّعم بالحسدِ ، فمَنْ طلبَ أن لا يكونَ له حاسدٌ فَقَدْ طلبَ أن لا تكونَ له نِعْمَةٌ .

قال الإمام الغزَّالي في « المنهاج » : « الحسدُ هو إرادةُ [الحاسد] زوالَ نِعمةِ الله على أخيه المسلمِ ، مما له فيه صلاحٌ ، فإن لم تُرِدْ زوالَهَا عَنْهُ ، ولكنْ تُرِيدُ لنفسِك مثلَها ، فهي الغبطةُ » . وعلى هذا يُحمل قوله ﷺ : « لا حَسَدَ إلَّا في اثنتين »[3] الحديث ، أي : لا غِبْطَةَ إلَّا في ذلك . فعبَّرَ عنِ الغبطةِ امتناعًا لتقارُبِهَا ، فإنْ لَمْ يَكُن فيها صلاحٌ وأردْتَ زوالَهَا عَنْهُ فذلك غَيْرَةٌ ،

(١) هذا هو المعنى وقد حفظه وضيع وزنه وبعض ألفاظه ، والعهدة فيه قد تكون على الراوي أو الناسخ أو المؤلف .
(٢) في الأصل : اقتضاء .
(٣) رواه البخاري (٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥) من حديث ابن عمر .

وأما ضِدُّ الحسَدِ وهي النصيحةُ ، فهي إرادةُ بقاءِ نِعْمَةِ الله على أخيك المسلمِ مما فيه صلاحٌ اهـ .

ويكفي في معرفةِ كونِها صَلاحًا غَلبةُ الظنِّ ، فإنْ شكَّ فالتَّحريمُ احتياطًا ، قال سيدي محمَّد السَّنُوسي : قال بعضُهم : الحسدُ السُّرورُ بمصيبةٍ نَالَتْ مُسْلِمًا ، والحُزنُ على نِعمةِ الله نالتْهُ ، قال القرافي: « ثُمَّ الحسدُ حَسَدان: تَمَنِّي زوالَ النِّعْمةِ وتَحوُّلَها للحاسدِ ، وتَمَنِّي زوالَها مِنْ غَيرِ طلبِ حُصولِها للحاسِدِ » وهُوَ أَشَرُّ الحاسِدين ؛ لأنَّهُ طلبُ المفسدَةِ الصِّرْفةِ ، مِنْ غَيْرِ مُعارضٍ عادِيٍّ طبيعِي .

ثم حُكمُ الحسدِ في الشَّريعَة التَّحريمُ ، وحُكمُ الغِبطةِ الإِباحةُ لعدم تعلُّقِها بمفسدةٍ البتة ، وذلك [أنَّ] تحريمَ الحسدِ بالكتابِ والسُّنَّة والإجماع ، فالكتاب قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (الفلق ٥) ، ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النساء ٥٤) ، ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (النساء ٣٢) أي لا تَتَمَنَّوا زَوَاله ؛ لأنَّ قرينةَ التمنِّي تَدُلُّ على الحَذْفِ . وأما السُّنَّة قوله ﷺ : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عبادَ الله إخوانًا »(١) ، واجتمعَتِ الأُمَّةُ على تحريمه ، ويقال : « إِنَّ الحسدَ أولُ معصية عُصِيَ اللهُ بها ، حَسَدَ إبليسُ آدمَ فلمْ يسْجُدْ له » اهـ .

وكفى في ذمِّ الحَسَدِ وشُؤْمِه أنَّ اللهَ - تعالى - أمرَ نبيَّهُ أنْ يستعيذَ بالله منه ، وقال ﷺ : « إِنَّ الحَسَدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النار الحطبَ »(٢) رواه أبو عمر في « بَهْجَة المجالسِ » ، وفي بعض الكتب المنزَّلةِ « الحاسدُ عدوٌّ

(١) رواه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه أبو داود (٤٩٠٣) من حديث أبي هريرة، وضعفه العراقي في المغني ١/ ٣٢، والألباني في الضعيفة (١٩٠٢).

نِعْمَتِي » ، وقال معاوية : « كُلُّ النَّاسِ أَقْدِرُ أَنْ أُرْضِيَهم إِلَّا الحَاسدُ ، فإنَّه لا يُرْضِيه إِلَّا زوالُ النعمة » ، قيل : « علامتُه أنْ يتملَّقَ إذا شَهِدَ ، ويغتابَ إذا غابَ ، ويشْمِتَ بالمصيبةِ » ، ورأى موسى عليه السلام رجلًا عند العرش يغبِطُ ، فقيل : ما صفتُه ؟ فقيل : كان لا يحسُدُ الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فضله » . قال عليه الصَّلاة والسَّلام : « ثلاثةٌ لا ينجو منهُنَّ أحدٌ : الظَّنُّ ، والحسَدُ ، والطِّيرةُ »[1] . قيل : « وما يُنجي منهُنَّ ؟ » ، قال : « إذا حَسَدْتَ فلا تَبْغِ ، وإذا ظَنَنْتَ فلا تحقِّق ، وإذا تَطَيَّرْتَ فامْضِ » ، أو قال : « لا ترجِعْ » ومعنى قوله عليه السلام : « إذا حَسَدْتَ فلا تَبْغِ » يعني : إذا كان الحسَد في قلبِكَ فلا تُظْهِره ، ولا تَذْكُر عنه بسوء ، فإنَّ الله - تعالى - لا يؤاخذُك بها في قلبِك ، ما لم تَقُلْ باللِّسان أو تَعْمَلْ عملًا في ذلك . وقوله عليه السلام : « إذا ظَنَنْتَ فلا تحقِّق» يعني : إذا ظننتَ بالمسلمِ ظنَّ السُّوءِ ، فلا تجعلْ ذلك حقيقةً ، ما لم ترَ بالمعاينة . وقوله - عليه الصَّلاة والسَّلام - : « إذا تَطَيَّرْتَ فامْضِ » يعني : إذا أردْتَ الخروجَ إلى موضِعٍ فسمِعْتَ جلبةً أو صوْتَ عُقْعُقٍ ، أَوْ اختلجَ شيْءٌ مِنْ أعْضائِكَ ، فامْضِ فلا تَرجِعْ ، ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ : « أنَّه كانَ يُحِبُّ الفألَ الحسَنَ، ويَكرَهُ الطِّيَرة »[2]، وقال: «الطِّيَرةُ من أفعالِ الجاهلية»[3]. كما قال الله تعالى : ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ (النمل ٤٧) ، وفي آية أخرى : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ (يس ١٨) .

ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يقول : « إذا سمعْتَ صوْتَ طيرٍ

(١) رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٣/ ٤٦١، والطبراني ٣/ ٣٧٢ من حديث حارثة بن النعمان، ومن طريقه البيهقي في الشعب ٢/ ٦٢، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ٣٩٤: فيه إسماعيل بن قيس الأنصاري وهو ضعيف.

(٢) رواه البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٠)، وأحمد ٢/ ٣٣٢ من حديث أبي هريرة، واللفظ له.

(٣) لم أقف عليه .

فَقُلْ : اللهم لا طيرَ إلَّا طيرُك ، ولا خيرَ إلَّا خيرُك ، ولا إلهُ غيرُك ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم ، ثم امض ، فإنه لا يَضرُّك شيءٌ » ، ورُوِيَ عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ أنه قال لابنه : « يا بُنَيَّ إياكَ والحسد ، فإنَّه يتبيَّنُ فيك قبلَ أنْ يتبيَّنَ في عدوِّك ؛ لأنه شيْءٌ مِنَ الشرِّ ، وليس شيءٌ من الشرِّ أضَرُّ مِنَ الحسَدِ ، وقد يَصِلُ إلى الحاسِدِ خمسُ عقوباتٍ قَبْلَ أنْ يَصِلَ إلى المحسُودِ مكروهٌ ، أولُها : غمٌّ لا ينقطِعُ ، والثاني : مصيبةٌ لا يُؤْجَرُ عليها ، والثالثُ : مذمَّةٌ لا يُحمدُ بِهَا ، والرابعُ : يَسْخَطُ عليه الربُّ ، والخامسُ : يُغلِقُ عليه أبوابَ التوفيق » ، ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ إنه قال : « لِنِعَمِ الله أعداءٌ ، قيل له : مَنْ أعداءُ نِعَمِ الله يا رسول الله ؟ قال : الذين يحسُدُونَ النَّاسَ على ما آتاهم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ »(١) .

ورُوِيَ عَنْ مالك بنِ دينار أنَّه قال : إني أُجيزُ شهادةَ القُرَّاء على جميع الخلْقِ ، ولا أُجيزُ شهادةَ القُرَّاءِ بعضِهم على بعضٍ ؛ لأنِّي وجدْتُهم حُسَّادًا ، يعني : أنَّ أكثرَ الحُسَّادِ في القُرَّاءِ ، وروى أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال : « ستةٌ بستَّةٍ يدْخلُونَ النارَ يوْمَ القيامة قبلَ الحساب »(٢) ، يعني : ستَّة أصنافٍ بسببِ ستَّةِ أشياء ، يدخلون النار قبلَ الحسابِ، قيل : يا رسول الله ، مَنْ هم ؟ قال : « الأمراءُ من بعدي بالجور ، والعربُ بالعَصبيَّة ، والدهَّاقون بالكِبْر ، والتُّجَّارُ بالخيانة ، وأهلُ الرستان بالجهل ، وأهلُ العلم بالحسَد » ، يعني : العلماءَ الذين يطلبُون الدنيا يحسُدُ بعضُهم بعضًا ، ينبغي للعالِمِ أن يتعلَّمَ العِلْمَ يطلبُ بِهِ الآخرة ، فإذا كانَ العالِمُ يطْلُبُ بِعِلْمِهِ الآخرةَ

(١) ذكره الغزالي في الإحياء ٣/ ١٨٨وذكره السبكي في طبقاته ٦/ ٣٤٤ ضمن أحاديث الإحياء التي لم يجد لها إسنادًا.

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء ٣/ ١٨٨وذكره السبكي في طبقاته ٦/ ٣٤٤ ضمن أحاديث الإحياء التي لم يجد لها إسنادًا، وقال الفتني في تذكرة الموضوعات : للديلمي ضعيف.

فإنَّه لا يحسُدُ أحدًا ، وإذا تعلَّمَ ليطْلُبَ الدُّنْيَا فإنَّه يحسُدُ ، كما قال الله في حكاية عن علماء اليهود : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النساء ٥٤) يعني : أنَّ اليهودَ كانوا يحسُدُون رسولَ الله ﷺ وأصحابَه ، فكانوا يقولون : لو كانَ رسولُ الله شَغَلَه ذلك عن كَثْرةِ النِّسَاء ، قال ﷻ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يعني : النبوةَ وكثرَةَ النساءِ .

وقال بعضُ الحكماء : وإياكُمْ والحسَدُ فإنَّ الحسَدَ أوَّل ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ به في السَّماء ، وأولُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ في الأرضِ ، وإنما أرادَ بقولِه : أوَّل ذنبٍ عُصِيَ اللهُ به في السَّمـاء إبليس[1] حـين أبى أن يسـجـدَ لآدم ، وقال : ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف ١٢) فحسَدَه فلعنَهُ اللهُ - تعالى - بذلك ، وأمَّا الذي عصى الله في الأرضِ فقابيل بنُ آدم حين قَتَلَ أخاه هابيلَ حسَدًا مِنه ، وهو قوله ﷻ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة ٢٧) ، ورُوِيَ عنِ الأحنف بنِ قيس أنَّه [قال] : لا راحةَ لحسودٍ ، ولا خُلَّة لبخيل ، ولا رَأْيَ لحاقد ، ولا رَجَاء لملوك ، ولا صَدِيقَ لملول ، ولا مُروءَةَ لكذوبٍ ، ولا سُؤْدَدَ لسَيِّءِ الخُلُق . وقال بعضُ الحكماء : ما رأيتُ ظالمًا أشبهَ بالمظلوم من الحاسِدِ ، وقال محمد بنُ سيرين : « ما حسدْتُ أحَدًا على شيءٍ مِنَ الدُّنْيَا ، فإنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ فكيْفَ أحسِدُهُ ، وهو صائرٌ إلى الجنَّةِ ، وإنْ كانَ مِنْ أهلِ النَّارِ ، فكيفَ أحسِدُهُ وهو صائرٌ إلى النار » .

وقال الحسن البصري - رحمه الله - : « يا ابْنَ آدمَ لِمَ تَحسِدُ أخاك ، فإنْ كان الذي أعطاه الله لكرامتِهِ عليه ، فلِمَ تحسِدُ مَنْ أكرمَهُ اللهُ - تعالى - وإنْ

(١) في الأصل : يعني إبليس .

يكُنْ غيرَ ذلك ، فلا ينبغي لك أن تحسِدَ مَنْ مَصِيرُه إلى النَّارِ » ، وقد قال العلماء : « ثلاثةٌ لا تُستَجاب دعوتُهم : آكِلُ الحرامِ ، ومِكْثَارُ الغيبة ، ومَنْ كانَ في قلبِهِ غِلٌّ أو حَسَدٌ للمسْلِمِين » ، ورَوَى ابنُ شهاب بسندٍ صحيحٍ أنَّ النبي ﷺ قال : « لا حَسدَ إلَّا في اثنتين : رَجلٌ آتاه الله القرآن وهو يقومُ به آناء اللَّيل والنهار ، ورجلٌ آتاه اللهُ مالًا وهو ينفقُ منهُ سِرًّا وجَهرًا »[1] يعني : أنَّه يجتهدُ حتَّى يفعلَ مثلَ ما فعلَهُ في قيام الليل ، فهذا الحسَدُ محمودٌ ، فأمَّا إذا حسدَه في ذلك يُريدُ زوالَه عنه فإنه كما قدمناه .

فالواجبُ على كلِّ مسْلمٍ أنْ يمنعَ نفسَهُ مِنَ الحسَدِ ؛ لأنَّ الحاسدَ يُضادُّ حُكْمَ الله تعالى ، والناصِحُ رَاضٍ بحُكْمِ الله - تعالى - ، وقد قال النبي ﷺ : « ألَا إنَّ الدِّينَ النصيحة »[2] ، فينبغي للمُسْلِمِ أن يكون راضيًا ناصحًا لجميع المسلمين ، ولا يكونَ حَاسِدًا ، وعن أنس بنِ مالك ﷺ قال : « بينما نحنُ عند النبي ﷺ إذ قال : يَطْلعُ عليكُمْ الآنَ رجلٌ مِنْ أهل الجنة ، فطلعَ رجلٌ من الأنْصارِ تَنْطِفُ لحيتُه من ماء وضوئِه ، معلِّقٌ نَعْلَيْهِ بشمالِه ، فسلَّمَ وجَلَسَ مع القومِ ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ ، قال رسول الله ﷺ : مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجُلُ على مِثْلِ هيئتِه ، فلمَّا كان من اليوم الثَّالثِ قال : مثل ذلك .

فلمَّا قام رسولُ الله ﷺ ، سار عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - مع ذلك الرجل ، وقال : قد وَقَعَ بيني وبين أبي كلام ، وأقْسَمْتُ أن لا أدخلَ عليه ثلاثَ ليالٍ ، فإنْ رأيْتَ أَنْ تُروِّحَني إليكَ لأجل يميني فَعَلْتَ؟ فقال : نعم آنس ، فكان عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص يحدِّثُ أنه باتَ عنده ليلةً لَمْ يَقُمْ منها ساعةً ، إلَّا أنه إذا انْقلَبَ على فراشِه ذَكر الله وكبَّره ، حتَّى

(١) رواه البخاري (٥٠٧٨) .

(٢) رواه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري.

يقومَ مع الفجرَ ، فإذا توضَّأ أَسْبَغَ الوضوءَ وأتمَّ الصَّلاةَ ، ثُمَّ أَصْبَحَ وهو مُفْطِرٌ ، فرافقتُهُ ثلاث ليال لا يزيدُ على ذلك ، غير أنِّي ما سَمِعْتُه يقولُ إلَّا خيرًا ، فلمَّا مَضَتْ الثَّلاثُ ، وَكِدْتُ أَنْ أَحْقِرَ عَمَلَه ، قلتُ : إني لَمْ يكُنْ بيني وبين أبي غَضَبٌ ، ولا هَجَرْتُه ، ولكنِّي سمِعْتُ رسولُ الله ﷺ في ثلاثة مجالس يقول : يطلَعَ عليكم رجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، فطلعْتَ أَنْتَ ، فأردْتُ أَنْ آوِي إليكَ ، حتَّى أنظرَ ما تعْمَلُ فأَقْتَدِي بكَ ، فلمْ أَرَكَ تعملُ عملًا كثيرًا ، فما الذي بَلَغَ بكَ ما قال رسولُ الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلَّا ما رأيْتَ ، فانصَرَفْتُ عنه ، فدعاني حين ولَّيتُ ، فقال : ما هو إلَّا ما رأيت ، غير أنِّي لا أجدُ في نفسي شرًا لأحدٍ من المسلمين ، ولا أحسِدُهُ على خير أعطاه الله - تعالى - إياه . قال : فقلتُ : هذا الذي بَلَغَ بك ما قال رسولُ الله ﷺ ، وهو الذي لا أُطيق »(1) .

قال بعضُ الحكماء : « بارَزَ الحسَدُ ربَّه من خمسة أوجه ، أولُّها : قد أبغضَ كلَّ نعمةٍ ظهَرتْ على غيرِه . والثاني : سَخَطَ القِسْمَة ، يعني : يقولُ لربِهِ : لِمَ قَسَمْتَ هكذا . والثالث : ضنٌّ بفضْلِه ، يعني : أنَّ ذلك فضلُ الله يُعطيه من يشاء ، وهو يَبْخَلُ بفَضْلِ الله - تعالى - . والرابع : خَذَلَ وَلِيَّ الله - تعالى - ؛ لأنه يريدُ خِذلانَهُ وزَوَالَ النِّعْمَة عنه . والخامس : أعانَ عدوَّه ، أعني : إبليسَ لعنه الله » . ويُقال : الحاسدُ لا يَنَالُ في المجالسِ إلَّا مذمَّةً وذُلًّا ، ولا يَنالُ من الملائكة إلَّا لَعْنَةً وبُغْضًا ، ولا يَنالُ في الخَلْوَةِ إلَّا جَزَعًا وغَمًّا ، ولا يَنالُ عند النَّزْعِ إلَّا شِدَّةً وهَوْلًا ، ولا يَنالُ في المَوْقِفِ يَوْمَ القيامةِ

(1) رواه أحمد ٣/ ١٦٦، والنسائي في الكبرى ٦/ ٢١٥ من حديث أنس بن مالك، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٣٤٨: إسناد أحمد على شرط البخاري ومسلم. ووافقه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ٦/ ٢٥، والألباني في الضعيفة ٣/ ٣٤٨.

إلَّا فضيحةً ونَكَالًا ، ولا ينالُ في النَّارِ إلَّا حَزَنًا واحْتِرَاقًا .

وَاعْلَمْ أنَّ الحسَدَ الأَصْلِيَ مذمُومٌ - كما قدمناه - ولكنَّهُ يصْحبُه عِنْد قومٍ بَغْيٌ وظُلْم ، وذلك أَنَّ الرجُلَ يَحسِدُ أخاه على شيءٍ فيرى قتْلَه ، كهؤلاء الأضداد والأحداثِ الذين هُمْ حَسَدَةُ الشَّيْخ ، فحَسَدُهُم مصْحُوبٌ بأنواعِ الظُّلْم والبَغْي والإِنْكَارِ عَلَيْهِ ، وظَنُّ السُّوءِ بِهِ ، فبَعْضُهُم أَنْكَرَ حَالَ الشَّيخِ مُطْلقًا ، وبعضهم رَمَاهُ بالسِّحْرِ ، وبعضهم اسْتَكْثَرَ ما يصدُرُ مِنْه مِنَ العلومِ اللَّدُنْية والمقطَّعَاتِ ، وزعم أنَّ جميعَ ذلِكَ مَسرُوقٌ من كلامِ غيرِه ، وزاد عليه، وبعضهم تسبَّبَ في قتلِه أو نفيِه من البلاد ، وقد جعلَ اللهُ كيدَهم في نحرِهم ، ومن الأمثالِ المشهورَةِ « الحسودُ لا يسُودُ أبدًا » ولله دَرُّ القائلِ إذ قال :

كضرايرِ الحسناء قُلْنَ لوجهها ... حَسَدًا وبُغْضًا إنَّه لذميمُ

غيره :

محسَّدون وشرُّ النَّاسِ كلُّهم ... من عاشَ في الناس يومًا غيرَ محسودِ

فأعاذنا اللهُ من حسدٍ يسُدُّ بابَ الإنصاف ، ويرُدُّ على جميع الأوصاف ، مثلَ هذا الشيخِ الكامل الذي لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يَرُدَّ عليه لإثباتِ ولايتِهِ وعلومِهِ النَّافعةِ وأنوارِهِ السَّاطعةِ ، كما هُو مشهورٌ فيه - نفعنا الله به - .

واعْلَمْ أنَّ هذا الشيخَ فضله لا يخفى ، ونورُه لا يُطْفَى ، كيف وقد نفع اللهُ به العباد ، وشاع خبرُه في البلادِ ، وصار عالمًا عاملًا [فـ]وليًّا كاملًا ، يقتدِي به الحاضرُ والبادي ؟ ومَنْ دليلُهُ المشاهدةُ لا يُطالب بدليل ، ولله درُّ القائلِ إذ قال : [كامل]

لا تَسْمَعَنَّ مِنَ الحَسُودِ نَميمةً فكلامُهُ ضَرْبٌ مِنَ الهَذَيَانِ
سَلْ غيرَهُ عنِّي لتعلمَ إفكَهُ واسْخَطْ عَلَيْهِ فَبالمُحالِ رَمَاني
ما يثبتُ الحقُّ المبينُ لحاكمٍ في الشَّرْعِ حتَّى يَنْطِقَ الخَصْمَانِ
لَكِنَّ قولَهُمُ جميعًا باطلٌ قَالُوهُ عَنْ حَسَدٍ وعَنْ بُهتَانِ
فإذا بُلِيتَ بقَوْلِ [شَخْصٍ] جَاهِلٍ فاصْبِرْ على قَوْلَيهِ يا إنساني [1]
واعْلَمْ بأنَّ إلـٰهَنَا قَدْ قَالَ مَا [2] في مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ والقرآنِ
وَنَبِيُّهُ قَدْ قَالَ أيضًا مِثْلَ ذا فاصْغَى لِمَا قَدْ قِيلَ بالتِّبْيَانِ
أعطيتُ كلَّ النَّاس من نفسِي الرِّضَى إلا الحَسُودَ فإنَّهُ أَعْيَاني
لا أنَّ لي ذَنْبًا إلَيْهِ عَمِلْتُهُ إلا تَظَاهُرُ نِعْمَةِ الرَّحمٰنِ
مَا ضَرَّني حَسَدُ اللِّئَامِ وَلَمْ يزلْ ذو الفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذوو النُّقْصَانِ

وقال غيرُه : [بسيط]

إنِّي نَشَأْتُ وحُسَّادِي لَهُمْ عَدَدٌ فاللهَ أسألُ أنْ [يَقْطَعَهُمُ بَدَدَا] [3]
يَا ذَا المَعَارِجِ لا تُكْثِرْ لَهُمْ عددًا [حتَّى تُبَاعِدِ من ذي البَلدة الحَسَدا] [4]

واعْلَمْ أنَّ أعظمَ الحسَّادِ الأضدادُ والأقاربُ والجيرانُ ، وأكثر ما يوجد فيهم .

نرجع إلى ما كنَّا فيه : ثم لَمَّا خرجَ الشيخُ من مدينة طرابلس وقراها ،

---

(١) لا يخفى ما في البيت من ضعف قياسا بما سبقه ، وفي الأصل: (قائل) عوض شخص و (تقويله) عوض كلمة (قوليه) التي وضعتها اجتهادًا ومراعاة للوزن .
(٢) في الأصل : كما .
(٣) في الأصل : يقطع أثرهم .
(٤) في البيت خلل في الوزن واللغة ، وأصله: « حتى لا يوجد في ذي البلاد الحسدا » .

فرَّ مُقَبِّلًا[1] إلى جَبل غُريان ، وأقام به مدة بكهفٍ هناك يسمَّى بتكبيرة ، فوقع له من سكَّانِه من الظُّلمِ وإساءةِ الأدبِ ما لم يقعْ له من غيرِهم ، عدا أولاد سيدي ساعد ، وأولاد سيدي أبي سلامة ، عَظَّمُوه واعترفوا بفضلِه لجلالته وشرفِهِ ، ثم انتقلَ من جبلِ غُريان وغيرِه حتَّى اقتطعَهُ من جميع البلدان الطرابُلسية ، ولذلك يشيرُ في بعض مقطَّعاتِه حيث يقول : [زجل]

أَقَلْبَــــاه يفُــــــوزْ	مِنَ الهَمّ وشديدِ البليَّةْ
أَنَــا جَــالي مَقْهُــورْ	نبكي ودموعي سخيَّةْ
نجـض كـما المكسـورْ	الطف يا مـولاي بيَّـةْ
مِنَ الفتْـنَــــة والـزُّورْ	ما نـــرقدْ ليلـةْ هنيــَّةْ
نَصُــــبّ الدَّمعْ دَرُورْ	حُسَّادي جَارُوا عَلَيَّـةْ
مَزْجُــــورْ ومَهْجُـــورْ	عَدْوَاي نَكْـرُوا عَلَيَّـةْ
مِثْـل فَـريـــدْ نُـدُورْ	متْحَــيِّرْ نَـارِي قَـــويَّةْ
مَغْبُـــونْ وَمَكْـدُورْ	طَرَدُوني مِن غير سـيَّةْ
مِنسِـــي أَنَــا مَقْهُــورْ	ولا مِنْـهُ يَفْـزَعْ لِـيَّــةْ
يَا هَلْ تَـوَلَّى مَسْـحُورْ	وإلا دَعْـــوَةْ والديَّــةْ
عُـدْتُ كَمَـا الزَرْزُورْ	مِـن رَانِـي حَاحَا عَلَيَّةْ

إلى آخر ما قال .

اعلم أن منازل الذل لا خير فيها ، ولا في جيرانها ؛ لأن النبي ﷺ نهى عنها وعن نزولها ، بقوله : « لا ينبغي للمسلم أن يُذِلَّ نَفْسَه »[2] ؛ لأن منازلَ

(١) يريد قاصدًا ناحية القبلة : أي جنوبًا .

(٢) رواه الترمذي (٢٢٥٤) وحسنه، وابن ماجه (٤٠١٦) من حديث حذيفة، وقال ابن أبي حاتم في علل الحديث ٢/ ١٣٨ : قال أبي: منكر، وصححه الألباني بشواهده في الصحيحة (٦١٣).

الذُّل مَنْ دَان أهلَها هان عِندهم وحقَّرُوه غاية الاحتقار ، ومَنْ أكرمَ نفسَه وأعزَّها أكرمَتْهُ النَّاسُ وأعزُّوه وإن كان حقيرًا . واعْلَمْ أنَّ مَن اتَّخَذَ لعِرْضه جانبًا من الذُّل اغتنمَ الصِّيانة ، ولا يُلقي نفسَه في مَورِدٍ لا يُزِيلُ ما بِهَا من الظَّمأ ، ويُورِثُ لها الذُّلَّ والإهانةَ وغيرَ ذلك .

واعْلَمْ [أنه][1] من هاهنا يظهرُ قولُ مَنْ قال : الغُربةُ لا خير فيها ، هذا إذا كانت القريةُ قريةَ سوءٍ وسافر إليها ، فهو كمن خرج من الاتساع إلى الضيق ، فلا تهْنأ له معيشةٌ فيها ، ولو أنفقَ كثيرَ مالِه على أهلِها ؛ ولذلك قال القائل : [طويل]

تَقْعُد [إلى][2] الأوطان إن كنت طالبًا نجاةً ففي الأسفارِ خَمسُ عوائـقِ
تشـوُّقُ إخـوانٍ وفقـدُ أَحِبَّـةٍ وأعظمُهَا يا صَاحِ سَكْنُ الفَنَـادِقِ
وكـثرةُ إيحـاشٍ وقـلةُ مُؤْنِسٍ وتَبْـذيرُ أمـوالٍ وخِفَّةُ سَـارِقِ
فإنْ قِيلَ في الأَسفار كَسْبُ مَعيشـةٍ وَعِلْمٌ وآدابٌ وصحبة [صـادقٍ][3]
فَقُلْ كَـانَ ذَا دَهْـرٍ تَقَـادَمَ عَصْرُهُ وأعقـبَهُ دَهْرٌ شـدِيدُ المضَـائقِ
وهـذا مَقَـالي والسَّلامُ كَما تَرَى وجَرِّبْ ففي التَّجْرِيب عِلْمُ الحقائقِ

واعْلَمْ أنَّ نفْسَ الأحرارِ لا تَتحمَّلُ الظَّمأَ طلبًا للعِزِّ ، وصونا للعِرْضِ ، وقال شيخُنا النَّاصِرَ - في ما كتب لي بعد كلام كثير - : « أمسكْ نفسَك عَنْ كلِّ ما يورِثُ لها الاحتقارَ والذُّلَّ ، ويَشِينُها ، واجتهد في خِدمة العلم وأهلِه ، وإنَّك كما خدمت العِلْمَ وأهلَه تُخدمُ ، وكما تَدينُ تُدان ، وإيَّاكَ ثُمَّ إيَّاكَ أنْ تغرِسه عزًّا ثُمَّ تجنيه ذُلًا ، وصُنْهُ تُصَنْ ، وأكرِمهُ تُكرم ، وإيَّاك ثُمَّ إيَّاك أنْ

(١) في الأصل : و .
(٢) في الأصل : عن .
(٣) في الأصل : ماجد وهو استحضار للبيت الأصلي وخروج عن قافية القصيدة .

تَحُلَّ بأرضٍ لا توافقك في علمِك ، ولا في دينِك ، ولله درُّ القائلِ : [بسيط]

أَمْسَى الغـريبُ بـدارٍ[1] لا تُوَافِقُـهُ ... كبائع الريح لا يعطى لها ثمـنا
مَا مِنْ غَرِيبٍ وَلَوْ طالَ الزَّمانُ بِهِ ... إلا سَيَذْكُرُ بعـدَ الغُـرْبَةِ الـوَطَنَا

غيره : [بسيط]

إنَّ الغريبَ أَخَا الأَسْفَارِ في نَصَبٍ ... مَعَ النَّجَاةِ وفي هُـونٍ إذا هَلَـكا
لَوْ أَنَّهُ مَلِك تَسْعَى الجُيُـوشُ لَهُ ... مَا كَانَ إِلَّا ذَلِيلًا حيثُ ما سَـلَكَا

إلى آخر ما قال ، ذكرناه في الكبير[2] نحو الخمسين بيتًا .

ثم لَمَّا خرج الشيخُ من جبل غريان ، جاء[3] لجبلٍ عظيمٍ هُوَ ومَنْ تَشَبَّثَ بِهِ مِنْ أصحابه ، وهو قريبٌ من وادي بني وليد ، يُقال له : قلعة سوف الجين ، وسَكَنَها ومَنْ معه ، وأَنْبَعَ اللهُ له فيها عَيْنًا تجري بماء عَذْب ، وقبل أن يأتي إليها كانت لا ماء فيها ، فلمَّا حلَّ بها وأصابَ مَنْ معه العطشُ ، واحتاجوا للطهور جاءوه يريدون الماء ، فلمَّا سَمِعَ كلامَهم عن ذلك ذَرَفَتْ عيناه وأصابَه حالٌ عظيم ، وتلا آيةً من كتابِ الله ، وأخَذَ مِعْوَلَه وضَربَه في صخرةٍ مِنْ تِلْكَ القلعة فنبعَتْ له عينٌ تجري بالماء ، وهي باقيةٌ مشهورةٌ إلى الآن ، سُمِّيَتْ لأجلِه بعين الشَّيْخ سيدي عبدِ السَّلام ، ولهُ بتلك القلعةِ رابطةٌ كان يتعبَّدُ بها ، فمَكَثَ بتلك القلعة سبْعَ سنين متوَجِّهًا إلى الله لا يلتفِتُ إلى سِوَاه ، إنما دأْبُه - طول الليل والنهار - اللجوءُ إليه ، وإلى نبيِّه ، وإظهارُ الاضطرارِ إليه بالبكاءِ والتذللِ والتوسُّل بالأنبياء والأولياء نثرًا

(١) في الأصل : في دار .
(٢) يعني في الديوان .
(٣) في الأصل : فجاء .

ونظمًا ، كما هو كثير في مُقطَّعاته وغيرها ، وتلاوة القرآن والتهجدِ به ، وكان حسنَ القراءةِ ، تَستمعُ لقراءتِه وإنشاداتِه الطيور ، والوحوش، والهوام والجنون، ويأوُون إليه طائفةٌ بعد طائفة، ويحدِّثُونه، ويستشيرونه كما سيأتي، ولم يكُنْ عندَه في أيّام مُكْثِه بالقَلْعَةِ شيءٌ مِنَ الأَزْوِدَةِ[1] ، عدا أربعة صيعان تمرٍ فَزاني ، وأربعة أخرى من دقيق الشعير في جراب ، فكان من ذلك قوتُهم هنالك ، وهم يخرجُون منها القَدْر الكافي في كلِّ يومٍ وليلة ، وهي تتزايدُ ولم تَفِ[2] ، وذلك شيءٌ من الإنفاق الكوني .

وله بقرةٌ حمراءُ في لونها ، ومعها عِجْلةٌ لها برسمُ الحليب . العِجْلةُ يشير لها أن تشرِّق ترعى الربيع ، والبقرة يشير لها أن تغرِّب للمَرْتعِ ، لا يجتمعان إلَّا في دَخَلِ اللَّيلِ بين يدي الشَّيْخِ ، وقد ظهرَ له بتلك القلعةِ كراماتٌ لا يمكن انتهاؤُها ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحديد ٢١) .

[ما جاء في مدح الغربة والسفر]

قال سيدي عبد الرحمٰن بنُ عطية القُرَشِي - رحمه الله - : « صلَّيتُ ذاتَ يومِ الصبْحَ مع الشيخ بالقلعة ، فلمَّا انتهى من قراءة وظائفهِ وأورادِه ، جعل يقولُ بعد ذلك : ما انجلتْ عنَّا الأنكادُ حتَّى فارقْنَا الأضداد » . كما أنَّ سيدي أحمد زرُّوق يقول : « ما سَمِنَّا حتَّى طَّمَنَّا[3] » . قلت : صدَق الشَّيخُ الذي هو سيدي عبد السَّلام ، وصَدَقَ الحَاكي عنه ، ذلك لأنَّ الفقيرَ إذا تفقَّهَ

(١) أزودة : أراد به جمع الزاد ، كما أراد بالصيعان بعده جمع صاع .

(٢) تَفِ : كذا ، ولعل المراد العكس ؛ لكونها موفية بالغرض .

(٣) كذا في الأصل ، ولعله أراد : اطمأنَنَّا من الطمأنينة ، وسمنَّا تعبيرًا عن الصحة النفسية وصلتها بالصحة البدنية .

وتصوَّفَ ، ولَمْ تُوافقهُ البلدةُ التي هو بها، تنبغي له الغربةُ والبعدُ عنِ الأضدادِ وغيرِهم كالحسدة ؛ لأنَّهُ إذا تركَ الخَلْقَ يفتحُ اللهُ عليه بابَ العملِ ، ويُغْلِقُ عنه بابَ الجدلِ ، ويستريحُ بدنُه ، وَيقِلُّ همُّه وغمُّه، وينالُ ما يُوصِلُه .

قال بعضُهم : الغربةُ بعدَ القراءةِ للعلْمِ مع السَّلامةِ نزهةٌ لأُولي الأبصار ، وتُعْلِمُ أخبارٌ ، وتُرفعُ مقدارٌ ، وهي للرجال الأخيارِ ، ولله درُّ سيدنا ومولانا ووسيلتِنا إلى ربِّنا سيدي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إذ قال[1] : [وافر]

عَجِبْتُ لِمَنْ[2] يَعِيشُ بغَيْرِ عِزٍّ ... وأرضُ الله واسعةٌ فَلاهَا
يَرَى في نَفْسِهِ قِلًّا وذُلًّا ... ولمْ يَرحَلْ إلى أَرْضٍ سِواهَا
فَذَاكَ مِنَ الرِّجَالِ قَلِيلُ حَظٍّ ... بَهِيمٌ لَيْسَ يَدري ما طَحَاهَا
إذا ضَاقَتْ بِكَ الأسبابُ يوْمًا ... فخلِّ الدَّارَ تَنْعِي مَنْ[3] بَنَاهَا
فإنَّكَ واجدٌ أرضًا بأرضٍ ... ونَفسُكَ لم تجدْ نفسًا سِواهَا
وما غلظَتْ رقابُ الأُسْدِ حتَّى ... بأَنْفُسِهَا تَولَّتْ ما عَنَاهَا
مَشَيْنَاها خُطًى[4] كُتِبَتْ علينا ... ومَنْ كُتبتْ عليهِ خُطى مَشَاهَا[5]
وأرزاقٌ لنا مُتَفَرِّقَاتٌ ... ومَنْ لَمْ تأْتِهِ منَّا أَتَاهَا
ومَنْ كَانَتْ مَنِيَّتُهُ بأرضٍ ... فَلَيْسَ يموتُ في أَرضٍ سِوَاهَا[6]

---

(١) أبيات من هذه القصيدة تنسب للشافعي ومثبتة في ديوانه ، وهي به أعلق .
(٢) في الأصل : فيمن .
(٣) في الأصل : تنع لمن .
(٤) في الأصل : مشينا في خطا .
(٥) ينسب هذا البيت للإمام الشافعي .
(٦) البيت في ديوان الشافعي .

غيره : [بسيط]

سَافِرْ تَجِدْ عِوضًا عَمَّنْ شُغِلْتَ [بِهِ] ... ولا تَكُنْ عَنْ فِرَاقِ الأَهْلِ في حُرَقِ
فَالعَنْـبَرُ الخَـامُ رَوْثٌ في مَعَـادِنِهِ ... والتِّبْرُ في أَصْـلِهِ نَـوْعٌ مِـنَ الـوَرِقِ
والكُحْلُ نَوْعٌ مِنَ الأحجـارِ مُلْقِيَـةٌ ... وَلَونُهُ أَسْـوَدٌ مُرْمَـى عـلى الطُّـرُقِ
فإنْ تَـغَـرَّبَ نالَ الفَضْلَ أَجْمَعَهُ ... وَصَارَ يَعْمَلُ بَينَ الجَـفْـنِ والحَدَقِ

غيره : [طويل]

تَغَرَّبْ عَنِ الأَوطانِ في طَلَبِ العُلا ... وَسَافِرْ فَفي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِـدِ
تَفَرُّجُ(١) هَـمٍّ واكتسـابُ مَعِيشَـةٍ ... وَعِلْمٌ وآدابٌ وصُحْبَـةُ مَاجِـدِ
فإنْ قيـلَ في الأَسْفَارِ هَـمٌّ وغُربـةٌ ... وَتَشْتِيتُ شَمْلٍ وارتكـابُ شَـدَائِدِ
فَمَوْتُ الفَـتَى خَـيْرٌ لهُ مِنْ حياتِهِ ... بدارِ هَـوَانٍ بَيْنَ واشٍ وحَـاسِـدِ

غيره : [بسيط]

مَا في المَقَـامِ لِـذي عِـزٍّ وذي أَدَبٍ ... مِنْ رَاحَةٍ فَدَعِ الأوطـانَ واغـتربِ
سَافِـرْ تجِـدْ عِوَضًـا ممَّنْ تُفَارِقُـهُ ... واتْعَبْ فإنَّ لَذِيذَ العَيْشِ في النَّصَبِ
إنِّي رَأَيْـتُ رُكُـودَ المـاءِ يُفْسِـدُهُ ... إنْ ساحَ طابَ وإنْ لمْ [يَجْرِ] لمْ يَطِبِ
فالشَّمْسُ لَوْ وَقَفَتْ في الأُفْقِ دَائمَةً ... لَمَلَّهَا النـاسُ مِنْ عُجْمٍ ومِنْ عَرَبِ
البَـدْرُ لولا اختفـاءٌ منهُ ما نَظَرَتْ ... في كُلِّ حِـينٍ لـهُ عـينٌ لمُرْتَقِبِ
والأسدُ لولا افتراقُ الغَابِ ما افترستْ ... والنبلُ لولا فِـراقُ الـوَترِ لم يُصِبِ
والتِّبْرُ كـالتِّبْنِ مُلْـقًى في مَعَـادِنِهِ ... والعُودُ في أرضِهِ نوعٌ مِـنَ الحَطَـبِ
فإنْ تـغـربَ ذاك عَـزَّ مَطْـلَبُهُ ... وإنْ تَقرَّب ذا [يُبتاع](٢) في الحطب

(١) في الأصل : تفريج وبه ينكسر الوزن مع صحة المعنى .
(٢) في الأصل : ينباع .

الأَسْدُ أَسْدٌ ولو [زالتْ][١] أناملها ... والكلبُ كلبٌ وَلَوْ صِيغَ مِنَ الذَّهَبِ
والحُـرُّ حُـرٌّ ولو غَـرَّ الزَّمانُ بـهِ ... والقنُّ قِنٌّ ولو [أعلى من][٢] الرتبِ

إلى أن قال :

أَنزِلْ خيامَكَ في أرضٍ تُعَـزُّ بـها ... و [جَانِبِ[٣]] الذُّلَّ إنَّ الذُّلَّ يُجْتَنَب

إلى آخره ذكرناه في غير هذا .

[معاشرة الأضداد]

واعلمْ أنَّ الشيوخَ - رحمهم اللهُ - نَهَوْا عن معاشرةِ الأضدادِ الذين ذكرهم أبو حامد الغزَّالي في بعضِ كُتُبِهِ ، والشَّيخُ السُّلَمي في وصيَّته ، حتَّى قال الشيخ السُّلَمي : ينبغي للمريدِ الفرارُ من الأضداد الحسدة ، ويجبُ عليه اختبارُهم ، ولا يعتقِدُ على ذلك فيهم إلَّا خيرًا . اهـ . وفي الرسالة القُشيرية عن الجُنيد ﷺ أنه قال : « إذا أراد الله بالمريد خيرًا أوقعه إلى الصوفية ، ومنعَهُ صُحبة القُرَّاء » اهـ .

وفي « لواقح الأنوار » عن الشيخ أبي علي الفضيل بن عياض أنه قال : « تباعدْ عن القرَّاء جُهْدَك ، فإنَّهم إنْ أَحَبُّوكَ وصفُوكَ بما ليسَ فيك ، وإن غضِبُوا عليك شهِدُوا عليك زورًا ، وقُبِلَ ذلك منهم » . وقال أيضًا : « سيدُ القبيلةِ منافقُها » (وهناك)[٤] ، فاحذرهُم فإنَّهم داءٌ لا دواءَ له . وقال يحيى ابنُ معاذ : « أشدُّ شيءٍ على المريدين معاشرةُ الأضداد » .

---

(١) في الأصل : قطعت ، وهو تحريف .
(٢) في الأصل : على على .
(٣) في الأصل : واجتنب ، وفي البيت إقواء .
(٤) وهناك : كلمة في غير سياقها .

وقال الإمام الغزَّالي في باب الصُّحبة من « الإحياء » : « واحذَرْ متفقهةَ العصر ، لاسيما المشتغلون بالخلاف ، والجدالِ ، فإنهم لا يقبلون عِشرةً ، ولا يَقيلون عثرةً ، ولا يَغْفرون زلةً ، ولا يَسترون عورةً ، ويُحاسبون على النَّقير والقِطْمير ، ويحسُدون على القليل والكثير ، يُنصَفُون ولا يُنصِفُون ، ويُؤَاخِذون على الخطأ والنسيان ، ولا يَعْفُون ، يُعيِّرون الإخوانَ بالنميمة والبُهتان ، فصُحبةُ أكثرِهم خُسرانٌ ، وقطيعتُهُم رُجحَان ، إنْ رَضُوا فظاهرهُم المَلَق ، وإن سَخِطوا فباطنهُم الحَنَق(١) ، لا يؤمَنُونَ في حنقهم ، ولا يُرَدُّون في ملقهم ، ظاهرهم نِيَّابٌ وباطنهم ذئاب ، يقطعون بالظنون ، ويتربَّصُون [بِعَدُوِّهِمْ](٢) ريْبَ المنون ، يَحصُون عليك العَثَرَات في صُحبتهِم، ويجهرُون بها في غضَبِهم ووَحْشَتِهم ، فلا تُعَوِّل على مَنْ تَخْبِرُه مِنهم حتَّى الخِبرَة » .

ثم قال : « واستعِذ بالله أنْ يكِلَكَ إليهم ، وإذا بَلَغَك عنهم غيبة ، أو رأيتَ منهم شرًّا ، أو أصابك منهم ما يَضُرُّك ، فكِلْ أمرَكَ إلى الله ، ولا تَشْغَل نفسَك بالمكافآت ، فيزيدُ الضَّررُ ، ويَضِيعُ العُمُر ، ولا تَشْتَغِلَ بوَعْظِ مَنْ لا ترى مَخَايِلَ القَبُولِ فيه ، فلا يَسمَعُ مِنْكَ ، ويعاديك ، وليكُنْ وَعظُكَ عَرَضًا وإرسالًا ، من غيرِ تَنْصِيصٍ على الشَّخص » ، وقال في « منهاج العَابدين » : « مالي ولقوم أنْ قالَ فقيهٌ منهم في زمانه : « حلوة » وخالفتُه وقلت : « حامضة » والله لا آمنُه أن يسعى في قطْع يَدِي عندَ أميرٍ جائرٍ ، وغيرِ ذلك كقتلي وأخذِ مالي ... إلى آخر ما ذكرَه ، فراجِعْه في موضِعِه .

(١) الحنق : الحقد وشدة الغضب ، وفي الأصل :الختق ، وهو تصحيف .
(٢) في الأصل : بصددهم .

وقال مولانا عبدُ السَّلام : « الفقيهُ المتطلِّبُ لم يخلُصْ من النَّفْسِ إلَّا بعدَ دخولِه طريقَ القوم » وقال تلميذُه سيدي عبدُ الرحمٰن بنُ علي المكِّي ، في كبيرِه عن(١) كرامات الشيخ : « هيهات هيهات أنْ نَشْتَغِلَ ، أو يضيقَ صدري من قولِ فقيه لا يفْهَمُ مذهبَ الإمامِ ولا غيرِه ، ليعْتَرِضَ عليَّ ، أو يُسيء في الأدب ؛ ليتوصَّلَ إلى غَرَضِهِ الفاسِدِ ، والله لا هُوَ منِّي ولا أنا منه » . اهـ .

[نهاية النفي بالقلعة]

نَرجع إلى ما كنَّا فيه . ثُمَّ لَمَّا أنْ أكْمَلَ الشَّيْخُ سبعَ سنين بتلك القلْعَةِ وأراد اللهُ برجوعه منها . . . وغيرها ، ونَفَعَ مَنْ أراد ضرَّه ، سلَّط اللهُ الحسدةَ على الوالي كما قيل : [الكامل]

وإذا أرادَ اللهُ نشْــرَ فَضِــيلَةٍ   طُوِيَتْ أتـاحَ لها لسَانَ حَسُـودِ
لولا اشْتِعَالُ النَّار في جَزْلِ الغَضَا   ما كانَ يُعْرَفُ حُسْنُ عَرْفِ العُودِ(٢)

فجعلوا يكلِّمُون المتولي المذكور على أنْ يُوَجِّه له من يُؤْذِيه ، ويَسبُّونه عنده بما يكرهُه ، وما زالوا به حتَّى جهَّزَ له جيشًا كبيرًا ، وقصدُوه في القلعةِ يُريدون إذايتَه ، [و] كان كبيرَ الجيش الوالي ، ومشى معه القاضي أبو محمد ، الذي هو عينُ الفتنةِ الأضدادية ، وجماعةٌ من أصحابِه ، وجدُّوا في السَّير إليه ، فلمَّا وصلوا واديًا هناكَ يُقال له : وادي ساسو ، باتوا به ، جاء الشيخُ للوالي فلم يشعُر حتَّى دخل خيمتَهُ وسط اللَّيل ، فملأ اللهُ قلبَه رُعبًا وذُلًّا ، فقال له : أنت حمار ، ثم أخذهُ وأخرجه مِنَ الخيمة ، وجعل على ظهره

---

(١) في الأصل : على .
(٢) في الأصل : البيت الأول : (أباح) والبيت الثاني مخالف للرواية المشهورة التي تقول :
لولا اشتعـال النـار في ما حــولها   ما كان يُعرف طيب عرف العود

بَرْدَعَة حمار ، وركِبَ ظهره ، وجعل يطوف بالجيش راكبًا عليه ، ينخسُه ويسوقُه كالحمار ، إلى أن أصْبَحَ الصباحُ ، فغابَ الشيخُ عنه وترك البردعةَ على ظهره ، فنزَعَها مِنْ على ظهره ، وأخبر بذلك القاضي أبا محمد المذكور ، فقال : هذه شعبذةٌ صنعها لك عبدُ السَّلام في ليلة البارحة ، وأنت ظننتَ أنها كرامةٌ ، لا والله ما هي كرامة ، شعبذة .

وقد رحل الجيشُ بإذن الوالي والقاضي وتوجَّهوا لناحية القلعة ، فعارضَهُ من طيرِ الخطَّاف ما ملأ الأُفُقَ ، حتَّى لم يستطيعوا [أن] يروا أيْنَ يذهبون ، إذا التفتَ الواحدُ منهم لناحيةِ الجَيْشِ أبْصَرَهُم ولم يُبْصِرْ شيئًا ، مِنْ كَثْرةِ ذلك الطيرِ في الأُفُقِ ، فتحَيَّر الوالي في أمرِهِ مما رأى ، وقال للقاضي على قِصَّة هذا الطير وكثْرتِه في ناحيةٍ دون ناحية ، فقال : يا والي ، تعوَّذْ بالله مما رأيتَ ، فإنَّ ذلك شعبذةٌ لا كرامة ، وأمر الجيشَ بالقدوم إلى الناحية التي بها الشيخ ، فبينما هو يحرِّضُهُمْ غامت السماءُ عليهم غيمًا شديدًا وسوادًا هائلًا ، يرمي دُخَّانًا حارًا ، حتَّى غشَّاهم .

فلمَّا رأوا ذلك وأيقنوا بالهلاك ، وعَلِمُوا أنَّ ذلك من بركات الشَّيخِ ندهُوه بعد الاستتابةِ والتَّضرُّعِ إلى الله سبحانه ، فأزال عنهُم[1] ذلك الغيْمَ الحارَ ، فرجع الوالي مِنْ مكانه هو والجيش الذي معهم إلى مدينتِه ، ورَضِيَ إلى مقامه العالي ، وأمر بحضورِ الحسَدة وآذاهم ، وبعثَ - بإذن الله - إلى الشيخ يأمُره بالمجيء إلى البلاد ، ويختارُ فيها ما يوافقه للسُّكْنى من طرابلس وسائرِ قراها .

فجاء هو ومَنْ معه من أصحابه ، فلمَّا قرُب من تاورْغَة جاءته أطيارٌ صغارٌ خُضْر على قدر العصافير من الجوف ، وجعلت تتوارد عليه ، وتكرر التوارد حتَّى تعجب من معه من ذلك ، ثم سأله عنها من معه بعدما دخل

(١) في الأصل : منهم .

البلد ، فقال له : هذه الأطيار الصغار التي كانت تتوارد علينا هي أرواح الأولياء ، يتبركون بقدومنا إلى البلد ، ودخل الشيخ حين ذلك تاورغة يريد المكثَ بها ، لِمَا يحبُّونه أهلُها ويعظِّمُونه[1] ، فلمَّا حلَّ بها تلقَّوه بالترحيب والإكرام ، وأقام بها مدة في أرغد عيش ، بدار سيدي الصادقي ، وصحبه فيها أُناسٌ كثيرون ، وكنت أسمعه غير مرة يقول :

أُطْـــلُبْ مِـــنَ الله الرحمٰنْ ... بأنْ لا يُطفي من تاورغة الدُّخانْ

... إلخ .

فلمَّا أرادَ أنْ يبني بها دارًا للسُّكنى نُودِيَ في سِرِّه : يا عبدُ السَّلام انتقلْ من هذه البلدة التي هي تاورغة ، واسْكُنْ غيرها ، فإنَّ لكِ في الانتقال منها شأنًا عظيمًا ، فارتحلَ منها ودخل مَصْراتة يُريدُ سُكناها ، ففرِحَ به أهلُها ، وبنزولِه إياها ، وأكرموه ، وأقام بها مدة بدار سيدي علي أبي دبوس ، بموضعٍ هناك يسمى: بَيْدَر، وأَتْبَعَهُ فيها خلقٌ كثيرٌ أزيدُ من ثمانمائة ، وأُعطِيَ له فيها قطعةٌ من الأرض ليبني بها ما يستقرُّ فيه ، فلمَّا تسبَّبَ في التَّأْسِيسِ بمَصْراته انتقل منها عاجِلًا وأُسْكِنِ غيرَها (فراغ) بأنَّ الله - تعالى - يأمُرك بالخروج منها في هذه الساعة ، لئلا يقع القتالُ بين ذريتِكَ وبين ذريةِ أولادِ التُّرك في آخر الزمان .

فخرَجَ من مَصْراته وأتىٰ إلى يزليتن ، وأقام بهَا بقريةِ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ الفواتير مدَّةً ، فلمَّا تسبَّبَ في بناء زاويةٍ بِأَرْضِهم بعد رضائهم عليه وفَرَحِهم [به][2] ناداه هاتفٌ من هواتف الحقِّ : يا عابدَ السَّلام انتَقِلْ من أرض الفواتير ، وَاتْرُكْ البناءَ والتأسيسَ بها ؛ لأنهم أهلُ بلاءٍ وبركاتُهم كثيرةٌ ،

(١) يريد : لحب أهلها له ، ومعظمهم إياه .

(٢) في الأصل : لديه .

وأنت كذلك ، إمَّا تضرُّهم أنت، أو يضرُّونك، إذْ لا ينزِلُ البلاءُ على البلاءِ ، فإن نزلَ البلاءُ على البلاء فصاحب البلاء الأكثر يضرُّ صاحبَ الأقلِّ ، ولا يكونُ نزولُك وتوطُّنك إلَّا بين أظهُرِ البراهمةِ وأولاد غيثٍ .

فقال : يا ربِّ أرِحْني من أولاد غيثٍ ، ومن القُرْبِ منهم ؛ لأنهم أناسُ سوءٍ(١) ، وفي ما سلف تسبَّبوا في إذايتي وطردوني من يزليتن المرة بعد المرة ، ففي البُعد عنهم راحة لي ، فنُودي في سِرِّه ثانيًا : يا عبدَ السَّلام ، [لن](٢) تنزلَ بأرضٍ غيرِ أرضهم ، و[لن] يقفَ لك ساسٌ ولا زاويةٌ إلَّا بالقربِ منهم ، ولو ظلموك أشدَّ الظُّلْم ، وتَعدَّوْا عليك ، ففي تعدِّيهم عليك خيرٌ لك ، وزيادةُ حجَّةٍ عليهم ، فإنْ أحبُّوك أحبَبْتَهُم ، وإنْ أبغضُوك أبْغَضْتَهم ، فارتَحِلْ من أرضِ الفواتير، وانْزِلْ على القبيلتين، وهما البراهمةُ وأولادُ غيث.

أما البراهمةُ [فقد] فرِحُوا بنزوله ، وعظَّموه ، وتصدَّقوا عليه ما أَسَّسَ فيه الزاويةَ وغيرَها ، وأمَّا أولادُ غيثٍ كَرِهُوا نُزُولَه ، ووقَعَ لهُ منهم من الظُّلمِ والإساءةِ أوَّلًا وآخرًا ما اللهُ به عليم ، ولو عَلِموا ما سَيَقَعُ لهم من الخيرِ والرَّحمة والفَضْلِ منه لأَحَبُّوه ، وعظَّمُوه ، وأنزلوه في أحْسَنِ منازلهم ، لكِنْ حرمهم الله من بركاته ، ولله درُّ القائل في هذا المعنى إذ قال [بسيط] :

لوْ تعلمُ الدارُ مَنْ قَدْ زَارَهَا فَرِحَتْ ... واسْتَبْشَرَتْ ثُمَّ بَاسَتْ مَوْضِعَ القَدَمِ
وانْطَقَتْ بلسانِ الحالِ قائلةً ... أهلًا وسهلًا بأهلِ الجودِ والكَرَمِ

---

(١) إن أغلب ما جاء في هذه الحكايات هو من الروايات غير الموثقة ، وهناك أسباب كثيرة للمساس ببعض الناس وادعاء أن الشيخ دعا عليهم أو ذمهم ، ويتأكد الشك حين يتعلق الأمر بوحي من السماء للشيخ بفعل أو ترك ، كما يتأكد بالرجوع إلى الرسائل الصحيحة النسبة إلى الشيخ والتي تدل على سماحته وعفوه عمن ظلمه .

(٢) في الأصل : لم ، وكذلك في قوله بعدها « ولم يقف » .

ثم نصَرَهُ اللهُ على أولاد غيث وسَكَنَ بلادَه يزليتن ، ونارَتْ به ، وأسَّس بها زاويةً ، وكثُر فيها ذكرُ الله ، وتلاوةُ كتابِ الله ، ونفعَ به خلائقَ لا يُحصَون ، وقَصَم به جبابرةً لا يُحصون ، وفيها بَلَغ القُطبانية العظمى التي هي درجة الغواثة ، ولذلك يشير في بعض مُقطَّعاته متحدِّثًا بالنِّعمة كقوله :

أنـا الغـوثُ القُطـبُ السـلطانْ ... وليٌّ ومشـهورُ وظـاهرْ
أنـا أولاني الـفـردُ الرحمٰـنْ ... عَـنْ كُـلِّ بَـادِي وحـاضرْ
شمسي تبدّتْ وضَوَّتْ الأكـوانْ ... والرَّبْ عطَـاني وقـادرْ
بالمـددْ والبَركـة مَلْيَـانْ ... والسّـرْ عَنْـدي تكـاثرْ
جَتْنِي الكُهُـول وجَتْنِي الشُّبَّانْ ... وجَتْـني الرْجَـال الحـرايرْ
من الشرق لأقصى الغرب الجوانْ ... إلى بـلَادِ الجزايـرْ
يحطُّوا الرواحْـلْ عندي حطانْ ... بخيـولهم والبـعايرْ
ينـالوا الصَّـلَاحْ وسَرّ وعـرفانْ ... تفُـوحْ علـيهم سَـرَايرْ
أنـا الـولي المشـهورْ الشـانْ ... مـن الشـيوخْ الأكـابرْ
نَبْرِي العليـلْ وَنَكْسِـي العَـرْيانْ ... عـارفْ وطبيبْ ومـاهـرْ
عنـدي عُـلُوْم الخضرْ ولقمانْ ... وأنـا محـلْ الأشـايرْ
في وقْـت نُـومِي ريـت الـرحمٰنْ ... وجـبريل بحـذاي حـاضـرْ
ويقول لي أنت الغـوث السلطانْ ... حـاكم وخبـير وشـاهرْ
زوروا ضريحي بعـد أن نـدفانْ ... فإنـني حـيٌّ وحـاضـرْ
لو حضـرت الحـلاج أفـلانْ ... نحـميه ويعـود شـاكرْ
نـذكر الله بخفـاء وأعـلانْ ... وأوقـات بالجمـع جـاهرْ
ولي دفْ تـذكرْ معـه البنـانْ ... مـزنـجْ ذو صـرايـرْ

إلى آخر ما قال .

وفي كبير سيدي عبد الرحمٰن المكّي - رحمه الله - سُئل شيخُنا - الذي هو مولانا عبد السَّلام - عن[1] معاني ما تقدَّم من هذه المُقَطَّعة ، فقال : قولي « أنا القُطب أنا الغوث » ... إلخ . أريد بذلك التحدُّثَ بالنِّعمة التي مَنَّ اللهُ عليَّ بها ، وقد أُمرتُ أن أقولَ للنَّاسِ بإظهارٍ وصوتٍ عالٍ نثرًا ونظمًا ، أيا أهلَ المشارق والمغارب، والقِبْلة والجوف، هَلُمُّوا إليَّ برواحلِكم، وصغيرِكُم وكبيرِكم، وعبيدِكم وأحراركم، وأصمِّكم وبصيرِكم، وانقُلوا عنِّي الأسرارَ الإلهيَّة التي أورثتُهَا من رسولِ الله ﷺ ، بواسطةِ أستاذِي الدوكالي ﷺ ، فإنِّي الآنَ قدْ بَلَغْتُ القُطبانية العظمى التي هي درجة الغواثية ، قد أُعطِيَتْ إليَّ أربعين عامًا .

وإنِّي الآن إمامُ وقتكم ، فاعلموا بما أقولُ لكمُ ، ولم يكُنْ أَحَدٌ أَعْلَى مني درجةً في هذا الوقت ، إلَّا مَنْ ثَبَتَتْ عِصْمتهُ ، وإني الآن محلُّ البركات والآيات والكرامات ، وذلك بأدلةٍ على نسبي ، منها : قبولُ دعائي عند الله أسرعَ من لَـمْحِ البصر ، ومنها أني أعرفُ بِأَزِقَّـةِ السَّماء كما نعرف[2] بأزقة طرابلس ، ومنها إنِّي أرفعُ قدمي فأرى الأرضَ كلَّها لي خُطوةٌ واحدةٌ ، ومنها إنِّي إذا استقْبَلْتُ للصلاة أَنْظُر إلى الكعبةِ عيانًا ، ومنها إنِّي إذا نظرتُ إلى الأرض فأرى الأرض السابعة السفلى ، ومنها إني إذا أشرتُ على المطرِ أن تصُبَّ فتصُبَّ بإذن الله ، أو أن تُمْسِكَ فتُمسكُ ، ومنها أني نأمرُ على الريح أن يسْكنَ فيسكُنُ لوقته ، ومنها أني إذا خرجْتُ للصَّحراء تألفُني الطيورُ ، والسِّبَاعُ ، والحيَّاتُ ، والهوامُّ ، كُلُّ ذلك بأمرِ الله - تعالى - . ومنها أنِّي إذا

(١) في الأصل : على .

(٢) نعرف : كذا ، وهو أسلوب عامي لا يريد منه تعظيم نفسه ولا ذكر أحد معه كما يبدو من السياق ، وذلك من علامات انتحاله ، ؟؟؟! للشيخ موضع شك ، وروايته عن عبد الرحمٰن المكي علامة أخرى .

وضَعْتُ يدي على الأبرصِ أو الأجذم بَرِئَ بإذن الله تعالى ، ومنها إذا تَفَلْتُ على الحيَّات والعقارب تموتُ عاجلًا بإذن الله تعالى ، وإنِّي الآن مأمورٌ برتبةِ المريدين ، وبالطبِّ القريبِ لنُبرِئ بِهِ الأسقامَ والعِلَلَ التي حار فيها الأطباءُ والحكماءُ ، ومنها مَنْ أخذَ من الترابِ الذي نُدفنُ فيه ورَفَعه عليه ، كان محفوظًا من جميع الأهوال ، ومَنْ وَضَعه معه في قبرِه كان له ما علينا ، وكان رفيقي في الجنَّة » اهـ[1]، ومنها إجابةُ الدعوى في أسرعِ من لَمحة البصر ، وإنِّي والله لا يَزالُ عليَّ المددُ حتَّى يتكاثَرَ لي ، حتَّى أَرَى سَريانَه في الماء والهواء ، وفي الطائر ، وفي كل مَنْ يُحبُّني ويزورني بِنيَّةٍ مُخلِصةٍ ، وصِدْق تام ، وأني الآن أَظهرُ في الله ﷻ على جميع الكائنات ، وعددِ الرمال ، واسمِ كلِّ ذرة ، والنباتِ ، وأسمائهِ وأعمارِه ، والحيوانات وأعمارِها ، وأنسابِها إلى أصولِها ، من السمك ، والوحوش ، والحشرات ، وسائرِ الدواب ، وكشف لي عن ملكوت السموات والأرض والجنة والنار ، وما فيهن ، ظاهرًا أو باطنًا ، وأَنزلَ الله المطر بدعائي ، وأَحيا الموتى على يدي ، وأَجرى على يديَّ جميعَ ما كرَّمَ اللهُ به عبادَه المؤمنين ، والصالحين ، وأني ما أموتُ ، ولا أغيبُ عنكُم ، وإنما موتي انتقالُ جسمي من دارِ الدُّنيا إلى دارِ الآخرة ، وأنِّي نتصرفُ[2] بعد الموت أكثرَ من تصرفي في الحياة ، ولا قلتُ ذلك إلَّا بإذنٍ من الله ورسوله ، وإني أُلهِمْتُ من أسوار الأسماء ما لا يُحصى ، ولا يُقيَّد ، وإني

---

(١) وضع ما يتعلق بالتراب في الحاشية نقلا عن النسخة التي أخذ منها، وكتب عبارة « انتهى من الأصل ».

(٢) وإني نتصرف : هكذا بأسلوب لا يليق بالشيخ الأسمر ولا يتفق مع أساس عقيدته ، وقد تركت العبارة على حالها الذي لا يحتمل التعظيم ولا المشاركة لتدل على أنها وأمثالها من الحكايات المنسوبة إلى الشيخ ، أما ما نسب إليه من قوله : « أنا ما أموت ولا أغيب عليكم » فهو مردود بقوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر ٣٠) . فمن كان يؤمن بمحمد ورب محمد يرد تلك المقولة مهما كان مصدرها ، وحاشا للشيخ الجليل أن ينكر هذه الآية القطعية .

قد انقدحَتْ في قلبي علومٌ لا نَفَادَ لها(١) ، فلو أنَّ الجنَّ والإنْسَ يكتبُونَ عنِّي لكَلُّوا وملُّوا .

قلت : اعْلَم يرحمُك الله ، أيُّها الأخ ، أنَّ العِلْمَ اللَّدُنِّي هو علمٌ انقدحَ من قلوبِ الأولياءِ حين استنارَتْ بالعملِ والسُّنَّةِ ، فكُلُّ مَنْ عَمِلَ بهما - أي الكتاب والسُّنَّة - انقدَحَ له من ذلك علومٌ وآدابٌ ، وأسرارٌ وحقائقُ، يعجزُ الإنسانُ عنها ، نظيرَ ما انقدَحَ لعلماءِ الشَّريعَة من الأحكام ، حين عَمِلوا بما عَلِمُوا ، الخبر : « مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ » .

واعلم أنَّ حقائقَ العلومِ الدينية التي يقْذِفُها الحقُّ تعالى في أسرار العارفين عند براءتِهم من الدَّعْوى ، وتَحوزُهُم من رَقِّ الأشياء ، وتُعرِّضُهم باللجوء والافتقار لِمَا يَفْتَحُ عليهم المولى ، يُكْرِمُهم الحق - تعالى - بها تحقيقًا لِوَعْدِه لهم ، مِنْ غيرِ تعليمٍ ولا دراسةٍ ، وعِنْدَ ورُودِهَا عليهم وتجلِّيها لهم ، لا تتبينُ لهم معانيها ، ولا يدركون جِهَةَ حقيقَتِها ، فإذا وَعَوْهَا ، وتصرَّفَتْ فيها أذهانُهم ، بالاعتبار والتأمل ، تبيَّنَ لَهُمْ معناها ، وظهرَتْ لهم موافقتُها لِمَا في أيديهم من العلوم العقلية والنقلية ، من غير مخالفة ، حتَّى إنَّ بعضَهم ربما يجري على لسانِه وجَنَانِه كلامٌ كثير ، من غير أن يُلقِيَ له بالًا ، فإذا فرغ من ذِكْره أو رَسْمِه يتصفَّحُه ويتأمله ، فيجِدهُ صحيحًا . وقد أخبرني بذلك مَنْ له قَدمُ صِدْقٍ في هذه الطريق عن نفسه .

قال الإمامُ أبو القاسم القشيري ﷺ : « وأصحابُ الحقائق يجري حُكْمُ التصرُّفِ عليهم بشيء لا عِلْمَ لهم بِهِ على التفصيل ، وبعد ذلك يُكْشَفُ لهم

(١) يعارض هذا أن العلوم التي بدت للشيخ رحمه الله في رسائله هي علوم مع أهميتها محدودة بمذهب فقهي معين هو المذهب المالكي غالبًا ، وبالاعتقاد الأشعري ، والعلوم المعروفة في عصره ، فليست بهذه الكثرة التي تعبر عنها عبارة لا نفاد لها ، وغيرها من المبالغات .

وَجهُه ، فربما يجري على لسانهم شيءٌ لا يَدْرُون وجْهَه ، ثم بعدَ فراغِهم عن النُّطْقِ بِهِ يَظْهَرُ لقلوبهم بُرهان ما قالوا من شواهِدِ العِلْمِ ، إذْ تحقيقُ ذلك بجريانِ الحالِ في ثاني الوقت» انتهى كلامُ أبي القاسم القشيري، وهو موافقٌ لِمَا ذكرَهُ ابنُ عطاءِ الله في « الحكم » وغيرها ، وقد عبَّر العلماءُ عن ذلك بعبارات كثيرة ، ذكرناها في الكبير، فقد سُئل عبدُ الله بنُ طاهر الأبهري ، عن الحقيقة، فقال: «الحقيقةُ كُلُّها عِلْمٌ، فسُئل عن العِلْمِ فقال: العلمُ كلُّه حقيقة».

وقال الشِّبْلي : « الألسنُ ثلاثة : لسانُ علم، ولسانُ حقيقةِ ، ولسانُ حقٍّ ، فلسانُ العلمِ ما يأتي إلينا بالوسائط ، ولسانُ الحقيقة ما أَوْصَلَ اللهُ إلى الأسرار بلا واسطة ، ولسانُ الحق ليس إليه طريق » ، قال زويْر : « أصحُّ الحقائقِ ما قارنَ العلمَ » ، وقال أبو بكر الزقَّاق : « كنتُ في تيْهِ بني إسرائيل ، فوقَعَ في قلبي أنَّ علم الحقيقة بخلافِ علمِ الشَّرِيعَة ، فإذا شَخصٌ تحت شجرةِ أمِّ غيثان صَاحَ بِي ، وقال : يا أبا بكر ، كلُّ حقيقةٍ تخالفُ الشَّرِيعَة فهي كُفْر » ، وإشارةُ ابنِ عطاءِ الله بالآية التي ذكرَها في حُكْمِه إلى هذا المعنى بيِّنة ، وذلك عند قوله : « الحقائقُ تَرِدُ في حال التَّخَلِّي مجملةً وبعد الوَعْي يكونُ البيانُ » ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة ١٨-١٩) .

وقال سيدي فتح الله أبو راس قدَّس اللهُ روحه : « الشَّرِيعَةُ عبارةٌ عن القوانين المأخوذةِ من الكتاب والسُّنَّة وما يرجِعُ إليهما ، والحقيقةُ عبارةٌ عن اتِّباعُ أقوالِه وأفعالِه ، والتَّخلُّقُ بأحواله ﷺ ، واقتفاءُ السَّلَفِ الصالِح في ما لَمْ يَرِدْ عنه – عليه الصَّلاة والسَّلام – فيه ، إذا تأمَّلتَ الجميعَ وجدتَها موصلةً للحقِّ بطريق واحدة » اهـ .

قال الجُنيد – رحمه الله آمين ورضي عنه – : « عِلمُنا هذا مُشيَّدٌ بالكتاب

والسُّنَّة ، ردًا على مَنْ تَوهَّم خروجَه عنهما في ذلك الزَّمانِ أو غيرِه ، وقدْ أَجْمَعَ القومُ على أنَّهُ لا يَصِحُّ في التَّصَدُّرِ في طريقِ الله ﷻ إلَّا مَنْ تبحَّر في علم الشَّرِيعَة ، وعَلِمَ منطوقَها ومفهومَها ، وخاصَّها وعامَّها ، وناسِخَها ومنسوخها ، وتبحَّرَ في لغة العرب ، حتَّى عَرَفَ مجازاتِها واستعاراتِها ، وغيرِ ذلك ، فكلُّ صوفيٍّ فقيهٌ ولا عكس »[1] .

قال الشيخ سيدي مكين الدين – رحمه الله ونفع به – : « اعْلَمْ – وفَّقنا الله وإياك – ، أنَّ الرجلَ لا يكمُلُ في مقام العِلْم ، حتَّى يكونَ علمُه من الله ﷻ بلا واسطةٍ ، مِنْ نَقْل أوْ شَيخ ، فإنَّ مَنْ كان علمُه مستفادًا مِنْ نَقْل أو شيخ ، فما بَرِحَ عن الأخذِ من المُحدَثات، وذلك معلولٌ عند أهل الله ﷻ » ، وكان الشيخُ أبو يزيد البسطامي ﷺ ، يقول لعلماء عصره : أخذتُم علمَكم من علماءِ الرُّسوم ميتًا عن ميِّت ، ونحنُ أخذنا عِلمَنا من الحي القيوم الذي لا يموت ، اهـ .

ثم قال الشيخ –رحمه الله–: وقَوْلي: عندي علومُ الخضر ولُقمان... إلخ، أي هَلُمُّوا إليَّ أيها المريدون الصادقون ، وانْقُلُوا عنِّي العلومَ الموهُوبةَ الدينيةَ التي هي مثلُ العلومِ التي كانت عندَ سيدِّنا أحمدَ الخضر عليه السلام[2] ، الذي قال

---

(١) إذا أردت أن تقارن بين التصوف الشرعي في العصور الإسلامية الأولى فقارن بين هذا الكلام الجيد للجُنيد ، وبين الكلام غير المعقول بعده ، والذي لا يعترف بأن العلم بالتعلم .وفيه كفاية .

(٢) الخضر عليه السلام الذي علق عليه المتأخرون الكثير من الروايات ، هو الرجل الصالح الذي ذكره القرآن الكريم في سورة الكهف ، وقد خصه الله بمعارف لم يذكرها لسيدنا موسى عليه السلام ، ووجهه إلى الأخذ منه ، كما خص آدم بكلمات لم يعرِّفها للملائكة ووجههم لسماعها منه : ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾ (البقرة ٣٣) ، فالفضل لله في هذا وذلك ، والعلم علم الله وليس علم الخضر ولا علم آدم عليهما السلام، فلماذا تعلق المتأخرون من المتصوفة بالخضر ولم يتعلقوا بآدم؟ (لمعرفة المزيد عن الاحتجاج بقصة موسى عليه السلام مع الخضر انظر كتاب الغلو في الدين للدكتور الصادق الغرياني ط١ ص ٦٥) .

لسيدنا موسى[1] : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (الكهف ٦٦) وكذلك عندي الحكمةُ المكتَسَبةُ ، مثل الحكمة التي كانت عند سيدِنا لقمان الحكيم – رضوان الله تعالى عليه – التي اختارها عن النبوءة ، حين أن تَلْمَذَ لألفيْ نبي ، وإنِّي عندي الحكمةُ التي نصَّ عليها رسول الله ﷺ : « لا تُؤتُوا الحكمة لغير أهلِها فتظْلِموها ولا تمنعوها أهلَها فتظلموهم »[2] ، وإنِّي رأيتُ في المنام كأني بين يدي الله بلا مكان ، وجبريل حاضر ، والله ﷻ يقول : « يا عَابدَ السَّلام – بمدِّ العين – فأنت ذو القُطب الغوثِ ثلاثًا »[3] . فقلت : أنا عبد السَّلام ، أنا عبدُ الله ، وقد رأيتُ ربِّي في المنامِ أكثرَ من ألفي مرة ، ولقَّنني أذكارًا لا تُحصى، منها : يا الله يا حي يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلَّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ولقَّنني غير هذا أذكارًا كثيرةً، ذكرتُها في كتابي هذا المسمَّى بكتاب « العَظمَة في التحدُّثِ بالنِّعمة » .

وإني لو كنتُ حاضرًا بزمان الحلَّاج – الذي هو حسين بن منصور – حين أَنْ عَثَر ، لأخذتُ بيده ؛ لأنَّ أهلَ زمانِه ظلموه ، ولم يخافوا اللهَ فيه ، وإني لو كنتُ معه حين مُصيبتِه ، نَعرفُ كيف نأخذُ بيده ، وإنِّي لأذكرُ اللهَ سِرًّا ، وتارةً أذكرُهُ جَهْرًا ، وتارةً أذكرُهُ جَمْعًا مع الفقراءِ على لسانٍ واحدٍ ؛ لأنَّ المُسِرَّ قَدْ يَمَلُّ فيأْنَسُ بالجهر ، والجاهِرُ قَدْ يَكَلُّ فيأْنَسُ بالإسرَار ، وتارةً يكلُّ منهما فيأْنَسُ بالذكر في الجماعةِ مع الإخوانِ ، وذلك على اختلافِ أحوالي، وإنَّ لي دُفًّا حين يضرِبُ لا أَسْمَعُ منه إلَّا ذِكرَ الله ، ولا أسمعُ ما فيه

---

(١) كذا ، وصوابه : قال له سيدنا موسى .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) قد تستغرب أن ينسب هذا النص الضعيف إلى الله، الذي يبدو أنَّه مفترى على الشيخ عبدالسَّلام الأسمر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

لهو ، وإنِّي أسمعُ عند ضَربِهِ بناني تَذْكُر معه ، يعني كل أُنملة مِنْ أناملِ أصبعِ يدِي تقول : الله الله .

وكنتُ قبل أن يحدثَ في هذا الوارِدِ لَمْ أَتعمَّدْ سَماعَ الدُّفِّ ، ولا غيرِه ، ولا أعرفُ إلَّا الكتاب والسُّنَّة ، فلمَّا أن أراد اللهُ بنزولِ هذا الوارد ، وكان قبلَ مفارقتي لأستاذي بنحوِ شهرين ، حِرتُ في أمري منه ، وقد اشتدَّ بي ، حتَّى (لا استكفيت)(١) بما يصدُرُ منِّي مِنْ الذِّكر ، ولا ما نَسْمَعُهُ مِنَ الأُمِّيين، (...) أن أستعملَ الدُّفَّ لأستريح بسماعِه من ذلك ، بينما أنا أتردَّد في استعماله ، وإذا بقائلٍ يقول : يا عابدَ السَّلام إنْ كنتَ المريدَ الصادقَ ، وبالشَّريعَة والطريقة واثقًا ، فَارْضَ بما أنزلتُه بك من الوارِد القويِّ ، فقُلتُ : رضيتُ يا رَبِّي بما يأتي منك في السرِّ والعلانية ، من محمودٍ وغيرِه .

ثُمَّ وجَّهتُ وجهي إلى السماء ، وَجَعَلْتُ أَقُول - بعد البسملة والصَّلاة على النبي ﷺ - : يا الله ، يا الله ، يا الله يا حيُّ ، يا قيُّومُ ، يا بديعَ السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا قريبُ يا مجيبُ ، يا أرحمَ الراحمين ، يا هادِيَ المضلِّين ، ويا ناصرَ الناصرين ، ويا رازِقَ الرازقين ، ويا مُغِيثَ المستغيثين، ويا راحمَ المساكين، ويا مقيلَ عثرةِ العاثرين، ويا ملاذَ الخائفين، ويا صريخَ المستصرخين ، ويا غيَّاثَ الملهوفين ، ويا مجيبَ دعوةِ المضطرِّين ، ويا جابرَ قلوبِ المنكسرين ، ويا مُنزلُ ويا منشئُ ، أسألك يا ربَّ العالمين بحق ما حَمَل كرسيُّك من عظمتِك وقدرتِك وجلالِك ، وبهائِك وكمالِك وسلطانِك ، وبحقِّك المخزونِ المكنونِ الذي سَمَّيْتَ به نفسَك ، وأنزلتَهُ في كتابِك واستأْثَرْتَ به في علمِ الغيبِ عندكَ ، وأسألُك باسمِك العظيم الذي إذا دُعيتَ به أجبْتَ ، وإذا سُئلتَ به أعطيْتَ ، وبجاهِ سيدِنا محمد ﷺ سيد

(١) يريد لم استكف .

المرسلين ، وآله وصحبه أجمعين ، حاءِ الرحمة ، وميمِ المُلْك ، ودالِ الدوام ، الفاتِح الخاتِم سيدِ ولدِ آدم ، وبجميعِ أنبيائك ورسلِك ، وبملائكتِك المقرَّبين ، والصلحاءِ المخلصِين ، وأهلِ طاعتِك أجمعين ، أَجْزِلْ ثوابَ مولانا وأستاذِنا عبدِ الواحدِ بنِ محمَّد الدوكالي ، وكُلِّ العلماءِ المُتَّبِعِين ، وارْزُقْهم ثوابَ الصابرين، واجعلْهم من عبادِك الصالحين ، الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، وانصُرْ العلماءَ الحبيين المنصفِين ، واحْفظْهُم من كيدِ الحاسدين ، كما حفِظْتَ أنبياءَك وأصفياءَك، وأولياءَك . إنك أنت اللهُ الواحدُ الأحد، الفردُ الصَّمدُ، الذي لم يَلِد ولم يولد، ولم يكنْ له كفوًا أحد .

اللهم إني أُشهدُك وأُشهدُ رسولَك، وأبا بكر ، وعُمر ، وعثمان ، وعليًّا، وبقيَّةَ الصحابة أجمعين والتابعين وتابعِ التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وأَشْهَدُ أن لا إله إلَّا أنت وحدك ، لا شريك لك ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُك ورسولُك ، خاتمُ الأنبياء وإمامُهم ، وأشهدُ أنَّ كلَّ ما جاء به حقٌّ ، مِن أمرٍ ونَهْيٍ ، وخبرٍ عمَّا كان وما هو كائن ، فهو صِدْقٌ ولا كَذِبَ فيه ، ولا امتراء .

وإني مقرٌّ لك يا إلهي بخيانتي ، ومَعْصِيتي ، في الخَطْرةِ والفِكْرةِ ، والإرادةِ والفَعلَة والعَملَة ، وما استأثرْتَ به عَنِّي ، مما إذا شِئْتَ أخذْتَ بِهِ ، وإذا شِئْتَ عَفَوْتَ مما هو مُقتضَى للكُفْر أو النِّفاقِ أو البِدْعَة أو الضَّلالة أو المعصيةِ أو سُوءِ الأدبِ معك ، أو مع رسولِك وأنبيائِك وأوليائِك من الملائكةِ والإنس والجن ، وما خصَصْتَ بِهِ بين خَلْقِك ، فقدْ ظلمْتُ نفسي بجميعِ ذلكَ ، فامننْ عليَّ بالذي مننتَ به على أوليائِك ، فإنَّك أنْتَ الحليمُ العظيمُ ، الغفورُ والرحيمُ ، العزيزُ الحكيمُ ، الجوادُ الكريمُ ، فعجِّل لي يا ربِّ بما يكونُ فيه دواءُ حالي ، ووَارِدِي الذي أنزلْتَه بي ، إنكَ أنت القادرُ العليُّ الكبيرُ ، الأوَّلُ الآخرُ ، الظاهرُ الباطنُ ، القابضُ الباسطُ ، الحَكَمُ

العدْلُ ، القهّارُ الغفارُ ، الحميدُ المجيبُ ، الودودُ ، الشهيدُ ، الشديدُ ، الملِكُ، القدُّوسُ، السَّلامُ، المؤمنُ ، المهيمنُ ، القويُّ ، المتينُ ، المانعُ ، الجليلُ ، المبينُ، الجبارُ ، المتكبرُ ، الخالقُ ، البارئُ ، المصوِّرُ ، الحنَّانُ ، المنَّانُ ، المستعانُ ، الرحْمنُ ، الرحيمُ ، ارْحَمْني برحمةٍ مِنْـكَ ، وأَنْقِذْنِي مِنْ الجهْلِ ، فأَنْتَ اللهُ الحيُّ القيُّومُ ، لا إله إلَّا أَنْتَ سُبحانكَ ، إنِّي كُنْتُ مِنَ الظـالمين ، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة ٢) ، لا إله إلَّا الله هــو الحيُّ القيُّــومُ ، ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (الأعــراف ١-٢) ، ﴿ الٓمٓر ﴾ (الــرعــد ١) ، ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ (مــريم ١) ، ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾ (الشــورى ١-٢) ، ﴿ طسٓمٓ ﴾ (الشعراء ١) ، ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ (ص ١) ، ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ (ق ١) ، ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ (يس ٥٨) ، ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران ٢٦) ، فما تُميتُ هذا الدعاء إلَّا وإذا بِدُفٍّ مُزَنَّجٍ ذِي صَرَاصِر نَزَلَ عَلَيَّ من الهواء ، فأخذتُه وجعلْتُ أضرِبُهُ إذا اشتدَّتْ بِيَ الحالُ ، وَقَوِيَ بَيْنُ الوَجْدِ ، والله أعلم(١) .

[ما جاء في الدُّفِّ والسَّماع]

قلت أما الذي من جهة الشرعِ فحُكْمه الإباحةُ ، أي في جَعْلِه وسماعِه عِنْد حُضورِ الوليمةِ ، قال الشيخُ خليل: « مخرجًا من الكراهة كالغِرْبَال... » فظاهرُ كلامِ الشيخ خليل موافقٌ لإطْلَاق المتقدِّمين ، ولو كان فيه جلاجلُ وصراصرُ ، - كما في بعض شراحه - ، وأما الكَبَرَ وهو : الطبل ، ففيه ثلاثةُ أقوالٍ ، أشار إليها الشيخُ خليل في المختصر ، إلى أن قال : « ثالثُها يجوز في الكَبَرِ » ، وظاهرُ كلامِ الشيخ خليل وغيرِه المنعُ ، في غيرِ العُرْس ، - كما

(١) يجد المقارن بين هذا القسم الأخير من النص ورسائل الشيخ الأسمر مدى الفرق بين أسلوب الشيخ وهذا النص المنسوب إليه .

سيأتي في الرسالة وبعض شراحها - ألَّا يحلُّ لأحدٍ أنْ يتعمَّدَ سماعَ الملاهي، كالمِزمار والطُّنبور والعود، واستثنى من ذلك بعضُ شُراحها الغِرْبال، وهو الدُّفُّ المعروفُ بالطَّار، يريدُ جوازَ فِعْلِه وسماعِه في النِّكاح، لا في غيره.

قال شيخُنا شمسُ الدين في تقييدٍ له: «اختلفَ النَّاسُ في ضربِ الدُّفِّ في العُرس، قال بعضُهم: لا بأس بسماعِه، وقال بعضُهم يُكْرَهُ، فأمَّا مَنْ قال: لا بأس بسماعِه، فقد ذهبَ إلى ما روي عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، أنه قال: «أعلنوا النِّكاح واجعلُوهُ في المساجد، واضربوا عليه الدُّفُوفَ»[1]، ورُوِيَ عن محمد بن حاطب عن النبي ﷺ أنه قال: «الفصلُ بين الحلال والحرام ضربُ الدُّف، ورَفْعُ الصَّوْتِ في النِّكاح»[2]. قال محمد بنُ سيرين: سَمِعتُ أنَّ عُمرَ بن الخطاب ﷺ كان إذا سمِع صوتًا أنكرهُ، سأل عنه فإن قالوا: عُرس أو خِتان أقرَّه، ورَوى هشام بنُ عروة عن عائشة - رضي الله عنها -: أنَّ أبا بكر الصدِّيق دخلَ عليها وعِندها جاريتان تلعبان بالدُّف في يوم عيد، وعندها رسولُ الله ﷺ فخرجَ لها بقوله أتفعلِينَ هذا ورسول الله ﷺ جالس. فقال النبي ﷺ: «دَعْهما يا أبا بكر فإنَّ لكلِّ قوم عيدًا، وهذا عيدُنا»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت في عُرس، فلمَّا رجعَتْ قال لها

(١) رواه الترمذي (١٠٨٩) وحسنه، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٦٢٧. وابن حجر في الفتح ٩/ ٢٢٦، والألباني في الضعيفة (٩٧٨).

(٢) رواه الترمذي (١٠٨٨) وحسنه، وابن ماجه (١٨٩٦)، والنسائي ٦/ ١٢٧، وصححه الحاكم ٢/ ٢٠١، ووافقه الذهبي، وقال ابن طاهر المقدسي في معرفة التذكرة ص١٧٠: فيه يحيى بن أبي سليم تكلم فيه ابن حبان. وقال الألباني في الإرواء (١٩٩٤): ويترجح عندي أنه حسن فقط.

(٣) رواه البخاري (٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢).

رسول الله ﷺ : « أَقُلتنَّ شيئًا ؟ »[1] ، قالت : نعم ، قلنا :

أَتَـيْنَـاكُم أَتَـيْنَـاكُم ... فحيُّـونا نُحَيِّـيكُم

فَلَوْلَا العَجْوَةُ السُّوْدَا ... مَا كُنَّا بِـوَادِيكُم

فقال النبي ﷺ هَلَّا قلتُنَّ : « لَولَا طَاعَةُ الرحمٰن * مَا كنَّا بِوَادِيكُم » .

ورُوِيَ عن عكرمة أنَّ ابنَ عباس رضي الله عنه ختَّن ابنَه ، فدعَا اللَّعَّابِينَ فأعطاهم أربعة دراهم ، وأمَّا مَنْ كَرِه ذلك فقد ذَهَبَ إلى ما رُوِيَ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قال : « كُلُّ لَهو لِلْمُؤْمِنِ بَاطِلٌ إلَّا ثلاثَةٌ : تأدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ ، ورميُه عن قوسه ، وملاعبتُه مع أهله »[2] ، ورَوَى أبو زيد عن أبيه[3] أنَّ النبيَّ ﷺ رجع من غزوة له ، فجاءَتْه امرأةٌ فقالتْ : إنِّي نذرْتُ أَنْ أَضْرِبَ الدُّفَّ عندَكَ إنْ رَجَعْتَ عن غزوتِكَ سَالمًا ، فقال النبي ﷺ : « إن كنتِ فعلتِ ذلك فافعلي ، وإلَّا فلا »[4] . فقالت : يا رسول الله إني قد فعلتُ ذلك ، يعني نذرْتُ ، فقال : « فاضربي » فضَرَبَتْ . فدَخَلَ أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وهي تضرب بالدُّف ، ودَخَلَ عُمَرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه ، فَضَرَبَتْ الدُّفَّ ، وجلسَتْ

(١) السياق مضطرب، ولم أقف على البيت الأخير، والحديث رواه الطبراني في الأوسط ٣/ ٣١٥، والبيهقي ٧/ ٢٨٩، وحسنه البوصيري في الإتحاف ٤/ ١٥، وضعفه الهيثمي في المجمع ٤/ ٣٣٤، وقال الألباني في الإرواء (١٩٩٥): وهذا إسناد مسلسل بالضعفاء. ثم ساق له شواهد وصلت به إلى الحسن لغيره.

(٢) رواه أبو داود (٢٥١٣)، والنسائي ٦/ ٢٢٢ من حديث عقبة بن عامر الجهني، وصححه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٠٤، ووافقه الذهبي، وضعفه العراقي في المغني ١/ ٥٧٤، ووافقه الألباني في ضعيف أبي داود (٤٣٣).

(٣) كذا ، وصواب الرواية : روى عبد الله بن بريدة عن أبيه . وكنيتها : أبو سهل .

(٤) رواه الترمذي (٣٦٩٠) وحسنه، وصححه ابن حبان في صحيحه ١٠/ ٢٣٢ مختصرًا، وضعفه ابن القطان في بيان الوهم ٥/ ٥٠٦-٥٠٧، وتعقبه ابن الملقن في البدر المنير ٩/ ٦٤٦، وصححه الألباني كذلك في الصحيحة (١٦٠٩ و٢٢٦١).

مُقَنَّعَةً ، فقال النبيُّ ﷺ : « إِنِّي لا أَحسِبُ الشيطانَ أَنْ يَفِرَّ مِنْكَ يا عُمَر »[1] .

فقوله ﷺ : « إِنْ كُنْتِ نَذَرْتِ فَاضرِبِي وإِلَّا فَلَا » ، نَهي عَن الضَّرْبِ مِنْ غَيْرِ نَذْرٍ ، وفِيه دَلِيلٌ أَنَّهُ لا يجوزُ ضَرْبُه ، فالجوابُ في الخَبرِ الذِي رُوِيَ عَنْهُ : « أَعلنوا النِّكاح ، واضربوا عليه الدُّفُوفَ » ، قلنا : هذه كناية عن إظهارِ النِّكاح ، ولم يُرَد ضَرْبٌ في الدُّفُوفِ بعينها ، إلى أن قال : « أما الدُّفُّ الذي يُضْرَب في زماننا هذا مع ضجَّات وجلاجل، ينبغي أن يكونَ مكروهًا بالاتفاق ، وإنما الاختلافُ في الدُّفُوفِ التي كانت تُضرَب في الزمان المتقدِّم » انتهى المراد منه .

وقال ابنُ كنانة : تجوزُ الزَّمَّارةُ والبُوقُ في العُرْس ، وفي النَّوادِرِ عن ابن المَوَّاز : الغِرْبَال هو الدُّف المدوَّرُ ، قال غيرُه : وهو مُغَشَّى من جهة واحدة ، وقال أيضًا : المزهرُ هو المرَبع ، اهـ . وقال أَصْبَغ في العُتْبِية في رسم النِّكاح ، من كتاب « النِّكاح »: « والغِرْبَال هو الدُّف المدوَّرُ ، وليسَ المزهرُ مكروهًا ، وهو محدَثٌ ، والفَرْقُ بينهما أَنَّ المزهرَ أَلْهَىٰ ، وكُلَّما كان أَلْهَىٰ كان أَغْفَلَ عن ذِكْرِ الله ، وكان من الباطِلِ ، وقال الشيخ يوسف بن عمر الفاسي في شرح الرسالة : « الدُّفُ هو المغَشَّى من جهة واحدةٍ ، إذا لم يكن فيه أوتارٌ ولا جَرَسٌ ، ويسمَّى الآن بالبندير » اهـ .

وقال في المدخل في فصل المولود : « ومذهبُ مالك أنَّ الطارَ الذي فيه الصراصِرُ محرَّمٌ ، وكذلك الشَّبَابَةُ ، وقال التلمساني في شرح الرسالة : قال ابنُ رشد : اتَّفقَ أهلُ العلمِ على إجازةِ الدُّفِّ ، وهو الغِرْبَال في العُرْس، اهـ. وسيأتي كلامُ ابنِ رُشد مستوفًى . وقال الشيخ جعفر بنُ ثعلب لابنِ فتوى الشافعيِّ المِصْرِي في كتابه المسمَّى بـ « الإمتاع في أحكام السَّمَاع » وذهبَتْ

(١) كذا ، والمعنى مضطرب .

طائفةٌ إلى إباحة الدُّفِّ في العُرْسِ والعيدِ وقُدومِ الغايبِ وكُلِّ سرور . هذا ما أورده الغزَّالي في « الإحياء » والقرطبيُّ المالكيُّ في « كشف القناع » لَمَّا ذكرَ أحاديث تقتضي المنْعَ قال : وقد جاءَتْ أحاديثُ تقتضي الإباحةَ في النِّكاحِ ، وأوقاتِ السُّرُورِ ، فَيُسْتَثْنَى هذه المواضعُ من المَنْعِ المطْلَقِ ، اهـ .

وقال ابنُ البطَّال في شرح البخاري : « المذهبُ من السُّنَّةِ إعلانُ النِّكاح بالدُّفِّ » اهـ . وقال بعْدَ هذَا أو قَبْل الأوَّلِ : قال القاضي أبو بكر بن العربي في « الأحكام » من كلام ذَكَرَهُ وقسمه : « إنَّ آلاتِ اللَّهْوِ المشهورَةِ للنِّكاح يجوزُ استعمالُها فيه » ، وذكر الدُّفَّ منها ، وقال ابنُ رشد في المقدِّمات : « ولاَ يجوزُ حضورُ شَيْءٍ مِنَ اللَّهْوِ مِنْ آلاتِ الملاهي ، ورُخِّصَ في الدُّفِّ في النِّكَاحِ ، وفي الكَبَرِ والمِزْهَر أقوالٌ » ثُمَّ ذَكَرَ في الذِي بِالجَلاَجِلِ ما نصُّهُ : « قال القرطبيُّ لَمَّا استثنى الدُّفَّ في ما ذكرناه من المواضع : ولا يلحقُ بذلك الطَّاراتُ ذاتُ الصلاصِلَ والجَلاَجِل ، لِمَا فيها من زيادة الإطْراب ، وإذا كان الضاربُ بها رجُلًا ، فقال يحي بنُ مزيِّن في « شرح الموطأ » : قال أَصْبَغ : « لا يكونُ الدُّفُّ إلَّا للنِّسَاء ، ولا يكونُ عِنْدَ الرِّجَال » ، ثم قال : وكُلُّ مَنْ تقدَّمَ النَّقْلُ عنْهُ يعني مِنَ المالكيَّةِ وغيرهم من الأئمةِ الأربعةِ ، وغيرِ هؤلاءِ الذين ذكرناهم أطلقوا القول ، فلم يَفْصِلوا بين الجَلاَجِلِ وغيرها ، وبين النساءِ والرِّجَالِ .

وذهبَ عبدُ الملك بنُ حبيب إلى جواز الدُّفِّ والكَبَرِ[1] والمِزْهَر في العُرس ، إلَّا للجوارِي العواتِق في بيوتهن وما أَشبَهَهُن ، فإنَّهُ يجوزُ مُطْلقًا ، ويَجْرِي لَهُنَّ مَجْرَى العُرْسِ إذَا لَمْ يكُنْ غيرُه . ذَكَرَهُ في مُؤَلَّفِه في السَّمَاع ، اهـ . وقال في الكلام على الطُّبُول : « والقرطبي المالكي وابنُ الجوزي من الحنابلة

(١) الكَبَرُ : الطَّبل ذو الوجه الواحد (م. وسيط) .

استثنى طبْلَ الحرب » ثم ذكرَ كلامَ ابنِ رُشْد ويحيى بنِ مزيِّن في الكَبَرِ والمِزْهَر ، أعني الثلاثةَ أقوال ، والخلافُ في اختصاصِ ذلك بالنِّسَاء ، أو يَعُمُّ الرِّجَالَ ، ثم قال تنبيهَه المعروفَ في اللغة : « أنَّ المِزْهَر العودُ » ولَمْ أَرَ مِنْ أهل اللُّغَةِ مَنْ ذَكَرَ خلَافَهُ ، وَكَتَبَ الفُقَهَاءُ مخالفةً لِذَلِكَ بأَنَّهُم إنَّمَا يَعْنُونَ بالدُّفِّ المربَّعِ المغْلوقِ ، [وقال] يحيى بنُ مزيِّن المالكي : « والكَبَرُ الطَّبْلُ الكَبِيرُ ولعَلَّهُ الطَّبْلَخَانَا ، والله أعلم » ، وذكَرَ المسألةَ في العُتْبية في رَسْمِ «سلف دينار» من سماعِ عيسى مِنْ كتابِ النِّكَاحِ ، وفي رَسْمِ « النِّكَاح » مِنْ سَمَاعِ أَصْبَغَ مِنْ كِتَابِ النِّكاحِ ، واستوفى ابنُ رُشْدٍ الكَلَامَ عليها في سَمَاعِ عيسَى المتقدِّمِ ذِكْرُهُ ، على نحو مَا ذكرهُ الشَّيْخُ خليل في مختصَرِه ، ولنَذْكُرْ كلامَ عيسَى وكلامَ ابنِ رُشْد عليه ، ثم نُتْبِعْهُ بما في سَمَاعِ أَصْبَغ .

قال في العُتْبية : وسَبِيلُ مالك عن الرَّجُل يُدعى إلى الصَّنيع فيَجِدُ به في اللَّعِبِ أَيَدْخُلُ ؟ قال : إنْ كان الشَّيْءُ مِثْلَ الدُّفِّ والكَبَرَ الذي يَلْعَبُ به النساءُ فما أرى به بَأْسًا ، قال ابنُ رُشْد : يريدُ الصَّنِيعَ صَنِيعَ العُرْس والمِيلَادِ على ما قالهُ أَصْبغُ في سماعِه ؛ لأنَّ ذلك هو الذي رُخِّص في بعضِ اللَّهْوِ فيه، لِمَا يُستَحَبُّ من إعلان النِّكَاح ، واتَّفَقَ أهلُ العِلْمِ على إجَازَةِ الدُّفِّ ، وَهُوَ الغِرْبَال في العُرْس ، واختلفوا في الكَبَرِ والمِزْهر على ثلاثةِ أقوال ، أحدها : يُحملان جميعا مَحْمَلَ الغِرْبَال ، ويدخلان مدخله في جوازِ استعمالها في العُرْسِ ، وهو قولُ ابنِ حبيب . والثاني : أنه لا يُحْمَلُ واحِدٌ منهما محمَلَهُ ولا يَدْخُلُ معَهُ ، ولا يَجُوزُ استعمَالُه في عُرْسٍ ولا غَيْرِهِ ، وهُوَ قَوْلُ أَصْبَغ في سَمَاعِهِ بَعْدَ هَذَا مِنْ هَذَا الكِتَابِ ، وعليه يأْتِي مَا في سَمَاعِ سَحْنُون عَنْ ابنِ القاسم، من كتابِ جامعِ البيوعِ ، أَنَّ الكَبَرَ إذا بيعَ يُفْسَخ بيعُه ويُؤَدَّبُ أَهلُه؛ لأنه إذا قال ذلك في الكَبَرِ فأَحْرَى أن يقوله في المِزْهر ؛ لأنه ألهى منه .

والثالث : أنه يُحملُ محمَلَه، ويَدْخُلُ مُدْخَله الكَبَرُ وحدَه ، دون المِزْهر ، وقولُ ابن القاسم هنا ؛ وفي رَسْمِ إِنْ خَرَجَتْ مِنْ سَمَاعِ عيسَى مِنْ كتاب الوصايا ، وعليه يأتي ما في سَمَاعِ عيسى من كتابِ السرقة ، أنَّ السارق يُقْطَعُ في قيمة الكَبَر صحيحٌ ، ولابن كِنَانة في المدوَّنةِ إجازةُ البُوق في العُرْس ، فقيل : معنى ذلك في البوقاتِ والزمَّاراتِ التي لا تُلْهِي كُلَّ الإلهاء ، والله أعلم .

واختُلِفَ في جواز ما وُجِد من ذلك ، فقيل : هو من قبيلِ الجائزِ الذي يَسْتَوِي فِعْلُه وتَرْكُه ، فإنَّهُ لا حَرَجَ في فِعْلِه ، ولا ثَوَابَ في تَرْكِه ، وهُوَ المشهورُ في المذْهَب ، وقيل : إنه من قبيلِ الجائزِ الذي تَرْكُه أحسنُ من فعلِه ، فَيُكْرَه فِعْلُه لِمَا في تَرْكِه مِنَ الثَّوَاب ، لا أَنَّ في فِعْلِه حَرَجًا وعِقابًا ، وهُوَ قولُ مَالِكٍ في المدوَّنة : أنَّه كَرِهَ الدَّفَّاتِ والمعَازِفَ في العُرْسِ وغيرِه ، واختُلِفَ : هلْ يجوزُ ذلك للنساء دون الرجال أو النِّساء والرجال ؟ فقال أَصْبَغ في سماعِه : إن ذلك إنما يجوزُ للنساء دون الرجال ، وأنَّ الرجال لا يجوزُ لهُم عملُه ، ولا حُضُورُه .

والمشهورُ أنَّ عملَه وحضورَه جائزٌ للرجال والنساء ، وهُوَ قَول ابنِ القاسِمِ في هذه الرواياتِ ، وفي سَمَاعِ أَصْبَغ خِلَافُ قولِ أَصْبَغ ، وَهُوَ مذهبُ مالك ، إلَّا أَنَّهُ كُرِهَ لذَوِي الهَيْئَة مِنَ النَّاس أَنْ يَحْضُرُوا اللَّعِبَ ، ورَوَى ذلك ابنُ وهب عَنْهُ في سماع أَصْبَغ ، وأَمَّا مَا لا يَجُوزُ عملُه مِنَ اللَّهْوِ في العُرْسِ فلَا يَجُوزُ لِمَنْ دُعِيَ إِلَيْه أَنْ يَأْتِيَهُ ، وقد مضى القولُ عن ذلك في رَسْمِ طلق بن حبيب من سماعِ ابن القاسم. انتهى كلامُه برُمَّتِه ، والله أعلم.

ونَصُّ ما في سَمَاعِ أَصْبَغ ، قال أَصْبَغ : سمعتُ ابن القاسم وسُئِلَ عن الذي يُدْعَى إلى الصَّنِيع ، فجاء فَوَجَدَ فيه لَعبًا أَيَدْخُلُ ؟ قالَ : « إنْ كان شيئًا

خفيفًا مثل الدُّفِّ والكَبَر الذي يَلْعَبُ به النِّساء فما أرى به بأسًا » . قال أَصْبَغ : « ولا يُعْجِبُني ولْيَرْجع » وقد أخبرني ابنُ وهب أَنَّهُ سَمِع مالكًا يُسأَلُ عن الذي يَحضُر الصنيع فيه اللَّهو ، فقال : « ما يُعْجِبُني للرَّجُلِ ذي الهيئة أَنْ يحضُرَ اللعِبَ » .

وأخبرني ابنُ وهب عن مالك ، وسُئل عن ضَرْبِ الكَبَر والمِزمار أو غير ذلك من اللَّهو، ينالُك سَماعُه وتَجِدُ لَذَّتَه وأنتَ في طريقٍ أو مجلسٍ غيرِه، قال مالك : أرى أَنْ يَقُومَ من ذلك المجلس . قال أَصْبَغ : وأخبرني ابنُ وهب عن وليمة ، فلمَّا جاء سَمِعَ لَهوًا أَيَرْجِعُ ؟ فَلَقِيَهُ الذي دعاه ، فقال مالك : رجعتَ ؟ أَلَّا تَدْخُلَ ؟ فقال : إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كثَّر سوادَ قَوْمٍ فهو منهم ، ومَنْ رَضِيَ عَمَلَ قومٍ كان شريكًا في عملهم »[1] . قال أَصْبَغ : أخبرني ابنُ وهب ، عن خالد بن حُمَيد ، عن يحي بن أبي السَّيِّد ، أَنَّ الحسنَ البَصْرِيَ كان إذا دُعِيَ إلى الوليمةِ يقولُ : فيها بَرَابِط ؟ فإن قيل : نعم . قال : لا دَعْوة لهم ولا نِعْمَة عين . قال أَصْبَغُ : ما جاز للنِّساء ممَّا جُوِّز لَهُنَّ من الدُّفِّ والكَبَر في العُرس ، فلا يجوزُ لهم حُضُورُه ، ولا يجوزُ للنِّساء غيرُ الكَبَر والدُّف ، ولا غناء معهما ولا ضَرْب ، ولا بَرَابِط ، ولا مَزَامِر ، وذلك حَرَامٌ مُحَرَّمٌ في الفَرَحِ وغيرِه ، إلَّا ضَرْبًا بالدُّفِ والكَبَر هَمَلًا ، وبِذِكْر الله تسبيحًا وحمدًا ، على ما هدى ، أو بِرَجَزٍ خفيفٍ لا بِمُنَكَّسٍ ، ولا طويلٍ مِثْل الذي جاء في زواج الأنصار :

أَتَيْنَاكُم أَتَيْنَاكُم ... فحيُّونا نُحَيِّيكُم
وَلَوْلَا الحَبَّة السُّوْدَاء ... لَمْ نَحْلُل بِوَادِيكُم

(١) لم أقف عليه .

وما أشبه ذلك ، ولَمَّا سَمِعَهُنَّ رسولُ الله ﷺ مازحهُن وقال : « ولولا الحبةُ السوداء لم تسمنَّ عذاراكم »(١) ، قال مالك : ولا يُعْجِبُني مع ذلك الصَّفْقُ بالأيدي ، وهو أخفُّ من غيره . قال أَصْبَغُ : وقد أخبرني عبدُ الله بنُ وهب عن الليث أن عمر بنَ عبد العزيز كَتَبَ بقَطْعِ اللَّهوِ كلِّه إلَّا الذي في العُرْسِ وحدَه ، فهذا رأيٌ واجبٌ إلى العامة والخاصة ، والعملُ به ، ولا أرى به بأسًا في المِلَاكِ على مثل العُرس ، وما فسَّرْنا فيه فَهُوَ مِنْه ، ثم ذكرَ حديث : « أَظهِرُوا النِّكَاحَ وأَضْرِبُوا عليه بالغِرْبَال »(٢) ، وحديث : « أَعْلِنوا النِّكاحَ » ، ثم قال أَصْبَغ : فالإعلانُ به يجمل عند المِلَاك والعُرس جميعًا أن يُعْلَنَ بهما ، ولا يُستَخْفَى بهما سرًا في التفسير ، ويُظْهِرْ بهما بعض اللَّهو من مثل الدُّف والكَبَر للنِّساء والغِرْبَال : هو الدُّف المدوَّر ، وذَكَر ما تقدَّم نقلُه عنه في تعريفِه في أَوَّلِ القَوْلَةِ .

ثم قال : وما كان من الباطل فمحرَّمٌ على المؤمنين اللَّهو والباطلُ ، قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ لَهوٍ يَلهُو بِهِ المؤمنُ باطلٌ إلَّا ثلاثة » . قال ابن القاسم ابن محمد : « إذا جُمِع الحقُّ والباطلُ يومَ القيامة كان الغناءُ من الباطلِ ، وكان الباطلُ في النار » . قال أَصْبَغ : « والباطلُ كلُّه محرَّمٌ على المؤمنين » . قال الله ﷻ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون ١١٥) . كما أنَّ القمارَ مُحَرَّمٌ لِلَهْوِهِ ومَيْسِرِهِ ، فهو لَهْوٌ كلُّه ، قال ابن رُشْد : « قد مضى القولُ في اللَّهوِ في العرس ، وما يجوزُ من عَمَلِه وحضورِه

(١) ورد الحديث في مسند أحمد وسنن ابن ماجه والدارمي ، وله إشارة في فتح الباري شرح صحيح البخاري ، وأقربها إلى ما هنا رواية ابن ماجة ١٩ باب خطبة النكاح (١٩٦٧٢) .

(٢) رواه ابن ماجه (١٨٩٥) من حديث عائشة، وضعفه البيهقي في سننه ٧/ ٢٩٠، وابن الجوزى فى العلل المتناهية ٢/ ٦٢٧، والألباني في الإرواء (١٩٩٣).

مُوعَبًا في رَسْمِ طَلْقِ بن حبيب من سماعِ ابن القاسم ، وفي رَسْمِ سلف دينار»، فلا معنى لإعادةِ شيءٍ من ذلك هاهنا .

وأشار إلى ما تقدم ذكرُه ، ثم قال : « والثلاثةُ التي أُبيحَ اللَّهو بها في الحديث المذكور: مُلاعبةُ الرجل امرأتَه، وتأديبُ فرسِه ، ورَمْيُه عن قوسِه»، وحُكي أنَّ الحسن دُعي إلى عُرس هو وجماعة ، فأكلوا ثم غسل يديه ، ثم جِيءَ بِمجْمَرٍ بيدِ جارية فأَجْمَرَتْه ، ثم أدخلَتْ يدَها تحت ثيابِه فلم يَمْنَعها ، ودَهَنَتْ لحيتَه بيدها ، فلم يَمْنَعها ، اهـ .

[قال] ابنُ عرفة : ولَمَّا عرَّف الخطيبُ الإمامُ أبو بكر بنُ ثابت في «تاريخ بغداد» بإبراهيم بن سعد بن إبراهيم ، قال : قَدِمَ العراقَ فأكرمَه الرشيد ، فسُئل عن الغناء ، فأفتى بإباحته ، فأتاه بعضُ المحدِّثين لِيَسْمَعَ منه الحديثَ أحاديث الزهري ، فسمِعَه يتغنَّى ، فقال : كنتُ حريصًا على السَّماعِ منكَ ، فأمَّا الآن فلا سَمِعْتُ منكَ حرفًا أبدًا . فقال : إذن لا أَفْقِدُ إلَّا شخصَك ، وعليَّ إن حَدثتُ ببغداد ، ما أقمتُ حديثًا حتَّى أُغَنِّي قبله ، فبلغ ذلك الرَّشيدَ ، فدعا به ، فسأله عن حديثِ المخزومية التي قطَعَها رسول الله ﷺ في سرقة الحِليِّ ، فدعا بعودٍ ، فقال الرشيد : أَعودُ المِجْمَر ؟ فقال : ولكنْ عودُ المطربات . فتبسَّمَ ، ففَهِمَها إبراهيم بنُ سعد ، فقال : لعلَّكَ بلغكَ يا أميرَ المؤمنين حديثُ الذي ألجأني إلى أن حَلَفْتُ ، قال : نعم . ودعا له الرشيد بعود فغناه : [البسيط]

يا أُمَّ طلحة إنَّ البينَ قــد أفـدا   قُلْ للثواءِ لمنْ كان الرحيلُ غدًا

فقال له الرشيدُ : مَنْ كان مِنْ فقهائكم يكرَهُ السَّماعَ ؟ قال : مَنْ رَبَطَهُ اللهُ . فقال : هل بلفظٍ عن مالك بن أنس في ذلك شيء ، قال : لا والله ، إلَّا إني أخبرني أنَّهم اجتمعوا في مَدْعَاةٍ كانَتْ في بني يربوع ، وهُمْ يومئذٍ جِلَّة ،

ومالكٌ أجلُّهم في فقْهِه وقَدْرِه ، ومعهم دفوفٌ ومعازفُ وعيدانٌ يُغنُّون ويَلْعَبُون مع مالك وهو يُغَنِّيهم :

سلمى أزمعتْ بيناً ... فأينَ تـظنُّها أيـنا
وقد قالتْ لأترابٍ ... لها زهرة لا قـينا
تعالَيْنَ فقد طابَ لنا ... العـيـشُ تعاليْـنـا

فضحِكَ الرَّشِيدُ وَوَصَلَه بمالٍ عظيم ، قلتُ : أمَّا أبو بكر بنُ الخطيب وعدالتُه ثابتة ، ونقل ابنُ الصلاح وعياضٌ عنه ، وغيرُ واحد معلوم ، وإبراهيم بن سعد هذا قال المزِّي : أخرجه أهلُ الكتب والسنن الصحيحة ، ومنهم أبو داود ، والنَّسائي ، وابنُ ماجة ، وجامع الترمذي . وهذه الحكاية مِثْلَ نَقْلِ عياض للقَوْلِ الشَّاذِّ بإجازته ، اهـ .

فأمَّا قوله ﷺ : « كُلُّ لَهوٍ يَلْهُو بهِ المؤمنُ باطلٌ إلَّا ثلاثة : تأديبُ الرَّجُلِ فرسَه ، ورميُه عن قوسِه ، ومُلاعبتُه مع أهله » ، والباطلُ خلافُ الحَقِّ ، فيكونُ منهيٌّ عنه ، والأصلُ في النَّهي التحريمُ ، ويُؤيِّدُ بحْثَ الغزَّالِي في الاستدلالِ بهذا الخبرِ على حُرْمَةِ سَمَاعِ الملاهي أنَّ غايةَ هل يترتَّبُ على سَمَاعِها عدمُ الفائدة . ويُؤيِّدُ بحْثَ الغزَّالي قولُ الفاكِهَاني من علمائنا : لا أعلمُ في كتاب الله آيةً صريحةً ، ولا في السُّنَّةِ حديثًا صحيحًا صريحًا ، في تحرِيمِ الملاهي، وإنما هي ظواهرٌ وعموماتٌ تُوهِمُ التَّحْرِيمَ ، لا أدِلَّة قطعيَّة ، فظاهرُ كلامِ هذين الإمامين كافٍ في جواز سَمَاعِ الملاهي الخفيفةِ كالدُّف ، وأفتى القرطبي بجواز الدُّف بقوله : « يجوزُ في كلِّ سرور » وأيُّ سرور أعظمُ من ذِكْرِ الله والصَّلاة والسَّلامِ على رسوله ﷺ ، وكلامِ الصالحين ، ولا يُنكر سَمَاعُهُ .

فعلى ما تقرَّر مِنْ كلام الغزَّالي والفَاكِهَاني والقُرطبي إذا لم يَكُنْ معه

مُنْكَرٌ كحضورِ نِساءٍ ، أو خَمْرٍ أو غناءٍ يُحَرِّكُ من القلبِ ما هو مُرادُ الشَّيطَانِ[1]، قال عِيَاضٌ في « الإكمال » : صفةُ الغناءِ الذي يُباحُ من غير خلاف ، ما كان من أشعار العربِ للتَّهْييج على فِعْلِ الكَرَم ، والمُفاخَرَةِ بالشَّجَاعةِ ، والغَلَبة ، وقد قَسَمَه بعضُهُم إلى أقسام الشَّريعَة الخَمْس ، وأما سَمَاعُ الأشعارِ المُشْتَمِلَة على الوَعْظِ والتَّذْكار ، والتَّنْفير من الدنيا ، ونَحْوِ ذلك ، المشهورُ جوازُها ، وبه قال أئمة الدِّين المشهورون ، إلَّا أن يَعْرِضَ له بعضُ المنهيات ، كحضور نساءٍ أو صبيان ، أو خَمْر .

قال الإمامُ القشيري ﷺ : « واعْلَمْ أنَّ سَمَاعَ الأشعارِ بالألحان الطيِّبَةِ والنَّغْمَةِ المستَلَذَّة ، إذا لم يَعْتَقِدْ المسْتَمِعُ محظورًا ، ولم يَسْتَمِع إلى مذمومٍ في الشرع ، ولم ينجرَّ في زِمامِ هواه ، ولم يَنْخَرِط في سِلْك لَهْوِه ، مُباحٌ في الجُمْلةِ، ولا خلافَ أنَّ الأشعارَ أُنشِدَتْ بين يدي رسول الله ﷺ ، ولم يُنْكِرْ عليهم في إنشادها ، فإذا جاز استماعُها بِغَيْرِ الأَلْحَانِ الطَّيِّبة ، فلا يتغيَّر الحُكْمُ بأنْ تُسْمَعَ بالأَلْحَانِ ، وهذا ظاهرٌ من الأمر ، ثم ما يُوجِبُ للمُستمِعِ تَوَفُّرُ الرَّغْبة على الطاعاتِ ، ويُذَكِّرُه ما أَعَدَّ اللهُ لعبادِهِ المتَّقِينَ من الدَّرَجَات ، ويَحْمِلُه على التَّحَرُّز من الزَّلات ، ويُؤَدِّي إلى قَلْبِه في الحالِ صفاء الواردات، فهُوَ مُستحبٌّ في الدين ، ومختارٌ في الشَّرع . وذُكر في السَّمَاع أحاديث بأسانيدها . إلى أن قال : وقد سَمِعَ السَّلفُ الأكابِرُ الأبياتَ بالألحان ، فممَّن قال بإباحته من السَّلف : مالك بن أنس ، وأهلُ الحجازِ كلُّهم يُبيحون الغناء » اهـ .

وحاصلُ ما ذكره شيخُ مشايخنا زرُّوق في « النصيحة الكافية » من النَّهي عن السَّمَاع ، خصَّه شيخُنا شمسُ الدين بنوعٍ منه لمزيدِ أمورٍ تقتضي

(١) جواب الشرط غير موجود ، ومراده (فهو مباح) .

النَّهي في تقييدٍ له ، إلى أن قال : « ليس كلُّ غناءٍ خارجًا عن الحق ، وأنْ يُحكَم على كلِّ فردٍ من أفرادِه بهذا الحُكْم » إلى أن قال شيخُنا المذكور : « إنه لا يُذَمُّ من الشِّعْر إلَّا ما فيه وصفُ القُدودِ والخُدودِ والشُّعورِ والخُمورِ ، إذ لا يَصحُّ ما في النَّصيحة على الإطلاق ، فإنَّ مِنَ السَّماعِ ما يُؤْثِرُ أحوالًا سَنيَّةً، ويُثْمِرُ أخلاقًا زَكيَّة ، وهؤلاء جماعةٌ من الأئمَّةِ الذين يُرجَعُ إليهم ويُقتَدى بهم ، ويُعتمَدُ على أقوالهم من أصحاب مالك ، سَمِعُوه وأجازوه اهـ .

وقال المقدسي في كتابه المشهور بـ « مفاتيح الكنوز » بعد كلامٍ كثيرٍ ما نصُّه : « وَاعْلَم أَنَّهُ تحتَّم هاهنا وَوَجَبَ ذِكْر السَّماع ، وما هو مِنْهُ محظورٌ ، وما هو مِنْهُ مُباح ، وما هو مِنْهُ مُستحَبٌّ مُسْتَحْسَنٌ ، فإنَّ كثيرًا مِنَ المُتعمِّقِين والمتأوِّلين كَرِهُوه ، وأنْكَروه أصلًا وفرعًا ، وحَقِيقَةً وشَرْعًا ، وهذا غلطٌ مِنهم ؛ لأنَّ ذلك يَقْضِي تَخْطِئةَ كَثِيرٍ مِنْ أَوْلياءِ الله ، وَتَفْسِيقِ كَثِيرٍ مِنْ العُلَماءِ ، إِذْ لا خِلَافَ أَنَّهُمْ سَمِعُوا الغِنَاءَ ، وتواجدوا ، وأَفْضَى بِهِم إلى الصُّراخ وإلى الغَشْية ، والصَّعْق، فكيف يُنْسَبُ إليهم نقصٌ، وهُمْ سالكون أَتَمَّ الأحوال؟ وإنَّما يحتاجُ ذلك إلى تفصيلٍ ونظر في أهلِ السَّماعِ واختلافِ طبقاتِهم ، فمَنْ صَحَّ فَهْمُه ، وحَسُنَ قَصْدُه ، وصَقَلَتْ الرِّيَّاضَةُ مِرْآةَ قلبِه ، وجَلَتْ نَسَماتُ العزيمةِ فَضَاءَ سِرِّهِ ، وصَفَا مِنْ تَصَاعُدِ أَكْدارِ أرضِ طَبْعِه ، وبحارِ بَشَرِيَّتِه ، وخَيَالَاتِ وَسْوَاسِه ، وعَرِيَ عن حُظُوظ الشهوات ، وتَطهَّر عن دَنَس الشُّبهات ، فلا تَقُول إِنَّ سَماعَه حرامٌ ، وفِعْلَه ذلك خَطأٌ .

قال أبو طالب المكي ﷺ : « إنْ طَعَنَّا على السَّماع فقدْ طَعَنَّا على سَبْعِينَ صِدِّيقًا » ، وسُئِل الشيخُ الشِّبْلي ﷺ عن السَّماع ، فقال : « ظاهرُه فتنةٌ ، وباطنُهُ عِبْرَةٌ ، فَمَنْ عَرَفَ الإِشَارَةَ حَلَّ لَهُ السَّماعُ ، وإلَّا فَقَدْ اسْتَدْعَى الفِتْنَةَ، وتَعَرَّضَ لِبَلِيَّة ، ومعلومٌ أَنَّ السَّماعَ مُهيِّجٌ ما في القَلْبِ ، مُحرِّكٌ لِمَا فيه ، فلمَّا

كانتْ قلوبُ القومِ مَعْمُورةً بِذِكْرِ الله ، صَاحِيةً مِنْ كَدَرِ الشهوات ، مُحترقةً بحُبِّ الله ، فليس فيها سِوَى الله ، فالشَّوْقُ والوَجْدُ والهيَجَانُ والقَلَقُ كامِنٌ في قلوبهم ، كَكُمُونِ النَّارِ في الزِّنَادِ ، فلا تَظْهَرُ إلَّا بمصادفَةِ مَا يُشَاكِلُهَا ، فمُرَادُ القومِ في ما يسمعُونَه إنما هو مُصَادِفٌ لِمَا في قلوبِهم ، فَيسْتَثِيرُه بِصَدْمَةِ طُرُوقِهِ ، وقُوَّةِ سُلْطَانِه ، فَتَعْجَبُ القُلُوبُ عنِ الثُّبُوتِ عند اصْطِلَامِه ، فَتَبْعَثُ الجَوَارِحَ بالحَرَكَاتِ والصَّرَخَاتِ ، لِثَوَرَانٍ في القُلُوبِ ؛ لأنَّهُ يُحْدُثُ فيها شَيءٌ ما » .

قال أبو القاسم الجُنيد ﷺ : « السَّمَاعُ لا يُحْدِثُ في القلبِ شَيئًا ، وإنما هو مُهيِّجٌ ما فيه ، فتراهُم يَهِيجُون مِنْ حيثُ وَجْدُهم ، وَيَنْطِقون مِنْ حيثُ قصدُهم ، ويَتواجَدُون مِنْ حيثُ كامناتُ سَرَائِرِهم ، لا مِنْ حيثُ قولُ الشاعِرِ ، ومرادُ القائِلِ ، ولا يَلْتَفِتُون إلى الألفاظِ ؛ لأَنَّ إِلْفَهُم يَسْبِقُ إلى ما يتخيَّلُه الذِّهنُ ، وشَاهِدُ ذلك ما حُكيَ أَنَّ أبا عُثمان الصُّوفي سَمِعَ رجُلًا يطوفُ وينادي يا صَعْتَرْ بَرِّي ، فَسَقَطَ وغُشِيَ عليه ، فلمَّا أفاقَ قيل له في ذلك، فقال : سمِعْتُه يقول : اسْمَعْ تَرَى بري ، إلَّا أَنْ وَجَدَهُ ، وحَرَّكَتْه مِنْ حيثُ ما هو فيه مِنْ وَقْتِه ، لا مِنْ حيثُ قَولُ القائلِ ولا قصدُه .

كما رُوِيَ عن بَعْض الشُّيُوخ أَنَّهُ سَمِعَ قائلًا يقولُ : «الخِيَارُ عَشَرة بحَبة» فَقَلَبَه الوَجْدُ ، فَسُئِلَ عن ذلك ، فقال : إذا كان الخِيَارُ عشرة بحبة فما قيمَة الأشرار ؟ فالمحترِقُ بمحبَّةِ الله لا تَمنعُه الألفاظُ الكثيفةُ عن فهمِ المعاني اللطيفةِ ، ولم يكُنْ واقفًا مع صوتِ نغمةٍ ، ولا مشاهدةِ صورةٍ ، فمَنْ ظنَّ أنَّ السَّمَاع يرجِعُ إلى رِقَّةِ المعنى ، وَطيبِ النغمةِ ، فهو بعيدٌ عن السَّمَاع ، وإنما السَّمَاعُ حقيقةٌ ربانيةٌ ، ولطيفةٌ روحانيةٌ ، تَسْرِي مِنَ السَّمِيع المُسْمِعِ إلى الأسوارِ ، بلطائفِ التُّحَفِ والأنوارِ ، فيَمْحَقُ مِنَ القلبِ ما لمْ يَكُنْ ، وَيَبْقَى

فيه ما لَمْ يَزَلْ ، فهو سماعُ حقٍّ بحقٍّ مِنْ حَقٍّ ، وأمَّا الانزعاجُ الذي يلحقُ المتواجدَ فمَنْ ضَعُفَ حالُه عن تحمُّلِ الواردِ ، وذلك لازدحامِ أنوارِ اللَّطائفِ في دخول باب القَلْبِ ، فيلحَقُه جَهَشٌ فَيَبْعَثُ[1] بِجَوَارِحِه ويستريحُ إلى الصَّعْقَةِ والصَّرْخَةِ والشَّهْقَةِ لغلبةِ وَجْدِهِ وقَهْرِ وارِدِه ، وأكثرُ ما يكونُ ذلك لأَهْلِ البداياتِ ، وأمَّا أهلُ النِّهاياتِ فالغالبُ عليهِمْ السُّكونُ والثُّبُوتُ ؛ لانشراحِ صُدُورِهِمْ واتِّساعِ سرائِرِهم للوارِدِ عليهِم ، فَهُمْ في سكونِهم متحرِّكون في ثبوتِهم مُقْلِقُون ، كما قيل لأبي القاسم الجُنَيد ﷺ : ما لنا لا نَرَاكَ متحرِّكًا عند السَّماعِ ، قال : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جامدةً وهي تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » .

قيل له : ما معنى السَّماعُ ؟ وما بالُ الرُّوحِ يكونُ ساكنًا قبلَ السَّماعِ فإذا سَمِعَ اضطَرَبَ وتحرَّكَ ؟ فقال : السَّماعُ تَذكارُ خِطابِ الرَّبِّ من الميثاق الأول حين قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ (الأعراف ١٧٢) ، فمَنْ سَمِعَ كلامَهُ حين لا حَدَّ ولا رَسْمَ ولا صِفَةَ إلَّا المعنى الذي سَمِعَ لَقِيَ حَلاوَةَ ذلك فيه ، فلمَّا أخرجَهُم وَرَدَّهُم إلى الدُّنيا ظَهَرَ ذلك فيهم ، فإذا سَمِعُوا نَغْمَةً طيِّبةً وقولًا حَسَنًا طارَتْ هِمَمُهُمْ إلى ذلك الأصل ، فسَمِعُوا من الأَصْلِ وأشاروا إلى الأَصْلِ ، والعارفُ هو الذي سَمِعَ مِنَ الله ، ومَنْ لا يعرِفُ اللهَ كيفَ يَسْمَعُ مِنَ الله ، ومَنْ لا يَسْمَع مِنَ الله فالبهيمةُ خيرٌ منهُ ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (الأعراف ١٧٩) .

وقال أبو عثمان المغربي من الدُّعَاءِ السَّماع ، ومَنْ لَمْ يَسْمَع صوْتَ الطيورِ وصريرَ البابِ ، وتصفيقَ الرِّياحِ ، فهو مُغْتَرٌّ مُدَّعٍ ، فالعارفُ يسْمَعُ

(١) لعلها يعبث .

أَلْطَفَ الإشاراتِ مِنْ [أكثف][1] العبارات ، ودَخَلَ يوْمًا أبو عثمان المغربي وَرَجُلٌ يسقي الماءَ مِنْ بِئْرٍ على بِرْكَةٍ فَتَوَاجَدَ ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنما تقولُ الله ، وسَمِعَ عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ صَوْتَ ناقوسٍ فقال لأصحابه : أترون ما يقول ؟ قالوا : لا ، قال يقول : سبحان الله حقًّا حقًّا ، إن المولى صَمَدٌ يبقى .

ومرَّ الشِّبْلي يومًا بفُقَاعِيٍّ سَمِعَهُ يقول: ما بَقِيَ إلَّا واحدٌ ، فصاح وقال: هل كان إلَّا واحد. وقيل لبعض مشايخ الطريقة: لِمَنْ يصلح السَّمَاع ؟ فقال: لِمَنْ لا يُفَرِّقُ بين صريرِ البابِ والصوتِ الطيِّبِ ، وقد قلتُ في معنى ذلك شعرًا : [خفيف]

ما اسْتِمَاعي من ضارباتِ المثاني ... بل سَماعِي من وارداتِ المعاني
خَلْوَتي خَمْرَتي سُكُوتي وفِكْري ... واستماعِي مِنِّي بكلِّ مَكَانِ
ليس مَا سَمِعْتُ حَرفًا وصَوتًا ... لا ولا نَغْمَةً بَدَتْ عَنْ قِيَانِي
كُلُّ مَنْ كانَ في استماعٍ ووجدٍ ... واقفًا عِنْدَ رِقَّةِ العِيدَانِ
ذاك لا شكَّ وَجْدُهُ مستعارٌ ... مُسْتَرَدٌ على الحقيقة جانِ
إنَّما الوَجْدُ في الحقيقة وَجْدٌ ... غيرُ مستخرَجٍ مِنَ الألْحَانِ
فسماعُ القُلُوب من كلِّ معنى ... يتجَلَّى بصَفْوِهِ للجَنانِ
فاستَمِعْ ما يقُولُ فنُّ[2] اللَّيالي ... واعتبرْ ما يشيرُ ضَرْبُ الزَّمانِ
وتَصَنَّتْ لِصارخَاتِ العوادي ... والبوادي وشاهِدَاتِ العيانِ
وتلمَّحْ ترى الحقيقةَ تبدو ... من خفايا الغُيوبِ كالتُّرجُمَانِ

(١) كلمة غير واضحة في الأصل كأنها (أكثف) .
(٢) في الأصل : من .

نَجِـــدِ الكـــلَّ إنْ تأمَّلْـتَ فَـرْدًا   واحــدًا لـيس في الحقيقــةِ ثــانِ
فلِهـــذا صرفــتُ وجهــي إليــه   ما ثَنَــانِي عن الطــريقـة ثـــانِ
أنــا لي مُسْــمِعٌ إذا قُــلْتُ ســرًّا   يــا حبيبـــي يقولُهــا أنـــا دانِي
يا عُذُولِي فخلوا [عنـي](١) مَلَامِـي   وَهَـــوَايَ [و] لَـــوْ يكـــونُ هــوانِي
قَطُّ مـا رُمْـتُ شَـــرْبةً لظـمائي   بِكُــؤُوسِ الوصــالِ إلَّا سقَـــانِي
لا ولا جِـئْـتُ طَـالِبـًا لِـحِمَـاهُ   أَخْتَـمِي من جـفَـاهُ إلَّا حَـمَانِي

واعْلَمْ أنَّه قَدْ حَضَرَ السَّمَاعَ وسَمِعَ وما قَنَع بالسَّمَاعِ، حتَّى كُشِفَ القِناعُ وتوَاجَد وتحرَّك كثيرٌ مِن الأكابرِ والمشايخِ والتابعين ، وسَمِعَ عبدُ الله بنُ جعفر ، وعبدُ الله بنُ عُمر ، وجاء عنه آثَارٌ في إباحةِ السَّمَاعِ ، وسَمِعَ مِنَ الصحابة ابنُ الزبير ، والمغيرة بنُ شعبة ، ومعاوية ، وغيرُهم ، وقال بإباحةِ السَّمَاع من السَّلَفِ : مالك بنُ أنس ، وأهلُ الحجاز أَجْمَعُ يُبيحون الغناء . وأمَّا الحُدَاء فَأَجْمَعَ الكُلُّ على إباحته ، وكان ابنُ جريج يَرْقُصُ في السَّمَاع ، فقيل له : إذا أُتي بك يوم القيامة ويؤتى بحسناتِك وسيئاتِك ، في أيِّ الجانبين سَمَاعُك ؟ فقال : لا في الحسناتِ ولا في السيئاتِ . يعني أنه من المباحات .

وأما الشافعي ﷺ فإنه لا يُحرِّمه ، ويجعلُه في العام مكروهًا ، حتَّى لوْ جَعَل الغِنَاءَ له حِرْفَةً وصِنَاعَةً ، فلَمْ يَرُدَّ به الشهادة ، وجعلُه مما يُسْقِط المروءةَ ، ولا يُلحِقُه بالمحرمات ، وكان ابنُ مجاهد لا يُجِيبُ [الدعوة](٢) إلَّا إذا كان فيها السَّمَاع . وقال يونس بنُ عبد الأعلى سألتُ الشَّافعي عن إباحَةِ أهل المدينة السَّمَاع ، قال : لا أَعْلَمُ أحَدًا مِنْ عُلَماءِ الحِجَازِ كَرِهَ السَّمَاعَ ، إلَّا

(١) في الأصل : فخلوني وملامي .
(٢) زيادة على الأصل .

ما كان مِنْهُ في أوصافِهِ . وأما الحُدَاء أو ذِكْرُ الأطلالِ والمرابعِ ، وتَحْسِينُ الصوت وتلحينُ الأشعار فلا أراه إلَّا مباحًا .

وقال(١) علي أبو مروان القاضي عنده جوارٍ يُسْمِعْنَ ، قد أعدَّهُنَّ للصُّوفية . وكان لعطَّارٍ جاريتان تلحنان ، فكانَ إخوانُه يستمعون إليهما ، وكان أبو حسن العسقلاني يسمَعُ ويُوَلِّه في السَّماعِ ، وصنَّف كتابًا ردَّ فيه على مُنكريه ، وكذلك جماعةٌ صنَّفوا كُتبًا على مُنكريه . وحُكِيَ عن بعضِ المشايخ أنه قال : « رأيتُ أبا العباس الخضر عليه السلام ، فقلتُ له : ما تقول في هذا السَّماع الذي اختَلَف فيه أصحابُنا ؟ فقال : هو الصَّفاءُ الزُّلال الذي لا تثبُتُ عليه إلَّا أقدام العلماء » . وحكى مُمْشاد الدِّينَوري رضي الله عنه قال : « رأيتُ رسولَ الله ﷺ في النَّوْمِ ، فقلتُ: يا رسُولَ الله هل تُنكر من هذا السَّماع شيئًا؟ فقال : ما أُنكِرُ منه شيئًا ، ولكن قُلْ لهم يَفتتحون قبلَه بالقرآن ويَخْتِمُون بعده بالقرآن ، قلت : يا رسول الله : إنهم يُؤذونني وينبسطون ، فقال : احْتَمِلْهم يا أبا علي هم أصحابُكم »(٢) فكان ممشاد يفتخِرُ بها ، ويقول : كفاني رسول الله ﷺ .

وروى طاهر بن بليل الهمذاني الورَّاق ، وكانَ مِنْ أهلِ العِلم والفضْل، قال : كنتُ مُعْتكِفًا في جامع جُدَّة على البحر ، فرأيتُ طائفةً يقولون في جانبٍ مِنْه قولًا ويستمعون ، فأنكرتُ ذلك في قلبي ، وقلتُ : في بيتٍ مِنْ بيوت الله يقولون الشِّعْرَ ، فرأيتُ رسول الله ﷺ تلك الليلة ، وهو جالسٌ في تلك الناحية ، وإلى جانبِه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فإذا أبو بكر يقولُ شيئًا من

(١) كذا ولعل المراد : وكان لعلي أبي مروان القاضي ... إلخ .

(٢) المعروف أن الأحكام الشرعية لا تؤخذ من الرؤى ، والرواية تذكرنا بما رواه بعضهم أنه يروي الحديث عن بعض الجن عن رسول الله ﷺ ليس بينهما راوٍ ، ومثل هذا الأمر يتسامح المتأخرون من الصوفية في روايته ، ولا يمكنك أن تجده في كتب الأوائل .

القول والنبي ﷺ يسمع منه ويضعُ يده على صدرِه كالواجِدِ بذلك ، فقلتُ في نفسي : ما ينبغي أن أُنكِر على هؤلاء القوم الذين كانوا يسمعون وهذا رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى جانبه يقول ، فالتفتَ رسول الله ﷺ وقال : « هذا حقٌّ بحقٍّ ، أو قال : حقٌّ مِنْ حقٍّ » شك الراوي في ذلك .

وروى أبو طالب مكي في كُتبِهِ بإسناده : « أنَّ رجلًا دخل على رسول الله ﷺ وعندَهُ قومٌ يقرؤون القرآن ، وقومٌ يُنْشِدُون الشِّعْر ، فقال يا رسول الله : قرآنٌ وشعر ، فقال : مِن هذا مرة ، ومِنْ هذا مرة » ، وقد روى القشيري في رسالته عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن عائشة ، رضي الله عنها ، أنها أنكحت ذا قرابتِها من الأنصار ، فجاء النبي ﷺ فقال : أَهْدَيْتُم الفتاة ؟ فقالت : نعم ، قال : فأَرسلتِ مَنْ يغنِّي ؟ قالت : لا . قال ﷺ : إنَّ الأنصار فيهم غزل ، ولو أرسلتِ مَنْ يقول : « أَتَيْنَاكُم أَتَيْنَاكُم * فحيَّانا وحيَّاكم » ، وروى أيضًا أنَّ رجلًا أنشد بين يدي رسول الله ﷺ فقال : [رمل]

أقبلتْ فلاحَ مِنْها ... عارضانِ كالسَّبَجْ
أدْبَرتْ قلتُ لَهَا ... والفؤادُ في لَهَجْ
هل عليَّ وَيْحَها(١) ... إنْ عَشِقْتُ مِنْ حَرَجْ

فقال ﷺ : « لا حَرَجْ إن شاء الله تعالى » .

واعْلَمْ أنَّ السَّماعَ إنما هو عبارةٌ عن الأصواتِ الحسنة ، والنَّغَماتِ المطْرِبة ، يصدُرُ عنها كلامٌ موزون مفهوم ، فالوَصْفُ الأَعَمُّ في السَّماعِ إنما هو الصَّوْتُ الحَسَنُ ، والنَّغْمَة الطيِّبة ، وهو ينقسِمُ إلى قسمين : مفهومٌ

(١) في الأصل : ويحكما .

كالأشعار ، وغيرُ مفهومٍ كأصواتِ الجامداتِ ، وهي المزاميرُ كالشَّبَّابةِ ، وغيرهما من أصواتِ الطيور المطربة . ولا قائلَ بتحريم الصَّوْتِ الطيِّبِ المطْرِب من حيثُ هُوَ صَوت ، إلَّا ما جاء به النصُّ في تحريمِ سَمَاعِه كالأوتار والملاهي .

وأما الصَّوْتُ الطَّيب بالشِّعْر الموزون المفهوم ، فقد صحَّتْ الأخبارُ ، وتواترَتْ الآثار بإنشاد الأشعار بالأصوات الطيِّبة بين يدي رسول الله ﷺ ، وكان يضعُ لحسَّانَ مِنْبَرًا في المسجِدِ يقومُ عليه ، يُفَاخِر عن رسول الله ﷺ (...) أنَّ الله يؤيدُ حسَّانَ ما [ناجز][1] وفاخر عن رسول الله . وقالتْ عائشةُ - رضي الله عنها - : كان أصحاب رسول الله ﷺ يتناشدون الأشعارَ وهو يبتسِمُ ﷺ . ولَمَّا أنشده النابغة شعرَه قال : « لا يفضض الله فاك » ، وأُنشد لرسول الله ﷺ مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت ، يقول في كل ذلك : « إيه »[2] ثم قال : « إن كاد في شِعْره ليُسْلِم » ، وعن أنس بن مالك ﷺ « أنَّ النبيَّ ﷺ يُحْدَى لَهُ في السفر ، وأنَّ أنجشةَ كان يحدو بالنِّسَاء ، والبراء بن مالك يحدو بالرِّجال ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أنجشةَ كُفَّ سوقَك بالقوارير »[3] فلا يجوز أن يكونَ الصوتُ الطيِّب بالشِّعْر الموزون والمعنى المفهوم حرامًا ، إذ الأصواتُ الطيِّبة غير منكرة ولا محدَثَةٍ ، وقد ثبتَ ذلك بالنص والقياس ، والله أعلم .

وأما الضَّربُ بالدُّفِّ والرَّقصِ فقد جاءَتْ الرُّخصةُ في إباحَتِه للفرح

---

(١) في الأصل : ناجح .

(٢) في الأصل : هية .

(٣) رواه البخاري (٦١٤٩)، ومسلم (٢٣٢٣) من حديث أنس بن مالك. وفي رواية : رفقًا بالقوارير .

والسُّرورِ في أيّام الأعيادِ ، و [الأعراسِ](1) ، وقُدوم الغائبِ ، والوليمةِ ، والعَقِيقةِ ، وقد ثَبَتَ جوازُ ذلك بالنصِ ، فمن ذلك : إنشادُهم وضربُهم بالدُّفِّ عند قدوم رسول الله ﷺ وقولهم : [رمل]

طَلَعَ البدرُ علينا ... من ثَنِيَّاتِ الوداعِ
وجبَ الشكرُ علينا ... ما دعا لله داعِ

ولقد ضَمَمْتُ لهذين البيتين أبياتًا أخرى ، وهي :

قُمْ فقدْ طابَ سماعي ... أوْ فَدَعْني واستماعي
ما يطيبُ الوقتُ إلا ... بخليعٍ كانخلاعي
أنا عبدٌ لحبيبٍ ... سِرُّهُ غيرُ مُذاعِ
أنا راضٍ فيَّ هواهُ ... في هواني واتِّضَاعي
قُمْ فهاتِ الراحَ صِرْفًا ... واسقنيها لانتفاعي
قد رضعناها(2) قديمًا ... قبلَ أيّامِ الرضاعِ
مِنْ يَدَيْ ساقٍ تجلَّى ... وهو للعشّاقِ داعِ
طَلَعَ البدرُ علينا ... من ثنيّاتِ الوداعِ
وجبَ الشُّكرُ علينا ... ما دعا لله داعِ

فأباح لهُمْ ذلك لإظهارِ السُّرُور بقدُومِهِ ﷺ ، ومن ذلك ما أخرجه البخاريُّ ومسلم عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - « أنَّ أبا بكر ﷺ دخلَ عليها وعندها جاريتان في أيام مِنًى تُدَفِّفَان وتضربان ، والنبي ﷺ مُغَشًّى بثوبِهِ فانتهرهما أبو بكر ، فكشَفَ رسولُ الله ﷺ عن وجْهِهِ ، وقال : دَعْهُما يا أبا بكر فإنَّهَا أيَّامُ عيد » ، وفي حديث آخر قالت عائشة - رضي الله

(1) في الأصل : العروس .
(2) في الأصل : وضعناها .

عنها - : « دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وعندي جاريتان تُغَنّيَان بِغِناءِ بُعاث ، فاضطجَعَ على الفراش وحَوَّلَ وجْهَه ، ودخل أبو بكر ﷺ فانتهرني وقال : مِزْمَار الشيطان عند رسول الله ﷺ ، فأقبلَ عليه رسولُ الله ﷺ وقال : دعهما ، فلمَّا غَفَلَ غمزْتُهما فخرجتا . وكان يوم عيد يلعبُ فيه السودانُ بالدَّرَق والحِرَاب ، فإمَّا سألتُ رسولَ الله ﷺ ، وإمَّا قال: أتشتهين تنظرين؟ فقلت : نعم . فأقامني وراءه وخدِّي على خده ، ويقول : دونكم يا بني أرفده ، حتَّى إذا مَلَلْتُ قال : حسبكِ ؟ قلت : نعم . قال : فاذهبي » .

فهذه الأحاديثُ نصٌّ صريحٌ في الصَّحيحِ على أنَّ الغِنَاء واللَّعِبَ ليسَ بحرام ، ويدُلُّ أيضًا على كثيرٍ من الرُّخص ، منها : اللَّعِبُ ، وإبَاحةُ ذلك في المسجد ، ووقوفُه مع عائشة حتَّى ملَّتْ مع صِغَر سنِّها ، وإنكارُه على أبي بكر الصديق ﷺ ، ومنعُه له من انتهار الجاريتين ، وكان يَقْرعُ سمْعَه ﷺ صوتُ الدُّفِّ وصوتُ الجاريتين ، ولو كانَ بموضِعٍ يُضربُ فيه الأوتار لَمَا جوَّز الجلوسَ فيه ، ففيه دليلٌ على أنَّ صَوْتَ النِّسَاءِ أخفُّ مِنْ صَوْتِ الأوتارِ .

وأمَّا صوتُ الشَّبَابةِ فاحتَّج أهلُ التحريم بحديث نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما - حين وَضَعَ أُصْبُعَيْه في أُذنيهِ وقد سمِع زَمَّارة راعٍ وعَدَل عن الطريق ، ولم يزلْ يقول : يا نافع : أتسمع ؟ حتَّى قلت : لا . فأخرج أُصْبُعَيْه من أُذنيه ، وقال : هكذا رأيتُ رسول الله ﷺ صَنَع . فهذا ليس فيه دلالةٌ على التَّحريم ، بل فيه دليلٌ قويٌّ على إباحةِ الشَّبَابة ، بدليل أنه لم يأْمُرْ نافعًا بسدادِ أُذنيه ، ولمْ يُنكر عليه ، وكذلك فِعْلُه ﷺ لا يدلُّ على التَّحريم ؛ لأنه لم يأْمُرْ عبدَ الله بسَدِّ أُذنيه ، ولمْ يُنكر على الرَّاعِي فِعْلَه ، وحاشا رسولُ

الله ﷺ أنْ يمرَّ بمنكَرٍ ولا يُنْكِرُه ، أو بباطلٍ ولا يُبطله[1] ، إذْ لمْ يُعرَف الحلالُ والحرامُ إلَّا من جِهته ، ولو كان حرامًا لأَخْبَر به أصحابَه ﷺ ، وأمَّا سَدُّ أُذنيه ﷺ ، فيحتمِلُ معنيين : أحدُهما أنهُ سالكٌ أتمَّ الأحوال وأفضلَها ، ونحنُ نقول : إنَّ الأَوْلَى تركُه في كلِّ الأحوال ، بل أكثرُ مباحات الدُّنيا ، الأَوْلَى تركُها . الثاني : أنه ﷺ قلَّ أن يخلوَ قلبُه من فِكْرٍ أو ذِكرٍ وحالٍ مع الله واشتغالٍ به ، فلعلَّه كان في حالةٍ تَشْغلُه زمَّارةُ الرَّاعي عن تلك الحالةِ لتأثيرها في القلب ، كما خَلَعَ ثوْبَ أبي جهم بعد الفراغ من الصَّلاة ؛ لأنه كان عليه أعلامٌ شغلَتْه من حاله ووقتِه ، فلا نقول : إن ذلك يدلُّ على تحريم أعلامِ الثوب، بل إنه استشعر أنها شغَلَتْ قَلْبَه فخَلَعَها، فكذلك سدُّ أُذنيه .

وأمَّا احتجاجُهم بقول ابن مسعود : « الغِنَاءُ يُنبتُ النِّفاقَ في القلبِ كما يُنبِتُ الماءُ البقلَ » ، وبقول الفُضَيل : « الغِنَاءُ برقية الزنا » ، وبقوله ﷺ : « ما رَفَعَ أحدٌ صوتَه بغناء إلَّا بعث اللهُ له شَيْطَانَيْن على منكبيه يضربَان بأعقابِهما على صدرِه حتَّى يمسك »[2] ، وقول عُثمان ﷺ : « منذُ أسلَمتُ ما غَنَّيتُ ولا تمنَّيتُ ، ولا لَمستُ ذَكَرِي بيميني منذُ بايعْتُ رسول الله ﷺ » ، وقول رسول الله ﷺ : « كان إبليسُ أوَّلَ مَنْ ناحَ وأوَّلَ مَنْ تغنَّى »[3] . وقول عائشة - رضي الله عنها - : « إن الله حَرَّم القينة وبيعَها وثمنَها وتعليمَها » ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ (النجم ٥٩-٦٠) . قال ابنُ عباس : هُوَ الغِناء بلُغَةِ حِمْير ، فيلزمُ من هذا إذا

(١) في الأصل : لم ينكر ولم يبطله وهل خروج على السياق .

(٢) رواه الطبراني ٨/ ١٨٠ من حديث أبي أمامة، وضعفه الهيثمي ٨/ ٣٦، والألباني في الضعيفة (٩٣١).

(٣) ذكره الغزالي في الإحياء ٢/ ٢٨٥، وقال العراقي في المغني ١/ ٥٧٣: لم أجد له أصلا من حديث جابر، وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب، ولم يخرجه ولده في مسنده. ووافقه الألباني في الضعيفة (٤٤٤).

قُلنا بتحريمِهِ أَنْ يُحرَّمَ الضَّحِكُ أيضًا ، وعدم البكاء قياسًا ، ويُحرَّمُ في حديث عثمان مسُّ الذَّكَر والتَّمنِّي قياسًا أيضًا ، ويَلزم من هذه الأحاديث كلِّها ، إذا قُلنا بإطلاق التَّحريم فيها أن يكونَ رسولُ الله ﷺ فَعَلَ حرامًا ، أو أَمَرَ بحرام ، أو رَضِيَ حرامًا ، ومَنْ ظَنَّ ذلك بِنبيِّه فقدْ كَفَر ، وقد ثبَتَتْ النصوصُ بالغناء في بيته وضرْبِ الدُّف في حضرته ، ورقْصِ الحبوش في مسجدِه ، وإنشادِ الشِّعر بالأصواتِ الطيِّبة بين يديه ، فلا يجوزُ أن تقولَ بتحرِيم الغِناءِ وسَماعِه على الإِطْلاقِ ، ولا بإباحتِه على الإِطْلاقِ ، بل يختلفُ ذلك باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ ، وأربابِ الرِّيَّاء والإخلاص .

فنقول : إنَّ السَّماعَ ينقسِمُ إلى ثلاثة أقسام : منه ما هو حرامٌ محض ، وهو الأكثرُ للناس من الشبان ، ومَنْ غلبَتْ عليهم شهواتُهم ولذاتُهم ، ومَلَكهم حُبُّ الدُّنيا ، وتكدَّرَتْ بواطنُهم ، وفسدَت مقاصدُهم ، فلا يحرِّكُ السَّماعُ منهم إلَّا ما هو الغالبُ عليهم وعلى قلوبِهم من الصِّفَات المذمومةِ لا سيما في زمانِنا هذا ، وتكدُّرِ أحوالنا ، وفسادِ أعمالِنا. وقد رُوِيَ عن الجُنَيد ﷺ أنه تَرَكَ السَّماعَ في آخر عُمره ، فقيل له : كنت تَسمعُ ، أفلا تسمع ؟ فقال: مع مَنْ ؟ فقيل له: تسمع أنت لنفسِك. فقال: ممَّنْ ؟ فالسَّماعُ لا يحسُن إلَّا بأهلِه ومع أهلِه ومِنْ أهلِه . فإذا انعدم أهلُه واندرَس (...) فيجِبُ على العارِفِ تَركُه .

القسم الثاني منه مباحٌ ، وهو لِمَنْ لاحظَّ له منه إلَّا التلذُّذُ بالصوتِ الحسن [و] استدعاءِ السُّرورِ والفرح ، أو يتذكرُ بِهِ غائبًا ، أو (...) فيستثِيرُ حزنُه فيستريحُ بما يستمِعُ عنه .

القسم الثالث منه مندوبٌ إليه ، وهو لِمَنْ غلبَ عليه حُبُّ الله - تعالى - والشوقُ ، فلا يحرِّكُ السَّماعُ منه إلَّا الصفاتِ المحمودة [التي] تُضاعِفُ

الشوقَ إلى الله - تعالى - واستدعاءَ الأحوالِ الشَّريفةِ والمقاماتِ العليَّة والكراماتِ السَّنيَّة والمواهِبَ الإلٰهية .

وجُملُ القولِ في ذلك أنَّ مَنْ سَمِعَ فظهرَتْ عليهِ أَوْصَافُ نفسِه ، وذَكَّرَتْهُ حظوظُ دُنْيَاه ، واستَثَارَ بسماعِه وَسْوَاس هواه فالسَّماعُ عليه حرامٌ مَحْض ، ومَنْ سَمِعَ فظهَر له ذِكْرُ ربِّه وخوفُ ذنبِه ، وتَذَكَّرَ آخرتَه فأَنْتَجَ لهُ الذِّكرُ شَوقًا إلى الله وخَوفًا منه ، ورجاءً لوَعْدِه ، وحَذَرًا مِنْ وَعِيدِه ، فسَماعُه ذِكْرٌ مِنَ الأَذكارِ ، مكتوبٌ في صحائفِ الأَبرارِ ، ولقد أشرْتُ إلى هذا المعنى في هذه الأبيات : [وافر]

إذا مَـا كُنْـتَ مُسْـتَمِعًا لِقَـوْلِي ... فَبِالقَـلْبِ اسْتَمِعْ مِـنْ قَبْـلِ أُذنِ
وأَلْقِ السَّـمعَ تَشْـهَدْ كُـلَّ مَعْنًـى ... وَتَسْـمَـعْ في شُـهُـودِكَ كُلَّ فَـنِّ
وَمَنْ يَكُ وَجْـدُهُ وَجْـدًا صَـحِيحًا ... فَـلَمْ يَحْتَـجْ إلى قَـوْلِ المُغَـنِّي
لَـهُ مِـنْ ذَاتِـهِ طَـرَبٌ قَـدِيمٌ ... وسُـكْرٌ دَايِـمٌ مِـنْ غَـيْرِ دَنِّ
فَدَعْني مِنْ تَغَـزُّلِ قَيْسِ لَيْـلَى ... ومِـنْ أبيـاتِ شِـعْرِ جَمِيـلِ بُـثْنِ
فَفِيَّ شَـغَفٌ عَـنِ الإشـهَارِ يُلْهِـي ... وفِيَّ طَـرَبٌ عَـن الأوتـارِ يُغْنـي
وفِيَّ إِيَّـايَ كلُّ لطَـيفِ مَعْـنًى ... ومِنِّي إنْ سَـمِعْتَ سَمِعْتَ عنِّي
وَمَـا وَجْـدِي بمقتطَـعٍ ولكنْ ... بحيـثُ يكـونُ مَحبُـوبِي يَجِـذْنِي
فـإنْ لَمْ تُـدْرِكِ المَعْـنَى وتَـدْرِي ... خفَـايَا مَـا أَقُـولُ فَلَا تَلُمْنِـي
ومَنْ حَـضَـرَ السَّماعَ بِغَـيْرِ قَـلْبٍ ... ولَمْ يَطْـرَبْ فـلا يَلُـمِ المُغَنِّـي
وإنْ تَكُ يا عَـذُولِي جَهِلْـتَ أَمْـرِي ... فَـدَعْ عَنْـكَ المَـلَامَ وخَـلِّ عَنِّـي
أُغَنِّي[1] باسْـــم حِبِّي لا أُكنِّي ... وإنْ كنَّيْـتُ عَنْـهُ فَـذَاكَ أَعْنِـي

(١) في الأصل : أعني ، وبه ينكسر الوزن .

وَرَاحِي إنْ شَرِبْتُ فَصَفْوُ وُدِّي ... وَزَادِي إنْ قَصَدْتُ فَحُسْنُ ظَنِّي
ولا أرضَى إذا لَمْ تَرْضَ عَنِّي ... نَعِيمًا لا ولا جَنَّاتِ عَدْنِ
وَمَا نفْعِي بِدَارٍ لَسْتَ فِيهَا ... وأنتَ القَصْدُ يَا أَقْصَى التَّمَنِّي

انتهى المرادُ منه برمَّتِه ، وبالله التوفيق .

قلت : وفي « المنن » للعارف بالله الشَّعراني أنَّ سببَ تحريكِ الإنسانِ رأْسَه حالَ الذِّكْرِ وتِلَاوة القرآن ، [أن الرُّوحَ][(1)] تشتاقُ إلى القربِ من حَضْرة ربِّها إذا سمِعَتْ كلامَه ، أو اسْمَه، وتكادُ تلحقُ بعالمها السماوي اهـ. قال شيخُنا النَّاصر اللَّقَّاني في آخرِ جوابٍ له عن سؤالِ سائلٍ عن إمامِ قريةٍ يَؤُمُّ الفقراءَ ويقولُ معهم بالسَّماعِ وآخر ما نصه : « ولا بأسَ بالاهتزازِ عِنْدَ الذِّكْرِ أو تِلَاوَةِ القُرآنِ أو الشِّعْرِ المهيِّجِ إلى طاعة الله ورسولِه ، إذا لَمْ يَكُنْ مِنْ اختيارٍ » ، ثُمَّ قالَ بَعْدَ كلام كثير : « إنَّ الذِّكرَ له لذائذُ كالمُطْعَمَات والمُشْرَبَات » ، ثُمَّ قالَ : « لقدْ سألْتُ أستاذي عن ذلك ، فقال : ما دلَّكَ على الله فهوَ مِنَ الله ، وما دلَّك على غيرِه فهو من الشيطان » ، إلى أن قال : « لَمْ تَزَلِ الأشعارُ المشتملةُ على الوَعْظِ والتذكيرِ ومَدْحِ النَّبِيِّ ﷺ تُنْشَدُ بِحَضْرَةِ العلماءِ العاملين والأفاضل قديمًا وحديثًا ، ولَمْ نَسْمَع أحدًا منهم أنْكر ذلك ، بل يزدادُون بذلك خشوعًا ومحبةً في النَّبيِّ ﷺ وتعظيمًا لجنابهِ عِنْد سماعِ مدحِه وذِكْرِ فضائلِه .

ومِمَّنْ رأيتُه تُنْشَدُ قصائدُ الأفاضِلِ المشتملةِ على ما ذكر بحضرتِه : الشيخ العالِم العلَّامة المفتي سيدي عبد الرحمٰن الأجهوري ، والشيخ العالم المفتي إمام وقته سيدي محمد الخَرُّوبي الطرابُلسي ، خصوصًا في شهر مولده ﷺ ، وهذا هو عينُ السَّماعِ ، فلو كان مُحَرَّمًا لذاتِه ما وَسَعَ أحَدًا من هؤلاءِ

(١) في الأصل : فكان للروح .

سماعُه ، هذا ما نعتقدُه في جنابهم العالي بما نعرفُه مِنْ تحقُّقِهم وديانتهم وأخْذِهِم بالأحْوَطِ ، إلى أن قال[1] :

بسم الله الرحمٰن الرحيم : والحقُّ ما قاله الغزَّالي ، وهو إنما يحرُم مِنَ السَّماع ما حرَّكَ مِنَ القلبِ ما هو مرادُ الشَّيْطَان ، والكلامُ عن السَّماعِ طويلٌ لا يمكن استقصاؤُه ، وغايةُ ما فيه أنَّهُ مما اختَلَفَ فيه العلماءُ ، ولكلٍّ وجهةٌ ، وكلُّ وقْتٍ وسَماعٍ بِحَسَبِه ، فمَنْ وقَعَ في زمانِه سَماعٌ مفقودُ الشُّروطِ مشوبٌ ببعضِ المُحرَّمَاتِ من حُضورِ نساءٍ أو صِبْيانٍ أو آلاتٍ مُحَرَّمَةٍ وما أشبه ذلك، قال بتحريمه ، ومَنْ وقع في زمانِه سَماعٌ متوفِّرُ الشروطِ خالٍ من الموانِعِ ، قال بجوازه ، بل باستحبَابِه .

ثم قال : وأما استماعُ الشِّعْرِ المتضمِّن لمدحِ رسُولِ الله ﷺ والبَعْثِ على الخيرِ والعملِ به فسائغ . ثم قال في آخر الجواب : والحَقُّ أنَّ السَّمَاعَ إذا وَقَعَ بصوْتٍ حَسن ، بشِعْرٍ متضمِّنٍ الصِّفَاتِ العَلِيَّةِ والنُّعُوتِ النبوية ، خاليًا عن الآلاتِ المُحَرَّمَة ، وأثار كامِنِ المحبَّة الشَّريفة ، وضَبَطَ السامعُ نفسَه ما أمكنَه ، بحيث لا يَرفعُ صوتَه بالبكاء ، ولا يُظهر الوَجْدَ وهو يَقْدِرُ على ضَبْطِ نفسِه كان مِن الحُسْن في غاية ، ولتمام تزكية النَّفْسِ نهاية ، نَعَم تَرْكُهُ والاشتغالُ بما هو أعلى أسلمُ ، لخَوْفِ الشُّبْهَة ، وللخروج من الخلاف . انتهى ما رُمْناه من جوابِ شيخِنا النَّاصِرِ المذكور .

ثم أجابَ عَقِبَه أخوه شمسُ الدِّين اللَّقَاني - رحمه الله - ونصه : « الحمدُ لله وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وآله وسلم ، اعْلَمْ أنَّ السَّمَاعَ المذكورَ عنه عند الصوفيةِ المجرَّدِ الخالي مِن الآلات فيه اختلافٌ مشهور ، فأكثرُ

(١) فراغ في الأصل قدر ثلاثة أسطر ، لعله يدل على انقطاع .

الفقهاء يُنكره، وأكثرُ الصوفية يترخَّصُ فيه، فإذا توفَّرتْ شرائطُه المنصوصةُ عند أهلِ الفضلِ لا يكونُ قادحًا في شهادةٍ ولا في إمامة ، كما صرح بذلك فرج بنُ لب[1] وغيرُه ، والاتفاقُ أنه ليس من فروضِ الدِّين ، ولا مِنْ سُننه ، وإنما هو رخصةٌ لأهلِه عند توفُّرِ شرائطِه ، بحسبِ الزَّمان والمكانِ والإخوان ، وبحَسَبِ المتعاطِي في نَفْسِه ، فقدْ يكونُ مغلوبًا وقَدْ يكونُ متمكِّنًا يُريدُ تَدْرِيجَ غيره ، وقد يكونُ مساعِدًا للغير، حيثُ تنبغي المساعَدة، وشرْحُ ذلك لا تفِي به هذه البطاقة ، وحاصِلُ الأمرِ أنَّ السَّماعَ مَنهلٌ مورودٌ قديمًا وحديثًا ، ولكنَّه قد يصفو ، وذلك لأهلِه فيستريحون به من الأثقال ، ويستفيدون فيه نفائسَ الأحوال ، والحالُ عندهُم إذا نزلَتْ قَدْ تقتضي صِياحًا ، وقَدْ تقتضي بُكاءً ، وقَدْ تقتضي ضَحِكًا وطَرَبًا ، وقَدْ تقتضي حركاتٍ للجسد ، إمَّا دورانًا وإمَّا رَقْصًا وإمَّا تصفيقًا ، وإمَّا غَشْيًا ، إلى غير ذلك مما هو مفصَّلٌ وواقعٌ يعرفُه مَنْ نَزَلَ به ، وذو البصيرة من غيره ، وقد يَخْبُثُ وذلك لغيرِ أهله ، وهو الغالبُ ، ولا سيما في هذه الأزمنة ، نسألُ اللهَ العافية ، فيقَعُ ذلك إمَّا عَنْ واردٍ شيطاني ، وإمَّا اختيارًا كذبًا ودعوى ، والأمرُ في ذلك مشْتَبِه .

ثم قال : فإنْ لَمْ تتوفَّر فيه الشروطُ المذكورةُ فلا يحِلُّ أَنْ يقولَ بِه مُسلِمٌ ، وحاصلُ الفتوى فيه على الاختصار ، بحسَبِ الفاعلِ في نفسِه ، فإنْ نَزَلَ بِهِ أمرٌ غالبٌ لَمْ يبقَ له معهُ تخييرٌ واختيارٌ فلا كلامَ عليه حتَّى يفيقَ وحتَّى يرجعَ إلى اختياره ، وهو مدفوعٌ لِمَا قُضِي عليه من محمود أو مذموم ، وحقُّه بعدَ الإفاقةِ أن يخافَ من المكرِ أو تلاعُبِ الشَّيْطَان ، ويتعوذُ بالله من شرِّ الشَّيْطَان ويهرَبُ من مكانِه ، ومتى أُعجِبَ به أو افتخرَ به أو عدَّه درجةً أو

---

(١) من أعلام القرن الثامن في الأندلس .

قُربًا فهو دليلُ خُسْرانه، والعياذُ بالله، وإنْ هو تَعَاطَى ذلك باختيارِه واشتغَلَ بأسبابِه ، فإنْ كان يرى ذلك دينًا فرضًا أو سُنَّة وشَرطًا(١) من شروطِ السُّلوك، فهو جاهلٌ مبتدع ، إذ قد زاد في الدِّين ما ليس فيه . وقد استعْبَدَ النَّاسَ قولُ ابن البنَّاني في المباحاتِ الأصلية ، إذْ جعله للطَّريقِ رُكنًا ، وإنْ كان يَقْبَلُ تأويلًا من جهةِ أنَّهُ يُفيد - كما أشرنا إليه أولًا - وإنْ كان اشتغالُه في وقتٍ يُضيِّعُ فيه الفريضةَ كالصَّلاة ، أو يُؤدي إلى تضييعها في المستقبل ، أو مع كيفيةٍ لا تَحِلُّ شَرعًا ككَشْفِ العورةِ ، أو كاجتماعِ الرِّجَالِ والنِّسَاء ، أو قَصدَ في باطنِه إلى التَّظَاهُرِ بالصَّلاح والأحوالِ الشريفةِ مع الخُلُوِّ عن ذلك ، أو اسْتِجْلَابِ حُظوظِ الدُّنيا من مالٍ أو جاه أو غيرِهما ، أو إيهامِ العوامِ أنَّ ذلك هُوَ طريقُ النَّاسِ وشأنُ الصالحين ، أو داخلَه بذلك اغترارٌ في نفسِه ، أو تكبُّرٌ على أبناءِ جنسه ، أو وقيعةٌ في مَنْ لا يفعلُ كذلك ، أوْ وَسَمه بالجمود ، إلى غيرِ ذلك من العوارض المذمومة ، فكُلُّ ذلك حرامٌ ، ففَاعِلُه مخدوعٌ تَجِبُ عليه التوبة عن ذلك ، والإقلاعُ والإنابةُ إلى الله والاشتغالُ بما يَعْني ، وإنْ كانَ عارفًا بهذِهِ الأحكامِ ناجيًا مِنْ هذه الوَرْطَات ، وإنما يقصِدُ بذلك مُبَاسَطةَ الإخوانِ أحيانًا مِنْ غَيْرِ إكثار ، أو يَطْمَعُ في استجلاب حالٍ رباني ، أو يُسَاعِدُ مَنْ هُوَ مِنْ أهلِه أدَبًا مَعَهُ ، فهذِهِ كلُّها [مما] لا بأس به ، وإنْ كانَ دعاه إلى ذلك حالٌ ربانيٌّ وباعثٌ من الله تعالى يعرِفُه ، فَهُوَ متعيِّن عليه ، ولا يُتَعَرَّضُ لأمثال هؤلاء ، فَهُمْ أعرَفُ بحالهم ﷺ ونفعَنَا بهم .

وأما بحَسَبِ المُنْكِرِ فهو إنْ كَان مِنَ العوام ، فحَسْبُه الاشتغالُ بنفسِه وتعلُّمِ دينه ، وترْكِ الفضول ، فمِنْ حُسْنِ إسلامِ المرْءِ تركُه ما لا يعنيه ، وإن

(١) في الأصل : شرط .

كان من العلماء فإنْ رأى مُنْكَرًا مُجمَعًا عليه ، كتضييعِ الفرائضِ ومُخالطَةِ النِّساء ونَحْوِ ذلك من المناكِرِ الظَّاهِرَةِ فيُنكِرُ بمقْتَضَى ظاهِرِ الشَّرِيعَة ، وليُضْمِرَ مع ذلك التفويضَ وحُسنَ الظَّنِّ ، ولا يَجزِمَ بما يقولُه من لسانِه ، فقد يكونُ الفاعلُ في الوقتِ مغلوبًا ، فلا يكونُ عليه لَوْمٌ بوَجْهٍ بحالٍ ، ولكنَّ الشَّرِيعَةَ تجري مَجْرَاها ، ومَنْ له عذرٌ مع الله فهو إلى الله ، فالواجبُ الإنكارُ ظاهرًا قيامًا بالشَّرِيعَةِ ، وحُسنُ الظَّنِّ والاحترامُ باطنًا قيامًا بحقِّ النِّسْبة ، وعَمَلًا بحُسْن الظَّنِّ ، ومراعاةِ الحقيقةِ ، ومَنْ ضَيَّعَ أحدَ الجانبين فَقَدْ زَلَّ ، مَعَ أَنَّ إنكارَ المنكَرِ له شروطٌ في الشَّرْعِ مقرَّرةٌ ، وإضمارُ حُسْن الظَّنِّ لا يُنافي البُغْضَ في الله الذي هو من الإيمان ؛ لأنَّ مَحْضَ البُغْضِ للفعلِ القبيحِ ، وهُوَ المُنكَرُ بعينِه لا أصحابَه بحسَبِ ذاتِه ، كما قال – تعالى – إخبارًا عن نبيه لوط عليه السلام : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ (الشعراء ١٦٨) ، ولم يَقُلْ إني لكم من القالين ، فبعد أن يُنْكَر الفعلُ ويُبْغَضَ صاحبُه بالنِّسْبة إليه ، يَبْقَى المجالُ الواسِعُ بعد ذلك في حُسْنِ الظَّنِّ به ، بل وفي حُبِّه بحَسَبِ جِهَاتٍ أُخرَى ، كالإسلامِ والانْتِسَابِ إلى الطريق مثلًا ، فإنَّه لَمْ يَنْتَسِبْ إليه إلَّا لِمحبَّتِه فيه ، ولَمْ يتظاهَرْ به إلَّا لِعَظَمَتِه في عَيْنِه ، وذلك كلُّه خير ، ومن هذه الدقيقة التي أَوْجَبَتْ حِفْظَ حُرْمتِه باطنًا يَغَارُ الله تعالى للمنتسبين إليه ، وإنْ لَمْ يكونوا على شيء ، إذا تَعَرَّضَ لهم بالشَّهْوة ومُقْتَضَى الهوى فيُخْشَى على المعترِضِ بذلك الانتقامُ ، – نسأل الله العافية والسَّلامة – .

أما مَنْ تَعَرَّضَ بحقٍّ وتحقيقٍ ونصيحةٍ للدِّين مع القيام بالواجبِ – كما أشرنا إليه أولًا – فلا مضرَّة عليه ، ولا مخالفةَ تُطْرَقُ إليه ، ولكِنَّ القيامَ بذلك على ما يُبْقِي صعبٌ ، وفي اشتغالِ الإنْسَانِ بما يَعْنِيه في خاصَّةِ نَفْسِه وإغْضَائِهِ عن الناس ، وتَرْكِهم لِمَا دَفَعُوا إليه مجالٌ رَحْبٌ ، وفي الحديث :

« إذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا وهوىً مُتَّبعًا وإعجابَ كلِّ ذي رأْيٍ برأيِهِ ، فعليك بخُوَيْصَةِ نفسِكَ »[1] وإنْ رأى أمرًا مباحًا أو أمرًا مختلفًا فيه بين العلماء فليُمْسِكْ ، وهذا بحسَبِ الإنكارِ والحِسْبة ، وأمَّا التعليمُ وتَبْيينُ القَبيح مِنَ الحَسَن والحَسَن مِنَ الأَحْسَن على طريق الإرْشَادِ والنُّصْحِ فأَمْرٌ لا بُدَّ مِنْه ؛ لأنَّ الدِّينَ النصيحة ، ولكن ذلك مشروطٌ بفِقْهِ النَّاصحِ والمعلِّمِ في ما يَنْصَحُ فيه ويُعلِّم ، وبِقَبُولِ المنصوحِ والمتعلِّم واستماعِه ، وتفصيلُ ذلك أنَّهُ لَئِنْ كانَ المعلِّم قُدْوَةً للمتعلِّم في الظاهِرِ والباطِنِ فَقَدْ تعيَّنَ عليه إرشادُه ونهيُه عن الشيءِ القَبيحِ تحريمًا أو كراهةً لِوجُودِ الحَسَنِ وُجُوبًا أو نَدْبًا ، وعن الحَسَن لِوجُودِ ما هو أحسن منه ، ولا سيما في الطريقة لاستبقائها على اتِّباعِ الأَحْسَن أبدًا ، وإنْ لَمْ يَكُن قُدوةً فإنْ كان ممَّن تُؤَدِّي إليه الطَّاعةُ ، أو مقبُولًا عند السَّامعِ لِصِحَّةِ عِلْمِه عِنْدَهُ أو صَلَاحِه ، فليعلِّمْ وَلْينصَح وإلا فلا ، ولذا ورد في الخبر : « لا يتكلَّمُ على النَّاسِ إلَّا أميرٌ أو مأمورٌ أو متكلِّفٌ » ، وقال المشايخُ ﷺ : « لا تُنكِر على أحدٍ عملَه إلَّا مَنْ يُسَلِّم عِلْمَك ، ولا دينُه إلَّا مَنْ يُسَلِّم دينَك ، وإلا فليس إلَّا اللَّجَاجُ والضجاج والفِتَنُ والمِحَنُ » وهذا كلُّه كلامٌ في السَّماعِ على الاختصارِ مِنْ غيرِ تَفْصِيلِ كَيْفِيَّاتِه .

وأمَّا ما وَقَعَ في السُّؤَالِ المذكورِ مِنَ الاهْتِزاز والرقْصِ والغِناء ... إلخ ، أمَّا الاهتزازُ إذا لَمْ يكُنْ من اختيار [فيُقْضَى][2] لصاحِبِه [بها[3]] وَرَدَ عن أنس

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨) وحسنه، وابن ماجه (٤٠١٤)، والنسائي من حديث أبي ثعلبة الخشني، وصححه ابن حبان في صحيحه ١٠٨/٢، والحاكم في المستدرك ٣٥٨/٤، ولكن ضعفه الألباني في الضعيفة (١٠٢٥).

(٢) في الأصل : ليقض .

(٣) في الأصل : فيها .

ﷺ قال : « كُنَّا عند النبي ﷺ ، قال : أَفِيكُمْ مَنْ يُنْشِدُنَا ؟ فقال بدوي : نعم يا رسول الله ، فقال : هات ، فأنشد البدوي يقول :

لقد لَسعَتْ حيةُ الهوى كَبِدِي ... فــلا طبيــبَ لهـا ولا راقِ
إلا الحبيبَ الذي شَغفتُ به ... فعنــدَهُ رُقيــتي وتِرْياقي

فتواجَدَ ﷺ وتَواجَدَ الأصحابُ معه حتَّى سقط رداءه ﷺ عن منكبيه، فلمَّا فَرَغُوا آوى كلُّ أحدٍ إلى مكانِهِ ، قال معاوية بن أبي سفيان : « ما أحسَنَ لعبُكم يا رسول الله ، فقال ﷺ : يا معاويةُ ليس بكريمٍ مَنْ لَمْ يهتزَّ عند ذِكرِ سَمَاعِ الحبيبِ ، ثم اقتسَمَ رداءَ النبيِّ ﷺ بين حاضريهم بأربعةَ مائةِ قطعةٍ»[1]، أوردَ الحافظُ الدمشقيُّ هذا الحديث في جوازِ السَّمَاعِ وإنشادِ الشِّعْرِ والتَّوَاجِدِ والرقصِ ، وقَسمِ الخِرْقَة بين الحاضرين .

وأمَّا الرقصُ فَقدْ قُلنا : إنه يمكن أن يكونَ عن حالٍ واردةٍ فلا يُذَم ، وقد حكى الصوفية في أصل ذلك ما وقع في قِصَّةِ ابنةِ سيدِّنا حمزة - رضي الله عنهما - حين اختصَمَ فيها علي وجعفر وزيد بن حارثة - رضي الله عن جميعهم - بين يدي النبي ﷺ ، فقال ﷺ لمولانا علي: «أنت منِّي وأنا منك»[2]، فخَجَل ، وقال لجعفر : أَشبهْتَ خَلْقي ، وخُلُقي ، فَخَجَل أكثرَ من الأوَّل ، وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا ، فَخَجَلَ أكثر من الأوَّل ، فهذه حركةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّادَاتِ بين يديْ النَّبِيِّ ﷺ ، لموارِدِ طَرَبٍ ولَمْ يُنْكَرْ عليهم ، وَكَفَى

(١) رواه السهروردي في عوارف المعارف ص ١٠٨-١٠٩ ، وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١١/ ٥٦٣ : مَكْذُوبٌ مَوْضُوعٌ باتِّفَاقِ أَهْلِ العِلْمِ . وقال الذهبي في الميزان ٣/ ١٦٤ : واضع هذه الخرافة عمّار بن إسحاق . ووافقهما الألباني في الضعيفة (٥٥٨).
(٢) رواه البخاري (٢٧٠٠) من حديث البراء بن عازب .

بِهِ حُجَّة . وقد يكون(١) كذبًا وتشعبًا(٢) بما لم يكن ، فإذا أُشْبِهَ الأمرُ فالتسليمُ أَوْلَى ، و ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ (فصلت ٤٦) .

وأما الغِناءُ المجرَّدُ عن الآلات فهُوَ على الجوازِ في أصلِه ؛ لأنَّهُ يَرْجِعُ إلى الإنْشَادِ ، ولَمْ يَزَلْ الشِّعْرُ يُنشَدُ بين يديه ﷺ مديحًا وهِجَاءً للمشركين ، وافتخارًا ونسيبًا وحِكَمًا ووصايا ، وكذلك الخطباء بين يديه ﷺ . وإنما التفصيل فيه بحسَبِ مَوْرده فما كان وَعْظًا في الترغيب والترهيب فجائزٌ مُطْلَقًا ، وينتفِعُ به العُبَّادُ والزُّهَّادُ وأهلُ البدايات في الطريق ، وما كان رقيقًا بذِكْرِ الفِرَاقِ والمَحَبَّةِ والشَّوْق ، ونحوِ ذلك مما يَصْلُحُ في الغائب والشاهِدِ فهُوَ صالحٌ لأَهْلِ الذَّوْق من المريدين المتخلِّصِين عن سواءِ أَنْفُسِهم الكُمَّلِ دون مَنْ سِوَاهُم ، وما كان نسيبًا صَرِيحًا بذِكْرِ القُدُودِ والخُدُودِ فلا ينبغي أنْ يُتَعاطى ، وإن كان أهلُ الذَّوْقِ الكاملون فلا حَرَجَ عليهم فيه .

ثُمَّ هذا كلُّه مختلِفٌ بحَسَبِ القَصْدِ – كما مرَّ – فمَنْ تحقَّقَ بما يَقُولُه أو يَسْمَعُه فهو مُحِقٌّ ، ومَنْ لا فَهُوَ كَاذِبٌ ، وسَامِعُه مِثْلُه . وأما الآلاتُ كالدُّف فقد حُكِيَ فيها عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ التَّوْسِعَةُ ، والجمهورُ يَكْرَهُون ذلك وَهُوَ الحقُّ ، وذلك أنَّ أكثر السَّماعِ ولا سيما في زمانِنا هذا لَهْوٌ ولَعِب ، ولهذا قال بعضُ المشايخ : « إنَّ السَّماعَ في زماننا هذا لا يقولُ بِهِ مُسْلِم ، ولا يُقْتَدَى بشيخٍ يَقُولُ بِهِ » اهـ . فمتى كان أَشْبَهَ بصُورةِ سَماعِ السَّلَفِ المجرَّدِ كانَ أقربَ إلى الجواز ، ومتى خرجَ إلى الآلات كانَ لَهْوًا مَحْضًا وباطلًا واضحًا ، ثم إنْ كانَ تحتَ سياسَة قُدوةٍ سُنِّيٍّ تقيٍّ ، خَفَّ أَمْرُهُ وصار في معنى المباسَطَةِ أحيانًا ، كما قال الشيخ أبو الحسن : « اجعل بواطنَك التقوى ثمَّ لا يضرُّك

(١) يعني الرقص .
(٢) تشعبًا : كذا ، ولعلها (تشبعًا) .

مرامُ النَّفْسِ ، وإلَّا فظُلْمةٌ بعضُها فوقَ بَعْض » وقد ضَاقَتْ البطاقةُ عن استيفاءِ الكلام والله أعلم » اهـ المراد من خط الشيخين ، بإسقاط(١) .

قلتُ : قال شيخُ مشايخنا سيدي أحمد زرُّوق ﷺ : « السَّماعُ إذا لم يَكُنْ بشروطِهِ المعروفةِ عند أهلِ الفضلِ فهو من الباطل » ، وقال في موضع آخر بعد كلام كثير : « فهو ممَّا تُسْرِعُ إليه نُفُوسُ الجاهلين ، وتُولَعُ به قلوبُ الغافلين ، وتُؤْثِرُهُ طباعُ الباطِلِين ، وتَجْنَحُ إليه كُلِّياتُ المدَّعِينَ » ، إلى أن قال : « ولا يَحْضُرُه مُقْتَدًى به إلَّا مختفيًا ، والصَّوَابُ في هذا الزَّمَانِ تَرْكُهُ ، لِمَا فيه من الفَسَاد ، إذْ أهلُه اتخذوا دينَهم لَهْوًا ولَعِبًا ، وما سمِعَه الشيوخُ إلَّا تنازُلًا لإصلاحِ أبدانهم ، لئلا تَنْتَهِك ، ولإخوانهم حتَّى يُلْقُوا إليهمُ الحقَّ في قالبِ الباطِلِ » وبيانُ معاني كلامِه هذا - كما في كتاب « الانتباه » - أنَّه لَمَّا عَظُم الجهلُ خَشُنَتْ الطبائعُ وغُلِبَتْ القلوبُ ، وشَذَّتْ النفوسُ ، صار القوم لا تُفيدُ فيهمُ الموعظةُ ، ولا تُميلُهم إلى الله التَّذْكِرةُ ، ولا تُؤَدِّبُهم العِبَرَ والآياتُ ، ولا تُشوِّقُهم منازلُ الجنَّة إلى المسارعَةِ إلى أفعالِ الطاعات ، فصَارَ أئمةُ الهوى يَحْتالون إلى لَفْتِ قلوبِهم من جِهَةِ الطَّبْع ، كما فَعَل الشُّشتري - رحمه الله - والشِّبْلي في بعضِ مناقِبِهِ وغيرِهِما ، فإذا مرُّوا بقومٍ سُكارى في خفاء هواهم ، غرقى في بحرِ دُنْياهُم مالوا إليهم وأَنْشَدوهم بكلام له صلة وتقطيع وترنم وتشجيع ، تستلِذُّ له الأَسماعُ وتتحرَّك له الطِّبَاعُ ، وتستنشِقُه الأرواحُ وترقُصُ له الأشباحُ ، بِشَرْطِ أَنْ يكونَ في ضِمْنِه ما يُذَكِّرُ بالله ويشوِّقُ العبدَ إلى مولاه ، رجاءَ أن يسترِقَ أحدُهُم مِنْ طبْعِه الذي جُبِلَ عليه إلى جِبِلَّةٍ ما يُجْلَبُ إليه ، وهذا عِنْدَهُم من بابِ الاحتيالِ على النفوسِ ، كما قال صاحبُ المباحِثِ الأصلية : [رجز]

(١) أي أنه تصرف في النص بحذف بعضه .

احتلْ على النُّفوس رُبَّ حِيلَةٍ   أنفعُ في النُّصرةِ من قبيلةْ

فلعلَّ أحدَهم أن يسوقَ مِنْ وَصْفِ زِنديق إلى أنْ يُوصَلَ بصدِيق ، وما ذلك على الله بعزيز اهـ باختصار . تأمَّل كلامَ سيدي أحمد زرُّوق ﷺ كيف ساق الخلافَ في السَّماعِ ؛ لأنَّهُ ذكرَ النَّهْيَ ثُمَّ ذَكَرَ مُقابِلَهُ الإباحة ، إذ قال في شرحِه على « حزب البحر » : « سُئِلَ الجُنيد عن السَّماعِ فقال : كل ما يَجمَعُ العَبْدَ مع(١) مولاه فهو مُبَاح ، وسُئل عنه أبو علي الدقَّاق – رحمه الله – فقال : مِثْلَ ذَلِكَ حَاكِيًا عن المشايخ . اهـ . ثُمَّ نقل أيضًا في « النصيحة الكافية » : « وسُئل مالكٌ عن الغِنَاء فقال : أَمِنَ الحقِّ هو ؟ قالوا : لا . قال : فماذا بعد الحقِّ إلَّا الضلال ؟ » . فالغِنَاءُ غِنَاءان غناءُ حقٍّ ، وغِنَاءُ باطل ، لَمَّا أنْ قالوا له : ليس من الحقِّ ، فأجاب بقوله : فماذا بعد الحقِّ إلَّا الضلال . ولَمَّا سُئل أيضًا عن قوم يَأْكُلون كثيرًا ويرقصُون كثيرًا ، فضَحِك ، وقال : أمجانين هُم؟ فظاهرُ كلامِه لَمْ يَصْدُر مِنْه ذلك في مُطْلَقِ سَمَاع ، بل صَدَرَ منه في غير ذلك ، كاللَّهْو واللَّعِب ، إذْ لا يُحِبَّ تضييعَ العُمُر في ما لا يَعْنِي ، أما لو سُئل عن جماعة يَذْكُرون الله وَيَنْشدون كلامَ الصَّالحين لأجابَ بأنَّ هذا لا يُنكِرُه إلَّا ناسكٌ غَبيٌّ أو جاهلٌ غَلِيظُ الطَّبْع ، كما ذكره سيدي أحمد زرُّوق في «القواعد» عن المَقْدِسِي عن أبي مُصْعب عن الإمام مالك . تأمَّلْ نقلَ سيدي أحمد زرُّوق كيف ذَكَرَ هذا وذَكَرَ مُقَابِلَه .

والحاصلُ أنَّ السَّماعَ من الأمر المختلَفِ فيه ، لا يُنكَر على فاعله ، قال عياض : « ما اختلَفَ العلماءُ في تحليله وتحريمه فلا يقالُ فيه حرام » ، وقال في أوَّلِ « الإكمال » : « لا ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكَرِ أنْ يَحمِلَ

(١) في الأصل : على .

النَّاسَ على اجتهادِه ومذهبِه ، وإنما يُغيِّر منهم[1] ما أُجمِعَ على إنكارِه » . وقال النووي : « المختلَفُ فيه لا إنكارَ فيه ، وليس للقاضي ولا للمفتي أن يعترِضَ على من خالَف إذا لم يُخالِفْ نصَّ الكتابِ والسُّنَّة والإجماع » . وقال ابنُ السراج : « بِدعةُ الضلالة أنْ تحكُمَ على الشَّيْءِ بغير حُكْمِه » . وقال عز الدين بن عبد السَّلام : « مِنَ الكذِبِ على الله أنْ تُلْحِقَ المكروهَ بالحرام » زاد غيرُه و « المباح بالمكروه » اهـ .

وفي «القواعد» ذَكَرَ المَقْدِسِي عن أبي مُصْعب : سُئِل مالك عن السَّماع فقال: « لا أدري إلَّا أنَّ أهلَ العلم ببلدِنا لا يُنكرون ذلك ولا يَصُدُّون[2] عنه، ولا يُنكِرُه إلَّا ناسكٌ غبي أو جاهلٌ غليظُ الطَّبع » . وقال صالح بن أحمد بن حنبل - رحمهم الله - : « رأيتُ والدي يستمِعُ من وراءِ الحائط لسماعٍ كانَ عِنْدَ جيراننا » ، إلى أن قال : وقيل للحسنِ بنِ سالمٍ : كيف تُنكِرُ السَّماعَ وقد كان الجُنيد وسُريق السَّقطي وذُو النون المصري يسمعون ؟ فقال كيف يُنْكَرُ السَّماعُ وقد أجازَه وسَمِعَه من هو خير مني ومنك ؟ وقد كان جعفرُ الطيَّار يسمَعُ ، وإنما المكروه اللَّهْوُ واللَّعِبُ في السَّماعِ ، وهذا قولٌ صحيحٌ اهـ .

وبهذا يظْهَرُ ما في قولِ صاحِبِ « المدخل » مَا بَلَغَنِي أَنَّ أَحَدًا مِنَ السَّلَفِ الصَّالِح فَعَلَ السَّمَاعَ ، إلى آخر كلامِه ، والظَّاهِرُ أنَّ مُرَادَهُ السَّمَاعُ المعهودُ على المشتهرين بِهِ مِنْ أهلِ زمانه ، فإنَّهم أهْمَلوا شُرُوطَه وارتكبوا المناكِرِ فيه اهـ . وذَكَرَ الشيخُ أحمد الونشريسِي في « المعيار » ما نصُّه : « وفي رحلةِ الخطيب أبي عبد الله ابن رُشَيد ما نصُّه : حكى الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي المحدث الصوفي قال : وأخبرني أبو محمد بن أحمد

---

(١) في الأصل : منه .
(٢) في الأصل : لا يقصدون .

ابن أبي موسى الهاشمي عن السَّماع فقال : ما أدري ما أقولُ فيه ، غير أنِّي حَضَرْتُ بِدَارِ شَيْخِنَا أبي الحسن عبد العزيز بن الحارث التَّميم شيخ الحنابلةِ سَنَةَ سَبْعٍ وثلاثمائة ، في دعوةٍ عَمَلَهَا لأصحابه ، حَضَرَها الشيخُ أبو بكر الأبهري شيخُ المالكية ، وأبو القاسم الدَّارِكي شيخُ الشافعية ، والقاضي أبو بكر الباقلاني شيخُ الطوائف ، وإمامُ وقته أبو الحسن طاهر بنُ الحسن شيخُ أصحاب الحديثِ ، وأبو الحسن بن سمعون شيخُ الوعَّاظ والزهَّاد ، وأبو عبد الله بن مجاهد شيخُ المتكلمين ، فقال أبو علي لو سَقَطَ السقف على هؤلاء لم يبقَ أحدٌ في العراقِ يُفْتي في نازلةٍ يُشْبه واحدًا منهم ، وحَضَر مَعَهم أبو عبد الله غُلامُ بابا وكان يَقْرَأُ القرآن بصوتٍ حَسَنٍ ، وربما قال : فقيل له وهُمْ يسمعون فقال : [بسيط]

خَطَّتْ أَنَامِلُهَا في بَطْنِ قِرْطَاسِ ... رِسَالةً بِعَبِيرٍ لا بأَنْفَاسِ
أَنْ زُرْ فَدَيْتُكَ لي مِنْ غَيْرِ مُحْتَشَمٍ ... فإنَّ حُبَّكَ لي قَدْ شَاعَ في النَّاسِ
فَكَانَ قَوْلِي لِمَنْ أَدَّى رِسَالَتَهَا ... قِفِي لِأَمْشِي عَلَى العَيْنَيْنِ وَالرَّاس

قال أبو علي فبعدما رأيتُ هذا لا يمكنني أن أُفتي في هذه المسألة لا بحَظْر ولا بإباحة ، وقال سعد بن عيسى : « أتى ابنُ سَرْحون الشاعر إلى الإمام مالك وقال : قلتُ شِعرًا أردتُ أن تراه وتسمعَه ، فقال مالك : لا ، وظنَّه هجاء ، فقال : لتسمعنَّه ، فقال : هاتِ ، فأنشَدَ فقال : [طويل]

سَلُوا مَالِكَ المفتي عن اللَّهْو والغِنَا ... وحُبِّ الحِسَانِ المُعْجِبَاتِ العواتِكِ
فيفتيكُمُ أَنِّي مُصِيبٌ وَإِنَّمَا ... أُسَلِّي هُمُومَ النَّفسِ عَنِّي بِذَلِكِ
فَهَلْ في مُحِبٍّ يَكْتُمُ الحُبَّ والهَوَا ... أَثَامٌ وهل في ضمَّةِ المُتَهَالِكِ[1]

(١) يبدو من خلال النظر إلى خصائص النص الشعري أنه مصنوع ولا ينتمي إلى عصر مالك لغة =

قال : فضَحِكَ مالكٌ ، وكان قليل الضحك ». ا هـ . من المعيار ، والله أعلم .

قال الشيخُ تاج الدين السبكي - رحمه الله - : « حَضَرْتُ سَمَاعًا فيه الشيخُ رَسْلانُ فأَنشَدَ القوَّالُ شيئًا ، فكان الشيخُ رسلانُ يَثبُ في الهواءِ ويَدُور فيه دَوْرَاتٍ ، ثُمَّ ينزِلُ إلى الأرضِ يسيرًا يسيرًا ، يَفْعَلُ ذلك مرارًا والحاضرون يُشاهدونه ، فلمَّا استقرَّ على الأرضِ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إلى شجرةِ تِينٍ في تلك الدَّارِ قَدْ يَبِسَتْ وقَطَعَتْ الحَمْلَ مدة سنين ، فأَوْرَقَتْ واخْضَرَّتْ وأَيْنَعَتْ وحَمَلَتْ التِّين في تلك السنة اهـ»(1).

وأمَّا الدُّفُّ فقد تقدَّمَ الكلامُ عليه مِنْ أَنَّه كان إذَا ضربَه سَمِعَ الذِّكْرَ مِنْ كلِّ أنملةٍ(2) من أناملِه ، وقدْ كنتُ قَيَّدْتُ شيئًا مما له تعلُّقٌ بطريقِ الشَّيخ أَكْثَرَهُ من المعيار ، ذكرتُه في الكبير ، غَيْرَ مَا ذُكِر آنفا في السَّمَاع ، ورأيتُ أَنْ أَذْكُرَ البَعْضَ(3) منه هنا ، وإن كانتْ دفاترُ الأئمة مملوءةً بها يشفي الغليل في جوازِ ذلك في المذهب وغيره ، ولو مع شَدِّ الآلة .

فأقولُ - وبالله التوفيق - : الحمدُ لله والصَّلاةُ والسَّلام على سيدنا محمد ﷺ ، ففي المعيار : « سُئل الشيخ أبو سعيد بن لُبٍّ عن الدُّفِّ المزنَّج :

= وقافية ووزنًا ، فالمفتي محلها النصب وحركة الفتحة تكسر الوزن ، وحركة الكاف في «ذلك» الفتحة وكسرها مراعاة للقافية ، والنص في الأصل كثير التصحيف والكسر ، والنص المصحح من ترتيب المدارك للقاضي عياض ، طبعة وزارة الأوقاف ٢/ ١٣٩ وهو في المعيار للونشريسي ١١/ ٨٠ وفي طبعته الحجرية ١١/ ٦٦ .

(١) لست في مقام التكذيب أو التصديق لمثل هذه القصة ، ولكنك لا تجد مثيلا لها في كتب القرون الإسلامية الثلاثة المفضلة ، فهي من المحدثات الطارئات على ثقافتنا الإسلامية الأصيلة صدقًا كانت أو كذبا ، فلا علاقة لها بالدين الإسلامي نصًا أو تأصيلا والله أعلم .

(٢) في الأصل : أنمل .

(٣) كذا ، والصواب : بعضًا .

هل هو من المحرَّمِ أم لا ؟ فأجاب : الحكمُ في حضور الوليمة التي تكون على ما وصفْتُم جوازَ التخلُّف عنها » ، إلى أن قال : « وأمَّا سَماع الطَّارِ بتلك الزُّنوج المعروفةِ ففيه اختلافٌ مشهورٌ بالإباحةِ والكراهةِ والمنْع ، لكن جَرَتْ عادةُ شُيُوخ العلماءِ وأئمَّةِ الفقهاءِ بحضُورِ مَوْضِعِ ذَلِكَ وسَماعِهِ تَرَخُّصًا لمكان الاختلاف » . انتهى من المعيار فراجع فيه حُكْمَ الغِنَاء وآلتِه .

وبعد هذا في ذلك التَّقْييد ما نصُّه : بعد البَسْمَلَةِ والصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمد وآله . ومن كتاب «المعيار» للونشريسي ما نصُّه : « وسُئِلَ الفقيهُ العالمُ المفتي أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن موسى العَبْدُوسِي عن مسألةٍ من نَمَطِ ما تَقَدَّم سألهُ عنها الفقيهُ القاضي أبو العباس أحمد بن العِجْلَ الوزواوي » ، نصُّ السؤال : « الحمدُ لله دائمًا وصلَّى اللهُ على سيدنا محمَّدٍ المبعوثِ رحمةً وراحمًا . سيِّدِي : - رَضِيَ الله عَنْكُم وأرضاكم وحفِظَكم وقوَّاكم وأعلاكم على ما أولاكم - جوابُكم - رضي الله عنكم - عن مسألةٍ وهي أنَّ عِنْدَنا جماعةً بموضِعٍ منقطعِينَ إلى العبادةِ من الصَّلاة والصِّيَامِ وقِرَاءةِ القُرآن ، وتعليم أولادِ المؤمنين والسَّعْي في قضاءِ حوائجِهم ، والأراملِ والأيتامِ والمساكِين والإصلاحِ بين المسلمين ، مُتعاونين على ذلك مُدَاومين عليه ، وفيهم رجلٌ له عليهم شُفُوفُ العِلْمِ ، ومعَهُ منه حَظٌّ وافرٌ مما يُحتاجُ إليه في دينِه ، من فِقْهٍ وتَصَوُّفٍ اتخذَهُ أصحَابُه شيخًا في ذلك [و]قُدْوَة ، وكُلُّهم ظَاهِرُوا الخَيْرِ صَالحوا الأحْوَال ، غيرَ أنَّهم يجتمعون في المَوْلِدِ وشِبْهِه للوَعْظِ والتذكير ، وربما يُنْشِدُ لهم مُنْشِدٌ أشعارًا في مَدْحِ النبي ﷺ ، وفي ما يناسِبُ ذلك مما يَحُضُّ على الطَّاعَةِ مِنْ غَيرِ اجْتِمَاعِ رِجَالٍ ونساءٍ في ذلك ، وطَعَن بعضُ الناس عليهم في ذلك ، وقال : هذه بدعةٌ ومُنْكَرٌ . فطلبَ مِنِّي الجماعةُ المذكورةُ المشارُ إليها الكَتْبَ إليكُم ؛ لتُشِيرُوا عليهم

بمُقْتَضَى العِلْمِ في ذلك ، فيتَّبِعُون رأيَكم ، وأجرُكُم على الله ، والسَّلام مِنْ مُقَبِّلِ أيديكم المعترِفِ بأياديكم مُحِبِّكم أحمد بن عبد الله من أولاد العِجْل ، لطفَ اللهُ بِه .

فأجابَ : الحمدُ لله وحدَه دائمًا ، واللهُ الموفِّقُ للصوَّاب بمنِّه : إنَّ أحوالَ الجماعةِ المذكورة - أدام الله تعالى استقامَتَهُم وأَحْسَنَ بطاعَتِهِ معاونَتَهم - أحوالٌ حسنةٌ مَرْضِيَّةٌ شَرْعًا ، فيا ليتني كُنْتُ معهُم فأفوزَ فوزًا عظيمًا ، واجتماعُهم عَلَى ما ذُكِر اجتماعٌ على طاعَةٍ مُسْتَحَبَّةٍ ، تُثْمِرُ خيراتٍ من الخَوفِ والرجاءِ والصَّبْرِ والزُّهْدِ ، إلى غير ذلك من المقاماتِ العليَّة ، والأحوال السنيَّة ، إلى غير ذلك ، إلى أن قال : ولا يُحَرَّم من ذلك إلَّا ما تَنْشَأُ عنه مفسدةٌ أو مفاسدُ من اختلاطِ الرجالِ والنِّسَاء ، ودُنُوِّ بعضِهم من بعض ، أو نَظَرٍ مُحَرَّم ، أو تحريكِ لَعِبٍ مُحَرَّم ، إلى غير ذلك من آفاتِ السَّماع التي ذَكَرَهَا علماؤنا ﷺ ، وما ذَكَرْتُم خُيُورٌ مَحْضَةٌ ، لا تَشُوبُها آفةٌ ، ولا تُكَدِّرُها مَفْسَدةٌ ، غير أنَّهم يُؤْمَرُون بِتَصْحِيحِ نيَّاتِهم ، وتَخْلِيصِ طَرِيَّاتِهِم في ذلك ، فإنَّ خِدَاعَ الشيطانِ وآفاتِ النَّفْسِ كثيرةٌ لا يُحِيطُ بها إلَّا الله سبحانه ، فيجْتَهِدُ العَبْدُ في تَصْحِيحِ نِيَّتِه ما أمكنَ ، ويعتمِدُ على فَضْلِ الله ، تعالى سبحانه ، لا على عَقْلِه ، إذْ لَوْلَا فَضْلُه لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أهلًا للقَبُولِ .

وفي الحديثِ أَنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يَضَعُ لحسَّان بن ثابت مِنْبرًا في المسجد يقومُ عليه يفاخِرُ النَّاسَ ، ويُنافِحُ عَنْ[1] رَسُولِ الله ﷺ[2]، وقد كان ﷺ ينقُلُ اللَّبِنَ في بُنْيَانِ المسجِدِ ويقول :

(١) في الأصل : عنه ﷺ .

(٢) رواه أبو داود (٥٠١٥)، والترمذي (٢٨٤٦) من حديث عائشة، وصححه، ووافقه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٥٤، والذهبي في التلخيص، والألباني في الصحيحة (١٦٥٧).

« هـذا الجمـالُ لا جمـالَ خَـيْبَرْ ... هـذا بِنَـاءُ ربِّنَـا وَأَطْهَـرْ »[1]

وقال أيضًا :

« اللهم إنَّ العيشَ عيشُ الآخرةْ ... فَارْحَمِ الأنصـارَ والمهـاجرة »[2]

أخرجه الصحيحان[3] ، ولما أنشدَ النابغة شعرًا قال : « لا يفضُضِ اللهُ فاك »[4] ، وقالت عائشة ، رضي الله عنها : « كان أصحاب رسول الله ﷺ ، يتناشدون الأشعار ، وهو يتبسم ﷺ »[5] ، وروى عمرو بن الشريد عن أبيه قال : « أنشدت النبيَّ ﷺ مائة قافيةٍ مِنْ قَوْلِ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ : هيه هيه »[6] الحديث إلى آخره .

والأخبارُ والآثارُ في هذا المعنى كثيرةٌ نَصًّا وإجراءً واستقراءً ، وفي ما ذكرناه كِفَاية ، ولا التِفَاتَ إلى طالبٍ جاهلٍ جَلْفٍ قُحٍّ ، لا يفهَمُ مَذْهَبَ مالِكٍ ولا غيرَه ، ويُحَمِّل الروايات غيرَ مَحْمَلِها ، والكلامُ مع مثل هذا غُصَّةٌ في القلبِ ، وتعطيلٌ للزمان في غير فائدةٍ عائدَةٍ على الإنسان في دُنْيَاهُ وآخرتِه، وبالله تعالى التوفيق . وكَتَبَهُ مسلِّمًا عليكُم وليُّكم في الله عبدُ الله العَبْدُوسِي . اهـ .

(١) رواه الواقدي في المغازي ٢/ ٤٤٦ عن مروان بن أبي سعيد يرسله، وهو ضعيف.
(٢) رواه البخاري (٣٧٩٥)، ومسلم (١٨٠٥) من حديث أنس بن مالك.
(٣) كذا ، والصواب : الشيخان .
(٤) رواه أبو الشيخ عن البزار بسنده في طبقات المحدثين ١/ ٢٧٦ من حديث النابغة الجعدي، وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٤٣: رواه البزار وفيه يعلى بن الأشدق وهو ضعيف.
(٥) لم أقف عليه من حديث عائشة مسندًا ، وذكره الغزالي في الإحياء ٢/ ٢٧٤، وقد روى الترمذي (٢٨٥٩) نحوه من حديث جابر بن سمرة، وحسنه، وصححه ابن حبان ١٣/ ٩٦، والألباني في الصحيحة (٤٣٤).
(٦) رواه مسلم (٢٢٥٥) من حديث الشريد بن سويد الثقفي.

والذي تقدَّمَ في قولِ الونشريسي مِنْ نَمَط ما تقدَّم ، وهو تَشْنِيعُ أبي إسحاق الشاطبي والشيخ الصالح أبي عبد الله الحفَّار على طائفةٍ ينتمون إلى التصوُّف والفَقْرِ ، ويجتمعون في كثير من اللَّيالي عند واحد من الناس ، فيفتتحون المجلسَ بشيءٍ من الذِّكْرِ على صوتٍ واحدٍ ، ثُمَّ ينتقلون بعد ذلك إلى الغِنَاء والضَّربِ بالكَفِّ والشَّطْح ، وهكذا إلى آخر الليلِ ، ويأكلون في ذلك طعامًا يُعِدُّه صاحبُ المنزل ، ويحضُرُ معهم بعضُ الفقهاء ، فإذا تكلَّمَ معهُم في أفعالِهم ، تلك يقولون : لو كانتْ هذه الأفعالُ مذمومةً أو مُحَرَّمةً شَرْعًا لما حَضَرَها الفقهاء . انتهى السؤالُ الذي يُشَنِّع عليه الشاطبي والحفَّار، فراجعه في جامع «المعيار» .

وسُئِل الشيخُ الرَّحالُ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بأبي البركات ابن الحاج(١) عن زاوية الغُرَبَاء يجتمِعُون لهم فيها يُقوِّتُونهم ويُؤَنِسُونهم بالمجالسة ، ويجتمعون على الذِّكر وإنشادِ الأشعار ، ثُمَّ يَبْكون ويَشْطحون في فصولٍ كثيرة . فأجاب : « الحمدُ لله المستعان على ما فيه رضاه ، إذا كان الأمرُ على ما كان أعلاه ، فقد جَرَى الأمرُ بالعَدْوَتَيْن على المسامحةِ فيه ، وإن فُرِضَ أَنْ يتخلَّلَ ذلك ما يتردَّدُ المجتهِدُ في إجازتِه وردِّه ، فما يُقتَرَفُ فيه من الخشوعِ والصدقاتِ وإرفاقِ ابن السَّبيلِ مَكْفولةٌ إن شاء الله » . وكتبه أبو البركات محمد بن إبراهيم بن الحاج - رحمه الله - . وتَقييدٌ عَقِبهُ بخطِّ الأستاذِ شيخِ الجماعةِ أبي سعيد فرج بن لُبٍّ ، ما نصُّه : وقفتُ على السؤال والجوابِ المُقيدِ ، وقلتُ بمثله ، والله الموفق بفضله . قاله : فرجُ ابنُ لُبٍّ حامِدًا لله ، ومصلِّيًا على رسول الله .

---

(١) يحمل اسم أبي البركات البلفيقي من علماء الأندلس ثلاثة أعلام ، هم : إبراهيم الجد ومحمد الابن ومحمد الحفيد (انظر الإحاطة ٢/ ١٤٣ والكتيبة الكامنة ١٢٧ والمرقبة العليا ١٦٤ وانظر شعر أبي البركات البلفيقي ص ٩ ، حيث تجد رجلين يحملان هذا الاسم) .

فلمَّا وصَلَ هذا الجوابُ أَهْلَ قَنَالِشْ أنكروه ، وقالوا : فَتَحْتُم علينا بابًا لا نَقْدِرُ على سدِّه أبدًا ، ونحنُ نحاكِمُكُم إلى الحُكْمِ العَدْلِ بما أَوْهَمْتُم على العَامَّةِ بذلك ، والسَّلامُ ، فأجابهم : الأستاذُ المذكور بما نَصُّه : « وَقَفْتُ فألفيتُ كَلامًا غيرَ مُعْتَدِلٍ ، وَمُنْفَصِلًا عمَّا وصفتمُوهُ بِهِ مِنَ الكلامِ غيرِ المُتَّصِلِ ، فعجِبْتُ من تحامُلِكُم لغيرِ محَلّ ، وإلحاقِكُم اعتراضًا دُونَ فَرْعٍ وَأَصْلٍ، أمَّا قولُكم في مكتوبِكُم إنَّ ثَمَّ أقوامًا يجْتَمِعُونَ بالنِّسْوَانِ ، ويَدْخلونَ في المُلْهِيَاتِ[1] ، ويلتبسون بصفاتٍ من أهل الفسادِ ، فهذا لم يجْرِ فيه من السائل كلامٌ ، ولا كان المجيبُ يَعْلَمُ الغَيْبَ فيرتِّبُ عليه الجوابَ . انتهى .

وقبلهُ أيضًا أجوبةٌ عن [أسئلة][2] فيها الرقصُ والتصفيقُ بجُمْلة مِنَ المشايخِ ، وكُلُّهُم متفقُونَ على ذَمِّ الرَّقْصِ والتَّصْفِيقِ مِنْ غَيْرِ المغلوبِ عَلَيْهِ ، وبَعْدَ السُّؤَالِ السابِقِ الذي أجابَ عنه العَبْدُوسِي سُؤَالٌ طويلٌ مِنْ نَمَطِهِ ، وفيه أَنَّ اجتماعَهم يوم الجمعة ، أجابَ عنه الشيخُ الفقيهُ الإمامُ العالِمُ القاضي سيدي قاسم بن سعيد بن محمد بن محمد العُقْباني ، وتتبَّع فُصولَه كلمةً كلمةً ، وأَثْنَى عن المسؤولِ عَنْهُم فيهِ كثيرًا كثيرًا ، فراجعْهُ إِنْ شئت .

وبعد [ذلك][3] بِوَرَقات ما نَصُّه : « وسُئل الأستاذُ أبو سعيد بن لُبٍّ عن جماعة من المسلمين يجتمعون في رباطٍ على شفةِ البحرِ في اللَّيالي الفاضِلَةِ يَقْرَؤُون جُزءًا من القرآن ، ويسمعون من كُتُبِ الوَعْظِ والرَّقائقِ ما أَمْكَن في الوقت ، ويَذْكُرون اللهَ ﷻ اسْمُهُ بأنواعٍ مِنَ التَّهْليلِ والتَّسبيحِ والتَّقديسِ ، ثُمَّ يقومُ من بينهِم قوَّالٌ يَذْكُرُ شَيْئًا في مَدْحِ النبي ﷺ ، ويُلقي من السَّماعِ ما يشوِّقُ النفوسَ إليه، وتشتاقُ سماعَه من صفاتِ الصالحين ونَعْتِ المتَّصِعِين،

(١) في الأصل : الملهيات .
(٢) في الأصل : سؤالات .
(٣) في الأصل : ذكر .

وذِكْرِ آلاءِ الله ونعمائه ، ويُشَوِّقُهم بذِكْرِ المنازِلِ الحجازية والمعاهِدِ النبوية ، فيتواجدُون اشتياقًا لذلك ، ويأكلُون ما حَضَرَ مِنَ الطَّعَام ، ويَحْمَدُون الله - سبحانه - ويُرَدِّدُون الصَّلاة على النبي ﷺ ، ويَبْتَهلون بالأدعيةِ إلى الله في صلاحِ أمورِهم ، ويَدْعُون للمسلمين وإمامِهم ، ويَفْتَرِقُون على ذلك ، فهل يَجُوزُ اجتماعُهم على ما ذُكِر ويُبَاحُ لهم ؟ أو يُمْنَعُونَ مِنْ ذلكَ ويُنْكَرُ عليهم ، ومَنْ دَعَاهُم مِنَ المحبِّين أو المعتقِدين إلى منزلِه بقَصْدِ التَّبَرُّكِ ؟ فهل يُجيبون دعوتَه ويجتمعون عندَهُ على الوَصْفِ المذكور أم لا ؟

فأجاب : وَقَفْتُ على المذكور الأعلى ، و « حِلَقُ ذِكرِ الله هِيَ رياضُ الجنَّة » كما في الحديث ، وعنه ﷺ : « ما جَلَسَ قومٌ مسلمون مجلسًا يذكرون اللهَ فيه إلَّا حَفَّتْهُمْ الملائكةُ ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَة ، ونَزَلَتْ عليهِمُ السَّكينةُ ، وذَكَرَهُم اللهُ فيمَنْ عِنْدَه »(1) ، وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الأحزاب ٤١-٤٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ (الأحزاب ٣٥) ، ويقول سبحانَهُ في ما يَرْويه عنه رسولُ الله ﷺ : « أنا مع عبدي إنْ ذَكَرَني في نفسِه ذكرتُه في نفسِي ، وإنْ ذَكَرَني في مَلأٍ ذَكَرتَهُ في مَلأٍ خيرٍ منه »(2)، ومصداقه في كتاب الله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ (البقرة ١٥٢) ، وقال العلماءُ : « ما أمرَ اللهُ بالإكثارِ من شيءٍ مِثْلَ ما أمرَ به مِنَ الإكثارِ مِنْ ذِكْرِهِ والصَّدَقَةِ لِوَجْهِهِ » ، وقال تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون ﴾ (الأنفال ٤٥) ، وقال في الصدقاتِ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٢٧٤) .

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة، و(٢٧٠٠) من حديث أبي سعيد الخدري.
(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥) من حديث أبي هريرة.

وأمَّا الإنشاداتُ الشِّعْرِيَّةُ « فإنما الشِّعْرُ كلامٌ ، حَسَنُهُ حسَنٌ وقبيحُه قبيح » ، وقد [قال الله تعالى] في شُعراءِ الإسلام : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ (الشعراء ٢٢٧) ، وذلك أنَّ حسان بنَ ثابت ، وعبد الله بنَ رواحة ، وكعب بنَ زُهير ، وكعب بنَ مالِك لَمَّا سَمِعُوا قولَه تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ (الشعراء ٢٢٤-٢٢٦) بَكَوْا عِنْدَ سَماعِها ، فأنزَل الله الآيةَ عَقِبَهَا ، واسْتَثْنَاهُم فيها .

وَقَدْ أُنشِدَ الشِّعْرُ بين يدي رسول الله ﷺ ، وَرَقَّتْ نفسُه الكريمةُ ، وذَرَفَتْ عيناه لأبياتِ أُخْتِ صَخْرٍ مما كان قد طُبِعَ عليه من الرَّأْفةِ والرَّحمة ﷺ . وأمَّا التَّوَاجُدُ عند السَّماعِ فهو في أَصْلِه آثارُ رِقَّةِ النُّفُوسِ واضْطِرَابُهَا ، فيتأَثَّرُ الظَّاهِرُ بِأَثَرِ البَاطِنِ. قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنفال ٢) أي اضْطَرَبَتْ رَغَبًا وَرَهَبًا ، وعند اضْطِرَابِ القَلْبِ يَحْصُلُ اضْطِرَابُ الجِسْمِ ، قال تعالى : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ (الكهف ١٨) ، وقال تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (الذاريات ٥٠) ، فإنَّما التَّوَاجُدُ رِقَّةٌ نفسِيَّةٌ وهَزَّةٌ قلبيةٌ ، ونهضةٌ رُوحَانيةٌ ، وهذا هو التَّواجُدُ عن وَجْدٍ ، ولا يُسْمَع فيه تنكِيرٌ من الشَّرْع .

ذَكَرَ السُّلَمي في رقائقه عن بعضِ المشايخِ أَنَّهُ كان يستدِلُّ بهذه الآية في حَرَكَةِ الوَاجِدِ في رِقَّةِ السَّماعِ والذِّكْر ، ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ (الكهف ١٤) ، وكانَ يقولُ : إنَّ القلوبَ مرتبطةٌ بالملكوتِ ، حركتُهَا أنوارُ الأذكارِ ، وما يَرِدُ عليها مِنْ فُنُونِ السَّماعِ ، وَوَرَاءَ هذا تَوَاجُدٌ لا عن وَجْد ، فهو مَنَاطُ الذَّمِّ لِمُخالَفةِ ما ظَهَرَ لما بَطَنَ ، وَقَدْ يَقْرُبُ فيه الأمرُ عند القَصْدِ إلى استنهاضِ

العزائم وإعمالِ الحَرَكَةِ في يقظةِ القَلْبِ النَّائم ، « يا أيُّها النَّاس ابكُوا فإنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَباكَوْا » ، ولكن شتَّان ما بينهما ، كما قال القائلُ في الواجِدِ الباكي والخَلِيِّ المتباكي : [وافر]

رِضَا الأحباب مُخْتَصٌّ بواحدْ   وآخَرُ يَـدَّعي مَعَـهُ اشْـتِرَاكَا
إذا اشْتَبَهَتْ دُمُوعٌ في خُدُودٍ   تَبَيَّنَ مَنْ بكى مِمَّنْ تَبَـاكـى

وأمَّا مَنْ دعا طائفةً إلى منزله فتُجَابُ دعوتُه ، وله بذلك قصدُه ونيتهُ ، وهَذَا ما ظهرَ تقييدُه في تلك المسائلِ على مُقْتَضَى الظَّاهِرِ ، واللهُ يتولَّى السرائِرَ، وإنَّما الأعمالُ بالنياتِ وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى ، والسَّلامُ على مَنْ يَقِفُ عليه مِنْ كاتِبِهِ فرج بن لُبٍّ اهـ .

ومن « المعيار » أيضًا : « وسُئل الشَّيْخ عِزُّ الدِّين بنُ عبدِ السَّلام عن جماعةٍ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ والصَّلاحِ والوَرَعِ يجتمعون في وَقْتٍ فيُنْشِدُ لَهُم مُنْشِدٌ أبياتًا في المحبَّةِ وغَيْرِها ، فَمِنْهُم مَنْ يَتَوَاجَدُ فَيَرْقُصُ ، ومنهم مَنْ يَصِيحُ ويَبْكِي ، ومِنْهُم مَنْ يَغْشَاهُ شِبْهُ الغيبة عن إحساسِه ، فَهَلْ يُكرَهُ لَهُمْ هذا الفِعْلُ أَمْ لا ؟ وما حُكْمُ السَّماعِ ؟ فأجابَ : الرقصُ بدعةٌ لا يتعاطاهُ إلَّا ناقِصُ العقلِ ، وأما سماعُ الإنشادِ المحرِّكِ للأحوالِ السَّنِيَّةِ المذكِّرِ لِمَا يتعلَّقُ بالآخرةِ فلا بأس به ، بل يُندبُ إليه عند الفتورِ وسآمةِ القلوب ، لأنَّ الوسائلَ إلى المندوبِ مندوبةٌ ، والسعادةُ كلُّها في الاتباعِ لرسولِ الله ﷺ ، واقتفاءِ الصحابةِ الذين شهِدَ لَهُمْ بأنَّهُم خَيْرُ القرون ، ولا يَحْضُرُ السَّماعَ مَنْ في قلبِهِ هَوَى خَبُثَ ، فإنَّ السَّماعَ يحرِّكُ ما في القلوبِ مِنْ هَوَى محبوبٍ أو مكروهٍ ، والله أعلم » انتهى المقصود مما في التقييد المذكور .

وفيه جوابٌ طويلٌ للشيخ إبراهيمَ الكَلْتُومِي - فراجِعْه - ، فإنَّ فيه

شفاءَ الغليلِ لهذه المعاني ، قال في آخره : « وإذا ثَبَتَ بما قَرَّرناه من الدلائلِ وَصَوَّرْناه مِنْ هذِهِ المسائلِ بيانُ فضلِ الذِّكْرِ ، وَوُرُودِ السُّنَّة بجوازِ إِنْشَادِ الشِّعْرِ وإقامةِ الحُجَّةِ بالرُّخْصَةِ في حُضُورِ مَجَالِسِ السَّماعِ ، مَعَ التَّوَاجُدِ والانْخِلاعِ وهَتْكِ السِّتْرِ وكَشْفِ القِناعِ ، عَرَفْتَ أنَّ اعْتِرَاضَ هذا المعترِضِ مَدفوعٌ ، وإنكارَه مكرٌ غيرُ مَسْموعٍ ، وإنَّما تكلَّمَ بكلامٍ سَبَهْلَلَا لَمْ يُصَادِفْ فيه مَنْهَلا ، لا يُلتفتُ إليه ، ولا يُعَوَّل في تحقيقِ الحقِّ عليه ، فالواجبُ أنْ يُعْرَضَ عنه صَفْحًا ، ويُطْوَى عنه كَشْحًا ، خصوصًا إنْ كَانَ مِنْ هَمَجِ الهَمَجِ الغافلين ، لقوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف ١٩٩) .

فَإِنْ قُلْتَ : جاء عن علماءِ الإسلامِ الأربعةِ ما يشهدُ لقولِ هذا القائلِ ، ويساعِدُه ويُصحِّحُ إِنْكَارَهُ ويُؤَيِّدُه ، وهو مَا نُقِلَ عن القاضي أبي بكر ﷺ قال : « وَجَدْتُ فتوى في عام خمسين وخمسمائة ، وعليها خطُّ أئمةِ المذاهبِ الأربعةِ ، وهو يقولُ : ما تَقولُ السَّادةُ الفقهاءُ أئمةُ الدِّين وعلماءُ المسلمين في أقوامٍ يجتمعون في المساجدِ يُصفِّقُون [و]يرقصُون ويتواجَدون ، ويُظهرون على أنفسِهِم الحُمْق ، ومَنْ أنكرَ عليهم ذلك يقولون له : أنتم على الشَّريعَة ونحن على الحقيقة . جوابُكم رضي الله عنكم ، فذَكَر جوابَ كلِّ إمامٍ منهم ، بما يتضمَّنُ الإنكارَ على هؤلاء الأقوام ، إلى أن قال : وأجابَ الحنفيُّ ﷺ ، فقال : فكُلُّ لَهوٍ حرامٌ إلَّا ثلاثة : « الرجلُ يلاعِبُ زوجَتَه ، وتأديبُ فرسِه ، ورميُه بقَوْسِه » والحصِيرُ الذي يَرْقُصُون عليه لا يُصَلَّى عليه حَتَّى يُغْسَلَ ، والأرْضُ التي يَرقصُون عليها تُحفَر ، وتُملأُ بالرَّمل . اهـ .

فهذا الإمامُ الجليلُ في عين مقالِه هذا المنكِر ، ونازلتِه ، يوشك أن يكون إلى هذه الفتوى أَسْندَ ، وعلى هذا النصِّ اعتمَدَ ، فما أنكرَ حينئذ إلَّا ما

أنكَرَتْهُ العلماءُ ، وما تكلَّمَ إلَّا بما تكلَّم العلماءُ ، فما حادَ عن طريقهم ولا خرجَ عن فريقهم ، فإنكارُه صحيحٌ لوجودِ هذا النصِّ الصَّريحِ ، فالواجبُ أنْ يُقَالَ هذا لا يُشْبِهُ ما نَحنُ فيه ، ولا يَصْلُحُ انطبَاقُه عليه ، لاختلَاف الموضوعِ ؛ لأنَّه في أقوامٍ كان اجتماعُهم على الرَّقْصِ ، والتَّصْفيق ، وإظهارِ الحُمق فقط ، على ذلك اتفقوا ، وعليه تفرَّقُوا ، لا شكَّ أنَّ هذِهِ أمورٌ مبتدَعَةٌ ، ومناكِرُ مخترَعَةٌ ، ما أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سلطان ، وليس عليها برهانٌ ، فلِهَذَا غَلَظَ الإنكارُ ، من هذا العالِمِ النَّظَّارِ ، على هذِهِ الأقوام ، لغو [من العوام](١)، لخروجهم عن الطريق ، وسُلوكِهم هذا المضيق ، غَيْرةً على الدِّين وزَجْرًا للمبتدعين .

وأمَّا هذه الطائفةُ المسؤولُ عنها ، فاجتماعُهم إنما هو على ذِكْرِ الله ، وتلاوةِ القرآن ، فَلِفِعْلِهم حُكْمُ الجوازِ في أصْلِه على ما جَلَسُوا عليه مِنْ أَوَّلِ الأمرِ إلى آخره ، ثُمَّ هُمْ عند الله على طَبَقَاتِهم ، ويُبعثُون يومَ القيامَةِ على نيَّاتِهم ، وقد تطابَقَتْ نصُوصُ أهلِ العلمِ أنَّ العملَ إذا كان أَوَّلُه لله ، على مُقتضَى ما شَرَعَ إليه ، لا يَضُرُّه ما يقع مِنَ الفترات التي لا تَملِك .

إلى أن قال : فإنَّ قَايسَ المُنْكِرِ [في] ذي المسألة على تلك المسألة ، فقياسُه غيرُ معادلٍ له(٢) ، ولعَمْرِي أنَّ هذا المرامَ لكثيرٌ ما تَزِلُّ به الأقدامُ ، إلَّا مَنْ فَتَحَ اللهُ بصيرَتَه لِتنقيحِ المناطِ وتحقيقِ المقام، وإلَّا هَوَى في هُوَّةِ الجاهلية، وسَقَطَ في وَرَطَاتِهَا ، ولذا قال العلماء : اختلافُ الأحكام دليلٌ على اختلافِ موضوعاتها ، ثُمَّ مَا يُؤَكِّدُ جَهْلَ هؤلاء الأقوام الذينَ أَفْتَى فِيهِم أبو حنيفة النعمان قولهم : نحن على الحقيقةِ وأنْتم على الشَّريعَة ، اعتقدوا أنَّ الحقيقةَ

(١) في الأصل : عن الأعوام .
(٢) في الأصل : غير معدلة .

شَيْءٌ آخرُ ، فأعوذُ بالله من الضلال ، واعتقادِ الجُهَّال: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء ٧٨) ثُمَّ أَخَذَ في تَبيين الحقيقة والشَّرِيعَة وارتباطها . اهـ ، فانظُرْهُ .

وذَكَرَ الشَّيْخ الونشريسي في « المعيار » أيضًا : في هذه النازلةِ ما نصُّه : « وممَّا يقعُ السؤالُ [عنه] هنا الاجتماعُ على الذِّكْرِ ، هل له أصْلٌ في الشَّرِيعَةِ يُهدى إليه ؟ فأقولُ وقع في الصَّحيح عن أبي هريرة ، وأبي سعيد - رضي الله عنهما - أنَّهُمَا شَهِدَا على رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يَقْعُدُ قَومٌ يذكرون الله ، إلَّا حَفَّتْهُمُ الملائكةُ ، وغَشِيَتْهُم الرَّحْمَةُ ، ونَزَلَتْ عليهِمُ السكينةُ ، وذَكَرَهُمُ اللهُ فيمن عِنْدَه » . ومِثْلُ هذا الخبر رُوِيَ في الصحيح عن تلاوة القرآن ، « وَمَا اجتمع قومٌ في بيتٍ مِنْ بيوتِ الله ، يتلون كتابَ الله ، ويتدارسُونه بينهم ، إلَّا نَزَلَتْ عليهم السكينةُ ، وغَشِيَتْهُم الرَّحْمَةُ ، وحُفَّتْ بهم الملائكة ، وذَكَرَهُم اللهُ فيمَنْ عنده ، ومَنْ أَبْطَأَ به عمَلُه ، لم يُسْرِع بِهِ نسبُه » .

قال الإمام المازَرِي : ظاهرُه يُبيحُ الاجتماع لقراءةِ القرآنِ في المساجِدِ ، وإنْ كان مالِكٌ قد كَرِهَ ذلك في المدينة ، ولعلَّهُ إنما قال ذلك ؛ لأنَّه لم يَرَ السَّلَفَ يفعلونه ، مع حِرْصِهِم على الخير ، قال بعضُ الشيوخ : ولعله مِنَ البِدَع المستحسنة ، كقيامِ[1] رمضان وغيرِه ، وقد جرى الأمرُ عليه ببَلَدِنا بين العلماء ، والأمرُ فيه خفيف . قلتُ : وجرى عليه الأمرُ بالمغرب كلِّه ، بل وبالمشرِقِ فيما بَلَغَنَا ، ولا نَكِيرَ ، وما هو إلَّا مِنَ التَّعَاوُنِ على البِرِّ وعَمَلِ الخيرِ ، ووسيلةٌ لنشاطِ الكَسْلَانِ ، وقد نَصُّوا على أنَّ حُكْمَ الوَسَائل على حُكْمِ التوسُّلِ إليه . اهـ . من جامع الونشريسي .

(١) في الأصل : لقيام .

قال شيخُنا الناصر اللقاني – رحمه الله – ما نصُّه : « ولمَّا تكلَّم سيدي محمدُ بن عبَّاد – رحمه الله – على مسألةِ الحِزْبِ قال : إنه مِنْ روايح الدِّينِ التي يتعينُ التمسُّكُ بها لذهاب حقائق الديانة في هذه الأزمنة ، وإنْ كان بدعةً فهو مما اختُلِفَ فيه ، وغايةُ القولِ فيه الكراهةُ ، فصحَّ العملُ به على قولِ مَنْ يقولُ به ، وقد يُلحَقُ به الذِّكْرُ في بعضِ الأماكن والأوقات بشرْطِه، ولعلَّ الشارعَ ما قَصَدَ بِتَرْغِيبِه مِنْ بَعْد الصَّدْرِ الأَوَّلِ لاحتياجِهم بِهِ ، فأمَّا قولُ ابنِ مسعودٍ ﷺ لقومٍ وَجَدَهُم يَذْكُرون اللهَ جماعَةً : « لَقَدْ جِئتُم ببدعةٍ ظُلمًا ، أو لقد فُقْتُم أصْحابَ محمدٍ عِلمًا » ، فالجوابُ عنه : أنَّه لمْ يبْلُغْهُ حديثُ التَّرْغِيبِ فيه ، وأنَّهُ أنْكَرَ الهيئةَ ونَحْوَهَا ، وإلَّا فلا يَصِحُّ إنكارُهُ بِهذا الوَجْهِ بعدَ صِحَّةِ الحديث » انتهى كلامُ ابنِ عبَّاد .

قلتُ : وفي حديث « إنَّ الذاكرين الله جماعةً هم القومُ الذين لا يشقى بهم جليسُهم » كما في صحيح مسلم والبخاري من حديث أبي هريرة قال : « قال رسول الله ﷺ : إنَّ لله ملائكةً يطوفون في الطرق يلْتمِسون أهلَ الذِّكْر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادَوْا هَلُمُّوا إلى حاجَتِكُم ، قال : فَيَحفُّونَهُم الملائكةُ بأجْنِحَتِهم إلى السَّماءِ الدُّنْيا ، قال : يَسْأَلُهُم رَبُّهُم – وَهُوَ أعْلَمُ مِنْهُم – مَا يقولُ عِبَادِي ؟ قال : فيقولون : يُسبِّحُونَك ويُكبِّرُونَك ويَحْمدُونَك ويُمجِّدُونَك ، قال : فيقول هل رَأَوْني ؟ فيقولون :لا والله ما رَأَوْك ، قال : فيقول : كيف لو رَأَوْني ؟ قال : يقولون : لو رَأَوْك كانوا أشدَّ عبادة ، وأشدَّ لك تحميدًا ، وأكثرَ لك تسبيحًا ، قال : فيقول فما يسألونني ؟ قال : يقولون : يسألونَك الجنَّة ، قال : يقول : وهل رَأَوْهَا ؟ قال : يقولون : لا والله يا رَبُّ ما رَأَوْهَا ، قال : يقول : فكيف أنهم لو رَأَوْهَا ؟ قال : يقولون : لو أنهم رَأَوْهَا كانوا أشدَّ عليها حِرْصًا وأشدَّ لها طلبًا وأعْظَمَ فيها

رغبةً ، قال : مما يتعوَّذُون ؟ قال : يقولون : من النَّار ، قال : يقول : وهل رَأَوْهَا ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رَأَوْهَا ، قال : يقول : وكيف لو رَأَوْهَا ؟ قال : يقولون : لو رَأَوْهَا كانوا أشـدَّ منها فرارًا وأشدَّ لها مخافةً ، قال : فيقول : فاشهدوا أني قد غَفَرْتُ لهم . قال : يقولُ مَلَكٌ من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم »[1] .

قال ابن (...)[2] قال : « يقولُ بالإفراد كذا لأبي ذَر » ، ولغيره : « قالوا يقولون » ويُؤخذ من مَجمع طُرق الحديث : إنَّ المراد بمجالسِ الذِّكْرِ التي تَشْتَمِلُ على ذِكْرِ الله بأنواعِ الذِّكْرِ الوارِدِ من تسبيح وتكبيرٍ وغيرهما ، وعلى تلاوةِ كتابِ الله تعالى ، وعلى الدُّعاء بخيرِ الدُّنيا والآخرة ، وفي دخولِ قراءةِ الحديث النبوي ، ومُدارسة العلمِ الشرعي ومُذاكرته ، والاجتماع على صلاة النافلة في هذه المجالس نَظَر ، والأشبهُ اختصاصُ ذلك بمجالس التسبيح والتكبير ونحوهما والتِّلاوة فحَسْب ، وإنْ كانت قراءةُ الحديث ومُدارسةُ العلمِ والمناظرةُ فيه من جملةِ ما يدخُلِ تحت مُسَمَّى ذِكْرِ الله سبحانه .

وقولُهم : « فيهم فلان » ، في رواية أبي معاوية : « فيقولون : إنَّ فيهم فلانًا الخطَّاءَ لم يُرْدِهم إنما جاء بحاجته » . وفي رواية سُهيل : « يقولون : فيهم عبدٌ خطَّاء إنما مرَّ فجلس معهم » . زاد في رواية قال : « وله غَفَرْتُ » ، قولُه : « همُ الجلساء » في رواية أبي معاوية وسهيل : « هم القوم » . وفي الكلام إشعارٌ بالكمال، أي همُ القومُ كُلَّ القومِ، قولُه: « لا يَشْقَى جليسهم » كذا لأبي ذَر ، ولغيره : « لا يَشْقَى بهم جليسُهم » . وللترمذي : « لا يَشْقَى

(١) رواه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).
(٢) اسم غير واضح في الأصل ، لعله (ابن حجر) .

بهم جليسٌ » وهذه الجملةُ مستأنفةٌ لبيانِ المقتضى ، لكَوْنِهم أَهْلُ الكَمالِ .

وقد أخرجَ جعفرُ في « الذِّكْرِ » من طريق أبي الأشعت عن الحسن البصري قال : « بينما قومٌ يذكرون اللهَ إذْ أتاهم رجلٌ يقعُدُ إليهم ، قال : فَنَزَلَت الرَّحمة ، ثُمَّ ارتفعَتْ ، فقالوا : رَبَّنا فيهم عبدُك فلان ، قال : غَشُّوهُم رحمتي همُ القوم لا يشقى بهم جليسُهم ، وفي هذه العبارة مبالغةٌ في نَفْي الشَّقاء عن جليسِ الذاكرين ، فلو قيل : يَسْعَدُ بهمْ جليسُهم ، لكان ذلك في غايةِ الفضلِ ، لكنَّ التَّصْرِيحَ بنَفْي الشَّقَاء أبلغُ في حُصُولِ المقْصُودِ .

تأمَّل هذا الحديثَ الصَّحِيحَ الصَّرِيحَ في نَدْبِ الجَمْعِ لعَيْنِ الذِّكْرِ ، فإنْ قِيل : يجتمعون ، وكُلٌّ على ذِكْره ، فالجوابُ : إنْ كان سِرًّا فجَدْواه[1] غيرُ نافعةٍ ، وإنْ كان جهرًا فلا يخفى ما فيه من إساءةِ الأدبِ بالتَّخْلِيط وغيرِه ، مما لا يسُوغُ في حديثِ النَّاس ، فضلًا عَنْ ذِكْرِ الله ، فلَزِمَ جَوابُه بشرطِه . نعم تأويلُ التسبيح والتحميد والتمجيد بالتَّذَاكُرِ في التوحيد من أَبْعَدِ البعيد، فتأويلُه غيرُ مقبولٍ لبُعْدِه عن الأفكار ، بحيث لا يخطُرُ إلَّا بالإِخْطَار، وذلك مِنْ مقامِ الشَّرْعِ بعيدٌ جِدًّا .

والحاصِلُ أَنَّ ذِكْرَ الله جماعةً جَهْرًا وَرَدَ الترغيبُ فيه ، وغايةُ ذلك أَنَّ الإسرارَ أرجحُ للمنفردِ المَتَجَرِّدِ ، لحديث : « خَيرُ الذِّكْرِ الخفي »[2] ، وقَدْ أَوْرَدَ العُلَمَاءُ أَحَادِيثَ تَدُلُّ على أَفْضَلِيَّةِ الجَهْرِ ، وقد جَمَعَ النووي بينهما : أَنَّ الإخفاءَ أفضلُ حيث خاف الرِّيَاء ، وتأذَّى به المصَلُّون ، أو النوَّام ، والجَهْر أفضلُ في غير ذلك . وقد أَوْرَدَ السيوطي في فتاوِيه أحاديثَ تَدُلُّ على ذلك ،

(١) في الأصل : فتجدوه .

(٢) رواه أحمد ١/ ١٧٢ من حديث سعد بن أبي وقاص، وصححه ابن حبان في صحيحه ٣/ ٩١، وضعفه الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٣، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (١٨٣٤) .

وقال في آخرِ ذلك : إذا تأمَّلْتَ ما أوردنا من الأحاديث عرفْتَ من مجموعِهَا أَنَّهُ لا كراهةَ البتة في الجَهْر بِالذِّكْرِ ، بَلْ فيه مَا يَدُلُّ على اسْتِحْبَابِهِ ، إمَّا صَرِيحًا أو التزامًا ، وأما معارضتُه بحديث : « خَيْرُ الذِّكْر الخفي » فهو نظيرُ معارضَةِ أحاديثِ الجَهْر بالقراءةِ ، لحديث : « المُسِرُّ بالقراءةِ كالمُسِرِّ بالصدقةِ »(١) وقد جُمع بينهما أيضًا ، بأنَّ الإخفاءَ أفضلُ حيث خاف الرياء ، أو تأذَّى به مُصَلون أو نُوَّام ، والجَهْر أفضلُ في غير ذلك ؛ لأنَّ العَمَلَ فيه أَكْثَرُ ؛ لأنَّ فائدتَه تَتَعَدَّى للسامعين ، ولأنَّه يُوقِظُ قَلْبَ القَارِئ ، ويَجْمَعُ هَمَّهُ إلى الفِكْرِ ، ويَصْرِفُ سَمْعَهُ إليه ، وَيَطْرُدُ النَّوْمَ ، وَيَزِيدُ في النَّشَاطِ .

وقال بعضُهم : يُسْتَحَبُّ الجَهْر بِبَعْضِ القراءةِ والإِسْرارُ ببعضِها ؛ لأنَّ المُسر قد يَمَلُّ فيأنسُ بالجَهْر ، وقد يكَلُّ فيستريحُ بالإسرار ، ونصُّ كلام السُّيوطي المشارِ إليه في الجَهْر بالذِّكر بصورةِ سؤالٍ وجوابٍ ، وهو : « الحمدُ لله وسلامٌ على عبادِهِ الصالحين الذين اصطفى ، سألتَ - أكرمَكَ اللهُ - عمَّا اعتادَهُ الصُّوفية من عَقْدِ حِلَقِ الذِّكْرِ في المساجِدِ ، ورَفْعِ الصَّوْتِ بالتهليل ، هل ذلك مكروهٌ أو لا ؟ والجوابُ : أنَّهُ لا كراهةَ في شيءٍ مِنْ ذلك ، وقد وردَتْ أحاديثُ تقتضِي استحبابَ الجَهْر بالذِّكر ، وأحاديثُ تقتضي السِّرية ، والجمعُ بينهما أنَّ ذلك يختلفُ باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ ، كما جمع النووي في ذلك بينَ الأحاديثِ الواردةِ باستحبابِ الجَهْرِ بقراءةِ القرآن ، والأحاديثِ الواردةِ باستحبابِ الإسرارِ بها ، وها أنا أُبيِّن ذلك فصلًا فصلًا .

ذِكْرُ الأحاديثِ الدَّالَّةِ على استحبابِ الجَهْرِ بالذِّكْرِ تصريحًا أو التزامًا ،

(١) رواه أبو داود (١٣٣٣)، والترمذي (٢٩١٩) وحسنه، والنسائي ٥/ ٨٠ من حديث عقبة بن عامر، وصححه ابن حبان في صحيحه ٣/ ٨، والألباني في صحيح أبي داود (١٢٠٤).

أما الحديث الأول : أخرجَ البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقولُ الله أنا عند ظنِّ عبدي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإنْ ذكرني في نفسِه ذكرتُه في نفسِي ، وإنْ ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منه »[1] ، والذِّكر في الملأِ لا يكونُ إلَّا عن جهر . **الحديث الثاني** : أخرج البزار والحاكم في المستدرك وصحَّحه عن جابر قال : « خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ ، فقال : يا أيُّها النَّاس ، إنَّ لله سرايا من الملائكة تَحُلُّ وتقِفُ على مجالسِ الذِّكر في الأرض ، فارتَعُوا في رياض الجنة ، قالوا وأينَ رياض الجنَّة ؟ قال : مجالسُ الذِّكر ، فاغدوا ورُوحوا في ذِكْرِ الله »[2] . **الحديث الثالث** : أخرج مسلمٌ والحاكمُ واللفظ له ، عن أبي هريرة قال : « إن لله ملائكةً سَيَّارةً وفضلاء يلتمسون مجالسَ الذِّكْر في الأرضِ ، فإذا أَتَوْا على مَجْلِسِ الذِّكْرِ حفَّ بعضُهم بعضًا بأجنحَتِهم إلى السَّماءِ ، فيقولُ اللهُ : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عبادِك يسبِّحونَك ويكبِّرونَك ويسألونَك ويستجيرونَك ، فيقولُ : ما يسألوني ؟ - وهو أعلم بهم - فيقولون : يسألونك الجنَّة ، فيقولُ: وهل رَأَوْهَا ؟ فيقولون : لا يا ربي ، فيقولُ : كيف لو رَأَوْهَا ؟ . فيقولُ : ومما يستجيرونني ؟ - وهو أعلم بهم - فيقولون : من النَّار ، فيقولُ: وهل رَأَوْهَا ؟ فيقولون : لا يا ربي ، فيقولُ : كيف لو رَأَوْهَا ؟ ثُمَّ يقولُ : اشهدوا أني قد غَفَرْتُ لهم ، وأعطيتُهم ما سألوني ، وأَجَرتُهم مما استجاروني ، فيقولون : ربنا إنَّ عبدًا خطَّاءً جلس إليهم ليس منهم ،

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) رواه عبد بن حميد في مسنده ١/ ٣٣٣، وأبو يعلى في مسنده ٣/ ٣٩٠ من حديث جابر بن عبد الله، وصححه الحاكم ١/ ٦٧١، وتعقبه الذهبي، وضعفه الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٨، والألباني في الضعيفة (٦٢٠٥).

فيقولُ: وهو أيضًا قد غَفَرْتُ له ، همُ القومُ لا يشقى بهم جليسُهم »[1] .
الحديث الرابع : أخرج مسلمٌ والترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري قالا : قال : رسول الله ﷺ : « ما مِنْ قوم يذكرون إلَّا حفَّتْ بهم الملائكةُ ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ ، ونزلَتْ عليهم السَّكينةُ ، وذَكَرَهُم الله فيمَنْ عنده » .
الحديث الخامس : أخرج مسلمٌ والترمذي عن معاوية « أنَّ النبي ﷺ خَرَجَ على حَلْقةٍ من أصحابِهِ يَذْكُرُونَ اللهَ جماعةً ، فقال : ما يُجلِسُكم ؟ قالوا : جلسْنَا نذكرُ اللهَ ونحمده ، فقال : إنه أتاني جبريل ، وأخبرني أن اللهَ يباهي بكم الملائكة »[2] . الحديث السادس : أخرج الحاكم وصحَّحه [و]البيهقي في شُعَب الإيمان عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذِكْرَ الله حَتَّى يقولوا مجنون »[3] إلى أنْ أَوْرَدَ خمسة وعشرين حديثًا ، ثُمَّ قال : « إذا تأمَّلْتَ ما أوردناه . . » ذكرناه في الكبير ، فراجِعْه إن شِئْتَ .

ثُمَّ قال في شرحه على « حصن الحصين » ما نصُّه : « أقُولُ وكيفَ يُنكَر الذِّكر قائمًا والقيامُ ذاكرًا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (آل عمران ١٩١) . وقالتْ عائشة - رضي الله عنها - : « كان رسولُ الله ﷺ يذكرُ اللهَ على كلِّ أحيانه »[4] .

فهنيئًا لِمَنْ كان اللهُ له جليسًا ، ويَذْكرُ ربَّهُ سِرًّا وجَهْرًا مُنفردًا أو جَمْعًا أَنيسًا ، لقول [...] فضلُهُ جليل : « لأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قومٍ يذكرون اللهَ مِنْ صَلاةِ

(١) صحيح مسلم (٢٦٨٩)، المستدرك ١/ ٦٧٢.
(٢) صحيح مسلم (٢٧٠١)، سنن الترمذي (٣٣٧٩).
(٣) المستدرك ١/ ٦٧٧، شعب الإيمان ١/ ٣٩٧، وضعفه الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٦، والألباني في الضعيفة (٥١٧).
(٤) رواه مسلم (٣٧٣).

الغَدَاة حَتَّى تطلعَ الشمسُ أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أربعًا مِنْ ولدِ إسماعيل » . وفي الحديث القدسي قال الله - تعالى - : « أنا جليسُ مَنْ ذَكَرني ، وتحرَّكَتْ بي شفتاه »(١) ولم يقيِّد ذلك بجمْعٍ ولا بانفرادٍ ، وكيف(٢) يَقْدِرُ العبدُ أنْ يصْبِرَ عن ذِكْرِ الله وهو حياةُ القلبِ والروح ، كالماءِ للسَّمَك . وفي البخاري وغيره : « مَثَلُ الذي يذكرُ ربَّه والذي لا يذكرُه مثلِ الحيِّ والميتِ »(٣) والحاصلُ أنَّ الاجتماعَ للذِّكْر المجرَّدِ إنْ سَلِمَ صحَّ ، [و]إن لم يقع في زمنه فهو من البِدَع المستحسنة ، والله أعلم .

وأمَّا البِدعةُ فقَدْ قسَّمَها أهلُ العِلْمِ على قواعدِ الشَّريعَةِ الخَمْس - كما لابن عبد السَّلام وغيره - ، قال : قال شيخُ مشايخنا سيدي أحمد زرُّوق ما نصُّه : « أما حقيقةُ البدعة فشرعًا إحداثُ أمرٍ في الدين يُشْبه أنْ يكونَ منه ، وليس بِهِ ، سواءٌ كان بالصورة أو بالحقيقة ، لقول رسول الله ﷺ : « مَنْ أحدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ »(٤) وقوله ﷺ : « كلُّ محدَثة بدعة »(٥) .

---

(١) لفق المصنف بين حديثين: فالشطر الأخير من حديث أبي هريرة رواه ابن ماجه (٣٧٩٢)، وصححه ابن حبان ٣/ ٩٧، وحسنه البوصيري بمجموع طرقه في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٤١، ووافقه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٩٠). وأما الشطر الأول فمن حديث جابر بن عبد الله، قال صحب كنز العمال (١٨٦٥): رواه ابن شاهين في الترغيب في الذكر. وذكر أنه ضعيف. وكذا ضعفه الحوت في أسنى المطالب ص٩٢ وقال: ولا يتقوى بحديث أبي هريرة لأن المعنى مختلف بين المعية والمجالسة .

(٢) أضاف المؤلف هنا كلمة يصير فأصبحت الجملة على النحو الآتي (وكيف يصير يقدر) وهو أسلوب عامي محلي .

(٣) رواه البخاري(٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة.

(٥) رواه أبو داود (٤٦٠٧) من حديث العرباض بن سارية، وصححه ابن حبان ١/ ١٧٨، والحاكم ١/ ١٧٦، والألباني في الصحيحة (٢٧٣٥).

وقَدْ بيَّنَ العلماءُ أن المعنى في الحديثين المذكورين راجعٌ لتغيير الحكم باعتقادِ ما ليس بقُرْبةٍ قُرْبَةً ، لا مُطلق الإحداثِ ، إذْ قَدْ تنالُهُ الشَّرِيعَةُ بأصولها ، فيكُونُ راجعًا إليها ، وبفروعِها فيكونُ مَقِيسًا عليها ، قالوا : وبِحَسَبِ هذا فلا تكونُ البدعةُ إلَّا مُحَرَّمةً أو مكروهةً ؛ لأنَّها إنْ قَوِيَتْ شَبَهُهَا لا يصحُّ أَنْ يَبْلُغَ بها التَّحْرِيمُ ، وإنْ ضَعُفَتْ شَبَهُهَا جدًّا كانَتْ مُحَرَّمةً لا سيما إنْ كانَتْ[1] في أحكامِ الشَّرِيعَة اهـ » . وفي الحديث : « إنَّ كل ما ابتُدعَ على طريقِ القُربةِ إلى الله - تعـالى - فهـو من الشَّرِيعَة والسُّنَّة الطـاهرةِ »[2] ، قال تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ (الحديد ٢٧) ، وقال النبي ﷺ : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حسنةً فله أجرُها وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها ... »[3] الحديث . قال الإمام الغزَّالي : « ليس كلُّ مَا نَحكُمُ بإباحتِه منقولًا عن الصحابة ، وإنما المحذورُ ما يُراغم سُنَّةً مَأْثورةً » اهـ .

وقال العلماءُ : وكُلَّ ما [لا] يُراغِمُ سُنَّةً مَأْثورةً فليس بمحرمٍ ، وإنْ كان مُبْتَدَعًا، لما رواه العارفُ بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني : « من قوله ﷺ : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حسنةً فله أجرُها وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها » الحديث . قال عقبةُ : فأجاز لأُمَّتِه ابتداعَ ما هو حسن ، وجعل فيه الأجْرَ لمن ابتدَعَه ، ولِمَنْ عَمِل به » اهـ .

وحاصل القول أنَّ ذِكْرَ الله ، والصَّلاة على نبيه ، وتلاوةَ القرآنِ على الهيئة الاجتماعية ، لا يقول أحدٌ من أهلِ العِلْم بتحريمها ، بل هو المرغُوبُ

---

(١) أضاف في الحاشية نصًّا مبتورًا مفاده (مقابلة منصوص عليه ... أو مخالفتها لأصل ... وخارجها ...) .

(٢) ليس حديثًا، ولكنه من أقوال الشعراني، انظر: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ١: ١٢٣ .

(٣) رواه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي.

فيه بالأحاديث الصَّحيحة المتفق عليها ، وهو أصلُ الصُّوفيةِ مما يَجْمَعُ قُلوبَهُم إلى مولاهم ، وذَكَر الشَّيْخُ سيدي أحمد زرُّوق في كتاب «رد البدع» : « أنَّ حِزْبَ الإدارة والذِّكر بالجَمْعِ والجَهْرِ والدُّعاء كذلك ، وَرَدَ في الحديثِ الترغيبُ فيه » ، وذَكَر في « القواعد » : « أنَّ الحديثَ صريحٌ في نَدْبِ الجَمْعِ [بعبارة][1] تُذَكِّر بالترغيبِ في سياقِه . وذَكَرَ صاحبُ كتابِ « البَرَكَة » في القسم الرابع عشر من الباب الثالث ما نصُّه : « وتُسَنُّ قراءةُ الجماعة معًا والإدارة بالقرآن ، والجلوسُ إلى حِلَقِ الذِّكر ، وكذا الاجتماعُ على الدُّعاء ، والصَّلاةُ على النبي ﷺ ، فقد ذَكَر بعضُ أئمتِنا أنَّ الاجتماعَ لها عبادةٌ شرعيةٌ، فضلُهَا من الشَّرِيعَةِ معلومٌ عِظَمُهُ ، وكذلك الأذكارُ بعد الصَّلاة على الهيئة الاجتماعية ، كقراءة الأسماء الحسنى ، ثُمَّ الصَّلاة على النبي ﷺ ، مرارًا ، ثُمَّ الرِّضا عن الصحابة ﷺ ، وغيرَ ذلك من الأذكارِ بلِسانٍ واحدٍ ، وقد شاع ممن يُقْتَدَى به في العلمِ والدين من الأئمةِ على الدعاء إثْرَ الذِّكْرِ الوارِد إثْرَ الفريضة » ، قال ابنُ عرفة : « وما سَمِعْتُ مَنْ يُنْكِرُهُ إلَّا جاهلٌ غيرُ مُقتدًى به ، ورحِمَ اللهُ بعضَ الأندلسيين لَمَّا أُنهِي إليه ذلك أَلَّف جزءًا في الردِّ على منكرِه ، ورأيتُ سؤالًا أيضًا وجوابَه نظمًا أورده بعضُهم في معنى ما ذُكر ، ونصُّ كلامه : وقد وقع سؤالٌ من الشَّيْخ العالِمِ العلَّامة فريدِ دهرِه وإمامِ أهلِ عصرِه سيدي محمد بن غازي - رحمه الله تعالى - للشيخ العارف بالله تعالى إمام المتكلمين وسيدِ الموحدين أحمد بن زكريا التلمساني - رحمه الله - ، عن ذِكْرِ الله في الجماعة في داخل المسجِدِ يجوزُ أم لا ؟ فقال : [كامل]

يَا خَيرَ مَنْ صَعَدَ الكَرَاسِيَ وَارْتَقَى ... في عَصْرِهِ عَنْ كُلِّ مَنْ يَتَصَدَّرُ
هَبْ لِي جَوَابًا عَنْ سُؤَالِي شَافِيًا ... مِنْ مُوضِحٍ ومُبَيِّنٍ لا يَعْسُرُ

(١) اجتهاد في قراءة كلمة غير مقروءة .

فَلَقَدْ تَوَاجَـدَ فِي الإِلٰـهِ أَجِـلَّةٌ ... آو لِبَيْتٍ الله فيــــه يَـذكــرُ
ويريدُ تَعْظِـيمَ الإِلٰــهِ وقصـدُهم ... كسرُ النُّفــوسِ بـِهِ مَتَى مـا تنفـرُ
ما يُرتجى للمعضِــلات سواكمُ ... فبقاعُنَــا بِقُـدُومِكُمْ تتنــورُ
وتُضِيءُ في الآفاقِ شُهْبُ عُلُومِكُمْ ... بِوُجُـودِكُمْ فيهَـا يفيـدُ ويخبرُ
قَصْـدِي أَبَا العباسِ عـالمَ وقتِـهِ ... نجلَ ابـن زكـري بالحقـائقِ يظفـرُ
فَهْـوَ المحكَّـمُ فِي القضـايا كلِّهـا ... فقضــاؤهُ لرســوخهِ لا يُنْظَــرُ
مِنِّي السَّـلامُ عليـهِ مَـا قَمَرٌ سَـنَا ... أَبَــدًا جَدِيـدًا دَائـمًا يَتَكَـررُ
وَعَلَى تَلَامِــذَةٍ تَدُورُ بِحَــوْلِهِ ... كَكَوَاكِبٍ وَهْـو الهِـلَالُ الأزهـرُ

فأجابه ﷺ ونفع به بقوله :

ذِكْـرُ الإِلــهِ جماعــةً لا يُنْكَـرُ ... ولنَــا عليــهِ أدلــةٌ لا تُحْصَرُ
فدلالــةُ القـرآنِ مــن اطلاقِــهِ ... فِي ذِكْـرِهِ لوضـوحِها تُسْـتَحْضَرُ
وكذا الأحاديثُ الصِّحاحُ به قضتْ ... ومُرِيـدُ رَدِّ قَضَـائها لا يُنْصَــرُ
وَكَـذاكَ تقريـرُ الرسـولِ جَمَاعـةً ... ظَهَـرتْ بمسجدِه فـلا تستفسرُ
نَدْبُ الشَّرِيعَة للجمــاعةِ واضـحٌ ... منهــا تُنَــالُ فضـائلٌ تسـتكثرُ
والجمعُ مشروعٌ لِـذِكْرِ إلاهِـنـــا ... إنْ لم يكــنْ أمــرٌ بــه يُسْـتَنْكَرُ
لا يســتقيمُ بِمُنْكِــرٍ إنكــارُهُ ... يا صـاحِ لا تُصـغِي لمنْ قـد يُنكرُ
للجمعِ سـرٌّ في القــلوب مُؤَثِّرٌ ... [و] بِهِ تلينُ لذكــره لا تفـــترُ
مثــلُ الحـديدِ يلينُ بينَ جمــاعةٍ ... تليينُــه مِــنْ واحـــدٍ يُسْـتَعْسَرُ
شرفُ العبادِ بـذكرهمْ لإلاههـم[1] ... لا تغفلــوا عنــه بوقــتٍ يَحْضُرُ
فالعبـدُ مطلــوبٌ بــذكر إلاهــه ... مِــنْ غَـيْرِ قَيْـدٍ فيـهِ لا يتعــذَّرُ

(١) في الأصل : الإله .

كُـــنْ ذاكـــرًا لله لا متغـــافلًا ... فبـذاك أمـرُك دائـمًا لا يَعْـسُـــرُ
وعـــليكمُ منِّي السَّـــلام تحيـــةً ... بتـمامــهِ متكررًا يـــتـــعـطرُ

... انتهى .

قال بعض مشايخنا : فائدةُ الذِّكر جماعةً ثلاثةُ أوجه ، أحدها : تعاهُدُ قلوب الذاكرين . الثاني : لِما صحَّ من قوله ﷺ : « ما مِنْ قوم جلسوا مجلسًا يذكرون الله فيه ، إلَّا حفَّت بهم الملائكةُ ، ونزلت عليهم السكِينةُ ، وذكرهم الله فيمن عنده » . أخرجه البخاري وغيره . الثالث : فيه إظهارُ إشعار الإسلام عند دروسِه ، وإعانة لضعفاء المسلمين على الذكر ، فإن قلت : يَرِدُ عليكُم قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ (الأعراف ٢٠٥) . قلتُ : أجاب عن هذا السؤال بعضُ مشايخنا قائلًا : « إن الآية خاصة به ﷺ ، وأمَّا الذِّكْرُ الخفي فهو ما خَفِي عن الحَفَظَة لا ما يُخْفَضُ بِهِ الصوت » اهـ .

والكلام في هذا المعنى طويلٌ عَرِيضٌ يُخْرِجُنا إيرادُ بَعْضِه عن المقصود ، وما ورد في معناه عن المشايخ أئمةِ هذه الطريقة كالشِّبْلي ، وأبي عثمان المغربي وغيرهما أكثرُ من أنْ يُحْصَى ، وقد ألمَّ ببعضه الإمامُ القاضي عِزُّ الدِّين بن عبد السَّلام ، وأتى فيه حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد الغزَّالي بما تَقرُّ به الأعينُ وتلذُّ به الأسماعُ ، وكذلك ما ورد فيه أيضًا - أي في فضل الذكر والاجتماع عليه - كثيرٌ جدًّا ، فلا نُطيل بإيرادِه فراجِعْ كبيرَنا ، وكُتُبَ شيخِ مشايخنا سيدي أحمد زرُّوق كالقواعد وغيرها ، وكتابَ « مِفْتاح الفلاح » لسيدي أحمد بن عطاء الله وغيرهم ، بكلمتَيْ الشهادة وغيرها ، كالذِّكر بلفظ الجلالة .

ولا التفات إلى ما نُسِبَ للعِزِّ بن عبد السَّلام بأنَّ القائلَ « الله الله » لا أَجْرَ له في جَوابِ سُؤَالِ سائلٍ ، فقد صُنِّفَ في ردِّ مقالتِه عِدَّةُ رسائل ،

رأيناها ، وممن صَنَّفَ فيها القُطْبُ القَسْطَلاني ، والعارفُ بالله المَرْصَفِي ، والشَّيْخ عبدُ الكريم الخَلْوَتي وغيرُهم ، وبه أفتى مَنْ عاصرناه تَبعًا لمَنْ تقدَّمه ، وذلك أنَّه سُئل بعضُ المشايخ عن قولِ الذَّاكِر « الله الله » هل هُوَ مِنَ السُّنَّة أَمْ لا ؟ فأجاب : « فاعْلَمْ أَنَّ الاسْمَ المفرَدَ وهُوَ اللهُ ممَّا تَدَاولَته السَّادةُ الصُّوفية ، واستعملوه بينهم ، تكاليفَ وترغيباتٍ على حَسَبِ الأحوالِ والمقاماتِ ، إلى أن قال : وفي الصَّحيح : « لا تَقوم الساعةُ حَتَّى لا يبقى مَنْ يقول : « الله الله » وهُوَ شَاهِدٌ في الجملةِ لِذِكْر هذا اللفظ وَحْدَه ، لا سيما على رواية النَّصْبِ ، ولا نِزَاعَ في التَّلَفُّظِ بالاسْمِ الكَرِيمِ وَحْدَه ، وحَيْثُ لا نِزَاعَ فلا مَانِعَ أَنْ يُكَرِّرَهُ الإنْسَانُ مَرَّاتٍ كَثِيرَة »[1] اهـ باختصار .

وفي بَعْضِ المعتبَرَاتِ على حديثِ « أَهْلِ بيتِي أمانٌ لأُمَّتِي ، فإذَا ذَهَبَ بَيْتِي أَتَى أُمَّتِي ما يُوعَدُون »[2] أَنَّ أهلَ بيتِهِ هُمْ أَهلُ الذِّكْرِ الصَّافي ، فإذا كان في دُنُوِّ الساعةِ أَمَاتَهُمُ اللهُ في يَوْمٍ واحِدٍ ، فيذْهَبُ نُورُهُم مِنَ الأَرْضِ ، وذَهَبَتْ الأدلةُ والأعلامُ فأتى أهلَ الأرضِ ما يُوعَدُون ، وبذهابِهم لَمْ تَبْقَ للأرضِ حُرمة ، فعمَّهُم البلاء ، وفَسَدَت الأرضُ ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة ٢٥١) اهـ . قُلْتُ ويُؤَيِّدُه حديث : « لا تقومُ الساعةُ حَتَّى لا يبقى مَنْ يقول الله الله » . ولعَلَّ لَفْظَ الجلالة هُوَ المرادُ بقوله « الذكر الصافي » لاسيما إن انضَاف إلى ذِكْرِهِ[3] صفاءُ القلبِ من الأَغْيَارِ . والله أعلم .

وَذَكَر الخَرُّوبي أَنَّ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ اللهِ الزيتوني أراد أَنْ يُلَقِّنَه مَعَ صاحبٍ

(١) رواه مسلم (١٤٨) من حديث أنس بن مالك.

(٢) رواه الحاكم ٢/٤٨٦ من حديث جابر، وصححه، وتعقبه الذهبي قائلًا: أظنه موضوعًا. ووافقه الألباني في الضعيفة (٤٦٩٩).

(٣) في الأصل : صفاة صفاء .

له ذكرًا[1] ، فسألَهُمَا عن الذِّكرِ الذي يجدان له أكثرَ تأثيرًا في أنفسِهما ، فقال صاحبُه : « أكثرُ ما أجِدُ التأثيرَ إذا ذكرتُ كلمةَ التوحيدِ بأُختِها ، أعني : لا إله إلَّا الله محمد رسول الله ، فقال لي - رحمه الله - : طريقُك أطولُ من طريقه ، إلى أن قال : ... عن الساحل » .

وأما دليلُ الإفــرادِ فدليلُه من القــرآن قوله ﷻ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (العنكبوت ٤٥) ، وهذا الذِّكْرُ هو لبابُ الأذكارِ ، و ... حَدَقَتُها ، وقُطبُ أفلاكها ، وقد أجْمَعَ كثيرٌ من أهلِ العِلْمِ أَنَّهُ اسمُ الله العظيم الأعظم » اهـ ببعض اختصار .

قال بعضُ الشيوخ بَعْدَ نَقْلِه مقالةَ ابنِ عبْدِ السَّلام المذكُورِ ما نَصُّه : أما ذِكْرُ الله - تعالى - فقد وَرَدَ الأمرُ به ، ووُعِدَ ذاكِرُه بالثَّواب في آياتٍ وأحـاديثَ لا تُحْصَى ، كقـوله - تعـالى - : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ (الأحزاب ٣٥) . وفي الحديث القدسي : « مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عن مسألتي أَعَطَيْتُه أَفْضَلَ ما أُعْطِيَ السائلون » إلى غير ذلك مما لا يُحصَى ، ولَمْ يُقَيَّدْ ، على أنَّ الذَاكِر قصْدُه التَّعْظِيمُ والتوحيد ، فهو إذ قال : الله الله ، فكأنَّهُ قال : معبودي واجبُ الوجودِ ، مُستحِقٌّ لجميع المحامدِ ، ولَمْ يَزَلْ أهلُ الله من العلماء والصلحاء يفعلونه من غَيْرِ نكير ، وَلَمْ يَخْتَصَّ بالصُّوفية ولا بغَيْرِهم ، كما زعم بعضُ المنكرين » اهـ .

قلت : ومِنَ الأدلةِ على أَنَّ ذِكْرَ اسْمِ الجلالةِ من الأذكار الواردة ، قوله ﷺ : « لا تقومُ السَّاعةُ حَتَّى لا [يُقال] في الأرض الله الله »[2] وفي حديث آخر : « لا تقومُ الساعةُ على أحدٍ يقول الله الله » رواهُمَا القشيري في رسالتِه،

(١) يعني : الشيخ أبا بكر بن إبراهيم النفاتي (انظر شيوخ أبي عبد الله الخروبي ص ٥٤ و ٦٧) .
(٢) رواه الترمذي ، حديث (٢٣٦٧) .

قال بعضُهم ولم يَذْكُر إلَّا اسْمَ الجلالةِ خاصَّة ، ولَمْ يَذْكُر صُورَةَ ذِكْرٍ آخَرَ مع كَثْرَةِ الأذكارِ ، فلذلك اتخذَهُ أهلُ الله ذِكْرًا وحْدَه ، فَأَنْتَجَ في قلوبهم أمرًا عظيمًا ، لَمْ يُنْتِجْه غيرُه من الأذكار » اهـ . ومِنْهَا ما ذكَرَهُ سيدي عبد الوهاب الشعراني في « المنن » قال : « ومما أَنْعَمَ اللهُ به عليَّ مُواظبتِي أَوَائِلَ دُخولي في صُحْبَة طرِيقِ القَوْم على ذِكْرَ الله - تعالى - بلفظ الجلالة أربعة وعشرين ألف مرة كل يوم وليلة » إلى أن قال : قال : الشَّيْخ محيي الدين في كتاب «نتائج الأذكار»: « وينبغي لِمَنْ يَذْكُر الله - تعالى - بالجلالة أنْ يُحقِّق الهمزة ، ويُسْكِنِ الهاء » إلى أن قال : « وصُورةُ الذِّكْرِ للجلالة أنْ يقولَ : الله ، الله ، الله ، حَتَّى ينْقطِع نَفَسُه بتحقِيقِ الهمزة ، وسُكُون الهاء » اهـ . فَلَوْ لَمْ يَكُن هذا الذِّكْرُ واردًا ما عدَّه الشَّيْخُ من نعَمِ الله عَلَيْه ، ثُمَّ قال : « واعلم يا أخي أنَّ ليس في الأذكار أقربُ ثمرةً من هذا الذِّكْر ، أعني ذِكْرَ الجلالة ، ولا أَوْسَعَ منه مددًا » .

ومنها ما رواه القُشَيري بقوله : سمعتُ أبا عبدِ الرحمٰن يقول : « سمعتُ الحُسَين بن يحيى يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت الحذيري يقول : كان من أصحابنا رجلٌ يكثر أن يقول : الله الله ، فوقع يومًا على رأسه جِذْعٌ فانشجَّ رأسه ، وسقَط الدم ، فَاكْتَتَبَ على الأرض الله الله » اهـ . ومنها قولُ سيدي عبدِ الوهاب الشعراني في « المنن » ومما وَقَع للجُنيد مع ابن شُريح أنَّ حلْقةَ الجُنَيد كانتِ الأصواتُ فيها ترتَفِعُ على أهل حلْقة ابن شُريح ، وكان ابن شُريح يُنكِر على الجُنَيد ، فتنكَّر ابن شُريح يومًا وحضَر حلْقة الجُنَيد ، ثُمَّ رجع إلى أصحابه فقال : لَمْ أفهمْ مِنْ كلامِه شيئًا إلَّا أنَّ صورةَ كلامِه ليست بصورةِ مُبْطِل ، ثُمَّ إنَّ ابنَ شُريح قال للجُنيد : طريقتُنا أقربُ إلى الله مِنْ طريقكم ، فقال الجُنَيد : لا بُدَّ أنْ تأتينا ببُرهان ، فقال ابنُ

شُريح للجُنيد : ائْتِ لنا أَنْتَ بِبُرهان . فقال الجُنَيد : يا فلان خُذْ هذا الحَجَر فأَلْقِه في حلْقةِ الفقراء ، فألقاهُ فصاحوا كلُّهُم : الله الله ، ثُمَّ قال : أَلْقِهِ بين هؤلاء الفقهاء فألقاه ، فصاحوا كلهم : حرام عليك ، أزعجتنا . وابن شُريح ينظرُ فقام ، وقبَّل رأسَ الجُنَيد ، واعترفَ بفضْله ، فقال له الجُنَيد : إنما الفضلُ لكم ، فإنَّ أساسَ طريقتِنا ممَّا معكُم مِنَ العلم ، فقال ابنُ شُريح: بل لكُمُ الفَضْلُ ، فإنكُم زِدْتم علينا بحُسْن معاملة الله تعالى » اهـ . فلو لَمْ يكُنْ ذِكْرُ هذا الاسمِ الشريفِ وارِدًا ، وله شأنٌ ، لما حصَلَ الفَضْلُ لطائفةِ الجُنَيد بِذِكْره ، واعترَفَ الخصْمُ بفضْلِهم ، إلى غير ذلك من الأدلة .

وسُئل بعضُ الشُّيوخ مِنْ أهلِ عصْرِنا : هَلِ الذِّكْرُ بالجلالةِ يحتاجُ إلى جُملةٍ فِعْليةٍ أو اسميةٍ أو إلى إسناد ؟ لقولِ بعْضِهم : والذِّكْرُ المشروعُ لابد أنْ يكُونَ جملةً مفيدةً(١) ، فعلى هذا الذي يذكُرُ باسم الجلالةِ ويُضْمِرُه مُسَنَدًا لا اعتِرَاضَ عليه ، لأنَّ ذِكْرَهُ حينئذ لا يخْرُجُ [عن] كونِه جملةً ، إذْ لَمْ يقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّحْوِ بِوُجُوبِ ذِكْرِ طَرَفَيْ الجُمْلةِ إذا عُلم المحذوف ، فقال : الذِّكْرُ بالجلالةِ لا يحتاجُ إلى ما ذُكِر في السُّؤال ؛ لأنَّه مما تداولَتْه الصُّوفيَّةُ كالجُنَيد وأضرابِه ، إذ التَّصْدِيقُ بطريقِهم وِلايةٌ ، والاعتراضُ على الأكابرِ جِنَايَة ، وفي الصحيح : « لا تقومُ الساعةُ حَتَّى لا يبْقَى مَنْ يقولُ : الله الله » إلى أَنْ قال : « وهذا الحديثُ شاهدٌ في الجُمْلةِ [لهذا](٢) اللَّفظ وحدَه ، لاسيما على روايةِ النَّصْب ، ولا نِزَاع في التَّلفُّظ بالاسمِ الكَريمِ وحده ، وحيثُ لا نِزَاعَ فلا مَانِعَ مِنْ أَنْ يُكرِّرَه الإنسانُ مراتٍ كثيرةً ، وما وَجْهُ إنْكاره وليس في كلامِ عِزِّ الدِّين - رضوان الله تعالى عليه - تصريحٌ بإنكاره ، ولا نهيٌ ؟ بل

(١) في الأصل : يفيد .
(٢) في الأصل : لذي هذا .

غايتهُ أنَّه لم يُنقَل عن السَّلَف ، وكونُه لَمْ يُنقَل عن السَّلَف [لا] يقتضي مَنْعَه ، ولا كراهتَه . وكم من أشياءٍ لم تكُنْ في عهْدِ السَّلَفِ مع أنها جائزة ، أو واجبة ، أو مستحَبَّة . والبدعةُ التي تُجتنَبُ إنما هي التي تقتضِي قواعدُ الشَّرع كراهتَها أو حرمَتَها . إذ البدعةُ تنقسِمُ إلى الأحكامِ الخمسة حَسْبَمَا هو معلومٌ ، فلا ينبغي التوقُّفُ في ذلك ، ولا التَّشْغِيبُ بإنكاره والطَّعْنِ على مَنْ فَعَلَه من الأئمة .

وفي صلاةِ القُطْب سيدي عبد السَّلام بن مْشيش - نفعنا الله به آمين - بعد كلام : الله الله الله ثلاث مرات . فـ[ـهل][1] يتجرَّأُ أحدٌ أن يُفوه في ذلك الإمام بطعنٍ أو بعيبٍ ، كيف وأصولُ الشَّريعَةِ لا تأْباه ولا تدلُّ على خروجِه عن ذِكْرِ الله لفظًا ولا معنى ؟ فلفاعلِ ذلك ما للذَّاكِرين اللهَ ، نَعَمْ لا يَعمَدُ أحدٌ إلى ذِكْرٍ أو دعاءٍ يخترعُه يترتَّبُ عليه ثوابٌ أو أجْرٌ أُخْرَوي ، إذْ ذَاكَ إنَّما يكونُ بتوقيفِ النُّبوءةِ والله أعلم » اهـ باختصار .

قال شيخُنا شمسُ الدِّين - رحمه الله - : « وقولُ عِزِّ الدِّين : الذَّاكِرُ اللهَ بالاسمِ المُفْرَدِ بِدْعة ، لا أصْلَ لكلامِهِ ، بل هُوَ مِنْ الأذكارِ الواردةِ لخبر « مَنْ قال : الله الله خمسمائة مرَّة غُفر له ما تقدَّم من ذنبه » إلى أن قال : « ولعل هذه العَثْرَةَ صدرَتْ مِنَ العِزِّ في ابتداءِ أمرِه قبل أنْ يسلُكَ مذْهَبَ المتصوِّفَة ، أو أنَّه لَمْ يبلغهُ الحديثُ الواردُ في تفضيلِ هذا الاسم ، وقتئذٍ ، إلى أن قال : و [أمَّا] الذِّكْرُ بالجلالةِ فليسَ ببدعةٍ ، وهو مأخوذٌ من الكتابِ والسُّنَّة ، كمِثْلِ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلَّا الله ، والله أكبر ، وما أشبهَ ذلك ، أيْ رُبَمَا أفضلُ مِنَ الأذكار الشرعيةِ العشرةِ ؛ لأنَّه قيل فيه : هو اسمُ الله العظيم الأعظم ، إلى أن قال : إذ انقطاعُه ممَّا يَدُلُّ على كلِّ شر ، كيف

(١) زيادة عن الأصل .

وقد وردَ عنه ﷺ أنه قال : « لا تقومُ الساعةُ حَتَّى لا يبقى مَنْ يقولُ الله الله » ؟ اهـ بإسقاط .

قال الشَّيْخُ سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ في تقييدٍ له في الريَّاضات والخَلَوات والمُجَاهدات : « اعْلَمْ أَنَّ الاسمَ المفردَ ، وهُوَ الله الذِي أَصْلُه اسمُ الإله ﷻ ، لا يَفْضُل عليهِ ذكر مِنْ سائر الأذكار » . إلى أن قال : « هو لُبُّ الأَذْكَارِ قَدْ حُذِفَتْ همزَتُه ، وعُوِّضَ عنها حَرْفُ التَّعْرِيفِ » . إلى أن قال: « هُوَ عَلَمٌ على الذَّاتِ الواجبة » . إلى أن قال : « وَهُوَ أَعْرَفُ المعارف » . إلى أن قال : « وَهُوَ اسْمِ الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى » . إلى أن قال : « وهو الاسمُ الجامعُ لسائرِ الأسماء ، ولذلك بدأ بِهِ كتابَهُ ، وتعبَّدَ به عِبَادَه ، وأشار إليه ، وعرَّفه بقوله (هو الله) » . إلى أنْ قال : « وهو جامعٌ لمعاني الذَّاتِ والصِّفَاتِ ، ولمَزِيدِ الاعتناءِ بِهِ تكرَّر في القرآن العظيم ألفَيْ مرة وخمسمائة وستِّين مرة » . وذكر بعضُهُم في موضِعٍ خمسمائة ثلاثمائة .

وقَدْ حُكِيَ أنَّ سيبويه رُئِي في المنام فقيل له : ما فعل اللهُ بك ؟ قال : خيرًا كثيرًا بقَوْلي أنَّ اسمَهُ أَعْرَفُ المعارِفِ ، وبِهِ يقيَّدُ قَوْلَ النُّحَاةِ أَعْرَفُ المعارِفِ الضَّمِير ، بَعْدَ اسْمِ الجلالةِ ، والمُخْتَارُ عَدَمُ اشْتِقَاقِهِ ، وهُوَ قَولُ الخليلِ بن أحمد ، وسيبويه ، وأكثرِ الفقهاءِ والأصوليين ، ورُئي الخليلُ بن أحمد بعد موتِهِ في المنام ، فقيل له : ما فَعَلَ اللهُ بك ؟ فقال : « غُفر لي بقولي في اسْمِ الله : إنه غير مشتق » ، وهُوَ قولُ الشافعي وغيرِه من المحققين ، بل هُوَ اسْمٌ تَفَرَّدَ فيه – تعالى – كما يكونُ لغيرِه أسماءُ الأعلام ، قال الله – تعالى – : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (مريم ٦٥) : هل تعلمُ أحدًا يُسمَّى الله – تعالى – ؟ وهذا مِنْ مُعجزاتِه ﷺ التي تَدُلُّ على صِدْقِهِ في هذا الخبر ، حيث أخبرَ أنَّهُ لا

يُسمَّى بِهِ، فقَبَضَ اللهُ له القلوبَ على التَّجَاسُر على إطلاق هذه التَّسْمية في صِفَة غَيْرِه، مَعَ كَثْرَةِ أعداءِ الدِّين وشِدَّةِ حِرْصِهم، وتَوَافُرِ دواعِيهم على تكذيبه ﷺ.

وَذَهَبَ جمهورُ النُّحَاةِ وغيرِهم إلى أنَّهُ مُشْتقٌ، قيل: من « لها » بمعنى دام، وبقي، فمعناه: الباقي الدائم، وقيل: من « لها » بمعنى احتجَبَ، فمعناه: الذي احتجَبَ فلا تُدْركُه الأبصارُ، وهو اللطيف الخبير. وقيل: من « لها » بمعنى طَرَبَ، فمعناه: الذي تطرَبُ الأرواحُ بشهودِ كمالِه، وقيل: من « لها » بمعنى تعبَّدَ، فمعناه: المعبـــود، ومنه قوله - تعالى -: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ (الزخرف ٨٤). إلى أن قال: فائدة إذا سقَط من اسمٍ حرف واحد تغيَّرَ معناه، إلَّا اسمه فإنَّه إذا سقَط منه الألف صار لله، وإذا سقَط عنه اللام الأول صار لَهُ، وإذا سقط منه اللام الثاني صار هو، ولم يتغيَّرْ معنى الاسم، إلى أن قال: واعلَمْ أنَّ في اسم الجلالةِ أربعةَ أحرفٍ، كلُّ حرفٍ منه يدلُّ على معنى، فالألفُ دالٌّ على ثبوتِ الوحدانية، واللَّام دالٌّ على ثبوتِ مُلْكِه ودوامِه له - تعالى -، واللام الثاني دالٌّ على ثبوتِ لُطْفِه بعبادِه مؤمِنِهم وكافرِهم، والهاء دالٌّ على ثبوتِ الألوهية ودوامها له - تعالى -.

إلى أن قال: « وقد أشارَ بعضُ الأئمَّةِ [إلى] أنَّ مَنْ خَلَصَ المجَاهَدَاتِ والريَّاضات، وتخلَّصَ من يدِ الشَّهَوات والغضبِ والأخلاقِ القبيحة، والأعمالِ الرَّدِيَّاتِ، وجَلَس في مكانٍ خالٍ، وغلَّق طَرِيقَ المحراص، وفَتَحَ عينَ البَاطِنِ وسَمِعَه، وجعلَ القلْبَ في مناسبةِ عالمِ الملكوتِ، وقال: الله الله دائم، بالقَلْبِ دُونَ اللِّسانِ ... يصيرُ لا خَبَرَ له من نفسِه ومن العالَمِ، [و] يبقى لا يَرَى شيئًا من العالَمِ إلَّا الله ﷻ، إنْ فَتَحَ طاقَةً يَرَى منها ويُبْصِرُ

في اليقظة الذي يُبْصِرُه في النَّوْم ، وتَظْهَرُ له أرواحُ الملائكةِ والأنبياءِ ، والصُّوَر الحسنة الجميلة ، وينكشِفُ له ملكوت السموات والأرض ، ويرى ما لا يمكن شرحُه ولا وصفُه » .

إلى أن قال : فعليكَ أيُّها المريدُ بالمداومةِ على الذِّكر الذي هو « اسم الجلالة » ، قال الله - تعـالى - لنبيه ﷺ : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (المزمل ٨)، معناه انقطاعٌ مِنْ كل شيء، وتطهيرُ القلبِ مِنْ كُلِّ شيء، والابتهالُ إليه بالكُلِّية ، وهي أسماؤُه الحسنى وصفاته العُظْمَى ، وخُصُوصًا منها اسم الله العظيم فَهُوَ الذي اختصَّ بهذا الاسمِ الذي هو : اسم الجلالة الدَّالُّ على الذَّاتِ الواجبةِ الوجودِ المستحِقَّة للعبَادَةِ ، وحقيقتُهُ هو : اسم عَلَم لموجُودٍ واجب الوجودِ ، موصوفٍ بالصِّفَات ، مُنزَّهٍ عن الآفات ، لا شريك له في المخلوقات » اهـ . كلام الشاذلي بإسقاط واختصار .

قلتُ : قوله : « لِمَوْجُود » رَدًّا على الدهرية القائلين : « الأرضُ تَبْلَعُ والأَرْحَامُ تَدْفَع ، وما يُهْلِكُنا إلَّا الدَّهْرُ » وقوله : « واجبُ الوُجُودِ » . رَدًّا على المجسِّمَة القائلين « إنَّ اللهَ جِسمٌ » ؛ لأنَّه لو كان جِسْمًا صارَ جائزَ الوُجُودِ ، وقَولُه : « موصوف بالصفات » ردًّا على المعطِّلَة النافين لصفاتِ المعاني ، وقوله : « مُنزَّهٌ عن الآفات » رَدًّا على من وصَفَه بالنقائص ، وقوله : « لا شريك له في المخلوقات » رَدًّا على القدرِيَة القائلين : إن العبد يخلُقُ أفعالَه الاختيارية .

والحاصِلُ أَنَّ هذا الاسمَ الجامِعَ لمعانِي الذَّاتِ والصِّفَاتِ لا يذْكُرُ إلَّا [له] هو خاصَّة ، ولا التفاتَ إلى ما نُسبَ إلى عِزِّ الدين في عَدَم الذِّكْرِ بِهِ إنْ صَحَّ صُدُورُ ذلك منه ، قال المكِّي في « كبيره » على كرامات الشَّيْخ : « إن صَحَّ صدورُ هذه المقالةِ من العِزِّ فهي عَثْرة من العَثَرَاتِ التي نَصَّ عليها

أهلُ العلم، على أَنَّ البَشَرَ مَحَلُّ النُّقْصَانِ والخَطَإِ والنِّسْيَان » .

هذا وجلالةُ مَنْصِبِ الشَّيْخ عِزِّ الدين - رحمه الله - في العلوم الشَّرْعِيةِ ورُسُوخ قدمِه ، وتَجَرُّدِه فيها أُصُولًا وفُرُوعًا حَتَّى بَلَغَ فيها رتبةَ الاجتهادِ ، إلى أنْ عُرِفَ بِسُلطان العلماءِ ، على لسانِ الخاصِّ والعَامِّ ، مع ما كان عليه من مَتَانة الدِّين ، والتَّحْقِيق والوَرَع والزُّهْد ، والقِيَام بِنُصْرَة الحَقِّ ، حَتَّى ظَهَرَ على يَدِهِ كثيرٌ مِنَ الكراماتِ المُؤْذِنَةِ بِبُلُوغِ رُتْبَة سَنِيٍّ المقامات كما في كُتُبِ القوم ، مما لا يَكَاد يُخْتَلفُ فيه ، ولا يَجْهَلُه مَنْ لَهُ أَدنى خِبرَةٍ بِأحْوالِ الأعيانِ ، لكِنَّ الرجلَ المعروفَ بالإصابةِ قد تكونُ منه الزَّلَّةُ والسَّقْطَةُ ، كما قيل : [كامل]

فَلَرُبَّمَا يَنْبُو الزِّنادُ ورُبَّمَا يَكْبُو الجَوَادُ وتَعْثُرُ الفُرْسَانُ

وقال الأصمعي : ومِنْ أمثالِهم في هذا « لا تَعْدَمُ الحسناءُ ذَامًّا » قال أبو عبيد القاسم بن سلام الخزاعي في كتاب الأمثال : « والذَّامُّ هو العيب ، وفيه لغتان ، ذام وذَيْم » ، قال : « ومنها قولهم : لِكلِّ جوادٍ كبوةٌ ، ولكلِّ صارمٍ نَبْوَةٌ ، ولكلِّ عالمٍ هَفْوَةٌ » إلى أن قال : [طويل]

وَمَنْ ذَا الذي تُرْضى سَجَايَاهُ كُلُّها
ولو كانَ حَاشَا الأَصْفِيَا فَائق النُّبلِ[1]

إلى أنَّ قال - رحمه الله - : « والحاصِلُ أَنَّ مَنْ لَمْ يتصوَّفْ بانَتْ زَنْدَقَتُه ، وهو في ذلك مغرورٌ ؛ لأنَّ سيدي أبا العباس المُرْسِي - رحمه الله - كانَ يقولُ مَنْ لَمْ يتَغَلْغَل في عِلْمِنا هذا مات وهو مُصِرٌّ على الكبائر ، وهو لا يَشْعُر » .

قلت : فعلى هذا أَنَّ مَنْ لَمْ يتغلغلْ في طريقِ القَوْمِ رُبَّمَا خَفِيَ عليه كثيرٌ

(١) صدر البيت مشهور ، وعجزه المتداول : (كفى المرء فضلًا أن تعدَّ معايبه) .

مِنْ أحوالِهِم السَّنية ، ومواجِدِهم الرَّبَّانية ، وأذواقِهِم الوَهْبِية ، وهذا الإمامُ كما لا يَخْفَى على العارفِ بتراجِمِ الأئمةِ كذلك ، وعلى التَّحْقِيق ، وإنْ لَقِيَ غيرَ واحدٍ من أكابِرِ القَوْمِ ، ومَشَايخِ الطريقِ كَالشَّيْخ القُطْب الكَبير أبي الحسن الشاذلي ﷺ ، فإنَّه كان يَحْضُر عنده ويَسْمَع كلامَه في الحقائق ، ويُعَظِّمُه كما في « لطـائف المنن » وغيرها ، وذَكَرَ غـيْرُ واحِـدٍ أنَّ الشَّيْخَ عِز الدِّين كانَ يُنْكِرُ أَوَّلًا على الصُّوفية ، ويقول : « لا[1] طَرِيقَ غيرُ الكتابِ والسُّنَّة » فلمَّا اجتمع بالشاذلي رَجَعَ عن ذلك ، وصَارَ يَمْدَحُهم ، بَلْ دَخَلَ في عِدَادِهم ، وذَكَرَ الشَّيْخُ العارِفُ بالله الشَّعْراني في مُقَدِّمَة كتابِهِ « لواقح الأنوار في طبقات الأخيار » أنه لَمَّا اجْتَمَع الأولياءُ والعلماءُ في وَقْعَةِ الإفْرَنْج بالمنصورة ، قَرِيبٍ مِنْ ثَغْرِ دُمْيَاط ، جَلَسَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّين ، والشَّيْخُ مَكِين الدِّين الأسمر ، والشَّيْخُ تقيُّ الدِّين بنُ دقيقِ العيدِ ، وأضرابهم ، وقُرِئَتْ عليهِمُ رسالةُ القُشَيْري ، وصارَ كُلُّ واحدٍ منهم يَتَكَلَّمُ ، إِذْ جَاء الشَّيْخُ أبو الحسن الشاذلي ﷺ ، فقالوا له : نُريد أَنْ تُسْمِعَنا شيئًا مِنْ معاني هذا الكلام ، فقال : « أَنْتُمْ مشايخُ الإسلام ، وكُبَرَاء الزَّمَان ، وقد تكلَّمْتُم ، فما بَقِيَ لِكَلامِ مِثْلِي مَوْقِع » فقالوا له : لا بُدَّ من ذلك ، فَحَمِدَ الله - تعالى - وأَثْنَى عليه ، وشَرَعَ يتكلَّمُ ، فصاح الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ مِنْ دَاخِلِ الخَيْمَةِ وخَرَجَ يُنادي هَلُمُّوا إلى هذا الكلامِ الغَرِيبِ القَرِيبِ العَهْدِ مِنَ الله - تعالى - فاسمعوا » اهـ .

وسَمِعْتُ ممَّنْ أَثِقُ بِهِ من العلماء أنَّ العِزَّ بنَ عبدِ السَّلام لَمَّا أَنْ دَخَلَ طريقَ القَوْمِ وعُدَّ بِتَعْدَادِهم ، أَلَّف كتابًا في فَضْلِ الذِّكْرِ بالجلالة ، وفي التَّرْغِيبِ فيه ، وفي ذَمِّ نَفْسِه واحْتِقَارِها ، لِمَا يَتَحَقَّقُه مِن عُيُوبِها وآفاتِها ،

(١) في الأصل : لنا ، وهو تصحيف .

وذلك مَطْلُوبٌ منه ؛ لأنَّ ذلك يُؤَدِّيه إلى الحذرِ من غُرورِها ، وشرُورِها ، فتصلحُ بذلك أعمالُه ، وتصدُقُ أحوالُه ، وقَدْ سَمَّى الكتابَ الذي قد كان أَلَّفَه في هذا المعنى بـ (المُرْشِد في فَضْلِ الذِّكْر بالاسم المُفْرَدِ) غيرَ أَنِّي لَمْ اطَّلِعْ عليه الآن ، والله أعلم .

واعْلَم أَنَّ هذا الاسْمَ المُفْرَدَ الذي هو (الله الله) بالعربية : الله جَلَّ جلاله ، وبالعبرانية : الُوهِيمْ ، وبالقبطية : أنوخ ، وبالفارسية : حذاي ، وبالتركية : تتقرى ، والرومية : أربوص ، وباليهودية : ليلص، وبالسريانية : أصيبهان ، وبالبربرية : الله المقار ، وفي كل لغة بلفظ .

قال شيخُنا الناصرُ في جواب له بعد كلامٍ كثير : « اعْلَم أنَّ هذا الاسمَ هو اسمُ الله الأعظمِ ؛ لأنَّهُ الاسمُ الخاصُّ به ، الجامعُ لمعاني الذَّاتِ والصِّفَاتِ » إلى أن قال : « واختارَ النَّوويُّ أَنَّ الاسمَ الأعظمَ الحَيُّ القيُّومُ ، قائلًا : و[إنْ] لَمْ يَرِدْ في القرآن إلَّا قليلًا في البقرة ، وآل عمران ، وطه ، ورُوِيَ أنَّ النبي ﷺ دعا به يَوْمَ بَدْر ، فأنْزَلَ الله ﷻ مِنْ بَرَكَاتِه ملائكةً ونَصَرَهُ بِهِمْ » .

وقيل : إنَّه ذو الجلال الإكرام ، واستدلَّ على ذلك بقول النبي ﷺ : « أَلِظُّوا بيا ذِي الجلال والإكرام »[1] ، معناه الْزَمُوا هذا الاسم ودَاوِمُوا على الدُّعَاء به ، والإِلْظَاضِ الإلْحَاحِ على الشَّيْءِ .

وقيلَ : هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحمين ؛ لأنَّ أيوبَ لَمَّا دعا به ، كَشَفَ اللهُ الضُّر بَعْدَ قولِه : ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء ٨٣) . وقيل : القَرِيبُ

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٤ و٣٥٢٥) من حديث أنس بن مالك، وقال: وليس بمحفوظ، أنها يروى عن الحسن البصري مرسلًا، وهذا أصح. وتعقبه الألباني في الصحيحة (١٥٣٦). والصواب : « أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام » .

المجيبُ ، واستدَلَّ على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة ١٨٦) ، وقيل: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ ، و ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾ . إلى غيرِ ذلك ، وما مَشَى عليه مشايخُنَا – رضوان الله عليهم أجمعين – أنَّ اسمَ الجلالة هو : اسمُ الله الأعظمُ .

إلى أن قال و[لم يكن إلَّا] قوله : ﷻ فيما يَرْويه عنهُ رسول الله ﷺ « أنا عند ظنِّ عبدي بي ، وأنا معه حين يَذْكُرني ، إنْ ذَكَرني في نفسِه ذَكَرْتُه في نفسِي ، وإنْ ذَكَرني في ملأٍ ذَكَرْتُه في ملأٍ خيرٍ مِنْهُ ، وإن تقرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا ، وإنْ تقرَّب إليَّ ذِراعًا تقرَّبْتُ مِنْهُ باعًا ، وإنْ أتاني يَمْشي أتيْتُهُ هَرْوَلَةً » لكان في ذلك الشِّفَاءُ والغُنْيَةُ ، وهذا الحديثُ مُتَّفَقٌ على صِحَّتِه، قالوا : ورد في ذِكْرِ الله بالجلالة ، ذَكَرَ ذلك مُحْيي الدِّين الحاتمي في تقييدٍ له ، ومِنَ خَصَائصِه أَنَّهُ غيرُ مُؤَقَّتٍ بوَقْتٍ ، فما مِنْ وَقْتٍ إلَّا والعَبْدُ مَطْلُوبٌ به ، إمَّا وُجُوبًا وإمَّا نَدْبًا ، بخِلافِ غَيْرِه » اهـ ما رُمْنَاه مِنْ جَوَابِ شَيْخِنَا النَّاصِر – رحمه الله ونفع به – ، وفي هذا القَدْرِ كِفَاية وبالله التوفيق .

[فصل: رجوع الشَّيْخ إلى يزليتن][1]

ولِنَرْجِعْ إلى الكلامِ على الشَّيْخِ – الذي هو سيدي عبد السَّلام ﷺ – ورجوعِه إلى بلادِه التي هي : يزليتن ، فما زال كذلك بهَا في ازدياد المَدَدِ ، حَتَّى أَذْعَنَتْ لَهُ الأنامُ ، وَاعْتَقَدَهُ الخاصُّ والعامُّ ، واتَّبَعَه جميعُ مَنْ كان مُنْكِرًا عليه ، ولَمْ يكُنْ له مُنَازِعٌ إلَّا الفقيه مبارك وابن عمِّه سالم المباركي المذكورين اللذين تردَّدَا في كلامِهِ وأحوالِه كثيرًا ، فقدْ مَاتَا مَوْتَةً شَنِيعَة ،

(١) وفيه بعض الأخبار المصنوعة .

وذلك أَنَّهُمَا أَكْثَرَا الاعتِرَاضَ على الشَّيْخِ بالهوى والحسد ، حَتَّى قال فيهما الشَّيْخُ ما قال ، وآخرُ ما قال فيهما : [زجل]

ولا مَنْ نَظَرَ سَيِّدِ الخلقْ   وبنسائِلِه عَـنْ مبارِكْ
وعَنْ نَجْلِ عَمِّـه الأَحْمَـقْ   المُنْهَمِـكْ في المَهالِـكْ
أَنَّ قَوْلَهُم لَنـا حَـقٌّ وإِلَّا   .... تـدَارَكْ

إلى آخر ما قال .

وكُلَّمَا كانا يُنكران عليه لم يَدْعُ عليهما بِشرٍّ ، إلى أَنْ أُذِنَ له في الدعاء عليهما ، حُكِيَ عنه - رحمه الله - أنه قال : لما أَذِنَ اللهُ [لِي] في الدُّعاء عليهما ، « قيل لي : يا عَابِدَ السَّلام ادْعُ على وَلَدِ الفقيه مبارك والمباركي ، فقلتُ : يا ربِّ ادْعُ لَهُمَا بالصَّلاحِ والتَّوْبَة ، فَنُودِيَ ثانيةً : ادْعُ عليهما ، فقلتُ : كذلك ، فنودي ثالثة : ادْعُ عليهما ، فقلتُ : يا ربي علِّمني كيف أقول ، فقيل لي: قل : اللهُمَّ اقْتَطِعْ البَرَكة منهما ، وأمتهما بين الحر والبرد ، وسُوء العاقبة ، فدعوتُ عليهما امتثالًا لِمَا أُمِرْتُ به . كقولي :

يا رَبِّ يا عـظيم يا جبَّـار   أَنْـتَ المُهَـيْمِنُ أَنْـتَ القَهَّـار
اقْبَلْ دعـائي يا كريم عاجـلا   في رَجُلَـيْنِ عَاصِـيَيْن بِجَـلا
مبـارَكُ الغيثـيُّ وابـنُ عَمِّـهْ   أَلْـقِ علـيهِمَا كثـيرَ الغُمَّـهْ
اقْتُلْهُمَا يـا رَبَّنـا بالفـردِ   مـا بـين الحَـرِّ وكـذاك البردِ
واحرقهُما حَتَّى [يَصـيرَا] حِمَمَا   مِنْ بَعْدِ دَفْقٍ في القبـورِ المُظْلِمَا
وامـنعْهُمَا مِـنْ مِلَّـةِ الإِسْـلامِ   وأَخْرِصْـهُمَا في النُّطـق بالكـلامِ
واحْشُرْهُمَا في النَّـارِ غـادي   مغلَّلـين أبـدا بجـاه الهـادي

المصـــطــــــفى المختـــار وآله وأصْحَــابه الأخْـيَــار(١)

قلت : حدثني الأخ في الله الصالح سيدي سالم المهدوي - رحمه الله - قال : لما أرادَ اللهُ هَلاكَ الفقيهِ مُبَارك والمباركي ، سَلَّطَ اللهُ عليهما سبحانه مَرَضًا عنيفًا حَتَّى إنَّ الواحدَ منهما يُصِيبُه مِنَ الحَرِّ ما لا يُبْرِدُه إلَّا اللهُ ، فيقول لأجلِه : صُبُّوا عليَّ الماء ، فإذا فعلوا يُصِيبُه البَرْد ، فيقول : ايتوني بالنار ، وما زال كذلك حَتَّى ماتا بين الحالتين على سُوءِ العاقبة ، إجابةً لما دعا به الشَّيْخُ عليهما .

حدثني سيدي سالم بن طاهر أَنَّ الشَّيْخ يَوْمَ مَوْتِ الفَقِيه مُبَارك ، كان بواد ماجر ، وَمَعَهُ جماعة من أصحابه مُقِيلين تَحْتَ أشجاره ، فإذا بالشَّيْخ قال لهم : ايتوني بِعَظْم ، فَجَاؤُوه به ، فقال : ادْفِنُوه فَدَفَنُوه ساعة ، ثُمَّ قال لهم : أَخْرِجُوه ، فَأَخْرَجُوه ، فإذا هُوَ قَدْ احْتَرَقَ وَعَادَ حِمًا ، فَجَعَلَ الشَّيْخُ يقولُ: أَعُوذُ بالله ، فَضِيحَةٌ في الدُّنْيا وفَضِيحَةٌ في القَبْرِ، وفَضِيحَةٌ في القيامةِ،

(١) وإنني أستبعد هذه القصَّة المصنوعة وأربأ بالشيخ الذي عرفته من خلال نصوصه الصحيحة أن تنسب إليه ، ولي على ذلك أدلة أخرى ، أولها : أن النص ضعيف في معناه ولغته دون أسلوب الشيخ ، وثانيها : هذا الحوار مع الله الذي يذكرنا بالقصص الملفقة عن الحلَّاج كما سنرى ، وهو يدل على وجود وحي ومخاطبة مباشرة بين الله وإنسان بعد الرسول ﷺ ، الذي كان يوحي إليه عن طريق جبريل عليه السلام ، ولهذا خصَّ موسى عليه السلام بأنه كليم الله . والسبب الآخر أن الشيخ إذا صحت هذه القصَّة المصنوعة قد تجاوز الإذن الذي اقتصر على نزع البركة والموت وسوء العاقبة، ثم هل يحتاج الله لدعاء الشيخ إذا أراد أن يفعل ذلك ، نعم يقال إن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، ولكن هل يقول الله للمظلوم لن أنتصر لك إذا لم تدعني ؟ وهو ينتصر للمظلوم وإن كان غير مسلم .إن غرابة هذه القصَّة وضعفها تجعلها ضمن التراث الأسطوري الذي نسب إلى الشيخ في حياته وبعدها ، ولم يتردد كُتَّاب سيرته في نقله .إن من يقدِّر الله حق قدره يسمو به عن هذا المقام من أجل أن يرتفع ذكر شيخه ويقال إنه مجاب الدعاء ، وحاشا للشيخ الأسمر أن يهبط إلى هذا الحضيض .

فقيّد ذَلِكَ مَنْ مَعَهُ من الطلبة ، فَكَشَفَ الغَيْبَ أَنَّ مبارك ماتَ ذلك اليوم ، ودَفَنَهُ مَنْ حَضَرَ مِنْ أَتباعِهِ وأولادِهِ ، ثُمَّ جَاءَ مَنْ غَابَ مِنهُم وَلَمْ يَرْضَ بِدَفْنِهِ هناك ، فأَخْرَجَهُ ، فإذَا بِهِ مَحْرُوقٌ كَالحُمَمَةِ ، وكان ذلك سَنَةَ ٩٧٤ هـ أربعة وسبعين وتسعمائة ، ولذلك يُشِيرُ الشَّيْخُ في بَعْضِ مُقَطَّعَاتِه ، بِنِيَّةِ التَّحَدُّثِ بالنِّعْمَةِ ، كقوله : [زجل]

حَقُّ الحَقِّ وَانقَصَم يَا سَادتي	مَنْ كَانَ فيَّ مُغْتَابْ
هَلَكَ الأعادي بعظيم بركتي	بقُدْرَةِ الوهَّابْ
مبارك وابن عمّه يا فقرتي	عَطبُهم العُطَابْ
والله تعطب مَنْ طَعَنَ في حَضْرَتي	بالقَوْسِ والنشَابْ
وأن تأخذ مَنْ يُجَاوز خُطوتي	لا بُدَّ مَا يُصَابْ
أنا الأمِيرُ الصَّادِقُ في مُدَّتي	وخلَّفُوني الأحبابْ
أنا حيٌّ قبل آدم[1] ونَشْأَتي	أَعْطَاني ربُّ الأربابْ
وشفع في وتري انطوي يا خيرتي	يا له من بابْ
باب الفتح افتتح بعنايتي	ادخلوا يا تيابْ
رأيت ربي بنظير مُقْلتي	في النوم والأغيابْ[2]
وظهرَتْ كالشمس وبلَغَتْ دعوتي	في البادي والأعْرَابْ

(١) حاشا للشيخ أن يقول هذا الكلام الذي لا يصدقه عاقل ولا يرد على لسان مؤمن يعرف أن آدم هو أول الخلق .

(٢) رسول الله ﷺ لم يَدَّعِ رؤية الله ، ولا الكليم موسى ولا الخليل إبراهيم ، ولا صالحي الصحابة والتابعين في القرون الثلاثة الأولى ، فكيف يدَّعيها رجال القرون المتأخرة ، قرون هزائم الأمة وجهلها وأميتها ، ولا شك أن الشيخ الأسمر الذي يعرف الله حق المعرفة يترفع عن هذا الهراء ، وحان الوقت لتنقية التراث منه .

فُقْتُ عـلى كـلِّ الأنـام بِهَيْبتي — وانفجَـــرَتْ الأكـــرابُ[1]
أَخَـذْتَ ميراثـي وكـلَّ فريضـتي — يــا خِــلُّ يــا حَطَّـــابْ[2]
قولـوا للفقـرا يَعْتَنُـوا بطريقتـي — يتعلَّـــــــمُوا الآدابْ
رَسْم الوِلَايَـةِ محتـوي في لمحتـي — مــا لـجـالي مَنْ خَــابْ
لا بُـدَّ نقتـل مَنْ يبارِزُ حـرمتي — ونسْـلُبه نـا ســـلابْ
نجْـبُر ونكْسِـر والـدوا رقيتي — طبيـب أنـا طبــابْ
أصـحابِي طُـرًّا يلبِسُـوا حُلَّتـي — نكسِـيهم الأثـسيـابْ
ثيـاب التُّقَـى يَلْبَسُـوها إخـوتي — يـا لهُمْ مِـنْ أصحــابْ
نُـرقِيهم أعـلى علـوي درجتـي — وكـرسي وقبــابْ
نفتح لهـم مشـكاة نـور بصيرتي — وثـمانيــة الأبــوابْ
فوق الكراسي يجلسوا من (...)[3] — والبيــت والمحـــرابْ
وفي القبة البيضاء جَلسُوا إخـوتي — تـــدُور بِيَ الأحــزابْ
وقاب قوسين فقيـه جمـاعتي — (أيهـــا) الطُّـــلَّابْ[4]
ومَنْ نَسَبَ لي يَحْتَسِب مِنْ مُزنتي — يـــرد عـــلى الأنْسَابْ

---

(١) لاحظ أن تحت كل الأنام الذين فاقهم يدخل الأنبياء والرسل وخاتمهم عليه الصَّلاة والسلام ، فهل يصدر هذا عن الشيخ الأسمر المعروف بدقة عبارته وكمال أدبه مع الله ورسله المصطفين . اللهم لا حول ولا قوة إلَّا بالله ، وأستغفر الله على تحرير هذه الأمثلة التي ما قصدت بها إلَّا تنبيه الغافلين إلى ما أُسند إلى هذا الشيخ الجليل ، وما زال بعض الناس على قلتهم يعتقدونه سليمًا .

(٢) الحطاب لقب لثلاثة من فقهاء عصره ، من مدينة تاجوراء ، وفيها دفن الجد ، بينما دفن الحفيد في مكة وعرف بالمكي (انظر أعلام ليبيا للشيخ الطاهر الزاوي ، ولصديقنا الدكتور جمعة الزريقي بحث في الأسرة) .

(٣) كلمة غير واضحة رسمها مثل (خيفتي) .

(٤) في الأصل : أيتها ، على اعتبارها جماعة وما هنا أولى .

إلى آخر ما قال .

تحدَّثَ الشَّيْخُ - رحمه الله - بالنِّعْمة في هذه المقطَعة امتثالًا لما ورد في الكتاب والسُّنَّة[1] ؛ ولأنَّ مِنْ مصائبِ المريدِ عَدَمَ الشُّكْر ، قال العلماءُ : شكرُ النِّعَمِ مِنْ صفات المؤمنين ، وعدمُ الشكر من صِفات الكافرين ، قال سيدي أحمد بن عطاء الله - رحمه الله - في « الحكم » : « مَنْ لَمْ يشْكُر النِّعَمَ فقد تعرَّضَ لزوالها ، ومَنْ شَكَرَها فقد قيدها بعِقَالها » ، وذَكَرَ غيرُ واحدٍ أنَّ مِنْ إساءةِ الأدبِ مَعَ الله ورسُولِهِ عَدَم شُكْرِ النِّعْمَة ، بَلْ رُبَّما يكون ذلك استدراجًا ، قال سيدي فتح الله أبو راس - رحمه الله - : « عدمُ شُكْرِ النِّعْمَةِ مِنَ المكرِ الخَفِيِّ » إلى أنْ قال بعد كلام كثيرٍ ، في رسالة له : « قال الله -تعالى- : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف ١٨٢) أي لا يشْعُرُون بذلك ، وهو أنْ يُلْقَى في أوهامِهِم أنَّهُم على شيء ، وليسوا كذلك ، يَسْتَدْرِجُهم ذلك شيئًا حَتَّى يَأْخُذُهم بَغْتَةً ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ (الأنعام ٤٤) . إشارةٌ إلى مُخالفتِهم وعِصْيَانِهم ، ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام ٤٤) ، أيْ : فَتَحْنَا عليهِمْ أَبْوَابَ العوافي وأبوابَ الرَّفَاهية ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ ﴾ (الأنعام ٤٤) ، مِنَ الحُظُوظِ الدنيوية ، وَلَمْ يَشْكُرُوا عليها ، بِرُجُوعِهِم مِنْهَا إلينا ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ (الأنعام ٤٤) ، أيْ : فَجْأَةً ، ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (الأنعام ٤٤) ، أيْ : آيسُونَ قَانِطُون مِنَ الرَّحْمة .

قال سعد بن عبد الله ﷺ في قوله - تعالى - : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يَمْتَحِنُهم بالنِّعَم ، ويُنْسِيهِم الشُّكْرَ عليها ، فإذَا رَكَنُوا إلى النِّعْمَة وَحُجِبُوا على المُنْعِم أُخذوا . إلى أن قال : اللَّهُمَّ لا تُنسِينَا شُكْرَكَ ،

(١) سبحان الله ، هل ورد في الكتاب والسنة إنه نشأ قبل آدم ؟ ومثل هذه الأمور هي موضع الانتقاد وليس ضرب الدُّف الذي كثر الحديث عن انتقاده من قبل فقهاء عصره .

ولا تُؤَاخِذْنَا بِمَا نَسِينَا ، إنَّكَ على ما تشاء قدير . والحاصِلُ [أَنَّ] شُكْرَ النِّعَمِ مُوجبٌ لبقائها ، والزيادةُ منها ، وكُفرانُها وعدمُ شكرِها مُوجبٌ لزوالها وانفصالها . قال - تعالى - : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم ٧) ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد ١١) أي : إذْ غَيَّرُوا مَا بِهِم مِنَ الطَّاعاتِ وَهِيَ شُكْرُ النِّعَم ، غَيَّرَ الله - تعالى - مَا مَنَّه مِنَ الإِحْسَانِ وَالكَرَم . وأَجْمَعَتْ حُكَمَاءُ العربِ والعَجَمِ على هذه اللَّفْظَةِ ، فقالوا : « الشُّكْرُ قَيدُ النِّعَم » وقالوا : « الشُّكْرُ قَيدُ المَوْجُودِ ، وصَيْدُ المفقودِ » وكان يقول(١) : « النِّعَمُ إذا رُوِيَتْ بالشُّكْر فَهِيَ إطرَاقٌ ، وإذا رُوِيَتْ بالكُفْرِ فَهِيَ إغْلاقٍ » .

والشُّكْرُ على ثلاثةِ أَوْجُه : شُكْرٌ بالقَلْب ، وشُكْرٌ باللِّسان ، وشُكْرٌ بسائر الجوارحِ ، فَشُكْرُ القَلْبِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ النِّعَمَ كُلَّهَا مِنَ الله - تعالى - ، قال - تعالى - : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل ٥٣) ، وشُكْرُ اللِّسان الثَّنَاءُ على الله - تعالى - ، وَكَثْرَةُ الحَمْدِ ، والمَدْحُ ، ويدخُلُ فيه التَّحَدُّثُ بالنِّعَم ، وإظهارُها ، ونشرُها ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى ١١) ، وقال عمر بن عبد العزيز : « تذاكروا بالنِّعَم فإنَّ ذِكْرَهَا شُكْرٌ » ومِنْ شُكْرِ اللِّسَان أيضًا شُكْرُ الوسائط ، بالثَّناء عليهم ، والدُّعَاءِ لهم ، وفي حَدِيثِ النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ ﷺ : أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ القَلِيلَ لَمْ يَشْكُر الكَثِيرَ ، ومَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُر الله »(٢) ، وعن أسامة بن زيد - رحمه الله - قال : قال رسول الله ﷺ : « أَشْكَرُ النَّاسِ

---

(١) عود إلى كلام سعد بن عبد الله أعلاه .

(٢) رواه أحمد ٤/ ٢٧٨، وصححه الهيثمي في المجمع ٥/ ٢٦٢، والألباني في الصحيحة ٢/ ٢٧٦ في الحديث رقم (٦٦٧).

لله أَشْكَرَهُمْ لِلنَّاس »(١) ، قال الله – تعـالى – : ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ (سبأ ١٣) ، فَجَعَلَ العَمَلَ شُكْرًا .

ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنّه قام حَتَّى انتفَخَتْ قَدَمَاهُ ، فقيل له : يا رسولَ الله تفعل هذا وقد غُفِر لكَ ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ؟ قال : « أفلا أكونُ عبدًا شكورًا »(٢) وسأل رجلٌ أبا حازم ؓ وقال له : ما شُكْرُ العينين ؟ قال: إذا رأيتَ بهما خيرًا أعلنته ، وإذا رأيتَ بهما شـرًّا سترته ، قال : فما شُكْرُ الأذنين ؟ قال : إذا سمعتَ بهما خيرًا وعَيْتَه ، وإذا سمعتَ بهما شرًّا دفنته ، قال : فما شُكْرُ اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع حقًّا هو لله فيهما ، قال : فما شُكْرُ البطن ؟ قال : أن يكون أسفله صبرًا ، وأعلاه عفافًا ، قال : فما شُكْرُ الفرج ؟ قال : كما قال الله – تعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (المؤمنون ٥-٦) . قال : فما شُكْرُ الرِّجْلين ؟ قال : إنْ رأيتَ شيئًا غبطته استعملتهما [في](٣) عمله ، وإنْ رأيت شيئًا مقته كففتهما عن عمله ، وأنت شاكرٌ لله – تعالى – .

فأمَّا مَنْ شَكَرَ بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه ، فمثله كمثل رجل له كساءٌ ، فأخذه بطرفه ولم يلبسه ، فلم ينفعه ذلك من الحَرِّ والبرد والثلج والمطر ، وأجمع العبارات للشكر قول مَنْ قال : الشُّكْرُ معرفةٌ بالجَنَان ، وذِكْرٌ باللِّسان ، وعملٌ بالأركان ، والقَدْرُ اللازم مِنْ شُكْرِ النِّعَم ما قاله الجُنَيد ؓ حين سأله السَّرِّي ؓ قال الجُنَيد : كنت بين يدي السَّرِّي وأنا ابن

(١) رواه الطبراني ١/ ١٧١ ، وضعفه الهيثمي في المجمع ٨/ ١٠٩ ، والألباني في الضعيفة (٥٣٣٩).
(٢) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (١٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة.
(٣) في الأصل : عن .

سَبْعِ سنين ، وبين يديه جماعةٌ يتكلَّمون في الشُّكْرِ ، فقال لي : يا غُلام ما الشُّكْرُ ؟ فقلتُ : أَلَّا تَعْصِيَ الله بنِعَمِه . فقال : يُوشِكُ أَنْ يكون حظُّكَ مِنَ الله لسانُكَ . فلا زال يبكي على هذه الكلمة ، إلى غير ذلك . فراجع كبيرنا ، ذَكَرْنَا فيه مِنْ هذا المعنى شيئًا كثيرًا .

ثُمَّ قال الشَّيْخُ - الذي هو مولانا عبد السَّلام - أيضًا في التحدُّث بالنِّعْمَة(١): [زجل]

طَابَ شُكْرِي في معَانِي حَضْرَتي — يَا أُولِي الأَلْبَابِ
اعْذِرُوني تَشْرَبُوا مِنْ خَمْرَتِي — يَظْهَرُ الكَذَّابُ
انْطَوَى لِيَ الكَوْنُ قُولُوا لِعِتْرَتِي — مِنْ ذَوِي الأَقْطَابِ
وَالشَّرْقُ والغَرْبُ معًا في قَبْضَتِي — والعَجَمُ والأَعْرَابُ
قَرِبُوني أَهْلَ الوَفَاءِ أَحِبَّتِي — إلى أَنْ شُفْتُ أَقْبَابَ
وصِلُوني بالوُصُولِ بصَفْوَتِي — لِحَضْرَةِ التَّوَّابِ
نَاوِلْنِي بالكُؤُوسِ عُمْدَتِي — صِرْتُ أَنَا نَرْهَابُ
خَلَّقُوني بالخلوق عِنَايتي — مَا عَلَيَّ حِجَابُ
جُلْتُ في الأَكْوَانِ الأرض والسَّمَا — ظَاهِرُ في المَلَكُوتِ
زَادَ بِي الحَالُ وتَقْوَى الهَوى — بَانَ لي البَهْمُوتُ
ورأيتُ ما في الأرضِ طُرًّا والسَّمَا — كُلُّ شَيْءٍ مَثْبُوتُ
ودَوْرَةُ أَفْلَاكٍ تَجْرِي بِقُدْرَتِي — أَنَا الوَلِيُّ المَنْعُوتُ
أَنَا التَّقِيُّ الكَامِلُ ذُو القُدْوَة — مَنْ عَاقَنِي مَمْقُوتُ

---

(١) لا تدخل هذه الشطحات في التحدث بالنعمة ، ونسبتها إلى الشيخ الأسمر في موضع الشك ، لاختلافها عن منهجه المسطَّر في الوثائق الصحيحة النسبة إليه .

والقَلَمُ في اللَّـوْحِ يَكْتُـبُ بقُـدْرَتي ... قِفُـوا بِبَـابِي يَـا خُـوتُ
والنَّوْبَـةُ الآنَ يَـا خَلِيلي نَـوْبَتي ... وَالوَقْـتُ لي مَوْقُـوتُ
والعَرْشُ والكُرْسِيُّ هُمَا في قَبْضَتِي ... واللَّـوْحُ والتَّـابُوتُ
لَمْ يَدْخُـلِ الشَّيْطَانُ قَـطُّ لِخِلْقَتِي ... أَنَـا الإِمَـامُ المَنْعُـوتُ
كُلُّ الوُحُـوشِ كَلَّمَتْنِي بِلُغَتِي ... والضِّـفْدَعُ والحُـوتُ
هَـذَا هُـوَ مِنْ قَـدِيرٍ رَبِّنَا ... وَنَبِيُّـه المَبْعُـوثُ(1)
رَقَّ قَلْبِـي لِكَـرِيمِ الكُرَمَـا ... حَلَّاجِـنَا المَنْعُـوتِ
يَـا ليتنـي مَعَـه عنـدما ... أَفْـتَوْا بِرَسْـمِ المَـوْتِ
نَحْمِيـه ولا يـشبـح ضما ... نُنْـقِـذُهُ قَـبْـلَ الفَـوْتِ

إلى آخر ما قال .

---

(1) النبي المبعوث عليه الصَّلاة والسلام لم يقل : إن العرش والكرسي واللوح في قبضته فكيف يعطيه لهذا المتحدث ؟! ، إنها من أوهام قرون التخلف التي عاقبنا الله بسببها ونسينا في هذا السبات الطويل حتى تقدمت من حولنا الأمم ونهضت الحضارات ، وليس لنا لإصلاح حالنا إلَّا بما صلح به أولنا ، وهو الجد في طلب العلم النافع والاعتماد على الكتاب وصحيح السُّنَّة ، أما هذه التهيئات التي تسمح للخيال الشعبي بالإغراق والغلو الذي يبلغ هذا الحد فلم تكن قادرة حتى على كف النصارى الذين يغزون بلادنا في هذا القرن العاشر ، والجهل الذي كان يطبع أفكارهم وأذواقهم ، وحاشا للشيخ عبد السلام أن يصدر عنه هذا الوهم ، فإن صدر عنه فهو ليس منزها عن النقد ، ولا محفوظًا من أوهام الشيطان وألاعيبه ، ولكن الأدلة متظافرة على أن هذا من الافتراءات على الشيخ استكثارًا لمريديه وإعلاء من شأنه بزعمهم ، وليس يعنينا نقده أو نقد مريديه آنذاك ، ولكن الذي يعنينا أن يستمر في عقول الأمة حاضرًا ومستقبلًا مثل هذا الوهم الذي وجد في الجهل والبعد عن مصادر الدين الأصيلة بيئة خصبة ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله .

[الأسمر والحَلَّاج]

قلت : إنَّ الشَّيْخ الذي هو سيدي عبد السَّلام - رحمه الله - لَمَّا بلغ القُطْبَانية [و] هي درجة الغوائة ، أشارَ في هذه المقطَّعة وغيرها إلى قصَّة الحَلَّاج المشهورة ، ومقتضَى كلامه ، والله أعلم ، [أن] يقول : أيُّها الناس إني الآن استقطبتُ في هذا القرن الذي هو العاشر ، وقد يستغيثُ أهلُه بي فيغاثون ، وأدفع عنهم البلاءَ والعذابَ ، وبي يُرحمون ، وإني الآن بابٌ من أبوابِ الله ، وإني لو أدركتُ زمان الحَلَّاج الذي هو : حُسَين بن منصور حين أنْ عَثَرَ لأخذتُ بيدِه ، وأنقذته ممَّا هو فيه ، وإلى قصَّته أيضًا يُشيرُ الشَّيْخُ بقوله : [زجل]

حَـلَّاجُ يَـا نِعْـمَ الحَـلَّاج ... يَا شَـيْخَ عَصْرِكْ يُنفـع بيـك
مَا لَاهْ يَـا سـيدي الحَـلَّاج ... فُقُهَتُ[1] زمَانَك ارْمَوا فيـك
قَتَلُـوكَ يـا سيدي الحَـلَّاج ... ولا وَجَدْتَ مَنْ يَشْفَع فيـك
لو كُنْتُ في وَقْتِـكَ يـا حَـلَّاج ... والله بِالله أَنَـا نَحْـميك[2]
غَوْثَاه يَا عِـزَّ المُحْـتَاج ... فُقُهَـت زَمَانَـك اسـوا فيـك
أَنْتَ عَـلَى الحَـقِّ والمِنْهَـاج ... والنَّـاس مـا يَـدْرُو مَعَانيـك
مَا يَعْرِفُو الضَّـوْ مِـنَ الـدَّاج ... زَادُوا الخُطَى والحَـقُّ عَلِيـك
اسْقَاوْك مِنْ كَـأْس الـوَلَّاج ... حُكْم الإلٰـه سَـبَقْ عليـك
مَا يَنْظُـرُوا المَـلَاك إفْـرَاج ... والخضر حَاضِر بـين يـديك

(١) فُقُهَتُ : يريد فقهاء .
(٢) إن الشيخ عبد السلام الأسمر لا يشك أن الله موجود عند قتل الحَلَّاج ، ولو أراد إنقاذه لكان أقدر على ذلك من كل ولي ، فما جدوى هذا القسم ؟

مَا يَنْظُـــرُوا الأَسْيَاد أَدرَاج | من الغـــرب للشرق ياتوا ليك
مَا يَنْظُـــرُوا البَـدْرَ الوهَّـــاج | ضيَّه ضـوا واحْـزَنْ عليـك
مَـــا يَنْظُـــرُوا للعـــالم رَاج | والصَّـــالحين الـكُلْ تجيك
نهنِّيـك يَـــا سـيدي الحَـلَّاج | أَهْلُ السَّمَـا يَرْضِـيوا(١) عليـك
الحُـور جَعلَـتْ بالديبَـــاج | مُتَشَبِّحَـــات امْتَـى تَأْتِـــيك
يَا سـيدي دَمْعِـــي فجَـاج | ما صَبتشي كيفَـاشْ انجيـك
حَسِّيتْ قَلْبِـي رَاح اخمَـــاج | كيف نصبر يا شـيخ عليـك
والله ولَا سَـــابق مَهـــلَاج | نبـغي نعـــزم ونـزور إليـك
يَـــا بَحْـــرُ مُلْـتَطم بـــأمواج | بالعـــلم مولانا ســـــاقيك
يَا بَرقُ فِي الظُّلمة لعَّـــــاج | يا صـيد عصرك ينفـع بيـك
نَشْرُوك يا سـيدي الحَـلَّاج | ودقوا مسـامرهم في يـديك
ارمـوك فِي ســـامرٍ وهَّـــاج | يا طَمْتُ هَـذِي الرزيَّـه فيـك
ابْكُوا عَـــلَى البَـــدْر الوهَّاج | شَفِيعُنا غَـــــدْوَه ينـــجِّيك

إلى آخر ما قال .

اعلم أنه قَصَرَ هَاهُنا الكلام على قصَّة الحَلَّاج ؛ لأنَّ الشَّيْخ أشار إليها في مقطَّعاتٍ كثيرةٍ ، والحكايةُ أنَّ الشَّيْخَ الحَلَّاجَ عند انتهائه باحَ بالسِّر الذي رآه ، إلى أنْ أَفْتَوْا بقتله - كما سيأتي - ، قال المَقْدِسِي : اعْلَمْ أنَّ القلوبَ

(١) يبدو من بعض الكلمات أنها ليست ليبية ، مثل (يرضيوا) و (أسقاوك) و (مسام) ويلاحظ منها ومن كلمة (كيفاش) أنها لهجة تونسية ، أو أن اللهجة قد تغيرت بصورة تدعو لدراسة مقارنة .

أوعيةٌ ، والآذانَ أوكيةٌ[1] ، والنغماتِ أشربةٌ مرويةٌ ؛ لأنَّ الأصواتَ جمالٌ تحملُ النغماتِ مِنَ الأغاني إلى الأواني ، ولولا صَفوُ الأواني ما رَقَّتْ الأغاني، ولولا صحَّةُ المعاني ما طابَتْ المثاني ، فإذا وصلتْ الأشربةُ إلى أوانيها ، فإنْ كانت صافيةً صفَّتهُ ولطَّفتهُ ، وإنْ كانت كَدِرَةً كثَّفَتهُ وخَبَّثتهُ ، ولقد قُلنا في ذلك شعرًا : [رجز]

ما حِيلةُ السَّاقي إذا طافَ على ... نُدْمَائِه بِالخَمْرَة المحلَّلَهْ
فَوَاحِدٌ قَدْ زَادَهَا بِصَفْوِهِ ... صَفْوًا وَهَذا رَدُّهَا مُحلَّلَهْ
قُلُوبُنَا أَوْعِيَةٌ فَكُلَّمَا ... طَابَ الوِعَاءُ طَابَ مَا قَدْ حَصَّلَهْ
قلبٌ بِذِكْرِ اللهِ أَضْحَى رَوْضَةً ... وَوَاحِدٌ بِاللَّهْوِ صَارَ مَزْبَلَهْ
مَا مَنْبِتُ الوَرْدِ كَنَبْتِ[2] غَيْرِهِ ... ولا شَذَا المِسْكِ كَرِيحِ البَصَلَهْ
لَوْ سُقِيَ الحَنْظَلُ شَهْدًا دائمًا ... مَا أَنْبَتَ الحَنْظَلُ إلَّا الحَنْظَلَهْ[3]

واعْلَمْ أنَّ الخَلْقَ كلهم أطفالٌ في حِجْرِ تربيةِ الحقِّ ﷻ ، يُغَذِّي كُلَّ واحدٍ مِنْ خَلْقِه على احتمالِ معدة معرفتِه ، فغذاءُ الرِّجالِ لا يصلُح للأطفالِ، ومراكبُ الأبطالِ لا تصلُح للبَطَّال ، ألا ترى أنَّ الطفلَ لم يُطِقْ تناوُلَ الخُبزِ واللَّحم ، فَوَصَلَ إليه بواسطةِ اللَّبَن ، ولو أَطْعَمَتْهُ حاضِنَتُه ذلكَ مُجَرَّدًا لَمَاتَ ، ومِنْ هُنَا يُقَال : مَنْ لا شَيْخَ له لا قِبْلَةَ له ، ومَنْ لا شَيْخَ له

---

(١) في الأصل : أكوية .

(٢) في الأصل : كمنبت ، وبه ينكسر الوزن .

(٣) هذا الشعر من الطراز الرفيع ، ولو صحت نسبته إلى البرموني - كما جاء أعلاه - لعُدَّ من كبار الشعراء في عصره ، ولو ثبت انتحاله لكان في روايته نظر ، وتحقيق الأمر يحتاج إلى وقت أوسع من العجالة التي كلفت فيها بالعناية بنشر هذا الكتاب ، ومواده في حاجة إلى دراسات مطولة خارج التحقيق .

فالشَّيطانُ هو شَيْخُه ، هذا أبو بكر الصدِّيق ﷺ لَمَّا كان طِفْلًا[1] في حِجْرِ النبي ﷺ كان يُلَقِّمُه ما كان يَلْتَقِمُه مِنْ لُقَمِ الغَيْب بواسطة « ما صبَّ اللهُ في صَدْرِي شيئًا إلَّا وَصَبَبْتُه في صدرِ أبي بكر »[2] فما أطاقَ تناوُلَ ذلك الغِذاءِ إلَّا بواسطةِ رسولِ الله ﷺ .

ومن هذا أيضًا قولُه ﷺ : « أَنَا مدينةُ العِلْمِ وعليٌّ بَابُهَا »[3] لَمْ يكُنْ عَلِيٌّ يحتملُ ما تحتملُه المدينةُ ، وإنْ كانَ بمنزلةِ البَابِ مِنَ المدينة ، فلا يَخْرُجُ مِنَ المدينة شَيْءٌ حَتَّى يمرَّ بالبابِ ، ومِنْ سِرِّ هذا الكَشْفِ كان يقولُ - كرم الله وجهه - لو كُشِفَ الغطاءُ ما ازددتُ يقينًا ، معناه لو كُشِفَ غطاءُ المخلوقاتِ حَتَّى أُشَاهِدَها أُكَاشِفَها بعينِ البَصَرِ ما ازددتُ يقينًا على ما شَهِدتُ بعينِ البَصِيرَة ، ممَّا ورِثْتُه مِنْ عِلْمِ الأَوَّلين والآخِرين . فما أرَادَ بكَشْفِ الغطاءِ إلَّا على المَخْلُوقَاتِ لا على الخالقِ ؛ لأنَّه لا يُوصَفُ بذلك ، فإذا كُنْتَ طِفْلًا في حِجْرِ عادتِك ، محصورًا بقُماطِ ما لو افْتَكَّ لا تتطاوَلُ إلى تناولِ طعامِ الرِّجالِ ، فإنَّ طعامَ الأَصِحَّاءِ يَضُرُّ بذَوِي الاعْتِلَالِ ، وإشْرَاق الشمس المنيرةِ يَضُرُّ بذَوِي الأَبْصَارِ الضَّعيفة .

وقال رسول الله ﷺ : « لا تُودِعُوا الحِكمَةَ غيرَ أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوها ، ولا تمنعُوها أهلَهَا فتظْلِمُوهم ، فما كلُّ قَلْبٍ يَصْلُحُ لِلسِّرِّ ، ولا كلُّ صَدَفٍ يَنْطَبِقُ

(١) يريد الطفولة الفكرية ، إذ لم يكن الصديق طفلا حقيقيا في حجر النبي كما هو معروف .

(٢) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٣١٩ وقال: ما رأينا له أثرا في الصحيح ولا في الموضوع، ولا فائدة في الإطالة بمثل هذه الأشياء.

(٣) رواه الطبراني ١١/ ٦٥ من حديث ابن عباس، قال ابن معين: ليس له أصل، ووافقه أحمد. انظر الجرح والتعديل ٦/ ٩٩. وصححه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٣٧، وتعقبه الذهبي في التلخيص قائلاً: بل موضوع، ووافقه الألباني في الضعيفة (٢٩٥٥).

على الدُّرِّ ، فَلِكُلِّ قَوْمٍ(١) مَقَالٌ ، وما كُلُّ ما يُعْلَمُ يُقَال »(٢) ، قال قائل لأبي يزيد ﷺ ... الأيل غَيْرُ أُمِّهِ ، وأنشد : [الخفيف]

فَإِنْ كُنْتَ بالمدارِكِ غِرًّا ... ثُمَّ أَبْصَرْتَ حَاذِقًا لا تُمَارِ
وإذا لَمْ تَرَ الهِلالَ فَسَلِّمْ ... لِأُنَاسٍ رَأَوْهُ بِالأَبْصَارِ

هذا ترجمانُ القرآن عبد الله بن عباس ﷺ يقول : « إني لَأَعْلَمُ ما في قوله -تعالى- : ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ (الطلاق ١٢) ما لو قُلْتُه لَكَفَّرْتُموني »(٣) ، وهذا أبو هريرة ﷺ يقول : « أَخَذْتُ عَنْ رسولِ الله ﷺ جِرَابَيْنِ مِنَ العِلْمِ ، جِرَابًا أَلْقَيْتُه إِلَيْكُم ، وجِرَابًا لَوْ أَبْدَيْتُه إِلَيْكُم لرَجَمْتُموني »(٤) ، وهذا عليُّ بن أبي طالب ﷺ يقول : « إنَّ بَيْنَ جَنْبَيَّ عِلْمًا لَوْ قلتُه لخَضَبْتُم هذه من هذه »(٥) . ويقول أيضًا : « إِنِّي لَأَعْلَمُ عِلْمًا لَوْ أَبُوحُ بِهِ لَقِيلَ لِي أَنْتَ مِمَّا يَعْبُدُ الوَثَنَ ، ولاستباحَ رجالُ المسلمين دَمِي ، يَرَوْنَ مِنْ غَيْرِ هذا أَقْبَحَ مَا يَأْتُونَه حسنًا ، فَأَمَّا أهلُ التمكين فإنَّهم عَلِمُوا وكَتَمُوا ما عَلِمُوا ، لِمَا يَعْلَمُون مِنْ ضَعْفِ احْتِمَالِ أَطْفَالِ العُقُولِ »(٦) .

---

(١) لعله أراد : مقام .

(٢) رواه أحمد في الزهد ص٢٩٥، وعبد بن حميد في مسنده ص٢٢٥ من حديث ابن عباس مرفوعا والكلام لعيسى عليه السلام، وصححه الحاكم في المستدرك ٤/٣٠١، وتعقبه الذهبي في التلخيص بأنه باطل.

(٣) لم أقف عليه .

(٤) رواه البخاري (١٢٠).

(٥) لم أقف عليه .

(٦) لم أقف عليه . ولقد أرسل الله الرسل عليهم السلام ، وحرَّم عليهم الكتمان ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ (آل عمران ١٨٧) ، ونشهد أن رسول الله بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وقال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام ٣٨) فلا ينبغي للمسلم وقد آمن بذلك أن يعتقد أن الرسول ﷺ كتم ما ينبغي تبليغه ، ولا أننا =

فهذا - أي الحَلَّاج - لَمَّا عَلِمَ شيئًا من هذا العِلْمِ وتَقَوَّلَ بهِ فمُه أُبيحَ دمُه ، وكَانَ خطؤُه مِنْ حَيْثُ إظْهَارُه ما يُكْتَمُ ، وإعلانُه مَا يَسُرُّه ، فكان حُكْمُ مَنْ بَاحَ أَنَّ دَمَه يُبَاح اهـ . قال الشِّبْلي - رحمه الله - : « كُنْتُ أنا والحَلَّاج شيئًا واحدًا، إلَّا أنَّه أظْهَرَ وكَتَمْتُ ، وقد شهدَ بولايتِهِ كثيرٌ مِنْ أكابرِ المشايخِ ، وقالوا : إنَّه عالِمٌ ربَّاني ، منهم : الإمامُ الغزَّالي أثنى عليه ، واعتذَرَ عمَّا صَدَرَ منه في كتاب « مِشْكاة الأنوار » . وأَفْرد ابنُ الجوزي ترجمتَه بتأليفٍ مستقلٍّ ، ومنهم : الشَّيْخُ سيدي عبد القادر الجيلاني ، وقال : « عَثَرَ الحَلَّاج ، ولَمْ يكُن له مَنْ يأخُـذُ بيده ، ولو أَدْرَكْتُ زمانَهُ لَأَخَذْتُ بيـدِه » ، وقال : « إنَّ قَوْلَه إنَّا الحقُّ » إنما قاله لَمَّا غَلَبَ عليه شَوقٌ وسُكْرٌ مِنْ كاسِ مَحبَّتِه ، حَتَّى عَايَنَ قُدْرَتَهِ في كُلِّ شَيْءٍ رآه ظَنَّه قَدَحًا ، وكُلُّ شَخْصٍ رآه ظَنَّه السَّاقي ، وهو مَقَامُ الجَمْعِ عندهم .

لَكِنَّ أَهْلَ الشَّرْعِ حَفِـظُوا حِسَّ الشَّرِيعَة ، ولِذَا سَكَتَ عن ... وقال : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة ١٣٤) ، والاعتقادُ خيرٌ مِنَ الانتقادِ ، والكَفُّ أَسْلَم ، قال الشَّيْخ أبو الحسن الشاذلي - رحمه الله - اضْطَجَعْتُ في المسجد الأقصى في وَسَطِ الحَرَم ، فدخَلَ خَلْقٌ كثيرٌ أفواجًا ، فقلتُ : ما هذا الجمع ؟ قالوا : جَمْعٌ [من] الأنبياءِ والرُّسُلِ قد حَضَروا ليشفعوا في حُسَين الحَلَّاج عند محمد ﷺ ، في إساءَةِ أدبٍ وفَتَرٍ منه ، فنظَرْتُ إلى التَّخْتِ فإذا نبيُّنا محمَّد - عليه الصَّلاة والسَّلام - جالسٌ عليه بانفرادٍ، وجميعُ الأنبياءِ على الأَرْضِ جالسُون، مثل: إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ونوح ، فوقفتُ أنظرُ وأسمعُ كلامهُم ،

= مطالبون بما لم يبلغه لنا، وفي ما بلغ الكفاية والنجاة للمؤمنين ، ولن نترك إيماننا الثابت بما جاء في أصول الديانة لهذه الروايات الضعيفة ؛ لأنَّ دائرة يقيننا هي الله ورسوله ورسالته المتمثلة في القرآن الكريم .

فخَطَبَ موسى محمَّدًا ، فقال له : إنَّكَ قلتَ : علماءُ أُمتي كأنبياء بني إسرائيل، فأرِني منهُم واحدًا ، فقال : هذا وأشار إلى الغزَّالي ، فسألهُ موسى سؤالًا ، فأجابه بعشرة أجوبة ، فاعترَض عليه موسى بأنَّ السؤالَ ينبغي أنْ يطابقَ الجواب ، والسؤالُ واحدٌ والجوابُ عشرة ، فقال له الغزَّالي : هذا الاعتراضُ واردٌ عليك أيضًا ، حين سُئلتَ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه ١٧) ، وكان الجواب هي عصاي ، فعددتَ لها صفات كثيرة .

قال : فبينما أنا أتفكَّرُ في صلاتي قدْرَ محمد - عليه الصَّلاة والسَّلام - ، وكونُه جالسًا على التَّخْت بانفرادِه ، والبقية على الأرض ، أَنْ زقَّني شخصٌ برجليه زقَّةً مزعجةً ، فانتبهتُ ، فإذا بقيِّم يُشْعِلُ قناديل الأقْصَى ، فقال : لا تَعْجَبْ فإنَّ الكُلَّ خُلِقُوا مِنْ نُورِهِ(1) ، فَخَرَرْتُ مَغْشِيًا ، فلمَّا أقَامُوا الصَّلاة أَفَقْتُ ، وطَلَبْتُ القَيِّمَ فَلَمْ أجِدْهُ إلى يومي هذا . ومن هنا قال صاحب البردة : [البسيط]

وانسبْ إلى ذاتِهِ ما شئتَ من شرفٍ
وانسبْ إلى قدرِهِ ما شئتَ مِن عِظَمِ

كذا في « المحاضرات » .

ويقال - والله أعلم - إنَّ حُسَين بن منصور - المشار إليه - سُمِيَّ حَلَّاجًا ؛ لأنَّه جلس يومًا على حانوتِ حَلَّاج ، واستقضاه حاجة ، فقال له

(1) ليس أعجب من فحوى هذه المنامة إلَّا فحوى ما جاء في اليقظة ، فالله قد خلق كل شيء حيٍّ من ماء ، ولم يخلقه من نور ، ولو خلق من النور أحدًا لكان من نوره وحده ، ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور ٣٥) . أما رسول الله ﷺ فهو بشر ، أنعم الله عليه بالهدى وكان قبل إنعامه غافلًا ، قال تعالى معددًا نعمته على رسوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى ٦-٧) . فما لهؤلاء الغلاة يدعون ما لم ينزل به الله سلطانا ثم ينسبونه إلى علماء الأمة ، ولو قاله الشاذلي نفسه لردته الشريعة عليه .

الحَلَّاج : أنا مُشْتَغِلٌ بالحَلْج ، فقال له : اقْضِ حاجتي حَتَّى أَحْلِجَ لك . فمضى الحَلَّاج في حاجته ، فلما عاد وجَدَ قُطْنَه كُلَّه محلوجًا ، وكان لا يَحْلِجُه عَشْرةُ رجال في أيام متعددة ، فمِنْ ثَمَّ قيل له الحَلَّاج ، وقيل غير ذلك - كما سيأتي - . وقيل : كان أبوه من مجوس فارس ، وقيل : غير ذلك ، واختُلف في أمره ، فقيل : إنه ذهبَ في سياحته للهند وخراسان ، وتَعَلَّمَ السِّحْر وأظهرَهُ في صورة الكرامات وأَضَّل به الناس ، وسكن ببغداد وبَنَى بها دارًا واتخذ بها أملاكًا كثيرة ، وصَارَ يَغْدُو الناسُ حَتَّى شاع أَمْرُهُ وذَاعَ ، فَوَقَعَ بينه وبين الشِّبْلي وداود الظاهري والوزير ابن عيسى لِمَا شَاعَ عنه من الأخبار بالمغيَّباتِ ، وإظهارِ الأمورِ الخارِقةِ ، فقيل : إنَّه ساحِرٌ ذو شعبذة ومَخْرَفة ، وله معرفةٌ بالطب والكيمياء وغير ذلك من علوم الحكماء ، وقيل : إنَّه ادَّعَى الألوهية ، وأظهرَ الزَّنْدقةَ إلى أَنْ قُتل .

وما عليه المحققُون أنَّه مِنَ الأولياءِ الأكابرِ الذينَ ليسَ بينهم وبين الله حجاب ، قلتُ : وقد قيل : سببُ ذلك كُلِّه - أي صدور موجب قتله منه - نفاذُ دعوةِ شيخِهِ الجُنَيد ﷺ لَمَّا ضَاعَتْ لَهُ ورقةُ مَرْسُومِ الوِلاية ، فطلبها فلَمْ يجدها دعا على مَنْ أخذها بقطْعِ الأيدي والأرجُلِ والصَّلْب والإحْرَاق .

كما يُحكى عن بعضِ المشايخ - رضوان الله عليهم - أنَّ والدتَه - رضي الله عنها - لَمَّا حَمَلَتْ بِهِ نَذَرَته خادمًا للفقراء ، ونذَرَتْ على نفسِها أنْ تُسَلِّمَه لأبي القاسم الجُنَيد الأكبر ، ليعلِّمه كتابَ الله العَزِيزِ ، فلَمَّا وَضَعَتْهُ وكَبُرَ لَمْ يَهُنْ عليها فِرَاقُه ، فَأَشْغَلَته في صنائِعِ أَهْلِ الدُّنْيا فَلَمْ يتعلَّمْ منها شيئًا ، فتحيَّرَ في أمْرِهِ فَرَأى في بعضِ الليالي في نومه : يا حُسَين لا تَتَحَيَّرْ فليس لك في صنائِعِ الدُّنْيا نَصِيبٌ ؛ لأنَّ والدتَك نذرَتك أنْ تَتَتَلْمَذ لأبي القاسم الجُنَيد ليعلِّمَك كتابَ الله - تعالى - ، فسلِّم على أمِّكَ ومُرْهَا أنْ تُوفِي بِنَذْرِهَا ، وإلَّا

هَلَكْتَ وَهَلَكَتْ مِنْ بَعْدِك عاجلًا ، فلمَّا أصْبَحَ قال لها : يا أُمَّاه نَذَرتني خادمًا للفقراء ، ونذرتِ أنْ تَهِبِيني لأبي القاسم الجُنَيد ؟ قالت : نعم . فقال لها : أوفي بنَذْرِك وإلَّا هلكتُ وهلكتِ من بعدي ، فأخذَتْهُ ومضَتْ به إلى الشَّيْخ أبي القاسم الجُنَيد - رحمة الله عليه - وسلكَتْهُ إليه وأوصَته بِهِ ، فأخذَهُ وعَلَّمَهُ كتابَ الله العزيز ، وشيئًا مِنَ العِلْمِ الشَّريفِ ، وكانَ يَخْدُمُ زَاوِيَةَ الشَّيْخِ ويتحوَّجُ لِلفَقْر ، فَدَخَلَ يَوْمًا خَلْوةَ الشَّيْخِ وكَنسَها ونَفضَ الكُتُبَ مِنَ الغُبَارِ وَبَسَطَ السَّجاد ، ومَلأَ إبْريقه وَقَدم النِّعَال ، فدخَلَ ذاتَ يَوْمٍ إلى خَلْوةِ الشَّيْخِ لِيَكْنِسَها وينفُضَ الكُتُبَ ، وإذا بوَرَقَةٍ قد سَقَطَتْ مِنْ السَّجَّادَة وفيها اسمُ الله العَظيم الأعظم ، فأخَذَها وأكَلَهَا ليتبرك بها ، وكانت مَرْسُوم الوِلَاية للشَّيْخِ ، فطلبَهَا فلَمْ يَجِدْهَا ، فشقَّ ذلك عليه ، فأراد أنْ يُخوِّفَ الفقراء حَتَّى مَنْ أخذها يَرُدَّهَا عليه ، فقال الشَّيْخُ : مَنْ وَجَدَ وَرَقَةً لطيفةً فيها اسمُ الله الأعظمِ وَلَمْ يردَّها قُطِعَتْ يَمينُه .

فلَمْ يَتَكَلَّمْ أحدٌ ، فقال : مَنْ سَمِعَنِي أَطْلُبُهَا وَلَمْ يَردَّها أقطعُ شمالُه ، مَنْ سَمِعَنِي أَطْلُبُهَا وَلَمْ يَرَدَّها قُطِعتْ رجلَاهُ بعد يديه ، وصُلِبَ بعد ذلك ورُجِمَ وقُطِعَ رأسُه وأُحرق وأُذري في الهواء ، فنفذَتْ الدعواتُ كُلُّها في حُسَين الحلَّاج وهو قائمٌ مُتَحَيِّر ، وقد الْتَهَبَ فؤادُه بمحبَّةِ الحقِّ ، فقال له الشَّيْخ : يا حُسَين فيمَ أفكارك ؟ فقال : نسمةٌ من جنابِهِ أَوقَفَتْني على بابِهِ وبَشَّرَتْني في الرجاءِ بوَصْلِه واقترابه ، واسْتَرَاحَ الفؤادُ مِنْ هجره وأوصابه ، [و] طاب لي مَا سَمِعْتُه في الرَّجاء من خِطابه ـ وعلى كلِّ حالةٍ أَسْكَرَني مِنْ شَرَابِه .

قال : ثُمَّ قَوِيَ بِهِ وَجْدُه فكَانَ الشَّيْخُ يُعْطِيهُ الفِضَّةَ لِيَشْتَرِي بها العَشَاءَ للفقراء ، فيمضي بها إلى السُّوق فيقفُ على البيَّاع ، فيقول له : ما تريد ؟

فيقول : الله الله ، ثُمَّ يأتي اللبَّان ، فيقول له مثل ذلك ، ثُمَّ يأتي الخَبَّاز فيدفع إليه الدراهم فيقول : كم تريد [من] الخبز ؟ فيقول : الله الله .

قال : فأتى أهلُ السُّوقِ إلى الشَّيْخِ ، وقالوا له : يا سيدي لا تَعُدْ تُرسِلُ إلينا هذا المولـه فإننا لا نَعْرِفُ ما يقول ، فاستعمل الشَّيْخُ غيرَه لقضاءِ الحَوَائج ، وزاد الوَجْدُ بحُسَين الحَلَّاج فسَاحَ في الأرضِ في رؤوسِ الجبَال ستة أشهر ، ثُمَّ رَجَع في يومِ مَعَادِ الشَّيْخ وقد اجتمعتْ عليه الخلائقُ وازدحمتْ ، فوقَفَ الحُسَين في الدِّهْلِيز ، وكان الشَّيْخُ أبو القاسم الجُنَيد - رحمة الله عليه - فصيحَ اللسان ، إذا تكلَّم يفهَمُ كلامهُ الذكيُّ والبليدُ والعالِمُ والعاميُّ ، وكان النَّاسُ يَزْعَقُونَ في مجْلِسِه لفصاحَتِه وكَثْرَةِ فوائِدِه ، ودَقَّ الكَلَامُ في ذَلِكَ اليومِ عليهِ حَتَّى لمْ يَفْهَمْ منهُ أَحَد كَلِمَةً واحِدَة ، فقال له [بعضُ] النَّاس : ما هذه عَادَتُك يا شَيْخُ ، تَكَلَّمْتَ عن الفقراءِ بكلامٍ لا يفهَمُه منهُم أحد ، [فقال] وأنا والله أيضًا ما أفهم ولا بُدَّ لهذا الحديث مِنْ بِنَاءٍ ومِمَّنْ يَفْهَمُه ، فَفَتِّشُوا وانظُروا ، فَمَنْ وَجَدْتُمُوه يَبْكِي مِنْ هَذَا الكَلَامِ فهو الفَهِيمُ له فعِنْده خَبرُه ، فَطَفِقُوا يُفَتِّشُون حَتَّى رَأَوْا حُسَين الحَلَّاج ، وهو واقفٌ في الدهليز يبكي ، فقالوا له : أَتَفْهَمُ ما يقولُ الشَّيْخُ ؟ قال : نعم . قالوا : تَقَدَّمْ فإنَّ الشَّيْخَ يطلبُكَ ، فَفَسَحُوا لَهُ حَتَّى دَخَلَ على الشَّيْخِ ، وَرَقَى المِنْبَر ، فقال له الشَّيْخ : وَصَلْت يا حُسَين إلى هذه المنزلة ؟ تَسْمَعُ الخِطَابَ في الأسرار يا حُسَين ؟ اكْتُم . فقال : يا شيخُ ما أَقْوَى على الكِتْمَان ، وأنتم تَلْبِسُون عليَّ في ذلك اليوم الذي يكونُ فيه قَتْلِي لباسَ الثكالى من النسوان ، فقال : نعم . ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (الأحزاب ٣٨) .

وقيل : إنه سُئِل يا حُسَين ، لِمَنْ المحبَّة ؟ فقال : لِمَنْ حُبُّه نزلَ بقلْبي فلَمْ أَرَ إِلَّا رَبِّي . فأخذَني مِنِّي وسَلَبَنِي عنِّي ، ثُمَّ نظَرْتُ منه إليه ، فلَمْ أَنْظُرْ إِلَّا

هو ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ هو الحقُّ المبين ، فقيل : يا حَلَّاج ، ما أَسرَعُ ما كانتِ المحَبَّة؟ [قال] : رَضَعْتُ مِنْ ثَدْي مَحَبَّتِنَا جُرْعَة فما بَقِيتُ إِلَّا لحظةً وما كتمْتُ إِلَّا غمْضَةً ثُمَّ أَنْشَدَ يقول : [رجز]

يا عِوَضِي عَنْ عِـوَضي ... وصِحَّتي في مَرَضِـي
يا مَـنْ هـواهُ دائمـًا ... في مُهْجَتِي لا يَنْقَضِـي
هيَّمْتَ قلبي مالِـكِي ... والقَلْبُ بالفِعْلِ رَضِي

فقال له الشَّيْخُ : يا حُسَين إِيَّاكَ وإباحةُ السِّرِّ ، فأنشدَ يقول : [البسيط]

يا وَاصِلي بالوَصْلِ صِلْني ... وَصِلْ وِصَـالًا بِـلَا تَجَـلِّي
زَعَمْتُ أَنِّي نأيـتُ عنـكَ ... فكيف لي بالـدُّنُوِّ مِـنِّي
إِذَا تَلَأْلَأْتَ في فــؤادِي ... فَـلَا تَسَلْنِي وَسَلْكَ عَنِّـي
ولا تُمَنِّنِي بكَرْبِ وَجْدِي ... فَبَعْضُ كَربِ الهوى أصبني
أَمَا عَجِبْتَ أمـوتُ شوقًا ... وأنْـتَ يا سيدِي تَعْـذِلُني

ثُمَّ خَرَجَ فغابَ شهرًا كامِلًا ثُمَّ عاد إلى بغداد ، وهو يقول : [رمل]

يا نَسِيمَ الرِّيح [افعلْ] ما تشا ... لي حبيبٌ حبُّه حَشَـا الحشـا
سرُّه ســـــرِّي وسرِّي سرُّهُ ... إنْ يشأْ شئتُ وإن شئتُ يشا
لو يشـا يمشي على قلبي مشا ... أو يشا يمشي على عيني مشا

وكان الناس يُغْلقون حوانيتَهم ويَمشون خلْفَه ، يكتبُون ما يقولُ ، ثُمَّ قال : « أنا الحقُّ » فيقال له : ارجع عمَّا أَنْتَ تقول ، فيقول: إنا بالقول أَحَقُّ ، فيقال له: يُقْطَع منك [الوتينُ] والأوصالُ، فيقول: طَيِّبٌ في طَلَبِ الوِصَال، فيقال له : تُحَطُّ تَحْتَ التَّعْذِيب ، فيقول : طيِّبٌ في رِضَى الحَبيبِ ، وقيل :

إنهم وضعوه حين ذلك في مخزنِ القُطْن يومًا وليلَةً ليَرَوْا ما يكُونُ مِنْ أَمْرِه ، [عسى](1) أَنْ يَرْجِعَ عَنْ شطحاتِه وأقوالِه ، فصارَ واقفًا على قدَمَيْهِ يَقْرَأُ ، ساعةً ويُصَلِّي ساعةً ، ويذكُرُ ساعةً ، والناسُ وقوفٌ على بابِ المخزن ، يكتبُون عنه ما يقول ، فأصبَحَ القُطْنُ محلوجًا إلى ناحيةٍ ، والقُطْن ناحية ، فقالوا : أَنْتَ حَلَّاج مِنْ أكابرِ الحَلَّاجِين ، فأنشد يَقْرَأُ : [رجز]

أنـا حُسَـين الحَـلَّاج ... ما تُنْكِـرُوا مـن حـالي
أنـا أُحِـبُّ ربِّـي ... صِـدْقًا بِـلَا خَـيَال
أنـا عَبَـدْتُ ربِّـي ... في شِـعَبِ الجِبَـالِ
أنـا ذَكَـرْتُ ربِّـي ... في الوَحْشِ والغَـزَالِ
أنـا حَلَجْـتُ قُطْنـي ... بالـذِّكْرِ والقُـرآنِ
أنـا قَضَـيْتُ عُمْري ... في خِـدْمَـة الدَّيَّـانِ

ثُمَّ قال أيضًا : يا إخواني سَلْوه عسى يرضاني ، إن كان ما يرضاني جَدَّدَ تَرَى أحزاني ، فقالوا : يا حُسَين ، قُمْ معنا إلى شيخِك الجُنَيد ، فإنْ رَجَعْتَ عمَّا تقولُ في شطحاتك منعناك بطولِ حياتِك ، وإلَّا أذقْنَاكَ كأسَ مماتِكَ ، ثُمَّ ناوَلَهُ بعضُ الفقراءِ مِنْدِيلًا ، وقالوا : هذا أتاك بِهِ رَجُلٌ مِنْ إخوانِك ، فأخذَهُ وفتَلَهُ وألقاه في الهواء ، وقال : خُذْ [هذا] إلَيْك فَطَارَ مِنْ بين أيديهِم كما يَطِيرُ الطَّائرُ ، وهُمْ ينظُرون ويسْمَعُون ، وهو يقول شعرًا : [متقارب]

أَمَا والَّـذي لِـدَمِي حَلَّــلَا ... وَخَصَّصَ أَهْـلَ الـوَلَا بِـالْبَلَا
لَئِنْ ذُقْتُ فيكَ كؤوسَ الحِمَام ... لَقَـدْ قَـالَ قَلْبِـي لِسَـاقِيه لَا

(1) في الأصل : فإما .

ولا كنتُ ممَّنْ شَكَا في الهوى وَلَوْ قدَّني مِفصَـلًا مِفصَـلَا
رَضِيتُ وحقِّك كلَّ الـرِّضى إذا كان يُرضِيك أن أُقْتَلَا
فلَا عَيْبَ إنْ مِتُّ مَوْتَ الكِرامِ كمَا مَاتَ في الحُبِّ مَنْ قَدْ خَلَا

ثُمَّ غاب عن أعيُنِ النَّاسِ فلَمْ يظْهَر لَهُ خَبَرٌ إلى سنة كاملة ، والنَّاسُ يقولون أكَلَتْه السِّبَاعُ والوُحُوشُ ، ثُمَّ إنَّه اشْتَاق إلى شَيْخِهِ الجُنَيد ، فدَخَلَ إلى بغداد ، وهو يقول : الله الله ، نَعَم هو الله ، ثُمَّ أنْشَد يقول :

يا مَالِكَ دُنْيَاي ومالِكَ دِيني كَمْ يَنْشُرُني الهَوَى وكَمْ يَطْوِيني
الخَوْفُ يُمِيتُني والرَّجا يُحْيِيني إنْ هَمَّ عَلَيَّ هُجُومُكم يُفْنِيني

وجَعَلَ يكْبرُ حَتَّى يَسُدَّ الدَّرْبَ في البرية ، ثُمَّ يَصْغُر حَتَّى يَرْجِعَ [في] صِغَرِهِ [في حجم] الوليد ، فقالوا له : ما هذا يا حُسَين ؟ فقال : إني قد ضَجِرْتُ مِنَ السُّكْنى في دَارِ الحِجَاب ، ثُمَّ قال : [طويل]

حويت .... كأنكَ في نَفْسِي وإنَّكَ في نَفْسِي
فها أنا في سِجْنِ الحياة ممنعٌ عَنِ الوَصْلِ فاقْبِضْني إليْكَ على الحَبْسِ

ثُمَّ دَخَلَ إلى رِوَاقِ الجُنَيد ، فقال له الجُنَيد : ما حَاجَتُك ؟ وما الذي جاء بِكَ ؟ قال : يا سيدي كَثْرَةُ الشَّوْقِ إلَيْكَ ، وإلى استماع كلامِك ، فأنتَ الذي قرَّبتَني مِنَ الحقِّ ، وأدخَلْتَني على الحَبيبِ ، وإنِّي لِفِرَاقِكَ لحَزين كَئِيبٌ، فقال له الشَّيْخُ : وما مِنَّا إلَّا له في الحبِّ نصيبٌ ، وهو باكٍ مشتاقٌ إلى وجهِ الحبيبِ ، ولكن يا حُسَين صُدورُ الأحرارِ قبورُ الأسرارِ ، وَرَحِمَ الله مَنْ عرَفَ قدرَهُ ، وكتَمَ سِرَّه ، ثُمَّ قال : [الخفيف]

بَـــاحَ مجنُــــونُ عـــامرٍ بهَـــوَاهُ　　وَكَتَمْتُ الهَوَى فَمِتُّ بوجْـــدِي
فـــإذَا كَانَ فِي القيــــــامةِ نُـودِي　　مَنْ قَتِيلُ الهوَى تَقَدَّمْتُ وَحْـدِي(١)

ثُمَّ خَلَعَ الشَّيْخُ دَلْقَهُ وإذا هو يفيضُ بالدَّمعِ مِنْ قلبِهِ ، ثُمَّ بكى فنزلتْ الدُّموعُ مخلوطةً بالدَّمِ ، فقال حُسَين : يا سيدي ما هذا البُكَاء ؟ وما هذا الدَّمُ الفائضُ مِنَ القلبِ ؟ فقال له الشَّيْخ الجُنَيد : يا حُسَين : جَرَتْ الدُّمُوع مِنَ الاشتياقِ ، وجَرَتْ الدِّمَاءُ مِنْ أَلَمِ الفِرَاق ، يا حُسَين : رَحِمَ اللهُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ وكتَمَ سِرَّهُ ، وحفِظَ أمْرَه . ثُمَّ إنَّ الحُسَين عانَقَ الشَّيْخَ ، وقال : يا سيدي هذا الأمرُ لا أُطيقُه ، ثُمَّ خرجَ يمشي في شوارع بغداد ، وهو يقول : الله الله ، ما أرى سوى الله ، والنَّاسُ وراءَه يكتبُون منهُ ما يقول ، واشتغلوا عن بيعهِم وشِرائِهم ، وأتَوْا إلى الجُنَيد ، وقالوا له : أَتْعَبَنَا مُريدُك ، فقال : دَعُوهُ في حَالِه وَسَلِّمُوه بينه وبين رَبِّه . إلى غير ذلك ، ثُمَّ أَنْشَدَ الحُسَينُ يقول: [رمل]

قُلْ لإخـــوانٍ رأَوْني مَيّتـــاً　　فَبَكَــوْني ورثَــوْني حَـــزَنا
أتظُنُّـــــوني بـــأني ميـــتُكُمْ　　لـــيسَ ذاكَ الميْـــتُ واللهِ أنَـــا

---

(١) يتساءل المرء أحيانا إن كان هناك من يلوم المتيم في حب الله ، وهل تعد عبارات من نحو (كفرت بدين الله) ، (وتكذيب المؤذن وهو يرفع صوته بالأذان) المنسوبة للحَلَّاج ضرورية للتعبير عن ذلك الحب ؟ وهل هي معبرة عن محبة عميقة حتى بعُد تفسيرها صوفيًا ، كما لاحظنا في تفسير بيت الحَلَّاج باعتبار الكفر تغطية ، وهل دين الله عيب حتى نغطيه ؟ أسئلة لا يستطيع أن يجيب عنها من يحتكم إلى دين الله الذي ارتضاه لعباده إلَّا بالنفي . أما كتم السر الواجب فهو إخفاء الكرامات التي يمنحها الله لعباده لتثبيت قلوبهم ، ويكاثر بها مؤلفو القرون الأخيرة ، وينسبونها إلى التحدث بالنعمة ، ويتوسعون ما فيها ما شاء لهم ذلك ، حتى صارت أكثر وأكبر من المعجزات النبوية ، وسترى أن قصة الحَلَّاج ضرب من القصص الشعبي الذي صيغ أكثره من وحي الخيال .

أَنَا كَنْزٌ وحِجَابٌ طَلْسَمٌ ... لَيسَ يَدْرِي سِرَّهُ إلَّا أَنَا
أَنَا عُصْفُورٌ وهُذا قَفَصِي ... طِرْتُ مِنْهُ وَ[بَقِيتُ](1) رَهْنَا
أَحْمَدُ اللهَ الَّذِي خلَّصَنِي ... وبَنَى لِي فِي المَعَالِي وَطَنا
أَنَا مَوتِي وحيَاتِي أَنَّنِي ... أنظرُ الحقَّ جِهَارًا عَلَنَا
كُنْتُ قَبْلَ اليومِ مَيتًا بينكُم ... فحييتُ وخَلَعْتُ الكَفَنَا
وأَنَا اليَوْم أُنَاجِي مَلأً ... وَأَرَى الحَقَّ عَيَانًا عَلَنَا
عَاكِفًا فِي اللَّوْحِ أَقْرأُ وَأَرَى ... كُلَّمَا كَانَ ثَنَاءً وَدَنَا
وَطَعَامِي وَشرابِي وَاحِدٌ ... هُوَ رَمْزٌ فافْهَمُوا ذَا الحَسَنَا
فاهْدِمُوا بَيتِي وزِمُّوا قَفَصِي ... وذَرُوا الكُلَّ دَخِيلًا بَيْننَا
ورِدَائِي وَقَمِيصِي مَزِّقُوا ... وَدَعُونِي فِي هَوَائِي والعَنا

ثُمَّ قال : إني لا أحبُّ البقاءَ في هذه الدُّنْيا الدَّنِيَّة ، وأَنْشَدَ يقول : [رمل]

لا يَرُعْكُمْ لَوْعَةُ الموتِ فَمَا ... هِي إلَّا(2) نَقْلَةٌ مِنْ هَاهُنَا
لَيْسَ أَرْضَى سَكَنِي بَيْنَكُمُ ... إنَّهَا دَارُ بَلاءٍ وعَنَا
لا تظنُّوا الموتَ مَوْتًا إنَّه ... لحَيَاةٌ وَهْيَ غَايَاتُ المنى

....

وخُذُوا في الزَّاد جَهْدًا لا تَنُوا ... لَيسَ بالعاقل منَّا مَنْ وَنَى

---

(1) في الأصل : ونبقى ، وفي المنسوب إلى الحَلَّاج في ديوانه ص ١٠٨ جاء الشطر الثاني هكذا (كان سجني وقميصي سكنا) وعلق عليه بالقول إن هذه القصيدة جاءت على لسان الحال مجاراة للحَلَّاج أو تحريًا لقصيدة ابن المسفر التي نسبت إلى الغزَّالي والسُّهْرَوَرْدي المقتول (انظر حاشية الديوان ص ١٠٩) .

(2) في الأصل : إنما هي .

عُنصُرُ الأنفسِ مِنَّا واصلٌ وعلى الوَصْلِ جميعًا عَطَنَا
فَمَتَى مَا كَانَ خيرًا فَلَنَا وَمَتَى مَا كَانَ شَرًّا فَبِنَا
نسأَلُ الله -تعالى- رحمةً رَحِمَ اللهُ صَدِيقًا أَمَّنَا

قال : فاشتغل الناسُ عن بيعهم وشرائهم ، فأتَوْا إلى الشَّيْخِ الجُنَيد أيضًا ، وقالوا له : لقد أتعبتَنا بمريدِكَ الحُسَين ، فقال : إذًا ولابُد فخذوه واحبسوه إلى غد ، حَتَّى ننظُر في أمره . فقالوا : لَمْ نقدر على إمساكه ؛ لأنَّه تارةً يمشي [على](١) الأرض وتارةً في السَّماء ، وتارة في الهواء(٢) . فقال :

(١) في الأصل : في الأرض ، وهو نموذج لتأثير العامية على المؤلف حين لا ينقل النصوص حرفيًا ، ولعله من فعل الناسخ .

(٢) نقل من قصَّة الحَلَّاج بتصرف وإضافة انظر (قصَّة الحَلَّاج وما جرى له مع أهل بغداد ص ٨٠) وهي قصَّة من رواية الخيال الشعبي كما يقول المحقق ص ١٣ ، ويقول راويها : (ذكروا والله أعلم بغيبه وأحكم) وأورد القصَّة في شكل الرواية الشعبية (أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان) وهذا لا ينفي أن الحَلَّاج كان حقيقة واقعة ، ولكن الخيال الشعبي أضاف إليها الكثير من الغرائب ، والغريب أن القراء لهذه الغرائب فيما بعد القرن التاسع ساقوا هذه القصَّة على أنها حقائق ووقائع ، بل ألفوا على نهجها قصصًا تروى عن مشايخهم ، حتى صارت الأمة في أضعف حَلَقاتِ قوَّتِها تملك مئات الآلاف من أصحاب المعجزات الخارقة التي لم تحل دون دخول الأوروبيين والمغول وغيرهم إلى الحواضر الإسلامية دون أن يمنعهم أصحاب تلك المعجزات شيئا ، إنَّ نهضة الأمة تتطلب ما أراده الله منها من الأخذ بالأسباب ، عندها يكون الطيران في الهواء ممكنا لجماعات بشرية وليس لفرد واحد ، ولكن بواسطة العلم والتفكير العلمي والإيمان السليم ، وليس بالمعجزات الخيالية ، فإلى الذين ما زالت في عقولهم هذه الأوهام أرفع الرجاء في التفريق بين الكرامة التي هي توفيقات إلهية يمنحها الله لعباده التقاة الصالحين ، وبين هذه السحريات والشعوذات التي تدفع الحمقى إلى التواكل والعجز وتنتظر أن تحل جميع مشاكل الأمة بعصا سحرية ومعجزة خارقة ، نعم الله قادر ولا شك أن يفعل أكثر مما صنع خيالهم ، ولكنه وضع في كل سماء أمرها ، ووضع في الأرض سننًا إلهية ، مفتاحها العلم بها والعمل لها ، وجعل لذلك أسبابا أمرنا باتباعها ، وأعطانا نماذج نبوية للأخذ بالأسباب ، فلو أراد أن ينصر الرسول ﷺ في أُحد لما عجز سبحانه ، ولكنه أراد تعليم الأمة بعاقبة ترك أسباب النصر نتيجة لترك الرماة أماكنهم ، ولو أراد أن ينصره الله في بدر دون أسباب لما عوَّل على =

قولوا له : إنَّ الشَّيْخَ يَدْعُوكَ إليه ، وخُذُوه إلى بابِ السِّجْن ، فإذَا وَصَلْتُم بِهِ إلى السِّجْن قولوا له : إنَّ الشَّيْخَ يقول لك : ادْخُلْ هَاهُنا ، فإنَّه يدخل . فذهبوا إليه وقالوا له : إنَّ الشَّيْخ يُناديكَ ، فأقبلَ معهُم حَتَّى وصلُوا به إلى باب السجن ، فقالوا : إن الشَّيْخَ يقول لك : ادخل هاهنا ، فقال : حُبًّا وكرامةً ، فدخل ، فَغَلَّقُوا عليه باب السجن .

فقال : لا إله إلَّا الله ، ثُمَّ نَظَرَ إلى المسجونين ، وقال : لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، يا معشر المسلمين[1] والله ما حَبسكُم هاهنا إلَّا ذُنُوبُكم، وغَفْلَةُ قلوبِكم عَنْ محبُوبِكم ، ورغبتُكم في الدُّنْيا الدَّنيَّةِ عَنْ سيِّدِكم ومطلُوبِكم ، فلو رَجَعْتُم بقلوبِكُم إليه ، وبَكَيْتُم بعَبْرَتِكم عليه ، وتُبْتُم مِنْ زلَّاتِكم لديه ، لجَعَلَ لكُم مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، ومِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، فقوموا صلُّوا وابتهِلُوا ، وأقبلوا بكُلِّكم عليه ، وافهموا ما أقول إنْ كانت لكُم عقول ، وإلَّا عذابكُم يَطُول . فقامَت طائفةٌ من المَحَابيسِ وصَلُّوا مَعَهُ العِشَاء الأخيرة ، ثُمَّ قاموا يذكرونَ الله - تعالى - معه ، إلى نصف الليل ، فثَارَ الوَجْدُ بالحَلَّاج ، فجَعَلَ يذْكُرُ وهُمْ يذكُرون مَعَهُ إلى الصَّبَاح .

فلمَّا صَلُّوا الصُّبْحَ خَطَّ في جانبِ الحَبْسِ خَطًّا صِفَةَ سفينة ، وجَلَس فيها ، ثُمَّ قال : مَنْ يَطْلُبُ أنْ يَتَخَلَّصَ مِنْكُمْ مِنْ هَذَا المَقَامِ فليَقْعُد مَعِي

= مشورة المقداد بن عمرو، ولو أراد أن يطعم مريم عليها السلام بدون سبب لما قال لها (هزي بجذع النخلة) ولو أراد أن ينقذ نوحًا بلا سبب ما دفعه لصناعة السفينة ، ولو أراد أن ينقذ موسى بدون سبب لما اضطر أمه إلى أن تضعه في التابوت ، ولا حمل الرسول ﷺ على البراق ، ولا أنبت على يونس شجرة اليقطين ، ولا طلب من لوط وأهله الفرار من القرية ، إنها أسباب للحركة والنجاة علمنا الله كيف يحمى بها أصفياءه ، ولو شاء لاستغنى عنها ، فكيف يدَّعي بشر أنه يطير في الهواء بل في السماء بلا وسيلة ولا سنة إلٰهية ؟

(١) في القصَّة : معاشر المحابيس ، وهذا نموذج للتصرف في النص ، ولكن التصرف الأكبر هو اقتطاع أجزاء كاملة منها وتغيير الترتيب .

هَاهُنا، فنزلَ جماعةٌ معهُ فيها ، ثُمَّ قال لهم : حَرِّكُوا المَرْكبَ بلا إله إلَّا الله ، بقَلْبٍ حاضرٍ بالصِّدْقِ والمحبَّة ، وقولوا كلُّكم : لا إله إلَّا الله محمد رسول الله ، فلَمَّا قالوا ذلك ، وإذَا بذلِكَ الخَطِّ قَدْ صَارَ مَرْكَبًا في وَسَطِ البَحْرِ ، فقال: هذا مركَبُ النَّجاة ، فداوِمُوا على الذِّكْرِ ، ثُمَّ أَخَذَ قُبْقَابَهُ وجَعَلَهُ في رِجْلَيْه ، وجَعَلَ يَمْشِي بِهِ عَلَى المَوْج ، وهو يَجري في أَمْرِ الله حَتَّى أَوْصَلهُم إلى البرِّ ، وقال : امْضُوا حَيْثُ أَرَدْتُم سَالمين[1] ، ثُمَّ رَجَعَ إلى نَاحِيَةِ العِرَاقِ وهو يقول : [سريع][2]

مَا زِلْتُ أَجْهَدُ[3] في بَحْرِ الهَوَى — يَرْفَعُني المَوْجُ وَأَنْحَطُّ[4]
فَتَارَةً تَرْفَعُني مَوْجَةٌ — وَتَارَةً أَهْوِي وأَنْغَطُّ[5]
حَتَّى إذَا صَيَّرَتْني في الهَوى — إلى بِحَارٍ[6] ما لَهَا شَطُّ
نَادَيْتُ مَنْ لَمْ أَبُحْ باسْمِهِ — وَلَمْ أَخُنْهُ في الهَوَى قَطُّ[7]

وقال – رحمه الله – بعد ذلك : ما هو في أحرُفِ الجَلَالَةِ المعرُوفَةِ بالاسْمِ المُفْرَدِ . [الخفيف]

(١) بغض النظر عن الخيال والحقيقة في هذه الرواية كيف يجوز لعارف بالله أن يخرج مدانين من السجن دون أن ينالوا جزاءهم ؟

(٢) الشعر في ديوانه الذي صنعه أبو طريف الشيبي (منشورات الجمل ١٩٩٧ ط ١ كولونيا – ألمانيا ص ٥١) وليس موجودًا في قصَّة الحَلَّاج المصدر السابق ، مما يدل على أننا هنا أمام مصدر جديد لتراث الحلَّاج يجمع بين المصدرين المعروفين بتصرف ويضيف عليهما .

(٣) في الديوان ٥١ : أجري في بحار .

(٤) في الأصل : والحط ، وقد فضلت رواية الديوان لمناسبتها .

(٥) في الأصل : وأنحط والتصويب من الديوان .

(٦) في الديوان : مكان ما له .

(٧) في الديوان : ناديت يا من لم أبح باسمه — ولم أخنه في الهوى قط
، وفي الأصل : ناديت من لا أبوح به أبدًا — ولم أخنه بضاعة قط

أَرْبَعةُ أَحْرُفٍ بِهَا هَامَ قَلْبِي ‏ وَبِهَا زَادَ هَوَايَ وَفِكْـرِي[1]
أَلِفٌ قَدْ تَأَلَّفَ الخَلْـقُ بِـهِ ‏ وَلَامٌ عَلَى العَلَامَةِ تَجْـرِي
ثُمَّ لَامٌ زِيَـادَةٌ فِي المعَـانِي ‏ ثُمَّ هَاءٌ بِهَا أَهِيمُ أَتَدْرِي ؟

ثُمَّ إِنَّه دخل بغداد وهو يقول هذه الأبيات : [المجتث]

يَـا قَـوْمُ أَنْـتُمْ ظَنَنْـتُمْ ‏ قَدْ فَـارَقَ الحُبُّ حَبِيبِي
زَعَمْـتُمُ إِذَا سَـجَنْتُمْ ‏ يَفُـوتُ مِنْهُ نَصِيبِي
هُـوَ الَّـذِي لَا يَـزُولُ ‏ فِي حَضْرَتِي وَمَغِيبِي
فَـإِنْ حَضَرْتَ رَقِيبِـي ‏ وَإِنْ أَغِيـبُ حَبِيبِـي
وَإِنْ دَعَـوْتُ مُجِيبِي ‏ وَإِنْ مَـرِضْتُ طَبِيبِي[2]

ثُمَّ قال أيضًا : [البسيط]

وَحَرِمْتُ الوُدَّ الذِي لَمْ يَكُـنْ ‏ يَطْمَعُ فِي إِفْسَـادِهِ الـدَّهْرُ
مَا نَالَنِي عِنْدَ نُزُولِ البَـلَا ‏ بُـؤْسٌ وَلَقَـدْ مَسَّـنِي ضُرُّ
مَا قُدَّ لِي عُضْوٌ وَلَا مَفْصِلُ ‏ إِلَّا وَفِـيهِ لَـكُمْ ذِكْـرُ

فنودي في سِرِّه حين أَنْشَدَ هذه الأبيات ، أي سَمع النِّداءَ بأُذنِ قلبِه ، وفهمه ، يا حُسَين يا حَلَّاج ، أنت شَرِبْتَ بين نُدَمَاءٍ لا يحتملُون عَرْبَدَة ...

(١) في الديوان :

أحـرف أربع بها هـام قلبي ‏ وتلاشت بها همومي وفكري
ألف تألف الخـلائق بالصفـ ‏ ـح ، ولام على الملامة تجري
ثم لامٌ زيادة في المعـاني ‏ ثم هـاءٌ بها أهيـم وأدري

(٢) لا وجود لهذا النص في القصَّة والديوان ، وهو مضطرب في الأصل .

لك دعوةٌ فيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعينُ ، وفيها نُدمَاءُ يتنازعونَ كَأْسًا لا لَغْوٌ فيها ولا تَأْثيمٌ كان مِنْ مزاجها ، وسقاهُم رَبُّهم شَرابًا طَهورًا ، شَرَابُهُم حُورٌ مَقصوراتٌ في الخِيام ، مشاهدتهُم وجوهٌ يومئذٍ ناضِرَةٌ إلى ربِّها ناظرة ، وقيل : إنه شَطَحَ في الكلام ، فأتوا به إلى الشَّيْخ ، وأوقفوه على الباب، وقالوا: يا شَيْخُ لا بد أنْ تُعِيننا عليه، أي على مريدِك حُسَين الحَلَّاج، فلا بد أنْ تُعِيننا اليوم على ذهابِه ، فإنَّه يشْطَحُ بالكلامِ فيتَعَلَّم منه العوام ، فيقَعون في الآثام ، وقد أفتى بقتله سبعون مِنْ أكابر العلماء ، وقيل : أربعة وثمانون رجلًا ، فعند ذلك خرج إليه الشَّيْخُ فلَمْ يَجِدْه ، فغاب بعد ذلك عامًا ثُمَّ جاء لبغداد والمؤذِّنُ يُؤذِّنُ لصلاة الظُّهْر ، فنادى المؤذِّن : الله أكبر ، فقال له الحَلَّاج في ملأٍ مِنَ الناس : « كذبت » ، فدار الناس حوله وقالوا : يا حُسَين ، تقول للمؤذن عند قوله : « الله أكبر » كذبت ؟ ولا يقول هذا إلَّا كافر ، وإذا قاله الكافر ربما يكون بقلبه ولا يقدر [أن] يتظاهر بذلك من لسانه بين المسلمين ، ولا سيما في مثل بغداد ، وما فيها من كثرة العِلْم والعلماء ، والعُبَّاد ، والزُّهاد ، وأهل التُّقَى والدِّين ، فما هذا الحال ؟ فلَمْ يردَّ عليهم .

فلما زادوا عليه قال لهم : إنَّا ما كذَّبتُه في المقال ، وإنما كذَّبتُه فيما عنده مِنَ المُحَال ، فلو قال : الله أكبر بصدق الإشارة ما حملته المنارة ، وتفطَّرت مِنْ تحت أقدامه الحجارة ، وكان الحُسَين حين ذلك قائمًا على صخرة فصارت تحت قدميه كالتراب ، ثُمَّ انصرف عنهم وتركهم . ودخل مدرسة الشَّيْخ ، وأقفل عليه الباب ، فمضى الناس إلى الخليفة ، وهم يصرخون بأعلى أصواتهم ، إنَّ حُسَين الحَلَّاج قال للمؤذن عند قوله الله أكبر « كذبت » ، فلمَّا وصلوا إليه وأخبروه بذلك ، قال لهم : أين هو الآن ؟ فقالوا : في

مدرسة أبي القاسم الجُنَيد ، وكانت مدرسةً عظيمةً كبيرةً إليها النهاية ، فأرسل الخليفة وراءه (...) فأتوا إلى المدرسة فوجدوه قد كَبُرَ حَتَّى ملأها ففزعوا منه ، وانصرفوا ، فقال لهم الخليفة : أين حُسَين الحَلَّاج ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين ، وجدناه يَكْبُرُ حَتَّى ملأ المدرسة ، فَزَعَقَ الخليفة ، وقال : اذهبوا إليه وأتوني به ، فذهبوا إليه فوجدوه قد صغر كالمولود ، وهو ينشد ويقول : أنا أنت بلا شك ، فسبحانُك سبحاني ، وتوحيدُك توحيدي ، وعصيانُك عصياني . إلى أن قال : [البسيط]

سُبحان مَنْ أَظْهَر صَوْتَه ... في سِرِّ سِرِّي وقَالَبي
فَسِرُّه سِرِّي سَنَاه ... لَا هَوَيْتُهُ في الثَّاقِبِ
ثُمَّ بَدَا في خَلْقِهِ ظَاهِرًا ... في صُورَةِ الآكِلِ والشَّارِبِ
حَتَّى لَقَدْ أُعَايِنُهُ لَحْظَةً ... كَالحَاجِبِ بالحَاجِبِ

ثُمَّ كَبُرَ أيضًا حَتَّى ملأ المدرسة ، ولم يقدروا له على شيء ، فتركوه يومين ، فلمَّا كان اليوم الثالث وجدوه على صورته المعلومة وهو يَنْشِد ويقول : [المضارع]

إذَا هَجَرْتَ فمَنْ لي ... يَا كَثْرَتِي وَأَقَلِّي
أَحبَّكَ البَعْضُ مِنِّي ... وَقَدْ ذَهَبْتَ بِكُلِّي
يَا حَقَّ حقِّي بحقِّي ... يَا عِزَّتِي أَيَا ذُلِّي
عَلِمْتَ مِنِّي بمنِّي ... وَمَنْ تَحَمَّل جُلِّي
لَقَدْ سَأَلْتُك ربِّي ... في حِلِّ حِلِّي بحِلِّي
يَا كُلَّ كُلِّي فَكُنْ لي ... إنْ لَمْ تَكُنْ لِي فَمَنْ لي
في كَنَفِكَ أَيَا رَبِّي ... عِنْدَ انْقِطَاعِي وذُلِّي
مَالِي سِوَى الرُّوح خُذْها ... والرُّوحُ جُهْدُ المُقِلِّ

قال : فتركوه مِنْ خوفهم ، ثُمَّ جاءوه مرَّةً أخرى ، فوجدوه على هيئة العادة كهيئة الرجال، فأخذوه وربطوه ، وأتوا به إلى الخليفة الشَّهير بالمقتدر، فلمَّا وصلوا به إليه قال له : يا حُسَين إنَّ فقهاء بغداد وما حولها يريدون مُناظرتَكَ ومُجادلتَكَ ، فما تقول ؟ فقال : احفروا في هذه الصُّفَّةِ حُفرَةً ، وانزعوا ما فيها من الحجارة ، واملؤوها حَطَبًا ، وأَطْلِقوا فيها النَّار إلى أنْ تصير جَمْرًا ، ففعلوا ذلك ، ثُمَّ استدعوا الفقهاء ، فلمَّا [أ]حضرهم قال الحُسَين : أيا مولاي الخليفة هات لي هاونًا مِنَ الحديد ، وكان في المطبخ هاونٌ كبيرٌ ، فلمَّا جاءه به وضعه على الجمر حَتَّى صار مثل الجمر ، فقام وجلس عليه ، وقال : مَنْ يناظرني فليجلس معي ها هنا ، فقام الجميع هاربين .

فقال : وَيْحَكُم أتهربون من نار الدُّنْيا ، فكيف بكُم مِنْ نار الآخرة ، فمَنْ أراد منكم السَّلامة فلا يأكل الحرام ، ولا يظلم الأنام ، ولا يمنع الزكاة ، ولا يترك الصَّلاة ، ولا يكسر الصيام ، ثُمَّ قال - وهو واقفٌ على الهاون بأعلى صوته - : الله أكبر ، فانطفأ الجمر ، وتفتَّت الهاون ، وافترق على ستين قطعة ، وقيل : صار كالتراب، وقيل : كالماء ، ثُمَّ خرج الحَلَّاج من دار الخليفة، وهو ينشد ويقول :

صَرَحَتْ في الهَوَى صِفَاتِي بِذَاتِي ... فَرَأَيْتُ الجَلِيلَ في الخَلَواتِ
أَنَا أَرْضَى بِأَنْ أَمُوتَ قَتِيلًا ... في هواكُمْ فدُونَكُم يا ثِقَاتي
لِي حَبِيبٌ يَزُورُ فِي الخَلَواتِ ... حَاضِرٌ غائبٌ عَنِ اللَّحظَاتِ
مَا تُرَاني أُصْغِي إليهِ بِسَمْعِي ... عَالِمٌ بِما أقُولُ مِنْ كَلِمَاتِ
حَاضِرٌ غَائِبٌ بَعِيدٌ قَرِيبٌ ... جَلَّ لَمْ تَحْوِهِ رُسُومُ الصِّفَاتِ
هُوَ أَدْنَى مِنَ الضَّمِيرِ إلَى الوَهْمِ ... وأَخفَى منْ لَاحِظِ اللَّحظَاتِ

فأمر الخليفة بحضور علماء بغداد وغيرهم ، فحضروا فسألهم عن الحَلَّاج وما يُصْنَعُ به ، فقالوا جميعًا : يا أمير المؤمنين الرأي أنَّه يُسْجَنُ حَتَّى ننظر ماذا يكون منه ، فإن رجع ممَّا هو عليه سالمناه ، وإلَّا فاقتلوه . فأمر الخليفة جميع أعوانه أنْ يتكاثروا عليه ، وأنْ يوثقوه بالربط ، ويذهبوا به إلى السجن ، فلمَّا اجتمعوا قصدوه في بيته فوجدوه متطوِّرًا في بيته حَتَّى ملأَ البيت ، وكان مِنْ شَأْنِ الحَلَّاج كثرةُ التطوُّر في أغلب أحواله ، فلم يقدر أحدٌ منهم على إخراجه، فرجعوا للجُنيد وذكروا له ذلك، فأتى إليه ، وقال: يا حُسَين فتحت في الإسلام ثغرةً لا يسدُّها إلَّا رأسُك ، فاخرُج وَسَلِّم ، فَانْتَفَشَ بَدَنَه ، وخرج مستسلمًا على هيئته المعلومة ، فساقوه قدامهم وألقوه في السجن ، فلمَّا ألقوه فيه – أي في السجن – أَنْشَدَ يقول هذه الأبيات ويكررها مرارًا : [بسيط]

لَمْ أُسلِمِ النَّفْسَ لِلأَسْقَامِ تَفْنِيهَا ... إلَّا لِعِلْمِي بِأَنَّ الوَصْلَ يُحيِيها
نَفْسُ المُحِبِّ عَلَى الأَسْقَامِ صَابِرَةٌ ... لَعَلَّ مُسْقِمَها يومًا يُدَاوِيها
وَنَظْرَةٌ مِنْكَ يَا سُولِي وَيَا أَمَلِي ... أَشْهَى إليَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فيهَا

وقال بعض الفقراء الصادقين : أتيتهُ وهو في السِّجن لأسلِّم عليه ، فقلت له : أريد منك رُمَّانة ، وإذا بشجرةٍ قد نبتت ، وكَبُرَتْ ، وتدلَّتْ في السجن ، وإذا بالرُّمَّانِ ، فأخذتُ منها رُمَّانة ، ثُمَّ قال : اذهبي فذهبتْ فتعجَّبْتُ ، وقلتُ له : ما هذه ؟ فقال : لا تعجب مِنْ أمر الله يا فلان . فهذه حشيشة العِزّ ، ولا أقنع بشيءٍ دون مجالسَةِ ربِّي ، ثُمَّ آلَ أمرُه في السجن نحو العامين وأكثر ، ويُحْكَى أنَّه لَمَّا أُخِذَ وسُجن كان السجن ينفرج من كلِّ جهة، حَتَّى يرى الناس الدِّجْلَة والشُّطُوطَ والناس .

قال الشاطبي : اتَّفَقَ على قَتْلِ الحَلَّاج أهلُ الشَّريعَة وأهلُ الحقيقة ، وقال في موضع آخر : لَمَّا فاض عليه الوَجْدُ صارَ يتكلَّم بما يُنكَرُ عليه ، فتعصَّبَ عليه الفقهاء ، ومشوا به للمَلِك المقتدِر ، حَتَّى أخذَهُ وقَطَعَ جوارحَه وصَلَبَهُ حَيًّا على الخشبة بعد سَجْنِه ، فقال له واحدٌ منهم : الحمدُ لله الذي مَكَّن مِنْك، كيف ترى تَقْبِيل الناس يديكَ ورجليك وأنتَ راضٍ بذلك ، فقال له : اسمع ما أقول لك يا أخي إن كنت تحسن السمع : [المضارع]

تأَمُّلُ الوَجْـدِ وَجْـدُ	والوجدُ في الفقدِ وَجْدُ
فكيفَ أُثبِتُ ثاني (١)	وأنتَ يا فَـرْدُ فَـرْدُ
فالقلبُ قلبُ المعاني	ولَيسَ في ذاك بـدُ (٢)
ولستُ أُثبِتُ ثانـي	فذاك شركٌ وجَحْدُ (٣)
وليس لي مِنْ مكانٍ	فبِـنْ إلَـيَّ أرُدُّ
فوصفُهُ لي وصفٌ	فكيف لستُ أُعَدُّ
في النَّاسِ مولى عظيمًا	لأنَّني فيه عبدُ ؟ (٤)

وحُكِيَ أنَّه لَمَّا حُبِسَ وأَمَرَ الخليفة بوثاقه بالحديد في بيتٍ مِنْ أضيق بيوتِ السجن ، ففعل السجَّان ذلك، فلمَّا أوثقه قال له الحَلَّاجُ: أَمِنْتَ الآن؟ قال : نعم . فتحرَّك الحَلَّاجُ فتناثَرَ الحديدُ في الأرض ، ثُمَّ أشار إلى الحائط فانفرج ، فقال : أَخْرُجُ الآن أَمْ لا ؟ فقال : يا ولي الله افعل ما شئت ، فَمَدَّ

---

(١) ثاني [كذا] وفي الديوان : فكيف يَثبتُ ثانٍ ، وهو أصح لغة لأن النصب في رواية الأصل يكسر الوزن .

(٢) في الديوان : فذاك قلب للمعاني وليس من ذلك بد ، وبه ينكسر وزن المجتث .

(٣) في الديوان ص ٣٥ : والشرك إثبات غيرٍ والشرك لا شك جحد

(٤) رواية الديوان ص ٣٥ : فجـاء من ذاك أني بوصفِ غيرٍ أُعَـدُّ
أُعدُّ في الناس مولى لأنني فيـه عبـدُ

الحلَّاج جوارحه ، وقال له : ردَّ عليَّ الحديد كما كان ، فإني لا أخالف مراد ربِّي في شيء ، ففعل السجَّان ذلك ، وأخبر الخليفة بما رأى ، وكان يتمنى على الله تعالى في أكثر دعائه الموت ، وتواجد يومًا وجدًا عظيمًا أخرجه من حسِّه ، وأذهله عن نفسه ، وهو إذ ذلك في السجن فقال(١) : [البسيط]

أَشَارَ سرِّي إليكَ حتَّى ... رأى الَّذي لا تراهُ عَيْني
فأنتَ تُلْقِي على ضميري ... حَلَاوَةَ السُّؤْلِ والتَّمَنِّي
تريدُ منِّي اختبارَ سرِّي ... وقد علمتَ المرادَ منِّي
فليسَ لي في سواكَ حظٌّ ... فكيف ما شئتَ فاختبرني

قيل : إنه - رحمه الله - كان إذا وَجَدَ في نفسه الرجوع إلى حِسِّه يصيحُ : أيها الناس اقتلوني لئلَّا تَفْتِنُوا بي ، فليس شَيْءٌ آكَدُ عليكم من قتلي . فقال له الشِّبْلي يومًا : يا أبا المغيث فكيف يُقتل مَنْ يَصُوم ويُصَلِّي ويقرأُ ويتلو القرآن؟ فقال له : يا شَيْخُ الذي يُوجِبُ حَقْنَ الدِّماء خارج عن الصَّوْمِ والصَّلاةِ وتلاوة القرآن . وكان يومًا يتضرَّعُ ويصيحُ مما بقلبه من ذلك الوَجْد ، ثُمَّ أَنْشَدَ يقول هذه الأبيات : [المجتث]

أشارَ لَحْظِي بعَيْنِ فِكْري ... بِخَالِصٍ مِنْ خَفِيِّ عِلْمِ(٢)

---

(١) له على هذا الوزن في الديوان أبيات ص ٧ منها قوله :

مواصلي بالوصال صلني ... وصل وصالا بلا تجني
زعمت أني فنيتُ عني ... فكيف لي بالدنو مني

وذكر في المنسوب إلى الحلَّاج ص ١١٠ البيتين الأخيرين من القطعة المذكورة أعلاه مع اختلاف في الرواية ، وقد أثبتهما لسمنون المحب .

(٢) في الديوان ص ٦١ وروايته :

أشار لحظي بعين علمٍ ... بخالص من خفيِّ وهمِ
ولائح لاح في ضميري ... أدقُّ من فهم وهم همي

لِلَائِحٍ لَاحَ مِـنْ ضَـميري (١) أَمُـرُّ فِيـهِ كمـرِّ سَـهْمِ
وطَارَ قَلْبِـي بـريشِ شَـوْقي في مَرْكِبٍ مـن جناحِ عَزْمِي
إلى الـذي إنْ سُئِلْتُ عنـهُ رَمَـزْتُ رَمْـزًا ولَمْ أُسمِّ
قَدْ رَسَـمَ الحُـبُّ في فـؤادي بمرْسَمِ الشَّوْقِ أيّ وهـمِ (٢)
وغابَ عنِّي شـهُـودُ ذاتي بالقُربِ حَتَّى نَسِيتُ اسْمِـي (٣)

قال الشِّبْلي – رحمه الله – : فقلت له : يا أبا المغيث ما المعرفة فقال : (...) الحسُّ في المعنى. فقلت له: ما المحبة ؟ فقال : الغيبة عمَّا سوى المحبِّ، فقلت له : ما الأُنس ؟ فقال : وجود الهيبة مع ارتفاع الخشية ، وغلبة الرجاء على الخوف ، فقلت له : ما الوَجْدُ ؟ فقال : لهيبٌ يَنْشَأُ مِنَ الشَّوْقِ في الإِسْرَار ، فتضطرب به الجوارح ، ثُمَّ يزول ؛ لأنَّه مقرونٌ بالزَّوَال ، وتبقى نتيجته (...) فانيةً لا تَحُولُ ولا تَزُولُ .

ثُمَّ قال : يا شِبْلي مَنْ راقب الله عند خَطَرَاتِ قلبه عَصَمَهُ عند حركات جوارحه ، ثُمَّ أَنْشَد يقول : [بسيط]

اسمٌ معَ الخلقِ قدْ تَاهوا بهِ ولها ليعلمُوا منهُ معنًى مِـنْ معانيـهِ
واللهِ لنْ يصلُوا منهُ إلى سببٍ حتى يكونَ الذي أبداهُ يبديه (٤)

ثُمَّ قال : يا شِبْلِيُّ مَنْ صَحَّ صَبُّه ذَهَب قلبُه ، ومَنْ ذَهَب قلبُه كان الناطقُ عنه حُبُّه ، وإذا تولَّى المحبُوبُ أمْرَ المُحِبِّ أَظْهَرَ عليه أسباب كَمَالِ المُراد ، ثُمَّ قال : أَلَسْتَ تَحْفظُ كتاب الله ؟ فقال الشِّبْلي : بلى ، فقال : قد قال

(١) في الأصل : من تعميري .
(٢) في الديوان : قد وسم الحب منه قلبي بميسم الشوق أيَّ وسم .
(٣) في الأصل : أنسيتني .
(٤) الديوان : ٧٥ .

لنبيِّه عليـه الصَّـلاة والسَّـلام : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال ١٧) ، يا شِبْلي إذا رمى الله قلبَ عبده بمحبَّةٍ مِنَ الحبِّ ، نادى عليه مدى الأزمان بلسان العتاب . فقال له الشِّبْلي : يا أبا المغيث : ما حَمَلَكَ على هذا الأمر الذي أَلْجَأَكَ إلى إسلام نفسِكَ وإيهاب جسمِكَ ؟ فتنفَّسَ الصعداء ، وقال : هلاكُ الظواهر تأديبٌ ، وهلاكُ البواطن تهذيبٌ(١) ، وهذا أمرٌ قد سبق للأنبياء - عليهم السَّلام - ، فلا غرو إن جرى مثله علينا .

ثُمَّ لمَّا انتهى العامان وهو في السجن ، جاء الشَّيْخ أحمد بن الوليد وجماعةٌ من الفقهاء وأخرجوه من السجن إلى الصُّلْبِ على الخشبة ، فبينما هم يمشون به لقيهُ جماعةٌ من الأولياء قبل أنْ يصل إلى الخشبة ، فقال لهم : عاملناهُ بالحقيقةِ فوصَلْنَا إلى عينها ، فلمَّا وصلوا به إلى موضع الخشبة ، قال الوزير : أين البيِّنَةُ التي يموتُ بها الحَلَّاجُ ؟ فأخرج له ابن الوليد مِنْ كُمِّهِ رَقْعة فيه خَطُّ السبعة والثمانين رجلًا من أكابر الفقهاء ، كلُّ واحدٍ منهم قد كَتَبَ اقتلوه، ففي قتله صلاحُ المسلمين ، ولا تَدَعوهُ فإنَّ تركَهُ فيه فسادُ المسلمين . فقال الوزير : اللَّهُمَّ إنِّي بريءٌ مِنْ دمه ، وأميرُ المؤمنين بريءٌ مِنْ دمه ، وصاحِبُ الشُّرطة بريءٌ مِنْ دمه ، ثُمَّ تَقدَّم إليه أبو الحارث السَّيَّافُ ولَطَمَه لَطْمَةً هَشَّمَ وَجْهَهُ وأَنْفَه ، فصَاحَ الشِّبْلي وَمزَقَ ، وغُشِيَ على أبي الحسن الواسطي ، وعلى جماعةٍ من المشايخ المشهورين إلى أنْ تزلزلت الأرض ، فضحك الحَلَّاج من ذلك ، ثُمَّ قال : يا رَبِّ لكَ الحمدُ والشُّكْرُ ، لا إله إلَّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين(٢) ، ثُمَّ أَنْشَد يقول : [مجزوء الوافر]

---

(١) لعله أراد : تعذيب .

(٢) جاء في هيئة المحكمة ضمن الدراسة التي قدمها المحقق لقصَّة الحَلَّاج أنها كانت مكونة من قاض من كل المذاهب الأربعة فتم إقصاء الحنفي لاعتراضه على القتل ، وجاء بديله ، ورُفض الشافعي وأقصي الحنبلي ، وترأسها المالكي ، وكانت التهمة الرئيسة فكرة الحَلَّاج بتكوين =

دَعَاني غَـيْرُ مَنْسُـوبٍ ... إلى شيءٍ مِنَ الحَيـفِ
سَقاني مِنْ شَرابِ الحبِّ ... سَقْيَ الضَّيفِ للضَّيفِ
فَلَمَّا دَارَتْ [الكأسُ][1] ... دَعَا بالقطْعِ والسَّـيفِ
كذا مَنْ يشْـرَبُ الرَّاحَ ... مع الشَّنِين في الصَّيفِ

ثُمَّ ضَحِك حَتَّى دمعَتْ عيناه ، والْتَفَتَ فرأى الشِّبْلي، فقال يا شِبْلي : اعْلَم أنَّ السرَّ على هذه الطَّائفةِ لا يَخْفَى ظاهرُه ، ويبدُو معناه ، ثُمَّ قال : [إنَّك][2] تتودَّدُ لِمَنْ يُؤْذيك فكيف لا تتودَّدُ لِمَنْ يُؤْذَى فيك ؟ فها أنا في دار العجائبِ أتعجَّبُ في الغرائب ، ثُمَّ قال : [بسيط]

يا لائمِي في هَـوَاهُ كَـمْ تَلُـومُ فـلو ... عاينْتَ منـه الـذي عاينتُ لَمْ تَـلُمِ
للنَّـاس حَـجٌّ ولي حَـجٌّ إلى سَكَني ... تُهْدَى الأضاحي وأُهدي مُهْجتي ودَمي
يطـوفُ بالبيتِ قَـومٌ لا بِجَـارحةٍ ... بالله طـافوا فأغناهم عَنِ الحَـرَمِ[3]

فقال له الشِّبْلي : يا أبا المغيث ما معنى التفرُّد ؟ فقال له : هو أن ينفرِدَ العبدُ بالواحد الفرد ، فإذا رآه الخلقُ قد انفرد عن الخَلْقِ أَمِنَهُ مِنْ عذابِ الطَّرْدِ ، فيصير للحقِّ مُشَاهِدًا ، والحقُّ على لسانِه شاهدًا ، فحينئذ يتخلَّصُ لمقام المعرفة ، ويُوحِي اللهُ لخَاطرِه ، ويَحْرِصُ سِرُّه مما سواه ، فلا يُرَشِّح فيه غيرُ الحقِّ من حَضْرَةِ الحقِّ بالحق ، يا شِبْلي : الصبرُ مطيَّةُ الفرحِ ، لا فرحَ الدُّنْيا الدَّنيَّة ، بل إنما هو مطيَّةُ الفرحِ في الآخرة .

= كعبة في البيت لمن لا يستطيع الحج ، ويقول : إن الحكايات التي رواها الناس عن الحلاج مبالغ في بعضها شأنها شأن صاحبها الذي يكاد أن يصل إلى معنى الشخصية الأسطورية .

(١) في الأصل : الأكواس .

(٢) في الأصل : قالا لأنني أنك ، وهي ألفاظ غير واضحة المعنى .

(٣) وردت هذه الأبيات في ملحق الديوان ص ١٠٤ في المنسوب إليه وهو لشاعر مجهول ، باستثناء البيت الثاني الذي رجح أن يكون للحلاج .

[من الروايات التي ثَبَتَ عدمُ صحتِّها][1]

ثُمَّ لَمَّا وصلوا به إلى المَوْضِعِ الذي يُصْلَبُ فيه ، أرسل الخليفة إلى الشَّيْخِ أبي القاسم الجُنَيد ليُستشارَ على ذلك ، فلمَّا حَضَرَ قال : افعلوا ما قَدَّرَ اللهُ - تعالى - ، فَمَسَكُوه ، وقد نُصِبَتْ له خشبة ، وخرج الشَّيْخُ أبو العباس بن شُريح متبرِّئًا من ذلك ومعه ثمانون فقيرًا ، كلُّ واحدٍ عندَهُ مِنَ العِلْمِ والعمل ما لا يوصَفُ ، فوجدوه وقد قُطِعَتْ يدُه الواحدةُ ودمُها يجري على الأرض، وهو يكْتُبُ : « الله الله » ، حَتَّى كَتَبَ ذلك في أربعة وثمانين موضعًا هناك « الله الله » على عدد أسماء الفقهاء الذين أفتوا بقتله .

وكان الجُنَيد إذ ذاك حاضرًا ، وجماعةٌ من العلماء العاملين ، فشيَّع الحُسَين الحَلَّاج بصرَه إلى شيخه الجُنَيد ، وأخذ من دمِ يده ودَهَنَ به جبهتَه ، وجعل يقول: أنا عروس الحضرة ، فقال له أبو القاسم الجُنَيد ﷺ : يا ولدي أتعبْتَني وأتعبْتَ نفسَك، أمَا تَكْتُمُ السِّرَّ وتَسْلَم، فقال: ائتوني بدواية وورقة، فأتوه بذلك فكتَبَ مِنْ دَمِهِ على الورقة : يا رَبُّ وعزَّتك وجلالك لا أَقْبلُ قَوْلَ مخلوق ، وإني لأعلمُ أنَّ جميعَ ما يُصنَعُ بي برضاك ، ولكن ما أظهرْتَهُ لي، فأظهر شيخي ومَنْ معه على بعضه يا ربَّ العالمين ، ثُمَّ ألقى الورقة فطارَت ساعة ، ثُمَّ نزلت مكتوبًا على ظاهرِها ، إنْ كُنْتَ عاشقًا فاصْبِرْ على الأمر

---

(١) ما ذكره عن حضور الجُنَيد وما دار بينه وبين الحَلَّاج كله من الأساطير غير الصحيحة ؛ لأنَّ الجُنَيد توفي سنة ٢٩٨ هـ بينما توفي الحَلَّاج سنة ٣٠٩ هـ ، أي بعد إحدى عشر سنة من وفاته ، وما قيل في القصَّة من أنه مريد الجُنَيد لم يكن واقعيا ، فهو قد جاء إلى بغداد حيث يقيم الجُنَيد سنة ٢٩٠ هـ وعمره ست وأربعون سنة ، وقصد الجُنَيد « فلم يقبله قبولا حسنًا لثقة الحَلَّاج المفرطة بنفسه ومبالغته في ممارسة الرياضات النفسية والجسدية » (انظر سيرة الحَلَّاج) في مقدمة الديوان ص ١٦ وانظر ترجمة الجُنَيد والحَلَّاج في كتاب الأعلام للزركلي لتعرف الفرق في تاريخ الوفاة ، وليكون هذا نموذجًا للقصص الشعبي الذي يدور في كتب هذه القرون المتأخرة ويقبله بعضنا على علله .

كُلِّه، ولا تقْلَقْ ولا تَجْزَع ولا تَهْلَع ، واستعْذِب بلائي واشْكُرني على قضائي، وكلَّما زادوا في تعذيبك فافرح ، ولا تشكو ما بك إلى أحدٍ ، ولا تتمنَّى الموت لكثرة ما ينزل بك من عذاب الدُّنْيَا ، فلك عندي درجاتٌ ومقاماتٌ، لا يعلَمُ كثرتَها غيري ، فإنْ أردتها فاصبر على ما أصابك وما يُصيبك ، ولا ترى ذلك مِنْ أحَدٍ غيري(١) ، وفي آخر الورقة شعر : [الرجز]

إنْ كنتَ أنْــتَ عاشقــًا ... فكــذا العِشْـــقُ كلُّــه

فإنَّ مِنْ شــأْني قَتْـــلَ ... النُّفُوسِ وشَرْعِي يُحِلُّه(٢)

فعند ذلك أنشد الحُسَين وهو يقول : [رمل]

---

(١) مثل هذا الادعاء بأن الوحي ينزل على هؤلاء له نظائر في أدبيات هذه الحقبة ، فلا تعدم من يقول لك : أخبرني قلبي عن ربي ثم يسرد كلاما كهذا ، نسأل الله أن يصلح السرائر ، وإذا وردك أخي الصالح من الواردات ما أعجبك وظننت أنه وارد إلهي فاعتبرْهُ اجتهادًا منك وتوفيقًا من الله، واعرضه على الكتاب والسنة فإذا وافقها فهو هداية وتوفيق إلى الصواب ، يمكنك أن تعتبره كرامة ولكن لا تظنه وحيا فتعطيه من القدسية ما للوحي الإلهي ، فقد قال أحد المتصوفة : « إن من زعم أنه يتلقى وحي التشريع فقد كفر » فكيف بغير المتصوفة ؟ أما قول بعضهم : « بأن وحي الإلهام والفهم والاجتهاد في طاعات الله والقربات فبابه باق إلى يوم القيامة » فلست أدري لما سماه بالوحي وهل يضمن أن لا يكون ذلك في التشريع الذي قال إنه يؤدي إلى الكفر ، ولماذا لا يحذف كلمة الوحي ويترك ما بعدها ، فيكون إن أصاب بتوفيق الله وإن أخطأ فمن نفسه ، ويسلم في الدنيا والآخرة ؟ ذكر الله في القرآن آيات تدل على أنه يشرح الصدر ، ويهدي ، ويوفق ، والعبد الصالح أهل لهذه التوفيقات الإلهية فلماذا لا يرضى بغير الوحي الذي عرفنا من حديث أم أيمن أنه انقطع ، وعرفنا من القرآن أن الأنبياء والرسل الذين هم وسائط الوحي قد خُتموا بمحمد ﷺ ، فلماذا الإصرار على نفي ذلك ؟ ولقد وجدنا أراجيف صريحة في دعوى الوحي كهذا الذي سقناه في قصَّة الحَلَّاج ، وفي كتاب البرموني أمثلة أخرى سنقف عليها في محلها ، فليتق الله من ما يزال يعتقد عدم انقطاع الوحي وله في التوفيقات الإلهية للصالحين متسع كبير .

(٢) من غرائب هذا النص أنه ينسب الشعر إلى الذات الإلهية ، وتلك بدايات التساهل في إفساح المجال للخيال والأوهام في الجرأة على الله ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله .

اقْتُلوني يا ثِقَاتي إنَّ في قَتْلي حياتي
وحياتي في مماتي ومماتي في حَيَاتي
أنا عِنْدي مَحْوُ ذاتي مِن أَجَلِّ المَكْرُمَاتِ
وبَقَائي في صِفَاتي مِن قَبيحِ السَّيئاتِ
سَئِمَتْ نَفْسِي حَياتي في الرُّسُوم الفانياتِ
فاقْتُلُوني واحْرِقُوني بِعِظَامِ بالساياتِ
ثُمَّ مُرُّوا برفاتي في القبورِ الدَّارِسَاتِ
تَجِدُوا سِرَّ حبيبي في طَوَايا الباقياتِ[1]

ثُمَّ قال : أريد أختي بنت أمي وأبي ، فأَحْضِرُوها لي حَتَّى أُوصِيها ، فأحْضَرُوها وهي تمشي حافيةً مكشوفةَ الوَجْه ، فقال لها : اسْتُرِي وجهَكِ عن الرجال ، فقالت : وأين الرِّجالُ ؟ والله يا أخي لو كانوا رجالًا ما أَنْكَروا حالَ الرِّجال ، فقال لها : لا تَبُوحي بسِرِّ المخلوق ، فقالت : بُحتَ أنتَ قَبْلي بِسِرِّ الخالق ، وتأمُرُني أنْ أكتُمَ سرَّك وأنتَ مخلوق ؟ فقال: يا أختي هكذا أرادَ اللهُ حَتَّى نفذَتْ فيَّ دعوةُ شيخي الجُنَيد - رحمه الله[2] - ، وإني قد جعلْتُ كلَّ مَنْ شتمَني ، أو رَجَمَني ، أو قَطَعَ شيئًا مِنْ أعضائي ، أو حَرَقَني في حِلٍّ ، فلا أُطالبُه بشيْءٍ في الدُّنْيَا ولا الآخرة .

فيا أختي إذا أنا مِتُّ وأَحْرَقُوني كما قالوا ، فَخُذي من رمادي ودَعِيه عندكِ ، فإنَّ الدِّجْلة في هذه السَّنَة تَفِيضُ ، فإذا وصَلَتْ إلى شراريفِ القَصْرِ[3] فذرِّي من رمادي فيها ، وقولي : إنَّ الحُسَين يُقْسِمُ عليك وهو يقول

(١) النص في الديوان : ٢٩ مع إضافة وتغييرات طفيفة .
(٢) « رحمه الله » : تقال هذه الدعوة عادة للمتوفى وهو قد مات فعلا قبل وفاة الحلّاج بإحدى عشرة سنة ، وفي القصّة أن الجُنَيد كان حيًّا في لحظة صلب الحلّاج ، وهو اضطراب في نقل المعلومات .
(٣) ستأتي عبارة السور عوض القصر لاحقًا .

لك : لا تُغْرِقْ أَهْلِ بغداد ، فإنَّ فيهم شيخي أبا القاسم الجُنَيد ، ولأجل عين ألف عين تُكرَّمْ ، فإنَّ الماءَ لا يُؤْذي أحدًا ، ولا تُحمِّليهم ما جَرى وما عساه يجري عليَّ ، فإني راضٍ بما قدَّرَه الله ﷻ ، [ولازمي[1]] أعلى البُرْج كلَّ ليلةٍ لأجل ذلك ، فالتفتَتْ أُختُه إليه وبكَتْ ، ثُمَّ قالت : لِمَنْ تركْتَني يا أخي؛ لأنِّي في هذه البلاد غريبةٌ وحيدةٌ ، فقال لها : يا أختي اللهُ لي ولكِ ، ولكلِّ أحدٍ ، وإنَّه مِنْ كرمِه وإحسانِه يُقَيِّضُ لكِ رجلًا صالحًا يتزوَّجُ بكِ ، فإذا صلبوني وأحرقوني طوفي في أزقَّة بغداد ، وقولي : ثُمَّ قال لها في أُذُنِها : نادي بأعلى صوتِك باح الحَلَّاج ، باح الحَلَّاج ، فمَنْ أجابكِ فهو زوجُك ، وهو مِنَ المتَّصِلين بالله .

فلمَّا فَعلُوا بِه ما قدَّرَه الله - تعالى - جعلتْ أختُه تُنادي في أزقَّة بغداد بأعلى صوتها : باح الحَلَّاجُ ، باح الحَلَّاجُ ، فخرَجَ إليها شخصٌ وأجابها : فقُتِلَ وكَتَمْنَا فسَلِمْنا ، فقالت له : أنت زوجي ، فتزوَّج بها[2] .

ولنرجعْ إلى الكلام على الجُنَيد ، [فقد] جاء إلى الحَلَّاج هو وجميع الفقراء وسلَّموا عليه ، ووادَعُوه ، فلمَّا أرادوا الانصراف التفت الحَلَّاجُ إلى شيخه الجُنَيد ، وقال له : يا سيدي أين الوعد الذي وعدتني لَمَّا قلتَ لي : لابُدَّ أَنْ تُرَى مصْلوبًا بهذا السور على خَشَبة ، فقلت لكم : إذن تلْبَسُون عليَّ لباسَ الثَّكالى من النِّسَاء في ذلك اليوم ، فقلت لي : نعم ، وكان أمرُ الله قدَرًا مقدورًا ؟

فذهَبَ الشَّيْخُ الجُنَيد إلى دارِه ، فلبِسَ دلَقةُ الأزرَق الآن ، ومعه جميع

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل ولا يمكن إكمالها من قصَّة الحَلَّاج لاختلاف نص القصتين كثيرًا جدًّا في الألفاظ والوقائع .

(٢) لا نجد هذه المعلومات عن زواج أخت الحَلَّاج في قصته التي حققها سعيد عبد الفتاح .

الفقراء ، فلبسوا الأزرق ، وجلسوا حوله ، فلمَّا نظر الحُسَين إليهم أَنْشَد يقول : [بسيط]

لاحَتْ على ظَاهِرِ الأحبابِ أسرارُ ... وأشرقتْ من وُجوه القومِ أَنْوارُ
وطافَ بالقومِ ساقٍ لا شبيهَ لهُ ... خمْرٌ عتيقٌ ولَاذَ بالحِمَى نارُ
وزَمْزَمَتْ نَغْمَةُ الورْقَاءِ مُنْشِدَةً ... هذا العقِيقُ وهذا الحَيُّ والدارُ
فاستيقِظُوا يا سُكارى عند رَقْدَتِكم ... واستغْنِمُوا الوقتَ إنَّ الوقْتَ غدَّارُ
قد باتَ في شُربِها الحَلَّاجُ مكتئبًا ... حَيْرَانَ ما بينَ سَاقِيهِ وخَمَّارُ

فأجابه شيخُهُ الجُنَيد بقوله : [بسيط]

مَنْ بَاحَ بالسِّرِّ كانَ القتْلُ موجبُهُ ... بين الأنامِ ولَمْ يُؤْخَذْ له ثارُ

فصاح : طيِّب زيدوني - عافاكم الله - ، فقطعوا يده الأخرى فأنشد يقول : [رمل]

مُؤْنِسِي بالشَّوقِ [مِنْ] طُولِ الهَوَى ... واقِفًا والحقُّ مِنْه قَدْ دَنَا
يَتَمَنَّى نَظْرَةً مَنْ نالها ... صارَ بعد الفَقْرِ مِنْ أَهلِ الغِنَى
يَتَمَنَّى خَمْرَةً قُدْسِيَّةً ... شَرِبَ الحَلَّاجُ منها واقْتَنَى
وغَدَا يشْطَحُ في أقْوالِهِ ... [أنْ أنا الحقُّ أو الحقُّ أنا][1]
يا سُكارى مِنْ شرابِي عَرْبِدُوا ... وكُؤُوسُ الوَصْلِ قَدْ حَفَّت بنا[2]

ثُمَّ قال له شخصٌ من الناس : يا حُسَين أما تعرف نفسك ، وترجع عمَّا أنت عليه ؟ قال : وماذا أعرف ، أنا الله أنا بالله أنا تالله أنا لله ، ولم يوجَدْ في

(١) في الأصل : « يا أصحابي أنا الحق أنا » وهو مكسور الوزن .

(٢) لم ترد هذه الأبيات في ديوان الحلاج ، ولكن ورد على وزنها وقافيتها شعر له (الديوان ص ٦٢) ، وفي الأشعار المنسوبة إليه أيضا(الديوان ١٠٩) قال المحقق إنها مما نسج على لسان الحلاج مجاراة له . أو تخريبًا لقصيدة ابن المسفر التي نسبت للغزالي والسهروردي .

قميصي الذي عليَّ غيرُ الله ، فأُمِر السيَّاف بصلبه ورجمه ، بعد تقطيع يديه ورجليه ، فصلبوه ورجموه ، فأوَّلُ مَنْ بَدَأَ برجمه شَيْخُه أبو القاسم الجُنَيد - رحمة الله عليه - ، وقيل : إنه رجَمَه بوردة فبكى ، فقيل له : بكيتَ مِنْ رجم وردةٍ من يدِ شيخكَ والناس قد رجموك بالحجارة فلَمْ تتكلَّم ولَمْ تتأوَّه ولَمْ تبكِ ؟ فقال : إنما بُكائي لأنَّ جنايةَ الحبيب على الحُبِّ صعبةٌ ؛ ولأنَّهم جهلوا حالي فرجموني ، وشيخي لَمْ يَجْهَل من حالي شيئًا ، فكيف يرجُمُني مع علمه بحالي ؟

وما عَلِمْتُ أَنَّ جفاءَ الحبيبِ على المحِبِّ شديدٌ ، فعانَقه الشَّيْخُ الجُنَيد عند ذلك وقبَّله بين عينيه ، وذهب إلى داره وهو باكي العين ، حزين القلب عليه ، وبقيَ زمانًا طويلًا وهو مصلوبٌ وكلُّ مَنْ مرَّ به من الناس يرجُمُه ، وطوَّل اللهُ حياتَه حَتَّى كثُر عذابُه في الدُّنيا ، ولَمْ يمتْ ، فتقدَّمَ إليه الشِّبْلي ، وهو يبكي ، ودموعُه تجري على خدِّه ، فرأى الحُسَين - رحمه الله - وكلَّما رَجَمَه أحدٌ تبسَّم في وجهه ولَمْ يتألَّمْ قطُّ ، فقال له : حبيبي يا حُسَين أَطْلِق الطيرَ من القفصِ وأَرِحْه من الغصص ، قد فعلت ما لَمْ يفعله أحدٌ في عَصْرِك ، ولقد صَبَرْتَ صبرًا يَعْجِزُ عنه جميع مشايخك ، فإلى متى هذا الحال؟ فسلِّمْهَا إلى مالكها ، فلقد أتعبتها تعبًا زائدًا .

فقال له : يا شِبْلي ما يموتُ الإنسانُ إلَّا بأجله ، ولكن تقدَّم وانْزَعْ العِرْقِية عن رَأْسِي ففي نَزْعِها خمودُ أنفاسي ، قال : فتقدَّمَ الشِّبْليُّ إليه وأقام العِرْقِية عن رأسِه ، ففارقَتْ روحُه الدُّنْيَا ، ثُمَّ تقدَّمَ له أبو الحارث السيَّافُ ورمى عُنُقَه ، وسقط الدم منه ، فكان الدَّمُ يكتُبُ في أربعة وثمانين مَوْضعًا « الله الله » ، وصارَتْ رأسُه تَنُطُّ على الأرض ، وتقول : « الله الله » ، والناس ينظرون إليها .

فإنْ قيل : إنَّ دمَ الحُسَين بن علي لم يبلُغنا أن اكْتتبَ على الأرض – كما وقع للحَلَّاج – ، مع أنَّ الحُسَين بن علي كان أعلى مقامًا مِنَ الحَلَّاج ، فالجوابُ أنَّ الحُسَين بن علي لَمْ يُقْتَل مِنْ جِهَة دينِه ، وإنَّما قُتِل مِنْ جِهَة المُلْكِ والخِلافة ، فلَمْ يَحْتَجْ إلى مَنْ يُزَكِّيه ، بخلافِ الحَلَّاج فإنَّه قُتِل مِنْ جِهَة قولهم بكُفره ، فكان دمُه شاهدًا له بالتَّوحيد[1] ، والله أعلم .

وذَكَرَ المَقْدِسِي في « مفاتيح الكنوز » أنَّه لَمَّا أُوتِيَ به ليُصلَب ، ورأى الخشب والمسامير ضَحِكَ ضَحِكًا كثيرًا ، ثُمَّ نَظَرَ في الجماعة ، فرأى الشِّبْلي فقال : يا أبا بكر أما معك سجادة ، قال : بلى ، فقال : افرشها لي ، ففرشها ، فتقدَّمَ وصلَّى ركعتين ، فقَرأ في الأولى بفاتحة الكتاب ، وبعدها ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ ﴾ (البقرة ١٥٥) . وقَرَأ في الثانية بفاتحة الكتاب وبعدها ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (آل عمران ١٨٥) .

ثُمَّ ذَكَرَ شيئًا فكان ما حُفِظَ منه : « اللهُمَّ بحقِّ قيامك بحقِّي ، وبحقِّ قيامي بحقِّك ، وقيامي بحقِّك مُخالفٌ قيامك بحقي ؛ لأنَّ قيامي بحقِّك ناسوتيَّة وقيامك بحقي لاهوتيَّة ، مع أنَّ ناسوتيتي مستهلكةٌ في لاهوتيتك ، غير ممازجٍ إياها ، ولاهوتيتُك مستوليةٌ على ناسوتيتي غير مماسَّةٍ لها ، أسألُكَ أنْ توفقني لِشُكر هذه النعمة التي أنعمتَ بها عَلَيَّ ، حيث كشفتَ لي مطالعَ وجهك ، وحرَّمتَ على غيري ما أَبَحْتَ به من النَّظَر في مكنونات سرِّك . وهؤلاء عبادُك قد اجتمعوا لقتلي تعصُّبًا لدينك ، وتقرُّبًا إليك ، فاغفرْ لهم ، فإنَّك لو كشفتَ لهم ما كشفتَ لي ما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترتَ عني ما

---

(١) محاولة لإعطاء تسويغ عقلي لوقائع خرافية حتى تنطلي على السامعين . والفقهاء الذين حكموا عليه بالموت ثلاثة في رواية وأربعة وثمانين في أخرى ، وبين ذلك رواية أخرى سبعينية . وهناك من يرى أنها قضية سياسية يتبرأ منها القاضي نفسه كما سنجد في هذه القصَّة ، وهناك من يقول إن الوزير والخليفة والسياف أبرياء من هذه القتلة .

سترتَ عنهم لما ابتليتني ، فلكَ الحمدُ في ما تفعل ، ولك الحمدُ في ما تريد ، فأنت الله لا إله إلَّا الله أنت سبحانك . » اهـ .

وفي الطبقات أنَّه « ضُرب ألفَ سوطٍ فلم يتأوَّه[1] ، وقُطِعَتْ يداه ورجلاه ، وصُلِبَ ، وقُطِعَ عُنقُه ، وأُحْرِق بالنَّار ، وقُتل - رحمه الله - ببغداد بباب طاف يوم الثلاثاء ، لستةٍ بقين من ذي القعدة سنة ٣٠٩ تسع وثلاثمائة » . اهـ .

وقيل : إنه بقيَ مصلوبًا ثلاثةَ أيام ولَمْ يمتْ ، فسُئل وهو على الخَشَبة مقطوع اليدين والرِّجلين ، عن حقيقة معرفة الله ، فقال : ﴿ وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ لكن من ذلك ما أنا فيه ، قيل له : كيف ذلك ؟ فقال : والله ما فرَّقتُ بين نعمته وبلائه . ولَمَّا طال مكثه أنزلوه وفتشوه فوجدوا عنده رُقْعةً مخيطةً في عِرَاقيته ، مكتوبًا فيها بخطِّه آية الكرسي ، وبعدها اللهم أَلِّف مِنْ قلبي رضاك ، واقطع رجائي مِمَّنْ سِوَاك ، وأَعِنِّي باسمِكَ الأعظم ، وأغنني بالحلال عن الحرام ، واعطني من الصبر ما لا ينبغي لأحدٍ غيري ، بـ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ ﴾ ، وأمتني شهيدًا بـ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ .

فأخذوا الرُّقْعة وضربوا عنقه ، فسقط دمه على الأرض مكتوبًا في أربعة وثمانين موضعًا « الله الله » ، وقيل خمسة وثلاثين . وذلك مُتكرِّر ، فكتب عند قطع يده اليمنى ثُمَّ اليسرى ، ثُمَّ عند قطع رجليه ، ثُمَّ عند رَمْي عنقه ، فمتى ما يسقط منه الدم يُكْتَبُ على الأرض « الله الله » ، - كما قدَّمناه - .

ولنرجع إلى الكلام عن أخته - أي أخت الحُسَين الحَلَّاج - فلمَّا أنْ قُتِلَ وأُحْرِق بالنار ، أخذت أخته مِنْ رماده ، وطلعت إلى البرج - كما أوصاها - ، وباتت عليه ، فوافق فيضُ الدِّجْلةِ ليلةَ الجمعة ، وكانت أخته قائمةً تُصلي في

(١) في الأصل : فلم يتأول .

اللَّيل وِرْدَها ، فإذا بالماءِ قد طَلَعَ حَتَّى سَاوى شَرَارِيفَ السُّور ، فأَوْجَزَتْ في صَلَاتها ثُمَّ سَلَّمَتْ ، وقالت : أيُّها الماءُ ارجع ، بإذن الله – تعالى – ، إلى مكانك الذي أتيت منه فإنَّ أخي الحُسَين يُسَلِّمُ عليك ، وقد حَلَّ كُلَّ مَنْ ظَلَمَه أو سَبَّه أو ضَرَبه أو رَجَمه ، أو قَطَع عُضْوًا من أعضائه أو أَعَان على حَرْقه ، ويقول لك : لا تُغْرِق أهلَ بغداد[1] ، فإنَّ شيخي الجُنَيد منهم ، ثُمَّ رَمَتْ مِنَ الرَّماد في الماء ، فهبَطَ إلى مكانِه بإذن الله – تعالى – .

قالت : ثُمَّ وضعتُ رأسي في تلك الليلة ، فرأيتُه في المنام ، ووجهه كالقمر ليلة البدر ، وعلى رأسه تاجٌ من الذَّهَب مُرَصَّعٌ بالدُّرِّ والياقوت والجوهر ، وعليه حُلَّةٌ خضراء ، وكنت كثيرة البكاء عليه ، فقال لي : يا

---

(١) عندما تصبح هذه الأساطير معتقدات أمة من الأمم فإنها تغرق في الأوهام ، وتتخلى عن الواقعية التي تبني والفكر الذي يعاني الحقائق وينسج بالعلم والعمل الصالح حضارة ومجدًا ، وهكذا منذ أن شاعت ثقافة الأساطير دخلت الأمة في عصور التخلف والجهل ، فتخلف فكرها وعلمها ، وظنت أنها يمكن أن تصنع بهذه الأوهام مجدا وأن تخرج عن سنة الحياة التي جعل لها الله أسبابًا وسننًا ، وأقسم أن الإنسان فيها سيكون في كبد وكفاح حتى يبلو أعماله التي لا تصنعها الآمال والخرافات ، ولذا فإن العصور التالية للقرن التاسع الهجري هي التي ضخمت من قصَّة الحلَّاج ، وملأتها بالأساطير ، حتى تناسب ثقافة عصور التخلف ، التي يصدِّق فيها كل سواد في بياض ، وتكثر فيها الأحاديث الموضوعة، والضعيفة ، وتنتهك فيها حرمة المتن والسند ، وتلوى أعناق النصوص ، ويبنى على قصَّة العبد الصالح الجم الغفير من الأوهام ، وتصبح رؤية الله وكلامه على أمي أسهل منها على الأنبياء والرسل ، ويروى الحديث عن جني عن رسول الله فلا يكون بين الراوي في القرن الرابع عشر الهجري والقرن الأول سوى راو واحد ، وهو ما لم تعرفه الأمة في سنوات عزها وعصورها الفضلى ، بل يروي بعضهم عن رسول الله مباشرة حديثًا يتناول حكمًا شرعيًا مخالفًا للمألوف ، ومنهم من يروي عن ربه ، ويسود هذا الكلام ، ويقسم على أنه الحقيقة وإن خالفت الشريعة ، وتلك هي الحالة التي نريد أن يتنبه لها المسلمون ، وليس هذا نقدا في التصوف الحق الذي هو تحلية بما أمر الله في كتابه وسنة رسوله ، وتخليه عما نهى عنه ورسوله ﷺ ، والصوفية التي هي الدعوة المثلى للإيمان بالله وطلب العلم ، والتحلي بالصبر ، وحسن التوكل ، والزهد في الدنيا ، ومحاسبة النفس ، ومعرفة عيوبها ، فتلك غاية الإسلام ، وتلك هي صفات المؤمنين التقاة والأولياء الصالحين ، وفرق بين هذا وذاك .

أُختي إلى كم تبكي ؟ لقد ضاق صدري مِنْ بُكائك . فقلت له : يا أخي وَتَضِيقُ صدور الأموات من بكاء أهلهم عليهم ، فقال : والله الذي لا إله إلَّا هو إنَّ الميِّتَ ليتأذَّى من كثرة البُكاءِ الإيذاءَ البالغ ، ويتمنى لو أنَّهم سكتُوا عنه ، وإنَّه ليفرح بسكوتهم كما يفرح المريض بالعافية أو أكثر من ذلك ، فقلت له : يا أخي وكيف لا أبكي عليك وقد جرى لك ما جرى ؟ فقال : يا أختي ما أحسستُ بشيء مما فعلوه بي ؛ لأنَّهم لَمَّا قطعوا يدي ورجلي كان قلبي مشغوفًا بالمحبة ، فلم أجد لقطعهم ألمًا ولا وجعًا ، فلمَّا صلبوني كنت كذلك ، حَتَّى خَرَجَتْ روحي وحرقوني ، فنزلت إليَّ الملائكة من السماء وهُمْ حِسانُ الوجوه ، ولا يَعْلَم عنهم غير الله – تعالى – ، فأخذوني ، وطلعوا بي إلى العرش ، وجعلوا ينادون : هذا حُسَين الحَلَّاج المُحِبُّ ، فنادى منادٍ لَمَّا وصلت إلى العرش ، سمعته ووعيته يقول : يا حُسَين رحِم اللهُ مَنْ عَرَف قَدْره ، وكَتَم سِرَّه ، ما حَمَلَك على ما فعلته حَتَّى فُعِلَ بك ما فُعل ؟ وما بُغْيَتُك الآن ؟ فقلت : اللهمَّ ليس بُغْيتي وقَصْدي سوى تَعْجيلِ مشاهدتِك ، فقال[1] : انظر إلى جمالي وتَمَتَّع بمشاهدتي في كلِّ وقتٍ شئت ، فلك عندي أنْ لا أَحْتَجِب عنك ولا طرفة عين ، ثُمَّ كَشَفَ عين الحجاب ، فلمَّا رأيتُ وجهه الكريم الذي لا يُمثَّل ولا يُشَبَّه ، ولا يُكيَّفُ ، ولا تُخْفِيه جِهة ولا يسَعُه مكان ، وقد كان ولا مكان ، امتلأ قلبي فرحًا وسرورا وقلت : [طويل]

---

(١) الكلام هنا ينسب إلى الله ، والحوار بينه وبين الحَلَّاج ، والحَلَّاج ميت ، وهذا مجرد حلم ينسب إلى أخته في بعض روايات حكاية الحَلَّاج ، والشعر الذي نسب إليه بعد ذلك ليس للحَلَّاج قطعًا فهو في الديوان منسوب باحتمال إلى سمنون المحب ، والذي يعنينا هو استنكار الجرأة على الله وتقويله سبحانه ما لم يرد في كتاب أو عن طريق رسول أو نبي ، فحتى متى نعتد بهذه المصادر في علاقتنا بالله ؟

وَكَانَ فُؤادي خَالياً قَبْلَ حُبِّكُمْ ... وَكَانَ بِذِكْرِ الخَلْقِ يَلْهو ويَمْرحُ
فَلَمَّا دعا قلبي هــــواك أجابَهُ ... فَلَسْتُ أراهُ عَنْ وِصَالِكَ يَبْرحُ[1]
فإنْ شِئْتَ واصِلْني وإنْ شِئْت لا تَصِلْ ... فليس أرى قلبي بِغَـــيْرِك يَصْلُحُ

ثُمَّ قال : يا أُختي أَوَرَأَيْتِ لو كان عندكِ طائرٌ في قفص ، فأُطلِقَ الطائرُ مِنَ القَفَصِ ، فصار الطائرُ يرعى في بساتين وأنهارٍ وفواكِهِ وثمار ، هل يَضُرُّ ذلك الطائرَ كَسْرُ القفص ؟ فقلت : لا . فقال : كذلك أنا . ثُمَّ تركني وانصرَفَ إلى أنْ سَكِرْتُ ، فقلت لذلك شِعْرًا : [طويل]

سَكِرْتُ وما سُكْرِي بِخَمْرٍ وإنما ... يُجَدُّ الذي في السُّكر لا يَتأدَّبُ
يَقُومُ السُّكَارى عن ثمانين جلدة ... صِحَاحًا وسَكْرانُ المحبَّةِ يُصْلَبُ

قال الشَّيْخ عبد الكريم بن عبد الواحد - رحمه الله - : دخلتُ على الحُسَين الحلَّاج قَبْل أنْ يُؤْتى عليه في مسجدٍ وحوله جماعة ، فكان أوَّلُ ما قال في كلامه : « لو يُلْقَى - مما في قلبي - ذرةٌ على جبال الأرض لذابتْ ، وإني لو كنت يوم القيامة في النار لأحرقت النار ، ولو كنت في الجنة لهدمت الجنة » ودخل يومًا إلى جامع المنصور ببغداد ، وقال : يا أيها الناس اجتمعوا واسمعوا مني حديثًا ، فاجتمع عليه خَلْقٌ كثير ، منهم مُحِبٌّ ومنهم مُنْكِر ، فقال : اعلموا أنَّ الله قد أباحَ لكُم دمي ، فاقتلوني ، فبكى القومُ ، فتقدَّم إليه عبد الودود بن سعد الزاهد ، وقال : يا شَيْخُ ، كيف نقتل رَجُلًا يُصَلي ويصوم ويقرأ القرآن ، قال : يا شيخ المعنى الذي يَحْقِنُ الدماء خارجٌ عن الصَّلاة والصَّوم وقراءة القرآن ، فاقتلوني تؤجروا واستريحوا ، فتكونون أنتم مجاهدين وأنا شهيد .

ثُمَّ ذهب ، فتبعته إلى داره . وقلت : يا شَيْخُ ما معنى هذا ؟ فقال : يا

(1) الديوان ٩٠ نسب إلى سمنون المحب وقال المحقق : إن فيها نفس محمد بن داود .

فتى ليس للمسلمين شُغْلٌ أَهَمُّ من قتلي ، فاعْلَمْ أنَّ قتلي قيامٌ بالحدود ، ووقوفٌ مع الشَّريعَة ، وأنَّ مَنْ تجاوز الحدود أقيمت عليه الحدود ، وفي معنى ذلك قلتُ : [الطويل]

أَبَاحَتْ دمي إذا باحَ قَلْبِي بحُبِّها ... وحَاكمَهَا في حُكْمِها ما استحلَّتِ
وما كُنْتُ ممَّن يُظْهِر السِّر إنَّما ... عَرُوسٌ هواهَا في فُؤادِي تجلَّتِ
فشاهَدْتُها فاستغرَقَتْنِي بسَكْرةٍ ... وغِبْتُ بها عَنْ كلِّ كلِّي وَجُمْلَتِي
وحَلَّتْ محَلَّ الكُلِّ مِنِّي بِكُلِّها ... فإيايَ إياها إذا ما تَبدَّتِ
ونَمَّتْ على سرِّي فكانت هي التي ... عليها بها بينَ البريةِ نَمَّتِ
إذَا سألتُ مَن أنتَ قلتُ أنا الذي ... بقائي إذا أُفنيت فيه هُويَّتي
أنا الحقُّ في عِشْقِي كما أنَّ سيدي ... هُو الحقُّ في حُسْنٍ لغَيْرِ مَعِيَّتي
فَإِنْ أكُ في سُكْري شطحتُ فإنني ... حكمتُ بتمزيقِ الفؤادِ المفتَّتِ
ولا غروَ إنْ أُصليتُ نارًا [لحرقتي] [1] ... ونارُ الهوى للعاشقين أُعِدَّتِ
ومِنْ عجبِي أنَّ الذين أُحِبُّهم ... [هُمُ] [2] أغلَقوا أيدي الهوى بأعِنةِ
سَقُوني وقالوا لا تُغْنِ ولَوْ سَقَوْا ... جبالَ حُنَيْنٍ ما سقَوْني لَغَنَّتِ [3]
... إلخ .

فناداه لسانُ الحال : يا حُسَين يا حَلَّاج كيف رأيت المحبَّة ؟ قال : رأيتُ محبَّةً قد نُصِبَتْ على فَخٍّ جمالية المحبوب ، فطارت إليها عصافير القلوب ، فلمَّا سقطوا ليلْتَقِطُوا انقلبَتْ عليهم حَبَّةُ الفخِّ ، فاختبطوا فحدَّقوا إلى حقيقة ذلك الحبِّ فإذا هي نُقْطة بَاءِ المحبَّة قد قلَّبَتْها أيدي الفتنة ، فانقلبت المحبَّة محنةً ،

(١) في الأصل : تحرقني .
(٢) في الأصل : قد ، ولا يستقيم وزنًا .
(٣) ورد هذا البيت في الديوان ص ٨٨ من الأشعار المنسوبة للحَلَّاج من شعر السمهري العكلي اللص ، ضمن أشعار أخرى منسوبة للحَلَّاج في قصَّة الحَلَّاج .

يا حَلّاجُ فأنتَ بحُبٌّ رِقُّه تحترِقُ ، وبحبلِ عِشْقُه تختنِقُ ، فمتى تتفرَّغُ مِنْ الخَلْقِ حَتَّى تَقُول : أنا الحقُّ ؟ فلو كان لكَ في البقاء نيةٌ ما شَرِبْتَ بكأسِ الأنانية ، فقال : يا قوم لَمَّا أخذني مني ، وسلبني عني ، تلاشَتْ أوصافي ، حديثي لهُ أظهرَ سلطانَ قِدَمِه ، وكان الحَدثُ كأنْ لَمْ يكُن ، وبقي القِدَم لَمْ يَزَلْ ، ثُمَّ فُنِيَتْ أنانيتي في أنانيته، وذهبت هويتي في هويته ، وتلاشت ناسوتيَّتي في لاهوتيَّته، ثُمَّ نظرتُ منه إليه ، فلَمْ أَرَ إلَّا هو ، وسمعتُ منه عنه ، فلَمْ أسمع إلَّا هو ، ثُمَّ نطقت به له ، فلَمْ أذكر إلَّا هو ، فعلمت أنْ ليس إلَّا هو ، وقلت : أنا هو ، ولئن قلتُ أنا الحقُّ ، فما عدلتُ عن الحق ؛ لأنِّي أنا الحقُّ في محبَّته ، وهو الحقُّ في مملكته ، ولئن كان سُكْري نمَّ على سِرِّي، فقد عَرْبَدَ وَجْدِي على وجوده، وجعل حَدِّي مَحْوَ حدودي، قلت : [الرمل]

اقْتلـــــوني اقْتلـــــوني بالكِتَـــابِ حـــلَّ قَتْـــلِي
اقْتلـــــوني اقْتلـــــوني واحْـــرِقُـــوني بكُـــــلِّي
اصْـــــلبوني اصْـــــلبوني وبالحـــديثِ[1] كانَ أَجَـــلي[2]

... إلخ ما قال ، والله أعلم .

إنَّ أخبار الحُسَين الحَلَّاج كثيرةٌ ، وكراماته ومناقبه مستفيضةٌ شهيرة ، وقد قُتل بإجماع فقهاء زمانه ، إلَّا الشَّيْخ الإمام أبا العباس بن شُريح ، فإنَّه قال : لا أدري ما أقول . قال الدَّميري : كان ابن شُريح إذا سُئل عنه يقول : قد خَفِيَ عليَّ حالُه ، وما أقول فيه . وهذا شبيهٌ بكلام عمر بن عبد العزيز ، وقد سُئل عن علي ومعاوية ، فقال : « دماءٌ طهَّر اللهُ منها سيوفَنا أفلا نطهِّر من الخوض فيهم ألسنَتَنا » وهذا ينبغي لِمَنْ يَخافُ الله أَلَّا يُكفِّرَ أحدًا مِنْ أهلِ

(١) في الأصل : بالحديد .
(٢) غير موجودة في الديوان وفي الملحق المنسوب إلى الحلَّاج ، ولا في قصَّة الحلَّاج .

القبلةِ بكلامٍ يصدُرُ منه يَحتمِلُ التأويلَ على الحق والباطل ، فإنَّ الإخراجَ مِنَ الإسلام عظيمٌ ، ولا يسارِعُ به إلَّا جاهلٌ .

وقد يُحكى عن المحققِّين طُرًّا أنَّ الحُسَين الحَلَّاج من أكابر الأولياء[1] ، وقد نَصُّوا على ما صدَرَ منه ، كقولهِ : أنا الحقُّ ، وما في الجبة إلَّا الله ، وغير ذلك ، وحمَلُوها كلها على محامِلِ حَسَنة ، ولا يلزم من حُكْمِهم عليه بالقتل تكفيرهم إياه في باطن الأمر ، ولا اعتقادهم انتفاء مزيَّته ، كيف وقد أفتى الشِّبْلي بقتله ، وقد عَلِمْتَ ما وَقَعَ له معه عند تقديمه للقتل ، بل تقدَّم أنه نفسه قال : ما على المسلمين أهمُّ من قتلي - كما ذكره المقدسي - في « حلِّ الرموز » .

قال ابن خلكان : الذي اطَّلعتُ عليه من طبقات الأشياخ المحققين ، أن الحَلَّاجَ قُتِلَ ولَمْ يثبت عنه ما يوجب القتل ، وذلك أنَّه لمَّا وقع في المحبَّة قام معه غالبُ العامة ، فخاف الخليفة منه ، فجعل الأمر للوزير ، فلمَّا عقدوا المجلس قال القاضي للحَلَّاج : من أين لك ما تقول ؟ فلَمْ يُظْهِرْ منه ما يخالفُ الشَّريعَة ، فقال جماعة : هل له مصنَّفاتٌ ؟ قالوا : نعم . فذكروا أنَّهم وجَدوا كتابًا فيه أنَّ الإنسان إذا عجز عن الحج فليعمد إلى غرفةٍ من

(١) شاء الله أن تكون القرون الثلاثة الأولى المفضلة خالية من هذه الشطحات التي يصل فيها هذا الذي بلغه الحَلَّاج ، فهو قد أظهر هذه الشطحات التي كذَّب فيها المؤذن وهو يقول الله أكبر ، وقال فيها : « كفرت بدين الله » في التسع سنوات الأولى من القرن الرابع ، ومهما تكن التفسيرات التي ذكرت لكلامه فإنه لا يخلو من سوء أدب مع الله ، وهو ما يكفي لنقده ولا أقول قتله ، ولكننا نجد منذ عصر الغزَّالي وعبد القادر الجيلي الحنبلي مَنْ يدافع على هذه الأقوال، ويتأكد هذا في القرون التالية التي أُلِّفَتْ فيها هذه القصَّة الضعيفة لغة ومعنى ، بحيث يتحول صاحبها إلى شهيد وولي صالح لا يقبل فيه نقد أو إنكار ، وبذلك يكون القرن الخامس تاريخ بداية هذا النوع من التطرف الصوفي ، إن صح التعبير ، أو الخيال الشعبي الذي نسج حضور الجُنَيد لموت الحَلَّاج وهو قد مات قبله .

بيته فيطهرها ويطيبها ، ويطوف بها ، ويكون كمَنْ حَجَّ البيت ، والله أعلم إن كان هذا القول صحيحًا .

فطلبَهُ القاضي ، فقال له : هذا الكتابُ تصنيفُك ؟ فقال : نعم أخذته من كتاب الحسن البصري ، ولم يعلم الحَلَّاج ما دلَّسوهُ عليه ، فقال له القاضي : كذبتَ يا مُرَاقَ الدم ، فلمَّا سمع الوزير هذه الكلمة قال له : هذا فَرْعٌ عن حُكمِك بكفره ، وقال للقاضي : اكتب خطَّك بالتكفير ، فامتنع القاضي ، فألزمه الوزير بذلك ، فقامت العامة على الوزير، فخاف الوزير على نفسه ، فكلَّم الخليفة أنَّ القاضي قد حكَمَ بكُفره ، فأمَرَ بأنْ يصلبوه ، فما وسعه إلَّا التسليم لأمر الله ﷻ ، ولم تتفق مراجعة القاضي بقوله : يا مُرَاقَ الدَّم إلَّا بعد الصَّلْب ، ثُمَّ رجعوا على القاضي بعد ذلك ، فقال : إنما قصدْتُ بقولي : مُرَاقَ الدَّم الشَّتْمَ لَهُ لا غير . اهـ(١) .

وقد ذكر سيدي أحمد زرُّوق في « النصيحة الكافية » بعد كلامٍ كثيرٍ ما نصُّه : « فقد قُتِلَ الحَلَّاجُ بإجماع أهلِ زمانه إلَّا أبا العباس بن شُريح ، فإنه قال: لا أدري ما أقول . وأُخرِجَ بسببِهِ أيْ بسبب الشَّطْحِ جماعةٌ من بلدانهم، ولَمْ يكن ذلك قادحًا فيهم ، ولا في مُخرجهم ، والمُنكِرِ عليهم ، وقد وَقَعَ كثيرٌ في هذا النوع كأنا هو وهو أنا ، لابن الفارض ، وابن العربي، والشُّشتري ، وابن سَبعين ، مع إمامتهم في العلم ، وظهورهم بالديَّانة ، فليتَّقِ المؤمنُ ذلك كله ، مشفقًا على دينه، فارًّا من موارد الغلط، راجعًا لأصول الاعتقاد، قائمًا مع الحقِّ بالكلام في القول لا في القائل ، وقائلًا في مثل أولئك القوم : ما كان من كلامهم موافقًا للكتاب والسُّنَّة فأنا أعتقِدُه ، إلى غير ذلك » اهـ .

وقال بعض مشايخنا - بعد أنْ ذَكَرَ جماعةً ممن اختُلِفَ فيهم من الكفر

(١) هذه رواية أخرى لقتله ، تدل على أن السياسة وراء ذلك ، وهي غير مستبعدة .

إلى القُطبانية، وعدَّ منهم: عمر بن الفارض، وابن العربي الحاتمي، وعبدالحق بن سَبعين ، وتلميذه الشُّشْتري ، وغيرهم - ما نصُّه : « والذي أذهبُ إليه وفاقًا لبعضهم هو أنَّه يجبُ اعتقادهم وتعظيمُهم ، ويَحْرُم النَّظر في كتبهم على مَنْ لَمْ يتأهَّلْ لتنزيل ما فيها مِنَ الشَّطحات على قوانين الشَّريعَة المطهَّرة ، وقول بعض جهابذة الفقه لا يُؤَوَّلُ إلَّا كلامُ المعصوم ، هو وإنْ جَلَّ قائله [نظر](1) ، كيف وقد ملأ ذلك القائل كغيره كتبَه الفقهيةَ والحديثيةَ بتأويل النصوص والوجوه ، واعتنى بالجمع بين الكلامين المتناقضين ، وتنزيل الخلاف على حالين متغايرين ؟ وقال بعض الصُّوفية في ترجمة ابن العربي الحاتمي : « وأقوى ما احتجَّ به المنكرون عليه أنه لا يُؤَوَّلُ إلَّا كلامُ المعصومين » ، ويردُّه قولُ الإمام النووي في « بستان العارفين » : « أنَّه يجبُ تأويلُ أفعالِ أولياءِ الله التي قد يُنكَر ظاهرها » إلى أن قال : « وإذا وَجَبَ تأويلُ أفعالهم ، وَجَبَ تأويلُ أقوالهم ﷺ إذ لا فَرْقَ » انتهى باختصار .

وقال الشَّيْخ سيدي أحمد زرُّوق في آخر الباب السابع من قواعده : « التوقفُ في محلِّ الاشتباه مطلوبٌ » أيّ التوقف فيما تَبَيَّن وجهُهُ من خيرٍ أو شرٍّ ، ومبنى الطَّريق على ترجيح الظنِّ الحسن عند موجبه ، وإن ظَهَرَ مُعارِضٌ ، حَتَّى قال ابن فورك - رحمه الله - : « الغلطُ في إدخال أَلْفِ كافرٍ في الإسلام بشُبهةٍ أهونُ مِنَ الغَلطِ في إخراجِ مؤمنٍ واحدٍ بشُبهةٍ ظهرتْ منه » ثُمَّ قال : « وقال قومٌ ما أدَّى إليه الاجتهاد جُزِمَ بِهِ ، ثُمَّ أَمْرُ الباطنِ إلى الله ، فمِن ثَمَّ اختُلفَ في جماعة مِنَ الصُّوفية » فسَردَهم وذَكَرَ منهم مَنْ تَقَدَّمَ ذكرُه ، ثُمَّ قال : « وقد سُئل شيخنا أبو عبد الله النووي - رحمه الله - ، وأنا أسمع ، فقيل له : ما تقول في ابن العربي الحاتمي ؟ فقال :

(1) في الأصل : « وقول بعضهم جهابذة الفقه لا [يؤول إلَّا] كلام المعصوم هو وإن جل قائله » وفي الكلام حذف كلمة أو كلمتين بمعنى : (نظرٌ) ولذلك زيدت على النص .

أَعْرَفُ بكلِّ فنٍّ من أهلِ ذلك الفن ، فقيل له : ما سألناك عن هذا ، فقال : اختُلف فيه من الكفر إلى القُطبانية ، فقيل له : فما ترجِّح ؟ قال : التَّسليم . قلتُ : لأنَّ التكفيرَ خطرٌ ، وتعظيمه ربما عاد بالضَّرَرِ مِنْ جِهة اتِّبَاع السَّامِع لمبهماته وموهوماته والله أعلم . انتهى بتغيير (١).

وقال في بعض شروحه على الحِكَم العطائية : قلتُ لشيخنا أبي العباس الحضرمي ﷺ : إنَّهم يُنكرون على ابن العربي الحاتمي ، فقال : « والله إنه ليستحِقُّ الإنكار ، لكن مِمَّنْ هو أعلى منه ، لا مِمَّنْ هو في الصناديق » اهـ . وقال في موضع آخر : ذُكر لي أنَّ النووي ﷺ سُئِل عنه فقال : « الكلامُ كلامٌ صوفيٌّ ، وتلك أُمَّةٌ قد خلتْ لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون . ووقفتُ على جواب للشَّيْخ وليِّ الدِّين العراقي في المسألة مَدار كلامه على أنَّه يتكلَّمُ في الكلام بما يعطيه ظاهرُه ، ولا يتعرَّض للقائل ، لاحتمالِ أنْ يكون مرادُه غيرَ ظاهره ، وقد تاب من ذلك قَبْلَ مَوْتِهِ .

وأمَّا الشُّشْتري فلم يتكلَّم أحدٌ مِنَ المنشدين بكلام يشبه مقطَّعاته عدا مولانا عبد السَّلام ، [فإنه] أتى بكلام يشبه كلامه أو يتفوَّقُ عليه ، وكذلك الشَّيْخُ عُمر بن الفَارِض ، لَمْ يأت أحدٌ بكلام مثل كلامه ، عدا مولانا عبد السَّلام ، فقد أتى بكلام يشبه كلامه ، أو هو أعظم منه ، كما صرَّح به بعض أصحابه الفُضَلاء . وأمَّا الشَّيْخ سيدي يوسف الجعراني [فقد] أتى بقصائد تفوق ما ذُكر .

وقولُنا الشُّشْتري : نسبةُ إلى شُشْتر بمعجمتين ، أولهما مضمومةٌ ، وبعدهما فوقيةٌ ، فتلك قريةٌ بالأندلس ، مِنْ عَمَلِ وادِي آش ، أصلُه منها ،

(١) التكفير الذي شاع في عصرنا على أقل من ذلك يحتاج إلى محتسبة فقهاء كهؤلاء يردون به من يُكَفِّر الآخرين للاختلاف معهم ، وكلامهم دقيق وحُجَّتُهم قوية - يرحمهم الله - .

وبالعراق أيضًا قريةٌ تُسَمَّى بذلك ، وهو الشَّيْخُ العارف المحقِّقُ أبو الحسن علي بن عبد الله النميري(١) ، صاحب الديوان المشهور المشتمل على الأشعار الفائقة ، والموشَّحاتِ الرائقة ، والأزجال الرقيقة ، المشيرة إلى معاني الطريقة. وللشيخ أحمد زرُّوق ﷺ عليها تعليقٌ ، قال فيه عند تعريفه به : « وقد استحسن مُقطَّعاته جماعةٌ من أهل الفضل كابن عَبَّاد وغيره ، ووَجَد بالخاصِّيةِ أنَّها محفوظةٌ مِنَ الفَسَقَة أنْ يذكروها في فسقهم ، ومَنْ ذَكَرَها في ذلك أصابه بلاءٌ يدفع فيه إلى قَطْع رقبته ، والعياذُ بالله . وقد نَسَجَ النَّاس على منوالها كثيرًا ، فما قاموا ولا قعدوا إلَّا ما قلَّ ونَدَر ؛ لأنَّهم إنْ أصابوا عِلْمًا أخطؤوا حالًا ، وبالعكس نَسَبَ النَّاسُ إليه كثيرًا مما ليس له ، وجملة ما يوجد في النُّسخ المنسوبة إليه ، نحو سبعين مقطَّعة » . اهـ .

وقد شرحَ أيضًا نونيتَه الشهيرة التي أولُّها : [طويل]

أَرَى طَالِبًا مِنَّا الزِّيادةَ لا الحُسْنَى ... بِفِكْرٍ رَمَى سَهْمًا فَعَدَّى به عُدْنا(٢)

وهي تُنَيِّفُ على سبعين بيتًا ، أتى فيها بمقاصد طريق العارفين ، وتعريف أحوال الرجال، وكان مِنْ أهلِ العلم بالقرآن والتَّجْويد، والإِقْرَاءِ، له [عنايةٌ] بالرِّواية للحديث ، قائمًا عليها ، عارفًا بمعانيها ، وبغيرها مِنْ فنون الدِّراية ، مُعتَمَدًا عليه في ذلك ، ومُشَارًا إليه فيه ، وجَالَ في الآفاق ، وأقام بعدَّة أماكن ، كبِجَاية وطرابلس وغيرهما ، وحج حجَّات ، ولقي كثيرًا من العلماء . وأَخَذَ عنهم واستفاد منهم ، ثُمَّ تَجرَّد للتخلِّي عن الخَلْق ، والإقبال على العبادة ، وسُلوكِ طريقِ العَفْوِ بالوَرَع والزُّهادة ، حَتَّى صار

(١) انظر ترجمته وأشعاره وموشحاته في ديوان أبي الحسن الشُّشْتري شاعر الصُّوفية الكبير في الأندلس والمغرب بتحقيق الدكتور علي سامي النشار ، دار المعارف - الإسكندرية ١٩٦٠م .
(٢) الديوان ٧٢ .

من أعيانِ الطَّريقَة ومَشَايخ الحقيقةِ ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأكابر كالشَّيْخ سيدي أحمد زرُّوق ، وغيره من أرباب البصَائر ، ووصفُوه بالوِلَاية الخاصة والعِرْفان ، والتَّحقيق في هذا الشأن .

ولَّما ظهر أمرُه حين نزلَ طرابلس بالعِلْمِ والزُّهْد ، أرادوا أنْ يُولُوه القَضَاء فامتنعَ فلَامُوه واسْتَحْمَقُوه ، فقال في ذلك ﷺ : [الكامل]

رَضِيَ المُتَيَّمُ في الهَوَى بجُنُونِهِ ... خلُّوه يُفْنِي عُمْرَهُ بفُنُونِهِ[1]
لا تعذلُوهُ فليسَ ينفعُ عَذلُكُمْ ... ليس السُّلوُّ عَنِ الهَوَى مِنْ دِينِهِ
قَسَمًا بِمَنْ ذُكِرَ العقيقُ مِنَ أجلِهِ ... قَسَمَ المحبِّ بحبِّهِ وَيَمِينِهِ
مَا لي سِوَاكُمْ غَيْرَ أنِّي تَائِبٌ ... عَنْ فَاتِرَاتِ الحُبِّ أو تلوينِهِ

فتركَهُم وأقْبَل على الله ، وأعْرَض عن قولهم ، ولَمْ يُبَالِ بنفعهم وضُرِّهم، وهذا شأنُ المحبِّين الفناءُ في الله ، والغَيْبَةُ عمَّا سِوَاه ، وقال بعضُ الصُّوفية : إنَّه احْتَالَ على الخلَاصِ مما أُريدَ منه مِنَ القَضَاءِ بِأَنْ حَلَقَ لِحْيَتَه وحَواجِبَه ، وخَضَبَ أطرافَه بالحِنَّاء ، ولَبَسَ ثيابًا مُعَصْفَرة ومُزَوَّقة ، وأتَوْه بِبَغْلةٍ فَرَكِبَها وذَهَبَ إلى السُّلطان الذي سَامَه بذلك على هذه الحال ، فلَمَّا رآه كذلك قال : أَخرِجُوه عنِّي ، فلا حاجة لنا بمثل هذا الأحمقِ ، فَأَخرَجُوه وذَهَبَ ، فخَرَجَ مِنَ البَلَدِ مِنْ وَقْتِه ، وأَخَذَ عَنِ الشَّيْخِ أبي محمد عبد الحق [بن] إبراهيم الشَّهير بابن سَبْعين المكِّي ، ثُمَّ الغافِقي النسب الأندلسي ، ثُمَّ المُرسي البلد ، ثُمَّ المتوفَّى بمكة في شوَّال سَنَة سَبْع بتَقْديم السين ، وستِّين وستُّمائة ، عَنْ نَحْوِ خَمْسِين سَنَة ، وهُوَ عُمْدَتُه مِنَ الشُّيُوخِ الذين لَقِيَهُم ، لا يَنْتَسِبُ في الطريق إلَّا إليه ، ولا يَعْتَمِدُ في سُلُوكِه إلَّا عليه .

وكان ابن سبعين دُونَه في السِّن ، ويُذْكَر أنَّه لَمَّا لَقَيَه وهُوَ قاصِدٌ إلى

(١) الديوان ٧٧ .

بعض المشايخ لِيأْخُذَ عنه ، قال له : إنْ كُنْتَ تُريدُ الجنَّةَ فَشَأْنُكَ وَمَنْ قَصَدتَ، وإنْ كُنْتَ تُريدُ رَبَّ الجنَّةِ فَهَلُمَّ إلينا ، وكأنَّه إلى تلك أَشَارَ بقوله في مَطْلَعِ نُونيَّته المذكورة : « أرى طالبًا .. البيت » إذ الحُسْنَى الجنَّة ، والزيادةُ : مقامُ النظر .

وذَكَر القاضي أبو العباس الغَبْريني في كتابه « عنوانُ الدِّرايةِ المؤلَّف في علماء بجاية » ، أنَّ كثيرًا مِنَ الشيوخ كانوا يُرجِّحُون الشُّشْتري على شَيْخِه ابن سبعين ، وذَكَرَ بعضُ الشيوخ في ترجمة كلٍّ منهما أنَّهما من أهلِ الوَحْدة المطلقة ، وقاله قبله ابن خلدون في جوابه المذكور قبل ، وتعرَّض فيه لشرح الوحدة المذكورة ، إلى أن قال: وهذان الشَّيْخان ممن اختلَفَتْ فيهم الأقوال ، وتباينت فيهم الآراء ، تباينًا خارجًا عن حَدِّ الاعتدال ، فمِنْ مُخْطِىءٍ مُنْتَقِدٍ يُخْرِجُهم عَنْ الدائرة الإسلامية ، ومِنْ مُتَصَوِّفٍ معتقِد يُثْبِتُ لهم القُطْبانية ، والعِلْمُ بحقائقِ الأمُور عند مَنْ يَعْلَمُ خائنةَ الأعْيُنِ ومَا تُخْفِي الصُّدُورُ .

إذْ لا يُنْكِرُ أحْوالَهم الربَّانيةَ وحقائقَهُم العِرْفانية إلَّا قَاصِرٌ ، ولَا الْتِفَاتَ إلى كلامِ أَبي حَيَّان فيهم ، في نَهْرِه ، والبُرهَان البِقَاعِي في تأليفِهِ في ابن الفارض ، وأشباهِهما من أهلِ الظَّاهِرِ الصِّرْفِ ، فإنَّهم لَمْ يَشُمُّوا لطريق القوم رائحةً حَتَّى يَعْرِفُوا أَحْوالَهُم ، ويَفْهَمُوا مَقَاصِدَهُم ، وإنَّما يرجِعُ في كلِّ صناعةٍ إلى أهلها وذَوِي الخِبْرَة بها ، ورَحِمَ اللهُ الشَّيْخ أبا الحسن علي بن أبي القاسم الدوكالي المشرباوي دَفِينَ داخِلِ مُرَّاكُش ، بقُرْبِ جَامِعِ الكُتُبِيَّةِ منها، المعروف بأبي سَجْدة ؛ لأنَّه كان يَقْطَعُ اللَّيْلَ كُلَّه بِسَجْدةٍ واحِدَةٍ ، بمعنى أنَّه إذا صَلَّى فيه نافلةً فسجدَ غابَ فلَمْ يَرْفَعْ رِأْسَه ، ولَمْ يَزِدْ عليها لاستغراقِه ، إذْ قال لِمَنْ قال له مِنْ إخوانِه : إنك لَتُفْسِدُ الصَّلَاة ، يعني بها ذَكَرَه اقتصارُه على سجدة، فأُرِيدُ أنْ أَستفتي فيك، وأسألُ عن أمرك، [قال:] مَنْ تَستفتِ؟ قال له : الفقهاء . فقال : أنا لا أمشي بِحُلَّةِ البَرْذعيسي قد رُقِّعَتْ بعدَه بزَمَان

إلى حَاكَةِ الدِّيباج ، ولبسْتُ السُّنْدُس، فقال فيها ما نصُّه : « وأمَّا سجدةُ سيدي علي المذكور ، فكانت حالةً غالبةً عليه ، لا يستطيعُ الزيَّادةَ عليها ؛ لأنَّه كان يَذْهَبُ في الله ، وتَسْتَغْرِقُه مادَّةُ الله ، كالغريقِ الذي لا يستطيعُ السَّبْحَ في البَحْر ، ولذلك تخلَّى عن ذلك لمَّا تكمَّلَ وتَقَوَّى بمادَّةِ التَّمكين ، فصار بعد ذلك بَرْزَخًا بين بَحْرَيْن لَا يَبْغِيَان ، لرُسُوخِه فَلَا يَشْغَلُه شأنٌ عن شَأن ، كما هو شَأْنُ أَهْلِ الكَمَال » . اهـ .

قال في نفح الطيب : « وَلَمَّا وَصَلَ الشُّشْتري مِنَ الشام إلى ساحِل دمياط وهو مريضٌ بمرضِ مَوْتِه ، نَزَل بقريةٍ بسَاحِلِ البَحْرِ الرُّومي ، فقال: ما اسم هذه القرية ؟ فقيل له : الطِّينة ، فقال : حنَّت الطِّينةُ إلى الطِّينةِ ، وأوصى أنْ يُدفَنَ [في] مقبرة دمياط » ، قال : « وقد مات دونها بثمانية عشر ميلًا ، فحمَلَهُ الفقراءُ على أَعْناقِهم ، حَتَّى أوصلُوهُ إليها ، ودفَنُوه بها ، وكانت وفاتُه في صَفَر سَنَة ٦٦٨ ، ثمان وستين وستمائة » . اهـ .

والذي نقلَهُ الشَّيْخُ سيدي أحمد زرُّوق في « شرح النُّونية » عن ابن لِيُون في اختصاره للرسالة العلمية للشُّشْتري ، أنه دُفِن بالطِّينة على مقرُبةٍ من دمياط ، قال : وقد مات دونها بثمانية عشر ميلًا ، فحمله الفقراء على أعناقهم ، حَتَّى أوصلوه إليها ، وقد كان سُئل بقُرْبِ ذلك : مَنِ الفقير ؟ فقال : الذي يمشي بعد موتي ثمانية عشر ميلًا ، فكان كما ذُكِر . ثُمَّ أَرَّخَ وفاتَه بنحو ما في « نفح الطيب » .

وذكر غيرُه أيضًا في طبقاته في أهل القرن السابع ، واصفًا له بمثل ما ذَكَرْنا ، مِنَ العِرْفان والأَخْذِ عن ابن سبعين ، وصُنْعِ الموشَّحات والأزجال، ونَظْم النُّونية المذكورة ، غير أنه قال : إنه دُفِنَ بقرافة مصر ، وقَبرُه بها ظاهرٌ يُزار ، فانظر ذلك ، والأَوَّلُ هو الذي عند غَيْرِ واحد ، فهُوَ المعتمدُ . اهـ .

حكى قول مولانا عبد السَّلام :

بالله بالله رءوف بحالي   يا شُشْتري يا بو قبرين[1]

... إلخ ما قال .

لأنَّ الشَّيْخَ الشُّشْتري لَمَّا حَضَرَتْهُ الوفاة ، أوصى والدتَه قال لها : إذا قُبِضْتُ يأتي إليكِ رَجُلَان بِكَفَنِي وَحَنُوطي ، فَمُرِيهِمْ بِتَجْهِيزي وتَكْفِيني ، فإذا جَهَّزُوني وَوَضَعُوني في المَدْرَج ، فَاعْطِ لكلِّ واحِدٍ منهما ما طَلَبَ منكِ ، وهو الذي أُوصِيكِ بِهِ ، فالمُرَقَّعة والجِرَاب والقَلَنْسُوة وما أشبهَ ذلك اعطيهما إياهما ، وإذا وضعُوني في المصلَّى وأرادوا الصَّلاة عليَّ يأتي أهلُ القرية بأسلحتهم ؛ لأنَّهما على فرق ، فلمَّا يُقيموا الصَّلاة ويُكَبِّرُ الإمَامُ ويَشْرَعُ في الصَّلاة عليَّ يأتي مِنْ قِبَلِ الله نَعْشٌ آخر ، فلمَّا تَتِمُّ الصَّلاةُ ويقولُ الإمام : السَّلام عليكم فكُلُّ فِرْقَةٍ مِنَ القرية ترفع نعشي ويُدْفَنُ عندهُم ، تَبْقى تَزُورينَ هذا القَبْرَ ، وهذا القَبْرَ ؛ لأنكِ لا تدرِينَ أَيُّهُما .

قالت له والدتُه : ما السببُ في ذلك ؟ قال : لو كُنْتُ حِينَ قُبِضْتُ وأرادوا الصَّلاة عليَّ لاقْتَتَلَ الفريقان ، لكنَّ اللهَ - تبارك وتعالى - وعدَني بذلك ، وفي مُقَطَّعاتِ الشَّيْخِ - الذي هو مولانا عبد السَّلام - أن له - أي للشُّشْتري - موضعين وقبرين ، كما يُشير بذلك في تعظيمه ، وفي التَّوَسُّل به إلى الله .

بالله بالله رؤف الحــــالي   يا شُشْتري يـا بُـو قَـبْرين
بالله بالله اشـــرح بـــالي   أَنْتَ وشيخك ابن سَبْعين

... إلى آخر ما قال .

(١) ذكر أخي الدكتور عبد الإله بن عرفة أنه وقف على قبره في القاهرة سنة ٢٠٠٧م ، فقد يكون دُفن أولًا في الطِّينة ، ثم نُقل جثمانه إلى القاهرة ، وذلك يطابق إشارة الشيخ الأسمر في بيته المذكور .

والكلام على هؤلاء القوم الذين هُمْ : الشَّيْخ حُسَين الحَلَّاج ، وابن العربي الحاتمي ، وابن الفارض ، وابن سَبْعين ، والشُّشْتري طويلٌ عريضٌ ، يُخْرِجُنا إيرادُه عن المقصود ، فراجع كبيرنا ، فقد أشبعنا فيه الكلام في تعظيمهم ، والتَّسْلِيم لهم . اهـ . وفي هذا القدر كفاية ، أعني الذي هو شَرْحٌ على قول الشَّيْخ :

رَقَّ قلبي لِكَرِيمِ الكُرَمَــا   حَلَّاجِنَــا المَنْعُــوتْ
يَا لَيْتَنِي كُنْتُ معـه عِنْدَمَا   أفْتَــوا بِرَسْـمِ المَــوتْ

... إلخ .

واعْلَمْ يا أخي أنَّ تحت كلِّ كلمةٍ من مقطَّعات الشَّيْخ أدبَ كلام ، ولو أنَّك تأمَّلْتَها وتَدَبَّرْتَها وجدتها كُلَّها تَوْحيدًا ، أو فِقْهًا أو تَصَوُّفًا ، أو ذِكْرًا ، إنَّه ما نَطَقَ بحرفٍ منها إلَّا بإذن الله ورسوله ﷺ ، لا في الابتداء ولا في الانتهاء ، ولولا ضيقُ الوَقْتِ ، وقَصْرُ العُمُر ، وفَسَادُ الزمان ، لشَرَحْتُ كلَّ ما يوجَدُ منها ؛ لأنَّ تحتَ كُلِّ حَرفٍ منها أدبَ كلام ، لا يخفى على ذوي البصائر النافِذَةِ ، ولها معنيان : ظاهرٌ وباطنٌ ، ولا يَعرفُ كلامَ الوَليِّ إلَّا الوليُّ ؛ لأنَّ كلامَ الأولياءِ والعلماءِ مُنْطَوٍ عَلَى أسرارٍ مَصُونَةٍ ، وجَوَاهِرَ مكنونَةٍ ، لا يَكْشِفُها إلَّا هُمْ ، ولا تَتَبَيَّنُ حقائقُهَا إلَّا بالتَّلَقِّي عنهم ، اللهم إنَّنا نتوسَّلُ إليك بحبِّهِم ، فإنَّهم أَحَبُّوكَ ، ولَمْ يُحِبُّوكَ حَتَّى أَحَبَبْتَهُم ، فَبِحُبِّكَ إيَاهُم وَصَلُوا إلى حُبِّك ، وَنَحْنُ لَنْ نَصِلَ إلى حُبِّهِم فِيكَ إلَّا بِحَظِّنَا مِنكَ ، فَتَمِّمْ لنا ذلك ، حَتَّى نَلْقَاك ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين ، وصَلَّى اللهُ على سيدنا محمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيِّين ، وعلى آلِه الطَّيِّبين الطَّاهرين ، وَتَابِعِيهم بِإِحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّين ، وسَلِّمْ عَلَيْهِمْ كثيرًا ، وَبِالله التَّوفِيق والهِدَاية إلى سَوَاءِ الطريق .

* * *

الفصل الثالث

في ذكر شيء من مناقبه ووفاته

واستخلافه لسيدي عمر بن محمد الشهير بأبي جحا[1]

اعْلَم أنَّ كرامات هذا الشَّيخ - الذي هو مولانا عبد السَّلام - كثيرةٌ جدًا ، لا يحصيها إلَّا الله ﷻ ، في حياته وبعد موته ، ومَنْ كَذَّب فليجرِّبه ، بأنْ يتوجَّه إليه في شدائده ، بصدق هِمَّةٍ على نحو ما نصَّه في نصائحه ؛ من ابتدائه برفعها إلى الله ، ثُمَّ إلى رسوله ﷺ ، ثُمَّ للشَّيْخ ، ولعبادِ الله الصَّالحين، فإنَّه يحصل لهُ من ذلك الكرامات ما يراهُ مشاهَدَة بلا خفاء .

واعْلَم أنَّ أعْظَم الكراماتِ عند الله وعند عباده الصَّالحين اتِّباع سُنَّةِ سيِّدِ الأوَّلين والآخِرين ، سيدنا محمدٍ ﷺ ، في إتيان أوامر شَرْعِه ، واجتنابِ نواهيه ، قال العلماءُ : الكرامةُ الحقيقيةُ إنما هي حصولُ الاستقامةِ ، والوصولُ إلى كمالِها ، ومرجعُها إلى أمرين : صِحَّةُ الإيمان بالله ﷻ ، واتِّباع ما جاء به رسول الله ﷺ ، ظاهرًا أو باطنًا ، فالواجب على العبد أنْ يحرص عليهما ، فلا يكون لهُ هِمَّةٌ إلَّا في الوصول إليهما[2] .

---

(١) ترجم له أيضًا في الفصل الخامس الذي لم ينشر في هذا المجموع .

(٢) ذلك هو التصوف الصحيح الذي عرفته الأمة من مصادرها الصحيحة ، ولو لم يكن في الكتاب إلَّا هذه المقدمة لكفاه فضلًا .

وأمَّا الكرامةُ بمعنى خَرْقِ العادةِ فلا عِبْرَة بها عند المحقِّقين ، إذْ قد يَرَوْنَ ذلك لِمَنْ لَمْ تكمُل لَهُمُ الاستقامةُ ، قال سيدُنا أبو الحسن الشاذلي ﷺ : « إنما هما كرامتان جامعتان مُحيطتان : كرامةُ الإيمان بمزيدِ الإيقان ، وشُهودِ العيان ، وكرامةُ العملِ على الاقتداءِ والمتابعةِ ومُجانبة الدعاوى والمُخادَعة ، فمَنْ أُعطيهما ثُمَّ جعلَ يشتاقُ إلى غيرهما ، فهو مُفْتَرٍ كذَّابٌ ، أو غيرُ ذي حَظٍّ في العلمِ والعملِ بالصواب، كمَنْ أُكْرِم بشُهودِ المَلِك على نَعْتِ الرِّضا ، فجعل يشْتاقُ إلى سياسةِ الدَّوَاب وخَلْعِ العَرَضي .

وكُلُّ كرامةٍ لا يصْحَبُها الرِّضا عن الله ومِنَ الله فصاحِبُها مغرورٌ ، ناقصٌ وهالكٌ مثبورٌ . وقال سيدي أبو العباس المرسي ﷺ : « ليس الشَّأنُ مَنْ تُطوى لهُ فإذا هو بمكَّةَ وغيرِها ، إنما الشَّأنُ مَنْ تُطوى عنه أوصافُ نفسه، فإذا هو عندَ ربِّه . وقال بعضُ المشايخ : قيل لأبي محمدٍ المرتَعِش ﷺ : إنَّ فلانًا يمشي على الماء ، فقال : عندي مَنْ مَكَّنَهُ الله مِنْ مخالفةِ هواه أعظمُ مِنْ المشي على الماءِ وفي الهواءِ » . وقال أبو يزيد ﷺ : « لو أنَّ رجُلًا بَسَطَ مُصَلَّاةً على الماءِ ، وتَربَّع في الهواء ، فلا تغترُّوا به حَتَّى تَنْظُروا كيف تَجِدُونَهُ في الأمْرِ والنَّهْيِ » .

وقيل لهُ : فلانٌ يُقال إنه يمُرُّ في ليلةٍ إلى مَكَّة ، فقال : الشَّيْطانُ يمُرُّ في لَحظَةٍ من المشرِقِ إلى المغرِبِ ، وهو في لعنةِ الله . وقيل لهُ : « إنَّ فلانًا يمشي على الماء ، فقال : الحيتانُ والطَّير في الهَواء أعجَبُ مِنْ ذلك » . وقال الجُنَيد ﷺ : « المريدُ الصَّادقُ مَنْ يخرقُ مِنْ نفسِه العوائد ؛ لأنَّ خَرْقَ العوائد الذي خُرِقَ للأَوْلياءِ بانكشافِ معالمِ القُدْرَةِ لا يُكْرِمُ الحق - تعالى - به إلَّا مَنْ خَـرَقَ عوائد نفسِه ، وفَنِيَ عن إرادته وحظُوظِه ، فمَنْ لَمْ يصـل إلى هـذا المقام لا يَطْمَعُ فيها ، فإنْ ظهرَ لهُ ما صورتُه صورةُ الكرامة ينبغي لهُ أنْ

يخافَ عند ذلك من الاستدراج والمَكْرِ، ولا يُحِبُّ ذلك ولا يَطْلُبُه، فإنْ أَحبَّهُ أو طَلَبَه فَهو دليلٌ على إرادته وحظُوظِه وعادتِه، فكيف تخرقُ العوائد لِمَنْ هذه صفتُه على سبيل الكرامة؟ وهل هذا إلَّا محالٌ لا يستقيم».

وَاعْلَمْ أنَّ الوصولَ إلى الله - تعالى - الذي يُشيرُ إليه أهلُ هذه الطريقةِ، هو الوصولُ إلى العلمِ الحقيقيِّ بالله - تعالى -، وهذا هو غايةُ السَّالكين، ومُنتهَى السَّائرين، وأمَّا الوصولُ المفهومُ بين الذَّواتِ فهو متعالٍ عنه. وقال الجُنَيد ﷺ: «متى يَتَّصِلُ مَنْ لا شَبِيهَ لهُ ولا نَظِيرَ لهُ بها لهُ شَبِيهٌ ونَظِيرٌ، هيهاتَ هذا ظَنٌّ عَجِيبٌ، إلَّا بها لَطَفَ اللَّطِيفُ من حيث لا دَرَكَ ولا وَهَم ولا إحاطة، إلَّا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان».

قال الشَّيْخُ أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله السُّهروردي، صاحب كتاب «عوارف المعارف» - رحمه الله -: واعْلَمْ أنَّ الاتصال والمُوَاصَلةَ أشارَ إليهما الشيوخُ، وكلُّ مَنْ وصلَ إلى صَفْوِ اليقين بطريق الذَّوقِ والوِجْدان فهو رُتْبَةٌ في الوصول ثُمَّ يتفاوتون، فمنهم مَنْ يجد الله بطريق الأفعال، وهي رُتْبَةٌ في التَّجَلِّي، فَيُفْنِي فعلَه وفعلَ غيرِه؛ لوقوعه مع فِعْلِ الله - تعالى -، ويخرج من هذه الحالة من التَّدبير والأفعال، وهذه رُتْبَةٌ في الوصول، ومنهم مَنْ يقف في مقام الهيبة والأُنس بها يُكاشف قلبه من مطالعة الجلال والجمال، وهذا تجلِّي بطريق الصِّفَة، وهو رُتْبَةٌ في الوصول. ومنهم مَنْ يَرْقى إلى مقام الفناء مشتملًا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مَغْنيٌّ في شهوده عن وجوده، وهذا ضربٌ مِنْ تجلِّي الذات لخواصِّ المُقَرَّبين، وهذه رُتْبَةٌ في الوصول.

وفوق هذا رُتْبَةُ حقِّ اليقين، ويكون مِنْ ذلك في الدُّنْيَا لَمحٌ، وهو سَرَيَانُ نور المشاهدة في كُلِّيَةِ العبد، حَتَّى يحظى بها روحه وقلبه ونفسه حَتَّى

قالبه ، وهذا من أعلى رُتَبِ الوصول ، فإذا تحقَّقت الحقائقُ يعلم العبد مع هذه الأحوال الشَّريفة أنَّه في أوَّل المنازل ، فأين الوصول ؟ هيهات منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي ، فكيف في العمر القصير الدُّنْيَوي .

واعْلَمْ أنَّ القُرْبَ الحقيقيَّ قُرْبُ الله ، منذ قال الله – تعالى – : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة ١٨٦) ، وقال – تعالى – : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ (الواقعة ٨٥) ، وقال – عَزَّ مَنْ قائل – : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق ١٦) ، وحظُّكَ من ذلك إنما هو مشاهدتك لقُرْبِه فقط ، فتستفيد بهذه المشاهدة شدَّة المقاربة ، وغلبة الهيبة ، والتَّأدُّب بآداب الحَضْرَة ، وأمَّا أنت فلا يليق بك إلَّا وصف البعد وشهوده من نفسك ، كما يقول ابن عطاء الله في هذا المعنى : « إلٰهي ما أقربَكَ منِّي وما أبعدَني عَنْكَ » . وكما قال أيضًا « ليس كلُّ مَنْ ثَبَتَ تخصيصُه كَمُلَ تخليصُه » .

قال ابن عبَّاد : « التَّخصيصُ هاهنا أنْ يُظهرَ الحقُّ – تعالى – على بعض عبادِهِ أَثَرَتَه وعنايتَه ، ويُوليه لُطْفَه ورِعَايتَه ، فمنهم مَنْ يستمر لهُ ذلك ، حَتَّى يتحقَّقَ بالعرفان ، ويتخَلَّصَ عن رؤية الأَغْيار والأكوان ، وهؤلاء هم خواصُّ المقرَّبين ، أهلُ العِلْمِ بالله ، والحُبِّ لهُ ، ومنهم مَنْ يُوقِفُه عن بلوغ ذروة الكمال ، ويُريه في حاله بما يَليقُ بِهِ مِنْ عمومٍ وأعمالٍ ، وهؤلاء عامَّة المقرَّبين ، وخاصَّة أصحاب اليمين ، العُبَّاد ، والزُّهَّاد ، وأهل المعاهدة ، والأَوْرَاد[1] ، وهؤلاء شارَكُوا الأوَّلين في ما يُتْحِفُهُم الحقُّ مِنَ اللَّطَائفِ والكرامات ، وفي ما يمنحهم إياه من القيام بوظائف الطَّاعات والعبادات ،

(١) في الأصل : الأولاد .

فلَمْ يتخلَّصوا من رؤية نفُوسِهم ، ولَمْ ينفكُّوا من مراعاة حظُوظِهم ، بل هُمْ ساكنون إلى الأسباب ، مُغْتَبِطُون بوجود حِجَاب .

وقد يختصُّ الحقُّ - تعالى - هؤلاء بإظهار الكرامات على أيديهم ، وبسببهم ، تسكينًا لنفوسهم وتثبيتًا لليقين في قلوبهم، ويمنعها الأوَّلين ؛ لأنَّهم لا يحتاجون إليها، لِمَا هُمْ فيه من الرُّسوخ في اليقين، والقُوَّة والتَّمكين، - كما قال صاحب كتاب « عوارف المعارف » - وقد يكون مَنْ لا يُكاشَفُ بشَيءٍ مِنْ معاني القَدَرِ أفضلُ ممَّنْ يُكاشَفُ بها ، إذا كاشفه الله - تعالى - بعرف المعرفة ، فالقدرة أثَرٌ من القادر ، ومَنْ أُهِّل لقُربِ القادر لا يستغربُ ولا يستكثرُ شيئًا مِنَ القدرة ، ويرى القدرة تتجلَّى لهُ من سَجَفِ أجزاء عالَمِ الحكمةِ .

وسئل الشِّبْلي ﷺ ، وقيل لهُ : إنَّ أبا تراب ذَكَرَ أنَّه جاع في البادية فرأى الباديةَ كلَّها طعامًا ، فقال : عبدٌ رُفِقَ به ، ولو بَلَغَ مَحَلَّ التَّحقيق لكان كمَنْ قال : « إني لأظَلُّ عند ربي يطعمني ويسقيني » . قال في « لطائف المنن » : « واعْلَمْ أنَّ الكرامة تارةً تَظهرُ للوليِّ في نفسه ، وتارةً تَظهرُ منه لغيره ، فإنْ ظهرت للوليِّ في نفسه فالمراد تعريفه بقدرة الله ، وفَرْدِيَّته وأَحَدِيَّته ، وأنَّ قُدرته لا تتوقَّفُ على الأسباب ، وأنَّ العوائد هو حاكمٌ عليها ليست هي حاكمةٌ عليه ، وإنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حُجُبَ قُدرته ، وسُحُبَ شمس أَحَادِيَّته ، فواقف عندها المخذول ونافذ منها إليه وبالعناية الموصول » .

قال : وقال الشَّيْخ أبو الحسن ﷺ : فائدةُ الكرامة تعريفٌ باليقين مِنَ الله - تعالى - بالعِلْم والقُدرة والإرادة والصِّفات الأزلية ، بجمعٍ لا يفترق، وأمْرٍ لا ينفد ، كأنَّها صفةٌ واحدةٌ قائمةٌ بذات الواحد ، يستوي مَنْ تَعَرَّفَ

الله إليه بنوره ، كمَنْ تَعَرَّف إلى الله بعقله ، ولأجل أنَّها تثبيتٌ لِمَنْ ظهرت لهُ، رُبَّما وجدها أهل البدايات في بداياتهم ، وفقدها أهل النِّهايات في نهاياتهم ؛ لأنَّ ما عليه أهل النِّهاية مِنَ الرُّسوخ في اليقين والقُوَّة والتَّمكين ، لا يحتاجون معه إلى مُثْبِتٍ ، وهكذا كان السَّلفُ ﷺ لَمْ يحوجهم الحقُّ – سبحانه – إلى وجود الكرامات الحِسِّيَّة ، لما أعطاهم مِنَ المعارف الغيبيَّة ، والعلوم الإشهاديَّة ، ولا يحتاج الجبل إلى مرساة ، فالكرامةُ رافعةٌ لزلزلة الشَّكِّ في المنَّة ، ومُعَرِّفةٌ بفضل الله – تعالى – ، فمَنْ ظهرت عليه شَهِدَتْ لهُ بالاستقامة مع الله – ﷻ – .

والناس في الكرامات ثلاثة أقسام : قومٌ يجعلونها غايةَ الأمْرِ ، فإنْ وجدوها عظَّمُوا مَنْ ظهرت عليه ، وإنْ فقدوها لَمْ يتوجَّهوا بالتَّعظيم إليه ، وقسمٌ قالوا : ما هي الكرامات ؟ إنما هي خدعٌ يُخدَعُ بها أهلُ الإرادة ، ليقفوا على حدودهم ، وحَتَّى لا يَلِجُوا مقامًا ليس هُوَ لَهُم . قال أبو تراب النَّخَشي لأبي العباس الرَّقِّي : ما يقول أصحابُك في هذه الأمور التي تكَرَّم الله بها على عباده ؟ فقال: ما رأيت أحدًا إلَّا وهو مؤمنٌ بها، فقال أبو تراب: ما سألتُك عن مَنْ لَمْ يؤمن بها ، وإنَّما سألتُك مِنْ طريق الأحوال ، فقال : ما أعرف لهم قولًا، فقال أبو تراب : بل قد زعمَ أصحابُك أنها خدعٌ من الحقِّ، وليس الأمر كذلك ، إنَّما الخدعُ في حال السُّكون إليها ، فأمَّا مَنْ لَمْ يفرح بها، ولَمْ يُساكنها، فتلك مرتبةُ الربانيين، وكان هذا أمر أبي تراب بعد أن عَطَشَ القوم، وهم أصحابُه ، فضربَ بيده الأرض ، فنبَعَ الماءُ ، فقال فتى : أُريدُ أنْ أشرَبه في قدحٍ ، فضربَ بيده إلى الأرض فناولَه قَدحًا من زجاجٍ أبيض ، فشَربَ وسقانا . قال أبو العباس الرَّقِّي : وما زال القدحُ معنا إلى مكة . قال الشَّيْخ أبو الحسن : والفصلُ في ذلك أنَّه لا ينبغي أنْ تَطْلُب أدبًا مع الله – تعالى – ، ومَنْ ظهرت عليه عُظِّم ؛ لأنَّها شاهدةٌ لهُ بالاستقامة مع الله – تعالى – .

قال : والقسم الثاني ، وهو أنْ تَظهر الكرامةُ في الوليِّ لغيره ، فالمراد بذلك تعريف ذلك الذي شهدها بصحَّة طريق هذا الوليِّ الذي ظهرت عليه الكرامة ، إمَّا أن يكون جاحدًا فيرجع إلى الاعتراف ، أو كافرًا فيعود إلى الإيمان ، أو شاكًّا في خصوصية هذا العبد فظهرت عليه ليعرِّفَكَ الله بما فيه من ودائع الإحسان . اهـ كلامه .

وقال أبو نصر السرَّاج : سألتُ أبا الحسن بن سالم ، فقلت لهُ : ما معنى الكرامات ، وهُم قد أُكرموا [حين][1] تَركوا الدُّنْيَا اختيارًا ؟ وكيف أُكرموا بأنْ تُجعَلَ لهم الحجارةُ ذهبًا ؟ فما وجه ذلك ؟ فقال : لا يُعطيهم ذلك لقدرها ، ولكن يُعطيهم ذلك حَتَّى يَحْتَجِبُوا بكون ذلك على نفوسهم عند إضرابها ، وجزعها مِنْ فَوْتِ الرِّزْقِ الذي قَسَمَه اللهُ لهم ، فيقولون : الذي يقدرُ على أن يصيِّر لكَ الحجارةَ ذهبًا كما هو ذا تَنْظُرُ إليه ذهبًا ، أليس بقادرٍ أنْ يسوق لكَ رزقَك من حيثُ لا تحتسب ؟ فَتَحْتَجِبُ بذلك على صحيح نفوسهم عند فَوْتِ الرِّزْقِ لها .

قال أبو نصر : وقد حَكى لنا ابن سالم في معنى ذلك حكايةً عن سَهْل ابن عبد الله ﷺ أنه قال : كان رجلٌ بالبصرةِ يُقال لهُ إسحاق بن أحمد ، وكان من أبناء الدُّنْيَا ، فخَرَجَ من الدُّنْيَا أعْني من جَميع ماله ، وتابَ وصَحِبَ سَهْلًا ، فقال يومًا لسَهْل : يا أبا محمد إنَّ نفسي هذه ليسَتْ تَتْرُكُ الضجيجَ والصُّرَاخَ مِنْ خوف فَوْتِ القُوتِ والقِوَام . فقال لهُ سَهْل : خُذْ ذلك الحجَرَ وسَلْ ربَّك أنْ يُصَيِّرَهُ لكَ طعامًا تأكُلَهُ ، فقال لهُ : ومَنْ إمَامي في ذلك حَتَّى أَفْعَلُ ؟ فقال سَهْل : إمامُك إبراهيم عليه السلام ، حيث قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾

(١) في الأصل : حتى .

(البقرة ٢٦٠) . المعنى في ذلك أنَّ النَّفْسَ لا تطمئنُّ برؤية العين ؛ لأنَّ مِنْ جُملتها الشَّكُّ . فقال إبراهيم : رَبِّ أرني كيف تَطْمَئِنُّ نفسي فإنِّي مؤمنٌ بذلك، والنَّفْسُ لا تَطْمَئِنُّ إلَّا برؤية العين ، قال : فكذلك الأولياء يُظْهِرُ الله لهم الكرامة تأديبًا لنفوسهم ، وتهذيبًا لها ، وزيادةً لهم . اهـ كلام أبي نصر .

وقال بعض العلماء : ما رأيتُ هذه الكرامات إلَّا على أيدي البُله مِنَ الصِّدِّيقين ، وكان رجُلٌ يصْحَبُ سَهْلَ بن عبد الله ﷺ ، فقال لهُ يومًا : رُبَما أتوضَّأُ للصَّلاةِ ، فيسيلُ الماءُ من بين يَدَيَّ قُضبانَ ذهب ، وقُضبانَ فضَّة ، فقال سَهْلُ : أما علمت أنَّ الصِّبيانَ إذا بكوا أُعطوا خُشخاشةً ليشتَغِلُوا بها . وفي حكاية جعفر الخلدي عن الجُنَيد ﷺ قال : جاءَني أبو حفص النيسابوري مرَّةً ومعه عبد الله الرِّبَاطي ، وجماعةٌ ، وكان فيهم رجلٌ أصلعُ قليلُ الكلام ، فقال يومًا لأبي حفص : قد كان فيمن مضى لهم الآياتُ الظَّاهرة يعني بها الكرامات ، وليس لك شيءٌ من ذلك ، فقال لهُ أبو حفص - رضي الله تعالى عنه - : تَعَالَ معي ، فجاء به إلى سوق الحدَّادين ، إلى كيرٍ عظيمٍ ، فحمَى فيه حديدةً عظيمةً ، فأدخل يدهُ في الكير ، فأخذَ الحديدةَ المُحمَّاة ، فأخرجها فبردَتْ في يده ، فقال لهُ : يُجْزِيك هذا ؟ فسُئل بعضُهم عن معنى إظهار ذلك من نفسه ، فقال : كان مشرفًا على حاله ، فخشي على حاله أن يتغيَّرَ عليه ، إن لَمْ يُظهر لهُ ذلك من نفسه ، فخصَّه بذلك شَفقةً عليه ، وصيانةً لحاله ، وزيادةً لإيمانه بل رُبَما يَفِرُّ عنها العارفون ، ويخاف منها المحقِّقون .

قال بعض السَّلف : أَلطفُ ما يُخادَع به الأولياءُ الكراماتُ والمَعوناتُ ، وذُكِرَ عن أبي حفص أو غيرِه أنَّه كان جالسًا وحوله أصحابُه ، قال : فنزلَ ظَبْيٌ مِنَ الجبل فَبَرَكَ عندهم ، قال : فبكى أبو حفص ، فسُئل عن بكائه ،

فقال: كُنتُم حَوْلي فوقعَ في قلبي أن لو كان لي شاةٌ لذُبِحَتْ لكم، فلمَّا بَرَك الظَبْيُ عندنا تشبهَتْ نفسي بفرعون، حين سأل الله - تعالى - أنَّ معه النِّيلَ فأجراه معه، وسألتُه الإقالةَ مما تَمَنَّيْتُ وسَبَّبْتُ الظَبْيَ.

ويُحكى أنَّ بعض الأبدال قال لتلميذٍ من تلاميذ الشَّيْخ أبي مَدْيَن ﷺ: ما بالُنا لا يُغْتَاصُ علينا شيء؟ وهو يُغْتَاصُ عليه أقل الأمور، مع أننا نتمنى مقامَه، ولا يتمنَّى مقامَنا، فبلغ ذلك الشَّيْخَ أبا مَدْيَن فقال: قل لهُ: تَرَكْنا مُرَادَنَا لمرادِه. وعن بعضهم أنَّه كان يسير في البادية، فانتهى إلى بئرٍ، فإذا الماءُ ارتفع إلى رأسِ البئر، فقال: أنا أعلَمُ أنَّك قادرٌ على هذا، ولكنْ لا أُطِيقُ، فلو قَيَّضْتَ لي بعضَ الأعْرَابِ ليصْفَعَني صَفْعَاتٍ، ويَسْقِيني شَرْبةَ ماءٍ، كان أسْلَمَ لي، ثُمَّ أعلمُ أنَّ ذلك الرِّفقَ ليس مِنْ جِهَتِه.

وقال يحيى بن معاذ ﷺ: إذا رأَيْتَ الرَّجُلَ يُشير إلى الآياتِ والكراماتِ فطريقُه طريقُ الأبدال، وإذا رأَيْتَه يُشيرُ إلى الذِّكْرِ، ويكونُ مُعلَّقًا بالذِّكْرِ الذي ذُكِر فطريقُه طريقُ العارفين، وهو أعلى درجةً من جميع الأحوال، قال أبو يزيد ﷺ: كُنْتُ في بدايتي يُريني الحقُّ - تعالى - الآياتِ فلا أَلْتَفِتُ إليهـا، فلمَّا رآني كذلك جعل لي إلى معرفته سبيلًا. إلى أن قال: لا يَعْرِفُ الوليَّ إلَّا الوليّ، والله هو الدالُّ، فإنْ عَرَفْتَه عرَّفك بغَيْرِه اهـ.

قال سيدي فتح الله أبو راس - قدس الله روحه - دخلَ عليَّ شخصٌ وأنا في إفريقية فقال لي: سمعتُ أنَّكَ تعرفُ الأولياء، فأرني واحدًا منهم، فقلتُ لهُ: أُريك الأولياء إنْ كُنتَ قائلًا ما أقولُ لك، فقال لي: إني والله أَقْبلُ، فقلتُ لهُ: أسْقِط التَّدبيرَ والخلْقَ من قلبك، واقْطَع الطَّمع من ربِّك، ووحِّده واعْبدهُ لوجهه الكريم، وتَفقَّه وتَصوَّف، وامْسِك الحيةَ العظيمةَ، والأسدَ الضَّاري أَشَدَّ الإمْسَاك، يُوريكَ اللهُ الأولياءَ، ويُورثك درجةَ

الصِّدِّيقين ، فقال لي : ما أطيق هذا . فقلت لهُ : أَلَمْ أَقُلْ : إِنَّكَ لا تَقْبل ، فانْصَرِفْ عني .

قال إبراهيم بن أدهم ﷺ : لا ينالُ الرجلُ درجةَ الصَّالحين حَتَّى يَجُوزَ سِتَّ عقبات ، أوَّلُها : أنْ يُغْلِقَ بابَ النِّعْمةِ ويَفْتَحَ بابَ الشِّدةِ ، والثاني : أنْ يُغْلقَ بابَ العِزِّ ويَفْتَحَ بابَ الذُّلِّ . والثالثُ : أنْ يُغلقَ بابَ الراحةِ ويَفْتَحَ بابَ الجهادِ . والرابعُ : أنْ يُغْلقَ بابَ النومِ ويَفْتَحَ بابَ السهرِ . والخامسُ : أنْ يُغْلقَ بابَ الغِنى ويَفْتَحَ بابَ الفقر . والسادسُ : أنْ يُغْلقَ بابَ الأملِ ويَفْتَحَ بابَ الاستعدادِ للموتِ . اهـ .

إلى أن قال : والحاصلُ أنَّك إذا عرَفْتَ المولى - سبحانه ﷻ - بما هو عليه مِنَ الصِّفاتِ العليَّةِ والأسماءِ الحسنى ، وعبدتَهُ بحق عُبوديته ، عرفْتَ نفسَك ، قال النبي ﷺ : « أَنْ تعبدَ اللهَ كأنك تراه »(١) الحديث ... وأمَّا الأولياءُ لَمْ يصل أحدٌ إليهم إلَّا مَنْ أراد الله أن يوصِّلَه إليهم . قال ابن عباد ﷺ في شرحِه على الحِكَم العطائية : لا دليلَ على الله - سبحانه [و] تعالى - سواه ، ولا وصولَ إليه بغيره ، وكذلك أولياؤُه . ولما كان الوصولُ إلى الله - تعالى - لا يكونُ إلَّا بالعنايةِ والخصوصيَّة ، ويستحيلُ أن يطلبَ بسببٍ ، كان أولياؤُه المخصوصون بالقرب منه كذلك ، لما خُلعَ عليهم [من] الخِلَع العظيمة ، وتَولَّاهم بمننِه الجسيمة واصطفاهم لنفسه ، واختصَّهم بمحبتِه وأُنْسه ، وطهَّر أسرارَهم من أنجاس الأغيار ، وصان قلوبَهم بما أَوْدَع فيها من الأنوار والأسرار ، فكانوا لذلك [أصفياءَه] في عبادِه وخباياه في بلاده .

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة.

كما قال في بعض الإشارات عنه[1] : « أوليائي تحت بنائي لا يعرفُهم غيري » ، وهذا من غَيْرتِه عليهم ؛ لأنَّ الحق - تعالى - أَغْيرُ على أوليائه من أنْ يُظهرهم إلى من لا يَعرفهم ، فلَمْ يجعل لأحدٍ دليلًا عليهم إلَّا من حيث الدليلُ عليه ، ولَمْ يوصل إليهم إلَّا مَنْ أراد أنْ يوصله إليه ؛ لأنَّه يُلبسُهم لباسَ التلبيسِ بين الأنام ، بأن يُحضرَهُم بما يُحقِّرُهم في أعْيُنِ الخواصِّ والعوام ، فأين يكون لأحدٍ دليلٌ عليهم ، ووصولٌ بسببِهِ إليهم . قال في «لطائف المنن» : فأولياءُ الله أهلُ كهفِ الأولياء ، فقيل : مَنْ يعرِفُهم ؟ قال: وقد سمعته - يعني شيخه أبا العباس المرسي ﷺ - يقول : معرفةُ الوليِّ أصعبُ من معرفة الله - تعالى - ، فإنَّ الله معروفٌ بكماله وجماله ، وحتَّى متى تَعْرِفُ مخلوقًا مثلكَ يأْكُلُ كما تَأْكلُ ، ويَشربُ كما تَشربُ ؟ قال فيه : وإذا أراد الله -تعالى- أنْ يُعَرِّفَك بوليٍّ من أوليائه طوى عنك وجود بشريَّتِه، وأَشْهَدَكَ وجودَ خُصوصيته .

وقال صاحب كتاب « أنوار القلوب » : « إنَّ لله - سبحانه - عبيدًا ضَنَّ بهم عن العامَّة ، وأظهرَهُم للخاصَّة ، فلا يعرفُهم إلَّا الأمثل ، ولله عبيدٌ أظهرَهُم للخاصَّة والعامَّة ، ولله عبيدٌ يُظهرُهم في البداية ويَسترُهم في النهاية ، ولله عبيدٌ يَسترُهم في البداية ويُظهرُهم في النهاية ، ولله عبيدٌ لا يَظْهَر [على] حقيقةِ ما بينه وبينهم إلَّا الحفَظَة فمَنْ سِوَاهم ، حَتَّى يُلقونَه بما أودعه منه في قلوبهم ، وهم شهداءُ الملكوت الأعلى ، والصَّفيح الأيمن من العرش الذي يتولَّى اللهُ قَبْضَ أرواحهم بيده ، فتطيبُ أجسادُهم به ، فلا يعدو عليها الثرى ، حَتَّى يُبعثوا بها مُشرقةً ، بنور البقاء المجعول فيهم ، ببقاء الأبد ، مع الباقي الأحد ﷻ » .

(١) أن يُنسب إلى الله قولٌ ليس في كتابه أو في الأحاديث القدسية عن رسوله ﷺ أمر ينبغي عدم قبوله والتنبيه إليه .

وقال أبو يزيد ﷺ : أولياء الله - تعالى - عرائس ، ولا يرى العرائس إلَّا مَنْ كان مُحرَّمًا لهم ، وأمَّا غيرهم فلا ، وهم مُخدَّرُون عنده في حِجال الأُنْس لا يراهم أحدٌ في الدُّنْيَا ولا في الآخرة . وقال أبو علي الجرجاني ﷺ : الوليُّ هو الفاني في حاله ، الباقي في مُشاهدة الحقِّ - تعالى الله سبحانه - ، سياسته فتوالتْ عليه أنوارُ التولي ، لَمْ يكن لهُ عن نفسه أخبارٌ ، ولا مع الله - ﷻ - قرارٌ ، وفي الإشارات عن الله - سبحانه - إنما سُمِّي الوليُّ وليًّا ؛ لأنَّه يليني دون ما سواه ، فهم مُنزَّهون تنزيه الحق - تعالى - لهم من أن يوصلَ إليهم بغيره .

ثُمَّ قال أيضًا : مِنْ لُطفِ الله - تعالى - إخفاءُ أسرارِ الناس بعضُهم عن بعض ، لاسيما سِرٌّ يقتضي وجودَ عَيْبٍ ، إلى أن قال : وقد يَظهرُ لبعض الناس ما سوى ذلك من الأسرار الملَكوتية ، ووجهُ الفرق بينهما ما يذكرُه ابن عطاء الله الآن ، ويَحتمِلُ أنْ يريد ما هو أعمُّ مما ذكرناه ، ويدخلُ في ذلك أسرارُ الولايةِ ، إذ اختصَّ الحقُّ - تعالى - بها بعضَ عباده ، ويكون في ذلك تنبيهٌ على العِلَّةِ الموجبة لخفاء الوليِّ ، حسبما ذُكر في المسألة التي فرغنا منها ، حَتَّى يمتنع الوصول بطلبٍ أو بسببٍ ، وإخفاءُ ذلك أيضًا عن عامة المؤمنين من النِّعَم العظيمة ، إذ لو ظهرَتْ أسرارُ الولاية على أحدٍ لأَوْجبَتْ على مَنْ ظهرَتْ لهُ حقوقًا لا يَقدرُ على القيام بها ، فإنْ فرَّطَ في ذلك وتَرَكَ القيامَ بتلك الحقوقِ وأساء، وقَعَ بسبب ذلك في محظوراتٍ لا يقومُ لها شيءٌ، وقد فهِمْتُ هذا المعنى من كلام سَهْل بن عبد الله ﷺ ، وقد سأله بعض تلامذته : كيف يُعرَفُ أولياء الله ؟ ، فقال : إنَّ الله - تعالى - لا يعرِّفُهم إلَّا لأشكالهم ، أو مَنْ أرادَ أن ينفعَهُ بِهِم ، ولو أظهرَهُم حَتَّى يعرفَهُم [الناس] لكانوا حُجَّةً عليهم ، ومَنْ خالفه بعد علمِه بهم كَفَر ، ومَنْ قَعَدَ عنهم حَرَجَ .

ولكنَّ الله - تعالى - جعل اختيارَه وتعظيمَه لكونِه رحمةً منه لخلقه، ولكنَّ اللهَ قد أخبر بكراماتهم فقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (البقرة ٢٥٧)، ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران ٦٨)(١) فأفردَهُم به، ولو أبرزَهُم لكان في النَّظر إليهم حُجَّةٌ، وكان الاستماع لحديثهم فرضًا اهـ. والمعنى الذي ذكرناه في هذه المسألة فهمْتُه من الكلام الذي ذَكَرَه الشَّيْخُ أبو طالب المكِّي ﷺ في كتاب «الشكر». قال فيه: «ثُمَّ بعد ذلك مِنْ لطائف النِّعم، ستقول: سِتْره لهم بعضُهم من بعض، وسِتْرهم عند العلماء والصَّالحين منهم، لولا ذلك لما نظروا إليهم، ثُمَّ حجَبَ الصَّالحين عنهم، ولو أظهرَ عليهم آيةً يُعرَفون بها حَتَّى يكونَ الجاهلون على يقينٍ من ولاية الله - تعالى - لهم، وقُربِه منهم، لبَطَلَ ثوابُ المحسنين إليهم، ولحُرِّمَ قَبولُ إحسانهم عليهم، ولحبِطَتْ أعمالُ المسيئين إليهم، ففي حَجْبِ ذلك وسَتْرِ ما عَمِلَ العاملون لهم من الخير والشَّرِّ على الرَّجاء وحُسْن الظَّن مِنْ وراء حجاب اليقين، وتأخَّرَتْ عقوباتُ المأذونِ لهم عن المعاجلة لِمَا سَتَرَ عليهم من عظيمِ شأنهم عند الله - ﷻ - [و]جليلِ قدرهم.

ففي سِتْر هذا نعمٌ عظيمةٌ على الصَّالحين في نفوسهم مِنْ سلامةِ دينهم وقِلَّةِ فتنتهم، ونعمةٌ جليلةٌ على المنتهكين لشعائر الله من أجلهم، إذا كانوا أساءوا إليهم من وراء حجاب، فهذا لُطْفٌ خفيٌّ من لُطفِ المُنعِم الوهَّاب، كما جاء في الخبر «مَنْ آذى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة»، ثُمَّ [إن](٢) الشائر لولي قد يكون مثل ذلك مَنْ آذى نبيًا وهو لا يعلم بنبوءته قبل أن يُخبرَ أنه

(١) لك أن تتساءل إن كان لفظ ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ و ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خاصًا بالأولياء، أو أن في لفظ وليّ هنا إشارة إلى الأولياء، فالآيتان عامتان لكل المؤمنين، وليس فيهما إخبار بكرامات الأولياء.
(٢) في الأصل: أنا.

رسول الله وأنَّ الله – ﷻ – نبَّأه ، فلا يكون وِزرُه وِزرَ مَنْ انتهكَ حُرْمَةَ مَنْ كان أعلمَهُ أنَّه نبيٌّ لله – ﷻ – ، لعظيم حُرْمته . انتهى ما ذكرهُ الشَّيْخُ أبو طالب المكِّي ، والوجه الأوَّل أَوْلى في تقرير معنى ما ذكَرَهُ ابن عطاء الله ، والله – تعالى – أعلم . اهـ .

قال أهلُ التحقيق : إن للعامل كراماتٍ تظهرُ على يد من أراد الله إظهارها ، فلا ينبغي جَحْدُها ، بل ينبغي التحدُّثُ بها ، والاعتقاد في صاحبها ، إذا لَمْ يخالف صريح الكتاب والسُّنَّة والجماعة ، كما أنَّ الاعتقاد صفةٌ والانتقاد حرمان ، وكما أنَّ الاعتقاد ولاية والانتقاد جناية ، وقد يجب على كلِّ مكلَّفٍ أن يعتقد الكرامة أي حقيقتها ، بمعنى جوازها للأولياء ، كما ذهب إلى ذلك جمهور أهل السُّنَّة .

والكرامةُ أمرٌ خارقٌ غير مقرونٍ بدعوى النبوءة ، ولا هو مقدمةٌ لها ، يظهر على يد عبدٍ ظاهرِ الصلاح ، ملتزمٍ بمتابعة نبيٍّ من الأنبياء ، مكلَّفٍ بشريعته ، مقترنًا بصحيح الاعتقاد ، والعمل الصالح ، غير مقارنٍ لدعوى النبوءة ، وبهذا تمتاز عن المعجزة ، بمقارنة صحيح الاعتقاد والعمل الصَّالح والتزام متابعة نبي من الأنبياء ، وتمتاز عن الاستدراج وعن مؤكِّدات تكذيب الكاذبين ، كما رُوِيَ أنَّ مسَيْلِمةَ – بكسر اللام – دعا للأعورِ أن تصيرَ عينُه العوراءُ صحيحةً فصارتْ عينُه الصحيحةُ عوراءَ ، وبصَقَ في بئرٍ لتزدادَ حلاوةُ مائها فصار مِلحًا أُجاجًا ، ومسَحَ على رأسِ يتيمٍ فصار أقرعَ ، وهذا يسمَّى إهانة . كما امتازت بكونها على يد وليٍّ عما يسمَّى معونة ، وهي الخوارقُ الظاهرة على أيدي عوامِّ المسلمين ، تخليصًا لهم من المحِقِّ والمكارِه ، واحتج الجمهور هنا على الجواز بما احتجوا به في المعجزة من إمكان الأمر في نفسه ، وشمول قدرة الله – تعالى – لجميع

المُمْكنات ـ ولا شك [في] أنَّ الكرامة منها ، إذ لا يلزم من فرض وقوعها محال ، وذلك كالملِك يصدِّق رسوله ببعض ما ليس من عاداته ، ثُمَّ يفعل مثل ذلك إكرامًا لبعض أوليائه وخواصِّه ، وعلى الوقوع بوجهين ، الأول : ما ثبت بالنصِّ من قصَّة مريم عند ولادة عيسى - عليه الصَّلاة والسَّلام - ، وأنَّه ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران ٣٧). فقد كانت في كَفَالة زكريا - عليه الصَّلاة والسَّلام - ، وكان لا يدخلُ عليها أحدٌ غيره ، وكان إذا خرج من عندها أغلق عليها سبعة أبواب ، وإذا دخل عليها وجد عندها فاكهةَ الشتاءِ في الصيف ، وفاكهةَ الصيف في الشتاءِ ، فتعجَّب من ذلك ، وسألها عن طريقِ وصولِ ذلك الرِّزقِ إليها في غير أوانه ، مع أنَّ الأبوابَ عليها مغلَّقةٌ ، والحراسَ بغرفتها محدقةٌ ، فأجابته : بأنَّه من عند الله ، وأنَّ الله يرزقُ مَنْ يشاءُ بغير حساب ، تفضُّلًا من غير تغيير .

ومِنْ قصَّةِ أصحابِ الكهف ولَبْثِهم في الكهف سنينَ بلا طعام ولا شراب ، ومِنْ قصة آصف بن برخيا(١) وإتيانِه بعرشِ بلقيس قبلَ ارتدادِ طرفِ سُلَيْمان عليه السلام إليه .

فإنْ قيل : كان الأول : أرادها(٢) لنبوَّةِ عيسى أو معجزةً لزكريا . والثاني: لِمَنْ كان نبيًا في زمن أصحاب الكهف ، وهو خالد بن سنان على ما قيل . والثالثُ : لسليمان - عليه الصَّلاة والسَّلام - ، قلت : سياقُ القصص الثلاث يدلُّ على أن ذلك لَمْ يكن بقصد تصديقهم في دعوى النبوءة ، بل لَمْ

(١) يقصد الجان الذي قال لسليمان عليه السلام أنا آتيك قبل أن يرتد إليك طرفك . وباستثناء معلومات شحيحة خارج القرآن وردت في الصحاح فإن أغلب المادة التي ترد عن الأمم السابقة ، كأسماء الأشخاص هي من الإسرائيليات .
(٢) في الأصل : أراها .

يكن لزكريا عِلمٌ بذلك ، ولذا سأل عند اشتباه الأمر عليه ، ونحن لا ندَّعي إلَّا جواز ظهور الخوارق من بعض الصَّالحين غير مقرونة بدعوى النبوءة ، ولا مسوقة لقَصْد تصديق نبيٍّ ، ولا يضرُّنا تسميتُه إرهاصًا أو معجزةً لنبيٍّ هو من أُمَّته . على أنَّ ما ذكرتَه مشتركُ الإلزام ، إذ يَرِدُ مثلُه على كثيرٍ من معجزات الأنبياء ، لجواز أن يكون معجزةً لنبي آخر .

والثاني : ما تواترَ معناه والقدْرُ المشترك منه ، وإن كانت التفاصيل آحادًا من كراماتِ الصَّحابة ، والتابعين، ومَنْ بعدهم إلى وقتنا هذا من الصَّالحين. كإهداء فاطمة - رضي الله عنها - لأبيها ﷺ رغيفين وبضعة لحم في طبقٍ مُغَطًّى ، فردَّ - عليه الصَّلاة والسَّلام - حاملَ الطَّبق بذلك وصحِبه إلى بيتها ، فلمَّا جلس واستقرَّ مجلسه - عليه الصَّلاة والسَّلام - في بيتها - رضي الله عنها - قال : هلُمِّي يا بُنيتي ، فكشفَتْ عن الطَّبق فإذا هو مملوءٌ خُبزًا ولحمًا ، فقال - عليه الصَّلاة والسَّلام - : أنَّى لكِ هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إنَّ الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فقال - عليه الصَّلاة والسَّلام - : الحمد لله الذي جعلكِ شبيهةَ سيدة نساء بني إسرائيل ، ثُمَّ جمع - عليه الصَّلاة والسَّلام - عليًّا والحَسن والحُسين ، وجميع أهل بيته على ما في ذلك الطَّبق ، فأكلوا حَتَّى شَبِعوا ، وبقيَ الطعامُ ، فأوسعَتْ به على جيرانها[1] .

وكرؤيةِ عُمرَ ﷺ وهو على المنبر جيشَه منها ، ونادى حَتَّى قال : يا سارية الجبلَ الجبلَ ، فحذَّرَهُم من عدو كان هناك ، وكسماع سارية ﷺ كلامَه ، وعمِله بمقتضاه ، فظفر بعدوِّه . وكشُرْب خالد السمَّ من غير أن يضرَّه ، وكما ظهر على يد علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - مما لا يمكن

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ١١١-١١١ من حديث جابر، وساق سند أبي يعلى الموصلي به، وقال: حديث غريب إسنادًا ومتنًا.

أنْ يُحصى ولا يُطمع في أن يُستقصى ، وقد وقع للكثير من الأولياء خوارقُ عاداتٍ من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا ، مما يشاهد عيانًا .

[الرد على منكري الكرامة]

لا التفاتَ إلى قول مَنْ قال بعدم جوازها - أعني الكرامة - من أهل السُّنَّة كالأستاذ أبي إسحاق الاسفراييني ، وأبي عبد الله الحليمي ، وجمهور المعتزلة ، محتجِّين بنفي جوازها بوجوه :

الأول : قال السَّعد وهو العمدة : إنَّه لو ظهرت الخوارقُ من الأولياء لالتبسَ النبيُّ بغيره ، إذ الفارقُ هو المعجزة .

الثاني : أنَّها لو ظهرت لَكَثُرَتْ لكثرة الأولياء ، وخرجَتْ عن كونها خارقة للعادة ، هذا خلاف .

الثالث : أنَّها لو ظهرَتْ لا لغرض التَّصديق لانسدَّ بابُ إثبات النبوءة بالمعجزة ، بجواز أن يكون ما يظهر من النبي لغرض آخر غير التصديق .

الرابع : أنَّ مشاركة الأولياء للأنبياء في ظهور الخوارق مُخِلٌّ بعِظَمِ قدر الأنبياء . ووَقْعِهم في النفوس .

الخامس : وهو الإخبارُ عن المغيَّبات لقوله - تعالى - : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن ٢٦-٢٧) ، [فقد] خصَّ الرسولَ من بين المرتضين بالاطِّلاع على الغيب ، فلا يطلِّع [عليه] غيرهم وإن كانوا أولياء مرتضين . وما يُشاهد من الكهنة [من] لقاء الجن والشياطين ، وما يشاهد من أصحاب التغيير والنجوم [من] ظنون واستدلالات رُبَما تقع وربما لا تقع ، وليس من اطلاع [على غيب] الله - تعالى - في شيء . فما تمسَّكوا به واحتجوا [به] مردود .

وقد أُجيب عن الأول : بالفرق بين المعجزة والكرامة كما يُعلم مما مرَّ . وعن الثاني : بالمنع ، إذ غايته استمرار نقض العادات . وعن الثالث : مما يؤخذ في مباحث المعجزة ، من أنها غير مقارنة لدعوى تفيد صدق النبي قطعًا، ويحصل معها به العلم الضروري الذي لا يقدم فيه تلك الاحتمالات. وعن الرابع : بالمنع ، بل ذلك مما يزيد في جلالة أقدارهم والرغبة في اتباعهم ، حيث نالت أممهم وأتباعهم مثل هذه الدرجة ببركة الاقتداء بشريعتهم والاستقامة على طريقتهم . وعن الخامس : بأنَّ الغيب هاهنا ليس للعموم بل هو مطلق أو معين هو وقت وقوع القيامة ، بقرينة السياق ، ولا يبعد أن يطَّلِعَ عليه بعض الرسل من الملائكة والبشر ، فيصِحُّ الاستثناء ، وإن جُعل منقطعًا فلا خفاء ، بل لا امتناع حينئذ في جعل الغيب للعموم ، لكون اسم الجنس المضاف بمنزلة المعرَّف بالاسم ، سيما وقد كان في الأصل مصدرًا ، ويكون الكلام لسلب العموم ، أي لا يُطلِعُ على كلِّ غيبه أحدًا ، وهو لا ينافي إطلاع البعض على البعض .

وكذا الإشكالُ إن حصلَ الاطِّلاعُ بطريق الوحي ، وبالجملة فالاستدلالُ مبنيٌّ على أنَّ الكلام لعمومِ السَّلْب ، أي لا يُطلِعُ على شيءٍ من غيبه أحدًا من الأفراد نوعًا من الاطِّلاع ، وذلك ليس بلازم ، ولا يخفى على منصبِ تَدَيُّنٍ بالشريعة ظهورُ كراماتِ الأولياء ظهورًا كاد يَلحقُ بظهور المعجزات، وإنكارُها ليس بعجب من أهل البدع والأهواء ، إذ عاقبهم الله في الدُّنْيَا بسبب جَحْدها ، فلم يشاهدوها من أنفسهم حظًّا ، ولَمْ يسمعوا بها عن رؤسائهم الذين يزعمون أنهم على شيء ، مع اجتهادهم في أمر العبادات واجتناب السيئات ، فوقعوا في أولياء الله - تعالى - أصحاب الكرامات ، يُمزِّقون أديمهم ، ويَمْضَغون لحومهم ، ولا يُسمُّونهم إلَّا باسم الجَهَلة المتصوِّفة ، يَعُدونهم في عِداد أحدِ المبتدعة .

وما ذلك إلَّا لجهلهم وانطماس بصائرهم، ولم يعرفوا أن مبنى هذا الأمر على صفاء العقيدة ونقاء السَّريرة واقتفاء الطريقة، واصطفاء الحقيقة، وإنما العَجبُ من بعض فقهاء أهل السُّنَّة، حيث قال - في ما رُوِيَ عن إبراهيم ابن أدهم -: إنهم رأوه بالبصرة يوم التروية، وفي ذلك اليوم رأوه بمكة، [و] أنَّ مَنْ اعتقد جواز ذلك يكفُر، والإنصافُ ما ذكره الإمام النسفي حين سُئل عن ما يُحكى أن الكعبة تزور أحدًا من الأولياء، هل يجوز القول به؟ فقال: نقْضُ العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائزٌ عند أهل السُّنَّة.

واعْلَمْ أنَّ الكرامةَ تقع من الوليِّ عن قَصْدٍ واختيار وبدونهما، خلافًا لَمنْ مَنَع من المجوِّزين وقوعَها بالقصْد والاختيار، وتقعُ منه أيضًا مع مقارنتِها بدعوى الولاية، وتجرُّدها عنها خلافًا لَمنْ مَنَع كونَها على قضية الدعوى، حَتَّى لو ادَّعى الوليُّ الولايةَ واعتقد بخوارق العادات لَمْ يجزْ، ولَمْ يقع، بل رُبَما يسقط عن درجة الولاية في زَعْم المخالِف، وإنما تقع أيضًا من جنس ما وقع معجزة للأنبياء، كانفلاقِ البحر، وانقلابِ العصا حية، وإحياء الموتى، خلافًا لَمنْ مَنَع كونَها من جنس ذلك، زعمًا منه أنها لا تمتاز عن المعجزة إلَّا بذلك.

قال السَّعد نقلًا عن الإمام: وردُّ هذه المقالات، وهذه الطرق - أعني المجوِّزة لجملة الخوارق للولي - غيرُ سديد، والمَرْضيُّ عندنا تجويزُ جميع خوارق العادات في معرض الكرامات، وإنما تمتازُ عن المعجزة بخلوِّها عن دعوى النبوة، حَتَّى لو ادَّعى الوليُّ النبوة صار عدوًا لله لا يستحقُّ الكرامةَ بل اللعنة والإهانة، فإن قيل: هذا الجوازُ في الإعجاز إذ شرطُه عدمُ تمكن الغير من الإتيان بالمثل، بل يُفضي إلى تكذيب النبي، حيث يدَّعي التحدي،

وأنَّه لا يأتي أحدٌ بمثل ما ادَّعى به . قلت : المنافي هو الإتيانُ بالمثل على سبيل المعارضة ، ودعوى النبيِّ أنَّه لا يأتي بمثل ما أتى به أحدٌ من المتحدِّين ، إلَّا أنَّه لا يُظهر مثلَه كرامةً لولي أو معجزةً لنبي آخر .

نعم قد يرد في بعض المعجزات نصٌّ قاطعٌ على أنَّ أحدًا لا يأتي بمثله أصلًا كالقرآن ، وهو لا ينافي الحكم بأنَّ كلَّ ما وقع معجزة لنبي يجوز أن يقع كرامة لولي ؛ لأنَّ الامتناعَ هنا لعارض . انتهى كلام السَّعد .وقضيَّته أنَّه لا يستثني إلَّا ما ورد فيه نصٌّ قاطع ، فيكون نحو قول القشيري : إن الأولياء لا ينتهون إلى نحو ولدٍ بدون والد ، ولا إلى قلبِ جمادٍ بهيمةً .

وإن قال فيه التاج السُّبكي : إنه حقٌّ مخصَّصٌ لقول غيره : « ما جاز أن يكون معجزةً لنبي جاز أن يكون كرامة لولي ، لا يفارق بينهما إلَّا التحدي ضعيفٌ لا يُعوَّل عليه ، ولا يرجع في التخصيص إليه » وممن خالف العارفَ القشيري ولدُه العلَّامة أبو نصر ، فقال في « المرشد » : قال بعض الأئمة : « ما وقع معجزة لنبي لا يجوز تقدير وقوعه كرامةً لولي كقلب العصا ثعبانًا وإحياء الموتى ، والصحيح تجويز جملة خوارق العادات »(١) .

وتَبِعه النووي في باب البر والصلة حيث قال فيه : إن الكرامات تجوز لخوارق العادات على اختلاف أنواعها ، ومنعه بعضُهم وادَّعى أن لا تختصّ بمثل إجابة دعاءٍ ونحوِه ، وهذا غلطٌ مِنْ قائله ، وإنكارٌ للحس ، بل الصوابُ جريانُها بقلب الأعيان ونحوه . وقال الشَّيْخ محيي الدين الحاتمي : كرامة الولي ثابتة ، وجائزة ينبغي التصديقُ بها ، ولو عظُمتْ كإحياء الموتى ، وقلبِ العصا حية، وإشباع الكثير بقليل من الطعام ؛ لأنَّها فرعٌ من المعجزة،

(١) والصحيح تجويز ذلك : حُكم لم يذكر أصله الشرعي ولا نعرف مستند الاجتهاد الذي أوصله إليه ، على أن هذا التساهل قد جعل كرامات الأولياء أكثر وأعظم من المعجزات .

ففي بعض الأخبار قال ﷺ : « إنَّ للأولياءَ كراماتٍ كما لنا معجزات »(١) ، وقال : « كرامة الولي تجوز ولو مع التحدي »(٢) كوليٍّ يقول لأهل عصره : الآن أُظهرُ لكم خارقًا فيفعل ذلك ، أو يقول لهُ غيره : إن كنت - أنت - وليًّا أظهر لنا كرامة ، فيفعل ذلك مشاهدة ، وإن كل ما وقع معجزة لنبي يجوز أن يقع كرامة لولي ، والله تعالى أعلم .

سُئل الجوزي - رحمه الله - عن رجل من أهل السُّنَّة إذا أكثر من التهليل يغشاه نورٌ ساطعٌ يكادُ يخطف الأبصار إلى أن يغيبَ فيه عن النظر، هل يجوز ذلك أم لا ؟ فقال : وكيف لا يجوز في حق أولياء الله الذين جعل الله كراماتهم معجزةً للنبي ﷺ لاتباعهم لسُنَّتِه وأخذِهم بالأحوط ، وذَبِّهم عن الدِّين ، ولا خلاف أن النور يُرى على الأولياء في الحياة وبعد المات ، وما جاز أن يكون معجزةً لنبي جاز أن يكون كرامة لولي ، إلى أن قال بعد كلام كثير : لحومُ الأولياء سمٌّ قاتل لا دواء لهُ ، لاسيما إنكار كرامتهم ، فهو مما يؤدي إلى المروق من الدين ، حفظنا الله وإياكم من ذلك .

وكان جمال الدين الغرناطي يقول لأصحابه : مَنْ ثبتَتْ إشارتُه والتطور والتشكل ، وعظُمت كرامتُه لا ينبغي الإنكار عليه في كلِّ أفعاله ، كيف ما كانت ، كالنور وكقلب العصا أفعى ولاحت ولايتُه اهـ . وقال اليافعي ﷺ في كتابه المسمى « روض الرياحين » : والعَجبُ كلَّ العجب ممَّنْ يُنكر كرامات الأولياء ، وقد جاءت فيه الآياتُ والأحاديثُ الصحيحات ، والآثارُ المشهورات ، والحكاياتُ المستفيضات ، حَتَّى بلغَتْ

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) لم أقف عليه . ويتساءل المرءُ لماذا كانت كل هذه الأحاديث التي تُساق لمخالفة ظاهر الشريعة ضعيفة السند أو المتن أو كلاهما .

في الكثرة مبلغًا يخرج عن الحصر ، ثُمَّ قال ﷺ : والناس في إنكار الكرامات على أقسام : منهم من ينكرها مطلقًا وهم – أهل مذهب – معروفون ، عن التُّقى مصروفون ، قال بعضُهم : وهم المجسمة ، ومنهم من يُصدق بكرامات مَنْ مضى ويكذِّبُ بكرامات أهل زمانه ، فهو – كما قال سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ – : كبني إسرائيل صدَّقوا بموسى ﷺ حين لَمْ يروه ، وكذبوا بمحمد ﷺ حين رأوه ، مع أن محمَّدًا ﷺ أعظمُ من موسى ﷺ ، وإنما ذلك حسدٌ وعدوان وشقاء منهم .

ومنهم من يصدِّقُ بأن لله – تعالى – أولياءَ من أهل زمانه ، ولكن لا يصدِّق بأحد معين ، فهذا محروم من الإمداد ؛ لأنَّ مَنْ لَمْ يسلِّم لأحدٍ معينٍ لا ينتفعُ بأحدٍ – نسأل الله العافية – ، قال : فإن قيل : إن هذه الكرامات تشبه السِّحر ، فإن سماعَ الإنسان الهواتفَ في الهواء ، وسماعَ النداء في بطنه ، وطي الأرض ، وقلب الأعيان غيرُ معهودٍ في السِّحر ، صحيح إنما يظهرُ ذلك من أهلِ السِّيماء والتَّرْنْجيات . فالجوابُ : أما إجابةُ المشايخ العارفين والعلماء المحقِّقين في الفرق بين الكرامة والسِّحْر [فهي] : أنَّ السِّحر إنما يظهرُ على يد الفَسَقة والزنادقة والكفار الذين هم على غير شريعة ومتابعة ، والأولياء ﷺ ، إنما وصلوا إلى ذلك بكثرةِ اجتهادِهم واتباعهم للسُّنَّة حَتَّى بلغوا فيها الدرجة العليا ، فافترقا .

قال ﷺ : ثُمَّ إنَّ كثيرًا من المنكرين لو رأَوا واحدًا من الأولياء يطيرُ في الهواء لقالوا : هذا سِّحر ، واستخدامات للجن والشياطين ، ولا شك أن محرومَ التوفيقِ كذَّب بالحق عيانًا ، وحِسًّا . فكيف حال هذا تصديقه بالمغيَّبات التي أمر الله – تعالى – بالإيمان بها . فربما زلَّتْ به القدمُ فخسِرَ الدارَيْن إذْ إذا أنكرَ المحسوسات فبالتحقيق إنكارُه المغيَّبات ، وقد كان

الإمام الشافعي ﷺ يقول : الإنكارُ فرعٌ من النفاق ، إلى أن قال : قلتُ : ولا التفاتَ إلى قولِ مَنْ يقولُ بعدمِ وجودِ الأولياء ، فقد رُوِيَ أنَّ الأولياء العدد لا ينقصون .

وقال – عليه الصَّلاة والسَّلام – : « لا تزالُ طائفة من أمتي ظاهرين على الحقِّ لا يَضرُّهم مَنْ خالفهم إلى أن يأتي أمرُ الله » ، وقال : « العلماء ورثة الأنبياء » ، وقال : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » الحديث . والوليُّ هو العارف بالله – تعالى – ، وبصفاته حسب الإمكان ، الفارغُ من تأديب نفسِه ، المواظبُ على الطاعات ، المجتنبُ للمعاصي ، المعرِضُ عن الانهماك في اللذات والشهوات المباحة ، فهو ممَّنْ تولَّى اللهُ أمره ، فلم يكِلْه إلى نفسِه ، ولا [إلى] غيره .

واعْلَمْ أنَّ أحوال الأولياء مختلفةٌ ، لا تحص ، قال بعضُهم : على عدد النجوم في السماء ، وقال بعضُهم : على عدد أنفاس الخلائق ، وهم ﷺ في إظهار الوَلَه والجنون والتخيُّلِ والتطوُّر والتشكُّلِ والتخريب في عين الرائي لهم ، فينبغي للفقيه إذا رأى شيئًا منهم يُشبه ما سنذكره – إن شاء الله – ، [أن] يحمِلَه على المحامل الحسنة ، ويُقدِّر لهُ عند ذلك قضية موسى عليه السلام مع الخضر ، ويقدر أن ذلك صدر عنهم في حال السُّكر ، والغيبة ، والسكر إن كان سُكرًا مباحًا غير مكلَّف في ذلك الحال بسوء الظن بهم ، من عدم التوفيق .

ولا بأس باستطراد بعض حكاياتٍ فيها ذِكرُ تطوُّرِ الأولياء في عين الناظر ، فنقول – تبركًا بهم – من هذا المعنى ما قاله الإمام اليافعي في روض الرياحين ما نصه : « سمعت من أهل العلم الظاهر أنَّ بعضَ الفقهاء كان يُنكر على بعضهم الأشياء المعقولة ، فقال لهُ : يا فقيه إن هناك أشياءَ

وراء العقل ، فانظر أين تراني الآن ؟ فإذا هو في الهواء ، وإذا هو في مكانه أيضًا .

قال : وكذلك أخبرني بعضُ أهل العلم أيضًا أنَّ بعضَهم كان لا يُرى يصلي ، فلمَّا كان بعض الأيام أقيمت الصَّلاة وهو قاعد ، فقال لهُ بعض الفقهاء : قم صلِّ مع الجماعة منكرًا عليه ، فقام صلى الركعة الأولى والفقيه المنكر لجنبه يَنْظر إليه ، فلمَّا قاموا في الركعة الثانية نظر الفقيه إليه فرأى غيره يصلي مكانه ، فتعجَّب من ذلك ، وفي الركعة الثالثة رأى ثالثًا غير الاثنين الأوَّلين ، فازداد تعجُّبًا ، وفي الرابعة رأى رابعًا غير الثلاثة فاشتد عجبُه ، فلمَّا سلَّموا التفتَ فرأى صاحبَه الأول الذي أنكر عليه جالسًا في مكانه وليس عنده أحد من الثلاثة فتحيَّرَ مما رآه ، فنظر الفقيرُ الوَلَه إليه ثُمَّ ضحِك، وقال : يا فقيه أيٌّ من الأربعة صَلُّوا معك هذه الصَّلاة ؟ اهـ. من هذا المعنى ما يُنقل عن سيدنا قضيب البان ، وكان - كما قال بعضُهم - كبير الشأن ، وإليه يُشير مولانا عبد السَّلام في بعض مقطَّعاته كقوله :

حافظني أنا قضيب البان ... ولا ينسـاشي حبيبـه

[في ترجمة بعض الأولياء]

ولا بأس بالتبرُّكِ بنقْل ما نقَله عنه الإمام اليافعي - رضي الله عنهما - وذِكْرِ جماعةٍ من الأولياء المحرِّكين ، قال : ومنهم الشَّيْخ قضيب البان الموصلي ﷺ ، كان من الأولياء المشهورين ، من أهل الأحوال المذكورين ، صاحب كرامات باهرة وإشارات فاخرة، ومقامات سنية، ومعارف جليلة، ومواهب جزيلة ، أجمع المشايخ والأولياء على ولايته ، عجمًا وعربًا ، وسارت الركبان بآثاره شرقًا وغربًا ، وكان الغالب عليه في حال الاستغراق

الوَلَه ، وكان ﷺ يتردَّدُ في الرسائل بين الشَّيْخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني وبين الشَّيْخ عدي بن مسافر - رضي الله عن الجميع ونفعنا بهم - ، وكان لا يُظهر الصَّلاة مع وله وتخريبه .

وعن الشَّيْخ عمر بن مسعود البزار ببغداد ﷺ ، قال : ذكرت قضيب البان عند شيخنا محيي الدين عبد القادر ﷺ ، فقال : هو ولي مقرب ذو حال مع الله - تعالى - ، وقدم صدق عنده ﷻ ، [قلت] : فإنه ما تراه يصلي ، فقال : إنه يصلي من حيث لا ترونه ، ولا يخرج يومًا ولا ليلة وعليه منها فرض أبدًا ، وإني أراه إذا صلى بالموصل وبغيرها من آفاق الأرض يسجد عند باب الكعبة ، قال اليافعي : ومن مناقبه ما أخبرني به الشَّيْخ محمد الماريني - رحمه الله تعالى - ، قال : كنت مع الشَّيْخ الإمام كمال الدين بن يونس شارح «التنبيه» بمدرسة الموصل ، فذكروا قضيب البان ووقعوا فيه ، ووافقهم ابن يونس ، فبينما هم في المجلس يخوضون فيه إذ دخل عليهم قضيب البان ، فبُهتوا ، فقال : يا ابن يونس أنت تعلم كلَّ ما يعلمه الله ؟ قال : لا ، قال : فإن كنت [لا] تعلم [فـ] أنا من أهل العلم الذي لا تعلمه أنت ، فلَمْ يدر ابن يونس ما يقول .

قال الماريني : فقلت في نفسي : لا بد أنْ أَلْزِمَه اليوم والليلة حَتَّى أراه ما يصنع ، فلزِمْته بقية يومي ، فلمَّا كان العشاء اخترقَ الأزقَّة ، وأخذ منها سبع كِسَر ، وأتى إلى باب دارٍ فطرقَهُ ، فخرجتْ إليه عجوزٌ وقالت لهُ : يا قضيب البان أبطأْتَ علينا ، فناولها تلك الكِسَر وانصرف ، حَتَّى أتى باب الموصل وهو مغلق فانفتح لهُ ، فخرج وأنا خلفه ، ومشى يسيرًا وإذا نهرٌ يجري ، وعنده شجرة ، فخلع ثيابه واغتسل في ذلك النهر ، وعمد إلى ثيابٍ مُعلَّقة على تلك الشجرة فلبسَها ، وانتصب يصلي إلى أن طلع الفجر ، وغلب عليَّ

النوم ، فما استيقظْتُ إلَّا بحرِ الشمس وأنا في صحراء مُقْفرة لا أرى بها أحدًا، ولا يتزو إليَّ بنيانٌ قريبٌ ولا بعيد ، فوقَفْتُ مُتحيِّرًا لا أدري بأيِّ أرضٍ أنا ، فمرَّ الركب فأتيتُهم وسألتُهم ، وقلتُ لهم : أنا من الموصل ، وخرجتُ منها الليلة وقتَ العشاء ، فأنكروا أمري ، وقالوا : ما ندري أين تكون البصرة ، فتقدَّم إليَّ شيخٌ منهم ، وقال : أخبرني بقضيتك ، فأخبرتُه ، فقال : والله لا يقدر على ردِّك إلى الموصل إلَّا الذي جاء بك إلى هنا ، يا أخي أنتَ ببلاد المغرب ، وبينك وبين الموصل ستة أشهر ، فامكُثْ هاهنا لعله يعود[1] .

ثم تركوني وساروا ، فلمَّا كان الليلُ إذا أنا بقضيب البان قد نَزَعَ ثيابَه واغتسل ، وقام يصلي إلى الصباح ، فلمَّا طلع الفجر نزع تلك الثياب ولبس أهدامه ، وسار فتبِعْتُه ، فلم يلبث إلَّا يسيرًا ، حَتَّى جئنا إلى الموصل ، فالتفتَ إليَّ ، وقال لي : لا تَعُدْ إلى مثلها . وإياك وإفشاء الأسرار ، قال : فوافَيْنا الناس يصلُّون الصبحَ بالموصل[2] .

---

(١) أما كان أولى به أن يصلي في الكعبة وهي أقرب إليه من المغرب . إن هذه القصص المصنوعة عن أولياء الله الصالحين لا تزيد عقول الناس إلا حيرة واضطرابًا ، والمراد بالباطن في الإسلام ليس هذه الأعاجيب ، إنما هو إخلاص أعمال القلوب ، وتحضرنا هنا الكثير من الآيات والأحاديث التي تعتد بعمل القلب وبالنيات ، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (الأحزاب ٥)، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ... » . وقدر عرَّفنا رسول الله ﷺ على ثلاثة من المسلمين الذين يدخلون النار قبل غيرهم ، والغريب أن فيهم قارئ القرآن والمجاهد ولكن ينقصهم الإخلاص، ويثبط أعمالهم الرياء ، فهذا هو الباطن الذي أمرنا الإسلام بتطهيره من أمراض النفوس ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ (الشمس ٩) ، ويُحسب لكبار المتصوفة أنهم قدموا بسلوكهم ومؤلفاتهم أعمالا قيمة في هذا السبيل ، مثل السلمي والزرُّوق وغيرهما ، جزاهم الله خيرًا ، أما حين يتم التوسع في الكلام على الباطن ويقول مدعيه « كفرت بدين الله » ويطالبنا مريدوه بالتأويل ، وحين يترك الإنسان الصلاة بدعوى أنه ممن سقط عليه التكليف ، أو أنه يصلي في الكعبة ، فذلك ليس من الباطن الإسلامي ، والله أعلم .

(٢) لا يمكن أن يكون الناس في الموصل يصلون فجر ذلك اليوم الذي صلى فيه قضيب البان الصبح في المغرب الأقصى فالفارق الزمني بين البلدين يجعل ذلك مستحيلا ، وهذا الأمر فات صانع الحكاية .

قال ﷺ: ومن مناقبه ﷺ، عن الشريف أبي عبد الله محمد بن الجعفري ابن عبد الله الحسيني الموصلي، قال: سمعت أبي - رحمه الله تعالى -، يقول: كنت سيئ الظن بقضيب البان، على كثرة ما يبلُغُني من كراماته ومناقبه ومُكَاشَفاته، وكنت عزمتُ على أن أكلِّم السلطان في إخراجه من الموصل، إذ رأيت قضيب البان مُقْبلًا من رأس الزقاق، على هيئته المعروفة، ولم يكن ذلك الوقت في ذلك الزقاق واحد غيره وغيري، فقلت في نفسي: لو كان معي أحدٌ أمرتُ بإمساكه، فمشى خطوات، وإذا هو على هيئة دركي بصورة على غير صورته الأولى، ثُمَّ مشى خطوة أخرى، وإذا هو على هيئة فقيه غير الصورة المتقدِّمة، وقال: يا قاضي هذه أربع صور رأيتهن، فمَنْ قضيبُ البان منهن حَتَّى تُكلِّم السلطان في إخراجه؟ فلم أتمالك أن انكببت على يديه أقبِّلُها، واستغفرت الله - تعالى -.

قال: ومن مناقبه ﷺ، عن الشَّيْخ الأصيل، أبي المفاخر علي بن الشَّيْخ أبي البركات بن صخر بسنده المتصل، أن قضيب البان ﷺ، خرج يومًا عند أذان الظهر، فقال بعض الصَّالحين من الفقراء: هل لك في الصحبة؟ قال: نعم يا أخي بشرط ستر الحال، قال ذلك الفقير: فقلت: نعم، فمشينا غير بعيد، فأتينا إلى مدينة لا أعرفها ولا أدري في أي موضع هي، فقام إليه أهلُها وتلقُّوه، وبالغوا في إكرامه، وإذا هو من أكمل الناس وأوقرهم، وأَوْلَى بهم عقلًا وأدبًا، وأكثرهم خشوعًا، فصلى بهم الظهر والعصر، والمغرب، والعشاء، والصبح، وخرجنا من عندهم، [ونُقِلَت][1] الأسفار، وما أكلنا ولا شربنا، فصار غير بعيد وصارَ يُطعمني من أنواع الفواكه والحلوى، وسقاني ماءً، فوالله ما أكلتُ ولا شربتُ ألذَّ مما أطعمني قضيب البان وسقاني.

(١) في الأصل: وقلت، والمراد: نقلت آنية الطعام.

ولقد خرجنا من تلك المدينة وما معه شيء ، فلم يكن إلَّا يسيرًا حَتَّى أتينا الموضِعَ الذي خرجنا منه ، فقلت لهُ : ما هذه المدينة ؟ قال : يا أخي هذه مدينة من وراء بحر الهند ، أهلُها مسلمون ، ويصلي بهم كلَّ يوم وليٌّ من الأولياء الذين في ذلك الزمان ، لا يدخلها عليهم إلَّا وليّ ، ولو لَمْ يُؤْذَن لي في مصاحبتك لما استطعْتَ أن ترافقني - رضي الله عنهما ونفعنا بهما - .

وقال أبو البركات ابن صقر -وهو ابن أخي الشَّيْخ عدي بن مسافر-: مكث عندنا قضيب البان بالزاوية شهرًا ، لا يأكل ولا يشرب ، ولا يضع جنبه على الأرض ، وهو مستغرِقٌ ، وكان عمِيَ الشَّيْخُ عدي بن مسافر يقف عليه ، ويقول هنيئا لك يا قضيب البان، قد اختطفَكَ الشهود الإلهي ، واستغرقَك الوَجْد الرباني ، ويقول : لَمَّا يَردُّ عليه سلام وليٍّ الله حقًّا ، إلى غير ذلك . ولا خلافَ أنَّ التَّخييلَ والتطوُّرَ والتخريبَ كثيرٌ في أخبار الأولياء ، والحكايات وإن كانت كما كانت - كما قال الجزائري - لا تثبت بمقتضاها الأحكام ، ولا يَعتمِدُ عليها في الرَّد والقبول الحكامُ ، فهي تزيد الحقَّ وُضوحًا ، وتقوِّيه للمريدين .

فإن قال قائل قاصر مثلي : كيف ما يذكر عن ارتكابهم لهذه الأمور التي يخرِّبون بها ، ما هو مُجْمَعٌ عليه عند جميع العالم ، مع أنَّ الطريقَ مسدودٌ إلَّا على مَنْ أتى من طريق شرعِهِ ﷺ ؟ لقُلْنا لهُ كلامَ اليافعي في هذا المعنى ، ولعل في آخره ما يكون فيه مقصودي ومقصودُه ، وكَشْفُ غُمَّتي وغُمَّته ، ونَصُّ ما نقل الجزائري في معناه عنه : أنَّ الأولياء ﷺ في إظهار الوَلَه والجُنون والتَّخْريب على طبقات ، منهم مَنْ غَلَب عليه الوَلَهُ حَتَّى نُسِبَ إلى الجُنون وهم كثير ، وهم المعروفون بعُقلاء المجانين ، وجنسٌ كثيرٌ منهم وقيد ، فيُحْسَبُ أنهم مجانين وهم العقلاء الأولياء ، ولكن محبَّة الله ومعرفته،

وعظيمَ ما شاهدوا ، من عظمته وجلاله ، وجماله وكماله ، حيَّرهم وهيَّمهم، وشجاهم ، وتيَّهَهم .

ومنهم مَنْ غَلَب عليه السُّكر براحِ مَحَبَّةِ الجمال المشهود ، يَهيم في حبه ، وغاب عن الوجود ، ومنهم آخرون جمعوا في التستُّر بين الوَلَه والتَّخريب ، يوهمون الناس أنهم لا يصومون ولا يُصَلُّون ، ويَكْشفون عوراتهم حَتَّى يُساء بهم الظن ، ولا يُنسبوا إلى الصلاح ، وهم يصلون ويصومون في الباطن، في ما بينهم وبين الله - تعالى - ، وقد شوهد كثيرٌ منهم في الخلوات، ولا يُصَلُّون بين الناس .

وقال اليافعي أيضًا في كتابه « نشر المحاسن الغالية » على ما نقله الجزائري في كتاب « الكرامات العروسية » : التخريب هو أنْ يُفعلَ ما يُظَن به الصَّلاحُ وعِمَارةُ الباطنِ شيئًا يوهِمُ خرابَ باطِنِه ، وعدمَ صلاحه ، [و]ذلك بأشياءَ كثيرةٍ يدُلُّ فِعلُ كلٍّ واحد منها على تهاونِه بالدين ، فالتخريبُ بالشطح هو أن يتكلمَ بكلام عظيم يَدَّعي فيه حالًا عظيمًا فوق ما يُظَن به ، بحيث يَسقطُ من القلوب ، ويُساءُ به الظن ، فيحصُلُ مقصودُه في نَفْي الصَّلاح عنه ، قال : وإلى ذلك أشرت بقولي في قصيدتي : [طويل]

وبعضٌ إلى التخريب مال تستُّرًا ... لكي لا يُرى فيه الصلاح ويُحمدُ

ثُمَّ قال : وأنواع التخريب كثيرة ، والمخرِّبون كثيرون ، ولا يزالون يتعاطون ما يؤدي إلى إساءة الظن بهم ، وسقوطِهم من قلوب الخلق ، ورميهم بالعظائم ، فيوهِمُ بعضُهم إذا بات عند الناس أنه نائم ، ويَخرجُ إلى بعضِ المزابل يوهمهم أنه يبول ، وليس لهُ بول ولا نوم ، بل يُصلي الصبح بوضوء العشاء ، وبعضُهم يشتُم الناسَ بالألفاظ القبيحة ، وبعضُهم يجعلُ قَصبةً تحت رِجليه كأنها فرسُه ، ويشتغِلُ ببعضِ الحِرَف الدنيَّة ، وبعضُهم

جاءه بعضُ الملوك يزورُه في عسكرِه ، فاستدعى طعامًا ، وجعلَ يأكلُ أكلًا شنيعًا ، فانصرف عنه الملِكُ لما رأى ذلك .

وبعضُهم يأخذُ شيئًا للناس حَتَّى يُنسبَ إلى اللصوصية ، وتزول عنه شُهْرة الصَّلاح ، قال : ومع هذا فلا ينبغي أن يُقْرَب الحرامُ أصلًا ، إلَّا إذا علِمَ بنور الله أنه إن لَمْ يُقْدِمْ على الحرام المذكور دخل عليه من الفساد والضرر أكثرُ مما يَدخل بارتكاب الحرام ، ومع هذا يستدرِكُ ذلك بالاستغراق والعفو لِمَنْ ظلمَه ، بسببِ التخريب بالسبِّ ومجاوزةِ الحق الواجبِ عليه في ظاهر الشرع .

قال : وفي جوازِ ارتكابِ الحرام بالتخريب بمجردِ ظنِّ دخولِ الفسادِ والضررِ الراجحَيْن على فسادِ الحرامِ وضرره [عندي][1] نظرٌ يترتب عليه هذا السؤال، فيقول : إذا تعارضت مفسدتان كبرى ظنية ، وصغرى قطعية، فأيتها أَوْلَى بالدفع ؟ اهـ .

وقد تقدَّم في الاعتقاد والانتقاد عن سيدنا أحمد زرُّوق وغيره ، وسيأتي أيضًا في محل غير هذا ، وإياك ثُمَّ إياك أن تُسيء الظنَّ بالأولياء ، وتَحْملهم على النقص والسِّحْر أو الاستدراج ، وذلك لا يجوزُ شرعًا ، قال إبراهيم بن أدهم ﷺ : أحوالُ أهلِ الله وكراماتُهم لا يُنكرها إلَّا جاهلٌ غيرُ مقتدًى به ، محتجٌ بها لا يدلُّ على نفيها ، ورُوِيَ عنه أيضًا أنه كان على بعضِ جبل مكة ، يحدِّث أصحابَه ، فقال : لو أنَّ وليًّا من أولياء الله قال للجبل : زُلْ لَزال ، فتحرَّك الجبلُ فضربه إبراهيم برجله ، وقال : اسكُنْ فأنا ضربتك مثلًا لأصحابي ، ورُوِيَ عنه أنه ركِب البحر ، وتحرَّكتْ ريحٌ عاصفة ، فوضع

(١) [عندي] : اجتهاد في قراءة كلمة غير واضحة .

إبراهيم رأسه فنام ، فقال لهُ أصحابه : ما ترى ما نحن فيه من الشدة ؟ فقال: أهذه شدة ؟[1] . قالوا : نعم . قال : « إنما الشدة الحاجة للناس » . ثُمَّ قال : اللهم أريتَنا قدرتَك فأَرِنا عفوك ، فصار البحرُ كأنه قدح زيت ، ورُوِيَ عنه أنه كان في بعض الطرق ومعه أصحابه ، فعرض لهم الأسد ، فقال لهُ أصحابه يا إبراهيم هذا السبع قد ظهر لنا ... فلما نظر إليه إبراهيم قال : يا قسورة ، إن كنت أُمرت فينا بشيء فامضِ لِمَا أُمرتَ به ، وإلا فتنحى عنا ، قال : فضرب الأسدُ بذنبه ، ثُمَّ ولَّى هاربًا ، فتعجَّبْنا منه حين فقه كلام إبراهيم ﷺ .

أيها المنكرُ فعليك بالتصديق لوجودهم ، ولِمَا يُنسب لهم من الكرامات، وخَرْق العادات بأحوالهم الظاهرة على عددِ النجوم في السماء ، ونُقَط المطر ، زاد سيدي عبد الوهاب الشعراني ، وأنفاسُ الخلائق من جن وإنس وحيوان وغير ذلك مما لهُ روح ، والله - تعالى - أعلمُ بغيبه ، وأحكم ، وأنشد شعرًا : [بسيط]

[للصَّالحين كراماتٌ تنالُهم ... مِنَ الإلٰه وتخصيصٌ وإيثارُ
صَفَتْ قلوبُهُمُ بالصِّدق واتَّصَفَتْ ... بالنُّور وانْكَشَفَتْ بالنُّور أسرارُ
واسْتَغْرَقُوا كلَّ وقتٍ مِنْ زَمَانِهِمُ ... في طَاعَةِ الله أَوْرَادٌ وأذكارُ
صَامُوا النَّهار وقاموا اللَّيْل ما سَئِمُوا ... حَتَّى تَعَدَّتْ من الخلاء[2] أسحارُ
حَلُّوا بِهِ وَرِوَاقُ اللَّيْلِ مُنْسَدِلٌ ... عَلَيْهِمُ فَتَجَلَّتْ مِنْهُ أنوَارُ
طُوبَى لَهُمْ فَلَقَدْ طَابَتْ إقَامَتُهُمْ ... وشَرَّفَتْهُمُ في البُلدانِ أقرارُ][3]

(١) في الأصل : (إن هذه شدة) والسياق لا يحمل هذا المعنى .
(٢) الخلاء : كذا رسمت .
(٣) تعرض هذا النص للتشويه الكبير من الناسخين ، وأعلاه محاولة لتصويبه .

فَـازُوا مِنَ اللهِ بالزُّلْفَى وَأَسْـكَنَهُمْ جَنَّـاتِ عَـدْنٍ فَنِعْمَ الجَارُ والدارُ (١)

« واعْلَمْ أنَّ للولي معنيين : أحدهما : أنه فعيل بمعنى مفعول ، وهو ممَّن يتولَّى الله – سبحانه – أمره ، قال الله – سبحانه – : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (الأعراف ١٩٦) فلا يكلُه إلى نفسه لحظة ، بل يتولى الحق – سبحانه – رعايته . والثاني : أنه فعيل مبالغة عن الفاعل، وهو الذي يتولَّى عبادةَ الله وطاعته ، فعبادتُه تجري على التوالي ، من غير أنْ يتخلَّلها عصيان . وكلا الموضعين يعني المعنيَيْن واجب تحقُّقه ، حَتَّى يكون الوليُّ عندنا وليًّا في نفس الأمر ، بحيث يتحقَّقُ قيامُه بحقوق الله – تعالى – على الاستقصاء والاستيفاء لجميع ما أمرَ به ، ويتحقق دوامُ حفظ الله -تعالى- إياه في السرَّاء والضرَّاء » قاله القشيري .

قال شيخُ الإسلام : فالوليُّ بالمعنى الثاني هو الذي توالتْ طاعتُه لربِّه ، وارتفعَتْ لهُ درجاتُ قُربِه ، وبالمعنى الأول : هو الذي توالَتْ عليه النِّعَمُ من ربِّه ، والحفظُ لهُ في قلبِه ، وجوارحُه من الزلَّات ، ثُمَّ قال : فيصِحُّ وصفُ العبد بالوليِّ بهذين المعنيين ، فيكون وليًّا بمعنى توالي فضل ربِّه عليه – كما تقرر – وقد عرَّفه القومُ بما حاصلُه : أنَّ الوليَّ لغةً : المحبُّ التابعُ ، وعُرفًا : العارفُ بالله – تعالى – ، وصفاته : المواظبُ على الطاعات ، المجتنبُ للمعاصي ، المعرِضُ عن الانهماك في اللذات والشهوات المباحة . اهـ .

قال النسفي في « شرح العقائد » : العارفُ بحسبِ الإمْكان ، وهو قيدٌ لا بُدَّ منه ، وقد تضمَّنَ عند التأملِ الصَّادقِ ما فصَّله قولُ ابن دهَّاق في «شرح الإرشاد» ؛ للوليِّ أربعة شروط :

(١) في الأصل : فنعم الجار ونعم الدار ، ولا يستقيم به الوزن .

أحدها: أن يكون عارفًا بأصول الدين، حَتَّى يفرِّقَ بين الخلق والخالق، وبين النبي والمتنبئ.

الثاني: أن يكون عالمًا بأحكامِ الشريعة نقلًا وجمعًا، ليكتفي بنظره عن التقليد في الأحكام الشرعية، كما اكتفى عن ذلك في أصول التوحيد، فلو أذهب الله - تعالى - علم أهل الأرض لوُجِد عنده ما كان عندهم، ولأقام قواعد الإسلام من أوَّلها إلى آخرها، فإنه لا يُفهم من قولنا: وليٌّ إلَّا الناصر لدين الله - تعالى -، وذلك ممتنعٌ في حق مَنْ لا يحيط علمًا بدين الله - تعالى -، وقواعده، وأصوله، وفروعه.

الثالث: أن يتخلَّقَ بالخُلق المحمود، الذي يدل عليه الشرع والعقل، فأما ما يدل عليه الشرعُ فالورعُ عن المحرمات، وامتثالُ جميع المأمورات، وأما ما يدل عليه العقل، فهو ما يُثمره العلم بأصول الدين، وهو أنه إذا عَلِم حدوثَ العالم بأسره، لَمْ يتعلقْ قلبُه بشيء منه، لا خوفًا ولا طمعًا؛ لعلمه بأنه في قبضة الله - سبحانه -، إذا علم الوحدانية أخلص لله - تعالى - في سائر أعماله. الربوبيةُ لا تحتملُ الشِّرْكة في شيء، وإذا علِمَ أنَّ القدَرَ سابقٌ بما [هو] كائن لَمْ يَخَفْ فَوْتَ شيء مما قُدِّر، ولَمْ يَرْجُ نَيْلَ شيءٍ مما لَمْ يُقدَّر، هذا هو المعبَّرُ عنه بالرِّضا بالقدر، وبسبب تحقُّقِ ذلك يلزَمُ الرِّفقُ بالخَلق، والصَّفحُ عنهم عند إذايتهم لهُ؛ لعِلمه أنهم لا يستطيعون لأنفسهم - فضلًا عن غيرهم - دفع ضُرٍّ، ولا جَلْبَ نَفْعٍ.

الرابع: أن يلازمَه الخوفُ أبدًا سرمدًا، ولا يجدُ لطمأنينةِ النفس سبيلًا، فإنه لا يحيطُ علمًا بأنه من فريق السعادة في الأزل، أو من فريق الشقاوة، ثُمَّ ينظرُ إلى أسباب الشَّقاوة وأماراتها، فيجدُها منحصرة في المخالَفَات، فهو يخافُ الوقوعَ فيها، ويجتنِبُها، وهذا المعبَّرُ عنه بالورع، وما حصَلَ من

الموافقةِ فهو يخافُ أن يطالبَه ربُّه بالقيامِ بشكرِه ، في ما أنعمَ بِه عليه ، فلا يُطيق ذلك ، وكذا يخافُ أن تَطلبَه نفسُه ، فيحصُل في علمه ما يُفْسِده ، ويحيطُه من الرياء والسُّمعة ، وكذا يخاف من توجُّهِ حقوقٍ عليه للآدميين ، تنتقلُ بها أعمالُه إلى صحائِفِهم ، وهذه أحوالُهم وتجارتُهم ، على حسبِ الحضور مع الله - تعالى - في أبواب القرباتِ ، وأعمالِ الخيرات ، والله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب . اهـ .

نعم في انطباقِ التعريف على تمامِ ما تضمنَّهُ الشرطُ الثالثُ من كلامِه خفاء ، وإن كانت الطاعةُ لا يُعْتَدُّ بها إلَّا بعد موافقةِ الشرع ، فإن قلت : من أين أُخِذتْ هذه الشروط ، حَتَّى اعتبرَها القومُ ؟ قلت: من أمرين: أحدُهما: الاستقراء والتتبع، والثاني: قوله - تعالى - : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (يونس ٦٢-٦٣) فإن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ بدلٌ أو بيانٌ من أولياءِ الله .

[لأن](١) التقوى تُطلق باعتبارات ثلاث : المرتبة الأولى : التوقِّي عن العذاب المخلَّد بالتبرِّي عن الشرك ، وعليه قوله - تعالى - : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (الفتح ٢٦) ، والثانية : التجنُّبُ لكل ما يُؤَثِّمُ من فِعْلٍ أو تَرْك ، حَتَّى الصغائرَ عند قوم ، وهو المتعارَفُ [عليه] بالتقوى في الشرع ، وهو المعني بقوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ (الأعراف ٩٦) ، والثالثة : أن يتنزه عما يَشْغل سِرَّه عن الحق - تعالى - ، ويتبتَّل إليه

(١) في الأصل : بأن أو فإن .

بسِرِّ سِرِّه، وهو التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ (آل عمران ١٠٢).

ولاشك أنَّ القيام بها يتعلَّقُ بمصالح العباد، ويتوقَّفُ عليه المبدأ والمعاد، فرضُ كفاية في الجملة، وأولياءُ الله هم أحقُّ الناس قيامًا بذلك، فإن قلتَ: فقد عيَّن اللهُ المتقين في قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة ٢)، ولَمْ يَعتبِر في مفهومِهم الإحاطةَ بجميع العلوم، ولا اجتناب جميع المؤثَّمات، ولا التورُّع عن الإكثارِ من مباح اللذات والشهوات، قلتُ: تخصيصُ هذه الأنواع الثلاثة بالذِّكْر، لإظهارِ فضلِها على سائرِ ما يدخُل تحت اسم التقوى، من الطاعات والعبادات.

مسألة : تتعلق بما قدَّمنا، [وهي] أنَّ الوليَّ مأخوذٌ من الولي، وهو القُرب، أو الولاء، وهو النصر والإعانة؛ لأنَّ الوليَّ قريبٌ من الله رُتْبةً ومكانة، وناصرٌ لدينه وشريعته. قال بعضُهم: يجوزُ أن يكونَ بمعنى مفعولٍ كجريح وقتيل، أي يتولى الله أمره وتقريبه، وحِفْظه، وحراسَتَه على إدامةِ الطاعة، وتوالي الاستقامة، فيُديمُ لهُ التوفيق، ويمنعَه من الخذلان، وأن يكونَ بمعنى فاعل كعليم وقدير، مبالغةً من الفاعل بموالاتِه عبادتَه وطاعتَه على الدوام، من غير تخلُّلِ عِصيان، وأن يكونَ بمعنى مُفَاعِل أي الموالي للطاعات والقُرُبات، نظيرُه حسيب ونديم، بمعنى محاسب ومنادم. وأنت خبيرٌ بأنَّ كونَه بمعنى فاعل أقرب لقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الأعراف ١٩٦) القائمين بحقوق الله، وحقوقِ العباد، إذ لا يكونُ الصالح إلَّا كذلك.

تنبيه : كلُّ خارقٍ ظَهَرَ على يدِ أحدِ العارفين أو العارفات فهو ذو جِهَتَيْن : جهةُ كرامةٍ من حيث ظهورُه على يد ذلك العارف ، وجهةُ معجزةٍ للرسول ﷺ من حيث إن الذي ظهرَتْ هذه الكرامةُ على يده واحدٌ مِنْ أمَّتِه ؛ لأنَّه لا يَظهر بتلك الكرامةِ أنَّ الآتيَ بها وليٌّ ، إلَّا وهو محِقٌّ في ديانتِه ، وديانتُه هي التصديقُ والإقرار برسالة ذلك الرسول ، مع الطاعة لأوامره ونواهيه ، حتَّى لو ادَّعى هذا الوليُّ الاستقلالَ بنفسِه وعدمِ المتابعة ، لَمْ يكن وليًّا ، ولَمْ يَظْهَرْ ذلك على يده ، فالخارقُ بالنسبة إلى النبي لا يكون إلَّا معجزةً سواء ظهر من قِبَله فقط أو من قِبَل آحاد أمته ، لا يُقال : أين الاقترانُ بالتحدِّي ؟ لأنَّا نقول : يكون الاقترانُ الحُكْمي على ما مرَّ من أنَّ كلَّ خارقٍ ظَهَرَ بعد دعوى للنبوة فهو مستندٌ إليها ، ولا يُشترَطُ تعيينُه ، على أنَّ بعضَهم أجاب بأنَّ هذا مبنيٌّ على عدم اشتراط التَّحدِّي وهو قريب ، وبالنسبة إلى الوليِّ لا يكونُ إلَّا كرامة ، لخلوِّ مَنْ ظَهَرَ على يدِه عن دعوى النبوءةِ ، فالنبيُّ لا بُدَّ مِنْ علمِه بكونِه نبيًّا ، ومِنْ قَصْدِه إظهارُ خوارق العادات ، ومِنْ حُكْمِه قطعًا بموجبِ المعجزات ، بخلاف الوليِّ . انتهى كلامُ بعض المحقِّقين المتأخِّرين .

وعبارةُ القشيري - رحمه الله - : « واختلفوا في أنَّ الوليَّ هل يجوز ، ويعني يصِحُّ ، أن يُعْلَمَ أنَّه ولي أم لا ؟ فمنهم من قال : لا يجوز ذلك » . وقال : إنَّ الوليَّ يلاحظُ نفسَه بعين التَّصغير ، وإنْ ظَهَرَ عليه شيءٌ من الكرامات خاف أن يكونَ مَكْرًا ، وهو يَستشعِرُ الخوفَ دائمًا ، لخوفِ سقوطِه عمَّا هو فيه مِنْ المنزلةِ ، وأن تكونَ عاقبتُه بخلافِ حاله ، وهؤلاء القائلون بذلك يجعلون مِنْ شرطِ الولايةِ وفاءَ المآل ، وقد وردَتْ في هذا الباب حكاياتٌ كثيرةٌ عن الشيوخ ، وإليه ذهبَ من شيوخ هذه الطائفة جماعةٌ لا يُحصَون ، ولو اشتغلْنا بذِكْرِ ما قالوا لخرجْنا عن المقصود .

ومنهم من قال : يجوزُ أنْ يَعلمَ أنه وليٌّ ، وليس من شرطِ تحقُّقِ العِلْمِ بالولايةِ في الحالِ الوفاءِ ، أي العلم بالوفاءِ في المآل ، ولو سلَّمناه فيجوزُ أنْ يكونَ هذا الوليُّ خُصَّ بكرامةٍ هي تعريفُ الحقِّ - سبحانه - إياه أنه مأمونُ العاقبة ، إذ في القولِ بكرامةِ الأولياء واجبةٌ ، [حقٌّ للوليِّ][1] وإن خالجَه خوفُ العاقبةِ ، فما هو عليه من الهَيْبَةِ والتَّعظيمِ والإجلالِ في الحالِ أشدُّ وأتمُّ ، فإنَّ اليسيرَ من الهَيْبَةِ والتَّعظيمِ أهدى للقلوب من كثير من الخوف .

وفي الخبر أنه ﷺ قال في حقِّ عشرة من أصحابه : « عشرة في الجنة من أصحابي »[2] ، فالعشرةُ لا محالة صدَّقوا الرسول - عليه الصَّلاة والسَّلام - ، وعرَفوا سلامةَ عاقبتِهم ، ثُمَّ لَمْ يَقْدَحْ ذلك [باحتمال][3] التبديلِ في حالِهم ؛ ولأنَّ من شرْطِ صِحَّةِ المعرفةِ بالنبوءة الوقوفَ على حدِّ المعجزةِ ويدخُلُ في جملتِه العلمُ بحقيقة الكرامةِ ، فإذا رأى الكراماتِ ظاهرةً عليه لا يُمكِنُه أنْ يُميِّزَ بينها وبين غيرِها ، فإذا رأى شيئًا من ذلك عَلِمَ أنَّهُ في الحال على الحقِّ . ويجوزُ أنَّهُ يُعْرَفُ في المآلِ أي يبقى على هذه الحالة ، ويكونُ هذا التعريفُ لهُ كرامةٌ ، والقولُ بكراماتِ الأولياء صحيحٌ ، وكثيرٌ من حكايات القوم تَدُلُّ على ذلك .

وممن كان يقولُ بهذا ويذهبُ إليه الشَّيْخُ الأستاذ أبو علي الدقَّاق . قال بعضُ المحقِّقين : وقد استبعد بعضُهم القولَ الأول ، فجعل الخلافَ راجعًا إلى أنَّ المؤمنَ : هل يعلمُ أنه ينالُ الولاية ويختم لهُ بها أو لا ؟ فمَنْ جوَّز أنْ

(١) في الأصل حق الولي .

(٢) رواه أبو داود (٤٦٤٨)، والترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه (١٣٣)، وصححه الحاكم في المستدرك ٣/ ٤٩٨، وابن حبان ١٥/ ٤٥٤، والألباني في صحيح الجامع (٤٠١٠) .

(٣) في الأصل إلى احتمال .

تُخرقَ العادةُ للوليِّ في علم ذلك قال به ، ومَنْ لَمْ يُجَوِّزْه ورآه من الغيب الذي اختصَّ به الإله مَنَعَه اهـ .

ثُمَّ الظاهر - والله أعلم - أنَّ الولايةَ غيرُ مكتسبة كالنبوءة ، فهي محضُ فضل الله - تعالى - لا دَخْل للعبدِ فيه ، وإلا لنالَها إبليسُ وبَلعام بنُ باعوراء ، وأكابرُ المعتزلة بجِدِّهم واجتهادهم ، صرَّح بذلك ابنُ حجر الهيتمي في شرح الأربعين من غَيْرِ عزو . وفي حواشي البيضاوي ما يُوهِمُ ظاهرُه جوازَ اكتسابِها ، والحقُّ هو الأول .

واعْلَمْ أنَّ الوَليَّ لا يصِلُ ما دام عاقلًا بالغًا إلى مرتبةٍ يسْقُط عنه التَّكليفُ فيها بالأوامر والنواهي ، لعمومِ الخطاباتِ الواردةِ في التكليف ، واجتماعِ المجتهدين على ذلك ، فما ذهب إليه بعضُ الإباحيين [من] أنَّ العبد إذا بَلَغَ المحبَّةَ وصفاء القلب من الحظوظ والشهوات ، واختار الإيمانَ على الكفر من غير نفاق ، سقط عنه التكليفُ بالأوامر والنواهي ، ولا يُدْخِلُهُ اللهُ النار بارتكاب الكبائر ، والبعض الآخر منهم إلى أنَّه إذا بَلَغَ هذه الحالة سقط عنه التكليفُ بالعبادات الظاهرة ، وتكون عبادتُه التفكُّر ، كفرٌ(١) ووبالٌ وانغماسٌ في بحر الجهالة والضلال .

فإنَّ أكملَ الناس في المحبة والإيمان ، وأرسخَهم قدمًا في مقام التجلِّي والعرفان هم الأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام - خصوصًا حبيب الله محمد بن عبد الله ﷺ ، ومع أنَّ التكليفَ في حقهم أتمُّ وأكمل فقد قال الله لسيد المرسلين : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (الحجر ٩٩) ، فإن قلت : فقد قال - عليه الصَّلاة والسَّلام - : « إذا أحبَّ الله عبدًا لَمْ يضرَّه

(١) كفر : خبر للمصدر المسبوك من (فما ذهب) .

ذنب »[1] . قلت : أُجيب بأنَّ معناه أنَّ اللهَ يحفظُه من الذنوب ، فلا يلحقُه ضررُها ، بمعنى أنَّه إنْ قارفها وفَّقه الله للتوبة منها ، لا بمعنى لا يؤاخذُه بالذنوب إذا ارتكَبها ، ولا بمعنى أنه يمتنِعُ أن يقع من الوليِّ ذنبٌ أصلًا ، فإنَّه مقام النبوءة فقط .

ولهـذا لَمَّا قيل للجُنَيد : أَيَعْصِي الولي ؟ قال : « وكان أمرُ الله قدرًا مقدورًا » ، فالوليُّ محفوظٌ بهذا المعنى ، والنبيُّ معصوم . فإن قلتَ : فما الجوابُ عن قولِ بعضِ أكابر الصوفية : « إذا بلغَ العبدُ السالك مقام العِرفان سقط عنه التكليفُ » ، قلت : وجَّهَهُ بعضُ المحقِّقين منهم بأنه من باب إطلاق المصدر وإرادةِ الحاملِ به ، وهو من الكُلفة بمعنى المشقة ، والعارفُ يعبد ربَّه بلا كُلفة ومشقة ، بل يتلذَّذُ بالعبادة ، وينشرِحُ قلبُه بها ، ويزدادُ شوقُه ونشاطُه ، حَتَّى ذهب بعضُ المشايخ إلى أنَّ الدُّنْيَا أفضلُ من الآخرة ؛ لأنَّها دارُ الخدمة ، والآخرة دار الفضل ، ومقامُ الخدمة للعبد أَوْلَى من مقام الفضل ، وإن كان الحقُّ عند المحقِّقين العكس ، لقوله - تعالى - : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الضحى ٤) ، ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (الأعلى ١٧) كما هو محققٌ في محله .

---

(١) رواه القشيري في رسالته ص٤٤، وابن النجار في ذيل تاريخ بغداد ٣/ ٥٦ من حديث أنس، وذكره السبكي في طبقاته ٦/ ٣٧٥ ضمن أحاديث الإحياء التي لم يجد لها إسنادًا، وضعفه الألباني في الضعيفة (٦١٥) .

[عدد الأولياء]

[واعْلَمْ أنَّ] الأولياء على عدد الأنبياء - كما قيل - مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا[1] ، وإليه ذهب مولانا عبدُ السَّلام بنُ سليم الفيتوري ، واقتصَرَ عليه في كثير من نصائحه ، ونصُّه : « الأولياءُ مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا ، منهم النُّجباء ستمائة ، ومسكنُهم المغرب ، والنُّقباء سبعون ومسكنُهم مصر ، والبُدلاء أربعون ومسكنُهم الشام ، والأخيارُ عشرةٌ سائحون[2] في الأرض ، والأقطابُ سبعة ، كلٌّ واحد منهم في إقليم من الأقاليم السبعة ، والأوتادُ أربعةٌ ، كل واحد منهم في ركن من أركان الدُّنْيَا الأربعة ، والعُمَد ثلاثة يجولون في زوايا الأرض ، ويُصَلُّون خلف الخضر ، ويستشيرون الغَوْث في كلِّ فعل ، والفُضلاء اثنان يمشون خلف الغَوْث ، ولا يفارقونه طَرْفة عين ، إلَّا وقت نوم أو طُهر ، والقُطب الغَوْث واحد ، وصلاته للأوقات الخمسة بمكة . والجرس[3] أعلى منه درجة ، أما الغَوْثُ فيأكُلُ ويشرَبُ ويتصرَّفُ ، ويتعرَّضُ للبلاء النازل من السماء والخارج من الأرض ، وأما الجرسُ فلا يأكل ولا يشرب ، بل يتقوَّتُ بالذِّكر ، وتارة يغيبُ عن الوجود سُكْرًا بحبِّ الله » . إلى أن قال - رحمه الله ونفعنا به - : « هذه عِدَّة الأولياء من غير شك ولا ريب ، كما كنتُ أعرفُهم وأجْتَمِعُ معهم منذ بلغتُ إلى وقتي هذا ، وليس الخبر كالعيان »[4] .

---

(١) لمراجعة مراتب الأولياء وعددهم وطبقاتهم يرجع إلى الباب ٧٣ من الفتوحات المكية للشيخ محيي الدين ابن عربي .

(٢) في الأصل : سائحون .

(٣) في الأصل : جرص ، وهكذا كتبت في الكتاب كله .

(٤) في الأصل : كالأعيان ، وفي النص بعامة أخطاء كثيرة لا يمكنها أن تصدر عن الشيخ الأسمر ، ولذا فالشك في نسبة هذا النص للشيخ قائم .

قلت : ويكفيكَ التصريحُ من مثلِ هذا السلطان بها رآه ، كيف لا وقد مكثَ غَوْثًا أربعين سنة ، بل إلى الوفاة ؟ نعم ، نقل الخطيبُ في تاريخ بغداد عن الكتاني خلاف ما اقتصر عليه الشَّيْخ ، وذهب إليه ، ونصُّ عبارته : « النُّقباء ثلاثمائة ، والنُّجباء سبعون ، والبُدلاء أربعون ، والأخيار سبعة ، والعُمَد ، ويقال لهم : الأوتاد أيضًا أربعة ، والغَوْث واحد ، فمسْكَنُ النُّقباء المغرب ، ومسكَنُ النُّجباء مصر ، ومسكَنُ الأبدال الشام ، والأخيار سائحون في الأرض ، والعُمَد في زوايا الأرض ، ومسكَنُ الغَوْث مكة ، فإذا عرضَتْ الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النُقباء ، ثُمَّ النُّجباء ، ثُمَّ الأبدال ، ثُمَّ الأخيار ، ثُمَّ العُمَد ، فإن أجيبَ فريقٌ أو كلُّهم فذاك ، وإلَّا ابتهل الغَوْثُ ، فلا تتِمُّ مسألتُه حَتَّى تُجاب دعوتُه اهـ » .

وقال ذو النون المصري ﷺ : « النُّقباء ثلاثمائة ، والنُّجباء سبعون ، والبُدلاء أربعون ، والأخيارُ سبعة ، والعُمَدُ أربعة ، والغَوْثُ واحد » . وذَكَرَ أبو بكر المطوِّعي في مَنْ رأى الخضر - عليه الصَّلاة والسَّلام - وتكلَّمَ معه ، وقال لهُ : « اعْلَمْ أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا قُبضَ بكَتْ الأرض ، فقالت : إلٰهي وسيِّدي بقيتُ لا يمشي عليَّ نبيٌّ إلى يوم القيامة ، فأوحى الله - تعالى - إليها : اجْعل على ظهرك مِنْ هذه الأمةِ مَنْ قلوبهم على قلوب الأنبياء - عليهم السَّلام - ، لا أُخْلِيكِ منهم إلى يوم القيامة . قلتُ لهُ : وكم هؤلاء(١) ؟ قال : ثلاثمائة وهم النُّقباء ، وسبعون وهم النُّجباء ، وأربعون وهم الأوتاد ، وعشرة وهم الأخيار ، وسبعة وهم العُرفاء ، وثلاثة وهم المختارون ، وواحد وهو الغَوْثُ ، إذا مات الغَوْثُ نُقِل من الثلاثة واحدٌ ، وجُعل مكانَ

(١) في الأصل : هذه .

الغَوْث[1] ، ونُقل من السبعة إلى الثلاثة ، ومن العشرة إلى السبعة ، ومن الأربعين إلى العشرة ، ومن السبعين إلى الأربعين ، ومن الثلاثمائة إلى السبعين ، ومن سائر الخلق إلى الثلاثمائة ، هكذا إلى يوم يُنفَخُ في الصور اهـ. من حواشي الشفاء .

فهؤلاء نظروا للنُّقُول الظاهرة ، وشيخُنا نظر بعين البصيرة ، وشتان بين النظرين ، كيف وقد قال أهلُ التحقيق : « إن الأحاديث الواردة في تعيين عددِ الأبدال كلَّها ضعيفة»[2] ؟ وأمثلُها ما روى شُريح عن علي بن أبي طالب يرفعُه ، أنه ذُكر عندهُ أهلُ الشَّام وهو بالعراق ، فقال : العنْهم يا أميرَ المؤمنين ، فقال : لا ، إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « البُدلاء يكونون[3] بالشام ، وهم أربعون رجلًا ، كلمَّا مات رجلٌ منهم أبدلَ اللهُ مكانه رجلًا ، يُستسقى بهم الغيث ، ويُنتصر بهم على الأعداء ، ويُصرَفُ عن أهل الشام بهم العذابُ »[4] ورجالُه رواة الحديث إلَّا شُريحًا ، وهو ثقة . وأَوْلى منها

(١) في الأصل : وجعل الغوث مكانه .

(٢) إن الذي تجرأ على رسول الله ﷺ فكذب عليه ، أو غيَّر لفظ حديثه ومعناه حتى أجمع أهل التحقيق على أن حديثه ضمن هذه الأحاديث الضعيفة ، ثم تجرأ على الله فلفق وحيًا في هذا المعنى هل ترونه محلًا للاتِّباع ، والإنسان غير معصوم من الشيطان ، كيف وقد ألقى في أمنية الرسل والأنبياء وقراءاتهم كما جاء في القرآن المجيد : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ (الحج ٥٢) وحاشا أن تُنسب هذه الأقوال لأفاضل المتصوفة وعلمائها من أمثال الشيخ عبد السَّلام الأسمر ، وفي تراثه ما يدل على خلافها ، إلَّا ما كان من نقوله عن الآخرين .

(٣) في الأصل : يكون .

(٤) رواه أحمد ٢/ ٢٣١ من حديث علي بن أبي طالب، وصححه الهيثمي في المجمع ٩/ ٤٩٩، لكن ابن عساكر قال في تاريخه ١/ ٢٨٩: منقطع. ووافقه ابن القيم في نقد المنقول ص١٢٧، والألباني في الضعيفة (٢٩٩٣) وصححه موقوفًا، كما سيأتي .

رواية صفوان بن عبد الله عن عليّ ﷺ من غيرِ رَفْع : « لا تسبوا أهل الشام جمًّا غفيرًا ، فإنَّ بها الأبدال »[1] قالها ثلاثًا . والله أعلم .

وقال الإمام الغزَّالي في « الإحياء » : « ما تغرُبُ الشمس من يوم إلَّا ويطوفُ بهذا البيت رجلٌ من الأبدال ، ولا يطلُع الفجرُ من ليلة إلَّا ويطوفُ به واحدٌ من الأوتاد ، وإذا انقضى ذلك كان سببَ رَفْعِهِ من الأرض » ، وقال في موضع آخر : « الأولياء على عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا ، منهم النُّجباء ستمائة ، والنُّقباء سبعون ، والبُدلاء أربعون ، والأخيار عشرة ، والأقطاب سبعة ، والأوتاد أربعة ، والعُمَد ثلاثة ، والفُضلاء اثنان ، والغَوْثُ واحد ، ثُمَّ الجرسُ وهو أعلى من الغَوْث درجة » إلى أن قال: « وهذا هو الصحيحُ عندي في تعيين عدة الأولياء » اهـ. من نصيحةٍ كتبها لبعض أصحابه .

وهـذا التَّصحيحُ من هـذا العـارفِ مما يؤكدُ ما ذهـب إليـه مولانا عبدُ السَّلام واقتصر عليه ، وهو الصواب[2] . واختاره رفيقُنا العاقب بنُ محمود التُّنْبُكْتي[3]، واستدل على صحَّتِه بقوله ﷺ : « العلماءُ ورثة الأنبياء »[4]، والعلماءَ أهلُ الاستقامة هم الأوليـاء أي على قـدم كلِّ نبيٍّ وليٌّ إلى يوم القيامة ، ولكنَّ أحوالَهم مختلفةٌ ما بين سالك ، ومجذوب ، ومصطلِم[5] ، وأعظمُهم أهلُ التحقيق السالكون الطريق التي هي المحجَّة البيضاء ، هم

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه ١١/٢٤٩، وصححه الحاكم في المستدرك ٤/٥٩٦، ووافقه الذهبي، وقال الضياء في المختارة: الموقوف أولى.

(٢) فما القول إذن فيمن روى عن الخضر ﷺ عن رب العزة ؟

(٣) ترجمته في نيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي، وكفاية المحتاج له .

(٤) هذا الحديث يرفع من شأن العلم والعلماء وقصره على الأولياء غريب .

(٥) المصطلم : من الاصطلام أي الاحتراق بأنوار الجلالة .

أهل الله الذين(١) نصَّ عليهم في كتابه العزيز بقوله : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس ٦٢) .

[أنواع خوارق العادات]

والحاصل أنَّ للأولياء كراماتِهم المشهورة ، وخوارقَهم المعلومة ، [وهي] منزَّهة عن السِّحْر وكذا الشعبذة والخَنْقَطِرَات ، وهما إقلابُ الشيء في أَعْيُنِ الناظر ، وتخييلات وتمويهات كما رأيته بمصر وغيرها مرارًا ، وذلك ضَرْبٌ من السِّحر عند بعضهم ، وقد مرَّ لكَ الفرقُ بين الكرامة والسِّحر ، وقال بعضُ المتأخرين : الخوارقُ ثمانيةُ أقسام ؛ لأنَّ الخارقَ إنْ قارنَ التحدي فمعجزة وإنْ سبقَه ، كتسْليم الحجر وإظلال الغمام قبل البعثة على النبي ﷺ فإرهاصٌ للنبوة ، أي تأسيسٌ لها ، مِنْ أرهصتُ الحائط إذا أَسَّسْتُه ، وإنْ تأخَّرَ عنه بما يُخْرِجُه من المقارنة العُرْفية فكرامةٌ في ما يَظْهر ، وإنْ ظَهَر بلا تحدٍّ على يدَي وليٍّ فكرامة ، وعلى يدِ عاميٍّ مستور بلا سبب فمعونة ، وعلى يدِ ظاهر الفِسْق وهي طِبق دعواه بلا سبب فاستدراج ، وبسببٍ فَسحْر وشَعْبذة ، كأكل الحيَّات وهي تلدغُه ، ولا يتأثر بها .

وإنْ لَمْ تكُنْ طِبْقَ دعواهُ بل ضِدُّها فإهانة ، كما رُوِيَ أنَّه قيل لُمَسَيلِمة الكذَّاب : إنَّ محمدًا كان يضع يدَه على عين الأعمى فيُبصر ، فإن كنتَ نبيًا فلِمَ لا تفعل مثله ؟ فقال : ائتوني بأعمى ، فوجَدَ هناك أعورَ فوضع يدَه على عينه العوراء فعمِيَت الصحيحة ، ورُوِيَ عنه أنه دعا للأعور أن تصير عينه العوراء صحيحة فعادت الصحيحة عوراء ، وتَفَل في بئر متوسطة الحلاوة فصار ماؤُها مرًّا أجاجًا .

(١) في الأصل : التي .

وعدَّها بعضُهم ستة ، فأسقط منها السِّحْر والشَّعْبذة ، وبعضُهم خمسة بإسقاط الإرهاص أيضًا ، لدخوله في الكرامة ، وبعضُهم أربعةً : معجزة ، وكرامة ، ومعونة ، وإهانة ، وعلى هذا اقتصر بعضُهم فأسقط الاستدراج ؛ لأنَّه إهانةٌ بالنظر إلى المآل ، و[أسقط] الإرهاصَ ؛ لأنه كرامةٌ ، كما في بعض الكتب، قال فيه: « لأن الأنبياء قبل النبوة لا يقصرون عن درجة الأولياء ». و[أسقط] الشَّعْبذة ؛ لأنَّها تخيُّلٌ وتمويه ، وإراءاتٌ لِمَا لا أصلَ لهُ ولا حقيقة ، والسِّحر إما بناءٌ على ما ذهبَ إليه الجميعُ من أنَّه ليس من الخوارق لابتنائه على أسباب قضية العادة ، بأنْ يترتب على تعاطيها على وجهها ، وإما بناء على أنه تخييل وتمويه لا حقيقة لهُ ، كما ذهب إليه كثير من المعتزلة . وبعضُهم ثلاثة فأدرج المعونة في الكرامة والاستدراج في الإهانة .

[الكلام عن السِّحْر]

قلتُ : والسِّحْر لغةً : يرجع حاصلُ معناه إلى الإزالة ، وصَرْفِ الشيء عن وجهه بطريق خفي ، ويُطْلَقُ عُرْفًا على أمر خارق للعادة ، صادرٍ عن نفسٍ شِرِّيرة ، لا تتعذَّرُ معارضتُه ، ويقال : علمٌ بكيفيةِ استعداداتٍ تَقْدِرُ بها النفوسُ البشرية على إظهارِ التأثير في عالم العناصر . وفي بعض التآليفِ المعتبرةِ ما نصُّه : « السِّحْرُ إظهارُ أمرٍ خارقٍ للعادة من نفسٍ شِرِّيرة خبيثة ، لمباشَرةِ أعمالٍ مخصوصة ، يجريٌّ فيها التعلم والتعليم » .

وبهذين الاعتبارين يفارقُ[1] المعجزةَ والكرامةَ ، وبأنه لا يكونُ بحسبِ اقتراحِ المقترحين ، وبأنه مختصٌّ ببعضِ الأزمنة والأمكنة والشرائط ، وبأنه

(١) يريد أن السحر يفارق المعجزة والكرامة في الأمرين المذكورين .

قد يُتصدرُ لمعارضتِه ، ويُبذل الجهدُ في الإتيان بمثله ، وبأنَّ صاحبَه رُبما يُعلنُ بالفِسْق ، ويتَّصفُ بالرِّجس في الظاهر والباطن ، والخِزي في الدُّنْيَا والآخرة ، إلى غير ذلك من وجوه المفارقة ، وهو عند أهل الحق جائزٌ عقلًا، ثابتٌ سمعًا ، وكذلك الإصابة بالعين .

وقال المعتزلة : بل هو مجردُ إراءةِ ما لا حقيقة لهُ ، بمنزلةِ الشَّعْبذة التي سببُها خِفَّة حركات اليد ، وإخفاء وجه الحيلة فيه لنا ، على جواز[1] ما مرَّ في الإعجاز من إمكانِ الأمر في نفسِه ، وشمول قدرة الله - تعالى - ، فإنَّ الله - تعالى - هو الخالق ، وإنما السَّاحرُ فاعلٌ وكاسبٌ ، وأيضًا إجماع الفقهاء ، وإنما اختلفوا في الحكم ، يريدُ بتكفِيره أو تبديعِه أو تفسيقِه ، وعلى الوقوعِ وجوهٌ منها : قوله - تعالى - : ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة ١٠٢) ، وفيه إشعارٌ بأنه ثابت حقيقة ، ليس مجرد إراءة وتمويه ، وبأنَّ المؤثِّر والخالق هو الله وحده .

ومنها سورة الفلق ، وقد اتفق جمهورُ المسلمين على أنَّها نزلت في ما كان من سحر لَبيد بن الأعصم اليهودي برسول الله ﷺ ، حَتَّى مرِض ثلاث ليال ، ومنها ما رُوِيَ أن جارية سَحَرتْ عائشة - رضي الله عنها - ، وأنه سُحِر عمر ﷺ فتكتَّفت يدُه ، أي تشنَّجَت .

فإن قيل : لو صح تأثيرُ السِّحْر لأضرَّتْ السَّحرةُ بجميع الأنبياء والصَّالحين، ولحصَّلوا لأنفسهم المُلك العظيم ، وكيف يصحُّ أنْ يُسحَر النبي

(١) في الأصل : على الجواز .

ﷺ، وقد قال الله - تعالى - : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (المائدة ٦٧)، ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ (طه ٦٩)؟ وكانت الكَفَرة يعيبون النبي ﷺ بأنه مسحور، مع القطع بأنهم كاذبون. قلنا: ليس الساحرُ يوجد في كلِّ عصر وزمان، وبكل قُطر ومكان، ولا ينفُذُ حكمُه كلَّ أوان، ولا لهُ يدٌ في كل شأن، والنبي ﷺ معصوم من أن يُهلكه الناس، أو يوقعَ أحدٌ خللًا في نبوءته؛ لأنَّه معصوم من أنْ يوصِلَ أحدٌ ضررًا وألمًا إلى بدنه.

قلتُ: على أنه يجوز تأخيرُ الآية في النزول عن ذلك، قال: ومرادُ الكفار بكونه مسحورًا أنه مجنونٌ أُزيل عقله بالسِّحر، حيث ترك دينَهم. فإن قيل: قوله - تعالى - في قصَّة موسى - عليه الصَّلاة والسَّلام - : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (طه ٦٦) يدلُّ على أنه لا حقيقة للسحر، وإنما هو تخييلٌ وتمويه، قلنا: يجوز أن يكون سحرهم في ذلك الوقت هو إيقاع ذلك التخييل، وقد تحقَّق، ولو سُلِّم فكونُ أثره في تلك الصورة هو التخييل لا يدلُّ على أنه لا حقيقة لهُ أصلًا، وقد يطلق السِّحر على معانٍ - كما قاله بعض الفُضلاء - :

أحدها: ما لَطُفَ وَدَقَّ، ومنه سحرتُ الصبيَّ: اشتملته، ومنها إطلاق السِّحْر [على] سحر العيون[1] على استمالتِها النفوس، ومنه أقوال الأطباء: «الطبيعة سحارة».

الثاني: ما يقع بخِداعٍ وتخيُّلاتٍ لا حقيقةً لها، نحو ما يفعلُه المشعوذ من صرف الأبصار، لِمَا يتعاطاه بخِفَّة يده، وإلى ذلك الإشارة بقوله - تعالى - : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (طه ٦٦)، وبقوله: ﴿ سَحَرُوٓا

(١) في الأصل: ومنها إطلاق الشعر شعر العيون.

أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ (الأعراف ١١٦) .

الثالث : ما يحصُل بمعاونةِ الشياطين بضرْبٍ من التَّقرُّب إليهم .

الرابع : ما يحصُل بمخاطبةِ الكواكبِ واستنزالِ روحانيتها بزعمهم ، قال بعضُ المحقِّقين : « ومنه ما يُؤخَذُ من الطِّلَّسمات ، كالطَّبائع المنقوش فيها صورة عقرب ، في وقت كان العقربُ في العقرب ، فينفعُ إمساكُه من لدغة العقرب ، وكالمشاهَد ببعض بلاد المغرب ، وهي قسنطينة[1] ، فإنه لا يدخلُها ثعبان إلَّا بغير إرادته » .

قال السبكي : « ثُمَّ السِّحْر يُطلَق ويُراد به الآلة التي يُسحَر بها ، ويُطلَق ويُراد به فِعلُ السَّاحر ، واختُلف في السِّحْر ، فقيل: هو تخييلٌ ولا حقيقةَ لهُ، والصحيحُ أنَّ لهُ حقيقةً ، وبه قَطع الجمهورُ ، وعليه عامَّةُ العلماء ، لكن محلَّ النِّزاع : هل يقعُ بالسِّحْر انقلابُ عين أو لا ؟ فمَنْ قال : إنه تخييل فقط منع من ذلك . ومَنْ قال : إن لهُ حقيقة اختلفوا ، هل لهُ تأثيرٌ فقط بحيث يغيِّر المزاج فيكون نوعًا من الأمراض ؟ أو ينتهي إلى الإحالة ، بحيث يصيرُ الجماد حيوانًا وعكسه ؟ والذي عليه الجمهور هو الأول ، وذهبت طائفةٌ قليلة إلى الثاني ، فإن كان بالنظر إلى القُدرة الإلٰهية فمُسَلَّمٌ ، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محَلُّ الخلاف ، فإنَّ كثيرًا ممن يدَّعي ذلك لا يستطيعُ إقامةَ البرهان عليه » .

ونقل غيرُه أنَّ قومًا أنكروا السِّحر مطلقًا ، وكأنه عنى القائل بأنه تخييلٌ فقط ، وإلَّا فهو مكابرة . وقال المازَري : جمهور العلماء على إثبات السِّحر ،

(١) في الأصل : قسطنطينة .

وأن لهُ حقيقة ، ونفى بعضُهم حقيقته ، وأضاف ما يقعُ منه إلى خيالات باطلة ، وهو مردودٌ لورود النقل بإثبات السِّحْر ؛ ولأن العقل لا يُنكر أنَّ الله - تعالى - قد يخرِقُ العادة عند نُطق الساحر بكلامٍ ملفَّق ، أو تركيبِ أجسام .

وقال القرطبي : « السِّحْرُ صناعةٌ يُتوصَّلُ إليها بالاكتساب ، غير أنها لا يَتَوصَّل إليها لدقتها إلَّا آحادُ الناس ، ومادتُه الوقوفُ على خواصِّ الأشياء ، والعلمُ بوجوه تركيبها ، وأوقاتِها ، وأكثرُهُ تخييلاتٌ بغير حقيقة ، وإيهاماتٌ بغير ثبوت ، فيعظُم عند مَنْ لا يَعرف ذلك ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف ١١٦) ، مع أنَّ حِبالَهم وعِصيَّهم لَمْ تَخْرج عن كونِها حبالًا أو عِصِيًّا » . ثُمَّ قال : « والحقُّ أنَّ لبعضِ أصنافِ السِّحْر تأثيرًا في القلوب ، كالحب والبغض ، وفي البدن بالألم والسُّقْم ، وإنما المُنْكَر أنَّ الجمادَ ينقلبُ حيوانًا وعكسه بسحر الساحر ونحو ذلك » .

وقد عُلِم مما نقلناه [من] الفَرْق بينه وبين المعجزة والكرامة ، أنَّ السِّحْر يكونُ بمعاناةِ أقوال وأفعال ، حَتَّى يتمَّ للساحر ما يريد ، والكرامةُ لا تحتاج لذلك، بل إنما تقعُ غالبًا اتفاقية ، وأما المعجزةُ فتمتازُ عن الكرامة بالتحدِّي، ولا يظهرُ السِّحْرُ إلَّا على يدِ فاسق ، ولا تَظْهر الكرامةُ عن فاسق .

واعْلَمْ - أيدك الله بتوفيقه - أنَّ لهم سِحرًا ونجامةً وسيمْياءَ وتَجرُّدًا وكهانة ، والكل من واد واحد ، وربما أُطلق على جميعها اسم السِّحْر ، وقد علمتَ معناه لغةً وعرفًا خاصةً - كما مر - . وقد يُطلق في العرف العام على أمور :

أحدُها : السعي بين الناس بالنميمة .

ثانيها : انفعالُ القلب لتعلُّقه بما يُلقى إليه ، كانفعالِ قَلْب مَنْ في عقلِه خِفَّةٌ بقول بعض المُبتلين : إنه يَعرف الاسم الأعظم ، وأنَّ الجنَّ تطيعه ، فيتأثرُ [بـ]قوله[1] حَتَّى إنه رُبَما أداه انفعالُه إلى مرضٍ أو مطاوعة ذلك المبتلى في ما يحاولُه ، أو نحو ذلك .

ثالثُها : الاستعانةُ بخواص الأدوية ، والمفردات ، كانجذاب المغناطيس للحديد ، فقد حُكِي أنَّ كنيسةً ببلاد الروم عُمِل في جدرانها الأربعة وسَقفها وأرضها ستةُ أحجارٍ من المغناطيس متساويةَ المقادير ، وجُعل في هوائها صليبٌ من حديد ، بقدر ما يتساوى فيه جذبُ تلك الأحجار الستة ، بحيث لا يغلِبُ حجرٌ منها باقيها في الجذب ، فلزَمَ من ذلك وقوفُ الصليب في الهواءِ قائمًا من غيرِ أدلَّةٍ تمسُّكِه ظاهرًا ، فافتُتِن به قومٌ من النصارى .

رابعُها : الأعمالُ العجيبة التي تَظْهرُ من تركيب الآلاتِ على النِّسبِ الهندسية تارةً ، وعلى ضَرورة الخلاء أخرى ، كدوران الساعات ، وجرِّ الأثقال ، فلها أسبابٌ خفيَّةٌ مَنِ اطَّلعَ عليها قَدَر على عملٍ مثلها .

خامسُها : التخيلاتُ والأخذُ بالعيون ، وهي الشَّعْبذةُ المخيَّلة بسرعة فعل صاحبها ، برؤية الشيء على خلاف ما هو عليه .

سادسُها : الاستعانةُ بالجـرِّ عـلى ما يريد بالرُّقى ، والعـزائم ، والتبخيرات .

سابعُها : سحرُ أصحاب الأوهام والنفوس القوية التي إذا تجرَّدت وتوجهتْ نحو شيء أثَّرت فيه ، وأقربُ شاهد لهُ في الشريعة الإصابةُ

(١) في الأصل : عن قوله .

بالعين، وقد أثبتَها النبي ﷺ، وقال: إنها حقٌّ - كما يأتي -. وقد ثبتَ عن جماعة أنهم يقتلون النفس بالهَمَّة.

وثامنُها: الاستعانةُ على ذلك بالكواكبِ والتأثيراتِ التي يحدثها الله - تعالى - عندها، وهو سحرُ الصابئة الذين بعث الله إليهم إبراهيم - عليه الصَّلاة والسَّلام -، مبطِلًا لمقالتهم، وردًّا عليهم، وهي النِّجَامة.

تاسعُها: السِّيمْياء، وهي أنْ يركِّب السَّاحرُ شيئًا من خواصَّ أرضيةٍ، كأدهانٍ خاصَّة، ومائعاتٍ خاصَّة، وكلماتٍ خاصَّة تُوجِبُ تخييلاتٍ خاصَّة، أو إدراكِ الحواسِّ مأكولًا أو مشروبًا، أو نحو ذلك، ولا حقيقةَ لذلك، كما حكى الأوزاعيُّ عن يهوديٍّ كان معه في سَفَر، وأنه أخذَ ضِفْدعًا فسحَرَها حَتَّى صارتْ خنزيرًا، فباعَهُ من قومٍ من النصارى، فلمَّا ساروا إلى بيوتِهم عاد ضفدعًا، فلحِقُوا اليهودي وهو مع الأوزاعي، فلمَّا قرُبوا منه رأوا رأسَه قد سقط، ففزِعُوا وتولَّوْا هاربين، وبقي الرأسُ يقول: يا عُمَر الأوزاعي هل غابوا؟ [فلمَّا][1] بَعُدوا عنه، صار الرأسُ متَّصلًا بالجسد.

فهذه الأمورُ كلُّها باطلة، وأحقُّها باسم النِّجامة ما كان بالكواكب، وأحقُّها باسم السِّحْر ما كان بالخواصِّ التي يَحدثُ عندها فعلٌ خفي، كمرضٍ ومحبَّةٍ وبُغض وتفريق بين زوجين، ودون هذه المرتبة أن يكونَ تخييلًا لا حقيقةَ لهُ، وهو سِحرٌ أيضًا إلَّا أنه دون الأول، وذلك عِلْمُ السِّيمياء، وأما الشَّعْبذةُ فخيالاتٌ مبنيةٌ على خِفَّة اليدِ والأخذِ بالأبصار، فهي دون السِّيمياء.

(١) في الأصل: إلى، والجواب يقتضي [لما].

[استخدام الجان]

وأما استخدامُ الجان فلا يُسَمَّى سِحْرًا بالحقيقة ، ومن هنا قال بعضُ المتأخرين : إنَّ حركة العجباتي كالمُوَّاه ، والقرَّادين ، وأكلةِ التُّراب ، والأعوادِ ، ليست من السِّحْر .

وأما تجرُّدُ النفوس فليس من السِّحْر في شيء ، بل رُبَّما تجرَّدتْ لخير ، وربما تجرَّدتْ لشر ، وقد حُكي أنَّ السلطان أمين السلاطين لما غزا بالجُند ، أتى إلى قلعةٍ منيعةٍ عصتْ عليه مرة ، فخرج عليه بعضُ أهلها ، وقال : إنك لا تَقْدِرُ عليها ، إلَّا أن تصنعَ ما أقولُ لك ، فقال لهُ : فقل لي . قال له : إذا كان وقتُ طلوع الشمس غدًا ، والجيشُ يضربُ الطبول حَتَّى تصير كأنها طبلٌ واحد مُزعج ، فازْعَقْ على القلعة أنْتَ والجيش يدًا واحدة ، ففعَلَ ففتَحها ، ثُمَّ سأله عن السبب ، فقال : إنَّ أهلَ هذه القلعة أصحابُ هِمم وتوجُّهات ، وقد صرفوا هممهم إلى دَفْعك عنها ، ولا يشوِّشُ على نفوسهم ويفرِّقُها شيءٌ كالطبول المزعجة ، وجَلبات العسكر ، فلمَّا فعلتَ ذلك تفرقَتْ هممُهم ، وشُغِلوا عن التَّوجُّه إلى دفعك ، فنِلْتَ مقصودك .

[الكهانة]

وأما الكهانة قال بعضُهم : كانت في الضَّرْب على ثلاثة أضرب :

أحدُها : أن يكونَ للإنسان رئيٌّ(1) من الجنِّ يُخبره بما يسترِقُ من السَّمع من قِبَل السَّماء ، وهذا القِسْم بَطَل من حين مَبْعث رسول الله ﷺ .

وثانيها : أن يكونَ لهُ رئيٌّ ، يُخبر بما يطرأُ أو يكونُ في أقطارِ الأرض ،

(1) الرئي : يطلقونه على الجني يعرض للإنسان ويطلعه على ما يزعم من الغيب (المعجم الوسيط).

وما خَفِيَ عنه ، مما قَرُب أو بَعُد ، وهذا لا يَبعُدُ وجودُه ، ونفتْ المعتزلةُ وبعضُ المتكلمين هذين الضربين ، وأحالوهما ، ولا استحالة في الثاني ، ولا بُعْد في وجودِه ، لكنَّهم يَصْدُقون ويَكْذِبُون ، والغالبُ كَذِبُهم ، والنَّهْيُ عنْ تصديقِهم والسَّماعِ منهم عام .

الثالثُ : المنجِّمون ، وهذا الضَّربُ يخلُق الله فيه لبعضِ النَّاس قوةً ما ، لكنَّ الكذِبَ فيه أغلب ، ومنه العِرافة ، وصاحبُها العرَّاف ، وهو الذي يستدِلُّ على الأمورِ بأسبابٍ ومُقدِّمَات ، يدَّعي معرفتَه بها ، وقد يعتقِدُ بعضُ أهل هذا الفن في ذلك بزَجْر الطير ، وطَرْق الحصى ، ورَصْد النجوم ، وهذه الأضرُب كلها تُسَمَّى كهانة ، وقد أكْذَبهم كلُّهم الشرع ، [و]تزكيةُ الحق أنَّ السِّحْر من الخوارق ، إذ الخرقُ عبارةٌ عن ظهور أمرٍ لَمْ يُعْتَد ظهورُ مثله ، فقد يترتبُ ظهورُ ضررِ شخصٍ على عُقَدٍ يعقدُها ساحرٌ خبيثٌ في خيوط ، وينفُث عليها ، فهذا الأثرُ وإن لَمْ يتخلَّفْ عن هذا العمل في الأكثر ، لكن رُبَما يترتَّبُ عليه [ضررٌ] إذا صدَرَ عن بعضِ العَمَلة ببعضِ الأمكنةِ في بعض الأزمنةِ على شرائطَ مخصوصةٍ ، إما بمجرَّدِ إرادةِ الفاعل في المختار على ما هو قاعدةُ الملة ، أو بتأثيرٍ من نفسٍ خبيثة مع الشَّرائط المعينة على ما هو قانون الفلسفة .

فقول مَنْ قال : السِّحْر لترتيبه على أسباب ، كلَّما باشرَها أحدٌ يخلُقُه الله - تعالى - عَقِبها ليس بخارق للعادة ، وإن كان القومُ يُطلقون(١) عليه « فرية بلا مرية » ولا متمسَّكَ لهُ في جَريان المتعلِّم والتلميذ فيه ، إذ لا يتمُّ به عملُه ، بل لابد من الشرائط المخصوصة ، والأزمنة المخصوصة ، وليس شيءٌ منها بلازمِ مقدوريَّتِه للفاعل . فتدبَّرْه بإنصاف .

(١) في الأصل : يطبقون .

[ما جاء في العين]

واعْلَمْ أنَّ ما يعدُّهُ القوم في مباحثِ الخوارقِ الإصابةَ بالعين ، وهو أنْ يكون لبعض النفوس خاصيةٌ بأنها إذا استحسنَتْ شيئًا لَحِقَتْهُ الآفة ، وثبوتُها يكاد يجري مجرى المشاهدات التي لا تفتقِر إلى حُجَّة ، وقد قال النبي ﷺ : « العين حق »[1] ، وقال : « العينُ تُدخِلُ الرجلَ القبر ، والجملَ القدر »[2] . وذهب كثير من المفسرين إلى أنَّ قوله – تعالى – : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ (القلم ٥١) ، نزلت في ذلك .

قالوا : وكانت العين في بني أسد ، كان الرجلُ منهم يتجوَّع ثلاثة أيام ، فلا يمرُّ به شيءٌ يقول فيه : « لَمْ أرَ كاليوم مثل هذا » إلَّا عانَهُ ، فالتمسَ الكفار من بعض من كانت لهُ هذه الصفة أن يقول في رسول الله – عليه الصَّلاة والسَّلام – ذلك ، فعصمه الله – تعالى – . واعترضَ الجُبَّائي بأنَّ القوم ما كانوا ينظرون إلى النبي ﷺ نظر استحسان، بل نظرَ مقتٍ وتغيُّض. والجوابُ : أنهم كانوا يستحسِنُون منه الفصاحة ، وكثيرًا من الصفات ، وإن كانوا يُبغضونه من جهة الدين .

[الرُّقى والتعويذات]

ثم للقائلين بالسِّحْر والعين اختلافٌ في جواز الاستعانة بالرُّقَى والعَوْذة[3] ، وفي جواز تعليق التمائم ، وفي جواز النَّفْثِ والمسح ، ولكل من

(١) رواه البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة .

(٢) رواه ابن عدي ٦/ ٤٠٨، وأبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٩٠، والشهاب في «مسنده» ٢/ ١٤٠ من حديث جابر، وضعفه السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص٤٧٠، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٢٤٩) .

(٣) العوذة : التميمة والرقية .

الطرفين أخبارٌ وأحاديث وآثار، والجوازُ في كلِّ ذلك هو الأرجح، والمسألة بالفقهيات أشبه، والتَّرْك لذلك أحسن؛ لأنَّ الرَّقْي للجن بالعجمية يضرُّ الرَّاقي، وهو أكثرُ ما يتعاطاه المتطلِّبة في هذا الزمان، وهو أمرٌ صعب لِمَنْ لا يفْقَهُ اللغة العجمية، [إذ] رُبَما يقع في ما يُؤَدِّيه للخروج من الملة الإسلامية.

قال الوليُّ العارف بالله سيدي عبد الله العبَّادي - في ما كتب لأخ لهُ - : «وإياك ثُمَّ إياك اتِّباع علم العزائم، والطَّلْسمات، والجداول، ولو صحَّ مشاهدةً، فهو ليس من الحق»، إلى أن قال: «ولَمْ يُسمَّ معونةً، ولا كرامة، بل رُبَما ضَرْبًا من السِّحْر».

وقال الشَّيْخ المحقق سيدي أحمد زرُّوق في «النصيحة الكافية»: «الصحيح عند العلماء أنه لا يجوزُ أن يُسمى اللهُ - تعالى - إلَّا بما سَمَّى به نفسه في كتابه، أو على لسان نبيه، وإن كان مشتقًا، بلا خلاف في منع غير المشتقِّ، ومن ذلك نِسْبةُ بعضِ الألفاظ الأعجمية المجهولة المعنى إلى أنها أسماؤه - تعالى -، حَتَّى رُبَما فضَّلها بعضُ الجُهال على المعروفة المعنى، لما يشهدُ من خاصيتها». وقد سئل مالك - رحمه الله - تعالى - عنه، فقال: «وما يدريك لعله كُفر» نقله المازَري.

وكان بعضُ المسلمين يعزِمُ على جانٍّ بحَضْرة بعضِ النصارى فيجعل النصارى يضحكون، فسألهم عن ذلك، فقالوا: عَجِبْنا منك تسبُّ ربَّك ونبيَّك، وتظنُّ أنك في شغل. والعزائم من الباطل، ففي المدونة: «أما الباطلُ فكلُّ شيء ليس من الحق، ولا يهدي إليه، قال الله ﷻ: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ﴾ (يونس ٣٢). [و] من الباطل السِّحْر، والطلسمات،

والعزائم ، والأشكال ، والأوفاق ، والمواليد ، والحظ ، والفال ، والقرعة » انتهى مرادنا منه - والله الموفق - .

وقَصَّ بعضُ العلماء في شرحه على « الحكم العطائية » أن من علامات سوء الخاتمة أنْ يدَّعي الولاية من ليس من أهلها ، وفي صحيح مسلم وغيره واللفظ لمسلم : « لا تقومُ الساعة حَتَّى يُبعَثَ دجَّالون كذَّابون قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله »(1) ، قال [الأُبِّي] : دعوى النبوءة أعم من دعواها لفظًا أو معنى .

[الأولياء وأحكام الشرع]

واعْلَمْ أنَّ الأولياء غيرُ مأمونين من سُوء الخاتمة - والعياذ بالله تعالى - ، ولهذا ورد عن كثير من الصحابة والتابعين فمَنْ بعدهم الخوفُ منها ، وذَكَرَ بعض العارفين أنه شاهَدَ سبعين عارفًا مُكِرَ بهم، وماتوا على غير الإسلام ، - نسأل الله العافية في الدين والدنيا والآخرة - فينبغي للعاقل اللبيب أن لا يأمن من مكر الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ (الأعراف ٩٩) . فإذا رأوا شيئًا ظهرَ على يده فلا يغترُّ به ، بل يجدُّ في اتِّباع النبي ﷺ ، في أقواله ، وأفعاله ، والتخلق بأحواله واقتفاء السلف الصالح في ما لَمْ يرد عنه، عليه الصَّلاة والسَّلام فيه شيء ، إذ الطريقة عند القوم عبارة عن ذلك.

وأما الحقيقةُ عندهم فعبارة عن مُشاهَدة باطن الأمر ، وأنَّ الكل من الله - تعالى - وإليه ، والشريعةُ عندهم عبارةٌ عن القوانين المأخوذة من الكتاب والسُّنَّة ، وما يرجع إليهما ، وأنت إذا تأمَّلْتَ بعين الرحمة لنفسك ،

(1) رواه البخاري (٥٣٠٩)، ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة .

وجدْتَ الجميعَ موصِّلين إلى الحقِّ بطريق واحدة ، هي امتثالُ الأوامرِ واجتنابُ النواهي ، والرضا بالأقدار ، والتبرِّي من الحول والقوة ، وتدبير الاختيار . [و] غاية الباب أنَّ الملَك أقام صاحب الشريعة مقامَ حجابٍ يمنعُ من دخول حرمه ، وأقام صاحبَ الحقيقة مقام صاحب سرِّه ، المأذون له في الدخول عليه ، في كل وقت ، ومن أيِّ باب ، وعلى أيِّ حال من غير أن ... ذلك الإذن إلى علم ذلك الحجاب والبواب ، فإذا عدَلَ صاحبُ الحقيقة على ما اختص بعلمه من ذلك الإذن العام ، وأراد الدخول إلى ذلك الحرَم ، منعه ذلك الحجاب ؛ لعدم وصول علمِ ذلك الإذن ، حَتَّى ربما يفضي ذلك إلى إتلاف المهج ، وليس على واحد منهما عند ذلك الملك من حرج ، فشدَّ يدك على هذا التعريف البديع ، ولا تكن من المغرورين ، ونسأل الله أن يُخلصَ ودَّه للجميع ، ولا تتوهَّم، أَيدَّك الله بتوفيقه ، وأمدَّك ببوارق تحقيقه، أن من أهل الحقيقة الباطنة من يعتقد غير هذا .

وأما المُلحدون القائلون بأنَّ النصوص الواردةَ في الكتاب والسُّنَّة ليست على ظواهرها، بل لها معانٍ باطنةٌ خفيةٌ لا يعرفُها إلَّا المعلِّمُ المعصوم، قصدًا إلى نفي الشريعة من أصلِها ، حَتَّى قالوا هذه(1) الأحكام الشرعية إنما يُحكم بها على العامة والأغبياء ، وأما الأولياءُ وأهلُ الخصوص فَلِصَفاء قلوبهم من الأكدار ، وخُلوِّها من الأغيار ، تتجلَّى لهم العلومُ الإلٰهية ، والحقائقُ الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمُون أحكام الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكامِ الشرع الكليَّات ، كما اتفقَ للخضر

(1) من هنا ينقل بتصرف ما ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري بشرح صحيح البخاري حديث رقم ١٢٢.

عليه السلام ، فإنه استغنى بما ينجلي له من العلوم ، عمّا عند موسى عليه السلام[1] . فهذه زندقة وكُفر ، يُقتل قائلُها ولا يُستتاب ، فإنه إنكارٌ لما عُلِمَ من الشرائع، فإن الله ﷻ أجرى سنته ، وأنفذ حِكْمته بأن أحكامه - تعالى - لا تُعلم إلَّا بواسطة الرسل - عليهم الصَّلاة والسَّلام - السفرة بينه وبين خلقه ، كما قال الله - تعالى - : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ... ﴾ (البقرة ١٣) . إلى غيرها من الآيات الدالة على إرسال الرسل بالجملة .

فقد تطابقَ المعقولُ والمنقولُ على أنه لا طريق لمعرفة الأوامر والنواهي إلَّا الرسلُ - عليهم الصَّلاة والسَّلام - ، فمَنْ قال : إنَّ هناك طريقًا آخر تُوَصِّلُ إلى ذلك فقد كَفر ، يُقتل ولا يُستتاب ، كيف وهو يتضمَّنُ إثباتَ نبيٍّ بعده - عليه الصَّلاة والسَّلام - ؟ وهو خلافُ المتواتر من أنه خاتمُ النبيين ، وإمامُ المرسلين[2] .

فإنْ قلتَ : أجمعَ القومُ على أنَّ لله ثلاثمائة وستًا وستين طريقةً كالكيلانية ، والأدهمية ، والشاذلية ، والماضوية ، والمُرسية ، والوفائية ، والدهمانية إلى آخرهم ، وفيهم مَنْ قال ما يوهم الإلحاد ، قلنا : حُكمُنا هذا فيمَنْ خالف صريح الكتاب والسُّنَّة ، وضرب على أقوال العلماء ، وجعلهم في غير العقلاء ، ونسبهم للجهل ، وادَّعى القُطبانية العظمى ، وزَعَم أنَّ علمه من الله ﷻ ، من غير واسطة الرسول ﷺ ، [و]أثبت لنفسه خاصة النبوءة ، لقوله لأهل عصره : « أخذت العلم من غير قراءة وواسطة عن قلبي ، وقلبي أخذ عن ربي ، وأنا أعملُ بمقتضاه ، لا نحتاج في ذلك إلى

(١) إلى هنا ينتهي نص ابن حجر ، ويبدأ نص آخر أخذه ابن حجر من القرطبي .
(٢) إلى هنا ينتهي نص القرطبي الذي نقله ابن حجر في الحديث المذكور .

كتاب ولا سنة ، فهو الآن بهذا الوصف من المجرمين ، المتظاهرين بالدين ، المستترين بزيِّ المسلمين ، إلى أن قال : إذ لا آخذ عن الموتى ، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت ، ومثل هذا كثير ، فما هذا إلَّا بهتان عظيم - نسأل الله سبحانه أن يعافينا منه ، ومما ابتلى به كثيرا من خلقه ، إنه على كل شيء قدير - .

وأما طُرقُ الصالحين المُجمع عليهم فلا مدخل لنا في الحكم عليهم ، ولا في الإنكار لما لديهم ، بل بالتصديق بهم، والرجوع إليهم ، وإلى أهلهم، والاقتداء بأثرهم ، كالكيلانية ، والأدهمية ، والجُنَيدية ، والشاذلية ... إلخ . فالكلُّ على نهج قويم، وصراط مستقيم - رضي الله عن أهلهم وأضرابهم - فكلهم عالمون ، عاملون ، زاهدون ، مجتهدون ، في الذبِّ على الدين ، يأخذون بالأحوط ، مستنبطون علومًا وأسرارًا ، معتصمون بحبل [الله] ، متمسِّكون بسُنَّة رسول الله ﷺ ، علومهم نافعة ، وأنوارهم ساطعة ، عدول في الشرع ، اختارهم الله ﷻ لدينهم .

فلما دقَّقنا النظر في كتبهم علمنا أنه لا يخرج شيءٌ من علومهم عن الشريعة ، وكيف تخرج علومهم عن الشريعة الشريفة وهي التي وصَّلتهم إلى الله ﷻ في كل لحظة ؟ قال الشَّيْخ أبو القاسم الجنيد - رحمه الله - : « عِلْمُنا هذا مشيَّدٌ بالكتاب والسُّنَّة ، ردًّا على مَنْ توهَّم خروجه عنهما في ذلك الزمان وغيره ، وقد اجتمع القوم على أنه لا يصحُّ في التَّصدُّر في طريق الله ﷻ إلَّا مَنْ تبحَّر في علمِ الشريعةِ وعلمِ منطوقِها، ومفهومِها، وخاصها، وعامِّها ، وناسخها ، ومنسوخها ، وتبحَّر في لغة العرب ، حَتَّى عرف مجازاتها ، واستعاراتها ، وغير ذلك » .

ولا شك عندي أنَّ عِلْمَ التصوف تفرعٌ من عين الشريعة ، فمن تبحر في علم الشريعة وعمل بها عَلِم علَّمه اللهُ ما لَمْ يعلم ، وأعطاه الله – تعالى – هناك قوةَ الاستنباط نظيرَ الأحكام الشرعيةِ على حد سواء ، فيستنبطُ في الطريق واجبات ومندوبات وآدابًا ، ومحرمات ، ومكروهات ، وخلافه ، نظير ما فعله المجتهدون . [فـ]تأمل .

وليس إيجابُ مجتهد باجتهاد شيءٍ لَمْ تصرِّحْ الشريعةُ بوجوبه أولى من إيجاب وليِّ الله – تعالى – حُكمًا في الطريق لَمْ تصرِّح الشريعةُ بوجوبه(1) – كما صرح به اليافعي وغيره – ولكل زمان سادة وقادة ، وأنشد في المعنى : [طويل](2)

فقلْ لي على الأحباب يا واصفًا لهمْ ... رجالٌ لهم أسرارُ شائع خَيرُهمْ (3)

ورددْ فضائلهم واطربْ بذكرهمْ ... واتلُ مدائحهمْ تفوزُ (4) بقربهم

رجالٌ إذا أمَّ المريدُ جنابَهمْ ... لحظُّوه بالأسرار عند [مليكهم] (5)

يمدوا (6) له أشهى لذيذِ طعامهمْ ... ويسقوه بالطاسات أصفى خمرهم

عليهم سلامُ الله كافةَ حزبهمْ ... على(7) شيخنا الأسنى يعمُّ جميعهم

---

(1) لاجتهاد المجتهد في الشريعة أصول تجب عليه مراعاتها ، فإذا توفرت لهذا الولي تلك الشروط وكان عالمًا بها جاز أن يكون مجتهدًا ، وربما كان ذلك من باب أولى ، أما إذا لم يكن مؤهلا للاجتهاد فولايته لا تسمح بالاجتهاد الشرعي مهما بلغت عبادته ، والله أعلم .

(2) ما سيأتي شعر ضعيف وفيه خصائص العصر لفظًا ومعنى .

(3) في الأصل : قل على الأحباب .

(4) تقتضي القاعدة حذف الواو بسبب الجزم ، ولكنه راعى الوزن فأثبتها .

(5) في الأصل عند ربهم .

(6) القاعدة : يمدون وبذلك ينكسر الوزن .

(7) في الأصل : وعلى ، وبذلك ينكسر الوزن وإن صح المعنى .

[الكلام في العُذَّال]

اعلم أيها المحِبُّ المتمسِّكُ بسلسلة الأستاذ مولانا عبد السَّلام الأسمر الفيتوري – رحمه الله تعالى، ورضي عنه، ونفعنا به، وببركاته وبركات علومه – أنه قال بعضُ العارفين المحققين: مما نوديتُ به في سرِّي، وانشرح له صدري، وقبِلَه عقلي، أن العُذَّال خمسةُ أقسام:

قسم تعرَّض بالإنكار على الأنبياء – عليهم الصَّلاة والسَّلام –، ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله، وماتوا على ذلك، فهمْ كفارٌ على الإطلاق، إلَّا من تاب وآمن وعمل صالحًا.

وقسم تعرَّض للخلفاء الراشدين ﷺ بسوء الظن، والانتقاد عليهم في أقوالهم وأفعالهم، فهم من الضالِّين المُلْحدين الذين خسِروا الدنيا والآخرة – عافانا الله مما ابتلاهم به – إلَّا مَنْ رجع عن ذلك، ووافق أهلَ السُّنَّة والجماعة، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وقسم تعرَّض بالإنكار على العلماء العاملين العارفين بالله ﷻ الناطقين بالمواهب الربانية، والعلوم اللدنية الذين اختصهم الله لحضرته، وأطلعهم على أسرار ولايته، فمَنْ شاهَدَ منهم ما يخالف ظاهرَ الشرع العزيز، وأنكر عليهم ذلك انتصارًا للشرع العزيز، وحمايةً له، كما فعل موسى – عليه الصَّلاة والسَّلام – في قصة الخضر عليه السلام، حين التقيا، وهي قوله –تعالى–: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (الكهف ٦٦)، إلى آخرها، فسيدنا موسى – عليه الصَّلاة والسَّلام – اعترض [على] الخضر عليه السلام بظاهر الشرع، فهو مصيب من حيث الظاهر، والخضر عليه السلام حكم بالعلم

الباطن[1] كما أخبر الله عنه في القصة ، فإن الخضر على علم لَمْ يُطْلِع اللهُ موسى عليه ، قال الله - تعالى - مخبرًا عنه : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ (الكهف ٦٨) ، أيْ علمًا .

وهذا لا يقدَحُ في جناب كليم الله ونبيه سيدنا موسى - عليه الصَّلاة والسَّلام - فهو أفضلُ من الخضر بإجماع ، بعد الكتاب والسُّنَّة . فمَنْ كان معترِضًا للأولياء أهلِ الباطن بهذه المثابة فهو مصيب[2] ، ولا [إثم][3] عليه ، بل هو مُثاب مأجور ، ومَنْ اعترضَهم حسـدًا وغَيْرة منهم ، وانتصـارًا

(١) الرجل الصالح كما وردت قصته في القرآن حكم بما أوحى الله له حين لم ينقطع الوحي ، قال تعالى على لسانه : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ (الكهف ٨٢) فالقضية ليست خلافًا بين ظاهر وباطن ، ولكن بين وحي نزل من الله يعلمه العبد الصالح ولا يعلمه موسى ﷺ .
وقد ثبت لسيدنا موسى ﷺ بأنه مرسل بوحي من الله ليتعلم من هذا العبد الصالح ما انفرد به عن ربه ، وذلك هو مراده من رحلته الطويلة تلك ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ (الكهف ٦٤) فإذا ثبت لنا أن أحدًا يتلقى الوحي بعد خاتم الأنبياء يقينا أخذنا منه ، ولكن اليقين الذي وصلنا هو انقطاع الوحي وختام النبوة والرسالة .

(٢) أغلبُ علماء أهل الظاهر لا ينتقدون الأولياء حسـدًا وغيرة منهم ، كيف وهم يعلمون حديث « من عادى لي وليًا » ولكنهم ينكرون أدعياءً يصدر عنهم ما يخالف صريح القرآن والسنة كأخذهم مباشرة عن الله بعد انقطاع الوحي، والله يقول : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ (الجن ٢٦-٢٧) فنحن أمام أمرين إما أن هؤلاء الأدعياء يزعمون أنهم بلغوا درجة الرسالة ، وهذا لا يقول به مسلم يعرف أن محمدًا خاتم الأنبياء والمرسلين ، وإما أن هذه الدعوى باطلة وينبغي أن ينكر عليها الأولياء قبل غيرهم لأنهم أتقى من غيرهم وأكثر اتِّباعا .
أما الاستدلال بقصة الخضر ﷺ في مثل هذه الحالات والقياس عليها فهو قياس باطل لأسباب ذكر ها العلماء ومنهم الشيخ الدكتور الصادق الغرياني في كتابه القيم «الغلو في الدين» الذي ذكر منها أن تعليم هذا العبد الصالح لموسى ﷺ كان بالوحي ، وهذا لا يتأتى لغيره من الصالحين لانقطاع الوحي . ومنها : أن الخضر لم يخالف شريعة موسى ﷺ ولكنه اختص بمعرفة خاصة بوحي من الله سبحانه .

(٣) في الأصل : (وهم) وهو تصحيف .

لنفسه ، وقَصَـدَ احتقارَهم بذلك ، وهَضْمَ جنابهم عند أتباعهم ، يُخْشى عليه من الموت على سـوء الخاتمة - والعياذ بالله ، عافانا الله من ذلك ، بمنه وكرمه - .

قال بعضُهم : « اعتقِدْ ولا تنتقدْ ، واتبع ولا تبتدع ، واتَّضِع ولا ترفَّعْ ، ومن تورَّع لا يتسِعْ » ، وقال آخر : « الاعتقاد ولاية ، والانتقاد جناية » - كما مر - والتسليمُ أصلُ كلِّ خير - وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه ، بجاه النبي الأواه ﷺ وعلى آله وصحبه أولي الفضل والجاه - .

وقسم تعرَّضَ للولاة الذين ولَّاهم الله - تعالى - على عباده ، فالطاعةُ واجبةٌ لهم ، وإن كانوا عصاة ، قال الله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء ٥٩) ، وقال ﷺ : « اسْمعوا وأطيعوا ولو لعبد حبشي »[1] فمَنْ[2] اعترَضَ لهم بالمحاربة بالفعل أو القول ، إلَّا ما كان على سبيل الإرشاد، فذلك واجبٌ على مَنْ له قدرةٌ على ذلك ، ويكون إرشادهم برفق وقول ليِّن ، قال - تعالى - : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه ٤٤) .

ويُراجعُه مَنْ قَدَر على ذلك المرة بعد المرة ، فإن امتثَل وقَبِل النصيحة فحبَّذا ، وإلَّا تَركه ، ووكَّل أمرَه إلى الله ، وقد ورد أنَّ الإمامَ الجائرَ خيرٌ من الفتنةِ ، وكلٌّ لا خير فيه ، ولا في الشر خيار ، لكنَّ الواجب على مَنْ هو تحت طاعة مثل هذا التوبةُ والانقيادُ لحكم الله - تعالى - وقضائه ، واتباعُ سُنَّة رسول الله ﷺ ، والاجتهادُ في العمل الصالح ، فإنه ورد عن النبي ﷺ

(١) رواه البخاري (٧١٤٢) من حديث أنس.

(٢) جواب الشرط غير موجود ومفهومه عدم الجواز .

أنه قال : « أعمالُكم عُمالكم »(١) ، وقال ﷺ : « كما تكونوا يُولَّى عليكم »(٢) . فينبغي للمؤمن الصادق أن يبتهل إلى الله بالدعاء لأميره ، إن ظهر منه جَوْرٌ في أحكامه ، أو ظُلم بأَخْذ مال ، أو قَتْل نفس بغير حق ، بإصلاح حاله ، عسى الله أن يتوب عليه ، ويُوفِّقه ، ويُصْلِحَ فسادَ قلبه ، فإنَّ قلوبَ الخلق بيد الله ، وهو يُقلِّبُها كيف شاء وأراد . فسبحان مَنْ مرادُه من خلقِه ما هُمْ عليه .

وقسم تعرَّضَ بالحسدِ لِمَنْ خوَّله اللهُ نعمتَهُ من عامة المسلمين ، فيتعرَّضُ لهم بالغِيبَة والنَّميمة ، حسدًا على ما أعطاه الله ، فالموصوفُ بهذا الوصف حسودٌ حقودٌ معاقبٌ ، بالحرمان لا محالة ، كما قيل : « الحسود يموت كمدًا » ، وهذا وصف العامة إلى غير ذلك . فراجع كبيرنا(٣) .

واعْلَم يا أخي أنَّ اللهَ ﷻ يضعُ سِرَّه فيمَنْ يشاء من خلقِه ، [و] اتخذَ الأولياءَ لخِدمته ، وأَوْلَى الولايةَ على خلقِه بمنته ، فطريقة الأولياء : صِدْق ، وصَبْر ، وسخاء ، وطريقُ الولاية أمانٌ وعفوٌ ورضاء ، وينبغي لهم أيضًا أن يكونوا أهلَ عقيدة وتعظيم في جناب الأولياء ، والعلماء ، وحَمَلة القرآن ، وجميع الفقراء الصالحين ، فمَنْ كان من الولاية على هذا الوصف فعاقِبَتُه إن شاء اللهُ محمودةً ، ويُسعده الله ويَسْعد به ، فإنَّ أولياء الله - تعالى -

---

(١) لم أقف عليه مسندًا، وقال السخاوي في «المقاصد» ص٥٢٠: وعند الطبراني معناه عن الحسن، وضعفه العجلوني في «كشف الخفاء» ١/ ١٤٦ و٢/ ١٢٧.

(٢) رواه ابن جميع في «معجم شيوخه» ص١٤٩، وأبو طاهر السلفي في «الطيوريات» ص١٣٥٧، ١٣٥٨، والشهاب في «مسنده» ١/ ٣٣٦، ٣٣٧ من حديث أبي بكرة، وضعفه ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» ٤/ ٢٥، والألباني في «الضعيفة» (٣٢٠).

(٣) يعني الديوان .

متصرفون في الكون[1] بإذن الله - تعالى - ، فمَنْ وضعوا أيديهم عليه استقر ووُفِّق ، ومَنْ رفعوا أيديهم عنه خَسِر وتلف[2] ، وأيَّدهم الله - تعالى - بالكرامات ، منها إجابةُ الدعاء ، قال - عليه الصَّلاة والسَّلام - : « رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرين لا يُؤبَه له ، لو أَقْسَم على الله لأبرَّ قَسَمه »[3] .

فالأولياءُ همُ خاصَّة الله في أرضِه بعد الأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام - ، فهم ورثَتُهم ، قال ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء »[4] ، والمراد بالعلماء العاملون الذين يخشون الله ﷻ ، فمَنْ كان على هذه الصفة فهو ولي الله حقًّا ، الوارث[5] للأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام - ، الداخلُ في قوله - تعالى - : ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء ١٠٥) ، وما أورثَهم أرضه حَتَّى أحبَّهم ، ووفَّقَهم للخير ، والرُّشد ، والسخاء ، والحنانة ، والشفقة على الفقراء والمساكين .

---

(١) ما الأصل الشرعي لهذا الاعتقاد ؟ لا أجد في الكتاب والسُّنَّة الصحيحة ما يؤيده ، والله أعلم .

(٢) اعتقاد المؤمن الحق أن الرافع والخافض هو الله سبحانه ، وما عداه مفتقر إليه ، لا نقول ذلك حسدا في الأولياء ولا غمطًا لحقوقهم ، فيعلم الله أننا نحبهم ونجلهم، ولكننا نقف عند ما يأمرنا به ويدلنا عليه في كتابه وسُنَّة رسوله ، ونتبرأ من كل معتقد يخرج عن ذلك مهما كان مصدره ، بل ننزه الأولياء عن اعتقاده ، ونذم الفعل في حد ذاته .

(٣) رواه الترمذي (٣٨٥٤) من حديث أنس، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٠٨٣).

(٤) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء، وصححه ابن حبان ١/ ٢٨٩، والألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

(٥) العلماء هم ورثة الأنبياء ، أما غيرهم فليسوا بورثة الأنبياء وإن ظهرت عليهم علامات الولاية بسبب تقواهم وصلاحهم ، ومن جهة أخرى فإننا لم نقرأ في السير الصحيحة لكبار علماء الأمة ومنهم الأئمة الأربعة والأوزاعي وابن حزم الظاهري والباجي أنهم ادعوا الولاية بمعناها الخاص أو معناها العام فهل نضعهم خارج إطار ورثة الأنبياء لهذا السبب ؟

والسخاءُ خُلقٌ عظيم جَبَل الله عليه أولياءَه فلا يُحرَمه إلَّا محروم ، وقد ورد : « اغفر زلَّة السخي فإن الله أخذ بيده »[1] ، ورُوِيَ عنه ﷺ أنه قال لعدي بن حاتم الطائي الجواد : « يا عدي إن الله قد خفف عن أبيك العذاب بسبب سخائه »[2] ، ومع هذا فإنه كان كافرًا ، وقال - عليه الصَّلاة والسَّلام - لعلي بن أبي طالب ﷺ : « يا علي إنَّ الله لا يعبأُ بعثْرة السخي ، وأما السلطانُ فمعرَّضٌ للعثرات والهفوات ، فإنْ عدَل في رعيَّتي ، ونظر في حال الفقراء والمساكين بعين الرحمة، والرأفة، واستوى عنده الغنيُّ والفقير، والعزيزُ والحقير ، فقد غَنَم وسَلِم ، وإن جار وتَبِع هوى نفسه ، وطغى وتكبَّر على الفقراء والمساكين وعظَّم الأغنياء وأهان الفقراء ، فقد خسر وندم ، فأولُ مِنْ يسلُبُ اللهُ نعمتَه ، ثُمَّ يُخرِّب ملكه ، ويعجِّل بهلاكه ، ويسلِّط الله على ذريته مَنْ ينتقم منهم ، والله عزيز ذو انتقام »[3] .

[ما جاء في الظلم]

وفي الحديث « إن اللهَ يُمهلُ الظالمَ حَتَّى إذا أخذه لَمْ يُفلته »[4] فنسأل الله - تعالى - أن يعاملنا بحِلْمه ، ويُصلح أحوالَ وُلاتنا بمنِّه وكرمه ، وقد ورد « أنَّ السلطان ظلُّ الله في أرضه ، يأوي إليه كلُّ مظلوم »[5] فمَنْ كان من الأمراء

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» ٥٥/ ١١٩ من حديث أبي هريرة، وضعفه السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» ٢/ ٨١، والألباني في «الضعيفة» (٢٨٧٠).

(٢) لم أقف عليه مسندًا، وقد ذكره النفراوي في الفواكه الدواني ١/ ٨١.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى.

(٥) رواه البزار في «مسنده» ٢/ ٢٢٠، والشهاب في «مسنده» ١/ ٢٠١، والبيهقي في «الشعب» ٦/ ١٥ من حديث ابن عمر وضعف سنده، وتبعه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٥/ ٢٣٥، والألباني في «ضعيف الجامع» (٣٣٥٣). وقال المناوي في فيض القدير ٤/ ١٤٤: ذهب بعض الصوفية إلى أن المراد بالسلطان في أخبار كثيرة القطب.. وذكر كلاما لابن عربي بعده.

عادلًا في رعيته ، تابعًا لما جاء به النبي ﷺ ، مُثبتًا لشريعته ، عاملًا بسنته في أمته ، دام ملكُه ، وأعانه الله على أعدائه ، وحفِظَه في ذُرِّيته بعد انقضائه ، وحشرهُ مع النبيئين والصِّديقين ، في حَضْرته ، ومَنْ عَمِل في رعيَّته بالجور ، والطغيان ، وخالف سُنَّة نبينا - عليه الصَّلاة والسَّلام - أهلكُه الله في الدنيا هلاكًا شنيعًا ، وكان من أهل الشقاء والخُسران ، وسلَّط الله على نَسْله مَنْ ينتقم منهم بالذل والهوان . كما قيل : « ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثُمَّ ينتقِمُ من كليهما » . ومع ذلك يُقحِط الله بلاده ، ويَرفَعُ منها البركة ، وتتغيَّر الرَّعية ، ويَقِلُّ كسبُها ، ويتقتَّرُ معاشُها ، ويُمقَتُ بينهم ، فيتوسَّلون إلى الله في ذهابه عنهم ، قال ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافرًا »(١) .

وظُلْمُ الأمراء سبب في كلِّ بلية عامة ، قال - تعالى - : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (الأنفال ٢٥) . نسأل الله أن لا يؤاخذنا بذنوب الظالمين ، إنه هو العلي الحليم القوي المتين ، خيرُ مَنْ يُسْأل ، وأكرمُ مَنْ يعطي ، وهو أرحم الراحمين . اللهم متِّع أسماعنا وأبصارنا ، وذكِّ عقولَنا ، ويسِّر أمورنا ، واقْضِ حوائجنا ، ولا تكافِئ ذرياتنا بذنوبنا ، يا غاية مطلوبنا ، واحفظْنا بحفظِك من شياطين الإنس والجن ، بجاه النبي الأعظم ، والرسول الأكرم ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلم تسليمًا كثيرًا .

والحاصل أنَّ السلاطين والأمراء والوزراء بلاء - كما قيل فيهم - فيا ويل الأمراء من الأولياء والصالحين ، ويا ويل الأولياء والصالحين من

(١) رواه أحمد ٣/ ١٥٣ من حديث أنس بن مالك، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١١/ ١٥: فيه أبو عبد الله الأسدي لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٧٦٧).

الأمراء وخُدَّامهم إذا أساءوا الأدب معهم ، لا سيما إذا كان الوليُّ أَحْمَقَ [مكابرًا] يخرِّبُ الله بسببه مُلك الأمير ، أو تَحُلُّ به أشد العقوبة ، ولابد من العثْرة ، إما من الأمير في الولي ، أو(١) من الولي في الأمير ، فالواجب على الأمير أن يسلِّم حال الولي إذا عَثر ؛ لأنَّ العثْرة تحدُث للولي الفاقد عقل التكليف ، وللعاقل نادرًا ، والنادرُ لا حُكم له .

بل لا يمرُّ الوليُّ بالمعصية ، فإذا أذنبَ تاب واعترف بذنبه على الفور ، ووبخ نفسَه ، والأميرُ إذا لَمْ يكُنْ وليًّا لله (٢) لا ينفعُ نفْسَه ، ولا يُمكِنُه الاحترازُ من عطب الولي له ، وقد قالوا : إن الأميرَ الجائر في يد الولي كالبرغوث ، لو قبَض عليه لهلك بإذن الله ﷻ . فعلى الأميرِ الرفقُ بالرعيَّة ، فلا يكلِّفهم بما لا يُطيقون من الرمايا وغيرها(٣) ، ولا يَهتِك أستارهم ، ولْيفوِّضْ الاعتقاد في المنتسبين إلى الجناب العلي ، ويحملهم على المحامل الحسنة ؛ لأنَّ(٤) أحوالهم مختلفة ، إن كان ذا بصيرة وإلَّا هلك ، ولله درُّ القائل حيث قال : [بسيط]

لله في الخَلْـــقِ أسرارٌ وأنـــوارُ ... ويصطفي اللهُ مَنْ يرضي ويختارُ
لا تحقـرنَّ فقـيرًا إنْ مـررتَ بـه ... فقـد يكـونُ لـهُ حـظٌّ ومقـدارُ
والأمرُ بـالنَّفسِ لا بـاللُّبس تعرفُـهُ ... قد يخلُـقُ الغِمـد والهندي بتَّـارُ
والتِّبرُ في التُّربِ قـد تخفَـى مكانتُـهُ ... حَـتَّى يخلِّصَـهُ بالسَّـبكِ مِسـبارُ
ورُبَّ أشعثَ ذي طمرين مشتـهِدٍ ... له على الله في الأقســـام أبـرارُ

---

(١) في الأصل : أو إلا من .

(٢) في الحاشية : إحالة إلى إلحاق بالنص يقول : لم يكن للعاقل بنفسه .

(٣) في الأصل : وغيرهم ، ورمى المالُ زاد وربا .

(٤) في الأصل : كان .

تأمل أيها النافي لكرامات أهل الله هذه الأدلةَ على تجويزها ، ولو عظُمت مع التحدي وغيره ، وهو ما قدمناه آنفا ، وكأنك لا إلهام لك بمعرفة العلم وأهله ، فكلامُك منبوذٌ لا يحلُّ أن يقول به مسلم[1] .

[عودة للحديث عن مناقب الأسمر]

ولنرجع إلى الكلام على مناقب الشَّيْخ الذي هو مولانا عبد السَّلام ، فأقول - وبالله التوفيق - : إنَّ ما يتعلقُ بالاطلاع والحضور في الشَّدائد ، والإتيان بالأسرى ، وطيِّ الأرض ، وخرْق العوائد ، وغير ذلك ، كمكالمة الموتى ، والملائكة ، والجن ، والطير ، فكان له من ذلك ما لا يُحصى ، لا تسألْ أحدًا الآن من أهل مدينة طرابلس وقُراها ، إلَّا وتجدُ عنده من ذلك شيئًا كثيرًا ، يحدِّثُك به وخصوصًا النواحي الشرقية ، كتاوْرْغة ، ومَصْراتة ، ويزليتن ، والساحل ، ومَسْلاته ، وبواديهم وما قاربهم .

وكان ذلك في هذا الشَّيْخ من الصِّغر ، ولاسيما في الكِبَر ، فقد كان في الصِّغر في ما سمعتُ يحدِّث الصبيان في المكتب بما يصنعُ آباؤهم ، ويقول للواحد منهم : لقد أكل أهلك كذا ، وكذا ، فينطلق الصبي إلى أهله يبكي لهم حَتَّى يعطونه من ذلك الشيء ، فيقولون له : مَنْ أخبرك بهذا ؟ فيقول

(١) هكذا يبدأ التمهيد لاستقبال الخوارق ، وكأنها لازمة لكل ولي ، والحق أن اللازم للولي هو الإيمان والتقوى ، وعنها يتفرع عمل الصالحات ، والتزام المأمورات واجتناب المنهيات ، والحرص على أكل الحلال ، والإكثار من عبادة الله وذكره . فإن ظهرت عليه كرامة فهي سر بين العبد وربه يسوقه لتثبيته على الاستقامة . أما المبالغة في التذكير بها والتهويل على منكرها لهذا الولي وذاك فلا يفعله إلا من أراد بها الشهرة والمكانة في الناس ورهبة يخيف بها العامة ، وليس ذلك من شأن الولي ، ولكنه ديدن الأتباع المبالغين في الدعاية للطريقة ، والله أعلم .

لهم : عبد السَّلام بن سليم . ومنها كلامه في المهد[1] ؛ يُذكر أن والدته ﷺ أتى إلى دارها سارقٌ ، وأخذ جميع ما في بيتها ، فلمَّا أراد أن ينصرفَ انغلق البابُ دونه ، كان يفعل ذلك إلى ثلاث مرات ، وهو يرفع ويرجع ، فسمع عند آخر مرة الكلام من المهد ، يا سارق ضع المتاع وانصرف ، فإني الآن ليس بنائم ، قالوا[2] : ففر السارق هاربًا ، ومن تلك الليلة تاب ، وأخبر بذلك باعترافه ، وله من هذا المعنى في الصِّغر شيءٌ كثير ، ذكرتُه في غير هذا.

ولنذكرْ طُرفًا من ذلك على وجه التبرُّك ، فنقول : مما شاهدتُه ومما نقلتُه عن غيري من الثقات ، فأول ذلك أني لما عرفتُ الشَّيْخ في أيام مكثي بمدينة طرابلس ، وذلك أني كنتُ ذات يوم جالسًا معه ، وجعل يتكلمُ في حكايةِ المشايخ مع أصحابهم ، فقال : لا يُسَمَّى الشَّيْخُ شيخًا عند أهل الباطن حَتَّى تكون يده على أصحابه، يحفظهم حيث ما كانوا ، فاعترضتُ ذلك في نفسي، فقلت : لا يكون ذلك إلَّا لله ﷻ ، فلمَّا أصبح الصباح من اليوم الثاني أخذتني في نفسي ضيقة ، فخرجت من مدينة طرابلس إلى كثبان الرمل التي

(١) يعني أن سيدنا عيسى لم يعد مخصوصًا بهذه المعجزة ، ومثل هذه الخوارق هي نتاج الخيال الشعبي ، وتشبه الحكايات الشعبية التي تروى عن الحلاج وغيره من الشخصيات الأكثر حضورا في الخيال الشعبي ، ولا تجد للمبالغات إشارة في رسائل الشيخ الأسمر ، ولكن المؤلف يترك لقلمه العنان ليكتب كل ما يسمعه من حقائق وخيالات دون تمحيص ، مع الإيحاء بأن ما يقوله غير قابل للشك ، ومع لوم من يفكر مجرد التفكير في الإنكار ، وكيف لا تنكر على من يضع السكين في جنبك ليطلب منك مبلغًا ماليا ، وهو قد ارتكب إثمين يصلان إلى درجة الحرمة ، أولها ترويع المسلم ، وقد نهى الرسول ﷺ عنه نَهْيَ تحريم ، حين وجه لومه لقوم أرعبوا مسلما بإيقاظه بطريقة مرعبة ، وثانيهما : أخذ أموال الناس بالباطل حرام صريح حَتَّى إذا كان بياء الحياء فكيف إذا كان بالسيف ؟ وهل نسمي ذلك كرامة ؟

(٢) قالوا : هذا هو المصدر الذي يتسرب منه أكثر قدر من الأخبار الخرافية .

قَبْلِيَ الشَّيْخ المصري، وجلستُ هناك اليوم كله، فلمَّا صليتُ العصر أدخلتُ رأسي في كمي، فبينما أنا هكذا، وإذا بشيء يحركُني، فظننتُ أنَّ بعضَ الفقراء يمازحني، فأخرجتُ رأسي من كمي، وإذا بها امرأة حسناء، وعليها لباس حسن، وحلي، فقلتُ: ما تريدين؟ قالت: أنت، قلتُ: أعوذُ بالله[1]، قالت: والله ما لي عنك براح. فدفعتُها عن نفسي، فأخذتني في حضنها، ولعبت بي كما يلعب الطير بالعصفور، وما ملكت من نفسي شيئًا، ورمتني بين فخذيها، فحنَّت نفسي إليها.

وإذا بيدٍ أخذتْني من أكمامي، وصوتٍ كصوت الشَّيْخ يقول لي: يا بَرموني إيش هذا الذي تقع فيه؟ ورماني عنها، فظننتُ أنَّ الشَّيْخ اجتاز من ذلك المكان فرفعتُ رأسي، فما وجدت الشَّيْخ، ولا المرأة، فتعجبتُ من ذلك، وعلِمْت أني أُصِبْتُ باعتراضي عليه، فاستغفرت الله - تعالى -، وتوضأتُ وصليتُ المغرب، وأتيتُ إلى الباب، وقد غُلِّقَت الأبوابُ حين ذلك؛ لأنَّها تُغلق عند مغيب الشمس في كل ليلة، فلمَّا دنوتُ منه انفتح لي، ودخلتُ بيتي مختفيًا عن الفقراء، وكانت تلك الليلة ليلة جمعة، يُستعملُ فيها السَّماع، فلمَّا صُلِّي العشاء الأخيرة، وانصرف الناس دخل الشَّيْخُ الخلْوة التي يُستعمل فيها السَّماع، فوجد فيها جماعة من الفقراء، وقال لهم: أين البَرموني؟ قالوا ما رأيناه اليوم، فقال اطلبوه في بيته فأتوا إليَّ، فقلتُ لهم: إنني مريض - وكان كذلك - فإني ما أتيتُ إلَّا في حال عظيم، فقلت: احملوني بينكم فحملوني إليه، وأدخلوني عليه، وأمرهم بالانصراف،

(١) يُخشى بهذا القول أن تضع في ذهن القارئ أن استعاذتك بالله لم تنفعك ولَمْ تنقذك مني، ولعل في الكلام سقطًا يتفادى هذا.

فجلست بين يديه ، وأنا أبكي ، فقال لي : يا بَرموني ، لما قلتُ أنا بالأمس : كذا وكذا ، فاعترضْتَ أنت عليَّ ، أين كانت يدي اليوم منك لما أردت الوقوع في المعصية؟ من لَمْ تكن يدُه على أصحابه ، ويردُّ الشقيَّ سعيدًا والسعيدَ شقيًا ، فليس بشيخ مربٍّ .

وتحدَّثَ أيضًا ذات يوم في أيام مكثه بداخل مدينة طرابلس الغرب في مدح سماع الدُّف لِخفَّته من حضور الوليمة ، فأنكرتُ عليه في نفسي ، وقلتُ : الفائدة في سماع الذكر المجرد لا في سماع الدُّف ، فلمَّا جنَّ الليل ونمتُ ، رأيتُ الشَّيْخَ كأنه جالسٌ على جبل عالٍ ، وهو يضرب الدُّف ، والكعبة تطوف به ، فلمَّا أصبح الصباحُ جئتُه لأُخبرَه بذلك ، فقال لي – قبل أن أتكلم[1] – : ما بال الكعبة تطوف بدُفِّ عبد السَّلام ، وتستمع لضرْبه ، وأنت أمس تقول لا فائدة في سماع ضربه من غير حضور الوليمة ؟ فما بقيَتْ شعرةٌ من جسمي إلَّا وخرج منها العرق استحياء منه .

ويشبه ذلك ما سمعتُه من كثيرين ، وهو ما وقع للشيخ بمسْلاته مع بعضِ الأشراف في أيام زيارتنا إياها ، وذلك أنَّ الشَّيْخ ﷺ عمِل لنا اجتماعًا بالقَصبات ، والأشراف حاضرون ، فلمَّا أنْ أخذَ الشَّيْخَ الوجْدُ جعل يدور بحلْقة الذِكْرِ ، فقال بعض الأشراف – سرًّا في نفسه : حَتَّى هذا المجذوب – الذي هو عبد السَّلام – حَمَى كما يُحمى القِنُّ عند ضَرْب الكَبَر[2] ، فبنفس ما قالها طأطأ عليه الشَّيْخ ﷺ ، وقال له في أذنه : حمى في حضْرة جدِّك رسول الله ﷺ ، يا أخي ، فتاب الشريف ، وأخذ عنه التلقين ، وأخبر بذلك

---

(١) في الأصل : « لنجبره ونتكلم » ، بنون الجمع على عادة أسلوب العصر .

(٢) الكبر : الطبل ذو الوجه الواحد .

باعترافه ، ومَسَك الشَّيْخ ومَنْ معه ليلة ، وأكرمهم بإكرام القدر - والله أعلم - إنه سيدي أحمد الشريف المسلاتي .

ومن ذلك : أنه طاف عندنا ذات ليلة بمَصْراتة بعد ارتحالِنا من مدينة طرابلس ، وكان الذي استعمل له الطعامَ جدَّتي حليمة أمُّ والدي ، وكان عشاؤُه عندنا طعامًا من أجود القمح ، وعليه لحم ضأن سمين ، وكانت جدتي المذكورةُ صالحة مباركة ، وكان أحبُّ الأشياء إليها لحمَ الضأن السمين ، فلمَّا جعلتْ اللحم على القصْعة اختارت لحمة سمينة أحسن ما كان منه ، ثُمَّ قالت في نفسها : الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام أوْلَى بهذه اللحمة مني ، فلمَّا قدَّمنا له الطعام نظر إليه الشَّيْخ ، ثُمَّ رفع تلك اللحمة وناولها إليَّ، وقال لي يا بَرموني رُدَّ هذه اللحمة إلى جدتك حليمة التي صنعت لنا هذا الطعام ، ولم يكن عندنا عِلمٌ بما وقع في نفسها - رحمها الله وغفر لها - .

ومن ذلك : إني جئتُ الشَّيْخ ذات ليلة بيزليتن لحضور السَّمَاع ، وبتُّ عنده فجاءه رجل من نتازفت ، يقال له : علي الغضبان ، فقال له : يا سيدي عبد السَّلام سمعت أنك تكاشِفُ الناس ، فكاشِفْني ، فأعرَضَ عنه ، فألحَّ عليه ، فأمر بطفء القناديل ، وجعل يكاشِفه بأشياء كثيرة ، وهو يقول له : « يا سيدي عبد السَّلام العفو ، وهو يفيض عليه ، ولم يسكت حَتَّى سأله بالله أن يسكت عليه ، فسكتَ ، ثُمَّ قال له : يا عليّ يا غضبان ، لو ما سألتني بالله العظيم أخبرتك بكل ما سبق عندك وما سيأتي » [1] .

ومن ذلك : أني ذات يوم ضاع لي حصانٌ في أيام مكثي بيزليتن ، وطلبتُه في سائر الديار والجفائر الشرقية ولم أجدْه ، [فـ]أتيتُ إلى الشَّيْخ

(١) هذا ما لا يمكن أن يقوله الشيخ ، فلا سبيل إلى علم الغيب القادم ، وقد تمت البرهنة على ذلك في المقدمة وبعض الهوامش .

وأخبرتُه بذلك، فنظر إليَّ ، وقال : يا بَرموني حصانك ببلاد صرمان ، وعرَّفه إليَّ بدار فلان ، فسافرتُ إليه بصرمان في الدار التي عرَّفها لي ، فوجدتُه .

ومن ذلك : أنه ذات يوم وقعتْ مني زلَّةٌ ، في أيام خِدمتي إياه بمدينة طرابلس ، فاستحييتُ أن أقابل الشَّيْخ ، وغبتُ عنه أيامًا ، فلمَّا فَقَدني خرجَ يُفتِّش عليَّ ، فبينما أنا في زُقاق أمشي رأيتُ الشَّيْخَ فرُغْتُ عن طريقه ، وأعطيتُه بالقفا ، ومشيتُ مع طريق آخر ، فلمَّا رآني زُغتُ عن طريقه ، وأعطيتُه بالقفا عارضني من قدَّام ، فحصرَني في ضيق ، فلمْ أقدر أنْ أفِرَّ منه، فلمَّا لقيني ، قال لي : يا بَرموني لمَّا عرفتني ، وعرفتك ، إنما عرفتك بشرًا لا ملكًا معصومًا(١) ، فالمراد من العبد إذا أذنب التوبةُ ، والاعتراف بالذنب ، وكلما أذنب تاب ، وأخذني وحملَني معه إلى أن أدخلني خَلْوته ، ففتح اللهُ عليَّ ، ووعظني بأشياء كثيرة من كلام القوم - رحمه الله ونفعنا [به] آمين - .

---

(١) تعاد هذه القصة إعادة شبه حرفية في كتاب « شيوخ الخروبي » ص ٤٠ في ترجمة أبيه ، غير أنه قال : « وأظن أني سمعت سيدي أحمد المصراتي قال حاكيًا عن الوالد » . ولكن الخروبي توفي ٩٦٤هـ أي قبل وفاة الشيخ عبد السلام الأسمر التي كانت سنة ٩٨١هـ أي بعد سبعة عشر سنة من وفاة الخروبي الذي ألف كتابه قبل وفاته بكثير ، وأما البرموني فقد بدأ نشاطه التأليفي بعد وفاة الرجلين ، وكانت وفاته بعد سنة ١٠٠٥ أي بعد ٤١ سنة من وفاة الخروبي ، فلا يمكن للخروبي أن يكون هو الناقل عن كتاب البرموني ، يقول الخروبي في رواية الحكاية عن المصراتي « لما عرفت الشيخ سيدي عليًا وقعت مني زلة، فاستحييت أن أقابل الشيخ ، فغبت عنه أيامًا ، فلما فقدني خرج يفتش عليَّ ، فبينما أنا عند مدرسة الرخام بطرابلس فرأيت الشيخ ، فرغت عن طريقه إلى عنق الجمل ، فلما رآني رغت عن طريقه عارضني من قدام ، فحصرني في مضيق ، فلم أقدر أن أفر منه ، فلما لقيني قال لي : أين كنت يا علي ؟ فما علمتِ بماذا أجاوبه ، ثم قال لي : لما عرفتني وعرفتك إنما عرفتك بشرًا لا ملكًا معصومًا ، فالمراد من العبد إذا أذنب التوبة والاعتراف بالذنب ، وكلما أذنب تاب ، قال وأخذني وحملني معه إلى أن أدخلني إلى خلوته ، ففتح الله عليَّ » . وهنا تلاحظ أن النقل حرفي تمامًا .

وجاء ذات يوم مسكينان بحضْرتي فأعطى لواحدٍ منهما عشرةَ دراهم، ولم يُعطِ للآخر، فقلتُ في نفسي لو كان اقتسم عليهما ذلك لكان أحسن له، فوجَّه وجهه إليَّ، وقال: يا بَرموني، الصدقةُ لا تنفعُ إلَّا إذا كانت في جَوْف مَنْ يتَّقي الله ويخافه، والمتصدقُ على مَنْ لا يتقي الله معينٌ له على المعاصي، ويكونُ شريكُه في الإثم، فتحققتُ أنَّ الذي أعطاه مطيعٌ لله ولرسوله ﷺ، والذي لَمْ يُعْطه عاصٍ لله، وقد اطَّلعَ عليهما من طريق الكشف، والله هو المطَّلِعُ على ما في الضمائر والسرائر.

[وفاة الشَّيْخ أحمد عبد الحميد يربوع وترجمته]

ومن ذلك: ما أخبرني به العاقب بنُ أُقيت(١) تلميذُ شيخنا الناصر اللقَّاني قال: توجَّهتُ إلى زيارة الشَّيْخ - الذي هو سيدي عبد السَّلام - بأرض طرابلس الغرب، ومكثْنا عنده أيامًا، فلمَّا كان ذاتَ يوم بأرض الفواتير نائمًا بقائلة، ونحن معه، فلم نشعر به حَتَّى نهض نهضة عظيمة، فإذا هو نائم على حال مخالف لعادته، وعيناه تذرفان، وجعل يقول: «العينُ تدمع، والقلبُ يخشع» ويحوقل ويسترجع، فقلنا له: ما لك؟ وما يبكيك؟ فقال: أنا أبكي على فراق أخيكم أحمد بن عبد الحميد اليربوع؛ لأنَّه توفي بالزاوية الغربية.

ثم أصابه حالٌ عظيم، وجعل يقول مقطعةً مشيرًا فيها إلى موت سيدي أحمد، - كما سيأتي ذكرها - بكَشْف الغيب: إن سيدي أحمد مات في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، وهذه المقطَّعة المشار إليها هي: [زجل]

(١) العاقب بن محمد قاضي تنبكت توفي سنة ٩٩١ هـ (ترجم له أحمد بابا في النيل ص ٣٥٤ وابن مخلوف في شجرة النور الزكية ٢٨٦).

يا عينْ صبِّي الدَّمع سيَّاخْ فـوقَ الخُـدودِ طوفـاني
وأبكي عـلى عزّ الصُّلاحْ من يـومْ غـرَّبْ مـا جـاني
مريدي أحمد نظرْ الأشباحْ مـولى الوفـا والعِرفـانِ
نجـل الـولي أسـد الصُّلاحْ بحـر السَّـماح الرَّبـاني
سكنْ اللحـود وعنِّـي راحْ مـا لاه يـا شـرح أذهـاني
أحمدْ نجلنا كوكـبْ وضـاحْ نـوره ضُـوَا في الأكـوانِ
سيدي الولي فخـرُ الصلاحْ بحـرُ التُّقـى والإيمان
اسقيناه من عسـل الأجباحْ تلميـذنا ساسـه بـانِ
يـا زاويـه زوروا المصـباحْ نجـلْ وشـهـير البنيـانِ
زوروا أحمـد في كـلِّ صباحْ ياهْـلِ المُـدُنْ والعـربـانِ
زوروا الضريحْ معَ المطراحْ تنـالوا المـددْ والبرهـانِ
عند الضريح قولوا الأمداحْ بإنشـاد شـعري وألحـاني
سِرَّهْ ظهـرْ في للـوطن وفـاحْ مشهورْ يـا أهـل البلـدانِ
معدودْ مـن فرسـان أمـلاحْ من نسـل يربـوع اسْناني
والـلي تعـرضْ نسـله راحْ منَ أهـلِ البلـدْ والأوطـانِ
أنا عـروسي سِرِّي وضـاحْ كالشمس بـينَ الحيطـان
وشْربتْ مـنْ خمـرِ الأقـداحْ بـإذنِ الإلٰـهِ الوحـداني
وعاينـت أنامـًا في الألـواحْ والكـونْ مـا بـين أعيـاني
وخـذيت في يـدي المفتـاحْ والـلي طلبـت جـازاني
نحضر لولدي في كلِّ صباحْ نسـقيه خمـر الكيسـانِ

أنا الـذي سرِّي قــد فــاحْ — في الغـرب الأقصى الجـواني
ماذا سـقيتْ مِـنْ صُـــلَّاحْ — من أهـــل الوفـا والعـرفانِ
أنا صاحب الدُّف الشَّـلواحْ — مجلجـــلْ سـماوي ربــاني
هاموا عليـه ارجـال امـلاحْ — والشَّــيْخْ سـيدي الجـيلاني
والشــــاذلي عـزّ الأرواحْ — والحــــاكم والدهمـــــاني
رقوا ســــادهْ عـادوا سيَّاحْ — من أهل العـراقْ والسـودانِ
وارْجَـال مصرْ مـع الرِّمـاحْ — وأهـــل العجـمْ والعُربـانِ
أنا الـذي سِـــرِّي وضــاحْ — عبـــد السَّــلام الحقّـَاني
أنا الغَـوْثْ أنـا مـا لي شرَّاحْ — بــالسِّر بحــــري طوفــاني
واخـذْ عـهـودْ عـلى الفتَّـاحْ — بالســـنـدْ ظــاهـــرْ ربـاني
من الهاشمي نـور الوضَّـاحْ — بحـــر العلـــوم النـــوراني
صـلوا عليه في كلِّ صــبـاحْ — تنجـــوا غــــدًا من نـيرانِ

... إلى آخر ما قال.

اعلم أن سيدي أحمد هذا كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ، وهو ممن طالتْ معاشرتُه مع الشَّيْخ بيزليتن وغيرها، بعدما حفظ القرآن في زاوية الشَّيْخ - كما سيأتي في ترجمته في الفصل الخامس - وكان لا(١) يفارقُ الشَّيْخَ، حَتَّى قيل له: يا أحمد اذهب لتنتفع بك الناس، الشَّيْخ ما يخدم شيخًا. وسيدي أحمد هذا مات قبل أن يموت الشَّيْخ بمدة يسيرة.

ولا بأس بنقل حكاية وقعتْ بعد موت سيدي أحمد استطرادًا لأجل

(١) في الأصل: لم.

التبرُّك ، وهي : أن الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام اجتمع برجل من صالحي المغرب ، يقال له سعيد هدرة ، من أهل القطب ، يُحكى عن من أثق به أن الرجل المغربي الذي هو سعيد هدرة كان دأبه الحج ، وكان يأتي لسيدي أحمد في الزاوية الغربية بعد مفارقته للشَّيْخ ، يكرِمُه بإكرام القدر ، [ويصرفُه](١) إلى الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام في يزليتن ، ثُمَّ يزوِّده الشَّيْخ حيث أراد الله ، فأتى ذات يوم إلى دار سيدي أحمد على عادته ، فوجد الشَّيْخ سيدي أحمد مات ، وأبناءه صغار ، فلم يجد مَنْ يقومُ بحظوظه التي كان يجدُها(٢) عند سيدي أحمد ، فمشى متغيِّرًا على أبناء سيدي أحمد ، فلمَّا أن جاء لسيدي عبد السَّلام سأله عن ذرية تلميذه سيدي أحمد ، فقال ما نصُّه : « سيدي أحمد كان شجرة فيها الطيور اتْباتْ ، انقطعت الشجرة راحت الطيور اشتات » . فقال له الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام : لا يا سعيد يا مغربي ، لا تَقُل هكذا ، ولكن عكس ما كنت تقول : [زجل]

سيدي حَمَدْ كانْ شجرة ... فيها الطيور اتبابْ
ارتحلت الشجرة ... خَلْفَتْهَا شَجَرَاتْ

وكرر الكلمة الأخيرة ثلاثًا ، ثُمَّ قال أيضًا : [زجل]

مَنْ نسبْ لينا ما نخلُّوهْ ... ولو كانْ بعدتْ بلادَهْ
وإنْ مات فليسْ نَنْسُوهْ ... هو وجُملتْ أولادهْ
ومن طاحْ منهمْ نقِلُّوهْ ... واحْنا وفايةْ إعدادهْ
ومن نزعة الخوفْ نحموهْ ... والشَّيْخ يحمى اكبادهْ

(١) في الأصل : ويصونه ، ولم يظهر لي معناه ، ولعل ما أراده هو ما أثبته أعلاه .
(٢) في الأصل : بحضوضه التي كانت يجدهم ، وهو من أخطاء الناسخ .

أحمـــد يا ســـعيد نا بوه والله ما نخـــلّي ولادهْ

... إلى آخر ما قال .

ومن ذلك : ما حدثني به الأخ في الله الصالح سيدي عبد الحميد بن عبد الله الشهير بضي الهلال الكمودي ، كان من أجلّ أصحاب الشَّيْخ ، قال: لَمَّا فرغتُ من خدمة الشَّيْخ حللتُ بالزاوية الغربية ، أريد سكناها بموضع هناك يسمى الآن بالحرم ، كنت اشتريتُه من ربِّه بدراهمي ، فلمَّا أردتُ التأسيس قام عليَّ رجلٌ ظالمٌ يقال له : بُوعَوْن القايدي ، يريد ردِّي عن ذلك، وخروجي من الموضع المذكور ، ويزعم أنه كان يأخذه منهم من الجراية الفاسدة ، فلمَّا لَمْ يمكنِّي دفعهُ لجأتُ إلى الله ، ثُمَّ إلى الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام ، وقصدته في يزليتن ، فلمَّا وصلت إليه وسلَّمتُ عليه ، بكيتُ وقلت هاذين البيتين : [وافر]

أيظلمُني الزَّمـانُ وأنـتَ فيـهِ وتأكلُني الذئابُ وأنتَ لَيثِـي

ويُروَى مِنْ جَنَابِكَ كلُّ ظامئٍ وأظمأُ في حِـمَاكَ وأَنْتَ غَيْثِي

فلمَّا سمِعها مني استقلَّ قائمًا وأخذه حال عظيم ، وهو يقول المقطَّعة - الآتي ذكرها - فلمَّا انتهى شهران من ذلك اليوم الذي جئتُ فيه للشيخ قصم الله أبا عون وكفاني شرَّه ، فرجعتُ إلى ما كنتُ فيه من التأسيس بكمودة وغيرها ، وهذه المقطَّعة المشار إليها : [زجل]

أنا سيدْ كـل سـيدْ أنا بحـــرُ الكـمالْ

يــا عبــد الحميــدْ يـــا ضي الهــلالْ

يـا خـلّ مـا تريـدْ اندهـــني تنـــالْ

أنا أبـوك يـا مريـدْ أنا بطـل الرجـالْ

أنت نجـلْ صيدْ ليس لـه مثـالْ
النمـلْ مـا يفيـدْ نفخةْ عـلى الجبـالْ
بوعـون العنيـدْ منْ أهـلِ الشَّمالْ
في الـدنيا نكيـدْ في الشَّرْ والضَّـلالْ
في الآخـرة خلـيدْ في النَّـار والنَّكـالْ
والله كبشْ عيـدْ يضـحِّي حَـلالْ
نسـقيه الصـديدْ مـن طـين الخبـالْ
ونقضيه بالحـديدْ يقـدي ولا مَحَـالْ
عـلى الله مـا يزيـدْ شـهرين بـالكمالْ
صَـلُّوا على المجيـدْ شـفيع الرجـالْ

... إلى آخر ما قال .

وسيدي عبد الحميد هذا ممن أَخْبر بكثير من كرامات الشَّيْخ – ذكرناها في غير هذا – منها ، قال : خرجتُ ذات يوم من مدينة طرابلس لزيارة الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام في يزليتن ، وكان معي أحمد القباعي ، وحسين الساحلي ، وعلي بن عامر الدردوري ، وعلي بن رمضان الصوفيني ، ومفتاح بن مفتاح الغماري ، فلمَّا أن قرَّبنا من الشَّيْخ بيزليتن ، قال أحمد القباعي : إن كان سيدي عبد السَّلام وليًّا يعطيني جملًا ، وقال حسين الساحلي إن كان سيدي عبد السَّلام وليًّا يعطيني ناقة ، وقال علي بن عامر : إن كان سيدي عبد السَّلام وليًّا يعطيني عبدًا ، وقال علي بن رمضان : إن كان سيدي عبد السَّلام وليًّا يعطيني أمةً ، وقال مفتاح بن مفتاح : إن كان سيدي عبد السَّلام وليًّا يعطيني بقرة .

قال : فلمَّا بلغنا موضع الشَّيْخ ووقفنا بباب داره احتجب علينا ، ولم يخرجْ إلينا حَتَّى مكثْنا ما شاء الله ، وعَزمْنا راجعين إلى مدينة طرابلس ، فلمَّا أنْ جدَّ بِنَا السيرُ خرج الشَّيْخُ من خلوته ، وقد بعث جملًا، وناقة ، وعبدًا ، وأمة ، وبقرة مع سيدي علي بن عبد الرحمٰن الفيتوري ، [الذي] كان هو الشاوش على طعام الفقراء ، وأمَرَهُ أن يسبقَنا من طريقٍ غير طريقنا بهم ، ومكث عند عِينْ كْعام هناك .

وركب الشَّيْخ على فرسه سعيدة مع من حضر من الأصحاب والأولاد والطلبة والفقراء ولحقَنا ، فلمَّا أن قربنا من العين المذكورة أغار علينا الشَّيْخ مع مَنْ معه ، فلمَّا أن رأيناه ظننا أنه من بُغاة الأعراب ، وكانوا حينئذ كثيرين ، قال : فحصل لنا من الجزع ما ترتعدُ منه الفرائص ، ثُمَّ لَمَّا عرفنا الشَّيْخَ ومَنْ معه ، قلنا له : يا سيدي عبد السَّلام يحل لك هذا ؟ نأتوك بقصد الزيارة والتبَرُّك ، فتحتجبُ عنا ، ثُمَّ تلحقنا مغيرًا في مثل هذا الموقع ، حَتَّى فجعتنا ؟

فقال : يا عبد الحميد ! رفقتُك من أين لهم الزيارة ؟ فهم والله من الفجار لا من الزوار(١) ، عدا أنت ، وأما رفقتُك الآن لا زيارة لهم ، أحمد القباعي جاء لجمل ، هاهو جمله ، وحسين الساحلي جاء لناقة ، هاهي ناقته، وعلي بن عامر جاء لعبد هاهو عبده ، وعلي بن رمضان جاء لأمَة ، هاهي أمته ، ومفتاح بن مفتاح جاء لبقرة ، هاهي بقرته ، ولم يكن اطَّلع على ما تحدَّثْنا به أحد ، إلَّا الله - تعالى - ، فعلمْنا أنه إنما اطَّلع على ذلك من طريق الكَشْف - والله هو العليم الخبير - .

(١) في الأصل : الزيار .

ومنها ، قال : لما تمهرتُ بالقرآن ، [و]عرفتُ ما يصلح بي من فرض العين ، توجهتُ إلى المشرق ؛ لأبحث[1] عن الغَوْث بأي أرض وأي بلدة ، لآخذ عنه التلقين ، فلمَّا وصلتُ إلى الشام التقيتُ بشيخٍ كبير من أهل علم الباطن، ومعه خلق كثير ، فلمَّا قربتُ منه وأخذتُ يده لأُقبِّلها ، قال لي - من جهة الكشف - : يا عبدَ الحميد أنت تطلبُ الغَوْث بالشام وغيره وهو ببلدك طرابلس الغرب ، ارجع إلى بلادك تجدْه وتأخذْ عنه ، وهو الشَّيْخ العارف بالله سيدي عبد السَّلام بن سليم الفيتوري النزيل الآن بيزليتن ، فهو أستاذك الذي تأخذ عنه وإليه تُنسب[2] .

فرجعتُ من أرض الشام إلى أرض طرابلس الغرب ، فلمَّا وصلتُ إلى الشَّيْخ وأخذتُ يده لأُقبِّلها ، قال[3] لي - مكاشَفًا على ما كان لي - : يا عبد الحميد أنت كنت تسأل عن القُطب الغَوْث بالشام وغيره ، فإن لَمْ تعلم بالغَوْث فأنا هو الغَوْث الذي ذكر لك الشَّيْخ الكبير [عند] ملاقاتك به بأرض الشام ، فلمَّا تبيَّن لي أنه هو المشار إليه ، وأنه الأستاذ المكاشَف عليَّ أخذتُ عنه التلقين ، ولازمتُ صحبته ، ففتح الله عليَّ على يده .

ومنها : قال أعطاني الشَّيْخُ دراهم لأشتري له بها[4] سمكًا ، وذلك في

(١) في الأصل : لنبحث ، وهو لا يريد تعظيم نفسه ولكنه يسير على نهج أسلوب العامة ، وذلك كثير في أسلوبه ، وقد أصلحت كثيرا من ذلك ، حَتَّى إن دراسة أسلوب البرموني وعصره لا يمكن الاعتماد فيها على هذا الكتاب المحقق ، بل ينبغي الرجوع إلى أصله المخطوط .

(٢) تذكرنا هذه القصة بقصة أبي الحسن الشاذلي وشيخه عبد السلام ابن مشيش ، وكيف ذهب إلى المشرق وقيل له إن الذي تبحث عنه في بلادك وهو الشيخ ابن مشيش ، وشبيه بذلك ما رُوِيَ عن محمد ظافر المدني وشيخه الدرقاوي .

(٣) في الأصل : فقال لي ، واستخدام الفاء هنا لا لزوم له ، ولكنه لازمة من لوازم أسلوب المؤلف ، وقد حذفتها غالبا دون إشارة .

(٤) في الأصل : لنشتري بهم ، وفي الأسلوب العامي الليبي يجمع غير العاقل جمعًا مذكرًا ، وتستخدم نون المضارع للمفرد عوض الهمزة .

أيام مُكْثه بطرابلس ، فلمَّا مشيتُ بها إلى باب البحر الشرقي الذي عندهم يباعُ السَّمكُ فيه ؛ لَمْ أجد سمكةً واحدة ، فاجتمعتُ بالذي يصطادُ وطلبتُه في السمك ، فقال لي : هذا اليوم ريحُه كثير لا يُصطاد معه السمك ، وكان نصرانيًا ، فقلت له ادخل على بركة الله ، [فـ]الشَّيْخ اشتهاه اليوم . فقال لي : ما يخالفُ الله العادة ، فقلت له : أنا أُعطيك ولرجالك أُجرةَ معاومة ، وادخل على نية الشَّيْخ ، فأعطيته الدراهم ، ودخلَ البحرَ ومدَّ الشبكة ثُمَّ جرَّها إلى الساحل ، فأخرجَ فيها سمكًا كثيرًا ما رأينا قطُّ مثله ، فتعجَّبَ الحاضرون من ذلك ببركة دين الإسلام ، فقال الرَّيِّس وهو الصياد : هذه بركة عظيمة ، فلمَّا تبين للنصراني – وهو الصياد – بركة دين الإسلام رجعَ للبحر للاصطياد بنيةِ راهبٍ كبيرٍ لهم ، مجربًا هل يقع منه مثل ما وقع لهذا الشَّيْخ ببركة دين الإسلام أم لا ؟ فأدخل شبكته ، وقال : على نية فلان الراهب إن كان له بركة ، فلم يخرج فيها غير الوطاوط ، وهو شكل لا يُؤكل ولا يُنتفع به ، وكان في السمك سمكةٌ كبيرة ما رأيتُ مثلها ، فجاء يهودي فرمى بيده عليها ، وطلبَ شراءها فمنعتُه منها ووجَّهتُ السمكَ كلَّه للشيخ ، فلمَّا وصلتُ به إلى الشَّيْخ ، قال لي : يا عبدَ الحميد ارفعْ هذه السمكة إلى اليهودي الذي رمى بيده عليها ، فإنَّ له زوجة حاملا اشتهت السمك ، وهو اليوم معدوم عندهم وفيها عينه ، فردَدْتُ السمكة وأعطيتُها لليهــودي ، وأخبرتُه بمقالة الشَّيْخ فأسلمَ اليهــوديُّ وأسلم الصياد النصراني.

ومنها : قال حضرتُ لحكايةٍ وقعَتْ للشيخ في أيام مُكثِهِ الأول بيزليتن، وذلك أنه جاء أربعة أركاب من المغرب ، وفيهم خمسة مشايخ سابقين الركب وحدهم ، يعني في أوله على بُعد منه ، ونزلوا في كُديةٍ

منفردين عن الخلق ، فاستهدى لهم الشَّيْخ بنور بصيرته ليزورهم ويتبرك بهم ، فلمَّا وصل إليهم أخفى الله عنهم الشعور به ، فمسكَ أعِنَّةَ خيولهم وجعل يستمعُ لحديثهم حَتَّى قال بعضهم لبعض : لا نفارق هذا الموضع حَتَّى يُظهر كلٌّ واحد منا خارقًا ، فمدَّ كلُّ واحدٍ منهم يده للهواء وأتى بفاكهة غريبة في غير وقتها ، ثُمَّ لَمَّا أرادوا الركوب وإذا بالرجل ماسِكًا لأعِنَّة خيولهم بإزائهم ، فتحققوا أنه سمِعهم وشاهد ما صدر منهم ، فقالوا له : لَمْ يُطلعْك الله علينا إلَّا وعندك شيء من الأسرار . وألزموه ألا يفارقَ موضعَه حَتَّى يُظهر خارقًا مثلهُم فامتنعَ وجعل يُحقِّر نفسَه ويقولُ لهم : من أين لي هذا ؟ وهم لا يزدادون فيه إلَّا حرصًا ، فلمَّا أن أكثروا عليه ، قال لهم : لا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم ، [أ]غْمِضُوا أعينكُم ، فـ[أ]غْمَضوها ، وإذا هم في وسط بحر متلاطم الموج وقد جاءهم فيه الموج من كل مكان ، وهم على كُدية تراب صغيرة ، كلُّ موجة تسقطُ منها شطرًا حَتَّى لَمْ يبق إلَّا ما هم عليه ، فلمَّا عاينوا الهلاك وظنُّوا أنهم أُحيطَ بِهِمْ تشبثُوا بالشَّيْخِ ، وجعلوا يَحُضُّونَه ويسألونه برسول الله ﷺ أن يُنقذَهم مما هم فيه ، وهو هَوْلُ ذلك البحرِ وأمواجه ، قال لهم : [أ]غْمِضُوا أعينكُم ، فـ[أ]غْمَضوها ، فإذا هم عند خيولهم في الموضع الذي كانوا فيه .

فلمَّا شاهدوا منه ما هالَهم وعلموا أنه بحر لا نفاد له ، أخذوا عنه التلقين وعظَّموه ، وردُّوا أركابَهم أولهم على آخرهم ، وقالوا : لا بد لنا من الإقامة عند مثل هذا الشَّيْخ ، فلم يشعرْ أهلُ البلد إلَّا والأركابُ الأربعة أقامتْ عند الشَّيْخ ، وكان ذلك العامُ عامَ قحط وغلاء ، والنِّعمُ فيه مفقودةٌ وليس في داره - رحمه الله - حينئذ قمح ولا شعير ، عدا ثلاثة صيعان من دقيق الحِنْطة في « زوير » صغير ، وأربعة صيعان من شعير في جراب ،

ونصف « غرَّاف »[1] زيت في كوز ، فأطعمهم من ذلك الدقيق وذلك الزيت، وأطعمَ دوابهم من ذلك الشعير ثلاثة أيام ، ولم يتركْ أحدًا من أهل البلد يُعينُه بشيء إلَّا بصنعة الطعام ، ويُخرج من ذلك الدقيق القدر الكافي ، فإذا صنع صبَّ عليه من ذلك الزيت وأخرجه لهم ، وبَقي هكذا يُطعمُ جميعَ أهلِ الركب ، ويجدون لذةً زائدةً على الطعام ببركاته مدة ثلاثة أيام ، والله - تعالى - يبسُط الرِّزق لَمِنْ يشاء في السِّر والعلانية ، وهو الرزاق ذو القوة المتين .

ومنها : قال : جاء سبعة من العلماء في رَكْبٍ من المغرب الأقصى قاصدين الحج إلى بيت الله الحرام ، ونزلوا بشاطئ البحر المالح خارج مدينة طرابلس ، وذلك في أيام مُكْث الشَّيْخ بمسجد الناقة ، فلمَّا سمع بهم حسدةُ الشَّيْخ ، وهم : القاضي أبو محمد وأصحابه جاءوهم ، وقالوا لهم : إن بهذه المدينة رجلًا يزعُم أنه القُطب ، ويؤُمُّ الناس إليه ، ورموه لهم بكثيرٍ من القبائح لكي يُسيئوا به الظن ، ويَسْقُطَ من أعينهم ، إلى أن قالوا لهم : صفته كذا وكذا ، ولباسه كذا وكذا ، ومهما يسمع بكم الآن يقدم عليكم ، فإذا قدم عليكم فانتهِروه وأنكِروا حاله ، وشنِّعوا عليه على أعين أهل البلد لكي تَنْفِرَ منه الناس ، ثُمَّ أعلِموا به الوالي بأن يُخرجَه من هذه المدينة ، فإنَّ في خروجه منها مصلحةً للأولي الألباب ولكم ، على أن الأمر بالمعروف واجبٌ على مَنْ اجتمعت فيه أوصافُكم السعيدة وخصالُكم الحميدة ، فأظهر الله - تعالى - الشَّيْخ على ما صدر من الحسدة للعلماء المغاربة من جهة الكشف، وأخذ الدُّف ورفعه معه باستعناء ، وقصدَهم في الركب ، فلمَّا وصَل إليهم وسلَّم عليهم عرَّفوه بالوصف الذي وصفَه لهم الحسدةُ ،

(١) غراف : كلمة بالعامية الليبية تعني إناء صغير .

فنظر العلماء بعضهم إلى بعض ، وقالوا : كأنه هو الرجل الذي ذكر[ت] الجماعة التي [كانت][1] عندنا ، فأظهروا عليه الإنكار الشديد ، فلمَّا صحَّ منهم الإنكار أراهم مكة من كُمِّه ، فكذَّبوه ، وزادوا إنكارًا عليه ، ثُمَّ أراهم البيت المعمور ، والأرض السابعة السفلى[2] ، فكذَّبوه أيضًا ، وزعموا أن كلَّ ذلك شَعْبذةٌ قَلَب بها أعينهم ، فبينما هو كذلك سمِعَ النداء من هواتف الحق : يا عابد السَّلام - بمد العين - اضرب الطار وادعُ الله الجبار ، تظهر لك الأسرار ، من العزيز الغفار ، فضرب الدُّف في أثناء الركب وأنشد يقول : [زجل]

يا مـن لـه العِـــزَّه　　　هـزّ القـلوبْ هـزَّهْ
يا شيخْ بَّا عـــــزَّه　　　نريدْ مـنَّـكْ درزهْ

فلم يشعر الناس إذا بالركب بما فيه من آدمي وحيوان يهتزُّ لضرْب الشَّيْخ بأجمعه بالاهتزاز القوي ، إلى أنْ غابتْ عقولُ أهله ، فلمَّا رأى الشَّيْخُ ما عماهم من ذلك الاهتزاز ، رجع يقول عكس الإنشاد الأول وهي : [زجل]

يا مـن لـه القـدرةْ　　　داوِ القـلوب تـبرهْ
تَصْحَى من السَّكرةْ　　　بالرُّسْلِ والْعَشْـرهْ

... إلى آخر ما قال .

(١) في الأصل : كانوا .
(٢) مع هذا الكلام الغريب كان الأسلوب عاميًا يستخدم الاسم الظاهر مع ضميره فاعلًا ، وغير ذلك من الأساليب الدارجة والضعيفة ، كاستخدام الفاء الجوابية بدون موجب ، وقد أصلحت من هذه الأساليب ما أخشى معه أن يلمحه القارئ فيعتقد أن صاحبه صحيح الأسلوب ، ولعلَّ الناسخ قد شاركه في ذلك كثيرًا ، ثم إنه يترك للخيال الشعبي الكثير من الفسحة كما حدث في قصة الحلَّاج ، بالإضافة إلى الأخطاء اللغوية والإملائية .

فلما أفاق العلماء من ذلك وبَّخوا أنفسهم ، وصدَّقوا بما رأوْه منه أولًا ، وأيقنوا أنه كرامة ، وندِموا على ما صدر منهم من الإنكار على الشَّيْخ ، وجعلوا يُقَبِّلون يديه ورجليه ، وأخذوا عنه التلقين ، وأمروا بتعظيمه ، والله ﷻ هو الذي يحقُّ الحقَّ ويبطلُ الباطلَ وهو على ما يشاءُ قدير(١) .

ومنها : قال : توجهتُ مع الشَّيْخ في أيام إقامته في جبل زغوان لزيارة الأولياء الذين بتونس وخارجها، فلمَّا كان ذات يوم زرنا مقبرة « الزلاج »(٢) ونصبنا الخيمة هناك ، بالقرب منه ، وكان والي مدينة تونس رمى رمية على أشياخ من رعيَّتِه ، قال : فلمَّا سمعوا بالشَّيْخ أتوْا إليه ؛ ليطلبوه في الدعاء ، وفي الشفاعة عند الوالي في [تلك](٣) الرمية ، فقال لهم: الدعاء أدعو لكم ، وأما الشفاعة لا أُطيقها(٤) ؛ لأنِّي ضجَرتُ وملَلْتُ من مزاحمة الظلَّام و[من] قُربهم ، ولأغراضهم الفاسدة ، وحرارة أنفاسهم المسمومة المؤذية ، وإني أخاف من تغيير بواطنهم عليَّ ، كما وقع لي بطرابلس من غير شفاعة ، فما بَالكُم بالشفاعة ، بل ربما لا تنبغي الشفاعات عند الأمراء في ما يطلبونه من الرعية ، فهي مما يغيِّر بواطنهم على الشافع في ذلك ، فهذا مما يجب البعد عنه؛ لأنَّ الوالي يغضب كغضب الصبي ، ويفترس الناس كما يفترسُ الأسد إلَّا أنَّ الرعية لا يمكنُهم الاحتراز منه ؛ لأنَّهم له كالروح في الجسد ، فإذا ذهب الروح فسَد الجسد .

فلمَّا تبرأ منهم ولم يمكنه الاحتراز منهم ، قال لهم : إن شاء الله تحضر

(١) لا شك أن الأدلة الأولى إذا صحَّت أقوى من هذه حجة وإقناعًا .
(٢) في الأصل : الزلاز .
(٣) في الأصل : في ذلك .
(٤) في الأصل : لا نطيقها .

البركة ، وندخل المدينة التي هي تونس ، ونتحدث مع الوالي فيكم ، ويقضي الله الحوائج . قال: فتوجهنا إلى الوالي وللزيارة ، فلمَّا وصلنا إلى باب المدينة تونس طلبنا الإذن من الوالي في الدخول إليها ، وكان حينئذ لا يدخلها أحد، ولا يخرج منها إلَّا بعد الإذن والإخبار عن حاله ، فلمَّا وصل الخبر بذلك إلى الوالي منعنا من الدخول ، وأمر الموكَّلين بالأبواب بطرْدنا ، ثُمَّ لما طردونا نصبنا الخيمة في فم الباب ، وهو باب مدينة تونس ، ومكثنا هناك ما شاء الله ، فلمَّا لَمْ يأذنْ لنا في الدخول ، ولم يؤخذ بأيدينا في سَرْح مشايخ الرعية ، أصاب الشَّيْخَ حالٌ عظيم ، وأخذ الدُّف وضَرَبه ؛ وأنشد يقول معه: [زجل]

يــا أرحــمَ الرَّاحمينــا　　　سألتك بالقرشِي فينـا
اهـزز والي ذي المدينـا　　　إلى أن يــأتي إلـيـنـــا

فأصاب الوالي أشقُّ [ما يكون] من الاهتزاز والارتعاش القوي ، ولم يُبطِّل الشَّيْخُ من الضرب في الدُّف إلى أن خرج علينا أرباب الدولة بالوالي محمولا على تابوت يرتعد كالمحموم ، ووُضِع بين يدي الشَّيْخ ، فوضع الشَّيْخ يده على رأسه فبرأ بإذن الله - تعالى - ، فأمر الوالي بسراح مشايخ الرعية مما كان يطلبه منهم ، ثُمَّ دخلنا مدينة تونس وزرنا كلَّ من بها من الأولياء والصلحاء ، وظهرت البراهين والله - تعالى - هو الحق المبين .

ومنها : قال : طلعتُ مع الشَّيْخ يومًا قِبْلِيَ الوادي الشهير بالمردوم ، وذلك في أيام مُكث الشَّيْخ بالقلعة ، فبينما نحن نمشي في وسط الطلح والبطوم ، وكان عندي خبزةٌ يابسة تحت إزاري من الداخل في مخلاة ، فخطر عندي لو وجدتُ شيئًا من العنب آكلها به ، وإذا به نزلَ عن فرسه سعيدة ، وقال لي : يا عبدَ الحميد مُرَّ في وسط الطَّلْح ، وكُلْ رغيفك بما

اشتهيت في قلبك ، وأقام يصلي ، فنظرت إلى الطَّلْح وإذا كلُّ شجرة منه معلَّقةٌ بعناقيد العنب مختلفة الألوان ، فأكلتُ حَتَّى شبِعْت .

ومنها : قال : طلعتُ مع الشَّيْخ من القلعة إلى القِبلة ، وتقاصينا نحو الاثني عشر ميلًا ، وذلك في زمن من الصيف ، فلمَّا وصلْنا إلى موضع هناك يسمَّى بالضَّحْضَاح ، كان كثيرًا ما يخلو به ، فبينما نحن جلوس بذلك(1) الموضِع ، وكان الحرُّ فأصابني العطش ، وكان بإزائه إبريق ، فناوله إليَّ ، وقال لي : اذهبْ إلى الحجرة الزرقاء التي جاوزناها وانزِلْ إلى الكُوَّة التي بجانبِها ، وهي كوَّةٌ أسفل تلك الحجرة ، قَعرُها أقصح(2) من الحديد لَمْ أعرفْ في ما سلف بها ماء ، وسمِّ الله ، واشربْ واملأ الإبريق ، فلمَّا وصلتُ إليها وجدتها مليئة بالماء العذب ، فشربتُ وملأتُ الإبريق ، وطلعت إليه وأخبرته ، وقال لي : من شِدَّة ما تَقَوَّى بك من العطش دعوتُ الله ﷻ أن يجعلَ لك في الحجر عينًا تجري بالماء من كوة يابسة ، وناولته الإبريق اهـ .

[ما رواه إبراهيم بن علي الطرابُلسي]

وحدثني الأخ في الله سيدي إبراهيم بن علي الطرابلسي ، كان من أجل بلاده ، وكان والدُه من تلامذة الشَّيْخ سيدي عبد الواحد الدوكالي ، كان يسكن بداخل مدينة طرابلس ، مجاورًا الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام في أيام مُكثه بمسجد الناقة ، قال : بينما الوالد ذات ليلة في المسجد سامرًا وسيدي عبد السَّلام في خَلوته ، إذا بسيدي عبد السَّلام يناديه ، فلمَّا خرج له قال له : عظَّم الله لنا ولك الأجر في أُستاذنا عبد الواحد الدوكالي ، توفي - رحمة الله

---

(1) في الأصل : تلك ، ووضعه أسماء الإشارة في غير موضعها كثير .
(2) أقصح : أقسى وأصلب (عامية ليبية) .

عليه - ، وكان ذلك الوقت وقت سحور ، فظنَّ أنَّ أحدًا من الناس أخبره ، فلمَّا أصبح الصباح جعل يتجسس على ذلك ، فلم يجد لذلك الخبر ذاكرًا[1] فلمَّا انتهى ثلاثة أيام ، أتى[2] الخبرُ مِنْ مَسْلاته أنه مات في تلك الساعة في السُّحور ، فعلِم أنه إنما أخبره بذلك من طريق الكشف ، والله - تعالى - هو المطَّلع على غيبه[3] .

وحدثني الأخ في الله الصالح سيدي عبد الله بن شتوان ، كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ ، عن السيدة الصالحة الفقيرة حَضْرية الماجرية ، قال : قالت : كنت أخدمُ عيال الشَّيْخ في أيام مكثه بالساحل المضاف إليه الأحامد، فكنستُ ذات يوم بيت سكناه ، وكان عليَّ عشرةُ دنانير كنت اشتريتُ بها دارًا ، ولم يكن عندي ما أدفع لأهلها منها[4] ، فتغيرتُ في ذلك ، وحِرتُ في أمري ، فدخل عليَّ الشَّيْخُ وأنا في أثناء الكنس ، فجلس على باب البيت حَتَّى فرغتُ من كَنْسِها ، وفرشتُ له ما يجلس عليه ، فخرجتُ إليه ، وقلت له : يا سيدي قد قضيت الحاجة ، قالت : فقال : يا حَضْرية ! ادخلي إلى البيت الذي كنت تكنسين فيها ، وخذي العشرة دنانير . - وأنا قريبة العهد بكنس الموضع ، ولم أترك فيه شيئًا .

---

(١) في الأصل : لخبر ذلك ذاكرًا .

(٢) في الأصل : فأتى ، وهذه الفاء من لوازم البرموني ، وقد أزلتها مرارا دون إشارة .

(٣) هذا من الحديث عن الواقع المغيب ، وقد حدثني الأستاذ المرحوم إبراهيم بنون شيخ طريقة في طرابلس « بإمكان حدوثه بقدرة خاصة تكتسب بالتدريب » . وهي الإمكانية الوحيدة التي يمكن لوسوسة الجن أن تخبر بها المتعاطي لهذا التواصل بمثل هذا الإخبار ، وقد أعطاني على ذلك مثالًا عمليًا ، ومعظم ما يقع من التواصل عن بعد يأتي بهذه الطريقة . والله أعلم . وهي ليست بوحي إلهي قطعًا .

(٤) يجمع البرموني الدراهم جمع مذكر ، ولذا تجد في الأصل : (عشرة دنانير كنت اشتريت بهم ... ما ندفع لأهلها منهم) .

[ما رواه صالح ابن الفقيه مبارك]

ويشبه ذلك ما حدثني به الأخ في الله الصالح سيدي صالح ابن الفقيه مبارك، كان من أجل أصحاب الشَّيْخ، عن الفقيه التالي كتاب الله مؤدب الأطفال سيدي مصطفى بن مصطفى الطرابلسي، قال: ترتَّب عليَّ دين قدره خمسمائة دينار، وكان ذلك في أيام مكث الشَّيْخ بمدينة طرابلس، قال: إلى أن ضاق عليَّ الحال، فالتجأتُ إلى الله في ذلك، فرأيتُ في منامي رجلًا جميل الصورة، حسن الهيئة، فقال لي: عبد السَّلام بن سليم يقضي ما عليك من الدين، قال: فلمَّا أصبح الصباح وإذا بسيدي عبد السَّلام وصل إليَّ وأعطاني خمسمائة دينار، فأخبرته بالرواية، فقال لي: الرجل الذي رأيت هو سيدي عبد الواحد الدوكالي، وهو الذي أمرني أن آتيك بالدنانير.

وحدثني سيدي صالح هذا، قال: ذات يوم والشَّيْخ غائب يزور في مَصْراتة، وقعَتْ هوشة(١) بين البراهمة وأولاد غيث، فأتى سيدي شعبان الغراري بعكاز يحجز بينهم، فأصاب العكازُ عين رجل من أولاد غيث فطارت عينه، فاجتمع عليه أولاد غيث وأرادوا قتله، وكان ذلك في أيام مكث الشَّيْخ بيزليتن، بعد رجوعه من الجلاء، قال: فخرج سيدي عمران إليهم، وقال لهم: إذا كان صبيحة غدٍ إن شاء الله، يأتي الوالد، وهو الشَّيْخ، من مَصْراتة، ويحكم في ما بينكم وبينه.

فلما أصبح اليوم الثاني وإذا بالشَّيْخ قادم علينا من مَصْراتة، قال: ففرَشْنا له حصيرًا في فم خَلْوته بعد الكنس، وجلس عليها، وحضر بين يديه سيدي شعبان وأولاد غيث، فقال الشَّيْخ: اختاروا يا أولاد غيث، إما

(١) هوشة: عامية لها أصل فصيح، تقول: هاش القوم هيشًا هاجوا ووثبوا إلى القتال، والهيشة الجماعة المختلطة، والفتنة (م الوسيط).

أن تأخذوا أخي شعبان في دية عين ابن عمكم ، وإما أن تأخذوا خمسمائة دينار ذهبية، فقالوا : نأخذ الخمسمائة دينار على أن لا ننصرف[1] إلَّا بقبضها، فقال الشَّيْخ : كأنكم تعجِّزون أهل الله عن ذلك ، وأدخل يده تحت الحصير فجعل يُخرج لهم وهم يعدُّونها ، حَتَّى استوفوا الخمسمائة دينار وانصرفوا ، قال : وأنا قريب العهد من الموضع الذي فُرشتْ فيه الحصير ، ليس فيه دراهم ، وإنما هو قاعة كنستُها قبل الفرش .

ثم التفتَ الشَّيْخ حينئذ إلى سيدي شعبان، وقال له : يا أخي يا شعبان! باعوك أولاد غيث بالدنانير ، لو أخذوك أخذوا غنى الدارين ، فو الله ما يأتي آخر الشهر الذي نحن فيه حَتَّى تذهب عنهم ويحتاجون إلينا ، قال : فما كمل الشهر حَتَّى رجعوا إلينا محتاجين ، والله - تعالى - هو الفعال لما يريد ، ما عندنا ينفد وما عند الله باق .

[مشاهدات البَرموني]

ثم أقول : ومن كرامات هذا الشَّيْخ : الحضور في الشدائد وغير ذلك ، منها : ما شاهدته عند التوسل به ، وذلك أني كنتُ ذات يوم متوجِّهًا من مَصْراتة إلى يزليتن ، أسوق جملًا عليه حِمل من الزيت ، وكان بتلك الطريق لصٌ ، وكان من أعظم اللصوص القتَّالين ، ولم يكن عندي منه عِلمٌ قبل ذلك ، فلمَّا توسَّطتُ في الطريق ، وإذا باللص يركُضُ فرسُه متوجِّهًا إليَّ ، ويقول: حطَّ السَّلب ، واترك الجمل لئلا تموت ، وقد أيقنتُ أنه يريد هلاكي ، فتوجَّهتُ لناحية الشَّيْخ وندهتُ به ، على نحو ما نصه ، فلمَّا

(١) في الأصل : نأخذوا ، وننصرفوا .

اقترب[1] منِّي اللص [و]وجه لي البندقة[2] ، وجعل يقايسني بها ، فلمّا أطلقها انفلقت تلك البندقة ورجعت رصاصتها عليه، إلى أن سقط من أعلى فرسه، وسَلِمتُ منه ببركة هذا الشَّيْخ .

وندهتُ به ، على نحو ما نصه[3] ، وأخذ بيدي ، وذلك بعد رجوعي من مَصْراتة لزيارته ، والحكايةُ أنِّي سافرتُ أنا وأخ لي إلى المدينة الطرابلسية، وقُدِّر أنَّ أخي حبسه الوالي المتولِّي بحصارها في سرقة اتُّهمه بها بعض الناس، وشاع الخبرُ حينئذ بأن الوالي يريدُ أن يقطعَ يديه ورجليه ، فخشيتُ من ذلك ، فلمّا كان[ت] تلك الليلة صليت العشاء الأخيرة بمسجد الناقة ، وتوجهتُ لناحية الشَّيْخ وندهتُ به على نحو ما نصه ، والشَّيْخ حين ذلك بيزليتن ، فلمّا كان وقتُ السحور من تلك الليلة انحل وثاقه بإذن الله ، وخرج من المطمورة التي كان محبوسًا فيها ، وما دونها من الأبواب ، وجاءني بمسجد الناقة في الخلوة التي كان يسكُنها الشَّيْخُ في أيام مكثه بطرابلس ، فقلت له : أنْتَ هربْتَ من المطمورة أم كيف الحال ؟ فأخبرني بأن الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام هو الذي حلَّ وثاقي ، وأنقذني من المطمورة وما دونها من الأبواب ، فلمّا أصبح الصباح وانكشف الحال ركب الوالي فرسه وجاءني بمسجد الناقة أنا وأخي يعتذر إلينا ، مُظهرًا التوبة .

وندهتُ به ذات يوم ما بين المدينة الطرابلسية والزاوية الغربية ، واستجاب لي على الفور ، وذلك أني كنتُ ذاهبًا من تلك المدينة إلى الزاوية

---

(١) في الأصل : قرب .

(٢) البندقة : يعني البندقية ، وذلك هو نطقها في العامية الليبية ، وهو يؤرخ لوجود هذا النوع من السلاح في أيدي الناس وشيوعه بينهم ، والبارود أقدم وجودًا من ذلك .

(٣) يعني نص دعاء معين يتوجهون به إلى الشيخ عبد السلام في الملمات .

الغربية ، وكان ذلك في أيام أسواق العيد ، وكان معي محرمةٌ[1] فيها دنانير مصرورات بها ، مبعوثة معي من المدينة إلى بعض الإخوان من سكان الزاوية الغربية ، فقُدِّر بسقوط تلك المحرمة بدنانيرها ، ولم أفقدها إلَّا في الزاوية الغربية ، فلمَّا لَمْ أجدْها خرجَت إلى بستان الزاوية الشرقي ، وأنا أتردد هل أندهُ الشَّيْخَ أم لا ؟ لشدة يأسي من الدراهم بكثرة مَنْ بالطريق من الناس ، ثُمَّ توسَّلتُ ومضيتُ على حالي مُشرِّقًا ، فما أتممتُ عشر خُطواتٍ وإذا بكلامِ الشَّيْخ من الشَّيْخ من الهواء : يا بَرموني سِر مشرِّقًا مع الطريق الذي أتيتَ منها ، فلا تخرج عنها يمينًا ولا شمالًا ، فإنك تجدُ دراهمك ، فسرتُ ممتثلًا كيف أمرني ، فلمَّا جاوزتُ موضعَ الشَّيْخ سيدي محمد بن قمري ، الشهير بشيخ القارة ، بنحو ميلين وإذا بطير على قَدْر النَّسر شديد البياض في قارعة الطريق ، فلمَّا اقتربت[2] منه غاب عني فوجدتُ بمكانه تلك المحرمة بدنانيرها ، فأخذتها ورجعت على حالي إلى الزاوية الغربية ، وبلَّغتُ الدراهم إلى ربها .

[ما رواه محمد السملقي]

ومن ذلك ما حدثني به الأخ في الله الصالح سيدي محمد السملقي ، - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ - قال : جئتُ للشيخ ذات يوم في أواسط شهر مارس بنية الاستسقاء والإغاثة به ، وكان ذلك على شأن زرع لي بالبادية عطش، ولم تصبَّ عليه مطر ، فلمَّا خِفتُ ضياعَه ندهتُ به في نفسي، ثُمَّ أخبرتُه بذلك ، فلم أُتمَّ كلامي إلَّا وأصابه حال عظيم ، وأنشد يقول

(١) المحرمة : غطاء رأس تستعمله المرأة عادة ، وللرجل محرمته الصغيرة الحجم التي تستخدم لمسح الأنف وغيره .

(٢) في الأصل : قربت .

المقطَّعة التي ذكرها، فلم يتمها حَتَّى ظهر السَّحاب، ونزل المطر النافع، إلى أن عمَّ البلاد من مشارقها إلى مغاربها، - رضي الله عنه ونفعنا به - . وهذه المقطَّعة المشار إليها: [زجل]

زرعكْ يا خليل يَرْوَى — الآن بالأمـطـــارِ
وعـــلى الله يتقـــوَّى — وتفوح أسرار البـاري
ربٌّ يعجـل بالنـــوَّى — واميـــاه بالمـــدراري
يـا ربي مـا لي قـــوة — ارحمـــني يا غفـاري
سألتك برجال النبـوَّة — والشبلي والحجـاري
ونبيل وسيدي عطـوا — والدخـلي والأنداري
وأسعاد وسيدي مـوا — والشامي والهـــواري
أبعـــد علينا البلوى — والقحـط والأشـرار

... إلى آخر ما قال .

وحدثني الأخُ في الله سيدي علي بنُ عبد القادر الدرناوي - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ، وكان مستقرُّه الجبل الأخضر - قال: أغار على حيِّنا بغاةُ الأعراب، وكان ذلك في البادية، بينها وبين الجبل خمسة وعشرون ميلًا، فقلت لأخ لي لما أن رأينا كثرة من أغار علينا، وأيقنا أنَّ حيَّنا لن يقدر على دفعهم: توسَّل إلى الله بسيدي أحمد زرُّوق لعله ينقذ سعينا من أيدي البغاة قبل أن يتباعد، فقال: إنْ توسَّلْنا بسيدي أحمد زرُّوق. ضاع سعينا ومالنا؛ لأنَّه ميِّت، ولم يُعجِّلْ لكثرة طلبه، فتوسلْ بالشَّيْخ الحي الذي هو سيدي عبد السَّلام مولى السيف القاطع والنور الساطع، فتوجهتُ إلى ناحية الشَّيْخ وندهتُ به على نحو ما نصه، وسِرْتُ إلى ناحية الجبل

الأخضر، وأنا أكدر [من] ذلك . فلمّا قربت منه إذا بكلام الشَّيْخ من الهواء يقول : يا علي سعيد ... ويأمرني بالرجوع أنا وأخي إلى الموضع الذي أغاروا علينا فيه ، قال : فرجعْنا فإذا بالقُطَّاع الذين أغاروا علينا سلط الله عليهم مَنْ قتل منهم كثيرًا ، وافْتَك جميع سعينا وسعي حيًّا ، والله عزيز ذو انتقام .

[ما رواه يوسف بن علي المحفوظي]

وحدثني الأخ في الله الصالح سيدي يوسف بن علي المحفوظي - كان من أجل(1) أصحاب الشَّيْخ - قال : سافرت لإفريقية لبعض حوائجي ، وأقمت بها مدة ، فبينما أنا ذات يوم أمشي في حفائرها ، فلمَّا بلغت هناك موضعًا يسمى بالنسمة(2) ، حققتُ النظر إلى ناحيتها القِبْلية إذ أنا بأسد كبيرٍ باسطٍ ذراعيه(3) برَبْوة عالية كثيرة الحجارة ، فلمَّا رأيتُه ارتعدَ منه قلبي وفرائسي ، وهممْتُ بالهروب منه إلى ناحية المغرب ، فلمَّا جريتُ نحو الميلين سمعتُ صوتَه كالزلزلة ، فزدتُ رعبًا ، فالتفتُّ إلى ورائي فإذا به قد اقترب مني ، فندهتُ بالشَّيْخ ، وأسرعتُ في الجري ، فبينما أنا أجري إذ بكلام الشَّيْخ من الهواء يقول : يا يوسف لا تخف من هذا الأسد ، فإننا أمرنا الأرض لتبلعه فابتلعته ، ثُمَّ التفتُّ إلى ورائي فلم أجد الأسد ولا غيره إلَّا الله الموجود المانع ، ثُمَّ لَمَّا دخلتُ تونس وأخبرتُ أهلها بذلك صاروا يقولون: شيء لله شيء لله ، والله - تعالى - كلُّ الأشياء بيده .

(1) لاحظ أن أفعل التفضيل هنا يتكرر مع السابقين ، ولئن كان مصحوبًا بمن التبعيضية التي تدل على أنه واحد من جلتهم ، فإنها تنفي الخصوصية لكثرتها .

(2) يوجد موضع باسم (نسمة) على مسافة من مدينة مزدة ، وبها قبيلة أولاد أبي سيف .

(3) في الأصل : باسطًا لذراعيه .

[ما رواه سالم السملقي]

وحدثني الأخ في الله الصالح سيدي سالم بن علي السملقي - كان من أجل أصحاب الشَّيْخ - قال: كنتُ قافلًا من بلد غدامس، ومعي إبل أسوقها لا حمول عليها، فلمَّا توسطتُ في الطريق، واقتربتُ من موضع هناك يسمى بنبش الرومي(١)، بينه وبين غدامس مسيرة ثلاثة أيام، بتُّ هناك، فلمَّا نمتُ هربتْ الإبل، ولم أشعر بها إلى أن أصبح الصباح، ولم يمكنِّي جمعها، ولا الإتيان بها، لِما بي من شدة الحر والجوع والتعب والعطش، وحصل لي من ذلك ما لا يعلمه إلَّا الله، فتذكَّرتُ كلامَ الشَّيْخ الذي يقال عند المصيبة، وقلته، وكان ذلك في قيلولة، ثُمَّ مشيتُ قليلًا مع الطريق لناحية المشرق، فبينما أنا أُسبِّح وِردي وأُصلِّي إذا بكلام الشَّيْخ من الهواء، يقول: يا سالم يا سملقي! وجِّهْ وَجْهَكَ إلى قبلةِ الصَّلاة، وسِرْ إلى ناحيتها متعجِّلًا، فما مشيتُ إلَّا نحو العشرين خطوة [حتى](٢) وجدتُ آنية مملوءة بالطعام، وأخرى ملآنة بماء عذب، والإبل ترعى في الربيع حذوهما، فأكلتُ من ذلك حَتَّى شبعتُ، وشربتُ وسقيت الإبل، والله - تعالى - هو الهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

[ما رواه شعبان الغراري]

ويشبهُ هذه الحكاية ما حدثني به الأخ في الله الصالح سيدي شعبان الغراري، قال: كنت بإفريقية، ومعي بقر أسوقه، فضاع مني في أثناء

(١) يُعرف هذا المكان الآن باسم (قبر الرومي).
(٢) في الأصل: في الأصل (فوجدت) ولا يتفق مع ما قبله.

الطريق ، وبتُّ أياما في طلبه ، وأنا من عرب إلى عرب ، ومن حفرة إلى حفرة ، إلى أن عييتُ ومللْت ، ولم أسمع عنه خبرًا أصلا ، فبينما أنا ذات يوم بقفرةٍ وقد نزلتُ عن[1] فرسي بتلك القفرة ، وتركتُها ترعى في الربيع ، وجلستُ أفلي ثوبي مما تعلق به من القمل ، لطول تعبي ، فتذكرتُ كلام الشَّيْخ الذي أوصى به من جهة التوسل ، ثُمَّ قلته ، ثُمَّ زدت عَقِبه : والله والله يا سيدي عبد السَّلام إن لَمْ تأتني ببقري لأخاصمنَّك يوم القيامة ، بين يدي رسول الله ﷺ ، وبكيتُ ساعة ، ثُمَّ اشتغلتُ بالفلي ، ونسيتُ ما صدر مني من التوسل بالشَّيْخ ساعة ، فلم أشعر إلَّا وكلام الشَّيْخ من الهواء ، يقول : يا شعبان بقرك بالقيروان ، بدار فلان ، قال : فسافرتُ إليه ، فوجدته بالقيروان ، والله هو السميع الحكيم[2] .

[ما رواه علي بن سيروج الميموني]

ويشبه ذلك ما حدثني به الأخ في الله الصالح سيدي علي بن سيروج الميموني - كان من أجل أصحاب الشَّيْخ ، وكان مستقرُّه مَصْراتة - قال : كنتُ قافلًا من بلد فزان ، فضاع لي عبدٌ وتخلَّفتُ في طلبه أيامًا ، فضللتُ[3] عن الطَّريق ، بعد أن وجدتُ عبدي ، وعاينت الهلاكَ ، فندهتُ بالشَّيْخ

(١) في الأصل : من على .

(٢) الشيخ عبد السلام في رسائله يوجه الناس إلى الاكتفاء بالله عن الناس ، ويذكرهم بأنه سميع مجيب الدعاء ، وهذه القصص تعطي للشيخ قدرة الله وتصرفه ، وتعلم الناس أن يتوجهوا إلى البشر عوض التوجه إلى الله ، قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (الزمر ٣٦) ، وقال ﷺ : « وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » والتصوف الإسلامي الشرعي هو الذي يثبت هذه الحقيقة الإيمانية .

(٣) في الأصل : فظليت .

وبكيتُ، ثُمَّ سرتُ قليلًا، فإذا بواحد من الوحش الذي يقال له: المُهْر[1] واقفًا قريبًا مني، فبُهِتُّ منه، وجعلت أتعجبُ من زيِّه، وذهلتُ عن ما أنا فيه، وجعلت أساير ذلك المهر وأقترب[2] منه، فلمَّا اقتربت منه جدًا قلتُ في نفسي: إني قد عييت لو ركبت هذا المهر لكان خيرًا لي، ثُمَّ اقتربتُ منه لأركبه، فهرب مني قليلًا، ثُمَّ اقتربتُ منه أيضًا لأركبه، ففعل معي كفعله الأول، وتباعد عني، كنتُ أفعل ذلك إلى ثلاث مرات، وأنا أقتربُ منه وهو يتباعد عني، ثُمَّ بعد الثالثة نفر مني وغاب عني، فما مشيتُ إلَّا قليلًا بعد ذلك حَتَّى رأيت نخل بلدةٍ ففرحتُ، وظننتُ أن تلك البلدة الجفرة، ثُمَّ أمعنتُ النظر إليه فإذا هو نخلُ بلدة مَصْراتة، فعلمت أن الله - تعالى - أنقذني على يدي الشَّيْخ.

ثُمَّ لما دخلت لبلدتي وسلَّمتُ على أهلها سألوني عن رفقتي، فقلت لهم: تركتهم بموضع يسمى مجرى الذيبة، وهو موضع بينه وبين فزان مسيرة ستة أيام، قالوا لي: متى تركتهم وفارقتهم؟ قلت لهم: في نهار أمس بعد صلاة العصر؟ فضحكوا مني واستهزأوا بكلامي، وظنوا أني أسخر بهم، ولم يحقِّقوا قولي إلَّا بعد إتيان الرفقة، ثُمَّ بعد إتيان الرفقة أصبحتُ متوجها لزيارة الشَّيْخ بيزليتن، فلمَّا أن وصلتُ إلى الشَّيْخ، قال لي: قبل أن أتكلم يحلُّ لك هذا يا علي، الرجل يركب على رفيقه؟ أعني ذلك المهر؟ فقلت له: وقع مني ذلك يا سيدي.

---

(١) المهر: أول نتاج الخيل، ولعله أراد حمار الوحش الذي تنطبق عليه هذه الأوصاف، والسؤال: هل يوجد حمار الوحش خلال القرن العاشر في طريق فزان، أم هي تهيؤات؟

(٢) في الأصل: نساير، ونقرب.

[ما رواه عبد الله الشديد][1]

وحدثني الأخ في الله العالم سيدي عبد الله الشديد - كان من أجل أصحاب الشَّيْخ ، وكان دأبه الحج - قال : لمَّا حججت الحجة السابعة ، وقضيت المناسك ، وجعلتُ أطوف طواف الوداع ، قام أهل مكة على من بقي بالحرم ونهبوهم ، وكان عندي أمانة للناس ، فدخلت في الحِجْر ، ووقفت تحت الميزاب ، وقلت : إن خرجت أُنهب ، وإن جلستُ أجلس بأموال الناس ، فتحيرتُ في أمري ، وناديت بالشَّيْخ على نحو ما نصّه[2] ، وإذا به واقف عند باب الندوة ، ويشير إليَّ حَتَّى دخل الرَّكب ، ودخلت إلى الركب ، فطلبتُه فلم أجده ، إلى أن وصلنا إلى عمل طرابلس الغرب ، فأتيته بيزليتن ، وسلَّمتُ عليه ، سألني عن حالي وقال لي : يا حاج عبدالله ! لمَّا اشتدَّ عليك الحال وناديت بنا ، أتينا إليك حَتَّى خلصناك مما كنت فيه .

[ما رواه عبد الله السوكني]

وحدثني الأخ في الله الصالح سيدي عبد الله السوكني - كان من أجل أصحاب الشَّيْخ - قال : سافرت إلى مدينة الجزائر بنيَّة البيع والشراء ، وأقمتُ بها مدةً إلى أن رُمِيتُ عندْ أهلِها [بكثرةِ][3] الدَّراهم لكثرة ما رغبتُ في التجارة ، إلى أنْ مسكني واليها ، وطلب مني ما لَمْ أكتسِبْه ، وضغطني ضغطًا شديدًا ، حَتَّى قال لي : إن لَمْ تأتِ بكذا وكذا من المال أقطعُ يديك

(١) لعله الولي الصالح المعروف بالشديد والمدفون في مدينة غريان .

(٢) الأمر الذي يدعو إلى الحيرة حقًا أن يكون الإنسان في بيت الله ، ويتوجه بالسؤال إلى عبد من عبيده لقضاء حاجته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٣) في الأصل : بكثير من الدراهم ، والمراد أنهم ظنوا به الغنى الفاحش .

ورجليك ، فلمَّا سمعتُ منه ذلك بكيتُ بكاءً شديدًا ، وتوسَّلتُ بالشَّيْخ على الصفة المنصوصة في كلامه ، وكان ذلك التوسُّلُ بعد صلاة المغرب ، قال: فلمَّا وصل وقتُ العشاء الأخيرة ، رقى ذلك الوالي إلى مجلسه العالي، فلمَّا أضاء القناديل وغلَّق الأبواب والمشكاة ، وجلس على كرسيه، وجعل يتحدثُ في أمره، فبينما هو جالس إذا بالشَّيْخ سيدي عبد السَّلام دخل عليه، من غير باب، وبيده سيف مسلول، ورفع السيف إلى أعلى ليضربه به، فقال : على رسول الله يا سيدي . فكفَّ عنه عند ذِكْره المصطفى ﷺ ، وقال له: والله لولا ذكرك رسول الله ﷺ لأقطعنَّك على أربعة أجزاء بهذا السيف ، فقال له : من أنت يا سيدي ، قال : أنا عبد السَّلام بن سليم الفيتوري ، جئتك لأضربك لإساءتك الأدب مع فقرائي ، وغاب عنه فلمَّا أصبحَ الصباح أَطلق سيدي أحمد من السجن ، وأمر بحضور العلماء والوزراء وجميع أرباب دولته ، وأخبرهم بما وقع له من الشَّيْخ في تلك الليلة .

[ما حدث به عبد الدائم الطرابسي عن مراد أغا]

ويُشْبه ذلك ما حدثني به الأخ في الله الصالح سيدي عبد الدائم بن بركة الطرابلسي – كان من أجل أصحاب الشَّيْخ – قال : مَسَكَنِي والي مدينة طرابلس وهو مراد أغا ، وذلك في ولايته الأخيرة ، وألقاني في المطمورة بعد القيد ، وكان ذلك على سبب مالٍ اتَّهمني به ، بأنَّ أحد عصاة الأعراب وضعه عندي ، فلمَّا شدَّد عليَّ في ذلك توجَّهتُ لناحية الشَّيْخ ، وندهتُ به على نحو ما نصَّه في نصائحه ، فأصاب مراد أغا في الحال ما أَخْرجَ دُبره ، حَتَّى جاءني يعتذر إليَّ ، مُظهرًا التوبة ، لنخلِّصه من ذلك ، فقلت له : إن الذي بلاك الله بحقه إنما هو الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام ،

وتبرأتُ أن يكون لي في ذلك مُدخل ، وقلت له : لا تَبرأ من علتك حَتَّى يضع مِعْوله عليك ، وما برئ حَتَّى جيء بمعول الشَّيْخ ووُضع عليه ، ولَمَّا برئ توجَّه لزيارة الشَّيْخ .

[مراد أغا والشَّيْخ الأسمر]

ولا بأس باستطراد حكاية هنا ؛ لأنَّني حضرتُها في يزليتن وغيرها ، وذلك أنه لما توجَّه لزيارة الشَّيْخ بيزليتن ، دخل الشَّيْخُ خَلْوته واحتجب عنه، وقد جاء حينئذ مراد أغا بجُنده كلِّه ، ونزل بقرب زاوية الشَّيْخ سبعة أيام ، ولم يجتمعْ بالشَّيْخ حَتَّى ضاق ذرعا من ذلك سيدي عبد الرحمٰن وسيدي عمران ابنا الشَّيْخ ، فدخل الزاوية سيدي عبد الرحمٰن بخمسمائة دينار ، وقال لِمَنْ حضره من الطلبة والفقراء : أشيروا علينا ، كيف أفعلُ ؟ أطردُ هذا الوالي أم أقدر أن أكلم الشَّيْخ [عنه](١) ؟ أم كيف أفعل ؟ فلم يكلمه أحد .

ثم قال سيدي عمران ؛ لأنَّه هو المقدَّم على الزاوية : أيها الناس الذي يدخل منكم على الشَّيْخ ويكلمه [في](٢) هذه القضية له خمسمائة دينار ذهبية، وكان بإزَائِه طفلٌ صغير - وهو سيدي مفتاح العطوي - كان الشَّيْخ ينبسط معه إذا رآه ، ولو كان في غاية القبض ، فقال لسيدي عمران : أتعطنيها إن دخلت ؟ قال : نعم . بل أُعجِّلها لك من الآن ، ووضعها في جيبه ، فقام الطفل ودخل على الشَّيْخ ، فلمَّا أن رآه الشَّيْخ ، قال له : بعثك عمران ،

(١) في الأصل : عليه .
(٢) في الأصل : على .

لا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم ، ثُمَّ رحَّب به ، وقال له : امشِ نادِ عمران ، فلمَّا جاء سيدي عمران للشيخ ، قال له - بعد اللوم - : ائتوني بما تجدونه من الإزارات، فجيء بها أمكن ، فقال : لَوِّذوها بي[1] ، فما زالوا يدثِّرونه بها حَتَّى صار لا يكاد يَبين وجهه .

ثم قال : مُرُوهُ فليدخلْ ، فدخل وقبَّل طرفَ أبعدِ الإزارات عن الشَّيْخ، وخرج ودخل الجندُ بعده متتابعين ، يُقبلون الإزار الأبعد ويخرُّون ، فلمَّا أن مروا وخرجوا كلهم ونزعوا عن الشَّيْخ وجدوه مُغمى ، وقد يبس كأنه ميت ، وما زال كذلك نحو اليومين والثلاثة . ثُمَّ لما أفاق ، قال لابنه عمران : أنت تريد هكذا ، وهؤلاء أنفسهم سُمٌّ يا عمران ؛ لأنِّي كلَّما مكثت بطرابلس وغيرها لَمْ أقف [في] باب واحد منهم ، ولم أجتمع بهم إلَّا لضرورة ، ويكون معها مرضي ، ثُمَّ سقط من جميع جسد الشَّيْخ جِلْد كأنه سَلْخُ حية .

واعلم أنَّ مراد أغا هذا رجع للشيخ مرة أخرى بعد تلك الزيارة وأخذ التلقين عن الشَّيْخ ، وعاهده أن لا يُضام إلى أن مات ، وكان من أمثل أهل زمانه ، بل هو أمثلُ من ولي طرابلس من الأتراك الذين قَبْله ، حَتَّى إنه لا يتقوَّتُ إلَّا من صنعة يده كالخياطة ونحوها ، وقد تخلَّق بأخلاق أهل العدل وسيرتهم ، وكان هو الذي تسبَّبَ في افتكاك مدينة طرابلس من أيدي الإفرنج ، وقصتُه طويلة ذكرناها في غير هذا ، مات - رحمه الله - سنة سبع وتسعين وتسعمائة بمدينة طرابلس ، ونُقل في تابوت ، ودُفن بالقرب من الجامع الذي أسَّسه بتاجوراء .

(١) يريد : دثروني بها .

[عمران ابن الشَّيْخ الأسمر]

ولنرجع إلى الكلام على ابن الشَّيْخ الذي هو سيدي عمران هذا ، [فقد] مات مقتولًا سنة خمس وتسعين وتسعمائة ، ودُفن بالمقبرة التي قرب الزاوية ، وهو مشهور الآن بها[1] ، وكان الذي قَتل سيدي عمران يحيى الزرهوني الزاعم أنه الإمام المهدي ، ولما مات سيدي عمران رُئيَ الشَّيْخُ في المنام وهو يقول مقطَّعة من جملتها : [زجل]

يا عمران زفوني لمركز الأخطـــار
.... وقِـلُّوني للسـوق جـهـار

فلم يلبثْ يحيى بعدها إلَّا قليلًا حَتَّى أهلكَه الله على قدوم عمارة قَدِمَتْ من السلطان العثماني ، كان السبب فيها سيدي عبد الله المكني ، والشَّيْخ نويري الشبلي المحمودي ، فأُخذ وقُتل حينئذ ، وسُلخ جلده وحُشي جلده بالنخالة ، ورفع للقسطنطينية اهـ .

[ما حدَّث به القارئ راشد بن يحي المحجوب]

ومن ذلك ما حدَّثني به الأخ الحبيب النجيب التالي كتاب الله - تعالى - الصالح سيدي راشد بن يحيى بن عمر المحجوب - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ - قال : لَّما فارقتُ الشَّيْخ وتوطَّنْتُ ببلدي التي ازددتُ فيها - وهي صرمان - ظلمني رجلٌ من دائرة والي طرابلس يقال له : الشاوُش جابر بن دبوب ، يزعم أن والده وضع مالًا عند أبي يحيى قبل موته ، فلمَّا أكثر عليَّ التعدي ، وعلمت أنه يريد بي سوءًا اشتكيتُ من ظلمه إلى عمي زكريا ، فقال لي : يا ابن الأخ لا أنفعُك في هذه ، ولكن أدلُّك على أستاذك

(١) في الأصل : به .

الذي به اقتديتُ ، وإليه نُسبتُ ، وعلى الله ثُمَّ عليه اعتمدت ، هو ينجيك منه ، إما بعطب أو بغيره .

فلمَّا مضى من الليل نصفُه دخلتُ خَلْوتي ، وأضأت القنديل ، وأغلقتُ بابها عليَّ ، وصليت لله ركعتين نافلة ، ثُمَّ وجَّهتُ وجهي إلى ناحية الشَّيْخ وندهتُ به ، على نحو ما نصَّه ، ثُمَّ شرعت في قراءة البردة ، فبينما أنا أقرأ البردة إذا بالشَّيْخ دخل عليَّ من غير باب ، يقول هذه المقطَّعة : [زجل]

يا راشد يا نجل محبي يا محجوبْ	يـا صـديقي يـا حبيـبْ
أنت تلميذي ومن حزبي محسوبْ	يـا مـولى الحلـم يـا أديـبْ
اسمك في الدفتر رسم عندي مكتوبْ	فنـاديني نسـتجيبْ
قدمتك بين الرجـال يـا مـدُّوبْ	وجعلتـك فـيهم نقيـبْ
جاهك لديَّ مـن المـولى موهـوبْ	مـن نـاسْ أحـرارْ مـا تخيـبْ
اللي راكبْ على جمْل عاتي دعبـوبْ	كيـف يخـاف مـن كليـبْ
لا تجزعْ يا نـورْ عينـي مـنْ دبـوبْ	ياتيـك النصـر عـن قريـبْ
أنا أبـوك أسـد متوسـد عرقـوبْ	بـين هناشـير مرتقـيبْ
أنا مـدفعي عـلى برجـي منصـوبْ	كـوره متـلولب عجيـبْ
اللي ياذيـك نقتلـه مـا فيـه ذنـوبْ	هذا المتـعـوس الكـليب
مَنَّهُ مثـلي يا خليـلي في المخـلوبْ	من مطلع الشـمس إلى المـغيـبْ

... إلى آخر ما قال .

فلمَّا أصبح الصباح من اليوم الثاني ، جاء الخبر [بـ]أنه مات في مرقَده من غير مرض(١) ، والله ﷻ هو الفعال لما يريد .

(١) لتصحيح عقائد الناس ينبغي التنبيه على ضرورة ارتباط الموت بالأجل ، وفيه يموت الظالم والمظلوم ، فلا يبق الموتُ أحدًا من المذكورين في هذا الكتاب حتى يتميز عن غيره ، وعند الله =

[ما ينسب للشيخ من الإتيان بالأسرى]

ومن ذلك إتيانه بالأسرى من بلاد النصارى ، رجالا ونساء ، في حياته وبعد موته مشاهدة ، فهو متكرر لا ينبغي تَعداده ، وقد ذكر في كلامه وتحدث بالنعمة فيه ، حيث يقول في بعض مقطّعاته ، وهي هذه : [زجل]

أنا اليـــوم مـدَّرْوَنْ مغـرومْ	هـــايم بشرب الكيســـاني
نَظَـلْ مثـل الصـيدْ نــزومْ	خلعـــت الـبلاد وعربـاني
فقـراي يضْـوُوا مثـل نجـومْ	بَحْـــري وَسِيع الجـيلاني
أنا القـطـب يـا منـه مضيومْ	أَنَــا اليـــوم الكيـــلاني
جبت الأسيرْ مِنْ أرضِ الرُّومْ	هـــذا عَطَـا مِنْ سُلطــاني
هــذا مـــن الحيِّ القـيـومْ	هــو نـشـــاني وأعـطــاني

... إلى آخر ما قال .

وهذه قصة مشهورة(١) يحدثك بها الخاص والعام من أهل مدينة طرابلس وقراها ، وعند غيرهم من البلدان الأباعد ، وهو مما اشتهر بذلك في سائر الأمصار ، فإذا قيل : سيدي عبد السَّلام وأُريد تعيينُه ، يُقال : جيَّاب الأسارى من أرض الروم ، ولكن ذلك يُروى على وجوه مختلفة ؛ لأنَّ إتيان الشَّيْخ بالأسارى متكررٌ ، فكلٌّ واحدٍ من أصحابه أخبر بما شاهد من الشَّيْخ في ذلك .

واعلم إن الشَّيْخ ﷺ لَمْ يقلْ(٢) في مقطَّعته المتقدمة المتحدَّث فيها

= تجتمع الخصوم. أما كونه من غير مرض فلعله أفضل للميت ولأهله من عذاب المرض ومعاناته، فالموت في حدِّ ذاته قدرٌ وليس عقوبة ، وللمظلوم يوم ينتصف فيه من الظالم بلا ريب .

(١) إشارة إلى أن بقية القصص غير مشهورة عند الناس .

(٢) في الأصل : واعلم أنَّ ما لم يقل الشيخ ﷺ .

بالنعمة: « أنا أعظمُ من الكيلاني » تأدبًا مع سيدي عبد القادر، ولِمَ لا ؟ فهو أعظم منه ولاية على ما يُفهم من مقاله في انتهائه، ولا عجب أنَّ لكل زمان سادة وقادة، وقد يُعطي الله للمتأخر ما لَمْ يعطه للمتقدم، كما أعطى لسيدنا محمد ﷺ ما لَمْ يعط الأنبياء قبله، مع أنه سُئل ﷺ في انتهائه على مقالة سيدي عبد القادر - نفعنا الله به - : « إنَّ رِجْلنا على عنق كلِّ ولي ». فقال : صدق سيدي عبد القادر في مقالته لكن يريد بذلك على الأولياء المشهورين من أهل زمانه لا على الإطلاق، وأما عنقُنا إلهي ليست عليها[1] .

وقال في موضع آخر : لو كان سيدي عبد القادر حيًّا وأدرك ولايتي لتبِعَني ووثَق بطريقتي، وأخذ عني آدابًا وعلومًا وأسرارًا ؛ لأنَّ الله - تعالى - الآن قد جمع لي من علوِّ النسب وشرف العبادة والعلم ما لَمْ يكن لغيري في وقتي هذا، وإني منذ خُلقت ما احتلمت بامرأة ولا تثاءبت قط، حَتَّى إني كنتُ إذا اجتمعت مع رسول الله ﷺ في نوم أو يقظة فأكثر ما يخاطبني به يا ولدي، حَتَّى قال لي ذات يوم : أنت ولدي حقيقة اهـ.

ولنذكر شيئًا من إتيانه بالأسارى في هذا الكتاب على جهة التبرُّك فأقول : مما شاهدتُ منه أول ذلك، إتيانه ببنتيْ[2] الشَّيْخ سيدي فتح الله أبي راس نزيل الساحل المضاف إلى آل حامد، وذلك بعد موت أبيهما سيدي فتح الله[3] المذكور . والحكاية : أني خرجتُ يومًا في زيارة الصالحين بيزليتن، فلمَّا بلغتُ كثيب رملٍ هناك قريبًا من ساحل البحر، فإذا بمقصورة من ساج مُلقاة هناك، فلمَّا وقع نظري عليها تعجَّبتُ مما رأيت، وأخذتُ في

(١) في الأصل : عليه .

(٢) في الأصل : بينات .

(٣) فتح الله أبو راس هو شيخ الشيخ عبد الواحد الدوكالي وشيخ الشيخ أحمد زرُّوق، وهما شيخا الشيخ عبد السلام الأسمر .

التقرب إليها ، فلمَّا وصلت إليها وجدت داخلها امرأتين لَمْ أَرَ أجمل منهما في ذلك الزمان ، ومعهما طفلان صغيران من أولاد النصارى ، فتحيَّرتُ في ذلك وخُيِّل لي أنَّ بعض الملوك نزل من البحر في هذا الموضع ، وهذه جواريه ومماليكه ، والحال أني لَمْ أجد أحدًا بالقرب منهم أسأله ، فبقيتُ متعجِّبًا ساعة .

ثُمَّ دنوتُ منهم ، وسألتُ فأجابتني واحدةٌ منهما ، وقالت : أنا من بنات الشَّيْخ فتح الله أبي رأس ، كنا أسارى في بلاد النصارى ، وهذان الطفلان من أولاد النصارى ، كان مالكُنا وضعهُما معنا في هذا البيت ، أي المقصورة لنربيهما ، فقلت لهما : وما الذي وصل بكما إلى هذا الموضع ؟ فقالتا : بركةُ الصالحين الذين لا يصعب عليهم شيء بإذن الله ، فإنه لما قدَّر الله بأَسْرنا(١) ، ومَلَّكنا نصراني أراد تزويجنا كرهًا ، ولم يمكِنًّا الامتناعُ منه ولا الاحتراز عنه ، وضاقت بنا الأحوال ، وتكاثرت علينا الهموم والنكال ، فلمَّا جنَّ الليل توضينا وصلينا لله - تبارك وتعالى - بعد الفريضة ما تيسَّر ، وتوجَّهنا إلى الله ورسوله وإلى عباده الصالحين ، قلنا بلسان واحد: يا سيدي عبد السَّلام أنقِذْنا مما نحن فيه ، ثُمَّ أخذنا بالبكاء ، وبقينا على ذلك ساعة زمانية ، فإذا بالشَّيْخ نزل علينا واختطفنا بالبيت الذي نحن فيه ، ثُمَّ طار بنا في الهواء ، ووضعَنا هنا في هذا الموضع ، ولا نعلم أيَّ موضع هذا .

فقلتُ لهما - بعد الحمدلة على ذلك - : فهذه بلاد الشَّيْخ الذي هو سيدي عبد السَّلام التي هي يزليتن(٢)، فحصل لهما من الفرح ما الله به عليم، والحكاية طويلة ذكرناها في غير هذا ، ثُمَّ لمَّا شاع الخبر بذلك في سائر

(١) السؤال : هل تحدث التاريخ عن أسر نساء من طرابلس في هذه الآونة ؟ ولماذا لم تكن دعوة الشيخ في ظروف الأسر وهي أقسى وأمر ؟

(٢) الذي هو ، والتي هي :من لوازم أسلوب البَرموني وعصره .

الأمصار ، وبلغ جميع الأقطار ، حَتَّى بلغ بلاد النصارى ، مع تفحُّصهم على هذه الغريبة التي لَمْ يكن مثلها في هذه الأزمنة القريبة ، فلمَّا تحقَّقوا ، ولهذه الأخبار الصحيحة تنشَّقوا ، عوَّلوا على السَّفر إلى مدينة طرابلس ، قاصدين الاجتماع بهذا السيد الجليل ، راغبين منه ما يشفي لهم الغليل ، فلمَّا قدَّر الله بقدومهم عليه ، وانتهاء سفرهم إليه ، شاهدوا منه ما لا يحصى ، ولا يكاد يُستقصى ، وأقرب ما شاهدوه من هذا الأستاذ : إتيانه بما كان عندهم من الأسارى والأولاد ، فأسلموا من ساعتهم ، ومكثوا بالزاوية من حينهم ، ولا زالوا بها إلى أن توفاهم الله ، وهؤلاء النصارى هما أبوا الولدين وأبناء جنسه ، فكان أبوهما بعد تسميته جوان ، صار سيدًا يسمى بعبد الرَّحمٰن ، والله ﷻ يدعو إلى دار السَّلام ، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[1] .

الثانية : وهي مما شاهدته أيضًا ، وذلك أنِّي كنتُ مع الشَّيْخ ذات يوم في الزيارة ، فلمَّا رجعنا نحو الزاوية ، فإذا بعجوز خَلْفنا تَصيح ، وتقول : يا سيدي عبد السَّلام ! بالله عليك قف لأكلمك ، فوقف الشَّيْخ وقال لها : ما حاجتك ؟ فقالت له : يا سيدي ويا مولاي إن ابني أخذه النصارى ، وأريد منك أن تدعوَ الله - تعالى - يُرجعه إليَّ ، وقد سألتُهُ بالله في ذلك ، وكان ﷺ من عادته لا يخيِّب مَنْ سأله بالله ، فقال بسم الله ودعا امتثالًا لله ، وجبرًا

(١) لا يخفى ما في هذه القصة من الإفراط في الخيال . ولو وقعت حقيقة لوجدنا أخبارها في غير هذا المصدر، فهذه العجائب ، وهؤلاء القادمون من بلاد النصارى الذين أقاموا في مدينة زليتن المحدودة كان يمكن أن يتركوا أثرًا دالا عليهم ، ثُمَّ إن الشيخ أبا رأس هو شيخ شيخَيْ الأسمر عبد الواحد الدوكالي وأحمد زرُّوق ، فكم سيكون عمر بناته في حياة تلميذ ه البَرموني ؟ وهل يعجز من أتى بهما من روما أن يوصلهما إلى أسرتيهما . إنها حكايات خيالية تذكرنا بحكايات الحلاج التي ثبت أنَّ أكثرها من وحي الخيال والمنامات . لقد آن الأوان لتصحيح سيرة هذا الشيخ المفترى عليه ، وإبراز عطائه العلمي والدعوي خاليًا من الروايات الموهومة . غفر الله للجميع .

لخاطرها ، ثُمَّ قال : ها هو ذا ولدك ؟ فرفعتْ بصرها فرأته ورآه كلُّ من كان مع الشَّيْخ حينئذ ، فسعت إلى الشَّيْخ تقبِّل يديه ، وتقول : شيء لله شيء لله ، ثُمَّ ذهبنا إلى أن دخلنا الزاوية ، وهما معنا .

الثالثة : ما شاهدتُه بعيني أيضًا ، وذلك أنِّي وجدتُ أسيرًا على سطح الزاوية في آخر الليل مقيَّدًا مغلولًا وهو مختلِط العقل[1] ، فسألته عن ذلك ، فقال لي : بينما أنا في بلاد الإفرنج بعد صلاة العشاء الأخيرة ، توجهتُ إلى سيدي عبد السَّلام وطلبتُه الخلاص مما أنا فيه ، فإذا به أخذني ثُمَّ طار بي في الهواء ، فوضعني هنا في هذا السطح ، فمكثَ يومين ورأسه دائر من شدة الخطفة ، والله - تعالى - هو القوي المتين[2] .

الرابعة : أني وجدت أسيرًا ببلد بني وليد مُلقى على الأرض ، مُغمى عليه ، والناس دائرون به ، فلمَّا أفاق من إغمائه سألته عن ذلك ، فقال : كنتُ أسيرًا ببلاد النصارى ، فلمَّا جاروا عليَّ بالتَّسويط[3] ، والتعذيب ، خرجتُ إلى بستان بلد النصارى بالقرب من البحر ، وندهتُ بالشَّيْخ بأن يُنقذني مما أنا فيه، وبكيت ساعة ، وكان معي خروفٌ أرعاه للنصراني الذي كنتُ أُسرتُ عنده ، فما شعرتُ وإذا بكلبٍ أحمر كبير وثب على الخروف الذي أرعاه ، وهرب به إلى أن دخل البحر ، فلحقتُه أجري[4] فلمَّا دخل البحر تركتُه خوف

---

(١) في الأصل : مخبط .

(٢) وجه الغرابة هنا يكمن في التشابه بين قصة هذا الأسير وقصة بنتي الشيخ أبي راس ، فكلاهما أسير استغاث بالشيخ فألقاه على الساحل محصورًا في مقصورة ، أو موثوقًا مختل العقل ، وكأن الشيخ الذي أحضرهما من وراء البحر لا يستطيع أن يفك الوثاق أو يوصل الأسرى إلى أسرهم، ولا شك أن لتسامح البَرموني في رواية هذه القصص سببًا رآه وجيهًا في ذلك العصر .

(٣) التسويط : الضرب بالسوط .

(٤) في الأصل : نجري .

الغرق ، ووقفتُ هناك على شاطئ البحر ، وجعلتُ أنظر إلى البحر متحيِّرَ الخاطر ، خوفًا من ضياع الخروف ، ومن عقوبة النصراني لي .

فبينما [أنا] كذلك إذا بالبحر انفلق أمامي على شطرين(١) ، وبين الشطرين طريقٌ يابسةٌ لا ماء فيها ، فلمَّا أمعنتُ النظر إلى الطريق إذا بالكلب الذي وثبَ بالخروف واقفٌ بالقرب مني ، ووجهه إليَّ والخروف في فيه

(١) احتاج سيدنا موسى إلى استخدام وسيلة العصا لشطر البحر المحدود في مصر ، وهنا ينشطر البحر الأبيض المتوسط بلا واسطة ؟ والواسطة التي جعلها الله في معجزات الأنبياء لها دلالة ، ودلالتها أن المعجزات والكرامات التي هي خوارق لنواميس الله وسننه ، لا تكون إلا بسبب قوي ووسيلة ظاهرة تعد سنة أخرى بذلك السبب ، قال - تعالى - : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ (الأحزاب ٦٢) ، ولكي تصبح السنة ممكنة التبديل بإرادة الله أشار سبحانه في القرآن إلى وسائل وأسباب عديدة تؤدي ذلك التبديل والخرق للعادة ، منها السلطان وهو العلم في قوله - تعالى - : ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ (الرحمن ٣٣) ، وعليه فإن طيران الآدمي الواحد في الجو لم يجعله الله ممكنا إلا بواسطة كالبراق في قصة الإسراء والمعراج ، ولكنه يصبح أوسع إمكانًا في طيران المائتي راكب من آسيا إلى أمريكا بوسيلة العلم الذي أمر الله به في أول آية أنزلها على رسوله ﷺ ، وهكذا فإن رمزية الوسيلة كانت السبب في هزِّ السيدة مريم لجذع النخلة على ضعفها ، وفي تابوت موسى وكان الله قادرًا على نقله بدون تابوت حيث يريد ، وفي عصاه التي أبطلت سحر السحرة وكان قادرًا على إبطاله دون حاجة إلى العصا ، وفي سفينة نوح على قلة إمكاناتها ، وفي طلب الخروج من لوط عليه السلام وكان الله قادرًا على نجاته في بيته ، وهي حكمة ذبح البقرة في القصة القرآنية ، وكان يمكن أن يحيي الله ذلك الميت بدونها ، وإشارة مريم في كلام سيدنا عيسى في المهد ، وكان يمكن أن يتكلم بدونها ، وعلم الكتاب الذي آتاه الله لمن أحضر عرش بلقيس ، والدعاء الذي كان وسيلة سيدنا يونس في بطن الحوت ، وهو الوسيلة الدائمة لكل مسلم ، وقد رأينا كيف كان رسول الله يدعو في غزوة بدر حتى سقط ثوبه ، ونعرف ما قال له صاحبه أبو بكر الصديق حين رأى كثرة دعائه ، ولم يكن إمداده بالملائكة في هذه المعركة إلا بشرى وسببا ، أما النصر فهو من عند الله ، ونجد في تراث الشيخ عبد السلام الأسمر ما يوافق هذه العقيدة ويطلب من مريديه التعويل على الله والاستعانة به ، مقتديًا في ذلك برسول الله ﷺ حين قال « وإذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » بل إن ذلك هو سر التقديم في قوله - تعالى - ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ .

يصيح مضغوطًا بين أنيابه ، فلمَّا جريتُ [نحوه][1] هرب مني ، وكلما أجري إليه يهرب ، فما دريتُ إلَّا وأنا في بستان بلد بني وليد ، فعلمتُ أنَّ الشَّيْخ هو الذي أنقذني الله على يده ، ثُمَّ إني لما رجعتُ من بني وليد إلى يزليتن ، أخبرتُ الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام بما وقع لذلك الإنسان في هذه الحكاية ، فتبسم ﷺ وقال : كان قد نده بنا ونحن في حالة الاشتغال بما هو أهم من أمره، وكان إذ ذاك بإزائي واحد من صالح الجن زائرًا لنا، فأمرتُه بتخليصه، فخُلِّص على الوجه الذي ذكره[2] .

الخامسة : ما حدَّثني به الأخ في الله الصالح سيدي محمد بن الحاج عبد الله بن جلال المحمودي – كان من أعدل أهل زمانه – قال : كان رجل من جيراننا أهل الجبل ، ضاع له ابن صغير منذ عام ونصف عام ، تزاهدت عليه أمه وهو في المهد ، وقُدِّر أنْ سرقَتْه امرأةٌ من العرب كانت جارة لأمه ، وباعتْه لذِمِّي يبيع العَطْرية والأشْخِبة[3] ، والذي باعه لنصراني خُفية بمدينة طرابلس ، والنصراني بعثه لبلاده ، ولم يشعر به والده في أي موضع ، حَتَّى ماج قلبه وتلف عقله ، وجعل يلوج من بلاد إلى بلاد فيطلبه ، إلى أن بلغ إلى الشَّيْخ الذي هو سيدي عبد السَّلام بمدينة طرابلس ، قال : فلمَّا وصل إلى الشَّيْخ وسلَّم عليه بكى بكاء شديدًا ، فقال له الشَّيْخ : مالك وما يبكيك ؟ فقال ابني سُرق ، ولا[4] أعلم به أهو حي أم ميت ، أو بأي موضع . فقال له الشَّيْخ – من جهة الكشف – : لا تخفْ ولا تحزن ، إن ابنك ببلاد النصارى، وأنا – إن شاء الله – آتيك به الآن في هذا الموضع ، وأخبره بقصة ابنه ،

(١) في الأصل : فهرب مني . وما بين المعقوفين زيادة يقتضيها تمام المعنى .

(٢) قصة أخرى تتحدث عن تعامل الشيخ مع الجن .

(٣) الأشخِبة : نوع من العقود السوداء المعطرة تضعه النساء حول العنق بأطوال مختلفة .

(٤) في الأصل : ولم ، وليس المراد نفي الماضي فقط .

وكيف سُرِقَ وبيع ، من أولها إلى آخرها - وهو ما قدمناه آنفًا - ثُمَّ قال له الشَّيْخ أغمض عينيك ، فأغمضهما ربع ساعة ، ثُمَّ قال : افتحهما ، فلمَّا فتحهما ، إذا بابنه موضوعٌ بين يديه .

السادسة : ما سمعتُه من متعددين أن جماعة من أهل درنة قالوا : أُسرنا في بلاد الإفرنج ، وكنا اثني عشر رجلًا ، فأقمنا عندهم يستخدموننا في الأعمال الشــاقة ، حَتَّى كدنا نموت ، فألهمنا الحق - تبارك وتعالى - يومًا أننا قلنا : يا سيدي عبد السَّلام بن سليم يا فيتوري ، الناس يقولون إنك تخلِّصُ الأسارى من الأسر ، وقد سألناك بالنبي محمد ﷺ ، أن تردَّنا إلى بلادنا وتفكَّنا من هذا الأسر الشديد ، قالوا : في ذلك اليوم نزلنا مركبًا ليس فيه أحد ، وقذفنا فلم يشعر بنا أحد من الإفرنج ، حَتَّى سِرنا في البحر نحو ميلين، فخرجوا وراءنا فلم يدركونا إلى أن وصلنا إلى بلادنا درنة ، ببركة سيدي عبد السَّلام .

السابعة : ما ذكره سيدي عبد الرحمٰن المكي في كبيره عن كرامات الشَّيْخ - الذي هو سيدي عبد السَّلام - ما نصُّه : ومما رأيته أنا بعيني سنة ٩٧٥ خمس وسبعين وتسعمائة ؛ أني كنت جالسا قبل الفجر بإزاء زاوية الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام ، فسمعت صَيْحةً عظيمة فوق السطح - أي سطح الزاوية - ، فطلعتُ إليها فإذا فيها أسيرٌ مُقيَّد مغلول وهو غائب اللُّب ، فأخبرتُ بذلك الطلبة ، فأدخلوهُ إلى خَلْوة ، فمكث بها ثلاثة أيام ثُمَّ أفاق ، فسألناه كيف حصل له ذلك ؟ فقال : كنت أسيرًا في بلاد الإفرنج ، فبينما أنا واقف على سَطْح إذ توسلتُ بسيدي عبد السَّلام ، فإذا أنا بشيء خطفني وطار بي في الهواء ، حَتَّى نزلتُ على هذا الحائط ، فطاش عقلي من شدة الخطفة والطيران ، ففككنا قيودَه وجاورَ بالزاوية حَتَّى مات .

الثامنة : ما حدَّثني به رجل اسمه إسماعيل التونسي ، قال : كنت أسيرًا في بلاد الإفرنج ، وكان الإفرنجي الذي أنا عنده يقول لي : إن سمعتك تقول « يا عبد السَّلام » عاقبتُك وضربتُك ، ثُمَّ خاف منه [أن] يخطفني فصار يضعُني في صندوق من عود كبير ويُقفله عليَّ بقفل من حديد ، وينام فوقه(١) ، فقلتُ في نفسي ليلة من الليالي : يا سيدي عبد السَّلام بن سليم يا فيتوري أنقذني من عند هذا النصراني ، فما تمَّ كلامي إلَّا وقد حُمل الصندوق والإفرنجي ، فصرتُ أسمع دويًا من تحتي عظيمًا ، فما(٢) أصبح الصباح إلَّا وأنا أسمع صوتًا وكلامًا كثيرًا ، ثُمَّ فُتح الصندوق عني ، وأُخرجت فوجدتُ نفسي في ساحل القيروان ، والإفرنجي واقف والناس حوله - وهو مبهوت - ثُمَّ حكى لهم ، وأسلم الإفرنجي . ثُمَّ جاء إلى الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام وزاره ، ورجع لبلاده القيروان .

وقد رأيتُ أن أقتصر على ذكر هذه القصص التي هي إتيان الشَّيْخ بالأسارى لكثرتها ، ولطلب الاختصار في هذا الكتاب ، فمن أراد بأكثر من ذلك فعليه بكبيرنا ، ذكرنا فيه خمسمائة حكاية من الإتيان بالأسارى ، ولسندنا لكل حكاية دليل من الكتاب والسُّنَّة(٣) ، وشعر بديع .

---

(١) هل هذا معقول ؟ ألهذا الحد بلغت شهرة الشيخ في بلاد الإفرنج ؟ وكيف لا يأتي مؤمنًا من هذا اعتقاده في الشيخ ؟ وهل ثبت هذا في مدوناتهم التاريخية أو مدونات المسلمين ؟! إنّ من أهداف نشر هذه القصص تنقية عقول العامة من الشوائب العالقة بتاريخنا الثقافي وثقافتنا الشعبية ، وتصفية الصوفية مما تلبس بها في عصور الجهل والتخلف . والله المعين .

(٢) في الأصل : فلما .

(٣) والسؤال : كيف يكون لمثل هذه الحكايات سند من القرآن والسنة ؟

[روايات عن كرامات أخرى]

ثم أقول : ومن كرامات هذا الشَّيْخ[1] ما حدَّثني به الأخ في الله الصالح سيدي يوسف بن مفتاح المزغيني - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ - قال : كنتُ مع الشَّيْخ في أيام مُكثه بمصراته ، وكان معنا جماعة من أهلها يتحدثون عن الكتاب والسُّنَّة ، فبينما هم كذلك إذ قام الشَّيْخ على خلاف عادته ، ومدَّ يدَه نحو المغرب ، ثُمَّ ضمَّها وكمه أسود ، فنظر الجماعة بعضُهم إلى بعض متعجبين من ذلك ، ثُمَّ سأله واحد منهم بالله عن تغيير كمه ، وأنا أسمع فقال له : امرأة بالمغرب الأقصى سقطت تَنْجَرة[2] لها عن النار، فقالت يا رجال الله ، ويا سيدي عبد السَّلام ، فرددتها لها بموضعها، فوقع في كمي ما رأيتموه[3] .

وحدَّثني أيضًا سيدي يوسف هذا ، قال : تخلفتُ عن الحضْرة أيامًا عديدة في أيام مكثي بيزليتن ، وكان السبب في تخلفي عنها أني كنت اشتريتُ غَلةَ جُنينة بيزليتن ، فيها كريمات ودويليات[4] ، وجعلت نعسٌ[5] عليها في زمان الصَّيف حين طياب نتاجهم[6] ، فبينما أنا ذات يوم أعسُّ على

(١) من هنا تبدأ نسخة آل زبيدة ، بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ ، وبعدهما « ثُمَّ أقول من كرامات هذا الشيخ الذي هو مولانا عبد السلام » .

(٢) التنجرة : قدر يُطهى فيه الطعام .

(٣) هل يحتاج سقوط (القدر) لخرق سُنَّة من سنن الله في الكون بلا وسيلة ؟ إن هذه القصص غير موجودة في رسائل الشيخ الصحيحة ولا في كتاب خليفته ابن جحا ، وذلك كاف للدلالة على ضعف نسبتها إليه .

(٤) الكريمات جمع كرمة مصغر ، وهي في اللهجة الليبية شجرة التين ، وفي العربية العنب ، والدويليات جمع دالية مصغر ، والمراد العوالق من أشجار العنب .

(٥) نعس : أعس أي أحرس .

(٦) طياب نتاجهم : يريد نضج نتاجها أي ثمارها ، وهكذا يستعمل ضمير المذكر لغير العاقل ، فأُصلحه تارة ، وأتركه أخرى للدلالة على أن ذلك من لوازم المؤلف .

ذلك جاءني(١) الشَّيْخ ينهاني عن التخلُّف عن الحضْرة ، ويأمرني بالمشي معه ، فقلت له : أخاف على نتاج هذا الكريات والدويليات من السارق ، فقال : مُرَّ معي فإنَّ يدي على أصحابي ، وعلى ما يكتسبون ، نحفظهم ونحفظ أموالهم ، فأودعت أمري إلى الله ، ثُمَّ إليه ، وسرت معه ، فلمَّا جاءها السارق من بعيد ليسرق منها النتاج فشُلَّتْ يداه ورجلاه ، وأُقعد في الجُنينة ، ما استطاع النهوض ، إلى أن جئته فوجدته قاعدًا ، فنهرتُه ، وأخذته من يده لأقيمه فلَمْ أقدر أن أقيمه ، فمشيتُ إلى الشَّيْخ أجري ، فلمَّا وصلت إليه ، قال لي : قبل أنْ أكلمه : السارق في الجنينة ، فقلت : نعم يا سيدي ، فمشيت أنا والشَّيْخ إليه ، وكان ذلك في يوم حر شديد ، فلمَّا دخلنا في الجنينة وجدتُ عليه أثر النوم ، فأخذه الشَّيْخ بيده وأقامه ، وقال له: أتعبتني في هذا الحر ، فقال له : أنا تائب إلى الله ، لا أتعرضُ لمال مسلم من هذا اليوم ، ثُمَّ طلب التلقين من الشَّيْخ فلقَّنه .

ويشبه هذه الحكاية ما حدَّثني به الأديب أبو عبد الله سيدي محمد بن علي اليزليتني - كان من أعظم أخلاء الشَّيْخ - ، قال : تخلفتُ عن مجلس الذكر أيامًا ، فكلَّمني الشَّيْخ في ذلك ، فقلت له : إن جاري سارق ، مهما علم بخروجي عَقَبني على الدار وسرَقها، فقال لي الشَّيْخ : ائتِ إلى المجلس، ولا عليك منه ، فجئت إلى المجلس ، وعقبني ذلك السارق ، فلمَّا أدخل يده للقفل ليحله تسمَّرت يدُه هناك ، فجَذَبَها ما شاء الله فلَمْ يُطِق نَزْعَها ، فبقي هناك حَتَّى جئت إليه من مجلس الذكر ، فوجدته على ما هو عليه ، فلمَّا وقع بصره عليَّ استغاث في التخلُّص مما أصابه من هذا الأمر العظيم ، مُظهرًا التوبة ، فلم تنفعه بشيء ، فرجعتُ إلى الشَّيْخ لِنُعْلمَه ونطلبَ منه الإتيان

---

(١) في الأصل : نعس على ذلك فجاءني .

معي ، فلمَّا وصلتُ إليه قال لي قبل أن أكلمه : فلان حصل ؟ فقلت: نعم يا سيدي . فجاء معي الشَّيْخُ ووضع يده على يده بعد الاستتابة، فتخلصتْ يده ، وتاب ذلك الرجل على يدي الشَّيْخ ، والله هو التوَّاب الرحيم .

وحدَّثني أيضًا سيدي محمد بنُ علي هذا ، قال : كانت عجوز من تنازفت يُقال لها « غزالة التمتامة » تأتي محل الشَّيْخ ، تستعملُ الصوف فيه ، فلمَّا كان ذات يوم سرقت عمامةَ الشَّيْخ من المحل ، وجعلَتْهَا داخلَ أزرتها خوف الاطلاع على ما فعلَتْ ، وقصدَتْ الخروج بها ، وانتهى خروجها إلى باب المنزل ، فإذا بالعمامة قد التوت [عليها][1] كما تلتوي الأفعى المضغوطة بها ، حَتَّى بلغ منها الجهد ، وضاقت نفسها ، فلمَّا رأت ذلك ، وحصل لها ما هالها ، وعايَنَتْ الهلاك ، رَجعتْ إلى الدار تائبة ، وأخبرتْ بما وقع لها باعترافها .

وقال أيضًا سيدي محمد هذا : قَدِمْتُ ذات يوم في زمن حرٍّ على الشَّيْخ بوادي ماجر ، فلمَّا وصلتُ إليه وجدته نائمًا في قيلولة تحت شجرة مُظِلة ، وحوله حية عظيمة ماسكة لمروحة بفيها ، وتروح عليه بها ، فلمَّا عاينت ذلك الأمر العظيم رجعت على حالي ، حامدًا الله على ما أولاه لهذا الشَّيْخ من الفضل العظيم[2] .

وحدَّثني أيضًا سيدي محمد هذا ، قال : كان للشيخ سبحة موضوعة في محل من دار الشَّيْخ غير محتاج إليها إذ ذاك ، فقُدِّر أنَّني ذات يوم دخلتُ دار الشَّيْخ ، ووقع بصري على تلك السبحة ، وكنت قد طلبتُ سبحةً لي فلم

(١) في الأصل : بها .
(٢) فَضلُ الله على الشيخ بما أودعه لديه من العلم والتقوى أدعى للشكر من أفعى تمروح بفيها بمروحة سعف .

أجدْها في ذلك الوقت ، فحدَّثتُ نفسي بأخْذِها إلى أن أجد غيرها ، فلمَّا دنوت منها بذلك القصد تخيَّل لي صفير أفعى بالموضع التي هي فيه ، فلمَّا أمعنتُ النظر وجدتها قد تمثلت بأفعى ، فاتحة فاها ، ولها أزيز عظيم ، فتحيَّرتُ في أمري ، وفررتُ هاربًا ، إلى أن وصلتُ إلى هذا السلطان الذي هو سيدي عبد السَّلام ، وأخبرته بما وقع ، فتبسَّم ضاحكًا ﷺ وقال : ارجع فخُذْها ، فرجعتُ فلم أجد إلَّا سبحة ملقاة بالموضع الذي عاينتها فيه، فأخذتها وهي باقية عندي إلى الآن . وسيدي محمد هذا أخبر بكثير من كرامات الشَّيْخ ، وله في ذلك تأليف كبير ، يسمى بـ « نشر الأزهار » نقلنا البعض منه في غير هذا .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي عبدُ الرحمٰن بنُ علي اللواتي التاورغي أنه قال : سُرِقَ لي قِنٌ من بستان البلد التي هي تاورغة ، وذلك في أيام مكث الشَّيْخ بها ، ولم أشعر بمن سرقه ، وخفتُ ضياعه ، فأخبرتُ الشَّيْخ بذلك ، فقال لي : لا تخفْ فإن يدي على كلِّ أصحابي ، وعلى أموالهم، فإنَّ قِنَّك يرجع إلى يدك ، ففرحتُ واستراح قلبي ، فلمَّا انتهتْ عشرةُ أيام بلغنا الخبرُ أن القنَّ سرقه بعضُ العصاة من أهل البلد ، وبيع للغزّ بمدينة طرابلس خُفْية ، ووُضع في سفينة ليسافروا به فلم تَسِرْ به السفينة ووقفت ، فأنزلوه منها فسارتْ ، فأعادوه لها فَوَقَفَتْ ، جعلوا ذلك سبع مرات ، فلمَّا علموا أن وقوفَها بسبب القِنِّ أنزلوه منها ، ودخلوا به إلى المدينة ، وجعلوا يعرِّفونه في الأسواق والمضارب ، لكي يعرفه[1] أربابه ، وما زالوا كذلك إلى أنْ عَرَفَه بعض الأحباب ، ورجع إلينا ، وهذا كله ببركة هذا الشَّيْخ - الذي هو سيدي عبد السَّلام - ، والله - تعالى - هو الجابر لكل ما تلَفَ.

---

(١) في الأصل : يعرفونه أربابه .

[الشَّيْخ الحطاب يعترض على الأسمر]

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي محمد بنُ محمد الصغير التاجوري - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ - قال: جاء الشَّيْخ الفقيه العالم سيدي محمد بنُ محمد الحطاب، من مصر إلى تاجورة، فقصد زيارة والده بزاويته المعروفة به، فسمع بالشَّيْخ - الذي هو مولانا عبد السَّلام - وأحواله، فجاءه بمسجد الناقة بداخل مدينة طرابلس، فلمَّا اجتمع مع الشَّيْخ، قال له - مُنكِرًا عليه -: يا عبدَ السَّلام! ذكروا لنا أنك تؤم الفقراء، وتقول معهم بلفظ الجلالة، فهذا ذكرٌ غير مشكور؛ لأنَّه بدعة لَمْ تُنْقَلْ عن السلف، وأنَّ الذاكر به لا أجر له، فقال له الشَّيْخ: وعن مَنْ نقلت ذلك؟ فقال: نقلته من جواب العز بن عبد السَّلام، فقال: يا محمد بن محمد دعني في حال، [فُقَرَّائي] ساعة لا يسعني فيها إلَّا ربي، فلمَّا سمِع من الشَّيْخ ذلك تحركتْ نفسُه، وامتلأ غيظًا وغضبًا، وأظهر الصَّولة، وقال: ما هذا جواب. وما هذه طريقة الصالحين. فقال له الشَّيْخ: انتهِ عمَّا تقولُ وإلَّا أُطيِّرْك بعلمِك المحطَّب الذي أفنيتَ عمرَك في تحطيبه، ولَمْ تُدركْ له حقيقة، ودفعَه، فلَمْ يشعُرْ بنفسه إلَّا وهو في جزيرة واسعة، لَمْ يَعْلَمْ لها طولًا ولا عرضًا، فأقبلَ يلومُ نفسَه ويعاتبُها، وهو ذاهلُ العقل غائبُ الصواب، ويقول: ما لي ومعارضة أولياء الله - تعالى -، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم، وصار يبكي ويستغيث، ويبتهل إلى الله ﷻ.

فبينما هو كذلك إذ ظهر له رجل ذو هيبة ووقار يسلم عليه، فرد عليه السَّلام وقام له، وجعل يُقبِّل يديه ورجليه، فقال له ما قَضِيَّتُكَ؟ فأخبره بما وقع له مع مولانا عبد السَّلام، فقال: لقد وقعت في أمر عظيم وخطر جسيم، أتدري كم بينك وبين بلادك طرابلس الغرب؟ قال: لا والله. قال

له : مسيرة سبعين سنة ، فازداد همه وغمه ، وضاق عليه الأمر ، ولجأ إلى الله في السر والجهر بعد الحوقلة ، والاسترجاع ، والتوبة ، والإقلاع ، ثُمَّ أقبل على الرجل وهو يقول : أرشدني يرحمك الله ، فقال : لا تخف سيهوِّن الله عليك ، فما يكون إلَّا خيرٌ إن شاء الله - تعالى - . قال : وكيف ذلك يا سيدي يرحمك الله ؟ قال : فأخذ بيده وأراه قبة عظيمة شديدة البياض عن بُعد ، وقال : أتنظر هذه القبة ؟ فقال : نعم .

فأمره بالذهاب إليها ، والجلوس داخلها ، فإنه مسجد يأتيه الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام كل يوم لصلاة الظهر والعصر ، فإذا أراد الصَّلاة فصلِّ معه الوقتين ، وإذا أراد الانصرافَ تشبَّث به ، وتعلَّقْ بأذياله ، وتملقْ بين يديه ، واسأله بالله العفو ، وقَبِّل يديه ورجليه ، واكشفْ رأسك ، وتذلل وتأدَّب لله ، وقل له : إنني أستغفر الله وأتوب إليه ، ولا أعود لما صدر مني ، فإذا رأى ذلك منك فإنه يقْبَل عليك ، ويعيدك إلى موضعك إن شاء الله - تعالى - .

قال سيدي محمد الصغير التاجوري - المذكور - : وكان الذي ذكر له ذلك الخضر عليه السلام ، فامتثل سيدي محمد بن محمد الحطاب ما أُمر به ، ومشى إلى ناحية القبة ، ودخل إليها بوضوء ، وجلس ينتظر قدوم الجماعة ، فما كان إلَّا يسيرًا وإذا هُم قد أقبلوا من كلِّ جانب ، ثُمَّ أقيمت الصَّلاة ، فتقدَّم سيدي عبد السَّلام وصلىَّ بهم ، فلمَّا انقضت الصَّلاة تعلق سيدي محمد بن محمد الحطاب بأذيال سيدي عبد السَّلام ، وكشف رأسه وجعل يُقبِّل يديه ورجليه ويبكي ، ويستغفر الله ويعتذر من جنايته ، وأنصف من نفسه . قال: فأقبل عليه الشَّيْخ - الذي هو مولانا عبد السَّلام - ، وقال له : أترجعُ عما كنت فيه ، ولا تعُدْ إلى مثل ما كان منك من الإنكار على المنتسبين له ؟

فقال: نعم، السمع والطاعة. فقال له الشَّيْخ: ما سلف عفَوْنا عنك فيه، ثُمَّ أمره أن يُغْمِضَ عينيه، فلمّا غمّضهما دفعه الشَّيْخُ دفعة لطيفة، وقال: اذهب إلى بلاد تاجوراء، فإنَّ عيالك في انتظارك، فلم يشعر سيدي محمد ابن محمد بنفسه إلّا وهو واقف بباب زاوية أبيه، فأقام في بيته مدة لَمْ يخرج، ولم يظهر لأحد لِما جرى له من المشقّة في هذه الواقعة بينه وبين مولانا عبد السَّلام.

فلمّا أكمـلَ السبعةَ أيـام خـرج لزيارة الشَّيْـخ - الذي هـو مـولانا عبد السَّلام - وأخذ عنه التلقين، وخدمه مدة، وقصد الحج لبيت الله الحرام وهاجر بمكة، ولم يزل بها إلى أن مات ودُفن هناك - كما سيأتي في ترجمته في الفصل الخامس - اهـ.

[منـامة]

وذكر سيدي عبد الرحمٰن المكي في كبيره أنَّ الشَّيْخ - الذي هو مولانا عبد السَّلام - رأى في منامه قبل موته بثلاثة أيام رؤيا، وقصَّها عليَّ، وقال: يا عبد الرحمٰن رأيتُ كأن القيامة قد قامت، وأنا واقف في المحشر، فألهمني الله ﷻ هذا الدعاء، فرفعتُ رأسي إلى السماء، وقلتُ: يا الله، يا عزيز، يا جبار، يا حي، يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلّا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين، اللهم يا ربَّ كلِّ شيء، وإله كل شيء، وخالق كل شيء، ويا رازق كلِّ شيء، ويا مجيب كل شيء، اغفر لي كلَّ شيء، ولا تسألني عن شيء، برحمتك يا أرحم الراحمين، أشهد أن لا إله إلّا أنت، وأن محمدًا ﷺ عبدك ورسولك، وإخوانه من الأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام - كلُّهم أنبياؤك، اللهم بحقه وحقهم عندك، أن تغفر لي ذنبي،

وتب عليَّ ، إنك أنت التواب الرحيم ، وأدخِلْني برحمتك في عبادك الصالحين .

وإذا النداء من الأعلى : يا فتى نحن ما سألناك عن شيء ، اذهب يا عبد السَّلام أنت ومَنْ معك ، فادخل الجنة ، قال : فبينما أنا كذلك ، وإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا يهنئني ، ويقول لي : هنيئًا لك يا عابد السَّلام ، فقلت : لماذا يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : بهذا العَلَام[1] الذي رُفع فوق رأسك ، فرفعْتُ رأسي ونظرت ، فإذا أنا بعَلَام كبير على رأسي ، وتحته خلق كثير ، منهم مَنْ أعرفه ، ومنهم مَنْ لا أعرفه ، مكتوب عليه بالنور « نصر من الله وفتح قريب لعبد السَّلام بن سليم ، ومَنْ معه من المريدين والفقراء الصادقين » فلمَّا انتشر العَلَام فوق رأسي رأيتُ تحته من الخلائق ما لا يحصى ، وهم يمشون خلفي ، حَتَّى دخلتُ إلى الجنة اهـ .

[إظهار السرقة]

وحدَّثني الأخ في الله الصالح العابد الزاهد سيدي علي أبو دبوس المصراتي - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ - قال : سُرق لي ديك في أيام مكث الشَّيْخ عندنا بيدر ، وكان ذلك الديك حسنَ الأذان ، وفيه الأوصاف التي وردت بها الأحاديث ، وكان الذي سرَقه ذبحه ، وأكله في ليلته التي سرقه فيها ، فلمَّا أصبح الصباح تفقدتُ الديك فلم أجده في دارنا ولا في ديار جيراننا ، فلمَّا لَمْ أجده أتيتُ إلى الشَّيْخ وأخبرته بذلك ، فقال لي - من جهة الكشف - : أجرك على الله يا علي ، فإن الدِّيك الذي ضاع من دارك ذُبح وأُكل ، فقلتُ له : يا سيدي من ذا الذي أَكَلَهُ ؟ فقال : الستر أحسن من الإظهار لذلك ، لكن لولا خوف التجاسر عليك مرة أخرى أو أكثر لم

---

(١) العلام هو علَمٌ كبير وراية كبيرة .

أُطلعك عليه، ثُمَّ قال لي: إن شاء الله بعد صلاة الظهر من هذا اليوم نمر بك على السارق، ويظهر لك شيء من بركتنا في السارق الذي سرق ديكك.

ثُمَّ لما صلى بنا الظهر أمرنا بالخروج معه أنا وجماعة من الفقراء، فلمَّا خرجْنا وسِرْنا جميعًا معه، التقينا بالسارق يمشي على عَجَلٍ، كان في بعض الأمكنة، فقال له الشَّيْخ: قف بمكانك، أسألك عن شيء، فوقف، وقال: فعن أي شيء تسألني؟ فقال: عن ديك صفته كذا وكذا، ضاع لنا في ليلة البارحة، فقال: لا علم لي به. فأعاد له السؤال ثانيًا، فقال: كذلك، كان يكرر له السؤال سبعًا، وهو يجيبه بعدم رؤيته، فلمَّا لَمْ يجبه بالإقرار والاستتابة عن ذلك تقدَّم له الشَّيْخ وضربه بالمعول بجنبه بين أكتافه، وقال: انطق أيها الديك، فصفِّقْ بأجنحتك، واصرخْ بأعلى صوتك في بطن هذا السارق الذي أكلك بحق من أنشأك في بيضة، قال: فصفق بأجنحته في بطن السارق[1]، وصرخ بأعلى صوته والناس يسمعون، فمن ذلك اليوم تاب السارق، وكفَّ عن السرقة، والله ﷻ هو التواب الرحيم، وأنشد الشَّيْخ بعد ذلك تحدثًا بالنعمة قائلًا: [وافر]

أشرتُ على الطيورِ فكلَّمتْني ... كذا الأموات بِإذن القـــدير
وقولي هـذا ليس فخـرًا منِّي ... بل [الإظهار مِنْ] نِعمِ القدير

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي عبد الرحمٰن بن علي الصادقي

(١) لا يجوز عقلًا أن يتم التصفيق بالأجنحة في بطن إنسان، فالعقل يقتضي أن يكون التصفيق في فراغ به هواءٌ كافٍ لإحداث الصوت، ولكن هذه الحكايا لا تخضع للمنطق والعادة، غير أنها لا تجوز شرعًا أيضًا، فالشرع يأمرنا بالبينة على من ادعى واليمين على من أنكر، وتعطيل الشرع ليس مقبولًا، ومن هنا يأتي استبعاد هذه الحكاية.

التاورغي - كان من أجلِّ أصدقاء الشَّيْخ - قال : جاء للشيخ جماعة من فقرائه أهل مصراته ملهوفين باكين ، يريدون الشفاعة منه ، والانتقام ممن تعدى عليهم من العصاة والطغاة البغاة ، وذلك أنه أغار على حيِّهم القواسم الطغاة ، وكان مسكنُهم الكهوفَ والتلال ورؤوس الجبال ، لا يفرِّقون بين الحرام والحلال ، فلمَّا أراد الله بسعادتهم ورجوعهم إلى الله وتوبتهم ، [طلبتْ] تلك الجماعة من الشَّيْخ الهمام مولانا عبد السَّلام أن يمشي للقواسم شافعًا، وللسعي الذي أخذوه مراجعًا .

فلمَّا حقَّق خبرَهم وسمع كلامهم ، أسرج فرسَه « سعيدة » وتوجه إليهم في بلادهم ، وهي ظاهر الجبل الغربي الذي يقال له : كاباو[1] من حيِّز طرابلس الغرب ، قال : فلمَّا وصل إليهم وكلَّمهم [عن][2] ذلك احتقروه واستهزءوا بحقِّه ، قالوا له : والله لا نرد لك شيئًا ، حَتَّى قالوا له بنيَّة الاستهزاء به ، وقلة الاعتقاد فيه : إن كنت وليًّا ، ولك بركة عظيمة ادْعُ علينا بالموت ، فقال لهم: موتوا يا قواسم ، فخرُّوا ميتين، حَتَّى تعجَّب مَنْ حضر[3]. فلمَّا كان ذلك توجه إليه سيدي علي الزرمدي وجعل يقبل يديه ورجليه ،

---

(١) القواسم ليسوا من سكان كاباو ، حسب علمي ، ولا نعلم عن نزاع تاريخي بين كاباو وأهل مصراتة ، ومن المستبعد حدوث نزاع بين القواسم المقيمين في غريان وأهل مصراتة لتباعد المكانين ، ومثل هذه المعلومات التاريخية تحتاج إلى دقة لتصحيحها أو تفسيرها .

(٢) في الأصل : على .

(٣) لا يقبل الإسلام مثل هذه الروايات التي تخالف نصوصًا قرآنية ، منها قوله - تعالى - : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الدخان ٥٦) ، وليس في مقدور أحد غير الله تحديد آجال الناس ، وجريمة هؤلاء لا تقتضي الموت الجماعي ، ولو أعطى الله الحق لبشر في قتل الناس بهذه الصورة لكان أعطاه لرسول الله ﷺ في غزواته ضد المشركين ، فهم أولى من القواسم المسلمين ، وعليه فإنه آن الأوان لغربلة سيرة الشيخ الأسمر ، بل تاريخنا الثقافي وتراثنا الإسلامي من هذه الأوهام التي لا تعدم عقولا تعتنقها وتضل بها حتى الآن ، فالله هو الذي يحيي ويميت .

ويضجُّ له بأعلى صوته ، ويسأله برسول الله ﷺ ، أن ينقذهم مما هم فيه ، فعند ذلك صلى الشَّيْخ ركعتين نافلة لله ﷻ ، وطلب من الله - تعالى - أن يُحييهم على هيئاتهم السابقة ، وقال لهم : قوموا يا قواسم ، فقاموا أحياء كأنهم ما ماتوا ، ورَدُّوا ما أخذوا ، وتابوا لله - تعالى - ، وهو التواب الرحيم .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي الحاج مسعود بنُ شتوان المصراتي - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ - قال : أغار المحاميد على سعي[1] مَنْ كان متشبثًا بالشَّيْخ من أهل مصراته ، فأتوْا إلى الشَّيْخ وطلبوا منه أن يمشي للمحاميد شافعًا لهم أن يردوا ما أخذوا أو بعضَه ، فمشى لهم ، فلمَّا أن رأوه احتقروه ، وقالوا له : والله لا نردُّ لك شيئًا لو كان تُطلق فينا النار ، فقال لهم: تُطلق فيكم على بركة الله - تعالى - ، وولَّى مُدبرًا فتأجَّجتْ النارُ في كل سَقْف في نَجعهم ، فأكبُّوا على الشَّيْخ يريدون تَطْييبَ خاطره ، فأعرض عنهم كلَّ الإعراض ، ولم تُطْفَ النار حَتَّى رَدُّوا ما أخذوا ، وذلك في أيام مُكثه بيزليتن بعد تأسيس الزاوية .

وحدَّثني الأخ سيدي معتوق بن مصطفى المدني - كان من أجلِّ أحباب الشَّيْخ - قال : جاءتْ امرأة للشيخ باكية حزينةً على شأن ولد صغير قد مات لها ، وقالت له : يا سيدي عبد السَّلام ما نعرف ولدي إلَّا منك ؛ لأنَّني امرأة الآن يائسة من الحمل ، ولم يكن عندي غيره ، فقام لها الفقراء ليمنعوها ، فما قدروا ، وهي تصيح وتقول : أسألك بالله ورسوله ﷺ إلَّا ما رددتَ لهفتي ، ثُمَّ إن سيدي عبد السَّلام بسط يديه ودعا الله - تعالى - فأحياه الله - تعالى - ببركة دعائه ، وقيل : وقع له نظير هذه والميت في القبر مدة زمان فدعا الله - تعالى - فأحياه - تبارك وتعالى - ، ببركة دعائه وبركة

(١) السعي : المراد به في اللهجة الليبية : الغنم والماعز .

جده رسول الله ﷺ[1] .

فإن قلت : هل يمكن مثل هذا للأولياء ؟ وعلى فرض الإمكان هل هي حياة حقيقية أم مجازية ؟ وإذا قلنا بالأول : هل يستمر على حياته زمانًا طويلًا كما وقع لابن هذه المرأة ؟ ثُمَّ إن توفي هل يذوق موتة أخرى أم لا ؟ قلت : أما وقوعُ مثل هذه الخوارق للأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام - ، فمِمَّا لا ريب فيه ، ومثله للأولياء على ما عليه المحقِّقُون كالعلَّامة السنوسي وغيره ، باختيارٍ وبدونه ، وستراه إن شاء الله ، وأما كونُها حياةً حقيقية أم مجازية فلم يحضُرْني الآن مَنْ فرَّق بينهما ، ولكنَّ الظاهر أنها حقيقيةٌ لعدم تأتِّي المجاز هنا ، وعلى كلا الأمرين فلا يبقى بعد ذلك إلَّا مقدارُ ما يحصل الغرضُ المُحْيا لأجله ، ولا يذوقُ موتةً أخرى بشهادة قوله جلَّ من قائل : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الدخان ٥٦) ، ولا نَقْضَ بابن المرأة المذكورة لاحتمال أنه غُشِيَ عليه ، ولم يمت ، وقد حصل له رفعُ الغشاوة بسبب دعاء هذا الشَّيْخ ، فتأمَّل بإنصاف ، والله أعلم .

[ما رواه الحاج محمود بو طبل]

وحدَّثني الأخ في الله سيدي محمود بو طبل - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ - قال : وضع عندي بعضُ الإخوان مالًا ثمينًا ، على وجه الأمانة ، وغاب غيبة طويلة ، فلمَّا يسَّر الله إليَّ بالسفر إلى بيت الله الحرام ، وضعتُه عند رجل تقي ، يقال له زبيد الحداد من أهل وادي بني وليد ، كان - رحمه الله - ممن توضَع عنده الأمانات ، فلمَّا بلَّغني الله المرام ، وقضيتُ ما فرض

(١) صور إحياء الموتى من الحكايات التي لم ترد في المصادر الصحيحة عن حياة الشيخ الأسمر ، فلا هي في رسائله ، ولا هي في كتاب خليفته عمر بن جحا الذي وصلنا ، وذلك يجعلنا نؤكد أنها من الأوهام التي نسبت إليه .

الله عليَّ من حج بيت الله الحرام، ورجعتُ من ذلك الموضع الشريف، وأمِنْتُ من ذلك البِسَاط المخيف، وألممنا بعيالنا.

ودارت بنا أحبابنا وأهلونا، وأخذنا في السؤال عمن مات منهم ومنَّا، فأول من ذُكِّرْتُ موته سيدي زبير الحداد، فعند ذلك وقعت في أعظم شَغْلة وتعداد، وبقيت أسألُ ورثتَه عن مُخَلَّفِهِ، هل ترك من أمانة وَصْفُها كذا، فلم يذكرها لي أحدٌ منهم، حَتَّى ظننتُ عدم اتصالي بها إلى يوم التنادي، وقد ضاقت بي الأوساع خوفًا من الوقوع مع أهله - أي أهل المال - في الخصومة والنزاع، فلا زلتُ أُدبِّر أمري وأراجع فكري، حَتَّى اجتمعتُ بهذا الشَّيْخ الكبير والعَلَم الشهير سيدي عبد السَّلام صاحب البنديرِ، فقصصتُ عليه ما حلَّ بي ملتمسًا منه صالح الدَّعوات، لتُجلي همومي وكُربتي، فلمَّا علم ما أنا فيه من التحسُّر والتأسُّف، ولبعض مناقبه متشوِّف، قال: اذهب بنا إلى قبره، فلمَّا بلغناه، وجلسنا أمامه، داعين بالرحمة والمغفرة له، تقدم هذا الشَّيْخ الذي هو مولانا عبد السَّلام، ودعا الله بهذه الأبيات التي ذكرها، وركَضَ القبرَ برجله اليمنى، وقال: يا فلان ابن فلانة قم بإذن الله الذي أوجدك من بعد العدم، ثُمَّ أعدمك بعد الوجود، فانشقَّ عليه القبر فقام فزِعًا، مرعوبًا، ينفض التراب عن رأسه ولحيته، وهو يقول: نعم نعم، فتكلم معه الشَّيْخ في أمور الآخرة وسأله عن أحوال أهل القبور، فأجاب عن كلِّ ما سأله عليه، ثُمَّ سأله عن المال الموضوع عنده فأجابه بأنه في الموضع الفلاني عليه علامة كذا، فلمَّا حصل لنا المقصود[1] ببركة هذا السيد الجليل، دعا الله - تعالى - بعودة ما كان عليه، فعاد كما كان، في قبره، رحمة الله عليه[2].

(١) في الأصل: بلغنا عليه.

(٢) لا يجوز شرعًا قبول هذه القصص، لأنها تخالف السنن الإلهية في الكون بغير موجب شرعي =

ثُمَّ انطلقنا إلى الموضع الذي وصفه لنا فوجدناه بعلامته التي وصفه لنا بها ، فأخرجنا منه المال ، وذهبنا حامدين الله – تعالى – ، وهذه المقطَّعة المشار إليها : [زجل]

أمولاي هَـبْ لي سِـرًّا عـلى (. . .) في ظـلام القـــبرْ
واكشفْ على نظري جهـرةً حتى أرى ما في هذا القـــبرْ
ويخرج [لي][1] مسرعًا طائعـًا يكلمـــني بكـلام البشـــرْ
ويخـــــبرني بالذي عنـده بأيِّ مكـان وأيِّ مـــقـــرْ
وصلِّ اللهمَّ على المصطـــفى بأزكى صلاة تقـيل العـثرْ
وأصـحابه كلهـم [جملةً][2] ما لاح صبـاح وبانت دررْ[3]

= أو عقلي ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما انفرد به البَرموني والمكي من الخوارق التي لم يذكرها خليفة الشيخ عمر بن جحا، ولا أشار إليها الشيخ في رسائله الصحيحة ، ولا ذكرها مَنْ رثوه ومَنْ مدحوه ، كان الشك قويًا ، وإذا كان الله قد خص بعض الأنبياء ومنهم عيسى عليه السلام بإحياء الموتى فلا يعني ذلك أن خرق هذه السنة صار مباحا لكل الأولياء والصالحين ، ولو قبلنا كلَّ ما ذكره البَرموني والمكي من الخوارق لفاقت كرامات الشيخ الأسمر معجزات جميع الأنبياء ، ويكفي أن البَرموني عدد من كراماته في جلب الأسرى من بلاد الإفرنجة فقط خمسمائة كرامة ، وهي أضعاف معجزات أهل العزم من الرسل مجتمعين ، وعلى رأسهم رسولنا عليه الصلاة والسلام، فالمسافة بين روما وطرابلس أكثر من مسافة الإسراء بين مكة والقدس ، وأخْذُ الأسرى عبر البحار وإحياء الموتى أصعب من حنين الجذع وتسبيح الحجر ، فهل يعقل هذا ؟ أما المآخذ المنطقية على هذه القصة فكثيرة ، منها أن هذا الصديق قد قابل صديقه قائما من قبره ولم يسأله عن حاله ، ثُمَّ أليس انتهاز فرصة الحديث مع رجل عاد للحياة عن تجربته الشخصية مع منكر ونكير أهم من سؤاله عن أهل القبور الذين لا يستطيع أن يلم بأحوالهم ؟ ومع ذلك فإن البَرموني يجد سببًا وجيها لإيراد هذه الحكايات قد لا نعرفه ، وهو يصدق كل ما يسمعه من الخيال الشعبي عن الشيخ ، وما أكثر ما شط الخيال في ذلك .

(١) زيادة من النسخة (ج) .

(٢) إضافة من النسخة (ج) .

(٣) الزجل ضعيف جدًا ولا صلة له بخصائص زجل الأسمر القريب الشبه بفكره .

قلت : ومن خوارق هذا الشَّيْخ ما وقع لفريق يقال لهم : الوهابة ، موطنُهم جبل كلكلة الفوقي ، في موضع هناك يسمَّى بالجوصة ، يُذكر أنهم كانوا من أهل الاعتزال ، فلمَّا أرادَ اللهُ بصلاحِهم قَدَرَ عليهم فغَزَوْا حَيَّ الفواتير ، بوادٍ يُقال له : سوف الجين ، وغصَبُوا جميع ما بأيديهم من الإبل والبقر والغنم ، فلمَّا وَقَع بهم ما وقع من تلك المصيبة العظمى ، والبلبلة الظلماء ، أتوا إلى هذا السيد الكريم ، قاصدين فضل الله العظيم ، في التوجُّه معهم إلى هؤلاء البُغاة ، طالبين مِنْ خالقهم إظهارَ بعض الكرامات ، فلمَّا قدموا عليه وأنهوا شكواهم إلى الله ، ثُمَّ إليه ، ذرفَتْ عيناه وحوقل ، واسترجع ، أي قال « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وقد كان ﷺ لا يخيبُ مَنْ قصده ، وأتاه من الأجانب ، فضلا عن كونهم من الأقارب ، فجهَّز لهم ما حضر من الطعام ، وسرَّج فرسَه «سعيدة» ، فركبها وانطلقوا إليهم ، طالبين من الله نيل المرام ، فلمَّا وصلوا البلاد ، ونظروا الشَّيْخَ ومَنْ معه جمٌّ غفير يستحيل عن التَّعداد ، عبسَتْ وجوهُهم ، وحصَلَ لهم من قلة الاعتقاد ما يسوءُ لهم ، وفاضَتْ ألسنتهم في جناب الشَّيْخ بكلام غزير ، حَتَّى قال أكثرُهم : إن كان لهم بركة ننقلب خنازير ، فلمَّا بلغه ذلك المقال ، وعَلِمَ أنهم من أهل الضلال والاعتزال ، دعا الله بما هو به أعلم ، فما بَرَحْنا إلَّا وهم كالخنازير .

فعند ذلك تقدَّم له أجلُّ أصحابه - سيدي سالم المهداوي - وسأله بالله وبرسوله ﷺ في اللطف بهم ، في ما وقعوا ، وأتاه النساء والصبيان ليتشفَّعوا ، فطلب من الله العفو عنهم ، في ما هم فيه ، بعد شَرْطه عليهم بتوبتهم عن ما هم عليه ، فرجعوا إلى صورهم ، وأتوا يقبِّلون يديه ورجليه، ورجَّعوا للفواتير ما غصبوا منهم ، وتابوا وحَسُنت توبتُهم ، وسَلِمَت عقيدتُهم ، وتعلموا مذهب الإمام مالك ، بعد أن كانوا تاركين له . اهـ .

ولا تظنُّ يا أخي أنَّ هذا مسخ ؛ لأنَّه لا ينفع بعد رسالته ﷺ - كما هو معلوم بالضرورة - [و]كما هو واقع لكثير من الأولياء ، فتدبر . والله - تعالى - هو الهادي إلى الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي سعيد التِّطَاوْني - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ - قال : كنا ذات يوم جلوسًا ، بزاوية الشَّيْخ ، فإذا بمغربي قدِم علينا ، يريد الأكل ، لِمَا أصابه من الجوع ، فلمَّا لَمْ يجد مَنْ يُخرج له الطعام من منزل الشَّيْخ في حال غيبة الشَّيْخ ببلد الفواتير ، وغيبة أولاده بالبادية ، قال - أي المغربي المذكور - لِمَنْ حضر من الطلبة : إما أن تُشبعوني بالطعام بهذه الساعة ، وإلَّا رميت هذه الزاوية وأهلها في الرُّبع الخالي من الدنيا ، فلمَّا سمعنا منه ذلك ، حصل لنا من الخوف ما حصل ، وضاقتْ بنا الأوساع ، فلم نَشْعر وإذا بالشَّيْخ قادم علينا ، نحو الزاوية على عَجَل .

فلما وصل ، قال للمغربي : أيسوغ لك رميُ الزاوية بما فيها من الطلبة في رُبع الدنيا الخالي بسبب جَوْعة جُعتها اليوم ؟ ثُمَّ أمر الشَّيْخ بتعجيل الطعام إليه ، فصنع له من حاضر الطعام ما تيسَّر ، وأكل حَتَّى بلغ الشبع ، ثُمَّ قال له الشَّيْخ : شبعت الآن ؟ فقال : نعم ، قال : فأخذه من يده ، وقال : نحن نَرْميك قبل أن ترمينا ، فرماه فلَمْ يُدْرَ أين هو ، فذهب ذهاب القارِظين .

وحدَّثني أيضًا سيدي سعيد هذا ، قال : كان رجلٌ من أولاد غيث يؤذي الشَّيْخَ بلسانه في حياته ووجوده ، فكان الشَّيْخُ يبعث له كل عام فحلًا من فحول أكباش الضأن لأضحيته ، نحو العشرة سنين ، ثُمَّ قال ذلك الرجل في خاطره ذات سنة : تا الله ما أنا إلَّا لئيم أُوذي سيدي عبد السَّلام بلساني ، وأغتابُه مع كثرة إحسانه إليَّ ، كبعثه للكبَّاش إليَّ ، فندِم

على ما كان منه ، ثُمَّ تاب ووبَّخ نفسه لإساءته إلى الشَّيْخ ، مع إحسانه له ، فلَمْ يبعثْ له الشَّيْخُ ذلك العام ما كان يبعثُه له قبل التوبة ، قال : فجاءه ، وقال له : يا سيدي : لَمَّا كنتَ آخذًا في إيذائك كنتَ تبعثُ لي كبشًا في كلِّ عيد ، ولَمَّا أمسكتُ أنا أمسكت أنت . فقال له الشَّيْخ : كنتَ تغسلنا فكنا نبعثُ لك أُجرتك ، ولما أن كففْتَ عن الغسل كففنا عن البعث .

وحدَّثني أيضًا سيدي سعيد هذا ، قال : سمعت من رجل صالح من الحيِّز القِبلي ، قال : كنا في زمان الصيف بالقِبلة ، وكانت خرجتْ علينا حية عظيمة كالنخلة الطويلة الغليظة ، من قُنة جبل ، وأظنُّها سماوية ، وقد جاءتنا إلى الموضع الذي نحن فيه ، ولها أزيزٌ كأزيز الرحى ، ولها رغيٌ كرغي البعير ، إلى أن ارتعبَتْ منها قلوبُنا ، وأيقنَّا الهلاك ، فناديْنا يا رجال الله أتيناكم اليوم ، أنقذونا مما نحن فيه ، فبينما نحن كذلك إذ قدم علينا فرسان كالعقبان ، وكبيرهم رجل سَمْح البشرة ، حَسَن الوضاءة ، ظاهر الصلاح ، [و]سمة الصالحين لائحة عليه ، فجعل ذلك الرجل يسير وأصحابه خلفه ، إلى أن وصل إلى الحية ، فنزل عن جـواده مسرِعًا ، وقال لها : اسكني أيتها الحية ولا تُصوِّتي ، فالتوَتْ كالكعكة وسكنَتْ ، ثُمَّ نفخ عليها نفخة واحدة ، فيبِسَتْ ، ثُمَّ جعل يَحفِرُ في الأرض ، إلى أنْ جعل لها ما يواري سَوْءتها ، ثُمَّ جرَّها وألقاها في تلك الحُفرة ، وجعل عليها ترابًا ، ثُمَّ غَسَل يديه وركب فرسه .

فبادرتُ إليه وجعلتُ أُقبِّلُ يديه ورجليه ، وقلت له : سألتك بالله مَنْ أنت يا سيدي ؟ فقال : أنا عبد السَّلام بن سليم الفيتوري ، ومعي جماعة من رجال الله الصالحين ، أعاذنا الله من السمومات ومن لسع الحيات ، فهو على كل ما يشاء قدير .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح الفقيه الإمام العالِمُ العلَّامة سيدي عبد الرحمٰن بن علي المكي المشهور[1] ، صاحب الشَّيْخ ، وهو ممن أخبرَ بكثير من مناقب الشَّيْخ وأحواله ، وله في ذلك تصانيف عديدة ، نقلْنَا البعض منها في كبيرنا ، قال : بعثني الشَّيْخُ من مدينة طرابلس إلى بلد غدامس لنأتيه بأمانة منها ، وكان عندنا رجلٌ من أهلِها أخذ عن الشَّيْخ فأراد السفر معي ، فاستأذن الشَّيْخ فأذن له في السفر ، والشَّيْخ حينئذ ماكث بداخل مدينة طرابلس بمسجد الناقة ، قال : فلمَّا توجَّهنا من وسط المدينة ومررنا بسوق الخبَّازين والشوَّايين أخرج الغدامسي الذي معي دراهم ليشتري بها خبزًا ولحمًا وإدامًا وثمرًا ، فقلت له : ما نحتاج إلى شيء من هذا ، فنحن نجد في جبل غُريان على طريقنا من يبيع لنا لَعْوِين ، وأشارَ إلى دكانٍ فيه يُباعُ الزيتُ والخبز والتين والزبيب ، فقلت له : نحنُ في كفالة شيخنا عبد السَّلام لا يُحوجنا إلى أحدٍ ، وكنتُ مهما سافرتُ منذ عرفتُ الشَّيْخَ لا أحمِلُ معي زادًا ، فإذا أصابني الجوعُ أسمعُ كلامَه خَلْفي أو مِنْ جَوْفي ، يقول : يا عبد الرحمٰن اخرج عن يمينك تجدْ ما تأكل . وكذلك إذا عطشْتُ فأجدُ ماءً طيبًا عذبًا .

قال : فخرجنا من المدينة ، وبدأْنَا السير حَتَّى تعالى النهار ، فقال لي : يا عبد الرحمٰن اطعمني واسقني ، فقد جُعت وعطشت ، وإذا بكلام الشَّيْخ على العادة يقول لي : يا عبدَ الرحمٰن جاع ضيفُكَ الذي هو رفيقُك ، اخرُجْ عن يمينِك تجِدْ ما تُطْعمه ، قال : فخرجْتُ عن يمين الطريق فوجدتُ آنيةً مملوءةً بالطَّعامِ المخلوطِ بالعَسَل والسكر والزبيب ، فأكلْنا حَتَّى شَبِعْنا ، فتعجَّبَ الغُدامسي الذي كان معي مما رأى ، وأرادَ أنْ [يتزوَّد][2] من الطعام

(١) بين يدي من كتبه مخطوط صغير توقفت عن تحقيقه لكثرة ما فيه من هذه الخوارق المشكوك في نسبتها إلى الشيخ ، غفر الله للجميع .

(٢) في الأصل : يرجع .

فمنعتُه، وتركْنَا الآنيةَ على حالها، ومشَيْنا يسيرًا فعطَشْنا، وإذا بكلامِ الشَّيْخ يقول لي : يا عبد الرحمٰن اخرجْ عن يمينك تجِدْ الماء، فخرجت أنا وإياه، فوجدنا غدير ماء رائحته كالمسك، فشربنا إلى أن روينا واضطجعنا ساعة، وقمنا فما وجدنا قطرة ماء، فقال الرجل : أين الماء الذي كان ها هنا ؟ فقلتُ : لا أعلم، فقال : والله لا يوجدُ مثلَ شيخكم - الذي هو سيدي عبدُ السَّلام - لا في المشرق ولا في المغرب، إلى أن قال : الحمد لله الذي جعلني الله من أهل حِزْبه وطَريقتِه .

فقلت له : أيها أطْيبُ ؟ هذا الطعام الذي أكلنا على بركة الشَّيْخ، أو طعام أهل بلدك غدامس ؟ فقال : والله ما رأيتُ مثلَ هذا منذ خُلقت . فلمَّا قرَّبنا من البلد التي هي غدامس بكى بُكَاءً شديدًا، ثُمَّ قال : والله لن أرجعَ إلى غدامس حَتَّى أنالَ ما نال هذا الشَّيْخ، أو أموتَ في الله . قال : ففارقني ودخل السياحة يقول : الله الله، فما رأيتُه منذ ذلك النهار إلى الآن .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي الحاج عبد الله الشديد - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ - قال : كنت أتعبدُ في مسجدٍ خارج مدينة طرابلس، فبقيتُ فيه أيامًا مواصلًا، فأصابني الجوع، فدخلتُ المدينةَ قاصدًا بعضَ حوائجي عند الشَّيْخ، بِخَلْوته بمسجد الناقة، فوجدتُ في طريقي درهمًا، فأردتُ أن أشتري به خبزًا وإدامًا، فرأيت في دكان حلواني زبيبًا طيبًا، وكنتُ أعلمُ أنَّ الشَّيْخ يحبه، قال : فاشتريتُ به زبيبًا وآثرته على نفسي، وقصدتُ به إلى الشَّيْخ، فوجدتُه جالسًا في خَلْوته، فحططْتُ الزبيبَ بين يديه ساعة، وجلسْتُ ساعة، وأردتُ أن أقوم، فقال لي مكاشَفًا على ما كان لي، وعلى ما يأتي، حين ذلك : اجلس، فجلسْتُ، وإذا برجل وصل بمائدة فيها كبش سمين مشوي، وخبزُ سَميدِ قمحٍ طيب، فقال لي : هذا

فُتوحك يا حاج عبد الله لما آثرتني على نفسك ، وأنت جوعان ، فكُلْ يا حاج عبد الله ، فأكلت وحدي إلى أن شَبِعْت ، ثُمَّ أمر الفقراءَ بأكْلِ باقيه فأكلوا منه حَتَّى شبِعُوا . ثم قال لي : يا حاج عبد الله ارفع الزبيب وتصدَّق به فإنَّا لا تباح لنا اللُّقطة الآن ، والله - تعالى - هو الذي بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي شعبان بن عثمان المغراوي المشهور ، صاحب الشَّيْخ ، قال : جئت ذات يوم زائرًا للشيخ في أيام مُكثه بيزلتين ، وذلك بعد بنائه للزاوية ، فلمَّا وَضَع الاجتماع للذِّكر وأنشد المنشد، وقال الأقوال ، ودخل الشَّيْخ ، فتحتُ عيني ، وإذا برجلٍ أسمر اللون طويل القامة وأصابع اليدين ، راكب على ناقة مهرية ، جاء في الهواء ، حَتَّى نزل فوق الزاوية ، فترك الناقة هناك ، ودخل حَلْقة الذِّكر ولَمْ يزلْ بها حَتَّى خُتمت ، فركب ناقتَه وطار ، وأنا أنظُر حَتَّى غاب عن بصَري .

ثُمَّ ذهب معي الشَّيْخ لخلوته وجلسْتُ معه للسَّمر ، وفي الخلوة طاقة ، وإذ بها قد أظلمَتْ ، فالتفتَ الشَّيْخُ إليها ، وأخذَ منها حوتًا مَقْليًا سخنًا ، وقال لي : كُل يا شعبان ، فقلتُ : لا آكل حَتَّى تُخبِرْني عن صاحب الناقة ، وصاحبِ الحوت ، فقال لي : [أما] صاحبُ الناقة فهو أخونا سلامة من تَنْبكتو ، حضر معنا الذِّكر ، وهو الآن ببلاده في فراشه ، وأما الحوت فهو من أختنا سليمة بالهند ، صنعَتْه لنا وناولَتْني إياه من هناك ، وقالت : هذه ضيافة شعبان عندك .

وحدَّثني أيضًا سيدي شعبان هذا ، قال : لمَّا سافرتُ إلى تونس ، وردَّ علينا رجلٌ من سكان مدينة طرابلس إلى تونس التي نحن فيها ، فلمَّا سمعتُ به مشيتُ قاصدًا إليه لنسَلِّم عليه ونسأله عن الشَّيْخ سيدي

عبد السَّلام ﷺ أنا وجماعة من الفقراء ، فقال لنا : يُسلِّم عليكم ، وقال لكم: ابعثوا لي قُلَّة كبيرة ملآنة بالزيت للقناديل التي يُضاء بها في ديار مجالس الذِّكر ؛ لأنَّه كثيرٌ ببلَد تونس ، ومعدومٌ ببلد طرابلس الآن ، قال : فقال أخ لي : مَنْ الشَّيْخ ؟ أنا عندي قُلَّة كبيرة ملآنة ، وكان لذلك الأخ ابنة صالحة ، وكانت عندها دراهم ، فجعلَتْها في صرَّة ووضعَتْها في القُلَّة ، وقالت : إذا وصلَتْ القُلَّة إلى الشَّيْخ ، يُوَكِّل الفقراء بها لحمًا ، ثُمَّ غلَّقنا فمَ القُلَّة ، غَلقًا مُحكمًا ، قال : فلم تسافرْ السفن في ذلك العام ، فرأيته في المنام ، فقال : يا شعبان ابعثْ لنا القُلَّة التي عندك ، فقلتُ له : يا سيدي لمْ تسافر المراكب في هذا الوقت لجهتكم ، فقال لي : اكتبْ عليها اسمي وارمِ بها إلى البحر ، فإنها تصلُ لي إن شاء الله ، قال : فكتبتُ اسمه عليها ، وخرجْتُ بها إلى البحر ، وقلتُ : اللهم إنـك قلت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (النساء ٥٨) ، وهذه أمانتي عندك لسيدي عبد السَّلام بن سليم الفيتوري ، وأطلقتها في البحر . قال : والله ما أطلقتها من يدي إلَّا وكأن يدًا أخذتها مني ، وكان ذلك عند العصر من يوم الخميس .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي مصطفى بن مصطفى الطرابُلسي، كان يسكُنُ بداخل مدينة طرابلس ، قال : كنا جلوسًا مع الشَّيْخ بعد صلاة العصر من يوم الخميس بمسجد الناقة ، وهو يُقرئ المسبِّعات وأذكارًا لا أُحصيها ، قال : فقام الشَّيْخُ قبل قيامِه المعتاد فخرج إلى شاطئ البحر ، بالقُرب من قُبَّة الشَّيْخ الشعاب ، ونحن معه ، حَتَّى جلس على كُدْية هناك ، وهو يتكلم بكلام خفي ، وكأنه يدعو ويستغفر ، وإذا بسحابة عظيمة قَدْر الجبل ، حَتَّى ظننا أنها تَغمُّنا وطرابلس ، حَتَّى نزلت بين يدي الشَّيْخ ، ثُمَّ رجعت إلى أعلى ، وإذا بالقُلَّة واقفة بين يديه ، فقال : احملوا هذه القُلَّة هديةً من أخيكم شعبان من مدينة تونس ، وكان ذلك في تلك العشية من اليوم

المذكور ، قال : فلمَّا دخلنا بها الدار ، قال : افتحوا هذه القُلَّة ، وأَخْرِجوا ما فيها .

قال : فأخرجْنا منها صُرَّة فيها دراهم ، وكانت خمسين درهمًا ، قال : اشتروا بها لحمًا على نية مَنْ عملها في القُلَّة ، وهذه الحكاية وقعَتْ في أيام مُكْث الشَّيْخ بمدينة طرابلس ، قبل أن ينتقلَ إلى جبل غُريان والقلعة ، والله - تعالى - يُسَيِّرُ مَنْ يشاء في البر والبحر ، وهو على ما يشاء قدير .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي عبد الرحمن بن محمود دُعي الصغير البشت ، عن سيدي الحاج محمد بن عطية العدشني - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ - قال : كنتُ ذات يوم مع الشَّيْخ بزاويته في خَلْوة ، فبينما هو يحدِّثُنا وإذا بسيدي أحمد المسلاتي فقيرِ الشَّيْخ دخل علينا ، وقال للشيخ : كنتُ متوجهًا لحج بيت الله الحرام مع الركب ، فلمَّا وصلتُ إلى مصراته مات لي بعير ، وبقي حملُه في الأرض ، فقال له الشَّيْخ : يا أحمد ، والله ما عندي لا أحمر ، ولا أبيض ، ولا أصفر ، وأمره بالجلوس ، فجلس معنا في الدائرة ، وأدخلَ الشَّيْخُ رأسه تحت كُمِّه ساعة ، ثُمَّ أخرج رأسه ، وقال : يا أحمد ادنُ مني ، فدنا منه ، فقال له : أَدخِل يدك في جيبي وخُذ ما فيه ، فأدخلَ يدَه وأخرجَها مملوءةً ذهبًا ، وقال لنا : انظروا إليه والله ما ضربَه ضاربٌ ولا صاغه صائغ ، وإنما قال لي : يا عابد السَّلام خُذْ ما في جيبِك ، ثُمَّ قال لي : اشتر به جملًا ، وما تحتاج من أزودة الفقراء ، والله - تعالى - هو الجواد الكريم .

وسمعتُ أنَّ رجلًا اشترى ثَورًا لأجل الزراعة ، فلمَّا استعملَ عليه المجابِد والمحراث ، وجعل يحرُثُ عليه بالفعل ، سقط الثورُ ميتًا في أثناء الحرث ، فأتى إلى الشَّيْخ وقال له : يا سيدي إن لي ثورًا مات في أثناء

الحرث، ولم يكن لي غيره ، فقال له الشَّيْخ : سِر بنا إليه ، قال : فلمَّا سار إليه الشَّيْخُ ومَنْ معه ، وتقدم له الشَّيْخ وضربَه بعصاه على قرنه الأيمن ، وقال : قُمْ أيها الثور بقُدْرة الربِّ الغفور ، فقام حيًّا كأنه ما مات ، ثُمَّ جهَّز عليه المحراث ، وحرَثَ عليه ، فلمَّا انتهى زمانُ الحرث مات الثور ، ورزقه الله غيرَه ، والله هو الرزاقُ ذو القوة المتين(١) .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي عبد الرحمٰن ابن الشَّيْخ سيدي ساعد الغُرياني - كان من أجلِّ أصحاب الشَّيْخ - ومن أعظمهم ، قال : قَدِم علينا الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام بن سليم في ظاهر جبل غُريان ، بموضع هناك قُبيل هَنْشيرتير ، وكان ذلك بعد موت الوالد ، وأنزلناه في بيت لنا لنتبرَّك به ، وكان عندنا أنا وأخ لي عشْرُ شياه اشتريناها برسم الكسب ، فذبحنا له شاة من أجودها ، فقال : لِمَ فعلتم هذا ؟ فقلنا له : هذا للبركة إن شاء الله - تعالى - ، فقال : هذه الشاة بألف شاة إن شاء الله ، فلم تمضِ إلَّا مدة يسيرة حَتَّى اكتسبنا ألف شاة ، والله هو المعطي المنيع .

[رؤية النبي ﷺ]

ومن كرامات الشَّيْخ الذي هو مولانا عبد السَّلام رؤيته للنبي ﷺ ، واجتماعُه به في النوم واليقظة ، حَتَّى قال - رحمه الله ونفع به - : منذ بلغتُ درجة القُطبانية وأنا أرى رسول الله ﷺ في النوم واليقظة ، كل يوم وليلة ، وله في ذلك مقطَّعات كثيرة ، وأشعار عديدة ، كل ذلك تحدثًا بالنعمة ، منها قوله : [بسيط]

(١) لا ضرورة للتعليق على كل واحدة من هذه الحكايا ، فنحن مع إقرارنا بكرامة الأولياء التي هي توفيقات إلهية يثبِّت الله بها قلوب الصالحين لا نجد هذا الغرض واضحًا في كثير من هذه القصص والحكايا . والله أعلم .

يا ربِّ صلِّ على محمدٍ وعلى　　أصحابه الفضلا وآله الكُمَّلِ(1)
يقولُ عبدالسَّلام ابنُ الولِي الفاضلِ　　أعني سليمًا ونجلُ السادةِ الفُضَلِ
إني محدثكم بما جرى يقظةً　　بعين رأسي رأيتُ سيدَ الرُّسُلِ
قد حلَّ في خلوتي يمدُّني مَدَدًا　　وفي أثناءِ حضرتي يهتزُّ بالحللِ
زينٌ بهيٌّ جميلٌ لا نظيرَ لهُ　　كأنه البدر أو كالشمس في الحملِ
يَغَارُ غُصْنُ النَّقَا مِنْ حُسْنِ قَامتِهِ　　ويختفي البدرُ تحتَ الغيم مِنْ خَجَلِ
حُلْوُ المَرَاشِفِ يُستشفى العليل به　　فكم شفى برحيق الثغرَ مِنْ عِلَلِ
الله أكبر ما أحلى شمائله　　قد زاد حسنا وزينا(2) غاية الأملِ
بدا كَبَدْرِ الدُّجى تُجْلى محَاسِنُهُ　　يا حُسْنَه مِنْ مَلِيحٍ بالجمالِ حَلِي
أَنَا المُتَيَّمُ فِيهِ قَدْ سَمَا وَعَلَا　　فَجْرٌ على سَائِرِ الأَملاكِ والرُّسُلِ
هو النبيُّ الذي مَا مِثْلُهُ أَحَدٌ　　وَهْوَ المُبَرَّأُ مِنْ نَقْصٍ وَمِنْ زَلَلِ
وهو الشفيعُ غَدًا مِنْ حَرِّ نار لَظَى　　والناسُ كلُّهُمُ منها على وَجَلِ
صلى عليه إلهُ العرش ما طلعتْ　　شمسٌ وما ناح قُمْرِيٌّ على طَلَلِ (3)

ومنها(4) قوله ﷺ : [بسيط]

يا رب صلِّ على المختار سيدنا　　المجتبى المصطفى مَنِ اسْمه أحمدُ
أنا عُبيد السَّلام قلبي محترق (5)　　والدمعُ ساح فلا صبرٌ ولا جلدُ
واهتزَّ جسمي (6) اضطرابًا للقاءِ به　　والطيف أرَّقني والنومُ مفتقدُ

---

(١) في النسختين (أ) و (ج) : « آله الفضلا وأصحابه الكمل » وبه ينكسر الوزن .
(٢) في (ج) : بديعا .
(٣) شوه الناسخ هذا النص تشويهًا كبيرًا ، وقد حاولت علاجه على النحو الوارد أعلاه .
(٤) يقصد من مقطعاته وليس من هذه القصيدة .
(٥) في (ج) : عبد السلام أنا وقلبي محترق .
(٦) في (ج) : الجسم .

قلبـي بأربعـة في الحـبِّ منفـردٌ ... العِشْق والوَجْد والتبريحُ والكمَدُ
مِنْ سـيِّـدٍ تـاه في معناهُ أربعـةٌ ... القلب والسمع والأبصار والرُّشُدُ
للزين مـن وصـفه الجميـل أربعـةٌ ... القـد والخـد والإمـداد والميـدُ
لِلَّيل مـن خـوفه في اللـبِّ أربعـةٌ ... الذكر والفكر والقرآن والهجدُ(١)
للطيب من جسمه البهي أربعـةٌ ... النـدُّ والمسـك والكافور والزبدُ
واختصَّ من قدِّه في الغصن أربعـةٌ ... الميْـلُ واللـين والترنـيح والمـددُ
قـد قـادني بزمـامي فيـه أربعـةٌ ... العطْف واللُّطف والإعراض والـودُّ(٢)
يبـدو فتحجبُه في الناس أربعـةٌ ... العِزُّ والحسْـن والإدلال والسيدُ
هـذا ومـن نـورِه للصُّبح أربعـةٌ ... الخطُّ والضوء والإدلاج والعمـدُ
قـد لاح في خـدِّه المسلوق أربعـةٌ ... الماء والنـار والياقـوت والـوردُ
له علـيَّ متـى قـد عِشْت أربعـةٌ ... الحبُّ والشوْق والتعظيم والحمـدُ
حتى لقـد أوعزتْني فيـه أربعـةٌ ... الصبرُ والـدمعُ والكتمان والجلدُ
لا بأس في أن يفـوني اليـوم أربعـةٌ ... الابـن والأم والإخـوان والبلـدُ
هـو الحبيـب الـذي مـا مثلـه بشر ... ولا يشـاكِله(٣) في وصْـفه أحـدُ
صلى عليـه إلـه العـرش خالقنا ... مـا أطرب العيش بالأنغـامِ منفردُ

[رؤية الله تعالى]

ومن كراماته ﷺ رؤيتُه للبارئ ﷻ في المنام ألفي مرة ، كما هو منصوص في كلامه النثر المتفرِّق ، ومقطَّعاته ، وككتابه المسمى بكتاب « العظمة في التحدث بالنعمة » وقد جعل الله كلام الرجل دالًّا على حاله ،

(١) في (ج) : المجد .
(٢) الشطر الثاني غير موجود في (ج) ، وكذا الشطر الأول من البيت التالي .
(٣) في (ج) : ولا يشاركه .

كما قال عز من قائل : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ (محمد ٣٠) ، ولا عجَبَ في تحدث الشَّيْخ بذلك . كقوله : ومما أنعم الله عليَّ رؤية ربي ﷻ في النوم ألفي مرة ، وهذا مما لا يُرد ؛ ولأنه وقع لكثير من المشايخ - كما هو مبسوط في كتبهم ﷺ - وكما ذكره[1] سيدي أحمد زرُّوق ، في شرحه على الوغليسية وغيرها عن الشَّيْخ أبي عبد الله الترمذي أنه قال : « رأيت ربَّ العرش أكثر من ألفي مرة ، في المنام » ، وفي كلها أقول : يا رب إنني أخاف الإيمان ، فأمرني ربي - جلَّ جلاله - في كلِّ مرة أن أقول هذا الدعاء في الصباح و ... الفريضة أربعين مرة : يا حيُّ يا قيوم لا إله إلَّا أنت ، أسألك أن تحيي قلبي بنور معرفتك أبدًا ، يا الله ثلاثًا .

كما رُوِيَ أن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ ، رأى ربه ﷻ في المنام ، فقال له: يا أحمد ما تقول في القرآن ؟ فقال : كلامك يا ربي . قال : ومَنْ أخبرك أنه كلامي ؟ قال : يحيى بن معين ، فإذا النداء ، يا يحيى : ما تقول في القرآن ؟ قال له : كلامك يا ربي ؟ قال : ومَنْ أخبرك أنه كلامي ؟ قال : عكرمة ؟ فإذا النداء ، يا عكرمة : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلامك يا ربي ، قال : ومَنْ أخبرك أنه كلاميَ؟ قال : ابن عباس : فإذا النداء ، يا ابن عباس : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلامك يا ربي ، قال : ومَنْ أخبرك أنه كلامي ؟ قال: علي بن أبي طالب ، فإذا النداء ، يا علي : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلامك يا ربي ، قال : ومَنْ أخبرك أنه كلامي ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم تسليمًا . فإذا النداء ، يا محمد : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلامك يا ربي ، قال ومَنْ أخبرك أنه كلامي ؟ قال جبريل عليه السلام ، فإذا بالنداء ، يا جبريل : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلامك يا ربي . قال : ومَنْ أخبرك أنه

(١) في النسخة (ج) عنوان بخط عريض .

كلامي ؟ قال : ميكائيل . فإذا بالنداء ، يا ميكائيل : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلامك يا ربي ، قال : ومَنْ أخبرك أنه كلامي ؟ قال : إسرافيل ، فإذا بالنداء ، يا إسرافيل : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلامك يا ربي ، قال : مَنْ أخبرك أنه كلامي ؟ قال : اللوح المحفوظ . فإذا بالنداء ، يا لوح : ما تقول في القرآن ؟ قال كلامك يا ربي ، قال : ومَنْ أخبرك أنه كلامي ؟ قال : القلم، فإذا بالنداء ، يا قلم : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلامك يا ربي ، قال: ومَنْ أخبرك أنه كلامي ؟ قال : تكلمت أنت وجريت أنا . قال صدق القلم، وصدق اللوح ، وصدق إسرافيل ، وصدق ميكائيل ، وصدق جبريل ، وصدق محمد ﷺ ، وصدق علي ، وصدق ابن عباس ، وصدق عكرمة ، وصدق يحيى بن معين ، وصدقت يا أحمد ، أشهدك يا أحمد وأشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت لهم - أي أهل القرآن - وأعطيتهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

يا أحمد بَشِّر أهل القرآن بما لهم عند الله من الكرامة ، إلى غير ذلك مما لا يمكن جلبُه في هذا الكتاب ، ولا تظن يا أخي أن الله - تبارك وتعالى - يُرى بقضه في دار الدنيا فمَنْ ظنَّ ذلك لغير الأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام - فقد ضل[1] ، ورؤياه إلى الضياع ؛ لأنَّ رؤيتَه في الدنيا بقضه ممنوعةٌ لغير مَنْ ذُكر ، وما رآه أحدٌ يقظة بعينه إلَّا الأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام -[2] .

(١) رؤية الله بقضه أي بكليته تعني أنه محدود متحيز وهذا محال في حق الله على الجميع ، حتى أهل السنة الذين قالوا بالرؤية في الآخرة يقولون بغير الكيفية التي نعرفها في الدنيا ، ثُمَّ إن الأمة تعلم أن القرآن يروى عن رسول الله عن جبريل عن رب العزة ، فإضافة وسائط أخرى لا مصدر لها ، ولا يقوي كثرة الوسائط الإيمان ، وليس تنزل القرآن موضع شك من هذه الوسائط حتى يسألها الله ، والله أعلم بمراد الشيخ من إيراد هذه القصة .

(٢) قال تعالى لسيدنا موسى كليمه ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ ؟ (الأعراف ١٤٣) ، وقالت عائشة - رضي الله عنها - سألت رسول الله عن رؤية الله فنفاها ، فمن رآه من الأنبياء يقظة إذن ؟ .

ومن رؤيته – تبارك وتعالى – سماعُ كلامه من غير واسطة[1] ، كما وقع لسيدنا ومولانا محمد ﷺ ، في ليلة الإسراء ، فقد رأى فيها ﷺ ربه عَيانا ، وهو المشهور الذي عليه الجمهور . ولله درُّ سيدي أحمد المقري ﷺ حيث قال في عقيدة التوحيد : [رجز]

وقد رَأى خَيْرُ الورى الدَّيانا   ليلة أُسريَ به عَيَانَا
في المذهبِ المصححِ[2] المشهورِ   وهو الذي يُنمى إلى الجمهور

وفي الوجه التاسع والعشرين من شرح الإسراء للشيخ الإمام العالم العلَّامة المحدِّث نجم الدين الشافعي – نفعنا الله به وبعلمه في الدنيا والآخرة ، آمين– ما نصه : قوله في القصة فرأى ربه ، فيه دليل على وقوع الرؤية له ﷺ ، تلك الليلة ، وقد روى الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت ربي ﷻ »[3] ، وقد اختلف السلفُ من الصحابة والتابعين وغيرهم في رؤيته ﷺ لربه ليلة المعراج ببصره ، فنفتْ ذلك عائشة ، وذهبَتْ إلى أنه إنما رأى بقلبه وهو المشهور عن ابن مسعود ، وجاء مثله عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنهم – ، وإليه ذهبَ كثيرٌ من المحدِّثين والمتكلمين ، وذهب ابن عباس إلى أنه رآه ببصره ، وبه قال سائرُ أصحابه عن ابن عباس .

وبه جزم كعب الأحبار ، والزهري ، وصاحبُه معمر ، وآخرون ، وحُكي عن الحسن أنه كان يَحلِفُ أنَّ محمدًا رأى ربه ، وبه قال الشَّيْخ أبو

(١) لو كان ذلك كذلك لما نفى الله الرؤية عند كلامه موسى ﷺ ، فقال ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ؟ (الأعراف ١٤٣) وهو يسمع كلامه .
(٢) في (ج) : الصحيح .
(٣) «مسند أحمد» ١ / ٢٨٥، قال الهيثمي في «المجمع» : ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٦٦) .

الحسن الأشعري ، وسائرُ أتباعه ، وقال الإمام الثوري : الراجحُ عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربَّه بعينَيْ رأسه ليلة المعراج ، وبسَط الكلام على ذلك ، وقال - هو وغيره - : لَمْ تنفِ عائشةُ الرؤية بحديث مرفوع ، ولو كان معها لذكرتْهُ ، وإنها اعتقدتْ الاستنباطَ على ما ذكرتْ من ظاهر الآية ، وقد خالفَها غيرُها من الصحابة ، والصحابيُّ إذا قال قولًا وخالفَه غيرُه منهم ، لَمْ يكن ذلك القولُ حجة اتفاقًا .

وقد خالف عائشة ابن عباس وغيره - كما تقدم - بل أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس أنه كان يقول : « نظرَ محمدٌ إلى ربه مرتين : مرة ببصره ، ومرة بفؤاده »[1] ، وقد تعقَّب قولَهم : أنها لَمْ تنف ذلك بحديث مرفوع ، إلى آخره ، فإنَّ ذلك عجيبٌ ، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن مسروق ، أنه لَمَّا قال لعائشة : أَلَمْ يقل الله ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (التكوير ٢٣) ، ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ (النجم ١٣) فقالت : هو جبريل .

وأخرج ابن مردويه أيضًا عن مسروق أنها قالت : أنا أولُ مَنْ سأل رسول الله ﷺ عن هذا ؟ فقلت : يا رسول الله هل رأيتَ ربك ؟ فقال : « لا ، إنها رأيت جبريل منهبطًا »[2] . لكن التقيَّ السبكي لَمَّا نقلَ في تفسيره عند قوله - تعالى - : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ (النجم ١١) ، أي قول ابن عطية ، أن حديث عائشة عن النبي ﷺ ، قاطع في اللفظ ؛ لأنَّ قول غيرها إنها هو منتزع [من] ألفاظ القرآن .

نظر السبكي في حديثها المخرج في مسلم المذكور آنفا ، بأنه إن كان سؤالها - يعني عائشة - عن ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (التكوير ٢٣) فليس

(١) رواه الطبراني ١٢/ ٩٠، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٩٣: ورجاله رجال الصحيح خلا جهور بن منصور الكوفي .

(٢) رواه ابن مردويه كما في «فتح الباري» ٨/ ٦٠٧، والحديث رواه مسلم (١٧٧) من طريق أخرى .

مما نحن فيه ، وجائزٌ أن يكونَ ذلك جبريل عليه السلام في هذا ، وإن كان [المراد] الآيتين فيقرُب [مـ]مَّا قاله ابن عطية .

والاحتمال حاصلٌ في ما سألتُ عنه [و]ليس في لفظها صراحة بذكره ، ثُمَّ قال السبكي في آخر كلامه - بعد أن نقل كلام النووي السابق - : وقد قدمنا عن عائشة حديثًا في مسلم وتمسَّك به ابنُ عطية ، وأنه ينافيه احتمالًا ، فلذلك يستمرُّ ما أعاده هؤلاء الأئمة من أنَّ عائشة لَمْ تذكرْ فيه نصًّا ، وكان بهذا أنَّ الراجح في تفسير الآية أنَّ الرؤية بالبصر ، وأنها لله - تعالى - اهـ .

وذهب جماعة إلى الوقف في هذه المسألة، ولم يجزموا بنفي ولا إثبات ، لتعارضِ الأدلة ، ورجَّح ذلك الإمام أبو العباس القرطبي في « المفهم » ، وعزاه لجماعة من المحقِّقين ، وقواه بأنه ليس في الباب دليلٌ قاطع ، وغالب ما استدلت به الطائفتان ظواهرُ متعارضة قابلة للتأويل ، قال : وليسـ[ـت] المسألة من العمليات فيُكتفَى فيها بالأدلة الظنية ، وإنما هي من المعتقدات ، فلا يُكتفى فيها إلَّا بالدليل القطعي ، وقال التقيُّ السبكي - رحمه الله - في «السيف المسلول» : ليس من شرطه أن يكون قاطعًا متواترًا ، بل متى كان حديثًا صحيحًا ولو ظاهرًا ، وهو من رواية الأحاديث ، جاز أن يعتمد عليه في ذلك ؛ لأنَّ ذلك ليس من مسائل الاعتقاد التي يشترط فيها القطع ، على أنَّا لسنا مكلَّفين بذلك .

تنبيهان : فالأول منهما : قال الحافظ ابن حجر : المرادُ برؤية الفؤاد رؤيةُ القلب لا مجرد حصول العلم؛ لأنَّه ﷺ كان غالبًا [متصلًا] بالله على الدوام، بل مراد مَنْ أثبتَ أنه رآه بقلبه ، أنَّ الرؤية التي حصلَتْ له خُلقت في قلبه كما تُخلق الرؤية بالعين لغيره . زاد بعضُهم بخلاف غيره من الأولياء فإنهم إذا أطلقوا الرؤيةَ والمشاهدة لأنفسِهم فإنهم إنما يريدون المعرفة ، فاعلمه ،

فإنه من الأمورِ المهمة التي يغلِطُ فيها كثير من الناس اهـ . والرؤية لا يُشترط لها شيء مخصوص عقلًا ، ولو جَرتْ العادةُ بخَلْقِها في العين . قال الواحدي : وعلى القول بأنه رآه بقلبه ، جعل الله - تعالى - بصَره في فؤاده ، أو خلق الله لفؤاده بصرًا ، حَتّى رآه رؤية صحيحة ، كما يُرى بالعين اهـ .

التنبيه الثاني : أن محلَّ الخلاف الذي بين الصحابة في الرؤية إنما هو في وقوعها لا في إمكانها وجوازها ، ومعاذ الله أن يختلفوا في إمكانها ، ومحاورتُهم إنما كانت في الوقوع ، واختلافهم في ذلك دليل على إجماعهم على جوازها . قال القاضي عياض - رحمه الله تعالى - : جائزة عقلًا ، وثَبتتْ الأخبار الصحيحة المشهورة بوقوعها للمؤمنين في الآخرة ، أما في الدنيا فقال الإمام : إنما لَمْ يُرَ ﷻ في الدنيا ؛ لأنَّه باق ، والباقي لا يُرى ، فإذا كانوا في الآخرة ورُزقوا أبصارًا باقية رأوا الباقي بالباقي ، وهو كلامٌ حسنٌ مليح ، وليس فيه دلالة على استحالة الرؤية ، إلَّا من حيثُ ضَعف القوة ، فإذا قَوَّى الله مَنْ شاء من عباده اقتدرَ على حَمْل أعباءِ الرؤية في أيِّ وقتٍ كان. ولا مانعَ من ذلك وهو الحق .

كما أن النبي ﷺ كان يرى جبريل والصحابة عنده لا يَروْنه ، للقوة التي آثره الله بها دونهم ، قال الحافظ ابن حجر : وقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة بين الدنيا والآخرة ، في حديث مرفوع فيه : « واعلموا أنكم لن تروا ربكم حَتَّى تموتوا »[1] وأخرجه ابن خزيمة من طريقين ، فإذا جازت الرؤيةُ في الدنيا عقلًا، فقد امتنعتْ سمعًا، لكن مَنْ أثبتَها للنبي ﷺ ، له أن يقولَ إنَّ المتكلِّمَ لا يدخُل في عموم كلامه .

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٣٢٤ من حديث عبادة بن الصامت، وصححه الحاكم ٤/ ٥٨٠، والألباني في صحيح الجامع (٢٤٥٩).

ومع القول بجوازها في الدنيا لَمْ تحصُلْ لبشر غير نبيِّنا ﷺ ، على ما في ذلك من الخلاف ، ومن ادَّعاها [من] غيره في الدنيا يقظةً فهو ضال ، بل قال الإمام الكفراشي في تفسيره في سورة النجم : ومعتقدُ رؤية الله هنا بالعين لغير محمد ﷺ غيرُ مسلِم ، وقال الأردميلي في « الأنوار » : فلو قال : إني أرى الله عيانًا في الدنيا ، ويكلمني شفاهًا يكفر . اهـ . ونُقل عن المهدوي أنه كفَّر مدَّعي الرؤية هنا ، وقد نقل جماعةٌ الإجماعَ على أنها لا تحصُل للأولياء في الدنيا ، قال الشَّيْخان أبو عمرو ابن الصلاح وأبو شامة : أنه لا يُصدَّق مدَّعي الرؤية في الدنيا يقظة ، فإنَّ شيئًا مُنع منه كليمُ الله موسى عليه السلام ، واختُلف في حصوله لنبينا ﷺ ، كيف يُسمحُ به لَمَنْ لَمْ يصِلْ لمقامِهما ، ما لا يتوقَّفْ فيه أنه لا يحصُل لآحاد الناس ؟ (١) .

وقال الشَّيْخ أبو بكر الكلاباذي في « التعرف » : أنَّ المشايخَ اتفقوا على تضليلِ مُدَّعيها - يعني الرؤية في الدنيا - وتكذيبه ، وصنعوا في ذلك كتبًا ورسائل ، وزعموا أن من ادَّعى ذلك لَمْ يعرف الله ، وأقره العلا الفوتوي في شرحه على ذلك ، وقال : وإن صحَّ عن أحدٍ مِنَ المعتبَرين وقوعُ ذلك فيمكن تأويلُه ، وذلك لأنَّ غلباتِ الأحوال تجعلُ الغائبَ كالشاهدِ ، حَتَّى إذا كثُر اشتغالُ السر بشيء واستحضاره له ، يصيرُ كأنَّه حاضرٌ بين يديه ، وهذا معلوم لكلِّ أحد ، وعلى هذا يُحمل ما نُقل عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه كان يطوفُ حول البيت فسلَّم عليه إنسانٌ ، فلَمْ يَرد عليه ، فشكاه إلى عمر رضي الله عنه فقال كنا نرى - أي الله - (٢) في ذلك المكان ، وهذا يدل على أنه قد يتفق ذلك في زمان دون زمان ، ومكان دون مكان .

---

(١) يُذكر للبَرموني أنه يأتي للآراء المخالفة والموافقة لرأيه .

(٢) لماذا لا نقول إن التفسير « كنا نرى أشباحًا » ؟ وهو الأقرب لتفسير هذه التهيؤات .

وأما في الآخرة فقد دل الكتاب والسُّنَّة على حصول الرؤية للمؤمنين فيها ؛ لأنَّه يزولُ الضعف عن حواسهم ، أما الكفار فلا يرونه ، وكذا سائر الحيوانات ، وقد اختلفت رؤية الله - تعالى - في المنام ، فمُعظم المثْبِتين للرؤية على جوازِها مِنْ غير كيفية وجِهة ، وأثنى بعضُهم على النووي أنه قال : قال القاضي عياض : اتفقَ العلماءُ على جواز رؤيةِ الله - تعالى - في المنام وصِحَّتها ، وإن رآه الإنسانُ على صفة لا تليق بالله من صفات الأجسام ؛ لأنَّ تلك الرؤية غيرُ ذات الله - تعالى - ، إذ لا يجوزُ عليه ﷻ التجسيمُ ، ولا اختلافُ الأحوال بخلاف رؤية النبي ﷺ في المنام ، ورؤيته كسائر أنواع الرؤيا، من التمثيل والتخييل .

وقال بعض المحقِّقين : إنَّ ذِكْرَ الرؤية في المنام في مباحث الرؤية استطرادٌ ؛ لأن رؤيا المنام نوعُ مشاهدة بالقلب ، دون العين . اهـ . وحُكِيَ عن كثير من السلف أنهم رأوه ﷻ في المنام ، فنُقل عن الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله تعالى عنه - أنه قال : رأيتُ ربَّ العزة في المنام ، فقلتُ : يا رب بما يَتقربُ المتقربُون إليك ؟ وفي رواية : ما أفضل ما تقرَّب به المقرَّبون إليك ؟ قال : بكلامي يا أحمد . قلت : يا رب بفَهْم أو بغير فهم ؟ فهذا يدل على أن مذهب الإمام أحمد الجواز ، ونُقل أن الإمام أبا حنيفة - رضي الله تعالى عنه - قال : رأيتُ ربَّ العزة في المنام تسعة وتسعين مرة ، فقلت في نفسي : إن رأيته - تبارك وتعالى - لأسألنَّ منه بما تنجو الخلائق من عذابه يوم القيامة؟ قال : فرأيته ﷻ ، فقلت : يا رب عزَّ جارك وجل ثناؤك ، وتقدست أسماؤك ، بما ينجو عبادك يوم القيامة من عذابك ؟ فقال ﷻ : مَنْ قال في الغداة والعشي : سبحان الأبدي الأبد ، سبحان الواحد الأحد ، سبحان الفرد الصمد ، سبحان رافع السماء بغير عمد ، سبحان مَنْ بسط الأرض على ماء جمد ، سبحان مَنْ خلق الخلق فأحصاهم عدد ، سبحان مَنْ قسَّم

الرزق ولَمْ ينس أحد ، سبحان الذي لَمْ يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ، نجا من عذابي . نقل ذلك صاحب « الإحياء » في آخر ترجمته عن بعض الكتب .

وعن الترمذي الحكيم - رحمه الله - وهو من مشايخ الرسالة القشيرية، قال : رأيتُ الله - تعالى - في المنام مرارًا ، فقلت : يا رب إني أخاف زوالَ الإيمان . فأمرني بهذا الدعاء بين سُنَّة الصبح والفريضة ، إحدى وأربعين مرة ، وهو : يا حي يا قيوم ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا الله لا إله إلَّا أنت ، أسألك أن تحيي قلبي بنور معرفتك ، يا الله يا الله يا أرحم الراحمين .

وعن الإمام أبي العباس بن شُريح الباز الأشهب ، أنه رأى في مرض موته في منامه كأن القيامة قد قامت، وإذا الجبار سبحانه يقول : أين العلماء؟ فجاء وقال : ماذا عملتم في ما علمتم ؟ قال : فقلنا : قصَّرنا وأسأنا ، فأعاد السؤال ، كأنه لَمْ يرض ذلك الجواب ، وأراد جوابًا آخر ، فقلت : أما أنا فليس في صحيفتي الشرك ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه ، فقال : اذهبوا فقد غفرتُ لكم ، ومات بعد ذلك بثلاثة ليال ، والمنامات في ذلك كثيرة وفيما ذكرنا منها كفاية ، والله ﷻ أعلم . اهـ .

وأيضًا يُروى أن سيدنا موسى على نبينا وعليه السَّلام ، سمع كلام الله حقًّا من غير واسطة ، فقيل له : بما علمتَ أن الذي تسمعه كلام الله ربك ؟ قال : لي في ذلك أدلة قطعية ، منها : أنَّ كلام الحق نسمعه بجميع الجوارح ، ومنها : أن كلام الخلق نسمعه من جهة واحدة ، وكلام الحق نسمعه من كل جهة ، ومنها : أن كلام الخلق لا يدهشني ، وكلام الحق يدهشني ، ومنها : أن كلام الخلق أجدُه مركَّبا من حروف وأصوات ، وكلام الحق لا صوت

فيه ولا حرف ، وكان صلى الله على نبينا وعليه إذا سمع كلام الله يمكث مدة لا يسمع فيها كلام الخلق ، إلَّا تغلبًا لقُبح كلام الخلق . اهـ .

هذا كله في الدنيا كما عَلِمْتَ ، وأما الرؤية الأُخروية فلا يُنكرها أحدٌ من أهل السُّنَّة ، ولا يُلتفَتُ إلى مَنْ خالفهم في ذلك ، قال العلَّامة سيدي محمد السنوسي - نفع الله به - : ومن الممكنات الجائزة عند أهل الحق رؤيةُ المخلوق لمولانا - جلَّ وعلا - ، على ما يليق به - تبارك وتعالى - ، من غير جهة ولا جرمية ، ولا تحيُّز ؛ لأنَّه تعالى موجود ، وكلُّ موجود يصح أن يُرى بالبصر ، واستدعاءُ الرؤية المقابلة للمرء والجهة له والتوسط بين القُرب جدًّا والبُعد جدًّا إنما هو عادي يقبل التخلُّفَ ، وكما صح أن يَعْلَم مولانا - جلَّ وعلا - على ما يليق بحاله وعظمته من غير إحاطة ، فكذلك يصحُّ أن يُرى - جلَّ وعلا - بالبصر ، على ما يليق به - جلَّ وعلا - ، وليست الرؤيةُ انبعاثَ شعاع يتصل بالمرء حَتَّى تستحيل رؤيته - جلَّ وعلا - ، لاستحالة اتصال الشعاع به - تبارك وتعالى - ، إذ لو كانت الرؤية باتصال شعاع المرء لزِمَ أن لا يَرى الرائيُّ إلَّا مقدارَ حَدقته ، كيف وهو ينكشف للرائي في نظرةٍ واحدةٍ أضعافَ أضعافِ ذاته ؟ أضعافًا لا حصر لها ، بحيث يقطعُ أنه لا يمكن أن يفصلَ منه شعاعٌ يتصلُ بأدنى شيء منها اهـ .

وقال الشَّيْخ الإمام محيي السُّنَّة - رحمه الله - في « معالم التنزيل » : ومن السُّنَّة أن يرى لقاءَ الله - تعالى - بالمجازات حقًّا ، ورؤيتُه حقًّا أي كونه مرئيًا ، بمعنى الانكشاف التام بالأبصار وعدٌ ، أي موعود لأهل الجنة ، قال الله - تعالى - : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة ٢٢-٢٣) ، وقال النبي ﷺ : « سترون ربكم يومَ القيامة كما ترون القمرَ ليلة البدر »[1] ،

(١) رواه البخاري (٦٥٧٤)، والترمذي (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة، واللفظ له.

وفي الحديث الصحيح أنه قال ﷺ : « بينما أهل الجنة في نعيمهم يسطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب ﷻ يُشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السَّلام عليكم يا أهل الجنة ، فلذلك قوله – تعالى – : ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ (يس ٥٨) ، فيَنظر إليهم ويَنظرون إليه – تعالى – ، ولا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه – تعالى – ، ثُمَّ يُحجب عنهم فيبقى نورُه وبركاتُه عليهم في ديارهم »[1] .

[الرؤى والمنامات]

فرع : واعْلم أنَّ لصدق الرؤيا شروطًا ولمنامِها سُننًا وآدابًا ذكرَها العلماءُ ، قال بعض المحققين : ومن السُّنَّة أن يكونَ الموضِعُ طاهرًا ، والفِراشُ خَشِنًا ، وذلك ضِدَّ الناعِم ، وينبغي أن لا يكونَ ذا حجم ثَخِين ، لما رُوِيَ أنه كان فِرَاشُ رسول الله ﷺ للنَّوم شيئًا خفيفًا ، وأنه يتوضأ عند نومه ، ثُمَّ ينام على طهارة ، أي ينام على طهارة الوضوء ، فإنَّ تجديد الوضوء بعد العشاء الأخير يُعين على قيام الليل .

قال الشَّيْخ السُّهروردي – رحمه الله تعالى – : « حَكى لي بعضُ الفقراء عن شيخ له بخراسان ، أنه يغتسلُ في الليلة ثلاثَ مرات : بعدَ العشاء ، ومرَّة في أثناء الليل ، ومرَّة بعد الصبح ، فللوضوء أثرٌ ظاهرٌ في تيسير قيام الليل . وأيضًا ذُكرَ في الحديث : « أَنَّ مَنْ بات طاهرًا بات عابدًا ، وعرَّج بروحه إلى السماء ، وأذِنَ له بالسجود لله – تعالى – ، وكانت رؤياه صادقة »[2] ، روى بعض العلماء أنَّ لفظ الحديث هكذا : « إذا نام العبدُ وهو على الطَّهارة عرَّج

(١) رواه ابن ماجه (١٨٤) من حديث جابر بن عبد الله، ضعفه ابن الجوزي في «الموضوعات»، ووافقه الذهبي في «تلخيص الموضوعات» ص٣٥٤، والألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٦٣).
(٢) لم أقف عليه .

بروحه إلى العرش، وكانت رؤياه صادقة، وإن لَمْ يَنَمْ على الطهارة قصُرتْ روحُه عن البلوغ، فيكون المنامُ أضغاثُ أحلام لا تُصَدَّق»(1).

ثُمَّ قال شيخنا: والطهارة التي تُثْمِر صِدْق الرؤيا طهارة الباطن عن خُدوش الهوى، وكُدورة محبَّة الدُّنْيا، والنقاوة عن أنجاس الغِلِّ والحِقْد والحسد، فإنه إذا طَهُرت النَّفْسُ عن الرذائل انجلى القلبُ، وقابل اللوحَ المحفوظ في النوم، وانتقَشَ فيه عجائبُ الغيب، وغرائبُ الأنباء.

هكذا، وقولنا: مَنْ بات طاهرًا بطهارة الوضوء حال كونه مقارنًا لطهارة الباطن، كانت رؤياه صادقة، ويستاك - أي يستعمل السواك - عند النوم، وبعد الانتباه، لما رُوِيَ أن النبي ﷺ كان يفعل هذا، ويُستحب أن ينام ويضطجع أول اضطجاعه مستقبل القبلة، على شِقِّه - أي نصفه - الأيمن، فإنْ بدا له أن ينقلبَ إلى جانب فعل على هيئة من يُرى أنه مقبوضٌ على هيئة المحتضر عند الموت.

وذكر أيضًا شيخُنا أن الاضطجاعَ بالجنب الأيمن اضطجاعُ المؤمنين، وبالأيسر اضطجاعُ الملوك، ومتوجهًا إلى السماء اضطجاعُ الأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام -، وعلى الوجه اضطجاعُ الكفار، قال: فالصواب أن يضطجع ساعة بالأيمن، ثُمَّ ينقلب إلى الأيسر، وعليه كتب الأطباء أيضًا، ويتوسَّد كفَّ يده اليمنى عند خدِّه، ويذكرَ الله - تعالى - حَتَّى يذهب به النوم - أي حَتَّى ينام -، ورُوِيَ عن بعض المشايخ أنَّ مَنْ كان له همٌّ فليجدِّد الوضوء عند النوم ثُمَّ يقعد على فراش طاهر، فيصلي على النبي ﷺ

(1) ذكره الغزالي في الإحياء ١/ ٣٤٣، وقال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» ١/ ٣٢٤: ابن المبارك في الزهد موقوفاً على أبي الدرداء والبيهقي في الشعب موقوفاً على عبد الله بن عمرو. قلت: اللفظ فيهما مختلف.

ثلاثًا ، ثُمَّ يقرأ الفاتحة عشر مرات ، ثُمَّ سورة الإخلاص إحدى عشرة مرة ، ثُمَّ يصلي عليه ﷺ ثلاثًا ، ثُمَّ ينام على الوضع المذكور - أي على شقه الأيمن مستقبل القبلة ، متوسِّدًا كفَّه الأيمن تحت خدِّه - ، فإنَّه يرى في منامه بإذن الله - تعالى - كل ما نواه من مهماته أنه كيف يكون .

هذا من الخواص العجيبة ، وقد جرَّبه كثير من العلماء فوجدوه صادقًا، وهذا الفقير أيضًا جرَّبه مرارًا ، فوجدته كذلك ، وينفض إزاره ليُخرج ما فيه من التراب والهوام المؤذية ، وكذلك فراشه ، ويوصي عند نومه كما يوصي عند موته ، فلعله يُبعَثُ من نومه ، ويتحلَّل - أي يخرج من حقوقِ الناس بالاستحلال منهم - ، ويتوبُ عمَّا اقترف - أي اكتسب من ظلم وخيانة وغيرهما من الأعمال الظاهرة ، ومِنْ حقد وحسد وغيرهما من الصفات الباطنة - .

واعلم أن الغضبَ إذا لزم كظمه على التشفي في الحال رجع إلى الباطن، واحتقن فيه فصار حقدًا ، وذلك الحقد يثير أمورًا منها الحسد ، وهو أن تتمنى زوال النعمة عن الغير ، سواء طلبْتَ حصولَها لك أو لا ، كذا في « الإحياء » . ويقرأ من القرآن كل ليلة ولو ثلاث آيات ، ويُستحَب حين يضطجع أن يقول : بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ، ويدعو من الدَّعوات ما يشاء ، ولا يفتُر عن التسبيح والتهليل والتحميد ، حَتَّى يَغلُبَ عينَه النوم - فإن العبدَ يُبعَثُ على ما بات ، والميت يُبعث على ما مات ، فإن مات وهو في العمل الصالح يُبعثُ عليه ، وإن مات في العمل السيئ يُبعثُ عليه - ، ويقرأ سورة الإخلاص ، والمعوذَتين ، وينفث بهما على كفيه ، ويمسح بهما رأسه ووجهه ، وسائرَ جسده .

وقال بعضُ الكبراء : مَنْ كانت له حاجة مهمة فليتوضَّأ عند نومه - أي يجدد الوضوء على هذه النية ، وإن كان له وضوء . هكذا سمعتُ ممَّن أثق به من بعض الصلحاء - ، ويقعد على فراش طاهر ، ويقرأ سورة الإخلاص ، والشمس والتين ، يبدأ كل سورة ببسم الله ، يفعلُ ذلك كل ليلة إلى سبع ليال ، يقضي اللهُ حاجتَه ، ويلقى في منامه وجْهَ أمره في الليلة الأولى ، أو الثالثة أو الخامسة ، ويتوضَّأ عند النوم وضوء الصَّلاة لا وضوء الطهارة ، ولا يكفي أيضًا أن يمسح أعضاءَه بالماء مسحًا على ما فعله البعض ، فإنه إنها هو عند الضرورة ، قال شيخُنا الناصر : فإن ابتلى العبدَ في بعض الأحايين بكسَل أو فتور عزيمة يمنع من تجديدِ الطَّهارة عند النوم بعدَ الحدث ، يمسح أعضاءه بالماء مسحًا ، حَتَّى يخرج بهذا القدر من زمرة الغافلين . اهـ .

ويقول عند أوان الاضطجاع للنوم في آخر ما يتكلم به : « اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك » ، قال العلماء : وليستقبل القبلة في نومه ، وهو على نوعين : فإما على جنبه الأيمن كالملحود ، وإما على ظهره مستقبِلًا للقبلة ، كالميت المسجَّى ، ويقول : باسمك اللهم وضعتُ جنبي ، وبك أرفعه ، إن أمسكتَ نفسي فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بها تحفظ به عبادك الصالحين ، اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجات ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجأ منك إلَّا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت ، اهـ .

وفي رواية أن مَنْ قرأ بعد ذلك عند منامه هذه الآية ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ

﴿ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران ١٨-١٩) خلق الله له - تعالى - منها سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة ، ومن بعدها، وأنا أشهد بما شهد الله ، واستودع الله هذه الشهادة ، وهي لي عنده وديعة . يقول الله - تعالى - : إن لعبدي عندي عهدًا ، أدخل عبدي الجنة .

وذُكر في بعض الأخبار قال ﷺ : « مَنْ قرأ آية الكرسي إذا أوى إلى فراشه حَتَّى يختم فإنه لا يزال عليه من الله - تعالى - حافظ ، ولا يقربه شيطان ، حَتَّى يصبح ، وإذا أوى إلى فراشه فقرأ سورة « الكافرون » ، فإنها براءة من الشرك ، ومَنْ قال : « ألهكم التكاثر » كأنه قرأ ألف آية ، ومَنْ قرأها في ليــلة كتب له قيام ليلة وطاعتها »[1] ، وعنه ﷺ : « مَنْ قـرأ آيتين من آخر سورة البقرة كفتاه كل شيء »[2] ، وأراد قوله - تعالى - : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ... ﴾ (البقرة ٢٨٥) إلى آخر السورة ، وعنه ﷺ : « أنزل الله - تعالى - آيتين من كنوز الجنة ، كتبهما الرحمٰن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة ، مَنْ قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأتاه عن قيام الليل » ، فإن أراد النائم أن يرى جمالَ النبوة ، فليُكثر من الصَّلاة على النبي ﷺ ، وليتعاهد - أي يتحفظ - ، وليلازم هذا الدعاء ، وهو : اللهم ربَّ البلد الحرام ، والشهر الحرام ، والحل والحرام ، والركن والمقام ، أقرِ روح محمد منا السَّلام .

وعن الحسن البصري ﷺ : مَنْ صلى صلاة العتمة أربع ركعات يقرأُ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة والضحى ، وألَمْ نشرح ، وإنا أنزلناه ، وإذا زلزلت مرة ، ثُمَّ يسلم ويستغفر الله - تعالى - إلى مائة مرة ، ويصلي على النبي ﷺ مائة ، ويقول : لا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم مائة ، فإذا

---

(١) رواه ابن الضريس في فضائل القرآن ٣/ ٩٢ عن قتادة من قوله .

(٢) رواه البخاري (٥٠٢٢)، ومسلم (٢٠٨) من حديث أبي مسعود الأنصاري .

فعل ذلك يرى النبي ﷺ في منامه . وعن أبي هريرة ﷺ أنه قال : قال النبي ﷺ : « مَنْ صلى ليلة الجمعة ركعتين يقرأ في كلِّ ركعة بفاتحة الكتاب مرة ، وآية الكرسي مرة ، وقل هو الله أحد ، خمس عشرة مرة ، فإذا سَلَّم من صلاته صلى عليَّ ألف مرة ، فإنه يراني من ليلته ، ولا يتم الجمعة الأخرى حَتَّى يراني »[1] ، وعن علي ﷺ قال : « إذا كنت مشتاقًا إلى رؤية النبي ﷺ ، وملاقاته صَلِّ صلاة التسابيح بعد صلاة الظهر »[2] .

وقال عمر ﷺ : « مَنْ صلى [صلاة التسابيح بعد][3] صلاة الظهر ولم يرَ النبي ﷺ في منامه فلست بعمر »[4] ، قال : « والذي نفسي بيده مَنْ صلاها قضى الله حاجته ، ويمحو سيئاته ، ولو كانت ملء الأرض »[5] ، وهي أن يُصلي أربع ركعات بسلام واحد ، يقرأ في ركعة فاتحة الكتاب مرة ، وإنا أنزلناه عشر مرات ، ثُمَّ قبل الركوع ، يقول : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلَّا الله ، والله أكبر ، خمس عشرة مرة ، ثُمَّ يركع ويقول في ركوعه ، بعد قوله سبحان ربي العظيم ثلاثًا ذلك التسبيح ، ثُمَّ يقوم مستويًا ، ويقول في القومة ذلك التسبيح المذكور ، ثلاث مرات أيضًا ، ثُمَّ يسجد ويقول بعد قوله سبحان ربي الأعلى ثلاثًا ذلك التسبيح المذكور خمس مرات ، ثُمَّ يرفع رأسه ويسجد ثانيًا ، ويسبح بين السجدتين ، ويتم الركعات الثلاث الباقية على الوصف المذكور ، ثُمَّ بعد السَّلام يقرأ : « إنا أنزلنا » عشر مرات ، من

(١) رواه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٥٧ وقال: موضوع، وذكر الغزالي في الإحياء ١/ ٢٠٠ نحوه من حديث جابر وأنس وابن عباس، وقال: وكلها ضعيفة منكرة وليس يصح في أيام الأسبوع ولياليه شيء.

(٢) لم أقف عليه .

(٣) ما بين المعكوفين ساقط من (أ) و (ج) .

(٤) لم أقف عليه .

(٥) لم أقف عليه .

غير تكلم مع أحد ، ثُمَّ يقرأُ التسبيح المذكور ثلاثًا وثلاثين ، ثُمَّ يقول جزى الله محمدًا عنا ما هو أهله . قال عمر ﷺ : « من صلى هذه الصَّلاة لَمْ يظمأ في حالة النزع ، ويُفرش له في قبره ، ويتوَّج بتاج الكرامة ، ويستقبله اثنا عشر ملكًا ، ببراءة الخلاص والإكرام ، ويكون في صف الملائكة ، والأنبياء والرسل ، ويُعطى له من الشفاعة مقدار ما يريده »(١) . كذا في فضائل الأعمال للإمام الحافظ النسفي .

ورأيتُ في بعض النسخ مَنْ قرأ في نصف ليلة الجمعة سورة لإيلاف قريش ألف مرة ، ثُمَّ نام بالوضوء ، رأى النبي ﷺ في منامه ، وحصل له كلَّ مقصود ، قيل : إنه مجرَّب عظيم ، والله أعلم . ومن السُّنَّة ألا يذكر شيئًا من أمور الدنيا بعد العشاء الأخيرة . وفي « البستان » كرِه بعضُهم السَّمر بفتحتين - أي الحديث بعد العشاء - لِمَا رُوِيَ أنَّه « نهى النبي ﷺ عن النوم قبل العشاء ، والحديث بعده »(٢) ، وعن عمر ﷺ أنَّه كان لا يدع مسامِرًا بعد العشاء ، ويقول : « ارجعوا لعل الله يرزقكم صلاةً أو تهجُّدًا »(٣) ، وأباحه بعض الشيوخ ، إذا كان الأمر مهمًا ، لما رُوِيَ « أنَّ رسول الله ﷺ ، سمر بعد العشاء في بيت أبي بكر ﷺ ، ليلة لأمرٍ من أمور المسلمين »(٤) .

وقال علي - كرم الله وجهه - : « السَّمر على ثلاثة أوجه ، إن كان في مذاكرة عِلم فهو أفضلُ من النوم ، وإن كان في ما لا يعني من أساطير الأوَّلين ونحوَها فهو مكروه ، وإن كان تكلما للمؤانسة [مع](٥) الاجتناب

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) رواه البخاري (٥٦٨)، ومسلم (٦٤٧) من حديث أبي برزة .

(٣) رواه الطحاوي في معاني الآثار ٤/ ٣٣٠ .

(٤) رواه الطبراني ٩/ ٧٠ من حديث عمر بن الخطاب .

(٥) في (أ) : من ، وفي (ج) : ويجتنبوا من الاجتناب .

للكذب والقول الباطل فلا بأس »[1]، والكفُّ عنه أفضل للنهي الوارد فيه، ولو فعل ذلك ينبغي أن يرجع إلى الذكر والتسبيح والاستغفار، ليكون اختتامُ الصحيفة بالعبادة كابتدائها. وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: « لا سَمر إلَّا لمسافر، أو لمصلٍّ »، ومعنى ذلك أنَّ المسافرَ يحتاج إلى ما يدفع النومَ عنه للمشي، فأبيح له ذلك، وإن لَمْ يكن فيه قربة أو طاعة، وكذلك المصلي إذا سَمَر ثُمَّ يصلي فهو أفضل، ليكون نومُه على الصَّلاة، وخَتم سَمَره بالطاعة، انتهى.

وقال النبي ﷺ: « مَنْ لَزِم هذه الأربع لَمْ يفتقر هو وعياله أبدًا: القيامُ قبل الصبح، والوضوءُ قبل الوقت، والدخول في المسجد قبل الأذان، والسكوت بعد الوتر »[2]، فإن استيقظ في الليل فليقل: « لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وسبحان الله والحمد لله، ولا إله إلَّا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم، اللهم اغفر لي، ويدعو، فإنه يستجاب له »، قال أئمة الحديث: المراد بالإجابة الإجابة اليقينية؛ لأنَّ الاحتمالية ثابتةٌ في غير هذا الدعاء أيضًا، ويدعو الله - تعالى - بالرحمة والمغفرة، فإنه يُستجاب له البتة، فإنْ توضأ وصلى قُبلت صلاته، فريضة كانت أو نافلة، ولا ينام الرجل في بيتٍ وحده أي منفردًا، ولا على سكوفَّة[3] الباب، أي على عتبته، ولا ينام وفي يدِه غَمْرة، أي ريح اللحم أو السمك، ولا ينام على سطح غير محوط أي ليس له حائط، فمن فعل ذلك، أي الأمور المذكورة فأصابه بلاء، فلا يلومنَّ إلَّا نفسه، وليجتهدْ أن يقوم مقامه قبل الصبح، أي قبل طلوع

(١) لم أقف عليه من قول علي بن أبي طالب، ونُسب في الفتاوى الهندية إلى الفقيه أبي الليث.
(٢) لم أقف عليه.
(٣) أسكفة الباب عتبته، وفي (أ): سكونة وهو تصحيف. وفي (ج): سكوفية.

الفجر ، فإنَّ الأرضَ تشتكي إلى الله من ثلاثة : غُسل الزاني عليها ، ودم حرام يسفك عليها ، ونومة العالم بعد الصبح .

وفي الحديث « النوم عند الصُّبيحة - أي عن الصبح - يمنع الرزق »[1] ، ورُوِيَ عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنه - ، أنه نظر إلى بعض أولاده وهو نائم نومةَ الصبح ، فوكزه - أي ضربه - ورفعه برجله ، وقال : قمْ لا أنامَ اللهُ عينك ، تنام في الساعة التي يُقَسِّمُ الله فيها الأرزاق ، أما علمت أنها - أي الصبيحة - مكروهة محرَّمة ، منساة للحاجة ، أي فيها كراهة كثيرة ، وكسلٌ كثير ، وهرم كثير ، ونسيان للحاجة ، وربما يورث الفقر القبيح .

ويستيقظ ذاكرًا الله - تعالى - بقلبه ، يعني إذا استيقظ النائم من نومه ، فمِنْ حُسن الأدب أن يذهب بباطنه إلى الله - تعالى - ، ويصرِف فكره إلى الله - تعالى - ، قبل أن يجول الفكرُ في شيء سوى الله ، ويشغل اللسان بالذكر . قال طلحة[2] : فالصادق كالطفل[3] الكَلِف بالشيء إذا نام ينام على صحبته ، وإذا انتبه يطلب ذلك الشيء الذي كان كلفه ، على حسب هذا الكلف والشغل يكونُ الموت والقيام إلى الحشر ، فليُنظر وليعتبرُ عن انتباهه ما همَّه ، فإنه يكون هكذا عند القيام من القبر ، فإن كان مُقبلًا على الله - تعالى - كان همُّه الله - تعالى - ، وإلَّا فهمُّه غير الله .

ثُمَّ ينبغي له - أي المنتبه - أن يتوضأ ويصلي على فورِه - أي من ساعته بلا تأخير - ليكون طيبَ النفس في بقية يومه ، ويجعلَ من عَزْمه التقوى والتورُّع عمَّا حرَّم الله - تعالى - عليه ، ويستفتح بالخير أعمالَه . ويُستحبُّ

(١) لم أقف عليه، وذكره الفتني في تذكرة الموضوعات ص١٠٢، وقال: موضوع .

(٢) في (أ) : قال شيخنا .

(٣) في (ج) : كالعاقل المكلف .

إذا أصبح أن يقول : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا ، وإليه النشور . فإذا قال هذا فقد أدى شكر ليلته ، ويستحبُّ أن يعوِّد لسانه ببسم الله ، في جميع حركاته ، ويقول : الحمد لله بعد فراغه من كل شيء ؛ لِيُدْخِلَ حلاوة الإيمان في قلبه ، انتهى .

ولا ينوي ظُلْمَ أحد من عباد الله - تعالى - ، وأولُ ما يُبدأُ به مِنَ الذِّكر ما ورد في الحديث ، وهو : « أصبحنا وأصبح الملك لله »(١) ، والعظمة والكِبر والخلق والأمر والليل والنهار وما سكن فيهما لله - تعالى - وحده لا شريك له . « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ﷺ ، وعلى ملة إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين »(٢) .

اللهم اجعل أولَ هذا اليوم لنا صلاحًا ، وأوسطَه فلاحًا ، وآخره نجاحًا برحمتك يا أرحم الراحمين ، ولينم القيلولة ، فإنَّ نومَها سُنَّة لمَنْ أراد قيام الليل ، ووقتها نصف النهار ، حين تقربُ الشمس من الزوال ، وفي الحديث : « النوم في أول النهار خُرْقٌ »(٣) أي يورث الحماقة وهي قِلَّة العقل ، وهو من إتيان الحماقة ، فلا يباشره إلَّا أحمقٌ ناقصُ العقل ، حيث يعطِّلُ وقت التحصيل ، « وفي وسطه خُلقٌ » أي خلقٌ حسَن شريف ، من أخلاق الأنبياء والأولياء ، « وفي آخره حُمْقٌ » بالضم والسكون ، أي تحصيل الأخرقية ، وإعياء العقل ، في النوم ثلاثة أنواع : خلق ، وهو نوم الهاجرة ،

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٣) من حديث ابن مسعود، ولم أقف على زيادة المصنف (والعظمة والكبر..).
(٢) رواه أحمد ٣/ ٤٠٦، والطبراني في الدعاء ص١١٣ من حديث عبد الرحمن بن أبزى، وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٧١ : ورجالهما رجال الصحيح .
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ص٥٢٤، وصححه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٢٦، وابن حجر في الفتح ١١/ ٧٠، والألباني في صحيح الأدب المفرد (٩٤٧) .

وخرق وهو نومة آخر النهار ، لا ينامها إلَّا أحمق ، أو سكران ، أو مريض ، وحمق وهو نومة الضحى . انتهى .

ولا يُنام بعد العصر لما ذُكر أن النبي ﷺ إذا أدأبه - أي أتعبه - قيام الليل نام نومة قُبيل الصبح ، فينْصِبُ ساعده نصبًا ، ويمدها إلى الأرض ، ويضع رأسَه على كفه ساعة لطيفة ، أي قليلة ثُمَّ يخرج لصلاة الفجر ، ومن السُّنَّة الابتداء بالتهجد ، لِمَنْ أراد ذلك ، وهو أن يقوم في جـوف الليـل ، ولا يكون التهجد إلَّا بعد النوم ، وقلة النوم هي الهُجوع[1] التي قللها الله - تعالى - من القائمين آناء الليل ، حيث قال الله - تعالى - : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (الذاريات ١٧) فالهُجوع النوم ، والتهجد القيام ، وفي الخبر: « أنَّ داود - عليه الصَّلاة والسَّلام - قال : يا ربي إني أحب أَنْ أتعبَّد لك ، فأي وقت أفضل ؟ فأوحى الله - تعالى - إليه : « يا داود لا تقم أول الليل ، ولا آخره ، فإنه مَنْ قام أوَّله نام آخره ، ومَنْ قام آخره نام أوَّله ، ولكن قم مع وسط الليل حَتَّى تخلو بي وأخلو بك، وتَرْفع إليَّ حوائجك»[2]، كذا في شرح الخطيب ، قال النبي ﷺ : « ليلة أُسري بي إلى السماء أوصاني ربي بخمس خصال ، فقال : لا تعلق قلبك في الدنيا فإني لَمْ أخلقها لك[3] ، واجعل محبتك معي ، فإن مصيرك إليَّ ، وداوم على التهجد ، فإن النصرة مع قيام الليل ، واجتهد في طلب الجنة ، وكن يائسًا من الخلق ، فإنه ليس في أيديهم شيء »[4] انتهى .

ويتوضأ ويصلي تطوعًا ، أي يصلي أولًا ركعتين تحية الطهارة ، يقرأ في

---

(١) في (ج) : المحموده .
(٢) ذكره الغزالي في الإحياء ١/ ٣٤٦، وابن الجوزي في التبصرة ٢/ ٣٢١ .
(٣) في (ج) : في أضيقها عليك .
(٤) لم أقف عليه .

الأولى بعد الفاتحة : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء ٦٤) ، وفي الثانية : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء ١١٠) ، ويستغفر بعد الركعتين مرات ، ثُمَّ يستفتح الصَّلاة بركعتين خفيفتين ، إن أراد يقرأ فيهما بعد الفاتحة آية الكرسي ، وآمن الرسول ، وإن أراد غير ذلك فله ذلك ، ثُمَّ يصلي ركعتين طويلتين [أطول](1) من الأوليين ، وهكذا يتدرج إلى أن يصلي اثني عشرة ركعة ، أو ثمان ركعات ، أو يزيد على ذلك ، ففي كل ذلك فضْل كبير عظيم ، يفعلُ ذلك مرارًا ، فإن لَمْ يقْدِر ففي كُلِّ أسبوع مرارًا ، وإلَّا ففي كل شهر مرارا ، وإلَّا ففي كل سنة مرارًا ، وإلَّا ففي عمره مرارًا .

والسُّنَّة لِمَنْ يرى في منامه شيئًا من الرؤيا الحسنة - لا كل ما يراه - أن يقصَّه ، ففي الحديث : المستحبُّ هو السؤال عن الرؤيا ، والمبادرةُ إلى تعجيل تأويلها أوَّل النهار قبل أن يشتغل الذهن في معائش الدنيا ، ولكن لا يقصها إلَّا على عالم ، أو ناصح ، ورُوِيَ عنه - عليه الصَّلاة والسَّلام - أنَّه قال : « لا تحدثُ إلَّا حبيبًا أو لبيبًا »(2) ، وفي رواية : « لا تقصها إلَّا على وادٍّ محبٍّ ، أو ذي رأي ؛ لأنَّ غيرهما لا يُؤمَن من كيد تعبيره بسوء »(3) ، قال - تعالى - - حكاية عن يعقوب النبي - عليه الصَّلاة والسَّلام - : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ (يوسف ٥) ، واعلم أنهم قالوا : إن اللوح المحفوظ في المثال كمِرآة ظاهرٌ فيها الصور ، ولو وُضعَتْ مرآةٌ في

---

(١) كذا في (ج) ، وفي (أ) أقصر .

(٢) رواه والترمذي (٢٢٧٨) من حديث أبي رزين، وصححه ابن حبان ١٣/ ٤١٥، والألباني في الصحيحة (١٢٠) .

(٣) رواه أبو داود (٥٠٢٠)، وابن ماجه (٣٩١٤) من حديث أبي رزين، وهو الحديث السابق.

مقابلة مرآة أخرى ، ورُفع الحجاب بينهما ، لكانت صورة تلك المرآة تتراءى في هذه ، وبما قلناه يمكن أن يرى أحدٌ هامَّة رأسه ، فالقلبُ مرآة تقبلُ رسومَ العلوم واشتغاله بشهواته ، ومقتضى حواسه ، كأنه حجابٌ مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت ، فإن هبَّتْ ريح الرحمة حرَّكت هذا الحجاب ورفعته فيتلألأ في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت ، كالبرق الخاطف .

وقد يثبُت ويدوم ما دام متيقظًا ، فهو مشغولٌ بما يوردُه الحق عليه من عالم الشهادة ، إلَّا من شاء الله من المريدين من عند الله - تعالى - ، فإذا ركدتْ الحواسُّ عند النوم ، تخلَّصَ القلبُ من شُغله ، ومن الخيال ، وكان صافيًا في جوهره ، وارتفع الحجاب ، وقع في القلب شيء مما في اللوح ، بحسب صفائه ، إلَّا أن النوم لا يمنع الخيال عن عملِه وحركتِه ، فما وقع في القلب من اللوح يبتدِرُه الخيال ، فيحاكيه بمثال يقاربُه ، وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها ، فإذا انتبه من النَّوم لَمْ يتذكر إلَّا الخيال ، فيحتاج الرائي إلى معبِّر ، ينظُر بفراسته أن هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني ، ولهذا السِر كان من السُّنَّة من يرى في منامه شيئًا أن يقصَّه على عالمٍ ناصح ، ولنضرب من الأمثلة[1] لتحصُل بصيرةٌ في التسلِّي من الواسعات .

رُوِيَ أنَّ رجلًا قال لابن سيرين : رأيت في المنام كأنَّ في يدي خاتمًا أختتم به أفواه الرجال وفروج النساء ، فقال : أنت مؤذن قبل الصبح في رمضان ، فقال : صدقت . فانظر أن روح الختم وزبدته هو المنع ، ولأجله يراد الخاتم ، وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ ، كما هو عليه ، وهو كونه مانعًا للناس من الأكل والشرب والجماع ، ولكن

(١) في (ج) : مثالات .

الخيال حكى المنع عند الختم بالخاتم، فمثَّله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى، ولا يبقى في الحفظ إلَّا الصورة الخيالية، وقس عليه ما سنذكره من الأمثلة .

ورُوِيَ أنَّ رجلًا قال لسعيد بن المسيب : رأيت في المنام كأني سالك، فكنت إذا قعدت أقطع مسافة من الطريق، وإذا مشيت لَمْ أقطع شيئًا، فقال: إنك نساج، إذا قعدت نسجت، وإذا قمت بطلت، فكان كما قال .

ورأى رجل النبي ﷺ في منامه فشكى إليه علَّة كانت به، فقال عليك بلا ولا، فاستيقظ وتحيَّر، فسأل ابن سيرين، فقال : « كُل الزيت فإن الله - تعالى - قال : ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ (النور ٣٥) .

وقال عبد الله بن اليزيد[1] : « جاء رجل فقال : رأيت كأن الله قد ابتدأ خلق السماوات والأرض، فقلت : لعل غيرك رآها، ويسألك أن تفسرها، فقال : لا بل رأيتها، فجئت بها إلى القاضي، وكان صديقًا لي، فقلت له : أيها القاضي إن هذا يسألني عن هذه الرؤية، فسأله، فقال : أنا رأيتها، فقال القاضي : هذا رجل يشهد بالزور، لقوله - تعالى - : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الكهف ٥١)، فبحثت عنه فوجدته كذلك » .

وقالت عائشة - رضي الله عنها - لأبي بكر ﷺ : « فكأنما وقع في حجرتي ثلاثة أقمار، فقال : سيدفن في بيتك ثلاثة من الأخيار »[2] .

(١) في (ج) : الزبير .

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات ٢/ ٢٩٣، والطبراني ٢٣/ ٤٧، وصححه الحاكم على شرط الشيخين في المستدرك ٣/ ٦٢، ووافقه الذهبي، والهيثمي في المجمع ٨/ ٣٣٣ وقد رواه الطبراني ٢٣/ ٤٨ مرفوعًا، وضعفه الهيثمي مرفوعًا ٧/ ١٠٣ .

وقالت امرأة لسعيد ابن المسيب : « رأيت سنبلة نبتت على أُصبعي ، قال سعيد : ستأكلين من غزلك » .

ورأى رجل أنه قد قطع رأسَ نفسه وجعله بين رجليه فقصَّها ، فقيل له: « كانت لك عمامة فجعلتَها سراويل ، قال : صدقت » .

ورأى عبد الله بن جعفر غرابًا ساقطًا على منارة الرسول ﷺ . قال سعيد بن المسيب « يتزوج الحسامي بابنتك ، فكان كذلك ، فقيل له : كيف علمت ذلك ؟ فقال المنارة أشرف أهل المدينة ، والغراب فاسق » .

وقال رجل لابن سيرين : « رأيتُ كأني أصبُ زيتًا في أصل زيتونة، قال: إنك تنكح أمك ، فبحث عنه فإذا وُجد تحته جارية كان أبوه قد وطأها » .

وقال آخر : « رأيتُ كأني أسبَحُ بغير ماء ، فقال : إنك لتكثر الأماني » .

وقال آخر : « رأيتُ كأني أصيدُ ثعلبًا ، فقال : أنت طالب حيلة »(١) .

وقال آخر : « رأيتُ كأني أخذتُ حمامة لجاري ، فقال : أنت تَخلُفُ على امرأة جارك ، وأسودُ يخلفُك في دارك ، تفحَّصَ فوجده كذلك » .

وقال آخر : « رأيتُ كأني آكل خبيصًا في الصَّلاة ، فقال : الخبيصُ حلال ، ولا يجوز أكله في الصَّلاة ، فأنت تقبِّل زوجتك صائمًا » فكان كما قال .

وقال آخر : « رأيتُ في داري نخلة حَمْلُها عنب ، فقال : امرأتك حامل من غيرك » .

وقال آخر : « رأيتُ كأني أطأ مصحفًا ، فقال : في قَبْضِ دِرْهم نظره(٢) ، فلمَّا تفحَّص وجده كذلك » .

---

(١) في (ج) : طالب جيفه وهو تصحيف .

(٢) في (أ) : تطأه ، ولعل الصواب (نذره) .

ورأى أبو يوسف أنه يحمِلَ العرشَ فوق رأسه ، فلمّا أصبح تحيَّر في تعبيره ، فأتى إلى يزيد ليسأل عنه ، وجده ميتًا ، فلمّا حملوا الجنازة زاحم على حملها ؛ لأنَّ معها خلق كثير ، فلم يجد فرصةً ليُمسك جنازته ، فدخل من بين أرجلهم ، فقام والجنازة على رأسه ، فسمع صوتًا من الجنازة : « هذا تعبيرُ رؤياك يا أبا يوسف » .

ومن نوادر الأمثلة في هذا الباب ما ذُكر في تاريخ اليافعي من أن الحسن البصري رأى نفسه كأنه لابسٌ صوفًا ، وفي وسطه كتسيج ، وفي رجليه قيد ، وعليه طيلسان عسلي ، وهو قائم على مزبلة ، وفي يده طنبور يضربه ، وهو مستند إلى الكعبة ، فقصَّ رؤياه على ابن سيرين ، فقال : أما لبس الصوف فزهده ، وأمّا كتسيجه فقوله في دين الله - تعالى - ، وأما عسليته فحبه للقرآن ، وتفسيره للناس ، وأما قيده فثباته في ورعه ، وأما قيامه على المزبلة فدنيا جعلها الله تحت قدميه ، وأما ضربه في طنبوره فنشر حكمته بين الناس ، وأما استناده إلى الكعبة فالتجاؤه إلى الله - تعالى - .

وقال رجل لابن سيرين : رأيت كأني طائر أخذ حصاة بالمسجد ، فقال إن صدَقتْ رؤياك مات الحسن ، فلم يمض إلّا قليل [حتى] مات الحسن البصري ، فتبعَ جميع الناس جنازته ، بحيث لَمْ يبق أحد يصلي في المسجد ، فلم يصلوا صلاة العصر في الجامع .

وقال رجل لابن سيرين : رأيت بِسَاقِ رجلٍ شَعرًا كثيرًا ، فقال : يركبه الدين ، ويموت في السجن ، فقال له الرجل : لك رأيت هذه الرؤيا فاسترجع ، قيل : ومات في السجن وعليه أربعون ألف درهم ، قضى عنه بعض الصلحاء .

وقال الرضي : طلعتُ جبل لبنان فوجدت فقيرًا ، فقال : رأيت البارحة في المنام كأن قائلًا شعرًا يقول : [كامل]

لله درُّ ك يا ابن[1] طلحة ماجدًا ... ترَكَ الـوزارة عابـدا فتسلّطنا
لا تعجبوا من زاهدٍ في زُهْـده ... في درهم لما أصـاب المعـدنا

قال : فلمَّا أصبحتُ ذهبت إلى الشَّيْخ محمد بن طلحة ، وكان هو رئيسًا محتسبًا بارعًا في الفقه ، وَلِيَ الوزارة ، ثُمَّ زهد ، وجمع نفسه ، فكان من أكابر المشايخ ، قال : فوجدت السلطان الملِك الأشرف على بابه ، وهو يطلُب الإذنَ عليه ، فقعدتُ حَتَّى خرج السلطان فدخلت عليه ، وعرّفته بما قال الفقير ، فقال : إن صدقتْ رؤياه فأنا أموت إلى أحد عشر يومًا . فكان كذلك. قال الإمام اليافعي : وقد يتعجَّبُ من تعبيره ذلك بعد موته وتأجيله بالأيام المذكورة ، والظاهر - والله أعلم - أنه أخذه من حروف قوله : « أصاب المعدنا » ، فإنها أحد عشر حرفًا ، وذلك مناسب للموت من جهة المعنى ، فإن المعدن هو الفناء المطلق ، والمُلك المحقَّق ما يلقونه من السعادة الكبرى والنعمة العظمى بعد الموت .

واعْلَمْ أنه لا ينبغي لِمَنْ رأى في منامه شيئًا أن يقصه على جاهل ، ولا على امرأة ، ففي الحديث « الرؤيا على رِجل طائر »[2] ، وهذا مَثَلٌ في عدم استقرار الشيء ، يعني لا تستقر الرؤيا على شيء ، فإنها كالشيء المعلَّق على رِجل طائر ، بحيث لا يُدْرَى أين يقع ، فهي غير معلومة الحلول عندك ، ما لَمْ تعبَّر ، فإذا عُبِّرت وقعت على وفق ما يسوقُه التقدير ، فيُنْتَظَر وقوعُه بعد

(١) في (آ) و (ج) : لله درك يا أبا .
(٢) رواه أبو داود (٥٠٢٠)، وابن ماجه (٣٩١٤) من حديث أبي رزين، وقد سبق قريبًا .

التعبير ، ولا يقصُّ بكل ما يرى من الأحلام المكروهة التي هي من الشيطان ، فيشتغِلُ على إرادة مثله من المنامات الهائلة .

وعن أبي قتادة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « الرؤيا الصالحة من الله - تعالى - ، والحُلم من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم ما يحبه فلا يحدِّث إلَّا مَنْ يحب ، وإذا رأى ما يكرهه فليتعوذ بالله من شرها ، ومن شر الشيطان ، وليتفل ثلاثًا ، ولا يحدِّث بها أحدًا ، فإنها لا تضره »[1] يعني أن الرؤيا الصالحة بشارة من الله - تعالى - له بالخير ، والحُلم لَمَّا كان تخليطًا لا حقيقةَ له أضافه إلى الشيطان ، وإن كان كلٌّ منهما بقضاء الله - تعالى - ، ورُوِيَ أنَّه قال : [قال] أبو سلمة : إني كنت أرى الرؤيا أثقلُ عليَّ من الجبل ، فلمَّا سمعتُ هذا الحديث فما كنت أبالي ، وفي رواية قال : كنتُ أرى الرؤيا تُمرضني حَتَّى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « الرؤيا الصالحة من الله »[2] الحديث ، كذا في تقييد شيخنا شمس الدين .

وقوله ﷺ : « فليتفل ثلاثًا » يعني على يساره طردًا للشيطان ، ثُمَّ ليتعوَّذ بالله من شر ما رأى ثلاثًا ، وليتحوَّل من جنبه الذي كان عليه إلى جنبه الآخر ، لتزول عنه رؤية حلم الشيطان ، ثُمَّ ليقم وليصلِّ ركعتين ، ولا يحدِّث به الناس . هكذا ورد في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ ، وقيل : هذا مأخوذٌ من قول محمد بن سيرين ، حيث قال : الرؤيا ثلاث : أحدها حديث النفس ، كمَنْ يكون في أمرٍ وحرفة ، [فـ]يرى نفسه في ذلك كالعاشق يرى معشوقه ، ونحو ذلك . وثانيها : تخويفُ الشيطان بأن يلعبَ

(١) رواه البخاري (٣٢٩٢)، ومسلم (٢٢٦١) .
(٢) هذه الرواية في مسلم (٢٢٦١) .

بالإنسان فيريه ما يخوِّفه ، قال الله – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (المجادلة ١٠) ، ومَنْ لَعِبَ به الاحتلام الموجب للغسل(١) ، قال : هذان لا تأويل لهما . وثالثها : بشرى من الله – تعالى – بأن يأتيك ملكُ الرؤيا من نسخة أمِّ الكتاب يعني اللوح المحفوظ .

قال مولانا عبد السَّلام : وأدرج بعضُهم الكل في الحديث ، يعني أن قوله : « الرؤيا ثلاثة ... إلخ » . من الحديث النبوي ، لا من قول محمد بن سيرين . والله أعلم .

ثُمَّ بعد ذلك يتصدق بشيء ، فإن الله – تعالى – يصرِفُ عنه شرها ، وينبغي له أن يقصَّها على وجهها ، ولا يكذِّب فيها شيئًا ، قال النبي ﷺ : « إن من أعظم الفِرَى أن يُرِيَ عينَه في المنام ما لَمْ تَرَ »(٢) ، وقال عيسى عليه السلام : « من كذب في حُلْم ، كُلِّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين »(٣) كما في الإحياء وغيره ، ولعله يزيد فيه ما يكره تأويله ، فيقع على ما عبَّره العالِم للمعبَّر له ، كما قُضِي لصاحب يوسف – عليه الصَّلاة والسَّلام – ، حيث [قال] : ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (يوسف ٤١) ، ولَمْ ينفعْ قولُه كذبتْ عليَّ عيني ولَمْ أرَ شيئًا .

وتحقيقه أنه لَمَّا حُبس يوسف عليه السلام حُبس معه خبَّاز المِلك وساقِيه ، كانا عبدين للملك وقد غضب عليهما ، فقال الساقي ليوسف – عليه الصَّلاة

(١) في (ج) : ثانيهما من لعب به الاحتلام .

(٢) رواه البخاري (٣٥٠٩) من حديث واثلة بن الأسقع .

(٣) لم أقف عليه منسوبًا إلى عيسى عليه السلام ، وإنما ذكره في الإحياء من قول النبي ﷺ ٣/ ١٤١ .

والسَّلام - : رأيت في منامي كأني دخلتُ كَرْمًا فرأيت فيه حبلة[1] حسنة فيها ثلاثة من القضبان، وفي القضبان ثلاثةُ عناقيد عنب قد يَنَعَ وبلغَ فأخذتُه وعصرتُه في الكأس، ثُمَّ أتيتُ به الملِك فسقيتُه، وقال الآخر: إنِّي رأيتُ كأني أحمل على رأسي ثلاثَ سلال يأكل الطير منها، وذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف ٣٦) أي الصادقين في القول، وقيل من العالمين. فقال: في تفسيرهما يا صاحبي السجن ﴿ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ (يوسف ٤١) يعني قال: يوسف - عليه الصَّلاة والسَّلام - للساقي أنتَ تكون في السجن ثلاثة أيام ثُمَّ تخرج فتكون على عملك الأول، وتسقي سيدك، وأما الخباز فأنت تخرج بعد ثلاثة أيام فتصلب.

فلمَّا أخبرهما بتأويل رؤياهما، قالا: ما رأينا شيئًا، فقال يوسف - عليه الصَّلاة والسَّلام - : ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (يوسف ٤١)، يعني سيان إن رأيتاهما أو لَمْ تريا، قلتما لي وقلت لكما، فكذلك يكون.

وروى إبراهيم النخعي[2] عن علقمة عن عبد الله ابن مسعود ﷺ قال: «إنهما كانا يتفقان ليجرِّبا»[3]، فلمَّا أوَّل رؤياهما قالا: إنما كنا نلعب، فقال: ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (يوسف ٤١)، كذا في تفسير أبي الليث.

---

(١) الحبلة: الكرم. والقضيب من الكرم وجمعها: حَبَل (المعجم الوسيط).
(٢) هذا الخبر غير موجود في (ج).
(٣) رواه الطبري في تفسيره ١٦/١٠٨.

وفي الحديث الذي رواه أنس ﷺ عن النبي ﷺ: « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوءة »[1] . فقوله « الرؤيا الحسنة » أي الصحيحة ، وهي بأن تكون من الله لا من الشيطان ، ويحتمل أن يراد بها جنس ظاهرها ، كما قال ﷺ: « مَنْ رأى رؤيا حسنة فليبشِّر ، ولا يُخْبِر بها إلَّا مَنْ يحبه ، ومَنْ رأى مكروهة فلا يُخْبِر بها أحدًا »[2] ، قاله القاضي[3] ، وقوله : من الرجل الصالح ، قيل : المراد به مَنْ كان مزاجه معتدلًا وخياله فارغًا عن الأمور المزعجة ، واللذات الوهمية ، وقوله : جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة ، يعني من أجزاء عِلْمِ النبوة ، من حيث بيان ما فيها من إخبار عن الغيب ، والنبوة غير باقية ، لكن علمها باق ، وهذا كقوله ﷺ: « ذهبت النبوة وبقيت المبشِّرات »[4] قيل : معناه [مَنْ] يعبِّر الرؤيا ، كما أعطي ذلك يوسف - عليه الصَّلاة والسَّلام - . وأما تحديد الأجزاء بستة وأربعين فمِمَّا يتلقى بقبول لا بحقيقة ، ويُتوفَّر من استعمال كيفيته . انتهى .

وفي الحديث عنه ﷺ: « أصدقُ الرؤى ما كان بالأسحار »[5] . أي ما يُروى في أوقات السَّحَر ، وهو قُبيل الصبح . وفي الحديث أيضًا :

---

(١) رواه البخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٢٦١) من حديث أبي قتادة.

(٣) في (أ): عياض .

(٤) رواه ابن ماجه (٣٨٩٦) عن أم كرز الكعبية، وصححه ابن حبان ١٣/ ٤١١، والألباني في صحيح الجامع (٣٤٣٩).

(٥) رواه الترمذي (٢٢٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري، وصححه الحاكم ٤/ ٤٣٤ ووافقه الذهبي في التلخيص، وابن حبان ١٣/ ٤٠٧، وضعفه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٥، والألباني في الضعيفة (١٧٣٢).

« أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا »[1] ، قيل : الأظهر في إعرابه أنَّ أصدقَ الثاني مبتدأ ، وأصدق الأول خبره .

حَكى مولانا عبد السَّلام عن بعض العلماء أن هذا إنما يكون في آخر الزمان ، عند موت العلماء ، وقال النووي : « هذا على إطلاقه » ، وهو الأظهر ؛ لأنَّ الكاذبَ في حديثه يتطرقُ حاله إلى رؤياه ، فيختَرِع خيالُه صورًا غيرَ موافقة لِمَا في عالَمِ الحِس ، فيكذِّبُ الرؤيا ، وقال أهل التأويل - أي المشايخ المعروفون بتعبير الرؤيا كابن سيرين وغيره - : أصدقُ الأزمان لوقوع المتأولة في تعبير الرؤيا وتأولها وقتان : أحدهما : انفتاق الأزهار - أي الأنوار - ، وهو أول الربيع ، والثاني : ينع الثمار ، وأراد به وقت بلوغ الثمار، وهو أوائل الخريف ، وذاك الوقتان المذكوران عند تقارب الليل والنهار ؛ لأن الليل والنهار يتساويان تقريبًا في السنة مرتين ، مرة في أول فصل الربيع ومرة في أول فصل الخريف ، يعني يتقاربان طولًا وقِصَرًا في تلك الأيام ، قالوا : عند ذلك الاعتدال من الزمان تعتدلُ الأمزجةُ وتصحُّ فتكون الرؤيا سالمةً عن التخاليط ، فيصدُق وقوعه . وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « إذا اقتربَ الزمانُ لَمْ تَكَدْ تُكذَّب رؤيا المؤمن »[2] ، قيل : المراد منه وقت اعتدال الليل والنهار - كما ذكرنا - ، وقيل : المراد منه اقتراب الساعة ، وقيل : المراد منه زمان يُستقصى وتُستقرب أطرافه[3] ، حَتَّى كأنَّ[4]

(١) رواه مسلم (٢٢٦٣)، وقال القطان في «بيان الوهم والإيهام»٤/ ٦٧٤: من رِوَايَة عبد الْوَهَّاب بن عبد الْمجِيد ، وَهُوَ مختلط. قلت: لكن الذهبي قال في الميزان ٢/ ٦٨٠: ما ضر تغيره، فقد روى العقيلي [في الضعفاء ٣/ ٧٥] عن أبي داود أن الناس حُجبوا عنه بعد تغيره.

(٢) رواه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣).

(٣) في الأصل : يستقص ويستقرب .

(٤) في الأصل : حتى كأنه يكون .

السنة كالشهر ، والشهر كالأسبوع ، والأسبوع كاليوم ، واليوم كالساعة ، وذلك يكون في زمان المهدي ، وقيل : أراد بذلك إذا قرب أجلُ الرجل بسن الكهولة والمشيب والشَّيْخوخة ، فإنَّ رؤياه قلَّ ما تُكذَّب لذهاب الظنون الفاسدة ، ونَزْع الشهوات عنه .

هذا ، وقيل : رؤيا الليل أقوى من رؤيا النهار ، وأصدقُ ساعاته وقتُ السحر ، وينبغي للمعبِّر أن يردَّ رؤيا كلِّ مؤمن إلى أحسن تأويل ، وإن كانت الرؤيا هائلة أي مخوفة ، فليقُل : خيرًا تلقَّاه ، أي إن كان خيرًا تلقاه ، نظرةً وسرورًا ، وشرًا تتوقاه ، أي إنْ كان شرًا تتوقاه ، والمراد أنه يحفظك الله من شرِّه . فقولنا : تلقَّاه وتتوقَّاه في معرِض الدعاء بحسب التحقيق .

وقال عمر ﷺ : « إذا رأى أحدُكم رؤيا فقصَّها على أخيه فليقلْ خيرًا لنا وشرًا لأعدائنا »(١) ، وفي بعض النسخ : « خيرٌ وشرٌ » بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هي خير وشر . فإنَّ امرأة قالت لرسول الله ﷺ : « كأنَّ جائزة بيتي انكسرتْ » ، فقال ﷺ : « خيرًا عليكِ غائبك »(٢) فكان كذلك ، رجع زوجها من السفر ، ثُمَّ غاب زوجها ، فرأت الرؤيا ، فجاءت إلى النبي ﷺ فلم تجدْه ووجدت أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - وقصَّت مثل تلك الرؤيا عليهما ، فقالا : يموت زوجُك ، فكان كذلك . قال : فأتت النبي ﷺ ، وأخبرته بالرؤيا ، فقال لها : « هل عرضتيها على أحد ؟ » فقالت : نعم ، فقال النبي ﷺ : « هو كما قيل لك »(٣) .

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه ١١/ ٢١٣، وقال ابن حجر في الفتح ١٢/ ٤٣٢: رجاله ثقات ولكن سنده منقطع.

(٢) رواه الدارمي في سننه ٢/ ١٧٤، وحسنه ابن حجر في الفتح ١٢/ ٤٣٢، والذي في الرواية أن الذي عبر لها الرؤيا عائشة رضي الله عنها. والرواية: « خير يرجع زوجك عليك » .

(٣) ما قاله عمر غير وارد في (ج) .

وقال بعض الناس: « إن الرؤيا على ما أُوِّلتْ »[1]. وقال أهل التحقيق: « إن حكم الرؤيا لا يتغير بتغيير الجاهل بتعبيرها، كما أن مسألة من الفقه إذا أجاب عنها جاهل لا يكون لذلك الجواب حكم » كذلك[2] مسألة الرؤيا، إنما كان قد تغيَّر ذلك بتأويل رسول الله ﷺ؛ لأن الله صدَّق قوله لكرامته. انتهى.

ويجب على المؤمن أن يصدِّق برؤية النبي ﷺ في منامه[3]، فإنه حق لا يُنكِره إلَّا مبتدع، وفي الحديث قال ﷺ: « مَنْ رآني في المنام فإنه قد رآني حقًّا فإن الشيطان لا يتمثل بي، ولا بالكعبة »[4].

قال شيخُنا شمس الدين[5]: هذا إذا رآه على صفته المعروفة في حياته، فخمًا مفخَّمًا، يعني تامَّ الخلق، عظيمَ القدر، يتلألأ وجهُه نورًا كالبدر، أوسط القامة، عظيم الهامة، أزهر اللون، أي بياض مخلوط بالحُمرة، واسع الجبين، أزجّ الحاجبين: أي رقيقان، بينهما عِرق يدره الغضب، أشمّ الأنف: أي مرتفع، أكحل العينين بلا اكتحال، كثيف اللحية، أي وافرة الشعر، [سهل][6] الخدين، ضليع الفم: أي كبير، أفلج الأسنان، طويل

(١) في (أ): نسب هذا القول للنبي وإلى الناس.

(٢) زيادة عن الأصل يقتضيها تمام المعنى.

(٣) أي في منام ذلك المؤمن.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط ٣/ ٢٣٧، ٢٣٨، والصغير ١/ ١٧٦، ١٧٧، وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٩٩: فيه محمد بن أبي السري وثقه ابن معين وغيره وفيه لين، وبقية رجاله رجال الصحيح. وفي (ج): « من رآني في المنام فسيراني في اليقظة » بفتحة القاف خلاف النوم، ومن هنا تختلف النسختان (أ) و (ج)، حيث تكون النسخة (أ) هي التامة التي نعتمدها.

(٥) يريد شمس الدين اللقاني.

(٦) في الأصل: شهل الخدين، والشهل أن يشوب إنسان العين حمرة، أما سهولة الوجه بالسين فقلة لحمه، وتستحسن العرب وصف الخدين بالسهولة فتقول: سهل الخدين: أي فيهما استرسال وانبساط ولين.

العنق[1] ، والزندين ، والأصبع ، بين كتفيه خاتم النبوءة أحمر ، مثل بيض الحمامة ، مما يلي القَفَا ، من أصل كتفه الأيمن ، وكان كذلك عَلَمًا من أعلام النبوءة ، مسيح القدمين أي قليلة اللحم[2] .

قال بعضُهم : فإنْ رآه مخالفًا لما ذُكر ويكون صورةً شرعيةً فيُعتبر بها ، مثلا إذا رآه كوسجًا[3] أو قصيرَ القامة يدل على قصوره في الشريعة ، وقد يُحتج عليه بأنه حُكي أن الشَّيْخ محي الدين بن العربي - رحمه الله - رأى النبي ﷺ ميتًا واقفًا في زاوية مسجد من مساجد المغرب ، فهاب من رؤياه ، وحكى لصلحاء ذلك المكان ، فقالوا : إن السلطان الذي بنى ذلك المسجد غصب تلك الزاوية التي رأيتَ [فيها] النبيَ ﷺ ، وأخذها من غير رضى صاحبها ، فلعدم حياة شريعته فيها رأيتَه ميتًا . ذكره الإمام اليافعي في تاريخه[4] .

هذا ، [وقال][5] الإمام المازَري : الصحيح أنَّ رؤية النبي ﷺ في المنام أعمُّ ، سواء كان على صفته أو غيرها ، كمَنْ يراه أبيَض اللحية ؛ لأنَّ المرئي في ظنِّ الرائي أنه النبي ﷺ . ذكره في « شرح المشارق »[6] ، وقال النبي ﷺ :

(١) في الشفاء : أحسن الناس عنقا .

(٢) في مسند أحمد وُصفت عينا الرسول ﷺ بالعظم ، وله في السيرة النبوية أوصاف أدق ، (انظر الشفاء للقاضي عياض ج١ الفصل ٢ صفاته الخِلقية) .

(٣) الكوسج : الذي لا شعر على عارضيه ، والناقص الأسنان(المعجم الوسيط) .

(٤) أراد بالمغرب هنا عموم الغرب الإسلامي ، وقد أفادني الصديق الدكتور عبد الإله ابن عرفة بأن مكان الواقعة هو إشبيلية بالأندلس ، ومصدره الفتوحات المكية الباب ٥٥٩ ص ٣٠ ونصه : «ولقد رأيت رسول الله ﷺ في النوم ميتًا في موضع عاينته بالمسجد الجامع بإشبيلية ، فسألت عن ذلك الموضع فوجدته مغصوبًا فكان ذلك موت الشرع فيه ، حيث لم يتملك بوجه مشروع» .

(٥) في الأصل : وذكر .

(٦) من هنا يعود النصان للاتفاق .

« من رآني في المنام فسيراني في اليقظة »[1] بفتح القاف خلاف النوم، قيل: المراد به أهل عصره، [و] معناه: مَنْ رآني في المنام ولَمْ يكن مهاجِرًا رزقه الله - تعالى - الهجرة ورؤيته في اليقظة. وقد يقال معناه: فسيراني في اليقظة أي في الدنيا حالة الإسلام. قال: وهو معلوم عند أهله.

هذا، والظاهر ما قيل من أن المراد باليقظة يقظة دار الآخرة، كما قال ﷺ: « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا »[2] وبرؤيته فيها الرؤية الخاصة بالقرب منه. ثُمَّ إن قوله [يراني] أي: يراني على الصفة التي عرفني بها أو أحسن حالًا وهيئة موافقٌ[3] لما ذكره الإمام المازري، يعني: أن من رآني فقد رآني حقًّا، ولكن يراني موافقًا لما اعتقده في صفتي، وأحسنَ حالًا وهيئةً مما اعتقده. واعْلَمْ أنَّ ما ذكره من أنَّ « الشيطان لا يتمثل بي » غيرُ مختصٍّ بنبينا ﷺ، بل جميع الأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام - معصومون من أن يظهرَ شيطانٌ بصورتهم في النوم واليقظة، لئلا يشتبِه الحق بالباطل، وكلُّ ما هو مَظْهَرُ اللطفِ والهداية كالملائكة، والكعبة، والشمس، والقمر، والسحاب الأبيض، والمصحف، وأمثال ذلك، فإن الشيطان لا يتمثل به كما في الأحاديث الصحاح.

واعْلَم أنَّ الوجه الصالح لدفع المنامات الهائلة - أي المخوفة - ما قاله محمد ابن سيرين - وهو من كبار التابعين، وأحد الأئمة المعبِّرين -، فإنه قال: « اتقِّ اللهَ في اليقظة ولا تبالِ بما رأيتَ في المنام »، وفي الفصل الثالث

(١) رواه البخاري (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة.
(٢) ذكره الغزالي في الإحياء ٤/ ٢٣، وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار: لم أجده مرفوعا، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب.
(٣) في الأصل: موافقًا.

والعشرين من كبير سيدي عبد الرحمٰن المكي عن كرامات الشَّيْخ ما نصه : « قوله ﷺ من رآني في منامه ... إلخ » ، يعني أنَّ من رأى النبي ﷺ فإن رؤياه حقٌ ، فإنَّ الجان والشيطان لا يتمثل به ، وقد أخبر الصادقُ المصدوق بأنَّ الشيطانَ لا يتمثلُ به ، وقد وردتْ بذلك عدةُ أحاديث :

الأول : قوله ﷺ : « مَن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي »[1] رواه البخاري وغيره ، عن أنس . وقوله مَنْ رآني في المنام ، أي على صفتِه التي كان عليها في الدنيا ، وقوله فقد رآني : أي فليُبشر ، فإنه رآني حقيقة ، أي رأى حقيقتي على كمالها ، فلم يتحدَّ الشرط والجزاء ، وهو في معنى الإخبار ، أي من رآني فأخبروه بأن رؤياه حقٌ ليست من الأضغاث ، ولا من التخيلات الشيطانية ، وقوله فإنَّ الشيطان لا يتمثل بي أي لئلا يتذرع بالكذب على لسانه في النوم ، وكما استحال تصورُه بصورته في اليقظة ، إذ لو وقع لاشتبه الحق بالباطل ، ومنه أُخذ أنَّ جميع الأنبياء مثله في ذلك ، وظاهر الحديث أن رؤياه حقٌ سواء كانت [على] صفتِه المعروفة أو غيرها ، وبه صرَّح النووي رادًا على من خصَّهُ بالأول كالحكيم[2] وغيره ، لكن الأُولى لا تحتاج إلى تأويل والثانية تحتاج إليه ، فمن رآه مُقبلًا عليه فهو خير وبُشرى ، وحُكمُ عَكسِه عكس حكمه .

فإن قيل : كيف يرى على خلاف صورته المعروفة أن يراه شخصان في حالة واحدة في مكانين ؟ ولا بد أن الواحد لا يكون إلَّا في مكان واحد ، قلنا : التعبير في صفاته لا ذاته ، فتكون ذاتُه مرئية وصفته متخيلة غير مرئية ،

(١) صحيح البخاري (٦٩٩٤)، وهو الحديث السالف قريبًا : الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح .
(٢) الحكيم : يقصد به الحكيم الترمذي ، صاحب نوادر الأصول ، وإثبات العلل ، وكتاب ختم الأولياء . (انظر ترجمته ومصادرها في الأعلام للزركلي) .

والإدراك لا يُشترط فيه تحقُّق الإبصار ولا قُرب المسافة، ولا أن يكون المرئي مدفونًا في الأرض، ولا ظاهرًا عليها، وإنما الشَّرطُ أن يكون موجودًا فحسب، لكن ما رجَّحه النووي قد خالف فيه الحكيم الترمذي، والعارف ابن العربي، وطائفة، فقالوا: هنا ميزانٌ يجب التنبه له، وهو أن الرؤيا الصحيحة هي أن يُرى على صورته الثابتة بالنقل الصحيح، فإن رآه على غيرها كطويل أو قصير أو شيخ أو شاب أو شديد السمرة لَمْ يكن رآه، وحُصول الجزم في نفس [الرائي](١) بأنه رأى النبي ﷺ، غيرَ صورة حجة الشرع بالنسبة لاعتقاد الرائي وحاله أو صفته أو حكم من أحكام الإسلام، أو بالنسبة إلى المحل الذي رأى فيه تلك الصور، قالوا: وقد جرَّبنا ذلك فوجدناه لَمْ ينخرم.

وأيَّد ذلك ابن سيرين، كان إذا قصَّ عليه إنسان أنه رآه، قال له: صِفْهُ لي، فإنَّ وصفَه له بغير صِفته، قال: «لَمْ تره» لكن يعارضه ما أخرجه ابن أبي عاصم عن أبي هريرة مرفوعًا: «من رآني في المنام فقد رآني، أُرى في كلِّ صورة»(٢) وهو وإن كان فيه صالح مولى التوأمة، لكنه ليس بشديد الضعف، و[جزم](٣) ابن العربي القاضي بأن رؤياه بصفته إدراك للحقيقة، وبغير صفته إدراك للمثال، ويكون إدراك المثال إدراك الذات حقيقة في الحالين، لكنَّ الأول لا يحتاج إلى تأويل والثاني يحتاجه.

(١) في الأصل: الرؤيا.

(٢) قال ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٨٤: رواه ابن أبي عاصم.. وفي سنده صالح مولى التوأمة، وهو ضعيف لاختلاطه، وهو من رواية من سمع منه بعد الاختلاط. والرواية: فإني أرى في كل صورة.

(٣) في الأصل: وجمع.

قال العارف ابن العربي : « واعلم أنَّ المصطفى وإنْ ظهرَ بجميع صفات الحق - تعالى - وأسمائه تخلقًا أو تحققًا ، لكنَّ مقتضى رسالته وإرشاده للخلق أن يكون الأظهر فيه حكمًا ، وسلطتُه من صفات الحق - تقدس - الهدايةُ ، والاسم الهادي . والشيطان مَظْهر الاسم المضل ، والظاهر بصفة الضلالة ، وهما ضدان ، فلا يظهر أحدهما بصورة الآخر ، فالمصطفى خُلِقَ للهداية ، فلو ساغ ظهور إبليس بصورته زال الاعتماد عليه، ولذلك عُصم من أن يظهر بها الشيطان . فإن قيل : عظمة الحق أتمُّ من عظمة كلِّ عظيم ، مع أن اللعين تراءى لكثير من النساك وخاطبهم بأنه الحق ليُضِلهم ، قلنا : كل عاقل يعلم ويجزم بأن الباري جلَّتْ قدرتُه لا صورة له معينة توجب الاشتباه ، بخلاف النبي ، وأيضًا بمقتضى حكمة الحق - سبحانه - أن يُضلَّ ويهدي من يشاء من خلقه ، بخلاف النبي فإنه مؤيَّدٌ مبعوث بالهداية ظاهرٌ بصورتها ، فيجبُ عِصْمة صورته من مظهر الشيطان » . فتدبَّر .

الحديث الثاني : « مَنْ رآني فقد رأى الحق ، فإن الشيطان لا يتزيَّا بي »[1]، رواه البخاري عن أبي قتادة ، وقوله : فقد رأى الحق ، أي في المنام ، وهو[2] يريد المَلَك الموكَّل بضرب أمثال الرؤية بطريق الحكمة ، بشارة أو نِذارة أو معاتبة ، ليكونَ على بصيرةٍ من أمرِه ، وبيِّنةٍ من ربه . وأبعدَ بعضُهم ، فقال : يُمكن أن يكون المراد بالحق هو الله - تقدَّس - ، مبالغةً وتنبيهًا على أن من رآه على وجه المحبة والاتباع والاقتداء كأنه رأى الله ، كقوله : « مَنْ أحبني

(١) صحيح البخاري (٦٩٩٦) دون قوله (فإن الشيطان لا يتزيا بي)، وهي في البخاري (٦٩٩٥) بلفظ: يتراءى، قال ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٨٦: وفي رواية غير أبي ذر: يتزيا .

(٢) في الأصل : وهو الذي .

أحبَّ الله، ومَنْ أطاعني فقد أطاع الله »[1] اهـ. وهذا يأباه قولُه: « فإن الشيطان لا يتزيًّا بي » كما لا يخفى على ذي الذوق السليم، وهو بالزاي لا بالراء كما وُهِم، أي لا يظهر في زيِّي، لِما تقرَّر من أنه لو جاز ذلك لَمْ يُوثق بما جاء من جهة النبوءة، واختلط الحق بالباطل، وحينئذ فلا يستطيع أن يتمثَّل به مطلقًا، والله - تعالى - وإنْ مكَّنه التصورَ في أيِّ صورة شاء، لكنه لَمْ يمكنه في التصور في صورة الشارع، لِما ذُكر.

قال العالِمِ الولي ابن أبي جَمْرة: « الشيطان لا يَتمثَّل بصورته أصلًا، فمَنْ رآه في صورة حسنة، فذلك حُسْنٌ في دين الرائي، وإن كان في جائحة من جوائح شَيْن أو نقص، فذلك خلل في دين الرائي ». قال: هذا هو الحق، وقد جُرِّب كذلك فلم ينخرم، وقد تحصُل الفائدة الكبرى في رؤياه حَتَّى يظهرَ للرائي: هل عنده خلل أم لا؛ لأنَّ المصطفى نوراني كالمرآة المجلوَّة الصَّقيلة، فما كان في الناظر فيها من حُسْنٍ أو غيره تَصَوَّر فيها، وهي في ذاتها حسنةٌ، لا نقصَ فيها ولا شَيْن، وكذا يقال في كلامه في النوم، فما وافق سُنَّةً فهو حقٌّ، وما خالفها فهو خَلَلٌ في سَمْع الرائي، ويُؤخذ من قوله: « فإن الشيطان ... إلخ » أن من تمثَّلت صورة المصطفى في خاطره من أرباب القلوب، تصوَّر له في عالم سرِّه أن يكلِّمه حقًّا. انتهى كلامه.

الحديث الثالث: « مَنْ رآني في المنام فسيراني في اليقظة » أي في الآخرة بصفة القُرْبة والشفاعة، قال بعضُهم: « فإن الشيطان لا يتمثل بي » رواه أبو داود وغيرُه، عن أبي هريرة، ورواه أيضًا الطبراني، وزاد: «وبالكعبة».

---

(1) ذكره مقاتل في تفسيره ١/ ٢٤٤، وعنه نقلت كتب التفسير، قال الزيلعي في تخريج الآثار الواقعة في تفسير الكشاف ١/ ٣٣٦: غريب جدًّا.

وقوله : « فسيراني في اليقظة » أي في الآخرة بصفة القُرب والشفاعة ، قاله بعضُهم، وقال آخرون – منهم ابن أبي جَمْرة – : « بل وفي الدنيا ». انتهى ما رُمناه من فروع الرؤية التي هي آداب النوم . قال بعض العلماء : « فمَنْ لَمْ يتأدَّب في نومه بآداب أهل السنة لا تصدُق [رؤيته][1] ، وربما تبقى أحلامُه كلها من الشيطان والجان » وبالله التوفيق .

[عود إلى كرامات الشَّيْخ الأسمر]

ومن كراماته أي كرامات هذا الشَّيْخ الذي هو مولانا عبد السَّلام مجالستُه مع أصحاب الكهف ، ومكالمته لهم مشافهة ، كما سمعت من متعدِّدين من أصحابه الأفاضل ، وذلك بالمسجد الشهير بأم غريانة فوق لقَّاطة من حيِّز ساحل الأحامد من عمل طرابلس الغرب ، وهو جبل فيه قبَّة تزورُه الناسُ ويتبرَّكون به في حياة الشَّيْخ وبعده ، وشاع الخبرُ على ألسنة أهل البلد وغيرهم أنَّ ذلك موضعُ أصحاب الكهف ، حَتَّى قالوا : إن المدينة التي دخلها تمليخا بالورِق هي مدينة لبدة ، وذلك الموضع كان الشَّيْخ يزورُه مدةَ حياته ، ويقول : إن أصحابَ الكهف فيه ، وشاع أيضًا على ألسنة أهلِ العدل وغيرهم أنَّ الشَّيْخ جاء ذات يوم لذلك الموضع ، وترك فرسَه عند سيدي خليفة الشوشان ، وانحدر للمغارة التي يَذكُر فيها أصحابَ الكهف هناك ، فلمَّا أبطأ عنه لحِقَه وأشرف على المغارة المذكورة ، فرأى كلبًا عظيمًا وهدَّ عليه هدَّةً كاد أن يموت منها ، ثُمَّ جاءه الشَّيْخ ولامه على اتباعه له . فسأله سيدي خليفة عنه ، فقال له : إن هؤلاء أصحاب الكهف في قبَّة الجبل المعروف بأم غُريانة ، ولو لَمْ ترونهم ... إلخ .

---

(١) في الأصل : الرؤية .

وذكر سيدي عبد الرحمٰن المكي في كبيره في كرامات الشَّيْخ في هذا المحل الذي نحن بصدده، أنه وجد رخامة [ملقاةً](١) في أسفل ذلك الجبل المذكور، مكتوبًا فيها أسماء أصحاب الكهف بالقلم السرياني، وذكر أيضًا أنه نزعها من موضعها، وأتى بها إلى والي طرابلس والعلماء، وقرأها عليهم مَنْ له مخبرة بالقلم السرياني، إلى أن قال: ورأيت حَجرة أخرى ملتصقة بالجبل المذكور، فيها أسماء أصحاب الكهف. وسيدي عبد الرحمٰن المكي هذا لاشكَّ في عدالته اهـ.

وانظر هل ذكر أحدٌ من العلماء - غير من ذُكر - أنهم هنا ؟ فإنني لَمْ أطَّلع عليه، وعلى تقدير عدم وجودِ قولٍ بذلك، فيمكن أنَّ الشَّيْخَ لَمَّا صعَد ذلك الجبل انطوَتْ له الأرض من حيث لا يشعر سيدي خليفة وغيره، وزارهم في الموضع الذي هم فيه، وأخبر سيدي خليفة وغيره بالظاهر. وأما اجتماعُه بهم ومكالمته لهم فهو أمر متكرر لا يُنفى. قال في كتابه المسمى بكتاب « العظمة في التحدث بالنعمة »: ومما منَّ الله عليَّ اجتماعي بأصحاب الكهف ومكالمتي لهم مشافهة إلى غير ذلك.

[قصة أصحاب الكهف]

ولا بأس بذكر شيء من قصة أصحاب الكهف تبركًا بهم في هذا الباب، حيث أتى محل الكلام عليهم، فلنأتِ بقصتهم، وبعضِ ما روى فيها. اعلم أن سورةَ الكهف التي هي عين القصة مكيةٌ، قال ابن عطية: هذه السورة مكية في قول جميع المفسرين، ورَوَوْا أنَّ أول السورة نزلت بالمدينة

(١) في الأصل: ملقية.

إلى قوله « جرزًا » ، والأول أصح ، وهي من أفضل سور القرآن ، وروى رسول الله ﷺ قال : « ألا أُخبركم بسورة عظمها ما بين السموات والأرض ، ولمَنْ جاء بها من الأجر مثل ذلك ؟ قالوا : أي سورة هي يا رسول الله ؟ قال : سورة الكهف ، مَنْ قرأها يوم الجمعة غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى ، وزيادة ثلاثة أيام »[1] .

وفي رواية أنس : « مَنْ قرأها يومًا أُعطي نورًا بين السماء والأرض ، ووُقي بها فتنة القبر »[2] ، وفي تفسير القرطبي في سند الدارمي عن أبي سعيد الخدري قال : « مَنْ قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة ، أضاء له من النور في ما بينه وبين البيت العتيق »[3] ، وفي البخاري : « وربطنا على قلوبهم : ألهمناهم صبرًا »[4] ، وفي السير قال ابن إسحاق : « وبَعَثَتْ قريش النضر بن الحارث ، وبعثوا معه عقبة ابن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، وقالوا لهما : اسألاهم على محمد وَصِفَا لهم صفته ، وأخبراهم بطوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حَتَّى قدما

(١) رواه ابن الضريس في فضائل القرآن ص٩٦ من حديث إسماعيل بن رافع مرسلا، وذكره الغزالي في الإحياء ١/ ١٨٧ عن ابن عباس وأبي هريرة، وقال العراقي في المغني ١/ ١٤٠: لم أجده من حديثهما، وقال المناوي في فيض القدير: رواه الديلمي وغيره عن عائشة، وقال ابن حجر في أماليه: بعضها معضل وبعضها مرسل، وقال الشوكاني في الفوائد ١/ ٣١١: موضوع، وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٤٨٢).

(٢) لم أقف عليه مسندًا، وذكره ابن عطية في تفسيره ٣/ ٥١٣، والقرطبي في تفسيره ١٠/ ٣٤٦، والثعالبي في تفسيره ٢/ ٣٦٦.

(٣) رواه موقوفًا الدارمي ٢/ ٥٤٦، والبيهقي في الشعب ٢/ ٤٧٤ وقال: هذا هو المحفوظ موقوف، ورواه مرفوعًا البيهقي في السنن ٣/ ٢٤٩، وفي الشعب ٣/ ١١٢، وصححه الألباني في الإرواء (٦٢٦).

(٤) «صحيح البخاري» كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم، قبل حديث(٣٤٦٥). وهذا ليس حديثًا، لكنه تفسير.

المدينة ، وسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتُخبِرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت لهم أحبار اليهود : اسألوه عن ثلاثة نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لَمْ يفعل فالرجل متقوِّل ، فانظروا فيه رأيكم ، اسألوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه ؟ واسألوه عن الروح ما هو . فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لَمْ يفعلْ فهو رجل متقوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . فأقبل النظر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط بن أبي عمرو بن أهبة بن عبد شمس حَتَّى قدما مكة على قريش ، فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فإنه نبي ، وإن لَمْ يفعل فالرجل متقوِّل فانظروا فيه رأيكم ، فجاءُوا إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فِتية ذهبوا في الزمن الأوَّل وقد كانت لهم قصة عجيبة ، وعن رجل كان طوَّافًا ، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هو ؟ قال لهم رسول الله ﷺ : أُخبركم بما سألتم عنه غدًا . ولم يستثنِ فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله ﷺ في ما يذكرون ، خمس عشرة ليلة لا يُحْدثُ اللهُ في ذلك إليه وحيًا ، ولا يأتيه جبريل ، حَتَّى رجَّ أهلُ مكة ، وقالوا : وَعَدَنا محمد غدًا واليوم[1] خمس عشرة ليلة ، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء عمَّا سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله مكثُ الوحي عنه ، وشقَّ عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثُمَّ جاءه جبريل ﷺ بسورة أصحاب الكهف ، فيها

(١) يريد (ومرَّت في ذلك اليوم) .

معاتبتُه إياه على حُزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه ، من أمر الفِتية ، والرجل الطواف ، والروح »(1) .

قال ابن إسحاق : فذُكر لي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل عليه السلام « لقد احتبسْتَ عليَّ يا جبريل حَتَّى سؤت ظنًّا »(2) ، فقال له جبريل : وما نتنزل إلَّا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيًا ، فافتتح السورة – تبارك وتعالى – بحمده وذكر نبوة رسوله ، لِما أنكروا عليه ، من ذلك ، فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني [يا] محمد إنك رسول مني ، فحقيقٌ لما سألوك عنه من نبوءتك ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا ﴾ أي معتدلًا لا اختلاف [فيه] ، ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ يعني قريشًا في قولهم : « إنا نعبد الملائكة وهي بنات الله » ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ ﴾ أي قولهم إن الملائكة بنات الله ، ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ أي لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجو منهم ، أي لا تفعل ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي إن هم اتبعوا أمري وعملوا بطاعتي ، ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أي الأرض أن ما عليها فانٍ وزائلٌ ، وأن المرجع إليّ فأجزي كلا بعمله فلا تأسَ ولا يحزنك ما ترى وتسمع .

ثم استقبل قصة الخبر في ما سألوه عنه من شأن الفِتية فقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أي قد كان من

(1) سيرة ابن إسحاق ٤/ ١٨٣، ١٨٤ .

(2) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» ١/ ٢١٧ من حديث ابن عباس.

آياتي في ما وضعت على العباد من حجة ما هو أعجب من ذلك ، إلى قوله : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ ﴾ أهل السلطان ومنهم الملك ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [وقال][1] بعض أحبار اليهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم ﴿ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ كما سيأتي ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي لا تقولن لشيء سألوك عنه ، لما قلنا في هذا إني مخبركم غدًا واستثن مشيئة الله ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ فإنك لا تدري ما أنا صانع في ذلك ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ أي سيقولون ذلك ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾[2] أي لَمْ يخفَ عليه شيء مما سألوك عنه .

وقال - في ما سألوه عنه من أمر الرجل الطوّاف - : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (الكهف ٨٤-٨٥) حتّى انتهى إلى آخر قصة خبره، وكان من خبر ذي القرنين أنه أُوتي ما لَمْ يؤتَ غيرُه ، فمُدَّتْ له الأسباب حتّى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يطأ أرضًا إلَّا سُلِّطَ على أهلها حتّى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق . وقال في ما سألوه عنه من أمر الروح : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٨٥) إلى غير ذلك .

(١) [وقال] : زيادة يقتضيها المعنى .

(٢) الكهف : ٢٦ (ورش) .

وفي بعض السِّيَر أنَّه لَمَّا وُلِّي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أتاه قومٌ من أحبار اليهود ، فقالوا له : يا عمر ، أنت وَلِي الأمر بعد محمد وصاحبه ، وإنَّا نريد أن نسألك عن خصال إن أخبرتَنا بها علِمنا أنَّ الإسلامَ حقٌّ ، وأنَّ محمدًا كان نبيًا ، وإن لَمْ تخبرْنا علِمنا أنَّ الإسلام باطلٌ ، وأنَّ محمدًا لَمْ يكن نبيًا ، فقال عمر : اسألوا عما بدا لكم ، قالوا : أخبِرْنا عن أقفال السموات ما هي ؟ ... وأخبِرْنا عن قبر مشى بصاحبه ما هو ؟ وأخبِرْنا عن مَنْ أنذر قومه ، لا من الجن ولا من الإنس ؟ وأخبِرْنا عن خمسة أشياء مشَتْ على الأرض لَمْ تُخلق في الأرحام ؟ وأخبِرْنا عمَّا يقول الديك في صراخه ؟ وما يقول الفرس في صهيله ؟ وما يقول الضفدع في نقنقته ؟ وما يقول الحمار في نهيقه ؟ وما يقول القنبرُ في صفيره ؟ قال : فنكس عمر ﷺ رأسه في الأرض ، ثُمَّ قال : لا عيب بعمر إذا سُئل عمَّا لا يعلم ، أن يقول : لا أعلم ، فوثب اليهود وقالوا : نشهد أن محمدًا لَمْ يكن نبيًا ، ودين الإسلام باطل .

فوثب سلمان الفارسي ، وقال لليهود : قفوا قليلًا ، ثُمَّ توجَّه نحو عليٍّ - رضوان الله عليه - حَتَّى دخل عليه ، فقال: يا أبا الحسن ، أغث الإسلام، قال : وما ذاك ؟ فأخبره الخبر ، فأقبل يرفل في بردة النبي ﷺ ، فلمَّا نظر عمر إليه وثب إليه فاعتنقه ، وقال : يا أبا الحسن ! أنت لكل معضِلةٍ وشدةٍ تُدْعَى .

فقال عليٌّ لليهود : اسألوا عمَّا بدا لكم ، فإن النبي ﷺ علمني ألف باب ، فسألوه عنها ، فقال عليٌّ : إنَّ لي عليكم شريطةً ، إذا أخبرتُكم بها في توراتكم دخلتم في ديننا ، وآمنتم بنبيِّنا ، فقالوا : لك ذلك . فقال : اسألوا عن خِصلة خِصلة .

فقالوا : أخبِرْنا عن أقفال السموات ما هي ؟ فقال : أقفال السموات : الشرك بالله ، فإن العبد والأَمَةَ إذا كانا مشركين لَمْ يرتفع لهما عمل .

قالوا : فأخبِرْنا عن مفاتيح هذه الأقفال ، قال : مفاتيحُها شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، قال : فجعل بعضُهم ينظر إلى بعض ، ويقولون : صدق الفتى [1] .

قالوا : أخبِرْنا عن قبر مشى بصاحبه ؟ قال : ذلك الحوت الذي التقم يونس عليه السلام فسار به في الأبحر السبعة .

قالوا : فأخبِرْنا عن مَنْ أنذرَ قومَه ، لا من الجن ولا من الإنس ، قال : تلك نملة سليمان بن داود – عليهما السَّلام – : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل ١٨) .

قالوا : فأخبِرْنا عن خمسة أشياء مشَتْ على الأرض لَمْ تُخلق في الأرحام، قال: ذلك آدم وحواء ، وناقة صالح، وكبش إبراهيم، وعصا موسى عليه السلام .

قالوا : فأخبِرْنا ماذا يقول الديك في صراخه ؟ قال : يقول : اذكروا الله يا غافلين .

قالوا : فأخبِرْنا ماذا يقول الفرس في صهيله ؟ قال : يقول – إذا مشى المؤمنون إلى الكافرين – : اللهم انصر عبادك المؤمنين على الكافرين .

قالوا : فأخبِرْنا ماذا يقول الحمار في نهيقه ؟ قال : يلعنُ العشار ، وينهق في عين الشيطان .

(١) للقارئ أن يتساءل ماداموا قد صدَّقوه في الشهادة كاملة ، فلماذا الاستمرار في الاختبار ؟ وما علاقة هذه الإسرائيليات بصحة الإسلام من بطلانه ؟

قالوا : فأخبِرْنا ماذا يقول الضفدع في نقنقته ؟ قال : يقول : سبحان الله ربي المعبود المسبَّح في لجج البحار .

قالوا : فأخبِرْنا ماذا يقول القُنبر في صفيره ؟ قال : يقول :اللهم الْعن مبغض محمد وآل محمد ﷺ (١) .

وكان اليهودُ ثلاثةَ نفر ، فقال اثنان منهم : نشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله ، ووثب الحبر الثالث ، فقال : يا علي ! لقد وقع في قلوب أصحابي ما وقع من الإيمان والتصديق ، وبقيتْ خصلةٌ واحدة نسألك عنها، قال : سل عمَّا بدا لك ، قال : أخبِرْني عن قوم في آخر الزمان ماتوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، ثُمَّ أحياهم الله ، ما كان من قصتهم ؟ قال عليٌّ بن أبي طالب ﷺ : هؤلاء أصحاب الكهف ، وقد أنزل الله على نبينا قرآنًا في صفتهم ، فإن شئتَ قرأتُ عليك قصتهم ، فقال اليهودي : ما أكثرَ ما قد سمعنا قرآنكم ، إن كنت عالمًا بهم ، فأخبِرْني عن أسمائهم ، واسم مدينتهم ، واسم ملكهم ، واسم جبلهم ، واسم كلبهم ، وقصتهم من أولها إلى آخرها، فقال علي : حدَّثني رسول الله ﷺ أنه كان بأرض رومية مدينةٌ يُقال لها : أفسوس ، ويُقال : هي طرسوس ، كان اسمها في الجاهلية أفسوس ، فلمَّا جاء الإسلام سمَّوْها طرسوس .

(١) حبُّ سيدنا محمد وآله الطاهرين من لوازم الإيمان الصادق ، ولكن هذه القصص المصنوعة في لعن المبغضين لآل البيت – رضوان الله عليهم – تتكرر في كتب الشيعة ، وعنها يأخذ بعض المتصوفة الذين لا يتحرون صحة الأخبار ، ولا شك في أنَّ المقام الشريف لسيدنا علي – كرم الله وجهه – لا تزيده مثل هذه القصص الموضوعة شرفًا ، ولا ينقصه حذفها من التراث شيئا ، فهو أول الأطفال إسلامًا ، وأول من لَمْ يسجد لصنم من المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، وهو زوج ابنته الزهراء ، وأبو الحسنين ، وباب مدينة العلم، وخليفة رسول الله ﷺ ، المجاهد بلسانه ويده، وأحد الخبراء بالقرآن ومواطن نزوله ، وأسبابه ، فماذا يزيده علمه بما يقول الديك والحمار.

قال: وكان لهم ملكٌ صالح، فمات ملكُهم وانتشر أمرُهم، فسمع بهم ملكٌ من ملوك فارس يُقال له: دقيانوس، وكان جبارًا كافرًا، فأقبل في عساكره حَتَّى دخل أفسوس، فاتخذها دارَ مملكتِهِ، وبنى فيها قصرًا، فوثب يهودي وقال: إن كنت عالمًا فصِفْ لي ذلك القصرَ ومجالسَه، فقال: يا أخا اليهود، فبنى فيها قصرًا طولُه فرسخ في فرسخ، من الرخام المركَّب، فيه أربعةُ آلاف أسطوانية من الذهب، واتخذ فيه ألفَ قنديل من الذهب، لها سلاسلُ من اللُّجَين، ونصب فيه سريرًا طولُه ثمانون ذارعًا، وعرضُه أربعون ذراعًا مرصَّعًا بالجواهر، واتخذ أيضًا عن يسار السرير ثمانين كرسيًا من الذهب، وأجلس عليها هراقلتَه، ونصَبَ على يمين السرير ثمانين كرسيًا من الذهب، وأجلس عليها بطارقته وقُضاته.

ثم [جلس] على السرير، ووَضَع التاج على رأسه، فوثب اليهودي وقال: يا علي فأخبِرْني مما كان تاجه؟ قال: يا يهودي! كان تاجُه من الذهب السبيك، له تسعة أركان على كلِّ ركنٍ لؤلؤةٌ تُضيءُ كما يضيء المصباح في الليلة الظلماء، واتخذ خمسين غلاما من أبناء البطارقة، فمَنْطقهم بمناطق الديباج الأحمر، ولهم سراويلُ من القير الأحمر، وتَوَّجهم، ودَمْلجهم وخَلْخلهم، وأعطاهم أعمدة الذهب، وأقامهم على رأسه، واصطنع ستة غلمان من أولاد البطارقة، واتخَذَهم وُزراء، ما يقطع أمرًا دونهم، وأقام ثلاثة منهم عن يمينه وثلاثة عن يساره.

فوثب اليهودي، وقال: يا علي! فأخبِرْني عن أسماء الذين عن يمينه، والثلاثة الذين عن يساره، فقال علي: حدَّثني حبيبي رسول الله ﷺ أن الثلاثة الذين كانوا عن يمينه، أسماؤهم: تمليخا ومكسلمينا ومخلميتا، وأما

الذين كانوا عن يساره : مرطليوس وكسنطوس وسادنوس ، كان يستشيرهم في جميع أموره ، وكان إذا جلس في صحن أتوه ، واجتمعت الناس إليه .

دخل من باب الدار ثلاثةُ غلمان ، في يد أحدهم جامٌ من الذهب مملوءٌ من المسك ، وفي يد الآخر جام من الفضة مملوء من ماء الورد ، وعلى يد الثالث طائر يصيح به ، فيطير الطائر حَتَّى يقع في جام ماء الورد ، فيتمرَّغُ فيه ، فيَحْمِلُ ما في الجام بريشه وجناحيه ، ثُمَّ يصيحُ به الثالثُ فيطير حَتَّى يقع في جام المسك ، فيتمرَّغُ فيه ، فيَحْمِلُ ما في الجام بريشه وجناحيه ، فيطير فيقع على تاج المِلِك ، فينفُضُ ريشَه وجناحيه على رأس المِلِك ، بما فيه من المسك وماء الورد .

فمكث المِلِك في ملكه كذلك ثلاثين سنة من غير أن يصيبه صداعٌ ولا وجعٌ ولا حمى ، ولا لُعاب ، ولا بُزاق ولا مُخاط ، فلمَّا رأى ذلك أُعجب بنفسه وماله ، غَنِيَ وطغَى ، وتجبَّر واستعصى ، وادَّعى الربوبية من دون الله - تعالى - ، ودعا إليه وجوهَ قومه ، فكانَ مَنْ أجابه أعطاه وحباه وكساه ، وخلع عليه ، ومَنْ لَمْ يُتابعه قتلَه ، فاستجابوا له بأجمعهم ، وأقاموا في مُلكه زمانًا ، يُعبد من دون الله ، فبينما هو ذات يوم جالسٌ على سريره والتاج على رأسه ، إذ أتاه بعض بطارقته ، فأخبره أن عساكر الفرس غشيتْهُ يريدون قتاله ، فاغتمَّ لذلك غمًّا شديدًا ، حَتَّى سقط التاج من على رأسه ، وسقط هو عن سريره ، فنظر إلى ذلك أحدُ فتيته الثلاثة الذين عن يمينه ، وكان [أحدهم] غلامًا عاقلًا يُقال له تمليخا ، فتفكَّر وتدبَّر في نفسه ، وقال : لو كان دقيانوس هذا إلهًا لما حَزِن ، وما كان ينام ، ولما كان يبول ويتغوَّط ، وليست هذه الصفات من صفات الإله .

وكان الفِتية الستة يكونون كلَّ يوم عند أحدهم ، وكان ذلك اليوم نَوْبة تمليخا ، فاجتمعوا عنده فأكلوا وشربوا ولَمْ يأكلْ تمليخا ولم يشرَبْ ، فقالوا له : يا تمليخا لِمَ لا تأكل ولا تشرب ؟ فقال لهم : يا إخوتي ! قد وقع في قلبي شيءٌ منعني من الطعام والشراب والمنام ، فقالوا : وما هو يا تمليخا ؟ فقال : أطلت فكرتي في هذه السماء ، فقلت : مَنْ رفعها سقفًا محفوظًا ، بلا علاقة من فوقها ، ولا دعامة من تحتها ، ومَنْ أجرى فيها شمسا وقمرًا ، ومَنْ زيَّنها بالنجوم ؟

ثُمَّ أطلتُ فكرتي في هذه الأرض ، فقلتُ : مَنْ سطَّحها على ظهر اليم الزاخر ، ومَنْ جسَّمها ، وربطها بالجبال الرواسي لئلا تميد ، ثُمَّ أطلتُ فكري في نفسي ، فقلت : مَنْ أخرجني جنينًا من بطن أمي ؟ ومَنْ غذَّاني ورباني ؟ وعلمت أنَّ لها صانعًا ومدبِّرًا سوى دقيانوس الملِك ، فانكبَّ الفِتيةُ على رجليه يقبِّلونها ، وقالوا : يا تمليخا ، لقد وقع في قلوبنا ما وقع في قلبك ، فأشر علينا ، فقال : يا إخوتي ما أجدُ لي ولكم حيلة إلَّا الهروب من هذا الجبار إلى مَلِك السموات والأرض ، فقالوا : الرأي ما رأيت ، فوثبَ تمليخا ، فباع تمرًا من حائط له بثلاثة دراهم فصرَّها ، وركبوا خيولَهم ، وخرجوا ، فلمَّا ساروا ثلاثة أميال من المدينة ، قال لهم : يا إخوتاه ، ذهب مُلْك الدنيا وزال عنَّا أمره ، فانزلوا عن خيولكم ، وامشوا على أرجلكم ، لعل الله يجعل لكم من أمركم فَرَجًا ومخرجًا .

فنزلوا عن خيولهم ومشوْا على أرجلهم سبعة فراسِخ ، حَتَّى صارت أرجلُهم تقطُر دمًا ؛ لأنَّهم لَمْ يعتادوا المشي على أرجلهم ، فاستقبلهم رجلٌ راعٍ ، فقالوا : أيها الراعي ! عندك شَربة من ماء أو لبن ؟ فقال : عندي ما تحبُّون ، ولكن أرى وجوهَكم وجوهَ الملوك ، وما أظنُّكم إلَّا هربتم ،

فأخبروني بقصتكم ، فقالوا : يا هذا إنا دخلنا في دين لا يحل لنا الكذبُ فيه، فينجِّينا الصدق ، قال : نعم ، فأخبَروه بقصتهم ، فانكب الرَّاعي على أرجلهم يقبِّلها ، وقال : قد وقع في قلبي ما وقع في قلوبكم ، قِفُوا هاهنا حَتَّى أردَّ الأغنام إلى أربابها وأعود إليكم ، فوقفوا له ، فردَّها وأقبل يسعى، فتبِعَه كلبٌ له .

فوثَب اليهودي ، وقال : يا علي ! ما كان لون الكلب ؟ فقال : يا أخا اليهود ! حدَّثني حبيبي رسول الله ﷺ أن لون الكلب كان أبلَقَ بسواد ، أزرقَ العينين ، وكُبْرُه كالثور الكبير ، طويلُ الذنب ينجرُّ على الأرض ، إذا مشى يعمل طريقًا على الأرض - أيّ الذنب - وأن اسم الكلب كان قطميرًا ، قال فلمَّا نظر الفِتيةُ إلى الكلب ، قال بعضُهم لبعض : إنَّا نخاف أن يفضحَنا هذا الكلب بنُباحه ، فألحُّوا عليه طردًا بالحجارة .

فلمَّا نظر إليهم الكلبُ قد ألحُّوا عليه بالطرد قعا على رجليه ، وتمطَّى ، وقال بلسان ذلق طلق :يا قوم لِمَ تطردونني وأنا أقول : أشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له ، دعوني أحرسُكم من عدوِّكم ، وأتقرَّبُ بذلك إلى الله - تعالى - ، فتركوه ومضَوْا ، فصعَدَ بِهِم الراعي إلى جبل ، وانحطَّ بهم على كهف ، فوثب اليهودي(١) ، وقال : يا علي ما اسم ذلك الجبل ؟ وما اسم

(١) من أين لليهودي هذه التفاصيل ، وأحداثها وقعت بعد ميلاد المسيح ؟ فقد اعتنق أهل الكهف المسيحية وهربوا من جور الإمبراطور الروماني داقيوس . وقد نقل قصتهم ابن جرير الطبري عن ابن إسحاق ، وذكرت في المصادر المسيحية . وهل بالضرورة أن يعلم سيدنا علي هذه التفاصيل ليثبت صحة الإسلام ؟ أقول ذلك تنبيهًا للعقول التي تخلط بين حقائق الدين والأساطير طلبًا لتمييز الإمام علي - كرم الله وجهه - وهو لا يحتاج لهذه الأساطير لبيان فضله ، مع إيماننا بما جاء في القرآن عن قصة أهل الكهف من حقائق ثابتة هي مصدرنا في التعريف بهم .

الكهف ؟ فقال علي : يا أخا اليهود ! اسم الجبل سحلوس ، واسم الكهف الوصيد ، وقيل : حرم ، قال : ماذا بفناء الكهف ؟ قال : أشجار مثمرة ، وعينٌ غزيرة ، فأكلوا من الثمار وشربوا من الماء ، وأجنَّهم الليل ، فأووا إلى الكهف ، ورُبط الكلب على باب الكهف ، ومد يده عليه ، وأمر الله مَلَك الموت فقبَض أرواحَهم ، ووكَّل اللهُ - تعالى - بكل رجلٍ مَلَكَيْن يقلِّبانه ذات اليمين وذات الشمال ، ومن ذات الشمال إلى ذات اليمين .

قال : وأوحى الله ﷻ إلى الشمس فكانت تزَّاور عن كهفهم ذات اليمين إذا طلعتْ ، وإذا غَرَبت تقرِضُهم ذات الشمال ، فلمَّا رجعَ الكافرُ دقيانوس [إلى وعيه] سأل عن الفِتية ، فقيل له : إنهم اتخذوا إلهًا غيرك ، وخرجوا هاربين منك ، فركب في مائتي ألف فارس ، وسار يقْفو أثرهم ، حَتَّى صعد الجبل ، وشارف الكهفَ ، فنظَر إليهم وهم مضطجعون ، فظنَّ أنهم نيام ، فقال لأصحابه : لو أردتُ أن أعاقبَهم ما عاقبتُهم بأكثرَ ما عاقَبوا به أنفسَهم ، فأْتُوني بالبنَّائين ، فرُدم عليهم بابُ الكهف بالكلس والحجارة ، ثُمَّ قال لأصحابه : قولوا لهم : يقولوا لإلههم الذي في السماء ، إن كانوا صادقين ، أن يخرجهم من هذا الموضع ، فمكثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين .

فنفخ اللهُ فيهم الروح ، وانتبهوا من رَقْدتهم لَمَّا بزغتْ الشمس ، فقال بعضُهم لبعض : لقد غفلنا هذه الليلة عن عبادة الله ، قوموا بنا إلى الماء ، فقاموا فإذا العين غارتْ ، والأشجارُ قد جفَّتْ في ليلة واحدة ، وألقى الله عليهم الجوع ، فقالوا : أيكم يذهبُ بورِقِكم هذه إلى المدينة ، فلينظُر أيها أزكى طعامًا فليأْتنا بطعام منه ، ولينظُر ألا يكون من الطعام الذي يُعجن بشحم الخنزير ، فذلك قوله - تعالى - : ﴿ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا ﴾ (الكهف ١٩) أحـلُّ وأطيبُ وأجـودُ ،

فقال لهم تمليخا : يا إخوتي لا يأتينّكم بطعام أحدٌ غيري ، ولكن أيها الرَّاعي ادفعْ إليَّ ثيابَك ، وخذ ثيابي ، فلبس ثيابَ الرَّاعي ، ومضى .

وكان يمر بمواضع لا يعرفُها ، وبطريقٍ يُنكره ، حَتَّى أتى إلى باب المدينة، فإذا عليه عَلَمٌ(١) أخضر مكتوب عليه: لا إلٰه إلَّا الله محمد رسول الله ، عيسى روح الله ، فطفِق الفتى ينظُر ويمسح عينيه ، ويقول : إني أراني نائمًا ، فلمَّا طال عليه ذلك دخل المدينة ، ومر بقوم يقرؤون الإنجيل ، فاستقبله أقوامٌ لا يعرفُهم ، حَتَّى انتهى إلى السُّوق ، وإذا هو الخباز ، فقال : يا خباز ! ما اسم مدينتكم هذه ؟ قال له : أفسوس ، قال : ومَنْ أنتم ؟ وما اسم ملِكِكم ؟ قال : عبد الرحمٰن ، قال : إن كنت صادقًا ، فإن لي أمرًا عجيبًا ، ادفع إليَّ بهذه الدراهم طعامًا ، وكانت [في] الزمن الأول ثِقالًا كبارًا ، فتعجَّبَ الخباز من تلك الدراهم ، فقال له الخباز : ما هذا ؟ إنك قد أصبت كنزًا ، فأعطني نصفه ، وإلَّا أذهبُ بك إلى السلطان ، فقال تمليخا : ما أصبتُ كنزًا إنما هذا من ثمن تمر بعتُه بثلاثة دراهم منذ ثلاثة أيام ، وقد خرجتُ من هذه المدينة وأهلُها يعبدون دقيانوس الملِك .

فغضِبَ الخباز ، وقال : لا أرضى أنك أصبتَ كنزًا ولَمْ تُعطني بعضَه حَتَّى تذكر رجلًا جبَّارًا كان يدَّعي الربوبيةَ ، قد مات منذ ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، أتسخرُ بي يا هذا الكذَّاب ؟ إما [أن تذهب](٢) بي إلى هذا الكنز الذي أخذتَ منه هذه الورِق ، وإلا أدعوك إلى سلطان هذه المدينة ، فبينما هو يتنازع معه على شأن الورِق ، إذ جاءه جماعةٌ من الملِك واختطفوه

(١) في الأصل : علام ، وهو العلم في اللهجة الليبية .
(٢) في الأصل : اذهب .

وانطلَقوا به إلى المِلِك ، فلمّا وصلوا به إليه بكى تمليخا ، فقال له المِلِك : ما يبكيك وما قضيتُك ؟ وما هذه الورِق ؟ من أين هي ؟ فقال : من نقش هذه المدينة ، ومن ضربها ، أخذتُها من آبائي ، ولكنَّ والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم . فقال المِلِك : ممَّن أنت يا هذا ؟ فقال تمليخا : أما أنا فكنتُ أرى إني من أهل هذه المدينة ، فقيل له : مَنْ أبوك ؟ وما نِسْبتك ؟ فأخبرهم بأبيه وبنسَبِه ، فلم يجد من يصدِّقه ، فقال له المِلِك ، أنت شخص كذَّاب ، فلَمْ يدْر تمليخا ما يقول للمِلِك .

إلى أن قال له المِلِك : أتظنُّ يا هذا الكذاب أني أصدِّقُك بأن هذا مالُ آبائك ، ونقشُ هذه المدينة وضرْبُها ، وله أكثر من ثلاثمائة سنة ، وأنت غلام شاب ؟ أتظنُّ أنك تُجاز على كذِبك ، وتسخرُ بنا ونحنُ شيوخ هَرِمون ؟ ، فوالله إن لَمْ تأتِ بهذا الكنز الذي أخذتَ منه هذا الورِق لأعذبنَّك عذابًا شديدًا ، فتحيَّر تمليخا وأخذ في البكاء ، ثُمَّ قال : إني محدِّثُكم بما وقع لي ولأصحابي من غير شك ولا ريب ، فقالوا : قل ما أردتَ من الحديث ، فقال لهم : كنَّا فِتيةً على دين الإسلام ، ثُمَّ تسلَّط علينا المِلِك دقيانوس الجبار، يريد بنا سوءًا في ديننا ، فأبَيْنا وفررْنا هاربين من هذه المدينة ، فقالوا له : لَمْ نسمعْ على وجه الأرض مَنْ اسمه دقيانوس ، ولَمْ يكن إلَّا مِلِكًا هلك في الزمن المتقدِّم ، وله دهر طويل ، وهلك بعده قرون كثيرة ، فقال تمليخا : هربْنا منه - أي من دقيانوس - بالأمسِ فأتينا إلى الكهف المعروف بنجلوس ، فنِمْنا فيه ، فلمَّا انتبهنا ، والتمسَنَا الجوعُ ، خرجت لأشتري للرفقة التي معي طعامًا [بهذه الوَرِق التي رأيتموها](1) ، فإذا لَمْ تصدِّقوني ،

(١) في الأصل : بهذا الورِق الذي رأيتموه .

فانطلقوا معي إلى الكهف ، حَتَّى أُريكم أصحابي ، فلمَّا سمعوا منه ذلك ، قالوا : لعل هذا الشخص من السبعة المعبَّر عنهم بالمؤمنين الصادقين الصالحين ، الذين أنزلهم الله في توراة موسى[1] وإنجيل عيسى – عليهما السَّلام – .

فتحقَّق الأمير عبد الرحمٰن ، وقال : لعل هؤلاء القوم الفِتْية وكلبهم ، قاموا من رَقْدتهم ؛ ليكونوا آيةً للناس وتصديقًا للبعث . إنْ صحَّ ذلك فهذا لشخص منهم ، ولَمْ يكْذِب في ما قال ؛ لأنَّ عندي في الخزانة القديمة تابوت من نحاس من الأمم الأقدمين ، وفيه لَوْحان من رصاص ، مكتوب فيهما أسماء هؤلاء الفِتية وكلبهم ، وأنهم هرَبوا من دقيانوس الجبَّار مخافةَ أن يفتِنهم عن دينهم ، فدخلوا هذا الكهف ورقَدوا فيه إلى الآن ، ولم يشعُروا بأنفسِهم حَتَّى ظنوا أنهم ناموا إلَّا يومًا واحدًا ، إلى غير ذلك .

فاستقلَّ اليهودي قائمًا ، وقال : صدق رسول الله ﷺ وصدقَ صاحبُه علي – كرم الله وجهه – ، وأنا أقول أشهد أن لا إله إلَّا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اهـ .

وجدناه من هذه الحكاية المنسوبة لسيدنا علي من غير زيادة ولا نقصان، ونقل الإمام أبو الفضل الجلال السيوطي في تفسيره لسورة الكهف ما نصه : « وروى مسلم عن أبي الدرداء مرفوعًا : مَنْ حَفِظ عشر آيات من أوَّل الكهف عُصِم من الدَّجال ، وعدد حروفها ستة آلاف وثلاثمائة وستون حرفًا ، وعدد آياتها مائة آية وعشر آيات » .

---

(١) إنما كان هؤلاء الفِتية من أتباع عيسى عليه السلام ، وستأتي الإشارة إلى ذلك لاحقًا ، وليس معنى ذلك أن المؤلف يفتري ، ولكنه يسوق روايات من مصادر غير موثوقة في بعض الأحيان .

فائدة : قال السُّهيلي : الرقيمُ اسمُ كلب أهل الكهف ، والكهف هو النقب في الجبل ، وقيل : هو لَوْح من رصاص ، كُتبت فيه أسماؤهم ثُمَّ [طُرحتْ](١) في خزانة الكتاب ، مرقوم مكتوب من الرقيم ، وعن عكرمة قال : ما في القرآن شيء إلَّا وأنا أعلمه إلَّا أربعة (...) الرقيم لا أدري ما هو، وسألت كعبًا قال : هي القرية التي أُخرجوا منها .

تتمة : قوله -تعالى- : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ (الكهف ١٠) يعني: فِتية من أشراف الروم أرادهم وأكرههم ملكهم دقيانوس على الإشراك بالله - تعالى - ، فهربوا منه بعد أن أبوا [أن] يطاوعوه ، هربوا إلى الكهف .

الفائدة الثانية : ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف ١٠) أي أوجِبْ لنا المغفرةَ والرزقَ والأمن من الخوف ، وهيِّء لنا من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار رَشَدا : نصيرًا ، نِسْبة راشدين متذللين ، وذلك أنه لَمَّا أرادهم ، قالوا بأجمعهم : لا نعبد إلَّا الله ، وكانت أسماؤهم : الأوَّل تمليخا ، والثاني مكسلمينا ، والثالث نوراكيسا ، والرابع النوم ، والخامس قرطانوس ، والسادس قسطينا . وكانوا حُجَّابًا ، فلمَّا خرج الملِك دقيانوس إلى (...) هربوا إلى الله - تبارك وتعالى - ، فلمَّا صاروا خارج البلد لقوا راعيًا هناك يرعى غنمًا ، فسألهم أين توجُّهكم ؟ فقالوا إلى الله - تعالى - ، فقال وأنا معكم .

ثم سألهم الصحبة بعد أن ردَّ الغنمَ إلى أربابها ، وأتى إليهم صحبة الكلب الذي له ، فالتفت تمليخا وقال : نحن من قوم خرجنا هاربين من هذه البلد ومن دقيانوس ، وهذا الكلبُ لا يكونُ معنا ، رُدَّه عنَّا . فقال

(١) في الأصل : «كتب فيه أسماؤهم ثم طرحه» ، ولا يستقيم بذلك المعنى ولا الإعراب .

الراعي : يا إخوتي ! إن بيني وبينه صُحبة ، وأنا أستحي منه ، ولكن ردوه أنتم ، فخرجَ تمليخا ليردَّه بعد أن رماه بحجر ، فأنطقه الله ﷻ فقال : لا إلٰه إلَّا الله ، يا معشر الفِتية لا تطردوني فإني عرفتُ الله قبل أن تعرفوه ، وأنا تابعٌ لكم ، ولا بأس عليكم مني ، فازداد القوم إيمانًا وهدًى ، فذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾ (الكهف ١٣) .

الرابع : قوله - تعالى - : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (الكهف ١١) ، وذلك أنهم لَمَّا كان منهم ما كان من أمر الكلب ، وساروا وهو معهم ، اشتد عليهم الحر ، فقال بعضُهم لبعض : ادخلوا بنا إلى هذا الكهف ، حَتَّى يميل الظل ، فنخرجُ ونمضي حيث أراد الله بنا من بلاده ، فدخلوا إلى الكهف وكان معهم قِرْبَةٌ فملؤوها ، فلمَّا دخلوا أنامهم الله نومةً لا تُنبِّههم الأصوات ، فمكثوا في نومهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا، وكانت الشمسُ إذا طلعتْ تأخذهم عن ذات اليمين، وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه - وكان اسمه قطميرًا - بالوصيد، أي بالباب، وقيل: العتبة ، كل ذلك ليرى عبادُه حكمتَه وقدرتَه ، وهو على كلِّ شيء قدير ، قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾ (الكهف ١٢) أيقظناهم من رَقْدتهم .

فائدة : قال البغوي : قال السُّدِّي : كان أصحابُ الكهف إذا انقلبوا انقلب الكلُّ معهم ، وكانت الشمسُ إذا طلعت تميلُ على الكهف ، وإذا غربَتْ تقرِضُهم - أي تتركهم - وتعْدِل عنهم ، وتقطعهم ، وأصلُ القرْضِ القطْع . قال بعض العلماء : ولَمَّا رجَع لدقيانوس وعيُه طلبَهم فلَمْ يجدْهم ، فلمَّا تمَّ لهم من السنين ما ذكر الله في كتابه قاموا من نومهم ، وجلسوا

بأجمعهم وكلبهم معهم ، لَمْ يتغيَّر منهم شيء بعد هذه المدة الطويلة ، فقال بعضُهم لبعض : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ (الكهف ١٩) قيل : إنهم لَمَّا دخلوا الكهف غَدوة انتبهوا ظهيرة ، وظنوا أنهم في يومهم فنظروا إلى طول أظافرهم وشعورهم ، قالوا : ما هذا ؟ ثُمَّ إنهم لَمَّا علِموا أن الأمر ملتبسٌ لا طريق لهم عليه(١) أخذوا في ما يهمُّهم ، وقالوا : ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ، والوَرِق : الفضة مضروبة كانت أو غيرها ، ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ (الكهف ١٩) أي أحلّ وأطيبُ وأكثرُ رخصًا ، فليأتكم برزق منه ، وليتلطَّف في المعاملة : في التخفِّي ، حَتَّى يعرفَ أنهم لن يطَّلعوا عليكم ، يرجموكم أو يعيدوكم في مِلَّتهم كفارًا إن فعلتم ذلك ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف ٢٠) .

قال : فخرج كبيرُهم – وهو تمليخا – حَتَّى دخل المدينة ، فأخرج من تلك الدراهم التي كانت معه ، فلمَّا رآها الخبَّاز ، قال : أظنك إنما وجدْتَ أكثر من هذا فأعطني ، وإلا رفعت أمرك إلى الحاكم . فلَمْ يدر ما يردُّ عليه ، فرفعه إلى حاكم البلد ، فتعجَّبَ من أمره ، فسأله ، قال : كنتُ من جماعة الملِك دقيانوس، وخرجْتُ بالأمس من هذه البلدة ، وتركتُ بها أهلي ومنزلي ، قال : هل تعرف ذلك ؟ قال : نعم . فأمره الملِك بالمضي إلى منزله فخرجَ وخرجوا معه ، وقد اختلفت الشوارع عليه ، وتغيَّر البناء والأحوال من تلك السنين، فرفع يده إلى السماء ، وقال : يا إله السماء دُلَّني على منزلي ، ولَمْ يزل سائرًا والناس خلفَه ، وهم منه ومن هيئته متعجِّبون ، حَتَّى وقف بباب منزله ، قال : هذا منزلي ، فطرقوا الباب ، فخرج إليهم شيخ كبير ، قد

(١) يريد : لا سبيل لهم إليه .

احدَوْدب ظهرُه من الكِبَر ، فقالوا : أيها الشَّيْخ هذا الشاب يدَّعي أن هذه الدار داره ، فقال الشَّيْخ : كيف تكون دارَه وقد ورثتُها عن جدي وجدي عن أبيه ، وقد أخذتها كابرًا عن كابر ؟

فقالوا له : أيُّها الشاب ! هل لك فيها علامة ؟ فقال : إنَّ في مجلسها أسطوانتين مملوءتين من هذه الدراهم ، فأمرهم الشَّيْخ فدخلوا المنزل فوجدوا فيه ما قال تمليخا ، فتعجَّب القومُ من ذلك ، فعمَد الشَّيْخ إلى صندوق وفتحه ، ثُمَّ استخرج منه خِرقة من حرير ، وهي مكتوبة بالذهب ، فجعل يقرأها وينظُر إلى تمليخا ويبكي ، ثُمَّ قال : ما اسمك ؟ قال : تمليخا ، قال له : وهل لك من إخوة ؟ قال : نعم ، فبكى بكاءً شديدًا ، فتعجَّب الحاضرون ، وسألوه عن ذلك ، فقال يا قوم : إن هذا الفتى جدُّ جدِّ جدِّي لأبي ، خرج وإخوته من هذه البلدة خوفًا من المِلك دقيانوس ، وإنَّ لدقيانوس من يوم هلك إلى يومنا هذا مائتي سنة وعشرين سنة[1] ، فأقبلَ المِلكُ وأهلُ البلد على تمليخا يقبِّلون يديه ورجليه ، قالوا : سِر معنا إلى إخوتك ، فخرج تمليخا وخرج معه أهلُ البلد ، فلمَّا اقتربوا من الكهف ، قال : يا قوم ! إني أخشى أن يظن إخوتي أنكم من قوم دقيانوس ، فيموتوا من شدة الجزع ، ولكن قفوا حَتَّى أمضي إليهم وأذكرَ لهم ما حصل ، فوقف الناس ودخل على إخوته .

وقال : إخوتي ، هل تدرون كم لبثتم ؟ فقالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم . فقال : لبثتم ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، فقد مات دقيانوس وقومه وانقرض زمانهُ وتغير ، وكلُّ مَنْ في المدينة قد آمن بعيسى بن مريم ، (...) والصَّلاة

---

(١) أي أنه عاش ٨٩ سنة بعد غيابهم .

والزهد والعبادة ، وقد جاءكم أهل المدينة . فقالوا : يا تمليخا أتريد أن تصيِّرَنا فتنةً للعالمين ؟ قال : فما تريدون ؟ قالوا : يقبضُ الله أرواحنا . فأمر الله - تعالى - بقبض أرواحهم ، فلمَّا أبطأ تمليخا عليهم تقدَّموا إلى باب الكهف ، فوجدوا باب الكهف قد التحم بقدرة الله - تعالى - ، فلم يقدروا على الدخول إليهم ، فجعلوا يُشيرون إليهم بالأصابع ، ثُمَّ رجعوا إلى بلدهم متعجِّبين .

فائدة : أهلُ الكهف ستة والراعي هو السابع ، واسم كلبهم قطمير ، وقيل عرصة - كما سيأتي - قال ابن عباس ﷺ : أسماء أصحاب أهل الكهف تنفعُ لعشرة أشياء ، للطلب ، وللهرب ، وللضربة ، وللحمى المثلثة ، ولطفي الحريق ، تُكتب على خِرقة ، وتُرمى في وسطه ، ولبكاء الأطفال ، تُجعل تحت رأسه في المهد ، وللعياء تُشدُّ على الفخذ الأيمن ، ولحفظ المال ، ولركوب البحر ، والنجاة من القتل . واسم مدينتهم أفسوس - كما مر ، وكما سيأتي - وبالله التوفيق .

ثم أزيد من الأخبار والدلائل على أصحاب الكهف وقصتهم : من ذلك ما نقله بعضُهم في بعض السِّيَر ما نصه - بعد كلام كثير - : قال الله ﷻ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ (الكهف ٩) .

عن النعمان بن بشير الأنصاري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يذكرُ الرقيم ، فقال : « إن ثلاثة نفر خرجوا يصطادون لأهليهم ، فبينما هم يمشون إذ أصابتْهم السماء ، فَأَوَوْا إلى الكهف ، فانحطَّت عليهم صخرةٌ من الجبل ، فانكفأتْ على باب الكهف ، فأُوصد عليهم ، فقال قائل منهم : اذكروا أيكُم عَمِلَ حسنةً لعلَّ الله ﷻ برحمته أن يرحمنا .

فقال رجل منهم : قد عملتُ حسنةً ، مرة كان لي أُجَراءُ يعملون لي ، فاستأجرتُ كلَّ رجل منهم بأُجرة معلومة ، فجاءني رجلٌ ذات يوم وسط النهار ، فاستأجرتُه بشرط أصحابه ، فعمل بقيَّة نهاره ، كما عمل رجل منهم في نهاره كله ، ورأيتُ عَلَيَّ من الذمام ألا أنقصَه مما استأجرتُ به أصحابه ، لِمَا جهِد في عمله ، فقال رجل منهم : أتعطي هذا مثل ما أعطيتني ، ولمْ يعمل إلَّا نصف النهار ، قلت : يا عبد الله لَمْ أبخسْك من حقك ، وإنما هو مالي أحكمُ فيه بما شئت ، قال : فغضِبَ وذهب وترك أجرتَه ، فوضعتُ حقَّه في جانب من البيت ما شاء الله ، ثُمَّ مرَّتْ بي بعد ذلك بقرٌ فاشتريتُ به فصيلة من البقر ، فبلغَتْ ما شاء الله ، فمرَّ بي بعد حين شيخٌ ضعيفٌ لا أعرفه ، فقال :إن لي عندك حقًّا فعرضتُها عليه جميعًا ، فقال : يا عبد الله لا تسخر بي ، إن لَمْ تصدَّقْ فأعطني حقي . قلت : والله ما أسخرُ بك ، إنما لحقِّك ما لي فيه شيء ، فدفعتُها إليه جميعًا ، ثُمَّ قال : اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك لوجهك فأَفْرِجْ عنَّا ، فانصدع الجبل حَتَّى رأوا وأبصروا .

وقال آخر : قد عملتُ حسنةً ، مرة كان لي فضل ، وأصابتنا شدة ، فجاءتْني امرأةٌ تطلبُ منِّي معروفًا ، فقلت : والله ما هو دون نفسك ، فأبتْ عليَّ ، وذهبَتْ وذكرتْ ذلك لزوجها ، وقال لها : أعطه نفسَك ، وأعيني عيالك ، فأبتْ ورجعَتْ إليَّ وناشدتني بالله ، فأبيتُ عليها ، وقلت : والله ما هو دون نفسك ، فلمَّا رأت ذلك سلَّمت لي نفسَها ، فلمَّا كشفتُها وهممتُ بها ارتعدتْ ، فقلت لها : ما شأنك ؟ قالت : أخاف الله ربَّ العالمين ، فقلتُ لها: خفتيه في الشدة ولَمْ أخفه في الرخاء ، فتركتُها وأعطيتها ما يحق عليَّ ما كشفتُها . اللهم إن كنت تعلمُ أني فعلتُ ذلك لوجهك فأَفْرِجْ عنا ، فانصدع الجبل حَتَّى عرفوا وتبين لهم .

وقال الآخر : قد عملتُ حسنةً ، مرة كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكانت لي غنم فكنتُ أُطعم أبويَّ وأسقيهما ، ثُمَّ أرجع إلى غنمي ، قال : فأصابني يوم غيث ، فحبسني حَتَّى أمسيتُ وأتيتُ أهلي ، وأخذتُ محلي فحلبت غنمي وتركتها قائمة ، ومضيت إلى أبويَّ ، فوجدتهما قد ناما فشقَّ عليَّ أن أوقظهما ، وشقَّ عليَّ أن أترك غنمي ، فما برحتُ جالسًا ومحلبي على يدي حَتَّى أيقظهما الصبح ، فسقيتهما ، اللهم إن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك لوجهك ، فأَفْرِجْ عنَّا .

قال النعمان : لكأنِّي أسمع رسول الله ﷺ وهو يقول : « قال الجبل : طاق، ففرج الله عنهم فخرجوا »[1] .

وقال ابن عباس : الرقيم وادي بين عَصَّان وأَيْلَة دون فلسطين ، وهو الوادي الذي فيه أصحاب الكهف ، وقيل غير ذلك ، وقيل : لوح من رصاص كانت فيه أسماء الفِتية مكتوبة ، [لِيَستغفر لهم][2] من اطَّلع عليهم [وعرف] قصتهم . قاله ابن عباس ووَهْب ، وقيل : الرواق بلسان الروم ، قاله عكرمة ، وقيل : اسم الله ، [قاله] سعيد بن جبير .

قال – تعالى – : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف ١٠) . قال أهل التفسير وأصحاب التاريخ : كان أصحابُ أمر الكهف في أيام ملوك الطوائف بين عيسى ومحمد – عليهما السَّلام – ، وقال محمد بن إسحاق بن يسار : « خرج أهل

(١) رواه البزار في «مسنده» ٨/ ٢٣٠، والطبراني في «الأوسط» ٣/ ٨، وحسنه ابن حجر في «فتح الباري» ٦/ ٥٠٦ .

(٢) الأصل : ليغفر .

الإنجيل وعظُمت فيهم الخطايا ، وطغتْ الملوك حَتَّى عبدوا الأصنام ، وذبحوا الطواغيت ، وفيهم بقايا على دين المسيح مستمسِّكين بعبادة الله وتوحيده ، وكان ممَّن فعل ذلك من ملوكهم ملكٌ من الروم ، يُقال له : داقينوس ، عَبَدَ الأصنام وذبَح الطواغيت ، وقَتل مَنْ خالفه ، وكان ينزل قرى الروم فلا ينزل في قرية نزل فيها أحدٌ إلَّا فَتنه عن دينه ، حَتَّى يَعبُد الأصنام أو يقتُله ، فلمَّا نزل مدينة أصحاب الكهف - واسمها أفسوس - استخفى منه أهلُ الإيمان ، وهربوا في كل وجه ، واتخذ شُرَطًا من الكفار ، وأمر أولئك الشُّرَط أن يتَّبعوهم ، فمنهم من يرغب في الحياة ، ومنهم من يأبى أن يعبُدَ غير الله - تعالى - فيُقتل ، فلمَّا عظُمت الفتنة وكثُرت ، ورأى ذلك الفِتيةُ حزنوا حزنًا شديدًا ، فقاموا واشتغلوا بالصَّلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء .

وكانوا من أشراف الروم وهم ثمانية نفر ، وبركوا وتضرعوا إلى الله ﷻ ، وجعلوا يقولون : ربنا رب السماوات والأرض لن ندعوَ من دونه إلهًا ، لقد قلنا إذا شططا ، اكْشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة ، وارفَعْ عنهم البلاء حَتَّى يُعلنوا عبادتك ، فبينما هم كذلك وقد دخلوا أدركتهم الشُّرَط فوجدوهم سُجَّدا ، يبكون ويتضرعون إلى الله ﷻ ، فقال لهم الشُّرَط : ما خلَّفكم عن أمر الملِك ؟ ثُمَّ انطلقوا إلى الملِك فأخبروه بخبر الفِتية ، فبعث إليهم فأتى بهم تفيضُ أعينهم من الدمع ، معفَّرةً وجوهُهم في التراب ، فقال لهم : ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تُعبد في الأرض ، وتجعلوا أنفسكم أسوة أهل قريتكم ، اختاروا إما أن تُذبحوا لآلهتنا ، وإما أن نَقتلكم ، فقال مكسلمينا - وهو أكبرهم[1] - : إن لنا إلهًا ملأ السموات

(١) سبق أن قال إن تمليخا هو أكبرهم .

والأرض عظمة، لن ندعو من دونه إلهًا أبدًا، له الحمد والتكبير من أنفسنا خالصًا أبدًا، إياه نعبد وإياه نسأل النجاةَ والخير، فأما الطواغيت فلن نعبدها، اصنع بنا ما بدا لك، وقال أصحابُه مثل ذلك.

فلمَّا سمع الملِك كلامَهم أَمَر بنَزْع لباسِهم، وحِليةٍ كانت عليهم من الذهب والفضة، وقال: سأفرُغُ لكم، وأُنجز لكم ما وعدتُكم من العقوبة، وما منعني أن أُعَجِّل ذلك لكم، إلَّا أني أراكم شبانًا حديثةً أسنانكم، فلا أحب أن أهلككم حَتَّى أجعل لكم أجلًا تدركون فيه، وترجعون إلى عقولكم، ثُمَّ أمر بهم فأُخرجوا من عنده، وانطلق دقيانوس إلى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره، فلمَّا رأى الفِتيةُ خروجَه بادروا وخافوا إذا أَقْدم أن يذكرَهم، فاشْتَوَرُوا بينهم واتفقوا على أن يأخذَ كلُّ واحد نفقتَه من بيت أبيه، فيتصدَّقوا منها ويتزوَّدوا بما بقي، ثُمَّ لينطلقوا إلى كهفٍ قريب من المدينة، في جبل يقال له سحلوس، فيمكثون فيه ويعبدون الله، حَتَّى إذا جاء دقيانوس أَتوْه فيصنعُ بهم ما يشاء، فلمَّا اتفقوا على ذلك عمَد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذ نفقتَه فتصدَّقَ منها، وانطلقوا بما بقي معهم، واتبعَهم كلبُهم، حَتَّى إذا أتوا ذلك الكهفَ مكثوا فيه.

وقال كعب الأحبار: مرُّوا بكلب فتبِعَهم، فطردوه فعادَ، ففعلوا ذلك مرارًا، فقال لهم الكلب: ما تريدون مني؟ لا تخشوا جانبي، أنا أحب أحبَّاء الله ﷻ، فناموا حَتَّى أحرُسَكم. وقال ابن عباس: هربوا من دقيانوس، وكانوا سبعة، فمرُّوا براع معه كلب، فتبِعهم على دينهم، وتبِعهم الكلب فخرجوا من البلد إلى الكهف، قال ابن إسحاق: فلبِثوا فيه ليس لهم عملٌ إلَّا الصَّلاة والصيام، والتسبيح والتحميد، ابتغاء وجه الله ﷻ، وجعلوا نفقتَهم إلى فتى منهم اسمه تمليخا، وكان يبتاعُ أرزاقَهم من

المدينة سِرًا ، وكان من أجملهم وأجلدهم ، وكان إذا دخل المدينة لبس ثيابًا رثّة كثياب المساكين ، ثُمَّ يأخذُ ورِقةً فينطلق إلى المدينة ، فيشتري لهم طعامًا وشرابًا ، ويتجَسَّسُ لهم الخبر ، هل ذُكِرَ هو وأصحابُه بشيء ؟ ثُمَّ يرجع إلى أصحابه ، فلَبِثوا كذلك ما شاء الله أن يلبثوا .

ثم قدم دقيانوس المدينة ، وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا الطواغيت ، ففزَع من ذلك أهلُ الإيمان ، وكان تمليخا بالمدينة يشتري لأصحابه طعامَهم، فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل ، فأخبرَهم أن الجبار قد دخل المدينة ، وأنهم قد ذُكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ، ففزعوا ووقعوا يدعون الله ، ويتضرَّعون ويتعوَّذون من الفتنة ، فقال لهم تمليخا : يا إخوتاه ارفعوا رؤوسكم ، وأطيعوا وتوكلوا على ربكم ، فرفعوا رؤوسهم ، وأَعْيُنُهم تفيض من الدمع ، وذلك عند غروب الشمس ، ثُمَّ جلسوا يتحدثون ويذكِّرُ بعضُهم بعضًا ، فبينما هم على ذلك إذ ضربَ الله على آذانهم في الكهف، وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف ، فأصابه ما أصابهم، وهم مؤمنون موقنون ، ونفقتُهم عند رؤوسهم ، فلمَّا كان من الغد فَقدَهم دقيانوس ، فالتمسَهم فلم يجدْهم ، فقال لبعض علماء المدينة لقد أساءني شأنُ هؤلاء الفِتية الذين ذهبوا ، لقد ظنوا أنَّ لي غضبًا عليهم لما جهلوا من أمري ، ما كنتُ لأحمل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتي .

فقال عظماء المدينة : ما أنت بحقيق أن ترحَم قومًا فجرةً مردةً ، عُصاة، قد كنتُ أجَّلتُ لهم أجلًا ، ولو شاءوا لرجعوا في ذلك الأجل ، لكنهم لَمْ يتُوبوا ، فلمَّا قالوا ذلك ، غضِب غضبًا شديدًا ، ثُمَّ أرسل إلى آبائهم ، فأتى بهم ، فقال : أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوْني ، فقالوا : أما نحن فلم نعصك ، فلِمَ تقتُلُنا بقوم مردة ، ذهبوا بأموالنا ، وأهملونا في أسواق

المدينة ، ثُمَّ انطلقوا إلى جبل يدعى بنحلوس . فلمَّا قالوا له ذلك خلَّى سبيلهم ، [ولَمْ يدرِ] ما يصنع بالفِتية ، فألقى الله - تعالى - في نفسه أن يأمر بسد باب الكهف عليهم ، وأراد الله ﷻ أن يُكرمهم بذلك ، ويجعلهم آية لأمة تُستخلف من بعدهم ، وأن يبيِّنَ لهم أنَّ الساعة آتية لا ريب فيها ، وأنَّ الله يبعث مَنْ في القبور .

فأمر دقيانوس بالكهف فسُدَّ عليهم ، وقال : دعوهم في كهفهم يموتون جوعًا وعطشًا ، ويكون كهفُهم الذي اختاروه قبرًا لهم ، وهو يظن أنهم أيقاظٌ ، يَعلمون ما يُصنع بهم ، وقد توفاهم الله ﷻ وفاة نوم ، وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف ، قد غشيه ما غشيَهُم ، يتقلَّبون ذات اليمين وذات الشمال .

ثُمَّ إنَّ رجلين مؤمنَيْن في بيت المِلِك دقيانوس يكتمان إيمانهما ، اسم أحدِهما يندروس ، واسم الآخر روقاس ، ائتمرا أن يكتبا شأن الفِتية وأسماءهم وأنسابَهم وخبرَهم في لوح من رصاص ، ويحفِظانه في تابوت من نحاس ، ويجعلَا التابوت في البنيان ، وقالا : لعل الله أن يُظهر على هؤلاء الفِتية قومًا مؤمنين قبل يوم القيامة ، فيَعْلم مَنْ فتحَ عليهم خبرَهم حين يقرأ الكتاب ، ففعلا ذلك وبنيا عليه ، وبقي دقيانوس ما بقي ، ثُمَّ مات هو وقومه ، وقرون بعده كثيرة ، وخلفه الملوك بعد الملوك .

وقال عبيد الله بن عمير : كان أصحاب الكهف فتيانًا مطوَّقين مسوَّرين ذوي ذوائب ، فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي وموكب ، وأخرجوا معهم آلهتهم التي كانوا عليها يعبدونها ، وكان معهم كلب صيد لهم ، وكان أحدُهم وزيرَ المِلِك ، فقذَف الله الإيمان في قلوبهم ، فآمنوا

وأخفى كلُّ واحدٍ إيمانه ، وقال في نفسه : أخرجُ من بين أظهرِ هؤلاء القوم لا يصيبُني عقابٌ بجُرْمهم ، فخرج شاب منهم حَتَّى انتهى إلى ظل شجرة ، فجلس فيه ، ثُمَّ خرج آخرُ فرآه جالسًا وحده ، فرجا أن يكون على مثل أمره، وجلس إليه من غير أن يُظهره على أمره ، ثُمَّ خرج آخر ، وخرجوا جميعًا ، فاجتمعوا ، فقال بعضُهم : ما جمعُكم ؟ وكلُّ واحد يكتُم إيمانَه عن صاحبه ، مخافةً على نفسه ، ثُمَّ قالوا : ليخرج كلُّ فتَيَيْن ليخلُوَا ، ويفشي كلُّ واحد سِرَّه إلى صاحبه ، ففعلوا ذلك ، فإذا هم جميعًا على الإيمان ، وإذا الكهف في جبل قريب منهم .

فقال بعضُهم لبعض : ﴿ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ (الكهف ١٦) فدخلوا الكهفَ ، ومعهم كلبُ صيدٍ ، فناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا ، وفقدَهم قومهم وطلبوهم ، فعمَّى الله عليهم آثارَهم وكهْفَهم ، فكتبوا أسماءَهم وأنسابَهم في لَوْحٍ ، فلان وفلان أبناء ملوك ، فَقَدْناهم في شهر كذا ، في سنة كذا ، في مملكة فلان بن فلان الملِك ، ووضعوا اللوحَ في خزانة الملِك ، وقالوا : ليكون لهؤلاء شأن ، ومات ذلك الملِك ، وجاء قرن بعد قرن .

قال محمد بن إسحاق : ثُمَّ مَلَكَ تلك البلاد رجلٌ صالح يقال له : تندوسيس ، فلمَّا مَلَك بقي في ملكه ثمان وستين سنة ، فتحزَّبَ ملكُه ، فكانوا أحزابًا منهم مَنْ يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ، ومنهم مَنْ يكذِّب بها ، فكبُر ذلك على الملِك الصالح ، وتضرَّع إلى الله ، وحَزَن حُزنا شديدًا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ، ويقولون لا حياة إلَّا حياة الدنيا ، وإنما تُبعثُ الأرواح دون الأجساد ، وجعل الملِك تندوسيس يرسل إلى مَنْ يظن فيه خيرًا ، وأنهم أئمة في الخلق ، فلم يقبلوا

منه ، وجعلوا يكذِّبون بالساعة حَتَّى كادوا يُخرجون الناسَ عن الحق ومِلَّة الحواريين ، فلمَّا رأى المِلكُ الصالح ذلك ، دخل بيتَه وأغلقَ بابه عليه ، ولبِسَ مَسْحًا ، وجعل تحته رمادًا ، فجلس عليه ، ودأَبَ ليلَه ونهارَه يتضرَّعُ إلى الله – تعالى – ، ويبكي ويقول : رب قد ترى اختلاف هؤلاء ، فابعثْ لهم آية تبيِّنُ لهم .

ثم إنَّ الله الرحمٰن الرحيم الذي يكرهُ هلكَة عباده ، أراد أن يُظهر على الفِتية أصحاب الكهف ، ويبيِّن للناس شأنَهم، ويجعلَهم آيةً وحجةً عليهم ؛ ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، ويستجيب لعبده الصالح يندوسيس، وليتمَّ نعمتَه عليه ، وأن يجمعَ مَنْ كان تبدَّد من المؤمنين ، فألقى الله – تعالى – في نفس رجلٍ من أهل ذلك البلد الذي فيه الكهف ، وكان اسمه أولباس، أن يهدم ذلك البنيان الذي على فمِ الكهف ويبني به حظيرة لغنمه، فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ، ويبنيان بها تلك الحظيرة ، ونزعا ما كان على فمِ الكهف ، وفتحا على باب الكهف ، وحجَبهم الله عن الناس بالرعْب ، فلَمَّا فتحا باب الكهف أذن الله – تعالىٰ – ذو القُدرة والسلطان ، محيي الموتى ، للفِتية أن يجلسوا بين ظهري الكهف ، فجلسوا فرِحين مصفرَّةً وجوههم ، طيبةً أنفسُهم ، فسلَّم بعضُهم على بعض ، كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون بها إذا أصبحوا من ليلتهم ، ثُمَّ قاموا إلى الصَّلاة فصلُّوا ، كما كانوا يفعلون ، لا يُرَى في وجوههم ولا في ألوانهم شيءٌ يكرهونه ، ولكنهم كهيئتهم حين ردوا يَرَوْن دقيانوس في طلبَتِهم .

فلما قضَوْا صلاتَهم ، قالوا لتمليخا – صاحب نفقاتهم – : أنبئنا ما الذي قال الناسُ في شأننا عشِيَّة أمسِ عند هذا الجبار ، ويظنُّون أنهم رقدوا

كبعض ما كانوا يرقدون ، وقد خُيِّل إليهم أنهم قد ناموا أطولَ مما كانوا ينامون ، حَتَّى تساءلوا بينهم ، فقال بعضُهم لبعض : كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم ، قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، وكلٌّ ذلك في أنفسهم يسير، فقال لهم تمليخا : قد التُمستم في المدينة ، وهو يريد أن يؤتى بكم فتُذبحوا إلى الطواغيت ، أو يقتُلَكم ، فما شاء الله بعد ذلك فعل .

فقال لهم مكسلمينا : يا إخوتاه ! اعلموا أنكم ملاقو الله ، ولا تكفُروا بعد إيمانكم ، إذا دعاكم عدو الله ، ثُمَّ قالوا لتمليخا : انطلق إلى المدينة فتسمَّع ما يُقال عنا بها ، وما الذي يُذكر عند دقيانوس وتلطَّف ، ولا يَشعُر بك أحدٌ ، وابتغْ لنا طعامًا فأتنا به ، وزِدنا على الطعام الذي جئتنا به ، فقد أصبحنا جياعًا ، فعمِلَ تمليخا كما كان يفعل ، ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكَّرُ فيها ، وأخذ ورِقًا من نفقاتهم التي كانت معهم ، التي ضُربت بطابع دقيانوس ، وكانت كخفاف الربع .

فانطلق تمليخا خارجًا من باب الكهف ، والحجارة منزوعة عن باب الكهف ، فتعجَّب منها ، ثُمَّ مرَّ ولَمْ يُبالِ بها ، حَتَّى أتى إلى باب المدينة مستخفيًا يصُدُّ عن الطريق مخوفًا أن يراه أحدٌ من أهلها ، فيعرفُه ، ولَمْ يشعر أن دقيانوس وأهلَه هلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنة ، فلمَّا أتى تمليخا إلى باب المدينة رفع بصره ، فرأى فوق ظهر الباب علامةً كانت لأهل الإيمان ، إذ كان أمرُ الإيمان ظاهرًا فيها ، فلمَّا رآها عجِبَ وجعل ينظر إليها مستخفيًا ، ينظر إليها يمينًا وشمالًا ، ثُمَّ ترك ذلك الباب ، ومضى إلى باب آخر ، فرأى مثل ذلك ، فخُيِّل إليه أنَّ المدينة ليست التي كان يعرف ، ورأى ناسًا كثيرًا لَمْ يكن رآهم قبل ذلك ، فجعل يمشي ويتعجَّب ويُخَيَّلُ إليه أنه حيران .

ثم رجع إلى الباب الذي أتى منه ، فجعَل يتعجَّبُ بينه وبين نفسه ، ويقول : يا ليت شعري ما هذا ؟ أما عشية أمس كان المسلمون يخفُون هذه العلامة في هذه المدينة ويستخفون بها ، واليوم ظاهرة ، لعلِّي أحلُم ، ويرى أنه ليس بنائم ، ثُمَّ دخل المدينة وجعل يمشي في أسواقها ، فسمِعَ أناسًا يحلِفون باسم عيسى بن مريم ، فزاده ذلك تعجُّبًا ، ورأى أنه حيران ، فقام مسنِدًا ظهره إلى جدار من جدُر المدينة ، ويقول في نفسه : والله ما أدري ما هذا ، أما عشية أمسِ فليس على الأرض مَنْ يذكرُ عيسى بن مريم إلَّا قُتل، وأما اليوم فأسمعُ كلَّ إنسان يذكر عيسى ، لا يخاف .

ثُمَّ قال في نفسه : لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرفُ ، والله ما أعلم مدينةً تقرب مدينتَنا ، فقام كالحيران ، ثُمَّ لقي فتى ، فقال له : ما اسم هذه المدينة يا فتى ؟ فقال : اسمها أفسوس ، فقال في نفسه : لعل مسني أمرٌ أذهبَ عقلي ، والله يحقُّ لي أن أسرعَ الخروج قبل أن يصيبني فيها شر فأهلِك، فدنا إلى الذين يبيعون الطعام فأخرجَ لهم الوَرِق التي كانت معه ، فأعطاها رجلًا منهم ، وقال له : بِعْني بهذه الورِقة طعامًا ، فأخذها الرجل ونظر إلى ضرب الورِقَ ونقْشِها ، فتعجَّبَ منها ، فناولها رجلًا آخر من أصحابه ، فنظر ثُمَّ جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل ، ويتعجَّبون منها ويتشاورون بينهم ، ويقول بعضُهم لبعض : إن هذا أصاب كنزًا في الأرض منذ زمان طويل ، فلمَّا رآهم تمليخا يتحدثون [عنه] فَرَقَ فرقًا شديدًا ، وخاف وجعل يرعد ، وظن أنهم قد فطنوا به ، وعرفوه ، وأنهم يريدون [أن] يذهبوا به إلى ملِكهم دقيانوس ، وجعل أناسٌ يأتونه ويتعرَّفونه ، فقال لهم - وهو شديد الخوف منهم - : تفضلوا عليَّ ، قد أخذتُم ورقي فامسكوها ، وأما طعامُكم فلا حاجة لي به ، فقالوا له : يا فتى

مَنْ أنت ؟ وما شأنك ؟ والله لقد وجدت كنزًا من كنوز الأوَّلين ، وأنت تريد أن تخفيه عنا ، انطلق معنا ، وأرنا وشاركنا فيه ، يخفُّ عليك ما وجدتَ، وإنك إن لا تفعل ، نحملك إلى السلطان فنسلِّمك إليه فيقتلك ، فلمَّا سمع قولهم ، قال : قد - والله - وقعْتُ في كلِّ شيء كنتُ أحذرُ منه ، فقالوا : يا فتى إنك والله لا تستطيع أن تكتُمَ ما وجدتَ .

ولَمْ يَدْرِ تمليخا ما يقول لهم ، وخاف حَتَّى لَمْ يجد إليهم شيئًا ، فلمَّا رأوْه لا يتكلَّمْ أخذوا كِساءً وطرحوه في عنقه ، وجعلوا يَسْحبونه في سِكَك المدينة ، حَتَّى سمِع به مَنْ فيها ، وقيل : أخذ رجل معه كنزًا ، فاجتمع عليه أهلُ المدينة وجعلوا ينظرون إليه ، ويقولون : والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة ، وما رأيناه فيها قط ، وما نعرفه ، وتمليخا ما يدري ما يقول لهم، وكان مستيقِنًا أنَّ أباه وإخوته بالمدينة ، وأنه من عظماء أهلها ، وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به ، فبينما هو قائم كالحيران ، ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم ، إذ اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيس المدينة ومدبِّرها ، اللذين يدبران أمرها ، وهما رجلان صالحان ، اسم أحدهما أريوس ، واسم الآخر اسطيوس ، فلمَّا انطلقوا به إليهما ظن تمليخا إنما يُنطلَقُ به إلى دقيانوس الجبار ، فجعل يلتفتُ يمينًا وشمالًا وهو يبكي ، والناس يسْخَرون منه كما يسخرون من المجنون ، ثُمَّ رفع رأسه إلى السماء ، وقال : اللهم إلٰه السموات والأرض ، أفرِغِ اليوم عليَّ صبرًا ، وأولج معي روحًا منك تؤيدني بها عند هذا الجبار .

وجعل يقول في نفسه : فَرَّق بيني وبين إخوتي ، يا ليتهم يعلمون ما لقيت ، ويا ليتهم يأتوني فيقومون جميعًا بين يدي هذا الجبار ، فإنا كنا فريقًا

اتفقنا على الإيمان بالله ، ولا نشرك به أبدًا ، ولا نفترق في حياة ولا موت ، فلمَّا انتهى إلى الرجلين الصالحين ، أريوس واسطيوس ، ورأى أنه لمْ يذهب إلى دقيانوس ، أفاق وسكن عنه البكاء ، وأخذ أريوس واسطيوس الورِق ونظرا إليها وعجِبا منها ، وقالا أين الكنز الذي وجدت يا فتى ؟ فقال تمليخا : ما وجدتُ كنزًا ، ولكن هذا ورِق آبائي ، ونقشُ هذه المدينة وضربها ، ولكن والله ما أدري ما شأني ، وما أقول لكم ، فقال له أحدهما : ممَّن أنت ؟ فقال تمليخا : أما أنا فكنت أرى أني من أهل هذه المدينة ، فقيل له : مَنْ أبوك ؟ ومَنْ يعرفك بها ؟ فأخبرهم باسم أبيه ، فلم يوجد من يعرفه، ولا آباءَه ، فقال له أحدهما : أنت رجل كذَّاب لا تأتينا بالحق ، فلَمْ يدر تمليخا ما يقول ، غير أنه نكس بصره إلى الأرض ، فقال بعض مَنْ حوله: هذا رجل مجنون .

وقال بعضُهم : ليس بمجنون ولكنه يحمِّق نفسه عمدًا ، لكي يُفلت منكم ، فقال له أحدهما – ونظر إليه نظرًا شديدًا – : أتظن أنَّا نُرسلُك ونصدِّقك بأن هذا مالُ أبيك ونقشُ هذه المدينة وضرْبُها ، ولها أكثرُ من ثلاثمائة سنة ، وأنت غلام شاب ، أتظن أنك تأفكُنا ، وتسخرُ منا ونحن شيوخٌ شمط ، وحولك هرات هذه المدينة وولاةُ أمرها ، وخزائنُ هذه المدينة بأيدينا ، وليس عندنا من هذا الضرب درهمٌ ولا دينارٌ ! وأين وجدته؟ فقال لهم تمليخا : أخبروني عمَّا أسألكم عنه فإن أنتم فعلتم صدَّقتُكم عمَّا عندي ، فقالوا : سل لا نكتمك شيئًا ، فقال لهم : فما فعل الملِك دقيانوس ؟ فقالا : ما نعرف على وجه الأرض مَنْ اسمه دقيانوس ، ولم يكن إلَّا ملِكٌ هلك في الزمن الأول ، وله دهرٌ طويل ، وهلك بعده قرون كثيرة .

فقال تمليخا : إني إذًا لحيْران ، وما (١) مصدِّقي أحدٌ من الناس في ما أقولُ ، لقد كنا فِتية ، وإنَّ الملِك أكرهنا على عبادة الأصنام والذبح للطواغيت ، فهرَبْنا منه عشية أمس ، فأتينا الكهف الذي بجبل بنجلوس ، فنِمنا فيه، فلمَّا انتبهنا خرجْتُ لأشتري لأصحابي طعامًا ولأتجسسَ الأخبار، فإذا أنا معكم كما ترونني ، فانطلِقوا معي إلى الكهف حَتَّى أُريكم أصحابي ، فلمَّا سمع أريوس قول تمليخا ، قال : يا قوم ! لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله ﷻ لكم على يدي هذا الفتى ، فانطلقوا بنا معه حَتَّى يُرينا أصحابه ، فانطلق أريوس وأسطيوس ، ومعهم أهلُ المدينة ، كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف ، لينظروا إليهم ، ولمَّا رأى الفِتيةُ - أصحابُ الكهف - أن تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي فيه ، ظنوا أنه قد أُخذ وذُهب به إلى ملِكهم دقيانوس ، فبينما هم يظنون ذلك ويتخوَّفونه ، إذ سمعوا الأصواتَ وجَلَبة الخيل مصعدة ، فظنوا أنهم رُسُل الجبار دقيانوس بعثهم إليهم ، ليؤتى بهم .

فقاموا إلى الصَّلاة وسلم بعضُهم على بعض ، وأوصى بعضُهم بعضًا ، وقالوا : انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدي الجبار ، وهو ينتظرنا متى نأتيه ، فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة ، إذا هم بأريوس وأصحابِه وقفوا على باب الكهف ، فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكي ، فلمَّا رأَوْه يبكي بكَوْا معه ، ثُمَّ سألوه عن خبرِه فقصَّ عليهم الخبر ، فعرفوا أنهم كانوا نيامًا بأمر الله ذلك الزمان الطويل ، وإنما استيقظوا ليكونوا آية للناس ، وتصديقًا للبعث ، ويعلموا أن الساعة لا ريب فيها .

(١) في الأصل : وما هو بمصدقي أحد .

ثم دخل على أثر تمليخا أريوس ، فرأى تابوتًا من نحاس مختومًا بخاتم فضة ، فوقف على الباب ودعا جماعة من عظماء أهل المدينة ، وأمر بفتح التابوت فوجد فيه لوحًا من رصاص مكتوب فيه « مكسلمينا، ومخلسمينا، وتمخيخا، ومرطونس، وكشطونس، وهرونس، وديبومس، ومطيونس، وقالونس » كانوا فِتية هربوا من ملِكهم دقيانوس الجبار ، مخافَة أن يفتنهم عن دينهم ، فدخلوا هذا الكهف ، فلمَّا أُخْبر بمكانهم [أمر] بسدِّ الكهف عليهم بالحجارة ، وإنَّا كتبْنا شأنَهم وخبرَهم ؛ ليعلمه مَنْ بعدهم إن عُثر عليهم ، فلمَّا رأوه عَجِبوا وحمِدوا الله الذي أراهم آيةً تدلُّ على البعث ، ثُمَّ رَفعوا أصواتَهم بحمدِ الله وتسبيحِه ، ثُمَّ دخلوا على الفِتية إلى الكهف فوجدوهم جلوسًا مشرقةً وجوههم ، لَمْ تُبلَّ ثيابُهم فخرَّ أريوس وأصحابُه سجودًا ، وحمدوا الله الذي أراهم آية من آياته .

ثُمَّ كلَّم بعضُهم بعضًا ، وأخبر الفِتية عن الذي لقوا من ملِكهم دقيانوس ، ثُمَّ إن أريوس وأصحابه بعثوا بريدًا إلى مِلكهم الصالح تندروس أنْ عَجِّل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله ، جعلها الله على مُلْكِك، وللناس آية ؛ ولتكون لهم نورًا وضياءً وتصديقًا للبعث ، وذلك أنَّ فِتيةً بعثهم اللهُ وقد كان توفاهم منذ ثلاثمائة سنين وأكثر ، فلمَّا أتى الملِكَ الخبرُ رجع عقلُه إليه ، وذهب همُّه ، وقال : أحمدُ الله ربَّ السموات والأرض ، وأعبدُك وأسبِّحُ لك تطوَّلْتَ عليَّ ورحِمْتني ، ولم تُطفِئْ النورَ الذي جعلته لآبائي ، وللعبد الصالح فسطيطنوس الملِك ، ثُمَّ أخبر بذلك أهلَ مدينته ، فركبَ وركبوا معه حَتَّى أتوا مدينة أفسوس ، فتلقَّاهم أهلُها وساروا معه نحو الكهف ، فلمَّا صعَدَ الجبل ورأى الفِتيةَ تندروس فَرِحَ بهم ، وخرَّ ساجدًا على وجهه .

وقام تندروس المَلِك قدامهم ، واعتنقَهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض ، يسبحون الله ويحمدونه ، ثُمَّ قال الفِتية لتندروس المَلِك : سنستودعك الله ، والسَّلام عليك ورحمة الله ، وحفظ مُلْكك ، ونعيذك بالله من شر الإنس والجن ، فبينما المَلِك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم ، فناموا وتوفَّى اللهُ أنفسَهم ، فقام المَلِك إليهم وجعل ثيابَهم عليهم ، وأمر أن يُحمَل كلُّ رجل في تابوت من ذهب ، فلمَّا أمسى ونام أتوْهُ في منامه ، فقالوا له : لَمْ نُخلق من ذهب ولا فضة ، ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير ، فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب ، حَتَّى يبعثَنا الله منه ، فأمر المَلِك عند ذلك بتابوت من ساج ، فجُعلوا فيه وحجَبهم الله من حين خرجوا من عندِهم بالرعب ، فلَمْ يقدرْ أحدٌ أن يدخل عليهم ، وأمرَ المَلِكُ أن يتَّخذَ على باب الكهف مسجدًا يُصلى فيه .

وجعل لهم عيدًا عظيمًا وأمر أن يؤتى كلَّ سنة ، وقيل : إن تمليخا حُمل إلى المَلِك الصالح ، فقال له المَلِك : مَنْ أنت ؟ فقال : أنا رجل من أهل هذه المدينة ، ذكر أنه خرج أمس ، ومنذ أيام ، وذكر منزلَه وأقوامًا لَمْ يعرفهم ، وكان المَلِك قد سمع أنَّ فِتيةً فُقدوا في الزمن الأول ، وأن أسماءَهم مكتوبةٌ على لوْح في خزانته ، فدعا باللوْح ونَظَرَ في أسمائهم ، فإذا اسمه مكتوب ، وذكر أسماء الآخرين ، فقال تمليخا : هم أصحابي ، فلمَّا سمع المَلِك ركب ومَنْ معه من القوم ، فلمَّا أتوْا بابَ الكهف ، قال لهم تمليخا : دعوني حَتَّى أدخل على أصحابي وأُبشِّرهم ، فإنهم إن رأوكم معي أرعبتموهم ، فدخل تمليخا فبشَّرهم ، فقبض اللهُ روحَه وأرواحهم وأعمى على المَلِك وأصحابه أثرَهم ، فلم يهتدوا إليهم . فذلك قوله ﷻ : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ ﴾ (الكهف ١٠) أي صاروا إلى الكهف واسمه حرم ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾

(الكهف ١٠) أي هداية في الدين ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف ١٠) أي ما نلتبسُ من رضاك وما فيه رُشْدُنا .

وقال ابن عباس : فخرجوا من الغـار في سلامة ، قوله - تعالى - : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ (الكهف ١١) أي ألقينا عليهم النوم ، وقيل : معناه [عدم] نفوذ الأصوات إلى مسامعهم ، فإن النائم إذا سمع الصوت ينتبهُ ، في الكهف ﴿ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (الكهف ١١) أي أَنَمْنَاهُم سنين كثيرة ، فإنَّ العددَ يدلُّ على الكثرة ، ثُمَّ بعثناهم أي من نومهم ؛ لنعلم أي علم المشاهدة، وذلك أن الله ﷻ لَمْ يزل عالمًا ، وإن أراد متعلَّقَ العلمِ من ظهور العـلم الإلهي لهم ؛ ليزدادوا إيمانا واعتبارًا ﴿ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾ ، أي الطائفتين ، ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ ، أي أحاطوا بما مكثوا في كهفهم نيامًا ، وذلك أن أهل المدينة تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف ، ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي نقرأُ عليك خبر أصحاب الكهف بالحق ، أي بالمدينة ، ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ أي شبَّان ﴿ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ أي إيمانًا وبصيرة ، وربطنا على قلوبهم : أي شددنا على قلوبهم بالصبر والتثبيت ، وقويناهم بنور الإيمان ، حَتَّى على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا [فيه] من حفظ العيش ، وفروا بدينهم إلى الكهف ، إذ قاموا يعني بين يدي دقيانوس الجبار، حين عاتبهم على عبادة تلك الأصنام ، فقالوا : أي الفِتية ، ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ أي قالوا ذلك ؛ لأنَّ قومهم كانوا يعبدون الأصنام ، ﴿ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ .

قال ابن عباس : يعني فجورا ، وقيل : كذبًا يعني إن دعَونا غير الله . ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ﴾ يعني أهل بلدهم ، اتخذوا من دونه أي من دون الله آلهة :

يعني أصنامًا يعبدونها ، لولا : أي هلا ، يأتون عليهم : أي على عبادة الأصنام بسلطان بيِّن ، أي بحجة واضحة ، وفيه تبكيت ؛ لأنَّ الإتيان بحجة على عبادة الأصنام محال ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا ، أي وزعم له شريكًا وولدًا .

ثم قال بعضُهم لبعض : وإذ اعتزلتموهم ، يعني قومكم ، وما يعبدون إلَّا الله ، وذلك أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنام ، والمعنى : وإذ اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون إلَّا الله ، فإنكم لَمْ تعتزلوا عبادته ، فأووا إلى الكهف أي الجأوا إليه ، « ينشُر لكم » أي يبسُط لكم « ربُّكم من رحمته ، ويهيئ » : أي يسهِّل لكم ، « من أمرِكم مرفقًا » : أي ما يعودُ إليه يُسْركم ورفقكم ، قوله ﷻ : ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ ﴾ أي تميل عن كهفهم ذات اليمين ، أي جانب اليمين ، وإذا غربَتْ تقرضُهم أي تتركهم ، وتعدِلُ عنهم ذات الشمال ، ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي متَّسع من الكهف ، ذلك من آيات الله ، أي من عجائب صنعه ودلالة قدرته ، وذلك إنما كان في ذلك السَّمْت ، تصيبه الشمس ولا تصيبهم ، اختصاصًا لهم بالكرامة .

وقيل : إن باب الكهف شماليٌّ مستقبلٌ لَبنات نعش ، وهم في معناه أبدًا لا تقع الشمسُ عليهن عند الطلوع ولا عند الغروب ، ولا عند الاستواء ، قبورهم نحوها ، ولكن الله اختار لهم مضجَعًا في متَّسع ينالُهم فيه بردُ الريح ونسيمُها ، وترفعُ عنهم كرْبَ الغار وغمَّه ، وعلى هذا القول يكون معنى ذلك من آيات الله أنَّ نشأتَهم وحديثَهم من آيات الله ، ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ يعني مثل أصحاب الكهف ، وفيه ثناءٌ عليهم ، ومن يضلل : أي ومن يُضلل الله ولَمْ يُرشده ، فلن تجد له وليًّا أي معينًا مرشدًا .

قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ خطابٌ لكل أحد، ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ أي منتبهين، عيونهم مفتَّحة، ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾، أي نيام، ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾، قال ابن عباس: كانوا يتقلَّبون في السنة مرة من جانب إلى جانب؛ لئلا تأكل الأرضُ لحومَهم، قيل: كانوا يتقلَّبون في يوم عاشوراء، وقيل: كان لهم في السنة تقليبتان، ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ قال ابن عباس: كان كلبًا أحمر، وأنه كان فوق القلطى ودون الكردي، والقلطي كلب صيني، وقيل: كان أصفر، وقيل: كان شديد الصفرة، يضرب إلى حمرة.

وقال ابن عباس: كان اسمه قطمير، وقيل: ريان، وقيل: [صيهان](١)، وقيل: ليس في الجنة من الدواب سوى كلبِ أصحابِ الكهفِ، وحمار بلعم. بالوصيد: يعني فناء الكهف، وقيل: عتبة الباب، وكان الكلبُ قد بسَط ذِراعيه، وجعل وجهه عليهما، وقيل: كان يتقلَّبُ مع أصحابه، فإذا انقلبوا ذات اليمين، كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها، وإذا انقلبوا ذات الشمال، كسر أذنه اليسرى ورقد عليها، لو اطَّلعتَ عليهم يا محمد، لوليْتَ منهم فرارًا، وذلك بما ألبسهم الله من الهيبة، حَتَّى لا يصل إليهم أحدٌ حَتَّى يبلغ الكتابُ أجلَه، فيوقظهم الله من رقدتهم، ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي خوفًا من وَحْشة المكان، وقيل: لأنَّ أعينَهم مفتَّحةٌ كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلَّمَ وهو نائم، وقيل: لكثرة شعورِهم وطولِ أظفارهم، وتقليبهم من غير حس ولا إشعار، قيل: إن الله - تعالى - متَّعهم بالرعب، لئلا يراهم أحد.

(١) كذا في (ج) وفي الأصل صهربا.

قال ابن عباس : غزوْنا مع معاوية نحو الروم ، فمررْنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف ، فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس : مَنع ذلك مَنْ هو خير مني ومنك ، فقال : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ فبعث معاوية أناسًا فقال : اذهبوا فانظروا ، فلمَّا دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحًا فأخرجتهم .

قوله ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أي كما أنمناهم في الكهف ، وحفِظْنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ، بعثناهم من النومة التي تشبه الموت ، ﴿ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليسأل بعضُهم بعضًا ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهو رئيسُهم وكبيرهم مكسلمينا : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ وذلك أنهم استنكروا طولَ نومهم ، وذلك أنه راعهم ما فاتهم من الصَّلاة ، فقالوا ذلك ، ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا ﴾ ثُمَّ نظروا فوجدوا الشمس قد بقي منها بقية ، فقالوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ فلمَّا نظروا إلى طول شعورهم وأظفارهم ، علموا أنهم لَبِثوا أكثر من يوم ، ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ وقيل : إن مكسلمينا لمَّا سمع الاختلاف بينهم ، قال : دعُوا الخلاف بينكم ، ربُّكم أعلم بما لبثتم ، ﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم ﴾ يعني تمليخا ﴿ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ ﴾ يعني الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ، ﴿ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ قيل : هي طرسوس ، وكان اسمها في الزمن الأول قبل الإسلام افسوس ، ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي أحلّ طعامًا ، وقيل : أمَرهُ أن يطلب ذبيحة مؤمن ، ولا يكون من ذبح مَنْ يذبح لغير الله ، وكان منهم مؤمنون يخفون إيمانهم ، وقيل : أطيب طعام وأجوده ، وقيل : أكثر طعام أو أرخصه ، ﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ أي قوت وطعام تأكلونه .

﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي وليرتَفِق في الطريق وفي المدينة، وليكُنْ في ستر وكتمان، ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ أي ولا يُعلمن ﴿ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أي من الناس ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أي يعلمون بمكانكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ قيل: معناه يشتموكم ويؤذوكم بالقول، وقيل: يقتلوكم، وقيل: كان من عادتهم القتل بالحجارة، وهو أخبثُ القتل، وقيل: يضربوكم، ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾، أي الكفر، ﴿ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ أي إن عدتم إليه.

قوله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي اطلعنا عليهم ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ يعني قوم يندروسيس الذين أنكروا البعث، ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي لاشك فيها إنها آتية ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ قال ابن عباس: فقال المسلمون نبني عليهم مسجدًا يُصلَّى فيه؛ لأنَّهم على ديننا، وقال المشركون: نبني بنيانًا؛ لأنهم من أهل مِلَّتنا، وقيل: كان تنازعُهم في البعث، فقال المسلمون: تُبعث الأجساد والأرواح، وقال قوم: تُبعث الأرواح، فأراهم الله آية، وأن البعث للأجساد والأرواح، قيل: يتنازعون في مدة لبثهم، وقيل في عددهم، فقالوا: ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ ﴾ يعني تندروسيس وأصحابه: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [كان] السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى نجران عند النبي ﷺ، فجرى ذكرُ أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبيًا: كانوا ثلاثةً رابعُهم كلبهم، وقال العاقبُ وكان نسطوريًا: كانوا خمسة سادسهم كلبهم، وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فحقَّق الله قولَ

المسلمين ، وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ على لسان جبريل عليه السلام ، بعدما حكى قولَ النصارى أولًا ثُمَّ أتْبعه بقوله -تعالى- : ﴿ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي ظنًّا وحدسًا من غير يقين ، ولم يقل في السبعة ، وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أنَّ الحال في الباقي بخلافه ، فوجَبَ أن يكونَ المخصوصُ بالظن هو قولُ النصارى ، وأن يكون قولُ المسلمين مخالفًا لقول النصارى في كونه رجمًا بالغيب وظنًّا .

ثُمَّ أتبعه بقوله – تعالى – : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ ثُمَّ أتبعه بقوله – تعالى – : ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ هذا هو الحق ؛ لأنَّ العلم بتفاصيل كائنات العوالم والكائنات فيها ، في الماضي والمستقبل لا يحصل إلَّا بالله – تعالى – ، أو لمن أخبره الله – تعالى – بذلك ، قال ابن عباس : أنا مِن أولئك القليل : كانوا سبعة وهم : مكسلمينا ، وتمليخا ، ومرطونس ، ومهونس ، وساربونس ، ودونوانس ، وتمليسيتطونس ، وهو الراعي ، وكلبهم قطمير .

﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ ﴾ أي لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم ﴿ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ أي إلَّا بظاهر ما قصصنا عليك ، فقِفْ عنده ولا تزِدْ عليه ، ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم ﴾ أي في أصحاب الكهف ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ يعني من أهل الكتاب ﴿ أَحَدًا ﴾ أي لا ترجع إلى قولٍ واحدٍ منهم بعد أن أخبرناك قصَّتهم .

قوله ﷻ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ يعني إذا عزَمْتَ على فعل شيء غدًا فقل إن شاء الله ، ولا تقله بغير استثناء ، وذلك أنَّ أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، فقال : أخبركم غدًا ، ولم يقل إن شاء الله ، فلبث الوحي أيامًا ، ثُمَّ

نزلت الآية. قوله ﷻ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قال ابن عباس: معناه إذا نسيت الاستثناء ثُمَّ تذكرت فاستثنِ ، وجوَّز ابن عباس الاستثناء المنقطع وإن كان بعد سنة ، وجوَّزه الحسن ما دام في المجلس ، وجوَّزه بعضُهم إذا قرب الزمان ، فإن لَمْ يعد لَمْ يصح ، ولم يجوِّزْه جماعة حَتَّى يكونَ الكلامُ متَّصلًا بالاستثناء ، وقيل في معنى الآية : واذكر ربك إذا غضِبت .

قال وَهْب : مكتوب في الإنجيل : « يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب » ، وقيل : الآية في الصَّلاة ، يدلُّ عليه ما رُوِيَ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نسِيَ صلاةً فليصلِّها إذا ذكرَها ، ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ »[1] متفق عليه ، زاد مسلم : ونام عنها فكفَّارتُها أن يصلِّيها إذا ذكرها . ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أي يُثَبِّتني على طريق هو أقربُ إليه وأرشد ، وقيل : إن الله أمرَه أن يذكِّره إذا نسِيَ شيئًا ، وسأله أن يذكِّره ويهديه لِمَا هو خير له ، ومن تذكر ما نسي .

وقيل : إن القوم لَمَّا ذكروا قصةَ أصحاب الكهف على وجه العناد ، أمره - تعالى - أن يُخْبرهم أن الله - تعالى - سيؤتيه من الحِجج على صحة علم غيبِ المرسلين وقصصِهم ، ما هو أوضح وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف ، وقد فعل ، حيث أتاه ما هو أوضح وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف . وقيل : هذا شيء أُمِر أنْ يقولَه مع قوله إن شاء الله ، إذا ذكر الاستثناء بعد النسيان ، وإذا نسي الإنسانُ قولَه : إن شاء الله ، فيؤتيه من ذلك عسى أن يهدني ربي لأقربَ من هذا رَشَدا .

قوله - تعالى - : ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤).

قيل : هذا خبر عن أهل الكتاب ، ولو كان خبرًا من الله عن قَدْر لَبْثهم ، لَمْ يكن لقوله : « قال الله أعلم بما لَبِثوا » وجْهٌ ، ولكنَّ الله ردَّ قولهم بقوله : « قل الله أعلم بما لَبِثوا » ، والأصحُّ أنه إخبار من الله - تعالى - عن قدْر لَبْثهم في الكهف ، ويكون معنى قوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ أي إن نازعوك في مدة لَبْثهم فقل : إن الله أعلم منكم ، وقد أخبرَ بمدة لَبْثهم ، وقيل : إنَّ أهل الكتاب قالوا : إن المدة من حين دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ، وهو اجتماعهم بالنبي ﷺ ، ثلاثمائة وتسع سنين، فردَّ اللهُ عليهم ذلك، قل : الله أعلم بما لَبِثوا ، يعني بعد قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلمه إلَّا الله . فإن قلت : لِمَ قال : سنين ولَمْ يقل سنة ، قلتُ : قيل [اختلفوا في دلالة] قوله : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ ﴾ فقالوا أيامًا أو شهورًا أو سنين ، فنزلتْ سنين على وفق قولهم ، وقيل : هو تفسير لِمَا أجمل في قوله : ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴾ و ﴿ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ .

قيل : قالت نصارى نجران : أما الثلاثمائة فقد عرفناها ، وأما التسع فلا عِلْم لنا بها ، فنزل قوله : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ وقيل : إن أهل الكتاب لَبثوا ثلاثمائة شمسية ، والله - تبارك وتعالى - ذكر ثلاثمائة سنة وتسع سنين قمرية ، والتفاوت بين القمرية والشمسية في كل مائة سنة ثلاث سنين ، فيكونُ الثلاثمائة الشمسية ثلاثمائة وتسع سنين قمرية ، ﴿ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ يعني أنه - تعالى - لا يخفى عليه شيء من أحوال أهلها ، وأنه العالِمُ به وحده ، فكيف يخفى عليه حالُ أصحاب الكهف ؟ ﴿ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ ﴾ معناه : ما أبصر اللهُ بكل موجود وأسمعه لكل مسموع ، لا يغيبُ عن سمعِه وبصرِه شيء ، يدركُ البواطنَ كما يدرك الظواهر ، لا تخفى عليه خافية ، ﴿ مَا لَهُم ﴾ أي ما لأهل السموات

والأرض ﴿ مِّن دُونِهِۦ ﴾ أي من دون الله ﴿ مِن وَلِيٍّ ﴾ أي ناصر ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ قيل : معناه لا يشارك الله في علم غيبه أحدٌ ، وقيل : في قضائه ، انظر كبيرَنا في كرامات الشَّيْخ ، فقد أشبعْنا الكلام فيه في هذا المعنى ، في الفصل السابع منه ، وقد رأيتُ أن أقتصرَ على ذِكْر أصحاب الكهف والله أعلم .

[زيارة إلى المغرب]

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي علي الزمرُّدي - كان من أجَلِّ أصحاب الشَّيْخ ، وهو ممَّن كثُرتْ معاشرتُه معه - قال : تحدَّث قلبي ذات يوم عن المغرب وصفتِه ومدائنه ، وعلى البحور وجزائرها ، وعلى الأولياء ، وكيف تُطوى لهم الأرض ، وتَردَّد ذلك في سِرِّي ، وكان هذا بعد صلاة الصبح ، فقصدتُ زيارةَ الشَّيْخ في ذلك اليوم ، فوجدتُه واقفًا بباب زاويته ، فسلَّمْتُ عليه ، فأخذ بيدي وقال أنا اليوم أُفرجُك على المغرب وغيره ، وأوسِّع خاطرَك يا علي ؛ لأنَّ قلبك كان يتحدَّثُ عن ذلك ، وهو طي الأرض ، ولكن أوصيك إذا دخلْتَ معي البحر ، فقل : بسم الله احمليني يا قدرة الله ، وخرج من البلد مقبِّلا(١) وأنا معه ، إلى أن جاوزْنا إلى نحو الأربعين ميلا في ربع ساعة ، ثُمَّ تَيامَنَّا مغرِّبين ، حَتَّى أشرفْنا على ساحل بحر مالح متلاطم الأمواج أسود ، فأخذنا عن يميننا ، ثُمَّ مَشَيْنا يسيرًا وإذا بجبلٍ عظيم وبلدةٍ أسفلَه من ناحية القِبلة ، فإذا بجبالٍ متفاوتةِ الطول ، ثُمَّ وجَّهنا وجوهنا إلى المغرب ، وسِرْنا قليلًا وإذا بجبل آخر ، ثُمَّ مشينا قليلًا

(١) مقبِّلًا : متجهًا جنوبًا .

راجعين إلى الجوف[1] ، وإذا بمدينة كبيرة شديدة البياض ، فجاوزناها وسِرنا قليلًا ، وإذا بمدينة أخرى نحوها ، فلمَّا قربنا منها إذا بكهلين خارجين من تلك المدينة قاصدين إلينا ، فالتقينا بهما وفَرَحا بالشَّيْخ فرحًا عظيمًا ، وأدخلانا إلى مسجد بخارج المدينة ، وجلسْنا معهما فيه ، إلى أن صلَّينا معهما الظهر والعصر ، ورغبَّاه في المبيت عندهما فامتنع ، وانصرفنا عنهما ومشينا قليلًا .

ثُمَّ توجَّهنا إلى الجوف ، ودخل بنا إلى البحر يمشي في الهواء فوق الماء ، إلى أن مررْنا بجزيرة فيها جماعة على هيئة الآدميين ، قاموا إلى الشَّيْخ وسلَّموا على يديه ، ومشَيْنا في الهواء قليلًا ، وإذا بجزيرة أخرى عظيمة كثيرة الأشجار ، وأنا لَمْ أَغفُل عمَّا أوصاني به الشَّيْخُ من التسمية وغيرها ، ثُمَّ مشينا قليلًا ، وإذا بجزيرة بيضاء فأقبلنا إليها ، وإذا فيها أقوامٌ بأيديهم سيوفٌ ورماح وبأيديهم جراحٌ تنبُع بالدم[2] ، يأكلون الدَّمَ ورائحتُهم كرائحة المِسْك الغالية ، وحولهم أطفال صغار ، ثُمَّ سِرنا غير بعيد ، وإذا بجبل عظيم عالٍ ، وعليه رجلٌ جميلُ الصورة ، قائمٌ يصلِّي وخلفَه شيخان يصليان معه ، فلمَّا انتهوْا من الصَّلاة سلَّموا على الشَّيْخ ، وخلا بينهم قليلًا ، ثُمَّ ودَّعهم وسِرْنا ، وإذا بجبل متوسِّطٍ عليه شيخٌ أبيضُ وعليه ثيابٌ بيضٌ ، يسبِّح في سبحة ، فتقدَّم له الشَّيْخ وسلَّم عليه ، ثُمَّ طأطأ عليه قليلًا ، ثُمَّ مشينا إلى أن جازونا البحر ، ومشينا بعد ذلك قليلًا ، إلى أن عرفتُ أرضَ بستان يزليتن القبلي .

(١) الجوف : الشمال .

(٢) يدخل هذا السرد في الخيال الذي نجده في قصص الحلَّاج وغيره .

قال: ووصلنا إلى يزليتن قبل اصفرار الشمس، فلمّا وصلتُ معه لخلْوته، أمرني بالجلوس معه، وقال: يا علي كيف رأيت اليوم طيَّ الأرض؟ أتدري أين كنت اليوم؟ قلت: لا والله، قال والله كنَّا في المغرب، وفي البحر المحيط، وما حوله، أما البحر الأول الذي رأيت، فهو بحر غرناطة(١)، والجبل العظيم هو جبل جُهيم، والمدائن التي قُبالتُه هي مدائن الأندلس، والجبال المتفاوتات هي جبال الرقراق، والجبال الأخرى التي رأيتَ بعدهُنَّ هي جبال درقة، وكنفيس، والبلدان التي تقرُب منهن دوكالة، والساقية الحمراء، ودرعا، وسوس الأدنى، وسوس الأقصى، والمدينة البيضاء: فاس، والمدينة الأخرى التي رأيت بعدها مَكْناس، والكهلان اللذان رأيتَ من أولياء الله - تعالى -، أزورهما ويزورانني في كل وقت، والبحر الذي دخلناه بعد ذلك هو البحر المحيط، والجزيرة الأولى التي رأيتها، يُقال لها: جزيرة سيدنا إسكندر ذي القرنين، والجماعة الذين جاءوا إلينا منها وسلموا على يدي، هم من جيش الأبيض الجني، والجزيرة البيضاء تسمَّى: جزيرة التمساح، والأقوام الذين عليها وبأيديهم السيوف والرماح، هم من جيش الأحمر الجني(٢)، والأطفال الذين حولهم أولادهم.

والجبلُ العظيمُ الذي رأيتَ بعد ذلك اسمُه الباذخ، والرجل الذي عليه يصلي: سيدنا أحمد الخضر ﷺ، والشيخان اللذان خلفه [هما]: سيدي سري السقطي وذو النون المصري، والجبل المتوسط جبل الدقداق،

(١) غرناطة لا تقع على البحر، فهل يوجد بحر يحمل هذا الاسم، أو أن للصوفية إشاراتها الخاصة؟ أم أن هذا مما نسب إلى الشَّيْخ وليس له.

(٢) هكذا حُشيت سيرة هذا الشَّيْخ الصالح والعالم الجليل عبد السَّلام الأسمر - رحمه الله - بهذه المعلومات الوهمية، ولو كان لهذه الجيوش صلة بالبشر لما سقطت غرناطة أمام أعينهم في حقبة قريبة من هذه الحقبة.

والرجل الجالس عليه : سيدنا إلياس عليه السلام ، والله لقد رأيتُ حينئذ عجائبَ وغرائبَ يعجزُ الإنس عنها ، وأعلمني الشَّيْخُ بكل ما رأيتُ ، وما عاينتُ ، والله تعالى هو الذي يطوي أرضَه لأوليائه في السر والعلانية ، وهو على ما يشاء قدير .

وحدَّثني أيضًا سيدي علي هذا من هذا المعنى الذي هو طيُّ الأرض ، قال : مرض الشَّيْخُ العالِمُ الكبير الشهير سيدي أبو العباس أحمد بن محمد الفيتوري - وهو عم الشَّيْخ - بالصفراء إلى أن حارت في دوائه أطبة الزمان، وربما أشرف على الهلاك من شدة ذلك ، فلمَّا كان ذاتَ يوم وهو في أشدِّ مرضِه ، دخل عليه بعضُ الصالحين من علماء المغاربة ، وهو من له مخبرة بالطب والعلم الطبيعي ، وقال له : يا أبا العباس لا يبرئك شيءٌ من هذه الصفراء إلَّا الظمأ والأكلُ من ورق الحُمَّيرة الذَّكر ، وهي عَشْبة تَنْبت بأرض طور سيناء في كل فصل ، لا توجدُ في غيره ، ووَصَفَها له ، فلمَّا سمع ذلك سيدي أبو العباس بعث للشيخ فجاءه ، وقال له : يا ابن أخي يا عبد السَّلام ، إن لي عليك حقًّا ، إن لَمْ تأتن بشيء من ورق الحُمِّيرة الذَّكر من أرض طور سيناء ، أُداوي بها مرضي الذي هو الصفراء ، لا أسامحك في حقي عليك ، قال سيدي علي : فلمَّا صلَّينا الظهرَ ، سَرَجَ الشَّيْخُ فرسَه «سعيدة» ، وأخذ جِرابًا ، وركبها ، وأمرني بالركوب معه ، فركبتُ وراءه ، وركض بنا الفرس نحو ساعة ، فما دريتُ وإذا بنا بأرض لَمْ أعرفْها ، ثُمَّ سِرنا غيرَ بعيد ، فأتينا إلى بلدةٍ ما رأيتُها قط ، ولا أدري في أي أرض هي ، فقام إلينا أهلُها ، وتلقَّونا وبالَغوا في إكرامنا .

ثُمَّ جاوزنا تلك المدينة ، فأتينا إلى مدينة ، فقلت له : ما هذه المدينة ؟

فقال : هذه مدينةٌ خالية كان يسكُنُها الجهَلة ، ثُمَّ ركض بنا الفرسُ قليلًا ، وإذا بنا بأرض خضراء كثيرة الأزهار ، وقدَّامها السواد عرضًا وطولًا ، فنزل الشَّيْخ ونزلتُ عَقِبه ، وتركْنا الفرسَ هناك ترتَع في الربيع ، ثُمَّ قال : يا علي هل تعلم بنا الآن في أي موضع ؟ فقلت له : لا والله ، فقال : هذه أرض طور سيناء ، وهي التي تَنبُتُ فيها الحُمِّيرة ، والسواد الممتد الذي قدامها هو الجبلُ المتدكدك الذي ذاب من هيبة الله ﷻ في زمن موسى عليه السلام ، ثُمَّ ملأ الشَّيْخ الجراب من ورق الحُمِّيرة ، وركبنا الفرسَ وركضها بنا ، قدر ربع ساعة ، وإذا بنا في الموضع الذي خرجنا منه ، وهو يزليتن قبل صلاة المغرب .

فلمَّا تداوى أبو العباس بذلك برئ ، والله - تعالى - هو الشافي اللطيف، ويُشبه ذلك ما حدَّثني به الأخ في الله الصالح سيدي خليفة بن بَالخَير الشوشان - خديم الشَّيْخ - قال : رمدت السيدة الفاضلة عيادة الدرعية - والدة الشَّيْخ - بعينيها أشدَّ الرمد ، إلى أن طال مرضُها به ، وربما خافت على نفسها من العمى ، فلمَّا كان ذات ليلة رأتْ في منامها الشَّيْخ سيدي فتح الله بو راس بعد موته ، واشتكت له مما بها من الرمد ، فقال لها : لا يبريك منه إلَّا ماء زمزم ، تضعين منه شيئًا على عينيك ، فقالت له : ومَنْ يأتيني به ؟ فقال لها : ابنك عبد السَّلام يأتيك به ، فلمَّا أصبح الصباح ، جاءت إلى الشَّيْخ بالخلْوة ، وقالت له : يا عبد السَّلام لا أسامحُك إلَّا أن تأتيني بشيء من ماء زمزم ، أغسِلُ به عيني فَتُشْفَى ، فلمَّا صلى بنا العشاء الأخيرة من ذلك اليوم ، أمرني أن نُسْرج له فرسَه «سعيدة» ، فسرجْتُها له ، وأخذ إبريقًا وركِبها، وأمرني أن أركَب معه - أي وراءه - فركبتُ وأخذتُ بركابه ، وسار قليلًا ، قال : فما شعرتُ وإذا بأرضٍ غير أرضنا بين جبال شمخ ، ثُمَّ

سِرنا قليلًا وإذا نحن بباب المسجد الحرام ، فتركْنا الفرسَ خارجه ، ودخلْنا فطُفْنا بالبيت ، ومكثْنا ما شاء الله - تعالى - ، ثُمَّ ملأ الشَّيْخُ الإبريق من ماء زمزم ، وركِبَ الفرس، وركبتُ وراءه ساعة ، وإذا نحن بيزليتن قَبْل أن ينام الناس، فلمَّا غَسَلت السيدةُ عيادة وجهها من ذلك الإبريق برئت بإذن الله .

ومن هذا المعنى الذي هو طيُّ الأرض ، ما حدَّثني به الأخ في الله الصالح سيدي مبروك بنُ سالم العلاقي ، أخو الشَّيْخ حماد لأمه ، كان من أجل تلامذة الشَّيْخ ، قال : توجهتُ أنا وجماعةٌ من أهل بلدنا تاورعة لزيارة الشَّيْخ سيدي عبد السَّلام ، وكان في أيدينا أسوكة من الجريد نستاك بها ، فلمَّا وصلْنا إلى الشَّيْخ وصافحناه ، ووقفْنا أمامه وهو عند ذلك بباب خَلْوته، قال لنا : ما هذه الأعواد التي بأيديكم ؟ فقلنا له : [أعواد نستاك] بها فقال : أوليس عندكم أسوكة أراك ؟ فقلنا : لا . فدخل الخَلْوة وأغلق بابها وراءه ومكثَ يسيرًا ، ثُمَّ خرج علينا وبيده حزمة من قضبان الأراك الأخضر بورقه ، ورماها بيننا ، وقال : دونكم فاقتسمناها عودًا عودًا لكثرتنا ، فالله أعلمُ أنه لَمْ يمكث إلَّا مقدارَ قلع الأراك ، ولا يوجد الأراك دون مصر ، وإنما يوجد بأرض الحجاز وما قاربها - والله تعالى أعلم - .

فإن قلت : اختلف علماءُ الظاهر في تكفير معتقِد قطع المسافة البعيدة في زمن يسير للولي ، كما وقع للأستاذ إبراهيم بن أدهم ﷺ ، أنهم رأَوْه في البصرة يوم التروية ، ورأَوْه ذلك اليوم أيضًا بمكة ، وذهب محمد بن مقاتل الحنفي إلى أنه يكفِّرُ مَنْ يعتد ذلك الجواز على غير الأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام - ؛ لأنَّ مثل هذا الأمر من باب الكرامة إنما هو من المعجزات ، وذهب أبو عبد الله الزعفراني الحنفي إلى أن معتقد ذلك جاهلٌ وليس بكافر، قلت : قال في «جامع الفصلين» - أحد كتب الحنفية المعتمدة - في

الفصل الثامن والثلاثين منه ، بعد أن نقل كلام ابن مقاتل وأبي عبد الله الزعفراني الحنفي إلى الجواز : « ينبغي أن لا يكفَّر معتقِدُ ذلك ، ولا يُستجْهَل ؛ لأنَّه من الكرامات لا من المعجزات ، إذ المعجزة لابد فيها من التحدي ، ولا تحد هنا، فلا معجزة ، فعند أهل السنة تجوز الكرامة ولو عظُمت ، والله - تعالى - أعلم » .

وقال السيد أحمد الحمري الحنفي بعد نقله لذلك : أقولُ : معنى قوله : إنما هو من المعجزة أي مما لا يقع إلَّا معجزة ، فلا يجوز وقوعه على سبيل الكرامة ، إذ ليس كلُّ ما يجوز وقوعه معجزة ، يجوز وقوعه كرامة ، وذلك كوجود ولدٍ بلا أب ، وقلب جماد بهيمة ، وإحياء ميت ، فإنه معجزة ، ولا يجوز وقوعه كرامة - كما قيل - يعني الاختصاص لهذه الخوارق بالأنبياء .

قال : والتحقيق وقوعُ ما ذُكر كرامة ، وأنه كلما جاز وقوعُه معجزة ، جاز وقوعُه كرامة من غير استثناء ، هذا ويُشْكل على قَوْلِ محمد بن مقاتل ما صرحوا به في ثبوتِ النسب ، من تجويز قَطْع المسافة البعيدة كرامةً في إلحاق نسب المشرقية بالمغربي فلا تُغفل اهـ . وقال الفقيه الإمام العالِم المحقق العارف بالله سيدي محمد بن يوسف السنوسي في شرحه الكبير على عقيدة أهل التوحيد المسمَّى : « عمدة أهل التوفيق والتسديد » في مبحث المعجزة والكرامة عند قوله : « وبقوله مقارِنًا لدعوى الرسالة مما وقع بدون دعوى ، أو بدعوى غيرِ دعوى الرسالة ، كدعوى الولاية : هذا الذي ذكرتُ بما تتميز به المعجزة عن الكرامة ، وذلك أنَّ الكرامة وإن كانت أمرًا خارقًا للعادة فإنها لا تكون مقارنَةً لدعوى النبوءة ، وبهذا يزول اللَّبس بينهما » ، ومن أئمتنا مَنْ ذَهب إلى [أن] الفرقَ بينهما أنَّ الكرامة لا تقعُ عن اختيارٍ وقصدٍ من الولي ، بخلاف المعجزة ، والمرادُ بالاختيار والإرادة هنا :

الشهوة والتمني ، إذ الفعل الخارق قد يكون من غير جنس مقدور العبد ومراده .

ومن الأئمة من فرَّق بينهما بأنَّ كلَّ ما وقع من الخوارق معجزةٌ لنبي لا يقع كرامةً لولي ، كإحياء الموتى ، وإبراءِ الأكمه ، وقلبِ العصا حية ، وفَلْق البحر اطرادًا ، والأستاذُ يُصَرِّحُ بمنع هذا ومنْعِ غيرِه من الخوارق على يد الأولياء ، وإنما يجوزُ ما يجري مجرَى إجابة الدعوى ، ووجودِ ماء في البرية ، وغير ذلك مما يُكرِمُ الله - تعالى - به عباده ، ولا يبلُغُ خوارق العادات ، وهؤلاء يزعمون أن قول النبي ﷺ : « لا يأتي أحدٌ بمثل ما أُتيت به »[1] يمنع مِنْ وُقوع شيء من معجزات الأنبياءِ على يد الأولياء ؛ لئلا يؤدي إلى تكذيب مَنْ ثبَتَ صِدقُه ، قال : وهذا مُندفِع ، فإنَّ تحدي النبيِّ مفيدٌ بأنه لا يَظْهر ما أتى به على يدِ مَنْ يبغي معارضَتَه ومناقضَتَه ، ولا على يدي مفترٍ كذاب ، ويدلُّ على هذا التقييد أنَّ ظهورَ ما أتى به على يدي نبي آخر ، لا يقدحُ في معجزاته اتفاقًا ، قال : ومذهبُ المحقِّقين جوازُ وقوع الخوارقِ كلِّها على يدِ الوليِّ باختياره وبغيرِ اختياره ، وأنَّ الفرقَ بينها وبين المعجزة ما قدَّمنا أولًا من دعوى النبوءة وعدمها ، والوليُّ إنما يَظهر على يديه ما يظهر من الكرامات ببركة متابعته للرسول ﷺ ، والاقتداءِ به ، فهو أحقُّ بالدلالة على صدق المتبوع ، وعاضد له .

ثُمَّ قال : وأما الفرق بين الكرامة والسِّحْر ، فهو : أنَّ الكرامة ظهورُ الخوارق على يد عبدٍ ظاهرِ الصلاح ، بخلاف السِّحْر ؛ فإنَّ الخارق فيه إنما يظهرُ على يد الكفار والفسَّاق ، وحدَّ بعضُهم الكرامة ، فقال : « هي عبارة

---

(1) لم أقف عليه، وانظر الكلام بنصه في « شرح المقاصد في علم الكلام » لسعد الدين التفتازاني ٢/٢٠٣.

عن ظهور خارقٍ للعادة على عبدٍ ظاهر الصَّلاح ليس بنبي في الحال ولا في المآل »، فخرج بقوله: « على يدِ عبدٍ ظاهر الصَّلاح » السِّحْر والاستدراجُ، وهو خَلْقُ الخارق على يد الأشقياء كالدجال، وفرعون، والجهلة الضالِّين المضلِّين. وبقوله: « ليس بنبي » خرجَتْ المعجزة، وبقوله: « لا في الحال ولا في المآل » خرج الإرهاص وهو « عبارة عن العلامات الدالَّةِ على بِعْثة نبي » كالنور الذي كان يَظهر في جبين عبد المطلب، مأخوذ من الرِّهص بكسر الراء، وهو أساس الحائط، فأطلقَ على هذه العلامات الإرهاص؛ لأنَّها تأسيسٌ لقاعدة النبوءة، وقولُه كدعوى الولاية، يعني على القول بجواز ادِّعائها، وفيه خلاف اهـ.

فقد تبيَّن لك ما ذكرناه مما هو عن الأئمة نقلناه، جوازُ كلِّ ما وقع لهذا الشَّيْخ - الذي هو مولانا عبد السَّلام - وغيرُه من الأولياء من خوارق العادات، فلا تستغرب شيئًا من ذلك؛ لأنَّ الله - تعالى - قديرٌ وبالإجابة جدير، فهلَّا رأيتَ ما نقل الشَّيْخُ عبد الغفار في كتاب « الوحيد في ذكر أهل التوحيد » عن شيخ الشيوخ من مسكنه ببغداد، كان خادمُه أخذَ سجادة الفقراء، وخرجَ يوم الجمعة ليفْرِشَها لهم، فنزَل ليتطهَّر في الشط، فطلَع بمصر فمشى فوجد رجُلًا صباغًا، وكان يدري صناعة الصباغة، فاستعمله فيها مدةً، وزوَّجه بابنته، وأقام معها سبع سنين وولدت منه أولادًا، ثُمَّ نزل يوم جمعة ليغتسل ببحر النيل، فطلع ببغداد ووجد السجادة على المكان الذي تركها فيه، فأخذها وفرَشها لهم وصلُّوا صلاة الجمعة، فقال له الشَّيْخ: أبطأتَ في هذه المرة، فقال له: يا سيدي جرى لي كذا وكذا، وقصَّ عليه القصة، فقال: تفكَّرت في قوله - تعالى -: ﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج ٤)، فقال له: يا ولدي إن الله ﷻ يبسُط الزمان في حق

قوم ، ويقبضه في حق قوم آخرين ، وقد أراك الله – تعالى – ذلك ، ثُمَّ أرسل الشَّيْخ إلى مصر وأحضر أولاده إلى بغداد ، فهذا وأمثاله جائز [1] .

وهذه الحكايةُ وإن كانت غريبةً في خَرْق العوائدِ وإدخال الواسع في الضيّق ، فلا يمتنعُ على الله – تعالى – وقوعُها، وأمثالِ أمثالها إلى ما لا نهاية له[2] ؛ لأن القدرة لا يمتنع عليها شيء ، والمشيئةُ والقدرةُ لا حَجْر عليهما ، ويجب الإيمان بذلك كله ، وله مثال ظاهر ، فإنك إذا أردت أن تقرأ القرآن بالحروف والأصوات حرفًا حرفًا ، وقرأته على هذه الهيئة ، عرفْتَ قدر الوقت الذي قرأت فيه ، فإذا رسخ لك في خاطرك كان كاللمحة الواحدة بالنسبة إلى ذلك الوقت ، حَتَّى ذُكر أن شخصًا قرأ سبعين ألف ختمة في اليوم الواحد ، وحكايتُه مشهورةٌ بالسَّند بمكة شرفها الله ، وهي عن الثقات الصالحين ، وضربَ الأمثالَ في إدخال الواسع في الضيق ، ثُمَّ قال : بعد أن ذكر قوله – تعالى – : ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (النمل ٣٩-

---

(١) الفاتحون من الصحابة والتابعين الذين فتحوا البلدان للإسلام تحملوا المشاق في كل خطوة حققوا فيها النصر ، ونشروا بتلك الجهود الإسلام واللغة العربية ، ولم يكتب في سيرهم أن الأرض انطوت لهم ، ولم نسمع أن أحدهم طار في الجو قبل عباس ابن فرناس الذي كان يمهد لحركة طيران بشري ، أما الطيارون في الجو والذين يطوون المسافات ويمشون على الماء فقد جرى الحديث عنهم بعد القرن السابع الهجري ، وفي عصرهم غزانا المغول والصليبيون وحتى فرسان مالطا ، وطردنا الإسبانُ من الأندلس ، بل غَزُونا في عقر ديارنا في شمال إفريقيا . ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . والأغرب في هذه القصة أن يختلف الزمن بين مصر والعراق سبع سنين !

(٢) نعم لا يمتنع على الله تحقيق أكثر من ذلك عندما يفعل ما يريد ، ولكننا ننسب هذه الحكايا إلى بشر لا إلى الله ، ونضع الله ﷻ في موضع المنَفِّذ لإرادتنا وخيالاتنا ، فإذا رأينا هذه الأخيلة قد بالغت كثيرًا قلنا ليس ذلك على الله بعزيز .

٤٠) . انظر إلى قول الأول وإلى قول الثاني ، هذا والمسافةُ واحدةٌ إلى ما بين حالتي الشخصين ، وسرعة الوقت مع بعد المسافة إلى غير ذلك اهـ .

وفي « عيون الأسئلة وفنون الأجوبة » للإمام الرازي في سورة السجدة فائدة : ورد في يوم القيامة أنه ألف سنة لقوله - تعالى - : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة ٥) ، وفي آية أخرى : « خمسين ألف سنة » فما الجمع بينهما ؟ والجواب : أنَّ الزمان يطول بحسب الشدائد الواقعة فيه ، فيطولُ على قوْم ويقصُر على قوم ، وقيل : يقضي الله قضاء لو قضاه غيره احتاج إلى خمسين ألف سنة ، وقد ورد في الحديث « يفصل أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار مثل ما بين الصلاتين »[1] وهذا معنى الحديث ، وهذا يدل على حمل هذه الآية على خلاف ظاهرها . اهـ .

فلا تستعجب في أمر الله وأمر أوليائه ، قال الإمام اليافعي - بعد كلام كثير - : اعلموا - رحمكم الله وإياي - أن مَنْ امتلأ قلبه إيمانًا بأحوال الفقراء والصالحين منهم ، والصادقين وحجتهم ، والعلم بسيرتهم ، سلِم لهم ما يُسمع منهم ، وحمَل ما جاء عنهم مما لا يمكنه حملُه على ظاهره على محامل صحيحة ، وأوَّلَه تأويلًا لا يقلِّل بأحوالهم المليحة ، فأَصلُ جملة التأويلات ألا يُسلِّم نسبة ذلك إليهم حَتَّى يصحَّ عنهم[2] ، وبعد الصحة يلتمس له تأويلا يوافق العلم الظاهر ، فإن لَمْ يجد له تأويلًا ، قال : لعل له تأويلًا في الباطن يعرفه علماء الباطن العارفون بالله - تعالى - ، ويذْكُر عدا ذلك قصة موسى عليه السلام مع الخضر ، يُقدِّر أن ذلك صدر عنهم في حال

(١) لم أقف عليه .

(٢) هذا تخريج جيد لكل ما نسب إلى الأولياء ولم يصح عنهم ، وهو ما نجده كثيرًا في القرون المتأخرة ، والإنكار لذلك على الأتباع لا على الأولياء .

السُّكر والغيبة ، والسُّكران سُكرًا مباحًا غير مكلَّفٍ في ذلك الحال ، فسوء الظن بعد هذه المخارج من عدم التوفيق .

فالمؤمنُ يلتمس الأعذار والمخذولُ يبادر بالإنكار ، وقد أجمع أهل التحقيق على التصديق بكرامة الولي ولو عظُمت ، إذ لا يُنكر كرامة الولي إلَّا مَنْ كانتْ فيه نزغةٌ من نزغات أهل الاعتزال ، أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه ، إنه حفيظ عليم اهـ .

وحدَّثني الأخ في الله الصالح سيدي أحمد بن القاسم المشاطي الجنزوري - كان من أجَلِّ أصحاب الشَّيْخ ، وهو ممن كثرت معاشرته مع الشَّيْخ في الحضر والسفر - قال : توجهْتُ ذات يوم مع الشَّيْخ من يزليتن إلى مصراته ، فلمَّا توسَّطنا في الطريق ، قال لي : يا أحمد إذا رأيتني خرجت عن الطريق فلا تتَّبعني ، فما مشينا إلَّا قليلًا وإذا به قد أصابه حالٌ عظيم ، وخرج عن الطريق حَتَّى بَعُد عليَّ ، فرأيتُ طيورًا أربعة على قدر النسور هبطوا ولجأوا إليه ، واحدًا بعد واحد ، ثُمَّ غابوا عنِّي ، ثُمَّ رأيت طيورًا أخرى على قدر الفراريج ، نزلوا من السماء وحلوا على رأسه ، ثُمَّ جاء إليه كلُّ واحد منهم يحادثُه ، ثُمَّ طاروا وغابوا عني، ثُمَّ رجع إليَّ ، وقال لي: يا أحمد هل رأيتَ شيئًا ؟ فأخبرته بما رأيت ، فقال لي : أما الطيور الأربعة الأولى التي على قدر النسور ، فهي من ملائكة السماء الخامسة ، طلبوا مني التلقين فلقنتهم ، وأما الطيور التي بعدهم على قدر الفراريج ، فهي ملائكة السماء الرابعة ، أتوا إليَّ ليسألوني عن علمٍ فجاوبْتُهم عليه[1] .

وأخبرني سيدي أحمد هذا بحكايات كثيرة عن الشَّيْخ ، ذكرناها في غير

(١) أليس غريبًا أن ملائكة الرحمن في السماء الذين يسبحون الله ﴿ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ كما قال - جَلَّ شأنه - يجعلون البشر مرجعهم في التسبيح والعلم ؟!

هذا، إلى أن قال: قال الشَّيْخ: لَمَّا مرض ابنا عمران مرضًا عنيفًا، فبينما أنا ذات يوم جالس معه إذ بِرَجُلٍ جميل الصورة، عليه ثياب بيض، أحسن ما ترى الأعين، واقف بباب البيت الذي نحن فيه، فقال: السَّلام عليكم يا عبد السَّلام، فقلت له: وعليكم السَّلام، ودخل علينا من غير إذن، قلت له: لماذا دخلت هذه الدار من غير إذن؟ فقال لي: يا عبد السَّلام، أنا الذي لا يحجبُني حاجب، ولا يحجِزُني حاجز، ولا يدفعُني بواب، ولا مَلَك ولا إنس ولا جان إلَّا الله - تعالى -، وما كنت أدخل هذا البيت بغير إذن، فقلت له: ومَنْ أذن لك بالدخول علينا في دارنا هذه؟ قال: أمرني بذلك الله الذي خلقني وخلقك، وصوَّرني وصوَّرك، فقلت له: لعلك أنت سيدنا عزرائيل عليه السلام، فقال: نعم، فقلت له: فيمَنْ جئتنا؟ قال: جئت لأقبض روح ابنك عمران، فارض بقضاء ربك، فإنه لا مردَّ له، فقلتُ له: ومتى تقبض روحه؟ فقال: الآن، فقلت له: ابني لن يموت إلَّا بعد ثلاثين سنة آتية، فانصرِفْ ولا تأتِ إليه إلَّا بعد تمامها، في يوم تقطيعه بسيوف المغاربة الذين رئيسُهم يحيى الزرهوني.

فقال لي: يا عبد السَّلام لا غرض لي في قَبْض روح ابنك، إلَّا أني نظرت في اللوْح أنَّ ابنك عمران هذه ساعته التي تُقبض روحُه فيها، فقلت: يا ملَك الموت أنت نظرتَ المحو وأنا نظرتُ المثبَت، فبينما هو يكلِّمني وأُكلِّمه، وإذا بالنداء من قِبَل الله عز وجل: يا ملَك الموت انتقل من الموضع الذي أنت الآن فيه، فإن لَمْ تنتقل فإنك قد آذيتَ الشَّيْخ بكلامك له على ابنه، ليست هذه الساعة التي تقبض فيها روح عمران بن عبد السَّلام، فالشَّيْخ نظرَ المثبَت وأنت نظرتَ المحو، فالحق مع الشَّيْخ، والحق أحق أن يتبع اهـ[1].

(١) أيمكن أن يصدر هذا عن الشَّيْخ الأسمر؟ إن من يقرأ رسائله ليعجب أن ينسب هذا إلى عالِمٍ =

وأما ما وقع للشيخ من تعظيم الجن له الروحاني والأرضي ، فهو أمرٌ كثيرٌ يصفه الواصفون ، فقد كان - رحمه الله ونفع به - يحكُم فيهم بسيرة أهل العدل ، كما يحكم السلطان العادل في أجناده ، إلى أن أسلم من كفارهم على يديه طوائفُ عديدة ، في أيام مُكْثه بالقلعة وغيرها ، ويسمعون مَنْ حوله ولا يعصونه ، وربما كان متزوِّجًا منهم ، وله معهم ذرية كثيرة ، كما كنا نجده معه في خَلْوته وغيرها ، نساءً وأطفالًا لا نعرفهُم ، ثُمَّ يغيبون عن أبصارنا ، وقد أتى ذات يوم من أيام مُكثه بيزليتن بعد بناء الزاوية وحده من ناحية البحر ، ومعه من أصوات المزامير ، والتارية ، والنقيقرات ، والأبواق ، والأنفار التي جرت العادة بكونها عند الأمراء ما أدهشنا ، وأدهش كل أهل البلد ، وحسبناه جُندًا أغار علينا ، فجاء الناس يهرعون إليه ، من كلِّ مكان ، فإذا وصل الواحد إلى المحل، الذي يسمعُ الصوت به، وجد الشَّيْخَ وحده راكبًا على فرسه «سعيدة» ، وهو يسير ويلتفتُ التفات سلطانٍ سائر معه جندُه ، وهو ينظر يمينًا وشمالًا ، وما زال الناسُ يجتمعون حَتَّى كثُروا وهم متعجِّبون من تلك الأصوات الهائلة التي يسمعونها ، ولا يَرَوْن أشخاصًا ، فأيقنَّا أنها مع الشَّيْخ من غير شك ، ولا ريب ، ولا تردد .

ولكن هِبنا عند ذلك أن نسأله عنها ، ثُمَّ بعد يومين سألناه عنها بالله ، وكان لا يكتُم شيئًا يُسأل فيه بالله ، فقال هذا جيشٌ من جيوش الأحمر الجنِّي، جئت به لأُسْكنه في الزاوية ، يُحفِّظ الأولادَ في آخر الزمان ، فقلنا له: يا سيدي لماذا لَمْ تأت بهذا الجيش مشاهدة حَتَّى يرى أهلُ البلد أشخاصَه ؟

= جليل كالشَّيْخ عبد السلام الأسمر رحمه الله وأحسن إليه ، وميزة كتاب البَرموني أنه جمع بين رسائل الشيخ الصحيحة وهذه الحكايات الملفقة حتى يحكم القارئ بملاحظة الفرق بين الأصيل والمنتحل ، والله أعلم .

فقال لنا: لو يرى أهل البلد هذا الجيش وعَظَمة سيوفه اللامعة، ونيرانه المحرقة، لصعَوا وتخلخلتْ عقولُهم، ووضعَتْ كلُّ ذاتِ حَمْل حملها من شدة ذلك الجيش، ولذلك أتينا به خُفية.

ثُمَّ قلنا له: زدنا من الخبر عنهم، فما زال يحدِّثُنا إلى أن قال: لَمَّا جئتُ من القلعة المعروفة بسوف الجين، ولساني لا يفتُر عن ذكر الله ﷻ، هتف بي هاتف عن يساري، يقول: يا عبد السَّلام ارجع من حيث أتيت؛ لئلا تُهلكنا بالدعاء، كما أهلكتَ آل حامد وغيرهم، قال: ثُمَّ تحولتُ عن مكاني نحو العشر خطوات إلى نحو المشرق، وتعوذتُ بالله من الشيطان الرجيم، وتلوتُ آية الكرسي ثلاثًا، ثُمَّ سِرْتُ أمامي قليلًا، وجلسْتُ وجعلتُ أقول: اللهم احفظني من شرِّ كلِّ جن عنيد، وشيطان مُريد، وضعيف من الخلق وشديد، وارزقني فَهْمًا في الدين، وزيادة في العلم، وكفاية في الرزق، وعافية في البدن، وبركة في العمر، وتوبة قبل الموت، وراحة عند الموت، ونجاة بعد الحساب، وهوِّن علينا سكرات الموت، ولا تعذِّبنا بعد الموت، إنك على كل شيء قدير، يا الله يا أرحم الراحمين، لا إله إلَّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميْتَ به نفسك، وأنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعلَ القرآن ربيع قلبي، ونور صدري وجلاء حزني، وذهاب همي، اللهم إني أعوذ بك من شر كل خُبث، وخبيثة، وغول وغولة، وشيطان وشيطانة، ورجس نجس.

ربنا عليك توكَّلنا، وإليك أنبنا وإليك المصير، فبينما أنا كذلك، وإذا بهاتف آخر عن يميني يقول: مرحبًا بك يا عبد السَّلام، فتعوَّذْتُ بالله ثلاثًا،

وقلت : من أنت يرحمك الله ، وما الهاتف الأول ؟ قال : أما أنا فرجل من الجن المؤمن ، من الذين حضروا على قتل سعد بن عبادة ﷺ ، وهو في مغتسله ، ضربه واحدٌ منَّا بسهم قتله ، فخرَّ صريعًا ، فافتقده أهله ﷺ ، فلم يجدوه وقد استبطؤوه فأتوه فوجدوه ميتا ، فحملوه إلى بيته ، وهم يبكون عليه ، فقالتْ امرأتُه : ليت شعري ما الذي أصابك يا سعد ، فأجابها القاتل بقوله :

نحن قتلْنَـا سعـد بن عبادة　　　ضربناه بسهم لَمْ يخطئ فؤاده

وأنا من ذلك اليوم يا سيدي عبد السَّلام خرجتُ تائبًا إلى الله ، مع أني لَمْ أرض بذلك ، ولكن خشيتُ من الله إذ كنت حاضرًا ، و[ما] سكنتُ هذا المكان إلَّا هجرًا لمن فعل ذلك ، وأما الهاتف الأول الذي هتف بك عن شمالك، فهو مخلوف السَّجان من الجن الكافر ، الذي قتل حرب بن حنظلة، في القَفْرة التي بإزاء غرناطة(١) ، ودفنه فيها ، إلى أن افتقده أهلُه ، ولم يعلموا به في أي مكان ، أهو حي أم ميت ، فيأتي إلى القرب من بيت حرب ، في جوف الليل ويقول هذا الشعر : [الرجز]

وقـبر حرب بمكان قـفـر　　　وليس قرب قبر حرب قبر

فأتى أهلُه إلى القَفْرة التي كان يعتادها ، فوجدوه مقبورًا بها ، فأخرجوه منها ودفنوه عندهم ، ومخلوف السَّجان هذا لَمَّا رآك حلَلْت بهذه القلعة ارتحل هو وأولاده ، والآن حلَّ بالهند ولَمْ يكن الآن في هذا المكان من الجن المؤمن بمحمد ﷺ إلَّا عشرة رجال منفردين ، فمنهم واحدٌ من النفر الذين

(١) أيُّ قفر بجوار غرناطة - يرحمك الله - وهي سهول ومروج خضراء قد عمت الخضرة جبالها ووهادها ؟ لو قلت بالصحارى الممتدة من الربع الخالي إلى الصحراء الكبرى بأفريقيا لأصبت.

كانوا جلوسًا بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم تسليمًا – بعد البيعة، وهم الذين قال [عنهم] الله ﷻ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ (الجن ١-٢) إلى آخرها .

أنزل الله [فيهم] سورةَ الجن ، ومنهم واحد من الجن الذين حضروا ليلة العقبة ؛ لقتل علي بن أبي طالب ﷺ ، ثُمَّ طلب الدعاء مني ذلك الجنُّ وانصرف ، فلمّا كان بعد ثلاثة أيام بعد صلاة الظهر ، جاءني مَلَك طويل القامة والعنق ، واسع الكتفين ، أبيض اللون في عينيه حَوَل ، وعمامته مكللة بالدر والياقوت ، (...) ثيابه في اللون فجلس أمامي ، فقلت له من أنت ؟ فقال : أنا الملك ميطورون الحاكم على جميع الجن الأرضي والروحاني، فقلت له : ما تريد ؟ فقال : أمرتُ أن نبني لك دارًا في رأس هذه القلعة من أنياب الفيلة ، تقيك من الحر والبرد ، قعرُها وسقفُها من القوارير ، ويكونُ السقفُ أرَقَّ من الماء ، يُرى من داخلها ما وراء خارجه ، من شدة صفائها ، وتُرى منها الشمس بالنهار ، والقمر بالليل ، واجعل في وسطها كرْمة من الذهب الإبريز ، فقلت له : لا أرضى بها تقول لي يا مَلَك الجن ، دعني في حالي وانصرف عني ، فوالله لو طلبتُ ربي أن ترجع إليَّ الأرضُ التي الآن عليها ذهبًا لرجعَتْ .

ثُمَّ قام وغاب عنِّي ، فلمّا كان وقتُ المغرب من هذا اليوم ، دخل عليَّ ثلاثة نفر ، وذلك بعد انقطاع آذان المغرب ، ووقوفي لصلاتها ، فَحِرْتُ في أمري، ولا دريتُ أن أقطعَ عن الفرض أو أَشْتغلَ بالفرض وأُعرضَ عنهم، فتوجَّهوا إليَّ يريدون الكلام معي ، فقلت في نفسي : أشهد بالله أن هؤلاء شياطين ، وتذكَّرتُ حديث : « لا تزال أمتي بخير ما داموا يُصلُّون المغرب قبل أن تبدو النجوم » وخطرتْ ببالي أحاديثُ غير هذه ، وحديث تقييد

وقتها بحلب شاة، وقلت في نفسي: الإقبال على الله أَوْلَى من الإقبال عليهم، وتذكرتُ أن من أطاع الله أطاعه في كل شيء ، وتذكرتُ حديث « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » فأقمتُ الصَّلاةَ واشتغلتُ بها ، قال : وكَبَّرتُ تكبيرة الإحرام ، فسمعت لهم جَلَبَة وكلامًا خفيًا كالتنازع ، فأحرم خلفي رجلان وذهب الثالث ، فلمّا قضيتُ الصَّلاة التفتُّ فلَمْ أجد أحدًا .

فقلت : إن لهؤلاء شأنًا عظيمًا ، ثُمَّ صليتُ ما تيسَّر ، وشرعتُ في الدعاء ، وهو : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث ، والغول والغولة ، يا الله يا الله يا الله ، يا أرحم الراحمين ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلَّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، يا حفيظ ثلاثًا ، إنك أنت العليم ، الكبير ، السميع ، البصير ، اللطيف ، الخبير ، فلمّا دعوتُ بهذا الدعاء سبع مرات ، سمعتُ قائلًا يقول: اشتغل بصلاتِك ودعائِك ، فهما أَوْلَى من الاشتغال بنا، فأصابني حالٌ عظيم ، وركبني غضبٌ ما ركبني قط ، فقلت : الاشتغال بطاعة الله والإقبال عليه أَوْلَى من الاشتغال بكم ، والإقبال عليكم ، فلو كنتم من أهل الطاعة والإقبال على الله ، والخوفِ منه ، لما أتيتموني وقت إرادة الدخول في الصَّلاة ، وهذا لَمْ يفعله إلَّا شيطان ، وأن النبي ﷺ يقول : « كل ما يشغلُك عن الله فهو مشؤوم عليك »[1] فإن شئتم أطعتم أو عصيتم، وإني لا أفتر عن الصَّلاة والذكر والدعاء حَتَّى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين .

فإن لَمْ تطيعوا الله ورسوله فنعوذُ بالله منكم ، ومن النظر إليكم ، وإن الله ﷻ قديرٌ على أن يدلَّني بمَنْ هو أحسن منكم ، فهو المالك لأزِمَّتكم ،

(١) ليس حديثًا، وإنما روي عن أبي سليمان الداراني من قوله. انظر: «الزهد الكبير» ١/ ١٠٧، «تاريخ بغداد» ١٠/ ٢٤٨، «صفة الصفوة» ٤/ ٢٢٤، «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» ص١٧٣، «كشف الخفاء» ٢/ ١٦٨.

والقامع لمن عصاني منكم، نَوَاصيكُم كلُّها بيده، لا إله إلَّا هو رب العالمين، فسمعتُ قائلًا يقول: قد أطعناك - وهو كبيرهم -، وأردنا أن نأتيك قبل ذلك الوقت، ثُمَّ لَمَّا نزل ووقع، أردنا الصَّلاة خلفك، وإنما أفسد علينا رجلٌ من العصاة، وذلك أنا أردنا أن نأتي في وقت صالح، فقال: لا تعجلوا، وجعل يماطلُنا حَتَّى صار وقت صلاتك، فقال: قوموا بنا، فقمنا غير رائدين، ولَمَّا رأيناك في الصَّلاة وأنك قد اشتغلت بها عنا، قال: إنه قد أعرض عنكم فأعرضوا عنه، كما أعرَض عنكم، فقال بعضُنا: طاعتُه إلى الله أَوْلَى من طاعتِه إيانا وإقبالِه علينا، ثُمَّ إننا دخلنا خلفك وأحرمنا، فجعل يُوسوس إلينا حَتَّى أفسد نياتِنا، وقطع علينا صلاتَنا، فذهبنا عنك.

قلت: مَنْ الذي قال منكم: اشتغل بصلاتك فهي أَوْلَى من الاشتغال بنا؟ قالوا: هو ذلك الرجل، فقلت: اطردوه عني، نعوذ بالله منه ومن أمثاله، ثُمَّ إني شرعت في الدعاء وهو: اللهم اجعل لي نفسًا مطمئنة تؤمن بلقائك، وقلبًا سليمًا يصدِّقُ ببقائك، ولسانًا يذكرُك ويشكرُك على نعمائك، اللهم إنِّي أسألك بأنك أنت الله لا إله إلَّا الله، الفرد الصمد الذي لَمْ يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد.

فبينما أنا كذلك وإذا بخفيق الأجنحة وقد كثُر الريح، ودويٌّ كدوي الخيل، فقُمْتُ وصلَّيْتُ ركعتين لله ﷻ، وأدرتُ بيدي على رأسي ثلاثًا، أقول: باسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثُمَّ أشرتُ عن يميني ثلاثًا، وقلت: بسم الله بابنا تبارك حيطاننا، ثُمَّ أشرت بيدي عن شمالي وقلت: يس سقفنا، ثُمَّ أشرت أيضًا أمامي وقلت: كهيعص كفايتنا، ثُمَّ أشرت أيضًا خلفي، وقلت: حم عسق حمايتُنا، ثُمَّ جعلت يدي على رأسي وقلت: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة ١٣٧) سترًا لعرش مسقوف علينا ، وعين الله ناظرة إلينا ، بحول الله لا يقـدر علينـا ، ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (البروج ٢١-٢٢) ، ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف ٦٤) ، ﴿ إِنَّ وَلِـِّۦىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (الأعراف ١٩٦) ، ﴿ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (التوبة ١٢٩) .

ثُمَّ جعلتُ أقول في وِرْدي ، وقد أذهبَ اللهُ ما وقع من الاستيحاش ، فسمعتُ قائلًا يقول : « نحن من الجنِّ المؤمن الذي كان يحضُر مجلسَ سليمان بن داود ﷺ ، سمعنا بك هاهنا ، فجئناك بقصد الزيارة والتبرُّك ، وأنت سددْتَ عنا الأبواب، وأنا أذكرُ الله ﷻ في سبحتي ، ولم ألتفتْ إليهم، فسمعتُ أبوابًا تُفتح، وباكيًا يبكي ، وقائلًا يقول : بالله يا سيدي عبد السَّلام، اقبلنا فلا تطردْنا عن بابك ؛ لأنَّنا جئناك تائبين وبولايتك مصدِّقين ، مطيعين لله ولرسوله ﷺ ، فقمتُ لهم وأخذتُ بأيديهم ، فلمَّا كان الغد بعد صلاة الصبح جاءت إليَّ طائفةٌ عديدة بسلاطينهم ، وكل قبيلة باسمها .

فلمَّا أقبلتْ عليَّ القبيلةُ الأولى ، قلت : مَنْ هؤلاء ؟ قيل لي: بني حيدرج بسلطانهم الذي اسمه أبو سعيد الخازمي ، فبينما أنا كذلك إذ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى في ثمانية يقرؤون القرآن ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : ابن يسار. ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى في ثمانية آلاف على خيول دُهْم ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : بنو كلتم ، وسلطانُهم أبو الوليد الشكيعي . ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى على خيول زُرْق ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : بنو غيلان ، وسلطانُهم أبو أيوب البربري . ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى بعلم[1]

(١) في الأصل : بعلام .

أصفر ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : أصحاب جبل الدخان ، وسلطانُهم أبو عبد الله سعيد المذهبي .

ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى وعلامهم أحمر ، يرفعون أصواتهم بالذكر ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : بنو طمم . ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى بعلام ملون بالأسود والأبيض ، فقلت مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : أصحاب الأخدود الذين حضروا زمان عاد وثمود . ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى نحو الثمانين ألفًا على خيول سود كالجمال الكبار ، بعلام مكلل بالدر والياقوت، فقلت : مَنْ هؤلاء ، فقيل لي : السحابيون[1] . ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى يذكرون الله باسم الجلالة ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل : بنو سقلب . ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى نحو الأربعين ألفًا ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : جيش مولى فَرسِك «سعيدة» سيدي ساعد الغرياني .

ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى نحو الخمسين ألفًا ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : جيش أبي رقية ، ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى نحو الستين ألفًا ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : جيش السلطان سيدي عبد الرحمٰن البشتي ، ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى أيديهم وأرجلهم من حديد ، وأصابعهم من النحاس ، وبطونهم من الرصاص ، ورؤوسهم من الفضة ، وأسنانهم من الذهب ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : بنو هيدان . ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى راكبين على الأسود ، متحزمين بالثعابين ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : أهل الجبال السود . ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى ، رؤوسُهم من الهند ، وأعناقُهم من الحجر الأزرق ، وبطونهم من القلعي ، وأيديهم وأرجلهم من النحاس الأحمر ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : سكان بر الظلام الصغير .

(١) السحابيون : اعتمادًا على (ج) ص ١٢٨ .

ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى أجرامُهم من النار ، وآذانهم من الثلج ، وعيونهم من العقيق الأحمر ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : سكان بحر الظلام الكبير ، ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟فقيل لي : أبناء جن المؤمن الساكن في بحر غرناطة ، ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى على هيئة الذئاب ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : سكان بحر قرطبة(1) . ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى على هيئة الآدميين ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : جيش الأمين ميمون الأزرق ، ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى نحو التسعين ألفًا ، متفرِّشين آذانهم متغطين بهم ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : أصحاب الزعيق والنعيق والنهيض والشهيق .

ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى ؛ رؤوسُهم من المغناطيس ، وبطونُهم من الجوشر ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : الجزارين ، ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى نحو الاثني عشر ألفًا ، رؤوسُهم من المُرقشية ، وبطونهم من الكحل الإثمد ، وأرجلهم من الزجاج ، وأيديهم من السلميمية ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : جيش الشَّيْخ إبراهيم بن أدهم ، ثُمَّ أقبلتْ عليَّ طائفةٌ أخرى أجرامُهم من الفضة ، وأصابعُهم من الذهب ، وأظفارُهم من الجوهر ، وأعينُهم من الياقوت الأحمر ، وأسنانُهم من الدر ، وألسنتُهم من اللؤلؤ الأبيض، وأصواتُهم كالرعد القاصف ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ قيل لي: الملوك السبعة أصحاب الأيام السبعة الأرضية ، بقيادهم وأجنادهم ، ومَنْ

(1) المعروف أن قرطبة لا تقع على البحر ، ولكنها تقع على نهر الوادي الكبير ، وكذلك غرناطة ، فهل أراد بالبحر هذا النهر؟ إنني لأبرأ بالشَّيْخ الأسمر من هذه الخيالات والتهيؤات التي مست عقول بعض الناس وجعلتها تردد الخرافات على أنها حقائق وتخاف الأغوال والأوهام ، والهدف من نشر هذا هو تعريف من بقي في عقله ثقة بهذه الخيالات أنها لا صلة لها بالتصوف ولا بالشيخ عبد السلام الأسمر ، ودعوة لتصحيح المعتقدات الخاطئة والأوهام المضللة .

هو تحت حكمهم ، ثُمَّ أقبلت عليَّ طائفةٌ أخرى فيها سبعون ألف عنان، وتحت كل عنان سبعمائة ألف ، يرفعون أصواتَهم بالهمزية ، فقلت : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل لي : السعالة والقطاريّة وجيش الإمام أبي الحسن الشاذلي .

ثُمَّ أمرتُهم أن يجلسوا طُرًّا فجلسوا ، وتشكَّلوا على أحسن هيئة ، إلى أن عاهدوني ، وأخذوا عني التلقين ، ومَنْ هو كافرٌ أسلمَ على يدي ، ولَمْ يتخلَّفْ عليَّ جنٌّ في الأرض ولا في السماء ، كلهم جاءوني وأطاعوني ، وربما قدَّمَتْ إليَّ كلُّ طائفةٌ شاوشًا ونقيبًا ، فقلت له : بعد ذلك يأكلون ويشربون ويتزوَّجون ؟ فقال : نعم يأكلون ويشربون ويتزوَّجون اهـ . صح تأمل .

وفيهم الكافرُ والمؤمن ، والعاصي والمطيع ، ويتطوَّرون على كل شكل، عدا صورة النبي ﷺ ، لا يتصوَّرون بها اهـ . والكلام في هذا المعنى الذي هو حكايات الجن مع الشَّيْخ طويل عريض ، فإنْ أردتَ ذلك فعليك بكبيرنا .

[كلام العلماء في أمر الجن]

ولا بأس باستطرادِ شيءٍ هنا من كلام العلماء في أمر الجن ، تنبيه : قال بُرهان الحلبي : فائدة : الجن : أولاد إبليس ، كما أنَّ الإنسَ أولادُ آدم ، والكافرُ منهم شيطان ، ولهم ثواب وعقاب ، واختُلف في دخولهم الجنة ، فالعمومات تقتضيه ، وبه قال الشافعي ، وأما أبو حنيفة فعنه روايتان : الأولى : التردد ، وقال لا أدري أين مصيرهم ، والثانية : يصيرون يوم القيامة ترابًا ، وقيل : ليسوا بشياطين ، ومنهم كافر ومؤمن ، ويموتون ، والشياطين ليسوا منهم ، وليسوا بمؤمنين ولا يموتون إلَّا مع إبليس .

ويُروى عن وَهْب بن منبه أنه قال : الجن أجناسٌ ، فخالصو الجن لا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا يتناكحون ، ومنهم مَنْ يأكلُ ويشربُ وينكِح ، ومنهم الغيلان والسعالى والقطاربة ، ذكر ذلك المحب الطبري عن وَهْب ابن منبه ، وقد اختلفوا في أنهم يأكلون حقيقة أم لا ، فزعم بعضُهم أنهم يتغذون بالشم ، ويرد هذا ما في الحديث « يصير العظم ... ما كان لحمًا ، والروث لدوابهم » ولا يصير كذلك إلَّا الأكلُ حقيقة ، وهو الراجح عند جماعة من العلماء ، ومنهم مَنْ قال : هما طائفتان طائفةٌ تشم ، وطائفةٌ تأكل .

ثُمَّ قال : فائدة : سمعت عن شيخنا شيخ الإسلام - نفع الله به - ، نقلًا عن الحارث بن أسد المحاسبي بعد أنْ رجَّح شيخُنا أنهم يدخلون الجنة، قال: يكونون في أسفل الجنة ، ونراهم ولا يرَوْننا عكس الدنيا اهـ . وفي « تذكرة القرطبي » في « باب ما جاء في أنَّ للجنَّة ربضًا ورحابًا » عن الزُّهري، والكلبي ومجاهد : أنَّ موطن الجن دون الجنة في ربض ورحاب ، وليسوا فيها(1) .

قال زين الدين بن نُجيم الحنفي : أحكامُ الجن قلَّ مَنْ تَعرَّض لها ، وقد أَلَّف فيها [من] أصحابنا القاضي ابن بدر الدين الشِّبلي في كتابه المسمَّى بـ«المرجان في أحكام الجان» لكن لَمْ أطَّلع عليه الآن ، وما نقلتُه عنه إنما هو بواسطة نقل السيوطي ، ولا خلاف في أنهم مكلَّفون ، مؤمنُهم في الجنة ، وكافرُهم في النار ، وإنما اختلفوا في ثواب الطائعين ، ففي البزازية معزوًّا إلى الأجناس عن الإمام : « ليس للجن ثواب » ، وفي التفاسير توقَّف الإمـــامُ

(1) نقل بتصرف من التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة لشمس الدين القرطبي ، الطبعة الأولى ٤٥٦ .

أبو حنيفة في ثواب الجن ؛ لأنَّه جاء في القرآن ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ (إبراهيم ١٠)، والمغفرة لا تستلزم الإثابة؛ لأنَّها ستر، ومنه المغفرة والله أعلم. اهـ.

وذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه المسمى بـ « اليواقيت والجواهر في اعتقاد الأولياء الأكابر » في المبحث الثالث والعشرين في إثبات وجود الجن ، ووجوب الإيمان بهم قال : فإن قلت : فهل يصحُّ في حق الشيطان أن يسْلَمَ كما يسلمُ الكافر عندنا من الإنس ، ويصيرُ مؤمنًا ؟ فالجوابُ : قد اختلف الناسُ في ذلك ، ومبنى خلافهم على ضبط الميم في : أسلم ، فإنَّ بعضَ الحفاظ ضَبطَها بالضمِّ أي فأَسْلَمُ أنا منه ، وهو باق على كُفره ، وبعضُهم ضَبطَها بالفتح ، ولفظ الحديث : « ما مِنْ أحدٍ إلَّا وله قرينٌ يأمره بالسوء ، قالوا : وأنت يا رسول الله ، قال : نعم ، ولكني أعانني الله عليه فأسلم »[1] ، وفي طرق الحديث : « فلا يأمرني إلَّا بالخير » فهذه زيادة تدلُّ على أنه يصِحُّ إسلامُه ، وفي الجملة فإنَّ إبليسَ قد أنظره الله إلى يوم الدين يعني الجزاء ، [إذ] تنقطع التكاليفُ فلا يصِحُّ أن يسلم أبدًا ؛ لأنَّه لو جاز أن يسلم لتعطَّلت حضراتُ الأسماء الألوهية ، وما عصى أحد فإنَّه لا يصِحُّ في الوجود كلمة معصية من أحد إلا بواسطته ، إما بنفسه وإما بأعوانه ، والله أعلم .

قلت : إذا كان إبليسُ أولَ مَنْ عصى فهو نظير قابيل سواء ، فالجواب : نعم ، والأمر كذلك ، فكما كان قابيل أول الأشقياء من البشر ، فكذلك كان إبليس أولَ الأشقياء من الجن ، ولذلك قال الله – تعالى – : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ (الكهف ٥٠) أي من هذا الصِّنف المخلوقين الأشقياء انتهى . فإن قلت : هل إبليس أبو الجن كما هو مشهور في أفواه الناس ؟ فالجواب : ليس

(١) رواه مسلم (٢٨١٤) من حديث عبد الله بن مسعود .

إبليس بأبٍ للجان ، فإن الجانَّ كانوا قبله ، وإنما هو أولُ مَنْ عصى . انتهى . منه[1] .

وقال الإمام العالمِ العلَّامة أبو البقاء كمال الدين الدميري في « حياة الحيوان » في حرف الجيم ، في الكلام على الجن قال : والمشهور أن جميع الجن من ذرية إبليس ، وبذلك يستدل على أنه ليس من الملائكة ؛ لأنَّ الملائكة لا يتناسلون ؛ لأنَّهم ليس فيهم إناث ، وقيل : الجن جنس وإبليس واحد منهم ، ولا شك أن له ذريةً بنص القرآن ، ومَنْ كفر من الجن يُقال له: شيطان ، وكُنيته أبو مرة ، واختلف العلماءُ في أنه من الملائكة من طائفة يُقال لهم : الجن ، أم ليس من الملائكة ، وفي أنه اسمٌ عربيٌّ أو عجميٌّ ، والصحيح أنه من الملائكة ، وأنه عجمي ، وقال أكثر أهل اللغة والتفسير : سُمِّيَ إبليس لأنه أبلس من رحمة الله .

وقال ابن عباس وابن مسعود وابن المسيب وقتادة وابن جرير والزَّجاج وابن الأنباري : كان إبليس من الملائكة ، وكان اسمه عزازيل ، فلمَّا عصى الله لعنه وجعله شيطانًا مريدًا ، وقالوا قوله ﷻ : ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ ﴾ (الكهف ٥٠) أي من طائفة يُقال لهم : الجن ، وقال الحسن وعبد الرحمٰن بن يزيد وشَهْر بن حَوْشب : ما كان من الملائكة قط ، والاستثناء منقطع ، ثُمَّ قال : والصحيح أنه من الملائكة لَمْ يُنقل أنه من غيرهم ، أُمِر بالسجود ، والأصل في الاستثناء أن يكون من جنس المستثنى منه .

وقال القاضي : الأكثرُ أنه أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ، والاستثناء

---

(١) منه : أي من كتاب « اليواقيت والجواهر في اعتقاد الأكابر » للشيخ عبد الوهاب الشعراني ، المبحث ٢٣ .

عن غير الجنس شائع في كلام العرب قال الله – تعالى – : ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ (النساء ١٥٧) اهـ . وقال الشَّيْخ سيدي أحمد زرُّوق في كتابه « ثمرات كل شيء » : اختلَفَ الناس في وجودِ الجنِّ ، فمنهم مَنْ ذهب إلى أن الله خلق الملائكة من نور النار ، وخلق الجن من لهيبها ، وخلق الشياطين من دخانها ، وأن هذه الأنواع لا يراها الناظر ، وأنها تتشكَّل بما شاءت من الأشكال بإذن الله – تعالى – ، فإذا تكاشفتْ صورُها يراها الناظر ، وجاء في الأخبار[1] : أنَّ نوعًا من الجن في قديم الزمان قبل أن يُخلقَ آدم – عليه الصَّلاة والسَّلام – كانوا يسكنون الأرض ، وكانوا قد طَبقت الأرض بهم برًا وبحرًا وسهلًا وجبلًا ، وكثُرت نعم الله عليهم ، وكان فيهم المُلك والنبوءة ، والدين والشريعة ، فطَغَوا وبغَوا وأكثروا في الأرض الفساد ، فأرسل الله – تعالى – عليهم جندًا من الملائكة ، سكنتْ تلك الأرضَ وطردتْ الشياطين والجن ، إلى أطراف الجزائر ، وأسرتْ الملائكةُ منهم كثيرًا ، فمن الذين أُسروا منهم : عزازيل ، وجرى بينهم قتال كبير ، وعزازيل إذ ذاك صبي كبير ، نشأ بين الملائكة ورُبِّي معهم .

وتعلَّم من علمِهم وأخذ بساحتهم ، وطالت معهم أيامُه حَتَّى صار رئيسًا فيهم ، وبقي على ذلك الأمر زمنًا طويلًا إلى أن جرى بينه وبين آدم عليه السلام ما جرى في الجنة ، وكلُّ ذلك بقضاء الله وقدرته ، رآه حيث أمره الله بالسجود لآدم فأبى ، لقوله – تعالى – : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ (الكهف ٥٠) اهـ .

فائدة : أول من سَجَدَ حين أُمِرت الملائكةُ بالسجود إسرافيل ، أخرجه

(١) لا نعلم مصدر هذه الأخبار ، وإن كانت إسرافًا في الخيال كما سنرى .

ابن أبي حاتم عن ضَمْرة والسيفلي في الطوريات ، عن عمر بن عبد العزيز ، ذكره السيوطي في « المسائل إلى معرفة الأوائل » انتهى .

وقال العلَّامة الدميري في « حياة الحيوان » بعد حرف الجيم في الكلام على الجن : قال في « الإحياء » قُبيل بيان الصبر عمَّن غَفَل عن ذِكْرِ الله ﷻ ولو لحظة : ليس له قريب في تلك اللحظة إلَّا الشيطان ، ولذلك قال الله ﷻ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ (الزخرف ٣٦) ، وقال رجلٌ للحسن أبي سعيد : أينام إبليس ؟ قال : لو نام لوجدنا راحة بالإخلاص لله ، ومن منه إلَّا بتقوى الله ﷻ ، وقال ﷺ : « إن الله يبغضُ الشاب الفارغ »(١) ؛ لأنَّ الشاب إذا لَمْ يشغلْ ظاهرَه بمباح يستعين به على دينه عشش عليه الشيطان في قلبه وباض وفرَّخ ، ثُمَّ يعود أفراخه أينما تبيضُ وتُفرِّخ مرة أخرى ، وهكذا يتولَّدُ نسلُ الشيطان تولدًا أسرعَ من تَوَلُّد الحيوانات ؛ لأنَّ طبعَه النار ، وإذا وجدَت النارُ الحَلْفَاء اليابسة كثُرتْ ولاداتها ، فلا يزال يتولَّدُ النسلُ من النار ولا ينقطعون البتة .

فالشهوةُ في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة ، ولذلك قال الحسين الحلَّاج : هي نفسُك إن لَمْ تشغلْها بالحق شغلتْكَ بالباطل ، أورد البيهقي في شرح الأسماء الحسنى في آخر باب قول الله ﷻ : ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الأنعام ١١١) . عن عمر بن عبد العزيز : لو أراد الله أن لا يُعصى ما خلق إبليس ، وقد فصل ذلك في كتابه ﷻ ، عَلِمَها مَنْ عَلِمَهَا ، وجَهلها مَنْ جَهلها ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ

(١) هذا الحديث من أحاديث الإحياء التي لا أصل لها. انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٦/ ٣٩٥، «المغني عن حمل الأسفار» ٢/ ١٠١٧، «تذكرة الموضوعات» ص١٣٤، «الفوائد المجموعة» ص١٤٧ .

ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (الصافات ١٦٢-١٦٣)، ثُمَّ رُوِيَ من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «يا أبا بكر لو أراد [الله] أن لا يُعصى ما خلق إبليس»(١).

مسألة: قال القرافي: اتفق العلماءُ على تكفير إبليس بقصته مع صفِيِّ الله ونبيه آدم - عليه الصَّلاة والسَّلام -، وليس مدركُ الكفر فيه الامتناعَ من السجود، وإلَّا كان كلُّ مَنْ أُمِر بالسجود فامتنع منه كافرًا، وليس كذلك، ولا كان كفرُه لكونه حسد آدم عليه السلام على منزلته من الله ﷻ، وإلَّا لكان كلُّ حاسد كافرًا، ولا كان كفرُه لعصيانه وفسوقه، وإلَّا لكان كل عاصٍ وفاسقٍ كافرًا، وقد أُشكل ذلك على جماعة من الفقهاء، وينبغي أن يُعلم أنَّه إنما كَفر لنسبته الحق - جَلَّ جلاله - إلى الجور والتصرف الذي ليس بمَرْضي، وأظهر ذلك من فحوى قوله - تعالى -: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف ١٢) ومرادُه أن إلزامَ الجليل العظيم بالسجود للحقير من الجوْر والظلم، [هذا] وجه كفره لعنه الله - تعالى -.

وقد أجمع المسلمون على أن مَنْ نَسبه إلى غير الله ﷻ كان كافرًا، واختلفوا: هل كان قبل إبليس كافرٌ أو لا؟ فقيل: لا، وأنَّه أولُ مَنْ كَفَر، وقيل: كان قبله قومٌ كفار، وهم الجن الذين كانوا في الأرض، واختلفوا أيضًا هل كَفَر إبليسُ جهلًا وعنادًا؟ على قولين بين أهل السنة، ولا خلاف

---

(١) رواه الآجري في «الشريعة» ١/ ٣٩٤، وابن بطة في «الإبانة» ٢/ ١٢٧، وبيبي بنت عبد الصمد ص٧٦،٧٧ مطولاً من حديث جابر بن عبد الله، وضعفه ابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ٢٧٤، وتعقبه ابن حجر في «اللسان» ٦/ ٢٥٤، وقال ابن تيمية كما في «تفسير ابن كثير» ١/ ٦٥٣: حديث موضوع مختلق باتفاق أهل المعرفة، وقال الألباني في «الصحيحة» (١٦٤٢): الحديث بمجموع طرقه صحيح لغيره.

أنه كان عالمًا بالله – تبارك وتعالى – قبل كفره ، ومَنْ قال : أنه كافر ، قال : كَفَر ومعه عِلمه . قال ابن عطية : والكفر مع بقاء العِلم يُستبعد ، إلَّا أنه عندنا جائز لا يستحيل مع خذلان الله – تعالى – لِمَنْ يشاء . انتهى المقصود من كلام العلماء في أمر الجن ، فما تقدم منه ، وفيه كفاية ، وإلَّا فالكلام في أمر الجن طويل عريض في مذهبنا وغيره ، لا يسَعه دفاتر ، وقد ألممنا ببعضِه في كبيرنا ، في كرامات الشَّيْخ فراجعْه إن شئت ، والله أعلم .

[ما جاء في مكالمة الطيور]

وأما ما وقع له من مكالمةٍ من الطيور ، وإيوائهم إليه ، واعتكافهم عليه في القلعة وغيرها ، فهو كثير لا تسَعه دفاتر ، وسنذكر بعضه في هذا الكتاب تبرُّكًا ، فأقول : كان هذا الشَّيْخ – الذي هو مولانا عبد السَّلام – إذا خرج إلى الحفافي الخالية تنزِل عليه أفراقُ الطير ، وتخفق – كما رأيتُه مرارًا بعد رجوعي إليه من مصر – ومن ذلك ما حدَّثني به الأخ في الله الصالح سيدي أحمد بن عبد الله القمودي شقيق سيدي عبد الحميد – كان من أجَلِّ أصحاب الشَّيْخ – ، قال : خرجت ذات يوم مع الشَّيْخ في أيام مُكثه بمدينة طرابلس ؛ لزيارة سيدي عبد الرحمٰن المطري المقبور خارج المنشية من [الجانب] القبلي ، قال : فلمَّا زُرناه وخرجنا من الباب وفُتناه[1] ، قال الشَّيْخ : يا أحمد قف بمكانك حَتَّى أناديك .

فوقفتُ هناك ، ومشى مُقْبلًا نحو العشرين خطوة ، ثُمَّ جلس على كثيب رمل هناك ، وأنا أنظر إليه إلى أن جلسَ إليه حمام أحمر ، ونزل أمامه

(١) فتناه : يريد تجاوزناه .

وجعل يحدِّثه قليلًا، ثُمَّ طار عنه، وإذا بالشَّيْخ قام مسرعًا على خِلاف عادته، وهبط من ذلك الكثيب، وأشار خلفي بيديه، فاتّبعتُه حَتَّى جاء إلى طرفي الحيشان - وهو بستان الصيد القبلي - وإذا بصياد بقفص فيه طيور الكيروان، ومعهم حمامة، فقال له: بِكَمْ هذه الحمامة؟ فقال: بدرهم، فدفعه إليه، وأخذ الحمامة وأطلقها، قال: فقلت له: يا سيدي أخبرني عن الحمامين، وهما: الأول الذي نزل عليك وأنت على الكثيب، والثاني الذي الآن اشتريته وأطلقته، فقال: أما الأول الذي جاءني وأنا على الكثيب فهو الذكر، فقال لي: إن الأنثى يا سيدي التي كانت معي ولي معها أفراخ، وهي تزققهم وتربيهم صادها صياد بشراك، يريد بيعَها لَمَنْ يذبحُها ويأكلها، فخشيتُ من ذلك وأسرعت بالمشي إليها، وهاهي اشتريتُها بحضرتك وأطلقتُها.

ويشبه في ذلك ما حدَّثني به الأخ في الله الصالح سيدي ميلاد بن عطية الجعيدي، كان من أجل أصحاب الشَّيْخ، وله تأليفٌ عظيم عن كرامات الشَّيْخ، قال: كنت مع الشَّيْخ في أيام مُكثه بالقلعة، فلمَّا كان ذات يوم بعد صلاة الصُّبح هبطتُ من القلعة وخرجْتُ مُقبِلًا [1]، إلى أن مررتُ بحجرةٍ مشقوقةٍ من جانب جبلٍ فيها حمامةٌ بيضاءُ، ومعها أفراخ لها، فلمَّا اقتربتُ منها طارتْ وبقي الأفراخ، فأخذتُهم ومشيت بهم إلى جحر صغير، وألقيتُهم فيه، وأغلقتُ عليهم بحَجَرَةٍ حَتَّى لا يراهم أحدٌ إلى أن نرجعَ إليهم آخر النهار، قال: فلمَّا رجعتُ إلى القلْعة وتوضَّأْتُ وصليتُ الظُهر، جلستُ بالقرب من الشَّيْخ، وإذا بالحمامة التي هي أم الأفراخ، جاءت إلى الشَّيْخ وحدَّثَتْهُ قليلًا ثُمَّ طارتْ عنه، فقال الشَّيْخ حين ذلك: مَنْ فجع هذه

(١) مقبلًا: أي جنوبًا.

الحمامة وأخذ فِراخها ، فقلت : أنا يا سيدي ، قال : ردهم إلى موضعهم، قال : فرددتهم .

ثُمَّ قال أيضًا سيدي الحاج ميلاد هذا : ومما رأيته مرة أخرى مشاهدة ، أنه جاءته يمامةٌ تطير ، وجلسَتْ على كتفه وهو جالس بناحية القلعة ، وأسَرَّت إليه شيئًا في أذنه . فقال : بسم الله نُرسل معكِ أحدَ الفقراء ، فقالت : ما يكفيني إلَّا أنت ، فمشى إلى مزدة حَتَّى دخل إلى قصر خارجها قديم ، وقال : اجمعوني [مع] فلان المجاور لهذا القصر ، فأرسلوا خلفه فحضر ، فقال له : هذه اليمامة أخبرتني وأنا بالقلعة أنك تذبح أفراخَها كلما تُفرخُ في جانب حائط هذا القصر ، فقال : صدقت ، قد ذبحتهم مرارًا ، فقال له الشَّيْخ : لا تَعُدْ ، فقال : تُبْتُ إلى الله - تعالى - ، ورجع الشَّيْخ إلى القلعة - رضي الله عنه ونفعنا به آمين - .

ومن هذا المعنى ما حدَّثني به الأخ الصالح سيدي عبد الرحمٰن بن زبير الورفلي - كان من أجَلِّ أخلاء الشَّيْخ - ، قال : جاء الشَّيْخَ في أيام مُكثه بالقلعة حمامتان ، واحدةٌ حمراء والأخرى بيضاء ، ونزلتا قُدَّامه ، ثُمَّ حادَثَتْه الحمراء قليلًا ، وطارتْ عنه ، وبقيتْ البيضاءُ بعدها ، ثُمَّ رجعَتْ إليه الحمراءُ ومعها فرخٌ جاءت به وألقته أمام الشَّيْخ ، وجعل الشَّيْخُ ينظر إليها وينظر إلى الحمامة البيضاء نحو ربع ساعة ، ثُمَّ طارتَا بالفرخ معهما ، وأنا بالبُعد من الشَّيْخ أنظر ، قال : فلمَّا جئته بعد ذلك ، قال : أَلَمْ تعلم يا عبد الرحمٰن ما بال هاتين الحمامتين اللتين كانتا معي ؟ فقلت له : الله أعلم بذلك ، فقال لي : أما الحمامة الحمراء فهي الأنثى وأما البيضاء ، فهي الذكر ، فقالت لي الأنثى : جئتك يا سيدي أنا وهذا الذكر الذي معي ؛ لتحكم بيننا ، أنه سافدني مرارًا إلى أن دُحيتُ منه ، واحتضنْتُ وأفرختُ أولادَه ، وبعد ذلك أنكرني

وجحدني ولدي ، وقال لي : ما سافدتُكِ قط ، فأمرتُ بحضور ولدِها ، وأمرتُ الذكر أن يمكثَ بعدها إلى أن تأتي بالفرخ ، فلمَّا أتتْ به نظرتُ إليه وإلى الذكر ، فوجدتُ الشبهة واحدة فألحقته بالذكر ، ثُمَّ بعدُ ، قلت للأنثى : لا تمكنيه من السفاد حَتَّى تُشهدي عليه جماعةً من الطيور ؛ لئلا ينكرُكِ ويجحدُكِ ولدكِ ، فقالت : نعم لا نعصي لك أمرًا ، والله - تعالى - هو الذي يُنطق لأوليائه الطيور ، ويبعثُ مَنْ في القبور ، وإليه النشور ، وهو أعلم .

[الدُّفُ والذِكْرُ]

ثُمَّ أقول : وكان لهذا الشَّيْخ دُفٌّ حين يَضرِبُ به يُسمَعُ الذِكْرُ من أنامله ، وكان إما نزلَ به واردٌ يغشاه نورٌ ساطع يخطِفُ الأبصارَ إلى أن يغيبَ فيه عن النظرِ ، ولا تُضربُ له البنادير إلَّا من وراء حائط ، وكان لا يستريحُ عند هيجانِ الحال وحراق الوَجْدِ إلَّا بسماع الدُفوف وقْتَ أصواتهم ، وكان يأمرُ(1) الريحَ أن يسكن فيسكن لوقته ، وكان في بعض الأوقات يُشير على الدُّف فيضربُ نفسَه بنفسِه من غير واسطة ، وكانت له سبحتان ؛ واحدة منهما في يدِه ، والأخرى معلقة في وتد ، فإذا سبح بالتي في يده تسبح التي في الوتد حبة بحبة من غير واسطة ، كما رأيتُ ذلك مشاهدة مرارًا ، وبالله التوفيق .

[عجائب فرسه]

ثُمَّ لنشرع في ذكر شيء من عجائب فرس هذا الشَّيْخ التي سرى فيها سرُّه ، حَتَّى ظهرتْ منها عجائبُ وغرائبُ لا تكون إلَّا من الأولياء الأكابر،

(1) في الأصل يأمر على ، ولا معنى له .

وكانت تلك الفرس اسمها «سعيدة» - كما مر - فمن عجائبها أنها كانت إذا ركبها تسير به حيث أراد من غير أن يحرِّك لها عنانًا ، ومنها : إخراجُها إلى أولياء كثيرين كانت قد طُمست قبورُهم وآثارُهم بما علاهم من الأرض والتراب والرمل وغير ذلك ، فكانت تأتي الموضعَ وتقفُ عليه ، وتبحثُ برجلها ، فيقول لنا الشَّيْخ : احفروا مكان بحثها ، فإذا حفرْنا القبرَ يأتيه الشَّيْخ ويطأطىء عليه ما شاء ، ثُمَّ يذكر لنا اسمه ونسبه .

والذين أخرَجَتْهُم الفرسُ - التي هي سعيدة - مشهورون في كل بلد ، وكثير منهم في غابة سيلين ، والزاوية الغربية ، وقد بحثتْ ذاتَ يوم على كثيب من الرمل الذي بين يزليتن والبحر ، وحولنا جماعةٌ من الفقراء ، فلمَّا ظهر لنا ضريحٌ تحته أتاه الشَّيْخُ واختلى به ساعة ، ثُمَّ قال : يا أرض شُدِّي ما فيك وأمرَنا بردْمه وإعادة التراب عليه كما كان ، فلمَّا أعدناهُ وسار الشَّيْخُ سألناه بالله عن أمره لنا بردْم الضريح بعد إظهاره ، فقال لنا : إنه قال ما حملك على إظهاري ، والله لا يحلفُ عندي صادقٌ ولا كاذب إلَّا هلك من حينه ، فخشيتُ ضررَ المسلمين ، فأمرتكُم بَرَدْمه وإعادة التراب عليه .

ومن عجائب هذه الفرس اطلاعُها أنَّ امرأة من النساء حسدتْ الشَّيْخَ، يُقال لها : مريم الغضبانة ، أتته يومًا بعلَّاقة مملوءة بيضًا من وجه حرام ، وقالت في نفسها : إن كان وليًّا لا يأكلُه ، فقال الشَّيْخ لسيدي عبد الله الشديد : خذه منها وعلِّقه في تلك النخلة ، فلمَّا علَّقه وتأخر عنه جاءته «سعيدة» من بين الخيل، وكنا لا [ندري ما تفعل] ، وأعطت دُبرها للعلَّاقة، وجعلت تحكُ عليها حَتَّى تهرَّسَ وانكسر جميع ما فيها من البيض ، فعلمت المرأةُ أنَّ اللهَ - تعالى - ألهمها ذلك بِسِرِّ الشَّيْخ ، فتابتْ على يدي الشَّيْخ بعد اعترافها بما صدر منها .

ومن جملة اطّلاعها على إضمارِ الشَّيْخ - أعني الفرس - أنه دعاه ذات يوم بعضُ حسدته من فقهاء يزليتن، في ضيافة بدجاجة جيفة بنية اختباره، فأكل الشَّيْخُ طعامَه من غير توقف، ثُمَّ بعد أَكْل طعامه سار نحو سيدي أبي رقية، وأمَرَ جميعَ مَنْ حضر أن يمشوا معه، وفيهم الحسدة المذكورون يتغامزون في ما بينهم استهزاءً بالشَّيْخ، فلمَّا خرجوا من عند الشَّيْخ أبي رقية إذا بالفرس سارتْ وحدها حَتَّى وصلت البحر وأعطتْه دُبرها، وأخذت تبول فيه، فنظر الشَّيْخ إليها، وقال: لا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم، سعيدة بالت في البحر فنجسته، فنظر بعضُ الحسدة إلى بعض المستهزئين بالشَّيْخ يظنون كلامه جهلًا، ثُمَّ قال له بعضُهم: البحر لا ينجسه هذا ولا أكثر منه، فقال: سبحان الله، هذا لا ينجس البحر؟ قالوا: نعم. فقال لهم: ما معناه إذن؟ كيف تريدون تنجيس بحر عبد السَّلام بجيفة دجاجتكم هذه؟ وأدخل سبابته في فيه وتقياها لهم، ففروا هاربين. فإن قيل: فما وجه أكل الشَّيْخ الطعام المطبوخ مع الجيفة؟ مع ما تذكرون عنه من شدة تمسكه بالشريعة، وعدم مخالفتها لِمَا لا يرتضيه ظاهرُ الشرع؟ قلنا: هو يحتمل وجوهًا عديدة من التأويل، منها: أنه اطَّلَع على ذلك وأكله ليَفْتَتِن الحاضرون منه، ثُمَّ يُخرجُها الله من جوف الشَّيْخ.

كما وقع لبعض أكابر الأولياء، وذلك أنه قد قُدِّم له طعام، فقال لِمَنْ معه من الفقراء: كفُّوا وتقدمَ إلى ذلك الطعام فأكله كلَّه، ثُمَّ فتح فاه إلى السماء وجعل يتنفسُ ويُخرج مِنْ فيه عمودَ دخان ساعة، ثُمَّ قال لهم: إن هذا الطعام فيه شُبهة، أكلتُه وأرحْتكُم منه، ثُمَّ صرفتُه من بطني.

ومنها: أنه لَمْ يطَّلع على ذلك إلَّا بعد الأكل، ولَمْ يمكنه القيء في تلك الساعة إلى أن خرج إلى الشَّيْخ أبي رقية، ومنها: أنه لَمْ يأكلها أصلًا وإنما

خُيِّل لهم أنه يأكل ولم يأكلْ ، كما وقع لكثير من أهل الله في حكايات التخيل والتطور ، فراجع كبيرنا في هذا المعنى تصبْ فيه ما يشفي الغليل .

ومن جملة اطلاعها - أي الفرس - أنها جاءت ذات يوم لدار سيدي علي اللواتي بتاورغة - كان من فقراء الشَّيْخ - ومعها حصانٌ صغير مهملٌ أَلَّفها ، فأخرجت لها زوجةُ سيدي علي قُفَة من التمر فوضعتها قدامَها ، إذا بطوبة من التمر الجيد العجين قد ظهرتْ في جملة ذلك التمر ، فلم تَهُن [على] المرأة ، وتعلَّق قلبها مع تلك الطوبة ، ولكن هابتْ رفعها بعد أن وُضعت قدام الفرس ، فأُخبرتْ أنَّ «سعيدة» كانت تأكُل التمرَ دون تلك الطوبة ، ومعها ذلك الحصيِّن ، فإذا أرادَ أن يأكلَ من تلك الطوبة عضَّته ، وإن أكلَ من غيرِها تركتهُ ، حَتَّى لَمْ يبق من ذلك التمر شيءٌ إلَّا تلك الطوبة، فلمَّا أن أراد الحصان أن يأكلها عضَّته أيضًا حَتَّى ترك الطوبة وسارت ، ولَمْ تأكل من الطوبة شيئًا ، فأخذتْ تلك المرأةُ الطوبةَ بيدها وأعطتْها للفرس بصفاء قلب ، فأكلَتها وسارتْ إلى غير ذلك ، والله أعلم .

فانظر إلى سرِّ هذا الشَّيْخ الكامل الذي هو مولانا عبد السَّلام كيف سَرَى سِرُّه في هذه البهيمة العجمى ، حَتَّى ظهرت منها عجائب كثيرة لا تكون إلَّا من الأولياء الكبار ، ولا عجب فقد رأيت في كتاب الصالحين أن الشَّيْخ سيدي يوسف العجمي نظر ذات يوم إلى كلب ، فَسَرَى سِرُّه فيه ، فاتّبعه كلاب البلاد ، وشاع أمره حَتَّى بلغ سيده ، فأمر أن يمر به عليه ، فلمَّا قابله ، قال له : اخس يا لعين ، فمزَّقته الكلاب التي كانت تمشي معه في الحين، فإذا كان هذا في كلب بنظرة واحدة ، فكيف بفرس هي مركوب هذا السلطان الذي نظرة منه تغني - رضي الله عنه ونفعنا به آمين - .

ولأفعال فرسِه وفهمِها عنه أصلٌ في السُّنَّة كحكاية بروك ناقته ﷺ في

غزوة الحديبية ، في الحرم ، وكبروك بغلته ﷺ يوم حنين لمَّا أمرها حَتَّى تناول التراب من الأرض ، وكحكاية حمار يعفور ، وبعْثِه له لنداء مَنْ أراده من الصحابة ، فيأتي الباب وينقره برأسه ، وكرمْي نفسه في البئر - أي يعفور - فمات فيه حزنًا على موته ﷺ ، وكبروك الفيل له ﷺ ، وغير ذلك ، ففيهم أمر عظيم دليل . والله أعلم . وقد رأيت أن أقتصر على نقل كرامات الشَّيْخ في ما تقدم منها ففيه كفاية . ومن أراد أكثر من ذلك فعليه بالمطولات ككبيرنا وغيره .

[وفاة الشَّيْخ عبد السَّلام الأسمر]

ولنشرع في ذكر وفاته كما أشرنا لها في أول هذا الفصل ، فأقول - وبالله أستعين - : لمَّا دنى فراقُ الشَّيْخ - نفعنا الله به - جمعنا في خَلْوته ، ثُمَّ نظر إلينا فدمعتْ عيناه ، وقال : مرحبًا بكم يا نِعْم الأصحاب والأحباب ، والأولاد ، إن الرحيل قد قرب من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، وأخذ في الأنين وجعل يضطربُ ، ويقول : إن ببطني قولنجا عرض لي ، وأظن أنه السبب لحضور أجلي ، فلمَّا سمعنا منه ذلك لم يزدنا إلَّا بلاءً وهمًّا وغمًّا ، فلمَّا رآنا تغيَّرْنا ، واشتدَّت مصيبتُنا استراح من ذلك الاضطراب ، وقعد متربِّعًا ساعة ، ثُمَّ قال : ائتوني بسعيدة مسرَّجة ، واحملوني عليها إلى بلاد أبناء جنسي الفواتير ؛ لنمرض عندهم ونقبر بمقابرهم ، وأبعدوني على أولاد غيث ، ولا تدفنوني ببلادهم(1) ؛ لكي نتخلى منهم ، فإذا أُقبرتُ بإزائهم صار عليَّ حق الجوار ، فبكى سيدي عبد الرحمٰن ، ثُمَّ سيدي عمران ، ثُمَّ جميع بقية أولاده .

---

(1) لعلها روايات لاحقة غير دقيقة ، فما نجده من آثار الشَّيْخ لا يدل على أنه حاقد على أحد ، وعلى الأخص في لحظات الاحتضار ، والله أعلم .

ثُمَّ قال له سيدي عمران : يا سيدي إنك جعلت الزاوية هنا وأمرت بدفنك بعيدًا عنها ، فإذا جاءك الزوار صعب علينا الإتيان إليهم بالطعام هناك ، وما زال به حَتَّى أمر بعدم نقلِه ، وبالدَّفن بزاويته قُرب أولاده ، ثُمَّ قال : إخواني أوصيكم بتقوى الله ، وبالإحسان للحاضر والغائب ، واعطو لكل ذي حقٍّ حقه ، وارحموا الفقراء والمساكين ، واجبُروا خاطر المحزونين، وإذا متُّ ، يُغسلني سالم بن طاهر ، والذي يصب عليَّ الماء عمر ابن جحا ، وإذا فرغتم من غُسلي ، غطوني برداء [النضاف] ، ولا تحنِّطوني ولا تكفِّنوني من حوائج الدنيا ، وامهلوا عليَّ شيئًا قليلًا قدر قراءة الفاتحة بترتيبها ، فإن حَنُوطي وكفني ينزلُ عليَّ من السماء ، فإذا حنطتموني وكفنتموني بذلك ، فضعوني في النعش واحملوني إلى الأرض المتسعة الطاهرة ، ووجِّهوا بِيَ النعش إلى ناحية قِبلة الصَّلاة ، ولا تستعجلوا بالصَّلاة عليَّ ، وامكثوا قدر ساعة إلى أن تجتمع للصَّلاة عليَّ الملائكة الأرضية ، وتنزل الملائكة العلوية معهم الروح الأمين جبريل عليه السلام ، يصلوا معكم عليَّ ، ويكون إمامكم في الصَّلاة عليَّ سالم بن طاهر ، فلمَّا سمعنا بذلك منه ، صحنا وبكينا بكاءً شديدًا ، وقلنا : يا قدوتنا ، ويا وسيلتنا إلى ربنا ، إذا فارقتنا فمَنْ يكون لنا من بعدك يكشف كربنا ويجلي غمنا ، ويأمر فينا ما يصلح بنا من أمور ديننا ودنيانا ، قال : تركتُ لكم عمر بن جحا ، فهو الخليفة فيكم من بعدي ، وسيكون له مقام عظيم ، وهو باب من أبواب الله - سبحانه - ، فقال له بعضنا : حَتَّى أولاد صلبك من تحت خلافته ؟ فقال : نعم ، إلَّا عمران فإني قدمته على إخوته وعلى الزاوية ، ثُمَّ جمع أولاده بين يديه ووضع أيديهم فوق أيدي سيدي عمران ، وقال : يا عمر ، أنت الأمير وعمران الوزير ، فكرِه ذلك سيدي عمران ، وسلَّ يده ، فقال له الشَّيْخ : إنْ لَمْ تردها يا

عمران ، لا تنال مني شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة ، ثُمَّ خلا بسيدي عمر وحده ، وأوصاه بأشياء كثيرة ، واختصه بها خصه الله من البركات ، وقعد متربِّعًا ، وطلب على الماء ، فجيء به فشرب منه ، ثُمَّ توضأ منه وضوء الصَّلاة ، حَتَّى ظننا أنه برئ ، وكانت تلك راحة الموت ، وقد أوصى بأشياء كثيرة ، منها : حِفظ أحزابه ، وأحزاب الشاذلي ، والبردة إلى غير ذلك ، ثُمَّ أسند ظهره إلى الحائط ، وجعل يقول هذه المقطَّعة ، وهي : [زجل]

شـــوري دعـــاني	يا مَـنْ يوادعـــني
مـــريض وفـــاني	يـا مَـنْ يعـــالجني
وفُرْقَـــة إخـــواني	بـالمرض زادتنـــي
ووَحشة أظـنـــاني	زادت عليَّ حـــزني
ومـــدامع أعيـــاني	تسكب على خدي
ليعـــــة أكفـــاني	من فـقـد جيراني
وقلبـــي أشـــقاني	نبكي عـلى فقـدي
والقـــبض جـــاني	والقـــبر حـــدَّثني
وأجـــلي أتـــاني	والمـــوت جـــايتني
أمـــري تهـــوَّلْ	مـــولاي يصـــبِّرني
حـــالي تبـــدَّلْ	آه عـــلى قـــرني
منـــــه يعـــــدلْ	مِنْ بَعْدْ حَضَرْ أجلي
وعصري تنكَّـــلْ	ســـليم يـــا حنـــي
وغَـــزْلِي تَخَبَّـــلْ	وتصـــمَّمتْ أُذني
وعقـــلي تَـــدَرْوَلْ	قساني فراق [أهلي]
نبقـــى نحـــون	ونفـــارق الـــوطنِ

دمـوعي تهطـل والشـوق بكـاني
هـذي المنـايا وذا العمر حَـدَّدْ لِي
حَالَـتْ ضَـبَابَهْ بيني وبـين أهـلي
وان تمطـرا بـه وأنـا مختبـل غـزلي
وأيـن الصحـابهْ وأين النبـي وعـلي
وأيـن الصحـابهْ أن يحضروا دفنـي
يـا أبي لبـابهْ بالشَّـاشْ لثمنـي
إلـهٌ واحـدْ ورسـولَهُ العَـرَبِي

... إلى آخر ما قال .

ثُمَّ بعد ذكره لهذه المقطَّعة ، اضطجع على جنبه الأيمن ، ووجَّه وجهه إلى قِبلة الصَّلاة ، وجعل يقول : أشهد أن لا إله إلَّا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . إلى آخر ما قال ، ويكرر ذلك إلى أن خرجتْ روحه . وكانت وفاته يوم الخميس بعد صلاة العصر، في العشرة الأواخِر من شهر رمضان، وبات مُغَسلًا في خَلْوته ، ودُفن في الغد بعد صلاة الجمعة ، بعدما غُسل أيضًا ودُفن في زاويته المعروفة بيزليتن ، بأرض طرابلس الغرب ، وكان ذلك سنة ٩٨١ إحدى وثمانين وتسع مائة .

واستخلف بعده سيدي عمر بن جحا ، وكان الذي تولى غسله والصَّلاة عليه سيدي سالم بن طاهر اليزليتني ، كما أوصى بذلك قبل موته ، وحُكِيَ عنه – رحمه الله – أنه قال في يوم موته : قيل لي : يا عابد السَّلام ما شقي مَنْ رآك بعين المحبة والتعظيم ، ولا مَنْ رأى مَنْ رآك ، ولو شئت لأطلقتها إلى يوم القيامة . ونحن رأيناه بعين المحبة والتعظيم والحمد لله على

ذلك ، وقد رأينا نورًا ساطعًا فوق نعشه يلمع إلى عنان السماء ، وطيورًا خُضرًا ترفرف على جنازته ، وسمعنا قبل الصَّلاة عليه ، ضجة عظيمةً ، وأصواتًا كثيرة بالتهليل والتسبيح ، فلا شكَّ أن ذلك [صوت] الملائكة الأرضية حضرتْ ، والسماوية هبطتْ لحضور دفنه[1] ، والصَّلاة عليه وربما معها الروح الأمين جبريل عليه السلام .

فإن قلت : إن ما اشتهر على ألسنة الناس أن جبريل عليه السلام لَمْ ينزل إلى الأرض بعد موت النبي ﷺ ، قلنا : ما جرى على ألسنة الناس في عدم نزول جبريل عليه السلام إلى الأرض لا أصل له ، وهو مردود ، ومن الدليل على بطلانه ما وردت به الأحاديث الصحيحة المتفق عليها ، كما للطبراني وغيره، وورد أيضًا أن جبريل عليه السلام يحضر كلَّ مَنْ مات من أمة محمد ﷺ في كلِّ زمان ، وفي تفسير ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ (سورة القدر) أن المراد به جبريل عليه السلام ، وما للشيخ القرطبي والثعالبي وصاحب المدخل وغيرهم، وما ثبت عن ميمونة بنت سعد إنما ذلك عدم نزوله بالسُّخط لا على الإطلاق ، بل ينزل إلى الأرض بغير شك ولا ريب ، كما ورد . إلى غير ذلك والله أعلم .

وقد نزل كفنُ الشَّيْخ وحَنُوطه من السماء عليه ، رأينا ذلك عيانًا ، كما أخبر بذلك الشَّيْخ قبل موته ، ولا عجب في ذلك ؛ لأنَّ الولي الكامل أمرُه بأمر الله ، إذا قال لشيء : كُن فيكون ، وفي الحديث : « إن لله رجالًا لو

---

(١) نفي الشك في حضور الملائكة الأرضية والسماوية يدلك على التساهل الذي يسطر به علماء هذا العصر أفكارهم ، وكأنهم المحيطون بالكون العالمون بما يجري فيه بلا شك ، وهذا ما لم يورده الصحابة والتابعون في قرون الصلاح .

أقسموا على الله سبعين يمينًا لأبرَّهم »[1] . ولَمَّا عرضتُ هذه الحكايات التي هي النور على الأولياء ، ونزول الكفن والحنوط عليهم على نصر الكير ، أجابني قائلًا بجهل : « لَمْ يقع ذلك لأحد من الأولياء إلَّا للنبي ﷺ »[2] ، إلى أن قال : هذا النور والكفن الذي رأيناه لعله شَعْبذة أو سِحْر ، ومعاذ الله أن يقول بصِحَّة ذلك عاقل . فقلت في نفسي : لا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم ، فالذي رأيته بعيني ليس أشك فيه ، وليس الخبر كالعيان ، وقد جاء عن العلماء : أن الفرق بين الكرامة والسِّحْر ، أن السِّحْر إنما يظهر على يدِ الفسَقة ، والزنادقة ، والكفار الذين هم على غير شريعة ومتابَعة ، والأولياء ﷺ إنما وصلوا إلى ذلك بكثرة اجتهادهم واتّباعهم للسُّنَّة - كما مر - وهذا الشَّيْخ الذي نحن بصدده - وهو مولانا عبد السَّلام - ظاهر كالشمس ، ومن دليلُه المشاهدةُ ، لا يُطالَبُ بدليل ؛ لأنَّه متوفر الشروط ، وجَمَع مِنْ علوِّ النَّسب ، وشَرف العبادة ، والعِلم ، والزُهد ما لَمْ يكن لغيره في وقته .

ألا ترى ما رُوِيَ عنه أنه قال : ما تثاءبت قَطْ ، ولا احتلمت في نوم بامرأة منذ بلغت ، وحلف بالله أن لا يأكل المختلَفَ فيه ولا المكروه ، وأن يعبدَ الله بعبادة لا يشاركه فيها غيره ، وكيف يُنْكَر على من كان هذا حاله ؟ قال الشَّيْخ محي الدين في تقييد له : « نزولُ الموائد وغيرِها من السماء ، وظهورُ النور على الأولياء لا غرابة فيه ، وما جاز أن يكون معجزةً للنبي

(١) لم أقف عليه، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في كتاب «الأولياء» ص٢٢ من حديث أبي موسى الأشعري، قال الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» ٢/ ١١٥٥: فيه انقطاع وجهالة .

(٢) لم نقرأ في السُّنَّة الصحيحة أن الإمام علي بن أبي طالب حين ذهب لتكفين رسول الله ﷺ نزل عليه كفن من السماء فكيف بغيره .

جاز أن يكون كرامةً لولي، لا فارق بينهما إلَّا التحدي في ...»[1] ضعيف لا يعوَّل عليه » انتهى .

فهلَّا رأيت ما نُقل عن مالك بن دينار - رحمه الله آمين - قال : « احتبس عنَّا المطرُ بالبصرة فخرجنا إلى الاستسقاء مرارًا، فلم نرَ أثرًا للإجابة، فخرجت أنا وعطاء السلمي، وثابت البُناني، ويحيى البكاي، ومحمد بن واسع، وأبو محمد السخبناني، وحبيب الفارسي، وحسان بن أبي سنان[2]، وعتبة الغلام، وصالح المزني، حَتَّى أتينا المصلى بالبصرة، وخرج الصبيان من المكاتِب، واستسقينا فلم نرَ أثرًا للإجابة، فلمَّا انتصف النهار وانصرف الناس بقيتُ أنا وثابتُ البُناني بالمصلى، فلمَّا أظلم الليل فإذا أنا بأسود مليح الوجه رقيق الساقين، عظيم البطن، عليه مِئْزر صوف، والنور يغشاه، قوَّمتُ ما عليه بدرهمين، فجاء بماء فتوضأ، ثُمَّ أتى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين، كان قيامه وركوعه وسجوده سِرًّا، ثُمَّ رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي، كم تردُّ عبادك في ما لا ينقصك، أَنَفَدَ ما عندكَ أم نَفَدَتْ خزائن مُلككَ ؟ أقسمتُ عليك بحبِّك الكريم لي إلَّا سقيتَنا غيثك الساعة . فما تم الكلام حَتَّى تغيَّمتْ السماء وجاءت بمطر كأفواه القُرَب، ولم نخرج من المصلى إلَّا ونحن نخوضُ الماء إلى الركبة .

قال مالك : فتعجبْتُ من الأسود وتعرضت له، وقلت : يا أسود، أما تستحي مما قلت ؟ فقال : وماذا قلت ؟ فقلت : تقول بحبِّك لي، وما يُدرِيك أنَّه يُحبُّك ؟ فقال : تَنَحَّ عني يا مَنْ اشتغل عنه بنفسِه، أين كنتُ أنا

(١) في الكلام حذف، وسياقه : أن المخالف لهذا القول لا يعوَّل عليه .
(٢) في (ج) : حسان بن ثابت بن أبي سنان .

حين خصَّني بالتوحيد بمعرفته ؟ أفتراه بداني بذلك إلَّا لمحبته لي ؟ ثُمَّ قال : محبته لي على قَدْره ، ومحبتي له على قدري. فقلت له : ارفق قليلًا يرحمك الله. فقال : إنني مملوك وعليَّ فرضٌ من طاعة مالكي الصغير . قال : فجعلنا نقفو أثره على البُعد حَتَّى دخل دار نخَّاس ، وقد مضى من الليل نصفُه ، فطال علينا النصف الثاني ، فلمَّا أصبح الله بالصباح أتينا النخَّاس ، فقلنا : له عندك عبد مملوك فبعه لنا للخدمة ، قال : نعم . فجعل يعرضُ علينا غلامًا بعد غلام ، حَتَّى عرض علينا سبعين غلامًا ، ولم نرَ صاحبنا فيهم ، فقال : ما عندي غير هؤلاء ، فلمَّا أردنا الخروج دخلنا حجرة خَرِبة خلف داره ، فإذا بالأسود قائم يصلي ، فقلت : هو وربِّ الكعبة ، فخرجت إلى النخَّاس فقلت له : بعني هذا الغلام . فقال لي : يا أبا يحيى ذلك الغلام ليست له همَّة بالليل إلَّا البكاء ، وبالنهار إلَّا الصَّلاة والصوم ، فقلت كذلك أريده ، فدعاه فخرج وهو يتناعس ، فقال : خذه بما شئت بعد أن تبرئني من جميع عيوبه كلها ، قال : فاشتريته بعشرين دينارًا ، وقلت له : ما اسمه ؟ قال : ميمون .

قال : فأخذت بيده أريدُ المنزل فالتفت إليَّ وقال : يا مولاي الصغير لماذا اشتريتني ؟ فإني لا أصلح لخدمة المخلوقين ، فقلتُ له : إنما اشتريتك لأخدمك بنفسي ، وعلى رأسي ، فقال : ولِمَ ذلك ؟ فقلت : ألستَ صاحبنا البارحة بالمصلى ؟ قال : وقد اطلعتَ عليَّ ؟ قلت : وأنا الذي اعترضتك البارحة في الكلام ، فجعل يمشي حَتَّى أتى مسجدًا فدخل فصلى ركعتين ، ثُمَّ قال : إلهي وسيدي سِرًّا كان بيني وبينك ، أطلعتَ عليه المخلوقين ، وفضحْتَني فيه بين العالمين ، فكيف يطيبُ الآن عيشي ، وقد وقَف على ما كان بيني وبينك غيرك ؟ أقسمت عليك إلَّا ما قبضت روحي الساعة ، ثُمَّ

سجد، فانتظرته ساعة فلم يرفعْ رأسَه، فحرَّكتُه فإذا هو قد مات وشَعَّ عليه نورٌ عظيم، قال: فمددتُ يديه ورجليه فإذا وجهه ضاحك، وقد غلب البياضُ على السواد، ووجهُه كالقمر ليلة البدر، وإذا بقائل من الهواء يقول: السَّلام عليكم، أَعْظَم اللهُ أجركم في أخيكم ميمون، هاكم الكفن فكفِّنوه، فسقَط علينا من الهواء ثوبان[1] ما رأيتُ مثلهما قَط، فقلت: من أنت يا هذا الذي منَّ الله علينا بك؟ فقال: أنا مَلَك من ملائكة الرحمٰن، فقلت له: من أين أتيت بهذا الكفن؟ فقال: هبطتُ به من السماء، فكفَّنَّاه في الثوبين، ودفنَّاه. قال مالك: فقبرُه إلى الآن يُستسقى ويطلب به الحوائج من الله - تعالى - . اهـ.

تأمَّل أيُّها المنكر للنور ونزول الكفن على أولياء الله، فهلَّا رأيت ما في «روض الرياحين» و«نشر المحاسن» و«المنهاج الواضح» و«كفاية المعتقد» ... وغيرها[2] في ذكر أولياء الله وأخبارهم، وما رُوِيَ لهم من العجائب والغرائب، كإجابة الدعاء على الفور، وطي الأرض، ونزول المطر، والطيران في الهواء، والمشي على الماء، ونزول الموائد عليهم، ونزول الأكفان عند موتهم، إلى غير ذلك من الخوارق في الحياة وبعد الموت.

أيُّها المنكر فهلَّا تَثَبَّتَ وتأملتَ ما رُوِيَ عن سهل بن عبد الله التُّستري ﷺ، قال: توضأتُ يوم الجمعة ومضيتُ إلى المسجد، وذلك في أيام البداية فوجدتُه قد امتلأ بالناس، وقَدْ هَمَّ الخطيبُ أن يرقى المنبر فأسأت الأدب، ولَمْ أزلْ أتخطى رقاب الناس حَتَّى وصلتُ إلى الصف الأول، فجلستُ، فإذا عن يميني شابٌ حسنُ المنظر طيب الرائحة، عليه أطمار الصوف، فلمَّا

(١) في (أ) و(ج): فسقط علينا من الهوى ثوبين.
(٢) في الأصل و(ج): وغيرهم.

نظر إليَّ ، قال : كيف تجدك يا سهل ؟ فقلت : بخير أصلحك الله . وبقيت مفكِّرًا في معرفته لي وأنا لَمْ أعرفه ، فبينما أنا كذلك أخذني حرقان بول فأكربني ، فبقيت على وجلٍ خوفًا أن أتخطى رقاب الناس ، وإن جلستُ لَمْ تكن لي صلاة ، فالتفتَ إليَّ ، وقال : يا سهل أخذك حرقان بول ؟ قلت : أجل، فنزع إحرامَه - أي ثوبه - الذي فوق قميصه عن منكبيه ، وغشَّاني به ، ثُمَّ قال : اقض حاجتك وأسرع لتلحق الصَّلاة ، قال : فأُغمي عليَّ ، فلمَّا فتحتُ عينيَّ إذا باب مفتوح فسمعتُ ، قائلًا يقول : لِج الباب يرحمك الله ، فولجته فإذا أنا بقصر مشيد عال البنيان ، شامخ الأركان ، وإذا بنخلة قائمة وإلى جانبها مَطْهَرة بها ماء أحلى من الشهد ، ومنزل لإراقة الماء ، ومنشفة معلقة ، وسِواك ، وثوب جديد مُعلَّق بإزاء النخلة ، فحللتُ لباسي وأرقتُ الماء ثُمَّ اغتسلت ، وتنشَّفت بالمنشفة ، فسمعت مناديًا يقول: يا سهل إن كنتَ قضيتَ أربك فقل نعم ، والبس الثوبَ الجديد لتصلي فيه، فإن ثوبك أصابه شيء من حرقان البول ، ولم يمكنك الآن غسله ، فقلت : نعم ، ولبستُ الثوب الجديد ، فنزع الإحرام عني ، فإذا أنا جالس بمكاني، وثوبي الأول مُلقى قدامي ، ولم يشعر بي أحد .

فبقيت مفكِّرًا وأنا مكذِّبٌ نفسي في ما جرى ، فصلَّيْتُ[1] ولم يشغلْني إلَّا الفتى لا أعرفه ، فلمَّا فرغتُ تبعتُ أثره ، فإذا هو قد دخل إلى درب فالتفتَ إليَّ وقال : يا سهل كأنك ما أيقنت ؟ قلت : كلا . فقال لي : فلِج الباب يرحمك الله ، فنظرتُ الباب بعينه فولجت القصرَ ، فنظرتُ النخلة والمطهَرة والحال بعينه ، فمسحتُ عيني وفتحتها فلم أرَ الفتى ولا القصر .

(١) في (ج) : فقامت الصلاة وصلى الناس فصليت معهم ولم يكن لي شغل إلا الفتى .

قال : وإنما ذكرتُ هذه الحكاية ؛ لأنَّها من جملة العجائب عند هذه الطائفة ، ولا يكاد يؤمن بها كثير من الناس ، ولها احتمالات ، منها : يحتمل أنه نُقل من مكانه لما أغمي عليه إلى حيث شاء الله من غير شعور منه، ثُمَّ أُعيد إلى مكانه لطفًا من الله وكرامة لأوليائه اهـ، فبعدما تقرر هذا ، فكيف يتوهَّم المنكِرُ أن الأولياء لا نورًا لهم ولا كفنًا سماويًا ينزل عليهم ؟ قال الشَّيْخ البوني – رحمه الله – : إن لكل مؤمن نورًا ، فإن أراد الله ﷻ إظهار نور عبده المؤمن يظهر حَتَّى تراه الناس ، وإن أراد إخفاءه يخفى ، وأما قولُ بعض الجهلة : إن الولي لا نورًا له ولَمْ يثبُتْ له نورٌ إلَّا إذا زاره النبي ﷺ ، فهذا لَمْ يثبُتْ عن أحد من أهل العِلم ، بل للولي نورٌ ساطع يلمع كالبرق ، كما رأيناه مشاهدةً من كثيرين من أولياء الله .

قال بعضُهم : ولا يُنكَر على مَن ادَّعى النور على الأولياء في حياتهم وبعد مماتهم ، وقد رُوِيَ أن الشَّيْخ محيي الدين سيدي عبد القادر الجيلاني – رحمه الله – كان إذا خرج من بيته إلى المسجد يكون له نور ساطع ، حَتَّى لَمْ يقدر أحدٌ أن يمر من إزائه لشدة حرارة نوره ، وقال الشَّيْخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ : لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض ، فما ظنك بالمؤمن المطيع ؟ وقال الشَّيْخ أبو العباس المرسي ﷺ : لو كُشف عن نور الولي لعُبد ؛ لأنَّ أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته . قيل له : هل يظهر النور على الولي حَتَّى تراه الناس ؟ فقال : يظهر على ما أراد الله اختصاصه من أوليائه اهـ .

وقد قال الشَّيْخ عز الدين بن عبد السَّلام : « مما يدلك على صحة مذهب الفقراءِ ، كثرةُ كراماتهم ، وما رأينا أحدًا من الفقهاء وقع على يديه كرامة إلَّا إن سلك منْهَاجَهُم ، ومَنْ لَمْ يؤمن بكراماتهم حُرم بركاتهم ، وقد

شاهدنا كلَّ من أنكر على الفقراء من غير إدخال في طريقتهم ، تصير على وجهه كآبة وعلامة على الطرد والمقت لا تخفى على ذي بصيرة ، وقد كان الشَّيْخ يحيى النووي ﷺ يخرج إلى ظاهر دمشق لشيخه المراكشي - رضي الله تعالى عنه - ، يعرض [عليه][1] بعض مسائل يقف في نقلها ، فلو كان الفقراء لا يثبون أسرار الشريعة لما رجع النووي - رضي الله تعالى عنه - ، مع جلالته وقوة اعتقاده وصلاحه ، لشيخه المذكور في الأحكام .

ولا يموت فقير إلَّا ويُخلق شخص على قدمه ؛ لأنَّ المراتب لا تُنقَصُ أربابُها ، والاعتقاد يجر الشخص إليهم ، وإلى معرفتهم ، والانتقاد يَضرب بينهم وبينه بسور ، فعلم أن الفقراء ثابتون على قواعد الشريعة ، وإنما أنكر ذلك القاصر من الفقهاء على القاصر من الفقراء ، وأما الكاملون من كلٍّ فريق فليس بينهم إنكار ؛ لأنَّهم في طريق واحد ، فالفقيه القاصر لما يسمع القاصر من الفقراء يقول ليس للعبد فِعْل ؛ لقلة شهود ذلك عليه ، يقول الفقيه : أنت جبري مبتدع ، أو يسمعه يقول : ليس للعبد ملك ينكر عليه وهو مصيب في إنكاره ؛ لأنَّ كلاهما قاصر عن تحقيق الأمر في ذلك ، فافهم ذلك .

وقد قال اليافعي ﷺ : مكثتُ نحو عشرين سنة وأنا بين خاطرين ، خاطر يدعوني إلى طريق الفقهاء ، وآخر يدعوني إلى طريق الفقراء ، واجتمعت بشخص من أولياء الله أهل اليمن فكاشفني ، وعرف ما بي وما في قلبي ، وقال : يا ولدي مبتدأُ الفقير نهاية الفقيه ؛ لأنَّ مبتدأ الفقير الفقر من كل شيء ، والإخلاص إلى الله - تعالى - في جميع عباداته ، ولا يَطلب

(١) في الأصل و (ج) : عنه ، وليس المراد الإعراض فوجب التغيير .

منه عوضا على عباداته، وهذه نهاية الفقيه، ثُمَّ يترقَّى الفقير درجات القرب إلى الله ﷻ إلى غير ذلك، والخيرُ كلُّه في اتباع الرسول بأوامر شرعه، واجتناب نواهيه، قالت المشايخ: الكرامة الكاملة المنزَّهة عن النقائص هي الاستقامة، والاستقامة هي اتباع سنة رسول الله ﷺ، لا المعونة التي تظهر من غير استقامة.

قال الشَّيْخ سيدي أحمد زرُّوق - رحمه الله -: «الكرامة أمرٌ خارق للعادة، تظهر في الابتداء والانتهاء، يظهرها الله على مَنْ أراد اختصاصه من أهل طاعته، لا على كمال استقامته. ثُمَّ قال: وهي الاستواء في اتباع الحق ظاهرًا وباطنًا على منهج السداد بلا علة، أي الاستقامة الكاملة، فهي إذَنْ توبةٌ بلا إصرار، وعمل بلا فتور، وخلاص بلا التفات، ويقين بلا تردد، واستسلام بلا منازعة، وتفويض بلا تدبير، وتوكُّل بلا وهن، مُلازمُها واصلٌ قطعًا، وهي الكرامة الحقيقية لا غيرها، ثُمَّ قال: والحاصل أن ظهورَ الكرامة وإن دلَّ على الاستقامة فلا يدل على كمالها، فلا يُغرُّ بها إلَّا مخدوع، ولا يُهمل فضلَ الله فيها إلَّا مغرور»، وقال غيره: ليس الشأن مَنْ تُطوى له الأرض، فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن مَنْ تُطوى عنه أوصاف نفسه، فهو عند ربه - كما مر -. تأمَّل أيُّها المنكِر للنور المبين لكرامات الصالحين، فقد صار إنكارُكَ من همج الهمج الغافلين، فالأدلة على تجويز النور على غير الأنبياء لا تُحصى إلى غير ذلك، والله أعلم.

فقلت لموت الشَّيْخ - رحمه الله - بعد خروج روحه: [البسيط]

الحمدُ لله قَدَ قَضَى وَأَرَى ... سبحانه مِنْ إلٰهٍ مَا أرادَ جَرَا
مصيبةٌ عَمَّت الأوطانَ طُرًّا وفي ... عِشَا الخميسِ عَظِيمُ الرزْءِ فينا جَرَا

إِنَّا رُزِينا [بـ](1) قُطْبٍ لا نَظِيرَ لَـهُ ... عبدِ السَّلام بهذا الاسمِ قد شُهِرَا
نجلُ سَليمٍ شريفِ القَدْرِ والنَّسَبِ ... كَسَاهُ رَبُّ العُلا نُورًا عَليه يُرَى
نورٌ يَلُوحُ على قَبْرٍ أَحَلَّ بِهِ ... لَهُ شُعَاعٌ يَكَادُ يَخْطِفُ البَصَرَا
قَدْ رِيعَ حقًّا بِلا شَكٍّ وَلَا وَهَمٍ ... وَلَيْسَ ذا عَجَبًا في حَقِّ مَنْ ذُكِرَا
لأَنَّهُ قُطْبُ هَذَا العَصْرِ كُلِّهِمِ ... وَمَنْ يَشُكُّ في هذا لَمْ يَجِدْ خَبَرَا
بالعِلْمِ نَالَ وبِالتَّوفِيقِ مَرْتَبَةً ... وبالتَّيَسُّرِ عَمَّنْ أَمْرُهُ عَسُرَا
والحِلْمِ والزُّهْدِ بالدُّنْيَا وَمَا جَمَعَتْ ... مِنْ كُلِّ شَيءٍ ، سَوَاءٌ قلَّ أو كَثُرَا
الجُودُ مِنْ طَبْعِهِ للنازلينَ إذا ... مَا الجوعُ خَلَّفَ ذا صَبْرٍ بلا صَبرَا (2)
هو الذي يَكْتَسِي (3) العريانُ إذْ قَصَدَهُ ... هُوَ الذي قَطُّ لَمْ يَسْتَصْعِبِ الوَعَرَا
كُلُّ البِحَارِ [لأدْنَى] (4) بَحْرِهِ عَجَزَتْ ... حَتَّى النَّدَا قَرَّ بالتمليك وانقهرَا
هَلْ لِلْنَّدَا مَالِكٌ مِنْ بَعْدِ عُمْدَتِنَا ... والجودُ رِقٌّ لَهُ والأَمْرُ قَدْ شُهِرَا (5)
يَا لِلْمَسَامِعِ قَدْ رُجَّتْ [بَلَابِلُها] (6) ... بِمَوتِ مَنْ مَاتَ أَوْ بِقَبْرِ مَنْ قُبِرَا
مَنْ لِلْعُلوم ومَنْ يَفُكُّ رَمْزًا لَهَا (7) ... مَنْ لِلْحَدِيثِ وَمَنْ لِلْنَّحْوِ وَالعِبَرَا (8)

---

(1) في الأصلين : في ولا يستقيم به الوزن .
(2) بلا صبرا : كذا في (أ) و (ج) ، ومحل صبر الجر ، ونصبه مراعاة للقافية .
(3) في الأصل : يكسي وهو صحيح المعنى ولكنه يكسر الوزن .
(4) في الأصل : لدون .
(5) في الأصل : « مشتهرا » مراعاة للقافية ، ومحله الرفع لأنه خبر . والصدر الأول في (أ) : « هل للندا مالك من قبل عدتنا » .
(6) في (أ) و (ج) : بلادنا ، ولا معنى له في السياق ولا وزن ، والبلبال شدة الهم .
(7) في (ج) : من للعلوم ومن يفكك رموزا لها .
(8) والعبرا : كذا وهو يراعي القافية ، ويخالف القاعدة النحوية التي توجب جره بالعطف على المجرور .

مَنْ لِلْبُخَارِي وَمَنْ يَتْلُوهُ فِي شَهَرٍ ... مَنْ لِلتَّفَاسِيرِ والتَّوْحِيدِ وَالفِكَرَا [1]
مَنْ لِلتَّخَامِيسِ فِي يَـومٍ وَلَيْلَتِـهِ ... مَنْ لِمَدِيحِ رَسُولِ اللهِ والسِّيَرَا [2]
مَنْ لِلسَّمَاعِ وَمَنْ للهِ بَعْـدَكَ يَـا ... كَنْزَ الكُنُـوزِ وَيَا ذُخْـرًا لِمُدَّخِرَا
مَنْ لِلصَّلاحِ إِذَا مَا المُفْسِدَاتُ عَتَتْ ... مَنْ لِلأَرَامِـلِ وَالثَّيَّابِ والبِكَرَا
وَقَدْ جَرَى الـدَّمْعُ شَوْقًا فِي مَحَبَّتِهِ ... إِنِّي وَمِثْلِي لَكُمْ [3] مَا قَطُّ إِذْ نَظَرَا
أُقَبِّـلُ الأرضَ مَشْـتَاقًا لِرُؤيَـتِهِ ... وَالقَلْبُ فِي حُبِّهِ بِالثِّقْلِ قَدْ سَكِرَا
لَوْ كَانَتِ النَّفْسُ تَفْدِي النَّفْسَ قُلْتُ أَلا ... يَا نَفْسِي دُونَكِ فَافْدِيهِ مِنَ الغِيَرَا
مَعَاشِرَ النَّـاسِ جِدُّوا فِي بكَـائِكُمُ ... لِبَحْرِ عِزٍّ يُرَى فِي القَـبْرِ مُقْتَبِرَا
فِي عام أَلْـفٍ وَتِسْعِ مـائةٍ مَوْتُـهُ ... عِشَى الخَمِيسِ فِي شهرِ الصَّومِ مُشْتَهِرَا
سَأَلْتُ رَبِّي إِلهَ العَـرْشِ يَرْحَمُـهُ ... وَمِنْ جَهَنَّـمَ يُنْجِيهِ وَمِنْ سَقَرَا
واللهُ أَسأَلُ غُفْـرَانَ الـذُّنوبِ لَنَـا ... وَلِبَنِيهِ وَمَنْ بِالجَمْـعِ قَدْ حَضَرَا
فِي جَنَّةِ الخُلْـدِ يـا رحمٰنُ جَـاوِرْ بِـهِ ... صَحَابَةَ المُصْطَفَى والسَّادَةَ الغُرَرَا
صَـلَّى الإلـٰهُ عَليـهِ دَائمـًا أَبَـدًا ... وَارْضَ إِلٰهِي عَلَيْهِمْ دَائمًا دَهَرَا [4]

وقال سيدي أحمد بن مدين لموت الشَّيْخ : [بسيط]

قَلْبِي حَزِينٌ وَدَمْعُ العَيْنِ مُنْهَمِلٌ ... لِفَقْدِ مَنْ كَانَ لِي سَنَـدٌ ومُسْتَنَدُ
عَبد السَّـلام أَخِـي فَلَا يُشَـاكِلُهُ ... فِي عَصْرِهِ طُرًّا أُستاذٌ ومعتمـدُ

---

(١) والفكرا : من الإقواء القريب الذي يجيزه العروضيون ، فالمحل للجر كسابقه .
(٢) السيرا : كذا ومحلها الجر ، وينطبق هذا على القوافي التالية أيضًا .
(٣) في (ج) : كي .
(٤) في (ج) : دائم الدهر .

قَدْ مَاتَ والمَوْتُ حَقٌّ لِجَمِيعِ الوَرَا ... وَفَارَقَتْ رُوحُهُ الأحشاءَ والجَسَدُ[1]

أمرٌ قَضَاه إلـٰهُ العَرْشِ خَالِقُنَا ... فَلَا يَردُّ عَلَيْهِ فِي القَضَا أَحَدُ

يَا شَيخَنَا ضَاقَ قَلْبِي بَعدَكم وافْتَنَى ... وَقَدْ تَنَغَّصَ عَيْشِي وَانْتَشَى نَكَدُ

قَدْ كُنْتَ يَا سَيدي فِي الضِّيقِ تَشْرَحُهُ ... [فَصَارَ بَعْدَكَ ذَاكَ الشَّرْحُ يُفْتَقَدُ][2]

فقلتُ يا قلبي مَهْ[3] لِمْ تُطِلْ أَسَفِي ... فَقَالَ لِي مِنْ فِرَاقِ طَائلٍ جُدَدُ

عَلَيَّ قَدْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا بأجمعِهَا ... ولَمْ يَسَعْنِي بِهَا بَادٍ ولا بَلَدُ

وقال سيدي عمر بن محمد بن جحا لموت الشَّيْخ : [طويل]

أيَا فُقَرَاءَ اللهِ حُقَّ لَنَا البُكَا ... لِمَوتِ إِمَامٍ عَظَّمَ اللهُ مَنْشَاهُ

وَأَعْنِي بِهِ شَيْخَ المَشَايخِ كُلِّها ... إِمَامٌ عَظِيمٌ أَكْرَمَ اللهُ مثواهُ

شَهِيرٌ بعابِدِ السَّلامِ نِدَاؤهُ ... سَلِيلُ سَلِيمِ الليثُ ظاهرُ مسماهُ

جَرَتْ قُدْرَةُ الرَّحْمٰنِ فِي كُلِّ خَلْقِهِ ... بموتٍ وهذا حُكمُهُ وقَضَاهُ

لَقَد رُجَّتِ الأَرْضُونَ فِي يوم مَوْتِهِ ... وكُفَّتْ عيونُ العاشقين لِرُؤياهُ

فَخَطْبٌ عظيمٌ يا لَهَا مِنْ مُصِيبةٍ ... وَرِزءٌ عَظِيمٌ يا لَهَا مِنْ رزاياهُ

وَمَنْ لِكِتَابِ اللهِ والشَّرعِ بَعْدَهُ ... وَمَنْ لِأَحَادِيثِ النَّبِي وَمَسْرَاهُ

ومَنْ لِلْفَتَاوَى وَالعُلُومِ بَأَسْرِهَا ... وَمَنْ لِتَصَارِيفِ الكَلَامِ وَمَعْنَاهُ

ومَنْ لِعُلُومِ النَّحْوِ والفِقْهِ ثُمَّ مَنْ ... لِتَوحِيدِ رَبِّ العَالَمِينَ وَذِكْرَاهُ

ومَنْ لِصَلاحِ المُفْسِدَاتِ إِذَا عَتَتْ ... ومَنْ لِصَلاحِ الأَمْرِ دينًا ودُنْيَاهُ

ومَنْ لِقُلُوبٍ قَدْ قَسَتْ بجهالةٍ ... يُوَعِّظُهَا حَتَّى تَلِينُ وتَهْوَاهُ

(١) المحل النصب والقافية تقتضي الرفع .

(٢) في (ج) : فصار بعدك الفرج منفقد ، وفي (أ) مفتقدًا بالنصب والمحل للرفع .

(٣) في (أ) : من .

ومَنْ يأمُر المعروفَ أو يَنْهى مُنْكَـرا   ومَـنْ يَتَّـقِ مَـوْلاهُ سِرًّا ونجـواهُ

هُوَ العَالِمُ العَلَّامَـةُ الفَـاهِمُ الفَطِنْ   وَلِيٌّ كَريمٌ لا تُعَـدُّ مَزَايَـاهُ

هُوَ البَـدْرُ نُـورًا لا يَـزُولُ ضِيَـاؤُهُ   هُوَ البَحرُ جُودًا لا تحولُ عَطَايَاهُ

أَيَا مَجْمَـعَ الزُّهـادِ وَحْشَتُنَا بِمَـنْ   تَلُـوذُ بِـهِ غَوْثًا بِمَـنْ قَـدْ فَقَـدْنَاهُ

وهَيْهَـاتَ للـدُّنْيَا تَجُـودُ بمثلـهِ   وَهَيْهَاتَ أَنْ ينشا [مكافٍ](1) لحُسنَاهُ

جَعَلْنَاكَ يَـا كَنْزَ العُـلُومِ وَسِيلَةً   وَقُـدْوَتَنَا لله في يَـوْمِ نَشْـرَاهُ

أَلَهْفِـي عَليـهِ ثُـمَّ لَهْفِـيَ دَائمـًا   أُوَاهٌ أواهٌ ثُـمَّ واهٍ وأُوَاهُ

فَلَوْ تُفْدِهِ الأنفـاسُ والمـالُ والوَلَـدْ   لَهَـانَ عَلَيْنَـا كُـلُّ شَيْءٍ مَلَكْنَـاهُ

وَلَوْ تَبْكِهِ أُفقُ السَّمَـاءِ وأرضُـهَا   وَمَا فيهمَا : إنسٌ وجـنٌّ وأَمْـوَاهُ(2)

لَـمَـا قَـدَرُوا مِقْـدَارَه فَبُكَـاؤُهُمْ   قَليلُ [وَمَا] بِالقَومِ [صَـبْرٌ] لِبُكَـاهُ

فَصَـبْرًا عَلَى مَا قَـدَّرَ اللهُ رَبُّنـا   وَصَبْرًا عَلَى مَـا قَـدْ قَضَـاهُ وسَـوَّاهُ

فَيَا رَبِّ ارْحَمْـهُ وَوَسِّـعْ ضَرِيحَـهُ   واجْعَلْ لَـهُ فِي جَنَّـةِ الخُـلْدِ مَـأْوَاهُ

واجْعَـلْ إِلهي مِـنْ بَنِيـهِ خَلِيفَـةً   تُوَفِّقُـهُ فِي مَـا تُحِـبُّ وَتَرْضَـاهُ

فإنَّـكَ ذُو فَضْـلٍ وَخَـيْرٍ ورَحْمَـةٍ   فَمَـا خَابَ مَنْ يَدْعُوكَ فِي مَا تَمَنَّاهُ

وَبَعْـدَ صَـلَاةِ اللهِ ثُـمَّ سَلامِـهِ   عَلَى مَنْ أَتَـانَـا بِالقُـرَانِ قَـرَأْنَاهُ

[سلام على الإخوانَ طرًا ومن تـلا   رِسَالَةَ نَظْمِي ثُـمَّ يَفْهَـمُ مَعْنَـاهُ](3)

فقد قلتُ هذا النظم في يـوم موتـه   في عَـامِ افْـغَ(4) وَالإلـهُ حبـاهُ

فيا ربِّ إني خائفٌ منـك وَجِـلٌ   وَعَبْدُك يَرْجُو العَفْوَ مِنْكَ وَمَنْجَاهُ

---

(١) في (ج) : كفوه، وفي (أ) : كفؤا.

(٢) في الأصل : أمياه.

(٣) من : (ج).

(٤) افغ : بحساب الجُمَّل هي ٩٨١ هـ.

وقال سيدي عبد الحميد بن عبد الله ضي الهلال : [وافر]

فُــؤادي لا يَقِــــرُّ لَهُ قــــرارُ ... وأجفــــاني مَدَامِعُهَـــا غِـــزَارُ
وليـــلٌ طـــالَ بالأنكـــادِ حَتَّـــى ... ظننـتُ الليــلَ لـيس لـه نهـارُ
ولِمَ لا والتُّقَى حُـــلَّتْ عُـــرَاهُ ... وبـــانَ عـــلى بنيــهِ الانكســارُ
بفقــدِ الغَــوْثِ شــيخ الاجــتماعِ ... سَلِيلُ سَــليمْ مـا عنـهُ اصـطبارُ
ليبـكِ معـي عـلى الـدين البـواكي ... فقـــد أضـــحتْ مواطنُـــهُ قِفَـــارُ
وقــد هُــدِمتْ قواعــدُ مــا أعــدَّ ... وزالَ بفقـــدِهِ عَنْـــهُ الوَقَـــارُ
وأَصْــبَحَ لا يقــامُ لَــهُ حُــدُودٌ ... وأَمْسَـــى لا يَبِـــين لَـــهُ شِـــعَارُ
وعــادَ كَمَــا بَــدا فِينَــا غَرِيبًــا ... هُنَالِكَ مَا لَـهُ في الخَـــلْقِ جَـــارُ
أَيَـا مَـــوْلَاي عَـامِـلْهُ بلـطـف ... وَأَسْـكِنْهُ العُـــلا نِعْـمَ القَـرَارُ[1]
واحْشُرْنَـــا في زُمْرَتِـــهِ جَمِيعـــًا ... بجـــاهِ الآلِ والصَّـــحْبِ الكبـــارُ
وَأَجِـرْنَا مِنَ التَّعـــذيبِ طُـــرًّا ... بفضــــلك رَبِّ أنــتَ المسـتجارُ
وأبدلْنَـــا بِـــهِ شَـــيْخًا وَفِيـــًا ... سَـــدِيدًا عَالِمـــًا ولَـــهُ أَسْرَارُ

وقال سيدي عبد الرحمٰن بن محمد الصغير ابن الشَّيْخ الكبير الشهير سيدي عبد الرحمٰن السلطان البشت مشيرًا بذلك لموت الشَّيْخ شعرًا : [كامل]

بَعُــدَ الأحبــةُ لا تُــزارُ ديارُهـــا ... أهلُ الدِّيَـارِ إلى المقـابرِ صَـــاروا
نَادَيْتُ حَادِي عِيسِهِمْ إذا [غادروا][2] ... قـفْ بالمطيــة في فـؤاديَ نـــارُ
حَتَّى أُودِّع مَـنْ عَـدِمتُ جَمَـــالَهُمْ ... وتهتكـــتْ لِفـــراقهم أســـتارُ

(١) الإقواء في هذا البيت وما بعده قد يدعو إلى التسكين أو مراعاة القافية على حساب السياق الإعرابي.
(٢) في الأصل : ساروا .

النورُ كانَ عَلَى الدِّيَارِ وَهُمْ بِهَا — لَمَّا تَوَلَّوا زالتِ الأنوارُ
يَا وحشتي أَبَدًا لِطُولِ حَدِيثِهِمْ — كَانَتْ لَيَالِينَا بِهِنَّ قِصَارُ
الموتُ كَأْسٌ للأنامِ تَذُوقُهَا — مُرُّ المذاقِ ولَيْسَ مِنْهُ فِرَارُ
كَانُوا وَكَانَ العَيْشُ مَعْهُمْ طَيِّبًا — واليوم صَارُوا فَالتُّرَابُ يُزَارُ

وقال سيدي عريبي الورفلي لموت الشَّيْخ : [زجل]

الأيَّامْ خَانُوا — آهْ آهْ يَا لُستادْ
بَعْدَ أنْ زيانوا — وخَلُّوا لَنَا الانكادْ
كُنَّا وكانوا — وتَفَرَّقْ الميعادْ
ابْكُوا وَثَانُوا — عَلَى شيخنا الصَّدادْ

وقال سيدي عبد الرحمٰن بن عطية القديشي لموت الشَّيْخ : [زجل]

بَعْدَ أنْ زهينا — وانشرحتْ الاذهانْ
وثاني بكينا — والفرح عاد أحزانْ
والشَّيْخ أينه — باباكْ يا عمرانْ
مجلِّي الغْبِينا — .يا حبر يا ديانْ
غايب علينا — العارف السلطانْ
بحرمة نبينا — الهاشمي العدنانْ(١)

فبينما ينشدون على موته قبل دفنه وإذا بهاتف يقول : [بسيط]

كُنَّا عَلَى ظَهْرِهَا والدَّهرُ يجمعُنا — والشملُ مجتمعٌ والدار والوطنُ
ففرَّقَ الدَّهرُ بالتفريق أُلفَتنا — وصار يجمعنا في بطنها الكفنُ

---

(١) البيتان ليس في (ج) ، ويبدو أن عناية الشَّيْخ منصور أبو زيدة - رحمه الله - بالنص جعلته ينقحه مما يوهم الخلل واللبس ، فنداء الديان قد ينصرف للشيخ حسب السياق .

فقعد الشَّيْخ حين ذلك بعد موته فأجاب قائلًا [1] : [زجل]

أنا الشَّيْخ الأسمر — أنا فارس الميدانْ
أنا حي نزهر — من بعدما ندفانْ
كما الصيد [2] نبرْ — حطّام للفرسانْ
ومهما ننزر [3] — نخلي العدو طُشَّانْ
مدفعي معمر — ملحق [4] عراه امتانْ
فتلي مزهمر — كالبرق في العجانْ
كوري مذكَّر [5] — ما هدّ مِن سِيسانْ
رصاصي معبر — يضرب على الأعيانْ
ركاب مبهر — على سَابِقِي طربانْ
قوسي موتر — وسيفي من الرحمٰنْ
نكسر ونجبر — وننجي من النيرانْ
بإذن المقدّر — المالك الديانْ

ثُمَّ قال : أيُّها الإخوان قد قعدتُ لأخبرَكم عن حالي ، وما رأيت بعد موتي هذه ، أما أنا ما أموتُ ولا أغيب عنكم [6] ، وإنما موتي انتقال جسمي

(١) هذه هي المبالغات التي تعيب كتاب البَرموني على نفاسته ، وقد تبين أن كثيرًا من حكاياته يراد بها المغزى وليس الإخبار عن حقيقة حصلت .
(٢) في (ج) : كما الأسد .
(٣) في (أ) : ما ننزر ، وفي (ج) : ومهما ننزر ، ولعل المراد : نزهر (عامية : تعنى صوت الحيوان المفترس) .
(٤) في الأصلين : ملحق ولعل المراد :محلق أي به حلق .
(٥) في (ج) : كوره مظهر ما هد من بنيان .
(٦) إذا كان الله تعالى قال عن المصطفى ﷺ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ (آل عمران ١٤٤) ، وقال سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ : « مَنْ كان =

من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، وأتصرف أكثر مما كنت أتصرف أولًا في دار الدنيا ، وإني رأيت في هذه الغيبة كأن القيامة قد قامت ، والجنة قد فتحت لي أبوابَها ، والحور العين قد تزيَّنت لي ، وسمعتُ قائلًا يقول : يا عابد السَّلام أنت وأصحابُك وأصحابُ أصحابُك في الجنة ، وسل تُعطى ، واشفع تُشفَّع ، ولا زال يحدِّثنا من هذا المعنى بعد الموت إلى أن بلغ ثلاث ساعات . ثُمَّ قال أشهد أن لا إله إلَّا الله وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله ﷺ ، إلى آخر القواعد ، وسقط عن يمينه ميتًا .

وهذا من الجائز عقلًا ونقلًا ، وقد وقع ذلك لجماعة كثيرة من أهل الله ﷻ قبل الدفن وبعـــده[1] ، كما هو مبســوط في كتبهم ﷺ ، ولا يُنكر ذلك إلا من أخفى الله عليه الشعور بأهل الله وأحوالهم الربانية وحقائقهم العرفانية ، وعلومهم الوهبية ، وكراماتهم السنية ، وهم الأولياء المحقَّقون – نفعنا الله بهم وبأسرارهم – .

= يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت » . ولم يثبت أن رسول الله قعد بعد موته ، فكيف نسمع إلى قول كهذا الذي يرويه البَرموني عن الشَّيْخ الأسمر ؟ والحرص على ترسيخ العقيدة أَوْلَى من التشبث بهذه الحكايات المعتمدة على الخيال ، ولو نظرنا في صفات الشيخ الأسمر من رثاء إخوانه لرأينا رجلًا عالمًا يُمدح بفقهه وعلمه ودينه وبخلقه الرفيع ، ولا ذكر لخوارق العادات التي لا تنكر منها الكرامات ولكنها ليست أبرز صفات الشيخ الأسمر .

(١) أي جواز عقلي ونقلي لهذا الذي يتحدث عنه البَرموني – غفر الله له – وهل وجد حكاية واحدة من هذا القبيل في القرون الثلاثة الأولى يستند إليها ؟ نرجو الله أن يشفي عقول أمته من هذه الأوهام ، فما أرى سببا لتخلفها عن سائر الأمم إلا الإعراض عن صحيح العلم والتشبث بهذه المعتقدات الفاسدة التي تنسب إلى الأولياء ، وهم منها براء ، ولو حدثت هذه الواقعة لذكرها الشيخ عمر بن جحا وهو خليفة الشيخ الذي أشرف على تغسيله وحضر الصلاة عليه ، أو الشيخ سالم بن طاهر الذي صلى عليه وترك كتابًا في سيرته ، والذي يبدو أن البَرموني ينقل أخبارًا لم يشاهدها .

قال شيخ مشايخنا سيدي أحمد زرُّوق – رحمه الله ونفعنا به – : إن الولي إذا أقبلتَ على قبره وسلَّمتَ عليه عرفك وردَّ عليك السَّلام، لا سيما إن ذكرتَ الله، فيجلسُ في قبرِه متربِّعًا، ويذكر الله معك، وإن كنت أنت وليًّا خرج لك من قبره على صفته المعهودة في دار الدنيا[1]. حاشا قلوب العارفين أن تخبر بغير يقين، فإنهم لا موت لهم، وإنما موتهم انتقال الأجسام من دار الدنيا إلى دار الآخرة، فمَنْ استغاثَ بهم في كربة أو غمَّة أو ضيقة كُشفت عنه، ومن ناداهم في شدة فُرِّجت عنه اهـ. لا سيما هذا الشَّيْخ – الذي هو مولانا عبد السَّلام – المتصرِّف بعد الموت كما هو مجرَّب متكرر: [الوافر]

وكيف يصحُّ في الأذهان شيءٌ ... إذا احتيج النَّهَـارُ إلى دَليـلِ

[الكلام في الشَّطحِ]

ولهذا الشَّيْخ – الذي هو مولانا عبد السَّلام – قصائد كثيرة في أمرِ الشَّطحِ على منهاج الطريقة الجيلانية، منها قوله: [طويل]

صَلاتي على المختارِ كَنْزِي وَعُـدَّتي ... سلامي على العدنانِ جدي ونسبتي
شربتُ شَرابَ الْعِزِّ من خمرةِ الصَّـفا ... سَـقَانيَ محبـوبي بسِرٍّ[2] العنليـةِ
وبانتْ لي الأنوارُ وانكشفَ الغطَـا ... وأُلهمـتُ أسـرارًا بسـرِّ الجلالةِ
إلى أنْ رأيتُ ما لا يمكنُ وصـفُـهُ ... بغـيرِ[3] حُـلُولٍ في مكانٍ وجهـةِ
وعاينتُ ما تحت الأراضي مَعَ السَّمَا ... وَمَا فَوقَ كلِّ الفوقِ حَقًّـا بلَمْحَـةِ[4]

---

(١) لم يذكر أين ذكر الشَّيْخ زرُّوق هذا الكلام، وهو محتسب الصوفية المعروف بمحاربة البدع.
(٢) في الأصلين: من سر.
(٣) في (ج): من غير.
(٤) في (ج): في لمحة.

وشاهدتُ ما في اللوح معنًى وصورةً ... وَمَا هو منسوخٌ وما هو مثبتِ[1]
فلو أُلقيَ شيءٌ مِنَ أسْرار سرِّنا ... على الشَّامخاتِ الرَّاسيات لدُكَّتِ
أَنَا العِزُّ أَنَا الكَنزُ والحقُّ قال لي ... تمَنَّى عليَّ يا حبيبي وصفوتي
فقلتُ إلٰهي إنني مُتَمَنٍّ[2] ... وحبُّك يا رحمٰنُ قَصدي ومُنيتي
فَجَاوبني أنِّي سأفعل ما تشا ... لأجلكَ يا مَنْ زَجَّ في بَحْرِ هيبتي
فَقَالَ بغيرِ الصَّوتِ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ ... فَأَنْتَ [لديَّ][3] القُطبُ مَوْلَى الإغاثةِ
تقرَّبْ إلينا مَرْحَبًا بولِيِّنا ... وأهلًا وسَهلًا بالحبيبِ المثبتِ
قعدتُ بألطافِ الإلٰهِ مؤيدًا ... عليَّ مِنَ الأنوارِ أفخرُ حلةِ
ولا عجبًا في فضلِ ربِّي إلٰهنا ... فيؤتي لِمَنْ يشاء دون عبادةِ
وكوشفتُ أنوارَ الرِّضا والتقربِ ... وذُوِّقتُ أسرارَ الوصالِ بحضرتي
ونمقتُ منشورًا إلى كلِّ عاشقٍ ... بأنهمُ حِزْبي وأهلُ إرادتي
وأني إمامُ الكُلِّ في حالِ مدحهم ... ولم يشربوا شُرْبًا بدونِ خمِيرتي
وَهُمْ أهلُ عَصْري يقتفون بإثرنا ... مِنَ العشقِ جمعًا يتَّبعون طريقتي
وكنتُ أنا السَّاقي إليهم مُبَسْمِلًا ... أحُومُ عليهمْ طُرًّا مِنْ سِرِّ هيبتي
أَنَا القُطبُ أَنَا الغَوْثُ في كلِّ حالةٍ ... وإنَّ رسولَ الله جدِّي وقدوتي
أَنَا سيفُ رَبِّي لِلَّذي كانَ طاغيًا ... وكلُّ الوَرَى مِنْ أمرِ رَبِي رَعِيَّتي
أَنَا شمسُ فَضْلٍ لا يغيبُ ضِيَاؤُها ... بذاتي تقومُ الذاتُ يَومَ القيامَةِ
أَنَا حَيٌّ[4] قَبْلَ كلِّ حبٍّ وبغيةٍ ... وسِرٌّ سرى في الكون من قبل نشأتي

---

(١) في البيت إقواء.

(٢) في (ج): فقلت له إلهي إنني متيم، وهو تصحيف،والأصح لغة وسياقًا (متمنٍ) ولكن كسر الوزن ألجأه إلى التنوين.

(٣) في (أ): لذا، وفي (ج): إذًا.

(٤) في الأصل: أنا حبي.

أَنَا الحــقُّ في العليــــا وكلِّ مكانةٍ وفَدَّيتُ(١) إسماعيلَ يـــوم الذبيحةِ
أبوه أبو إسحـــــــاق أطفيتُ نـاره وعادتْ له بردًا ســــلامًا بنفختي
ويوشـــــع ابنُ نــون حقًّا نصرتُه وأنقذتُ يُوسُفَ الجميــل بـدعوتي
أَخذتُ يَدَيْ إدريس يـوم صعودِهِ إلى جنـــةِ الفردوس دار العليـــةِ
وأنطقتُ عيسـى بـالجوابِ مخاطبًا وكلُّهم في المهـدِ مِـنْ غـير مريـةِ(٢)
وأشفيتُ أيوبَ الصبورَ مـن الأذى وأنجيتُ دنيالًا مِنْ ليث بسطوتي
وعلَّمــتُ داودَ الرســولَ صــناعةً وطوَّعت لابنـه الرِّيـاح بحكمـتي
وكنتُ مـع نـوحٍ بحـــالِ ركوبـهِ وسيَّرته في البحـر عن كفِّ قـدرتي
وأمـري بأمـــر الحـقِّ جلَّ جلالُه وإذني بإذن الله سِــــرًّا وجهـــرتي
واسمي أنا عبـدُ السَّلام بـلا خفـا سليلُ سـليم الليث قُطْـب الإرادةِ
فيا معشـرَ الإســــلام ائتوا لبابنا ولوذُوا به تَنَاولوا سِـــــرَّ الولايـةِ
فللَّــه أفضـــالٌ علينــا ونعمَـــةٌ تجللتْها من غـــــير حـول وقـوةِ
فكَمْ مِنْ فقيرٍ خامـلِ الـذِّكر جاءنـا فنـال منــــالَ الصالحين بخدمتي
وكَمْ مِـنْ منـاجٍ مستغيثٍ باسـمنا حضرْنا له عنــــد النــــداء بسرعةِ
وكَـمْ مِـنْ فقيـه كـان يُنكـر حالنـا فصار بفضل الله من أهـل حضرتي
فأعطـــاني التصـــريف حيًّـا وميتًـا وصرتُ إمام الوقت شيخَ الطريقـةِ
وصـلِّ إلٰــهَ العـــالمين عـلى الـذي أتى بطـريق السُّـنَّةِ والرســـــالةِ
هو المصطفى المبعوث للناس رحمةً وأشـــــــرفُ داعٍ للعبــاد بملةِ

انتهت القصيدة بحمد الله وحسن عونه، وهي قصيدة مولانا عبد السَّلام في شهر الله المعظم شعبان سنة سبعين وتسع مائة ، في ليلة جمعة في افتتاح

(١) في الأصلين : وأفديت .
(٢) في (ج) : فرية .

الشهر المذكور ، ولَمَّا عَزَيْتها لبعض فقهاء العصر[1] ، قال : ظاهرها محال ، وباطنها لا أدري ما أقول ، لكن أسمعُ بعض السادات يقول : أنا القُطب الغَوْث إذا استغرق في حب الله وغاب عن الوجود ، يقول الله ﷻ لروحه : يا روح فلان تكلَّمي بكلام قدرتي ، فتتكلَّمُ الروح بلسان ربها بالأصوات والحروف من غير اختيار صاحبها ، فيكتبُ الطلبةُ ذلك من قائله .

وفي الحديث القدسي : « ما زال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حَتَّى أحبَّه ، فإذا أحببتُه كنت سَمْعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجلَه التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه »[2] رواه البخاري وغيره . قال العلماء ﭭ : مَنْ ادَّعى القُطبانية بالشَّطحِ مع إقامتِه لرسم الشرع فليأت ببرهانٍ وخارقٍ عظيم ، فإن لَمْ يأتِ بذلك فهو كاذب في دعواه ، ومَنْ ادَّعى ذلك مع عدم اتِّباعه لرسم الشَّرع وأتى بخارقٍ فلا يصدَّق ، بل تكون شَعْبذة أو سِحْرًا ، فلا يسلَّم في ذلك لأحد إلَّا مَنْ كان مستقيمًا في ظاهره .

قال بعض الشيوخ : فلا بُدَّ لمدَّعي الصدِّيقية العظمى مع إقامته لرسم الشَّرع وأَخْذِه بالأحوط ، أن يسردَ الصحيحين من رأسه ، والقرآن بروايته ومعانيه ، وأن يُخبِرَ بما قبل القبل ، وما بعد البعد ، وما فوق الفوق ، وما تحت التحت ، وأن يأتي بخارقٍ كنزول المطر ، والموائد ، وإحياء الموتى ، وإلا فهو كاذبٌ في دعواه ، إلى أن قال : ولا عجب في الكلام بالشَّطح إذا كان صاحبُه مُحِقًّا ممن ظهرت عليه الخصوصية ، وبلغ مبْلغَ الصدِّيقية ، وقد تكلم بالشَّطح مشايخُ عتيدة كالشَّيْخ سيدي عبد القادر الجيلاني ، وابن

---

(١) عَزَيْتها لبعض فقهاء العصر : (كذا) وهو يريد عرضتها عليهم .

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة .

الفارض ، وابن عربي ، والشُّشتري، وابن سبعين ، والدسوقي وغيرهم ، ولم يكن ذلك الشَّطحُ الذي قالوه قادحًا فيهم ، ولا في مخرَجِهم ، ولا منكرٍ عليهم .

وقد سئل الشَّيْخ العارف بالله سيدي عبد الله بن أبي جمرة في ابتدائه عن القائل « أنا هو وهو أنا » فقال : لا يقول ذلك إلَّا مَنْ كان مجنونًا أو دماغه مقلوبًا ، ثُمَّ لَمَّا سُئل عنه في انتهائه قال : لا أدري إلَّا أن الشيوخ الكُمَّل ، وأربابَ البصائر يسلِّمون لمدَّعيه إذا كان مستقيمًا . وأجاب عن ذلك المقدسي في القائل : سبحاني سبحاني ، وأوَّله بالتأويل الحسَن ، وأجاب عن ذلك وليُّ الدين العراقي وأبو حامد الغزَّالي ، وسعد الدين وغيرهم ، وقد تُسمَّى عندهم بالأنانية وبالشَّطحة الإلهية ، فمن ذلك الشَّطحة الجيلانية منقولة عن الأجلة أنه كان سمعه ، وهي : [طويل]

نظرتُ بعينِ الفكرِ في حالِ حَضْرتي ... حبيبًا تجلَّى للقلوب فَجَلَّتِ[1]
سقاني بكأسٍ مِنْ مَدامَةِ حُبِّه ... فكان مِنَ السَّاقي خماري وسَكْرَتي
يُنَادِمُني في كُلِّ يوم وليلةٍ ... وما زال يرعاني بعين المودة
ضريحي بيتُ الله من جاء زراه ... بهرولة يحظى بعزٍّ ورفعة
وسِرِّي بسِرِّ الله سَارٍ في خلقه ... فلُذْ بجنابي إن أردتَ مودتي
وأمري بأمر الله إنْ قلتُ كُنْ يَكُنْ ... وكُلٌّ بأمرِ الله فاحكمْ بقدرتي
وأصبحتُ بالوادي المقدَّس جالسًا ... على طُورِ سِيناءَ سَمَوْتُ بخلعتي
وطافتْ بي الأكوانُ مِنْ كُلِّ جانبٍ ... فَصِرْتُ لها أَهْلًا بتَحْقِيقِ نِسْبَتِي
فَلِي عَلَمٌ في ذِرْوَةِ المجدِ قائمٌ ... رفيعُ البِنَا يأوي لَهُ كُلُّ أمتي

(١) في (ج) : فجنتي .

فلا عِلْمَ إلَّا مِنْ بِحَارٍ وِرَدْتُها ... ولا نقلَ إلَّا مِنْ صحيحِ روايتي
على الدُّرةِ البيضاءِ كان اجتماعنا ... وفي قابَ قوسين اجتماعُ الأحبةِ
وعاينتُ إسرافيلَ واللوحَ والرِّضا ... وشاهدتُ أنوارَ الجلال بنظرتي
وشاهدتُ ما فوق السَّماواتِ كلِّها ... كذا العرشَ والكرسِيَّ في طَيِّ قَبْضَتِي
وكلُّ بلاد الشَّرق مِلْكي حقيقةً ... وأقطابُها مِنْ تحت حُكمي وطَاعَتي
وجُودي سَرَى في سِرِّ سِرِّ الحقيقة ... ومرتبتي فاقتْ على كُلِّ رتبةِ
وذكري جلا الأبصار بعد غِشائها ... وأحيا فؤاد الصبِّ بعد القطيعة
حفظتُ جميعَ العِلْمِ صرتُ طرازَهُ ... على خلعةِ التشريفِ في حسن خلوتي
قطعتُ جميعَ الحجبِ للحب صاعدا ... وما زلت أرقى سائرا بمحبتي
تجلَّى لي الساقي وقال: إليَّ قمْ ... فهذا شرابُ الحبِّ في حالِ حضرتي
تقدَّم ولا تخْشَ كَشفَنَا حجابَنا ... تملَّى هنيئا بالشَّراب ورؤيتي
شطحتُ بها شرقًا وغربًا وقبلةً ... وبرًّا وبحرًا من نفائس خمْرتي
ولاحت لي الأسرارُ من كلِّ جانبٍ ... وبانت لي الأنوارُ من كلِّ وجهةٍ
وشاهدتُ معنى لو بدا كشفُ سرِّه ... لِصُمِّ الجبالِ الراسياتِ لدكَّتي
ومطلعُ شمسِ الأفقِ ثُمَّ مغيبُها ... وأقطارُ أرض الله في حال خُطْوتي
أُقَلِّبُهَا في راحتيَّ ككورةٍ ... أطوفُ بها جمعًا على طول لمحتي
أنا قطبُ أقطاب الوجود حقيقةً ... على سائر الأقطاب قَوْلي وحرمتي
توسَّل بنا في كلِّ هَوْلٍ وشِدَّةٍ ... أُغيثُك في الأشياءِ دَهْرًا بهِمَّتي
أنا لمريدي حافظٌ ما يخافهُ ... وأحرسُهُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وفِتْنَةِ
مريدي إذا ما كَانَ شَرْقًا ومَغْرِبًا ... أُغثْه إذا ما سار في أي بلدة
فيا منشدًا نظمي فقله ولا تخفْ ... فإنك محروس بعين العناية
فكن قادريَّ الوقت لله مخلصًا ... تعيشُ سعيدًا صادقًا بمحبتي

فجـدي رسـول الله أعنـي محمـدًا ... أنا عبـد ربي دام عـزِّي ورفعتـي
أنا حجـةُ الإسـلام مِـنْ آلِ هاشـمٍ ... أنا سـيدُ الأنـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ شيخُ الجماعة
بِنَسْـلِ رَسُـولِ الله قَطْعًـا أنـا أنـا ... عبد القـادر الجيلاني مولى الطريقة

انتهى ما وجد من القصيدة الجيلانية المسماة بالشَّطحة .

قال الشَّيْخ مكين الدين - رحمه الله - : إن سيدي عبد القادر الجيلاني - رحمه الله ونفع به - لمَّا صدرت منه الشَّطحة الثانية وظهرت ، أفتى علماء بغداد بكفره ، وقُيِّد ، فلمَّا أرادوا قتله ، قال السلطان : هل بقي أحد من العلماء لَمْ يحضر ؟ قالوا : نعم الشَّيْخ فرج بن عبد الباسط ، فأرسل وراءه فحضر فوجد سيدي عبد القادر في الحديد بين يدي السلطان ، فقال الشَّيْخ: لِمَ هذا ؟ فقالوا : كَفَر . فقال : ما مسند من أفتى بتكفيره ، فبادر إليه فقيه منهم وقال : قد ادَّعى بشيء يؤدي إلى الخروج من الدين ، من قوله : أنا هو وهو أنا ، فقال الشَّيْخ للسلطان أطلقْه ، فهذا مسلم موحِّد ، وليٌّ صالحٌ ، لَمْ يبلغ فقهاءُ بلدك ما بلغ . فقال السلطان : حلُّوا عنه الحديد ، فردوه من الحديد .

ومَنْ شَكَّ في هذه الحكاية فلينظُر في كتاب « البدايات والنهايات » للشيخ محي الدين ، هذا سيدي عبد القادر مع جلالته وظهوره في عصره ، حَتَّى قال الشَّيْخ عز الدين بن عبد السَّلام ما بلغ أحدٌ مبلغ عبد القادر الجيلاني ؛ لأنَّه - رحمه الله ونفعنا به - قال : لولا ما سبقت الشفاعة من قبلي لجدي رسول الله ﷺ لشفعتْ في كلِّ الأمة المحمدية ، وإنَّ قدمي هذا على كلِّ ولي، أي في زمانه ؛ لأنَّه جمع من علو النسب وشرف العبادة والعِلْم ما لَمْ يكن لغيره في وقته ، ألا ترى ما روى من احتلامه في ليلة واحدة سبعين

مرة[1] ، واغتساله لكل منها ، وفُتياه لَمَنْ حلفَ ليعبدنَّ اللهَ بعبادةٍ لا يشاركُه فيها غيرُه باختلاء المطاف بعد وقوف الكل دونه[2] ، ذلك والله أعلم .

قال الشَّيْخ تقي الدين السبكي – رحمه الله – : اعلم أيها السائل أنَّ كلَّ من خاف من الله ﷻ استعظم القول بالتكفير لِمَنْ يقول : لا إله إلَّا الله محمد رسول الله ، إذ الكفر أمر هائلٌ عظيمُ الخطر ؛ لأنَّ مَنْ كفَّر شخصًا بعينه ، فكأنه أخبرَ أنَّ عاقبته في الآخرة الخلودُ في النار أبدَ الآبدين ، وأنه في الدنيا مباحُ الدم والمال ، لا يُمكَّن من نكاح مسلمة ، ولا تجري عليه أحكام المسلمين ، لا في حياته ولا بعد مماته ، والخطأ في ترك ألف كافر أهونُ من الخطأ في سفك محجمة من دم امرئ مسلم ، وفي الحديث : « لأن يخطئ الإمامُ في العفو أحبُّ إلى الله تعالى من أن يخطئ في العقوبة »[3] .

ثُمَّ إن تلك المسائل التي يُفْتَى فيها بتكفير هؤلاء القوم في غاية الدقة والغمـــوض ؛ لكثرة شُعبها واختـــلاف قرائنهـــا ، وتفـــاوت دواعيها ، والاستقصاء في معرفة الخطأ من سائر صنوف وجوهه ، والاطِّلاع على حقائق التأويل وشرائطه في الأماكن ، ومعرفة الألفاظ المحتملة للتأويل وغير المحتملة ، وذلك يستدعي معرفة جميع طرق أهل اللسان من سائر قبائل العرب في حقائقها ، ومجازاتها واستعاراتها ، ومعرفة دقائق التوحيد وغوامضه إلى غير ذلك مما هو متعذِّرٌ جدًا على أكابر علماء عصرنا ، فضلًا عن غيرهم ، وإذا كان الإنسانُ يعجزُ عن تحرير معتقده في عبادته ، فكيف

(١) هل يدل ذلك إن صحت روايته على شرف النسب أو كثرة العلم أو شرف العبادة ؟

(٢) أي أنه أفتى بإخلاء المطاف من الطائفين إلَّا الحالف .

(٣) رواه الترمذي (١٤٢٤) من حديث عائشة ، وصححه الحاكم في «المستدرك» ٤/ ٤٢٦ ، وتعقبه ابن الملقن في «البدر المنير» ٨/ ٦١٢ ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٥٩) .

يحرِّرُ اعتقاد غيره من عبارته ، فما بقاء الحكم بالتكفير إلَّا لمن صرح بالكفر واختاره دينًا ، وجحد الشهادتين ، وخرج عن دين الإسلام جملة ، وهذا نادر وقوعه ، فالأدب الوقوف عن تكفير أهل الأهواء والبدع ، والتسليم للقوم في كل شيء . انتهى كلام السبكي ﷺ .

وتأمَّل يا أخي ما كان يقول سيدي أحمد زرُّوق في ابتداء أمره : « لا يحل لمسلم موحِّدٍ أن يقول : أنا هو وهو أنا، فهذا مما يوهم الاتحاد والحلول ، فلا يجوز اتباعُهم فيه ، ولا يجوز لأحد أن يسلِّم لقائله حالة سماعه ، وينساغ له تأويلُه بعد وقوعه ، وانقراضه مما يوافق الحق ، مع إقامة رسم الشرع فيه » كما هو مشهور في تأليفه، ثُمَّ لما بلغ مبلغهم، وذاق مذاقَهم ، قطع سلسلة الحديد، ودخل معهم إلى أن أورثَه الله الصِّدِّيقية الكبرى ، وجعل يشطحُ ، وهذه شطحته : [طويل]

ألا قد هجرتُ الخلق طرًّا بأسرهم ... لعلِّي أرى محبوب قلبي بمقلتي
وخلَّفتُ أصحابي وأهلي وجيرتي ... ويتَّمتُ نجلي واعتزلتُ عشيرتي
ووجَّهتُ وجهي للذي فطر السما ... وأعرضتُ عن أفلاكها المستنيرةِ
وعلقتُ قلبي بالمعالي تهمُّما ... وكوشفتُ بالتحقيق من غير مِرْيةِ
وقُلِّدْتُ سيفَ العزِّ في مجمع الوَغا ... وصِرْتُ إمامَ الوقت صاحبَ رفعةِ
ومُلِّكتُ أرضَ الغربِ طُرًّا بأسرها ... وكلُّ بلادِ الشَّرق في طيِّ قبضتي
فملَّكنيها بعضُ من كان مالكا ... وخلَّفني فيها بأحسن سيرةِ
فأرفعُ قدرًا ثُمَّ أَخْفِضُ رتبةً ... وأُعلي منار البعض فوق المنصةِ
وأُجْبِرُ مَكْسُورًا وأُشْهِرُ خامِلًا ... وَأَرْفَعُ مِقْدارًا بأَرْفَعِ هِمَّتي
وأَقْهَرُ جَبَّارًا وأَدْحَضُ ظالمًا ... وأَنْصُرُ مَظْلُومًا بِسُلْطَانِ سَطْوتي

أَنَـا لِمُرِيـدِي جَـامِعٌ لِشَـتَاتِهِ ... إِذَا مَا سَطا جَـوْرُ الزَّمَـانِ بِنَكْبَـةِ
إِذَا كنتَ فِي ضيقٍ وكَرْبٍ وَوَحْشَـةٍ ... فَنَـادِي أَيَـا زَرُّوقُ آتِي بِسُرْعَـةِ
فَكَمْ كُرْبَةٍ تُجْـلَى بِمَكْنُـونِ عِزِّنَا ... وَكَمْ كَرْبَةٍ تُجْـنَى بِأَفْـرَادِ صُحْبَتِي

انتهت القصيدة المباركة التي هي الشَّطحة الزرُّوقية - نفعنا الله ببركة شيخها وبعلومه آمين - .

قال الشَّيْخ العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني في « طبقاته الصغرى » بعد نقله للشَّطحة الدسوقية ، ما نصه : « وجميع ما فيه استطالةٌ من هذه الأبيات الدسوقية إنما هو بلسان الروح ، ولا يَعْرِفُ هذا إلَّا مَنْ شهِد صدور الأرواح من أين جاءت ، وإلى أين ذهبتْ ، وكونُها كالعضو الواحد من المؤمن إذا اشتكى فيه ألَمًا تداعى له سائر الجسد ، وذلك خاصٌ بالكمال(1) المحمَّدي لا يعرفه غيره ، وقد كان سهل بن عبد الله التُّستري ﷺ يقول : أعرف تلاميذي جميعَهم من يوم خوطبوا « ألست بربكم » وأعرف مَنْ كان ذلك الوقت في الموقف عن يميني ، ومَنْ كان عن شمالي ، فلَمْ أزل من ذلك اليوم أربِّي تلامذتي ، وهم في الأصلاب لَمْ يحجبوا عني إلى وقتي هـذا .

فانظره أيُّها المُنْكِر لكرامات الصالحين وشطحاتهم وعلومهم النافعة ، وأنوارهم الساطعة ، وشطحاتهم الأنانية ، وحقائقهم العرفانية ، ثُمَّ قال الشَّيْخ اليافعي ﷺ : فوا عجبًا كيف يُنسبُ السِحْر والشَعْبذة وفِعلُ الشياطين إلى الأولياء المقرَّبين ، والأبرار الصالحين المتطهِّرين من الصفات المذمومة ، المتغلِّفين بالصفات المحمودة ، المعْرِضين عن كلِّ شيء يُعْرِضهم

(1) في الأصل : الكامل .

عن ربهم ﷻ ، فإياك يا أخي أن تُنكر شيئًا من أحوالهم بالنفس ، وبادئ الرأي ، أو تسمعَ من بعض المُنْكِرين عليهم ما يقولونه في حقهم ، فيفوتُك منهم خيرٌ كثير ، كما فاتك الخيرُ في عدم عِلْمِك بكلامهم الذي هو كله نصح لك .

واعْلَمْ أنَّ الكلام بالنفس والهوى والحسد لَمْ يزل في هذه الطائفة من عصر ذي النون المصري ، وأبي يزيد البسطامي ، والشَّيْخ الحلاج ، إلى وقتنا هذا . قلت : ودليل هذا كله قوله - تعالى - : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (الفرقان ٢٠) ، وكل وليٍّ له من تلك الفتنة الحظ الوافر ، وذلك لأن الابتلاء لما كان شرفًا جمع الله – تعالى – لخواص هذه الأمة من البلايا والمحن جميع ما كان متفرقًا في الأمم السابقة ، لعلوِّ درجتهم عنده .

ونقل الثقاتُ أن أبا يزيد البسطامي نفوهُ عن بلده سبع مرات ، [ولَمْ يألفه الناس][1] إلَّا بعد هول ومشقة ، وكذلك وقع لسيدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ ، أنهم نفوه من إفريقية إلى الإسكندرية هو وجماعته ، وكتبوا فيه بأن يُقتل ولم يُؤثِّر فيه بشيء ، وأَفتوا بتكفير أبي حامد الغزَّالي ، وحرَّقوا كتابه « الإحياء » ثُمَّ نصره الله عليهم ، وكتبوه بماء الذهب ، وأفتى بتكفيره كثيرٌ من أهل الصلاح والفضل ذكرناهم في غير هذا .

واعْلَمْ أنَّ العالِم المنتهي المستقيم والولي الكامل في درجة واحدة ، على ما صرَّح به بعضُ شيوخنا ، وقيل : الولي أفضل إذا كان بلوغه للولاية بالمجاهدة ، وقيل : العالِم العامل بعِلْمِه أفضل ، حَتَّى قال السُّلَمي : كل حال لا يكون نتيجةَ عِلْم فضررُه على صاحبِه أكثرُ من نفعه ، وقد جاء أن

(١) في الأصل : ولا ألفوه الناس .

« العلماء ورثة الأنبياء وأمناء الرسل ، ما لَمْ يميلوا إلى الدنيا ، ويدخلوا إلى السلاطين ، فإذا مالوا إلى الدنيا ودخلوا إلى السلاطين فاخشوهم في دينكم »(١) الحديث . وفي الجامع : « العلماء أمناء الرسل ما لَمْ يخالطوا السلطان ويداخلوا الدنيا ، فإن خالطوا السلطان وداخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم »(٢) . وفي رواية « الفقهاء أمناء الرسل ما لَمْ يدخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم »(٣) . وفي رواية « الفقهاء أمناء الرسل ما لَمْ يدخلوا في الدنيا ويتبعوا السلطان ، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم »(٤) . رواه العسكري عن علي .

وفي « الإحياء » : « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء ، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء »(٥) . وفي كتاب « جلب النعمة » : أخرج الحاكم عن معاذ مرفوعًا : « مَنْ قرأ القرآن وتفقَّه في الدين ثُمَّ أتى صاحبَ سلطان طمعًا لِمَا في يده خاضَ بقدْر خُطاه في نار جهنم »(٦). وروى الحاكم أيضًا عن أنس مرفوعًا : « ويل لأمتي من علماء السوء ، يتخذون هذا العِلْم تجارةً

(١) رواه الرافعي في تاريخه ٢/ ٤٤٥ من حديث أنس، وقال ابن أبي حاتم في علل الحديث ٥/ ١٨٦: قال أبي: منكر. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، ووافقه الذهبي في تلخيصه ص٧٦، والعراقي في المغني ١/ ٤١، والألباني في الضعيفة (٢٦٧٠).

(٢) الجامع الصغير (٨٣١٩) من حديث أنس السابق.

(٣) الجامع الصغير (٨٤٦٣) من حديث علي بن أبي طالب، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٠٣٢).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) الإحياء ١/ ٦٨، وقال العراقي في المغني ١/ ٤١: ابن ماجه بالشطر الأول نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٦) عزاه صاحب كنز العمال (٢٩٠٦٩) للحاكم في تاريخه.

يبيعونها من أمراء زمانهم ربحًا لأنفسهم لا ربَّح الله تجارتهم »[1] . وروى الحافظ أبو الفتيان عمر بن عبد الكريم الدهستاني ، والرافعي عن أبي هريرة مرفوعًا : « إن أهون الخلق على الله ، العالِمُ يزور العمال »[2] .

وروى الديلمي عن عمر بن الخطاب مرفوعًا : « إنَّ الله يحبُّ الأمراء إذا خالطوا العلماء ، ويمقتُ العلماء إذا خالطوا الأمراء ؛ لأنَّ العلماء إذا خالطوا الأمراء رغبوا في الدنيا ، والأمراء إذا خالطوا العلماء رغبوا في الآخرة »[3] الحديث ... لاسيما إذا كان لهم باب الحفظ في المسائل الأخروية . وروى الديلمي أيضًا عن أبي هريرة مرفوعًا : « إذا رأيتَ العالِم يخالط السلطان مخالطةً كثيرة فاعلم أنه لص »[4] اهـ . وأكثره من جمع الجوامع ، والدر المنثور للسيوطي .

وللإمام أبي القاسم الشاطبي صاحب « حرز الأماني » :

قل للإمام نصيحة	لا تـركننَّ إلى فقيـه
إن الفقيـه إذا أتى	أبوابكم لا خير فيه

قال بعضُهم : فإن قلت : ثبتَ عن جماعة من السَّلف الصالح أنهم يأتون السلاطين ، ويدخلون عليهم كالشعبي ، وابن شهاب الزهري شيخ مالك ، ومالك بن أنس ، والقاضي إسماعيل ، وخلقٍ آخرين ممَّن هُمْ أهل الاقتداء والتأسي . قلت : وجه دخول هؤلاء السادات - نفعنا الله بهم -

(١) عزاه صاحب كنز العمال (٢٩٠٨٤) للحاكم في تاريخه، وضعفه المناوي في فيض القدير ٦/ ٣٦٩، والألباني في الضعيفة (٥٢٣٥).

(٢) رواه الرافعي في تاريخه ٣/ ٤٥٠-٤٥١، وقال الألباني في الضعيفة (٣٢٩٩): موضوع.

(٣) ذكره السخاوي في المقاصد ص٦٩٨.

(٤) ذكره السيوطي في الفتح الكبير ١/ ١٠٥ (١٠٥٣)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٥٢٦).

ليس لطلب الدنيا وحطامها، بل لإقامة الدين ورفعة مناره، ورد الظَّلَمة عن الفساد، وإصلاح أمر العباد، حسبما هو ظاهرٌ لكل من علم حالهم، وسمع سيرهم، فقد روينا عن مالك - رحمه الله - أنه لمَّا قيل له: تَدخلُ على السلاطين وهم يظلمون ويجورون؟ فقال: يرحمك الله وأين التكلمُ بالحق في هذا الزمان؟ فوالله يجب على كلِّ رجلٍ، جعل الله في صدره شيئًا من العِلْم، أن يدخل على السلاطين لذلك، فإذا كان هذا، فهو الفضل الذي ما بعده فضل إلى آخر كلامه، فراجعه في كبيرنا.

قال بعض المتأخرين: وقد يحتجُّ بعضُ مَنْ اعتمد الدخول على الظَّلَمة بأنَّ قصْدَه نصرةُ مظلوم، أو مساعدةُ ضعيف، أو ردُّ ظُلْمِهِ، أو التسبُّبُ في معروف، فيدَّعي أنه في ذلك على طريق الأئمة، وجوابُه أنه متى تناول من مطعمهم، أو شاركهم في مقاصدهم، أو أكل من أموالهم المحرَّمة، أو أمنهم في منكرهم، فهذا لا يحتاج الناظرُ في سؤالهم إلى دليل، وكل ذي بصيرة يشهد أنه ضال عن سواء السبيل، ومتى تنزَّه عن ذلك كلِّه، فهو محلُّ اشتباه، ولحاله ميزان يقضي بكماله تارة وبنقصه أخرى، فمتى رأى أنه كمُكره في دخوله عليهم، ويودُّ أنه لو كُفي بغيره، وانتصر المظلوم بسواه، ولو قدم السلطانُ عليه أحدًا وقرَّبه واعتقده، وقام بما كان قائمًا به لما شَقَّ عليه، بل يجدُ له انشراحًا إذا جاره الله من هذه الفتنة العظيمة، فهو صحيح القصد مأجور، ومتى لَمْ يكن كذلك فهو فاسد النية هالك اهـ.

وفي «[ترتيب] المدارك»، قال عتيق بن يعقوب: كان مالك إذا دخل على الوالي وعَظَه، وقال له: بلغني أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لو هلك جمل بشاطئ الفرات ضياعًا لظننتَ أن يسألني عنه يوم القيامة، وكان ينفخُ تحت القدور حَتَّى يخرج الدخان من لحيته، وقد رضي

الناسُ منكم بدون هذا ، فافتقِد أمورَ رعيتك ، فإنك مسؤول عنهم » . قال المناوي في معنى فاحذروهم : خافوهم وتأهَّبوا لما يبدو منهم من الشر ، فإنهم يتقرَّبون إلى السلطان باستمالة قلبه ، وتحسين قبيح فعله ، وما يوافق هواه ، وإن أخبروه بما فيه نجاته استثقلهم ، وأبعدهم ، فمخالطُ السلطان لا يَسْلَم من النفاق والمداهنة ، والخوض في الثناء والإطراء في المدح ، وفيه هلاك الدين اهـ .

ودلَّ صَدْر الحديث الذي ذكرناه على شرف العِلْم وعظمته وفضيلته ، وقد يؤخذ من قوله عليه السلام : « ورثة الأنبياء وأمناء الرسل » أن العلماء الحقيقيين المذكورين في قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر ٢٨) أفضل من الأولياء الذين لَمْ يُؤَهَّلوا لبثِّ العِلْم ونشره ، وكذا من الشُّرفاء الذين لَمْ يُؤهلوا لذلك أيضًا ، وإن كانوا هم أفضلُ من حيث البضع، وهذا هو الحق الذي انفصل عنه الأئمة المقتدى بهم ، فقد سُئل الشَّيْخ الإمام أبو إسحاق الشاطبي عن العالِم والولي ، أيهما أفضل ؟ فقال : إنَّ كلَّ واحد منهما له في الدين رتبة عالية ، فإنَّ الله أثنى على العلماء ، وبيَّن [في] الكتاب والسُّنَّة ما بين العالِم ومَنْ ليس بعالِم ، كقوله – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر ٢٨) ، وقال : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة ١١) ، وقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر ٩) ، وفي الحديث : « من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين »[1] .

وأثنى على أهل الولاية أيضًا ثناءً عظيمًا ووعدهم وعـدًا جميلًا فقال :

(١) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية.

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (يونس ٦٢-٦٣) إلى آخر الآية . ولما بيَّن أنَّ أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون عرفْنَا أيضًا من معنى الآية أنهم ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ (فصلت ٣٠) فقال فيهم : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (فصلت ٣٠) ، وفي الحديث القدسي « من أذى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة » وهذا عظيم ؛ لأنَّه ﷺ بيَّن عن ربه أنَّ وليَّ الله محبوبٌ عنده لتقرُّبه إليه بالنوافل ، وأنه « إذا أحبَّه كان سمْعَه الذي يسمعُ به ، وبصرهُ الذي يُبصر به ، ويدَهُ التي يَبْطِش بها ، ورِجْله التي يمشي بها »[1] الحديث . وهذه رتبة عالية جدًّا ، فربما يحصُل التردُّد في الطلب بين الرتبتين ، ولا شك أن الإنسان لو جمعها لكان هو الأعلى ، ولكانت رتبته لا غاية فوقها ، كما كان الصحابة ﷺ ، فإنه لا يشك ذو دين وعقل أنهم جمعوا بين المرتبتين وفازوا بكلتا المطلبتين ، وكذلك من لحق بهم من التابعين ، ثُمَّ بعد ذلك امتازت الطريقتان ، إذ غلب أحدُ الطرفين لما عسر الجمع ، فخرج إلى جهة العِلْم من وفقه الله إليه ، وصار أغلب أحواله ، ومال إلى جهة الانقطاع إلى العبادة غير العِلْم من هيأه الله له ، فامتازت الطريقتان ، ولَمَّا وُجدت الشريعة تمدحُ كلَّ واحدة من الطائفتين ، والإنسان في هذه الأزمنة ربما لا يقدر على حملها معا ، فيقع السؤال عن الحالتين ، أيهما أفضل فيُعمِلُ النفسَ فيه لعله يفوز بأعلى المراتب في الآخرة ؟

والجواب عن ذلك والله الموفق للصواب : أن هاهنا أصلًا لا بُدَّ من بيانه ، وهو أنَّ الطريقتين في الحقيقة طريقةٌ واحدةٌ ؛ لأنَّ طلب العِلْم والاشتغالَ به من أفضل العبادات التي يُتقرَّب بها إلى الله ، فإن كان من

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة، وقد سبق طرفه.

الفرائض فواضح، وإن كان من النوافل فهو مما قال الله فيه[1] : « ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حَتَّى أحبَّه ، فإذا أحببته كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به وبصرَه الذي يُبْصر به » الحديث . فالمتقرَّب به من الله – تعالى – ، وتقرُّبُه به هو طلبُه ، والعناء في تحصيله ، وبثه وتعليمه ، وروحُه أن يكون عاملًا به، فلا يوقعُ قولًا ولا عملًا إلَّا على مقتضاه ، فإنه إنما أخبرَ اللهُ بدرجات أهل العِلْم بشرط أن يكونوا عاملين به ، بل ربما يُفهم من بعض الأدلة أنَّ العِلْم هو المعمول به ، كما قال – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر ٢٨) .

والعِلْمُ الذي يورث الخشية هو العِلْمُ الذي عُمل به ، بل قد فُسِّر العِلْمُ النافعُ بأنه الخشية ، وتأمَّل قوله – تعالى – : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ (المجادلة ١١) ، فإنه ذكره بعد عمل يُعمَل على حكم جزاء الشرط ، وهو قولُه – تعالى – : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ ﴾ (المجادلة ١١) ، فأشعر بأن العِلْم هو المعمول به ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر ٩) بعد قوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ (الزمر ٩) فجعل هؤلاء هم العلماء ، وأشار إلى أنهم أُولوا الألباب .

وأما الولايةُ فهي ضد العداوة ، فأولياء الله هم الذين تولاهم اللهُ فصاروا أحباءه ، وذلك لأجل ما وصفهم به من الإيمان والتقوى ، وهو بعينه الذي وصف الله به أهل العِلْم ، ألا ترى إلى قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ (فصلت ٣٠) إلى

(١) في الحديث القدسي .

قوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت ٣٣) فالذين دعوا إلى الله هم العلماء ، فالتعليم من جملة أعمالهم الصالحة ، والدعاء إلى الله من نوافلهم التي يحبهم الله عليها ، حَتَّى يبلغوا رتبة من تولاه الله ، ويحوزوا فضل ما وعدهم الله على لسان رسول الله ﷺ ، في قوله : « فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به » إلى آخر ما في الحديث .

لكنْ أصلُ ذلك كلِّه العِلْمُ ؛ لأنَّ العمل إنما يكون عملًا صالحًا بشرط العِلْم بما يعمل ، وإلَّا فليس بعمل ؛ لأنَّ كلَّ عمل ليس عليه أمرُ النبي ﷺ وأصحابه فهو مردود ، فإنَّ العِلْم مع العمل متلازمان ، بحيث يكاد يدخل كلُّ واحد منهما في حدِّ الآخر ، فلا يكون العِلْم عملًا شرعًا إلَّا بالعِلْم ، غير أنهما يختلفان باللقب الغالب ؛ لأنَّهم يسمون العالِمَ من كان غالب أعماله العِلْم، والوليَّ مَنْ كان غالبُ أعماله الانقطاعَ إلى التعبد بغير العِلْم، فإذن كلُّ عالِمٍ وليٌّ ، وكلُّ وليٍّ لله عالِمٌ، فإن قيل : ما ذكرته بالنسبة إلى الوضع الشرعي صحيح في الجملة ، ولكن أي الرتبتين أفضل ؟ فالجواب أن النظر هنا من وجهين ، أحدهما : النظر من جهة الدليل الشرعي في الجملة ، وهو نقلي ونظري، فالنقليُّ كثير وله فيه خصائص لا يوجد مثلُها في الوليِّ ، وكلُّ ما ثبَتَ للوليِّ من الفضائل والخصائص فثابِتٌ للعالِمِ العامل بعِلْمِه ؛ لأنَّه وليُّ الله ، وأما النظريُّ فإنَّ طَلَبَ العِلْم والتعليم لما عدا الفرض من باب فرض الكفاية، فمَنْ قام به فقد قام بفرض ، والانقطاع للعبادة من باب النفل ، والفرضُ من وجه لا يساوي النفل من كلِّ وجه أبدًا ، ووجه ثان : وهو أنَّ صاحبَ العِلْم ينتفع به غيرُه كما ينتفع هو بعِلْمِه ، وصاحبُ الولاية مقصورُ النفع على نفسه ، ولا شك أنَّ النفعَ المتعدي للغير خير من النفع القاصر .

ووجه ثالث : وهو أن زماننا هذا لا ينبغي أن يُختلَف في أنَّ طلبَ العِلْم فيه آكد من غيره لَمَنْ قدر عليه ؛ لأنَّه زمانُ رَفْع العِلْمِ وظهورِ الجهل ، فالعِلْمُ مظنةٌ لبقاء هداية الخلق ، وإحياءِ السُّنَّة ، واستقامةِ الأحوال ، ولا علينا إن وُجد في الدنيا من انقطع للعبادة أم لَمْ يوجد ، ولو عُدِم العِلْمُ لضلَّ الناس ، وصارتْ الأحكامُ جاهلية ، فالقيامُ بالعِلْم أحقُّ من غيره بكثير ، وإذا كان كذلك فالعالِمُ أفضلُ من الولي الذي لَمْ يقعُد في مرتبة العلماء .

والثاني(١) : النظر بالنسبة والإضافة ، وذلك أنَّ الناس في هذا المقام مختلفون ، فمِنَ الناس مَنْ يصلُح لطلب العِلْم ، أكثر مما يصلُح للانقطاع للعبادة وبالعكس ، فإذا كان لبعض الناس من العقل والحِفْظ والتَّهدي للفهم تعين عليه الأخذ فيه ، وتَرْك ما لَمْ يبلغ فيه ذلك المبلغ ، ومَنْ لَمْ يكن له ذلك التَّهدي والفهم ، ولَمْ يَظهر فيه وجهُ نجابة في العِلْم وتحصيله ، كان طلبُ غيره أَوْلَى به ، فإنَّ من الناس مَنْ يكونُ خطؤه أكثرَ من صوابه ، ونسيانُه أكثر من حِفظه ، لكنه يصلُح للانقطاع إلى عبادة ربه ، فهو في حقه أَوْلَى ، وهذا الوجه في الحقيقة ليس بتفضيلٍ لإحدى الرتبتين على الأخرى ، بل هو نَظَر في مناط هل يصلُحُ لتنزيل حكم أم لا .

فإن قيل : إنَّ الناس قد فضَّلوا رتبة الولاية على رتبة العِلْم ، ولم يجعلوا بينهما نسبة ، منهم : أبو حامد الغزَّالي – رحمه الله – وغيره ، بل جعلوا الأكثر من أنواع العِلْم قاطعةً في طريق الله ، بل جعلوا الفقه الذي هو عِلْم الفتاوى والأحكام من علوم الدنيا لا من علوم الآخرة ، كما كان الطب والفلاحة والهندسة من علوم الدنيا ، وعلى هذا فإن الأولياء الذين أخلصوا

(١) الأول النظر من جهة الدليل الشرعي في الجملة .

بَواطنَهم من التعلُّقات الدنيوية ، وصارت قلوبُهم كالمرايا الموجَّه بها شرط الحق ، تَظهرُ على أيديهم من المواهب والكرامات ، ويُكاشَفون بعالَمَ الملكوت العُلوي ، والسُّفلي ، فيُشاهِدون حقائقَ الأشياء على ما هي عليه ، ويُدركون عوالمَ الأرواح ، والملائكة ، والشياطين ، والجنة ، والنار ، وترتيب الآخرة على الدنيا ، إلى غير ذلك مما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خطر على قلب بشر .

والعلماء لَمْ يُذكر عنهم من ذلك شيء ، فهل يستوي مَنْ كان عالمًا بجميع العلوم ، ولَمْ يُفتح له باب الخوارق ، مع مَنْ أُتحف بهذه التحف ، وأُكرم بهذه الكرامات ، وصار في عِداد الملائكة أو كاد ، وعلَّمه اللهُ من لدنه عِلْمًا لَمْ يعلمه إلَّا مَنْ كان مثل هؤلاء ؟ لا يشكُّ عاقلٌ أنَّ الأولياء أرفعُ منزلة، وأعلى رتبة من غيرهم ، فالجواب من وجهين ، أحدهما : أنَّ ما ذكرتموه من الأحوال إنها هو نتائج أحوال ، والنتائجُ من حيث هي نتائج هباتٌ من الله - تعالى - معتبَرَةٌ بمقدِّماتها وهي الأعمال ، فإن كانت الأعمال على الاستقامة فالنتيجة صحيحة ، وإن كان فيها خللٌ فالنتيجة على تلك النسبة ، فلا يُنظَر عند القوم إلَّا إلى الأعمال ، وهو الذي طوَّقَه المكلَّفُ ، وإلى هذا فإنهم يَتركُون الأحوالَ بمنزلة الأمور المحدَثة العادية ؛ لأنَّها خلقٌ من خلق الله ، فلا فرقَ عندهم بين جميع العوالم الظاهرة والباطنة ، فمن هنا ليس من شأنهم السكون إليها ، ولا أن تقصدَ أولًا في السلوك ؛ لأنَّ من شأنهم المثابَرة على تخليص الأعمال من الشوائب كلها ، وإن دقَّتْ .

ويرون أنَّ السكونَ إلى الكرامات وسائر علوم المكاشفة نوعٌ من السكون إلى مخلوق من المخلوقات ، فإن الله - تعالى - أجرى عادتَه فيمن أخلص لله ، وصدق في التوجه إليه أن يجعل له من علوم الآخرة أنموذجًا

علميًّا أو كشفيًّا ، أو ما شاء الله تنتعِشُ به النفس ، ويرتاح له القلب ، وزان ما خلق له في عوائده ، كطيبِ المطْعَم وحلاوته ، ولِين اللِّباس وحُسْنه ، ولَذَّة الوِقاع وطيبه ، كلُّ ذلك تابع لما هو الأصل في هذه الأمور من إقامة الضروريات ، فكأن هذه الأمورَ المستطابة المستعذَبة خادمةٌ للأمور الضرورية ، فكذلك يَرزقُ اللهُ أهلَ التوجُّه إليه للعبادة أنواعًا من الأمور المستلذة ، لكنها تأتي في الغالب غرائبُ على خلاف المعتاد ، تستعذبُها النفس، ويُزاد بها يقينُها في ما هي فيه ، فما ذكره الغزَّالي من هذا القبيل ، إلَّا أن لها شرطًا وهو عدمُ السكون إليها رأسًا ، فإنها – كما تأتي – تقويةٌ لليقين تأتي ابتلاء وتصحيحًا ؛ لينظر كيف تعملون .

فإنْ قبِلها في موضعها ثُمَّ سكن إلى مُهديها شاكرًا له عليها ، ومُترقيًا بها، كان قد أصاب في قبولها ، وإن سكن إليها ، وركن إليها كانت استدراجًا ، والعياذ بالله ، وذلك على وزَّان النِّعم الدنياوية ، وإذا ثبَت هذا فالأمور التي يُكاشَف بها الولي من ملكوت السماوات والأرض داخلٌ تحت هذا التقرير ، والمطلوب من العبد أن يكون على طريق الاستقامة حالة الوَجْد والفَقْد ، فليس وِجدانه لما وجَد وكشْفُه بما كوشف به بزائد في درجاته على الفاقد ، حَتَّى يكون في وجدانه على الشرط المذكور ، وعند ذلك يستوي مع العالِم العامل بعلمه ؛ لأنَّ العالِم أيضًا إذا عمِل بعِلْمِه تحصل له تلك المرتبة على التمام والكمال ، فكل ما أثبته أبو حامد رحمه الله للولي يثبُتُ للعالِم ، من ظهور الكرامات والاطلاع على ما شاء الله من العوالم ، كانت من عوالم الدنيا أو الآخرة ، والعِلْم يأبى له أنه يسكن إلى المخلوقات أو يعتبِرُها إلَّا من حيث علمه العِلْم ، فلا فرق بين السلوك بعِلْم جملة من العبادات ، وبين السلوك بسائر النوافل سوى العِلْم .

والوجه الثاني إنما ذكروه من المواهب للوليِّ ليست على اللزوم، بحيث يُقال: لا بد لكلِّ سالكٍ أن توهبَ له تلك الأمور التي نص عليها في كتابه على الخصوص، وليس في كلامه ما يدلُّ على ذلك، بل نحن نعتقد أنَّ الصحابة ﷺ لَمْ يبلغ أحدٌ من بعدهم مستواهم(١) في العِلْم والولاية، ولَمْ يُنقل عنهم من تلك الأمور التي أشار إليها شيءٌ من الأشياء من نوع الكرامات [إلا] قليل. نعم الذي جرتْ به العادة فيمن اتَّقى الله - تعالى - أن يضع له في قلبه نورًا يفرق فيه بين الحق والباطل في كل شيء، وهو الفرقان الذي ذكر الله - تعالى - إذ قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال ٢٩)، وقال -تعالى- : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت ٦٩)، وقال - تعالى - : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة ٢٦٩).

وهذا النور من شأنه أن يخرق ظواهر الأشياء الظاهرة إلى بواطنها؛ لأنَّه لو لَمْ يَخْرِقْ ذلك لما كان فرقانًا. ألا ترى أن للأشياء ظواهرَ وبواطن، وقد تكونُ ظواهرُها بخلاف(٢) بواطنها، فمِنْ شأنِ هذا النور الموضوع في القلب أن يصلَ إلى بواطن الأشياء الظاهرة، فيرى صاحبُه الحقَّ من الباطل فيها، وهذا الإدراكُ في الأشياء هو إذْنُ ملكوت الأشياء، وإليه - والله أعلم - الإشارة بقوله -تعالى- : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام ٧٥)، إلَّا أنَّ كلَّ واحد وما فتح له، فالأنبياء - عليهم الصلاة والسَّلام - نالوا ذلك على التمام، ومَنْ سواهم

(١) هذا المصطلح (المستوى) مستحدث لا أظنه كان يستخدم في عصر المؤلِّف؟! فتأمل.
(٢) في الأصل: باختلاف.

فعلى قدره ، وإذا تقرَّر هذا فكلُّ صاحبِ نحوٍ أو صناعةٍ أو عِلْم إذا كان متقيًا لله - تعالى - ، عاملًا بما عَلِم ، يُفتحُ له من ملكوت ما هو فيه ما شاء الله أن يفتح له ، فالصانع يرى ملكوت صناعته ، والنحوي يرى ملكوتَ نحوه ، والفقيه يرى ملكوت فقهه ، وسائر الحِرَف والنِّحل يرى أصحابُها ملكوتَها ، ويكون هو البابُ إلى رؤية ملكوت السماوات والأرض ، على حسب ما هيئ له في ذلك من قليل أو كثير .

فلا يظنُّ الظان أنَّ رؤية عالم الملكوت إنما يحصل على نوع واحد ، ولا أنه مخصوص بمن انقطع للتعبُّد بالنوافل ، بل رؤيةُ عالم الملكوتِ أعمُّ مما أخبروا به ، وإنما الذي أخبروا به نوعٌ خاص من أنواع تحصى ، كذلك يرى أيضًا من انقطع إلى الله لطلب العِلْم أو تعليمه ، أو الاشتغال به أو بالجهاد ، أو بالصدقة ، أو بأكثر ذلك أو بجميعه ، والدليل على صحة هذه الجملة أن الصحابة - رضوان الله عليهم - أولُ مَنْ نال هذه الرتبة ، وسيرتهم معلومة، ولَمْ يكن فيهم من اختص بالتعبد بالنوافل دون العِلْم ، ولا بالعِلْم دون الجهاد ، ولا بالجهاد دون النوافل ، بل كانوا آخذين في الكل ، عاملين بكل شعبة من شعب الإسلام .

وكذلك مَنْ بعدهم ممَّن اشتهر بالولاية من التابعين وغيرهم ، وقد كان الجُنَيد يُفتي على مذهب أبي ثور ، وكان الشِّبْلي مذكِّرًا يعقد المجالس ، ويتكلَّم على الناس ، وكان الحارث المحاسِبي مَن قد علِمْتَ ، إلى غير هؤلاء ممَّن اشتهر أنه من أولياء الله ، بل الشَّيْخ أبو حامد قد شهد للأئمة الأربعة بأنهم ممن نال من عِلْم الباطن ما ناله الأولياء ، كما أنه لَمْ يبلغنا عن أحد من الصحابة ، ومَن بعدهم إلمامٌ بهذا النوع من الكشف الذي ذكره الشَّيْخ

أبو حامد ، فدلَّ على أنَّ الأمرَ أوسعُ مما ذكره ، وإذا كان كذلك رجعنا إلى أولى الطرق في نيل مرتبة الولاية ، وقد مر أنه العِلْم ، إلَّا أن لذلك شرطًا ، وهو العمل به على التمام ، وإنما يتفاوتُ الناسُ في الأخذ بهذا الشرط ، فكثير من العلماء يجعلون مجرد العِلْم هو الوسيلة إلى النجاة ، ولا يلتفتون إلى أنَّ أشدَّ الناس عقابًا يوم القيامة عالمٌ لَمْ ينفعْه اللهُ بعلمه ، وعدم النَّفع به هو تَرْكُ العمل به .

[العِلْمُ والعَمَلُ]

ولم تتفاوتْ مراتبُ علماءِ السَّلف مع علماء الخلف في الوصول إلى هذه الرتبة ، في الجملة إلَّا لتفاوتهم في العزيمة على أخذهم بهذا الشرط خاصة ، ومن أجْل تَرْكِ كثيرٍ منهم لشرط العمل بعِلْمهم تفوَّقتْ إليهم سهام النقد ، وانطلقتْ فيهم ألسنةُ العَتْب ، وأبو حامد - رحمه الله - من أشدهم في ذلك مبالغة ، حَتَّى جعل فقه الفروع والأحكام من علوم الدنيا ، وإنما ذلك لما رأى في أهل زمانه من طلبهم الدنيا من المال والجاه ، فعِلْم الفروع والجدل وغيرهما ممَّا يقوِّي الظهورَ على الخصوم والغلَبة في المناظرة ، فلو أخذوا العِلْمَ بشرطه وهو العملُ بما علموا ، لكانوا هُمْ الأولياء حقًّا ، ولنالوا ما ناله أولياء الله الذين ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٣٨) .

ولا يقال : إن العوارضَ الصادة عن طريق الآخرة في رتبة العِلْم ، أعظمُ منها في رتبة الولاية ، فلذلك فلا تجدُ عالمـًا عاملًا بعلمه على شاكلة السَّلف الصالح ، بخلاف طلب الآخرة بغيرِه فإنه أسهلُ لقلَّة العوارض فيه ؛ لأنَّا نقول ليس كما زعمت ، بل طلب الدنيا والمال والجاه وغيرِ ذلك ،

دعوى[1] رتبة الولاية مثلها بدعوى رتبة العِلْم ، ولذلك تجد في القبيلتين من الطلاب كثيرًا ، ولا تجد منهم من تخلّص بحكم الظاهر عن تلك الشوائب إلّا قليلًا ، فهم سواء في هذا المعنى ، فالذي تلّخص مما تقدم أنَّ الاشتغال بالعِلْم طلبًا وتحفظًا وتعليمًا ونشرًا ، إذا أُخذ بشرطه لا توازيه مرتبة الولاية أصلا ، فهذا ما ظهر تقييدُه بحسب الوقت والحال في المسألة المسؤول فيها ، والله الموفق للصواب اهـ .

وقال الإمام سعد الدين في « شرح المقاصد » وقد تطابق الكتاب والسُّنَّة والإجماع على أن الفضل للعِلْم والتقوى ، قال الله – تعالى – : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات ١٣) ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر ٩) ، وقال : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة ١١) . وقال ﷺ : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إنما الفضل بالتقوى »[2] ، وقد قال ﷺ : « إن فضل العالِمِ على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »[3]، و « إن العلماء ورثة الأنبياء » ، وقال ﷺ : « فضل العالِمِ على العابد كفضلي على أدناكم »[4] ، وقال ﷺ : « مَنْ سلك طريقًا يلتمس فيها عِلْمًا سلك الله

(١) في (أ) : فوق .

(٢) رواه الطيالسي في مسنده ٢/ ٣٠٤، وأبو الشيخ الأصبهاني في جزء أحاديث أبي الزبير عن غير جابر ص٦٤ من حديث سهل بن سعد، وضعفه ابن حجر في لسان الميزان٢/ ٤٢، والألباني (٥٨٦).

(٣) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء، واللفظ لأبي داود، وصححه ابن حبان ١/ ٢٨٩، والألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي إمامة الباهلي، وقال: حسن غريب صحيح. وقال المناوي في فيض القدير ٤/ ٤٣٢: وفيه الوليد بن جميل لينه أبو زرعة. وقال القاري في مرقاة المفاتيح ٢/ ١٢٦: فيه مبالغة لا تخفى. وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٨١).

به طريقًا إلى الجنة »[1] . فإن قيل : يكادُ يقوم الإجماع على أنَّ غير القُرشي ليس بكفء للقُرشي وهذا يدل على أنَّ القُرشي ، سيما الهاشمي ، سيما العلوي ، سيما الفاطمي أفضلُ من غيره ، وإن اختص بالعِلْم ، قلنا : اعتبار الكفاءة في النكاح لتحصيل غرض الأولياء ، وعدم لحوق العار ، ونحو ذلك مما يتعلق بأمر الدنيا ، والكلامُ في الفضل عند الله ، وكثرة الثواب ، وعلو الدرجة في الجنة ، وهل يُتصوَّرُ فضلُ أحاد القُرشيين بل العلويين على علماء الدين ، وعلماء المجتهدين .

فإن قيل : قال الله – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب ٣٣) ، وقال النبي ﷺ : « إني تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وعِترتي »[2] أهل بيتي ، وقال ﷺ : « إني تارك فيكم المنقذَين كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتابه واستمسكوا به وأهل بيتي أُذكِّركم الله في أهل بيتي أُذكِّركم الله في أهل بيتي أُذكِّركم الله في أهل بيتي »[3] . ومثل هذا يُشعر بفضلهم على العالِم وغيره ، قلنا : نعم لاتِّصافهم بالعِلْم والتقوى وشرف النسب ، ألا ترى أنه ﷺ قرنهم بكتاب الله في كون التمسُّك بهما منقذًا من الضلالة ، ولا معنى للتمسُّك بالكتاب إلَّا للأخذ بما فيه من العِلْم والهداية ، فكذا في العترة .

ولذا قال ﷺ : « مَنْ أبطأ به عملُه لَمْ يُسرع به نسبه »[4] انتهى كلام

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة، والرواية: سهل الله له به طريقًا إلى الجنة.
(٢) رواه الترمذي (٣٧٨٦) من حديث جابر، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني بشواهده في الصحيحة (١٧٦١).
(٣) رووا مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم.
(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة.

السعد - رحمه الله تعالى - ، وينبغي أن يُعلم أنه ليس المرادُ بالعلماء في الحديث كلَّ مَنْ يُطلق عليه اسم العالِم عند الناس، وإنما المراد بهم أهلُ العِلْم النافع.

وفي « شرح الحكم » لسيدي محمد بن عباد ﷺ ، قال في « التنوير » في قوله ﷺ « طالب العِلْم تكفَّل اللهُ برزقِه »[1] : اعلم أنَّ العِلْمَ حيث ذُكر في الكتاب العزيز وفي السُّنَّة ، إنما المرادُ به العِلْم النافع الذي تُقارنه الخشية وتكتنفه المهابة ، قال الله - سبحانه - : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر ٢٨) ، فبيَّن أنَّ الخشيةَ تُلازمُ العِلْم ، وفُهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية ، وكذا قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ (القصص ٨٠) ، ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ (آل عمران ٧) ، ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه ١١٤) ، وقوله ﷺ : « إن الملائكة لتضع أجنحتَها رضًا لطالب العِلْم »[2] ، وقوله « ورثة الأنبياء » ، وقوله هنا : « طالب العِلْم تكفَّل اللهُ برزقه » إنما المرادُ بالعِلْم في هذه المواضع ، العِلْم النافع ، والقاهر للهوى ، القامع للنفس ، وذلك يتعينُ بالضرورة ، فإن كلامَ الله وكلام رسول الله ﷺ أجلُّ من أن يُحمل على غير هذا ، وقد بيَّنا ذلك في غير هذا الكتاب .

والعِلْم النافع هو الذي يُستعان به على طاعة الله ، ويُلزِمُكَ المخافة من الله والوقوف على حدود الله ، وهو عِلْم المعرفة ويشمل العِلْم بالله والعِلْم بما أمر به الله إذا كان تعلُّمه لله اهـ . وقال في « لطائف المنن » : « أيُّما عِلْمٍ

(١) لم أقف عليه مسندًا، وذكره ابن الحاج في المدخل ٢/١٠٣، والصفوري في نزهة المجالس ٢/٣١٢.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء، وقد سلف منه جزء «إن فضل العالم».

تكون معه الرغبةُ في الدنيا ، والتملُّق لأهلها ، وصرْفُ الهمَّة لاكتسابها ، والجمع ، والادخار ، والمباهات ، والاستكثار ، وطول الأمل ، ونسيان الآخرة ، فما أبعد من هذا العِلْم علمه أن يكون من ورثة الأنبياء ، وهل ينتقلُ الموروثُ إلى الوارث إلَّا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه ؟ » . انتهى المراد منه .

قلت : تأمَّل يا أيها المُنكِر النافي لكرامات الصالحين ، فقد بيَّنا لك الأجوبة على جواز ذلك ، فصلًا فصلًا إن كنت ذا بصيرة ، وقد بيَّنا طريقَ الولاية والعِلْم ، وما ذكره أهلُ العِلْم في حالهم ، وما جاء به الكتاب والسُّنَّة في تفضيلهم ، وتفاوت درجاتهم ، ولا خلاف عند القوم أنَّ كلَّ عالم يعمل بعِلْمه يقال فيه فقيرًا ، ولو لَمْ يتصوَّف تصوُّف القوم ، وفي هؤلاء القوم وأمثالهم يقول الغوث العارف بالله سيدي أبو مدين بن شعيب ﷺ : [بسيط]

ما لـذةُ العيش إلَّا صحبةُ الفقرا ... همُ السلاطينُ والساداتُ والأُمرا
فاصحبْهمُ وتـأدبْ في مجالسهمْ ... وخلِّ حَظَّـكَ مهما خَلَّفُوكَ وَرَا
ولازم الصَّمْتَ إلَّا إن سُئلت فقلْ ... لا عِلْمَ عندي وكنْ في الصمت مُسْتَتِرا
وراقِبِ الشَّيْخَ في أحوالِهِ فعسى ... يُرَى عليكَ مِن استحسانِهِ أثَرا
واعلمْ بأنَّ طريقَ القومِ دارسةٌ ... وحالُ من يدَّعيها اليوم كيف تَرا
فاستغنمِ الوقتَ واحضرْ دايًما معهمْ ... واعلمْ بأنَّ الرِّضا يخصُّ من حضَرا
وإن بدا منك ذنبٌ فاعترفْ وأَقِمْ ... وجهَ اعتذارك عمَّا فيك منك جَرا
وقُلْ : عُبيدُكُمُ أَوْلَى بصفحِكُمُ ... فسامحوا وخذوا[1] بالعفو يا فُقَرا

(١) في (ج) : جدوا .

هُمْ بالتفضُّل أَوْلَى وهو شيمتُهُمْ فلا تخفْ منهمُ ضنكًا ولا ضرَرا
وبالتفتي عن الإخوان جد أبدًا حسًّا ومعنىً وغضَّ الطرف إن عثَرا
ولا ترى العيبَ إلَّا فيكَ معتقدًا فإنَّه بيِّنٌ لو لَمْ يكنْ ظهَرا
وحطَّ رأسَك واستغفرْ بلا سببٍ وقمْ على قَدَمِ الإنصاف معتذرا
متى أراهم وأنَّى لي برؤيتهم أو تسمع الأذنُ مني عنهم خبَرا
من لي وأنَّى لمثلي أنْ يزاحمهمْ على مواردَ لَمْ يؤلفْ لها كَدَرا
قومٌ كرامُ السَّجايا أينما جلسوا يبقى المكانُ على آثارهم عَطِرا
يهدي التصوفُ من أخلاقهم طُرَفا حسنُ التَّصرفِ فيهم راقني نظَرا
فكم تنشَّقتُ من أنفاسهم نفسًا أذكى من المسك أنفاسًا إذا انتشَرَ
أُحِبُّهم وأُداريهم وأُوثِرُهم بمهجَتِي وخُصُوصًا مِنْهُمُ نَفَرا
هُمْ أهلُ وُدِّي وأحبائي الذين عَلَوْا عَمَّنْ يجرُّ ذيولَ العزِّ مُفْتَخِرا
لا زالَ شَمْلِي بِهِمْ في الله مُجتمعًا وحُبُّنا فيهِ مَوْفورًا ومُغْتَفَرا
بجاهِ سَيِّدِنا المختارِ صلَّى عليـ ـه اللهُ ما صادقٌ أوفى بما نَذَرا

فهؤلاء الفقراء المحقِّقون ، وأما المتشبِّهون بهم فإن كان قصدُهم الالتحاقَ بهم ، ويكون ذلك بالأخذ في طريقهم ، واتباع سبيلهم ، فهم ملتحقون بهم حسبما يشهد لذلك ما خرَّجه أبو داود عن ابن عمر بإسناد جيد ، والطبراني في الأوسط عن حذيفة بإسناد حسن ، « مَنْ تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم »[1] ، وقال المناوي : « إن مَنْ تزيَّا في ظاهره بزيِّ الصلحاء ، وهو من أتباعِهِم يُكرَمُ كما يُكرَمُون ، ومَنْ تَشَبَّهَ بالفُسَّاقِ يُهان ويُعَزَّر » . انتهى

(١) المعجم الأوسط ٩/١٧٩، قال الهيثمي في المجمع: وفيه علي بن غراب وقد وثقه غير واحد وضعفه بعضهم، وبقية رجاله ثقات. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤٩).

قال شيخ مشايخنا سيدي أحمد زرُّوق - رحمه الله - في « العدة » التي هي عدة المريد : « قال المشايخ - رحمهم الله تعالى - : وكلُّ تشبهٍ لا يصاحبه عمل فهو تلبيس ، وليس بتشبيه . اهـ »[1] ، وإن كان قصدُهم دفْعَ ضرر فلا بأس به ، قال في العدة : « أباح الله سبحانه التزيَّ لدفع الشرور ، فقال جلَّ من قائل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ (الأحزاب ٥٩) ، فأخذَ منه العلماء جوازَ المرقَّعة ، والعكاز ، والسبحة ، والمحفظة بالكتاب ، واللوح ، ونحو ذلك لدَفْع الضرر في الأسفار ونحـوها ، لا لجلْب فائدة البتـة ، فاعرف ذلك اهـ[2] .

وإن كان القَصد جلب شهوة نفسانية ، وإظهارَ صفة دون التحقُّق بشروطها فممنوع ، ولا عبرة به ، والتسليم أَوْلَى لهم في كلِّ ما لا يقتضي العِلْمُ إنكاره ، وذلك على ضربين ، أحدهما : ما يُقِرُّ به الناس ويعتقدونه كذلك ، فهذا كلُّه لا يُنكره أحدٌ على أحد . والثاني : ما يعتقدون قُبحَه ونقْصَ المتَّصِفِ به لعارض غلَب عليه ، وهو الذي يحتاجُ إلى التنبُّه له والتوصية ، فترْكُ إنكارِك كترْكِ الحِرَفِ ، ومجانبة الأسباب ، فإن الناس يُنقِّصون صاحبَ ذلك ، ويحمِلونه على العجز والكسل ، ويتَّهمونه بالطمع والتشوُّفِ إلى ما في أيدي الناس ، وكلَبْسِ المرقَّعات ، فإنهم يروْن أنَّ صاحبَه اتخذَه شبكة يصطاد بها ، وجعله بابًا للسؤال ، ومسلكًا للاغترار ، مع أنه قد يكون كذلك ، وقد لا ، فإن السَّلامة في التسليم ، فمَنْ انتسب لطريق القوم ، وانتسب إليهم سُلِّم له حاله في مثل ذلك ، وما وَجه إنكاره

(١) وليس بتشبيه : زيادة عما في العدة ص ٢٠١ .
(٢) العدة ، ص ٢٠١ .

- أي مما لا يباح - بوجه ، كالمُنكر المجمَع عليه عند أئمة المذاهب الأربعة ، أنكر عليهم برفق ولين ، مع اعتقادك كما لهم » انتهى .

قلت : هذا إذا لم يعارضْك أمير أو مأمور ، أو تترتَّبُ لك مفسدةٌ أو فتنةٌ من الفاعل ، لا سيما إنْ كان له عصبةٌ متَّفقين على الحمية الجاهلية ، فتقعُ في مُنكَر أعظم من منكَر الفاعل ، إما أن يضربوك أو يُؤذوك ، فالتسليم أَوْلَى ، كما أنَّ مذهبَ القوم مبنيٌّ على التسليم لكل برٍّ وفاجر ؛ لأنَّ مِنْ شرط النصيحة القبول ، ومَنْ لَمْ يقبل لا خير فيه ، والخير كله في اتباع الرسول ﷺ ، وأما ما ذكره الشَّيْخُ في كثير من نصائحه ومرائيه من قوله : أذِن الله - تعالى - والنبي ﷺ في قوله : « إنَّ مَنْ رآني ورأى مَنْ رآني إلى تسعة وعشرين جَدًّا حَرَّمَ الله جسده على النارِ »[1] ، وفي رواية : « ولو شئت لأطلقتها إلى يوم القيامة » ، ثم يسكُتُ ويُطلق ذلك بلا قيد حصول فائدة ذلك ، باتباع السُّنَّة والحق والصواب .

وذكر أنَّ مَنْ اتَّكل على رؤيته ، وظن أنها تنفعه من غير اتباع الطريقة المحمدية - على صاحبها أفضل الصَّلاة والسَّلام - ، وخالف الحق والصواب ، واتبع هواه فهو على غير شيء ، ولا يغرنَّك كلامُ بعض الأهباش القائلين لأولاد الشَّيْخ : « أنتم في شلَّامة أبيكم مرفوعون » ، فإن القائل بذلك في[2] الضلال المبين ، مع أن الشلَّامة لا يُرفع فيها إلَّا التبن ، بل اعلم أنه لا يَسبق بك نسبُك إذا أخرَّك عملُك ، واعلم [أن] كل ما تسمعُه من كلام الشَّيْخ من المدح والتبشير لأولاده وفقرائه فهو مقيَّدٌ بالمتبع للسُّنَّة ،

(١) لم أرَ ذلك في نصائحه الصحيحة ، وإذا أضفنا قيد اتباع السُّنَّة والحق والصواب فإن حصول المطلوب واقعٌ بفضل الله سبحانه .

(٢) في (أ) : فهو .

فإن الله ﷻ وعَدَ سيدَنا نوحًا ﷺ بسلامة أهله ، فلمَّا أنْ باعدت ابنَه المعاصي وغرق ، قال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ﴾ (هود ٤٥) فأجابه الحق - تعالى - بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾ (هود ٤٦) ، فواخجلتاه ووافضيحتاه إن قال الشَّيْخ - الذي عشنا نتقلَّب في العافية ببركته غدا في مجتمع الخلائق - : هو من أهلي ، وقيل له : إنه ليس من أهلك، إنه عملٌ غيرُ صالح ، هذا مع أن الشَّيْخ في نصائحه يقول في كثير من الخصال : إنَّ مَنْ خالف ليس هو منِّي ولا أنا منه ، يعني من لا يتبعُ السنَّة المحمدية ، ومنهاج الطريقة العروسية ، فلا ينفعه ما أقول من التبشير؛ لأنَّ المعصية تزيل النعمة والبركة ، وقد يعاقب اللهُ صاحبَها في الدنيا بأشد العقوبة .

فهلَّا رأيتَ ما وقع لمولانا عثمان الحفصي أمير تونس في توْليته إياها ، مع أنه كان من كبار العلماء المشهورين بالعِلْم والعمل والعدل ، فقُدِّر أنْ حَدَثَ له حادث شيطاني على أنْ يستعمِلَ مائدةً مشتمِلةً على خمر وما يناسبُه، فلمَّا استعملها وأضاء القناديل وغلق الأبواب ، وأراد المعصية ، دخل عليه سيدي فتح الله بنُ يوسف العجمي من غير باب إلى أنْ وقف قُدَّامه ، وجعل يهددُه بهذه الأبيات وهي : [زجل]

تكشطت ازوتير تُضَـمْ بسَنَد يدي سَند يدي أم

بتخدودي تخـدودي أم أم أبرمـوا أم برمـوا أم

تُقَادُ سِرَاج سِرَاجِ سَرَمْ بكنِدِ كِنِـدِ نديـد جـرم

قال الحاكمي : فأخذ دواية له وكاغد ، وقيَّد تلك الأبيات حين ذلك ، وحار في أمره ، وجعل يوبِّخ نفسَه ويبكي إلى أن أصبح الصباح ، فصلى

وسبَّح وأمر بحضور العلماء ، وقرأ عليهم تلك الأبيات بنية تفسيرها ، فقالوا له : هذه أبيات عجمية فلا عِلْم لنا بمعرفة تفسيرها ، فالذي قالها هو يفسِّرها على لسان العرب ، فردَّها للشيخ سيدي فتح الله وطلب منه أن يفسِّرها له ، فقال - رحمه الله - : يا أمير المؤمنين يتعيَّن عليك أن تقيِّدَ هذه النعمة التي أولاك مولاك إياها بالشكر بالقلب والجوارح ، فإنك إن لَمْ تقيِّدها ، بل استعنتَ على معاصي الله بنعمِه ، خيف عليك زوالها ، وعليك بمواظبة الأوقات ، وبالمداومة على الذِكْرِ والتسبيح ، ثُمَّ شرع في شرحها نظمًا فقال - رحمه الله ونفعنا به آمين - : [متقارب]

إِذَا كُنْتَ ذَا نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِعَمْ
وَقَيِّدْ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الإِلَـهِ ... فَإِنَّ الإِلَهَ سَرِيـعُ الـنِقَمْ
إِذَا تَمَّ أَمْـرٌ بَدَا نَقْـصُــهُ ... فَعَجِّلْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمْ

قال الحاكمي : فمِنْ ذلك اليوم تاب سيدنا عثمان الحفصي ، واعترفَ بذنبه ، ولَمْ يفعل من تلك المعاصي شيئًا إلى أن توفاه الله -والله تعالى أعلم-. وقد رأيتُ أن أقتصر على ما ذكرتُه من وفاة الشَّيْخ وشطْحَته وما يناسبُها من الأدلة وكلام القوم ، فما تقدَّم فإنَّ فيه كفاية ، ومَنْ أراد أكثرَ من ذلك فعليه بكبيرنا فليتتبَّعه ، فإنه يجد فيه ما يسرُّه ويَشفي فيه غليله، والله أعلم .

[من المرائي المنسوبة للشَّيْخ الأسمر]

ولا بأس أن أُثبت هنا رؤيا من رؤياه استطرادًا - أعنيْ رؤية الشَّيْخ الذي هو مولانا عبد السَّلام ، الذي نحن بصدده وبالكلام عليه - ، وهي من جملة ما أكرمه اللهُ به ، وهي من الأمر الشائع عند الناس في المشارق

والمغارب ، حَتَّى إن العوام من المؤمنين يقولون : إن سيدنا عبد السَّلام صعد للسماء ، يظنون أنه صعد ببدنه ، وذلكم ما لا يمكن ادعاؤه لغير الأنبياء – عليهم الصَّلاة والسَّلام – وأما الأولياء فإنما يُسْرَى بسرِّهم إلى حيث قدَّر الله لهم من العالَم العلوي ، كما هو مبسوط في كتبهم ﷺ .

واعلم أن لهذا الشَّيْخ رؤياتٍ عديدةٍ غير هذه ذكرناها في الكبير ، فإن أردت ذلك فراجعه ، وهذه أملاها عليَّ الشَّيْخ كلمة كلمة ، وتبيَّن لي بعد موته أن فيها بعض لَحْن ، وأظنُّه من يدي عن الكتب بعجلة ، ولم أَقْدر أن أُغير لفظه ، قال – رضي الله عنه ونفعنا به في الدارين آمين – : « بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، الحمد لله الذي نوَّر قلوبَ العارفين بنوره ، وصالَح قلوبَ الصادقين بعفوه وسروره ، محيي العظام وهي رميم ، حافظِ عبده بحفظه من جميع الآفات . مَنْ بيده السكون والحركات ، لا شريك له في ملكه ، ولا مدبِّر معه في الخلق ، يُعطي ويمنع ويُعز ويُذل ، لا عزيز غيره ولا قادر مثله ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم كثيرًا أثيرًا دائمًا إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإنا ذات يوم بين منام ويقظة ، تحدَّثتْ نفسي عن القُطبانية ، وعن الوصول ، وعن الشوق ، وعن الذوق ، وعن الوَجْد والتقرب ، وعن التدريج ، وعن المدد ، وعن أهل الطاعة ، وكيف التقرُّب إلى الله تعالى ؟ وكيف المعرفة وحضْرة القدس ، والكؤوس فيها والشراب ؟ وكيف تداولُ الكيسان بين الرجال ؟ وكيف يسقي بعضُهم بعضًا ؟ وكيف الرجال الذين يطيرون في الهواء ؟ وكيف سببُ سِرِّهم الذي يطيرون به ؟ وكيف أهل الخطوة وأهل التصريف وأهل الغطوس ؟ ففتح الله بصيرتي حَتَّى نظرتُ

أهل السعادة وأهل الشقاوة ، أعوذ بالله من الشقاوة وأهلها ، ثُمَّ شيعتُ بصري ، وإذا أنا في أرضٍ ليس فيها عمارةٌ ولا مخلوقاتٌ إلَّا رجل واحد ، فلمَّا أبصرته كأنَّ نفسي نكِرته ، وخِفْتُ وجَزِعْتُ منه ، وأعطيته بالقفا - يعني ولَّيت هاربًا - وأنا أقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ومن السيئات كلها .

فما أتممتُ كلامي حَتَّى قَرُب لِي ذلك الشخص ، فقلت : اللهم سيدي ومولاي، إن كنت عبدَك وابن عبدَك وابن أمتَك ، وأنا على عهدَك ووعدَك، وتابع طريقتك ، فمُرْ ملائكتك المقربين يأتوا لعبدك ، وينزلوا قبل طرفة عين ، يأتوا بسلسلة من سلاسل قدرتِك ، أَشُدُّها(١) في يدي بأمرك ، وفضلِك على عبدك وكرمك وجودك ، بغير جهد مني ولا قوة ، يَرفعوني ويُصعدوني عن هذا الشخص الذي أرعبني ، فما أتممتُ مقالتي ، وما نطق به لساني ، وإذا بسلسلة نصفُها أبيض ونصفُها أصفر ، فناداني منادٍ من قِبَل الله ﷻ : اضرِبْ يدَك في السلسلة وامسكها مسكًا مليحًا واصعد ، فضربتُ يدي في السلسلة وصَعَدتُ وأنا مُتعجِّل مرتعب خائف ، لست مطمئنًا من ذلك الرجل، فما نهضتُ حَتَّى ضرب يده في السلسلة من تحتي ونهض معي، فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن السيئات كلها ، ونهضت بإذن الله - تبارك وتعالى - وحُسن عونه .

فحملتني قدرة الله - تعالى - وأنا مُتعجِّل واقف كأنني راكب نخلة ، شادٌّ - يعني ماسك بيدي ورجلي - ، خشيت على نفسي بعد أن عييت وتُهت ، وارتخى جناحي ، وأنا في الهواء معلَّق ، فالتفتُّ فإذا بالرجل مازال

(١) في الأصل : نشدها بنون المتكلمين بدل الهمزة ، وذلك أكثر استعمالات المخطوط للفعل المسند إلى الفاعل المفرد .

معي متقرِّب إليَّ ، فنهضتُ بإذن الله - تبارك وتعالى - وأنا أقول : أعوذ بالله من الشك والشرك ، ومن السيئات كلها ، ومن الشيطان الرجيم ، ثُمَّ قلت: يا ربي أتوسل بسيدنا ونبينا محمد ﷺ ، كما قدَّرْتَ عليَّ بهذا الأمر وهذا السبب ، وهذا الرجل جعلتَهُ لي سببًا حَتَّى طلبتُك ، وصعدْتَني في هذا المقام المحمود بغير جهد مني ولا قوة ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم ، فاجعل لي قوة ، وأرسل عليَّ ملائكةً يُصعدوني ويُقرِّبوني حَتَّى نصل المقام المحمود ، فنادى عليَّ منادٍ من قِبَل الله : شُدَّ وتَقَرَّب ، واعزِمْ ولا تلتفتْ ، وأَبْشِر من الله - تبارك وتعالى - بما طلبتَه وقصدْتَه ، فأعطاك وحفظك وجازاك ، وجعل كلَّ عين تراك ترضاك ، وجعل جنة الفردوس منزلك ومأواك .

ثُمَّ جعل الله عليَّ سهوًا ، وإذا بي في بحر سماء الدنيا ، فنظرتُه فإذا هو أزرقُ غريقٌ ليس فيه موجٌ إلَّا ماء راكد بإذن الله - تعالى -[1] ، يمشي مشي السحاب ، فبكيت بكاءً شديدًا ، وخفت خوفًا عظيمًا ، وحار أمري ، وضاق صدري ، وباح سري ، والتفتُّ إلى الأرض مُصوِّبًا ، وإذا هي كالخردلة في الأرض . فقال لي قائل : أتدري ما بينك وبين الأرض ؟ فقلت: يا سيدي لا نعلم ، إن الله هو اللطيف الخبير . فقال لي : نعم ، بينك وبينها خمسمائة عام ، فقلت : أوَحْشتاه وَاغُرْبتاه ، يا خبيرًا لا غيرُه خبير ، ويا بصيرًا لا غيرُه بصير ، ويا سميعًا لا غيره سميع ، ويا أنيسًا لا غيرُه أنيس ، ويا دليلاً لا غيرُه دليل ، احفظني واحفظ ذريتي ، وأصحابي ، وأمة سيدنا

---

(١) القول بأن السماء الدنيا ماء راكد : ليس له ما يسنده في القرآن ولا في السنة ، ولا في العلم الطبيعي ، ولكنا بصدد رؤيا ، وصاحبها لا يُكذَّب في ما تهيأ له منامًا وإن خالف المنطق والظاهر، ولا يصدق لأنه مخالف للواقع ، والله أعلم .

محمد ﷺ ، بما حفظت به عبادك الصالحين ، ودُلَّني عليك يا مولاي ، أنت الغني ، وأنا الفقير ، لا منجا ولا ملجأ منك إلَّا إليك، فآنِسْ غُرْبَتي، وفرِّج كُربَتي، وأبعد ضيقَتي ، واصرف روعَتي ، واقْبل دعوَتي ، وهَبْ لي التوفيق والحفظ والعناية .

فقال لي منادٍ : غمِّض بصرك ، وحضِّر قلبك ، وثبِّت عقلك ، وامْسِك يدك ، ولا تنظر تحتك ولا خلفك ، ولا عن يمينك ولا عن شمالك ، ففعلت كيف أمرني ، وقلت : يا مؤنس كلِّ غريب ، يا مقرب كل بعيد ، يا الله يا نصيرَ كلِّ وحيد ، قرِّبني بما قربت به عبادك الصالحين ، واجعل أمري هذا بتوفيقٍ منك لي ولذريتي وأصحابي ، سببَ سعادة ليس هي نقمة ، وسببَ جبر ليس هو كسر ، وسببَ لباس ليس هو سلب ، وسببَ عِلْم ليس هو جهل ، وأمرًا ربانيًا ليس هو شيطانيًا ، وأن تجعله سببَ حفظ لي ولذريتي ولإيماني وسمعي وبصري وأولادي وأصحابي ومالي ودنياي وآخرتي ، ولأمة سيدنا محمد ﷺ أجمعين ، فما أتممتُ كلامي إلَّا وإذا بقائل يقول لي : زِدْ وتقربْ وابسُطْ قلبَك وقوِّ عزمَك ، لا محا اللهُ من اللوح اسمك .

فإذا طبقةُ السماء على أكتافنا أنا وذلك الرجل ، وكأنها سحابٌ كبير في ليلة شاتية مظلمة ، عن يميننا وعن شمالنا ، وهي حاملتنا ، وقد ضاقت نفسي ، فقلتُ يا سيدي ومولاي : أما تأتني بالفرج ، وتعمل لي مخرجًا ، فانفتحت لي الطبقة ، وارتفعت حَتَّى بقيتُ أشبح عن يميني وعن شمالي ، وأمامي ، فخررتُ أنا وصاحبي سُجَّدًا لله – سبحانه – ، ونُحس الطبقة مازالت على أكتفانا، تنوشنا نوشًا يسيرًا فحملتنا قدرة الله -تبارك وتعالى-، وإذا نحن في وسط سماء الدنيا ، وهو سماء أبيض وله نورٌ أبيض ، وفيه

سائحون من الملائكة يقدِّسون الله ويهلِّلونه، وفيه ملائكة لله لا يرفعون رؤوسهم إلى يوم القيامة.

فقلت: يا ربِّ أسألُك بما سألك به محمد ﷺ، إن كان هذا الأمر وهذا التصعُّد وهذا الانفتاح منك ورضيته لي، وفيه رضاك لنا في الدين والدنيا والآخرة، وعاقبته خير، لا غيار، وعاقبته أنوار وأسرار، ليس عاقبة نكد ولا سلب ولا أكدار، ولا عاقبة تكبر ولا رياء، ولا فخْر ولا رضى بالنفس، ولا كذب، ولا أيمان حوانث، ولا بهتان ولا جهل، ولا محال، ولا قول ولا قال، ولا رخص ولا بخس، ولا نسيان ولا فتنة، ولا فقر ولا قهر، ولا تلاطم دهر، ولا ارتداد قلوب، ولا ظهور عيوب، ولا خوف خلق، ولا همُّ رزق، ولا هوى متبع، ولا شحٌ مطاع، ولا غفلة ولا شك، ولا شرك ولا كفر، ولا علة ولا قلة، ولا ذلة، ولا وساوس إنسية ولا جنية، ولا شياطين أرضية ولا سماوية[1]، ولا هوائية، ولا ترابية ولا مائية ولا لبسية، فصبِّرني، وأرسل إليَّ ملائكتك تحملُني بقدرتك، وتحفظني بحفظك، حَتَّى ما نعصيك طرفة عين ولا أقل من ذلك.

فقال لي قائل: غمِّض بصرك، وحضِّر قلبك، وقوِّ عزمك، وافسخ إرادتك لإرادة ربك تبلغ مرادك، وتنلْ إرشادك، وتُجْلِ أنكادك، بحس اعتقادك، فأصابتني سِنَةٌ، فانفتح لي السماء الثاني، فإذا أنا فيه بخير، فقلتُ: اللهم إن كان هذا الذي رفعَتْني قدرتُكم من الأرض إلى السماء، وأبى أن يغدُوَ، أي يذهب، وأنا أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، إن كان هو ملِكًا أو رجلاً صالحًا فقرِّبه مِنِّي، أستأنس به، ولا لي أنيس إلَّا أنت، يا

(١) في الأصل: سمائية.

ربَّ كلِّ شيء ، فما أتممتُ قولتي إلّا وهو عن يميني ، ونحن ساجدان[1] لله ، الكتف بالكتف ، وارتقينا من السماء الثاني ، إلى السماء الثالث ، ثُمَّ إلى السماء الرابع ، ثُمَّ إلى السماء الخامس ، ثُمَّ إلى السماء السادس ، ثُمَّ إلى السماء السابع ، ثُمَّ إلى سدرة المنتهى[2] .

وكلُّ سماء نُقاسي فيه مشقة عظيمة، وأمرًا عظيمًا عجيبًا يطولُ ذكره ، فجلسنا متربِّعين على مقاعدنا ، فإذا بقائل يقول : يا عبد السَّلام[3] ليس هو بشيطان، بل هو عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وعن أصحاب رسول الله أجمعين ، أرسله الله إليك لتستأنس به ، فقلت : اللهم لبيك وسعديك على ذلك الذي أرسلته إليَّ، وأنا مرعوب خائف، وآنستَني بخير خلقك إيمانًا وصدقًا ، فالتفتُّ عن يميني وعن شمالي ، فإذا برجل فوقي على كتفي الأيسر ، عليه ثياب بيضاء ، وعمامة[4] بيضاء ، ليس هي كبيرة ، وهو مربع القد ، رقيق الشفتين ، صغير الأنف ، في غاية الحُسن ، كبير الهذوب ، حواجبه كأنها مخطوطة بالقلم ، حسن الجواب .

فقال لي : زدْ وارْقَ وتقرَّب تنلْ اختيارك ، وما قصدتَ فيه ربك ، فقلت : يا سيدي مَنْ هو أنت الذي آنستني ووعَّيتني من هذه الدهشة ؟ فقال لي : أنا حبيبك محمد ﷺ ، يا محبَّ المحبين ، يا أقرب المتقرِّبين ، فغمِّض بصرَك تحمِلُك قدرة الله - تعالى عَزَّ وجَلَّ - لمقام المحبوبين ، فقلت : يا

---

(١) في الأصل : ساجدون ، ووضع الجمع موضع المثنى من آثار اللهجة في مؤلفات هذا العصر ، وهو كثير نبهنا إلى بعضه .

(٢) هذا الخيال يتتبع رحلة الإسراء والمعراج ، فيتهيأ لصاحبه أنه وصل إلى ما وصل إليه رسول الله ﷺ .

(٣) في (ج) : يا عبد الله .

(٤) في (أ) : زمالة .

سيدي كيف هو مقام المحبوبين والمتقرِّبين ؟ فقال : تقرَّب وزِدْ تنظرهُم ، فقلت له : يا سيدي أما تطلب ربي يريني مقام سيدي عبد القادر الجيلاني ، وسيدي أبو مدين ، وسيدي عبد الرزاق ، ومقام الصالحين ، وأولياء الله أجمعين ، ومقام سيدي إبراهيم الخليل ، وأنبيائه وأصفيائه ؟ فقال لي : كلهم في مقام الجنة العليا ، وكلهم في أكله وشربه ، وكلهم بدرجته ، وكلهم بسريره وقصره في الجنة ، فرضي الله عنهم ورضوا عنه ، فقلت له : يا سيدي كيف الشراب؟ فقال لي: هو لبن في الجنة. فقلت له يا سيدي : كيف الخمر؟ فقال : خمر أهل الجنة .

فقلت له يا سيدي : كيف الكؤوس ؟ فقال لي : هو ما اشتاق إليه القلب من المحبة ، فقلت له : يا سيدي كيف المحبة ؟ وكيف الذوق ؟ فقال: هو ما اشاق إليه القلب من الجوارح وتَرَك الشهوات المذمومات . فقلت له : يا سيدي فما الوَجْد وما أهل الوَجْد ؟ فقال : الذين يجدون محبة الله والكتاب والسُّنَّة ، فقلت له : يا سيدي فما الوصل ؟ قال : ما وصلوا به بالقلب ، والتصديق ، والكمال ، والنية المخلصة لله – سبحانه – ، فقلت له: يا سيدي ما التصريف وأهل التصريف؟ فقال: الذين يتصرَّفون في طاعة الله ورسوله ، ولا يُعجبون بأنفسهم ، ولا يكذِّبون بالبعث ، ولا باللقاء ، ولا بالموت ، ولا بالحياة ، فسألتُه فأراني مقامَ أهلِ التصريف ، وأهل الخطوة ، وأهل الغطوس ، والطيارين ، وأهل العِلْم ، وأهل الذكر ، وأهل التطوع ، وأهل الصفوة ، وأهل الموائد ، وأهل الذكر وأهل التسليم ، وأهل السُّنَّة وأهل العقيدة ، وأهل الشوق وأهل الذوق ، وأهل الطرب وأهل المعاني ، وأهل الحسد وأهل الكبر والرياء المنتسبين لغير الله ورسوله ، والنهامين ،

والذين يمزقون في أعراض الناس ، فهم في أسفل السافلين ، في خمسة طباق من طباق جهنم ، مع اليهود ، أعاذنا الله وإياكم من الشقاوة وأهلها .

فنظرتُ عن يميني فإذا أنا وإياه ساجدان الكتف بالكتف ، لله - تبارك وتعالى - ، قلت له : نطلب من الله - تبارك وتعالى - العفو والعافية في ديني ودنياي وآخرتي ، وأولادي وأصحابي ، وأمّة سيدنا محمد ﷺ أجمعين ، فقال: أَبْشِر . فقال لي منادٍ من فوقي : أيها العبد الطالب الراغب ، الذليل الحقير الخائف ، غير المطمئن ، المرتجي عفو مولاه ، أَبْشِر بالخيرات ودار النعيم ، أنتَ وذريتك وأصحابك وجيرانك ، ومَنْ رآك ، ورأى مَنْ رآك بقلب خالص ، وعقيدة بالغة إلى تسعة وعشرين جَدًّا ، وأهل قرابتك أجمعين ، من الإناث والذكور ، والأحياء والأموات ، فعفا الله عنك وعنهم أجمعين ، وجعلك الله وإياهم تحت ظلال العرش يوم لا ظل إلَّا ظله ، ولا عرش إلَّا عرشه .

ثُمَّ قال : أَبْشِر من الله بالعفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ، حَتَّى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، فقلت له : يا سيدي أما تُريني مقام الواصلين ، وبما وصلوا واتصلوا وانقطعوا لله -تبارك وتعالى-، وانصلحوا ؟ .

فقال لي : بالمعرفةِ لله - تبارك وتعالى - ، والنيةِ الطيبةِ الصالحةِ ، والتَّصديق والتَّسليم والعقيدة ، والزهد في الدنيا الدنية ، والمراقبةِ والصمتِ عن النطق الذميم، وبالأدب وحسن الجواب، واتباع ما فرض الله -تعالى-، وملازمة الأوراد والخلوات عن الناس ، وتَرْكِ الحرام والكلام في الناس ، وقلةِ رضى النفس والكبر والرياء ، والشك والشرك ، وخوف الخلق ، وهمّ

الرزق، وإلهام الشهوات المذمومات، وسبقُ العناية والسعادة للعبد مكتوبةٌ في اللوح المحفوظ بقلم القدرة بإذن الله -تبارك وتعالى-، وبتدرُّجٍ، وعِلْمٍ، وعمل، وأمر، ونهي، ونفي، وصبر، بالشوق والذوق والصيام والقيام، والتوفيق من الله -تبارك وتعالى- للعبد، والتحقيق، والتصديق، ومشاهدات، وعادات، ودرجات، وكؤوس ممزوجات في الحضرة العلية، بسُكْر، وعشق، وحال، ونار تمزق القلوب، ونورٍ في القلب، ونورٍ يَكْسي العبدَ بالمحبة لله ورسوله ﷺ، بحُسْن اعتقاد ليس معه انتقاد.

فهذه شروطُ مقام الواصلين، وبها وصلوا واتصلوا بالله - تبارك وتعالى - من الأعمال المفروضات على العبد، ثُمَّ قال لي: نعم المعرفة لله - تبارك وتعالى - بالنية والصدق، فقلت له يا سيدي: أما تتوسَّلُ إلى ربي يغفرُ لي ولوالديَّ ولذرِّيتي وأصحابي ولِمَنْ يعرفُني، فإني يا سيدي، عملي وفعلي ليس بمليح، وأنا عبدٌ كذاب عاصٍ ناسٍ خاطئ غافل، ليس لي قول ولا فعل مليح، فتشفع فيَّ عند الله - تبارك وتعالى -، وسل لي ربي يغفر لي، فإنِّي أشفقتُ وخفتُ من النار، فقال لي: اصعد وتقرَّب وأَبْشِر بالخيرات، وَترك المُنْكرات، فالله - تعالى - غفر لك ذنبك، ما تقدم منه وما تأخر.

فقلت له: يا سيِّدي، ذريتي وأصحابي وأزواجي، وأمَّة سيدنا محمد ﷺ أجمعين، فقال: غفر الله لك ولهم، ووجَّهك فيهم. فقلت له: يا سيدي، مَنْ رآني ورأى مَنْ رآني من الأحياء والأموات والحاضرين والغائبين، فقال لي: غفر الله لك ولهم بجوده وكرمه على عباده، فقلت: اللهم لبيك وسعديك، اللهم لك الحمد ولك الشكر، يا ربِّ، فقال لي: اصْعد وتقرَّب، وغمِّض بصرك، فغمَّضتُ بصري، فحمَلَتْني قدرةُ الله

ﷺ ، فإذا أنا في أرض المحبوبين ، فقلت : اللهم لبيك ، ولك الحمد ولك الشكر .

فقال لي : اطلُبْ وزِدْ . فقلت له : اطلبُ من الله التوفيق والعفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ، في ديني وفي بدني وفي بصري ، وفي أولادي وعيالي وأصحابي ، وأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليمًا ، فقال لي : غفر الله لك ولهم ووجَّهك فيهم ، فقلت : اللهم لك الحمد ولك الشكر يا ربِّ ، ثُمَّ قلت : أُبَشِّرُ أُمَّةَ سيدنا محمد ﷺ ؟ فقال لي : بشِّرهم . فقلت له : يُكَذِّبُوني ، لو أعطيْتَني أمارةً لهم لعلهم يصدِّقوني ، فقال لي : مَنْ صدَّق بهذه الرؤية فهو من الصادقين ، ويُحشر معي في أعلى عِلِّيين ، ومَنْ كذَّب بهذه الرؤية فهو في الدنيا والآخرة من الخاسرين المهلَكين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا . انتهى ما أردنا جلبه من رُؤياه رضي الله عنه وأرضاه .

وأما ما رأى غيرَه مما فيه التبشير له ولأهل جنابه ، فهو كثيرٌ جِدًّا ، ذكرنا بعضه في الكبير ، وهذا آخر ما يَسَّرَ اللهُ من الكلام في هذا الباب ، والله وليُّ التوفيق ، والقادرُ عليه ، وهو حسبُنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

* * *

الأثبات

ثبت الآيات القرآنية

* * *

ثَبَت الأحاديث النبوية (*)

(*) ملحوظة : الأحاديث التي تكررت بأطراف مختلفة ذكرنا مواضعها عند أشهر الأطراف وأحلنا الأطراف الأخرى عليها.

* * *

ثَبَت الآثار (*)

الأثـــر	القائل	الصفحة
أخذتُ عن رسول الله ﷺ جرابين من العلم	أبو هريرة	٤١٥
إذا رأى أحدُكم رؤيا فقصَّها	عمر بن الخطاب	٦٣٢
إذا كنت مشتاقًا إلى رؤية النبي ﷺ	علي بن أبي طالب	٦١٥
ارجعوا لعل الله يرزقكم صلاةً أو تهجدًا	عمر بن الخطاب	٦١٧
إن الذي يفتي الناس في كل ما يسألونه لمجنون	ابن مسعود	٢٦٥
إن بين جنبي علم لو قلته لخضبتم هذه من هذه	علي بن أبي طالب	٤١٥
إنهما كانا يتفقان ليجربا	ابن مسعود	٦٢٩
إني لأعلم علمًا لو أبوح به	علي بن أبي طالب	٤١٥
إني لأعلم ما في قوله تعالى	ابن عباس	٤١٤، ٤١٥
السمر على ثلاثة أوجه	علي بن أبي طالب	٦١٧
الصمت حكم وقليل فاعله	أبو الدرداء	٢٦٠
الصمت حكم وقليل فاعله	لقمان	٢٦٠
الصمت زين العالم وستر الجاهل	(سفيان بن عيينة)	٢٦٥
فكأنما وقع في حجري ثلاثة أقمار	عائشة	٦١٤
لا تسبوا أهل الشام جمًّا غفيرًا فإن بها الأبدال	علي بن أبي طالب	٥٠٣
ما من داع يدعو إلا كان بين إحدى ثلاث	زيد بن أسلم	٢٨٢
مَنْ صلى صلاة التسابيح بعد صلاة الظهر	عمر بن الخطاب	٦١٥
مَنْ صلى صلاة العتمة	الحسن البصري	٦١٥
من صلى هذه الصلاة لم يظمأ	عمر بن الخطاب	٦١٦
من كذب في حلم	عيسى عليه السلام	٦٢٨
نظر محمد إلى ربه مرتين	ابن عباس	٦٠٣
والذي نفسي بيده من صلاها قضى الله حاجته	عمر بن الخطاب	٦١٥

* * *

(*) الآثار التي لم ينسبها المؤلف إلى قائليها أثبتنا اسم القائل بين قوسين .

ثَبَت الأعلام

(خ)

(ش)

* * *

ثَبَت البلدان والأماكن

* * *

ثَبت الطرق الصوفية

* * *

ثَبَت الفرق والملل والجماعات والقبائل

* * *

ثَبَت الغزوات

* * *

ثَبَت اللُّغات

* * *

ثَبَت الأشعار

* * *

ثَبَت الأزجال

* * *

ثَبَت الكتب والمؤلفات

* * *

ثمن النسخة :

- داخل مصر : ٦٠ جنيهًا .
- خارج مصر : ٢٥ دولارًا أمريكيًا ، شاملة نفقات البريد .

المراسلات : ص.ب : ٨٧ الدقي - القاهرة - ج. م. ع.
الهواتف : ٥/ ٣/ ٣٧٦١٦٤٠٢ / ٠٠٢٠٢
الفاكس : ٣٧٦١٦٤٠١
البريد الإلكتروني : m_makhtoutat@maktoob.com
المقر : ٢١ ش المدينة المنورة - نهاية محيي الدين أبو العز - المهندسين .